
إبراهيم القطان

تيسير التفسير للقطان ١٤٠٤ هـ

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ٢٩
الطابع الزمني: ٢٠٢٣-٠٣-٢٩-١٧-٠٠-٠٩
المكتبة الشاملة رابط الكتاب

المحتويات

٥	الفاتحة	١
٥	1	١.١
٧	البقرة	٢
٧	1	٢.١
٨	3	٢.٢
٩	6	٢.٣
٩	8	٢.٤
٩	11	٢.٥
١٠	17	٢.٦
١١	21	٢.٧
١٢	26	٢.٨
١٣	28	٢.٩
١٣	30	٢.١٠
١٦	35	٢.١١
١٨	38	٢.١٢
١٨	40	٢.١٣
٢٠	44	٢.١٤
٢١	47	٢.١٥
٢١	49	٢.١٦
٢٢	54	٢.١٧
٢٢	55	٢.١٨
٢٢	56	٢.١٩
٢٢	57	٢.٢٠
٢٣	58	٢.٢١
٢٣	60	٢.٢٢
٢٣	61	٢.٢٣
٢٤	62	٢.٢٤
٢٤	63	٢.٢٥
٢٤	65	٢.٢٦
٢٤	67	٢.٢٧
٢٥	74	٢.٢٨
٢٦	75	٢.٢٩
٢٦	77	٢.٣٠
٢٦	80	٢.٣١
٢٧	82	٢.٣٢
٢٧	83	٢.٣٣

٢٨	84	٢٠٣٤
٢٨	87	٢٠٣٥
٢٨	89	٢٠٣٦
٢٩	92	٢٠٣٧
٢٩	93	٢٠٣٨
٣٠	94	٢٠٣٩
٣٠	97	٢٠٤٠
٣٠	99	٢٠٤١
٣٠	101	٢٠٤٢
٣١	104	٢٠٤٣
٣١	106	٢٠٤٤
٣٢	109	٢٠٤٥
٣٢	111	٢٠٤٦
٣٣	113	٢٠٤٧
٣٣	114	٢٠٤٨
٣٣	115	٢٠٤٩
٣٣	116	٢٠٥٠
٣٣	118	٢٠٥١
٣٤	120	٢٠٥٢
٣٤	121	٢٠٥٣
٣٤	122	٢٠٥٤
٣٥	124	٢٠٥٥
٣٥	125	٢٠٥٦
٣٥	127	٢٠٥٧
٣٦	130	٢٠٥٨
٣٦	133	٢٠٥٩
٣٧	135	٢٠٦٠
٣٧	139	٢٠٦١
٣٨	142	٢٠٦٢
٣٨	144	٢٠٦٣
٣٩	145	٢٠٦٤
٣٩	146	٢٠٦٥
٣٩	147	٢٠٦٦
٣٩	148	٢٠٦٧
٣٩	149	٢٠٦٨
٤٠	151	٢٠٦٩
٤٠	153	٢٠٧٠
٤٠	155	٢٠٧١

٤١	158	٢٠٧٢
٤١	159	٢٠٧٣
٤٢	161	٢٠٧٤
٤٢	163	٢٠٧٥
٤٢	164	٢٠٧٦
٤٣	165	٢٠٧٧
٤٤	168	٢٠٧٨
٤٤	171	٢٠٧٩
٤٤	172	٢٠٨٠
٤٥	174	٢٠٨١
٤٥	177	٢٠٨٢
٤٧	178	٢٠٨٣
٤٨	180	٢٠٨٤
٤٨	183	٢٠٨٥
٥٠	186	٢٠٨٦
٥٠	188	٢٠٨٧
٥١	189	٢٠٨٨
٥١	190	٢٠٨٩
٥١	194	٢٠٩٠
٥٢	195	٢٠٩١
٥٢	196	٢٠٩٢
٥٣	197	٢٠٩٣
٥٣	198	٢٠٩٤
٥٣	200	٢٠٩٥
٥٤	204	٢٠٩٦
٥٤	208	٢٠٩٧
٥٥	210	٢٠٩٨
٥٥	211	٢٠٩٩
٥٥	212	٢٠١٠٠
٥٦	213	٢٠١٠١
٥٦	214	٢٠١٠٢
٥٧	215	٢٠١٠٣
٥٧	216	٢٠١٠٤
٥٧	217	٢٠١٠٥
٥٨	218	٢٠١٠٦
٥٨	219	٢٠١٠٧
٥٩	220	٢٠١٠٨
٥٩	221	٢٠١٠٩

٦٠	222	٢٠١١٠
٦٠	224	٢٠١١١
٦١	226	٢٠١١٢
٦١	228	٢٠١١٣
٦٢	229	٢٠١١٤
٦٣	230	٢٠١١٥
٦٣	231	٢٠١١٦
٦٣	232	٢٠١١٧
٦٣	233	٢٠١١٨
٦٤	234	٢٠١١٩
٦٤	235	٢٠١٢٠
٦٥	236	٢٠١٢١
٦٥	238	٢٠١٢٢
٦٦	239	٢٠١٢٣
٦٦	240	٢٠١٢٤
٦٦	243	٢٠١٢٥
٦٧	244	٢٠١٢٦
٦٧	245	٢٠١٢٧
٦٧	246	٢٠١٢٨
٦٧	248	٢٠١٢٩
٦٨	253	٢٠١٣٠
٦٨	254	٢٠١٣١
٦٨	255	٢٠١٣٢
٦٩	256	٢٠١٣٣
٦٩	257	٢٠١٣٤
٦٩	258	٢٠١٣٥
٧٠	259	٢٠١٣٦
٧٠	260	٢٠١٣٧
٧١	261	٢٠١٣٨
٧١	262	٢٠١٣٩
٧٢	265	٢٠١٤٠
٧٢	266	٢٠١٤١
٧٢	267	٢٠١٤٢
٧٢	268	٢٠١٤٣
٧٣	269	٢٠١٤٤
٧٣	270	٢٠١٤٥
٧٣	271	٢٠١٤٦
٧٤	272	٢٠١٤٧

٧٤	274	٢٠١٤٨
٧٤	275	٢٠١٤٩
٧٦	277	٢٠١٥٠
٧٦	278	٢٠١٥١
٧٧	281	٢٠١٥٢
٧٧	282	٢٠١٥٣
٧٨	284	٢٠١٥٤
٧٨	285	٢٠١٥٥
٧٩	آل عمران	٣
٧٩	1	٣٠١
٨٠	5	٣٠٢
٨٠	7	٣٠٣
٨٠	8	٣٠٤
٨١	10	٣٠٥
٨١	12	٣٠٦
٨١	14	٣٠٧
٨١	15	٣٠٨
٨٢	18	٣٠٩
٨٢	21	٣٠١٠
٨٣	23	٣٠١١
٨٣	26	٣٠١٢
٨٣	27	٣٠١٣
٨٣	28	٣٠١٤
٨٤	29	٣٠١٥
٨٤	30	٣٠١٦
٨٤	31	٣٠١٧
٨٥	33	٣٠١٨
٨٥	38	٣٠١٩
٨٦	42	٣٠٢٠
٨٦	45	٣٠٢١
٨٧	49	٣٠٢٢
٨٨	52	٣٠٢٣
٨٨	55	٣٠٢٤
٨٨	59	٣٠٢٥
٨٩	62	٣٠٢٦
٨٩	64	٣٠٢٧
٩٠	65	٣٠٢٨
٩٠	67	٣٠٢٩

٩٠	69	٣.٣٠
٩٠	70	٣.٣١
٩٠	72	٣.٣٢
٩١	75	٣.٣٣
٩٢	77	٣.٣٤
٩٢	106	٣.٣٥
٩٢	108	٣.٣٦
٩٢	110	٣.٣٧
٩٣	111	٣.٣٨
٩٣	113	٣.٣٩
٩٣	116	٣.٤٠
٩٣	118	٣.٤١
٩٤	119	٣.٤٢
٩٤	121	٣.٤٣
٩٥	123	٣.٤٤
٩٦	129	٣.٤٥
٩٦	130	٣.٤٦
٩٦	134	٣.٤٧
٩٧	137	٣.٤٨
٩٧	139	٣.٤٩
٩٨	142	٣.٥٠
٩٨	144	٣.٥١
٩٩	146	٣.٥٢
٩٩	149	٣.٥٣
١٠٠	152	٣.٥٤
١٠١	153	٣.٥٥
١٠١	154	٣.٥٦
١٠٢	155	٣.٥٧
١٠٢	156	٣.٥٨
١٠٣	159	٣.٥٩
١٠٤	160	٣.٦٠
١٠٤	161	٣.٦١
١٠٤	162	٣.٦٢
١٠٥	164	٣.٦٣
١٠٥	165	٣.٦٤
١٠٦	166	٣.٦٥
١٠٦	167	٣.٦٦
١٠٦	168	٣.٦٧

١٠٦	169	٣٠٦٨
١٠٧	172	٣٠٦٩
١٠٧	175	٣٠٧٠
١٠٧	176	٣٠٧١
١٠٧	178	٣٠٧٢
١٠٨	179	٣٠٧٣
١٠٨	180	٣٠٧٤
١٠٨	181	٣٠٧٥
١٠٩	184	٣٠٧٦
١٠٩	185	٣٠٧٧
١١٠	186	٣٠٧٨
١١٠	187	٣٠٧٩
١١٠	188	٣٠٨٠
١١١	190	٣٠٨١
١١٣	196	٣٠٨٢
١١٣	199	٣٠٨٣
١١٤	200	٣٠٨٤
١١٤	النساء	٤
١١٤	1	٤٠١
١١٥	3	٤٠٢
١١٥	4	٤٠٣
١١٦	5	٤٠٤
١١٦	6	٤٠٥
١١٦	7	٤٠٦
١١٧	8	٤٠٧
١١٧	9	٤٠٨
١١٧	11	٤٠٩
١١٨	12	٤٠١٠
١١٩	13	٤٠١١
١١٩	15	٤٠١٢
١١٩	16	٤٠١٣
١٢٠	17	٤٠١٤
١٢٠	19	٤٠١٥
١٢١	20	٤٠١٦
١٢١	22	٤٠١٧
١٢١	23	٤٠١٨
١٢٢	24	٤٠١٩
١٢٢	25	٤٠٢٠

١٢٣	26	٤٠٢١
١٢٣	29	٤٠٢٢
١٢٤	31	٤٠٢٣
١٢٤	32	٤٠٢٤
١٢٤	33	٤٠٢٥
١٢٥	34	٤٠٢٦
١٢٥	35	٤٠٢٧
١٢٥	36	٤٠٢٨
١٢٦	37	٤٠٢٩
١٢٦	40	٤٠٣٠
١٢٧	41	٤٠٣١
١٢٧	43	٤٠٣٢
١٢٨	44	٤٠٣٣
١٢٨	46	٤٠٣٤
١٢٩	47	٤٠٣٥
١٢٩	48	٤٠٣٦
١٢٩	49	٤٠٣٧
١٢٩	51	٤٠٣٨
١٣٠	54	٤٠٣٩
١٣٠	56	٤٠٤٠
١٣٠	58	٤٠٤١
١٣١	59	٤٠٤٢
١٣٢	60	٤٠٤٣
١٣٣	64	٤٠٤٤
١٣٣	66	٤٠٤٥
١٣٣	69	٤٠٤٦
١٣٤	71	٤٠٤٧
١٣٤	74	٤٠٤٨
١٣٤	76	٤٠٤٩
١٣٥	77	٤٠٥٠
١٣٥	78	٤٠٥١
١٣٥	79	٤٠٥٢
١٣٥	80	٤٠٥٣
١٣٦	82	٤٠٥٤
١٣٦	83	٤٠٥٥
١٣٧	84	٤٠٥٦
١٣٧	85	٤٠٥٧
١٣٧	86	٤٠٥٨

١٣٨	87	٤.٥٩
١٣٨	88	٤.٦٠
١٣٩	91	٤.٦١
١٣٩	92	٤.٦٢
١٤٠	93	٤.٦٣
١٤٠	94	٤.٦٤
١٤١	95	٤.٦٥
١٤١	97	٤.٦٦
١٤٢	100	٤.٦٧
١٤٢	101	٤.٦٨
١٤٢	102	٤.٦٩
١٤٣	104	٤.٧٠
١٤٣	105	٤.٧١
١٤٤	109	٤.٧٢
١٤٤	110	٤.٧٣
١٤٤	111	٤.٧٤
١٤٤	113	٤.٧٥
١٤٤	114	٤.٧٦
١٤٥	116	٤.٧٧
١٤٦	122	٤.٧٨
١٤٧	123	٤.٧٩
١٤٧	126	٤.٨٠
١٤٧	127	٤.٨١
١٤٨	128	٤.٨٢
١٤٨	129	٤.٨٣
١٤٩	131	٤.٨٤
١٤٩	134	٤.٨٥
١٤٩	135	٤.٨٦
١٥٠	137	٤.٨٧
١٥٠	140	٤.٨٨
١٥٠	142	٤.٨٩
١٥٠	144	٤.٩٠
١٥١	148	٤.٩١
١٥١	150	٤.٩٢
١٥١	152	٤.٩٣
١٥١	153	٤.٩٤
١٥٢	154	٤.٩٥
١٥٢	155	٤.٩٦

١٥٢	156	٤.٩٧
١٥٣	159	٤.٩٨
١٥٣	160	٤.٩٩
١٥٣	162	٤.١٠٠
١٥٣	163	٤.١٠١
١٥٣	167	٤.١٠٢
١٥٤	170	٤.١٠٣
١٥٤	171	٤.١٠٤
١٥٥	173	٤.١٠٥
١٥٥	174	٤.١٠٦
١٥٥	176	٤.١٠٧
١٥٦	المائة	٥
١٥٦	1	٥.١
١٥٦	2	٥.٢
١٥٧	3	٥.٣
١٥٧	4	٥.٤
١٥٨	5	٥.٥
١٥٨	6	٥.٦
١٥٨	7	٥.٧
١٥٨	8	٥.٨
١٥٩	9	٥.٩
١٥٩	11	٥.١٠
١٥٩	12	٥.١١
١٦٠	14	٥.١٢
١٦٠	15	٥.١٣
١٦٠	17	٥.١٤
١٦١	18	٥.١٥
١٦١	19	٥.١٦
١٦١	20	٥.١٧
١٦١	22	٥.١٨
١٦١	24	٥.١٩
١٦١	25	٥.٢٠
١٦٢	27	٥.٢١
١٦٢	30	٥.٢٢
١٦٢	31	٥.٢٣
١٦٣	32	٥.٢٤
١٦٣	33	٥.٢٥
١٦٤	35	٥.٢٦

١٦٤	36	٥.٢٧
١٦٤	38	٥.٢٨
١٦٥	41	٥.٢٩
١٦٧	44	٥.٣٠
١٦٧	45	٥.٣١
١٦٨	46	٥.٣٢
١٦٩	48	٥.٣٣
١٦٩	49	٥.٣٤
١٧٠	51	٥.٣٥
١٧١	52	٥.٣٦
١٧١	53	٥.٣٧
١٧١	54	٥.٣٨
١٧٢	55	٥.٣٩
١٧٢	57	٥.٤٠
١٧٣	59	٥.٤١
١٧٤	64	٥.٤٢
١٧٦	67	٥.٤٣
١٧٦	68	٥.٤٤
١٧٧	69	٥.٤٥
١٧٧	70	٥.٤٦
١٧٨	72	٥.٤٧
١٧٨	76	٥.٤٨
١٧٨	78	٥.٤٩
١٧٩	82	٥.٥٠
١٨١	87	٥.٥١
١٨١	89	٥.٥٢
١٨٢	90	٥.٥٣
١٨٣	92	٥.٥٤
١٨٤	94	٥.٥٥
١٨٥	97	٥.٥٦
١٨٥	98	٥.٥٧
١٨٦	101	٥.٥٨
١٨٧	103	٥.٥٩
١٨٧	104	٥.٦٠
١٨٧	105	٥.٦١
١٨٨	106	٥.٦٢
١٨٩	109	٥.٦٣
١٨٩	110	٥.٦٤

١٨٩	112	٥.٦٥
١٩١	116	٥.٦٦
١٩٤	الأنعام	٦
١٩٤	1	٦.١
١٩٥	4	٦.٢
١٩٦	7	٦.٣
١٩٧	10	٦.٤
١٩٧	12	٦.٥
١٩٩	17	٦.٦
١٩٩	20	٦.٧
٢٠٠	25	٦.٨
٢٠٠	27	٦.٩
٢٠١	30	٦.١٠
٢٠١	33	٦.١١
٢٠٢	36	٦.١٢
٢٠٣	38	٦.١٣
٢٠٣	40	٦.١٤
٢٠٤	46	٦.١٥
٢٠٥	50	٦.١٦
٢٠٥	51	٦.١٧
٢٠٦	54	٦.١٨
٢٠٧	56	٦.١٩
٢٠٧	59	٦.٢٠
٢٠٨	63	٦.٢١
٢٠٩	65	٦.٢٢
٢٠٩	68	٦.٢٣
٢١٠	71	٦.٢٤
٢١١	74	٦.٢٥
٢١٢	80	٦.٢٦
٢١٣	84	٦.٢٧
٢١٤	91	٦.٢٨
٢١٥	93	٦.٢٩
٢١٦	95	٦.٣٠
٢١٩	100	٦.٣١
٢٢٠	104	٦.٣٢
٢٢٠	105	٦.٣٣
٢٢٢	108	٦.٣٤
٢٢٢	109	٦.٣٥

٢٢٣	111	٦.٣٦
٢٢٣	114	٦.٣٧
٢٢٤	116	٦.٣٨
٢٢٤	118	٦.٣٩
٢٢٥	120	٦.٤٠
٢٢٦	122	٦.٤١
٢٢٦	124	٦.٤٢
٢٢٧	125	٦.٤٣
٢٢٧	126	٦.٤٤
٢٢٧	128	٦.٤٥
٢٢٨	130	٦.٤٦
٢٢٩	133	٦.٤٧
٢٣٠	136	٦.٤٨
٢٣٠	137	٦.٤٩
٢٣١	141	٦.٥٠
٢٣٢	142	٦.٥١
٢٣٢	143	٦.٥٢
٢٣٣	145	٦.٥٣
٢٣٣	146	٦.٥٤
٢٣٤	148	٦.٥٥
٢٣٤	151	٦.٥٦
٢٣٧	154	٦.٥٧
٢٣٨	158	٦.٥٨
٢٣٨	159	٦.٥٩
٢٣٨	160	٦.٦٠
٢٣٩	161	٦.٦١
٢٤٠	الأعراف	٧
٢٤٠	1	٧.١
٢٤١	4	٧.٢
٢٤١	6	٧.٣
٢٤٢	10	٧.٤
٢٤٢	11	٧.٥
٢٤٣	19	٧.٦
٢٤٤	26	٧.٧
٢٤٤	28	٧.٨
٢٤٥	31	٧.٩
٢٤٦	33	٧.١٠
٢٤٦	34	٧.١١

٢٤٦	35	٧.١٢
٢٤٧	37	٧.١٣
٢٤٧	40	٧.١٤
٢٤٨	42	٧.١٥
٢٤٩	44	٧.١٦
٢٤٩	46	٧.١٧
٢٥٠	48	٧.١٨
٢٥٠	50	٧.١٩
٢٥١	52	٧.٢٠
٢٥١	54	٧.٢١
٢٥٢	55	٧.٢٢
٢٥٣	57	٧.٢٣
٢٥٤	59	٧.٢٤
٢٥٥	65	٧.٢٥
٢٥٦	73	٧.٢٦
٢٥٧	80	٧.٢٧
٢٥٨	85	٧.٢٨
٢٥٨	88	٧.٢٩
٢٥٩	90	٧.٣٠
٢٥٩	94	٧.٣١
٢٦٠	96	٧.٣٢
٢٦١	101	٧.٣٣
٢٦١	103	٧.٣٤
٢٦٢	113	٧.٣٥
٢٦٣	123	٧.٣٦
٢٦٣	127	٧.٣٧
٢٦٤	130	٧.٣٨
٢٦٤	134	٧.٣٩
٢٦٥	137	٧.٤٠
٢٦٥	138	٧.٤١
٢٦٦	142	٧.٤٢
٢٦٦	146	٧.٤٣
٢٦٧	148	٧.٤٤
٢٦٧	150	٧.٤٥
٢٦٨	152	٧.٤٦
٢٦٨	154	٧.٤٧
٢٦٨	155	٧.٤٨
٢٦٩	158	٧.٤٩

٢٦٩	159	٧.٥٠
٢٧٠	161	٧.٥١
٢٧٠	163	٧.٥٢
٢٧١	167	٧.٥٣
٢٧١	168	٧.٥٤
٢٧٢	172	٧.٥٥
٢٧٣	175	٧.٥٦
٢٧٣	178	٧.٥٧
٢٧٤	182	٧.٥٨
٢٧٥	187	٧.٥٩
٢٧٦	189	٧.٦٠
٢٧٦	191	٧.٦١
٢٧٧	199	٧.٦٢
٢٧٧	204	٧.٦٣
٢٧٨	الأنفال	٨
٢٧٨	1	٨.١
٢٧٩	5	٨.٢
٢٨٠	9	٨.٣
٢٨١	15	٨.٤
٢٨٢	20	٨.٥
٢٨٢	24	٨.٦
٢٨٣	25	٨.٧
٢٨٤	30	٨.٨
٢٨٥	36	٨.٩
٢٨٦	41	٨.١٠
٢٨٦	42	٨.١١
٢٨٧	45	٨.١٢
٢٨٨	50	٨.١٣
٢٨٩	55	٨.١٤
٢٩٠	64	٨.١٥
٢٩١	67	٨.١٦
٢٩٢	72	٨.١٧
٢٩٣	التوبة	٩
٢٩٣	1	٩.١
٢٩٤	5	٩.٢
٢٩٥	9	٩.٣
٢٩٦	16	٩.٤

٢٩٧	19	٩.٥
٢٩٨	23	٩.٦
٢٩٨	25	٩.٧
٣٠٠	28	٩.٨
٣٠٠	29	٩.٩
٣٠٣	34	٩.١٠
٣٠٤	36	٩.١١
٣٠٥	38	٩.١٢
٣٠٧	41	٩.١٣
٣٠٨	44	٩.١٤
٣٠٩	49	٩.١٥
٣١٠	53	٩.١٦
٣١١	58	٩.١٧
٣١٢	60	٩.١٨
٣١٢	61	٩.١٩
٣١٣	64	٩.٢٠
٣١٤	67	٩.٢١
٣١٥	71	٩.٢٢
٣١٦	73	٩.٢٣
٣١٧	75	٩.٢٤
٣١٧	79	٩.٢٥
٣١٨	81	٩.٢٦
٣١٩	84	٩.٢٧
٣٢٠	90	٩.٢٨
٣٢١	94	٩.٢٩
٣٢٢	97	٩.٣٠
٣٢٣	100	٩.٣١
٣٢٥	103	٩.٣٢
٣٢٦	107	٩.٣٣
٣٢٧	111	٩.٣٤
٣٢٧	113	٩.٣٥
٣٢٨	115	٩.٣٦
٣٢٨	117	٩.٣٧
٣٣٠	120	٩.٣٨
٣٣٠	122	٩.٣٩
٣٣١	124	٩.٤٠
٣٣١	128	٩.٤١
٣٣٢	يونس	١٠

٣٣٢	1	١٠٠.١
٣٣٢	3	١٠٠.٢
٣٣٣	5	١٠٠.٣
٣٣٤	11	١٠٠.٤
٣٣٥	15	١٠٠.٥
٣٣٦	18	١٠٠.٦
٣٣٧	21	١٠٠.٧
٣٣٨	24	١٠٠.٨
٣٣٨	26	١٠٠.٩
٣٣٩	31	١٠٠.١٠
٣٤٠	35	١٠٠.١١
٣٤١	40	١٠٠.١٢
٣٤٢	45	١٠٠.١٣
٣٤٢	48	١٠٠.١٤
٣٤٣	57	١٠٠.١٥
٣٤٤	61	١٠٠.١٦
٣٤٥	65	١٠٠.١٧
٣٤٦	71	١٠٠.١٨
٣٤٧	74	١٠٠.١٩
٣٤٨	83	١٠٠.٢٠
٣٤٩	90	١٠٠.٢١
٣٥٠	94	١٠٠.٢٢
٣٥٠	98	١٠٠.٢٣
٣٥١	101	١٠٠.٢٤
٣٥٢	107	١٠٠.٢٥
٣٥٢	هود	١١
٣٥٢	1	١١.١
٣٥٣	5	١١.٢
٣٥٣	6	١١.٣
٣٥٤	9	١١.٤
٣٥٥	12	١١.٥
٣٥٥	15	١١.٦
٣٥٦	18	١١.٧
٣٥٧	25	١١.٨
٣٥٨	27	١١.٩
٣٥٨	32	١١.١٠
٣٥٩	35	١١.١١
٣٥٩	36	١١.١٢

٣٥٩	40	١١.١٣
٣٥٩	45	١١.١٤
٣٦٠	50	١١.١٥
٣٦١	53	١١.١٦
٣٦١	57	١١.١٧
٣٦٢	61	١١.١٨
٣٦٢	64	١١.١٩
٣٦٣	69	١١.٢٠
٣٦٣	74	١١.٢١
٣٦٤	77	١١.٢٢
٣٦٥	81	١١.٢٣
٣٦٥	84	١١.٢٤
٣٦٦	87	١١.٢٥
٣٦٧	91	١١.٢٦
٣٦٧	96	١١.٢٧
٣٦٧	100	١١.٢٨
٣٦٨	103	١١.٢٩
٣٦٩	110	١١.٣٠
٣٧٠	116	١١.٣١
٣٧١	120	١١.٣٢
٣٧٢	يوسف	١٢
٣٧٢	1	١٢.١
٣٧٢	4	١٢.٢
٣٧٢	7	١٢.٣
٣٧٣	16	١٢.٤
٣٧٣	21	١٢.٥
٣٧٤	23	١٢.٦
٣٧٤	24	١٢.٧
٣٧٥	30	١٢.٨
٣٧٥	36	١٢.٩
٣٧٦	39	١٢.١٠
٣٧٦	41	١٢.١١
٣٧٧	43	١٢.١٢
٣٧٧	50	١٢.١٣
٣٧٨	54	١٢.١٤
٣٧٨	58	١٢.١٥
٣٧٨	63	١٢.١٦
٣٧٩	67	١٢.١٧

٣٧٩	69	١٢٠١٨
٣٨٠	77	١٢٠١٩
٣٨٠	81	١٢٠٢٠
٣٨٠	88	١٢٠٢١
٣٨١	94	١٢٠٢٢
٣٨١	99	١٢٠٢٣
٣٨١	103	١٢٠٢٤
٣٨٢	108	١٢٠٢٥
٣٨٣	الرعد	١٣
٣٨٣	1	١٣٠١
٣٨٤	2	١٣٠٢
٣٨٥	5	١٣٠٣
٣٨٥	8	١٣٠٤
٣٨٦	12	١٣٠٥
٣٨٧	17	١٣٠٦
٣٨٨	19	١٣٠٧
٣٨٩	26	١٣٠٨
٣٨٩	30	١٣٠٩
٣٩٠	32	١٣٠١٠
٣٩٠	35	١٣٠١١
٣٩١	39	١٣٠١٢
٣٩٢	إبراهيم	١٤
٣٩٢	1	١٤٠١
٣٩٣	5	١٤٠٢
٣٩٣	9	١٤٠٣
٣٩٤	13	١٤٠٤
٣٩٥	18	١٤٠٥
٣٩٦	22	١٤٠٦
٣٩٦	24	١٤٠٧
٣٩٧	28	١٤٠٨
٣٩٧	32	١٤٠٩
٣٩٨	35	١٤٠١٠
٣٩٩	42	١٤٠١١
٣٩٩	46	١٤٠١٢
٤٠٠	الحجر	١٥
٤٠٠	1	١٥٠١
٤٠١	6	١٥٠٢

٤٠٢	19	١٥.٣
٤٠٣	26	١٥.٤
٤٠٤	32	١٥.٥
٤٠٥	45	١٥.٦
٤٠٥	51	١٥.٧
٤٠٦	61	١٥.٨
٤٠٧	73	١٥.٩
٤٠٨	87	١٥.١٠
٤٠٩	النحل	١٦
٤٠٩	1	١٦.١
٤١٠	5	١٦.٢
٤١١	10	١٦.٣
٤١٣	20	١٦.٤
٤١٣	24	١٦.٥
٤١٥	30	١٦.٦
٤١٥	35	١٦.٧
٤١٦	38	١٦.٨
٤١٧	43	١٦.٩
٤١٨	51	١٦.١٠
٤١٩	56	١٦.١١
٤١٩	61	١٦.١٢
٤٢٠	65	١٦.١٣
٤٢١	70	١٦.١٤
٤٢٢	75	١٦.١٥
٤٢٣	78	١٦.١٦
٤٢٤	84	١٦.١٧
٤٢٥	90	١٦.١٨
٤٢٦	94	١٦.١٩
٤٢٧	101	١٦.٢٠
٤٢٧	106	١٦.٢١
٤٢٨	112	١٦.٢٢
٤٢٨	114	١٦.٢٣
٤٢٩	120	١٦.٢٤
٤٣٠	125	١٦.٢٥
٤٣٠	الإسراء	١٧
٤٣٠	1	١٧.١
٤٣١	2	١٧.٢

٤٣١	4	١٧.٣
٤٣٢	9	١٧.٤
٤٣٣	13	١٧.٥
٤٣٣	16	١٧.٦
٤٣٤	22	١٧.٧
٤٣٥	26	١٧.٨
٤٣٧	40	١٧.٩
٤٣٧	45	١٧.١٠
٤٣٨	49	١٧.١١
٤٣٨	53	١٧.١٢
٤٣٩	58	١٧.١٣
٤٤٠	61	١٧.١٤
٤٤٠	66	١٧.١٥
٤٤١	70	١٧.١٦
٤٤١	73	١٧.١٧
٤٤٢	78	١٧.١٨
٤٤٢	82	١٧.١٩
٤٤٣	86	١٧.٢٠
٤٤٣	90	١٧.٢١
٤٤٣	97	١٧.٢٢
٤٤٤	101	١٧.٢٣
٤٤٤	105	١٧.٢٤
٤٤٥	الكهف	١٨
٤٤٥	1	١٨.١
٤٤٥	9	١٨.٢
٤٤٦	13	١٨.٣
٤٤٦	19	١٨.٤
٤٤٧	23	١٨.٥
٤٤٧	27	١٨.٦
٤٤٩	30	١٨.٧
٤٤٩	32	١٨.٨
٤٥٠	45	١٨.٩
٤٥٠	47	١٨.١٠
٤٥١	50	١٨.١١
٤٥٢	54	١٨.١٢
٤٥٢	57	١٨.١٣
٤٥٣	60	١٨.١٤
٤٥٣	65	١٨.١٥

٤٥٤	71	١٨٠١٦
٤٥٥	83	١٨٠١٧
٤٥٦	92	١٨٠١٨
٤٥٧	100	١٨٠١٩
٤٥٨	107	١٨٠٢٠
٤٥٩	مریم	١٩
٤٥٩	1	١٩٠١
٤٦٠	7	١٩٠٢
٤٦٠	12	١٩٠٣
٤٦٠	16	١٩٠٤
٤٦١	22	١٩٠٥
٤٦٢	27	١٩٠٦
٤٦٣	36	١٩٠٧
٤٦٣	41	١٩٠٨
٤٦٤	51	١٩٠٩
٤٦٥	59	١٩٠١٠
٤٦٦	66	١٩٠١١
٤٦٧	73	١٩٠١٢
٤٦٨	77	١٩٠١٣
٤٦٩	88	١٩٠١٤
٤٧٠	طه	٢٠
٤٧٠	1	٢٠٠١
٤٧٠	9	٢٠٠٢
٤٧١	17	٢٠٠٣
٤٧٢	36	٢٠٠٤
٤٧٣	42	٢٠٠٥
٤٧٤	49	٢٠٠٦
٤٧٥	57	٢٠٠٧
٤٧٦	65	٢٠٠٨
٤٧٧	77	٢٠٠٩
٤٧٨	83	٢٠٠١٠
٤٧٩	90	٢٠٠١١
٤٨١	99	٢٠٠١٢
٤٨٢	113	٢٠٠١٣
٤٨٣	123	٢٠٠١٤
٤٨٤	130	٢٠٠١٥
٤٨٤	133	٢٠٠١٦

٤٨٥	الأنبياء	٢١
٤٨٥	1	٢١.١
٤٨٦	7	٢١.٢
٤٨٧	16	٢١.٣
٤٨٨	24	٢١.٤
٤٨٩	30	٢١.٥
٤٩١	37	٢١.٦
٤٩٢	45	٢١.٧
٤٩٣	51	٢١.٨
٤٩٤	61	٢١.٩
٤٩٥	71	٢١.١٠
٤٩٥	78	٢١.١١
٤٩٧	83	٢١.١٢
٤٩٨	92	٢١.١٣
٤٩٩	101	٢١.١٤
٥٠٠	108	٢١.١٥
٥٠٠	الحج	٢٢
٥٠٠	1	٢٢.١
٥٠٢	8	٢٢.٢
٥٠٣	15	٢٢.٣
٥٠٤	19	٢٢.٤
٥٠٥	26	٢٢.٥
٥٠٦	30	٢٢.٦
٥٠٧	36	٢٢.٧
٥٠٧	38	٢٢.٨
٥٠٩	42	٢٢.٩
٥١٠	52	٢٢.١٠
٥١١	58	٢٢.١١
٥١٢	65	٢٢.١٢
٥١٣	71	٢٢.١٣
٥١٤	77	٢٢.١٤
٥١٥	المؤمنون	٢٣
٥١٥	1	٢٣.١
٥١٦	12	٢٣.٢
٥١٦	18	٢٣.٣
٥١٧	23	٢٣.٤
٥١٨	31	٢٣.٥

٥١٩	42	٢٣.٦
٥١٩	51	٢٣.٧
٥٢٠	57	٢٣.٨
٥٢٠	63	٢٣.٩
٥٢٢	73	٢٣.١٠
٥٢٣	81	٢٣.١١
٥٢٣	91	٢٣.١٢
٥٢٥	101	٢٣.١٣
٥٢٦	112	٢٣.١٤
٥٢٧	النور	٢٤
٥٢٧	1	٢٤.١
٥٢٨	6	٢٤.٢
٥٢٨	11	٢٤.٣
٥٣٠	21	٢٤.٤
٥٣١	26	٢٤.٥
٥٣٢	30	٢٤.٦
٥٣٢	32	٢٤.٧
٥٣٤	35	٢٤.٨
٥٣٥	39	٢٤.٩
٥٣٦	43	٢٤.١٠
٥٣٧	47	٢٤.١١
٥٣٧	55	٢٤.١٢
٥٣٨	58	٢٤.١٣
٥٣٩	61	٢٤.١٤
٥٣٩	62	٢٤.١٥
٥٤٠	الفرقان	٢٥
٥٤٠	1	٢٥.١
٥٤١	7	٢٥.٢
٥٤١	17	٢٥.٣
٥٤٢	21	٢٥.٤
٥٤٣	30	٢٥.٥
٥٤٣	41	٢٥.٦
٥٤٤	45	٢٥.٧
٥٤٤	55	٢٥.٨
٥٤٦	63	٢٥.٩
٥٤٧	الشعراء	٢٦
٥٤٧	1	٢٦.١

٥٤٨	10	٢٦٠٢
٥٤٨	23	٢٦٠٣
٥٤٩	38	٢٦٠٤
٥٤٩	52	٢٦٠٥
٥٥٠	69	٢٦٠٦
٥٥١	90	٢٦٠٧
٥٥١	105	٢٦٠٨
٥٥٢	123	٢٦٠٩
٥٥٢	141	٢٦٠١٠
٥٥٣	160	٢٦٠١١
٥٥٣	176	٢٦٠١٢
٥٥٣	192	٢٦٠١٣
٥٥٤	213	٢٦٠١٤
٥٥٥	221	٢٦٠١٥
٥٥٥	النمل	٢٧
٥٥٥	1	٢٧٠١
٥٥٦	6	٢٧٠٢
٥٥٦	15	٢٧٠٣
٥٥٧	20	٢٧٠٤
٥٥٨	27	٢٧٠٥
٥٥٨	36	٢٧٠٦
٥٥٩	41	٢٧٠٧
٥٥٩	45	٢٧٠٨
٥٦٠	54	٢٧٠٩
٥٦٠	59	٢٧٠١٠
٥٦٠	65	٢٧٠١١
٥٦١	76	٢٧٠١٢
٥٦٢	86	٢٧٠١٣
٥٦٣	القصص	٢٨
٥٦٣	1	٢٨٠١
٥٦٣	7	٢٨٠٢
٥٦٤	14	٢٨٠٣
٥٦٤	20	٢٨٠٤
٥٦٥	29	٢٨٠٥
٥٦٥	33	٢٨٠٦
٥٦٦	38	٢٨٠٧
٥٦٦	44	٢٨٠٨

٥٦٧	52	٢٨٠٩
٥٦٧	56	٢٨٠١٠
٥٦٨	62	٢٨٠١١
٥٦٩	71	٢٨٠١٢
٥٦٩	76	٢٨٠١٣
٥٧٠	83	٢٨٠١٤
٥٧١	العنكبوت	٢٩
٥٧١	1	٢٩٠١
٥٧٢	10	٢٩٠٢
٥٧٣	16	٢٩٠٣
٥٧٣	19	٢٩٠٤
٥٧٤	28	٢٩٠٥
٥٧٥	36	٢٩٠٦
٥٧٥	41	٢٩٠٧
٥٧٦	46	٢٩٠٨
٥٧٧	50	٢٩٠٩
٥٧٧	56	٢٩٠١٠
٥٧٨	64	٢٩٠١١
٥٧٩	الروم	٣٠
٥٧٩	1	٣٠٠١
٥٨٠	8	٣٠٠٢
٥٨١	17	٣٠٠٣
٥٨١	26	٣٠٠٤
٥٨٢	30	٣٠٠٥
٥٨٢	33	٣٠٠٦
٥٨٣	41	٣٠٠٧
٥٨٤	46	٣٠٠٨
٥٨٤	52	٣٠٠٩
٥٨٥	لقمان	٣١
٥٨٥	1	٣١٠١
٥٨٦	12	٣١٠٢
٥٨٨	20	٣١٠٣
٥٨٩	29	٣١٠٤
٥٩٠	33	٣١٠٥
٥٩٠	السجدة	٣٢
٥٩٠	1	٣٢٠١

٥٩١	10	٣٢٠.٢
٥٩١	15	٣٢٠.٣
٥٩٢	23	٣٢٠.٤
٥٩٣	الأحزاب	٣٣
٥٩٣	1	٣٣٠.١
٥٩٤	4	٣٣٠.٢
٥٩٤	6	٣٣٠.٣
٥٩٤	9	٣٣٠.٤
٥٩٦	16	٣٣٠.٥
٥٩٧	21	٣٣٠.٦
٥٩٨	28	٣٣٠.٧
٥٩٩	31	٣٣٠.٨
٦٠٠	35	٣٣٠.٩
٦٠٠	36	٣٣٠.١٠
٦٠١	41	٣٣٠.١١
٦٠٢	50	٣٣٠.١٢
٦٠٣	53	٣٣٠.١٣
٦٠٣	56	٣٣٠.١٤
٦٠٤	59	٣٣٠.١٥
٦٠٤	63	٣٣٠.١٦
٦٠٥	70	٣٣٠.١٧
٦٠٥	سبأ	٣٤
٦٠٥	1	٣٤٠.١
٦٠٦	7	٣٤٠.٢
٦٠٦	10	٣٤٠.٣
٦٠٧	15	٣٤٠.٤
٦٠٨	22	٣٤٠.٥
٦٠٩	31	٣٤٠.٦
٦١٠	34	٣٤٠.٧
٦١٠	43	٣٤٠.٨
٦١١	51	٣٤٠.٩
٦١٢	فاطر	٣٥
٦١٢	1	٣٥٠.١
٦١٢	4	٣٥٠.٢
٦١٣	9	٣٥٠.٣
٦١٣	12	٣٥٠.٤
٦١٤	19	٣٥٠.٥

٦١٥	29	٣٥.٦
٦١٥	36	٣٥.٧
٦١٦	40	٣٥.٨
٦١٧	44	٣٥.٩
٦١٧	يس	٣٦
٦١٧	1	٣٦.١
٦١٨	13	٣٦.٢
٦١٨	28	٣٦.٣
٦١٩	37	٣٦.٤
٦٢٠	45	٣٦.٥
٦٢١	55	٣٦.٦
٦٢٢	69	٣٦.٧
٦٢٢	71	٣٦.٨
٦٢٢	77	٣٦.٩
٦٢٣	الصفات	٣٧
٦٢٣	1	٣٧.١
٦٢٤	11	٣٧.٢
٦٢٥	27	٣٧.٣
٦٢٥	38	٣٧.٤
٦٢٦	50	٣٧.٥
٦٢٧	69	٣٧.٦
٦٢٧	83	٣٧.٧
٦٢٧	100	٣٧.٨
٦٢٨	114	٣٧.٩
٦٢٩	133	٣٧.١٠
٦٢٩	149	٣٧.١١
٦٣٠	161	٣٧.١٢
٦٣٠	171	٣٧.١٣
٦٣١	ص	٣٨
٦٣١	1	٣٨.١
٦٣١	12	٣٨.٢
٦٣٢	21	٣٨.٣
٦٣٢	26	٣٨.٤
٦٣٢	30	٣٨.٥
٦٣٣	41	٣٨.٦
٦٣٤	49	٣٨.٧
٦٣٥	65	٣٨.٨

٦٣٥	الزمر	٣٩
٦٣٥	1	٣٩.١
٦٣٦	5	٣٩.٢
٦٣٧	9	٣٩.٣
٦٣٨	17	٣٩.٤
٦٣٨	22	٣٩.٥
٦٣٩	25	٣٩.٦
٦٣٩	32	٣٩.٧
٦٤٠	38	٣٩.٨
٦٤٠	46	٣٩.٩
٦٤١	53	٣٩.١٠
٦٤٢	60	٣٩.١١
٦٤٢	68	٣٩.١٢
٦٤٣	73	٣٩.١٣
٦٤٤	غافر	٤٠
٦٤٤	1	٤٠.١
٦٤٤	7	٤٠.٢
٦٤٥	11	٤٠.٣
٦٤٦	18	٤٠.٤
٦٤٦	23	٤٠.٥
٦٤٧	30	٤٠.٦
٦٤٧	36	٤٠.٧
٦٤٨	41	٤٠.٨
٦٤٨	47	٤٠.٩
٦٤٩	56	٤٠.١٠
٦٥٠	64	٤٠.١١
٦٥١	69	٤٠.١٢
٦٥١	79	٤٠.١٣
٦٥٢	فصلت	٤١
٦٥٢	1	٤١.١
٦٥٣	9	٤١.٢
٦٥٤	13	٤١.٣
٦٥٤	19	٤١.٤
٦٥٥	25	٤١.٥
٦٥٥	30	٤١.٦
٦٥٦	37	٤١.٧
٦٥٧	47	٤١.٨

٦٥٧	51	٤١.٩
٦٥٨	الشورى	٤٢
٦٥٨	1	٤٢.١
٦٥٩	9	٤٢.٢
٦٦٠	15	٤٢.٣
٦٦٠	19	٤٢.٤
٦٦١	23	٤٢.٥
٦٦١	27	٤٢.٦
٦٦٢	36	٤٢.٧
٦٦٣	44	٤٢.٨
٦٦٤	51	٤٢.٩
٦٦٥	الزخرف	٤٣
٦٦٥	1	٤٣.١
٦٦٥	15	٤٣.٢
٦٦٦	26	٤٣.٣
٦٦٧	36	٤٣.٤
٦٦٨	46	٤٣.٥
٦٦٩	57	٤٣.٦
٦٧٠	67	٤٣.٧
٦٧٠	81	٤٣.٨
٦٧١	الدخان	٤٤
٦٧١	1	٤٤.١
٦٧٢	10	٤٤.٢
٦٧٢	22	٤٤.٣
٦٧٣	34	٤٤.٤
٦٧٣	43	٤٤.٥
٦٧٤	الجاثية	٤٥
٦٧٤	1	٤٥.١
٦٧٥	7	٤٥.٢
٦٧٥	16	٤٥.٣
٦٧٦	21	٤٥.٤
٦٧٧	27	٤٥.٥
٦٧٨	32	٤٥.٦
٦٧٨	الأحقاف	٤٦
٦٧٨	1	٤٦.١

٦٧٩	7	٤٦٠٢
٦٨٠	13	٤٦٠٣
٦٨١	17	٤٦٠٤
٦٨١	21	٤٦٠٥
٦٨٢	29	٤٦٠٦
٦٨٣	33	٤٦٠٧
٦٨٣	محمد	٤٧
٦٨٣	1	٤٧٠١
٦٨٤	7	٤٧٠٢
٦٨٤	15	٤٧٠٣
٦٨٥	20	٤٧٠٤
٦٨٦	24	٤٧٠٥
٦٨٦	32	٤٧٠٦
٦٨٧	الفتح	٤٨
٦٨٧	1	٤٨٠١
٦٨٨	6	٤٨٠٢
٦٨٨	10	٤٨٠٣
٦٨٩	15	٤٨٠٤
٦٩٠	18	٤٨٠٥
٦٩٠	25	٤٨٠٦
٦٩١	27	٤٨٠٧
٦٩٢	الحجرات	٤٩
٦٩٢	1	٤٩٠١
٦٩٣	6	٤٩٠٢
٦٩٣	7	٤٩٠٣
٦٩٤	9	٤٩٠٤
٦٩٤	11	٤٩٠٥
٦٩٥	12	٤٩٠٦
٦٩٦	13	٤٩٠٧
٦٩٧	ق	٥٠
٦٩٧	1	٥٠٠١
٦٩٨	12	٥٠٠٢
٦٩٩	23	٥٠٠٣
٧٠٠	36	٥٠٠٤
٧٠١	الذاريات	٥١

٧٠١	1	٥١.١
٧٠١	15	٥١.٢
٧٠٢	31	٥١.٣
٧٠٣	47	٥١.٤
٧٠٤	الطور	٥٢
٧٠٤	1	٥٢.١
٧٠٤	17	٥٢.٢
٧٠٥	29	٥٢.٣
٧٠٦	45	٥٢.٤
٧٠٦	النجم	٥٣
٧٠٦	1	٥٣.١
٧٠٧	19	٥٣.٢
٧٠٨	27	٥٣.٣
٧٠٨	33	٥٣.٤
٧٠٩	42	٥٣.٥
٧١٠	القمر	٥٤
٧١٠	1	٥٤.١
٧١١	9	٥٤.٢
٧١١	18	٥٤.٣
٧١٢	33	٥٤.٤
٧١٣	43	٥٤.٥
٧١٤	الرحمن	٥٥
٧١٤	1	٥٥.١
٧١٤	14	٥٥.٢
٧١٥	31	٥٥.٣
٧١٦	46	٥٥.٤
٧١٧	الواقعة	٥٦
٧١٧	1	٥٦.١
٧١٨	27	٥٦.٢
٧١٨	41	٥٦.٣
٧١٩	57	٥٦.٤
٧٢٠	75	٥٦.٥
٧٢١	الحديد	٥٧
٧٢١	1	٥٧.١
٧٢٢	7	٥٧.٢

٧٢٣	12	٥٧.٣
٧٢٤	16	٥٧.٤
٧٢٤	20	٥٧.٥
٧٢٥	25	٥٧.٦
٧٢٦	المجادلة	٥٨
٧٢٦	1	٥٨.١
٧٢٧	5	٥٨.٢
٧٢٨	11	٥٨.٣
٧٢٩	14	٥٨.٤
٧٣٠	20	٥٨.٥
٧٣٠	الحشر	٥٩
٧٣٠	1	٥٩.١
٧٣١	6	٥٩.٢
٧٣٢	9	٥٩.٣
٧٣٤	16	٥٩.٤
٧٣٤	21	٥٩.٥
٧٣٥	المتحنة	٦٠
٧٣٥	1	٦٠.١
٧٣٦	4	٦٠.٢
٧٣٦	8	٦٠.٣
٧٣٧	10	٦٠.٤
٧٣٨	12	٦٠.٥
٧٣٨	الصف	٦١
٧٣٨	1	٦١.١
٧٤٠	7	٦١.٢
٧٤١	الجمعة	٦٢
٧٤١	1	٦٢.١
٧٤٢	5	٦٢.٢
٧٤٢	9	٦٢.٣
٧٤٤	المنافقون	٦٣
٧٤٤	1	٦٣.١
٧٤٥	7	٦٣.٢
٧٤٦	التغابن	٦٤
٧٤٦	1	٦٤.١

٧٤٧	7	٦٤٠٢
٧٤٨	14	٦٤٠٣
٧٤٩	الطلاق	٦٥
٧٤٩	1	٦٥٠١
٧٥١	6	٦٥٠٢
٧٥٢	8	٦٥٠٣
٧٥٣	التحريم	٦٦
٧٥٣	1	٦٦٠١
٧٥٤	6	٦٦٠٢
٧٥٥	10	٦٦٠٣
٧٥٥	الملك	٦٧
٧٥٥	1	٦٧٠١
٧٥٦	12	٦٧٠٢
٧٥٧	20	٦٧٠٣
٧٥٩	القلم	٦٨
٧٥٩	1	٦٨٠١
٧٦١	17	٦٨٠٢
٧٦١	34	٦٨٠٣
٧٦٢	44	٦٨٠٤
٧٦٣	الحاقة	٦٩
٧٦٣	1	٦٩٠١
٧٦٤	19	٦٩٠٢
٧٦٥	38	٦٩٠٣
٧٦٦	المعارج	٧٠
٧٦٦	1	٧٠٠١
٧٦٧	19	٧٠٠٢
٧٦٧	36	٧٠٠٣
٧٦٨	نوح	٧١
٧٦٨	1	٧١٠١
٧٦٩	13	٧١٠٢
٧٦٩	21	٧١٠٣
٧٧٠	الجن	٧٢
٧٧٠	1	٧٢٠١
٧٧٠	8	٧٢٠٢

٧٧١	18	٧٢٠.٣
٧٧٢	المزمل	٧٣
٧٧٢	1	٧٣٠.١
٧٧٣	10	٧٣٠.٢
٧٧٤	20	٧٣٠.٣
٧٧٤	المدثر	٧٤
٧٧٤	1	٧٤٠.١
٧٧٥	11	٧٤٠.٢
٧٧٦	32	٧٤٠.٣
٧٧٨	القيامة	٧٥
٧٧٨	1	٧٥٠.١
٧٧٩	20	٧٥٠.٢
٧٨٠	الإنسان	٧٦
٧٨٠	1	٧٦٠.١
٧٨١	7	٧٦٠.٢
٧٨٣	23	٧٦٠.٣
٧٨٤	المرسلات	٧٧
٧٨٤	1	٧٧٠.١
٧٨٥	29	٧٧٠.٢
٧٨٦	النبا	٧٨
٧٨٦	1	٧٨٠.١
٧٨٨	17	٧٨٠.٢
٧٨٩	31	٧٨٠.٣
٧٩٠	النازعات	٧٩
٧٩٠	1	٧٩٠.١
٧٩١	15	٧٩٠.٢
٧٩٢	34	٧٩٠.٣
٧٩٣	عبس	٨٠
٧٩٣	1	٨٠٠.١
٧٩٤	17	٨٠٠.٢
٧٩٦	التكوير	٨١
٧٩٦	1	٨١٠.١
٧٩٧	15	٨١٠.٢

٧٩٨	الإنفطار	٨٢
٧٩٨	1	٨٢٠١
٧٩٩	المطففين	٨٣
٧٩٩	1	٨٣٠١
٨٠٠	18	٨٣٠٢
٨٠١	الإنشقاق	٨٤
٨٠١	1	٨٤٠١
٨٠٣	16	٨٤٠٢
٨٠٤	البروج	٨٥
٨٠٤	1	٨٥٠١
٨٠٧	الطارق	٨٦
٨٠٧	1	٨٦٠١
٨٠٩	الأعلى	٨٧
٨٠٩	1	٨٧٠١
٨١٠	الغاشية	٨٨
٨١٠	1	٨٨٠١
٨١٢	الفجر	٨٩
٨١٢	1	٨٩٠١
٨١٣	17	٨٩٠٢
٨١٤	البلد	٩٠
٨١٤	1	٩٠٠١
٨١٦	الشمس	٩١
٨١٦	1	٩١٠١
٨١٧	الليل	٩٢
٨١٧	1	٩٢٠١
٨١٨	الضحى	٩٣
٨١٨	1	٩٣٠١
٨١٨	الشرح	٩٤
٨١٨	1	٩٤٠١
٨١٩	التين	٩٥
٨١٩	1	٩٥٠١

٨٢٠	العلق	٩٦
٨٢٠	1	٩٦٠.١
٨٢١	القدر	٩٧
٨٢١	1	٩٧٠.١
٨٢٢	البيئة	٩٨
٨٢٢	1	٩٨٠.١
٨٢٣	الزلزلة	٩٩
٨٢٣	1	٩٩٠.١
٨٢٣	العاديات	١٠٠
٨٢٣	1	١٠٠٠.١
٨٢٤	القارعة	١٠١
٨٢٤	1	١٠١٠.١
٨٢٥	التكاثر	١٠٢
٨٢٥	1	١٠٢٠.١
٨٢٥	العصر	١٠٣
٨٢٥	1	١٠٣٠.١
٨٢٦	الهمزة	١٠٤
٨٢٦	1	١٠٤٠.١
٨٢٧	الفيل	١٠٥
٨٢٧	1	١٠٥٠.١
٨٢٨	قريش	١٠٦
٨٢٨	1	١٠٦٠.١
٨٢٨	الماعون	١٠٧
٨٢٨	1	١٠٧٠.١
٨٢٩	الكوثر	١٠٨
٨٢٩	1	١٠٨٠.١
٨٢٩	الكافرون	١٠٩
٨٢٩	1	١٠٩٠.١
٨٣٠	النصر	١١٠
٨٣٠	1	١١٠٠.١

٨٣٠	المسد	١١١
٨٣٠	1	١١١.١
٨٣١	الإخلاص	١١٢
٨٣١	1	١١٢.١
٨٣٢	الفلق	١١٣
٨٣٢	1	١١٣.١
٨٣٣	الناس	١١٤
٨٣٣	1	١١٤.١

عن الكتاب

الكتاب: تيسير التفسير
المؤلف: إبراهيم القطان (المتوفى: ١٤٠٤ هـ)
[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع، وهو ضمن خدمة مقارنة التفاسير]

عن المؤلف

إبراهيم القطان (١٣٣٤ - ١٤٠٤ هـ = ١٩١٦ - ١٩٨٤ م)
قاض أديب. مولده ووفاته في عمان الأردن، دخل الأزهر، وتخرج فيه، وعمل بالقضاء ١٩٤٢ - ١٩٤٧، ومنه انتقل إلى وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن) مفتشاً للغة العربية والتربية الإسلامية، وظل فيها إلى عام ١٩٦١.
وفي العام الذي يليه عين قاضياً للقضاة، ووزيراً للتربية والتعليم، فسفيراً لبلاده بالمغرب فالكويت، فباكستان، فقاضياً للقضاة مرة أخرى عام ١٩٧٧ حتى وفاته، وكان من أعضاء مجعبي اللغة العربية بعمان والقاهرة. وكان دمث الخلق، طلق المحيا.
له (عثرات المنجد) و (تيسير التفسير). وشارك في تأليف أكثر من ثلاثين كتاباً مدرسياً في التربية الإسلامية واللغة العربية منها (النصوص الأدبية) و (القواعد الوافية).
نقلاً من ذيل الأعلام

{الحمد لله رب العالمين} : الحمد والمدح أخوان لفظاً، ومعناها الثناء الجميل، وهم هنا بقصد التعظيم والتبجيل في الضراء والسراء على السواء.

وبعضهم فرقاً بينهما، فيقول: الحمد يكون بعد الإحسان وهو مأثور به دائماً لحديث: «من يحمّد الناس لم يحمّد الله» .

أما المدح فيكون قبل الاحسان وبعده. وهو منهي عنه، لحديث «احثوا في وجوه المدّاحين التراب» .

والربّ في كلام العرب له معان ثلاثة: السيد المطاع، والرجل المصلح للشيء، والمالك للشيء.

فربُّنا جل ثناؤه: السيد المطاع في خلقه، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر. {العالمين} : جميع الكائنات في هذا الوجود.

فعني {الحمد لله رب العالمين} الحمد لله الذي له الخلق كله، السماوات والأرض، ومن فيهن وما مبینهن، مما يعلم وما لا يعلم، فالثناء المطلق الذي لا يحّد لله سبحانه إنما كان لأنه هو رب العالمين.

{الرحمن الرحيم} : الرحمن صفة ذاتية هي مبدأ الرحمة، وقد تقدم أنه لا يوصف بها الا الله: {الرحمن علّم القرآن} [الرحمن: ١٢] ،

{الرحمن على العرش استوى} [طه: ٥] .

{قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} [الإسراء: ١١٠] .

أما الرحيم، فقد كثر استعمالها في القرآن وصفاً فعلياً وجاءت بأسلوب إيصال النعمة والرحمة: {إن الله بالناس لرؤوف رحيم} [البقر:

١٤٣] {ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف: ١٥٦] {وكان بالمؤمنين رحيماً} [الأحزاب: ٤٣] . ولا نطيل أكثر من ذلك، وإنما

نريد أن نبين هنا نكتة إعادتها وتكرارها. فنأياً عن أن يفهم من لفظه الرب صفة الجبروت والقهر أراد الله تعالى أن يذكر الخلق برحمته

واحسانه، ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال. فذكر «الرحمن» أي المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما، و «الرحيم» الثابت له

وصف الرحمة، لا تزياله أبداً. بذا عرفهم أن ربوبيته رحمة واحسان، ليعملوا ان هذه الصفة هي الأصلية التي يرجع اليها معنى بقية

الصفات فيتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته.

هذا وإن تكرار وصف الله لنفسه بالرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب هو تأكيد لمعنى أن الدين الذي كتبه القرآن انما تقوم فضائله ونظمه

على الرحمة والحب والإحسان.

وإذا كان الحمد لله والثناء عليه مرجعهما وأساسهما التربية من الله للعالم فما أجدر المؤمن ان يتخلق بخلق الله، وان يلتبس الحمد والثناء

من هذا السبيل الكريم. فمن حمّله الله مسؤولية التربية من إمام أو معلّم أو أحد الزوجين فإن عليه أن يعتبر ما كلف برعايته أمانةً عنده

من المربي الاعظم سبحانه، فليمض فيها على سنن الرحمة والاحسان لا الجبروت والطغيان. ان ذلك أوفى الآن يصلح الله به، وأقرب

ان تناله رحمته.

{مالك يوم الدين} : قرىء: «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» و «مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ» قراءتان يدل مجموعهما على ان المَلِك والمَلِك في يوم القيامة لله وحده.

{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الأنفطار: ١٩] لا يشاركه في ذلك أحد من خلق.

وللفظ «الدين» معان كثيرة، منها المكافأة والعقوبة، وهذا المعنى يناسب المقام.

وفي هذا تربية أخرى للعبد، فإنه إذا آمن بأن هناك يوماً يظهر فيه احسان المحسن، واساءة المسيء، وأن زمام الحكم في ذلك اليوم

العظيم بيد الله تكون عنده خلق المراقبة، وتوقع المحاسبة، فكا ذلك أعظم سبيل لإصلاح كل ما يعمل.

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} : نخصّك بالعبادة ونخصّك بطلب المعونة. والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلّل، لذلك لم يستعمل اللفظ

الا في الخضوع لله تعالى، لأنه مولي أعظم النعم، فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع.

أمرنا الله تعالى أن لا نعبد غيره لأنه هو الإله الواحد لا شريك له. وترشدنا عبارة {وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة.

أحدهما: أن نعمل الاعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا، لأن طلب المعونة لا يكون الا على عمل يود المرء أن يبذل فيه طاقته، فهو يطلب المعونة على اتمامه.

وثانيهما: قصر الاستعانة بالله عليه وحده.

وليس في هذا ما ينافي بين الناس.

{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢] .

فان هذا التعاون في دائرة الحدود البشري لا يخرج عنها.

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن. وسرها هذه الكلمة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فالقسم الأول من الآية تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله جلّ جلاله.

{اهدنا الصراط المستقيم} : هداه الله هُدىً وَهْدَايَةً الى الإيمان أرشدح، وهداه الى الطريق وهداه الطريق وللطريق بَيِّنَةً له وعرفه به.

والهداية دلالة بلطف، كما يقول الراغب الاصفهاني، والصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا عوج فيه ولا انحراف.

والصراط المستقيم هنا هو جملة ما يوصل الناس الى سعادة الدناي والآخرة من عقائد وآداب وأحكام من جهتي العلم، وهو سبيل الاسلام الذي ختم الله به الرسالات وجعل القرآن دستوره الشامل، ووكل الى الرسول الكريم تبليغه وبيانه. فالشريعة الاسلامية في جميع أمورها من عقيدة، واخلاق، وتشريع، وفي صلة الانسان بالحياة، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقة المسلمين بالأمم تأخذ الطريق الصائب، لا إفراط ولا تفريط. هذا هو الصراط المستقيم.

وهداية الله تعالى لا تحصى، نذكر منها:

أولاً: الهداية التي تعم كل مكلف بحيث يهتدي الى مصالحه، كالعقل والفطنة والمعارف الضرورية كما قال جلّ جلاله {الذي أعطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠] .

ثانياً: نَصَبُ الدلائل الفارقة بين الحق والباطل، والصالح والفساد: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠] ، وقوله: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧] .

ثالثاً: الهداية بإرسال الرسل وانزال الكتب: {وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} [الأنبياء: ٧٣] ، وقوله: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩] .

رابعاً: الكشف عن كثير من أسرار الأشياء كما هي، بالوحي والالهام والرؤيا الصادقة. وهذا القسم يختص بنيله الأولياء. والى ذلك اشار سبحانه وتعالى بقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ} [الأنعام: ٩٠] .

وقال ابن تيمية: «كل عبد مضطرب دائماً الى مقصود هذا الدعاء، أي هداية الصراط المستقيم. فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية، ولا وصول الى السعادة الا بها، فمن فاته هذا الهدى فهو إما من المغضوب عليهم، وإما من الضالين» . وهذا الاهتداء لا يحصل غلا يهدي الله {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً} [الكهف: ١٧] .

وقد بين الله تعالى هذا الصراط المستقيم بقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} .

اختلف المفسرون في بيان: الذين أنعم الله عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين وكتبوا وطولوا في ذلك. وأحسن ما قيل في ذلك ان الآية دلّت على أن الناس ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: أهل الطاعة {الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ٣٥] ، وهؤلاء هم الذين انعم الله عليهم.

الفرقة الثانية: الكافرون: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٦٧] ، وهؤلاء هم أهل النعمة المغضوب عليهم.

الفرقة الثالثة: هم المنافقون الحائرون، المترددون بين إيمانهم الظاهر وكفرهم الباطني {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠] فهم {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤] . وهؤلاء هم الضالون المتحيرون.

وقد فصل الله تعالى هذه الفرق الثلاثة في أول سورة البقرة كما سيأتي ان شاء الله.

قرأ ابن كثير برواية قبل، والكسائي عن طريق رويس «السرائ» بالسين في الموضعين، وقرأ الباقون «الصراط» بالصاد، وهي لغة قريش.

هذه هي سورة الفاتحة، وقد تكفل نصفها الاول ببيان الحقيقة التي هي أساس هذا الوجود: تقرير ربوبية الله للعاملين ورحمته ورحمانيته، وتفرد بالسلطان يوم الدين؛ وتكفل نصفها الثاني ببيان أساس الخطة العلمية في الحياة، سواء في العبادات أو المعاملات.

فالعبادة لله، الاستعانة به، والهداية منه بالتزام طريق الله، والبعد عن طريق الجادين والضالين المتحدّين.

هذا والمتتبع للقرآن جميعه، الواقف على مقاصده معارفه، يرى أنه جاء تفصيلاً لما أجملته هذه السورة الكريمة.

بهذا كانت «فاتحة الكتاب» و «أم القرآن» و «السبع المثاني» والسورة الوحيدة التي طُلبت من المؤمنين في كل ركعة من كل صلاة.

٢ البقرة

٢٠١ 1

بدئت سورة البقرة بهذه الحروف الثلاثة، وهي تُقرأ حروفاً مفرقة، لا لفظاً واحدة، وفي القرآن عدة سور بدئت بحروف على هذ النحو، منها البقرة آل عمران مدينتان والباقي سور مكية.

وقد جاءت بدايات هذه السور على أنواع: منها ما هو حرف واحد مثل «ص. والقرآن ذي الذكر» . «ق. والقرآن المجيد» «ن. والقلم وما يسطرون» ؛ ومنها ما هو حرفان، مثل «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» . «يس والقرآن الحكيم» . «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم» ؛ ومنها ما هو ثلاثة أحرف أو أكثر مثل «الم» «المص» «كهيعص» و «حم عسق» الخ.

وهذه الحروف أربعة عشر حرفاً، جمعها بعضهم في عبارة «نص حكيم قاطع له سر» . والعلماء في تفسير معنى هذه الحروف فرقان: فريق يرى أنها مما استأثر الله بعلمه. ولم يرد عن النبي ﷺ المراد منها، فالله أعلم بمراده.

وفريق يقول: لا يجوز ان يرد في كتاب الله ما ليس مفهوماً للخلق. وهؤلاء اختلفوا في تفسير هذه الحروف اختلافاً كثيراً. فبعضهم يقول إنها أسماء للسور التي بدئت بها؛ وبعضهم يعتبرها رموزاً لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته، فالألف مثلاً إشارة الى انه تعالى «أحد، أول، آخر، أبدي، أزلي» ، واللام مثلاً إشارة الى انه «لطيف» ، والميم الى انه «ملك، مجيد، منان» الخ.

اما الرأي الأشهر الذي اختاره المحققون فهو: انها حروف أنزلت للتنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، وفي متناول المخاطبين به من العرب، فهو يتخداهم ان يصوغوا من تلك الحروف مثله، وهم أمراء الكلام، واللغة لغتهم هم.

من هذه الحروف يصوغ البشر كلاماً وشعراً، ومنها يجعل الله قرآناً معجزاً، فما أعظم الفرق بين صنع البشر وصنع الله!

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} .

ذلك: اسم إشارة للبعيد كناية عن الإجلال والرفعة، ولذا لم يقل سبحانه «هذا هو الكتاب» . المعنى: هذا هو الكتاب الكامل، القرآن، الذي أنزلناه على عبدنا، لا يرتاب في ذلك عاقل منصف، ولا في صدق ما اشتمل عليهِ من حقائق وأحكام. وقد جعلنا فيه الهداية الكاملة للذين يخافون الله ويعملون بطاعته، قد سمت نفوسهم فاهتدت الى نور الحق والسعي في مرضاة الله. و «فيه» هنا لا تفيد الحصر، بل الشمول، لكنه ليس كتاب علم، بالمعنى الحديث، وإنما هو كتاب كامل في الدين. أما {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} فإنها تعني: من شيء متعلق بالدين، لا بالعلوم الطبيعية التي يستجد منها كل عصر نصيب.

المتقون: جمع متقٍ، وهو المؤمن المطيع لأوامر الله. وأصلُ الالتقاء هو اتخاذ الوقاية التي تحجز عن الشر، فكأن المتقي يجعل امتثال أوامر الله حاجزاً واقياً بينه وبين العقاب الإلهي، وهؤلاء المتقون هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: الذين يؤمنون بالغيب الآيات ٣٥.

٢٠٢ 3

الذين يصدّقون بما غاب عنهم علمه، كذات الله تعالى وملائكته، والدار الآخرة وما فيها من بعث ونشور، وحساب، وجنة ونار. ويطيعون الصلاة: يؤدون الصلاة المفروضة عليهم خاشعين لله، وقلوبهم حاضرة لمراقبة خالقهم. وإقامة الصلاة توفية حقوقها وإدامتها. وقد أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، وطلب أن تكون تامة وافية الشروط، فقال: {أَقِمِ الصَّلَاةَ} ، و {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ} . . هذا يعني أنهم يوفونها حقها. وعندما ذم المنافقين قال: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٤] وفي ذلك تنبيه على أن المصلين كثير، والمقيمين قليل. وقد نوه القرآن كثيراً بالصلاة وحثّ على إقامتها في كثير من الآيات، لأثرها العظيم. في تهذيب النفوس والسمو بها الى الملكوت الأعلى. وسيأتي تفصيل ذلك في كثير من الآيات. . .

{وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} الرزق كل ما ينتفع به من المال والثمار والحيوان وغيره. والإنفاق العطاء. . يعطون من أموالهم التي رزقهم إياها الله الى المحتاجين من الفقراء والمساكين وذوي القربى واليتامى وأمثالهم. وكذلك ينفقون في سبيل الله للجهاد وفي الدفاع عن الوطن، ولبناء المساجد والمدارس والمستشفيات. ومساعدة كل مشروع فيه نفع للناس. فكما أن الله يرزقهم يجب عليهم أن ينفقوا، لأن الدنيا أخذ وعطاء. والواقع اليوم أن كثيراً من الناس قد بات همهم جمع المال وتكديسه، فأولئك ليسوا من المتقين. وآية الانفاق هنا أن يكون في وجه الخير ونفع الناس، أما على الترف والمباهاة وفي طريق السفه فإن الانفاق تبذير ممجوج بمقتة الله، وعلى المسلمين أن يوقفوه ولو كان ذلك عن طريف العنف. ان أموال الله التي في يد المسلمين هي لكافّتهم بالخير، لا لقلّتهم بالضلالة.

والمتقون هم الذين يؤمنون بالقرآن الذي أوحى اليك، وبما بينت لهم من الدين وما فيه من أحكام وحدود. والإنزال هنا هو الوحي من العليّ القدير. وكذلك يؤمنون بما أنزل من قبلك على الرسل الكرام من التوراة والإنجيل والزبور والصحف. وبها يمتاز الاسلام عن غيره ويفضله. لأن المسلم الحق يؤمن بجميع الديانات السماوية وجميع الأنبياء والرسل.

{وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} اليقين حقيقة العلم. أيقن الأمر وبالأمر، تحققه. والذين يصدّقون حق اليقين بأن هناك حياة أخرى بعد الموت، فهم يؤمنون بها ايماناً قاطعاً لا تردد فيه. صفات المؤمن الحق. الايمان بالغيب. مع التقوى. وإقام الصلاة التي هي صلة بين العبد وربّه. ثم السخاء بجزء من الرزق اعترافاً وشعوراً بالإخاء. وسعة الضمير لموكب الايمان العريق المتلاحق بالوحي، والشعور بأصرة القربى لكل مؤمن بنبيّ صاحب رسالة، ثم اليقين باليوم الآخر بلا تأرجح في هذا اليقين.

الهدى: التوفيق والرشاد. والفلاح: الفوز والنجاة. إن الذين تقدمت صفاتهم في التقوى والايمان بالغيب والعطاء وتصديق جميع الرسل والاديان السماوية واليقين بالآخرة هم المهتدون الظافرون برضى الله وهده وأولئك هم أهل الفلاح والفوز والنجاة.

هذه صورة من ثلاثة صور استعرضها القرآن لثلاث فئات: الاولى التي تقدّم وصفها هي جماعة المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى في

آيتين. والثانية: الكافرون الجاحدون، وقد وصفهم تعالى أيضا في آيتين. والفئة الثالثة: المنافقون، وقد ذكرهم الله تعالى في ثلاث عشرة آية. بهذا يتبين لنا ان الناس أمام القرآن ثلاث طوائف تقدمت الطائفة المؤمنة.

٢٠٣ 6

المفردات

الكُفْر: ستر الشيء وتغطيته، ومن كفر فقد غطى الحقيقة وستر نعم الله عليه، ووجد الإيمان. والخنم: الطبع، كأنما خُتم على قلوبهم فلا ينفذ إليها الإيمان. والغشاوة: ما يغطي به الشيء.

ان هؤلاء الكافرين ميئوس منهم، سواء أخوَقْتهم يا محمد أم لم تفعل، فهم لا يؤمنون. لقد أغلقت قلوبهم وطُبع عليها ففي سمعهم ثقل وعلى أعينهم حجاب. وذلك ما فسدت به فطرتهم من أوهامهم الضلالة، وقصور استعدادهم لادراك الحق. {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ} [فصلت: ٥]. أولئك هم الكافرون، لهم عذاب أليم. فلا يؤثر فيهم موعظة ولا تذكير ولا يرجى تغيير حالهم، ولا أن يدخل الإيمان في قلوبهم.

هذه هي الصورة الطائفة الثانية، وقد بين الله أوصافها في كثير من آيات القرآن وعبر عنها بالكافرين، والفاسقين، والخاسرين، والضالين، والمجرمين.

والصورة الثالثة هي صورة المنافقين، الطائفة التي ظهرت في المدينة بعد الهجرة، وبعد أن ترك «ز المسلمون وقيت شوكتهم، فضعفت هذه الطائفة عن المجاهرة بالكفر والعناد. لذلك ظلوا كافرين في قلوبهم وإن ظهروا بين المسلمين كالمسلمين: يقولون كلمة التوحيد ويصلون كما يفعل المسلمون. لقد ظنوا أنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين، ومن ثم اتخذوا لأنفسهم وجهين. وما ابتلي المسلمون في أي زمان ومكان بشر من هذه الطائفة: انها تدبر المكائد، وتروج الأكاذيب، وتتفت سحوم الشر والفتن. وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم، والتحذير منهم، حتى لا نكاد نجد سورة مدنية تخلو من ذكرهم، بل وقد نزلت فيهم سورة كاملة سميت باسمهم» المنافقون ».

٢٠٤ 8

أما هنا فقد جاء فيهم ثلاثة عشرة آية تبين فيها صفاتهم وحقيقتهم وخطتهم في الضلالة. هذا شرح وتفصيل لأحوال المنافقين وخداعهم، وهم أحبث الناس، لأنهم ضماو على لا كفر الاستهزاء والخذاع والتويه، فنعى الله عليهم مكرهم وخداعهم بقوله ما معناه: ان بعض الناس قوم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وهم كاذبون. انما يقولون ذلك نفاقاً وخوفاً من المؤمنين. وهم بعملهم هذا يظنون أنهم يخادعون الله، ظناً منهم انه غير مطلع على خفاياهم. لكنهم في الواقع انما يخادعون أنفسهم، لأن ضرر عملهم لاحق بهم. والله يعلم دخائل أنفسهم. ان هؤلاء القوم في قلوبهم مرض الشك والعناد والحسد، فزادهم الله مرضاً على مرضهم، بنصره للحق، ولهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة جزاء ربايتهم.

القراءات:

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون غلا أنفسهم؟» وقرأ الباقون «وما يخادعون إلا أنفسهم».

٢٠٥ 11

المفردات:

الفساد: خروج الشيء عن حد الاعتدال. والصلاح ضده. والفسه: خفة في العقل وفساد في الرأي. واذا قيل لهؤلاء المنافقين لا تفسدوا في الارض بالصد عن سبيل الله، ونشر الفتن برأوا أنفسهم من الفساد، وقالوا انما نحن مصلحون. وما ذلك الا لفرط غرورهم، الذي أعماهم عن حقيقة كونهم جرائم الفساد، وأسباب الفتن والبلاء.

واذا قيل لهم: ادخلوا في الإيمان بهذا الدين العظيم الذي دخل فيه الناس، قالوا ساخرين: أتريدون منا ان نكون مثل هؤلاء الضعفاء السفهاء، نصدق الأوهام وننقاد للأضاليل! وذلك لأن كثيراً من المسلمين كانوا من الفقراء والموالي والعبيد مثل بلال وصهيب وسلمان الفارسي. وقد رد الله عليهم قولهم وتطاولهم وحكم عليهم بأنهم هم السفهاء، لكنهم لا يعملون حقاً ان النقص والسفه محصور فيهم. واذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين، قالوا: آمنا بما آمنتم به وصدقنا الرسول وقبلنا دعوته، نحن معكم. واذا اجتمعوا بشياطين الكفر من اخوانهم الضالين، قالوا لهم: نحن معكم، انما قلنا للمؤمنين ما علمتم استخفافاً بهم واستهزاء بعقولهم. ولقد روي ان عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين، كان مع اصحابه فقدم عليهم جماعة من الصحابة. فقال عبد الله لقومه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم. فأخذ بيد أبي بكر وقال: مرحبا بالصدیق، سيد بني تيم، وشيخ الاسلام، والثاني رسول الله في الغار. ثم أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: مرحبا بسيد بني عدي، والفاروق، والقوي في دينه، الباذل نفسه وماله لرسول الله. ثم أخذ بين علي رضي الله عنهم فقال: مرحبا بابن عم رسول الله، وختنه، سيد بني هاشم ما خلا رسول الله. فنزلت هذه الآية.

هذا هو عبد الله بن أبي الذين كان الأوس والخزرج في يثرب يريدون ان يتوجه ملكاً عليهم قبل هجرة الرسول. فلما تمت الهجرة وأسلم معظم الخزرج وجميع الأوس، أُلغيت فكرة ملكيته، ففقد عبد الله على الاسلام وحسد النبي على فضله، لكنه عجز عن اظهار حنقه فنافق، وأصبح يكيّد للمسلمين سراً وإن جاهر بالاسلام زوراً. ورد الله عليهم بقوله: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} أي يجازيهم على استهزائهم ويكتب عليهم الهوان، ويمهلهم في عمامهم عن الحق، ثم يأخذهم بعذابه. ان مثل المنافقين مثل الذين باعوا الهدى، واشتروا به الضلالة. فكانوا كالتاجر الذي يختار لتجارته البضاعة الفاسدة فتكسد وتبور. بذلك لا يربح في تجارته، ويخسر ماله. والضلال والضلّ الهدى.

٢٠٦ 17

المفردات:

المثل والمثل كالشبه والشبه، يستعمل في تمثيل حالة الشيء وبيانه. وللمثل وقع كبير مؤثر في الكلام. وقد اكثّر القرآن من ضرب الأمثال {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ} [العنكبوت: ٢٩]. شبه الله حال المنافقين بقوم أوقدوا ناراً لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أنارت ما حولهم من الأشياء ذهب الله بنورهم، وترك موقديها في ظلمات كثيفة لا يبصرون معها شيئاً. وذلك لأن الله تعالى قدّم لهم أسباب الهداية فأبصروا وعرفوا الحق بالإيمان، ثم عادوا الى النفاق والكفر. انهم لم يتمسكوا بهداية الله، فصارت بصائرهم مطموسة بسبب نفاقهم وتذبذبهم، فاستحقوا ان يبقوا في الخيرة والضلال. وهؤلاء كالصم، لأنهم فقدوا منفعة السمع، إذ لا يسمعون الحق سماع قبول واستجابة. وهم كالكم أي الخرس، لأنهم لا ينطقون بالهدى والحق. كذلكهم كالذين فقدوا ابصارهم لأنهم لا ينتفعون بها ولا يعتبرون. لقد سُدت عليهم منافذ الهدى وظلوا حائرين في ظلمة الكفر والنفاق فهم لا يرجعون عن ضلالهم. وتبين حقيقتهم في سورة المنافقين {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}.

والله سبحانه وتعالى لما وصفهم في الآية السابقة بأنهم اشتروا الضلالة لأنفسهم الهدى الذي تخلّوا عنه مثل هداهم الذي باعوه بالنار المضیئة لما حولها، ومثل الضلالة التي اشتروها بذهاب الله بنورهم وبقائهم في ظلمات لا يبصرون.

وهناك صورة اخرى للمنافقين، وهي صورة مفزعة تبين حالهم في حيرتهم بعد كذبهم على الله والناس وعلى أنفسهم مثل قوم نزل عليهم «صيب من السماء»، أي سحاب فيه مطر شديد ورعد وصواعق، في ليلة مظلمة. لقد ارعدت السماء وأبرقت، ولم يجد القوم ملاذاً

يلتجئون اليه الا خداع أنفسهم. لقد أخذوا يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا، ويرتجفون خائفين من الموت لا يدرون الى اين يهربون.

ذلك فرقهم من الرعد، أما البرق الشديد الوهج فهو يكاد يخطف أبصارهم من شدته، وكلما أضاء لهم مشوا في ضوئه خطوات، ثم يزول. واذا ذاك يشتد الضلام فيقفون متحيرين ضالين.

وهذه صورة ناطقة لحال المنافقين: تلوح لهم الدلائل والآيات فتبهرهم أضواؤها، فيهمون ان يهتدوا، لكنهم إذا خلوا الى شياطينهم من اليهود عادوا الى الكفر والنفاق. ولو أراد الله لأذهب أسماعهم وأبصارهم من غير إرعاد ولا برق، فهو واسع القدرة لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لكنه جاء بالصورة المذكورة تقريباً لغير المحسوس بالمحسوس، ومن باب ضرب المثل.

انه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال وفيه هو ورعب، وفيه فرع وحيرة. . والحق ان الحركة التي تعمّر المشهد كلّ لتصور موقف الاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها اولئك المنافقون. فيا له من مشهد حيّ يرمز لحالة نفسية، ويجسم صورة شعورية. وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال لنفوس كأنها مشهد محسوس.

٢٠٧ 21

بعد ان استعرض الله تعالى طوائف الناس الثلاث: المؤمنين المتقين، والكافرين، والمنافقين وجه دعوة للناس جميعاً الى عبادته والايان بالكاتب الذي أنزله على عبده محمد ﷺ، وخاطبهم ب {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} ، فصوفهم بهذه الإنسانية التي هي عنوا على العقل والنظر والتدبر. يا أيها الناس اعبدوا ربكم. الذي أنشأكم وخلقكم كما خلق الأقسام الذين سبقكم. إنه خالق هذا الكون وكل شيء فيه. اعبدوه لعلمكم تعدون أنفسكم وتهيئونها لأن تطهر بفضل عبادتها له فيسهل عليها ان تدعن للحق.

وبعد ان أرشدهم الرحمن الى دلائل التوحيد وحثهم على عبادة الخالق العظيم أشار لهم الى دلائل وحدانيته من آيات قدرته المحيطة بهم في أرضه وسماؤه، وبصرهم بما أنعم عليهم فيها من وسائل الحياة، وموارد الرزق فقال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا} مهده بقدرته وبسط رقعته بحكمته كما يسهل عليكم العيش فيها والانتفاع بها. والبسط والتهديد هنا لا يعني كروية في الشكل ولا عدمها، وانما يعني تذييل الأرض لنفع الانسان. لكن الله بسط لنا في الأرض السهول، وجعل لنا فيه الجبال الشاهقة والبحار العميقة، والأنهار الجارية والأودية السحيقة: كل ذلك جعله لنا، نتمتع بكافة خيراتها العديدة الأصناف. اما فوقنا فقد جعل السماء وأجرامها وكواكبها المتراسة في نظرنا كالنبيان المشيد. ومن هذه السماء أمدنا جلّ وعلا بسب بالحياة والنعمة. ألا وهو الماء، أنزله علينا يغيثنا به فجعله سبباً لأخراج النبات والشجر المثمر. لذا فإن من عمى البصيرة والبصر أيها الناس ان جعلوا لله أندادا. وفلا تفعلوه. إذ من الغيّ وحده أن تنصروا ان لله نظراء، ثم تأخذون تعبدونهم كعبادته. انه خالقكم، ليس له مثيل ولا شريك، وأنتم بفطرتكم الأصلية تعلمون انه لا مثيل له ولا شريك، فلا تحرفوا هذه الطبيعة. نعم ان كثيراً من مشركي العرب كانوا يعتقدون بالإله لكنهم يتذرعون بقولهن: انما نعبد هذه الأصنام لتقربنا الى الله. . فهل الله حاجة الى وثن يتخذ واسطة بينه وبين عبادهن!!

وفي هذه الآية جزء من دلائل الإعجاز في القرآن الكريم: وهو قوله تعالى {السماء بناءً} ، ففي ذلك معنى ما كان يمكن أن يعرفه النبي الأمي غلا بوحى من الله. فالسماء في المعنى العلوي هي كل ما يحيط بالأرض في أي اتجاه، وإلى أي مدى، وعلى أية صورة، ويشمل ذلك الجو المحيط بالأرض الى ارتفاعات تنتهي حيث يبدأ الفراغ الكوني الشاسع بما فيه من الأجرام السماوية المنتشرة في اعماقه السحيقة على اختلاف أشكالها وأحجامها. وهي تتحرك في نظام بديع عجيب، على أساسه يتوالى ظهورها واختفاؤها لسكان الأرض. وهي جميعاً في دورانها وترباطها بقوى الجاذبية، كالنبيان في تماسكه واتزانه، وتدرجه طبقة بعد طبقة.

وكل هذا لم يكن معروفاً للعلم في عصر محمد ﷺ.

وفي الجزء الأدنى من السماء، وهو الحد المحيط بالأرض القريب منها مباشرة توجد الطبقات الجوية المختلفة الواقية من الإشعاعات

الضارة عن أرجاء الكون، والتي لا تسمع الا للأشعة المنيرة منها بالنفاذ، فهي كالمضلات الواقية. وفي هذه الطبقة يكون السحاب ومنه المطر.

وبعد أن بين الله للناس انه هو الخالق الواحد المعبود بحق، وانه المنعم بكل ما في الوجود برف قائلا: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} وذلك لا، المشركين كانوا ينكرون الراسلة وأن القرآن وحي من عند الله. لذا طلب اليهم، لتبرير شكهم وإنكارهم، عند أنفسهم، أن يأتوا بسورة واحدة تضرع أياً من سور القرآن في بلاغتها وإحكامها وعلومها وسائر هدايتها. وحجتهم قائلاً: نادوا الذين يشهدون لكم أنكم أنتم بسورة مماثلة. استعينوا بهم في اثبات دعواكم. غير انكم لن تجددهم. . وهؤلاء الشهود هم غير الله حكماً، لأن الله يؤيد عبده بكتابه، ويشهد له بأفعاله.

ثم ينتقل الى التحدي والتحذير فيقول: {فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} . فإن لم تستطيعوا ان تأتوا بسورة من مثل سور القرآن ولن تستطيعوا ذلك بحال من الأحوال، لأن القرآن كلام الهل الخالق، فهو فوق طاقة المخلوقين فالواجب عليكم ان تجتنبوا ما يؤدي بكم الى عذاب الآخرة، وإلى النار التي سيكون وقودها الكافرين من الناس والحجارة من أصنامكم، والتي أعدها الله لتعذيب الجاحدين أمثالكم.

ولقد سجل القرآن على المشركين المكابرين واقع العجز الدائم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، بل جزء منه أو سورة واحدة. وذلك من إعجاز القرآن. لأن التحدي ظل قائماً في حياة الرسول الكريم رغم وجود الفصحاء والبلغاء من خطباء العرب وشعرائهم وكبار متحدثيهم. ولا يزال قائماً الى يومنا هذا والى يوم الدين. وحيث عجز بلغاء ذلك العصر وفصحائهم. فإن سواهم أعجز. في هذا أكبر دليل على ان القرآن ليس من كلام البشر، بل هو من الخالق العظيم، انزله تصديقاً لرسوله محمد بن عبد الله، الرسول الأمي الذي لم يجلس الى معلم، ولم يدخل أية مدرسة.

وبعد أن حذر المكذبين المعاندين وأنذرهم بعقاب الفجار في نار لاهبة أخذ يبشّر المؤمنين المتقين بالجنة. لقد أذعنوا للحق دون شك أو ارتياب، وعملوا الأعمال الصالحة الطيبة، فبشّرهم يا محمد بما يسرهم ويشرح صدورهم: لقد أعد الله لهم عنده جنات تتخللها الأنهار الجارية تنساب تحت أشجارها وبين قصورها، وكلها نالوا رزقاً من بعض ثمارها قالوا: هذا شبيه ما رزقنا الله في الدنيا من قبل. ومع أن الثمرات التي ينالونها اذ ذاك تشابه في الصورة والشكل والجنس مع مثيلاتها في الدنيا فهي تتميز عنها في الطعم واللذة. ولهم في الجنة زوجات رضيّات، مطهرات من الخبث والدنس، هن أرفع من المكر والكيد ومساوء الاخلاق. هناك سيقون في الحياة الخالدة، ويعيشون في النعيم المقيم.

٢٠٨ 26

المفردات:

ضربُ المثل أرادَهُ لِيُتِمَّلَ بِهِ وَيُتَصَوَّرَ مَا ارَادَ الْمُتَكَلِّمُ بَيَانَهُ. يقال: ضرب الشيء مثلاً، وضرب به مثلاً، وتمثله به. وقد وردت عبارة ضرب المثل في القرآن في عدة آيات: {واضرب لهم مثلاً} [الكهف: ٣٢] {ياأيها الناس ضرب مثلاً فاستمعوا له} [الحج: ٧٣] . . {واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية} [يس: ١٣] .

وهذه الآية جاءت رداً على الكفرة المعاندين حيث قالوا أما يستحي رب محمد ان يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت! فبين الله تعالى انه لا يعتبر به ما يتعري الناس من استحياء، فلا مانع من ان يصور لعباده ما يشاء من أمور بأي مثل مهما كان صغيراً، بعوضة فما فوقها. فالذين آمنوا يعلمون ان هذا حق من الله، أما الذين كفروا فيتلقونه بالاستنكار. وفي ذلك يكون المثل سبباً في ضلال الذين يجانبون الحق وسبباً في هداية المؤمنين به.

وقد وصفهم تعالى بقوله: {الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} اي الذين تركوا العمل بعهد الله، وهو صيته لهم وأمره إياهم بلزوم

طاعته وتحاشي معصيته. وعهدُ الله هو العهد الذي أنشأه في نفوسهم بمقتضى الفطرة، تدركه العقول السليمة، وتؤيده الرسل والأنبياء. أما نقضهم له فهو أنهم يقطعون ما أمر الله به ان يكون موصولا، كوصل الأقارب وذوي الأرحام، والتواد والتراحم بين بني الإنسان، وسائر ما فيه عمل خير. وعلاوة على ذلك تجدهم يفسدون في الارض بسوء المعاملة، وإثارة الفتن وأيقاد الحروب وافساد العمران. وجزاء هؤلاء أنهم هم الخاسرون، لكل توادٍ وتعاطف وتراحم بينهم وبين الناس في الدنيا ولهم الخزي والعذاب في الآخرة.

٢٠٩ 28

يقوم الاسلام على أصول ثلاثة هي: توحيد الله بالعبادة، والإقرار برسالة سيدنا محمد، والايان بالبعث والنشور. هذه هي أصول الدين عند الله، بعث بها كل نبي، وطلبها في كل كتاب، وأرسل محمداً عليه الصلاة والسلام يحددها في القلوب ويحييها في النفوس. والعبادة الكاملة هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

على هذا درج القرآن يوقظ العقول، وينبه الناس الى هذه الأصول، فهو يوجه الأنظار على الدوام الى الأدلة الكونية الدالة على حقيقة الدعوة، واستبعاد ان يكفر انسان ذو عقل بها بعد ثبوتها في الأنفس والآفاق: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ. ٠} إن حالكم نثير العجب! كيف تكفرون أيها المشركون والجاحدون ولا توجد شبهة تعتمدون عليها في كفركم؟ إنكم لو نظرت في أنفسكم، وعرفتكم كيف كنتم وإلى أين سترجعون، لأفقتكم من غفلتكم هذه. لقد كنتم أمواتا في حالة العدم، نخلقكم الله ووهبكم هذه الحياة جاعلاً إياكم في أحسن تقويم. ثم انه تعالى يعيدكم أمواتا، ثم يعيدكم أحياء للحساب والجزاء يوم القيامة، إنكم إليه لا إلى غيره تعودون.

ثم بين الله في الآية للناس نعمة أخرى مترتبة على خلقهم وإيجادهم، وهي أنه هو الذي تفضل على الخلق خلقاً لمنفعتهم كل هذه النعم الموجودة في الارض، توجهت ارادته الى السماء فجعل منها سبع سموات منتظمات، فيها ما ترون أيها الناس وما لا ترون، والله محيط بكل شيء.

ولكلمة «استوى» عدة معانٍ، فيقال: استوى أي اعتدل، وسويت الشيء فاستوى عدلته فاعتدل، واستوى الطعام نضج، والعود استقام، والرجل انتهى شبابه وبلغ أشده واستقام أمره. واستوى على دابته استقر، وعلى سرير الملك جلس واستوى عليه، واستوى إلى الشيء قصد.

يصح أن يراد بـ «سبع سموات» الطبقات المختلفة لما يحيط بالارض. وذلك ان الله تعالى بعد ان أكل تكوين الأرض ودبت الحياة على سطحها كيف سبحانه جو الأرض المحيط بها بما يلائم هذه الحياة ويحفظها من أهوال الفضاء. وهكذا كانت طبقات الجو المختلفة، ودوائر التأمين في الفراغ الكوني الذي يحدثنا العلم عن بعضها. والحق ان هذه الطبقات لم تُعرف الا من جديد، ولا يزال علم الفلك حتى الآن في طفولته، فأني لمحمد ان يعلم هذه الأمور إلا من الله العلي الحكيم! لقد بعثه بالحق وأنزل عليه الوحي وعلمه بالقرآن ما لم يكن يعلم.

٢٠١٠ 30

ان أمر الخليفة، وكيفية تكوين هذا الكون على هذه الصورة. وخلق الحياة فيه. هي من الشئون الإلهية التي حيرت العقول. والتي يعزّ الوقوف عليها كما هي. وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الانسانية بطريقة لطيفة. ومثل لنا المعاني في صور محسوسة وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار.

ويعتبر بعض العلماء هذا النوع من القصص في القرآن من المتشابه الذي لا يمكن حمله على ظاهره. ذلك أن هذه الآيات بحسب قانون التخاطب إما ان تكون استشارة. وذلك محال على الله تعالى. واما ان يكون إخباراً منه سبحانه وتعالى للملائكة واعتراضاً منهم ومحاكاة وجدالا، وذلك لا يليق بجلال الله ولا بملائكته الذين {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحریم: ٦].

وللعملاء في هذا النوع من المتشابه طريقتان:

الاولى: طريقة السلف وهي التنزيه كقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] وقوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصفات: ١٨٠] وتفويض الأمر الى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به من أعمالنا، ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا ويصروها لخيالاتنا.

والثانية: طريقة الخلف وهي التأويل، يقولون: ان قواعد الدين الاسلامي وضعت على أساس العقل. فمن ثم لا يخرج شيء منها عن العقول، فإذا ورد في القرآن أو الحديث شيء يخالف العقل حسن تأويله حتى يقرب الى الأذهان.

وعلى هذا قالوا: ان قصة الخلق انماوردت مورد التمثيل لتقريبها من أذهان الناس، ولفهم حالة خلق الانسان وحال النشأة الاولى. لذا بين الله سبحانه انه هو الذي أحيا الانسان ومكن له في الارض، ثم بين بعد ذلك أصل تكوين الانسان وما أودع فيه من علم الأشياء وذكره به. . فاذكريا محمد نعمة أخرى من ربك على الانسان، وهي أنه قال للملائكة: إني جاعل في الأرض من أمكنه فيها وأجعله صاحب سلطان، وهو آدم وذريته. وانها لمنزلة عظيمة وتكريم كبير لهذا الانسان!

فاستفهم الملائكة عن سر ذلك قائلين: أتجعل في الأرض من يفسد فيها بالمعاصي وسفك الدماء بالعدوان، لما في طبيعته من شهوات، بينما نحن ننزهك عما لا يليق بعظمتكم ونظهر ذكرك ونجّذك؟ فأجابهم الله بقوله: إني أعلم ما لا تعلمون، من المصلحة في ذلك. لقد أودعت في السر ما لم أودعه فيكم.

وفي هذا ارشاد للملائكة وللناس ان يعلموا أنّ أفعاله تعالى كلّها بالغة غاية الحكمة والكمال، وإن لم يفهموا ذلك من أول وهلة. وقال فريق من المفسرين: ان قول الملائكة: «أتجعل فيها من يفسد في الأرض ويسفك الدماء» يُشعر بأنه كان في الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق، وانه كان قد انقضى يوم خلق الانسان، وقدر الملائكة ان الصنف المستخلف الجديد، أي آدم وذريته، لن يسلك الا مثل ما سلك سابقوه، وقاسوا فعله اللاحق على فعل السلف السابق، من إفساد وسفك دماء. .

من ثم استنبطوا سؤالهم وكأنهن اعتراض، مع انه تقرير مبني على قياس. واذا صح هذا فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض، وانما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة البائدة منه في الذات والمادة، كيما يصح القياس.

وهذه الآية تجلّي حجة الرسول ودعوته من حيث أنه: اذا كان الملائكة محتاجين الى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله تعالى بالطريقة التي تناسب حالهم، فإن البشر أولى منهم في إنكار مال لم يعرفوه حتى يعلموا؛ وأن الافساد في الارض وجود الحق ومناصبه الداعي اليه العداء ليس بدعاً من قريش، وانما هو طبيعة البشر.

والملائكة والملائك جمع ملك تؤمن بوجودهم ولا نعرف عنهم الا ما ورد في الكتاب. إنهم أرواح علوية مطهرة، يعبدون الله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ولفظة ملك في اللغة معناها الرسالة. ويقول الطبري: سميت الملائكة ملائكة بالرسالة لأنه رسل الله الى أنبيائه.

نسبح بحمدك: نصليّ لك، وننزهك ونبرّئك مما يضيفه اليكم أهل الشرك. ونقدس لك: نعظمك ونجّذك. وكل ذلك اقراراً بالفضل وشكرنا لله على خلقهم.

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا.} الآية آدم أبو البشر، وجمعه أوادم، يجوز أن يكون لفظه عربياً. واشتقاقه من الأدمة، وهي السُمرّة الشديدة، أو من أديم الارض اي قشرتها لأنه خُلق من تراب: «ان الله خلق آدم من قبضة قبّضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منه الأحمر والأبيض وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب». .

قال السهيلي في «الروض الأنف»: قيل؛ ان آدم عربي، أو عبراني، أو سرياني (وهذا ظنّ مردود، والحقيقة لا يعلمها غلا الله). . وعلمه اسماء جميع الأشياء وخواصها، وأودع في نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين (ونحن نصرف ذلك الى انه أودع فيه القدرة على الإدراك والتمييز، لا علمه لفظات معينة في لغة بعينها). . وبعد أن علمه أسماء الأشياء وخواصها ليتمكن في الأرض عرض

هذه الأشياء على الملائكة وقال لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء وخواصها ان كنتم صادقين في ظنكم أنكم أحق بخلافة الأرض من هذا المخلوق الجديد، انطلاقاً من واقع طاعتكم لي وعبادتكم إياي. فقالوا: سبحانك ربنا، إننا ننزهك التنزيه اللائق بك، ونقر ونعترف بعجزنا، فلا علم عندنا الا ما وهبتنا إياه، انك أنت العالم بكل شيء، والحكيم في كل أمر تفعله.

فلما اعترفوا بعجزهم قال الله تعالى لآدم: أخبرهم يا آدم بهذه الأشياء. فأجاب آدم وأظهر فضله عليهم. فقال الله تعالى مذكراً لهم بإحاطة علمه: ألم أقل لكم إني أعلم كل ما غاب في السماوات والارض، وأعلم ما تظهرون في قولكم، ما تخفون في نفوسكم!!

وفي هذه الآية دليل على شرف الانسان على غيره من سائر المخلوقات حتى الملائكة، وانه أفضلهم. وفيها دليل على فضل العلم على العبادة، وان العلم أساس مهم في الخلافة في هذه الارض، فالأعلم هو الأفضل، يؤيد ذلك قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩]. ولقد قام الدين الإسلامي على العلم، فلما تأخر المسلمون عنه تقدّمهم غيرهم.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ. . .} الآية اذكر يا محمد حين قلنا للملائكة اسجدوا بسجود خضوع وتحيّة لآدم (لا سجود عبادة، فالمعبود هو الله وحده) فصعدوا للأمر الرباني وسجدوا. وقد جاء السجود في القرآن بمعنى غير العبادة كما هو هنا، وفي سورة يوسف: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف: ١٠٠] أي تحية، كما هي العادة التي كان الناس يتبعونها في تحية الملوك والعظماء. ولقد سجد الملائكة كلهم أجمعون الا إبليس أبى وامتنع. لقد استكبر، فلم يطع أمر الحق، ترفعاً عنه، وزعماً بأنه خير من آدم، كما ورد في سورة الأعراف {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]. وكان من الكافرين بنعم الله وحكمته وعلمه.

وقد التبس على بعض الغربيين أمر السجود، وذلك ديدنهم في النقد كلّها وجدوا له فرصة في قصص القرآن. قال: بابيني «الايطالي صاحب كتاب» الشيطان «:» انه يستغرب ان يؤمر إبليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن في تحريم الشرك وتنزيه الوحداينة الإلهية. «فهو إما أنه لا يعرف ان السجود قد يكون للتحية والتكريم. أو انه من اولئك المتعصبين الذين لا يريدون ان يفهموا. وهؤلاء لا حيلة لنا معهم، وهم في الغرب كثيرون.

وإبليس: أشهر اسم للشيطان الأكبر، ومن أشهر أسمائه في اللغات: «لوسيفر» «و» «بعلزبول» «و» «مغستوفليس» «و» عزازيل «و». وقد تقدم أن الشيطان كل عات ومتمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء، وهذا الأسماء تمثل قوة الشر الكبرى في العالم في موقفها أمام عوامل الخير والكمال.

والشيطان كلمة عربية أصيلة، لأن اللغة اشتملت على كل أصل يمكن اني تفرع منه لفظ الشيطان، ففيها مادة شط وشاط وشطن وشوط، وكل هذه الألفاظ تدل على البعد والضلال والتلهب الاحتراق. وهي تستوعب أصول المعاني التي تفهم من كلمة شيطان. وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير شيطاناً، وبذلك فسّر بعض المفسرين قوله تعالى: {طَلَعَهَا كَانَتْ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات: ٦٥] أي الأفاعي، وورد كثيرا في الشعر العربي.

ويرى بعضهم ان «إبليس» مأخوذ من الإبلّيس، ومعناه الندم والحزن واليأس من الخير، فيما يقول بعضهم إنه أعجمي. لكنه على كل حال يدل على الفتنة والفساد.

وإبليس من الجن، لما ورد بصراحة في القرآن {وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠].

قال الزنجشيري: «جنّ الملائكة والجن واحد، لكن من خبث من الجن وتمرد شيطان، ومن تطهر ملك». وقال الراغب: «الجن يقال على وجهين احدهما للروحانيين والمستترين عن الجواس كلها بإزاء الإنس، فعلى هذا تدخل فيه الملائكة كلها».

ويقول في تفسير المنار:» وليس عندنا دليل على ان بين الملائكة والجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر وإنما هو اختلاف أصناف عندما تختلف أوصاف، كما ترشد اليه الآيات. وعلى كل حال فإن جميع هذه المسميات بهذه الأسماء من عالم الغيب لا نعلم حقائقها ولا نبحث عنها «فعلياً ان تؤمن بها كما وردت.

ولا يهمننا ان كان ابليس من الملائكة أو من الجن، فهذا جدل لا طائل تحته، والمهم انه عصى ربه وأصبح عنواناً على الشر والطغيان.

٢٠١١ 35

قد علم مما تقدم ان حقيقة كل أمور التكوين والخلق ونشأة الانسان أمرٌ يفوضه السلف الى الله تعالى، ويكتفون بظاهر اللفظ فيه. اما الخلف فيلجأون الى التأويل، وأمثل طرقة في هذا المقام التمثيل.

وقد مضت سنة الله في كتابه ان يُبرز لنا الأشياء المعنوية في قوالب العبارة اللفظية ويبين لنا المعارف المعقولة بالصور المحسوسة، تقريباً للأفهام. ومن ذلك انه عرّفنا قيمة أنفسنا، وما أدعته فطرتنا مما تمتاز به على سائر المخلوقات. فعلياً والحال هذه ان تجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا الله مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق. . بذلك تظهر حكمته فينا، ونشرف، على معنى إعلام الله الملائكة بفضلائنا عليهم ومعنى سجودهم لأصلنا.

فمجمال الآيات السابقة ان هذا العالم لما استعدّ لوجود هذا النوع الانساني واقتضت الحكمة الإلهية استخلافه في الارض أعلم الله تعالى الملائكة بذلك. وقدر الملائكة انه يفسد النظام ويسفك الدماء، حتى اعلمهم الله ان عليهم لم يحط بمواقع حكمته. ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الأسماء كلها، فيما كل صنف من الملائكة لا يعلم الا طائفة محدودة منها. لذلك أمرهم الله بالخضوع لآدم فأطاعوه الا روحاً واحداً هو مبعث الشر، أبى الخضوع واستكبر عن السجود. فكان بذلك من الكافرين.

ومجمال الآيات هنا: ان الله تعالى لما خلق آدم وزوجته أسكنهما الجنة وقال لهما: اسكنا فيها، وكلا منها ما تشاءان، من اي مكان وأي ثمر، ولا تقربا شجرة معينة، لتأكلا منها، وإلا كنتما من الظالمين العاصين. لكن ابليس الحاسد لآدم، الحاقده عليه، أخذ يغريهما بالأكل من تلك الشجرة حتى زلأ فأكلا منها. عند ذلك أخرجهما الله مما كان فيه من النعم وأمرهما أن يعيشا في هذه الارض، وذريتهما من بعدهما، ويكون بعضهم لبعض عدواً. وأبلغهم أن لهم في الأرض استقراراً، وتيسيراً للبعيشة الى أجل معين، لأن هذه الدنيا فانية والدار الآخرة هي الباقية.

{فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} يعني ان الله تعالى ألهمه بعض الدعاء وهي قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} فتاب عليه، اي رجع عليه بالرحمة والقبول {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} الذي يقبل التوبة عن البعد اذا اقترف ذنباً ثم ندم على ما فرط منه. انه هو الذي يحفّ عباده بالرحمة اذا هم أسأؤوا ورجعوا اليه تائبين.

وقد جاءت هذه الآيات ليعتبر الخلق ببيان الفطرة الإلهية التي فطر الله عليها الخلق، الملائكة والبشر، وليدركوا ان المعصية من شأن البشر، فكأنه تعالى يقول: لا تأس يا محمد على القوم الكافرين، ولا تبجع نفسك على ان لم يؤمنوا برسالتك، إن الضعف موجود في طبائعهم.

انظر ما وقع لآدم وما كان منه، وسنة الله لا تبدل.

وقد استقر أمر البشر على ان سعادتهم في اتباع الهداية الإلهية، وشقاءهم في الانحراف عن سبلها.

والجنة المرادة هنا أمرٌ اختلف فيها المفسرون. فقال بعضهم انها جنة الخلد، اي دار الثواب التي اعدّها الله للمؤمنين يوم القيامة. قال ابن تيمية «وهذا قول أهل السنة والجماعة، ومن قال غير ذلك فهو من الملاحدة»، ولا أدري كيف يجرو غفر الله له على هذا القول ويجعل من قال به ملحداً، وعلى رأس القائلين بذلك إمامان جليلات هما ابو حنيفة والماتريدي وكثيرون غيرهم.

وقال كثيرون ان تلك الجنة بستان في الأرض وليست هي جنة الخلد. وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدي في

تفسيره حيث قال: «نحن نعتقد ان هذه الجنة بستان من البساتين، كان آدم وزوجته منعمن فيها وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها».

وقال الأولي في تفسيره: روح المعاني، «ومما يؤيد هذا الرأي:

١. ان الله خلق آدم في الارض ليكون خليفة فيها هو وذريته.

٢. انه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم في الارض عرج به الى السماء، ولو حصل لذكر، لأنه أمر عظيم.

٣. ان الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المتقون المؤمنون، فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة!

٤. انها دار للنعيم والراحة، لا دار تكليف وقد كلف آدم وزوجه ألا يأكلا من الشجرة.

٥. أنه لا يُمنع من في الجنة من التمتع بما يريد منها.

٦. انه لا يقع فيها العصيان والمخالفة لأنها دار طهر، ولا دار رجس.

وعلى الجملة، فالأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها لا تنطبق على هذه الجنة التي سكنها آدم وطرد منها. . . .».

اما الشجرة التي نهي آدم وزوجته ان يأكلا منها فلم يبين الله في كتابه نوعها، ولم يرد في السنة الصحيحة تعيينها، فلا نستطيع ان نعيّن من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع.

وقال الاستاذ العقاد في كتابه: المرأة في القرآن «ان قصة الشجرة الممنوعة التي أكل منها آدم وحواء هي الصورة الانسانية لوسائل الذكر والأنثى في الصلة الجنسية بين عامة الأحياء، الرجل يريد ويطلب، والمرأة تنصدي وتغري. وتتمثل في القصة بداهة النوع في موضعها، أي حيث ينبغي ان تتمثل أول علاقة بين اثنين من نوع الانسان. وقد وردت القصة في القرآن في ثلاثة مواضع، ووردت في الاصحاح الثالث من سفر التكوين. وفي الاصحاح الحادي عشر من العهد الجديد في كتاب كورنثوس الثاني، والاصحاح الثاني في تيموثاوس. وهي تعبر برموزها السهلة عن بداهة النوع المتأصلة في ادراكه للمقابلة بين الجنسين، وعن دور اكل منهما في موقفه من الجنس الآخر، على الوجه الوحيد الذي تتم به ارادة النوع، والمحافظة على بقائه.

وخلاصة القول: ان ثمرات هذه الشجرة هي ثمرات التكليف بجميع لوازمه ونتائجه، وما كان الفارق بين آدم قبل الأكل منها وبعد الأكل الا الفارق بين الحياة في دعة وبراءة، والحياة المكلفة التي لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب. وكلما تكررت القصة في الآيات القرآنية كان في تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة. يبدو ذلك جلياً من المقابلة بين ما تقدم، وما جاء عن هذه القصة في سورة الأعراف، وذلك حيث يُذكر التصوير بعد الخلق، أو اعطاء الصورة بعد اعطاء الوجود. . .

وفها يتبين ان من تمام التوكيد لحدود التكليف في هذه القصة ان خطاب آدم به لا يغني عن خطاب بنيه وأعقاب، فهو مكلف وهم مكلفون، وخطيئته لا تلزخهم وتبوتته لا تغنيهم. اما مولدهم منه فإنما يُخرجهم على سنة الأحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكرمون ويموتون.

واما قضية عصيان آدم ومخالفته فقد تكلم فيها المفسرون، والمستشرقون الغربيون، وتخطوا في ذلك. والحق ان قليلاً من النقاد الغربيين من يفتن للخاصة الاسلامية التي تتمثل في قصة آدم هذه اذ الغالب في أوساطهم ان يتكلموا عن زلة آدم فيسموها «سقوطاً» ثم يرتبوا عليها ما يترتب على السقوط الملازم لطبيعة التكوين. هذا مع انه ليس في القرآن أثر قط للسقوط بهذا المعنى في حق كائن من الكائنات العلوية أو الارضية، وانما هو انتقال الانسان من حال الى حال او من عهد البراءة والدعة الى عهد التكليف والمشقة.

وجوهر المسألة في القصة ان القرآن الكريم لم يذكر قط شيئاً عن سقوط الخليفة من رتبة الى رتبة دونها، ولا سقوط الخطيئة الدائمة بمعنى تلك التي يدان فيها الانسان بغير عمله. انه لا يعرف ارادة معاندة ف يالكومون لإرادة الله يكون من أثرها ان تنازعه الأرواح وتشاركه في المشيئة وتضع في الكون أصلاً من أصول الشر.

لقد جاء الاسلام بهذه الخطوة العظمى في أطوار الأديان فقرر في مسألة الخير والشر والحساب والثواب أصحّ العقائد التي يدين بها ضمير الانسان، وقوام ذلك عقيدتان:

أولاهما: وحدة الارادة الالهية في الكون.
والثانية: ملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربّه.»

٢٠١٢ 38

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا.} أي آدم وحواء وإبليس، فقد انتهى طور النعيم الخالص الذي كنتم فيه، وادخلوا في طور لكم فيه طريقان: هدى وإيمان، وضلال وخسران؛ {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} عن طريق رسولٍ مرشدٍ وكتابٍ مبينٍ فإن لكم الخيار. فمن تبع هداي الذي أشعره وسلّك صراطي المستقيم الذي أوضحه {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} من وسوسة الشيطان وما يعقبها من الشقاء والعذاب بعد يوم الحساب والعرض على الملك الديان، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} على فوت مطلوب أو فقد محبوب، لأنهم يعلمون بهذه الهداية ان الصبر والتسليم مما يرضى الله ويوجب ثوابه، فيكون لهم من ذلك خير عوض عما فاتهم، وأفضل تعزية عما فقدوه.

والهبوط في «اهبطوا» أصله الانحدار على سبيل القهر، ويجوز أن يقصد به هنا مجرد الانتقال كما في قوله تعالى: «اهبطوا مصرًا» أي ارتحلوا إليها.

وقد أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط مرتين:

الاولى، للاشارة الى أنهم يهبطون من الجنة الى دار بلاء وشقاء، ودار استقرار في الأرض للتمتع بخيراتها الى حين.
والثانية، لبيان حالهم من حيث الطاعة والمعصية، وانهم ينقسمون فريقين: فريق يهتدي بهدى الله الذي أنزله وبلغه للناس على لسان رسله، وفريق سار في الضلال وكذب بالآيات، فحق جزاؤهم في جهنم خالدين فيها أبدا. وهم المشار اليهم بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.
والآيات جمع آية: وهي العلامة الظاهرة، وكل ما يدل الإنسان ويرشده.

٢٠١٣ 40

اسرائيل: لقب يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم، ومعنى اسرائيل. الأمير المجاهد، أو صفّي الله. وهناك من يرى أنه تعني «عبد ايل»، اي عبد الله، من فعل أسر العبري، ورديفه في العربية. اما إسحاق، فمن أصل «يستحك» العبري ومعناه: يضحك. وقد اعترض الكثير من علماء اللاهوت الاوروبيين على السمية بصيغة «الفعل» حتى شكّوا في الأصل. وبنوه: ذريته، وهم الأسباط الاثنا عشر، ويسمّون العبرانيين ايضا لعبورهم نهر الأردن. وهم منتشرون في العالم كله، حيث اختصوا بالنشاطات السهلة الكبيرة المردود، وكانوا يقدرّون قبل الحرب العالمية الثانية بنحو ١٦ مليوناً، هلك منهم في الحرب نحو خمسة ملايين كما يزعمون. ويتكلم أكثرهم اللغة الإيديّة، وهي لغة أقلية أساسها الألمانية ممتزجة بكلمات عبرية، والعبرية لغتهم الاولى وهي احدى اللغات السامية.

ويبدأ تاريخهم المعروف باقامة فريق منهم في «غوش» في الشمال الشرقي من مصر، منذ عدة قرون قبل المسيح، أيام رمسيس الثاني، وكانوا زرعاً. وقد لاقوا في مصر بعض العنت الى ان خرج بهم موسى. وفي طور سيناء أبلغهم الوصايا العشر فلم يحفظوها. ثم تاهوا في الصحراء سنين عديدة قبل ان يستولوا على قسمٍ من ارض كنعان استقروا فيه.

وكانوا منقسمين الى قبائل، على رأس كل احدة شيخ قبلي وكاهن يسمّونه القاضي. هذا هو نظام القضاة. ولقد حاربوا الفلسطينيين القادمين من كريت، بقيادة شاول. فهزمهم هؤلاء. ثم جاء داود ووحدهم وانتصر بهم على اعدائه، وحقق لشعبه السلام والرفاهية. وعقبه سليمان الذي بنى أول هيكل. ثم انقسم بعده اليهود الى اسباط الشمال بقيادة يربعام، وكونوا مملكة السامرة، وأسباط الجنوب تحت قيادة ابن سليمان وكونوا مملكة يهوذا.

ودارت الحرب بين المملكتين مدة طويلة، ثم استولى الآشوريون على المملكتين، ونفوا كثيرا من اليهود. ثم استولى عليهما المصريون، ومن بعدهم البابليون الذين هدموا الهيكل ٥٨٦ ق. م واخذوا اليهود اسرى الى بابل. وقد بقوا هناك حتى سمح لهم قورش الفارسي

بالعودة، واعدادوا بناء هيكلهم مرة أخرى سنة ٥١٦ ق. م. وفي العصر الهليني كانوا جماعة دينية لا يكان لهم، واستعادوا استقلالهم السياسي تحت المكابيين. ثم أدى النضال بين الفريسيين والصدوقيين، وهما من أهم الفرق اليهودية، الى ان تدخل الرومان الذين استولوا على البلاد من البطالسة وهدموا اورشليم سنة ٧٠ م. وفي القرون الوسطى وقع على اليهود من قبل الاوروبيين اضطهاد شديد استمر حتى القرن الثامن عشر. لقد حُرِّم عليهم امتلاك الارض، وممارسة كثير من المهن الحرة، ولم يُترك لهم الا التجارة الصغيرة وتسليف النقود. لذا تجمعت شرادهم في أحياء خاصة بهم. وقد طرد كثير منهم من فرنسا وانجلترا واسبانيا والبرتغال، ولجأوا الى هولندا وبلاد الاسلام حيث عاشوا آمنين.

ثم أخذت الرأسمالية بيدهم في القرن الثامن عشر للميلاد وأصبحوا وراء الأعمال الاقتصادية الكبرى.

وقد أدى تحررهم التدريجي الى ظهور تيارين متعارضين في أوساطهم، أولهما يدعو الى رسالة ثقافية، وعلى رأسه موسى مندلسون، والثاني يدعو الى رسالة سياسية هي الصهيونية، وعلى رأسه ثيودور هرتزل ١٨٩٦. وقد نشط التيار الثاني وسعى معتنقه الى المطالبة بدولة يهودية في فلسطين حتى نجحوا في ذلك بمساعدة الدول الغربية المسيحية، وما مساعدتها هذه الا حركة امتداد للحروب الصليبية الغابرة.

هكذا وجدت الحركة الصهيونية الرامية الى إقامة دولة يهودية على غرار الدولة القديمة التي قضت عليها روما. وقد سعى زعيمها هرتزل سعيًا حثيثًا لجمع المال والرجال وعقد أول مؤتمر لجماعته في مدينة بال بسويسرا وفي ذلك المؤتمر قال هرتزل: «الآن خلقت دولة اسرائيل»، فقد قرر المؤتمر تكوين منظمات صهيونية في البلاد التي يقطنها عدد كاف من اليهود. وقام بأمر الصهيونية من بعده زعماء آخرون أمثال ماكسي نوردو، وحاييم وايزمان. وتعاقت مؤتمراتها، وتحس لها يهود شرق أوروبا، وأمداهها يهود امريكا بالمال.

وتطلعت الصهيونية الى فلسطين. ثم جاء وعد بلفور، الوزير الانجليزي، سنة ١٩١٧ الذي سمح لليهود ان يكون لهم وطن قومي في فلسطين فعزز آمال الصهاينة. ومن ثم بدأت هجرة اليهود الى فلسطين سنة ١٩٢٣ وزادت في عهد الانتداب الانجليزي بالتواطؤ، وقد شجعت على ذلك حركات الاضطهاد في أوروبا كالحركة النازية.

وفي سنة ١٩٤٥ أوقف الانجليز الهجرة، ولكن بعد أن أصبح عدد اليهود في فلسطين خطرا على العرب. ثم كانت المشكلة الفلسطينية الكبرى التي عُرِضت على هيئة الأمم، فقررت تقسيم فلسطين بين العرب واليهود في ١٤ يونيه ١٩٤٨.

ولم يقبل العرب هذا التقسيم لأنه هدر لحقهم في وطنهم، ورغم ذلك أعلنت الدولة اليهودية في ذلك التاريخ. وقامت الحرب بين أهل فلسطين واليهود حتى دخلت جيوش الدول العربية. ولم يكن العرب على استعداد للحرب اما اليهود فكانوا قد أعدوا كل شيء، بفضل الدول الغربية. لذا أخذوا أكثر من القسم الذي خصصه لهم قرار التقسيم.

ولا تزال الحالة متوترة والحرب قائمة ولن تهدأ حتى يسترد الفلسطينيون حقوقهم كاملة. والله نسأل ان يلهمنا رشدنا ويوحد صفوفنا بقوة من عنده. ولا بد من نصرنا عليهم طال الزمن أو قصر.

بعدن استعرض سبحانه وتعالى في أوائل هذه السورة الكتاب الحكيم وانه لا ريب فيه، بين أصناف البشر من مؤمن وكافر ومنافق، ثم طالب الناس بعبادته. ثم اقام الدليل على ان الكتاب منزل من عند الله على عبده محمد وتحدى المرتابين ان يأتيوا بمثله. ثم حاج الكافرين. ثم ذكر خلق السماوات والأرض، وان جميع ما في الارض من منافع هي للانسان.

وهنا خاطب الشعوب والأمم التي ظهرت بينها النبوة، فبدأ بذكر اليهود لسببين:

الأول أنهم أقدم الشعوب التي أنزلت عليها الكتب السماوية، والثاني لأنهم كانوا أشد الناس حقدًا على المؤمنين في المدينة المنورة. كان اليهود في المدينة وشمال الحجاز، في خير وغيرها، يكيدون للاسلام، ويوغرون صدور المشركين على النبي والصحابه، فذكرهم الله تعالى بنعمته عليهم اذا جعل النبوة فيهم زمناً طويلاً، وطلب اليهم القيام بواجب شكرها وكأنه يسألهم أن أوفوا بوعدى الذي أخذته عليكم وأقررتوه على أنفسكم وهو الايمان والعمل الصالح والتصديق بمن يجيء بعد موسى من الأنبياء حتى أوفى بوعدى لكم، وهو حسن الثواب والنعم المقيم.

وهذه الآية تشير إلى وجوب وفاء كلا المتعاقدين بما عليه من التزام، فاذا أخلّ أحدهما بالتزامه سقط وجوب الوفاء عن الآخر. ان عليكم يا أبناء يعقوب وذريته أن تؤمنوا بالقرآن الذي أنزلت مصدقاً لما عندكم من كتب، واحذروا ان تسارعوا الى جحود القرآن فتكونوا أول الكافرين به بدل أن تكونوا أول المؤمنين بهديه. {وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} اي لا تعرضوا عن التصديق بالنبي وما جاء به وتستبدلوا بهديته هذا الثمن القليل الذي يستفيده الرؤساء من مرؤوسيه من مال وجاه، ويرجوه المرؤوسون من الخطوة باتباع الرؤساء خشية سطوتهم اذا ما خالفوهم. كذلك اتقوني بالإيمان، واتباع الحق، والإعراض عن لذات الدنيا متى شغلت عن أعمال الآخرة. {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} لا تخلطوا الحق بالمنزل من عند الله بالباطل الذي تخرعونه من عند أنفسكم، ولا تكتموا الحق وأنتم تعرفونه حق المعرفة. لقد بينت هذه الآية مسلكهم في الغرابة والإغراء. . . فرغم انه قد جاء في الكتب التي بين أيديهم تحذير متكرر من أنبياء كذبة يبعثون فيهم ويحترحون العجائب، وجاء فيها أيضاً أن الله تعالى يبعث فيه نبياً من ولد اسماعيل وزوجه الجارية هاجر فقد ظلّ الاحبار يكذبون على العامل ويقولون: إن محمداً واحداً من اولئك الأنبياء الذين وصفتهم التوراة بالكذب. لقد ظلوا يكتمون ما يعرفون من أوصافه التي تنطبق عليه، وبذلك يحرفون كثيراً من الكتب التي بين أيديهم. وهنا أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا حقيقة وفعلاً، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة علّها تطهرهم، ثم أن يركعوا مع الراكعين. . . حتى يكون من المسلمين حقيقة.

٢٠١٤ 44

لا يزال الكلام موجّهاً الى بني إسرائيل، وأحبارهم على الخصوص. لقد وبخهم الله على اعوجاج سيرتهم وفساد أعمالهم، فقد كانوا يتلون التوراة ولا يعملون بما فيها. كانوا يأخذون ما يوافقهم ويتركون ما يعارض شهواتهم وأهواءهم. وقد جاء في عدة مواضع من التوراة نبأ البشارة بالنبي محمد ﷺ، فحرفوا هذه البشارة وأولوها بما يوافق هواهم. حتى إن بعض احبارهم كان ينصح سراً بالإيمان بمحمد لمن يجب ولا يعمل بذلك.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} يعني: ألا يوجد فيكم عقل يردكم عن هذه السفة؟

ومع ان الخطاب لليهود، وهذا حالهم، فإنه عام وعبرة لغيرهم.

وبعد ان بينت الآيات سوء حالهم وأن عقلهم لم ينفعهم، أرشدتهم الى الطريقة المثلى للانتفاع بالكتاب والعقل والعمل فقال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} . . . والصبر حبس النفس على ما تكره. وقد حث الله على الصبر كثيراً في عدة آيات، وجعل أحسن الجزاء لمن صبر على الشدائد، وعن الشهوات المحرمة التي تميل اليها النفوس، وعلى أنواع الطاعات التي تشق على النفس. كذلك أمر بالاستعانة بالصلاة لما فيها من تصفية النفس ومراقبتها في السر والنجوى. وناهيك بعبادة يناجي فيها العبد ربه خمس مرات في اليوم! وليست الصلاة مجرد عبادة فحسب، بل هي انبعاث خفي لروح العبادة في الانسان، وأقوى صورة للطاقة التي يمكن أن يولدها الانسان. واذا ما أصبحت الصلاة الصادقة عادة فإن حياتنا ستمتلئ بفيض عميق من الغنى الملموس.

لذلك ورد الحث على الصلاة في كثير من الآيات. ان الصلاة قوة لا يقدرها الا العارفون والملمهون. ولذلك قال تعالى: {وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} أي أن الصلاة ثقيلة شاقة إلا على المؤمنين ايماناً حقيقياً، الخاشعين لله حقاً. {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهم مُّلاقُوا رَبِّهم وَأَنَّهم إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} أي الذين يتوقعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء، فيجازيهم أحسن الجزاء على ماقدّموا من عمل صالح.

كرر الله تذكيرهم بالنعم التي أنعمها عليهم، ومن أكبرها انه فضلم في ذلك على العالمين. . لأنهم أهل التوحيد فيما غيرهم أهل شرك. كلهم لم يشكروا هذه النعم، فوبخهم الله تعالى بقوله: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} ، فبين لهم سمات ذلك اليوم الشديد الهول حيث يقف الناس للحساب وتنقطع الأسباب. آنذاك تبطل منفعة الانسان، وتحول سنة هذه الحياة من انطلاق الانسان واختياره ليدفع عن نفسه بالعدل والفداء أو الشفاعة عند الحكام. ان ذلك اليوم يختلف عن أمر الدنيا، وتضمحل فيه جميع الوسائل الا ما كان من عمل صالح. {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} اي ليس لهم من يمنعهم من العذاب.

وقد كان اليهود يعتقدون ولا يزالون أنهم، بدعوى انتسابهم للأنبياء لا يدخلون النار أو لا تمسهم النار الا أياماً معدودة لأن لهم الجاه والتأثير يوم القيامة، كما أن أحبارهم يشفعون لهم، بل يمكنهم ان يخلصوا مجريهم بشق الوسائل التي يستخدمونها في الدنيا. . فجاء الاسلام وسفه هذه العقيدة وعلّمنا انه لا ينفع في ذلك اليوم الا مرضاة الله بالإيمان والعمل الصالح الذي يتجلى في أعمال الجوارح. ونأتي الى معنى شفاعته النبي عام لا يخص بها أشخاصاً معينين، وهي كما قال ابن تيمية «دعاء يدعو النبي ﷺ فيستجيبه المولى جلّ وعلا» ، وهذا خلاف ما يعتقد اليهود كما مر آنفاً، انطلاقاً من دعوى أنهم شعب الله المختار استناداً الى ما جاء في كتبهم من هراء وكذب. القراءات: قرأ ابن كثير وأبو عمرو {ولا تقبل منها شفاعة} بالناء.

في هذه الآيات تعداد لنعم الله تعالى على بني اسرائيل ومننه الكثيرة، فيقول تعالى: واذكروا من نعمنا عليكم أن أنجيناكم من ظلم فرعون وأعدائه الذين كانوا يذيقونكم أشد العذاب، فإنهم كانوا يذبحون الذكور من أولادكم تحسباً من أن ينازعهم في حكم البلاد، وبيقون الإناث ليتخذوهن جوارح لهم. وفي هذا العذاب والتعرض للفناء بلاء شديد من ربكم لكم واختيار عظيم. وفرعون لقب لمن ملك مصر قبل البطالسة، مثل كسرى عند الفرس وقىصر عند الروم، وتبع في اليمن، والنجاشي في الحبشة. واذكروا كذلك من نعم الله عليكم أننا شققنا من أجلكم البحر وفصلنا بضعه عن بعض لتسيروا فيه، فتخلصوا وتنجوا من ملاحقة فرعون وجنوده. . هكذا جوتكم، كما انقمنا لكم من عدوكم فأغرقناه أمام أبصاركم.

وهذه القصة من خوارق العادات ومن معجزات الأنبياء التي يؤيدهم اللهن بها حين يرسلهم. وخوارق العادات جائزة عقلاً، وهي خاضعة لارادة الله وفق النواميس الطبيعية التي وضعها سبحانه وتعالى، لكن تفسيرها هو الذي يبدوا خارقاً. فالحق أن السنن والقوانين الكونية لا تحكم على واضعها ومبررها بل هو الحاكم المتصرف فيها.

واذكروا حين واعد ربكم موسى أربعين ليلة لمناجاته، وتلقى التوراة. فلما ذهب موسى الى معياده، بعد اجتياز البحر سألتوه أن يأتيكم بكتاب من ربكم، فلما أبطأ عليكم اتخذتم عجلاً من ذهب وعبدتموه من دون الله. بذلك عدتم الى كفركم والإشراك في الله. يومذاك كان الذهب هو ربكم، فبئس ما تفعلون.

أما العجل فقد اتسعاروه من عبادة الكنعانيين. والمراد بهذه الآيات هو تذكير أحفادهم بالنعمة وبيان كفرهم بها. وذلك ليظهر أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ليس بغريب منهم، بل هو معهود فيهم. وهو دليل على أنهم عبيد المادة يجرون وراءها، هذا ديدنهم منذ أول أمرهم الى الآن. ومن فعل من الأمم الأخرى فقد اكتسب بعض صفاتهم. . إنه تهود.

ثم عَفَوْنَا عَنْكُمْ وَمَحَوْنَا عَقُوبَتَكُمْ أَمَلًا فِي أَنْ تَتَصَلَحَ حَالَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ رَبِّكُمْ عَلَى عَفْوِهِ عَنْكُمْ، وَفَضْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَتَشْجِيعًا لِأَنْ تَدَاوُمُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ.

وَاذْكُرُوا حِينَ أَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى نَبِيِّكُمْ مُوسَى كِتَابًا مِنْ عِنْدِنَا جَعَلْنَاهُ يَفْرَقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُبَيِّنُ لَكُمْ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ. وَذَلِكَ لِكَيْ تَسْتَرِشُدُوا بِنُورِ هَذَا الْكِتَابِ وَتَهْتَدُوا مِنَ الضَّلَالِ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ فِيهِ.

القرءات:

قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم وابن عامر وحمة والكسائي «واعدنا» والباقون «وعدنا» .

٢٠١٧ 54

ما زال السياق في الكلام على بني إسرائيل. واذكر أيها الرسول الكريم قول موسى لقومه يوم عبدوا العجل حين كان غائباً عنهم يناجي ربه: يا قومي ظلمتم أنفسكم باتخاذكم عجل السامريّ معبوداً من دون الله، فتوبوا الى خالقكم وارجعوا عن هذه الجريمة، فاقتلوا أنفسكم ندماً على فعلتكم وتكفيراً عن معصيتكم.

روي ان موسى لما رجع من ميقات ربه، رأى ما صنع قومه بعده من عبادة العجل، فغضب غضباً شديداً، ورمى بالألواح من يده، ثم أحرق العجل الذي صنعوه. ثم قال: من كان من حرب الرب فليقبل إلي، فأجابه بنو لاوي، فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً. وانها لكفارة عفيفة، وتكليف مرهق كان لا بد منه لتطهر تلك النفوس الشريرة المنغمسة في عبادة المادة المتجسدة بالعجل الذهبي. واذ فعل بعضهم ما أمر به موسى قلبت توبتهم وتداركتهم رحمة الله الت تسع كل شيء.

٢٠١٨ 55

واذكروا نعمتي عليكم يوم سألتهم وقلتم له: اننا لن نصدقك في قولك إن هذا كتاب الله، وأنت سمعت كلامه حتى نرى الله عياناً. حينذاك انقضت عليكم صاعقة من السماء زلزلتكم جزاء عنادكم واطماعتكم وأنتم تنظرون. قال المفسرون: ان الذين طلبوا رؤية الله هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات الله كما جاء في سورة الأعراف. آية ١٥٤.

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}

الحادثة واحدة هنا مختصرة وفُصِّلَتْ وشرحت في الأعراف.

٢٠١٩ 56

الظاهر من لفظ الآية ان الله بعثهم بعد ان أماتهم. وهذا رأي بعض المفسرين. والبعض الآخرة يرى ان الصاعقة التي أصابتهم صعبتهم حتى صاروا كالأموات، ثم لما طلب موسى من ربه العفو. . أفاقوا من غشيتهم ليشكروا الله على نجاتهم وعفا عنهم.

٢٠٢٠ 57

ثم يذكرهم تعالى بما أفاء عليهم من النعم: ومن فضلنا عليكم أننا جعلنا السحاب لكم كالظلة يصونكم من حر الصحراء التي انتم بها. وأنزلنا عليكم المنّ، وهو طعام لذيذ حلو كالعسل كان ينزل مع ندى الصباح فيلتقطونه بسهولة، وكان لهم بدل الخبز. اما السلوى فهو طائر لحمه لذيذ يعرف بالسَّمَان، كان يأتيهم أسراباً كثيرة.

فلم يشكروا هذه النعم بل كفروا بها. ولما كان كفرهم لا يضر الله وانما يضرهم هم. فقد جاء قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} .

القرية: قيل إنها بيت المقدس. الرغد: الهنيء والسعة من العيش. الجز: العذاب.
اذكروا يا بني اسرائيل حين قلنا لكم ادخلوا الأرض التي فيها تلك القرية التي عينها لكم موسى، فكلوا مما فيها وعيشوا راغدين. ادخلوا من بابها خاشعين، وقولوا حُطَّ عنا يا ربنا ذنوبنا، فاذا فعلتم ذلك غفرنا لكم ذنوبكم، وللمحسنين منكم عندنا زيادة. فقالوا: {يا موسى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَّا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنَّا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة: ٢٢] .
وهكذا خالف الضالمون أمر بهم وبدلوا ما أمروا به بالإجماع عن طاعة الأوامر، استهزاءً بالجزاء، فأنزل الله على الظالمين منهم عذاباً من فوقهم. . جزاء لهم على فسقهم وخروجهم على أوامر ربهم.
القراءات:

قرأ نافع «يغفر» بالياء. وقرأ ابن عامر «تغفر» بالتاء على البناء للمفعول. وقرأ «رُجزاً» بضم الراء.

عثا يعثو عثوا عثيا: أفسد أشد الافساد. وكذلك عَثِيَ يَعِثُ . . .
واذكروا يوم طلب موسى من ربه السقيا لكم حين اشتكم بكم العطش في التيه. فقلنا له اضرب بعصاك حجراً من أحجار الأرض. ويرى المفسرون أن في ذلك إشارة الى حفر الأرض لا مجرد الضرب بالعصا. فضربه، فنبع الماء منفجراً في اثني عشر مسرباً، على عدد أسباط بني اسرائيل، وتعين لكلهم سبط منهم مشرباً خاص حتى لا يقع بينهم نزاع وخصام.
وقال لهم الله تعالى على لسان نبيه: الآن كلاً من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء العذب وأنتم في هذه الصحراء المجربة، ولا تنشروا الفساد في الارض.

الصبر: حبس النفس عن الشيء. البقل من النبات: ما نبت من البذور. القثاء: الفقوس. الفوم: الثوم. الأدنى: الدون الأخس.
الهبوط الى المكان: النزول اليه والحلول به. الصر: البلد العظيم. المسكنة: الفقر. باؤا بغضب: استحقوا الغضب.
واذكروا أيها اليهود أفعال أسلافكم يوم سيطر عليهم البطر حيث كانوا في صحراء مجربة لا شيء فيها فأنعم الله عليهم بالماء والمن والسلوى والغمام يظللهم، وكان قد أخرجهم من ديار الذل والاضطهاد ومع كل هذا فإنهم يتضجرون فيقولون لنبيهم: اننا لا نطيق قَصْر طعامنا على صنف واحد هو المن والسلوى. فاسأل ربك أن يخرج لنا ممن تنبت الأرض من الخضر البقول الحبوب. اذ ذاك تعجب مسى من ذلك وأنكره عليهم فقال لهم أتفضلون هذه الأصناف على ما هو أفضل وأحسن! اذن اتركوا سيناء وادخلوا مدينة من المدن فانكم ستجدون فيها ما تريدون. لكنهم جنبوا عن ذلك. ومن ثم دهمهم الفقر والخنوع والذلة، واستحقوا غضب الله عليهم جزاء الكفر والعناد والعصيان.
القراءات

قرىء: «اهبطوا» بضم الباء وهو جائز لغة. ويقول ابن جرير الطبري: اهبطوا مصرا «، بالألف والتنوين هي القراءة التي لا يجوز غيرها لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين، واتفاق قراءة القراء على ذلك.
وقد جاء في مصحف ابن مسعود» مصر «بدون تنوين. وهذا لا يعتمد لأن الصحابة أجمعوا على مصحف عثمان وتركوا ماعده. والفرق في معنى القراءتين واضح.

بعد ان ذكر جرائم اليهود، وبين ما نالهم من غضب الله جزاء ما اقترفوا من الأعمال السيئة والكفر وقتل الأنبياء، والبطر والتمرد ومخالفة الشرائع قرر سبحانه وتعالى في هذه الآية ان كل من آمن به وباليوم الآخر واتبع طريق الهدى من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، وكان موحداً لا يبعد الأصنام، وعمل صالحاً فان له ثواب عمله الصالح. وهؤلاء لا خوف عليهم يوم القيامة. ولا هم يحزنون اسفاً على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وزينتها. ان لهم ما يعدهم الله من نعيم مقيم عنده. وكل هذا قبل البعثة المحمدية. أما بعدها فقد تقرر شكل الايمان الأخير.

القرءات:

قرأ نافع وحده «الصابين» بالياء بدون همزة.

والصابئون قوم يقرون بالله وبالمعاد وبعض الأنبياء، لكنهم يعتقدون بتأثير النجوم والافلاك ف يالخير والشر وتصريف مقدرات الانسان. ولذا فهم أقرب الى الشرك.

الطور: الجبل المعروف. الميثاق: العهد.

واذكروا حين أخذنا على أسلافكم العهد بالعمل بتوراة موسى وقلنا لهم خذوا ما آتيناكم بجد ومواظبة على العمل بما فيه، ورفعنا فوقكم الجبل كالمظلة كل ذلك لعلكم تتقون بايمانكم وعملكم العذاب والخسران يوم القيامة. فأعرضتم بعد ذلك كله، فاستحققتم العذاب، ولكن فضل الله عليكم ورحمته أبعد عنكم. ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا والآخرة.

الاعتداء: تجاوز الحد في كل شيء. القرد: الحيوان المعروف. الخاسي: المبعد المطرود من رحمة الله، الدليل. النكال: العقوبة، نكل تنكيلا ونكالا. الموعظة: التذكرة، وعظ يعظ وعظا وموعظة.

من تشريع موسى لليهود ان لا يعملوا يوم السبت، أي يوم الراحة والعبادة، لكن اليهود كما هو معهود بهم لا يثبتون على عهد ولا يطيعون الا أهواءهم.

هنا يذكر الله اليهود الذي على زمن النبي وفي كل زمان ويقول لهم: لقد علمتم بلا ريب خبر أسلافكم الذين تجاوزوا الحد في السبت بأن صادوا السمك فيه، وهو يوم راحة وعيد العمل فيه محرم، لذلك مسخناهم وصيرناهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين، مطرودين كالكلاب الخاسئين.

والمسخ كما يقول الطبري عن مجاهد مسخ مجازي، أي: انه ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم، فلا تقبل وعظاً، ولا تعي زجراً. وهذا ما أكدته ابن كثير حيث قال: الصحيح ان المسخ معنوي كما قال مجاهد. {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً} اي فجعلنا هذه العقوبة عبرة رادعة للمخالفين.

الهزؤ: السخرية. فارض: كبيرة انقطعت ولادتها. بكر: صغيرة لم يركبها الفحل.

عوان: نصف بين الكبيرة والصغيرة. فاقع: ناصع شديد الصفرة. الذلول: المدرب الذي عود على العمل. ثير الارض: ثقلها وتهيبها للزراعة. مسلمة: خالية من العيوب. لا شية فيها: لونها واحد ليسي فيها ألوان مختلفة. الشية: العلامة. ادارأتم: اختصتم، وتدافعتم بأن قال بعضكم أنتم القتلة وقال الآخرون بل أنتم.

في هذه الآية يقص علينا تعالى موضوعاً يبين فيه تعنت اليهود، ومما حكته واستهزاءهم بأوامر الله، وتعجيزهم لنبيه، وتنطعهم بالدين. وأصل القصة ان جريمة قتل وقعت في بني إسرائيل ولم يعرف القاتل. فأتوا الى موسى يطلبون حكمه فيها فقال لهم: ان الله تعالى يأمركم ان تذبحوا بقرة ليكون ذلك مفتاحاً لمعرفة القاتل. فقالوا: ألسخر منا يا موسى! فقال: أعوذ بالله ان أكون من الجاهلين. وهنا بدأ تعنتهم اذ قالوا: اطلبت لنا من ربك ان يبين لنا لون هذه البقرة. فأجابهم موسى: ان الله تعالى يقول انها بقرة صفراء لونها فاقع تسر الناظرين لصفاء لونها ووضوحه. ثم لجؤا في سؤالهم فقالوا: ادع لنا ربك يبين شأن هذه البقرة، لأن البقر كثير وقد تشابه علينا. فقال لهم ان الله يقول انها بقرة لم تذلل بالعمل في حرث الارض وقلها للزراعة، ولم تعمل في سقي الارض، وهي مسلمة بريئة من العيوب ليس فيها آية علامة أو لون آخر. فقالوا: الآن جئت بالبيان الواضح، وأخذوا يبحثون عن البقرة التي بهذه الصفات. ووجدوها عند أيتام فقراء فاشتروها بأضعاف ثمنها ثم ذبحوها، وما كادوا يفعلون ذلك لكثرة أسئلتهم وطول لجاحهم.

ثم يأتي الى القصد الاول من ذبح البقرة. وهني قوله: قتل بعضكم نفساً فود كل منكم ان يدفع عن نفسه التهمة، وتخاصم في ذلك، والله يعلم الحقيقة وهو كاشفها ومظهرها مع أنكم تكتُمونها.

فقلنا على لسان موسى: اضربوا التقييل بجزء من هذه البقرة، فلما فعلتم أحيا الله التقييل وذكر اسم قائلته ثم سقط ميتاً. وتلك معجزة من الله لنبيه موسى، والله على كل شيء قدير.

جمع المفسرين مجمعون على أن ضرب القتيل كان بجزء من البقرة وإن اختلفوا في تعيين ذلك الجزء. ومعرفة هذا الجزء لا تنقص ولا تزيد في قدر المعجزة، وإنما هي علم لا يفيد أحداً.

وقد خالف المرحوم عبد الوهاب النجار في تفسير «اضربوه ببعضها» في كتابه قصص الأنبياء ص ٢٥٩٢٦٢ وقال: المراد بعض أجزاء التقييل. يعني ان يضرب المتهم بجزء من جسم القتيل، هذا ما نفهم من كلامه وهو يقول: ان قصة ذبح البقرة منفصلة عن قصة القتل. وكل واحدة على حدة. أما المراد بذبح البقرة فهو أن بني إسرائيل كانوا مع المصريين الذين يقدسون البقر. وكانت فيهم بقية من هذا التقديس بدليل أنهم عبدوا تمثال العجل، فكان لا بد لاقتلاع هذه البقية من نفوسهم تكليفهم ذبح البقرة، فكان لذلك الأمر بالذبح، وكان لذلك المجادلة والتلكؤ منهم، فذبحوها وما كادوا يقومون بالذبح. والرأي هنا أقرب الى التعليل المنطقي لا مجرد التفسير.

ويرى آياته وهي الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتيب الحياة على الضرب بعضو ميت، وإخبار الميت بقاتله مما ترتب عليه الفصل في الخصومة وإزالة أسباب الفتن العداوة لعلكم تفقهون أسباب الشريعة وفائدة الخضوع لها.

٢٠٢٨ 74

القسوة: الجفاء والغلظة والصلابة. قست: جفت وغلظت. يتفجر: يخرج بشدة ويسيل. يتشقق: يتصدع. يهبط: ينزل ويتردى من خوف الله.

وصف الله بني إسرائيل في ذلك الزمان، وبعد ان رأوا الكثير من آيات الله التي عددها، بقساوة القلوب، وضعف الوازع الديني فيها، حتى أصبحت أشد من الحجارة قساوة لأن بعض الحجارة يتشقق فيخرج منه النهر الخير والماء الزلال النافع، وبعضها يخرج من خشية الله لو كان له عقل مثل بني الانسان. أما هذه القلوب فلم تتأثر بالعظات والعبر ولم تنفذ الى أعماقها النذر والآيات. ما الله بغافل عما تعملون، فهو يحصيه عليكم ثم يجازيكم بألوان من النقم.

انتقل الكلام هنا من مخاطبة اليهود في شأن أجدادهم الى الحديث مع المسلمين، فقد كان النبي شديد الحرص على دخول اليهود في الاسلام، لأن أصل الدين واحد من حيث التوحيد والتصديق بالعبث، فافتتح الكلام بهذه الجملة الاستفهامية: افتطمعون ان يؤمنوا لكم.؟ أبعاد كل ما قصصناه يطمع طمع طامع في ايمان هؤلاء القوم وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوث؟

ثم يقص علينا من مساوي أفعال اليهود واقاويلهم في زمان البعثة زهاء عشرين سبباً لا تبقي مطمعاً لطامع في ايمانهم. وهو لا يدع زعماً من مزاعمهم الا قفى عليه بالرد والتفنيد، وقد بدأ هذا الوصف بتقسيمهم فريقين: علماء يحرفون كلام الله ويتواصون بكتمان ما عندهم من العلم لئلا يكون حجة عليهم، وجهلاء أميين هم ضحايا التلبيس الذي يأتيه علماءهم. فمن ذا الذي يطمع في صلاح أمة جاهلها مظلّل باسم الدين وعالمها مظلّل يكتب من عنده ويقول هذا من عند الله!

لذلك ينبها الله الى انه: ما كان ينبغي لكم أيها المؤمنون ان تطمعوا في ان يؤمن اليهود بدينكم، وقد اجتمعت في مختلف فرقهم اشتاب الرذائل. ان احبارهم يسمعون كلام الله ويفهمونه ثم يحرفونه عمداً. واذا لقي اناس منهم أصحاب النبي قالوا لهم كذباً. ونفاقاً أنا آمنة كإيمانكم وان محمداً هو الرسول الذي بشرت به التوراة، فاذا خلا بعضهم الى بعض عاتبهم الباقون منهم على قولهم السابق، خشية ان يكون ذلك حجة على اليهود قاطبة يوم القيامة.

هل غاب عن هؤلاء الذين يلومون غيرهم ويكتمون من صفات النبي ما يكتمون ويحرفون كلام الله ان الله يعلم ما يُسرون من كفر ومكيدة وما يعلنون من اظهار الايمان ومن هؤلاء اليهود أميون جهلة لا يعرفون شيئاً، ولا يعرفون عن التوراة الا الأكاذيب تنفق مع أمانيهم حسب ما رسمه لهم احبارهم.

والأماني جمع أمنية. وهي في الاصل ما يقدره الانسان في نفسه، ولذلك تطلق على الكذب وعلى ما يُتمنى وما يُقرأ. وعلى ذلك يكون المعنى: انهم يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، كقولهم ان الجنة قصرٌ على اليهود وحدهم وان النار لن تمسهم الا أياماً يتركونها بعدها الى الجنة.

{وَأَنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} أي وما هو الا قوم قصارى أمرهم الظن الواهي دون علم ولا فهم. ومع هذا فهم أكثر الناس جدلاً في الحق، وأشدّهم كذباً وغروراً.

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ. ٠ ٠}

الويل: الهلاك، اي هلاك وعذاب كبير لهؤلاء الاحبار الذين يكتبون من عندهم ثم يقولون للأميين هذه هي التوراة التي جاءت من عند الله. كل هذا الافك ليصلوا من ورائه الى أغراض تافهة قليل. فالحق أثمن الأشياء وأغلاها. وقد جنى أحبار اليهود ثلاث جنایات: تغيير صفة النبي ﷺ، والافتراء على الله، وأخذ الرشوة، فهددهم الله على كل جنایة بالويل والثبور.

وهنا جعل يبين منشأ اجترائهم على كل موبقة، وهو غرورهم بزعمهم ان النار لن تمسهم الا أياماً معدودات. فقل لهم يا محمد، ومن باب دحض الدعوى: أين البرهان على ما تزعمون؟ ثم ينقصه الحق تعالى ببيان مخالفته لقانون العهد الإلهي الذي لا يعرف شيئاً من الظلم، ولا المحاباة.

المس: واللمس بمعنى، وهو اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة. العهد: الخبر أو الوعد. بلى: لفظ يجاب به بعد كلام منفي سابق. الكسب: جلب المنفعة، وهنا يراد به التهم. السيئة: الفاحشة.

يزعم اليهود أنهم سيعذبون بالنار اربعين ليلة وذلك عدة أيام عبادتهم للعجل، وزعم بضعمهم ان النار ستسبهم سبعة أيام فقط. وهنا يريد الله تعالى عليهم اقتراءهم ويسألهم: هل تعاهدتم مع الله على ذلك. فاطمأنتم لأن الله لا يخلف عهده معكم؟ ثم يؤكد أن: من كسب سيئةً وأحاطت به خطيئةٌ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». فحكم الله نافذ في خلقه لا فرق بين يهودي وغيره الا بما كسبت يده. القراءات:

قرأ ابن كثير وحفص: اتخذتم باظهار الذال. وقرأ الباقون بالادغام. اتخذتم. وقرأ نافع: «خطيئاته» وقرىء خطيته وخطياته.

٢٠٣٢ 82

بين سبحانه هنا ان الذين أطاعوا وصدقوا وعملوا صالح الأعمال سيدخلون الجنة ينعمون بما أعطاهم الله. وقد جرت سنة الله في كتابه العزيز ان يتبع الوعيد بالوعد حتى يستبشر الذين آمنوا ولا يقنطوا من رحمة الله وتلك حكمة بارزة من لدنه. ويظهر من سياق الآية أن الإيمان وحده لا يكفي اذ يقول: {والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصالحات} فالإيمان يجب ان يقترن بالعمل به.

٢٠٣٣ 83

الميثاق: العهد الشديد. اليتيم: من لا أب له. المسكين: من سكنت يده عن العمل، العاجز عن الكسب. بعد ما بسطت الآيات السابقة ما انعم الله به على بني اسرائيل جاء الكتاب هنا يبين أهم ما أمر به أسلافهم من عبادات وكيف كانوا يصمّون أسماعهم عن سماع دعوى الحق.

فأول شيء وأهمه دعائهم الى عبادة الله، وحده ثم الاحسان والدين. ويترتب على ذلك ترابط الاسرة وتماسكها. فالأمة مكونة من مجموع الأسر والبيوت، وصلاح الأمة بصلاح الأسرة. وقد أكد القرآن على ترابط الأسرة، والحفاظ عليها، وتقويتها من برّ الوالدين أولاً. ثم ذوي القرى، ثم الاحسان الى اليتامى بحسن تربيتهم وحفظ حقوقهم من الضياع.

ولقد قال النبي ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة» رواه البخاري وأحمد وأبو داود والترمذي عنه سهل بن سعد. وفي رواية: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى. فهل بعد ذلك منزلة أكبر!

ثم قالت تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} فبعد ما أمر بالإحسان الى الوالدين والاقربين والمساكين واليتامى أمرنا، اذا لم نستطع أن نحسن الى جميع الناس بالفعل، فلنحسن العشرة، اذ ان الكلمة الطيبة صدقة كما ورد في الحديث الصحيح.

ثم بعد ذلك قال: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} وهنا لم يقل «صلوا» بل قال أقيموا الصلاة، أي صلوها على أحسن وجوها. وهاتان فريضتان من أهم الفرائض التي تنقي النفوس من الأدرا. فاذا صلحت النفوس صلح المجتمع بأسره.

ثم ماذا حصل بعد ان أخذ الميثاق على أسلاف بني إسرائيل؟ الذي حصل أنهم تولوا وأعرضوا ونقضوا الميثاق الا قليلا منهم أذعن للحق. القراءات:

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب: «لا تعبدون» بالتاء الفوقية، وقرأ الباقون: «لا يعبدون» بالياء. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «حَسَنًا» والباقون «حُسَنًا» وقرىء: «حُسَنًا» بضميتين. و«حَسَنِي» كبشري.

السفك: اراقة الدماء. التظاهر: التعاون. الأثم، العدوان: تجاوز الحد في الظلم.

ذَكَرَ اللهُ بني اسرائيل في الآية السابقة بما أمروا به من عبادة الله وحده والاحسان الى الوالدين وذوي القربى، وان يعاشروا الناس جميعاً بالحسنى. ثم بين أنهم لم يطيعوا ما أمروا به وتولّوا وهم معرضون. وهنا يمضي السياق فيقص علينا عن حال اليهود، مواقفهم التي تجلّى فيها العصيان ويذكرهم بأهم الأمور التي نهوا عنها وقد أخذ الله عليهم العهد باجتنابها. والخطاب هنا لليهود في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كانوا في المدينة ثلاثة أحياء: بنو قينقاع، وبنو النضير، حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. وكان العداء بين الأوس والخزرج مستحكماً، فهم في أغلب الأحيان في حرب دائمة. اذ ذاك كان يقاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه وبينهم اليهودي من الفريق الآخر.

وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله. وكانوا يخرجونهم من ديارهم اذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم. وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم. ثم اذا انتهت الحرب يقدون الأسارى ويفكّون أسر المأسورين من اليهود، عملاً بحكم التوراة. هذا هو التناقض الذي يواجههم القرآن، وهو يسألهم باستنكار شديد {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} ؟ ان الكتاب ينص على تحريم القتل والاخراج من الديار وأنتم تنقضون ذلك. لذا فان الله يتوعدهم بالخزي في الحياة الدنيا، وأشد العذاب في الآخرة. وذلك أنه آثروا أعراض الدنيا الزائلة على نعيم الآخرة الدائم. فلن يخفف عنهم عذاب جهنم، ولن يجدوا من ينقذهم منه. القراءات:

قرأ عصام وحزمة والكسائي. «تظاهرون» بحذف احدى التائين وقرئ «تظاهرون» بهما معاً. وقرأ حمزة «أسرى» جمع أسير كجريح وجرحى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة وابن عامر: «تفدوهم» وقرأ عاصم في رواية المفضل «تردون» بالتاء. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية ابن بكر وخلف ويعقوب «يعلمون» بالياء.

قَفَّيْنَاهُ: أتبعناه. البينات: الحجج الواضحة. أيدناه: قويناه. روح القدس: جبريل. غلف: ومفرده أغلف: المغطى المقفل الذي لا يفقه ما يقال.

ولقد أعطينا موسى الكتاب، أي التوراة، ثم أتبعنا من بعده الرسل يعلمونكم شرائع الله، وأعطينا عيسى بن مريم المعجزات الباهرة، وقويناه بروح القدس الذي يمدّه بالوحي من عندنا وهو جبريل، فلم يكن حظه بأحسن من حظ سابقه. ثم بين الله تعالى ما كانت حظ الرسل من بني اسرائيل فقال: أفكلها جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم عن اتباعه وبغيتم في الارض، ففريقاً كذبتموه، وفريقاً تقتلتموه!! هكذا كان موقفهم من أنبيائهم. بعد ذلك كله قالوا: ان قلوبنا مغلقة لا تنفذ اليها دعوة جديدة، كدعوة محمد، فلا نكاد نفقه شيئاً مما يقول.

ولم تكن قلوبهم كما يزعمون، لكنهم استكبروا وآثروا الضلالة على الهدى. فلعنهم الله أي طردهم عن الهدى بسبب ذلك «فقليلًا ما يؤمنون» اي سبب هذا الطرد.

القراءات:

قرئ «أيدناه» بمد الألف وفتح الياء بدون تشديد وقرأ ابن كثير «القدس» باسكان الدال في جميع القرآن.

يستفتحون: يستنصرون. اشتروا: باعوا. البغي: الفساد: بغضب: رجعوا محملين بالغضب. مهن: مذل. بما وراءه: بما سواه.

كل هذا القصص الذي يقصه الله عن بني اسرائيل للمسلمين انما يقصد به تحذيرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تُسلب منهم الخلافة في الارض. والامانة التي ناطها الله بهم.

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ . . .} هذه الآية مرتبطة بالآية السابقة. {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ} . ولما جاء رسولنا محمد بالقرآن، وهو كتاب من عند الله مصدق لما أنزل عليهم من التوراة، وعرفوا من التوراة نفسها صدق ما فيهن كفروا به عناداً وحسدًا. وذلك لأن من جاء به رسول من غير بني اسرائيل.

روى كثير من الصحابة ان الأوس والخزرج تغلبوا على اليهود، وأذلّوهم زمن الجاهلية فكانوا يقولون للعرب: إن نبياً الآن مبعثه قد أظلّ زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم. وكان اليهود يستفتحون به على الكفار، يعني يستنصرون به، ويقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة. فلما بعث الله محمداً كفروا به. وقد قال لهم مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وبشر بن البراء: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا انه مبعوث، وتصِفونه بصفاته. فقال له سلام بن مشكم بن النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم. فأنزل الله تعالى في ذلك: «ولما جاءهم، الآية. . .» ومعنى «مصدق لما معهم»: موافق له في التوحيد وأصول الدين والايمان بالبعث واليوم الآخر.

{يُسَمَّا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ} ساء ما باعوا به أنفسهم، حين اختاروا الكفر على الايمان، حسداً أن يأتي نبي من غير اليهود، منكِرٍ على الله أن يكون له مطلق الخيرة في ان يوحى لمن يشاء من عباده.

واذا قيل لهم، أي اليهود المعاصرين للنبي في الحجاز، صدّقوا بما أنزل الله من القرآن على محمد وابتعوه، قالوا: نحن نؤمن بما أنزل علينا من التوراة فحسب. . مع ان القرآن مصدق لما معهم من التوراة. وعلى هذا يكون كفرهم بهذا الكتاب المصدق لما في كتابهم كفراً بكتابهم نفسه.

ثم يخاطب الله الرسول الكريم بقوله تعالى: قل يا محمد لليهود، لم كنتم تقتلون أنبياء الله في الماضي مع أنهم دعوا الى ما انزل عليكم؟ إن قتلكم للأنبياء دليل قاطع على عدم ايمانكم برسالتهم.

القرءات:
قرأ ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب «ان ينزل» بالتخفيف، والباقون «ان ينزل» بالتشديد.

٢٠٣٧ 92

ولقد جاءكم موسى يا معشر اليهود بالآيات الواضحة المعجزات الناطقة بصدقه، والعصا التي تحولت ثعباناً، يده التي أخرجها بيضاء للناظرين. وبالمن والسلوى وغيرها. . فكفرتم كفراً صريحاً ورجعتم الى الشرك وموسى حي بينكم وبجرد غيابه عنكم لمناجاة ربه. لقد اتخذتم العجل إلهاً وعبدتموه رجوعاً منكم الى وثنتيكم السابقة.

٢٠٣٨ 93

واذكروا اذ أخذنا عهودكم بأن تأخذوا ما آتيناكم من التوراة بقوة، فتعلوها بما فيها من أمري، وتنتهوا عما نهيتكم عنه، لكنكم لما رأيتم ما فيها من تكاليف شاقة. استثلتمت اعباءها واربتتم فيها. فأريناكم على صدق هذا الكتاب آيةً بالغة اذ رفعنا جبل الطور فوقكم حتى صار كأنه ظلة، وظننتم انه واقع بكم. عند ذاك اعلنتم الطاعة والقبول، وقتلتم آمننا وسمعنا، لكن أعمالكم ظلت تكشف عن عصيانكم وتمردكم وتشير الى ان الايمان لم يخالط قلوبكم. وكيف يدخل الايمان قلوبكم. وقد شُغفت بحب المادة والذهب الممثلة في العجل الذي عبدتموه! قال يا محمد لليهود بني اسرائيل الحاضرين الذي يتبعون أسلافهم: بشئ ما يأمركم به ايمانكم ان كان يأمركم بقتل الأنبياء والتكذيب بكتبه، وجود ما جاء من عنده.

ثم أمر الله نبيه الكريم ان يتحداهم في ادعائهم صادق الايمان، وكامل اليقين فقال: قل إن كانت. . الآيات ٩٤ ٩٦

أَنْ صَدَقَ قولكم فيما زعمتم من ان الله خصكم وحكم بالنعم بعد الممات، وان الجنة نلكم لا يدخلها الا من كان يهودياً، وانكم شعب الله المختار فتمنوا الموت الذي يوصلكم الى ذلك النعيم. فامتنعوا من اجابة النبي ﷺ لأنهم يعلمون حقاً ان دعواهم مجرد كذب. ولعلمهم بأنهم ان فعلوا ذلك فالوعيد نازل بهم، فهم في الواقع لا يرغبون في الموت أبداً. بل إنك يا محمد لتجدتهم احرص الناس على الحياة، بل إنه أكثر امن حرص المشركين الذين لا يؤمنون ببعث ولا جنة. ولذلك يود أحدهم ان يبقى على قيد الحياة ألف سنة أو أكثر. والحق ان طول حياته لن يبعده عن عذاب الله والله بصير بما يعملون. فالمرجع اليه، والأمر كله بيديه.

«روى ابن جرير في تفسير ان عصابة من اليهود حضرت عند الرسول الكريم فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نأسلك عنهم لا يعلمهن الا نبي. فقال: سلو عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه: لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتكموه لتتابعني على الاسلام. فقالوا: ذلك لك. فلما سألوهم وأجابهم وعرفوا انه صادق، قالوا: حدثنا من وليك من الملائكة، وعندها نتابعك أو نفارقك، لو كان وليك سواه ن الملائكة لتابعناك وصدقناك. قال: فما يمنعكم ان تصدقوه؟ قالوا: انه عدونا ينزل بالعذاب والنقمة ويأتي بالشدة وسفك الدماء. ولون ان ميكائيل كان ينزل عليك لتابعناك وصدقناك، لأنه ينزل بالحرمة والغيث» فأنزل الله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ} ، لأن جبريل ما يجيء بهذا الكتاب من عنده وايما ينزله بأمر الله. وكل هذه حجج ومعاذير واهية اعتذروا بها عن الايمان بمحمد عليه السلام، ولا تصلح ان تكون مانعة من الايمان بكتاب. انزله الله جامع لكل صفات شريفة.

القراءات

قرأ حمزة وال كسائي «جبريل» ، وقرأ ابن كثير «جبريل» بفتح الجيم وكسر الراء، وقرأ عاصم برواية أبي بكر «جبريل» ، وقرأ الباقون «جبريل» كقنديل.

نبذة: طرحه، نقضه. الفريق: الجماعة لا واحد له من لفظه. ثم يتجه الخطاب الى الرسول عليه السلام ليثبت على ما أنزل اليه من الآيات البينات مقرراً انه لا يكفر بهذه الآيات الا الفاسقون من علماء بني اسرائيل وأخبارهم. وكما تذبذبوا في العقيدة والايان، تذبذبوا كذلك فيما يبرمونه من عهود، فكانوا كلها عادهوا النبي والمسلمين عهداً نقضه فريق منهم، لأن معظمهم لا يؤمنون بحرمة عهد ولا بقداصة ميثاق. وهذا ليس بغريب، فهو من صلب تعاليم تلبودهم. وأساس ما وضعه أخبارهم ان كل من عاداهم ليس له حرمة، ولا ذمة، ولا يجوز أن يبرم معه عهد. كذلك لا يرجى ايمان أكثرهم، لأن الضلال قد استحوذ عليهم، كما ان غرورهم بأنفسهم وتجبرهم قد جعلاهم في طغيانهم يعمهون.

السحر: ما لطف مأخذه وخفي سببه. وسحره: خدعه، ويقال أحياناً للشيء المعجب أو الحديث اللطيف. وقد جاء في الحديث «ان من البيان لسحراً» .

لما جاء محمد ﷺ الى اليهود، وهو رسول من الله اليهم والى الخلق كافة، مصداقاً لما معهم من التوراة التي فيها أوصافه ومتفقاً مع ما في التوراة من أصول التشريع، كالتوحيد بالله، والأخذ بجميع القيم نبذ فريق من اليهود القرآن وراء ظهورهم، أي بحذوه وأعرضوا

عنه كأنهم لا يعلمونه. وماذا عملوا بعد ذلك! لقد آثروا السحر واتبعوا ما يقصُّع الشياطين عن عهد سليمان، ما يضلُّون به الناس من دعاوى مكذوبة، كزعمهم ان سليمان كان ساحراً، وانه سخر الانس والجن عن طريق السحر الذي يستخدمه. ما كفر سليمان وما كان ساحراً بل رسولاً من عند الله. ولكن الشياطين هم الذين كفروا وتقولوا على سليمان هذه الأقاويل وأخذوا يعلمون الناس السحر من عندهم.

{وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ} في هذه الآية تفسيرات، فبعض المفسرين يقول ان معناها: ولم ينزل الله على هاروت وماروت في بابل أي سحر. ويكون المعنى: واتبعة الذي نزلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا. . .

وقال بعضهم وهم أكثرون: يكون المعنى السحر الذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وما روت. مع ان هذين الملكين ما كانا يعلمان احداً حتى يقولوا له انما نعلمك ما يؤدي الى الفتنة والكفر فاعرفه ولا تعمل به.

ومن هنا أخذ بعض العلماء جواز تعلُّم السحر للعلم به وعدم العمل به.

ولكن الناس لم ينتصحووا بهذه النصيحة التي كان الملكان يقولانها لهم فاستخدموا ما يتعلمون منها وجعلوا يفرقون به بين المرء وزوجه. وما هم بضارين به من احد الا باذن الله. وهذه قاعدة عظيمة يقررها القرآن وهي: ان الضر والنفع باذن الله.

ولا يزال في وقتنا هذا مع ما تقدم العلم به من أبحاث كثير من السحر والشعوذة وغير ذلك من التنويم المغناطيسي، والتلبثة. ونحن نجد كثيراً من الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد. ولقد رأيت كثيراً من هؤلاء المنومين يأتون بالعجب العجاب، وقرأت الكثير من القصص عن أناس عندهم خصائص عجيبة. وكل ما استطاع العلم ان يقوله تجاه هذه الأمور وهذه القوى انه اعترف بها وأعطاه أسماء، ولكنه عجز عن تفسيرها. وصدق الله العظيم: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} .

أما من هما الملكان: هاروت وما روت؟ وهنل هما رجلان حقيقة؟ فلا يوجد خبر صحيح يثبت شخصيتهما أو حقيقة جنسهما. وانما كانت قصتهما معروفة مشهورة ووردت في القرآن اشارات مجملة عنها، ولنسا مكلفين بالاستقصاء عنهما والأفضل عدم البحث في ذلك. القراءات:

قرأ ابن عامر وحمة والكسائي «ولكن الشياطين كفروا» بتخفيف النون من لكن، ورفع الشياطين. وقرأ الباقون «ولكن» بالشديد ونصب الشياطين.

٢٠٤٣ 104

يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم من هؤلاء اليهود فلا تقولوا حينما يتلو الرسول عليكم الوحي (راعنا) رغبة في أن يجعلكم موضع رعايته، ويتمهل عليكم في تلاوته حتى تعوا القرآن وتحفظوه، لأن خبثاء اليهود يتظاهرون في ذلك ويستعملون كلمة «راعنوا» ، ومعناها «شرنا أو شرير» ، فيلوون ألسنتهم بهذه الكلمة حتى تصير مطابقة للفظ شتيمة ويوجهونها للرسول الكريم ليسخروا منه فيما بينهم. ولكن اسعملوا كلمة اخرى لا يجد اليهود فيها مجالاً لخبثهم وسخريتهم فقولوا: «أنظرنا» . واسمعوا جيداً لما يتلوه عليكم.

وللكافرين يوم القيامة عذاب أليم. واعلموا ان هؤلاء الكافرين والمشركين لا يحبون ان يأتكم أي خير من ربكم. والله سبحانه وتعالى يختص برحمته من يشاء من عباده. وقد خصكم بهذا الكتاب العظيم الذي جمع به شملكم، وظهر عقولكم من زيف الوثنية، والله ذو الفضل العظيم.

٢٠٤٤ 106

النسخ في اللغة الازالة، يقال: نسخت الشمس الظل: أزالته. الإنشاء: اذهاب الشيء من الذاكرة. الولي: الصديق. النصير: المعين. يتبدل: يبدل. يستبدل. ضل: حاد عن الطريق المستقيم. السوء، من كل شيء: الوسط. السبيل: الطريق.

في هذه الآيات ردُّ على اليهود الذين كانوا يطعنون في الاسلام والقرآن والنبي عليه الصلاة والسلام. وكانوا لا يتركون فرصة دون أن يعترضوا ويحاولوا تشويه الحقائق. فكانوا يقولون: ما بال هذا النبي يأمر قومه بام ثم يبذله بعد ذلك؟ فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ} أي ما نغير حكم آية او تؤخرها الا أتينا بما هو خير منها. وذلك لمصلحة الناس واطهار الدين. كل هذا من الله. القادر على كل شيء والذي له ملك السماوات والارض، يتصرف فيه كيف يشاء، وحسب مصلحة عباده. فلا نتعنتوا كما فعل اليهود من قبلكم حين سألو رسولهم موسى ان يأتيهم بأشياء مستحيلة. وفي هذا نصيحة وتأديب للمسلمين ان يعملوا باي أمرهم به نبيهم الكريم، وينتهوا عما ينهاهم عنه. أما من لا يتأدب. بل يترك الثقة بالبينات المنزلة حسب المصلحة، ويطلب غيرها فقد اختار الكفر واستحب العمى على الهدى.

القراءات: قرأ ابن عامر: ما نُنسخ من أنسخ الرباعي. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «ننساها» اي تؤخرها. وقرأ «تنسها». و «تنسها» بالبناء للمفعول. وقرأ أبو عمرو «نات» بدون همزة.

٢٠٤٥ 109

العفو: ترك العقاب على الذنب. الصفح: الإعراض عن المذنب. وهو يشمل العقاب وترك اللوم. الخطاب للمؤمنين تحذيراً من بعض أخبار اليهود مثل كعب بن الاشرف، وحبي بن أخطب. وأبي ياسر بن أخطب وأمثالهم الذين كانوا أشد الناس عداوة للإسلام ولنبيه ﷺ.

بعد ان عرض الله حالة المنافقين والكافرين وناقش اليهود مناقشة طويلة، ثم أدب المؤمنين كيف يخاطبون النبي وعلمهم ان التعامل والأوامر المنزلة من عند الله بعضها عرضة للغير والتبديل حسب المصلح جاء هنا يحذّر جماعة المسلمين من ان كثيرا من اليهود يودون ان يردوهم عن الاسلام حسدا لهم، بعد ان تبين لليهود من كتابهم نفسه ان المسلمين على الحق. وذلك لأنهم يخشون ان ينتقل السلطان منهم ويفلت من ايديهم. بعد هذا يعلم القرآن المسلمين الأخلاق العظيمة فيأمرهم سبحانه بضبط النفس وان يعاملهم بالرفق واللين. كما وعدهم بأنهم ان تحلوا بهذه الأخلاق فانهم منصورون. وأكد ذلك بقوله {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، فتغلبوا على من يناوئكم. ثم ذكر بجزالة بعض الوسائل التي تحقق النصر الذي وعدهم به فقال:

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} حافظوا على شعائر دينكم، فأقيموا الصلاة على أحسن وجه من الخشوع وأداء أركانها، واعطوا الزكاة الى أهلها. بهذه الأعمال الطيبة ينصرمكم الله إنه عالم بجميع أعمالكم، لا تخفى عليه من أمركم خافية وهو مجازيكم عليها.

٢٠٤٦ 111

الأماني: جمع أمنية: وهي كل ما يتمناه المرء ولا يدركه. البرهان: الحجّة والدليل. من اسلم وجهه: تعبير عن الايمان والاخلاص له والعلم بأوامره. يلي: حرف يأتي ردا للنفي.

في هاتين الآيتين يبين الله تعالى دعوى كل من اليهود والنصارى في ان الجنة لهما ولأتباعهما فقط. تلك أمانيهم، وهي لا تتعدى ان تكون كذبا يزعمونه دون دليل. فقولوا لهم: هاتوا دليلكم ان كنتم صادقين. والواقع انه يدخل الجنة من لم يكن يهوديا ولا نصرانيا اذا آمن بالله وأخلص نفسه له وابتع أوامره. ذلك ان رحمة الله لا تختص بشعب ولا ملّة {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: ١٢٣].

ومن العجيب ان اليهود يكذبون النصارى ويعادونهم. والنصارى يكذبون اليهود ويعادونهم. . والجميع من أهل الكتاب. وهم يتلون الكتاب: التوراة والانجيل. والكتابان من عند الله ولكن المطامع الشخصية. والتعصب الاعمى جعلاهم يكفر بعضهم بعضاً. ومن يقرأ التلمود يجد فيه أمورا بشعة قدرة في وصف المسيح عليه السلام. من ذلك قوله: «يسوع المسيح ارتد عن الدين اليهودي وعبد الاوثان، وكل مسيحي لم يهود فهو وثني عدو لله ولليهود.». وفيه أقوال تقشعر منها الأبدان. وكذلك النصارى يتهمون اليهود بالكفر والخروج عن دين الله. ولا أدري كيف يقولون ذلك مع ان المسيح عليه السلام يقول في الانجيل: جئت لأتم الناموس لا لأنقضه. وكذلك قال الوثنيون من قبلهم بأنهم هم وحدهم الذين على الحق. وكل هذه الأقوال باطلة. وليس مثل الاسلام في صراحته وسعة أفقه، فهو يصدق بالأديان السماوية ويعتبرها، ويؤمن بكتبها الحقيقة قبل ان يطرأ عليها التحريف. ما أعظم قوله تعالى: {أَمَّنَ الرُّسُلَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.} [البقرة: ٢٨٥]. هذا هو الاسلام وهذه هي عظمتة.

في هذه الآية انذار كبير وتحذير مخيف لكل من يمنع احدا من عبادة الله او يصد الناس عن دخول المساجد لأداء عباداتهم، أو من يسعى في خرابها. والمنى: أي امرئ أشد تعدياً وجرأة على الله ممن يفعل شيئاً من هذه المعاصي! ان هؤلاء في الدنيا خزيًا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. وهذا انذار عام يصدق على كفار قريش حين منعوا النبي ﷺ وأصحابه من دخول مكة وتأدية العمرة عام الحديبية، كما يصدق على كل من عمل على تعطيل مسجد أو حال دون أداء شعائر الله فيه.

قال بعض المفسرين: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالتوجه الى استقبال الكعبة في الصلاة. وفيها إبطال لما كان يعتقد أرباب الملل السابقة من ان العبادة لا تصح الا في المعابد، لأن الله موجود في كل مكان. انه رب المشارق والمغارب. ثم شرعت بعد ذلك القبلة الموحدة، وجعلت الكعبة رمزاً لذلك. ولا يزال بعض مفهوم هذه الآية سارياً الى الآن على من لم يعرف أين القبلة. والذي يرحمه ابن جرير في تفسيره ان هذه الآية ليست منسوخة بل ان حكمها باق ومعمول به على أساس انه «إِنَّمَا تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ فِي حَالِ سَيْرِكُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ، فِي صَلَاتِكُمُ التَّطَوُّعِ وَفِي حَالِ مَسَافِقَتِكُمْ عَدُوَّكُمْ، فِي تَطَوُّعِكُمْ وَمَكْتُوبِكُمْ، فَثُمَّ وَجْهَ اللَّهِ» وفي هذا توسيعك كبير.

قانتون: خاضعون، طائعون. بديع السماوات: مبدعها، خالقها ومخترعها. في هاتين الآيتين انتقال الى موضوع جديد، هو نسبة الولد الى الله، فقد قال اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وقال المشركون قديماً: الملائكة بنات الله. وهنا ينفي سبحانه هذا كله فيقول: ان له كل ما السماوات والأرض، ومن كان هذا شأنه، وجميع ما في الكون مسخر لأمره، فهو ارفع من ان يحتاج الى نسل او يتخذ ولداً. وكيف يتخذ ولداً من أبدع هذا الكون العجيب بما فيه من سماوات وأرض ونجوم وكواكب، وقد اذعن كل ما فيه لإرادته، واذا أراد أمراً فاما يقول له: كن فيكون؟؟

الذين لا يعلمون: مشركوا العرب والجهلة من أهل الكتاب.

ولق أمعنوا في عنادهم فطلبوا من الرسول آية حسية أو يكلمهم الله بنفسه. وهكذا طلبت الأمم السابقة من أنبيائهم، فقد قال بنو إسرائيل لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهاراً. وطلب أصحاب عيسى إليه اني ينزل عليهم مائدة من السماء. اما نحن فقد بينّا للناس الآيات على يديك يا محمد، بما لا يدع مجالاً للريب لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان.

ثم يلتفت تعالى الى الرسول الكريم فيخاطبه بما معناه: «إنا ارسلناك بالشيء الثابت الذي لا تضل فيه الأوهام وجعلناك بشيراً لمن اطاع بأنه من الفائزين، ونذيراً لمن عصى انه من الكافرين الجاحدين. فلا عليك إن أصرّوا على الكفر والعناد، فانك لن تُسأل عن أصحاب الجحيم. فأنتم لم تُبعث ملزماً ولا جباراً، وانما بعثت معلماً وهادياً بالدعوة والأسوة الحسنة. وفي هذا تسليّة للنبي الكريم لثلا يضيق صدره.

القراءات:

قرأ نافع ويعقوب: {ولا تسأل عن أصحاب الجحيم} بالنهي. والباقون: لا تسأل.

٢٠٥٢ 120

الملة: الطريقة، الدين، الشريعة، جمعها ملل. الاهواء: جمع هوى، وأهل الأهواء أهل البدع، قال السيد الجرجاني «الهوى ميلان النفس الى ما تستلذ من الشهوات من غمير داعية للشرع». ولا يستعمل في الغالب الا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه. كان النبي ﷺ حريصاً على ان يبادر أهل الكتاب الى الايمان به، فكبر عليه إعراضهم عن اجابة دعوته، مع انها موافقة لأصول دينهم. وهنا يخاطبه الله تعالى بأنهم لن يرضوا عنه ابداً. فيقول له: لا ترهق نفسك في استرضاء المعاندين من اليهود والنصارى، فان هؤلاء لن يرضوا عنك حتى تتبع دينهم الذي يزعمون انه هو الصواب. ولا يوجد هدى حقيقي الا ما أنزل الله على أنبيائه وما أنزلته عليك من الاسلام. لا ما أضافه اليهود والنصارى من تحريف وتغيير حتى فرقوا دينهم وكانوا شيعاء. ولئن اتبعت أهواءهم وما أضافوا الى دينهم وجعلوه أصلاً م أصول شريعتهم فان الله لن ينصرك أو يساعذك على ذلك. وهذا انذار شديد الى الرسول الكريم الذي عصمه الله من الزيف والزلل، ولكنه في الحقيقة موجه للناس كافة. وقد جاء الكلام هنا على هذا الأسلوب الشديد ليرشد من يأتي بعده ان يصدق بالحق ولا يبالي بمن خالفه مهما قوي حزبه واشتد امره. فمن عرف ان الله ناصر له لا يخاف انكار المعاندين.

٢٠٥٣ 121

يذكر الله سبحانه في هذه الآية ان هناك فريقاً من أهل الكتاب يرجى ايمانهم، وهم الذين يتدبرون كتابهم ويتبعون ما جاء فيه من الحق فيؤمنون به، ولا يحرفونه عن موضعه. وقد آمن منهم جماعة وكانوا من خيرة الصحابة كعبد الله بن سلام. أما من يكفر بما أنزل اليك يا محمد بعد ان تبين له الحق فأولئك هم الذين خسروا سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

٢٠٥٤ 122

هذه الآية عظة من الله تعالى لليهود في عصر الرسول الكريم، وتذكير لهم بما سلف من نعمة الله على آبائهم بانقاذهم من أيدي عدوهم، واعطائهم كثيراً من النعم. فخطبهم على هذه الصورة.

يا بني اسرائيل، اذكروا نعمتي عليكم وانقاذي اياكم من أيدي عدوكم فرعون وقومه، وانزالي عليكم المن والسلوى في تهكم، واختصاصي الرسل منكم، وتفضيلي اياكم على غيركم ممن كانوا في ذلك الزمان. وذلك كله حتى يترك اليهود المعاصرون للرسول تماردهم في الغي والضلال ويثوبوا الى رشدهم. ثم يورد الآية التي بعدها «واتقوا يوماً.» ترهيباً منه للذين وعظهم بالآية التي قبلها. فيقول: اتقوا يا معشر بني اسرائيل، المبدلين كتابي وتنزيلي، المحرفين تأويله عن وجهه، المذكبين برسولي محمد عدا يوم لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا يشفع فيما وجب عليها شافع، ولا يمنعها احد من عذاب الله.

الابتلاء: الاختبار. الكلمات: التكليف من أمر ونهي وتشريع. .
 أتمهن: قام بهن خير قيام.
 واذكريا محمد لقومك المشركين وغيرهم ان الله تعالى اختبر ابراهيم ببعض الأوامر والنواهي، فقام بما امره خير قيام، فقال له: اني جاعلك للناس رسولا يقتدى بهديك.
 قال ابراهيم: واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم. قال الله تعالى: أجبتك على ما طلبت، ولكن عهدي بالإمامة لا يناله الظالمون، فهم لا يصلحون ان يكونوا قدوة للناس. ذلك ان الإمامة الصالحة لا تكون الا لذوي النفوس الفاضلة. وفي الآية اشارة الى انه سيكون من ذريته الابرار والفجار.
 القراءات: قرأ ابن عامر: ابراهام بالألف جمع ما في هذه السورة.

البيت: الحرم المكي. مثابة: مرجعا يثوب اليه الناس. مقام ابراهيم: هو الحجر الذي كان يقوم عليه حين بناء الكعبة. وقيل ان الحرم كله مقام ابراهيم.
 عهد: وصي.
 في هذه الآيات يأتي الحديث عن ابراهيم واسماعيل، وعن البيت الحرام وشعائره، لتقدير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول النسب الذي يمتُّ به ويحترمه أهل الكتاب ومشركوا العرب، وهو ملة ابراهيم ونسبه الى عقيدة المسلمين.
 اذكروا قصة بناء ابراهيم مع ابنه اسماعيل لبيت الله الحرام بمكة، اذ جعلنا هذا اليبس للخلف ملاذاً ومأمنًا، واذ امرنا الناس ان يتخذوا منه مكاناً يصلّون فيه. وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل، اي وصيناهم، بتطهير البيت، وان يصوناه من كل رجس معنوي كلاشرك بالله وعبادة الأصنام، أو رجس حسي كاللغو والرفث والتنازع فيه، وقت اداء العبادات. كما أوصيناها ان يجعلاه مهياً للناس للطواف والصلاة والسعي.
 ومقام ابراهيم الذي جاءت الاشارة اليه كان ملاصقاً للكعبة، وكان الحجاج أثناء الطواف يتزاحمون عنده، وربما حدث كثير من الانزعاج لبعضهم، مما حدا بالمسؤولين ان يستفتوا العلماء لإبعاده قليلاً. وقد افق بذلك جمهور من العلماء فتمت زحزحته عن مكانه. وهناك من المفسرين من يقول: مقام ابراهيم هو الحرم جميعه، سماه الله بيته لأنه أمر المصلّين ان يتوجهوا في عبادتهم اليه. والحكمة في ذلك ان الناس في حاجة الى التوجه الى خالقهم لشكره والثناء عليه، لكنهم يعجزون عن التوجه الى «ذات مجردة» لا تختص في جهة، فعين الله لهم هذا البيت المقدس نسبة اليه.

واذكروا اذا طلب ابراهيم الى ربه ان يجعل مكة، البلد الحرام، بلداً آمناً، وان يرزق من يحل فيه من ثمرات الأرض وخيراتها. هذا ما طلبه ابراهيم، فأجابه الله تعالى اليه. اما من كفر فإني انا العلي القدير، أمتعه في هذه الحياة الدنيا القصيرة الأمد ثم أسوقه الى عذاب النار يوم القيامة.
 القراءات:

قرأ نافع وابن عامر: «اتخذوا» بلفظ الماضي. وقرأ ابن عامر: «فأمتعه» من أمتع الرباعي.

القاعدة: ما يقوم عليه البناء من أساس. الأمة: الجماعة. والمناسك: جمع منسك العبادة، وأصبحت شائعة في عبادة الحج. الكتاب: القرآن. الحكمة: كلمة معامة تجمع معاني العلم والعدل والحلم وكل أنواع المعرفة التي تجعل المرء حكيماً يسلك طريق السداد: ويزكيم: يطهر نفوسهم من دنس الشرك والمعاصي.

بعد ما مر من الآيات التي نوهت بالحرم والبيت، وان الله جعله بلداً آمناً تجي إليه الثمرات انتقل التنويه الى ان الذي بنى ذلك البيت هو ابراهيم بمعنونة ولده اسماعيل.

وكانا يدعوان بقولهما: ربنا تقبل منا هذا العمل الخالص لوجهك الكريم، إنك انت السميع لدعائنا؛ العليم بنياتنا في جميع اعمالنا. وفي الآية اشارة بأن كل من عمل عملاً صالحاً أو أدى فريضة مقررة وابتهل الى الله بالدعاء طالباً القبول فإنه لا يرده خائباً. ربنا واجعلنا مخلصين لك بأن لا نتوجه بقلبنا الا اليك، ولا نستعين بأحد الا بك، ولا نقصد بعملنا الا مرضاتك. واجعل من ذريتنا جماعة مخلصين لك، وعلمنا طريقة عبادتنا الصحيحة لك في بيتك المحرم وما حوله، في الحج وغيره، ووفقنا للتوبة انك تقبل توبة عبادك وتغفر لهم بفضل من رحمتك.

ربنا وابعث في ذريتنا رسولاً منهم، يقرأ آياتك، ويعلمهم ما تنزل من الوحي، ويبصّرهم بكل علم نافع وشرعية قويمه، ويطهرهم من ذميم الأخلاق، إنك انت القوي الذي لا يغلب، ولا يناله ضيم، والعزيز الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه الحكمة والعدل والصلاح. وقد أجاب الله دعاءهما وأرسل فيهم محمداً عليه الصلاة والسلام من ذرية اسماعيل، فكون من العرب بفضل الاسلام أمة كانت خير الأمم. واذا كانت هناك الآن وحدة اسلامية عامة أو شيء يشبه هذه الوحدة، فإنما هي بفضل القرآن وجدت وبفضل القرآن ستبقى، مهما تختلف الظروف وتدلهم الخطوب. فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان أساساً للوحدة القديمة. والعرب أجدد ان يفهموه وينفذوه، فقد نزل فيهم، وأنزل بلغتهم، واتجه اليهم أول ما أنزل.

٢٠٥٨ 130

رغب في الشيء: أحبه، ورغب عنه: لم يردّه وزهد فيه. سفّه نفسه: أذلها واحتقرها. اصطفيناه: اخترناه. أسلم: أخلص العبادة لله. هذه هي ملة ابراهيم: الاسلام الخالص. ولنعم ما فعله ابراهيم وما دعا اليه ربه، فكيف تعرضون عنها، وتدعون أولياء من دون الله لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً! انه لا يعرض عن ملة ابراهيم الا من امتن نفسه واحتقرها. ولقد اصطفينا ابراهيم من بين خلقنا في الدنيا، وجعلناه في الآخرة من المشهود لهم بالخير والصلاح. اذ قال له ربه حين دعاه: أسلم، فلي دعوته حالاً وقال: أسلمت واخصلت ديني لله. اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما ن من المشركين. وبعد ذلك وصى ابراهيم بنيه بهذه الدعوة كما وصى يعقوب أولاده من بعده أن اتبعوا ملة أبيكم ابراهيم فالله قد اختار لكم هذا الدين الخفيف، لحافظوا على هذه النعمة، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون.

القراءات:

«وصى بها ابراهيم» قرأ نافع وابن عامر «وأوصى بها» .

٢٠٥٩ 133

شهداء: جمع شهيد بمعنى حاضر. وهو المقصود. روي ان اليهود قالوا للنبي الكريم: ألسنت تعلم ان يعقوب أوصى بنيه باليهودية؟ فجاءت هذه الآية رداً عليهم. أكنتم هناك يوم حضرته الوفاة وعرفتم الملة التي مات عليها!

اعلموا ان يعقوب مات على دين ابراهيم، وكذلك ابناؤه بعده. فلقد سألهم: ماذا تعبدون من بعدي؟ فأجابوا: نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق، لا نشرك به شيئاً ونحن له منقادون مسلمون.

وقد ارشدت الآية الكريمة الى ان دين الله واحد في كل أمة، وعلى لسان كل نبي، وروحه التوحيد والاستسلام لله والاذعان لهدى الأنبياء.

تلك أمة ابراهيم ويعقوب والصالحين من بينهما، وهي جماعة قد خلت، لها ما كسبت في اسلامها من الاعتقادات والأعمال والأخلاق، ولكم ما كسبتم من الهدى أو الضلال. انهم لا يسألون عن أعمالكم ولا تسألون عما كانوا يعملون. اولئك لا ينفعهم الا ما اكتسبوا، وأنتم لا ينفعكم الا ما اكتسبتم.

٢٠٦٠ 135

هودا: يهودا. حنيفا: مائلا عن الباطل الى الحق، ثم صار علماً للاستقامة. الأسباط: جمع سبط وهو ولد الولد. الاسباط من بني اسرائيل كالقبائل من العرب: تولوا: عرضوا. في شقاق: في نزاع. صبغة الله: فطرة الله التي فطر الناس عليها. قال اهل الكتاب: كونوا ايها المؤمنون يهوداً او نصارى تهتدوا الى الطريق السوي، فقل لهم يا محمد: بل تتبع ملة ابراهيم الذي لا تنازعون في هدايته ولم يكن من المشركين. ودين ابراهيم الحنيف هو الذي عليه محمد واتباعه المؤمنون. وذلك لأنهم يؤمنون بالله وبرسوله كتبه. لذلك قال بعده هذه الآية: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن، وآمنا بما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى غير محرّفة، والانجيل الذي أنزله الله على عيسى غير محرّف أيضاً. وآمنا بما أتى النبيون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم فنكفر ببعضه ونؤمن ببعض، بل نشهد بأن الجميع رسل الله بعثهم بالحق والهدى، ونحن له مسلمون مدعنون بالطاعة والعبودية. فإن آمنوا بكل هذا وتركوا ما هم عليه من تحريف كتبهم وادعائهم حلول الله في بعض البشر، فقد اهتدوا الى الحق. اما إن عرضوا عما تدعوهم اليه، وفرقوا بين رسل الله فاتركهم. فانهم في شقاق وعداوة، والله سوف يكفيكم امرهم ويريحك من لجاجهم ونزاعهم.

غن ما ذكر آنفاً هو الايمان الحقيقي، وهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها. اختار الله هذه الرسالة وجعلها آخر رسالاته الى البشر لتقوم عليها وحدة انسانية واسعة الآفاق، كل الناس فيها سواء، أفضلهم أتقاهم وانفعهم. ومن أحسن من الله صبغة! وتختتم الآية بهذه العبارة اللطيفة «ونحن له عابدون» أي ان الله هداانا بهدائته، وارشدنا الى حجته، ونحن لا نخضع الا لله، ولا نتبع الا ما هداانا وأرشدنا اليه، فلا نتخذ الاحبار والرهبان اربابا يزيدون في ديننا وينقصون.

٢٠٦١ 139

اتحادونا: اتجادلوننا.

بعد ان بين الله تعالى ان الملة الصحيحة هي دين ابراهيم، وهي صبغة الله جلّالاً، وان محمداً جاء متبعاً لها متمماً للرسالات التي سبقته شرع هنا يبطل الشبهات التي تعترض سبيل الحق، فقال: قل يا محمد، اتجادلوننا في الله زاعمين انه لا يصطفي الأنبياء الا منكم، وهو ربكم ورب كل شيء لا يختص به قوماً دون قوم! ان رب العالمين يصيب برحمته من يشاء ويجزي كل قوم بأعمالهم، لنا اعمالنا، ولكم أعمالكم، ونحن له مخلصون.

ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق والأسباط كانوا يهوداً او نصارى مثلكم مع أن الله ما انزل التوراة والانجيل اللذين قامت عليهما اليهودية والنصرانية الا من بعد هؤلاء! لقد اخبرنا الله بذلك، فهل انتم أعلم أم الله؟ بل انه اخبركم بذلك في أسفاركم، فلا تكتموا الحق. ومن أظلم من كتم حقيقة يعلمها من كتابه! ان الله لا يترك امركم سدى فهو يعلم حقائق الأمور، وهو محيط بما تأتون وما تذكرون. {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ. . .} اعاد القرآن الآية التي مرت منذ قليل للتأكيد على انه لا علاقة لهم بالأسلاف الماضين. .
القراءات:

قرأ ابن عامر، وحمة والكسائي وحفص «ام تقولون» بالتاء. والباقون: «ام يقولون» بالياء.

السفيه وجمعه سفهاء: الجاهل، ضعاف العقول. ولاه عن الشيء: صرفه. القبلة: ما يستقبل الانسان. ثم خصه بالجهة التي يستقبلها المسلمون في الصلاة. الوسط: العدل والخيار. من ينقلب على عقبيه: يترك ما كان عليه من التقوى والاستقامة. لما هاجر الرسول الكريم الى المدينة مكث ستة أو سبعة عشر شهرا يصلي متوجهاً الى بيت المقدس. وفي شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة أوحى اليه ان يتوجه بالصلاة الى الكعبة كما يقول ابن عباس. فغضب اليهود من تحويل القبلة هذا وجاء نفر من أحبارهم، منهم رفاعة بن قيس وكعب بن الاشرف والربيع ابن ابي الحقيق فقالوا: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه؟! ارجع الى قبلتك تتبعك وتصدقك. وما كانت أقوالهم هذه الا كذباً وما أرادوا بذلك الا فتنة النبي ﷺ. فأَنْزَلَ اللهُ تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ .} الآية سيقول الذين ضعفت احلامهم وأضلتهم أهواؤهم من اليهود والمنافقين والمشركين: أي شيء صرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟.

قل يا محمد، إن جميع الجهات لله لا فضل لجهة على أخرى، وليست صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور، وكذلك الكعبة والبيت الحرام. وانما جعل الله للناس قبلة، لتكون جامعة لهم في عبادتهم، والله وحده هو الذي يختار ما يشاء ليكون قبلة للصلاة. وهو يهدي بمشيئته كل أمة من الأمم ويلهمها ما فيه الخير لها. وكذلك جعلناكم أمة وسطاً خياراً عدولاً، جمع دينها بين المادة والروح فجاء وسطاً جامعاً بين حق الروح وحق الجسم. وخير الامور الوسط. وذلك لتشهدوا يوم القيامة على جميع الناس الماديين الذي فرطوا في جنب الله واخذوا الى المذات وعبادة المادة، وقالوا إن هي الا حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر. وكذلك الذين غلوا في الدين وتخلوا عن جميع اللذات الجثمانية وتعلقوا بالروحانيات فقط. لقد جعلناكم كذلك لتكونوا أمة وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء، وبكل معاني الوسط، سواء في الوساطة بمعنى الحسن والفضل أو الاعتدال والقصد، أو التفكير والشعور. {وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} اذ هو المرتبة العليا لمرتبة الوسط. {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا. .} اما القبلة الى بيت المقدس واليت شرعناها لك حيناً من الدهر ثم أمرناك ان تتحول عنها فانما جعلناها امتحاناً للمسلمين، ليتبين منهم من يطيع أوامر الله ويتبع الرسول الكريم، من يغلب عليه هواه فيضل عن سواء السبيل. ولقد كان الأمر بالتوجه الى بيت المقدس ثم التحول الى الكعبة شاقاً الا على الذي وفقهم الله الى الايمان. والله رؤوف بعباده، لأنه ذو رحمة واسعة فلا يضع عمل عامل من عباده.

القراءات:

قرأ الحرميان، وابن عامر وحفص «لرؤوف» بالمد على وزن فاعول. والباقون «رؤف» فَعْل.

ثقل الوجه في السماء: التطلع الى السماء. الشطر: الجهة. كان النبي عليه الصلاة والسلام منذ وصوله المدينة يتطلع الى ان يؤمر بان تكون قبلته الكعبة. قبله ابيه ابراهيم. فيه قبلة بني قومه، يعظمونها ويفتخرون بها. لذلك جعل يديكم النظر الى السماء، راجيا ان يمن الله عليه بالوحي الذي يأمره بذلك، فأوحى الله تعالى اليه قوله {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ. . .} . فها نحن أولاء نؤتيك سؤالك، فاستقبل في صلاتكم المسجد الحرام، واستقبلوه كذلك أيها المؤمنون في أي مكان تكونون.

اما آل الكتاب فانهم يعلمون ان استقبال القبلة في المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على رسوله، ومع ذلك تجدهم يثيرون الشغب والفتنة، ويؤثرون على الضعاف في دينهم، ويوهمونهم ان ما يقولونه مأخوذ من كتبهم، وما هو من كتبهم، ولكنهم يريدون بذلك الخداع والفتنة. والله ليس غافلاً عنهم، وهو يجزيهم بما يفعلون. ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد الشديد.

القرءات:

قرأ ابن عامر وحزرة والكسائي «يعملون» بالياء. وبالباقون «تعملون» بالتاء.

٢٠٦٤ 145

ثم يؤكد تعالى عنادهم وكفرهم بهذه الآية، وتفسيرها: ولئن جئت يا محمد اليهود بكل برهان وحجة بأن الحق هو ما جئت به من فرض تحويل القبلة. ما صدقوا به ولا اتبعوك، لأن إنكارهم ما كان لشبهة تزيلها الحجة. بل هو عناد ومكابرة، فلا يُجدي معهم برهان ولا تقنعهم حجة.

وإذا كان اليهود يطمعون في رجوعك الى قبلتهم ويعلقون اسلامهم على ذلك، كما راجعك نفر منهم فقد خاب رجائهم ولن تتحول الى قبلتهم. ان اليهود لن يتركوا قبلتهم ويتوجهوا الى المشرق. ولا النصارى تغير قبلتها وتجه الى المغرب.

{وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ...} ولئن التمت يا محمد رضا هؤلاء اليهود فابتعت قبلتهم من بعدما أوحينا إليك أنهم مقيمون على باطل فإنك أذاك من الظالمين أنفسهم المخالفين لأمرى.

٢٠٦٥ 146

ان أهل الكتاب ليعلمون ان تحويل القبلة الى المسجد الحرام حق، وأنت يا محمد النبي المنعوت في كتبهم بأنه سوف يصلي الى الكعبة. وهم يعرفون ذلك كمعرفتهم لأبنائهم. وذلك ما قاله عبد الله بن سلام، أحد احبار اليهود. قبل ان اسلم وصار من عظماء الصحابة. لسيدنا عمر رضي الله عنه: انا اعلم بأن محمداً نبي أكثر مما اعلم انه مني. وكذلك قال تميم الداري وهو من علماء النصارى. ولكن بعضهم أصروا على الكفر وكنتموا الحق الذي يعرفونه، اتباعاً لهواهم، وتعصباً وحفظاً على سطلناهم.

٢٠٦٦ 147

اعلم يا محمد ان الحق هو ما أعلمك به ربك لا ما يضلُّ به اهل الكتاب فلا تكن من اهل الشك والتردد. ومن ذلك الحق امرُ القبلة فامض فيه ولا تبال بالمعارضين. والنهي في هذه الآية كالوعيد في الآية السابقة {وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ...} الخطاب فيه موجه الى النبي عليه السلام، والمراد به من كانوا غير راسخين الايمان من أمتة.

٢٠٦٧ 148

بعد ان اقام الحجة على أهل الكتاب وبين أنهم يعملون من كتبهم ان محمداً نبي، وان بجودهم لتحويل القبلة عناد ومكابرة بين الله تعالى هنا ان كل أمة لها قبلة خاصة تتوجه اليها حسب شريعتها، ليس في ذلك شيء من التفاضل، وإنما التفاضل في عمل الخير، فسارعوا اليها المؤمنون الى الخيرات وتنافسوا فيها، ان الله سبحانه سيجمعكم يوم القيامة ويأتي بكم من كل مكان تكونون فيه، ثم يحاسبكم على ما قتم به من أعمال، فيؤقي المسحن جزاءه والمسيء عقابه، أو يتفضل فيصفح. وهو على جمعكم من قبوركم وعلى غير ذلك مما يشاء قدير.

٢٠٦٨ 149

الى أي جهة توجهت في اسفارك يا محمد فاستقبل المسجد الحرام. هاذ هو الحق من ربك، فاحرص عليه انت وأمتك، فان الله ليس بغافل عن أعمالكم. وحيثما كنتم من أقطار الارض، مقيمين أو مسافرين، فصلُّوا متجهين الى المسجد الحرام.

وقد كرر سبحانه هذا الأمر ثلاث مرات تأكيداً لأهمية هذا الموضوع حتى تنقطع حجة أهل الكتاب والمشركين ومن تبعهم من المنافقين، الا الذين ظلموا منهم فلن ينقطع جدالهم وضلالهم. وسيظل اليهود يقولون: ما تحوّل الى الكعبة الا حباً لبلدة، ولو كان على حق للزم

قبلة الأنبياء الذي قبله. ويقول المشركون: رجع الى قبلتنا وسيرجع الى ديننا. ويقول المنافقين: انه متردد مضطرب لا يثبت على قبلة. لا تبالوا بمثل هؤلاء، فان مطاعنهم لا تضركم، واخشوني ولا تخالوا امري. بذلك أتم نعمتي عليكم بأعطائكم قبلة مستقبلية لكم، لعلكم تهتدون.

٢٠٦٩ 151

يعدد الله سبحانه نعمه الكثيرة على هذه الأمة فيقول: ان من تمام نعمتي عليكم توجيهكم الى المسجد الحرام. بعد أن أرسنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا التي ترشدكم الى الحق، ويظهر نفوسكم من دنس الشرك وسيء الاخلاق والعادات، التي كانت فاشية فيه العرب من وأد البنات، وسفك الدماء لأتفه الأسباب. ويعلمكم القرآن، ويبين لكم ما فيه من تشريع واسرار آلهية، كما يعلمكم أشياء كثيرة كانت مغيبة عنكم.

فاذكروني بالطاعة والعبادة وبأعمالكم الطيبة واشكروا لي هذه النعم بها، ولا تكفروا هذه المن ولا تجحدوها.

٢٠٧٠ 153

بعد ان تم تقرير القبلة، وما واكبه من امتحان كبير للمؤمنين، وما لا قوه من اليهود والمنافقين والمشركين، وبعد بيان نعم الله على المؤمنين شرع سبحانه في توجيه هذه الأمة توجيها عظيما، وتوطئتها على احتمال الشدائد، وتعويد النفوس على التضحية. وأعظم شيء يواجه الانسان به كل هذه المكاه هو الصبر. ولذلك قال تعالى: يا أيها المؤمنون، استعينوا في كل تأتون وما تذكرون بالصبر، فانه أمر عظيم، ومزية كبرى وليس الصبر مجرد الاستسلام والخضوع اما الحوادث، إن ذلك عجز وصغار لا يرضى بهما الله لعبادة المؤمنين، وإما هو تحمل منع عمل دائب مدروس. وكذلك بالصلاة، وهي الوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته بخشوع وتذير، وطلب المعونة والهداية منه. بذلك يطهر جسد المؤمن، كما تطهر روحه. وقد خص الصبر والصلاة معا لأن الصبر أشد الأعمال الباطنية على البدن، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة عليه. وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمر صلى» فالصبر والصلاة من أقوى عدد المؤمن في هذه الحياة، ان الله مع الصابرين.

{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . } نزلت هذه الآية في شهداء بدر وهي تعم كل من استشهد في سبيل الله. ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هو ميت، فإنه حي عدي في حياة نعيم، وعيش هنيء.

فالشهداء احياء في عالم غير عالمنا، ونحن لا نشعر بحياتهم، لأنها ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر. وقد صورها رسول الله أجمل تصوير رمزي فيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود: «ان أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا. وأي شيء نبغي وقد اعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا: نريد ان تردنا الى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نُقتل فيك مرة أخرى، لما رأوا من ثواب الشهادة، فيقول الرب جل جلاله: اني كتبت انهم اليها لا يرجعون».

وقد وردت احاديث كثيرة تشيد بالجهاد في سبيل الله، وفضل الشهداء والشهادة. وهل هناك أعظم من التضحية في سبيل الله والوطن!!

٢٠٧١ 155

الابتلاء: الاختبار والامتحان.

المصيبة: كال ما يؤذي الانسان في نفسه أو ماله أو أهله. الصلاة من الله للفرد: التعظيم للانسان اعلاء منزلته. والرحمة منه: اللطف بما يكون من حسن العزاء.

هذا إخبار من الله تعالى للمسلمين انه مبتليهم بشدائد من الأمور ليُعلم من يتبع الرسول مما ينقلب على عقبيه، وسميتهم بشيء من الخوف من العدو، والجوع من القحط لختبرهم أيضاً. يومئذ تنقص أموالكم، وتكون حروب بينكم وبين الكفار، وتقع جدوب تنقص فيها ثماركم، ويومئذ يتبين الصادقون منكم في إيمانهم، من الكاذبين فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم منكم من أهل النفاق فيه. ولن يعصمكم في هذا الامتحان القاسي الا الصبر. ولذلك بشر يا محمد الصابرين على امتحاني، والحافظين أنفسهم عن الإقدام على مخالفة أوامري، والذي يؤدون فرائضي مع ابتلائي إياهم والذين اذا نزل بهم ما يؤلمهم يؤمنون بان الخير والشر من الله، وان الأمر كله لله فيقولون: إنا مقرّون لله بالعبودية والملك، واليه راجعون مقرّون بالفناء والبعث من القبور. فليس لنا من أمرنا شيء وانما له الشكر على العطاء وعلينا الصبر عند البلاء. أولئك لهم من ربهم مغفرة ورحمة، يجدون أثرها في برد قلوبهم عند نزول المصيبة.

هذه تربية ربانية عالية للمسلمين، ليعدهم لأمر عظيم، وذلك الامر هو نشر دينه القويم، ودعوته السماوية التي أخرجت الناس من الظلمات الى النور. وقد قاموا بحقتها ووفوها بعز وإيمان. لقد أدوها يومذاك خير أداء، وهو ما يُطلب منا اليوم: ان نأخذ بهذه الآداب الربانية ونلتف حول القرآن الكريم لنستعيد مجدنا وكرامتنا، ونستحق الحياة في هذا الكون، ونكون من المهتدين.

٢٠٧٢ 158

الصفاء والمروة: جُبلان في مكة في الحرم. شعائر الله والمشاعر: المناسك والعبادات.

الحج: الذهاب الى بيت الله الحرام في أيام موقوتة وذلك على من استطاع. والعمرة: معناها في اللغة الزيارة، وفي الشرع الزيارة لأداء مناسكها. فلا جناح عليه: لا اثم عليه.

التطوع: التبرع بالخير.

كان بين الصفاء والمروة سوق تجارية عامة فكان في السعي بينهما بعض المتاعب، نتيجة لما يصادفه الساعي من الاحتكاك بالناس والحيوان. والمسافة بينهما نحو ٧٦٠ ذراعاً. وقد ازيل السوق وضم الى الحرم، ونظم السعي من زحام فان المرء يسعى بكل راحة واطمئنان.

وقد كان في زمن الجاهلية على كل من الصفاء والمروة صنم يطوف به أهل مكة ويتبركون. فلما جاء الاسلام تخرج بعض المسلمين، وقالوا كيف نطوف في هذا المكان وقد كان المشركون يتبركون بالاصنام فيه؟ كذلك كان أهل يثرب يحجون الى مناة، الصنم المشهور، فقالوا: بعد اسلامهم: يا رسول الله، إنا كنا في الجاهلية لا نطوف بين الصفاء والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج ان نطوف بهما؟ فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ...} الآية.

ان هذين الموضعين من مناسك الحج والعمرة، فن أدى فريضة الحج أو اعتمر فلا يتخوف من الطواف بينهما، ولا حرج على من زاد وأكثر من الطاعة في العبادة فان الله تعالى يجازيه على الإحسان احساناً. وذلك انه مهما استكثر المؤمن من عمل الخير فان الله يزيده من الأجر أضعافاً مضاعفة.

وفي هذا تعليم لنا وتأديب كبير، فاذا كان الله تعالى يشكرنا على تأدية الواجبات وعمل الطاعات فإن معنى هذا أن نشكر الله على ما أسبغ علينا من النعم الكثيرة. كذلك فيه تعليم لنا ان نشكر كل من أسدى إلينا معروفاء، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

القراءات:

قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «ومن يَطَّوْع» بالياء والادغام.

٢٠٧٣ 159

كتم الشيء: ستره واخفاه. والبيئات: الأدلة الواضحة. الكتاب: يراد به الكتب المنزلة من عند الله. اللعن: الطرد والإبعاد.

الكلام هنا في عناد اليهود ومن تابّعهم من المنافقين. لذلك انتقل من بيان مشروعية الطواف بالصفاء والمروة الى الحملة على هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البيئات والهدى. والظاهر ان هناك من اعترض منهم أيضاً على مناسك الحج، لكن حكم الآية ههنا شامل

لكل من كتم علماً فرض الله بيانه للناس.
 ان أهل الكتاب الذين كتموا أمر الإسلام، ونبوة محمد رغم انهم يجدون ذلك لديهم في التوراة والانجيل، والذين عرفوا براهين صدق نبوته ثم أخفوا هذه الدلائل وكتموها عن الناس اولئك يصب الله غضبه عليهم ويبعدهم من رحمته.
 ثم استثنى الحق من تاب، فقال: إلا الذين تابوا، وأصلحوا حال أنفسهم بالتقرب الى الله صالح الأعمال فهؤلاء يتوب الله عليهم، ويفيض عليهم مغفرته، وهو التواب الرحيم.

٢٠٧٤ 161

كان ما سبق حال من يرضى عنهم ربهم، اما الذين يموتون وهم كفار ولا يتوبون فاولئك لهم اللعنة الأبدية، لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. انه مطرودون من جميع المخلوقات، يرجون رحمة ربهم ولا يستطيع احد ان يشفع لهم، وسيبقون في العذاب خالدون في النار، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يمهلون حتى لو طلبوا ذلك.

٢٠٧٥ 163

يبين الله تعالى هنا القاعدة الكبرى في هذا الدين والأساس الأول الذي يبنى عليه وهي الوحدانية. فالذي يستحق منكم الطاعة ويستوجب منكم العبادة هو معبود واحد ورب واحد. فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه سواه. انه الذي وصعت رحمته كل شيء، فحسب المرء ان يرجو رحمته ولا يعتمد رحمة سواه.
 وقد قرن الوحدانية مع الرحمة دون غيرهما من صفاته، ليبين لعباده انه يرحم ويغفر أكبر الذنوب، يفعل ذلك ترغيباً في التوبة والرجوع اليه في كل حين.

٢٠٧٦ 164

في هذه الآية عرض موجز لبعض مشاهد الكون العجيب، وآيات لكل ذي عقل على وجود الله وألوهيته. وفيها تنبيه للحواس والمشاعر تفتح العين والقلب على عجائبها هذا الكون، فمن ذلك: ابداع السموات التي ترونها والكواكب تسير فيها بانتظام دون ان تتزاحم او تصدم، بل تبعث الحرارة والنور لهذا العالم، والارض وما فيها من البر والبحر، وتعاقب الليل والنهار في حياتها ما في ذلك من المنافع للناس. كذلك ما يجري في البحر من السفن التي تحمل الناس والمتاع، ولا يسيرها الا الله. كذلك فهو الذي يرسل الرياح التي تبعث المطر، فيحيي الحيوان ويسقي الارض، والنبات. ومن خلقه ايضاً ما ترونه من السحاب المعلق بين السماء والارض.
 والآن، هل يعقل ان تقوم هذه الأشياء كلها، وبهذا الاتقان والإحكام من تلقاء نفسها! ام هي صنع العليم القدير!
 ويدلنا علم الفلك ان عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها، فمنها ما هو أكبر من الأرض وما هو أصغر منها. لكن أكثرها كبير جداً، حتى يمكن ان يعدل أحدها ملايين النجوم التي في مثل حجم ارضنا هذه.
 عندما تكون السماء صافية نستطيع ان نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم ولكن هذا العدد يتضاعف الى أكثر من مليونين حين نستعمل تلكسوباً عادياً. ذلك ان الفضاء الكوني فيسح جداً، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها، وبسرعة خارقة. فبعضها يواصل رحلته وحده، ومنها ما يسير مثنى مثنى، أو في مجموعات.

وأقرب حركة منا هي حركة القمر الذي يبعد حوالي ٢٤٠.٠٠٠ ميل. وهو يكمل دورته حول الارض من تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم. كذلك تبعد ارضنا عن الشمس مسافة (٩٢.٠٠٠.٠٠٠) ميل، وهي تدور حول محورها بسرعة الف ميل في الساعة، وقطر فلكها (٨.٠٠٠.٠٠٠) ميل تكمله مرة واحدة في السنة. وهناك تسعة كواكب مع الارض وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة. فالمشتري مثلاً يكمل دورة واحدة حول الشمس كل ١١ سنة وستة وثمانين يوماً. وزحل كل ٢٩ سنة وستة وأربعين يوماً.

وأورانس كل ٨٤ سنة ويومين. ونبتون كل ١٦٤ سنة وسبعة وتسعين يوماً. وأبعد هذه الكواكب السيارة حول الشمس هو بلوتو الذي تستغرق دورة واحدة منه حول الشمس ٢٤٨ سنة و ٤٣ يوماً. وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرًا. ولا ننسى ذلك العملاق الذي نسميه «الشمس»، وهي أكبر من الأرض بمليون ومئتي ألف مرة. ثم ان هذه الشمس ليست بثابتة في مكانها وإنما هي بدورها تدور مع كل هذه السيارات والنجميات في هذا النظام الرائع. وهناك آلاف من الأنظمة غير نظامنا الشمسي، يتكون منها ذلك النظام الذي يسمى المجرات.

وكانها جميعاً طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب منفردة ومجموعة كما يدور الخدروف يلعب به الطفل، {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} وبقدّر علماء الفلك ان هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون واحدة من هذه المجرات، ويرون ان هذا الكون الفسيح بأعداد الهائلة من الكواكب والنجوم إنما يسير بحركة منتظمة، طبقاً لنظام وقواعد محكمة لا يصطدم فيها بعضها ببعض. وان العقل حين ينظر الى هذا النظام العجيب، والتنظيم الدقيق الغريب، لا يلبث ان يحكم باستحالة أن يكون هذا قائمة بنفسه، بل يجزم ان هناك قدرة هي التي تقيمه وتهيمن عليه. تلك هي قدرة الله الواحد القدير. أفليس في هذه العجائب والمشاهد عبر ومواعظ لمن يتدبر بعقله ويستدل بما فيها من إتيان وإحكام على قدرة مبدعها وحكمته!

وقد قال بعض العلماء: ان لله كتابين، كتاباً مخلوقاً هو الكون، وكتاباً منزلاً مقروءاً هو القرآن، يرشدنا الى طرق العلم بذلك، فمن اعتبر بهما فاز.
القراءات
قرأ حمزة والكسائي «وتصريف الريح» على الأفراد.

٢٠٧٧ 165

الند: المماثل جمعه انداد. السبب، وجمعه أسباب: أصل معناه الجبل ثم أصبح يطلق على كل ما يتوصل به الى مقصد من المقاصد. الكرة: العودة. الحسرة: شدة الندم.

بعد ان بين الله تعالى ظواهر الكون الدالة على قدرة الخالق وعظمته يقول هنا: رغم هذه الدلائل الواضحة، والآيات البينات اتخذ بعض الناس ممن ضلت عقولهم أرباباً متعددة غير الله، وجعلوهم اندادا له يطيعونهم ويعبدونهم ويحجونهم كحج المؤمنين لله، وقد يكون هؤلاء الأرباب من وُساأهم الذين يتبعونهم ويتعلقون بهم، وقد يكونون احراراً أو أشجاراً، أو نجومًا وكواكب، أو ملائكة وشياطين، أو حيوانات وهذا شرط عظيم.

والذين آمنوا أشد حبا لله من كل ما سواه. والتعبير هنا بالحب جميل فوق انه صادق. فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هي صلة الحب والانقياد التي لا تنقطع، فهو يلجأ الى الله دائماً عد كل شدة أو نائبة.

ولو يشاهد الذين ظلموا أنفسهم بتدنيسها بالشرك ما سينالهم من العذاب يوم القيامة، يوم تكون القوة جميعها لله وحده؛ وانهم كانوا ضالين حين لجأوا الى سواه، ويتحققون من ان الله شديد العذاب لويرون حين يتبرأ الرؤساء المتبوعين من الذين اتبعوهم، وحين تنقطع الأواصر والعلاقات وينشغل كل بنفسه، وتظهر حقيقة الالوهية وكذب القيادات الاخرى وضعفها وعجزها أمام تلك القدرة لندموا أشد الندم.

{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا . . .} وسيقول التابعون، عندما يتبين لهم أنهم كانوا مخدوعين، ليت لنا رجعة الى الدنيا حتى نتبع سبيل الحق، وننتبرأ من هؤلاء الضالين المضلين كما تبرأوا منا. عند ذلك تبدو لهم أعمالهم السيئة فتكون حسرات عليهم وندامة، ما هم بخارجين من النار.
القراءات:

قرأ ابن عامر ونافع ويعقوب «ولو ترى الذين ظلموا» بالتاء، خطاباً للنبي ﷺ. ولو ترى ذلك لرأيت امراً عظيماً. وقرأ ابن عامر «اذ يرون العذاب» على البناء للمفعول. وقرأ يعقوب «ان القوة لله» بكسر همزة ان.

خطوات الشيطان: آثاره وطرقه. سوء. الاثم. ما يسوء وقوعه أو عاقبته. الفحشاء: كل ما يَفْحُشُ قبحه في أعين الناس. الفينا: وجدنا.

هذا نداء للناس جميعاً يدعوهم الله فيه فيقول: كلوا مما أحللت من الاطعمة على لسان رسولي اليكم، وهو كل طعام ما لم يكن ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو ما أُهلَّ به لغير الله. ما عدا هذا فهو حلال لكم. دُعُوا طرائق الشيطان ومسالكة فانه عدو لكم، فهو منشأ الخواطر الرديئة، والمحرض على ارتكاب الجرائم والآثام.

ثم بين كيفية عداوته وفنون شره وافساده: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمُ بِالسَّوَاءِ وَالْفَحْشَاءِ} فهو يزين لكم ما هو سيء في ذاته، وتسلب عليكم كأنه أمر مطاع يدفعكم لأن تفعلوا ما يسوؤكم في دنياكم ويخرب عليكم آخرتكم. وهو يأمركم أن تقولوا على الله في دينه ما لا تعلمون، فتحرّمون ما أباح الله، وتحللون ما حرّم. وفي ذلك كله اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهذا اقبح ما يأمر به الشيطان.

وإذا قيل لهؤلاء الذين اتبعوا خطوات الشيطان وتمسكوا بما توارثوا عن آبائهم في العقيدة والعمل: يا هؤلاء، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي الصادق، وما فيه من هدى ونور مبين، قالوا: لا نعدل عما وجدنا عليه آباءنا. وهكذا تجدهم قد أبطلوا فضل ما خصّ الله به الانسان من الفكر. ذلك ان الله ميز الانسان بالعقل ليعرف الحق من الباطل في الاعتقاد، والصدق من الكذب في الأقوال، والجميل من القبيح في الأفعال. فلما حيث الناس على تناول الحلال الطيب ونهاكم عن متابعة الشيطان، وجانب الكفر الرشاد باتباعهم الآباء والأجداد قال: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ} وهذا منتهى الذم والتوبيخ، فكيف يتبعون ما أُلْفُوا عليه آباءهم وهم لا يعقلون!!

القرءات:

قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر «خطوات» بتسكين الطاء.

المثل: الصفة والحال. نعت: صاح.

بعد نعتي سبحانه وتعالى على الكفار سوء حالهم وتقليدهم لآبائهم وساداتهم من الرؤساء دون استنادهم الى برهان يعتمدون عليه اعقب ذلك برسم صورة زرية لهذا الجود، فصور البيهمة السارحة التي تسمع صياح راعيها ولكنها لا تفهم ما يريد. وهذا مثل الكافرين في تقليدهم، وعدم تأملهم فيما يلقي اليهم. هؤلاء الكفار أضل من هذه البهائم، فهم عن الحق صم الآذان، عمي البصائر، خرس الألسنة، لا ينطقون بخير، ولا يصدون عن عقل.

الاهلال: رفع الصوت. وما أُهل به لغير الله: ما ذبح لصنم أو معبود غير الله.

يتجه الخطاب هنا الى المؤمنين خاصة، وليبين الله لهم ما حرم عليهم بع أن طلب اليهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم. وكان الناس قبل الاسلام فرقا، فمنهم من حرم على نفسه أشياء معينة من الحيوان. وبعض أهل الاديان السابقة يتقربون الى الله بتعذيب أنفسهم وتحريم بعض المأكولات، واحتقار الجسد، وغير ذلك من ألوان التحريم الذي كان من عند أنفسهم، ومن وضع رؤسائهم.

وقد جعل الله تعالى هذه الأمة وسطاً تعطي الجسد حقه، والروح حقها. فأباح ان نمتنع بما طاب كسبه من الحلال ولا نمتنع عنه تدنياً ولا تعذيباً للنفس، ولا نحرم بعضاً ونحلل بعضاً، تقليداً للرؤساء والحاكمين فقال: يا أيها الذين آمنوا أبيع لكم أن تأكلوا من الطعام الطيب فاشكروا الله على ما أولاكم من نعمة التمكين من الطيبات، ومن نعمة الطاعة والامثال لأمره انت كنتم تعبدونه حقاً. وسأبين لكم المحرم عليكم فلا تسمعوا للمشركين وما حرّموا، ولا لما زعمه اليهود وغيرهم. ان المحرم عليكم هو ما مات من الحيوان ولم يذبح، فالميتة

مؤذية للجسم. ونحن نعرف ان ما يموت بشيخوخة أو مرض يكون موته بسبب مواد سامة ضارة عجز جسمه عن دفع أذاها. اما في حال الاختناق أو الحرق والغرق فان الدم تتكون فيه مواد ضارة كثيرة. والدم حرام عليكم أيضا: وكان العرب يأكلونه ويقدمونه لضيوفهم. كانوا يقصدون الحيوان ويحشون ما يسيلن عرقه في مصران يشوونه ثم يأكلونه، وربما شربوا الدم طلباً للقوة، فحرمه الله. ولحم الخنزير: لأنه ضار وناقل للكثير من الأمراض الخطيرة، ولا سيما في البلاد الحارة. وما أهل به لغير الله: كان العرب يذبحون القرابين لأصنامهم وآلهتهم ويرفعون أصواتهم باسم آلهتهم. وهذا شرك وكفر. ثم يضع قاعدة جليلة هي اباحة هذه الممنوعات عند الضرورة، فالضرورات تبيح المحظورات. ولذلك قال تعالى: {فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} فمن ألجئ الى أكل شيء مما حرم الله بأن لم يجد غيره وخاف على نفسه الهلاك جوعاً، ولم يكن راغباً فيه لذاته، ولم يتجاوز قدر الحاجة فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم.

٢٠٨١ 174

الضلالة: ضد الهدى. الباطل: الهلاك. الهدى: الرشاد. الشرائع التي أنزلها الله على لسان انبيائه. الشقاق: العداء. التنازع. يعود الحديث هنا في الحملة على الذين يخفون الحقائق، وقد جادل اليهود كثيراً في ما أحل الله للمؤمنين، كما كتموا ما تورده كتبهم من أمر النبي ونبوته. كل ذلك لقاء عَرَض من أعراض الدنيا، فما جزاؤهم؟ انهم لا يأكلون من ذلك العرض الا سبباً لدخول النار، فهي التي تملأ بطونهم يوم القيامة، وسوف يُعرض الله عنهم يوم القيامة ولا يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة، ولهم عذاب شديد موجع. ذلك بأنهم تركوا الهدى الواضح الذي لا خلاف فيه، واتبعوا الضلال، واشتروا العذاب بالمغفرة. بذلك كانوا هم الجناة على أنفسهم، فما أصبرهم على حر جهنم! لقد جاء الكتاب بالحق لكنهم انكروه، ومن غالب الحق غلبه الحق، وبقي هو في نزاع كبير فلا يهتدي الى الحق ابداً.

وكتمان الحق يتناول كل انسان من أية ملة كان، يهوديا أو نصرانيا أو مسلماً، فهو حكمٌ عام مستمر في كل مكان وكل زمان.

٢٠٨٢ 177

البر: الصلة، يقال برَّ رحمه اذا وصلها. والخير، والاتساع في الاحسان، والطاعة والصدق، وهو جماع الخير، والاخلاق الحسنة وما ينشأ عنها من أعمال صالحة يتقرب بها العبد الى ربه، أما بالنسبة الى الله فهو الثواب والرضا والمحبة الآلهية. المساكين: مفردة مسكين وهو الذي لا يستطيع العمل، ولا يفتن أحد له لانه لا يسأل الناس. ابن السبيل: هو المسافر إذا انقطع فلا يجد ما يوصله الى بلده. السائلين: الذين ألجأتهم الحاجة الى السؤال، فاضطروا الى التكفف. في الرقاب: تحرير العبيد واعانتهم على فك رقابهم. البأساء: الشدة. الضراء: كل ما يضر الانسان من مرض أو فقد حبيب من أهله أو مال. حسن البأس: وقت الحرب. وهذه أجمع الآيات في تحديد معنى البر من النواحي الواقعية. فهي ترشد الى ان البر لا يرتبط بشيء من المظاهر والصور والأشكال، واما بالحقائق ولب الأمور وروح التكليف. كما ترشد الى ان البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: بر في العقيدة، وبر في العمل، وبر في الخلق.

يعلمنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ان الخير ليس في الجدل في أمور لا تجدي، ولا هو متعلق بالتوجه الى المشرق أو المغرب في صلاة مظهرية جوفاء، كلا، وانما هو أولاً الإيمان بالله في ربوبيته ووحانيته، والإيمان باليوم الآخر، حيث تتم المحاسبة على ما جنته الجوارح وما في القلوب والضمائر. بيد ان الإيمان بالله واليوم الآخر لا يمكن للعقل البشري ان يصل اليه مستقلاً بل لا بد من واسطة تدلنا عليه. وهي من ثلاثة عناصر: الملائكة الذين يتلقون عن الله مباشرة، والأنبياء الذين يتلقون عن الملائكة، والكتاب الذي يتلقونه

ويبلغون ما فيه من أحكام وتشريعات. وقد عبر الله عنها بالكاتب إشارة الى وحدة الدين عد الله. هذه الأمور الخمسة هي البر في العقيدة: الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكاتب والنبين.

أما البر في العمل فله شعب كثير ترجع كلها مهما تنوعت الى بذل النفس والمال ابتغاء مرضاة الله، وادخال السرور على خلق الله. والعمل هو مدد العقيدة وفي نفس الوقت ثمرتها، يحفظها وينمّيها، ويدل عليها. وقد ذكرت الآية بذل النفس في أعظم مظهر له، ذلك هو اقامة الصلاة. فالصلاة هي عماد الدين، والفارق بين المؤمن وغيره. انها مناجاة العبد لربه، والناحية عن الفحشاء والمنكر، والعاصمة من الهلع والجزع. هذه هي الصلاة اذا اقامها المرء على حقيقتها، فوقف بين يدي ربه وقد خلع نفسه من كل شيء في دنياه، وسلم لله أموره ونسي ما عداه. بذلك يكون قد بذل نفسه لله، ووضعها بين يديه، فجاءت صلاته عهداً حقيقياً بينه وبين ربه.

ثم بين الله تعالى في الآية بذل المال في صرتين، أحدهما قوله تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} والثانية قوله تعالى: {الزَّكَاةُ} ويجب ان يفهم هنا بمقتضى هذا الوضع القرآني الكريم ان الزكاة المفروضة شيء، وان ايتاء المال لهؤلاء الأصناف المذكورة شيء آخر لا يندرج في الزكاة ولا تغني عنه الزكاة.

وقد قدّم الله تعالى الكلام في بذل المال لسد حاجة المحتاجين، ودفع ضرورة المضطرين، وقيام بمصالح المسلمين وحث عليه وأكدّه لأنه هو البر الحقيقي. اما الزكاة فهي فرض من الفروض الواجبة على المسلم يؤديها طبقاً لشروطها. فاذا لم يقم الاغنياء والقادرون ببذل المال على هذا الوجه واكتفوا بدفع الزكاة فقط فإنهم ليسوا على البر الذي أراده الله من عبادته. وهذا أصل عظيم في تنظيم الحياة الاجتماعية يباح به لمن يولّيه المسلمون أمرهم ان يشرّع ألواناً من الضرائب اذا لم تف الزكاة بحاجة الأفراد والمجتمع.

{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} اي بذله رغم فطرة حب المال عند الانسان، وبذلك يبرز معنى الايثار {لَنْ تَتَّكِلُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢] و {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩] . وقد قال ﷺ «أفضل الصدقة ان تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل المغنى» أخرجه البخاري عن أبي هريرة.

ذوي القربى: الأقرباء المحتاجين، وهم أحق الناس بالبر. وقد ورد في الحديث «ان الصدقة على المسكين صدقة. وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة» .

واليتامى: وهم الصغار فقدوا آباءهم وليس لهم عائل يرعاهم. وقد عني الاسلام بأمر اليتيم والحث على تربيته والحفاظة على نفسه وماله اذا كان له مال. وقد ظهرت عناية القرآن الكريم بشأن اليتيم منذ ان نزل الى ان انقطع الوحي، وسنمّر بنا آيات كثيرة في ذلك. ولقد قال النبي ﷺ «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه» .

والمساكين: هم الذين لا يستطيعون العمل، ولا يفتن الناس اليهم لأنهم لا يسألون. وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به الطريق فلا يوصله الى اهله. والسائلين: الذين لجأتهم الحاجة الى السؤال، فاضطروا الى التكفف. وفي الرقاب: اي لتحرير الأرقاء. والاسلام أول دين شرّع «العتق» . لقد حث على تحرير العبيد ولم يشرع الرق، لأن هذا كان موجوداً منذ أقدم العصور. لذا جعل من مصارف الزكاة انفاقها في الرقاب، أي فكك الاسرى، وعتق الرقيق. ولقد حث الرسول الكريم في كثير من وصاياه وأحاديثه على الرفق بالرقيق والعمل على تحريرهم.

والبر في الخلق هو المبدأ الثالث في هذه الآية العظيمة: وهو يشمل مبدأ القيام بالواجب، وقد جاء التعبير عنه قوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} ، ومبدأ مقاومة الطوارئ والتغلب على عقبات الحياة كما جاء في قوله تعالى: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ} والعهد لفظ شامل يجمع ألواناً من ارتباطات والتزامات لا غنى للناس عنها، ولا استقامة للحياة بدونها.

وهي على كثرتها ترجع الى واحد من ثلاثة: عهد بين العبد وربّه، وعهد بين الانسان وأخيه، وعهد بين دولة ودولة. اما مبدأ المقاومة فقد عبر عنه تعالى بقوله: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ} ، الصبر كما قدمنا الكلام عنه في شرح {استعينوا بالصبر والصلاة} هو عدة النجاح في الحياة، والسبيل الوحيد للتغلب على جميع الصعاب. وقد ذكر سبحانه هنا ثلاث حالات هي ابرز ما يظهر

في الهلع: البأساء، والضراء وحين البأس. وقد تقدم تفسيرها. هذه عناصر البر في العقيدة والعمل والخلق، تحدثت عنها هذه الآية الكريمة، وختمت حديثها بحصر الصدق والتقوى فيمن اتصف بهذه المبادئ من المؤمنين، {أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} ، فالذين يجمعون هذه العقائد والأعمال الخيرة هم الذين صدقوا في إيمانهم.

وهذه الآية دستور شامل عظيم.

القراءات:

قرأ حمزة وحفص «ليس البر» بالنصب والباقون «ليس البر» بالرفع. وقرأ نافع وابن عامر «ولكن البر» بتخفيف لكن ورفع البر.

٢٠٨٣ 178

كتب: فرض. القصاص: ان يُقتل القاتل. الألباب: جمع لب وهو العقل.

{يا أيها الذين آمنوا} هذا نهج الآيات المدنية فانها تصدر بهذا النداء، والحكم لجميع الناس. فرض عليكم القصاص في القتلى. . . وهو قتل من قتل نفساً عامداً متعمداً، ففي ذلك العدل والمساواة.

لقد كان القصاص في الجاهلية خاضعاً لقوة القبائل وضعفها، فبعضهم كان لا يكتفي بقتل القاتل الفرد بل يطلبون قتل رئيس القبيلة، وبعضهم كان يطلب قتل عدد من الأشخاص بدل المقتول. وهذا ظلم كبير. فجاء الاسلام بالعدل والمساواة وفرض قتل القاتل فقط. ثم خصصت الآية فنصت على بعض الجزئيات {الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى} تأكيداً لإبطال ما كانوا عليه في الجاهلية من فرض عدم التساوي في الدماء. اما الحكم في الاسلام فهو ان يُقتل القاتل سواء كان حراً قتل عبداً أو بالعكس. وذلك لأن هذا جاء واضحاً في قوله تعالى: {النفوس بالنفس} كما جاء في سورة المائدة.

ولكن، إذا قتل رجل ولده، اختلف العلماء في ذلك: فمنهم من رأى يُقتل الولد كالإمام مالك، وذلك في حالة ما اذا أضجعه وذبحه بالسكين. ومنهم من قال لا يُقتل به، وهم الأغلب.

وكذلك اذا قتل جماعة رجلاً واحداً. . فجمهور العلماء انهم يقتلون به. كذلك فعل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

واختلفوا في قتل المسلم ذمياً، فبعضهم قال لا يقتل به وهم الاغلب، وقال البعض يقتل به.

وبعد ان بين سبحانه وتعالى وجوب القصاص، وهو أساس العدل، ذكر تشريع العفو ليوحّد النفوس اليه، ويثير في سبيله عاطفة الاخوة الانسانية فقال تعالى ما معناه:

فمن عفى لهم من اخيه شيء فأتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان. وذلك ان القاتل اذا حصل له تجاوز عن جنايته من ولي الدم، فيجب ان يكون تعاملهما بما يشرح الصدور، ويذهب بالأحقاد: على أخيه ان يتبع عفوهُ بالمعروف فلا يثقل عليه في البذل، ولا يخرجهُ في الطلب. اما القاتل المعفو له عن جنايته فعليه ان يقدر ذلك العفو، فلا يخص صاحبه حقه، ولا يطله في الأداء. وهنا تظهر عظمة الاسلام في القصاص، فقد نظر الى أمرٍ لم ينظر اليه القانونيون، وهو ان جعل القصاص هو رفع الاعتداء في القتل بقتل القاتل، فان سمت نفوس اهل الدم فأثروا العفو وجب لهم دية قتلهم. وعلى أولياء الدم إتباع هذا الحكم بالتسامح، وعلى القاتل أداء الدية دون ماطلة أو بخس.

ذلك هو الحكم الذي شرعناه لكم من العفو عن القاتل والاكتفاء بقدر من المال وهو تخفيف ورخصة من ربكم ورحمة لكم. فمن اعتدى وانتقم من القاتل بعد العفو والرضى بالدية فله عذاب أليم من ربه يوم القيامة.

{ولكم في القصاص حياة} يا أولي الألباب {من عظمة القرآن في تشريعه «المدني والجنائي» انه يلهب النفوس الى الامثال ببيان ما في التشريع من حكم وفوائد تعود عليها بخيري الدنيا والآخرة، وهنا جاءت هذه الآية الكريمة تشير الى ما في القصاص، تشريعاً وتنفيذاً،

من نفع للحياة ذاتها، فهو يحفظ الأرواح وإليه تطمئن النفوس.

ولا ريب ان من علم انه اذا قُتِلَ قُتِلَ، وان القصاص له بالمرصاد كفّ نفسه عن قتل صاحبه، فسلم ذاك من القتل وهذا من القصاص. وكذلك في تنفيذ القصاص على الوجه الذي شرع الله، وهو قتل القاتل وحده دون اسراف بقتل غيره. وفي قوله تعالى: {يَأُولِي الْأَلْبَابِ} اشارة لطيفة الى أن القصاص بجانبه، من شأن أولي العقول الذين يقدرون وسائل الحياة الصحيحة. وما اهمال الأمة في تشريع القصاص واسرافها في الأخذ بالثأر الا نقيض للعقل والايمان. ثم اشار سبحانه بعد ذلك الى أن هذا التشريع من شأنه ان يعد النفوس للصالح بدل الفساد، وللتقوى بدل العصيان، فقال: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} فليتدبر أولو العقول مزية القصاص هذه.

٢٠٨٤ 180

كتب: فرض. خيرا: الخير كل ما يحقق نفعاً أو سعادة، ويطلق على المال الكثير الطيب، وهو المقصود هنا. الوصية: ما يكتبه الرج ليُعمل به ومن بعده.

المعروف: الخير المتعارف به بين الناس. الجنف: الجور، والميل عن الصواب. كان الكلام في الآية السابقة عن القصاص في القتل، وفي هذه الآيات جاء تشريع آخر هو الوصية عند الموت، والمناسبة بين هذه الآيات واضحة والخطاب موجه الى الناس كلهم بأن يوصوا بشيء من الخير. فيقول سبحانه: فرض عليكم اذا حضرت أسباب الموت وعلة أحداً من الناس وكان عنده مال كثير يوصي من هذا المال للوالدين وذوي القربى بشيء منه، على ان لا تزيد الوصية على ثلث مال الموصي. فأما اذا كان ماله قليلاً وله ورثة فلا تجب عليه الوصية. لأن الله تعالى يقول: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا} والخير: هو المال الكثير. ونص الآية ان الوصية تجب للوالدين، والأقربين وهناك آية الميراث في سورة النساء التي تورث الوالدين. وهناك حديث صحيح: «لا وصية لوارث»، رواه أصحاب السنن. ولذلك قال معظم العلماء: ان الوصية لا يتجاوز للوارث بما وفي ذلك الأب والأم؟ وقال بعضهم يجوز أن يوصي لبعض الورثة عملاً بهذه الآية. اما الأقربون الذي لا يرثون فالوصية لهم جائزة بنص هذه الآية وحكمها باق. وحكمة الوصية للأقارب عظيمة، فهي لون من الوان التكافل الاجتماعي. ولذلك قال تعالى {حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} اي أوجب ذلك حقاً على المتقين.

واذا صدرت الوصية عن الموصي كانت حقاً واجبا لا يجوز تغييره ولا تبديله، فمن بدل هذا الحق بعد هذا الحكم، فقد ارتكب ذنباً عظيماً. ان الله سميع لأقوال المبدلين والموصين ويعلم نياتهم ويجازيهم على أفعالهم. وحكم الوصية عند جمهور العلماء انها مندوبة. وقال بعض العلماء انها واجبة.

{فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ . . .} الآية فاذا خرج الموصي في وصيته عن نهج الشرع فتنازع الموصى لهم في المال، أو مع الورثة، فتوسط بينهم من يعلم بذلك وأصلح فلا اثم عليه في هذا التبديل، لأنه تبديل باطلٍ بحق، وازالة مفسدة بمصلحة، ان الله غفور رحيم.

القرئات:

قرأ حمزة ويعقوب والكسائي وأبو بكر «مَوْصٍ» بتشديد الصاد من وصى.

٢٠٨٥ 183

الصيام: الامساك عن الطعام والشراب والنشاط الجنسي من طلوع الفرج الى غروب الشمس ايماناً واحتساباً لله تعالى. والصيام عبادة قديمة جاءت بها الاديان السابقة، سماوية وغيرها. فقد كان قدماء المصريين يصومون، ومثلهم اليونان والرومان. وكان صيام في الديانة اليهودية، وورد في الأناجيل. ولا يزال الوثنيون من الهنود يصومون. ولذلك قال تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ . . .} ومعناه فرض عليكم الصيام كما فرض على أهل الملل قبلكم، وذلك كيما يعدكم الله للتقوى بترك الشهوات المباحة. بذلك تربي عندكم العزيمة والارادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة. فالصوم من اجل العبادات التي تهذب النفوس، وتعودها ضبط النفس،

وخشية الله في السر والعلن، لأن الصائم لا رقيب عليه سوى ضميره. هذا كما يتعود الانسان الشفقة والرحمة الداعيتين الى البذل والصدقة. أما الفوائد الصحية فإنها كثيرة جداً، منها ان الصوم المعتدل يذهب السمّة وهي من أشد الأخطار على الصحة في العصر الحاضر ويطهر الأمعاء من السموم، وفوائد أخرى جليّة تُطلب في الكتب الطبية.

{أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ.} أي أياماً معيّنة، وهي رمضان. فمن كان مريضاً أو مسافراً فإن الله تعالى أباح له الإفطار، ثم يقضي صيام ما أفطر في وقت آخر. وعلى الذين يطبقون الصيام، لكن بشدة افتداء إفطارهم بطعام مسكين. وذلك مثل الشيوخ الضعفاء والمرضى الذين لا يرجى براء امراضهم، والعمال الذين معاشهم الدائم بالعمل الشاق، والحلبى والمرضع اذا خافتا على ولديهما. فكل هؤلاء يفطرون، ويطعمون مسكيناً عن كل يوم، ومن أوسط ما يطعمون أهلهم، بقدر كفايته، أكلة واحدة مشبعة. وخلاصة ما تقدم ان المسلمين امام الصوم أقساط ثلاثة:

(١) المقيم الصحيح القادر على الصيام بلا ضرر ولا مشقة، فالصوم عليه واجب، واذا أفطر أخلّ بأحد أركان الاسلام.
(٢) المريض والمسافر، ويباح لهما الإفطار مع وجوب القضاء، ولو كان السفر في البحر أو البر أو الطائرة. والمريض غير محدّد بل هو متروك للشخص يقدره. فقد روى طريف بن تمام العطاردي قال: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل، فلما فرغ قال: وجعت أصبعي هذه. ومحمد بن سيرين من كبار العلماء المشهورين.

وقال البخاري: اعتلت بنيسابور علة خفيفة، في رمضان، فعادني اسحاق بن راهويه في نفر من أصحابه فقال لي: افطرت يا أبا عبد الله؟ قلت: نعم. فقال: خشيت ان تضعف عن قبول الرخصة.

وكما رخص الله تعالى في المرض رخص في السفر. روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: «خرج رسول الله في سفر في رمضان والناس مختلفون فصائم ومفطر، فلما استوى على راحلته دعا بإناء من لبن أو ماء فشرّب نهراً ليراه الناس». وعن محمد بن كعب قال: أتيت أنس بن مالك في رمضان وهو يريد سفراً وقد رحلت راحلته ولبس ثياب السفر، فدعا بطعام فأكل، فقلت له: سنة؟ فقال: سنة، ثم ركب. رواه الترمذي.

وهذا من تمام نعمة الله على عباده وسيره بهم في طريق اليسر والسهولة، فلا ينبغي للمؤمن ان يضيق صدره برخص الله، فان الله يحب ان تؤتى رخصه، انه بعباده رؤوف رحيم.

(٣) الشيخ الكبير ومن يماثله ممن يشق عليهم الصوم لسبب من الأسباب التي لا يرجى زوالها. وهؤلاء أباح الله لهم ان يفطروا، وكلفهم بالاطعام بدلاً عن الصوم. ومن تطوع فزاد في الفدية فذلك من عنده وهو خير له.

وفي حكم ما ذكرنا من الشيخوخة والمرض ما يزاوله بعض العمال والصناع من أعمال كاد تكون مستمرة طوال العام، ويشق عليهم الصوم معها مشقة عظيمة. فاذا تعينت هذه الأعمال سبيلاً لعيشهم بأن لم يجدوا سواها، أو لم يحسنوا غيرها فلهم ان يفطروا ويطعموا عن كل يوم مسكيناً. {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ.} . {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.} .

ثم بين الله تعالى الايام المعدودات بأنها أيام شهر رمضان الجليل القدر عنده، والذي أنزل فيه القرآن ليهدي جميع الناس الى الرشدين بياناته الواضحة الموصلة الى الخير. فمن أدرك هذا الشهر سليماً معافى مقيماً غير مسافر فيجب عليه صومه. ومن كانت مريضاً أو مسافراً فله ان يفطر. وقد بين لكم الله شهر الصوم لتكملوا عدة الأيام التي تصومونها، ولتتقربوا الى الله على ما هداكم اليه من الأحكام التي فيها سعادتم في الدنيا والآخرة، ولعلكم تشكرون له نعمة كلها.

القراءات:

قرأ عاصم برواية أبي بكر «ولتكملوا العدة» بالتشديد. وقرأ ابن عامر برواية ذكوان ونافع «فدية طعام مسكين» باضافة فدية الى طعام ومساكين بالجمع. وقرأ عامر برواية هشام «فدية طعام مسكين. .» بدون اضافة.

الرفث: الجماع لباس لكم: الملابس والمخالطة. المباشرة: الجماع. الاعتكاف: البقاء في المسجد للتعبد مدة. تختانون أنفسكم: تخونون. {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي . . } جاءت هذه الآية في وسط آيات الصيام كأنها استراحة لطيفة، فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين للناس ان الذين يطيعونه ويؤدون فرائضه، هم قريبون منه وهو قريب منهم. انهن يستجيب دعائهم في كل مكان، وفي كل زمان. فهو يسمع أقوالهم، ويرى أعمالهم وليس بينه وبينهم حجاب، فكيف اذا كان هذا الداعي صائماً! ففي مسند الامام أحمد الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الامام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله يقول: «للصائم عند افطاره دعوة مستجابة» وكان عبد الله بن عمر اذا أفطر دعا أهله وولده ودعا. من ثم جاء ذكر الدعاء في ثانيا الحديث عن الصيام.

فاذا كنت قريباً محبباً دعوة من دعائي، فليستجيبوا لي بالايان بي وتوجيه العبادات إليّ حتى أجيب دعاءهم، لعلمهم يهتدون. بعد ان بين لنا سبحانه كيفية الصيام، والاعذار المبيحة له، أردف في هذه الآية بقية أحكام الصوم، فقال: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} اي إتيان نسائكم. {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} وهذا تعبير لطيف فيه كل معاني التستر حيث يعبر عن المخالطة والمعاشرة باللباس وفيه ستر ووقاء. كذلك يجب أن تكون الصلة بين الزوجين عشرة حسنة، وستراً من كل منهما على صاحبة. مع ان الله علم أنكم كنتم تخون أنفسكم، اي تنقصونها حظها من تمتعكم بنسائكم في ليالي رمضان فقد تاب عليكم، وعفا عنكم. فالآن لا تخرجوا من الحلال وكلوا واشربوا في ليل رمضان حتى يظهر لكم الفجر متميزاً من ضلام الليل، ثم أتموا الصيام الى الليل. {وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} هذا حكم عام لا يختص برمضان. فكل من صلاة وذكر وقراءة قرآن وغيرها. واقله يوم وليلة، ولا حد لأكثره. والافضل ان يكون في العشر الأواخر من رمضان، لأن آخر اعتكاف للنبي كان كذلك. وله ثلاثة شروط: النية، والصيام، وترك مباشرة النساء. وعند الشافعي لا يشترط الصيام. ولا يجوز للمعتكف ان يخرج من المسجد الا لقضاء الحاجة. {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} اي أحكامه المشتملة على الايجاب والتحريم والاباحة. فلا تقربوها، اي تعدوها. وعلى هذا الطريق السوي من بيان أحكام الصيام جميعها يبين الله لكم آياته لتتقوها وتجنبوا تبعاتها.

الأكل: الأخذ والاستيلاء. والادلاء: اللقاء، يقال: ادلى دلوه في البئر أرسلها. وأدلى اليه بمال دفعه اليه. وأدلى بحجته أحضرها واحتج بها. فريقا: طائفة أو قسما. يقصد الله تعالى ان لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، فجعل تعالى اكل المرء مال أخيه بالباطل كأكل مال نفسه بالباطل، وكثيرا ما يرد في القرآن هذا التعبير حتى يشعرنا الله بأن الناس كلهم اخوان. وذلك كقوله: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} . لقد جعل الله المؤمنين إخوة، وعلى الاخوة ان يحفظوا مال بعضهم. وهو بذلك يؤدبنا بأرفع الآداب، ويحضننا على ان نكون امناء فيما بيننا، فلا يعتدي بعضنا على بعض، ولا يظلم أحد منا غيره. {وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَمِ} : تلقوا بأموالكم الى الحكام ليحكم لكم بما حرام وتتزعموا مال اخوانكم بشهادة باطلة أو بينة كاذبة، أو رشوة خبيثة، وأنتم تعلمون ان هذا ليس بمالككم، وأنكم انما تتركبون معصية بشعة. ويدخل تحت قوله تعالى «بالباطل» كل كسب حرام.

استقر المؤمنون في المدينة، وبدأ الناس يسألون عن أمور شتى تهمهم في دينهم ودنياهم، وهذا سؤال من هذا الأسئلة، يرد في مجتمع جديد متطلع الى المعرفة. وكان من جملة السائلين معاذ بن جبل وثلعة بن غنيم، وكان سؤالهم: ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوي ويعظم ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما بدأ؟ فأجابهم الله تعالى اجابة مختصرة مفيدة لهم في حياتهم وتعاملهم: ان الأهلة أمارات وتوقيت يعرف بها الناس الشهور والسنين، ويعلمون أوقات زراعتهم وتجارعتهم وعبادتهم كاللحج، والصيام. لقد اكتفى بهذا الجواب المختصر لأنه أقرب الى فهمهم وهم اذ ذاك أمة أمية لا دراية لها بعلم الفلك ولا الفضاء.

ثم أردف ذلك بقوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا} .

وهذه اشارة الى أن الأنصار كانوا إذا حجوا فجأؤوا لم يدخلوا بيوتهم من قبل ابوابها بل من ظهورها. فجاء رجل منهم وخالف العادة فغير بذلك. فأبطل الله هذه العادة، وأمرهم ان يدخلوا البيوت من أبوابها دائما وفي كل الأحوال. ثم بين لهم ان البر الحقيقي هو الابتعاد عن المعاصي والتحلي بالفضائل واتباع الحق وعمل الخير.

القراءات:

قرأ أبو عمرو وورش وحفص «ليس البر» بضم الباء، وقرأ الباقر «البر» بكسر الباء، وقرأ نافع وابن عامر «ولكن البر» بتخفيف لكن ورفع البر.

سبيل الله: دينه. ثقفه: طفر به. الفتنة: الابتلاء والشرك.

هذا أول أمر نزل للمؤمنين بالقتال، وهو كما نراه واضح محدد، هفوا ان يقاتلوا الذين يعتدون عليهم، ولذلك قال: ولا تعتدوا بمبادأتهم، أو بقتل من لا يقاتل ولا رأي له في القتال، ان الله لا يحب المعتدين.

واذا نشب القتال، فاقتلوا أولئك الذين بدأوكم بالقتال حيث وجدتموهم، وأخرجوهم من مكة، وطنكم التي أخرجوكم منها. ولا تخرجوا من ذلك فقط فعلوا ما هو أشد من القتل في المسجد الحرام، لقد فتنوا المؤمنين في مكة عن دينهم، بالتعذيب، حتى فروا من وطنهم. ولكن، ان المسجد الحرام حرمة فلا تنتهكوها الا اذا انتهكوها هم، فان قاتلوكم فيه فاقتلوهم وأنتم الغالبون باذن الله.

فان انتهوا ورجعوا عن الكفر بأن انقادوا الى الاسلام، فان الله يقبل منهم ويغفر لهم ما سلف من كفرهم.

الشهر الحرام: هنا: ذو القعدة. وهو أحد الأشهر الحرم الأربعة. الحرمات: كل ما يجب احترامه والمحافظة عليه. القصاص: المقاصة والمقابلة بالمثل.

الأشهر الحرم: رجب. ذو القعدة. ذو الحجة. والمحرم. وكانت العرب تحرم القتال فيه هذه الأشهر، ثم جاء الاسلام فأقر ذلك. وفي عام ست من الهجرة أعلن النبي للمؤمنين وللناس جميعا أنه يريد العمرة ودعا الناس للخروج معه. وأحرم بالعمرة وساق معه سبعين بدنة هدياً الى الله. وخرج معه ألف وأربعمائة من أصحابه. فلما بلغوا الحديبية، وهو مكان قرب مكة، خرجت قريش متأهبة للقتال ومنعته من دخول مكة. ثم جرت مفاوضات انتهت بالصلح على ان يرجع رسول الله من مكانه في ذلك العام، ويعود في العام المقبل ليؤدي العمرة. فنحر الهدي في ذلك المكان، وحلق، وأمر أصحابه ان يفعلوا ذلك وعاد الى المدينة. فلما كان العام المقبل خرج معتمرا ومعه أصحابه، ودخلوا مكة وأتموا العمرة ومناسكها ومكثوا فيها ثلاثة أيام ثم رجعوا الى المدينة. وهذا معنى قوله: الشهر الحرام بالشهر الحرام. يعني أن ذا القعدة الذي أوصلكم الله فيه الى رحمة وبيته، على كراهة مشركي قريش، حيث قضيت مناسككم له بالشهر الحرام الذي صدكم فيه مشركوا قريش قبل عام. وهكذا فقد أقصكم الله منهم أيها المؤمنون. فاذا اعتدوا عليكم في الشهر الحرام وقاتلوكم فيه، فقابلوا

ذلك بالدفاع عن أنفسكم فيه. انه حرام عليهم كما هو حرام عليكم. وفي الحرمات والمقدسات شرع القصاص والمعاملة بالمثل، فمن اعتدى عليكم في مقدساتكم فادفعوا عدوانه بالمثل، واتقوا الله فلا تسرفوا في القصاص، واعلموا ان الله مع المتقين بعينهم وينصرهم. وكان صلح الحديبية أول نصر سياسي كبير واعظم توفيق من الله لنبيه الكريم، وذلك باعتراف قريش به وبالمفاوضة معه وتوقيع الصلح.

٢٠٩١ 195

التهلكة: الهلاك والمراد به هنا التقصير في بذل المال استعداداً للجهاد.

لم يكن في بدء الاسلام جنود يأخذون رواتب، بل تطوع بالنفس وتطوع بالمال. وكان كثير من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد يأتون الى النبي ﷺ يطلبون منه ان يزودهم بدابة تنقلهم، فاذا لم يجد ما يحملهم عليه {تَوَلَّوْاْ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} . . {حزننا، حيث لم يجدوا ما ينفقون. فالله سبحانه وتعالى يعلننا في هذه الآية الكريمة درساً عظيماً. حيث يقول: وانفقوا الأموال في الإعداد للقتال في سبيل الله، ولا تقعدوا عنه، فانكم ان تقاعدتم وبخلتم ركبكم العدو وأذلكم، فكأنما ألقيتكم بأيديكم الى الهلاك. وهذا ما قاله الصحابي الجليل أبو أيوب الانصاري كما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه قال: «انما نزلت هذه الآية فينا معشر الانصار لما اعز الله الاسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سراً: ان أموالنا قد ضاعت وان الله قد أعز الاسلام، وكثر ناصروه، فلو قننا فأصلحنا ما ضاع منها. فانزل الله تعالى على نبيه يرد علينا ما قلنا {وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} . . {فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى مات في القسطنطينية ودُفن بها، وقبره عليه مسجد معروف فيها الى اليوم. فالجهاد بالمال أمر مهم، بل هو أساس كبير في دعم الجهاد والحفاظة على كيان الأمة.

في الآيات التي مرتب معنا تحدت النقاط التالية: (١) شرع القتال لدفع الأعداء، لذاته، ولا لحمل الناس على الاسلام. (٢) النهي عن الاعتداء فلا يقتل من لا يحمل سلاحاً ولا من استسلم، ولا تخرب الدور على أهلها، ولا تهدم المدن. (٣) ملاحظة الفضيلة التي دل عليها الامر بالتقوى، فلا تنتهك الاعراض، ولا يمثل بقتيل. (٤) ان القتال ينتهي اذا انتهى المشركون عن فتنة المؤمنين في دينهم. (٥) لا قتال في الأشهر الحرم، فاذا اعتدى المشركون وقتلوا وجب قتالهم. (٦) ان ترك الأعداء يقتلون بعضنا من غير ان نقاتلهم هو هلاك لنا. وهذا ما هو جار الآن بيننا وبين اليهود: يعتدون ويقاتلون ونحن واقفون ننظر ويلوم بعضنا بعضاً. فاذا دققنا النظر في هذه المبایء نجد ان حرب الاسلام فاضلة في بواعثها، وعادلة في سيرها ومراميتها.

٢٠٩٢ 196

الحصر والاحصار: الحبس والمنع. والهدي: هو ما يهديه الحاج الى البيت الحرام من الأنعام. المحل: مكان الحلول. تقدمت الاشارة الى الحج في الآية: ١٨٩. ثم الى الأشهر الحرم والقتال فيها. وفي هذه الآية والآيات التي تليها يفصل الله تعالى مناسك الحج. فيقول: وأدوا الحج والعمرة على وجه التمام قاصدين بهما وجه الله. والحج معروف، وقته في التاسع من ذي الحجة والأيام الثلاثة التي تليه. ويشتمل الحج على الطواف بالبيت أول ما يصل الحاج الى الحرم. ثم الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة. ثم النزول بالمشعر الحرام. ثم الذهاب الى منى ورمي الجمار والنحر، وبعد ذلك الذهاب الى الحرم ليطوف طواف الافاضة ثم يسعى بين الصفا والمروة، وبعد ذلك يحلق الحج رأسه أو يقصر من شعره. بذلك يتم الحج. وهو فرض مرة واحدة على المستطيع. وأما العمرة فانا سنة، ولا وقت معين لها، وهي تشتمل على الاحرام، ثم الطواف ثم السعي، وبعد ذلك يحلق المعتمر شعره أو يقصر ويحرم اذا كان عليه دم، هذه مناسك العمرة.

{فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ} منعتم وأنتم محرمون من اتمام الحج، وبسبب عدو أو مرض أو نحوهما، وأردتم ان تتحللوا فعليكم ان تذبجوا ما تيسر لكم من الهدي، بقرة أو شاة أو بدنة. . ثم تتحللون. ويجب ذبح الهدي في المكان الذي حصل فيه المنع. ولا تحلقوا رؤوسكم قبل أن تقوموا

بهذا النسك.

ومن كان محرماً وآذاه شعر رأسه لمرض أو هوامٍ في رأسه فلا بأس أن يحلق، شريطة أن يصوم ثلاثة أيام، أو يتصدق على ستة من الفقراء بقوت يومٍ لكل واحد، أو أن يذبح شاة، ويتصدق بها.

وإذا قصدتم الحج والعمرة، وبدأتم بالعمرة واتمتم مناسكها وتحللتُم ثم أحرمتُم للحج من مكة فعليكم عند ذلك ذبح شاة، أو غيرها من الهدي. فمن لمن يجد شاة، فأنعليه أن يصوم عشرة أيام: ثلاثة في الحج، وسبعة في وطنه عندما يرجع. . هذا إذا لم يكن من سكان الحرم. واتقوا الله أيها المؤمنون وحافظوا على امتثال أوامره، واعلموا أنه شديد العقاب لمن انتهك حرمانه.

٢٠٩٣ 197

الرفث: مباشرة النساء، وقد سبق. الفسوق. الخروط عن الآداب التي حددها الشرع من جدل وسباب وخصام. هنا بين لنا تعالى أن الحج يقع في أشهر معلومات، هي شوال وذو القعدة وذو الحجة. وهذه الأشهر معروفة من أيام إبراهيم عليه السلام. فمن فرض الحج على نفسه في هذه الأشهر وأحرم فيه فعله أن يراعي آدابه. ومن آداب الحج أن يبتعد عن النساء، وعن المعاصي من السباب والخصام والمرء مع رفقته في الحج، ويجتنب كل ما يجر إلى الشحناء والخصام. {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ. .} فاجتهدوا في فعل الخير وطلب الأجر منه فإنه مجازيكم. وتزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها أحسن زاد، واستشعروا خشية الله فيما تأتون وما تزدرون يا أهل العقول السليمة، فهو خير لكم.

٢٠٩٤ 198

الجناح: الحرج والاثم. الافاضة، من المكان: الدفع منه، والانطلاق. عرفات: هو المكان المعروف الذي يتم فيه أكبر أركان الحج. الذكر: الدعاء والتلبية، والتكبير والتحميد: المشعر الحرام: موضع بالمزدلفة فيه مسجد، وقال مجاهد: مزدلفة كلها هي المشعر الحرام. كان بعض الناس يتأثمون من كل عمل دينوي في أيام الحج، فقال تعالى {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} فلا إثم في مزاولة التجارة وابتغاء الرزق أيام الحج، أما التجرد للعبادة فإنه أفضل.

وإذا افضتم من عرفات بعد الوقوف بها ووصلتم المزدلفة ليلة عيد النحر فاذكروا الله عند المشعر الحرام. وقد جاء النبي إلى المشعر الحرام بعد افاضته من عرفات، فصلى المغرب ثم العشاء وبات في المزدلفة ثم صلى الصبح. وبعد ذلك تابع سيره إلى مكة. . فمن فعل ذلك فقد تم حجه. واكثر الفقهاء يقولون أن المبيت بالمزدلفة سنة لا فرض.

{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} كانت قريش ومن تبعهم من كنانة وفيس وجديلة لا يقفون مع الناس بعرفات في الجاهلية بل بمزدلفة، ترفعاً عن الوقوف مع غيرهم فأمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف فيها ثم يفيض منه ليبتل ما كانت عليه قريش، وحتى تتحقق المساواة، ولا يكون هناك امتياز لأحد على أحد.

واستغفروا الله ما أحدثتم من تغيير المناسك، وادخل الشرك في عبادتكم أيها العرب أن الله واسع المغفرة قال للتوبة.

٢٠٩٥ 200

الحلاق: النصب والخط. والمناسك: العبادات، وغلبت على مناسك الحج. في هذه الآيات يعلمنا سبحانه أن نترك عمل أهل الجاهلية، حيث كانوا إذا فرغوا من الحج ذهبوا إلى أسواق تقام في أماكن مختلفة، وشغلوا أنفسهم بالتفاخر بذكر الآباء ومآثرهم. هناك كانوا يتناشدون الأشعار والخطب ويعاقرون الخمر، وربما قامت من جراء ذلك منازعات تجر إلى الحروب والخصام. وهنا يرشدنا الله فيقول: فإذا فرغتم من أعمال الحج فدعوا ما كنتم عليه وما كان عليه آبائكم في الجاهلية واشغلوا أنفسكم بذكر الله كما كنتم تذكرون آباءكم، بل اذكروه أكثر من ذكركم لهم؛ لأن الله أولى بالذكر منهم. ثم يعرض علينا

صورتين من أخلاق البشر احدهما ذميمة والأخرى خيرة. فيقول: ان بعض الناس همّ الدنيا فقط فهو يقصّر دعاءه على عرض الدنيا وخيراتها الزائلة، هؤلاء لا حظ لهم في الآخرة ولا نصيب. ومنهم من وفقه الله فاتجه بقلبه الى طلب الخير في الدنيا والآخرة، هؤلاء يطلبون سعادة الدارين، فلهم نصيب كبير مما كسبوا، والله يعطيهم ما طلبوا. وهو يرغبنا ان نهج منهمجهم ونسير على سيرهم. {واذكروا الله في أيّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} هي ايام منى الثلاثة وتسمى ايام التشريق. وفي هذه الأيام ترمى الجمار، والجمار حصيات ترمى في أماكن معينة في منى، فيجوز للحاج ان يمكث يومين ثم يذهب الى الحرم لينهي حجه، ويجوز له ان يمكث ثلاثة ايام كما قال الله تعالى. واتقوا الله تعالى حين أدائكم الحج، واعلموا انكم ستحشرون اليه يوم القيامة، والعاقبة يومئذ للمتقين. بهذه الآيات تم الكلام على الحج ومناسكه وآدابه وبعض الآداب العامة.

٢٠٩٦ 204

يشهد الله: يحلف بالله. ألد الخصام: أشد الخصام. تولى: انصرف وأدير، وبعضهم فسرّها بأنه تولى الحكم والسلطان فكان فساد أعظم. الحرث والنسل: الزرع والولد. أخذته العزة بالاثم: حملته الانفة والحمية. المهاد: الفراش. يشري نفسه: يبيعها. ابتغاء مرضاة الله: من اجل رضا الله. في هذه الآية الكريمة يعرض علينا تعالى نموذجين من صور البشر، الاول: ذلك المنافق الشرير صاحب المظهر الحسن واللسان الذلق اللطيف، الذي يعجب به الناس. اما فعله فهو سيء قبيح. انه يُشهد الله على أنه مؤمن صادق، لكنه كذاب آثم خداع، شديد الخصومة. فاذا انصرف من المجلس سعى في الفساد فاحرق الزرع وأهلك النسل والحيوانات. ان الله تعالى لا يحب المفسدين، بل يمد لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. واذا دُعي ذاك الرجل الى الصلاح والتقوى لم يرجع الى الحق، بل تكبر وشمخ بأنفه وأخذته حمية الجاهلية. ان هذا الصنف من الناس مصيره الى جهنم وبئس القرار.

قال الطبري: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، فقد جاء الى النبي بالمسجد وأظهر الاسلام، وكان حسن المنظر فصيحاً. لما خرج وتولى صادف في طريقه زرعاً للمسلمين فأحرقه، وبعض الحيوانات فقتلها. وعلى اي حال فإن العبرة بعموم اللفظ، والآية تنطبق على كل خداع منافق غشاش. والثاني: ذلك الذي يؤمن بالله إيماناً حقيقياً، ويبدل نفسه في سبيل إعلاء دينه، فلا يطلب عرض الدنيا وزخرفها. وأمثال هذا رضي الله عنهم، وأعد لهم يوم القيامة جنات عدن يدخلونها، ورحمة من الله واسعة. ويقال إنها نزلت في صهيب الرومي، وقيل فيه وفي غيره. والعبرة كما قدمنا بعموم اللفظ، فهي عامة في كل من يبذل نفسه وماله في سبيل الله.

٢٠٩٧ 208

السلم: اسلام، والصلح، والانقياد. خطوات: جمع خطوة بضم الخاء، وهي المسافة ما بين قدمي الماشي، والمعنى هنا آثار الشيطان واتباعه. الزلل: عثرة القدم، وهنا معناه الانحراف عن الحق. البيئات: الحجج. بعد ان بين الله في الآيات السابقة ان الناس فريقان: فريق يسعى في الارض بالفساد، وفريق يبني بعمله رضوان الله وطاعته دعا الناس كافة في هذه الآية الدخلة في الاسلام وهو دين الاسلام. فان الاسلام اساسه السلام، وشعاره «السلام عليكم». فالله سبحانه يأمر الذين آمنوا بالعمل بشرائع الاسلام كلها. . خذوا الاسلام بجملة واعلموا به تكونوا قد دخلتم في السلام، واعتصم بحبل الله. يومذاك تدخلون في عالم كله سلام. سلام مع النفس والضمير، ومع العقل والمنطق، سلام مع الناس ومع الوجود كله، سلام في الارض وسلام في السماء.

ومعنى «كافة» أي في جميع أحكام السلام والاسلام، لا في بعضها فقط، وكان بعض مؤمني أهل الكتاب يعظّمون السبت ويحرمون الابل وألبانها، وغير ذلك مما كانوا يفعلون، فأمره الله تعالى ان يتركوا كل ما كان سابقا ويدخلوا في الاسلام ويعملوا بجميع شرائعه. {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} أي لا تسيروا في طريق الشيطان الذي يدفعكم الى الشقاق والنزاع.

{إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} . هذه الآية نص واضح في دعوة المؤمنين الى السلام، فالحرب والخصام سير وراء الشيطان. والآية تدعو المؤمنين الى ان يكونوا مسلمين مع أنفسهم. . . .

ويدلّ هذا النص على ان الأصل في العلاقة بين الدولة الاسلامية وغيرها هي السلم، ففي الوقت الذي كان به قانون الغاب يجدد العلاقات بين الدول جاء الاسلام بهذا المبدأ السامي. فالحرب التي شرعها الاسلام انما هي لتثبيت دعائم السلم، وتحقيق العدل لا للعدوان على الآخرين.

فان انحرفتم أيها المؤمنون عن الطريق، وأخطأتم الحق، من بعد ما جاءكم حججي، وبينات هداي، فاعلموا ان الله ذو عزة، لا يمنع الانتقام منكم مانع، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم له دافع. القراءات:

قرأ ابن كثير ونافع والكسائي «السلم» بفتح السين والباقون «السلم» بكسرهما، وخطوات بضم الطاء وسكونها قراءتان سبعيتان، تقدم ذلك في الآية ١٦٨.

٢٠٩٨ 210

هل ينتظر هؤلاء المعرضون عن الاسلام، المكذّبون برسوله وما جاء به، ان يريوا الله جهرة في غمام سائر مع الملائكة، حتى يقتنعوا! لقد قضي الأمر بأن يكون هناك يوم قيامة، فلا مفر منهن. وحينئذ يثاب الطائع ويعاقب العاصي. {وَالِلّٰهِ تَرْجُعُ الْأُمُورُ} لجميعها في قبضته يصرفها حيث شاء فيضع كل شيء موضعه الذي قضاه، فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الدخول في السلام وهذا الفرع الأكبر ينتظرهم!! القراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وعاصم «ترجع الأمور» بالبناء للمجهول وقرأ الباقر «ترجع الأمور» بفتح التاء.

٢٠٩٩ 211

بعدا ما تقدم لنا من ارشادات شافية، وبيانات عن طريق الهدى والصراط المستقيم يعود السياق هنا الى بني اسرائيل. وذلك للتحذير موافقهم العديدة ضد الاسلام، واشغالهم الفتن قديماً وحديثاً.

أوجه انتباه القارىء هنا الى أن اليهود دائماً هم أصحاب الفتن ومثيرو القلاقل في العالم من قديم الزمان. هذه طبيعتهم. أليسوا الآن هم الذي أقلقوا العالم كله بفتنهم وتكرهم لكل قيم! لذلك يعود القرآن هنا الى التحذير منهم فيقول: سل يا محمد بني اسرائيل: كم سقنا اليهم الأدلة القاطعة على صدق ما جئت به من عند الله، وفي ذلك نعمة هدايتهم الى الله، فكفروا بهذه الأدلة وعمدوا الى تبديلها. فبعد ان وضعت الأدلة للهادية أصبحت بالنسبة لكفر هؤلاء بها سبباً في زيادة ضلالهم وإثمهم. . ومن يبدل نعمة الله بهذه الصورة يحق عليه العذاب. ان الله شديد العقاب. وفي هذا عبرة لنا حيث بدلنا نعمة الله وهي الاعتصام بجله. فخلّ بنا ما حل من تمزق وتشتت وتخاذل.

٢٠١٠٠ 212

بعد التحذير من التلكؤ في الاستجابة للدعوة، والتبديل بعد النعمة يذكر لنا الله تعالى حال الذين كفروا وحال الذين آمنوا. فيقول: ان السبب في الانحراف والكفر هو وحب الدنيا، فقد زين للذين كفروا هذه الدنيا فتهالكوا عليها، وتهافتوا عليها ففوضوا يسخرون من

المؤمنين مثل عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيب، كما يسخرون من أغنياء المؤمنين بأنهم لا يتلذذون في الحياة. وقد رد تعالى على أولئك الساخرين بتفضيل أهل اليقين فقال {والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي أن المتقين المؤمنين سيكونون أعلى منهم في تلك الحياة الأبدية مقاماً، وأرفع منزلة، فليمضوا في طريقهم لا يحلفون بشيء.

وستظل الحياة تعرف هذين الصنفين من الناس: المؤمنين الذي يتلقون قيمهم وفاهيمهم من الله فيرفعهم ذلك عن سفاسف الحياة واعراض الارض، والكافرين الذين زُينت لهم الحياة الدنيا واستبعدتهم أعراضها فتبعوا مطامعهم وهبطوا الى الحضيض. {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} . . .

يعطي كثيراً لا تضيق ولا تقتير لمن يشاء، فهو قد يعطي الكافرين زينة الحياة الدنيا لحكمة منه، ويعطي المختارين من عباده ما يشاء في الدنيا والآخرة. فالعطاء كله من عنده. لذلك ترك كثيراً من الأبرار ومن الفجار متمتعين بسعة الرزق، وكثيراً من الفريقين فقراء معسرين. ولكن المتقين يكون أكثر احتمالاً، فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر، اذ هو بالتقوى يجد المخلص من كل ضيق.

٢٠١٠١ 213

الأمة: الجماعة من الناس. والأزمة: الملة والعقيدة، والأمة الزمن، (وادَّكَرَ بعد أمة) والأمة: الامام، (ان ابراهيم كان أمة) ، والمقصود هنا الجماعة من الناس.

يبين الله في هذه الآية سبب الاختلاف بين الناس في العقائد والمذاهب والأخلاق بعد ان كانوا أمة واحدة في مبدأ خلقهم، يوم كانوا أمة واحدة على الفطرة. وفلما كثروا وانتشروا في الارض وتطورت معاشهم اختلفوا وتعددت وجهات النظر فيما بينهم، فبعث الله الأنبياء والرسول، مبشرين ومنذرين، لينبها أقوامهم الى ما غفلوا عنه ويحذروهم من شر الأعمال. وأنزل معهم الكتب لبيان أحكامه وشرائعه. واذا كان للكتاب المنزل من عند الله هو الحكم فإن التنازع ينقطع وينحسم كثير من الشر في هذا العالم. ثم تبع بعض الناس أهوائهم فاختلثوا بعدها بين لهم الرسل طريق الحق والصراط المستقيم. وذلك بفعل الحكام والرؤساء والعلماء، لأنهم هم أهل النظر، القائمون على الدين بعد الرسل وهم الذين أتوا لكتاب اليقرروا ما فيه، ويراقبوا سير العامة عليه. وقوله تعالى: «بغياً بينهم» اي حسداً وظلماً.

ثم أرشد إلى الايمان الصحيح يهدي الناس الى الحق في قوله {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} . . . فالمؤمنون يهتدون الى ما اختلف الناس فيه من الحق. والله هو الذي يوفقهم اذا اخلصوا.

٢٠١٠٢ 214

المثل: الحال الذي له شأن. البأساء: الشدة على الانسان في ماله وفي نفسه ووطنه. والضراء: ما يصيب الانسان في نفسه كالقتل والجرح والمرض. والزلازل: الاضطراب في الأمر. بعد ان أمر الله تعالى بالوفاق والسلام، وأرشد الى حاجة البشر الى معونة بعضهم بعضاً لكثرة المطالب وتعدد الرغبات، دعت الضرورة الى شرع يحدد الحقوق ويهدي العقول الى ما لا مجال للنزاع فيه.

وقد روى الطبري عن السدي ان هذه الآية نزلت في غزوة الخندق. ومعنى الآية: ام حسبتم أيها المؤمنون ان تدخلوا الجنة بمجرد اقراركم بكلمة الاسلام دون ان يصيبكم ما اصاب الذين من قبلكم من أتباع الرسل والأنبياء من الشدائد والحن، وأن تُبْتَلُوا بمثل ما ابتلوا به من البأساء وهي شدة الحاجة والفاقة، ومن الضراء وهي العلل والأمراض، ولم تُزَلُّوا، اي لم يصيبكم من اعدائكم كثير من الخوف والرعب! كلا، انكم مثلهم.

وقد أخذتهم الشدة حتى بلغ الأمر ان قالوا متى نصر الله؟ ثم أخبرهم الله ان نصره قريب وانه جاعلهم فوق عدوهم.

٢٠١٠٣ 215

الخبر: معناه هنا المال. يسألك أصحابك يا محمد أي شيء يتصدقون به من أموالهم وعلى من يتصدقون؟ فقل لهم: إن الإنفاق يكون من المال الطيب، وتصدقوا به على آبائكم وأمهاتكم وأقاربكم، وعلى اليتامى والمساكين، ومن انقطع من ماله وأهله. وما تفعلونه من خير اليهم يُحسبه الله لكم حتى يثيبكم عليه.

٢٠١٠٤ 216

كتب عليكم: فرض عليكم. الكره: المشقة. مضى الكلام في الآية السابقة على الإنفاق في سبيل الله وللمحتاجين من الأسرة الإسلامية، وفي هذه الآية والتي بعدها يأتي الكلام على بذل الأرواح والأنس. المال أخو الروح، بل هو أعلى عند كثير من الناس. إذات كان في الإنفاق على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع في داخله فإن القتال حماية له من أعدائه في الخارج. لذلك فرض الله عليكم القتال لحماية دينكم والدفاع عن أنفسكم. وهو كره لكم، لما فيه من المشقة وتعريض الأئس للموت، ولكن ربما كرهتم شيئاً يكون فيه خيركم، إن الله يعلم ذلك، وأنتم لا تعلمون. وهذه أول آية فرض فيها القتال، وقد نزلت في السنة الثانية من الهجرة. الجهاد فرض كفاية إلا إذا دخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون الجهاد فرض عين على الجميع، وهذه فلسطين، فقد احتلها العدو ولم يهب المسلمون لقتاله. لقد أغفلوا فرض عين، وحكامهم هم المسؤولون. ولهم مع الله شأن.

٢٠١٠٥ 217

الصد: المنع. الفتنة: الشرك وتعذيب المسلمين. حبط عمله: بطل وفسد. سبب نزول هذه الآية إن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش مع ثمانية من المهاجرين في جُمادى الآخرة. قبل وقعة بدرٍ بشهرين، ليرصدوا عيراً لقريش. فهاجموا قريشاً وقتلوا منهم عمرو بن عبد الله الحضرمي. كما أسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان. ثم إنهم استاقوا العير والأسيرين إلى المدينة المنورة. وكان ذلك في غرة رجب، وهو من الأشهر الحرم. وكانوا يظنون أنه آخر يوم من جُمادى الآخرة. فقالت قريش: لقد استحل محمد الشهر الحرام. وقامت اليهود تشهر بالنبي والمسلمين، ويقولون: عمرو، عمرت الحرب، والحضرمي، حضرت الحرب، وواقد، وقدت الحرب. وكان واقد بن عبد الله هو الذي قتل عمرو بن الحضرمي. فلما أكثر الناس في ذلك نزل الله الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ . . .} وتفسيرها:

يسألونك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام، فقل لهم إن القتال فيه أمرٌ مستنكر، لكن ما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله، والصد عن بيته، وأخراج المسلمين منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم كل ذلك أكبر عند الله من قتالكم في الشهر الحرام. لذلك أباح الله لنا القتال في الشهر الحرام لقمع هذه الشرور، على أساس اختيار أهو الشرين. واعلموا أيها المسلمون إن سبيل هؤلاء معكم سبي التجني والظلم، وأنهم سيظلون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، إذ لا هم لهم إلا منع الإسلام عن الانتشار. إذن فإن انتظاركم إيمانهم بمجرد الدعوة طمعٌ منكم في غير مطمع، والقتال في الشهر الحرام أهو من الفتنة عن الإسلام. ومن يضعف منكم أمام هجماتهم ويرتد عن دينه ثم يموت على الكفر فأولئك بطلت أعمالهم، وأولئك أهل النار هم فيها خالدون.

بعد ان ذكر الله المرتدين، بين لنا هنا جزء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين في سبيله فقال تعالى: ان المؤمنين ثبتوا على ايمانهم او هاجروا فراراً بدينهم، لإعلاء كلمة الله، ولينصروا الله ورسوله هم الذين يرجون رحمة الله وينتظرون عظيم ثوابه. وهم جديرون بأن ينالوا ذلك، والله واسع المغفرة للتائبين، عظيم الرحمة بالمؤمنين.

الخمر: كل ما اسكر من المشروبات. الميسر: القمار. الاثم: الذنب: العفو: الفضل والزيادة على الحاجة. هذه أول آية نزلت في الخمر، ثم نزلت بعدها الآية التي في سورة النساء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} ثم نزلت الآية التي في المائدة. هكذا بالترتيب.

روى الامام أحمد وأبو داود والترمذي عن عمر انه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً، فنزلت هذه الآية. فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} . فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ. .} الآية فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قال عمر: انتبهنا، انتبهنا.

روى الشيخان عن ابن عمر ان رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام. . الحديث». . فحرمة الخمر ثبتت بالإجماع، وهو المصدر الثالث.

يسألونك يا محمد عن حكم الخمر والقمار، فقل ان فيها ضرراً كبيراً من افساد الصحة وذهاب العقل والمال واثارة العداوة والبغضاء بين الناس، وفيهما منافع كالتسليه والريح اليسير السهل. . ولكن ضررهما أكبر من نفعهما فاجتنبهما.

وأصل الميسر هو الجزور الناقه يقسمونها الى عدة أقسام ويضربون عليها القِداح، وهي قطع من الخشب تسمى الأزلام، وهي عشرة وأسمائها كما يلي: الفذ، والتوءم، والرقيب، والجلس، والمسبل، والمعلّى، والنافس، والمنيح، والسفيح، والوغد، فكان لكل واحد من السبعة الاولى نصيب معلوم. ولا شيء للثلاثة الأخيرة. وكان المعلّى اعلاها حيث له سبعة أجزاء ولذلك يضرب به المثل فيقال: «له القِد المعلّى». هذا هو قمار العرب في الجاهلية. وقد حرّمه الله لما فيه من اكل اموال الناس بالباطل وما يجلب من المنازعات والفتنة. وهذا النص القرآني العظيم يوضح لنا ان التشريع يراعى فيه منافع العباد، فما كثرت منافعه بجوار مضاره كان مطلوباً ومباحاً، ما قلّت منافعه بجوار مضاره كان منهيّاً عنه.

وهو يوصى الى امر واقع في هذه الدنيا، وهو ان الاشياء يختلط خيبرها بشرها، فليس هناك خير محض، ولا شر محض. فالخمر وهي ام الخبائث، فيها نفع للناس بجوار شرها الذي لا حدود له. والميسر الذي يشغل النفس ويصيبها باضطراب مستمر، فيه نفع للناس وآثام تفسد الحياة، ولقد كانت حكمة الله بالغة في تحريم الخمر على مراحل، وذلك لتعلق العرب بها في ذلك الزمان، ولأن تحريمها دفعة واحدة كان من الصعوبة بمكان.

{وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} ويسألونك يا محمد اي جزء من اموالهم ينفقون وأياً يمسون؟ قل أنفقوا الزائد عن حاجتكم، وفي الصحيح قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعلق» وخرج مسلم عن جابر ان النبي قال: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك، فان فضل شيء فلذي قرابتك، فان فضل شيء عن ذي قرابتك فهكذا وهكذا». .

وكان يكره للمرء ان يتصدق بجميع ماله، ويجب ان يتصدق بما يزيد عن حاجته.

القراءات:

قرأ أبو عمرو «قل العفو» بالضم.

العنت: المشقة. لأعنتكم: لأوقعكم في مشقة.

ويسألونك يا محمد بشأن اليتامى وما يوجبه الاسلام حيالهم، فقل: الخير لكم وهلم في اصلاحهم، فضموهم الى بيوتكم، وخالطوهم بقصد الاصلاح، فهو اخوانكم. ان اليتيم طفل فقد أباه، والعائل الذي يرعاه، فما أحوجه الى عناية رؤوم تنتشلُه وتجعل له متنفساً يسري به عن نفسه! وما أحوجه الى تشريع حكيم، ووصية من رب رحيم تحفظ عليه نفسه، وله ماله، وتعدّه كي يكون رجلاً عاملاً في الحياة. ولقد كان بعض الاوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم، وأمواهم بأموالهم للتجارة فيها جيمعا، وكان الغبن يقع احيانا على اليتامى، فنزلت الآيات في التخويف من أكل أموال الأيتام. مثل {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} . وآية {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى} [النساء: ٩] . عندئذ تحرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى عن طعامهم، فكان الرجل يكون في حجره اليتيم، يقدم له الطعام من ماله فاذا فضل شيء منه بقي له حتى يعاود، أو يفسد فيطرح. وهذا تشدد ليس من طبيعة الاسلام، فجاء القرآن هنا ليرد المسلمين الى الاعتدال واليسر. فالاصلاح لليتامى خير من اعزالهم، والمخالطة لا حرج فيها اذا حققت الخير لليتيم. والله يعلم المفسد من المصلح، فليس المعول عليه هو ظاهر العمل وشكله، بل النية فيه وثمرته. ولو شاء الله لشقّ عليكم فألزمكم رعاية اليتامى من غير ان تخالطوهم لكنهم اذ ذاك ينشأون على بغض الجماعة.

ويكون ذلك افسادا لجماعتكم وإعنائاً لكم. . والله لا يريد إحراج المسلمين ولا المشقة عليهم فيما يكلفهم. وهو عزيز غالب على امره، حكيم لا يشرّع الا ما فيه مصلحتكم.

والحكمة في وصل السؤال عن اليتامى بالسؤال عن الانفاق، بالسؤال عن الخمر والميسر، ان السؤالين الأولين بينا حال طائفتين من الناس في بذلهم وانفقاها، فناسب ان يذكر بعدها السؤال عن طائفة هي أحق الناس للانفاق عليها، واصلاح شؤونها، وهم اليتامى. وكأن الله تعالى يذكرها بأنه حين مخالطتهم واصلاح امورهم يجب ان تكون النفقة من العفو الزائد على حاجتنا من أموالنا، ولا ينبغي ان نعكس ذلك ونطمع في أموالهم.

هنا نقع على جانب من دستور الأسرة، والجماعة الصغيرة التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي، والتي أحاطها الاسلام برعاية ملحوظة، واستغرق في تنظيمها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهداً كبيراً، نراه متناثراً في عدة سور من القرآن الكريم. وقد روي في نزول هذه الآية ان مرثد بن ابي مرثد الغنوي كان يهوى امرأة اسمها عناق في الجاهلية، وأرادت ان تزوجه بعد ان أسلم فاستشار النبي في ذلك فنزلت هذه الآية، بمعنى: لا تتزوجا الوثنيات حتى يؤمن بالله ويصدقن بالرسول الكريم، وهذا أمر قاطع. فان الأمة المؤمنة خير من المشركة التي لا تدين بدين سماوي. ولو كانت الآخرة جميلة يعجبكم جمالها. ولا تزوجوا الرجال المشركين من المؤمنات الا اذا دخلوا في الاسلام. فان العبد المؤمن خير من المشرك ولو أعجبكم شكله وعزته وماله.

{أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} اي ان المشركين يدعون من يعاشرهم الى الشرك الذي يستوجب النار، فيما يدعوكم الله، من اعتزالكم المشركين في النكاح، الى ما فيه صلاحكم ورشادكم فتتألون الجنة والمغفرة.

والخلاصة انه لا يجوز ان نتصل بالمشركين الذين لا يدينون بدين سماوي برباطة الصهر، لا بتزويجهم ولا بالتزويج منهم. واما الكليات كالنصرانيات واليهوديات فقد جاء في القرآن الكريم نص واضح على حل الزواج بهن: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}

الحيض: السيلان، وفي الشرع: دم يخرج من الرحم في مدة مخصوصة. الأذى: الضرر. الحرث: موضع النبت يعني الأرض التي تنبت، شبهت بها النساء، لأنها منبت الولد. أُنِي شَتَمَ: متى شَتَمَ.

كثرت الأسئلة عن مخالطة النساء أيام مجيء العادة الشهرية عندهن، وذلك بسبب احتكاك المسلمين في المدينة باليهود وبسبب العادات الموروثة من الجاهلية. فقد كان اليهود لا يقربون المرأة أثناء حيضها، ويعتبرونها نجسة. فلا يجوز للرجل ان يمس جسدها أو يقرب من فراشها، فإن فعل، يغسل ثيابه بماء ويستحم ويكون نجسا الى المساء. وان اضطجع معها وهي حائض يكون نجسا سبعة أيام. وكان العرب في الجاهلية لا يسكنون الحائض، ولا يؤاكلونها كما كانت تفعل اليهود. اما النصارى فكانت تتهاون في أمور الحيض، فكان هذا الاختلاف مدعاة للسؤال عن حكم الحيض في الاسلام فنزلت الآية. . .

يسألونك يا محمد عن إتيان الزوجات زمن الحيض فأجبهم: إنه اذى، فامتنعوا عنه حتى يطهرن، فاذا تطهرن فأتوهن في المكان الطبيعي، (لأنه لو كان يجوز اتيانهن في غيره لما قال تعالى: {فاعتزلوا النساء في الحيض}) . ومن نكاح وقع منه شيء من ذلك فليتب الى الله فان الله يحب التوبة من عباده، وتطهرهم من الأقدار والفحش.

وقد أثبت العلم الحديث ان الحيض فيه أذى، اذ يكمن المهبل آنذاك ميدنا مفتوحاً للجراثيم. فالاتصال الجنسي في الحيض يعمل على وصول هذه الجراثيم الى المهبل، فتصيبه بمختلف الالتهابات التي قد تمتد الى الجهاز التناسلي، فتتولد مضاعفات قد تؤدي الى العقم. وتعود العدوى الى الرجل عن طريق قناته البولية، وقد تمتد الاصابة الى المثانة والحالبين بل الى قاعدة الكليتين، حتى تصاب البروستاتا والخصيتان بما قد ينتج عنه الضعف الجنسي او العقم. والمرأة أثناء الحيض تكون راغبة عن الرجل، فالاتصال الجنسي بها في ذلك الوقت قد يؤثر في أعصابها من هذه الناحية. لذلك علمنا القرآن الكريم ان نعزل المرأة في وقت الحيض. أما مخالطتها ومسها والأكل معها والنوم في فراشها فكل هذا جائز وغير ممنوع.

{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ. . .} لا حرج عليكم في إتيان نسائكم بأي وضع شَتَمَ اذا كان ذلك في موضع النسل، قد بينا لكم ما فيه رشدكم وهدايتكم، فقدّموا لأنفسكم الخير الذي امركم به ربكم، واتخذوا عنده به عهداً، لتجدوه حين تلقون ربكم يوم المعاد. واتقوه في معاصيه، واحذروا أن تخرجوا النساء عن كونهن حرثاً بإضاعة مادة النسل أثناء الحيض او بوضعها في غير موضع الحرث. وبشر المؤمنين يا محمد بالفوز يوم القيامة.

العرضة: المانع. اللغو: ما يقع من غير قصد.

ولا تجعلوا الحلف بالله مانعاً لكم من عمل الخير والتقوى الاصلاح بين الناس، فاذا حلفتم الا تفعلوا، فكفّروا عن أيمانكم وأتوا الخير، لأن عمل البر أولى من المحافظة على اليمين. فالله لا يرضى ان يكون اسمه حجاً دون الخير.

وكثيراً ما يتسرع الانسان الى الحلف بالله بأن لا يفعل كذا ويكون خيراً، أو ان يفعل كذا ويكون شراً، فهناك الله عن ذلك. وقدج ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري انه قال: «اني والله ان شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها الا أتيت الذي هو خير وتحللته»، وروى مسلم عن ابي هريرة عن رسول الله: «من حلف يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير» .

ورأى بعض المفسرين في الآية معنى آخر، وهو النهي عن الجرأة على الله تعالى بكثرة الحلف به، وذلك أن من أكثر من ذكر شيء في معنى خاص فقد جعله عرضة.

{لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ} : اي لا يؤاخذكم بما يقع منكم من الأيمان اثناء الكلام دون ان تقصدوا به عقد اليمين. . فلا كفارة عليكم فيه، شأن كثير من المزاح. ومثله ان يحلف على الشيء يظنه ثم يظهر خلافه، أو يحلف وهو غضبان. ولكن يؤاخذكم الله

بما نويتم من اليمين على ايقاع فعل أو عدم ايقاعه، وعلى الكذب في القول مع التوثيق باليمين، لهذا عليه الكفارة. . حتى لا تجعلوا اسمه الكريم عرضة للابتذال. والله غفور لمن يتوب، حلیم يعفو عما لا تكتسبه القلوب.

٢٠١١٢ 226

يؤلون: يحلفون، آلى يؤلي ايلاءً. عزموا الطلاق: صمّموا في قصده. للذين يحلفون ان لا يقربوا نساءهم ان ينتظروا اربعة أشهر، فان رجعوا الى نساءهم وحنثوا في اليمين اثناء هذه المدة فان الله يغفر لهم، وعليهم الكفارة. ان عزموا على الطلاق فان الله سميع لحلفهم وطلاقهم. والخالصة: ان من حلف على ترك إتيان امرأته، لا يجوز له ان يمكث أكثر من أربعة أشهر، فإن عاد اليها قبل انقضاء المدة لم يكن عليه اثم، وان أتمها تعيّن عليه أجد امرين: الرجوع الى المعاشرة الزوجية أو الطلاق. وعليه ان يراقب الله فيما يختاره منهما، فان لم يطلق بالقول كان مطلقاً بالفعل، اي انها تطلق منه بعد انتهاء تلك المدة رغم انفه. فاذا كانت المدة أقل من اربعة أشهر فلا يلزمه شيء. وقد فضل الله تعالى الفئته، اي الرجوع، على الطلاق، وجعل جزاءها المغفرة منه. وقد كانت هذه العادة من ضرار أهل الجاهلية، كان الرجل لا يحب امرأته ولا يحب ان يتزوجها غيره، فيحلف ألا يقربها أبداً، ويتركها لا هي مطلقة ولا ذات بعل. وكان المسلمون في ابتداء الاسلام يفعلون هذا فأزال الله ذلك الضرر عنهم بهذه الآية.

٢٠١١٣ 228

التربص: الانتظار. القراء: الحيض أو الطهر من الحيض. بعولته: جمع بعل وهو الزوج. وعلى المطلقات اللاتي دخل بهن أزواجهن ان ينتظرن ثلاثة حيضات لا يجوز للمرأة منهن ان تتزوج قبل انقضائها، وهي العدة. والحكمة في ذلك هي التأكيد من أنها ليست ذات حمل. ولا يجوز لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن من الاولاد، أو دم الحيض. . ذلك ان بعض المطلقات يدّعين ان مدة الحيض طالت فيطالبن بالنفقة عن تلك المدة. وكانت المرأة في الجاهلية قد تتزوج بعد طلاقها دون ان تنتظر العدة، ثم يظهر انها حبل من الاول، فتُلحق الولد بالثاني. . وفي هذا اختلاط الأنساب وضياح لحقوق الناس. فلما جاء الإسلام حرم هذا وشدد في ذلك بقوله: {إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} اي اذا كن صادقات في الايمان بالله واليوم الآخر.

والأزواج أحق من غيرهم في ارجاع مطلقاتهم اليهم قبل انقضاء العدة إذا قصدوا الاصلاح وحسن المعاشرة. أما اذا قصدوا الإضرار بالمرأة ومنعها من التزوج حتى تبقى كالمعلقة، فلا، ويكون الزوج آثماً عند الله.

{وَلَمَنْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ} . . {ان للرجال والنساء حقوقاً الواحد منهم تجاه الآخر وعليهن واجبات. «وبالمعروف» تعني ان هذه الحقوق والواجبات موكولة الى اصطلاح ما يجري عليه العرف بينهم وما تعارفوا عليه من آداب وعادات. وقد أجهل النبي ﷺ هذه الحقوق عندما قضى بين ابنته فاطمة وزوجها علي، حيث قضى عليها بخدمة البيت، وعليه بما كان في خارجه من الأعمال. وهذا ما تحكم به الفطرة في توزيع الأعمال بين الزوجين، فعلى المرأة تدبير شؤون المنزل وعلى الرجل السعي والكسب في خارجه. ولا يمنع هذا من استعانة اي منهما بالخدم ولا من مساعدة كل منهما للآخر.

أما قوله تعالى: {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} فقد فسرتها الآية الواردة في سورة النساء: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} . فهذه الدرجة هي الرياسة ومسؤولية القيام على المصالح، والانفاق على الأسرة.

ان الحياة الزوجية تقتضي وجود مسؤول يرجع اليه عند اختلاف الآراء والرغبات حتى لا يعمل كل ضد الآخر، فتتفصم عروة الوحدة الجامعة. والرجل هو الأحق بذلك.

{والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فن عزته ان أعطى المرأة مثل ما اعطى الرجل من الحقوق بعد ان كانت كالمحتاج لدى جميع الأمم. إنه هو الذي رفعها عما كانت عليه في كل شريعة من الشرائع الماضية. فلقد كانت المرأة عند الرومان مثلاً أمة في بيت زوجها عليها واجبات، وليس لها حقوق. ويرى الاستاذ سيد قطب ان هذه الدرجة مقيدة في هذا السياق بحق الرجل في هذا الموضع، وليست مطلقة الدلالة، كما يفهمها الكثيرون، ويستشهدون بها في غير موضعها.

٢٠١٤ 229

الامساك بالمعروف: ان يرجع زوجته بقصد المعاشرة الحسنة. افتدت: اي دفعت عن نفسها فدية لتخلصها بها، حدود الله: احكامه. الاعتداء: تجاوز الحد. شرع الطلاق في الاسلام حينما تشتد الخصومة بين الزوجين الى حد لا يتجدي فيه محاولة الاصلاح. وقد عرف الطلاق من قديم، فكان للمرأة عند العرب في جاهليتهم طلاق وعدة ومراجعة في العدة. لكنه لم يكن للطلاق حد ولا عدد، فكان الرجل يطلق زوجته ثم يطلقها الى غير حد. تطليق فراجعة ثم تطليق فراجعة وهكذا، لا يتركها لتتزوج غيره فتستريح ولا يثوب الى رشده فحسب عشرتها، وانما يتخذها ألوبة في يده.

فأنزل الله تعالى: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} والمعنى ان الطلاق المشروع، عند تحقق ما يبيحه، يكون على مرتين، مرة بعد رمة. فاذا ما طلق الرجل زوجته المرة الأولى أو الثانية كان عليه إما ردها الى عصمته مع احسان عشرتها، وهذا هو الامساك بالمعروف، وإما ان يتركها تنقضي عدتها وتقطع علاقتها به، وذلك هو التسريح بالاحسان. فان عاد الزوج بعد ان راجعها من الطلاق الثان وطلقها ثالثة حرمت عليه، حتى تتزوج من غيره ويطلقها الأخير وتنقضي عدتها منه. بذلك تكون المدة التي انفصل عنها الأول فيها لا تقل عن ستة أشهر، وبعد ذلك يجوز له ان يتزوجها ان ارادت.

{وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا. .} الآية لا يحل للرجل ان يسترد شيئاً من صداق أو نفقة أنفقها على زوجته في مقابل طلاقها، ما لم تجد هي أنها كارهة لا تطيق عشرته وتخاف معه ان تخرج عن حدود الله، فهنا يجوز لها ان تطلب الطلاق مه، وان تعوضه عن تحطيم بيته. وذلك بأن ترد المهر الذي دفعه لها أو بعض النفقة عليها أو كلها. وهكذا يراعى الاسلام جميع الحالات الواقعية التي تعرض للناس، ويراعى مشاعر القلوب التي لا حيلة للانسان فيها، ولا يجبر الزوجة على حياة تنفر منها. وفي الوقت ذاته لا يضيع على لرجل ماله بلا ذنب جناه.

وأول حادث حدث في الاسلام من هذا القبيل أن جميلة بنت أبي بن سلول كانت زوجة لثابت بن قيس، وقد جاءت الى رسول الله وقالت له: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعت جانب الخباء، فرأيتُه أقبل في عندة من الرجال فاذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة، وأقبحشهم وجهاً. وقال ثابت: يا رسول الله، إني أعطيها أفضل مالي، حديقة، فلترد على حديقتي. قال: ما تقولين؟ قالت: نعم، وان شاء زدت. ففرق النبي بينهما. وهذا معنى قوله تعالى {أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} وهو ان يظهر من المرأة سوء الخلق والعشرة لزوجها، فاذا ظهر ذلك حلّ له ان يأخذ ما اعطته من فدية على فراقها. هذا ما سماه الفقهاء «خلعاً» وهو طلاق، عدته كعدته.

تلك حدود الله، وأمره ونواهي، فلا تتجاوزوا ما أحله لكم الى ما حرمه عليكم. ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون لأنفسهم. والذي يظلم زوجته يكون قد خان امانة الله. وظلم بذلك نفسه. والرابطة الزوجية امتن الروابط وأحكامها، وهي أساس بناء المجتمع. ولقد حذر النبي الكريم النساء من الإساءة الى أزواجهن، فقد روى احمد والترمذي والبيهقي عن ثوبان انه ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة».

لقد دخل تفسير هذه الآية الكريمة في الآي التي قبلها «الطلاق مرتان. ٥» وملخصه: إن من طلق زوجة مرتين بعدها رجعتان ثم طلقها ثالثة حرمت عليه حتى تتزوج من غيره ويطلقها الأخير فتعتد منه.

بلغن اجلهن: آخر عدتهن.
ولا تمسكوهن ضراراً: أي قصد الإضرار بهن.
وإذا طلقتم النساء وقرب انتهاء عدتهن، فاعزموا احد الأمرين: امسك بالمعروف، قاصدين اقامة العدل وحسن العشرة. أو طلاق بالمعروف حتى تذهب المرأة في حال سبيلها. ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا. اذ لا يجوز ان يكون القصد من المراجعة إلحاق الضرر بها حتى تلجئوهن الى افتداء نفسها. من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه في الدجنية. بسلوك طريق الشر وحرمان نفسه سعادة الحياة الزوجية. واستحق سخط الله عليه.
{وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا}

وفي هذا وعيد لمن يتهاون في الأحكام التي شرعها الله لعباده.
{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} بتنظيم الحياة الزوجية تنظيمًا عاليًا، وبما انزل عليكم من كتاب مبين للرسالة المحمدية وما فيها من حكم وقصص تتعظون بها وتهتدون.
{واتقوا الله} بامثال أمره ونهيه في أمر النساء وتوثيق الصلة الزوجية.
{واعلموا أنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فلا يخفى عليه شيء مما يُسرّ العبد أو يعلنه وهو مجازيكم بما كنتم تعملون.

فلا تعضلوهن: لا تمنعهن عن الزواج. أذكر: أظهر.
كان من عادات العرب في الجاهلية ان يتحكم الرجال في تزويج النساء، إذ لم يكن يزوّج المرأة الا وليها، وقد يزوجهن بمن تكره، ويمنعها ممن تحب، ولمصلحته هو.
اخرج البخاري وأبو داود والترمذي عن معقل بن يسار قال: كان لي أخت فأتاني ابن عم لي فأنكحها أياه. فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدتها. ثم خطبت إلي فأتاني مع الخطاب يخطبها، فقله له: خطبت إلي فنعته الناس فأثرتك. ثم إنك طلقها طلاقاً لك فيه رجعة. فلما خطبت إلي أتيتني تخطبها مع الخطاب! والله لا ترجع إليك أبداً.
وكان لا بأس به، وكانت المرأة تريد ان ترجع اليه، فعلم الله حاجته اليها وحاجتها الى بعْلِها فأَنْزَلَ اللهُ الآية. قال/ ففي نزلت، فكفرت عن يميني وأنكحها أياه.

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا اذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن هن ذلك فلا تمنعهن من الزواج. هذا اذا رضي كل من الراجل والمرأة بالآخر زوجاً، على حسن العشرة. ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله وباليوم الآخر، وهو أدعى الى تنمية العلاقات الشريفة في مجتمعكم وأظهر في نفوسكم من الادناس والعلاقات المريبة. والله يعلم من مصالح البشر وأسرار نفوسهم ما لا تعلمون.

الحول: العام. الوسع: ما تسع له القدرة. الفصل: الفطام.

على جميع الوالدات، مطلقاً او غير مطلقاً، أن يرضعن أولادهن مدة سنتين كاملتين، ويجوز انقاص هذه المدة برضى الوالدين اذا رأيا ذلك من مصلحة المولود.

والآية تفيد وجوب الإرضاع على الأم ولا يكون الاسترضاع الا حيث لا يمكنها ذلك. وقد اتفق الفقهاء على وجوب الإرضاع عليها ديانةً، لأن لبن الأم هو الغذاء الأمثل للمولود. والرضاعة تفيد الام ولا تضرها الا في أحوال شاذة يقررها الطبيب الامين الموثوق. والفظام الطبي يكون تدريجياً، ويجوز أن يفتطم الصغير لأل من عامين كما قدمنا اذا كانت صحته تعاونه.

{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} بما ان الوالدات حملن للوالد وأرضعن له، فعليه ان ينفق عليهن ما فيه الكفاية من طعام وشراب وكسوة، وذلك ليقمن بحق الولد ويحفظنه ويرعينه. ويكون ذلك الانفاق حسب البيئة التي تعيش فيها المرأة ولا تلحقها منه غضاضة في نوعه، ولا في طرق أدائه. وهو على قدر طاقة الوالد بلا إسراف ولا تقتير.

{لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا} ولا ينبغي ان يكون ذلك الانفاق سبباً في إلحاق المولود ضرراً بأمه بأن يهضم حقها في نفقتها، ولا سبباً في إلحاق الضرر بأبيه بأن يكلف فوق طاقاته. واذا مات الأب او كان فقيراً عاجزاً عن الكسب كانت النفقة على وارث الولد لو كان له مال. فان رغب الوالدان بالتراضي في فطام الطفل قبل تمام العامين فلهما ذلك، لأنهما صاحباً الحق المشترك في الولد. وان شتم أيها الآباء ان تتخذوا مراضع للأطفال غير امهاتهم فلا مانع من ذلك اذا أردتم لهن الأجور المتعارف عليها لأمثالهن، والا فإن المرضع لن تهتم بالطفل ولا بارضاعه، ولا نظافته. واتقوا الله فلا تفرطوا في شيء من هذه الأحكام وراقبوه في أعمالكم، واعلموا انه مطلع عليها مجازيكم بها.

القراءات:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب «لا تضار» بالرفع.

٢٠١١٩ 234

والذين يتوفون منكم ايها الرجال ويتركون زوجات لهم، فعلى الزوجات ان يمكنن بعدهم دون تعرض للزواج مدة اربعة اشهر وعشر ليال قريية. وذلك حتى يتبين ان هذه غير حامل. وكانت المرأة في الجاهلية تلقى الكثير من العنت من الأهل والناس بعد وفاة زوجها. كانت اذا ترملت دخلت مكاناً رديئاً ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً ولا زينة طيلة سنة. وبعد ذلك تخرج، وتقوم بعمل بعض الشعائر السخيفة فتأخذ بكرة وتقذفها، وتركب دابة، وأشياء أخرى مثل هذه السخافات. فلما جاء الاسلام خفف عنها وجعل المدة اربعة أشهر وعشرة أيام. فاذا انتهت المدة فلا يجوز لأحد ان يمنعها ان تمارس عملها، وتتزوج من تشاء. {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} اي محيط بدقائق أعمالكم. فاذا جعلتم نساءكم تسير على نهج الشرع الشريف صلحت أحوالكم وسعدتم في دنياكم وأحسن الله جزاءكم في أخرائكم.

٢٠١٢٠ 235

لا جناح: لا اثم. خطبة النساء، بكسر الخاء: طلب الزواج منهن. أَكُنْتُمْ: أخفيتم. ولا اثم على الرجال ان يلمحوا للمرأة أثناء العدة بالرغبة في الزواج، ولا فيما يكتمه الرجل في نفسه من رغبة في الزواج من المرأة، اثناء عدتها. ان الله يعلم ان الرجال لا يصبرون عن التحدث في شأنهن، ولهذا أباح التعريض دون التصريح. ولكن لا يجوز ان تواعدهن على الزواج سرّاً، فإن المواعدة على هذه الحال مظنة للقليل والقال.

{إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا} لا يستحي منه أحد من الناس. فقد أخرج الطبري عن ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته سكينه بنت حنظلة، قالت: دخل علي محمد بن علي زين العابدين (المعروف بالإمام الباقر) وأنا في عدتي فقال: يا ابنة حنظلة انا من علمت قرابتي من رسول الله، وحقّ جدّي عليّ وقدمي في الاسلام. فقلت: غفر الله لك يا ابا جعفر، اتخطبني في عدتي، وانت يؤخذ

عنك؟ قال: أَوَقَدَ فعلت؟ انا اخبرتك بقرايتي من رسول الله وموضعي. وقد دخل رسول الله على أم سلمة بعد وفاة زوجها فلم يزل يذكر لها منزلته من الله فما كانت تلك خطبة.

{وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} ولا تبرموا عقد الزواج حتى تنقضي العدة. وإذا وقع العقد فانه يكون باطلا. واعلموا ان الله يعلم ما تضمرونه في قلوبكم من العزم على ما لا يجوز، فاحذروا ولا تقدموا على ما نهاكم عنه، ولا تيأسوا من رحمته ان خالفتم، إنه واسع المغفرة حلیم لا يعجل بالعقوبة امهالاً لإصلاح زلاتكم.

٢٠١٢١ 236

لا جناح: لا حرج، ولا تبعة. مال تسموهن: ما لم تدخلوا بهن. الفريضة: المهر. متعوهن: اعطوهن عطية ينتفعن بها. الموسع: الغني. الفقير. متاعاً: حقاً ثابتاً. المعروف: ما يتعارف عليه الناس. الذي بيده عقدة النكاح: الزوج. الفضل: المودة والصلة. مازال الحديث في قضايا الطلاق، وهنا يوضح لنا سبحانه وتعالى حالتين من صور الطلاق قبل الدخول:

الأول: لا ذنب عليكم ان طلقتم النساء من قبل ان تدخلوا بهن أو تفرضوا لهن مهراً، فإن حدث ذلك من احدكم فليتبع المرأة بعطية منه على قدر طاقتة، الغني بحسب قدرته ومروءته، والفقير كذلك.

وهذه المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول التي لم يسم لها مهر. والحكمة في شرعها ان في الطلاق قبل الدخول سوء سمعة للمطلقة، فاذا هو اعطاها عطية قيمة تزول هذه الغضاضة، وتكون شهادة لها بأن سبب الطلاق كان من قبله هو ولا علة فيها.

الحالة الثانية: اذا عقد رجل على امرأة وسمى لها مهراً ثم طلقها قبل ان يدخل بها، فيجب عليه في هذه الحالة ان يدفع لها نصف المهر المسمى. ثم يترك القرآن الأمر بعد ذل للمروءة والسماحة والفضل، فللزوجة ان تعفو اذا ارادت وتتنازل عن حقها أو بعضه، وللزوج ان يعفو عن باقي المهر، وحينئذ تأخذ الزوجة المهر كاملاً.

ثم أتبع ذلك تعالى بعبارة رقيقة جميلة {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ يَنْكُرُ} فيحث على استبقاء المودة بأن يتسامح الطرفان ويعفوا عن هذه المادة الزائلة حتى تبقى القلوب صافية نقية موصولة بالله. وختم الله الآية بقوله: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

القرءات: قرأ حمزة، والكسائي «تماسوهن» بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان «قدره» بفتح الدال.

٢٠١٢٢ 238

الوسطى: الفضلى. تأتي بمعنى المتوسط بين شيئين. قانتين: خاشعين لله ذاكرين.

في اثناء الكلام على تنظيم الأسرة يذكرنا تعالى بالمحافظة على الصلاة، عماد الدين، فيقول: داوموا على الصلوات الخمس جميعاً وحافظوا عليها. ثم إنه أكد على الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر، لأنها في أواخر النهار حين ينتهي الإنسان من عمله اليومي فيقف بين يدي الله متضرعاً للخير وشاكراً على ما رزقه ووفقه. وقيل في الصلاة الوسطى هي الظهر والمغرب والعشاء والفجر، وكلها بين صلاتين.

وهناك من قال ان الصلاة الوسطى هي الصلاة الفضلى المتقنة التي أقيمت وأدبت على أحسن وجه.

{وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} أي خاشعين منصرفين بكل مشاعرهم. وقد روى احمد والشيخان عن زيد بن أرقم قال: «كنا يكلم الرجل منا صاحبه وهو الى جنبه في الصلاة، حتى نزلت الآية {وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

فإن أدرك وقت الصلاة في مكان فيه خوفٌ من عدوّ أو لص، وخفتم على أنفسكم أو أموالكم فلا تتركوا الصلاة، بل صلّوها كيفما تيسّر لكم، مشاة أو راكبين، فإذا زال الخوف عنكم فصلّوا الصلاة على أصولها، واذكروا الله كما علمكم على لسان نبيكم.

يذرون: يتركون. وصية: أي يوصون وصية.
وعلى الذين يتوفون منكم ويتركون زوجات لهم بعدهم، أو يوصون لمن ان يقمن في بيت الزوجية مدة عام كامل، لا يجوز لأحد ان يخرجهن منه في ذلك العام. . . عليهم ان يوصوا لمن بشيء من المال في تلك المدة.
فإن خرجن من تلقاء أنفسهن قبل ذلك فلا اثم عليكم ايها الاولياء أن تتركوهن يتصرفن في أنفسهن بما لا ينكره الشرع، والله عزيز غلب على أمره. يعاقب من خالفه، وحكيم يراعي في احكامه مصالح العباد.
وللنساء اللاتي يطلّقن بعد الدخول حق في ان يعطين ما يمتنع به من المال، جبراً لخاطرهن، يدفع إليهن بالحنسى على قدر حال الزوج. والخالصة المطلقات أربعة أصناف.

- (١) مطلقة مدخول بها وقد فرض لها مهر، وهذه لها كل المهر المفروض.
 - (٢) مطلقة غير مدخول بها ولم يسم لها مهر، وهذه يجب لها المتعة بحسب حال الزوج، ولا عدة لها.
 - (٣) مطلقة مفروض لها مهر وغير مدخول بها. ولها نصف المهر المسمى، ولا عدة لها.
 - (٤) مطلقة مدخول بها غير مفروض لها مهر. وهذه تأخذ مهر مثيلاتها من اسرتها وقربياتها.
- هكذا يبين الله لكم آياته بما فيها من التشريعات المحققة للمصلحة لتتدبروها وتعلموا بما فيها.
القراءات:
قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمة وحفص عن عاصم «وصية» بالنصب، وقرأ الباقون «وصية» بالرفع.

مر بنا كثير من القصص الأمم السابقة، اختارها سبحانه وتعالى لينبه الناس الى ما فيها من العبر. وقد وردت هذه القصص مجملة مختصرة مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود، وكانت العرب تلتقها أبا عن جد، ومثل قصص ابراهيم وأنبياء بني اسرائيل، والتي كانت مألوفة لأسماعهم لمخالطتهم اليهود في قورن كثيرة.

وهنا يقص علينا القرآن خبر قوم لم يسمهم ولم يرد فيهم خبر صحيح. وقد قال عدد من المفسرين ان هذا مثل ضرب به الله لا قصة واقعة. والمقصود منه تصحيح التصور عن الحياة والموت، وحقيقتهم الخافية، ورد الأمر فيهما الى قدرة الله، والمضي في حمل التكليف والواجبات.

روي عن ابن عباس ان الآية عني بها قوم كثيرو العدد خرجوا من ديارهم فراراً من الجهاد فأماهم الله، ثم أحياهم، وأمرهم ان يجاهدوا عدوهم. فكان الآية ذكرت ممهدة للأمر بالقتال بعدها في قوله تعالى {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} . وعلى هذا يكون معناها: ألم تعلم يا محمد هذه القصة العجيبة؟ وهي حالة القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الجهاد خشية الموت، ففضى الله عليهم بالموت والهوان من أعدائهم. حتى إذا استبسلت بقيتهم وقامت بالجهاد أحياء الله جماعتهم به.

والخالصة ان موت الأمة يكون بتسليط الأعداء عليها والتشكيل بها، جزاء تخاذلها وتفرقها كما هو حاصل للعرب اليوم. اما إحيائها فيكون بفعل جماعة مؤمنة من أبنائها تسترد قواها وتعيد لها ذلك المجد الضائع والشرف المسلوب. وهو أيضاً حاصل للعرب.

والأمر بالجهاد هنا يوضح أن الآية السابقة جاءت مثلاً للتذكير وتفهم الناس أن الجبن والبخل والخوف من مسببات ضعف الأمم وموتها. فإذا علمتم يا أيها الناس أن الفرار من الموت لا ينجي منه، فجاهدوا في سبيل الله، وابدلوا أنفسكم لإعلاء كلمته، واعلموا أن الله يسمع ما يقول المخلفون منكم وما يقول المجاهدون.

بما أن الجهاد يحتاج إلى المال، وقد أمر سبحانه في الآية السابقة بالجهاد فقد حث هنا على بذل المال فيما يُعين عليه. والله تعالى يقول: أن المال الذي ينفق في سبيل الله لا يذهب سدى، بل هو دين عند الله، يضمنه ويضاعفه أضعافاً كثيرة، في الدنيا مالا وبركة وسعادة، وفي الآخرة نعيماً مقيماً في جنات الخلد.

{والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ} هو الذي يعطي ويمنع، يضيق على من يشاء من عباده في الرزق، ويوسعه على آخرين. لذلك لا تبخلوا في الانفاق في سبيله بما وسع عليكم، واعلموا أن المنفق في هذا السبيل إنما يدافع عن نفسه، ويحفظ حقوقها. والاسلام دين التكافل الاجتماعي بحق، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} والحديث الشريف «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

{وَالِيهِ تُرْجَعُونَ} وعندها يوفي الله كل إنسان بحسب ما قدم من خير أو شر.

القرءات:

قرأ نافع والكسائي والبزي وأبو بكر «يبيصط» بالصاد، ومثلاً ذلك في سورة الأعراف في {وَزَادَ كُرًّا فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} .

الملا: القوم. كتب: فرض. اصفطاه: اختاره. السعة: الغنى. البسطة في الجسم: العظم والضحامة.

يبين لنا الله تعالى هنا في هذه القصة، كما في معظم الآيات المتعلقة باليهود، نفسية بني إسرائيل وتعنتهم. فبعد موسى اجتمع أهل الرأي فيهم إلى نبي لهم لم يسمه القرآن وطلبوا إليه أن ينصب عليهم ملكاً ليقاتلوا تحت رايته. فقال لهم نبيهم وقد أراد أن يستوثق من صدق عزيمتهم: الا ينتظر منكم أن تجنبوا عن القتال إذا فرض عليكم؟ فأنكروا أن يقع ذلك منهم قائلين: وكيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا وقد أخرجنا العدو من أوطاننا، وتركنا أهلنا وأولادنا! فلما أجاب الله رغبتهم وفرض عليهم القتال أعرضوا عنه وتخلّفوا، الا جماعة قليلة منهم.

وكان إعراضهم وتخلّفهم هذا ظلاً منهم لأنفسهم ونبيهم ودينهم، والله عليم بالظالمين.

وقال لهم نبيهم: ان الله استجاب لكم فاختار طالوت ملكاً عليكم. فاعترض كبرائهم على اختيار الله قائلين: كيف يكون طالوت ملكاً علينا ونحن أولى منه! انه ليس بذي نسب، فليس هو من سلالة الملوك ولا النبوة، وليس له مال. وهذا هو مقياس الأولوية عندهم. فردّ عليهم نبيهم قائلاً: ان الله اصطفاه من بينكم لأن فيه صفات ومزايا أهم من المال والنسب. وهي السعة في العلم، للتدبير وحسن القيادة، والخبرة بشؤون الحرب وسياسة الحكم، مع قوة الجسم. السلطان بيد الله يعطيه من يشاء من عباده ولا يعتمد على وراثته أو مال، والله واسع عليم.

التابوت: صندوق فيه التوراة. السكينة: ما تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب. يطعمه: يذوقه. الطاقة: أدنى درجات القوة. الفئة: الجماعة.

في هذه الآيات الكريمة بقية قصة النبي الاسرائيل الذي لم يُسمَّ مع قومه، فقد قال لهم: ان دليل صدقي على ان الله اختار طالوت ملكاً عليكم هو ان يأتيكم بالتابوت الذي سلب منكم تحمله الملائكة، وفي هذا التابوت بعض آثار آل موسى وآل هارون كالتوراة والعصا والألواح وأشياء أخرى توارثها علماءكم. وفي ذلك علامة على عناية الله بكم، ان كنتم مؤمنين.

فلما خرج طالوت من البلد يصحبه جنوده الكثيرون عطشوا، فقال لهم طالوت: ان الله مختبركم بنهر في طريقكم، فلا تشربوا منه بل اغرفوا بأيديكم قليلاً منه فقط، فمن شرب منه أكثر من غُرْفَةٍ فانه ليس من جيشنا، لخروجه عن طاعة الله فلم يصبروا على هذا الاختبار وشربوا إلا جماعة قليلة صبرت وأطاعت. فاصطحب طالوت هذه القلة الصابرة واجتاز بها النهر. فلما ظهرت لهم كثرة عدوهم قالوا: لن نستطيع اليوم ان نقاتل جالوت وجنوده، لكثرتهم وقتلتنا. فقال نفر منهم ثبَّتَ الله قلوبهم: لا تخافوا، كم من جماعة قليلة مؤمنة غلبت جماعة كثيرة كافرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد دعوا الله عندما برزوا للحرب أن يثبت أقدامهم، وينصرهم على أعدائهم الكافرين. فهزوا عدوهم بإذن الله تعالى. وكان في الجيش داود النبي فقتل جالوت قارئ الكفار، وأعطاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء.

تلك آيات الله نقصها عليك أيها الرسول الكريم بالحق والصدق لتكون لك أسوة ودليلاً على صدق رسالتك، ولتعلم أننا سننصر ك ما نصرنا من قبلك من المرسلين، كيما علم بأن الكثرة لا قيمة لها اذا لم تكن منظمة مؤمنة، وان الايمان بالله والعمل الصادق هما القوة الحقيقية.

القرءات:

قرأ ابن عامر والكوفيون: «غرفة» بالضم، الباقون: «غرفة» بالفتح.

٢٠١٣٠ 253

هؤلاء الرسل المشار اليهم بقوله: {وَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} فضّلنا بعضهم على بعض في مراتب الكمال، ومع انهم كلّهم رسل الله، وهم جديرون ان يقتدى بهم، ويهتدى بهديهم فقد امتاز بعضهم عن بعض بخصائص: في أنفسهم، وفي شرائعهم وأممهم. فمنهم من كلّهم الله مثل موسى، ومنهم من رفعه الله الى درجات الكمال والشرف مثل محمد، الذي اختص بعموم الرسالة، وكمال الشريعة وختم الرسالات. وآتيناه عيسى بن مريم البينات، وأمددناه بالمعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكف والأبرص، وأيدناه بروح القدس. وقد جاء هؤلاء الرسل بالهدى ودين الحق. وكان مقتضى هذا ان يؤمن الناس جميعاً، ولا يختلفوا ولا يقتتلوا. ولو شاء الله ما فعلوا، ولكن الله لم يشأ ذلك. لهذا اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر. والله يفعل ما يريد لحكمة قدرها.

٢٠١٣١ 254

خلة: صداقة ومودة.

يا أيها المؤمنون بالله واليوم الآخر، أنفقوا من بعض ما رزقكم الله في وجوه الخير، فهو الذي يخبركم يوم القيامة، يوم لا تستطيعون ادراك ما فاتكم في الدنيا، ولا بيع ولا شراء، يوم لا تنفع صداقة ولا شفاعة دون اذن الله، ولا يستطيع احد ان يفدي احداً. إن الكافرين هم الذين ظهر ظلمهم يومذاك، وسوف يندمون على ما علموا حيث لا تنفع الندامة.

٢٠١٣٢ 255

القيوم: الدائم القيام بتدبير خلقه. لا تأخذه: لا تستولي عليه. سنة: فتور يتقدم النوم، نعاس. الكرسي: إما العرش، أو العلم الإلهي. يثقله: يثقله.

في هذه الآية الكريمة التي اشتهرت باسم آية الكرسي تقرير أصول الدين في توحيد الله وتنزيهه حتى يستشعر العبد عظيم سلطانه، ووجوب طاعته، والوقوف عند حدوده. وقد جمعت هذه الآية أصول الصفات الالهية ايضاً، فهو واحد حيّ، قيوم لا يصيبه نعاس ولا نوم، له ما خفي من العالم وما بطن، مطلق التصرف لا يردُّ حكمه شفيح، عالم بخفيات الأمور لا يستطيع أحد ان يدرك شيئاً من علمه الا ما أراد ان يُعلم به من يرتضيه، وسع علمه كل شيء في السموات والأرض، ولا يشقّ عليه حفظهما وتديرهما، وهو العلي العظيم. وانها لآية تملأ القلب مهابة من الله وجلاله وكأله، حتى لا تدع موضعاً للغرور بالشفعاء. هي آية جليلة الشأن، عميقة الدلالة. وقد ورد في حديث أخرجه الإمام احمد عن أسماء بن يزيد «إنها أعظم آية في كتاب الله وانها مشتملة على اسم الله الأعظم».

٢٠١٣٣ 256

تبين: ظهر ووضح. الرشد: بالضم والرشد، والرشد: الهدى وكل خير. الغي: الجهل. الطاغوت: الشيطان، وكل ما يُعبد من دون الله. العروة، من الدلو أو الكوز، مقبضه. الوثقى: الوثيقة المتينة. . والمراد بها هنا الايمان بالال. الانفصام: الانقطاع، والانكسار. لا يكره احد على الدخول في الاسلام، فقد وضح طريق الحق والهدى من طريق الغي والضلال. فمن هداه الله لأن يدخل في الدين ويكفر بالأوثان وكل ما سوى الله، فقد استمسك بأمتن وسائل الحق، التي لا تنقطع، كما اعتصم بطاعة الله فلا يخشى خذلانه إياه عند حاجته اليه في الآخرة.

وهذه الآية من أكبر الحجج التي تبين عظمة الإسلام، فهي نص صريح على ان مبدأه هو حرية الاعتقاد. وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام ارادته ومشاعره. لقد ترك أمره لنفسه فيما يختص في الاعتقاد. وحرية الاعتقاد هي أو حقوق الانسان. ومع حرية الاعتقاد هذه تمتشى الدعوة للعقيدة. ان الإسلام هو الدين والوحيد الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، والذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه غيرهم على اعتناقه.

روى الطبري عن ابن عباس ان رجلاً من الأنصار يقال له الحصيني كان له ابنان نصرنيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبي: ألا أكرهما على الاسلام؟ فأَنزل الله تعالى هذه الآية.

اما الذين يقولون ان الاسلام قد انتشر بالسيف، فإنهم من المغرضين المفتريين على الله. ذل أن الجهاد في الإسلام انما فرض لرد الاعتداء وحماية العقيدة، لا ليكره أحداً على الإسلام.

٢٠١٣٤ 257

الله متولي شئون المؤمنين، يخرجهم من ظلمات الشك والجهل والحيرة المؤدية الى الكفر، الى نور الحق والاطمئنان وهو الإيمان. والكافرون أولياؤهم الشياطين ودعاة الشر والضلال، يخرجهم من امكانية تقبل نور الإيمان الى واقع ظلمات الكفر والضلال. انهم أهل النار هم فيها خالدون.

٢٠١٣٥ 258

حاج: جادل. بهت: انقطع وسكت متحيراً.

ألم ينته الى علمك يا محمد قصة ذلك الملك الجبار الذي ادعى الربوبية وجادل ابراهيم خليل الله، في الوهية ربه ووحدايته. لقد أبطره الملك فحمله على الاسراف والاعجاب بقدرته، حتى جادل ابراهيم، فعندما قال له ابراهيم: ان الله يحيي ويميت، وذلك ينفخ الروح في الجسم واخراجها منه قال الملك: أنا أيضاً أحيي وأميت، أعفو عن حكم عليه بالاعدام فأحييه، وأميت من شئت إماتته فأمر بقتله.

فقال ابراهيم ليقطع مجادلته: ان الله يُطلع الشمس من المشرق، فان كنت تستطيع ان تغير شيئاً من نظام هذا الكون فأطلع لنا الشمس من المغرب. عند ذاك بُهت الملك وانقطع، وسكت متحيراً. ومع هذا بقي على غيه وضلاله وقال: ان هذا انسان مجنون فأخرجوه، ألا ترونه قد اجتراً على آلهتكم؟ والله لا يهدي القوم الظالمين الى اتباع الحق.

القراءات:

قرأ حمزة «رب» بحذف الياء. وقرأ نافع «أنا» من غير ان يمد الألف.

٢٠١٣٦ 259

القرية: معروضة، وقد تطلق على البلد الكبير. وهنا لم يحدد مكانها، ولم يرد خبر صحيح عن مواضعها. خاوية على عروشها: خالية وساقطة على سقوفها. ويقال العروش هي الأبنية أيضاً. لم يتسنه: لم يتغير ولم يفسد ننشرها: نجعلها ترتفع، ثم نكسوها اللحم.

في هذه الآية الكريمة والتي بعدها يعرض علينا الله سبحانه وتعالى أسرار الحياة والموت. فالموتُ نتيجة حتمية لهذه الحياة، بل هو ظاهرة طبيعية مكلمة لصفات الكائن الحي. فكما نتصف الأحياء بالنمو والتكاثر والحركة نتصف أيضاً بالضعف والفناء.

وبين الآية السابقة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ} وهذه الآية عطف. فيقول: ألم تعلم بهذه القصة العجيبة، قصة ذلك الرجل الذي مر على قرية متهدمة سقطت سقوفها وهلك أهلها، فقال متعجبا: كيف يحيي الله أهل هذه القرية بعد موتهم! وكيف تعمر هذه القرية بعد خرابها! فأما الله مائة عام، ثم بعثه حتى يبين له سهولة البعث على الله. وبعد ذلك سُئل: كم المدة التي لبثها ميتاً؟ قال، وهو لا يعلم: قد مكثت يوماً أو بعض يوم. فقال له الله: بل مكثت مائة عام. ثم وجه نظره الى أمر آخر من دلائل قدرته فقال لهك انظر الى طعامك لم يفسد ولم يتغير، وكذلك شرابك. وانظر الى حمارك أيضاً كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله حتى تستيقن طول المدة الى مكثها وتؤمن بالإحياء بعد الموت. ولنجعلك آية ناطقة للناس بالبعث. انظر الى العظم نركبه ونجعله ينمو ثم نكسوه اللحم ثم ننفع فيه الروح فتتحرك.

لقد أطلعناك على بعض آياتنا الدالة على قدرتنا على البعث، لتعلم ان الله تعالى قادر على ان يعيد العمران للقرية ويعرها بالناس والحيوان. وأن ذلك القادر على الإحياء بعد مائة عام وهو قادر عليه بعد آلاف السنين. و {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} . فلما ظهر له إحياء الميت عياناً قال: إن الله على كل شيء قدير.

القراءات:

قرأ حمزة والكسائي «لم يتسن» بغير الهاء. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب «نشرها» بالراء المهملة من أنشر، وقرأ حمزة والكسائي: «اعلم» بصيغة الأمر.

٢٠١٣٧ 260

بلى: نعم. صرهن: اضمهن. سعيًا: مسرعات.

وهذه الآية تتعلق بالحياة والموت أيضاً.

واذكر يا محمد قصة ابراهيم يوم قال لربه: أرني يعني كيف يكون إحياء الموتي، فقال له تعالى: أَوَلَمْ تَوَّمْ بِأَنِّي قادر على إحياء الموتي؟ قال: بلى، علمت وصدقت، ولكن ليزداد إيماني ويطمئن قلبي. قال: خذ أربعة من الطير الحي فضمها اليك ثم جزهن بعد ذبحهن واجعل على كل جبل من الجبال المجاورة جزءاً، ثم نادهن فسيأتينك مسرعات وفيهن الحياة كما كانت، واعلم ان الله لا يعجز عن شيء وهو ذو حكمة بالغة في كل شيء.

وهذه الأمور من المعجزات التي لا تحدث الا على أيدي الأنبياء. ولو أننا أنعمنا النظر يومياً فيما حولنا لرأينا كثيراً من المعجزات في أنفسنا وفي نظام هذا الكون والحياة، لكننا ألفنا هذه الأشياء، وأصبحت عندنا أموراً عادية. ان كثيراً من المخترعات الحديثة لو أخبرنا

عنها أحد قبل مدة من الزمن لما صدقناه، مع أنها من صنع الانسان، فكيف بقدره الله جل وعلا! القراءات:

قرأ حمزة ويعقوب «فصرهن» بكسر الصاد، وهي لغة أيضاً. وقرأ أبو بكر «جزوا» بالواو.

٢٠١٣٨ 261

مر في الآيات المتقدمة الكلام على الحياة والموت والبعث، وان الانسان لا ينفعه بعد الموت الا ما قدّم من عمل صالح، وفي هذه الآيات وما يتلوها الى آخر السورة تقريباً يبين الله تعالى لنا قواعد النظام المالي والاقتصادي الاسلامي. مثل الذين ينفقون المال يبتغون به الله وحسن ثوابه كمثل من يزرع زرعاً طيباً فتنبت الحبة الواحدة منه سبع سنابل في كل سنبل منها مائة حبة. وهذا تصوير جميل لكثرة ما يعطيه الله من الأجر على الانفاق في الدنيا، والله يضاعف عطاءه لمن يشاء ويزيد. وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الانفاق. ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ. في الحديث القدسي «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف، الا الصوف فإنه لي وأنا أجزي به». وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والحاكم عن ابن مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة».

٢٠١٣٩ 262

المن: ان يعدّ فاعل الخير ما فعله لمن أحسن إليه كأن يقول أعطيتك كذا وكذا، وهو تكدير وتعيير. الأذى: ان يتناول عليه بسبب إنعامه عليه. قول معروف: كلام جميل. رثاء الناس: مراعاة لأجلهم. صفوان: حجر أملس. الوابل: المطر الشديد. صلد: أملس. في هذه الآيات يعلمنا الله آداب الصدقات، بأن تؤديها عن طيب نفس ودون ان نمنّ على الذين تصدق عليهم ولا تؤذيهم، وان الكلام اللطيف الرقيق خير من الصدق التي يتبعها أذى للمتصدق عليهم، فالله غني عن صدقة يأتي بعدها الأذى والمن والتأكيد. وقد حث القرآن الكريم على الصدقات والتصرف بالمال وانفاقه عن طيب نفس في آيات كثيرة، وذلك حتى يقوم المجتمع على أساس التكافل مع الأخوة والمحبة، فيضل مجتمعاً سليماً متكافلاً.

ان الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير المشروعة ولا يمتنون أو يتفاخرون على المحسن اليهم، ولا يؤذيهم بالكلام الجارح والتناول لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره، ولا خوف عليهم حيث الناس، ولا هم يحزنون يوم يحزن البخلاء المسكون. هذا، وكلام طيب ورد جميل على السائل تطيب به نفسه هو أنفع لكم وأعظم فائدة من صدقة فيها الأذى. والبشاشة في وجهه خير له من الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو المقابلة. ان الله غني عن صدقة عباده، فهو لا يأمرهم ببذل المال لحاجة منه اليه، ولكن ليظهرهم ويؤلف بين قلوبهم، ويصلح شئونهم الاجتماعية.

ثم أقبل تعالى يخاطب المؤمنين وينهاهم نهياً صارماً عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى: {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى} اي لا تضيعوا ثوب صدقاتكم باظهار فضلكم على المحتاجين اليها، فتكونوا كمن ينفقون أموالهم رياءً أمام الناس، بدافع الشهرة وحب الثناء. ان حال هؤلاء المرائين مثل حجر أملس عليه تراب، نزل عليهن مطر شديد، فأزال التراب وتركه صلباً لا خير فيه. وكما أن المطر الغزير يزيل التراب الذي ينبت فيه الزرع عن الحجر، فإن المن والأذى والرياء تبطل ثواب الصدقات. والله لا يهدي القوم الكافرين الى ما فيه خيرهم ورشادهم.

وفي هذا تعريض بأن الرثاء والمن والأذى على الانفاق هي من صفات الكفار، فعلى المؤمن ان يتجنب هذه الصفات.

٢٠١٤٠ 265

مرضاة الله: طلب رضوانهن. ثبتنا من أنفسهم: لتمكين أنفسهم من مراتب الايمان والاحسان. الربوة: المكان المرتفع من الارض. آتت ألكها: اثمرت واعطت انتاجها الجيد. بعد ان ذكر سبحانه حال الذين ينفقون أموالهم رياء ثم يمينون ويؤذون من أحسنوا اليهم ذكر في هذه الآية الكريمة حال المؤمنين الصاديقين الذين ينفقون أموالهم اتباعاً لرضوان الله تعالى، وتمكيناً لأنفسهم في مراتب الايمان. وقد جعلهم مثل بستان في أرض مرتفعة خصبة أصابه مطر جيد كثير فأعطى من الثمرات ضعفين، وحتى لو جاءه مطر خفيف فانه يكتفي بذلك المطر. وهكذا حال المؤمن الجواد المنفق، ان أصابه خير كثير تصدق وأنفق بسخاء عن طيب خاطر، وان أصابه خير قليل انفق بقدر ما يستطيع. . نفيده دائماً وبره لا ينقطع. القراءات:

قرأ ابن عامر وعاصم «بربوة» بفتح الراء كما هو هنا والباقون «بربوة» بضم الراء. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «ااكلها» بتسكين الكاف.

٢٠١٤١ 266

الجنة: البستان: الربوة: المرتفع من الارض. الاعصار: ريح شديدة عاصفة دوامة. أيجب احد منكم ان يكون له بستان فيه نخل واعناب، تجري بين أشجاره الأنهار فتسقيها، وقد أثمر من كل الثمرات الطيبة، والرجل عجوز أو هنته الشيخوخة وعنده أبناء صغار لا يقدر على الكسب! وفي حين يرجو الرجل ان ينتفع من ارضه هذه اذا باعصار فيه نار يحرقها عن آخرها! اذ ذاك يبقى هو وأولاده حيارى لا يدرون ما يفعلون. كذلك شأن من ينفق ويتصدق ثم يتبع الصدقة بالمن والأذى. انه يبطل ثوابه. وهو يأتي يوم القيامة وهو اشد حاجة الى ثواب ما بذل، لكنه يجد امامه اعصار الرياء والمن والأذى قد احرق صدقاته وجعلها هباء منثورا. بثل هذه الأمثال الواضحة بين الله لكم اسرار شرائعه وفوائدها لتتفكروا فيها وتعتبروا بها.

٢٠١٤٢ 267

لا تيمموا: لا تقصدوا. تغمضوا: تتساهلوا. تبين لنا هذه الآية الكريمة نوع المال الذي تنصدق به وطريقة الصدقة. يا أيها المؤمنون، اذا تصدقتم فأنفقوا من جيد أموالكم: من كسبكم، ومن أحسن الثمرات لتي تخرجها لكم أرضكم. إياكم ان تقصدوا الخبيث الرديء من أموالكم فتنفقوا منه. فلو قدم إليكم لرفضتموه، الا أن تغمضوا فيه. . اي تتسامحوا وتتساهلوا بقبوله. واعلموا ان الله غني عن انفاقكم فلا يصله منه شيء، وانما يأمركم به لمنفعتكم، وهو مستحق لكل حمد، يتقبل الطيبات ويجزي عليها بالحسن. وقد روي في نزول هذه الآيات عدة روايات. منها ما وراه ابن ابي حاتم عن البراء قال: نزلت فينا. كنا اصحاب نخل فكان الرجل منا يأتي من نخله بالقنو، فيعلقه في المسجد. كان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم اذا جاع ف ضرب بعصاه، سقط البسر والتمر فياً كل. وكان اناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص، (نوع من رديء التمر) فيعلقه. فنزلت الآية. . فكان بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده.

٢٠١٤٣ 268

الفحشاء: كل المعاصي. وهنا المراد بها البخل. المغفرة: الصفحة عن الذنب. الفضل: الرزق. الشيطان يخوفكم من الفقر ويغريكم بالبخل ويحاول ان يصرفكم عن صالح الاعمال، حتى لا تنفقوا أموالكم في وجوه الخير، بل في المعاصي. والله سبحانه وتعالى يضمن لكم على الانفاق في سبيله مغفرة وعفواً عن ذنوبكم في الآخرة، وخلفاً من الجاه، وسمعة حسنة

بين الناس، ومالاً أزيد مما انفقتكم، في الدنيا. فأياً تتبعون! إن الله واسع الرحمة والفضل، يحقق ما وعدهم به، وعليم بما تنفقون فلا يضيع أجركم عنده.

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، الا ومكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً» .

وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي انه قال: «ما نقصت صدقةً من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ الا عزاً، وما تواضع أحد لله الا رفعه» .

٢٠١٤٤ 269

الحكمة: معرفة الأشياء، واصابة الحق بالعلم والعمل. وتطلق الحكمة على العدل والنبوة، والعلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها.

ان الله يعطي من أراد من عباده قدرة على معرفة الأشياء واصابة الحق في القوة والعمل، ومن أعطي هذه الحكمة فقد فاز بغنى الدارين ونال خيراً كثيراً، لأن الإنسان اذا ذاك يفعل الخير فينتظم له أمر الدنيا والآخرة. {وما يذكر الا أولو الأبواب} ولا يتعظ بالعلم ويتأثر به الا ذوو العقول السليمة والنفوس الطاهرة التي تدرك الحقائق وتستخرج منها ما هو نافع في هذه الحياة.

القراءات: قرأ يعقوب «ومن توت الحكمة» بكسر التاء اي ومن يؤته الله الحكمة.

٢٠١٤٥ 270

النذر: التزام طاعة يتقرب بها العبد الى الله.

الكلام هنا عام في جميع أنواع النفقات وأعمال الخير، والنذور، ومعناه: ان أي نفقة من طرفكم في الخير أو الشر، ما أوجبتم على أنفسكم من النذور تقرباً الى الله يعلمه الله، ويجازي عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ونحن نقول:

أما من كانت نفقته وصدقته رياء للناس، ونذوره للشيطان فان الله يجازيه بالذي أوعده من العذاب، ما للظالمين من اعوان ينصرونهم يوم القيامة.

والنذر فيما حرمه الله لا يجوز، فمن نذر فعل معصية حرم عليه عملها. . فلقد اخرج النسائي عن عمران بن الحصين عن رسول الله انه قال: «النذر نذران: فما كان من نذر في طاعة الله تعالى فذلك لله وفيه الوفاء، وما كان من نذر في معصية الله تعالى فذلك للشيطان ولا وفاء فيه، ويكفره ما كفر اليمين» .

٢٠١٤٦ 271

ان تظهروا صدقاتكم خالية من الرياء والتصنع فأنعم بهذا العمل وأكرم به، ذلك ان اظهارها يشجع الناس على ان يقتدوا بكم فتكونون أسوة حسنة. وهو عمل طيب يرضى عنه ربكم.

وان اعطيتموها خفية وسراً حتى لا تُخرجوا الفقراء، وخوفاً من تدخل الرياء، فان ذاك افضل لكم، وبه تنقص ذنوبكم يوم القيامة. وقد قال اكثر العلماء بأفضلية السر على العلانية في صدقة التطوع، أما الزكاة المفروضة فالأفضل ان يعطيها علناً لأنها من شعائر الدين، وهذه يجب اظهارها حتى يقتدى بها الناس. والله تعالى يغفر لكم من خطاياكم وذنوبكم بسبب اخلاصكم في صدقاتكم، والله خير بما تفعلون في صدقاتكم من الاسرار والإعلان.

القراءات:

قرأ ابن عامر وحمة والكسائي «فنعم» بتفتح النون وكسر العين، وقرأ أبو بكر وابو عمرو وقالون «فنعم» بكسر النون وسكون العين.

الهدى: الرشا، ضد الضلال. الخير: المال. ابتغاء وجه الله: في طلب رضاه. أحصروا في سبيل الله: حبسوا أنفسهم فوقفوها في سبيل الله. لا يستطيعون ضرباً في الأرض: يعجزون عن التكسب في التجارة أو العمل. التعفف: منع النفس مما تريد من الشهوات. السيماء: العلامة. إلخافاً: إلخافاً.

ليس عليك يا محمد هدى المشركين الى الإسلام حتى تمنعهم صدقة التطوع، ولا تعطهم منها الا اذا دخلوا فيه. ما انت الا بشير ونذير. ان عليك الارشاد والحث على الفضائل، والله يهدي من يشاء من خلقه الى الإسلام فيوفقهم. ان أمر الناس مفوض الى ربهم لا اليك، فلا تمنعهم الصدقة.

اخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس قال: «كان النبي يأمرنا ان لا نتصدق الا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية». .
ويا أيها المسلمون: ان جميع ما تنفقونه من خير وتبذلونه من معونة لغيركم، مهما كان دينه، لكنم أنتم فائدته في الدنيا والآخرة. هذا اذا كنتم لا تقصدون بالانفاق الا ارضاء الله لا لأجل جاه او مكانة، وفي تلك الحال يعود اليكم ثوابه كاملاً دون نقصان.
ويكون هذا الانفاق للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد، فشغلهم ذلك عن الكسب من أي عمل، أو لمن أصيب منهم بجراح اقعدته عن السعي في الأرض، المتعفين عن السؤال حتى ان الجاهل بحالهم ليحسبهم أغنياء من شدة تعففهم. ولأمثال هؤلاء علامة لا يعرفهم بها الا المؤمن الذي يتحرى في انفاقه عمن يستحقون ذلك. والله عليم بما تبذلونه من معروف، وسيجزىكم الله عليه الجزاء الأوفى.
قيل نزلت هذه الآية في أهل الصفة، وكانوا اربعمائة رجل وقفوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله.

وسؤال اناس من غير حاجة محرم، وقد وردت عدة أحاديث في النهي عنه. ففي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ان رسول الله قال: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمر والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» وروى ابو داود والترمذي عن عبد الله ابن عمر عن النبي انه قال: «لا تحل الصدقة لغني ولذي مِرّة سوي» والمرّة: القوة.
القراءات:

قرأ ابن عامر وعاصم وحمة «يحسبهم» بفتح السين والباقون «يحسبهم» بكسرها.

بعد أن رغب سبحانه وتعالى في الإنفاق وبين فوائده بين في هذه الآية فضيلة الانفاق في جميع الاوقات والاحوال، وختمها بنص عام يشمل كل طرق الانفاق وجميع أوقاته، وبحكم عام يشمل كل منفق لوجه الله: ان الذين يتصدقون باموالهم على الفقراء في جميع الأزمنة وسائر الأحوال، وتجدد أنفسهم بالبذل في السر والعلانية لهم ثوابهم عند ربهم في خزائن فضله، ولا خوف عليهم حين يخاف الذين يحبسون المال بخلاً عن المحتاجين، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من صالح العمل الذي يرجون به ثواب الله.

وبعد، فان الاسلام لا يقيم حياة أهله على الصدقة، بل على تيسير العمل والرزق لكل قادر أولاً، وعلى حسن توزيع الثروة بين أهله على أساس التوفيق بين الجهد والجزاء ثانياً.

لكن هنالك حالات تختلف لأسباب استثنائية، وهي التي يعالجها بالصدقة. وقد رغب الاسلام في الصدقة وحض عليها كثيراً. مرة في صورة فريضة، وهي الزكاة، ومرة في صورة تطوع غير محدود هو الصدقة.

يأكلون: يأخذون. الربا: الزيادة يتخطب: يصصره ويضربه. المس: الجنون. يحق: ينقص. يربي. يزيد. ما سلف: ما تقدم.

يعتمد الاسلام في بناء المجتمع مبادئ قيمة، أهمها في الجانب المادي من من الحياة مطابقة كل فرد من أفراد المجتمع بالعمل الذي يكفل له حاجته. لقد أشعر الأغنياء ان حق الانتفاع بهذا المال مشترك بينهم وبين اخوانهم الفقراء. كما أوجب مد يد المعونة الى الفقراء والمساكين والمحتاجين، إما بالبذل والعطاء أو بتهيئة العمل. كذلك أوجب على ذوي المال ان يدفعوا الى اولياء الأمر ما يمكنهم من اقامة المصالح التي تحقق الخير للمجتمع.

على هذه الأسس التي تقتضيها الأخوة والتعاون، وتبادل الشعور بين الافراد، امتلأ القرآن بآيات الحث على الانفاق للفقراء والمساكين وفي سبيل الله وفي هذا الوضع الذي انتهجه الاسلام في بناء المجتمع، كان من غير المعقول ان يبيح للغني من أهله ان يستقل بمتعة ماله دون ان يمد يده على المحتاج من اخوانه والمواطنين في دولته.

واذا كان من غير المعقول في الاسلام ان يباح للغني ان يقبض يده عن معونة أخيه الفقير، فمن غير المعقول أشد ان يباح له استغلال أخيه وأخذ ماله بالربا وشد الخناق. لذلك عمد الإسلام إلى الإصلاح بتحريم الربا تحريماً قاطعاً.

وقد جاء الاسلام في وقت فرغت قلوب الناس فيه من معاني الرحمة والتعاون، كانوا يأكل قوتهم ضعيفهم، ويستغل غنيهم فقيرهم فأفرغ جهده في القضاء على منابع الشر، وازالة الحواجز التي قطعت ما بين الناس من صلات التراحم والتعاون، وأخذ يبني المجتمع بناءً واحداً متماسك الأطراف. وكان أول ما اتخذ من ذلك إيجاباً الحث على التعاون والتراحم. ثم كان تحذيره الشديد فيما يخص الناحية السلبية، فحرم الربا والرشوة، بعد ان حرم الشح والظن يحق الفقير والمساكين.

وربما الجاهلية الذي كان عليه الناس نوعان الأول: ربا النسيئة، وهو أن يقرض الرجل أخاه من المال لزم من محدود على ان يدفعه له مع زيادة معينة. وقد نص القرآن على تحريمه، وجعل التعامل به من الكبائر. والنوع الثاني: ربا الفضل، وهو ان يبيع الرجل نوعاً من السلعة بمثلها مع زيادة احد العوضين على الآخر، كأن يبيع قطاراً من القمح بقطار ورع أو نصف.

وهذا ايضا من الربا المنصوص على تحريمه في الحديث الشريف لقوله ﷺ «ولا تبيعوا الذهب بالذهب، والورق بالورق، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح الا سواء بسواء، عينا بعين، يداً بيد» وقد اتفق الفقهاء على تحريمه، وأباحوا الزيادة اذا اختلف الجنس. وقد حرموا التأجيل في هذا الأصناف، واختلفوا في قياس غيرها عليها اختلافاً كبيراً.

وتحريم الربا الذي جاء في القرآن الكريم، تنظيم اقتصادي عظيم، وهو يتفق مع قياس ما قرره الفلاسفة في الماضي وما انتهت اليه النظم الاقتصادية الحديثة. فأرسطو يقرر ان الكسب بالفائدة نظام غير طبيعي، فالنقد لا يلد النقد.

والاقتصاديون يقررون أن يطرق الكسب أربع: ثلاث منها منتجة والرابعة غير منتجة. فالثلاث المنتجة: العمل ويتبعه الصناعة، والزراعة، والمخاطرة في التجارة. . لأنها في نقل الأشياء من مكان انتاجها الى مكان استهلاكها تتعرض لمخاطر، وتزيد قيمتها بهذا الانتقال. وذلك في ذاته انتقال. وذلك في ذاته انتاج. أما الرابعة فهي الفائدة أو الربا، وهذه المخاطرة فيها، لأن القرض لا يتعرض للخسارة، بل له الكسب دائماً؛ ولأنه لا انتاج الا لعمل المقترض، فالفائدة نتيجة لذلك، هذا كما ان اباحة الكسب بالفائدة تؤدي الى تحكم رؤوس الأموال في العمل. وهذا غير سليم.

وتذكر الآية ان الذين يتعاملون بالربا لا يقومون يوم القيامة من قبورهم كبقية الناس وانما كالجنون الذي اصابه مس من الشيطان فهو يتخبط بفعل الصرع. ولماذا؟ لأنهم ستحلوا أكل الربا وقالوا لا فرق بين البيع والربا، فكما يجوز بيع السلعة التي ثمنها عشرة دراهم نقداً بعشرين درهماً بأجل، يجوز أن يعطي الانسان أحد المحتاجين عشرة دراهم على أن يردها بعد أجل، والسبب في كل من الزياتين واحد هو الأجل. تلك حجتهم. وهم واهمون فيما قالوا، وقياسهم فاسد. فالله أحل الأرباح في الشراء البيع وحرم الربا. ذلك ان البيع ملاحظ فيه دائماً انتفاع المشتري بالسلعة انتفاعاً حقيقاً، اما الربا فهو اعطاء الدراهم ثم أخذها بدون مخاطرة ولا تعب، كما ان الكسب فيها مضمون دائماً بخلاف التجارة والعمل.

{فَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ} .

أي: فمن بلغه تحريم الله الربا فتركه فوراً، فله ما كان قد أخذه من الربا فيما تقدم لا يكلف برده إلى من دفعوه، وإنما عليه ألا يأخذ ربا بعد ذلك. . ان أمره موكول إلى الله يحكم فيه بعدله وعفوه. ما من عاد إلى أكل الربا بعد تحريره فأولئك الذين لم يتعظوا بموعظة من ربهم، فهم أصحاب النار هم فيها خالدون.

ان الله تعالى يذهب الربا ويهلك المال الذي يدخل فيه، لكنه يضاعف ثواب الصدقات ويبارك في المال الذي خرجت منه الصدقة. والله لا يحب لك من تمادى في إنكار ما أنعم الله به عليه من المال، كأن لا يتفق منه في سبيله، ولا يواسي المحتاجين من عباده. والأثم: هو المنهمك في ارتكاب الذنوب والمحرمات، فهو قد جعل ماله آلة لجذب ما في أيدي الناس إلى يده فاستغل إعسارهم وأخذ أقواتهم وامتنص دماءهم.

٢٠١٥٠ 277

من أسلوب القرآن الحكيم ان يأتي بآيات فيها صور متقابلة في كثير من المواضع، فهنا بعد ان بين شناعة الربا وسيئاته، وبعد الآيات التي حثت على الصدقات والعطاء بدون مقابل عاد وأورد هذه الآية المباركة. وفيها يعرض صفحة الإيمان والعمل الصالح، وصفات المؤمنين الصالحين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ليبشرهم ان ثوابهم مدخر عند ربهم يوم الجزاء، لا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم في الدنيا.

٢٠١٥١ 278

ذروا: اتركوا. ذو عسرة: معسر لا يستطيع دفع ما عليه. ميسرة: يسر. هنا عاد التشديد في الربا والحث على تركه وعدم التعامل به، ومحاربة من يتعاطاه وكأنه يحارب الله ورسوله. يا أيها المؤمنون، خافوا الله واستشعروا هيئته في قلوبكم وارتكوا ما بقي لكم من الربا عند الناس ان كنتم مؤمنين حقاً. فإن لم تفعلوا فكونوا على يقين من أنكم في حرب مع الله ورسوله، اذا خرجتم عن شريعته ونبذتم ما جاء به رسوله. وحرب الله هي غضبه. وحرب رسوله هي مقاومته له في زمنه. هذا واعتبارهم خارجين من الاسلام يحل قتالهم فيما بعد. وان تبتم توبة صحيحة فلكم رؤوس أموالكم، دون زيادة مهما كانت، لأن الزيادة التي تأخذونها ظلم لغيركم، كما ان ترك جزء من رؤوس الأموال ظلم لكم. وهذا معنى قوله تعالى {لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} . وان وجد رجل مدين لكم، لكنه لا يجد ما يسد به دينه فأملهوه إلى حين اليسار، كيما يسد ذلك الدين. اما تصدُّكم على المعسر المدين بمساحته من جميع الدين أو بعضه فهو خير لكم، وأكثر ثواباً عند الله.

هذه هي النظرة الكاملة، والسماح للمدين المعسر، وفيها فوائد كثيرة. فهي تجعل الناس مترابطين متعاطفين، وتضامنهم أقوى وأمتن. هذا ما يرشدكم إليه ربكم فاعملوا وفق ما تعلمون، وسامحوا إخوانكم. بذلك تبون مجتمعاً مثالياً لا مثيل له. وقد ختم سبحانه وتعالى الآية الربا بآية بالغة الموعظة، اذا وعاه المؤمنون وعملوا بها هونت عليهم السماح بالمال والنفس وكل ما يملك المرء في هذه الدنيا.

قراءات:

قرأ عاصم «تصدقوا» بتخفيف الصاد، الباقون «تصدقوا» بالتشديد.

وقرأ حمزة وعاصم في رواية ابن عباس «فأذنوا بحرب» بالمد.

وقرأ نافع وحمزة «ميسرة» بضم السين.

واحدروات أيها الناس يوماً ترجعون فيه الى الله، فتلقون ربكم، وليس لكم الا ما قدمتم من أعمال الخير. ذاك يومٌ ثواب ومحاسبة، فيه توفى كل نفس أجرها على ما قدمت من سيء أو صالح. وفيه لا يُظلم الناس ولا يُنقصون من ثوابهم شيئاً. فإذا تذكركم أيها المؤمنون ذلك اليوم، وفكرتم فيما أعد الله لعباده من الجزاء على قدر أعمالهم خفف ذلك من غلوائهم ومال بكم الى نشدان الحق والخير. قال كثير من العلماء ان هذه آخر آية نزلت على النبي ﷺ من القرآن وعاش بعدها تسع ليال كما روى الطبري عن ابن عباس. قراءات قرأ أبو عمرو ويعقوب: «ترجعون» بفتح التاء.

أجل مسمى: موعد محدد. وليلال: الاملال والاملاء واحد، أملّ وأملّ بمعنى واحد. لا يبخص: لا ينقص. السفيه: ضعيف الرأي. الضعيف: الصبي الصغير، أو الشيخ الهرم. شاهدين: شاهدين. لا تسأموا: لا تلهوا وتضجروا أقسط: أعدل. رهان: جمع رهن. يا أيها الذين آمنوا اذا د ابن بعضكم بعضاً بدين مؤجل الى وقت معلوم فيجب عليكم ان تكتبوه حفظاً للحقوق، وتفاديا للنزاع. وعلى الكاتب ان يكون عادلاً في كتابته، ولا يجوز له ان يمتنع عن الكتابة كما علمه الله. اذن لقد شرط الله في الكاتب العدالة، كما شرط فيه ان يكون عالماً بأحكام الفقه وكتابة الدين وعليه ان يكتب حسب اعتراف المدين. وعلى المدين ان يتقي الله ولا يُنقص من الدين شيئاً. فان كان المدين لا يقدر الأمور تقديراً حسناً، أو ضعيفاً لصغر سنه أو مرض شيخوخة، أو لا يستطيع الإملاء لخرس أو جهل بلغة الوثيقة فعلى من يتولى أموره (من وكيل أو قيم أو مترجم) ان يميل بالعدل بلا زيادة ولا نقصان. واشهدوا على ذلك الدين من رجالكم، فان لم تجدوا شاهدين، فاشهدوا رجلاً وامرأتين عدولاً، حتى اذا نسيت احدهما ذكرتها الاخرى. ولا يجوز الامتناع عن أداء الشهادة اذا ما طلب من اليهود. ولا تتكاسلوا عن كتابة الدين قليلاً كان أو كثيراً، ولا من ان تبيّنوا أجله المعين. . فالكتابة المستوفية الشروط أحفظ لحقوق الناس، وأحرى باقامة العدل بين المتعاملين منكم، وأعون على اقامة الشهادة. ان هذا أقرب الى درء الشكوك بينكم. اما في حال تجارة حاضرة تدار بين المتعاملين فلا حرج في ترك الكتابة، اذا لا يترتب عليه شيء من التنازع والتخاصم. وأشهدوا في التبايع في التجارة الحاضرة حسماً للنزاع. وتفادوا ان يلحق ضرر بكاتب أو شاهد، فذلك خروج على طاعة الله. واتقوا الله في جميع ما أمركم الله به ونهاكم عنه، فهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح حالكم في الدارين، وهو العليم بكل شيء. وإن كنتم مسافرين، ولم تجدوا من يحسن الكتابة فليكن ضمان الدين شيئاً من الرهن يأخذه الدائن من المدين. فان كان الدائن يأمن المدين فلم يأخذ منه رهناً لحسن ظنه به فليؤدّ الذي أوّتمن أمنائه ويؤكّد حسن ظن الدائن. واذا دُعيت الى الشهادة فلا تكتموها، ان ذلك إثم كبير، والله مطلع عليكم وهو خير الشاهدين.

هذه آية الدين قد قررت مبادئ الإثبات: الكتابة، وأن القضاء لا يكون بأقل من شاهدين عدلين أو رجل وامرأتين، وأنه يختص بالكتابة كاتب عدل، ووجوب الإشهاد على الكتابة، وأنه يستغنى عن ذلك اذا كانت المعاملات متبادلة في ساعتها غير مؤجلة، ووجوب الولاية على من لا يحسنون التصرف، وانه عند السفر يغني الرهن المقبوض عن الكتابة. قراءات:

قرأ حمزة «إن تضل» ان شرطية جازمة «فتذكر» وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «فتذكر» من اذكر الرباعي. وقرأ عاصم «تجارة» بالنصب والباقون بالرفع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «فرهن» جمع رهن.

جاءت هذا الآية متممة لقوله تعالى: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} لأن كل شيء له، وهو خالقه، فهو العليم به، له ما في السموات وما في الارض، وان تظاهروا أيها المؤمنون ما في قلوبكم او تكتموا عن الناس يجازمكم به الله يوم القيامة، فهو {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩] والمحول عليه في مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر.

روى الامام أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية {وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا النبي وقالوا: لقد كُلفنا من الاعمال ما نطيق كالصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت هذه الآية ولا نطيعها. فقال النبي: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» فألقى الله الإيمان في قلوبهم وأنزل {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} . . {الآية. فكانت الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين به. وصار الأمر الى ان قضى الله تعالى ان للنفس ما اكتسبت من «القول والعمل» .

وهذا هو نهج الاسلام الصحيح العادل.

{فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ} يغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب من يشاء، وهو تعالى على كل شيء قدير.

قراءات:

قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب {فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ} برفع يغفر ويعذب كما هو هنا: وجزمهما الباقون عطفاً على جواب الشرط.

غفرانك: نطلب مغفرتك، الا وسعها: الا طاقتها. كسبت واكتسبت: الفرق بينهما ان كسبت تستعمل في الخير، واكتسبت في الشر. إصرًا: حملاً ثقيلاً، وهي التكاليف الشاقة التي كانت تفرض على الأمم السابقة لكثرة عنادها وتشدها. مولانا: ما لكنا ومتولي أمورنا. بهاتين الآيتين الكريمتين تُختم هذه السورة الكبيرة التي هي أطول سورة في القرآن. هما تمثلان بذاتهما تلخيصاً وافياً لأعظم قطاعات السورة يصلح ختاماً لها متناسقاً مع موضوعتها وجوها وأهدافها.

فقد افتتح سبحانه هذه السورة العظيمة ببيان أن القرآن لا ريب فيه وانه هدى للمتقين، وبين صفات هؤلاء، وأصول الايمان التي أخذوها بها، ثم ذكر الكافرين والمنافقين، ثم أرشد الى كثير من الاحكام كما قدمنا في أول السورة. وهنا اختتم السورة بالشهادة للرسول وللمؤمنين، كما لقنهم من الدعاء ما يرضيه ويظهر نفوسهم من الأدناس. واخيرا وصلوا الى طريق السعادة، وفازوا بخير الدارين. . وهذا منتهى الكمال الانساني وغاية في ما تصبوا اليه نفوس البشر.

آمن الرسول بما جاء به الوحي من عند الله، وآمن معه المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسوله. ومن فضيلة هذا الدين ان المؤمنين به يحترمون جميع الأنبياء والرسل لا يفرقون بين أحد منهم، وهذه ميزة لهم على غيرهم من أهل الكتاب الذين يقولون: تؤمن ببعض ونكفر ببعض.

ويقول المسلمون: لقد بلغنا الرسول الكريم تنزيل الله المحكم، واستجبنا لما فيه وأطعنا أوامره، فاغفر لنا ربنا ذنوبنا، اليك وحدك المرجع والمآب. وقد من الله على المؤمنين حيث قال: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} ، اي لا يكلف عباده الا ما يطيقون، فضلا منه ورحمة؛ فلكل نفس ما كسبت من قول أو فعل، وعليها ضرر ما اكتسبت من شر.

ثم علم الله المؤمنين كلمات يدعوهم بها ترفع عنهم الحرج، وتخفف عنهم عبء الخطأ والنسيان فقال: قولوا ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا، ولا تشدد علينا فتكلفنا ما يشق علينا كما شددت على بني اسرائيل بسبب تعنتهم وظلمهم. ربنا لا تحملنا ما يشق علينا من الأحكام والتكاليف، واعف عنا بكرمك، واغفر لنا بفضلك، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، إنك انت مالكا ومتولي أمورنا فانصرنا يا ربنا على القوم الكافرين حتى تقوم بنشر دينك وإعلاء كلمتك.

وقد روى الطبراني في آخر هذه السورة عن ابن عباس ان رسول الله عند قراءة هذه الآية قال «ان الله تعالى يقول قد فعلت، أي عفوتُ عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على الكافرين، فأعطيتُ هذه الأمة خواتم سورة لم تعطها الأمم قبلها» فإذا اتخذ المسلمون العدة، وقاموا ببذل الوسع في استكمال الوسائل التي أرشد إليها المولى سبحانه، فإنه يستجيب دعوتهم وينصرهم على أعدائهم. فقلد ورد في الأثر ان هذه الأمة لا تغلب من قلة، لكنها قد تغلب لعدم قيام ولايتها بالحق، وغفلة شعوبها عن واجباتهم. نسأل الله تعالى ان يوفقنا الى العمل الصادق بكتابه وسنته وأن يجمع شملنا، ويوحد كلمتنا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

٣ آل عمران

٣٠١ 1

القيوم: القائم على كل شيء. الفرقان: القرآن، لانه يفرق بين الحق والباطل. ألف لام ميم: وردت هذه الأحرف في فاتح عدد من السور، وقد قدمنا الكلام عليها في أول سورة البقرة. والرأي المرجح أنها جاءت في أوائل السور لتنبية المخاطبين الى ما يلقي بعدها من حديث يستدعي العناية بفهمه.

روى الطبري في تفسيره ان الله ﷻ أخبر عباده ان الألوهية خاصة به دون ما سواه، وان العبادة لا تجوز الا له. وقد افتتح السورة بنفي الألوهية عن غيره احتجاجاً منه على طائفة من النصارى، قدمت على رسول الله من نجران. وكانوا ستين راجاً فيهم اربعة عشر رجلاً من اشرافهم، أميرهم العاقب، واسمه عبد المسيح، وهو صاحب مشورتهم الذي لا يصُدرون الا عن رأيه. وكان منهم أبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، أسقفهم وحرهم وإمامهم ولقد قدموا الى المدينة، فدخلوا مسجد الرسول حين صلى العصر. وحانت صلاتهم فقاموا يصلون في مسجد النبي، فقال لأصحابه دعوهم. فصلوا الى المشرق. فقام رؤسائهم وكلّموا رسول الله في شأن المسيح، وانهم هو الله، وابن الله، وثالث ثلاثة. فقال لهم النبي: أستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه؟ قالوا بلى. قال: أستم تعلمون ان ربنا حي لا يموت، وان عيسى عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون ان ربنا قيّم على كل شيء يكلّؤه ويحفظه ويرزقه. قالوا: بلى، قال: فله يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: أفستم تعلمون ان الله ﷻ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً الا ما علّم؟ قالوا: لا، قال: فان ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعملون ان ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب اشراب ولا يُحدث الحدث؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون ان عيسى حملته امرأة كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم الطعام، ويشرب الشراب، ويُحدث الحدث؟ قالوا: بلى، قال فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا ثم أبوا الا بجودا. فأنزل الله ﷻ {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم} الى بضع وثمانين آية كما سيأتي.

والمعنى ان الله واحد لا آلهة غيره، وكل ما في العالم من تنسيق وإبداع يشهد بذلك. وهو الحي الذي لا يموت، القائم بأمر هذا لعالم يدبره ويصرفه.

ولقد نزل الله عليك يا محمد القرآن مشتملاً على جميع أصول الشرائع السماوية في الكتب السابقة، ومصدقاً لها. وأنزل من قبله التوراة على موسى والانجيل على عيسى، لهداية الناس. فلما انحرفوا عنها أنزل الفرقان فارقاً بين الحق والباطل، ومبيناً الرشد من الغي. انه الكتاب الصادق الدائم. اما الذين كفروا بآيات الله الناطقة بتوحيده وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل، فقد كذبوا بالقرآن أولاً ثم بسائر الكتب تبعاً لذلك. فلهم عذاب شديد.

قراءات:

قرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي، «التوراة» بالإمالة في جميع القرآن. وقرأ نافع وحزمة بين اللفظين.

ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء منهما كان: صغيراً أو كبيراً، ظاهراً أو باطناً. وكيف يخفى عليّ يا محمد شيء وأنا علام الغيوب!!

وفي التعبير بعد الخفاء إشارة الى ان علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين.

والله هو الذي يصوركم فيجعلكم صوراً مختلفة في أرحام أمهاتكم. انه يجعل هذا ذكراً، وهذه أنثى، وهذا اسود وهذا أحمر. ولك ذلك يتم على أدق ما يكن، فمن المستحيل ان يكون هذا الخلق قد جاء من قبيل الاتفاق والصادفة. اما عيسى بن مريم فقد صورته الله في رحم أمه، ولو كان إلهاً لما كان ممن اشتملت عليهما رحم مخلوقة. ان الله هو المنفرد بالخلق والتصوير، العزيز الذي لا يُغلب على ما قضي به علمه، الحكيم الذي يوجد الأشياء على مقتضى الحكمة.

آيات محكمات: محكمة العبارة لا تقبل الصرف عن ظاهرها. أم الكتاب: أصله الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود. وأخر متشابهات: محتملات لعدة معان لا يتضح المقصود فيها الا بتدقيق النظر. زعج: عدول عن الحق. ابتغاء الفتنة: طلباً للفتنة. الراسخون في العلم: المتمكنون منه.

لقد أنزل الله عليك القرآن وجعل فيه آيات محكمات، محدّدة المعنى بينه المقاصد، هي الأصل واليها المرجع في الدين والفرائض والحدود. كما جعل فيه آيات متشابهات يدقُّ معناها على كثير من الناس وتشبهه على غير الراسخين في العلم. فأما الآيات المتشابهات فقد أنزلت بحكمته تعالى لتبعث العلماء على تدقيق النظر ودقة الفكر في الاجتهاد. لكن أهل الشك والذين في قلوبهم ميل عن الحق يتبعون ما تشابه من الآيات رغبة في اثاره الفتنة. • يؤولونها حسب أهوائهم، فيضلّون وراءهم خلقاً كثيراً.

ولا يعلم تأويل هذه الآيات المتشابهات الا الله والذين ثبتوا في العلم وتمكنوا منه، وهؤلاء يقولون: اننا نؤمن بالقرآن كاملاً، لا نفرق بين مُحكمة ومتشابهة. وما يعقل ذلك وبفقه حكمته الا ذوو البصائر المستنيرة، والقول الراجحة.

هذا وقد استفاد الحديث حول أن في القرآن محكماً ومشابهاً، وان العلماء أمام هذه المتشابهة فريقان: فريق السلف الذي يرى التفويض وعدم الخوض في معناه، وفريق الخلف الذي يرى التأويل وصرف اللفظ عن دلالة المعروفة الى معنى يتفق مع ما دل عليه المحكم. ويعتبرون من ذلك أمثال قوله تعالى «الرحمنُ على العرش استوى» «يد الله فوق أيديهم» «بل يده مبسوطتان» «والارض جميعاً قبضته» يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه» فيقولون ان معنى الاستواء هو الاستيلاء. واليد بمعنى القدرة. واليمين بمعنى القوة. وبسط اليد بمعنى كثرة المنح والعطاء، الى غير ذلك.

وهناك أقوال كثيرة اختلافات كبيرة في هذا الموضوع لا طائل منها ولا فائدة.

ويطلب اولئك العلماء الراسخون في العلم الى الله كان الله ان يحفظهم من الزعج بعد الهداية. ويهيم الثبات على الإيمان فيقولون: ربنا لا تجعل قلوبنا تنحرف عن الحق بعد ان هديتنا اليه، وهب لنا رحمتك إنك أنت كثير النعم والافصال.

وهذا تعليم من الله لنا ان نعرف حدودنا ونقف عندها، ونطلب منه تعالى دائماً ان يثبتنا على الإيمان فلا يتركنا عرضة للتقلب والنسيان. {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ. . .} وهذا من تنمة كلام الراسخين في العلم، وذلك لأ، هم لما طلبوا من الله تعالى ان يصونهم عن الزعج ويخلصهم بالهداية والرحمة، فكانهم قالوا: ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا بل ما يتعلق بالآخرة. فاننا نعلم يا إلها انك جامع الناس للجزاء يوم القيامة. فمن زاع قلبه بقي العذاب أبداً، ومن منحته الرحمة والهداية بقي في السعادة والكرامة أبداً.

وقود النار (فتح الواو) : الحطب وكل ما يُحرق فيها. الدأب: العادة.

بعد ان بين الله لنا الدين الحق وقرر التوحيد، ثم نوه بشأن القرآن الكريم وإيمان العلماء الراشخين بالحكم والمتشابه به من آيات شرع يذكر حال أهل الكفر والجحود ويبين أسباب غرورهم باموالهم وأولادهم، فقال ما تفسيره:

ان الذين كفروا وحدوا بنوة محمد ﷺ لن تجيهم أموالهم الوافرة، ولا أولادهم الكثيرون من عذاب الله يوم القيامة، بل سيكونون حطباً لنار جهنم. ذلك أنهم في تكذيبهم بمحمد وكفرهم بشريعته مثل آل فرعون مع موسى، ومثل من كان قبلهم من الأمم مع أنبيائهم، كذبوا بآيات الله، فنكل بهم وأهلكهم بسبب كفرهم، والله شديد العقاب.

قال يا محمد للكافرين عامة: ستُغلبون أيها الكافرون، وستُحشرون الى جهنم التي ستكون لكم فراشاً، وياله من فراش سوء! . وفي سنن أبي داود والبيهقي (في الدلائل) ان رسول الله لما رجع من وقعة بدر، جمع اليهود في سوق قينقاع وقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل ان يصيبكم الله بما أصاب قريشاً، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك ان قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال. إنك والله لو قاتلتنا لعرفت اننا نحن الناس وأنت لم تلق مثلاً. فأنزل الله تعالى هذه الآية {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا . . .} وقد صدق وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير، وفتح خيبر.

لقد كان لكم عبرة ظاهرة في طائفتين من المحاربين التقيا يوم بدر، إحداهما مؤمنة تحارب لإعلاء كلمة الله، والآخرى كافرة تحارب في سبيل الشيطان. فأيد الله المؤمنين ونصرهم. لقد جعل الكافرين يرونهم ضعف عددهم الحقيقي، وبذلك وقع الرعب في قلوبهم فانهزموا. أليس في هذا النصر عبرة لأصحاب البصائر الرشيدة والعقول السليمة!

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «سيغلبون ويحشرون» بالياء. وقرأ نافع «ترونها مثلهم» بالتاء.

الشهوات: مفردتها شهوة. وهي التي فسرهما الله في الآية بمعنى جميع ما يشتهي الانسان. الانعام: الابل والبقر والغنم. الخيل المسومة: الخيل الحسان المعدة للركوب والقتال:

فُطر الناس على حب التملك واشباع شهواتهم إلى الاستحواذ، كما في محال التمتع بالنساء وكثرة البنين وتركيم قناطير الذهب والفضة واقتناء الخيل الحسان، الانعام العائدة بالرجح، والعقار، والاراضي المفلوحة. . ولكن ذلك كله لا يقاس بشيء مما عند الله الذي أعدّه لعباده في الحياة الآخرة. فلا ينبغي للناس ان يجعلوا همهم في هذا المتاع العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لخير الثواب الآجل، والله عنده حسن المآب.

روى البخاري ومسلم عن بان عباس ان النبي ﷺ قال: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ان يكون لهما ثالث، لا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب» .

أُنْبِئْكُمْ: أخبركم. مطهرة: نظيفة خالية من الدنس. الرضوان: الرضا. القانتين: العابدين، المداومين على الطاعة والعبادة.

قل يا محمد للناس الذين زين لهم حب الشهوات التي أسلفنا: أيها الناس، هل أخبركم بخير من ذلكم وأفضل لكم؟ ان للذين اتقوا ربهم ثواباً عنده: هو جنات ظليلة تجري من تحتها الأنهار، وزوجات خلصهن الله من كل ما يعيب النساء في الدنيا، ورضاء من الله يتمتعون

في ظله بنعيم أكبر. ان الله هو البصير بعباده، الخبير بقراءة أنفسهم، ودخائل أحوالهم. فمن هم هؤلاء؟ إنهم الذين نثار قلوبهم بثمرات إيمانهم، فيقولون: ربنا إننا آمنّا استجابة لدعوتك، فاغفر لنا ذنوبنا بعفوك، وأبعد عنا عذاب النار. ثم بين أحسن ما امتازوا به من أوصافهم فقال:

الصابرين: على أداء الطاعات وترك المحرمات.
والصادقين: والصدق هو منتهى الكمال.

والقانتين: وهم الذي داوموا على العبادة والطاعة لله تعالى مع الخشوع والخضوع.

والمنفقين: اي الذين ينفقون المال في سبيل الله، عن طيب قلب وصدق نية. .

والمستغفرين بالأستحار: الذين يتجددون في آخر الليل، ساعة النوم، حين يشق على النفس القيام. وهو وقت عظيم تكون فيه النفوس صافية والقلوب فارغة عن مشاغل الدنيا.

قراءات:

قرأ عاصم في رواية أبي بكر «رضوان» بضم الراء في جميع القرآن ما عدا قوله تعالى {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ} في سورة المائدة فإنه قرأها بكسر الراء. والباقون قرأوها بكسر الراء.

٣٠٩ 18

القسط: العدل. الدين: مجموعة التكليف التي يدين بها العباد لله. الاسلام: الخضوع الاستسلام. حاجوك: جادلوك. الأميون: مشركو العرب.

بعد ان بين سبحانه وتعالى جزاء المتقين، وشرح أوصافهم التي استحقوا بها هذا الجزاء بين لنا هنا أصول الايمان، فقال: شهد الله بما نصبه من الأدلة وأوحاه من الآيات أنهم لا اله غيره، وانه قائم على شئون خلقه بالعدل، وشهدت بذلك ملائكته الاطهار وأهل العلم. انهو هو العزيز الذي لا يغلب أحد على أمره، والحكيم الذي شملت حكمته كل شيء.

ان الدين عند الله هوة الاسلام، فجمي المال والشرائع التي جاء بها الأنبياء أساسها التسليم الانقياد والخضوع. اما أهل الكتاب فقد اختلفوا في هذا الأمر من بعد هذا الامر من بعدما جاءهم اليقين على صحته. ولم يكن اختلافهم عن شبهة أو جهل، كلا بل من جرّاء التكبر وطلب الجاه والرياسة والمال. ومن يكفر بآيات الله الدالة على وجوب الاعتصام بالدين، ووحدته، وحرمة الاختلاف فيه فان الله ما أسرع ان يحاسبه على ذلك. فإن جادلوك يا محمد في هذا الدين بعد أن أقمت لهم الحجج فلا تجارهم، بل قل لهم: اني اخصلت عبادتي لله وحده، انا ومن اتبعني من المؤمنين. وقل لهؤلاء اليهود والنصارى والمشركين من العرب: أسلمتم مثل اسلامي بعد ان ظهرت لكم الدلائل؟ فان اسلموا فقد عرفوا طريق الهدى واتبعوه، وان أعرضوا فليس عليك الا ان تبغّهم رسالة الله، والله بصير بعباده لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وأعمالهم.

قراءات:

قرأ الكسائي «أن الدين عند الله الاسلام» بفتح ان والباقون بالكسر.

٣٠٩ 21

حبطت أعمالهم: بطلت. أصل البشارة: الخبر السار، وجاء استعمالها هنا على طريق التهكم والسخرية.

ان الذين يكفرون بدينك من يهود زمانك يا محمد، وكان اسلافهم يقتلون الأنبياء بغير حق، كما يقتلون الذين يأمرن بالعدل من الناس لن ينالوا خيراً أبداً، بل لك ان تبشّرهم بعذاب مؤلم في الدنيا والآخرة. هؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم وفسدت أعمالهم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا، فلأنهم لم ينالوا حمداً ولا ثناء من الناس، وأما في الآخرة فلأنهم فعلوا كل ما سبق من الشائعات. لذا فقد أعد لهم الله الخلود في النار، وما لهم من أحد يجنبهم بأس الله وعذابه.

قراءات:
قرأ حمزة: ويقَاتلون الذي يأْمرون بالقسط.

٣٠١١ 23

النصيب: الحظ. الكتاب: التوراة. يتولى: يعرض. يفترون: يكذبون. لا ريب فيه: لا شك فيه.
ألم تعلم يا محمد حال هؤلاء الذين أعطوا حظاً من التوراة كيف يُعرضون عن العمل بموجبه حين يُدعون إليه إذا لم يوافق أهواءهم! هذا دأب أرباب الديانات في طور انحلالها واضمحلالها.
«روى البخاري عن عبد الله بن عمر أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا: نضربهما ونضربهما. فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيه شيئاً. قال لهم عبد الله بن سلام وكان من علمائهم وقد أسلم: كذبتُم، فأْتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين. فلما جاءوا بها وجدوا فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي فرجما» فغضب جماعة من اليهود من ذلك، لأنهم يزعمون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات.
وقد دفعهم إلى ذلك غرورهم بأنفسهم وتكبرهم، حتى لقد صدقوا ما كانوا يفترون من الكذب على دينهم وما يحرفون من كتبهم. كيف سيكون حالهم إذا جمعناهم ليوم القيامة، وهوأت لا ريب فيه، حيث توفى كل نفس جزاء ما علمته من خير أو شر، وبالقسط المستقيم!! هناك العدل الكامل، ولا يظلم ربك أحداً.

٣٠١٢ 26

اللهم: يا الله. تنزع الملك: تخلع الملك.
قل يا أيها النبي ضارعاً إلى الله: يارب، أنت وحدك مالك كل شيء، تمنح من تشاء الحكم وتخلع ذلك عمن تشاء، وتهب العزة لمن تشاء من عبادك، وتضرب الذل والهوان على من تشاء. إن بقدرتك الخير كله تتصرف فيه وحدك كما تشاء، وأنت على كل شيء قدير.

٣٠١٣ 27

تولج: تدخل.
انكل تدخل بعض الليل في النهار فيقصر الليل من حيث يطول النهار، وتدخل بعض النهار في الليل فيطول الليل من حيث يقصر النهار. كل هذا بحكمتك في خلق الكون، فهل من ينكر بعد هذا أن تأتي النبوة والملك من تشاء! إن تصرفك بشئون الناس كمثل تصرفك في الليل والنهار.
وتُخرج الحي من الميت: كالعالم من الجاهل والمؤمن من الكافر، والنخلة من النواة، والإنسان من النطفة، والطائر من البيضة.
وتُخرج الميت من الحي: كالجاهل من العالم، والكافر من المؤمن، والنواة من النخلة، والبيضة من الطائر.
وترزق من تشاء بغير حساب: فهب عطاءك الواسع من تشاء، فلا رقيب يحاسبك.
ومن كان هذا شأنه لا يعجزه أن يمنح رسوله وأصفياه السيادة والسلطان كما وعدهم، إذا هم استقاموا على الطريقة المثلى، وساروا على الصراط المستقيم.
قراءات:
قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر «الميت» بسكون الياء.

٣٠١٤ 28

الأولياء: جمع ولي: النصير والصديق. تقاة: اتقاء وخوفاً.

في هذه الآية تحذير كبير من اتخاذ الكافرين أولياء، فالله سبحانه وتعالى نبّهنا في الآية السابقة أن نلتجىء إليه، وأفهمنا أن كل شيء بيده، وهنا يحذّرنا من أن نتخذ الكافرين اصدقاء وناصرين: فما دام الله وحده هو مالك الملك، يعزّ ويذل ويعطي ويمنع، فهل يجوز للمؤمنين أن يجعلوا لغير المؤمنين ولاية عليهم؟ ان في هذا خذلاناً للدّين واضعافاً للولاية الاسلامية، ومن يسلك هذا المسلك فإن الله يتخلى عنه. ولا يجوز للمؤمن ان يرضى بولاية الكافرين الا مضطراً، فيتقي أذاهم باظهار الولاء لهم.

وعلى المؤمنين ان يكونوا في الولاية الاسلامية، وهي ولاية الله، وليحذروا ان يخرجوا منها الى غير ولايته، فيتولى عقابهم بنفسه، كما هو حاصل اليوم، حيث ألقى طائفة من المسلمين بأنفسهم في احضان أعدائهم وأعداء الله في الشرق والغرب، فأذاقهم الله الذل ونصر عليهم اليهود. وهو سينصرهم لو رجعوا اليه، لا إلى مطامعهم، ووجدوا صفوفهم، وباعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله لا في سبيل الكراسي والمناصب.

٣٠١٥ 29

قل يا محمد للذين أمرتهم ان لا يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين: إن تخفوا ما في صدوركم من موالة الكفار فتُسرّوه، أو تبدوه بألسنتكم وأفعالكم فتظهروه يعلمه الله، فهو الذي يعلم جميع اما في السماوات وما في الارض. إياكم ان تُظهروا لهم موالة، فينالكم من عقوبة ربكم ما لا طاقة لكم به.

وفي هذه الآية بيان وايضاح لقوله تعالى: «ويحذركم الله نفسه» اي لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط، وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها. فلا تجسروا على عصيانه.

٣٠١٦ 30

الأمد: المدة الطويلة. رؤوف: رحيم أشد الرحمة.

واحدروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير أو الشر حاضراً أمامها، فتُسرّ بالأول وتتنى للثاني ان يكون بعيداً عنها حتى لا تراه، خوفاً من العقاب. ويحذركم الله عقابه اذا خرجتم من ولايته باقتراف الذنوب. كل هذا مع انه رؤوف بعباده واسع المغفرة لهم. ومن رأفته بالناس انه جعل الفطرة الانسانية ميالة بطبعها الى الخير، مبغضة لما يعرض لها من الشر، كما جعل أثر الشر في النفس قابلاً للمحو بالتوبة والعمل الصالح.

٣٠١٧ 31

ق يا محمد: ان كنتم صادقين في دعواكم أنكم تحبون الله وتريدون ان يحبكم الله، فاتبعوني فما أمركم به وأنهاكم عنه، لأن كل ذلك من عند الله. إن فعلتم ذلك أحبكم الله وأثابكم بالتجاوز عن خطاياكم، وهو كثير الغفران والرحمة لعباده.

لكن حب الله ليس دعوى باللسان ولا هياماً بالوجدان، بل هو اتباع لرسول الله وعمل بشريعة اله التي أتى بها نبيه الكريم. ان العمل هو الشاهد والأساس، أما القول وحده فلفظ يصرفه اللسان كيف شاء، وقد يخدع به الناس، لكنه لن يخدع به الله فقد وسع علمه كل شيء.

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية. فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأعماله» .

وروى انه لما نزل قوله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} . { قال عبد الله بن أبيّ، رأس المنافين: ان محمداً يجعل طاعته كطاعة الله تعالى، ويأمرنا ان نحبه كما أحب النصارى عيسى، فنزل قوله تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} أطيعوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا الرسول باتباع سنته والاهتداء بهديه.

فان أعرضوا عنك يا محمد ولم يجيبوا دعوتكم فهم كافرون بالله ورسوله، والله تعالى لا يحب الكافرين أمثالهم.

٣٠١٨ 33

اصطفى: اختار. الذرية: الأولاد. نذرت: أوجبت على نفسي. محرراً: مخصصاً لعبادة الله. أعيدها بك: أجيرها بك. الرجيم: المطرود من الخير. أنبتها نباتاً حسناً: ربها تربيةً صالحة. كفلهما زكريا: جعل زكريا كافلاً لها. المحراب: الغرفة، والمسجد، واشرف جهة في المسجد. أني لك هذا؟: من اين لك هذا.

بعد ان بين الله تعالى ان الدين الحق هو الإسلام، وان اختلاف أهل الكتاب فيه كان بغياً منهم، وان الفلاح منوط باتّباع الرسول الكريم وطاعته ذكر هنا بعض من اختارهم وجعل منهم الرسل الذين يبينون للناس طريق الله ومحبتة. لقد اختار الله هؤلاء وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوة والرسالة فيهم كما اصطفى محمداً لتبليغ رسالته.

فأول هؤلاء الصفوة المختارة آدم أبو البشر، اصطفاه ربه واجتباؤه. ثم جاء بعده نوح، أبو البشر الثاني. واصطفى ابراهيم وولديه. واختبار آل عمران ومنهم عيسى وأمه. ولقد اختارهم ذرية طيبة طاهرة، فهم يتوارثون الطهر والفضيلة والخير.

اذكر أيها النبي حال امرأة عمران حين ناجت ربها وهي حامل بنذر ما في بطنها لخدمة الله تعالى قائلة: يارب، إني نذرت ما في بطني خالصاً لخدمة بيتك، فاقبل من ذلك إنك أنت السميع لكل قول، العليم بكل حال. فلما وضعت بنتاً قالت معذرة تناجي ربها: إني قد ولدت أنثى، (وأنت اعلم بما ولدت) ، وليس الذكر الذي تمنيت ان أنذره سناً لبيتك كالأنثى التي وضعتها. ومع هذا فإني غير راجعة عما نويته من النذر. واذا كانت الأنثى غير جديرة بسدانة المعبد فتلكن من العابدات القانتات، إني أجيرها يا رب بحفظك ورعايتك من الشيطان الرجيم.

فتقبل الله مريم نذراً لأمرها، وأجاب دعاءها. وجعل زكريا كافلاً لها. فكان كلما دخل زكريا عليها محرابها فوجد عندها ألواناً من الطعام لم تكن توجد تلك الأيام قال لها: يا مريم من أين لك هذا والأيام جدد وقط؟ قالت: هو من عند الله الذي يرزق الناس جميعاً، ويرزق من يشاء من الناس بغير عدد ولا إحصاء. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. قراءات:

قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب: «والله اعلم بما وضعت» على انه كلامها.

٣٠١٩ 38

بكلمة من الله: عيسى بن مريم. سيداً: شريفاً في العلم العبادة.

حصروا: لا يأتي النساء، وهو يحبس نفسه عن كل ما ينافي الفضائل. عاقر: عقيم لا تلد. الآية: العلامة.

الا تكلم الناس: لا تستطيع الكلام. الرمز: الإشارة.

ولما رأى زكريا ما رآه من نعمة الله على مريم اتجه الى الله داعياً ان يهبه من فضله ولداً طيباً، ايماناً منه بأن الله تعالى يسمع دعاء الضارعين.

فاستجاب الله دعاءه ونادته الملائكة وهو قائم يتعبد في محرابه بأن الله يبشرك بولد اسمه يحيى، ويؤمن بعيسى عليه السلام الذي سيوجد بكلمة من الله فيكون وجوده معجزة.

ان يحيى سيكون سيداً شريفاً عابداً قانتاً، وحصوراً بعيداً عن كل الأدناس والشهوات، ونبياً من الصالحين. وكان يحيى ابن خالة عيسى. وعندما سمع زكريا هذه البشرى استبعد ان يكون له ولد وهو عجوز طاعن في السن وامرأته عقيم لا تلد، فردّ عليه الله بأنه متى شاء أمراً أوجد له سببه. فدعا زكريا ربه ان يجعل له علامة لتحقق هذه البشرية، فقال: علامة ذلك ان لا تقدر على كلام الناس ثلاثة أيام إلا

بالإشارة ومع ذلك تظل تستطيع ان تذكر الله وتسبحه أثناء تلك الايام الثلاثة.
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وخلف «فناداه الملائكة» بالإمالة والتكدير. وقرأ حمزة وابن عامر «ان الله» بكسر همزة إن. وقرأ حمزة والكسائي «إن الله يبشرك» بفتح الياء وضم الشين بدون تشديد.

٣٠٢٠ 42

اصطفاك وطهرتك واصطفاك: اصفاك الأولى من قبل أمك حين نذرت ما في بطنها. واطصفاك الثانية هداك وخصك بكرامات عظمى منه ولادة بي من غير أن يمسك رجل. اقتني: الزمي الطاعة مع الخضوع.
واذكر أيها النبي، اذ قالت الملائكة: يا مريم ان الله اختارك واختصك لتكوني أمّاً لنبي كريم، وطهرتك من كل دنس، وخصك بأومة عيسى وفضلك على نساء العالمين. لذلك أطيعي ربك واخضعي له وصلي دائماً مع الذين يعبدونه ويصلون له.
ان هذا الذي قصه القرآن عليك يا محمد هو من أنباء الغيب أوحى الله به اليك، مع انك لم تقرأ الأخبار السابقة، ولم تكن حاضراً في بني اسرائيل حين اجتمع كبرائهم وكل واحد منهم يريد ان يكفل مريم، حتى اقترحوا على ذلك، ولم تنازعهم وهم يختصمون في نيل هذا الشرف العظيم.

٣٠٢١ 45

المسيح: لقب لعيسى والكلمة معربة وعيسى ايضاً كلمة عبرانية. وجيها: شريفاً عالياً. المهد: فراش الصبي الصغير. الكهل: الرجل من الثلاثين الى الخمسين. الكتاب: الكتب المنزلة من عند الله، ويجوز ان يكون المراد به الكتابة.
الحكمة: اصابة الحق بالعلم والعمل.

التوراة: الكتاب الذي أنزل على موسى.

الإنجيل: معناه «البشرى أو البشارة» وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى.

واذكرا محمد حينما بشرت الملائكة مريم بولد صالح، اسمه المسيح عيسى بن مريم، خلقه الله بكلمة منه، على غير السنّة الجارية بين البشر في التوالد، بقوله «كن فيكون». وقد جعله الله ذا مكانة عالية فيه هذه الدنيا حيث أعطاه النبوة، وفي الآخرة حيث اعطاه علو المنزلة مع الصفوة المقربين الى الله من النبيين أولي العزم. وقد ميزه الله بخصائص منها أن كلم الناس وهو طفل في مهده، كما يكلمهم وهو رجل كامل الرجولة.

فلما سمعت مريم هذا الكلام قالت متعجبة: من أين يكون لي ولد ولم يمسي رجل! فأوحى الله اليها انه يخلق بقدرته مثل هذا الخلق العجيب، وانه اذا اراد شيئاً أوجده بقوله كن فيكون. وان الله سوف يعلم طفلها العلم الصحيح النافع، والتوراة التي انزل على موسى والانجيل الذي سيوجه اليه.

قراءات:

قرأ أهل المدينة وعاصم ويعقوب «يعلمه» بالياء والباقون «ونعلمه» بالنون.

الانجيل: كلمة يونانية وردت في القرآن الكريم، معناه «البشرى» وتطلق اليوم على كل من الأناجيل التي تترجم للمسيح في مجموعة «العهد الجديد» وهي اربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا.

والانجيل المتوازية هي الأناجيل الثلاثة (متى ومرقس ولوقا)، سُميت كذلك لتقاربها من بعضها أكثر من تقاربها مع الانجيل الرابع، انجيل يوحنا، الذي يختلف عنها في غايته. وتسمى مشكلة صلوات هذه الأناجيل الثلاثة ببعض «المشكلة المتوازية»، ومؤداها أن انجيلي متى ولوقا يوحيان عناصر غير موجودة في انجيل مرقس. وتتفق هذه الأناجيل الثلاثة في أنها تترجم للمسيح رغم وقوف

كل منها في ترجمته عند حد معين، وتوضيح مزية خاصة من مزاياه، مع بعض الاختلاف في بعض الحوادث والتواريخ. أما انجيل يوحنا فهو تأملاً لاهوتي في تعاليم المسيح مع الاحتفاظ بالإطار التاريخي الأساسي. وانجيل متى هو أول كتب العهد الجديد، يعزى الى متى تلميذ المسيح، وقد وصلنا في الثلث الثاني من القرن الأول للمسيح قبل سنة سبعين. وانجيل مرقس هو ثاني كتب العهد الجديد، وأصغر وأبسط الأناجيل الأربعة. وانجيل لوقا الكتاب الثالث من العهد الجديد، وقد دُون في أواخر القرن الأول. وهو الانجيل الوحيد الذي يتكلم عن ولادة المسيح كما يعرض لصلبه وبعثه، وفيه نصوص لم ترد في الأناجيل الأخرى. وانجيل يوحنا هو الكتاب الرابع في العهد الجديد، وضعه الرسول يوحنا، وهو يختلف عن الأناجيل الثلاثة المذكورة في مادته وتعاليمه. وقد أورد الدكتور محمد وصفي في كتابه: «المسيح والتثليث» أسماءاً لسبعة وثلاثين انجيلاً، منها انجيل برنابا، وهو مطبوع في مصر، وحديثاً في طبعة أنيقة في بيروت. وقد اقتنيته، وفيه نصوص كثيرة تخالف الأناجيل الأربعة مخالفة جوهرية. وفيه بشارة صريحة بسيدنا محمد ﷺ ولكن المسيحيين لا يعترفون به ويقولون إنه مزيف. وفي كتاب الدكتور محمد وصفي «المسيح والتثليث» نصوص صريحة في مخالفة الأناجيل الأربعة لبعضها البعض واضحة جداً، وكذلك هنا اختلاف بين طبعات الكاثوليك وطبعات البروتستانت. وقد قال (فاستس) في القرن الرابع وهو من علماء (ماني كيز): إن الانجيل المنسوب الى متى ليس من تصنيفه. وقال (اشلاير ماخر) في كتابه «الأبحاث عن انجيل لوقا»: ليس انجيل لوقا الا كتاباً مختلفة كتبت في أزمنة غير معينة على أيدي قوم مجهولين. وبعض الفرق المسيحية كالفرقة الموسونية والفرقة الابيونية وفرقة يوني تيرن اسقطت البابين الأول والثاني من انجيل لوقا، مع وجود الاختلاف الكبير بين كتابيهما وكتاب لوقا الحالي كذلك. وقال العلامة الألماني رويس: ان انجيل يوحنا مجرد رأي لأحد المسيحيين نَزَعَ فيه الى بيان رأيه الخاص فيما أُنْعِيَ به المسيح عليه السلام. ولقد أكد (استارولن) ان انجيل يوحنا ليس إلا كتاباً كتبه بعض الطلبة من مدرسة الاسكندرية. وقد استبعد مسيو (موريس فرن) في دائرة المعارف البريطانية، كون الأناجيل الثلاثة المعزوة الى متى ومرقس ولوقا من تصنيفهم، وحين وصل الى الكلام عن انجيل يوحنا قال: لا شك انه كتابٌ دخيل مزوّر أراد ان يوجد تناقضاً بين أقوال القديسين متى ويوحنا. . . ومن أراد الاستزادة فعليه ان يرجع الى كتاب الدكتور محمد وصفي «المسيح والتثليث» وكتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي. وكل هذه الأقوال والانتقادات من علماء المسيحية أنفسهم. ونحن نعتقد أن هذه الأناجيل كلها محرّفة، مؤلفوها مجهولون، وان الانجيل الصحيح الكامل منفقود كما جاء في القرآن الكريم.

٣٠٢٢ 49

الأكمة: الذي وُلِدَ أعمى. البرص: داء خبيث يحدث بياضاً في الجلد ويجعله يتقشر، ويسبب للمصاب به حكاً مؤلماً. لقد خلق الله عيسى ابن مريم على حال خاصة وبعثه رسولاً الى بني اسرائيل مستدلاً على صدق رسالته اليهم بمعجزات من الله قائلاً: لقد جئتكم بهذه المعجزات من عند الله، فأنا أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير ثم أنفخ فيها فتحيها طيوراً عادية بارادة الله، وأشفي الأعمى فيعود بصيراً، والأبرص فيبرأ من دائه، بل وأوحى الموتى، وكل ذلك بإذن الله وارادته. وأخبركم بما تدّخرون في بيوتكم من مأكول وغيره. ان كل هذه المعجزات إنما أظهرها الله على يديّ حجة قاطعة على صحة نبوّتي وصدق رسالتي إليكم لعلكم تؤمنون بي وتصدّقوني.

لقد جدّثكم مصداًقاً لشريعة توراة موسى لا ناسخاً لها ولا مخالفاً لشيء من أحكامها، لأخفف عنكم بعض الأحكام المشددة فيها، فأحل

لكم بعض الذي حُرِّم عليكم فيها. ومن واجبكُم ان تخشوا الله وتطيعوني، فهو ربي وربكم، فاعبدوه وأخلصوا له الطاعة. فليس ما أمرتكم به الا الطريق السوي الذي أجمع عليه الرسل كلهم قبلي، لأنه هو الموصلُ الى خير الدنيا والآخرة. من هذا يتبين ان عيسى عليه السلام نبي مرسل، لم يدَّع أنه إله او ابن الإله. قراءات:

قرأ أهل المدينة ونافع «فيكون طائراً باذن الله»، وقرأ نافع «اني اخلق» بكسر همزة ان.

٣٠٢٣ 52

أحسن: شعر وأدرك. الانصار: الاعوان المناصرون. الحواريون: مفردة حوارِيّ وهو صفي الانسان وناصره. المكر، من العبد: تدبير سيء خفي، ومن الله: إبطال تدابيرهم السيئة.

فلما شعر عيسى من قومه اليهود إصراراً على نكران رسالته وتكذيباً لمعجزاته وصدوفاً رغم كل ما قدمه لهم من نصائح ومواعظ قال لأتباعه وتلاميذه: من الذين ينصرونني باتباعي، وينصرفون الى تأييد الله ودينه وروسله؟ فقال خاصة أصحابه: نحن أنصار دين الله ومحبه، لقد آمنا بك وبرسالتك من عنده، فاشهد علينا أيها الرسول أننا مؤمنون بدعوتك، منقادون لربك، مخلصون في عبادتنا له. وقد طلبوا شهادة عيسى لهم لأن الرسل يشهدون لأمرهم يوم القيامة، ثم تضرعوا الى الله بقولهم: ربنا، آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكثبنا مع الشاهدين لرسولك بالتبليغ، وعلى بني اسرائيل بالكفر والجحود. أما الذين أعرضوا عن عيسى من قومه فقد طفقوا يكيدون ليه ويمكرون في تلفيق شيء يحاربون به دعوته، لكن الله أبطل كيدهم فلم ينجحوا، والله أحكم المدبرين وأقواهم.

٣٠٢٤ 55

واذكر أيها النبي اذ قال الله: يا عيسى، اني متسوف أجلك، لن أدع أحدا يقتلك، ثم ارفعك الى محل كرامتي، فتنجوا من أعدائك. اما الذين ابتعوك ولم يخرفوا عن دينك فسأجعلهم أقوى من الذين لم يهتدوا بهديك الى يوم القيامة. واخيراً ترجعون إليّ جميعاً يوم القيامة فأقضي بينكم في الذي تنازعتم فيه من أمر الدين، وأدازي كلاً بما يستحق. أما الذين كذبوك فأعذبهم عذاب الخزي والنكال بتسليط الأمم عليها في الدنيا، وبنقمتي عليهم في الآخرة. ولن يجدوا من ينصرهم من عذابي الأليم في ذلك اليوم.

وأما الذين قبلوا رسالتك وهتدوا بهدي الله، حين أقروا بنبوتك وما جئتهم به من الحق فسأوفيههم أجرهم كاملاً غير منقوص. هذه أخبار مريم وعيسى وبني اسرائيل والحواريين التي نود ان نقرؤها إياك يا محمد باعتبارها بعض القرآن الحكيم الذي يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم، فيهدي المؤمنين الى اتباع ربهم. وأنت ترى أن فيها حجة بالغة على من حاجك من وفد نجران، ويهود بني اسرائيل. قراءات:

قرأ حفص ورويس «فيوفيههم» بالياء كما هو هنا. والباقون «فنفويههم» بالنون.

٣٠٢٥ 59

المثل: الحال الغريبة. الامتراء: الشك. الابتال: الملاءنة، ثم شاع استعماله في الدعاء. «روي في سبب نزول هذه الآية ان وفد نجران وعلى رأسهم السيد العاقب قالوا لرسول الله ﷺ: مالك تشتم صاحبنا؟ قال: ما أقول؟ قالوا: هل رأيت إنساناً من غير أب، ان كنت صادقاً فأرنا مثله. فأنزل الله تعالى {ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم} اي إن شأنه

في خلق الله اياه على غير مثال سابق كشأن آدم، فقد خلقه من تراب من غير أم ولا أب. بل ان خلق آدم أغرب وأعجب. ذلك ان الله قادر على صنع المعجزات اليت لا تدركها عقولنا، فهو اذا اراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون.

هذا هو الحق من ربك يا محمد في خلق عيسى، لا ما اعتقده النصارى من انه إله، ولا ما زعمه اليهود من انه ابن يوسف النجار. دعهم في ضلالهم، واثبت على يقينك ولا تكن من الشاكين. وإذا جادلوك اليهود في شأن عيسى بعد هذا التنزيل فقل لهم: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم ندعوا ان يصب الله لعنته على الكاذبين.

وقد روي أن النجرانيين لما دُعوا الى المباحلة قالوا لسيدهم العاقب: ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته، وها قد جاءكم بالفصل في أمر عيسى. والله ما باهل قوم نبياً الا هلكوا، فإن أبيتم أن تبقوا على دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا.

فأتوا رسول الله محتضناً حفيده الحسين، والحسن وفاطمة وعلي يشمرون خلفه وهو يقول لهم: إذا انا دعوت فأمنوا فلا رآهم كبير النصارى قال لقومه: إني لأرى وجوهاً لو سألو الله تعالى ان يزيل جبلاً لأزاله، فلا تباهلوا قهلكوا» .

«وفي صحيح البخاري ومسلم ان العاقب والسيد أتيا رسول الله فأراد ان يلاعنهما. فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح أبداً، فقالا له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلاً أميناً، فقال: قم يا أبا عبيدة، أنت أمين هذه الأمة» .

وفي هذا التحدي ما يدل على قوة يقين صاحبه ويقتنه بما يقول، اما امتناع نصارى نجران عن المباحلة فدليل على شكهم في موقفهم وكونهم على غير بينة فيما يعتقدون.

٣٠٢٦ 62

القصص: الحديث، الخبر والبيان. تولوا: أعرضوا.

ان ما نقصه عليك ايها النبي الكريم هو الخبر اليقين فلا تلتفت الى ما يفتريه اليهود على عيسى وأمه، ولا الى ما يزعمه النصارى من تأليه وبنوة، فالحق الذي لامرية فيه انه ليس هناك إله غير الله، وانه تعالى هو ذو العزة الذي لا يغالبه فيها أحد، والحكمة التي لا يساويه فيها أحد حتى يكون شريكاً له في ألوهيته، أو ندّاً في ربوبيته.

فإن أعرضوا عن الحق الذي تعرضه عليهم، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التي جثتها، فهم مفسدون، والله أعلم بحال هؤلاء، ولسوف يجازيهم على سيئات أعمالهم.

٣٠٢٧ 64

أهل الكتاب: اليهود والنصارى. كلمة سواء: كلمة عدل وإنصاف.

بعد ان بين الله تعالى لنا حقيقة الأمر في قضية عيسى وكيف عرضها محمد في دعوته الى التوحيد والإسلام، وكيف عاند أهل الكتاب تلك الدعوة حتى اضطر النبي الى دعوتهم الى المباحلة، نخافوا وأجموا عنها طلب من رسوله الكريم ان يدعوهم هنا الى أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعاً. فقل يا محمد: يا أهل الكتاب، تعالوا الى كلمة عادلة اتفقت عليها الرسل والكتب التي أنزلت من عند الله، وهي ان لا نعبد الا الله ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دونه، ولا نطيع أحداً غيره في تحليل أو تحريم. فإن أعرضوا عن هذه الدعوة، وأبوا إلا ان يعبدوا غير الله، فقولوا لهم ايها المسلمون: اشهدوا باننا متقادون لأحكام الله، ولا نعبد أحداً سواه.

«روي عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن. وسمعت يقرأ من سورة براءة: {اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله} . فقلت له: يا رسول الله، لم يكونوا يعبدونهم، قال: «أما كانوا يحللون ويحرمون، فتأخذون بأقوالهم؟» «قلت: نعم فقال: «هو ذاك» يعني أن هذا التحريم والتحليل يجعلهم بمثابة الأرباب.

روى الطبري عن ابن عباس قال: «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: بل نصرانياً. فأنزل الله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ} . . {الآية. يا أهل الكتاب، لما تنازعون وتجادلون في دين إبراهيم، كلُّ منكم يدعي أن إبراهيم كان على دينه هو؟ إن إبراهيم له شريعة خاصة، وهو سابق في الوجود على التوراة والانجيل، فكيف يكون على شريعة واحدة منهما! أليست لكم عقول تدركون بها بطلان هذا الكلام الذي يناقض الواقع!!

ها أنتم جادلتم في أمر موسى وعيسى الذي لكم بهما معرفة كما تزعمون فكيف تجادلون في أمر إبراهيم، ولا ذكر لدينه وشريعته في كتبكم؟ من اين علمتم انه كان يهودياً أو نصرانياً؟ إن الله يعلم حقيقة ما تنازعتم فيه، اما انتم فلا تعلمون من هذا شيئاً.

إن إبراهيم اتفق اليهود والنصارى والمشركون على تعظيمه لم يكن على ملة أحد منهم: بل كان مائلاً عن ذلك، مسلماً لله مخلصاً له، وما كان من المشركون.

أما أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته فهم الذين أجابوا دعوته في زمنه فوحدوا الله مخلصين، والنبي محمد والذين آمنوا معه، أهل التوحيد الخالص، وهو دين إبراهيم، والله ناصر المؤمني بالتأييد والتوفيق.

ود الشيء: أحبه. طائفة: جماعة.

أحبت طائفة من الأحبار والرؤساء أن يوقعوكم في الضلال بإلقاء الشبهات التي تشكك في دينكم، وتردكم إلى ما كنتم عليه من الكفر، وهم الخاسرون من عملهم هذا بإصرارهم على الضلال. لكنهم لا يشعرون بسوء حالهم، ولا يدركون أن عاقبة سعيهم هذا لاحقة بهم. وقد نزلت هذه الآية عندما حاول بعض أحبار اليهود أن يدعوا حذيفة وعمارة ومعاذ ابن جبل إلى اليهودية.

تلبسون: تخلطون.

يا أهل الكتاب، لماذا تكفرون بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على صدق نبوة محمد وأنتم في قرارة نفوسكم تشهدون بأنها حق! ولماذا تخلطون الحق الذي جاء به النبيون من عند الله والبشارة بنبي من بني اسماعيل بالباطل الذي لفقته أحباركم ورؤساؤكم؟ لماذا تكتمون شأن محمد وهو مكتوب عندكم في التوراة والانجيل وأنتم تعلمون أنكم تفعلون ذلك عناداً وحسداً!

وجه النهار: أوله. الفضل: الزيادة.

وقالت جماعة من أهل الكتاب لآخوانهم: يا هؤلاء، آمنوا بالذي أنزل على محمد، في الصباح واكفروا آخر النهار. بذلك قد تستطيعون أن تفتنوا أصحابه فيرجعوا عن دينهم.

روى ابن عباس أن جماعة من اليهود قالوا بضعمهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوةً ونكفر به عشيةً حتى نلبس عليهم دينهم، فقد يقلدونا في ذلك، فيرجعون عن دينهم. فأنزل الله هذه الآيات.

وقد حذر الله نبيه من مكر هؤلاء، وأطلعه على سرهم حتى لا تؤثر هذه الحيلة في قلوب ضعفاء المؤمنين.

وقالوا أيضاً {وَلَا تَوْنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينُكُمْ} ، أي لا تدعوا إلا لمن كان من أهل دينكم يهوديا، خشية أن يدعي أحد أنه أوتي مثل ما عندكم أو يحتج عليكم عند ربكم، فقل لهم يا محمد: ان الهدى يأتي من عند الله يختاره لمن يشاء، وكذلك الفضل من عنده يمن به على من يشاء من عباده، فليس الهدى مقصورا على شعب بعينه ولا فرد بذاته. ان فضل الله واسع ورحمته عامة، لا كما يزعم اليهود بأنهم شعب الله المختار.

٣٠٣٣ 75

القنطار: مائة رطل والمراد هنا العدد الكثير. الأميون: غير اليهود، وهنا العرب. ليس علينا في الأميين سبيل: لا مؤاخذه علينا مهما اغتصبنا من حقوقهم.

بعد أن بين الله سلوك أهل الكتاب في الاعتقاد، بين لنا هنا سلوكهم في المال المعاملات، فقال: ان منهم طائفة تشاكس المسلمين وتكيد لهم ليرجعوا عن دينهم، وأخرى تستحل أكل أموالهم. وهي تزعم ان توارثهم لم تنههم الا عن خيانة بني اسرائيل وحدهم. لكن ليس عاماً، فمنهم أفراد كعبد الله ابن سلام، استودعه قرشي الفأ ومائتي أوقية من الذهب فأداها اليه. ومع هذا فان اغلب اليهود يستحلون مال كل من لم يكن يهودياً. ينطلقون في ذلك من زعم أن غيرهم من العرب محتقر، فلا حقوق لهم، وليس على اليهود ذنب في أي إجرام يأتونه ضدهم. وهذه حال إسرائيل في الوقت الحاضر. ومعها النصارى المتهودون في أمريكا، وعملاؤهم من الحكام في دول أخرى.

روى ابن جرير في التفسير، قال: «بائع اليهود رجال من المسلمين في الجاهلية، فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بضاعتهم، فقالوا: ليس لكم علينا أمانة، ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم غيرتم دينكم الذي كنتم عليه. وادّعوا أنه وجدوا ذلك في كتابهم» .

وروى عن سعيد بن جبیر ان النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «كذب أعداء الله: ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فانها مؤداة الى البر والفاجر» .

ويقولون على الله الكذب متعمدين في ذلك، لأن ما جاء من عند الله فهو في كتابهم التوراة، وهي بين أيديهم، وليس فيها خيانة غير اليهود ولا أكل أموالهم بالباطل. بل إن في كتابهم «عليكم في الأميين سبيل» ، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات. ومن أدى حق غيره في وقته وخاف فلم ينقص ولم يماطل، فانه يكون من الذي أحبهم الله مع المتقين.

والقرآن لا يظلم اليهود بهذا القول، فإن التلمود عند مقدس أكثر من التوراة، وفيه جاءت هذه النصوص.

يقول الدكتور روهلنج في كتابه «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ترجمة الدكتور يوسف نصر الله: «لم يكتف اليهود بما جاء في توراتهم من تعاليم خبيثة تبيح الغدر والمكر وسفك الدماء، فأخذ الرّبون والحاخامات يفسرون التوراة حسب أهوائهم وبالشكل الذي يرضي غرائزهم الشريرة ونزوعهم الى عمل المنكرات واستعلاءهم على بقية أجناس البشر. . . الخ. . .»

ويقصد اليهود التلمود ويعتبرونه أهم من التوراة. وهم يرون أن من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت، وانه لا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة وحدها، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى.

وقد أورد الدكتور روهلنج في كتابه المذكور نخبه من تعاليم التلمود تفضح اليهود وتبين فساد عقيدتهم، ومنها ما معناه «) ليس علينا في الأميين سبيل «هذه.

ومن النصوص التي أوردها الدكتور روهلنج ما يأتي: «الاسرائيلي عند الله أرفع من الملائكة، فاذا ضرب أمي اسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية، ويستحق الموت. ولو لم يُخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودي وباقي الشعوب». وهذا ما يطبقه النصارى المتهودون في اوروبا وأمريكا في الوقت الحاضر. أما نصارى العرب فموطنون لنا، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

وهناك نصوص كثيرة تقشعر منها الأبدان، فمن أراد الزيادة فليرجع الى كتاب «الكنز المرصود» وأمثاله.

قراءات:

قرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو «يؤده» «و» لا يؤده «باسكان الهاء، وقرأ قالون باختلاس كسرة الهاء فيهما. وكذا روي عن حفص. وقرأ الباقون بإشباع الكسرة في الهاء.

٣٠٣٤ 77

يتوعد الله تعالى في هذه الآية الناكثين للعهد المخلفين للوعد، بالحرمان من النعيم، وبالعذاب الأليم، وبأنهم لن يسمعوا منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة.

فالذين يشترون بعد الله وبإيمانهم ثمناً قليلاً من عرض هذه الحياة الدنيا أو الدنيا كلها لن يكون لهم نصيب عند الله ولا قبول. بل سوف يُعرض عنهم يوم القيامة ولا يغفر لهم آثامهم، ولهم عذاب أليم. وهذا يشمل كل من خان الأمانة، أو نكث بالعهد، أو حلف على شيء وهو كاذب. ومن هذا القبيل من يتفق مع آخر على بيع سلعة، فيزيده انسان آخر في ثمنها فيبيعها للثاني وينقض اتفاقه مع الأول. وكذلك من يخطب فتاة، فيعاهده أبوها على تزويجها له نظير مهر مقدّر بينهما، فيأتي آخر بمهر أكثر فيزوجها له. ومثله من يحلف ببراءته من دين عليه. وقد قال النبي الكريم «من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله تعالى وهو عليه غضبان». روى ابن جرير ان هذه الآية نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحُيَّ بن أخطب، الذين حرّفوا التوراة وبدّلوا نعت رسول الله وحكم الأمانات وغيرها فيها وأخذوا على ذلك الرشوة.

٣٠٣٥ 106

بيضا الوجه: سرورها وفرحها. سواد الوجه: مساءتها وخزيها.

متى يكون ذلك العذاب العظيم للذين تفرقوا واختلفوا؟ سيكون ذلك يوم القيامة عندئذ تبيضُ بالسرور وجوه المؤمنين لما تعلم من حسن العاقبة، وتسودُ بالكآبة والحزن وجوه الكافرين، ويقال لهم: أكفرتُم بعد أن فطرتُم على الإيمان وجاءتكم البينات عليه! إذن ذوقوا العذاب الحق جزاء كفركم.

أما الذين ابيضت وجوههم سروراً فإنهم يدخلون الجنة التي أعدها الله لهم وجعلهم فيها خالدين.

٣٠٣٦ 108

تلك الآيات الواردة بجزاء المحسن ومجازاة المسيء انما هي من عند الله تتلوها عليك يا محمد مقررّة للحق والعدل. والله لا يريد ظلماً لأحد من الناس أجمعين، فهو مالك العباد والمتصرف في شؤونهم بحسب سنّته الحكيمة التي لا تتغير ولا تبدل، وإليه مصيرهم أجمعين. والظلم الوارد هنا والذي ينفيه تعالى عن نفسه هو ما ينافي مصلحة العباد من حاجتهم الى العدالة.

٣٠٣٧ 110

إنكم يا أمة محمد، اي مطبقي شريعته حقاً، أفضلُ أمة خلقها الله تعالى لنفع الناس، وستظلون كذلك ما دمتُم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله إيماناً صادقا. . يصدق هذا الوصف على الذين خوطبوا به أولاً، وهم النبي الكريم وأصحابه الذين آمنوا بالله حقاً، واعتصموا بحبل الله المتين، ونهوا عن المنكر وأمروا بالمعروف. وقد دام الحال كذلك على كل من جاء بعدهم وطبق تعاليم الإسلام. كما ظلت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الإسلام وبعد عنه، ففترقت وتمزقت وآلت أحوالها الى ما نراه اليوم. ولو صدق اليهود والنصارى في إيمانهم مثلكم لكان خيراً لهم مما هم عليه الآن، ومع هذا فمنهم المؤمنون المخلصون في عقائدهم وأعمالهم، كعبد الله بن سلام، ورهطه، وأكثرهم فاسقون خارجون عن دينهم وعن حدود الايمان وواجباته.

لن يضرّوكم الا أذى: أيّ ضرراً يسيراً. يولّوكم الأدبار: يهربوا منكم. تُثَقِّفُوا: أيّما وجودوا. وبأوؤا: رجعوا. لن يضرّكم هؤلاء الفاسقون بضرر كبير يلحقكم منهم، وانما هو أذى يسير لا يبقى له أثر، وإن يقاتلوكم ينهزموا فأرّين من لقائكم دون ان يظفروا بشيء، ثم إنهم لا يُنصرون عليكم أبداً ما داموا على فسقهم متمسكين بدينكم. ولقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه كتب عليم الذلة في أي مكان وجدوا فيه، إلا بعهد من الله وعهد من المسلمين. والعهد ما قرّره الشريعة اذا دخلوا في حكمها من المساواة في الحقوق والقضاء وتحريم الإيذاء. وهكذا كان حالهم مع المسلمين، فقد كان الرسول الكريم يحسن معاملتهم، وكذلك الخلفاء الراشدون. وكانوا يعيشون مع المسلمين في أحسن حال، ولا زالوا الى اليوم يعيشون متمتعين بكل الحقوق كما نشاهد ذلك في المغرب العربي وما بقي منهم في البلاد الشامية، والعراق وغيرها من بلاد الاسلام. لكنهم غدروا وكادوا. وهذه طبيعتهم. لذلك فإنهم قد استوجبا غضب الله، وأحاطب بهم المسكنة والصغار، فلقد كفروا بآيات الله الدالة على نبوة محمد، وكانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق. وهذا إخبار عن أسلافهم، لكنهم هم راضون عن ذلك الكفر والقتل بسبب عصيانهم وتمردهم واعتدائهم على حدود الله.

سواء: متساوٍ، يُستعمل للواحد والمثنى والجمع. قائمة: مستقيمة عادلة. آناء الليل: ساعات الليل. قال ابن عباس وقتادة وابن جرير: نزلت هذه الآيات لما أسلم عبد الله بن لاسلام وجماعة معه. فقالت احبار اليهود: ما آمن بمحمد الا شرارنا. ليس جميع أهل الكتاب متساوين في الأعمال القبيحة والكفر، بل ان فيهم جماعة قومية السيرة عادلة، آمنوا بمحمد، وهم يقرأون القرآن ساعات من الليل وهم ساجدون، كما يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، ويبادرون الى فعل الخيرات. لقد صلحت أحوالهم وحسنت أعمالهم، فرضيهم ربهم، ولن يحرمهم ثواب ما يفعلونه من خير، إنه عليم بالمتقين محيط بأحوالهم. وفي هذه الآيات ردٌّ على اليهود المتعنتين الذين قالوا لمن أسلم منهم: لقد خسرتكم بدخولكم في الاسلام، وفيها اشارة الى المؤمنين وتطمئن لهم أنهم فازوا بالسعادة العظيمة والدرجات العليا، كي يزول من صدورهم أثر كلام أولئك الطغاة المتمردين.

الصر: (بالكسر) البرد الشديد. ان الذين كفروا من أهل الكتاب، ومشركي مكة، وغيرهم من مثلهم في كل مكان وزمان لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً. ولن تنجيهم من عذاب النار يوم القيامة، فهم خالدون فيها. أما ما ينفقه هؤلاء الكافرون رياءً فهو مثل ريح جليدية قارصة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالانهماك في المعاصي، فأهلكته. لقد كانوا يظلمون أنفسهم بالكفر والتمرد والعناد، فجزاهم الله مغبة ظلمهم هذا، ولم يظلمهم.

بطانة الرجل: خاصته الذين يعلمونه باطن أمره، ويكشف لهم اسراره. لا يألونك خبالاً: لا يقصّرون في دفعكم الى الفساد. ودّوا ما عنتم: تمنّوا عنكم، شدة ضرركم. في هذه الآية وما بعدها تحذير للمؤمنين من مخالطة الكافرين حتى لا يطلّعوا على أسرارهم.

اسمعوا يا أيها الذين آمنوا: لا تتخذوا أصفياء لكم من غير أهل دينكم، تستعينون بهم، وتطلعونهم على أسراركم. إنهم لا يقصرون في مضرّكم وإفساد أموركم، بل يتمنون أن يصيبكم أشد الضرر في دينكم ودنياكم. ولقد ظهرت أمارات بغضهم لكم في فلتات ألسنتهم وتكذيب نبيكم وكذبكم، أما ما تضره قلوبهم من الحقد عليكم فهو أعظم من ذلك بكثير. ها نحن قد أظهرنا لكم العلامات الواضحة التي يميّز بها العدو من الصديق، فانتبهوا واحذروا.

٣٠٤٢ 119

الكتاب: المراد به هنا جميع الكتب المنزلة. عضوا عليكم الأنامل: كناية عن شدة الغيظ، والأنامل: أطراف الأصابع. ذات الصدور: الخواطر التي في نفس الإنسان.

وهذا تحذير من أولئك الأشرار، واتخاذهم أصفياء للمؤمنين.

ها أنتم أيها المؤمنون تحبون أولئك الكفار المنافقين لما لبعضكم معهم من قرابة أو صداقة أو مصلحة، وقد نهاكم الله عن اتخاذهم كذلك. انهم لا يكونكم لتعصّبهم لدينهم. (والسبب في ذلك أن كثيراً من الأنصار كان لهم قرابة أو نسب أو صداقة مع مواطنهم في المدينة، فلما أسلموا بقي أولئك على كفرهم وعنادهم وكيدهم للإسلام، وبقي المسلمون بطيبة قلوبهم وصفاء نيّتهم على حالهم السابقة معهم حتى نهاهم الله عن ذلك).

وإذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان وقالوا آمنا وصدّقنا بما جاء به محمد، أما حين يفارقونكم فإنهم يكشفون لبعض عن حقيقة أنفسهم ويبرزون شدة العداوة لكم، وقد يعضون أطراف أصابعهم غيظاً منكم. قل يا محمد: موتوا بغيكم. وهذا دعاء عليهم بازدياد الغيظ حتى يهلكوا. ان الله عليم بما تخفيه صدورهم من الحقد والحسد، فهم يحزنون إذا أصابكم خير من نصرٍ أو غنيمة، لكنه يفرحون إذا نزلت بكم مصيبة أو لحقكم أذى. ومع ما سبق فإنكم ان تصبروا على أذاهم، وتطبّقوا ما نهيتكم عنه من موالاتهم لن يضرّكم كيدهم شيئاً. ان الله هنا يدلّكم على ما يُجيّكم من شرور أعدائكم، فعليكم ان تمثّلوا وتطمئنّوا الى انه عالم بما يكيدونه لكم، فلا يعجزه ردّهم عنكم. فثقوا به أيها المسلمون وأطيعوه فيما أمركم وتوكلوا عليه.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب: «لَا يَضُرُّكُمْ» وفعله ضار يضير، وقرأ الباقر بتشديد الراء.

٣٠٤٣ 121

غدوت: خرجت مبكراً. تبيّء: تبيّء وتعيّن مراكز القتال للمسلمين. الفشل: الضعف والجبن.

وقعة أحد

من هذه الآيات الى ستين آية بعدها يعالج التنزيل وقعة أحد. ويتخلل ذلك تذكير المؤمنين كيف نصرهم الله يوم بدر، لأنهم اطاعوا الله ورسوله وكانوا يداً واحدة. اما معركة أحد فقد بدأت بالنصر للمؤمنين، وانتهت بالدائرة عليهم، لأنهم عصوا أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام. وكانت المعركة كارثة كادت تحو المسلمين لولا فضل من الله.

اذكريا محمد اذ خرجت مبكراً (صباح السبت، سابع شوال، سنة ثلاث للهجرة) تبيّء امكنة القتال للمؤمنين. يومذاك رتب الرسول الناس فجعل الرماة في موضع مرتفع (وهم خمسون رجلاً)، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وأفهمه وأصحابه ان يلزموا مراكزهم، وان لا يفارقوه أبداً مهما كانت نتيجة المعركة. كذلك رتب الفرسان في أماكنهم وعيّن لبقية المقاتلين مراكزهم. ودارت المعركة، وانهزم المشركون، فقال الرماة المسلمون: لقد انهزم المشركون. لذلك تركوا مراكزهم رغم أمر الرسول ألا يرحوها، وقالوا: الغنيمة الغنيمة. ولقد نبههم أميرهم الى خطأهم فلم يسمعوها وذهبوا في طلب الغنيمة. بذلك كشفوا ظهر المسلمين. وعندئذ جاء خالد بن الوليد، أمر

فرسان المشركين، وكرّ وعلى المسلمين من ورائهم وأعمل فيهم السيف. ورجع المشركون حين رأوا خالداً والفرسان قد احاطوا بالمسلمين، وانقلبت المعركة، وكثر القتل، واستشهد عدد من المسلمين وجرح النبي ﷺ. وكل ذلك بسبب مخالفة المسلمين لأوامر رسول الله. اذ همّت طائفتان من جيشك يا محمد ان تجبنا وترجعا (وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس) فقد تزعزعت نفوسهم عند ما رأوا عبد الله بن أبيّ، رئيس المنافقين، ينسحب بثلاثمائة رجل. لكن الله تولاّهما وثبتهما، وصرف الفشل عنهما. فعلى المؤمنين ان يأخذوا من هذا عبرة ويتوكلوا على الله، فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة اذا اطاعوا واثبتوا.

٣٠٤٤ 123

أذلة: جمع ذليل، وهو الضعيف المقهور. ان يمدكم: يرسل لكم مدداً. منزلين: من السماء. بلى: حرف جواب يأتي بعد النفي والاستفهام المقترن بالنفي. من فورهم هذا: من ساعتهم هذه. مسوّمين: مرسلين، أو معلّين. ليقطع طرفاً من الذين كفروا: يضعفهم بقتل رؤسائهم وصناديدهم. يكتبهم: يخزيهم. يوم بدر (ثانية).

جاء التنزيل بهذه الآيات ليذكّر المؤمنين أن الله نصرهم يوم بدر رغم كونهم قلة ضعفاء، لأنهم ثبتوا وصبروا، فاتقوا الله أيها المؤمنون، واعلموا انكم إن تصبروا ينصركم الله دائماً كما نصركم في ذلك اليوم العصيب.

ويقع ماء بدر على مسيرة مائة وعشرين ميلاً الى الجنوب الغربي من المدينة، وكان اللقاء فيها بين المسلمين وكفار قريش يوم الثلاثاء في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة. وكان عدد المسلمين ٣١٣ رجلاً معهم ثمانية سيوف فقط ويحمل الباقون منهم قوساً أو عصاً عزلاً. اما المشركون فكانوا نحو ألف مقاتل بكامل أسلحتهم وعددهم.

وقد أنجز الله وعده في هذه المعركة غير المتكافئة، فكان النصر للمؤمنين رغم قتلهم وندرة سلاحهم. وبفضل ذلك الانتصار صارت كلمة الايمان هي العليا. كانت بدر مقدمةً لانتصارات متلاحقة عَقَبَتْها حتى امتد ظل الاسلام على الجزيرة كلها.

ولقد نصركم الله ببدر حينما كنت يا محمد تقول للمؤمنين: ألن يكفيكم لتطمئن نفوسكم ان يُعينكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة يرسلهم من عنده مدداً لكم! بلى، ان تصبروا على لقاء العدو، وثقوا بالله، ويأتكم اعداؤكم على الفور يرفع ربكم عدد الملائكة الى خمسة آلاف. بذلك يعجل لكم النصر عليهم ويسهل عليكم أمرهم. كل هذا بشارة لكم بالغلبة عليهم، ولتسكن به قلوبكم، اذ ما النصر الا من عند الله، فهو الذي يدبر الأمور على خير السنن وأقوم الوسائل.

وقد نصركم الله يا محمد في ذلك اليوم ليهلك طائفة من الذين كفروا، (وقد تم فعلاً قتل عدد كبير من صناديد قريش وكبرائهم يوم بدر) أو بذلهم بالأسر والهزيمة والعار فيرجعوا خائبين. ليس لك أيها الرسول من التصرف في أمر العباد شيء، بل الأمر لله، يقضي فيهم ويحكم بما يشاء، فإما ان يتوب عليهم بالإيمان، أو يعذبهم بالقتل والخزي جزاء ظلمهم لأنفسهم وابتعادهم عن الهدى.

وقد دل قوله الله هذا دلالة لا تقبل التأويل أنه جلّت قدرته قد أمد المسلمين بالملائكة في بعض حروبهم. وقد دلت الروايات الكثيرة، واتفق المسلمون على أن الله أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين، واختلفوا في انزالهم يوم أحد، وليس من شك ان الله سبحانه أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين ولكن لا نعلم نوع هذا النصر: هل كان نصراً مادياً كالقتل، أو نصراً معنوياً كتخويف المشركين، وحصول الطمأنينة للمؤمنين؟ الله أعلم ولا يجب علينا البحث والتنقيب عن ذلك، على أنه إذا بحثنا فلن نصل الى يقين. قراءات:

قرأ ابن عامر «منزلين» بتشديد الزاي، والباقون «منزلين». وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب: «مسوّمين» بكسر الواو، والباقون بفتحها.

لله جميع ما في الكون الواسع يحكم فيهم بما يشاء ويقضي بما أحب، فيتوب على منت شاء من خلقه العاصين فيغفر له، ويعاقب من شاء على جرمه فينتقم منه، لكن الغفران والرحمة من صفاته الحسنى.

الربا: الزيادة، ومعناه هنا الفائدة التي تؤخذ على المال. اضعافا مضاعفة: زيادات متكررة. والسراء: الرخاء. الضراء: الشدة والضييق. الكاظمين الغيظ: الذين يضبطون أعصابهم فكيفون عن الانتقام. الفاحشة: الفعل القبيح الذي يتعدى أثره الى الغير، وظلم النفس هو الشر الذي يقتصر على الانسان وحده.

في هذه الآيات الكريمة ينهانا الله عن التعامل بالربا، كما كانت تفعل اليهود وأثرياء المشركين، فيقول: أيها المؤمنون، لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد ان هداكم الله، كما كنتم تفعلون في جاهليتكم. وكانت طريقة التعامل بالربا في الجاهلية، ان يكون للرجل مال على آخر الى أجل، فاذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه، فيقول المدين: أجل دينك وأزيدك عليه. فيفعلان ذلك. هذا هو الربا اضعافا مضاعفة، وهو الذي يسمى الآن الربا الفاحش أو الربا المرگب، ويسمى أيضاً ربا النسيئة.

وهناك نوع آخر من الربا هو ربا الفضل، وهو الذي ورد النهي عنه بالحديث الشريف: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل، ولا تبيعوا الورق بالورق الا مثل بمثل سواء بسواء، ولا تشفوا بعضه الى بعض، اني اخشى عليكم الرماء، يعني الرباء» ومعنى لا تشفوا: لا تزيدوا.

وهذه أول آية نزلت في تحريم الربا. وهو بلاء كبير وشر عظيم، وطالما هدم بيوتاً ودمر مجتمعات. وقد بلغ درجة من الفظاعة في الجاهلية حتى ألجأ بعض الناس ان يرهنوا زوجاتهم لدائنتهم. لهذا حرّمه الاسلام وشدد في منعه، ولذلك رافق الآية تهديد ظاهر وأمر صريح. فقال تعالى:

{واتقوا الله لعلكم تفلحون} اي أطيعوا فيم نهيتم عنه من التعامل بالربا كيما يكون ذلك سبب فلاحكم في دنياكم وسعادتكم في الآخرة. ثم عزّز ذلك بقوله:

{واتقوا النار التي أعدت للكافرين} اي ابتعوا عنها بامتناعكم عن التعامل بالربا، فإنما هي قد هيئت للكافرين. وقد قال الامام ابو حنيفة رحمه الله: هذه أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المتعاملين بالربا بالنار المعدة للكفارين.

ثم أردف قائلا ومؤكداً، أن أطيعوا الله ورسوله فيما نهيا عنه من التعامل بالربا حتى تُرحموا في الدنيا بصلاح حال المجتمع، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم.

{وسارعوا إلى مغفرة من ربكم. . .} بادروا الى العمل الصالح الذي يوصلكم الى مغفرة ذنوبكم، ويدخلكم جنة واسعة المدى، عرضها السماوات والأرض سبق أن أعدّها الله لمن اتقاه وامثل أوامره.

بعد ان نهى سبحانه عن الربا من خلال هذه الآيات، وفيها تلوح صورة الغني القاسي القلب الذي يحصر همه كله في جمع المال من آية جهة كانت بين لنا في هذه الآيات صورة الأغنياء المتقين الذين ينفقون أموالهم في السراء والضراء، يأخذون بيد الفقراء فيبدلون لهم الأموال ابتغاء مرضاة الله فقال: انهم الذين ينفقون أموالهم إرضاءً لله في حالة الضيق والعسر، وفي حالة الرخاء واليسر. ونحن نعلم ان بذل المال للفقراء والمحتاجين وفي سبيل الله من أهم علامات التقوى. كما ان الشحّ والبخل من علامة عدم التقوى. والتقوى هي السبيل الموصل الى الجنة. وهم أيضاً {والكاظمين الغيظ} اي الذين يمسكون أنفسهم عن الانتقام مع القدرة عليه.

ثم أردف تعالى بمزية عظيمة أخرى وهي قوله: {والعافين عن الناس} اي الذين يتجاوزون عن ذنوب الناس ويتركون مؤاخذتهم مع

القدرة على ذلك. وتلك منزلة من ضبط النفس وملك زمامها قل من يصل إليها. وهي أرقى من كظم الغيظ، إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضغينة، فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نكظم غيظنا ونعفو عن الناس وننسى إساءتهم. وقد روى الطبراني عن أبي بن كعب أن رسول الله قال: «من سره أن يشرف له البنيان، وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه».

{والله يحب المحسنين} أي أولئك الذين يتفضلون على عبادة البائسين يواسونهم ببعض ما أنعم عليهم. وإليك صفة أخرى من صفات المتقين وهي انهم: إذا فعلوا ذنباً يؤذي غيرهم أو يتعلق بأنفسهم ذكروا عند ذلك وعد الله ووعيده فرجعوا إليه راجعين رحمته تائبين ومستغفرين. وهكذا نجاهم لا يصرون على ما فعلوا من الذنوب في الحالين. ولهذا قال الرسول الكريم «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار».

ان للمتصفين بما أوردته الآيات الكريمة من الصفات أماناً ونجوة من العقاب، بل لهم ثواب عظيم عند ربهم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يبرحونها، ونعم أجر العاملين.

قراءات:
قرأ نافع وابن عامر: «سارعوا» بدون واو.

٣٠٤٨ 137

خلت: مضت. سنن: مفردا سنة، وهي الطريقة، وتأتي بمعنى الأمم أيضاً. فيكون المعنى: لقد مضى من قبلكم أيها المؤمنون كثير من الأمم السالفة، كذبوا رسله ومحدوا نبوته، كعاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط الذين أهلكهم الله بأنواع العذاب، فبقيت لهم آثار في الديار فيها أعظم الاعتبار والاعتاظ، فسيروا في الأرض وانظروا إلى آثارهم وديارهم الخاوية وتأملوا ما حل بهم. فإن أنتم سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم الصلاح، وإن سلكتم سبيل المكذبين مثلهم كان حالكم كحالهم.

والمراد أن مشيئة الله في خلقه تسير على سنن حكيمة، ومن سار عليها ظفر، ومن خرج عنها خسر. وعلى هذا فلا عجب أن يهزم المسلمون يوم أحد، بعد أن ركبهم الغرور وخالفوا النظام الذي عينه لهم رسول الله.

وفي الذي تقدم بيان للناس كافة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة. فهو يرشد إلى أن سنن الله حاكمة على الأنبياء والرسل كما هي حاكمة على سائر خلقه. أما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فلا أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقائق، ويتعظون بما تنطبق عليها من الوقائع، فيسيرون على النهج السوي، ويتجنبون نتائج الإهمال التي تظهر لهم مضرّة عاقبتها.

وفي الآية اللاحقة جاء ما يسلّي المؤمنين عما أصابهم من الهزيمة في وقعة أحد ويقول لهم: إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنّة الثابتة بل مجرد حادث عابر.

٣٠٤٩ 139

لا تهنوا: لاتضعفوا. لا تحزنوا: لا تألموا. الحزن ألم يعرض للنفس إذا فقدت ما تحب. القرع: الجرح، وألم الجرح. نداولها: نصرها، ونعاقبها فنجعل الغلبة لهؤلاء تارة ولأولئك أخرى. وليحص: ليظهر. وأصل التمهيص تخليص الشيء مما فيه من عيب. يحق الكافرين: ينقصهم.

ولا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله بسبب ما نالكم من القتل والجروح والفشل يوم أحد، ولا تحزنوا على ما فقدتم من الشهداء في ذلك اليوم. كيف يلحقكم الوهن والحزن، وأنتم الغالبون بتأييد الله، جزاء إيمانكم، وحفاظاً للحق الذي تدافعون عن؟! لقد مضت سنة

الله أن يجعل العاقبة للمتقين.

واني كن قد لحقكم يوم أحد قتل أو جرح، فقد أصاب خصومكم مثله. لقد أوقعتم بهم يوم بدر، والأيام دولة بين الناس. هذه سنة الله في خلقه، يكون النصر لهؤلاء أحياناً ولأولئك أخرى، ولكن الغلبة النهائية دائماً لمن اتبع الحق. ما هو الا اختبار للمؤمنين ليعلم الله الثابتين على الإيمان، وليكرم أناساً بالاستشهاد. كذلك ليخلص الله أحبائه المؤمنين من الذنوب، ويطهرهم من مرضى القلوب وضعفاء الإيمان، فيغدون صلاباً على أيديهم يُستأصلوا الكفر كله.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم «قرح» بضم القاف، والباقون بفتح القاف. وهما لغتان.

٣٠٥٠ 142

الجهاد: احتمال المشقة ومكافحة الشدائد. ويكون بالقتال وبذل المال في سبيل الله، كما يكون بمجاهدة النفس لشهواتها أو لدفع الباطل ونصرة الحق.

لا يزال الحديث موجّهاً الى من شهد معركة أحد من المؤمنين. والقرآن يخاطبهم في الآية بصورة السؤال: لا تظنوا أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة دون ان يتبين منكم المجاهدون الصابرون الذين تطهرهم المحن والشدائد. واعلموا ان طريق الجنة مخوف بالمكاره، زاده الصبر على مشاق الطريق، فتحملوها.

هنا يبين لنا سبحانه وتعالى ان طريق السعادة في الآخرة هو الصبر والجهاد في سبيل الله. كما أن طريقها في الدنيا هو اتباع الحق والتزام الإنصاف والتزام الإنصاف والعدل بين الناس. فسنة الله واحدة لا تبدل.

{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ . . .}

وهذا أيضاً خطاب لمن شهد وقعة أحد من المسلمين، فقد كان كثير من الصحابة الذين لم يشهدوا معركة بدر يلحّون في الخروج الى أحد حيث عسكر مشركو قريش، ليكون لهم يوم كيوم بدر. قال ابن عباس: لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل لشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنّوا قتالاً يستشهدون فيه. . فنزلت آية: لقد كنتم. . . تمنّون الموت قبل ان تلاقوا القوم، فهذا أنتم أولاء ترون ما كنتم تمنّونه وتنظرون اليه، فما بالكم دهشتم عندما وقع الموت فيكم، وما بالكم تحزنون وتضعفون!

وفي ذلك اليوم ثبت جماعة من الصحابة مع الرسول (وكانوا نحو ثلاثين رجلاً) وذوّبوا عنه الى ان انتهت المعركة، فيما تزعزع كثير منهم وضعفوا. وحين ارتفعت الصيحة ان محمداً قد قُتل كان لها وقعها الشديد على المسلمين، حتى إن الكثيرين منهم فروا مصعدين في الجبل، والرسول عليه السلام يناديهم وهم مولّون، حتى رجعوا اليه وثبت الله قلوبهم. وها ينهبنا القرأ الكريم الى ان الرسول بشر يمكن ان يموت، لكن رسالته تظل باقية الى الأبد.

٣٠٥١ 144

في غمرة المعركة وساعة المحنة، وحيث انقلبت الكفة ودارت الدائرة على المسلمين قُتل مصعب بن عمير. وكان مصعب يشبه النبي شياً تاماً، فنادى قاتله: قتلت محمداً. في تلك الساعة الحرجة قال أنس بن النضر (وهو عم أنس من مالك): يا قوم، ان كان محمد قد قُتل فان رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول! قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم شد سيفه وقاتل حتى قُتل.

فالله سبحانه وتعالى هنا يخاطب هؤلاء بقوله: ليس محمد إلا رسول قد مضت قبله الرسل، فأتوا وقُتل بعضهم ولم يكتب لأحد منهم الخلود. وسيموت محمد كما ماتوا، أفإن مات أو قُتل رجعتكم على اعقابكم الى الكفر! ان من يرجع الى الكفر في تلك الحال لن يضر الله

شيئاً، وانما يضر نفسه، بتعريضها للعذاب. ويرشدنا الله في هذه الآية الى ان نتبع الرسول ونسترشد برسالاته وهدية ودينه، اما ما يصيب جسمه من جرح أو ألم. وما يعرض له من حياة وموت فلا مدخل له في صحة دعوته، ولا لخضوعنا نحن. ذلك ان محمداً بشراً مثلنا خاضع لسنن الله. {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. . .}

فالموت والحياة بيد الله، ولا يمكن ان تموت نفس إلا بإذن الله، وفي أجل معين يعلمه الله، لا يتقدم ولا يتأخر. لذلك، قد يموت الصغير ويبقى الكبير، ويفتك المرض بالشاب القوى فيما يعيش المريض العليل. وقد يسلم المقدام في الحرب ويُقتل الجبان. ومن ثم لا عذر للمرء هنا في الوهن والضعف.

وفي الآية تحريض على الجهاد، والذي تركاه اليوم لليهود، فيهم يجاهدون عن وطنهم المزعوم ونحن قاعدون مستسلمون لنكبة وطننا الحق، نريد من الأمم أن تحل قضيتنا. ألا بنس ما نحن فيه! ما دام الأجل محتوماً، ومؤقتاً بميقات، فلماذا هذا الجبن والخور! {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا. . .}

وم قصد بعمله حظ الدنيا أعطاه الله ثوابها، ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظاً من ثوابها وأجزله له، وسيجزى الله الشاكرين لنعمائه، وهم الذين أطاعوه فيما أمرهم به وجاهدوا وصبروا مع النبي ﷺ.

وقد كرر تعالى: قوله: {وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} حتى يعلم كل انسان ان الله كريم لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

٣٠٥٢ 146

ريون: مفردة ربّي. الجماعات الكثيرة، وله معنى آخر هو الربانيون، اي العلماء الأتقياء. هنوا: وضعفوا. استكانوا: خضعوا للعدو. الاسراف: مجاوزة الحد في كل شيء.

ما أكثر الأنبياء الذين قاتل معهم جماعات ممن آمنوا بهم فما خافوا ولا ضعفوا ولا خضعوا، ولا ولّوا الأدبار منهزمين، بل ثبتوا وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله، والله يحب الصابرين.

فعلينا يا أصحاب محمد ان نعتبروا بحال أولئك الرّبيّن وتصبروا كما صبروا. ولذلك طُلب الكيم ان تعرفوا عاقبة من سبقكم من الامم، وتقتدوا بعمل الصادقين منهم، وتقولوا مثل قولهم عند اشتداد الحرب ونزول الكوارث. ذلك انهم مع ثباتهم وصبرهم ضرعوا الى الله بالدعاء قائلين: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وتجاوز عما يكون منا من إسراف في أعمالنا، وثبتنا في مواطن الحرب، ربنا وانصرنا على أعداء دينك الذين يحدوا ألوهيتك.

وفي هذا اشارة الى ان الذنوب والإسراف في الأمور من عوامل الخذلان، فيما الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح. اذ ذاك لبّي الله طلبهم بقوله: فاتاهم الله ثواب الدنيا، بالنصر على الأعداء، والسيادة في الأرض، والكرامة في الحياة، والذكر الحسن بين الناس، وثواب الآخرة اذ فازوا برضوان الله ورحمته.

والله تعالى يتلو على نبيه هذه الآيات ليعلمنا الاقتداء بالصالحين من الأمم السابقة، ويؤدبنا بأدب المؤمنين مع ربهم، ويفهمنا أننا اذا أخلصنا حقاً وثبتنا على مبادئنا ثم طلبنا منه النصر فإنه يجيبنا وينصرنا بكرمه وفضله.

قراءات:

قرأ ابن كثير: «كأين» بدون تشديد، والباقون «كأين» بتشديد الياء. والمعنى واحد.

٣٠٥٣ 149

يردوكم على اعقابكم: يرجعوكم الى الكفر. المولى: الناصر والمعين. السلطان: الحجّة. المشوى: المأوى، ومقر الانسان. لا يزال الحديث في معركة أحد، وما حدث يومذاك من بلبلة في الأفكار وإرجاف من المشركين والمنافقين واليهود. فقد انتهزوا جميعاً

ما أصاب المسلمين من الهزيمة وأخذوا يثبطون عزائمهم، ويخوفونهم عاقبة السير مع محمد، ويصورون لهم مخاوف الحرب ضد مشركي قريش وحلفائهم. ونحن نعرف ان نجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة النفوس، واشاعة عدم الثقة في القيادة، وتزيين الانسحاب من المعركة. لذلك نجده تعالى بعد ان رغب المؤمنين في الاقتداء بأنصار الأنبياء الصادقين المخلصين، ينهاتهم في الآية نفسها عن متابعة الكفار والمنافقين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا. . .} إن تطيعوا أعداء الله الذين أرجفوا يوم أحد أن محمداً قد قتل، وانه لو كان رسولاً حقاً لما هُزم، فإنهم سيطلبون اليكم ان ترجعوا الى دينكم الذي كنتم عليه، وبذلك تخسرون الدنيا والآخرة. وأي خسارة أشد من الارتداد عن الايمان الى الكفر! اما اذا حدثتم أنفسكم بأنه قد يترتب على الميل اليهم من طرفكم قدرٌ من الحماية والنصر فاعلموا ان ذلك وهمٌ خادع (وهذا ما يفعله بعض حكام المسلمين مع اميركا في الوقت الحاضر) . ان الله مولاكم، وهو ناصركم ومعين لكم وحاميكم. . فلا تخشوهم، إن الله أعظم الناصرين.

ولا يضعفكم ما أصابكم من خذلان يوم أحد، فنحن سنلقي الرعب في قلوب أعدائكم، جزاءً لهم على إشراكهم بالله في العبادة. وسيكون مقرهم النار، وبئس مقام الظالمين.

٣٠٥٤ 152

تحسنهم: تستأصلونهم بالقتل. فشلت: ضعفت. ليبتليكم: ليختبركم.

في هذه الآية الكريمة والتي بعدها تصوير للمعركة، وعرض كامل لمشهداها، ولتداول النصر والهزيمة فيها، ثم ماتبعها من فرار. ومع ذلك التصوير توجهات قرآنية، وتربية وتعليم بأسلوب قرآني حكيم.

«{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} . ما زال الكلام والخطاب مع الأصحاب الذين كانوا في أحد. . وكان (ﷺ) قد وعدهم النصر يومئذ ان امثلوا أمره. وقد وفي الله لهم بما قاله على لسان نبيه، ذلك ان الرسول (ﷺ) أقام الرماة عند الجبل صيانة لمؤخرة المسلمين، وأوصاهم ان لا يبرحوا مكانهم، حتى ولو رأوا العدو تتخطفه الطير، ووعدهم النصر بهذا الشرط. كان الرماة خمسين رجلاً.

ولما ابتدأت المعركة شرع الرماة يرشقون المشركين، وقية الأصحاب يضربونهم بالسيوف، وقتلوه قتلًا ذريعاً، حتى انهزوا، وهذا معنى {إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} ، أي تقتلونهم بأمر الله. وفي تفسير ابن جرير الطبري والمراغي وغيرهما ان طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين المعروف بكبش الكتبية قام فقال: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون ان الله يعجلنا بسيوفكم الى النار، ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي الى الجنة، أو يعجلني بسيفه الى النار؟ . فقام اليه علي بن أبي طالب (ع) وضربه فقطع رجله. وسقط، فانكشفت عورته، فقال طلحة لعلي: انشدك الله والرحم يا ابن عم. . فتركه علي (ع) وكبر رسول الله (ﷺ) . وقال لعلي أصحابه: ما منعك أن تجهز عليه؟ . قال: ناشدني الله والرحم. . هذا هو علي في خلقه، يفيض قلبه بالحنان والرحمة، حتى على أعدى اعدائه الذي برز له شاهراً السيف في وجهه مصمماً على قتاله وقتله.

{حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} . بعد أن ولى المشركون الدبر وكانوا ثلاثة آلاف مشرك امتلاً الوادي بما خلفوه من الغنائم. وحين رآها الرماة، وإخوانهم المسلمون ينتهبونها دونهم عصفت بهم ريح الطمع، واختلفوا فيما بينهم، وقال بعضهم: ما بقاؤنا هنا؟ وتجاهلوا وصية النبي وتشديده عليهم بالبقاء. فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير: امكثوا ولا تخالفوا أمر الرسول (ﷺ) . . ولكن أكثرهم غادروا مواقعهم هابطين الى انتهاب الأسلاب والأموال، وتركوا أميرهم عبد الله في نفر دون عشرة، والى هذا التنازع والعصيان يشير قوله تعالى: {حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ} . أما قوله: {مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ} فيشير

الى انهزام المشركين وغنائمهم.
 وكان خالد بن الوليد يحارب النبي (ﷺ) مع أبي سفيان، وحين رأى مؤخرة المسلمين مكشوفة بعد أن أخلاها الرماة اغتتم الفرصة، وانقضّ مع جماعة من المشركين على البقية الباقية من الرماة، وقاتل هؤلاء بشجاعة وحرارة، حتى استشهدوا جميعاً، وخلا ظهر المسلمين، ورجع المشركون الى الميدان، وأحاطوا بالمسلمين من الخلف والأمام، وأكثروا فيهم القتل والجراح، ودارت الدائرة عليهم بعد ان كانت لهم.
 وهذه النتيجة الحتيمة للتنازع والتخاصم.

{مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} . وهم الرماة الذين تركوا مقاعدهم طمعاً بالغنيمة. {وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} . وهم الذين ثبتوا مكانهم مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى نالوا الشهادة. {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ} . أي ردكم عن الكفار بعد أن نصركم عليم بسبب تنازعكم وعصيانكم. {لِيَبْتَلِيَكُمْ} . أي عاملكم معاملة من يمتحنكم ليظهر ثباتكم على الايمان، وصبركم على الشدائد، ويميز بين المخلصين والمنافقين. {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} . وكثيراً ما يخطئ الإنسان عن طيش، ثم يؤوب الى رشده، فيعفوا الله عما سلف منه، أما من عاد فينتقم الله منه.

٣٠٥٥ 153

اذكروا ايها المؤمنون حالكم في تلك اللحظات الرهيبة حين ذهبتم منهزمين لا تلتفتون لأحد من شدة الهرب، والرسول يناديكم ويقول: هلم اليّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة. . وأنتم لا تسمعون لا تنظرون. ولقد جازاكم الله غمّاً متصلاً بغمّ من الإرجاف بقتل رسول الله بعد الجرح، والقتل الذيب حصل فيكم اذ قُتل منكم سبعون رجلاً، وظفر المشركين حتى صرتم من الدهش يضرب بعضكم بعضاً. ولقد فانتكم الغنيمة التي طمعتم بها، لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ما اصابكم من الهزيمة، الله خبير بما تعلمون يعلم مقاصدكم وقادر على مجازاتكم.

٣٠٥٦ 154

يغشى: يغطي. برز: خرج. الى مضاجعهم: الى مصارعهم وقبورهم. ذات الصدور: السرائر.
 بعد انت انتهت المعركة ورجع بعض من انهزم من المسلمين ويتجمّعوا حول الرسول الكريم وقف أبو سفيان وصاح: أعلُ هُبْل، يوم أحد بيوم بدر، لنا العزى ولا عُرَى لكم. فقال رسول الله لعمر: قل: الله أعلى وأجل، الله مولانا ولا مولى لكم. فقال ابو سفيان: فيكم محمد؟ قالوا: نعم، قال لقد حدثتُ مثله لم أمر بها ولم تسوّني، (يعني بذلك ما حدث من التمثيل بجثة حمزة وغيرها من قتلى المسلمين) ثم قال: الموعد بيننا بدر في العام القابل. نخاف المسلمون ان يذهب المشركون الى المدينة. وفي تلك اللحظة بعث الله النعاس على طائفة المؤمنين الصادقين في إيمانهم تطميناً لقلوبهم، وفي النوم راحة كبرى للأعصاب المرهقة وقت الشدائد.
 قال ابو طلحة: غشنا النعاس يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه.
 ورفعتُ رأسي فجعلت أنظر ما منهم يومئذ الا يمد تحت حجّفته من النعاس. وذلك قوله تعالى:
 {ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَّعَاسًا} .
 والمحففة: الترس من الجلد.

هذه احدى طائفتي المسلمين الذين قاتلوا يوم أحد. أما طائفة الايمان المزعزع فقد أذلهم الخوف، نولم يكن لهم همّ الا انفسهم. وذلك لأنهم كانوا مكذّبين بالرسول في قلوبهم، فظنوا بالله الظنون الباطلة وأخذوا يوقولن مستنكرين: هل لنا من النصر والفتح نصيب؟ . لهؤلاء قل يا محمد: الأمر كله لله في النصر والهزيمة. وحتى حين يسألونك فإنهم في الواقع يخفون في أنفسهم ما لا يستطيعون اعلانه لك، فهم

يُظهرون أنهم يسألون مسترشدين طالبين النصر، لكنهم يبطنون الإنكار والتكذيب. فلسان حالهم يقول: لو كان أمر النصر بيد الله محمد كما ادعى محمد لما غلبنا، ولما قُتل من قُتل من أصحابه في هذه المعركة! .

قل لهم يا محمد: لو كنتم في منازلكم وفيكم من كُتبض عليه القتل انخرجوا الى مصارعهم فقتلوا. اما الهزيمة فقد جازانا بها للهن ليمتحن ما في صدورنا من الصدق والإخلاص أو عدمه، ويخص ما في قلوبنا من وساوس الشيطان، والله عليم بذات الصدور. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «تغشى» بالتاء، والباقون «يغشى» بالياء. وقرأ أبو عمرو ويعقوب «قل ان الأمر كله» برفع اللام. والباقون بنصبها.

٣٠٥٧ 155

الجمعان: جمع المؤمنين وجمع المشركين. استزلهم الشيطان: جرحهم الى الخطأ.

ان الذين انهزموا منكم يا معشر المسلمين يوم أحد انما جرهم الشيطان الى الزلل والخطأ، فعصوا أمر الرسول وبارحوا المكان الذي أوقفهم فيه على الجبل. لقد رأوا النصر للمسلمين في أول المعركة فهبطوا الى السهل طمعاً في الغنيمة. عند ذلك هاجمهم خالد بن الوليد بخيل المشركين وقتل من بقي من الرماة وأحدث الخلل في صفوف المسلمين. ولقد فر أكثر المقاتلين، ولم يبق مع النبي الا ثلاثة عشر رجلاً منه خمسة من المهاجرين هم: أبو بكر وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وثمانية من الأنصار. وقد انهزم بعضهم ولم يعند الا بعد ثلاثة أيام.

من هذا يتبين ان عملاً بسيطاً لا يقدره الانسان قد يجر الى نكبة كبرى، ويكون بعلمه هذا قد قدم أعظم مساعدة لعدوه. وهذا ما نحن فيه اليوم، فاننا بتفرقنا ومعادتنا لبعضنا البعض، اما نقدم اعظم خدمة لليهود وحلفائهم، منّا ومن غيرنا. وفي الآية تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة فتفقد ثقها في قوتها، ويختل توازنها، فتبتت عرضةً للوساوس والهواجس. وعندئذ يجد الشيطان طريقه الى هذه النفس فيقودها الى الزلل والخطأ، وتحل بها النكبة والهزيمة. . . . ولكن الله ادرك أصحاب أحد برحمته، فلم يدع الشيطان يتسلط عليهم، بل عفا عنهم، ثم أخبرهم بأنه غفور حلیم. ونحن نسأل الله تعالى ان يردنا الى طريقه المستقيم، ويدركنا برحمته فيوحد كلمتنا ويعيد الينا ثقتنا بأنفسنا، لننظم صفوفنا ونسترد ما اغتصب من بلادنا.

٣٠٥٨ 156

المراد بالذين كفروا هنا: المنافقون، عبد الله بن أبي وأصحابه. ضربوا في الأرض: سافروا فيها للتجارة وغيرها. غزى: جمع غاز، محاربون، مجاهدون.

يا أيها المؤمنون لا تكونوا كأولئك المنافقين الذين قالوا في شأن اخوانهم حين سافروا للتجارة والكسب فأتوا، او كانوا غزاة في وطنهم او في بلاد اخرى فقتلوا: لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا ما قتلوا، فقد جعل الله ذلك القول والظن حسرة في قلوبهم. ان الله هو الذي يحيي ويميت، وليس للإقامة والسفر مدخل في ذلك. والله مطلع على ما تعملون، بصير بما تكفرون فيه، لا يخفى عليه شيء مما تكتُمون في أنفسكم من وساوس الشيطان.

ثم بشر من قُتل او مات في سبيل الله بحسن المآل {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً. وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} أي إن مغفرة الله ورحمته لمن يموت أو يُقتل في سبيل الله خير لكم من جميع ما يتمتع به الكفار من المال والمتاع في هذه الدار الفانية. والحق أقول: لو أننا آمنّا إيماناً صادقاً لما خفنا من الموت، ولحاربنا اليهود بعزم وصدق وخلصنا بلادنا من براثنهم.

ثم حثنا سبحانه على العمل في سبيله، لأن المرجع اليه فقال:

{وَلَيْتَ مَتَّ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ} . فبأي سبب كان موتكم فإنكم راجعون الى الله لا إلى غيره، فيجزى كلاً منكم بما يستحق. فأثروا ما يقربكم إليه من العمل الطيب والجهاد في سبيله، ولا تركزوا الى الدنيا ولذاتها الزائلة، أيها المؤمنون. قراءات:

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي «والله يعلمون» بالياء. وقرأ نافع وحمة والكسائي «متم» بكسر الميم. وقرأ غير حفص «خير مما تجمعون» بالتاء.

٣٠٥٩ 159

لنت لهم: ترفقت بهم. الفظ: الشرس الأخلاق، الجافي العشرة. القلب الغليظ: القاسي الذي لا يتأثر باللطف والرفقة. انفض: تفرق: المشاورة: أخذ آراء الذين حولك من العقلاء وذوي الرأي. التوكل: تفويض الأمر الى الله، للثقة بحسن تديره، مع أخذ الأهبة واستكمال العدة.

بعد ان أرشد الله المؤمنين من الآيات المتقدمة الى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، اتجه في الخطاب هنا الى الرسول الكريم بهذا التعبير الدقيق اللبق، والمدح العظيم. فهو يريد ان يلطف الجو بعد معركة أحد، ويخفف مما في نفس الرسول على القوم الذين كانوا سبباً في تلك النكبة.

ويتوجه سبحانه الى الرسول بهذه الآية والتي بعدها يطيب قبله، والى المسلمين يشعرهم بنعمة الله عليهم به، ويذكرهم رحمة الله المثلثة في خلقه الكريم.

{فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} من رحمة الله عليك ان عاملت أصحابك بعد رجوعهم باللين والرفق، وهذا شيء خصصك الله به، فقد حباك بأداب القرآن العالية وحكمه السامية، فهانت عليك المصائب. هذا مع ان كثيراً من أصحابك قد استحقوا اللوم والتعنيف، اذ تركوك وقت اشتداد الهول فيما الحرب قائمة على أشدها.

{وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} ولو كنت يا محمد رجلاً خشناً جافياً في معاملتهم لتفرقوا عنك، ونفرت قلوبهم منك، فلم تتم هدايتهم وارشادهم الى الصراط المستقيم.

هكذا يجب ان تكون أخلاق الزعيم والقائد الحاكم، فان الناس في حاجة الى رعاية فائقة وقلب رحيم، وحلم لا يضيق بجهلهم وأخطائهم، لا إلى حاكم، فان الناس في حاجة الى رعاية فائقة وقلب رحيم، وحلم لا يضيق بجهلهم وأخطائهم، لا إلى حاكم متعال يتناول بالغطرسة وادعاء العظمة في غير حق. وما أرحم ما كان قلب الرسول الكريم، وما أجمل ما كانت سيرته مع الناس: ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، بل وسعهم حلمه وبره وعطفه. وسيرته طائفة بذلك.

{فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر} ما أحلى هذا الكلام وما أرقه وأعطفه! وما أعظم قوله سبحانه {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} ، فهو نص قاطع في تقرير مبدأ الشورى في الحكم الإسلامي، لا الاستئثار بالسلطة الفردية المتحكمة. وانه لمبدأ عظيم هذا الذي يقرره القرآن بصدد ذلك، وهو المعمول به اليوم عند الأمم الراقية التي سقتنا. اما نحن فقد تأخرنا لأننا أردنا لهذه التعاليم الحكيمة الراشدة، واتبعنا مبدأ التسلط والقهر. واتخذنا اسم «الرعية» وكأنه من الرعي للسائمة لا من الرعاية للبشر.

فاذا عقدت عزمك يا محمد على أمر بعد المشاورة، فامض فيه متوكلاً على الله، ان الله يحب الواثقين به، فينصرهم ويرشدهم الى ما هو خير لهم.

اذن فالتوكل يجب ان يكون مقروناً بالسعي والعزم والعمل لا نابعاً من التقصير ورغبة في التخلص من العناء، وإلا فهو توكلاً يمتقته الله.

في الحديث المعروف الذي رواه الترمذي والبيهقي وأبو نعيم وابن أبي الدنيا وابن حبان. «قال رجل للنبي ﷺ: أعقلُ ناقتي وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ فقال له الرسول الكريم: «عقلها وتوكل.»»
وقد سار هذا الحديث مثلاً.

٣٠٦٠ 160

إذا أراد الله نصركم كما حدث يوم بدر، حين عملتم بإرشادات الرسول وثبتم في مواقفكم، كما اتكلتم على توفيق الله ومعونته فلن يغلبكم أحد. وإن يُرد خذلانكم ويحرمكم معونته، لعدم اتخاذكم أسباب النصر أو لشيء من التنازع وعصيان القائد فيما أمركم به (كما جرى يوم أحد) فلا ناصر لكم سواه. وعلى الله وحده يجب ان يعتمد المؤمنون.

٣٠٦١ 161

الغل: الأخذ خفية كالسرقة، يقال غلّ فلان الغنيمة يغلّ غلواً، وأغلّ إغلا لا خان فيها، وأخذ شيئاً منها خفية. توفى: تعطى.
«روي ان هذه الآية نزلت يوم أحد عندما ترك الرماة موقعهم على الجبال طلباً للغنيمة، إذ قالوا: نخشى أن يقول النبي: من أخذ شيئاً فهو له، وان لا يقسم الغنائم كما قسمها يوم بدر. فقال لهم الرسول: ألم أعهد اليكم الا تتركوا موضعكم حتى يأتيكم أمري؟ فأجابوا: تركنا بقية اخواننا وقوفاً. فقال لهم: بل ظننتم أنا نغلّ ولا نقسم.»

وكان بعض المنافقين قد اشاعوا ان الغنائم يوم بدر قد اختفت، واتهموا الرسول الكريم انه اخفاها. فكذبهم الله. والمعنى هنا: لا يجوز لني ان يخون في الغنائم، لأن النبوة أساسها الأمانة. وفي هذا نفي الخيانة عن جميع الأنبياء. لقد عصمهم الله من الغلول والخيانة لأن النبوة أعلى المناصب الانسانية، فصاحبها معصوم عن كل ما فيه دناءة وخسة. اما الناس فقد يقع منهم ذلك، فن فعله أتى بما غل به يوم القيامة، ليفتضح فيه أمره ويزيد به عذابه.
{ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} يومذاك تعطى كل نفس جزاء ما علمت وافيا تاماً، لا تلقى ظملاً بقصان في الثواب او زيادة في العقاب.

«روى عبد الله بن احمد عن عباد بن الصامت ان رسول الله ﷺ قال: اياكم والغلول، فان الغلول خزي على صاحبه يوم القيامة، أدوا الخيط والخيط وما فوق ذلك، وجاهدوا في سبيل الله القريب البعيد، في الحاضر والسفر، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. إنه لينجي الله تبارك وتعالى به من الهم والغم. وأقيموا حدود الله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.»
وهناك أحاديث كثيرة في هذا الموضوع.

وقد علمت هذه الآية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة عملها في تربية السلف الصالح من المسلمين حتى أتوا بالعجب العجيب: حُمِلت الغنائم الى عمر بن الخطاب بعد القادسية، وفيها تاج كسرى وإيوانه لا يقومان بثن فنظر رضي الله عنه الى ما أداه الجند في غبطة وقال: «ان قوماً أدوا هذا لأمرهم لأمناء.»

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب: «ان يغُل» على البناء للمفعول، والمعنى على هذه القراءة ما صح لني أن ينسب الى الغلول أو يخونه أحد، أما عند قراءتها «يغُل» بفتح الياء وضم الغين فالمعنى المقصود ان يخون في الغنائم.

٣٠٦٢ 162

باء: رجع. مأواه: منزله.

أردف الله تعالى بهذه الآية ليبين أن جزاء المطيعين ليس جزاء المسيئين: أفمن اتقى وسعى في تحصيل رضا الله بالعمل الطيب والطاعة التامة مثل الذي باء بغضب عظيم من الله بسبب عصيانه وغلوله وخيانتته!! كلا، ان منزل العاصي الذي غلّ وخان هو جهنم، وساءت منقلباً.

والحق ان كلاً ممن اتبع رضوان الله ومن باء بغضب من الله طبقات مختلفة ومنازل متفاوتة، حسب الأعمال الحسنة أو السيئة. ولا يعلم هذه الدرجات الا من أحاط بكل شيء علماً، لأه جلّ جلاله هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

٣٠٦٣ 164

يزكّهم: يطهرهم. الكتاب: القرآن. الحكمة: السنّة، والمعرفة بجميع أنواعها.

لقد مرّ نظير الآية في سورة البقرة، الآية ١٢٩.

بعد أن نفى الله الغلول والخيانة عن النبي الكريم على أبلغ وجه أكد بذلك بهذه الآية فأبان أنه قد تفضل على المؤمنين بأن يبعث فيهم رسولا منهم، وُلد في بلدهم فعرفوه حق المعرفة ولم يروا فيه طوال حياته الا الصدق والأمانة حتى فاز بلقب محمد الأمين. وقد جاء هذا الرسول يتلو عليهم آيات الله الدالة على القدرة والوحدانية، ويوجه النفوس الى الاستفادة منها والاعتبار بها.

ها كما جاء محمد ليزكّهم، أي يطهرهم من العقائد الزائفة، ويظهر بيوتهم وأعرضهم ومجتمعهم من دنس الجاهلية وشركها. كذلك جاء يعلمهم القرآن والكتابة والقراءة بعد ان كانوا أميين ضالين.

«وعلى أية حال، فقد تضمنت هذه الآية الأمور التالية:

١. ان الرسول احسان من الله الى الخلق، لأن الرسول ينقلهم من الجهل الى العلم، ومن المذلة الى الكرامة، ومن معصية الله وعقابه الى عطايته وثوابه.

٢. ان هذا الاحسان قد تضاعف على العرب بالخصوص لأن محمداً (ﷺ) منهم، يباهون به جميع الأمم.

٣. انه يتلو عليهم آيات الله الدالة على وحدانيته، وقدرته وعلمه وحكمته.

٤. انه يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية، ومن الاساطير والخرافات والتقاليد الضارة، والعادات القبيحة.

٥. يعلمهم الكتاب أي القرآن الذي جمّع كلمتهم، وحفظ لغتهم، وحشّم على العلم ومكارم الأخلاق، ويعلمهم الرسول أيضاً الحكمة وهي وضع الأشياء في مواضعها، وقيل: ان المراد بها هنا الفقه. »

يقول جعفر بن أبي طالب الصاحبي الجليل مخاطباً التجاشي عندما لجأ اليه المسلمون في أول بدء الدعوة: «أيها الملك، كما قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا الى الله وحده لنوحده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل ما اليتيم، وقذف الحصنات، وأمرنا ان نعبد الله ولا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.»

٣٠٦٤ 165

لا ينبغي ان تعجبوا وتجزعوا مما حل بكم يوم أحد من ظهور المشركين عليكم، وقتل سبعين رجلاً منكم، فلقد أصبتم منهم مثلياً يوم بدر بقتل سبعين رجلاً منهم وأسر سبعين آخرين. اذن كان نصركم في بدر ضعيف انتصار المشركين في أحد.

وقد كان سبب تعجبهم ان بعضهم قال: نحن ننصر دين الله وفينا رسوله، وهم ينصرون الشرك بالله، ومع ذلك يُنصرون علينا؟ فرد الله عليهم بهذه الآية بقوله: {قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيّاً} ، و {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} أي أن الذي أصابكم انما هو من عند أنفسكم: لقد خالفتم

الرسول في أمور كثيرة، فقد كان من رأيه البقاء في المدينة ومحاربة المشركين فيها اذا هاجموا، لكنكم تحسستم وأردتم الخروج للقاء العدو. ثم إنكم تنازعتم الرأي فيما بينكم. ثم كانت الطامة الكبرى بخالفة الرماة منكم أمر الرسول ونزولهم عن الجبل. كل هذه المخالفات أدت الى الهزيمة. والله قادر على كل شيء، ومن مقتضى قدرته ان تنفذ سُنَّته، وأن تمضي الأمور وفق حكمة وارادته، وألا تتعطل سُنَّته التي أقام عليها الكون والحياة.

٣٠٦٥ 166

وكل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم وجمع المشركين في أحد إنما وقع بإذن الله وارادته، وليُظهر للناس ما عمَّله من أيمان المؤمنين حقاً. إن هزيمتكم لم تقع مصادفة ولا عبثاً ولا سدى، فكل حركة محسوبٌ حسابها في تصميم هذه الكون، هي في مجموعها تجري وفق السنن والقوانين الثابتة التي فرضها الله لحكمة مدبرة يجري كل شيء في نطاقها.

٣٠٦٦ 167

وكما يظهر الله حال المؤمنين من قوة الايمان وضعفه، واستفادتهم من المصائب حتى لا يعودوا الى أسبابها، يُظهر حال المنافقين (من أمثال عبد الله بن أبي سلول) ويفضح موقفهم يوم أحد. وقد كشفهم الله على حقيقتهم يومذاك، اذا انصرفوا ورجعوا الى المدينة. وتبعهم ابو جابر السلمي من الصحابة يناديهم وقول لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله. فأجابوه: لو نعلم انكم ستلقون قتالاً في خروجكم لذهبنا معكم. لقد كانوا غير صادقين في ذلك، بل إنهم في مقاتلتهم هذه أقرب الى الكفر منهم الى الايمان. وما كان اعتذارهم الا على وجه الخديعة والاستهزاء، يقولون بأفواههم «ليس هناك حرب» مع أنهم يعتقدون في قلوبهم أنها واقعة. ومع ذلك فقد أصروا على الارتداد. ثم أكد الله كفرهم ونفاقهم بقوله: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} من الكفر والكيد للمسلمين وتربُّص الدوائر بهم. ثم مضى يكشف بقية موقفهم في محاولة خلخلة الصفوف والنفوس:

٣٠٦٧ 168

ارأوا: ادفعوا.

قال الذين تحلَّفوا عن القتال ورجعوا الى المدينة، في شأن اخوانهم الذين خرجوا وقتلوا: لو أنهم أطاعونا وقعدوا مثلنا لنجوا من القتل كما نجونا. وهكذا لم يكتفِ المنافقون بالتخلف والاعتذار الكاذب، وما أحدثه ذلك من رجة وبلبل في النفوس، بل راحوا يثيرون الحسرة في قلوب أهل الشهداء بعد المعركة. فرد الله تعالى عليهم رداً قاسياً دحض حجته وأبان كذبهم، كما وبخهم على ما قالوا فأبلغ نبيه ان يتحداهم {قُلْ فَأَدْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، اي ادفعوا عن أنفسكم الموت ان كان الحذر يمنع من القدر كما تزعمون.

٣٠٦٨ 169

هنا شرح الله حقيقة من أعظم الحقائق التي تبشّر المؤمنين وتحفزهم على الجهاد في سبيل الله، وهي ان الذين قُتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل هم أحياء عند ربهم في عالم آخر غير هذا العالم، قد شرفهم ربهم في تلك الحياة وأكرمهم بها. وهي حياة غيبية لا ندركها نحن، يُرزقون فيها رزقاً طيباً يعلمه الله، وتأنف وجوههم من السرور بما أعطاهم، كما يستبشرون بخلاص اخوانهم الذين تركوهم في الدنيا مقيمين على منهج الايمان والجهاد، وانه لا خوف عليهم من مكروه ولا هم يحزنون لفوات محبوب. إنهم يستبشرون بنعمة الله فتأنف وجوههم بالبشر والسرور بما أعطاهم ربهم من نعمة الشهادة ونعيم الجنة وعظيم الكرامة، انه لا يضيع أجر المؤمنين جميعاً. قراءات:

قرأ ابن عام: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا} بشديد التاء مع الكسرة.

٣٠٦٩ 172

القرح: الجرح، والمراد هنا كل ما أصاب المؤمنين من مشقات في وقعة أحد وما تكبدوه من الخسائر. حسبنا الله: كفانا الله. فانقلبوا: فرجعوا. في هذه الآيات وصف عظيم للمؤمنين الصادقين، وهم الذين لبوا دعوة الرسول الى استئناف الجهاد من بعد ما أصابهم من جرح وآلام يوم أحد. لقد اتقوا عصيان ربهم ورسوله الكريم، فاستحقوا الأجر العظيم على ما قاما به من جليل الأعمال. «وذلك ان أبا سفيان وأصحابه، لما رجعوا من أحد، ندموا وهُمُّوا بالرجوع حتى يستأصلوا من بقي من المؤمنين. فبلغ ذلك رسول الله، فأراد ان يُرهبهم ويرهبهم القوة من نفسه وأصحابه، فندب أصحابه للخروج في أثر أبي سفيان، وقال: لا يخرجنَّ معنا الا من حضر يومنا بالأمس. وهكذا خرج مع جماعة من أصحابه وفيهم عدد من الجرحى قد تحاملوا على أنفسهم، حتى بلغوا مكانا سامه» حمراء الأسد «. وعندما سمع أبو سفيان بخروج النبي وأصحابه في طلبه، خشي العاقبة، فأسرع في جماعته منقلباً الى مكة». وهنا يقول:

ان هؤلاء الذين خوفهم الناس بأن قالوا لهم: إن اعداءكم قد جمعوا لكم جيشاً كثيفاً نخافوهم، لكنهم لم يضعفوا، بل ازدادوا ايماناً بالله وثقة من نصره، كما أجابوا: ليس يهمننا هؤلاء الذين جمعوا الجمع، فالله معنا ان ينصرنا على قتلنا وكثرتهم، ثم خرجوا مع رسول الله للقاء العدو، لكنهم لم يلقوه لأنه أسرع خائفاً الى مكة، فرجعوا بدورهم الى المدينة مع الرسول هؤلاء قد فازوا بنعمة السلام، واطاعه رسوله. وبذلك رجحوا في تجارتهم ولم يمسسهم سوء.

روى البيهقي عن ابن عباس ان عيراً مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ ثم باعها، فربح مالا، فقسمه بين أصحابه، فذلك من فضل الله.

٣٠٧٠ 175

ان الذي وسوس الى أعوانه ان يقولوا: ان الناس قد جمعوا لكم، هو الشيطان. لقد أراد أن يخوفكم بأوليائه وأنصاره المشركين ويوهمكم ان المشركين أولو قوة وبأس شديد، فمن مصلحتكم ان تقعدوا عن لقاءهم. لا تخافوا أيها المؤمنون من أبي سفيان وأنصاره، ولا ترهبوا جمعهم، بل خافوني وأطيعوا أوامري لأنكم أوليائي وأنا وليكم، متكفل لكم بالنصر والظفر ما ظللتم صادقين في ايمانكم قائمين بما يفرضه عليكم هذا الايمان.

٣٠٧١ 176

يتجه الخطاب الى الرسول الكريم بهذه الآية ليسليته، كما سلاه في كثير من الآيات، عما يُحزنه من إعراض الكافرين عن الايمان. ذلك ان بعض المنافقين أظهرهم كفرهم وصاروا يخوفون المؤمنين ويقولون لهم: ان محمداً طالب مُلك، فتارة يكون الأمر له وتارة عليه، ولو كان رسولا من عند الله ما غلب. ومن شأن هذه المقالة ان تنفر الناس من الاسلام. فقال الله: لا تحزن أيها النبي الكريم من مسارعة المنافقين وبعض اليهود الى نصره الكافرين بكل ما أُوتوا من الوسائل، انهم لن يضروك والمؤمنين معك شيئاً. اما عاقبة هذه المسارعة الى الكفر فهي وبال عليهم: فالله يريد الا يجعل لهم نصيباً من ثواب الآخرة بل ان يذيقهم عذاباً عظيماً.

٣٠٧٢ 178

نُلي لهم: نُمهلهم. اثماً: ذنباً.

ولا يحسبن هؤلاء الكفارون ان إيماننا لهم حين نمد في أعمارهم ونهيء لهم أسباب النعيم في حياتهم الدنيا هو خير لهم، كلا، ان اطالة العمر وسعة الرزق دون إيمان ولا عمل صالح يُفْضِيَان بهم الى الاستمرار في المعاصي. . ومن ثم استحقاق ما أعد الله لهم من عذاب مهين مقابل ما كنوا فيه من مقام ومكانة ونعمة.

٣٠٧٣ 179

يُمَيِّزُ وَيُمَيِّزُ معنهما واحد وقرىء بهما، يجتبي: يختار.

يبين الله تعالى هنا ان الشدائد هي محك صدق الايمان، ولذلك يقول: ما كان الله ليرتكبكم يا معشر المؤمنين على ما أنتم من اختلاط المؤمن بالمنافق حتى يميز بينكم بالحنة والتكاليف والشدائد. بذلك يظهر المنافق الخبيث والمؤمن الطيب الصادق الايمان. ولم يكن من شأنه تعالى أن يُطلع الناس على الغيب، فلو فعل ذلك لأخرج الانسان من طبيعته. لذا جرت سنته بأن يميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد، كما تم أحد، حيث ابتلى المؤمنين بظهور العدو عليهم، جزاء ما فعلوا من المخالفة. وقد قال تعالى {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} .

ولكن الله يصطفي من رسله من يشاء، فيطلعه على ما يشاء من الغيب، فيعلم ذلك الرسول المؤمن من المنافق. أما أنتم يا أصحاب محمد {فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} الذين ذكرهم في كتابه. وإن تؤمنوا بما جاؤوا به من أخبار الغيب وثقوا الله بترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به، لفكم أجر عظيم لا يقدر ولا يوصف.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «يُمَيِّزُ» بضم الياء الأولى وفتح الميم وكسر الياء الثانية وتشديدها والباقون: «يُمَيِّزُ» بفتح الياء وكسر الميم.

٣٠٧٤ 180

سيطووقون ما بخلوا: سيلزمون به لزوم الطوق للأعناق.

كان الكلام فيما مضى في التحريض على بذل النفس في الجهاد، وهنا شرع يحث على بذل المال في سبيل ذلك. ولما بطبعه عزيز جداً على الناس، حتى ان بعضهم ليفدي نفسه من أجل ماله. لذلك ذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله على الجهاد، والله يرث الأرض والسموات، ويبقى الملك له وحده.

قراءات:

قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} بالتاء كما هو هنا، والباقون «يعملون» بالياء.

٣٠٧٥ 181

عهد الينا: أوصانا. بقربان: هو ما يذبح من الأنعام تقرباً الى الله. بالبينات: الآيات والواضحة.

أبو بكر وفنخاص

«روى الطبري عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر بيت المدارس فوجد من يهود ناساً كثيراً، قد

اجتمعوا الى رجل منهم يقال له فنخاص، كان من علمائهم وأخبارهم. فقال أبو بكر لفنخاص: ويحك يا فنخاص، إئتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم ان محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والانجيل. قال فنخاص: والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير. وما تضرع اليه كما يتضرع الينا. وإنّا عنه لأغنياء. ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، يشير الى قوله تعالى {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً} . فغضب ابو بكر فضرب وجه فنخاص ضربة شديدة،

قوال والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص الى رسول الله، فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً. . زعم ان الله فقير، وانهم عنه أغنياء. فلما قال ذلك غضبُ الله مما قال، فضربت وجهه. فجدد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك» فأُنزل الله تعالى رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ . . .} الآية.

المدارس: ما كان الدرس، وبيعة اليهود، وهم يلفظونها مدارس. قد سمع الله من قالوا هذه المقالة المنكرة ولم يخف عليه شيء. وسيجزئهم على ذلك أشد الجزاء ولقد سجل عليهم ذلك القول الشنيع كما سجل عليهم قتلهم الأنبياء ظلماً وعدواناً، وسينتقم منهم يوم القيامة ويقول لهم: ذوقوا عذاب النار المحرقة جزاء أعمالكم في الدنيا: كقتل الانبياء، ووصف الله بالفقر، وتكبركم وتبجحكم.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} فلا يكون عاقبة الا عدلاً ولا يعاقب غير المستحق للعقاب.

قراءات: حمزة: «سيكتب ما قالوا» بالياء المضمومة، و «قتلهم» بضم اللام، و «يقول» بالياء. ان من يدعون فقر الله وغناهم هم الذين قالوا ان الله أوصانا في التوراة الا نؤمن لرسولٍ إلا اذا دلل على صدقه بأن يأتينا بشيء يقرّبه لوجه الله وتنزل نار من السماء فتأكله، فقل لهم يا محمد: لقد بعث الله رسلاً جاؤا بما اقترحتم، ومع ذلك كذبتموهم وقتلتموهم! فلم تعلم ذلك ان كنتم صادقين في وعدكم بأن تؤمنوا عندما يتحقق ما تريدون؟

روي عن ابن عباس ان كعب بن الأشرف، ومالك من الصيف، وفنحاص، وجماعة من أحبار اليهود أتوا رسول الله فقالوا: يا محمد، تزعم انك رسول الله، وأنه أوحى اليك كتاباً، وقد عهد إلينا في التوراة الا نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بقربان تأكله. . . . الخ. وفي الآية رد صريح ومجابهة قوية تكشف عن كذبهم والتوائهم وإصرارهم على الكفر.

٣٠٧٦ 184

الزبر: جمع زبور وهو الكتاب.

فإن كذبوك أيها النبي بعد ان جئتكم بالبينات الساطعة، والكتاب الهادي الى سواء السبيل، فلا تأس عليهم ولا تحزن لعنادهم وكفرهم. لقد جاء قبلك رسل كثيرون كذبهم أقوامهم، ومع انهم جاؤوهم بالأدلة الساطعة والكتب السماوية الدالة على صدق رسالتهم، فليس بالعجيب منهم ان يقاوموا دعوتك. ذلك ان نفوسهم منصرفة عن طلب الحق وتحري سبل الخير.

قراءات: قرأ ابن عامر «وبالزبر» باعادة حرف العطف. وقرأ هشام «وبالكتاب» .

٣٠٧٧ 185

زحزح عن النار: أبعد عنها. متاع الغرور: المتاع كل ما ينتفع به ويتمتع به. الغرور: الخداع والغفلة وكل زخرف باطل. بعد كل ما تقدم يتجه الخطاب الى المسلمين، يحذثهم عن القيم التي ينبغي لهم ان يحرصوا عليها، ويضحووا من أجلها. وهو يخبرهم ان هناك متاع وآلام، فيجب ان يتجملوا بالصبر والتقوى. كما يذكّرهم بحقيقة مقررة، وهي ان الحياة في هذه الأرض محدودة بأجل موقوت ثم تأتي نهايتها فيموت الصالحون والطالحون، المجاهدون والقاعدون، الشجعان والجبناء، العلماء والأنبياء. كل نفس ذائقة الموت لا محالة والبقاء لله وحده. . يومذاك يعطى العباد جزاء أعمالهم وافيًا، فمن خلص من العذاب وأبعد عن النار فقد فاز فوزاً عظيماً.

روى الامام أحمد ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت الى الناس ما يحب ان يؤتى اليه» .
وما حياتنا هذه التي نمتنع بلذاتها، من مأكّل ومشرب أو جاه ومنصب وسيادة، الا متاع الغرور، لأنها تخدع صابحها وتشغله كل حين بجلب لذاتها ورفع آلامها ومهما عاش الانسان وجمع من مالٍ أو حصل على منصب فانه مفارق هذا كله في نهاية الأم. وما الحياة الدنيا الا كما قال الشاعر.
«فما قضى أحد ما لبأته ... ولا انتهى أرب إلا الى أرب»

٣٠٧٨ 186

لتبلون: لمتحنن. من عزم الأمور: من صواب الرأي والتدبير.
ستختبرون أيها المؤمنون في أموالكم: بالنقص والنفاق والانفاق والبذل في جميع وجوه البر، وفي أنفسكم: بالجهاد، وبالقتل في سبيل الله، والأمراض والآلام. وسوف تسمعون من اليهود والنصارى والمشركون كثيرا مما يؤذيك من السب والطعن، فإن قابلتم ذلك كله بالصبر والتقوى، كان ذلك من صواب الرأي وحسن التصرف، وهو ما يجب العزم على التمسك به.

٣٠٧٩ 187

الميثاق: العهد المؤكد. فنبذوه: فرموه. واشتروا به ثمنا قليلا: وأخذوا بدله شيئا قليلا من مطامع الدنيا.
بعد ان بين الله تعالى شبهة اليهود ومطامعهم في نبوة سيدنا محمد جاء هنا يوضح موقف أهل الكتاب جميعاً في مخالفتهم عهد الله معهم يوم آتاهم الكتاب. وقد تضمن سياق السورة الكثير من أباطيل أهل الكتاب وأقاويلهم وبخاصة اليهود. ومن أبرزها كتمانهم للحق الذي يعلمونه حق العلم، بغية إحداث البلبلة والاضطراب في الدين الاسلامي، وإنكاراً لوحدة المبادئ بينه وبين الأديان التي قبله. هذا مع ان التوراة بين ايديهم، ومنها يعلمون أن ما جاء به محمد هو الحق من عند الله. إذن، لماذا يكتمون الحق ولا يبالون به؟ طمعاً في حطام تافه من عرض الدنيا!

هنا يكشف الله ألا عيبهم ثم يخاطل رسوله والمؤمنين: اذكروا حين أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب بلسان أنبيائهم أن يوضحوا معانيه ولا يحرفوه عن مواضعه، أو يحفوا شيئا من آياته عن الناس. لكنهم ألقوه وراء ظهورهم واستبدلوا به حطام الدنيا ليتمتعوا بلذاتها الفانية، {فَبَدَسَ مَا يَشْتَرُونَ} .

وينطبق هذا المسلمين اليوم، فهم قد اتبعوا أهواءهم وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم. من ثم أصبحوا حيارى، لا يدرون ماذا يعملون، فيما تتخطفهم الأمم من كل جانب.

قال الزمخشري رحمه الله: كفى بهذه الآية دليلاً على انه مأخوذ على العلماء ان يبينوا الحق للنار وما علموه، وان لا يكتموا منه شيئا. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل ان يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

وها نحن نرى كلتا الطائفتين مقصرة أشد التقصير. وعذاب الجهال منصب على رؤوس العالمين. وقد ألهى الطمع في المال والجاه.

٣٠٨٠ 188

«روى الامام أحمد والبخاري مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ان رسول الله سأل بعض احبار اليهود عن شيء فكتموا حقيقته، وأخبروه بغير الحقيقة، وخرجوا وقد أرواه ان قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك اليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه» وروى البخاري ايضا عن ابي سعيد الخدري أن رجلا ص من المنافقين كانوا اذا خرج رسول الله الى الغزو تخلفوا عنه

وفرحوا بمقعدهم ذاك. فاذا قدم من الغزو واعتدروا اليه وحلفوا، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا. فنزلت هذه الآية. ولا منافاة بين الروايتين، لأ، الآية عامة في جميع ما ذكر. وهي وان كانت في اليهود والمنافقين ففيها ترهيب للمؤمنين، وتنسحب على كل ما يجب أن يُحمد بما لم يفعل. وقد جاء عن النبي في الصحيحين: «من أدعى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله الا قلة» .

ومعنى الآية: لا تظننَّ أيها النبي ان الذين يفرحون دائماً بما يأتون من أفعال قبيحة، ويحبون الثناء بما لم يفعلوه سيكونون في نجوة من العذاب، فقد أعدَّ الله لهم عذاباً عظيماً يوم القيامة لا مفر منه. ولله ملك السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير، يؤاخذ المذنبين بذنوبهم ويثيب المسحنيين على احسانهم.

قراءات

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «لا يحسن الذين يفرحون. . .» بفتح الياء وضم الباء.

٣٠٨١ 190

الخلق: التقدير والترتيب الدال على الاتقان. اختلاف الليل والنهار: تعاقبهما. الأبواب: العقول. وعلى جنوبهم: مضطجعين. الأبرار: المحسنون، واحدُها بار أو بر. على رُسلك: على ألسنة رسلك. من أسلوب القرآن الكريم انه يجذب النفوس والعقول من الاشتغال بالخلق الى الاستغراق في معرفة الحق، فيأتي بين الآيات وفي أواخر السور بآيات مشوقة تريح الأعصاب وتثوق القلوب. فقد اشتملت هذه الآيات الحكيمة على ثلاثة أمور: الأول: لما طال الكلام في تقرير الأخذ والرد والجواب عن شبهات المبطلين، عاد التنزيل الى إثارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والالوهية. فقال: ان هذا الكون بذاته كتابٌ مفتوح، يحمل دلائل الايمان وآياته، ويشير الى أن وراء هذا الكون يداً تدبره بحكمة، ويوحى بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياةً أخرى، وحساباً وجزاء.

هذا ما اتفقت على وجوده الأديان الكائنية، وان اختلفت في تمثيل الحياة الأخرى.

وقد آمن الفلاسفة بالحياة الاخرى قبل الاديان الكائنية جميعاً وبعد مجيئها أيضاً. فن أشهر المؤمنين بها قبل الأديان «أفلاطون»، ومن أشهرهم بعدها «عمانويل كانت»، وهما يجمعان أطراف الآراء الفلسفية في سبب الإيمان ببقاء النفس بعد الموت. . . . ونريد من الإشارة الموجزة الى رأي هذين الفيلسوفين، ان يذكر الناظرون في مسألة الحياة بعد الموت انها مسألة بحث وتفكير، لا قضية اعتقاد وإيمان فحسب. . ان العقل لا يرنجها من تناول بحثه، فلا بد من توضيح الحقيقة الاعتقادية بالمحسوسات في كثير من الأحوال. وعلى هذا، ينبغي ان يروض فكره كل من ينظر الى عقيدة الحياة الأخرى في القرآن الكريم. وانما يدرك هذه الدلائل، ويرى هذه الحكمة «أولو الأبواب» من الناس، لا الذين يمرون بهذا الكتاب المفتوح وأعينهم مغمضة، وعقولهم مغلقة غير واعين.

والثاني: مدح لأولي الأبواب الذين يذكرون الله على كل حال، فهم يتفكرون في عظمة هذا الكون ثم يبتهلون الى الله بهذه الدعوات الصادقة، المنبعثة من قلوب صافية مؤمنة.

والأمر الثالث: استجابة الخالق العظيم لهم، بأنه لا يضيع أجر أحد، وأنهم سيرجعون الى رب رحيم، عادل، قد أعدَّ لهم أحسن الثواب وأجمل الإقامة. وها هو التفسير باقتضاب:

ان في خلق الله للسماوات والأرض، بما فيهما من ابداع، وإحكام نظام، وبديع تقدير، وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بنظام دقيق نحس آثاره في أجسامنا بفعل حرارة الشمس وبرد الليل لدلائل بينات لأصحاب العقول المدركة على وحدانية الله، وكمال قدرته. وفي هذه الآية إشارة الى حقائق مذهلة في هذا الكون العجيب، ذلك ان السماء ما هي الا آية من آيات الله تبدو لنا بتأثير الاشعة الشمسية على الغلاف الجوي المحيط بالأرض.

فعندما تسقط هذه الأشعة على ذرات العناصر الكيماوية التي يتألف منها الجو، وما يحمله من دقائق عالقة به تنعكس هذه الأشعة

وتنشئت، فنرى نحن الضوء الأبيض الذي يتألف من جميع الألوان المرئية.

وصفوة القول، ان ضوء النهار يتطلب الاشعاع الشمسي، وكمية متناسبة من الغبار الجوي. فقد حدث في سنة ١٩٤٤ أن أظلمت السماء فجأة في وضع النهار، ولشدة ظلمتها صار النهار كأنه الليل. وقد ظل الأمر كذلك زمناً وجيزاً، ثم تحولت السماء الى لون أحمر، تدرج الى لون برتقالي، فأصفر، حتى عادت الى حالتها الطبيعية، بعد نحو ساعة أو أكثر.

وقد تبين فيما بعد ان هذه الظاهرة نشأت من تفتت نيزك في السماء، استحال الى رماد، وحملته الرياح الى مسافات بعيدة من أواسط افريقية الى شمالها، ثم الى غربي آسيا، حيث شوهدت هذه الظاهرة في سورية. وتفسير ذلك ان الغبار المعلق في الفضاء قد حجب نور الشمس، فلها قلت كثافته أخذ الضوء في الاحمرار والاصفرار الى ان عاد طبيعياً.

أما ما نراه في هذه السماء من نجوم وأجرام سماوية ومجرات وكائنات، فهي أمور كُتبت فيها مجلدات وموسوعات يتطلب التعرف على أنظمتها دراسة واسعة وتخصصاً كبيراً، وهي مظهر من مظاهر قدرة الله سبحانه وتعالى التي تتجلى في خلقه كل ذلك.

والأرض أهم عالم عرفناه، وفيها أحوال لا توجد مثلها في شيء من هذا الكون الواسع. هي على ضخامتها في نظرنا لا تساوي في الحقيقة ذرة في هذا الكون العجيب. ولو ان حجمها كان أقل أو أكثر مما هي عليه الآن، لاستحالت الحياة فوقها. وهي تدور بسرعة مقدراتها ألف ميل في الساعة، وفيها جاذبية غير عادية، وهي تشد كل شيء اليها بفعل تلك الجاذبية.

وتكلم الأرض دورة واحدة حول محورها كل أربع وعشرين ساعة، ولو فرضنا ان انخفضت هذه السرعة الى مائتي ميل في الساعة، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشرات المرات، عما هي عليه الآن. ويترتب على ذلك ان تحرق الشمس كل شيء فوق الأرض، فإن بقي بعد ذلك شيء قضت عليه البرودة الشديدة في الليل.

ثم ان هذه الأرض دائرة في الفضاء حول الشمس، وعلى زاوية محددة، الأمر الذي تنشأ عنه فصول السنة، وصلاحية البقاع للزراعة والسكن، فلو لم تسر الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طوال السنة، ولسار بخار البحار شمالاً وجنوباً، ولما بقي على الأرض غير جبال الثلج وفيافي الصحراوات. . اذ ذاك تغدو الحياة على هذه الأرض مستحيلة تماماً.

ولوك انت قشرة الأرض أكثر سمكاً مما هي الآن بمقدار عشرة أقدام لما وجد الأكسجين، لأن القشرة الأرضية ستمتص الاوكسجين في تلك الحال. وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية.

وكذلك لو كانت البحار أعمق مما هي الآن بضعة أقدام، لا لنجذب إليها غاز ثاني اوكسيد الكربون، والاكسجين، ولا استحال وجود النباتات عند ذلك.

ويحيط بالأرض غلاف جوي خليط من الغازات التي تحتفظ بخاصائصها، وأقرب طبقات الأرض الى سطحها تسمى تروبوسفير، وهي تمتد الى ارتفاع ثمانية كيلو مترات عند القطبين والى ١١ كم في خطوط العرض الوسطى، و١٢ كم عند خط الاستواء. وفي هذه الطبقة يحدث خلط مستمر للهواء نتيجة للتيارات الصاعدة والهابطة. . . . وتتركب الغلاف الجوي من الأوزون والأكسجين، والأرغون، وثاني أوكسيد الكربون، وكميات ضئيلة من غازات النيون والكريتون والهيليوم والأيدروجين والأكسينون والأوزون، بالاضافة الى كميات متغيرة من بخار الماء والغبار. ولكل هذه المواد نسب معينة محددة لا تزيد ولا تنقص.

ولو كان الغلاف الجوي للأرض ألطف مما عليه الآن، لاخرقت النيازك الغلاف الخارجي منه كل يوم، ولرأينا هذه النيازك مضيئة في الليل، ولقسطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها. فولا ان غلاف الأرض الهوائي يقينا من هذه الشهب لأحرقتنا. ذلك ان سرعتها أكبر من سرعة طلقة البندقية بتسعين مرة، كما ان حرارتها الشديدة كافية لإهلاك كل ما على سطح الأرض.

والآن. ألا يدل على التوازن الدقيق العجيب جداً على قدرة الخالق وبديع صنعه! الحق أنه لم يكن صدفة، ولا وُجد عفواً كما يقول المبطلون الجاهلون.

لكن، من يدرك ذلك؟ إنهم أولوا الأبواب، فهم الذين ينظرون إليه ثم يستحضرون في نفوسهم عظمة الله وجلاله. ومن ثم تجدهم لا يغفلون عنه تعالى في جميع أحوالهم: قائمين، وقاعدين، وعلى جنوبهم. وهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، وما فيها من عجائب

ثم يقولون: ربنا ما خلقت كل هذا الكون العجيب عبثاً، بل وفق حكمة قدرتها، إنك أنت العزيز الحكيم.

وفي هذا تعليم للمؤمنين كيف يخاطبون ربهم عندما يهتدون إلى شيء من معاني إحسانه وكرمه في بدائع خلقه، فوقفنا يا رب بعنايتك إلى العمل الصالح حتى يكن ذلك وقاية لنا من عذاب النار.

ثم إنهم يضرعون إلى ربهم قائلين: يا ربنا وخالقنا، إن من يستحق النار بأعماله السيئة سيلقاها، وبذلك تكون قد أخزيت وأظهرت فضيحتة. وليس للظالمين الذين استحقوا النار أنصار يحمونهم يوم القيامة من دخول النار.

ثم يتجهون بقلوب خاشعة تطلب المغفرة الواسعة، والوفاء مع الأبرار فيبتهلون: يا ربنا، إننا سمعنا رسولك الكريم يدعو إلى الإيمان بك، فأطعناه وآمنّا، فاغفر بنا ذنوبنا كبيرها وصغيرها، وكفر عنا سيئاتنا واجعلنا في الآخرة من عبادك الأخيار. أعطنا يا رب ما وعدتنا على السنة رُسلك الكرام من حسن الجزاء في الدنيا كالنصر والتأييد، ومن النعيم في الآخرة. لا تفضحنا يا رب ولا تهتك سترنا يوم القيامة، انك لا تخلف ما وعد به جزاء الإيمان وصالح الأعمال.

ولقد استجاب لهم ربهم طلبهم بعد تلك المناجاة اللطيفة، والدعاء الخالص، فطمأنهم إلى أنه لا يضيع ثواب عامل، ذكراً أم أنثى، فكلهم سواء في الإنسانية.

وفي هذه الآية نصٌّ على أن الذكر والأنثى متساويان عند الله ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال.

بعد ذلك ينتقل البحث إلى المهاجرين من مكة، فالذين هاجروا يريدون وجه الله، أو أخرجوا من ديارهم وناهلهم الأذى في سبيل الله، وقاتلوا وتعرضوا للقتل قد كتب الله على نفسه أن يسمحو عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار. والله وحده عنده الثواب الجليل.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «وَقَاتِلُوا وَأَقَاتِلُوا»، وقرأ ابن كثير وابن عامر «وَوَقَاتِلُوا» بتشديد التاء.

٣٠٨٢ 196

يُغْرَنَك: يخدعُكَ. تقلب الذين كفروا: تصرفهم في التجارة والمكاسب. مأواهم: مصيرهم ونزلهم. . المهاد: المكان الممهّد. النزل: المنزل، أو ما يقدم للضيف من طعام وشراب. الأبرار: جمع بارٍّ ويرّ: كل متصف بالخير ومتوسع فيه.

بعد تلك المناجاة الروحية وما فيها من ابتهالات ودعوات، وما تلاها من تبشير من الله تعالى للمؤمنين بالثواب العظيم، جاء التبصير للمؤمنين. وكانوا في غاية الفقر، لا سيما المهاجرون، فيما كان مشركو قريش في رخاء وعيس لين. لذا ذكر الله تعالى هنا ما يسلي المسلمين ويصبرهم على تلك الشدة، فبين هنا أن رخاء المشركين متاع زائل، فلا ينبغي للعاقل أن يوازنه بالنعيم الخالد المقيم. فقال تعالى: لا يغرنك يا محمد، أنت والمؤمنين، ما ترى الذين كفروا يتقلّبون فيهن من النعيم، ذلك كلّ متاع قليل زائل ثم ينتهون إلى جنهم.

وبعد أن بين حال الكافرين ومآل أمرهم، شرح عاقبة المؤمنين فقال: أما الذين آمنوا بالله ورسوله واتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المنهات فإن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، مخلّدين فيها، في نعيم من كرم الله وضيافته. ولا شك أن ما عند الله من الكرامة أفضل على التحقيق مما يتقلب فيه الذين كفروا من المتاع القليل.

٣٠٨٣ 199

لقد روي في سبب نزول هذه الآية عدة روايات: النجاشي، أو جماعة من نجران، أو بعض أفراد من الروم. وهي على كمال حال تعم كل كُفَّابٍ آمن بالله ورسوله ولا عبرة بخصوص السبب. والمعنى: أن بعض أهل الكتاب يؤمنون بالله، وبما أنزل على محمد، وما أنزل على الرسل من قبله، وانت تراهم يا محمد خاشعين لله مبتهلين إليه، لا يستبدلون بآيات الله وإيمانهم الصحيح عَرَضاً من أعراض الدنيا

مهما عظم. فلهؤلاء القوم الجزاء الأوفى عند ربهم في دار الرضوان، والله لا يعجزه إحصاء أعمالهم ومحاسبتهم عليها، وهو قادر على كل شيء. ثم يختم الله تعالى هذه السورة العظيمة بوصية للمؤمنين إذا عملوا بها كانوا أهلاً لاستجابة الدعاء، وأحق بالنصر في الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

٣٠٨٤ 200

يا أيها المؤمنون اصبروا على شدائد الدنيا وآلامها، وألجؤا شهوات النفس وأطماعها، واصبروا على انحراف الناس ونقصهم وسوء أعمالهم، فالصبر شيء عظيم. ولقد حث الله تعالى عليه في نيف ومائة آية من القرآن الكريم، وما ذلك الا لعلو منزلته، وكونه من أكبر علائم النجاح في الدارين.

أما {وَصَابِرُوا} فتعني تحمّلوا المآكره التي تلحقكم من سواكم، وصابروا الأعداء دون أن ينفذ صبركم على طول المجاهدة، وسيكون لكم النصر بإذن الله.

{وَرَابِطُوا} في سبيل الله، وأصل المراقبة الإقامة في الثغور على حدود الأعداء ومواقع الجهاد، اما الآن فقد بات معناها الجهاد في جميع ألوانه والاستعداد له بكل ما ولّده هذا العصر من وسائل الدفاع والاسلحة الحديثة. ما ترك الجهاد قوم الا وقرّنه الله بالذل، فلننظر الى ما نحن عليه الآن من فرقة ونزاع واختلاف بين زعمائنا وحكامنا، وما يصدر من بعضهم من تبجح وتصريحات، فهل نحن في مستوى قضيتنا؟؟

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} والتقوى تصابح ل ما سبق، فهي الحارس اليقظ في الضمير تحرسه من أن يغفل، أو يضعف، أو يحيد عن الطريق القويم. فالصبر والمصابرة والجهاد بدون تقوى الله لا قيمة لها ولا فائدة منها.

{لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ} في الدنيا والآخرة، نسأل الله تعالى ان يوفقنا لتكون من هؤلاء، فنفوز مع الفائزين برضاه في الدارين، وصدق الله العيظم.

٤ النساء

٤٠١ 1

الزوج: يطلق على الذكر والأنثى. بث: خلق ونشر. تساءلون به: يسأل بعضكم بعضاً به، كأن يقول: سألتك بالله ان تفعل كذا. الأرحام: جمع رحم وهي القرابة. اليتيم: من مات أبوه وهو صغير قاصر. حوباً كبيراً: اثماً عظيماً.

يا أيها الناس احذروا عصيان خالقكم، الذي انشأكم من العدم، واذكروا انه أوجدكم من نفس واحدة خلق منها زوجها، ثم نشر منها رجالاً ونساءً كثيرين. فاتقوا الله الذي تستعينون به في كل ما تحتاجون، ويسأل بعضكم بعضاً باسمه فيما تتبادلون من أمور. كذلك تذكروا حقوق الرحم والقرابة عليكم فلا تفرطوا فيها ولا تقطعوا وشائجها.

وقد قرن الله الرحم باسمه الكريم لأن صلتها أمر عظيم عنده. وقد ورد في الحديث الصحيح «ان الرحم تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعته الله» وكذلك قال رسول الله «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».

ظهرت العناية باليتامى في القرآن الكريم منذ اول نزول الوحي، واستمر يوصي بهم الى أواخر نزول القرآن. وقد وردت آيات كثير توصي باليتيم والمحافظة على ماله حتى جعل بعضاً من يظلم اليتيم ويقتصر في حقه كأنه يكفر بالله ويكذب بيوم الدين.

في هذه السورة العظيمة جاءت الآيات تأمر بالمحافظة على أموال اليتامى والقيام بحقوقهم، ثم تشدد في التحذير من اهمال ذلك. وقد مهدت لهذه الأحكام في آيتها الاولى، فطلبت تقوى الله، والتقوى في الرحم، وأشعرت الناس أنهم جميعاً من نفس واحدة، فاليتيم

رحمهم وان كان من غير أسرهم.

وبعد هذا التمهيد الجميل أمرهم الله بحفظ أموال اليتامى حتى يتسملوها كاملة عندما يبلغون سنّ الرشد، كما حذرهم من الاحتيال في مبادلة الطيب المختار من مال اليتيم بالردىء الخبيث من أموال الوصي عليه، أو خلط أموالكم بأموال اليتامى. وقد عبر عن هذا بالأكل {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ} . فإن لجأتم الى التحايل بالمبادلة، أو الأكل تحت شعار الخلط، فاعلموا {إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا} اي ذنباً عظيماً، فاجتنبوه.

قراءات:

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «تساءلون» بفتح السين المخففة، وقرأ الباقون «تساءلون» بفتح السين المشددة، وقرباً حمزة «والارحام» بجر الميم.

٤.٢ 3

تقسطوا: تعدلوا. تعولوا: تملوا عن الحق، وقيل يكثر عيالكم.

يسأل كثير من الناس قديماً وحديثاً: ما وجه الربط بين العدل في معاملة اليتامى، ونكاح النساء! وقد سأل عروة بن الزبير خالته عائشة أم المؤمنين، ففسرت ذلك بأن بعض أولياء اليتامى كان يتزوج بمن عنده من اليتيمات اللاتي يحل له زواجهن، أو يزوجهن بعض أبنائه، ويتخذ ذلك ذريعة الى أكل مالها أو أكل مهرها الذي تستحقه بعقد الزواج. فأنزل الله تعالى هذه الآية مرشدة لهم بأن من كان عنده يتيمة وأراد ان يتزوج بها أو يزوجهن من بعض أبنائه، لا لغاية أكل مالها أو أكل مهرها فلا مانع من ذلك. اما اذا اراد ان يتزوجها ليأكل مالها أو مهرها، فان الله يأمره أن يتركها يتزوج غيره، وله ان يتزوج غيرها.

ولقد أباح له الزواج بأكثر من واحدة الى اربع نساء. ثم وضع شرطاً مهماً جداً فقال: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا} بين الزوجات فعليكم ان تكتفوا بواحدة فقط، لكم ان تتمتعوا بمن تشاءون من السراري. واختيار الواحدة اقرب من عدم الجور والظلم، اذا ان العدل بين النساء من الأمور الصعبة جداً. لذلك قال تعالى في آية أخرى {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ} والمقصود بالعدل هنا هو المعاملة الطيبة، والنفقة، والمعاشرة الحسنة للزوجات على السواء. اما العدل في مشاعر الرجل وميله القلبي فإنه غير ممكن وليس هو المقصود. فان النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلني فيما تملك ولا أملك» .

وموضوع تعدد الزوجات أمرٌ كثر فيه الكلام قديماً وحديثاً، واتخذ أعداء الاسلام سبيلاً للطعن فيه، ولا سيما المشركون والمبشرون. ولو ان هؤلاء المتعصبين بحثوا الموضوع بتجرد عن الهوى لرأوا ان الاسلام لم يبتدع تعدد الزوجات بل حدّده ووضع قيوداً تقلله بقدر الامكان. فقد كان التعدد معروفاً ومعمولاً به عند جميع الأمم، خفاء الاسلام ورخص فيه وقيد به بقيود صارمة. وذلك لمواجهة واقع الحياة البشرية، وضرورات الفطرة الانسانية. إن الناس ليسوا سواء، فمنهم من لا تكفيه زوجة واحدة ومنهم المضطّر الى الجمع، لأمر عديده والدين الاسلامي ليس ديناً جامداً، بل هو واقعي إيجابي، يتوافق مع افطرة الانسان وتكوينه كما ينظر الى واقعه وضروراته ولهذا أباح تعدد الزوجات بذلك التحفظ الشديد، فحسب ان يؤخذ هذا الموضوع بيسر ووضوح، وان تُعرف الملابس التي تحيط به، فلا ينبغي لمسلم ان يقدم على الزواج بأكثر من واحدة الا لضرورة، ومع مراعاة ما أوجبه الله من العدل.

{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} تمتعوا بما شئتم من السراري، وهذا غير موجود في عصرنا.

{ذلك أدنى أَلَّا تَعُولُوا} اي ان الاقتصار على زوجة واحدة اقرب الى عدم الوقوع في الظلم والجور، كما أنه أدعى إلى أَلَّا يكثر عيالكم فتعجزوا عن الانفاق عليهم.

٤.٣ 4

صدقاتهن: مهرهن. نحلة: عطية عن طيب نفس.

الخطاب للأزواج، وأعطوا النساء مهرهن عطية خالصة، ليس لكم فيها شيء. فإن طابت نفوسهن بأعطائكم شيئاً منها دون اجبار ولا خديعة فكلوا هنيئاً طيباً، محمود العاقبة.

وعلى هذا لا يجوز للرجل ان يأخذ لنفسه أو ينقص شيئاً من مهر زوجته الا اذا علم ان نفسها طيبة به، لأن العلاقات بين الزوجين ينبغي ان تقوم على السماح النابعة من القلب، والود الذي لا يبقى معه حرج.

٤.٤ 5

السفهاء: ضعاف العقول الذي لا يحسنون تدبير أنفسهم. قياما: تقوم بها أمور معاشكم وتمنع عنكم الفقر. وارزقوهم فيها: اعطوهم رزقهم من أموالهم، ولا تجددوها بل اتجروا بها حتى لا تنفذ.

ولا تعطوا ضعاف العقول ممن لا يحسنون التصرف في المال أموالهم التي هي أموالكم كمجتمع. ذلك ان مال اليتيم وضعيف القل هو مالمكم كمسلمين، فاذا ضاع أو تلف خسرتم أنتم. لذلك عليكم ان تثمروه وتحفظوا عليه حتى لا يضيع.

{التي جعل الله لكم قياماً} التي بها تقوم الحياة وثبت. وفي هذا حي على حفظ الأموال وعدم تضییعها. وقد كان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن. ولأن أترك مالا يحاسبني الله عليه خير من أن احتاج الناس.

(وأعطوهم رزقهم) اي أعطوهم من ثمراتها النصيب الذي يحتاجون اليه للطعام، واكسوهم وعاملوهم بالحسنى. {وقولوا لهم قولاً} يرضيهم ولا يؤذيهم.

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر «التي جعل الله لكم قيماً» والمعنى واحد.

٤.٥ 6

أنتم منهم رشدًا: أبصرتم منهم حسن التصرف في الأموال. اسرافا وبدارا ان يكبروا: لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومسرعين في تبذيرها قبل ان يكبروا. والبدار والمبادرة: المسارعة.

بعد أن أمرنا الله في الآيات السابقة بإتياء الايتام أموالهم وبأعطاء النساء مهرهن بين في هذا الآية الكريمة شرطام مهما، وهو: لا يعطى اليتيم أو القاصر ماله الا اذا كان بالغاً راشداً. فاختبروا عقول اليتامى وتبينوا حسن تصرفهم بالمال، حتى اذا أصبحوا صالحين للزواج وعرفتم فيهم الرشد والسداد فادفعوا اليهم أموالهم. وإياكم ان تأكلوها، لا مسرفين فيها بالانفاق منها (ولو على اليتيم نفسه)، ولا مستعجلين في الانفاق قبل ان يكبر اليتيم. ومن كان من الأوصياء غنياً فليتعفف عن أموال اليتامى، ومن كان فقيراً فليكتف بقدر مايكفيه بحسب الصرف الجاري في بلده ووقته. فاذا سلتموهم أموالهم فأشهدوا عليهم انهم قبضوها، (والاشهاد واجب عند الشافعية والمالكية ومندوب عند الحنفية)، والله من ورائكم هو المحاسب والمراقب.

وقد ورد في الحديث: «ان رجلاً سأل النبي ﷺ قال: لي مال وإني ولي يتي، فقال:» كل من مال يتيملك غير مسرف ولا متأثلاً مالا، ومن غير أن تقي مالك بماله «» .

٤.٦ 7

في هذه الآية الكريمة بدء لذكر الميراث، فقد كان العرب في الجاهلية لا يورثون النساء والأولاد الصغار، ويقولون: لا يرث الا من طاعن بالرمح وحاز الغنيمة.

وقد روي في سبب نزول هذه الآية ان أوس بن الصامت الأنصاري توفي وترك زوجة تدعى أم كحة، فخاز ابنها عمه، سويد وعرفطة، ميراثه ولم يعطيا الزوجه والبنات شيئاً. فجاءت أم كحة الى الرسول فشكت اليه أمرها. فدعاهما رسول الله، فقالا: ان الميراث لمن

يقاتل العدو ويكسب. فنزلت هذه الآية، ثم نزل تفصيل الميراث في الآيات التي بعدها. والمعنى انه: اذا ترك الولدان أو الأقربون مالاً فإنه ينقسم، للرجال نصيب منه، وللنساء نصيب، سواء أكان الوارث صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، ومهما كان المال الموروث قليلاً أو كثيراً. وهذا الآية عامة فصلتها الآيتان ١١ و ١٢ بعد قليل.

٤٠٧ 8

واذا حضر قسمة التركة بعضُ الاقارب الذين لا يرثون كالأخ لأبٍ مع وجود الأخ الشقيق، أو حضرها اليتامى والمساكين فأكرمهم. وذلك تطيباً لنفوسهم، ونزاعاً للخصد من قلوبهم وجمالوا عطاء كم لهم بقول حسن. ورى عبد الرزاق في مصنفه ان عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية، فل يدع مسكيناً ولا ذا قرابة الا أعطاه من ميراث أبيه. وتلا هذه الآية: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقَرْبَى . . .}

٤٠٨ 9

القول السديد: الحق الصواب. السعير: النار الحامية الملتهبة. تذكروا أيها الأوصياء ذريتكم الضعاف من بعدكم، وكيف يكون حالهم بعد موتكم فاعملوا اليتامى تحت وصياتكم بمثل ما تريدون ان يعامل أبناءكم. واتقوا الله في اليتامى وكلهمهم برفق ولين كما تكلمون أولادكم. كذلك ليخش الذين يوصون من أموالهم للفقراء ان يتركوا شيئاً لأولادهم، وعلى من يحضرون عند مريض يريد ان يوصي بشيء من أمواله ان ينصحوه بأن يوصي بقسم قليل ويترك لورثته الباقي خشية حاجتهم من بعده. ورى البخاري ان سعد بن أبي وقاص أراد ان يوصي بنصف ما لهم من بعده للفقراء، فنصحه النبي أن يوصي بالثلث وقال له: «ان الثلث ايضاً كثير. وانك إن تذر ورثتك أغنياء خير من تذرهم عالةً يتكففون الناس». الحديث. {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ . . .} هنا عاد سبحانه وتعالى الى التحذير بشدة من أكل أموال اليتامى فقال: ان الذين يظلمون اليتامى بأخذ أموالهم في غير حق، انما يأكلون في بطونهم النار التي سوف يتعذبون بها يوم القيامة. قراءات: قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «وسيصلون» بضم الياء، والباقون بفتحها.

٤٠٩ 11

بعد ان ذكر حكم الميراث مجملاً، بين هذه الآية والتي بعدها والأخرى التي في آخر السورة {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ. . .} أحكام الميراث الكبرى، وبقي هناك بعض الفرائض تكفلت بها السنة واجتهاد الأئمة. كانت أسباب الميراث في الجاهلية ثلاثة:

- (١) النسب: وهو الا يكون الا للرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون العدو، وليس للمرأة والأطفال ميراث.
 - (٢) التبني: كان الرجل يتبنى ولداً من الأولاد فيكون له الميراث كاملاً.
 - (٣) الحلف والعهد: فقد كان الرجل يحالف رجلاً آخر ويقول له: دمي دمك، وهدمي هدمك، وترثني، وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك. فاذا فعلاً ذلك يرث الحي منهم الميت. ومعنى هدمي هدمك (يجوز فتح الدال) : إن طلب دمك فقد طلب دمي.
- فلما جاء الاسلام أقر الاول والثالث فقط، وجعل الميراث للصغير والكبير على حد سواء، وورث المرأة. وقد أقر الثالث بقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ} ، كما أبطل التبني بحكم {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} .

فنظام الميراث الذي بينه القرآن نظام عادل مقبول، اعترف بذلك عظماء علماء القانون في أوروبا. وقد ابتع فيه الإسلام النظم الآتية: (١) جعل التوريث بتنظيم الشارع لا بإرادة المالك. وجعل للمالك حرية الوصية من ثلث ما له، وفي ذلك عدالة عظيمة، وتوزيع مستقيم.

(٢) عل للشارع توزيع بقية الثلثين للأقرب فالأقرب، من غير تفرقة بين صغير وكبير، فكان الأولاد أكثر حظاً من غيرهم في الميراث، لأنهم امتداد لشخص المالك. ويشاركهم في ذلك الأبوان والجددة والجد، لكن نصيبهم أقل من الأولاد. وذلك لأن الأولاد محتاجون أكثر من الأبوين والجدين. فهم مقبلون على الحياة، فيما الآباء والأجداد مدبرون عنها. وتلك حكمة بالغة.

(٣) جعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل، ليحفظ التوازن بين أعباء الرجل وأعباء الأنثى في التكوين العائلي. فالرجل يتزوج امرأة ويكلف بإعالتها هي وأبنائها منه، كما أنه مكلف أيضاً باخوانه ووالدته وغيرهما من الأرحام. أما المرأة فانها تقوم بنفسها فقط. والقاعدة تقول: «الغنى بالغرم»، ومن ثم يبدو التناسق في التكوين العائلي والتوزيع الحكيم في النظام الاسلامي.

(٤) يتجه الشرع الاسلامي في توزيعه للتركة الى التوزيع ون التجميع، فهو لم يجعلها للولد البكر كما في النظام الانجليزي، ولا من نصيب الأولاد دون البنات، ولم يحرم أحداً من الأقارب، فالميراث في الاسلام يمتد الى ما يقارب القبيلة. وقاعدته: الأقرب فالأقرب. وقد كرم المرأة فورثها وحفظ حقوقها. ثم انه لم يمنع قرابة المرأة من الميراث، بل ورث القرابة التي يكون من جانبها، كما ورث التي تكون من جانب الأب، فالأخوة والأخوات لأم يأخذون عندما يأخذ الأشقاء. وفي بعض الحالات يأخذ أولاد الأخ ويأخذ الإخوة والأخوات.

وهذا تكريم للأئمة لا شك فيه واعتراف بقرابتها.

التفسير:

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ . . } الآية يأمركم الله تعالى في شأن توريث أولادكم ان يكون: للذكر مثل حظ الأنثيين. واذا كان المولود انثى واحدة فنصيبها النصف، والباقي لأقارب المتوفى، واذا انعدم الأقارب ردت التركة الى بيت المسلمين. واذا كانت الوارثات بنتين فأكثر فمن حقهن ان يأخذن ثلثي التركة، ويكون الباقي للأقارب أو بيت المال. ولا يرث الكافر، ولا القاتل عمداً، ولا العبد الرقيق.

وعند الشيعة الامامية: تأخذ البنت أو البنات فأكثر جميع التركة، ونصيب كل من الأبوين السدس اذا كان الميت له ولد. واذا كان لم يخلف الميت أولاداً وورثه أبواه أخذت الأم الثلث وكان الباقي للأب.

واذا مات الميت وترك أباً وأماً وعدداً من الاخوة فلأُمه السدس والباقي للأب، اذا ان الاخوة يحجبون الأم وينقصون ميراثها ولا يرثون. وقال ابن عباس: يأخذون السدس، ولكن هذا مخالف للجمهور.

وكل هذه القسمة من بعد تنفيذ الوصية اذا أوصى الفقيد، ومن بعد سداد الدين اذا وجد، والدين مقدّم على الوصية بإجماع العلماء. هذه فريضة من الله يجب اتباعها، اما أنتم فلا تدرون اي الفريقين أقرب لكم نفعاً: آبائكم أو أبناءكم، فلا تجرموا أحداً ممن له نصيب من التركة. فالله هو العليم بمصالحكم الحكيم فيما فرض عليكم.

قراءات:

قرأ حمزة والسكاكي «فلايمه» بكسر الهمزة. وهي الآن لغة بعض البلاد الشامية.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر «يوصي» بفتح الصاد.

٤٠١٠ 12

ونصيب الزوج من زوجته نصف الميراث ان لم يكن لها ولد منه أو من غيره، فان كان لها ولد فللزوج الربع. ونصيب الزوجة أو الزوجات، من زوجهن الربع اذا لم يكن له ولد، فان كان له منهم او من غيرهن ولد فللزوجة أو الزوجات الثمن. وولد الولد كالولد فيما تقدم. وكل هذه القسمة من بعد تنفيذ الوصية وقضاء الدين.

وبعد ان بين سبحانه وتعالى حكم ميراث الأولاد والوالدين والأزواج ممن يتصل بالميت مباشرة شرع يبين من يستل به بالواسطة، وهو الكلالة، فقال: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً. . .}

وان كان الميت رجلاً أو امرأة يورث كلاله، اي ليس له ولد ولا والد ولا أم، وترك أخاً لأم أو اختاً لأم فنصيب كل واحد منهما السدس. فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث للذكر مثل الانثى، من بعد تنفيذ الوصية وقضاء الدين ان وجد. وفي كل ما تقدم يجب ان تكون الوصية من ثلث الميراث فقط لا تزيد عليه، حتى لاتضر الورثة. وقلنا هنا إن الأخ والأخوات لأم، لأن الإخوة الأشقاء سيأتي حكمهم في آخر السورة. والوصية مستحسنة، وقد قال علي بن أبي طالب:

لأن أوصي بانخس أحب الي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب الي من أن أوصي بالثلث. فالزموا ايها المؤمنون ما وصاكم الله به، فانه عليم بما ينفعكم، حلیم لا يعاجل الجائر بالعقوبة.

قراءات: قرأ ابن كثير وابن عامر وابن عباس عن عاصم «يوصى» بفتح الصاد.

٤٠١١ 13

تلك الأحكام المذكورة في بيان الموارث وما سبقها، وهي شرائع الله تعالى التي حددها لعباده ليعلموا بها ولا يعتدوها، فمن استقام وأطاع الله والرسول وابتاع هذه الشرائع كان جزاؤه الجنة التي تجري فيها الأنهار خالداً فيها، منعماً راضياً مرضياً، وذلك هو الفوز العظيم. ومن لم يتقيد بها فانه يكون عاصياً لله والرسول، فجزاؤه نار جهنم مخلداً فيها معذباً مهاناً.

قراءات: قرأ نافع وابن عامر «ندخله» بالنون.

٤٠١٢ 15

الفاحشة والفحش والفحشاء: ما عظم قبحه من الافعال والأقوال. والمراد بها هنا الزنا. كانت الآيات السابقة تعالج تنظيم حياة المجتمع الاسلامي، فعُنيتُ بحقوق اليتامى والسفهاء المالية، كما عُنيتُ بحقوق النساء وشؤون الميراث، فأبطلت ما كان عليه أهل الجاهلية في توزيع الميراث وبينت القسمة العادلة بياناً شافياً. أما هذه الآية فإنها تعالج حياة المجتمع المسلم، وتطهيره من الفاحشة التي كانت متفشية في أهل الجاهلية. وكان الحم في ابتداء الاسلام ان المرأة اذا ثبت زناها بشهادة أربعة رجال حُبست في بيتها فلا تخرج منه حتى تموت. وهو ما تحكم به هذه الآية. لكنه لم يستمر فقد جاء تفصيل الحكم لاحقاً في سورة النور وفي الاحاديث الصحيحة.

واللاتي يأتين الزنا من نسائكم، بعد ثبوته عليهن بحق، فاحبسوهن أيها المؤمنون في البيوت وامنعهن من الخروج الى ان يتوفاهن الله {أو يجعل الله لهن سبيلاً} اي يفتح لهن طريقاً مستقيماً للحياة، بالزواج أو التوبة. قال ابن عباس: هذا كان الحكم لهذه الفاحشة ثم أبدله الله في سورة النور وجعله الجلد.

٤٠١٣ 16

أما اللذان يرتكبان الزنا أو اللواط وهما غير متزوجين، فلتكن عقوبتهما الإيذاء بالتوبيخ والتأنيب بعد ثبوت ذلك بشهادة أربعة من الرجال. فإن تابا ورجعا وأصلحا عملهما فأعرضا عنهما ولا تذكروهما بما ارتكبا أو تعيروهما به، لأن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو

عنهم برحمته الواسعة.

وقال بعض المفسرين ان المراد باللاتي في أول الآية: من يأتين المساحقة، والمراد بالذان: من يأتين اللواط ثم عدلت العقوبة بعد ذلك.
قراءات:
قرأ ابن كثير «والذان» بتشديد النون.

٤٠١٤ 17

{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ. . .}

إنما التوبة مضمونة عند الله، أوجب قبولها على نفسه بوعده الذي هو أثر من كرمه وفضله للذين يعملون السيئات عن حماقة فيهم، ويفعل الطيش وعدم التبصر، ثم يندمون على ما فرط منهم ويتوبون الى الله. أولئك يقبل توبتهم، لأنه عليم بشئون عباده، يعلم ضعفهم ولا يؤاخذهم عليه.

{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ. . .}

ان التوبة غير مقبولة من الذين يعملون السيئات وهم مصرون عليها، ثم يتوبون عند حضور الموت. كذلك لا تقبل التوبة من الذين يموتون على الكفر، بل لقد أعد الله للفريقين عذاباً أليماً.

٤٠١٥ 19

العضل: التضيق والشدة. ولا تعضلوهن: لا تمنعهن من الزواج. الفاحشة: الفعلة الشنيعة. مبينة: ظاهرة، مفضوحة. المعروف: ما تألفه الطباع.

روى البخاري وابو داود والنسائي وغيرهم انه كان اذا مات الرجل في الجاهلية كان أولياؤه أحق بامرأته، ان شاء بعضهم تزوجها وان شاءوا زوجها لمن يشاءون، وان شاءوا لم يزوجوها ابداً. كانوا هم أحق بها من أهلها. . فنزلت هذه الآية. ومن بعض عادات الجاهلية الممقوتة ان كان الرجل اذا مات ابوه عن زوجة غير أمه فرض عليها زواجها منه، من غير عقد جديد. وكان اذا طلق امرأته وقد دخل بها فإنه يسترد كل ما اعطاها من مهر سابق. ومنهم من كان يطلقها ويعمل على منعها من الزواج بغيره ظلاً وعدواناً. . فجاء الاسلام ورفع عنها ظلم العضل، وهو من المرأة من الزواج بمن تريد، او ايداؤها لملها على طلب الطلاق لقاء مال تدفعه الى الزوج. كذلك كان من الجائر عندهم ان يتزوج الرجل مطلقة أبيه، فهي الاسلام عنه، وسماه مقماً، لأنه أمر فاحش القبح.

يا أيها المؤمنون لا يحل لكم ان تسيروا على سنة الجاهلية فتجعلوا النساء كالمَتَاعِ، وترثوهن كما ترثون الأموال والعبيد، وتصرفون فيهن كما تشاءون، تتخذونهن زوجات من غير مهر، كرهاً. ولا تظلموهن بالتضييق عليهن حتى يفتدين أنفسهن منكم بالمال الذي دفعتموه لهن من مهر، أو ما حصلن عليه من ميراث.

{إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ} الا ان يرتكبن إثماً بيناً بزنى، أو بنشوز أو سوء خلق، فعند ذلك لكم ان تضيقوا عليهن أو تأخذوا بعض ما آتيتموهني عند الفراق.

{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} عليكم ان تحسنوا معاشره النساء، فتدخلوا عليهن السرور بالقول والعمل. والزواج شركة يجب ان يكون فيها كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر وهناءته. {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً. . .} الآية. فالزواج مبني على المودة والرحمة في الاسلام.

{فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ. . .} {لِعَيْبٍ فِي اخْلَاقِهِنَّ أَوْ خَلَقِهِنَّ، أو لتقصير في العمل والواجب عليهن نكحمة البيت وغير ذلك؛ أو لميل منكم الى غيرهن فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن ولا مفارقتهن، عسى ان يجعل الله في المكروه خيراً كثيراً.
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «كرها» بالضم وهما لغان كرها وكرها. وقرأ ابن كثير وأبو بكر «مبينة» بفتح الياء، هنا وفي سورة الأحزاب وسورة الطلاق.

٤٠١٦ 20

زوج: زوجة. بهتاناً: ظلماً، وأصل البهتان الكذب الذي يهت المذكوب عليه. افضى بعضهم الى بعض: وصل بعضهم الى بعض، وامتزج به. الميثاق: العهد. الغليظ: الشديد المؤكد.

واذا رغبت ايها الازواج في استبدال زوجة مكان أخرى وأعطيتم الأولى مالاً كثيراً، فلا يحل لكم ان تأخذوا منه شيئاً. . تأخذونه ظالمين! ان ذلك إثمٌ وبهتان عظيم. وكيف يسوغ لكم ان تستردوا ما أعطيتم من المهر، بعد أن تأكدت بينكم الرابطة الزوجية المقدسة، ولا بس كل منكما الآخر حتى صار بمنزلة الجزء المتمم لوجوه!

{وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا} بهذه العبارة الهائلة يختم الله تعالى هذا الآيات فيُفرغ على عقد الزواج صبغة كريمة جعلته فوق عقود البيع والاجارة والتملك. فتعبير «ميثاقاً غليظاً» الذي يعني: شديداً مؤكداً، له قوته في الإيحاء بموجبات الحفظ والمودة. والزواج في عرف الشرع عهد شريف ترتبط به القلوب، وتختلط به المصالح: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: ١٨٧] .

وكلمة الميثاق لم ترد في القرآن الكريم الا تعبيرا عما بين الله وعباده من موجبات التوحيد، والتزام الاحكام، وما بين الدولة والدولة من الشئون العامة الخطيرة، ثم على عقد الزواج. ومن هذا ندرك مقدار المكانة التي سما القرآن بعقد الزواج اليها.

٤٠١٧ 22

سلف: مضي. مقتا: مبعوضا. ساء سييلاً: بس العادة. لا تتزوجوا ايها الأبناء ما تزوج آباؤكم من النساء، فإنه أمر فاحش يمقته الله والناس. وكان هذا النكاح فاشياً في الجاهلية. فقد أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال: لما مات قيس بن الأسلت قام بانه محصن فورث نكاح امرأته، ولم ينفق عليها، ولم يورثها من المال شيئاً. فأتى النبي عليه السلام فذكرت له ذلك، فنزلت آية {لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا} . الخ وهذه الآية: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ} . وهو أسوأ سبيل فتجنّبوه، لكن الله يعفو عما سلف منكم في الجاهلية. بعد ذلك بين الشارع انواع المحرمات فقال: حرمت عليكم أمهاتكم. . الآية: ٢٣.

٤٠١٨ 23

هنا يبين أقسام المحرمات، بدأ بالأمهات، وكذلك يقاس عليهن الجدات. وهن الأصول. ثم البنات، وهو الفروع. والمراد بهن ما يشمل بنات أصلاً بنا أو بنات أولادنا ممن كنا سبباً في ولادتهن. ثم الحواشي القريبة، الأخوات الشقيقات والأخوات لأب ولأم. ثم الحواشي البعيدة من جهة الأب والأم، وهن العمات والخالات. ثم الحواشي البعيدة من جهة الاخوة، بنات الأخ وبنات الأخت. ثم يأتي القسم الثاني، وهو ما حرم من جهة الرضاعة. وهذا النوع من خصائص الاسلام، فلا يوجد مثله في شريعة أخرى من الشرائع. وهن الأمهات اللاتي أرضعنكم، وأخواتكم من الرضاعة. وعند مالك وأبي حنيفة يحرم قليل الرضاعة وكثيرها، وحدد بعضهم الرضاعة بثلاث رضعات فأكثر. ومذهب الشافعي وأحمد خمس رضعات مشبعات. وعند الإمامية خمس عشرة رضعة، وبعضهم يقول عشر رضعات، ويشترط ان يكون وقت الرضاعة في مدة الرضاعة، يعني في سن الحولين.

وأخيراً يأتي القسم الثالث، وهو محرمات المصاهرة التي تعرض بسبب الزواج. وهي اربعة أنواع: أمهات نسائكم، وربائبكم اللاتي في جواركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فان عقد عقده على امرأة ولم يدخل بها لا تحرم عليه بناتها. وزوجات أولادكم وأولادهم. وحرمة

عليكم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها وخالتها، والضابط بذلك انه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابه بحيث لو كانت احدهما ذكراً لحرم عليه بتلك القرابة نكاح الاخرى.
اما ما قد مضى في الجاهلية فان الله لا يؤاخذكم عليه ان اكله كان غفورا رحيمًا.

٤٠١٩ 24

المحصنات: العفيفات، والمراد الحرائر المتزوجات. ما ملكت أيمانكم: ما سبيتهم في الحروب. ما وراء ذلك. محصنين: عفيفين. غير مسافحين: المسافحة هي الزنى.

وبالاضافة الى ما سبق حُرِّمَ عليكم نكاح المتزوجات عامة الا مَنْ سَبَيْتُمْ وملكتم منهم في حرب بينكم وبين الكفار. إن عقد زواجهن السابق يفسح بالسبي فيصرن حلالاً لكم بعد استبراء أرحامهن، هذا ما كتب عليكم تحريمه فرضاً مؤكداً من عند الله. وأحلَّ الله لكم ما وراء ذلك من النساء، تتزوجون بأموالكم منهم من تشاؤون، محصنين أنفسكم، بعيدين عن الزنا والمخادعة. وأي امرأة من النساء اللات أحلن لكم فاستمتعتم بالزواج منها، فأعطوها مهرها الذي اتفقتم عليه عند القعد. ذلك فريضة من الله فرضها عليكم لا تسامح فيها؟. بيد أنه لا حرج عليكم فيما اذا تراضيت على النقص في المهر بعد تقديره، أو تركه كله، أو الزيادة فيه. إن ذلك عائد للزوجين اذا ما تفاهما وعاشا في مودة وطمأنينة. وهذا مايغيه الشارع الحكيم.

وقد تمسك الشيعة الإمامية بقوله تعالى {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} وقالوا ان المراد بذلك هو المتعة، وهي الزواج المؤقت. كما قالوا: ان هذا دليل واضح. ولا تزال المتعة قائمة عندهم، معمولاً بها. يقول الطبرسي، وهو من كبار علماء الشيعة الإمامية في تفسيره «مجمع البيان» عده هذه الآية: «قيل المراد به نكاح المتعة، وهو النكاح المعتقد بمهر معين الى أجل معلوم، عن ابن عباس والسدي وجماعة من التابعين، وهو مذهب اصحابنا الإمامية الخ» وكذلك يقول شيخ الطائفة العلامة ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في تفسيره «التيبان».

ويقول ابن رشد في «بداية المجتهد»: «وأما نكاح المتعة فإنه تواترت الاخبار عن رسول الله ﷺ بتحريمه، الا انها اختلفت في الوقت الذي وقع فيه التحريم. . . وأكثر الصحابة وجميع فقهاء الأمصار على تحريمها، واشتهر عن ابن عباس تحليلها، ورووا انهن كان يحتج بذلك بقوله تعالى {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} الآية وفي قراءة عنه {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} . . الخ. وهذا الذي روي عن ابن عباس، رواه عنه ابن جريج وعمر بن دينار. وعن عطاء، قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: تمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر ونصف من خلافة عمر ثم نهى عنها عمر الناس». قراءات:

قرأ الكسائي: «المحصنات» بكسر الصاد في جميع القرآن، بمعنى أحصن فزوجهن. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «وأحل لكم» بضم الهمزة وكسر الحاء كما هو في المصحف هنا، والباقون قرأوا «وأحل لكم» بفتح الهمزة والحاء.

٤٠٢٠ 25

الطول: الغنى والفضل من مال او قدرة على تحصيل الرغائب. المحصنات: الحرائر. الفتيات: الإماء. مسافحات: مستأجرات للبغاء، وكان ذلك فاشيا في الجاهلية. والأخدان: واحداه خدن، وهو الصاحب تتخذه المرأة سراً كما كان في الجاهلية. العنت: المشقة. ومن لم يستطع منكم نكاح الحرائر المؤمنات لعدم قدرته المادية على ذلك فله ان يتزوج أمة من الإماء المؤمنات. والله أعلم بحقيقة إيمانكم فلا تستنكفوا من نكاحهن. فأنتم وهن سواء في الدين بعضكم من بعض. فإذا رغبت في نكاحهن فتزوجوهن بإذن أصحابهن، وأدوا

لهن مهورهن التي تفرضونها لهن، حسب المعروف بينكم في توفية الحق ومهر المثل. واختاروهن عفيفات وزوجات لكم، لا مستأجرات للبغياء جهراً، ولا متخذات العشاق والاصحاب سراً. فإذا اقترفن الزنا بعد زواجهن فعقوبتهن نصف عقوبة الحرة. {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنْتَ مِنْكُمْ. . .} وما اباحة نكاح الاماء عند العجز عن الحرائر لمن خشي الضرر على نفسه إلا تسهيل من الله لكم ورفع للخرج. هذا، وصبركم على نكاح المملوكات مع العفة خير لكم، والله كثير المغفرة عظيم الرحمة. قراءات:

قرأ أبو بكر وحمة «فاذا احصن» بفتح الهمزة والصاد، والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد.

٤٠٢١ 26

بعد ان ذكر الشارع احكام النكاح جاء هنا بين عللها وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم، ليكون في ذلك طمأنينة للقلوب، وسكون للنفوس. والمعنى إن الله، بما شرعه لكم من الأحكام، يريد ان يبين لكم مافيه مصالحكم ومنافعكم، وان يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء، كما يريد لكم ان تثبوا عن جميع أعمالكم السابقة في الجاهلية، فيرجع بكم الى طريق طاعته. والله مطلع على شئونكم، مدبر في أحكامه لما يصلح أموركم. انه يريد ان يتوب عليكم فيطهركم ويزكي نفوسكم، أما الذين يتبعون الشهوات من الكفار والفجرة فإنهم يريدون لكم ان تبتعدوا عن طريق الحق وتؤمنوا في ذلك. لقد خلق الله الانسان ضعيفا أمام غرائزه وميوله، ولذلك فإنه بتيسيره عليه في الأحكام إنما يود ان يخفف عنه ويرفع عنه الحرج. هذا هو الشرع الاسلامي الشريف.

٤٠٢٢ 29

اعتنى القرآن الكريم بالمال، والمحافظة عليه، والحث على تحصيله بطرق مشروعة، في كثير من الآيات. وفي هذه السورة جاءت العناية بالأموال من أولها عندما طلبت العناية باليتامى وحفظ أموالهم، ثم حذرت من اعطاء السفهاء أموالهم. وهنا جاء النص واضحاً على العناية بالأموال والمحافظة عليها، وذلك لأن الأموا عنصر لا بد منه في الحياة، وهناك كثير من الأمور نتوقف عليها الحياة وسعادتها، من علم، وصحة، واتساع عمران، لا سبيل للحصول عليها الا بالمال.

ولا ريب ان الأموال هنا تشمل أموال الافراد وأموال الأمة لأنه تعالى قال: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ} بمعنى انه يحرم على الافراد ان يأكل مال بعض بالباطل. ومن ثم فإن أكل أموال الأمة أو وضعها في غير مصلحتها هو أشد حرمة عند الله، وأكبر جرماً في نظر الإنسانية. لذلك يجب ان نحافظ على أموال الأمة والدولة كما نحافظ على أموال الافراد.

يا أيها الذين آمنوا لا يأخذ بعضكم مال بعض بغير حق، وقال (أموالكم) فأضافها الى جميع الأمة تنبيهاً الى تكافل الأمة في الحقوق والمصالح كأن مال كل فرد هو مال الأمة جميعاً. فاذا استباح أحدهم ان يأكل مال الآخر بالباطل: كالربا والقمار، والرشوة والسرقة، والغش والتسول، وغير ذلك فقد اباح لغيره ان يأكل ماله.

لقد اباح لكم التجارة بينكم عن طريق التراضي، والعمل الحر في نواح عديدة من الكسب الحلال. ثم لما كان المال شقيق الروح، فقد نهينا عن اتلافه بالباطل كنهينا عن قتل النفس. {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} . وهذه اشارة بليغة جداً تبين انه: لما كان من شأن أكل أموال الناس بالباطل ان يغرس الحقد في القلوب، وكثيراً ما يؤدي ذلك الى القتل والشر فقد قرنهما الشارع وجاء بهذا التعبير العظيم. ولا ريب في ان من سلب مال انساب إنما سلبه عنصراً هاماً من عناصر الحياة وصيره في حكم المقتول. {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً} بنبيكم عن أكل الأموال بالباطل، وعن قتل أنفسكم قتلها. اما من يقدم على مفعول ما حرم الله ونها عنه، اعتداءً وتجاوزاً لحقه، فسوف يكون جزاؤه يوم القيامة ناراً حامية وعذاباً أليماً. وعقابه هذا أمرٌ يسير على الله.

الكبائر: جمع كبيرة وهي الذنب العظيم كالشرك بالله وقتل النفس وغير ذلك. السيئات: الذنوب الصغيرة. نكفر: نحو، ونغفر، ونعفو. إن تركوا عمل الذنوب العظيمة وتبتعدوا عنها منح عنكم ما دونها من السيئات وصغائر الذنوب، فلا نؤاخذكم بها. وقد ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل ما اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». وقد وردت أحاديث كثيرة بتعداد الكبائر، وهي في بعضها سبع، وبعضها تسع، والحقيقة انه لا حصر لها. وقال بعض العلماء: كل ذنب رتب عليه الشارع حداً أو صرح فيه بوعيد فهو كبيرة. وفي هذا الآية الكريمة فرج كبير على المسلمين، والعلماء يقولون: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. قراءات: قرأ نافع: «مدخلاً» بفتح الميم.

التني: تشري حصول الأمر المرغوب فيه. من فضله: من احسانه ونعمه المتكاثرة. في هذه الآية الكريمة ينهى الله تعالى عن التحاسد وتمني ما فضل الله به بعض الناس من المال والجاه ونحوه، مما يجري فيه التنافس. وذلك ليظهر المجتمع الاسلامي ظاهراً وباطناً. ان الله كلف كلاً من الرجال والنساء أعمالاً، وليس لأحد أن يتمنى ما هو مختص بالآخر، فعلى المسلم الحقيقي ان يعتمد على مواقفه وقواه في كلم مطالبة، مع رجاء فضل الله فيما لا يصل اليه كسبه. واسألوا إحسانه وإنعامه فان خزائنه مملوءة لا تنفد، ولا تمنوا نصيب غيركم ولا تحسدوا من فضل عليكم. وقروى الترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله «سلوا الله من فضله، فان الله يجلب ان يسأل، وأفضل العبادات انتظار الفرج». قراءات: قرأ ابن كثير والكسائي «وسلوا».

موالي: جمع مولى وهو بمعنى الوالي الذي يتولى غيره. ومعناه: لكل انسان جعلنا ورثة يرثونه. الذين عقد ايمانكم: الازواج، فان كلاً من الزوجين له حق الإرث بالعقد. ولكل من الرجال والنساء جعلنا مستحقين لتركته يرثونه، وهم الوالدان والأقربون من الأصول والفروع والحواشي والازواج، والذين عقد المتوفى لهم عقداً مقتضاه ان يرثوه اذا مات من غير قرابة، وينصروه اذا احتاج الى نصرتهم في مقابل ذلك. وكان هؤلاء أربعة أنواع: الأول: عقد ولاء العتق، وهو النظام الذي يصبح بمقتضاه الرقيق بعد عتقه بمنزلة العضو في أسرة معتقه، اذا مات ولم يترك أحداً من عصبته. الثاني: عقد الموالاة، وهو ان يأتي غير العربي فيرتبط بعقد مع عربي فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه. وهذا يرثه اذامات بدون وارث. الثالث: العقد الذي عقده الرسول بين المهاجرين والانصار وكانوا بذلك العقد يتوارثون.

الرابع: كأن يعاقد الرجلُ الرجلَ ويقول: «ترثني وأرثك». ثم أبطل الاسلام معظم هذه العقود وجعل الميراث سببه القرابة. قراءات: قرأ غير الكوفيّين: {عاقدت أيمانكم}.

٤٠٢٦ 34

قواموا: يقومون عليهن ويهتمون بأمرهن وجميع شئونهن. قانتات: عابدات بخضوع وسكون. نشوزهن: عصيانهن، وتورفعهن على أزواجهن. البغي: الظلم.

في هذا الآية الكريمة تنظيم لشئون الأسرة، وتحديد اختصاص أعضائها. فلرجال حق الصيانة والرعاية للنساء والقيام بشئونهن، كي يمكن المرأة ان تقوم بوظيفتها الفطرية وهي الحمل وتربية الاطفال وهي آمنة مكفّية ما يهتمها من أمور أرزاقها وحاجاتها. ثم فصل حال النساء في الحياة المنزلة وبين أنهن قسمان: فالنساء الصالحات مطيعات للأوزاج حافظات لما يجري بينهن وبينهم في الشؤون الخاصة بالزوجية، وكذلك بحفظ بيوتهن وأموال أزواجهن، خضوعاً لأم الله في ذلك. والذي يرزق واحدة منهن يعيش في نعيم مقيم.

والقسم الثاني: الزوجات اللاتي تظهر منهن بوادر العصيان والترفع، وتخافون ألاّ يضمن بحقوق الزوجية، فانصحوهن بالقول اللين المؤثر واعتزلوهن في الفراش. واذا لم ينفع ذلك كله عاقبوهن بضرب خفيف غير مبرح، فان رجعن الى طاعكم فلا تبغوا عليهن ولا تتجاوزوا ذلك الى غيره. {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً} ان سلطان الله عليكم فوق سلطانكم على نسائكم، فاذا بغيت عليهن عاقبكم.

٤٠٢٧ 35

الشقاق: الخلاف. كان الحديث في الآية السابقة عما اذا كان الخلاف من الزوجة فقط، لكنه هنا فيما اذا كان من احد الزوجين. ومنطوق الآية الكريمة يحصر على التوفيق ولذلك قال: {إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا}. فان حدث خلاف بين الزوجين فقد يكون بسبب نشوز المرأة وقد يكون بسبب ظلم الرجل، فإن تأزّم الموقف وجب على اقاربهما فن عقلاء المسلمين. وعلى الحكمين ان يجتهدا في تقريب وجهة النظر بين الزوجين ويذكراهما ان الحياة الزوجية مبنية على الرفق والمودة. ومتى صدقت الارادة وصحت العزيمة فان الله كفيل بالتوفيق. ان الله شرع لكم هذه الاحكام وهو عليم بأحوال العباد واخلاقهم، خبير بما يقع بينهم، لا يخفى عليه شيء.

٤٠٢٨ 36

بذي القربى: أقرباء الانسان من أخ وعم وخال ونحوهم. الجار ذي القربى: الذي قرب جواره. الجار الجنب: الجار الذي لا قرابة له، أو البعيد. صاحب الجنب: الرفيق في السفر، او المنقطع اليك. ابن السبيل: المسافر او الضعيف. ما ملكت أيمانكم: الأرقاء العبيد.

بعد ان عالجت السورة أمر الأيتام والنساء والميراث وحفظ الأموال وتنظيم الأسرة، جاء التذكير هنا بحسن معاملة الخالق، ثم التذكير بحسن معاملة الناس. فالسورة تأمر بأساس الفضائل التي تهذب النفس وهي عبادة الله والاخلاص له، كما تأمر بالإحسان في معاملة الناس، وتخص بالذكر طوائف من الناس، الإحسان إليها احسان الى النفس والأسرة والى الانسانية كلها. بذلك تضع للمسلمين اساس الضمان الجماعي، والتكافل الحقيقي بينهم.

اعبدوا الله وحده ولا تشركوا معه أحداً، وأحسنوا الى الوالدين إحساناً لا تقصير فيه، لأنهما السبب الظاهر في وجودكم، وأحسنوا معاملة اقرب الناس اليكم بعد الواليد، والى اليتامى، والى المساكين الذين افتقروا بسبب عجزهم او بذهاب الكوارث بأموالهم، والى

الجيران سواء منهم القريب او البعيد. وقد وردت أحاديث كثيرة تحض على الاحسان الى الجار مهما كان دينه او جنسه، فقد عاد النبي بن جاره اليهودي، وذبح ابن عمر شاة فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودي؟
واكرام الجار من شيم العرب قبل الاسلام، وزاده الإسلام تأكيداً بما جاء في الكتاب والسنة. من إكرامه ارسال الهدايا اليه، ودعوته الى الطعام، وتعاهده بالزيارة والعيادة ونحو ذلك. وهناك حديث الصحيحين المشهور: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيروته» .

والصاحب بالجانب هو الرفيق في السفر، وابن السبيل هو المسافر المحتاج، وما مالكم من الأرقاء كل هؤلاء تجب معاملتهم بالحسنى .
فإن الله لا يحب من كان متكبراً متعالياً على الناس لا تأخذه بهم رحمة. وفي الحديث الذي رواه ابو داود والترمذي عن ابن مسعود قال رسول الله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا وفعله حسنا، فقال الرسول الكريم: «ان الله جميل يحب الجمال» .

٤٠٢٩ 37

أعتدنا: هيئنا: رثاء الناس: للمراة والفخر. القرين: صاحب.
هذه الآيات الكريمة تبين هنا ان التقصير في الحق الاجتماعي شأنُ المختالين المتكبرين. وهم الذين يظهر أثر كبرهم في عملهم، وفي أقوالهم. ومثل هؤلاء لا يعترفون بحق للغير على أنفسهم. وقد جعلهم الله صنفين من طبيعة كل منهما ألا يعترف لله بشكر على نعمة، ولا للخلق بحق عليه، فهم يخلون ويأمرون الناس بالبخل، ويخفون نعمة الله عليهم فلا ينفعون أنفسهم ولا الناس. هذا ما كان يفعله جماعة من اليهود، يأتون رجالاً من الانصار فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فنحن نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون.

{وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} وهيئنا هؤلاء عذاباً يهينهم ويذلهم.
والنصف الثاني: {وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ} فهؤلاء يبذلون المال لا شكراً لله على نعمه، ولا اعترافاً لعباده بالحق بل الرياء أمام الناس. وهم بذلك يقصدون ان يراهم الناس فيعظموا قدرهم ويحمدوا فعلهم ويمدحهم، وهم غير مؤمنين بالله ولا باليوم الآخر، يوم الجزاء الأكبر، لأنهم تبعوا الشيطان فأضلهم.

وحسب هذين الصنفين من البشر تسجيل القرآن الكريم عليهم ان قرينهم الشيطان منبع الشر والمغزي بالفساد، {وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا} وبئس صاحب.

{وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا} . . {وما الذي كان يضرهم لو آمنوا ايماناً صحيحاً لا رياء فيه ولا كذب، بالله وباليوم الآخر، واعطوا من المال والرزق الذي آتاهم الله استجابة لهذا الايمان وما يقتضيه من اخلاص النبوة ورجاء الثواب، والله عالم كل العلم ببواطن الأمور وظواهرها لا ينسى عمل العاملين، ولا يظلمهم من أجرهم شيئاً.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «ويأمرؤن الناس بالبخل» بفتح الباء والحاء. وهي لغة.

٤٠٣٠ 40

الذرة: أصغر ما يدرك من الاجسام. من لدنه: من عنده.
ان الله تعالى لا ينقص أحداً من أجر عمله والجزاء عليه شيئاً ما، حتى وإن صغر كدرة الهباء. يضاعف للمحسن ثواب حسنة، ويعطي من فضله عطاء كبيراً، اضاعافاً مضاعفة، بدون حساب. ان الظلم لا يقع من الله تعالى، لأنه من النقص الذي يتنزه عنه، وهو ذو

الكمال المطلق والفضل العظيم.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع «حسنة» بالرفع. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يضعفها» بالتشديد. والمعنى واحد.

٤٠٣١ 41

يود: يتقنى: لو تسوى بهم الارض: ان يدفنوا وتسوى عليهم الأرض.

ثم يختم سبحانه وتعالى الأوامر والنواهي المتقدمة بمشهد من مشاهد القيامة، ويحسم موقفهم فيه، ويرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة مترحكة فيقول:

فكيف يكون حال هؤلاء البخلاء المتكبرين والمعرضين عما أمر الله به، اذا جئنا يوم القيامة بكل نبي شهيداً على قومه، وجئنا بك يا محمد شهيداً على قومك أيضاً؟ .

{يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا. .}

في ذلك اليوم يتقنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء به، لو يدفنون في الأرض كما تدفن الأموات، وتسوى بهم الأرض. وكما جاء في سورة النبأ {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} .

{وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}

فإنهم يتنون ان يكون تراباً، ولا يكونوا قد كتموا الله وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكارهم شركهم وضلالهم، كما وضح ذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام .

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «تستوى» بفتح التاء والسين المخففة. وقرأ نافع وابن عامر «تسوى» بفتح التاء وتشديد السين والواو المفتوحتين. والباقيون «تسوى» كما هو هنا بضم التاء.

٤٠٣٢ 43

الغائط: الموضع المنخفض من الأرض. كان العرب إذا أراد أحدهم قضاء الحاجة عمد في ذلك الى مكان منخفض. فصاروا يكتنون عن قضاء الحاجة، بالخروج الى الغائط. لامستم النساء: جامعتم. تيمموا: اقصدوا. الصعيد: وجه الأرض.

هذه هذ الآية الثانية التي تنزل في الخمر فقد كانت الخمر متفشية في المجتمع الجاهلي، فنزل تحريمها تدريجياً. وهناك روايات عديدة في سبب نزول هذه الآية، فمنها ما رواه أبو داود والترمذي عن علي بن أبي طالب قال: «صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت منا. وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون} فنزلت الآية ومعناها:

يا أيها الذين آمنوا لا تصلوا وأنتم في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول. فالصلاة وقوف بين يدي الله، فيجب ان يكون المصلي صاحباً ليتدبر القرآن والذكر فيما يقول. ثم قال:

{وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ} ، أي لا تصلوا وأنتم جنب، ولا تدخلوا المساجد وأنتم جنب إلا عابري الطريق، حتى تطهروا. ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة يجب تأديتها في وقتها، وكان الاغتسال من الجنابة يتيسر في بعض الحالات ويتعذر في بعضها الآخر فقد رخص الله ترك استعمال الماء والاستعاضة عن الماء بالتيمم، فقال ما معناه:

وان كنتم مرضى لا تستطيعون استعمال الماء، خشية زيادة المرض او تأخير البرء، او مسافرين يشق عليكم وجود الماء فاقصدوا الصعيد الطيب، وهو كل ما على الأرض، فلو لمس حجراً كفاه عند بعض الأئمة. وكذلك اذا قضى أحدكم حاجته، أو باشرتم النساء ولم تجدوا ماءً، فعليكم بالتراب: اضرَبوا به أيديكم وامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ثم صلُّوا ان الله يحب التيسير على عباده. ومذهب الإمام محمد عبده في تفسير: «وان كنتم مرضى او على سفر» أن السفر عذرٌ يبيح التيمم، وجد الماء أو غاب، وذلك لان الآية صريحة بذلك. ومثله قال حسن صدِّيق خان في تفسير هذه الآية وهذا نص كلامه: «المعنى ان حكم المريض والمسافر اذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغراً أو ملامس النساء ولم يجد الماء، فعلى كل هؤلاء التيمم.»

قراءات: قرأ حمزة والكسائي «لمستم النساء.»

٤٠٣٣ 44

ألم تعجب يا محمد من هؤلاء الذين أعطوا خطأً من معرفة الكتب السابقة كيف حرّموا الهداية وتبعوا الضلالة، يختارونها لأنفسهم، ويريدون لكم ان تضلُّوا طريق الحق القويم أيها المؤمنون. إنهم دائبون على الكيد لكم، ليردوكم عن دينكم ان استطاعوا. والله أعلم منكم بمن هم أعداؤكم الحقيقيون، وأخبر بما تنطوي نفوسهم، لكنه يحكم ويحكمكم اعداءكم. فلا تطلبوا الولاية من غيره ولا النصر من سواه، بل اتبعوا دينكم ولا تستعينوا الا بربكم.

٤٠٣٤ 46

الذين هادوا: اليهود. اسمع غير مسمع: اسمع غير مجاب الى ما تدعوا اليه. راعنا: انظرنا، وهي توافق كلمة سب في لغتهم. أقوم: أعدل. من اليهود فريق يحرفون الكلام عن معناه بالتأويل او الحذف أو التبديل، وهو أمر أجمع عليه أهل النظر من الغربيين. يقول مارتن لوثر في كتابه: اليهود وأكاذيبهم «هؤلاء الكذّابون الحقيقيون مصاصو الدماء، الذين لم يكتفوا بتحريف الكتاب المقدس من الدفة الى الدفة، بل ما فتئوا يفسرون محتوياته حسب أهوائهم وشهواتهم.»

فتحريف التوراة حاصل باعتراف النصارى أنفسهم، ولذلك عندما يقول القرآن شيئاً فإنه يكون حقاً لا شبهة فيه. ويقول اليهود في أنفسهم للنبي الكريم: سمعنا بالقول وعصينا الأمر. اسمع كلامنا لا سمعت دعاء يدعون بذلك على النبي. ويقولون (اسمع غير مسمع) فيسوقون اللفظ ومرادهم الدعاء عليه، ويوهمون أن مرادهم الدعاء له ويقولون، راعنا، يلوون بهنا ألسنتهم يوهمون أنهم يريدون «انظرنا» فيظهرون أنهم يطلبون رعايته ويطنون وصفه بالرعونة لمجرد السب والشتم.

ولو أنهم استقاموا وقالوا (سمعنا وأطعنا) بدل قولهم (سمعنا وعصينا) ، وقالوا (اسمع) دون ان يقولوا (غير مسمع) ، وقالوا (انظرنا) بدل (راعنا) لكان ذلك خيراً لهم وأصوب، لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة، ولكن الله طردهم من رحمته بأعراضهم عنه، فلا تجد منهم من يستجيبون لداعي الإيمان إلا عدداً قليلاً.

وصدق الله. فلم يدخل في الاسلام على مر القرون الا قليل من اليهود، ممن قسم الله لم الخير، وأراد الهدى. أما أغلبهم فقد ظلّوا حرباً على الاسلام والمسلمين، منذ كانوا في المدينة الى يومنا الحاضر. هذا مع أنهم لم يجدوا أمة تحفظهم وتصون حقوقهم كالمسلمين. ولم يعيشوا في أمانٍ إلا في ظل الاسلام ولا يزالون كذلك حتى الآن في كثير من البلاد الاسلامية.

الكتاب: التوراة. الشمس: إزالة الأثر بجوه أو إخفائه. ومنه الشمس على الأموال في قوله تعالى {رَبَّنَا اطمس على أموالهم} أي أهلكها وأزلها، والشمس على الأعين محو نورها. {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} [يس: ٦٦] .
يا أيها الذين أتوا الكتاب، والمقصود اليهود الذين كانوا حواري المدينة، والخطاب عام لجميع أهل الكتاب، آمنوا بما أنزلنا من القرآن على محمد. فقد جاء مصداقاً ومحققاً لما معكم، فآمنوا به قبل أن يحلّ بكم العقاب الذي تمحى به معالم وجوهكم، ونسلبها وجاهتها، كما نعمي عليكم السبل كما نبصر المؤمنين بشؤونكم ونغريهم بكم. بذلك يكون سعيكم الى غير الخير، او نطردكم من رحمتنا كما لعنا الذي خالفوا أمرنا بمزاوتهم الصيد يوم السبت، وكان قضاء الله نافذاً لا مرد له.

افتري الكذب: اختلقه، وأصله من الفري وهو القطع.
في هذه الآية الكريمة تهديد كبير، وأمل عظيم ورجاء مفتوح. . تهديد لمن يقترب جريمة الشرك، فالله لا يغفر ذلك أبداً، لأن الشرك انقطاع ما بين الله العباد، فلا يبقى لهم معه أمل في المغفرة. . وفيها أمل عظيم يفتح أبواب رحمته تعالى كلها لما دون الشرك من الذنوب، فكل ذلك يغفره الله، ما دام العبد يرجو مغفرته، ويؤمن انه قادر على ان يغفر له. وهذا منتهى الأمر في تصوير الرحمة لا التي لا تنفذ ولا تحد.
{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}
ومن يجعل لغير الله شركة مع الله فقد اخترع ذنباً ضرراً، تُستصغر في جنب عظّمته جميع الذنوب والآثام، ومن ثم لا يستحق صاحبه الغفران.

تزكية النفس: مدحها. القتل: ما يكون على نواة التمر مثل الخيط.
ألا تعجب يا محمد من هؤلاء الذين يثنون على أنفسهم ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه ولا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً! هذا ويضيف اليهود: إن ذنوبنا التي نعملها بالنهار تكفر عنا بالليل، وما أشبه ذلك من الافتراء على الله. والحق ان الله وحده هو الذي يعلم الخبيث من الطيب، فيزكي من يشاء من عباده، لا اليهود ولا النصارى.
ثم يؤكد سبحانه التعجب من حالهم وأقوالهم فيقول {انظُرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} انظر الى زعمهم أن الله تعالى يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده. . ان الكذب على الله إنما يكشف عن خُبث طويتهم لا أكثر.

الجيت: السحر، والساحر، والشر، وكل ما عُبد من دون الله. الطاغوت: كل باطل من معبود وغيره، والشيطان، والكاهن. النقيز: النكتة التي في ظهر النواة.
روي في سبب نزول هذه الآيات عدة روايات تدور كلها على كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، وهما من زعماء وأحبار اليهود المناوئين للنبي والاسلام. وخلاصة روايات الطبري ان كعباً وحيي بن اخطب ذهبا في جماعة من الأحبار الى مكة ليحالفوا قريشاً على حرب النبي، فأجابتهم قريش: انتم أهل الكتاب وأنتم أقرب الى محمد. ونحن لا نأمن مكرهم حتى تسجدوا لآلهتنا. ففعلوا، ثم سألتهم: أدين محمد خير أم ديننا؟ فقال اليهود: بل دينكم، وأنتم أهدى منه ومن تبعه. فأنزل الله تعالى هذه الآيات. ومعناها:

ألم تريا محمد الى اليهود الذين أوتوا حظاً من علم الكتاب يعظمون غير الله بالعبادة فيسجدون للجبوت والطاغوت، ثم يقولون للكفار إنهم أرشد طريقة في الدين منت الذين اتبعوا محمداً. كل ذلك يرضوا المشركين ويحالفوهم ليحاربوا الاسلام. {أولئك الذين لعنهم الله} وطردهم من رحمته، ومن يخذله الله فلن ينصره أحد ولا يحيمه أحد من غضبه.

ثم ينتقل سبحانه من توبيخهم على فعلتهم المنكرة تلك الى توبيخهم على حسدهم وبخلهم وأثرتهم، فيقول: {أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ. . .} فيما عجباً، إنهم لا يطيقون ان ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده اذا لم يكن يهودياً! فهل هم شركاؤه سبحانه، حتى يكون لهم نصيب في ملكه! لو كان لهم ذلك لضنوا وبخلوا ان يعطوا الناس نقيرا، وهو أتفه الأشياء وأقلها.

٤٠٣٩ 54

صد عن الشيء: أعرض عنه.

إنهم من جراء حسدهم للغير واغترارهم بأنفسهم يريدون ان يضيقَ فضل الله بعبادهم، لذلك يستكثرون على العرب ان يبعث الله منه رسولا، مع انه أتى ابراهيم وآله الكتاب والنبوة والملوك، وهو أبوكم وابو العرب. فمن الذين بُعث فيهم إبراهيم وآله من آمن بالكتاب ودين ابراهيم، ومنهم من اعرض عنه، وحَبُّ هؤلاء المعرضين جهنم في الدار الآخرة وبئس القرار.

٤٠٤٠ 56

آياتنا: أدلتنا الواضحة. نُصَلِّيم: نشويهم. نضجت: احترقت. الظل الظليل: ظل وارف لا يصيب صاحبه حر ولا سموم. يعرض سبحانه في هاتين الآيتين صورتين متقابلتين: فريق الذين كذبوا بآيات الله ومآلهم النار وما يذوقون من العذاب، وفريق المؤمنين العاملين المصدقين وما يحمدونه في الآخرة من النعيم.

فقد أعد الله لمن جحد بهذه الحجج البينات التي أنزلها على أنبيائه ناراً حامية تشوي جلودهم. حتى اذا احترقت هذه وفقدت القدرة على الإحساس بدَّ لهم الله جلوداً غيرها ليستمر ألم العذاب. وقد نصَّ الكتاب بشكل خاص على الجلود لأنها النهاية الخارجة لشبكة الأعصاب في الجسم، فهي التي تستقبل المؤثرات من ألم وحرارة وبرودة وغيرها. وقود بحث في ذلك الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا في كتابه (الاسلام والطب الحديث) بحثاً قيماً.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيمًا} . فهو عزيز قادر لا يمتنع عليه شيء، وحكيم يعاقب من تقتضي الحكمة ان يتم عقابه، ولا يظلم ربك أحد. هذا فريق.

اما الفريق الآخرة فهم الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله، وهؤلاء سيدخلون جناتٍ يتمتعون بنعيمها العظيم، ولهم في أزواجٍ مطهرة من العيوب والأدناس، يُدخلن السرور الى نفوسهم، فتكمل سعادتهم، ويقيمون في ظل ظليل من العيش الطيب.

٤٠٤١ 58

الأمانة: الشيء الذي يُحفظ بنية أن يؤدي الى صاحبه، والأمانات، كل ما يؤتمن عليه المرء من مال، أو عهد، أو عقد، أو سر، أو ما شبه ذلك. العدل: ايصال الحق الى صاحبه.

بعد ان بين الله سبحانه الإرشادات الحكيمة التي يجب على الأمة ان تتخذها أساساً للحياة فيها ذكر هنا ما يجب أن يؤسس عليه شأن الجماعة الاسلامية، فقرر أمرين لهما خطرهما في ذلك. وهما: أداء الامانات الى أهلها، والحكم بالعدل بين الناس، وكأنه يشير بهذا الى أن الانتفاع بالارشادات المتقدمة في الأسرة والأموال لا يتحقق الا على «أداء الامانة» و «العدل» .

والأمانات كلمة عامة تشمل جميع الحقوق من ماله وعملية، وعلمية، والحكم بالعدل فيها هو القضاء بتلك الأمانات عند تعرضها للضياع. اما الحكم بالعدل عامة فيشمل ما كان طريق التولية، وما كان طريق التحكيم، كما يشمل ما بين المسلمين أنفسهم، وما بينهم وبين غيرهم. وقد كثر الحث في القرآن على العدل لأنه أساس الحياة. وعناصر العدل في الحكم هي فهم الحادثة من جميع جوانبها، ثم معرفة الحكم من مصدره التشريعي ثم تحري انطباق الحكم على الحادثة. كل ذلك مع التسوية بين الخصوم في مجلس القضاء.

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا}

خطاب عام لجميع الناس وفي مقدمتهم المؤمنون. وقد وردت عدة أحاديث في نزول هذه الآية منها قضية عثمان بن طلحة ووجوب رد مفتاح الكعبة إليه. لكن، العبرة بعموم اللفظ. والمعنى:

أيها المؤمنون، ان الله يأمركم ان تصولوا جميع ما أنتم مؤمنون عليه، وهو نفوسكم أولاً، وذلك أن تؤمنوا به إيماناً حقيقياً، تطيعوا أوامره وتجنبوا نواهيه، وتعملوا عملاً صالحاً يرضاه.

هذه هي الأمانة الكبرى التي كلف الانسان بحملها وتقاست عن ذلك الجبال. . ومنها تنبثق سائر الأمانات التي يأمر الله بها أن تؤدى. ثم أمانة العبد مع الناس. من ذلك ردُّ الودائع الى أربابها، وعدم الغش، وحفظ السر ونحو ذلك مما يجب للأهل والأقربين وعامة الناس والحكام. يدخل في ذلك عدل الحاكمين مع الرعية، بالألا يستأثرون بثرواتها، ولا يتحكموا في رقابها، وان يختاروا خير الناس لتولي شئونهم. كما يدخل عدل العلماء مع الناس بأن يرشدوهم الى دينهم الصحيح، ويعلموهم الأعمال التي تنفعهم في دنياهم وأخراهم من أمور التربة وكسب الحلال، لا أن يتخذوا الدين تجارة يبيعون منه القرارات لقاء رضا الحكام وملء جيوبهم هم. ويدخل فيها كذلك أمانة الرجل مع زوجته في النفقة والعشرة، ومع أولاده وسائر أهل بيته المسئول عنهم.

ثم يدخل عدل الانسان مع نفسه بأن يختار لها ما هو الأصلح فلا يقدم على عمل يضره في دنياه أو آخرته، ويتجنب تعاطي الأشياء التي تضر بصحته وبيتعد ما أمكن عن جميع المغريات.

{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} .

هذا نص مطلق شامر، فإنه سبحانه يطلب منا إقامة العدل بين الناس جميعاً على اختلاف أديانهم وطبقاتهم، لا بين المسلمين فحسب. . لأن العدل هو أساس انتظام الحياة، وعلى ذلك فهو حق لكل إنسان من أي دين أو جنس أو لون. هذا هو دستور الاسلام العظيم لا التستر على التمييز العنصري ولا تسخير الدين في خدمة الحكام.

{إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ} هذه موعظة من ربكم فاحرصوا عليها لأنه لا يوجد أحسن منها، ان الله دائماً سميع لما يقال، بصير بما يفعل، وهو من أدى الامانة من خانها، ومن حكم بالعدل أو جار، فيجازي كلاً بعمله. وفي هذا وعد للطائعين، ووعد للعاصين.

٤٠٤٢ 59

بعد ان بين سبحانه الأساس الذي تقوم عليه الحياة الاسلامية من أداء الأمانات والحكم بالعدل جاء في هذا الآية الكريمة بالنظام الأساسي الذي تتطلبه الحياة العادلة، وقاعدة الحكم، ومصدر السلطة. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده، والرجوع اليه في كتابه، ثم الى سنة رسوله، ثم عدالة أولي الامر من المسلمين، فالآية صريحة في توضيح مصادر التشريع الاسلامي. . فعندما نضع قانوناً او نريد ان نحكم في قضية، علينا ان نرجع الى القرآن الكريم:، فاذا لم نجد رجعنا الى سنة رسوله، فاذا لم نثر على طلبنا هناك سألنا أولي الأمر ان يجتهدوا رأيهم. وهذا الاجتهاد بأبه مفتوح دائماً لم يغلق، واما على أهل العلم والرأي إلا ان يجتهدوا ويبتعدوا في تحصيل الوسائل التي يكونون بها أهلاً للاجتهاد.

«ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» وهذا صريح جداً في موضوع الاجتهاد.

وهذا حديثُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حينَ ولَّاهُ رسولُ الله قاضياً على اليمينِ أوضحُ دليل، فإنه قال له: «بِمَ تَقْتَضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟ قال: بكتابِ الله؟ قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي»، فأقره الرسول على ذلك.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}

أطيعوا الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول لأنه يبين لكم ما نزل إليكم، وأطيعوا أولي الأمر منكم وهو من وليتموهم أنتم أموركم، والعلماء ورؤساء الجند وسائر من يرجع إليهم الناس في الحاجات عن ثقة فيهم. . فإن تنازعتم في شيء فيما بينكم فاعرضوه على كتاب الله، ثم على سنة رسول الله لتعلموا حكمه. فإذا لم يوجد نص على الحكم في الكتاب ولا في السنة ينظر أولوا الأمر فيه، لأنهم هم الذين يوثق بهم. فإن اتفقوا وأجمعوا وجب العمل بما أجمعوا عليه.

{إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}

هذا مقتضى إيمانكم بالله واليوم الآخرة، وهو خير لكم، لأنكم تهتدون الى العدل فيما اختلفتم فيه، وأ؛ سن عاقبة، لأنه يمنع الخلاف المؤدي الى التنازع والضلال.

والأحاديث الواردة في الحض على طاعة أولي الأمر كثيرة جداً، ففي الصحيحين عن ابن عمر: «السمع والطاعة الى المرء المسلم، فما أحب أو كره مال يؤمر بمعصية، فاذا أمرنا بمعصية فلا سمع ولا طاعة» .

وفي صحيح مسلم عن أم الحُصَيْن أنها سمعت الرسول الكريم يخطب في حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبدٌ يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا»، أما الذي يستعمل ذلك العبد، فه والرسول أو الخليفة الذي يجمع عليه المسلمون. فالأصل هم المسلمون لا القوة، ولا جيوش لقاء أجر، ولا تسلسل في ملك عضود أساسه التوارث.

٤٠٤٣ 60

الرَّعْم: القول. وكثر استعماله في مظنة الكذب. الطاغوت: الطغيان والمعبود من دون الله.

تعرض هذه الآيات الكريمة لونا من ألوان التردد على الوضع التشريعي السابق، فقد وصفت قوماً أنهم يؤمنون بما أنزل الى الرسول والأنبياء السابقين من الكتب، لكنهم يريدون ان يتحاكوا في خصوماتهم الى رؤوس الطغيان والضلال، فيقبلون حكم غير الله. انهم يتحاكون الى الطاغوت فيحللون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل. ولقد أمرهم الله ان يكفروا بالطاغوت، ولا يتحاكوا اليه، الا ان الشيطان يصدّهم عن طريق الحق. واذا قيل لأولئك الذين يزعمون انه مؤمنون، تعالوا الى ما أنزل الله في القرآن لنعمل به ونحكمه بيننا، والى الرسول ليحكم بيننا بما أَرَادَهُ اللهُ رَأَيْتَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يُعْرَضُونَ عَنْكَ يَا مُحَمَّدُ وَيَرْغَبُونَ عَنْ حُكْمِكَ.

فكيف تكون حالهم إذا نزلت بهم مصيبة من جراء أعمالهم وخُبث نياتهم ولم يجدوا ملجأ الا اليك، فجأؤوك يُقَسِّمُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ مَا كَانُوا يريدون بالتحاكم الى غيرك إلا الإحسان في المعاملة، والتوفيق بينهم وبين خصومهم. إن الله يعلم حقيقة ما في قلوبهم وكذب قولهم فلا تلتفت يا محمد الى كلامهم، وأدعهم الى الحق بالموعظة الحسنة، وقل لهم قولاً حكيماً يصل الى اعمال نفوسهم.

وقد رويت عدة روايات في سبب نزول هذه الآيات منها أن بعض المنافقين تخاصم مع يهودي فقال له اليهودي: أحاكمك الى أهل دنياك. زويعني الى النبي. فلم يقبل الرجل، وقبل ان يتحاكم الى أحد الكهان. والآية عامة في كل ما يصد عن حكم الله، ويعرض عن شرعه.

ان سنّتنام في هذا الرسول الكريم مثل سنّتنا في الرسل قبله، نرسله ليطاعوا بإذن الله، فمن يخرج عن طاعتهم بأن ينافق او يكذب او يخالف يكن ظالماً لنفسه، ويرتكب أكثر الآثام. ولو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ورجعوا الى الهدى فجأؤوك وطلبوا المغفرة من الله على ما قدّموا، وندموا على ما فرط منه، لدعوت أنت يا محمد لهم بالمغفرة فغفر الله لهم، إنه كان تواباً رحيماً. وأقسم الله تعالى بربوبيته مخاطباً رسوله الكريم بأن أولئك الذين لم يقبلوا التحاكم إليه، هم وومن مائلهم من المنافقين لا يؤمنون إيماناً حقيقياً حتى يجعلوا محمداً حكماً فيما يكون بينهم من نزاع، ثم لا تضيق نفوسهم فيما يحكم به، ويسلموا ويدعوا لذلك.

كتبنا: فرضنا. التثبيت: التقوية، جعل الشيء راسخاً ثابتاً.

ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك والمحتكمين الى الطاغوت ان يقتلوا أنفسهم وأمرناهم بذلك، أو أن يخرجوا من ديارهم ما فعلوه، الا نفر قليل منهم هم المؤمنون حقاً. والمقصود بذلك المنافقون، وترغيبهم في الاخلاص، وترك النفاق. وهو يعني أننا لو شددنا التكليف على الناس، كأن نأمرهم بقتل أنفسهم، او الخروج عن أوطانهم لصعب ذلك عليهم. ولما فعله الا الأقلون. وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم. فلما لم نفعل ذلك، رحمة منا بعبادنا، واكتفينا بتكليفهم ما يطيقون كان عليهم ان يقبلوه ويتركوا التمرد والعناد، حتى ينالوا خير الدارين.

روى الطبري في تفسيره قال: قال رجل من الصحابة لما نزلت هذه الآية: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي الكريم، فقال: «ان من أمتي لرجالاً، الايمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي».

ولو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم وامثلوا ما أمروا به وأخلصوا العمل لأعطيناهم الثواب العظيم من عندنا ولهديناهم الى طريق العمل الموصل الى الفوز بسعادة الدارين.

قراءات: قرأ ابن عامر وحده «إلا قليلاً» بالنصب، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي «ان اقتلوا» بضم النون. «او اخرجوا» بضم الواو. وقرأ عاصم وحمة «ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا» بكسر النون والواو، على الأصل بالتقاء السكانيين. وقرأ ابو عمرو ويعقوب «ان اقتلوا» بسكر النون «او اخرجوا» بضم الواو.

الصدّيق: هو الذي لا يكذب قط. والذي صدق في قوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله.

كل من يطيع الله والرسول ويقوم بما أمر به وترك ما نهى عنه، يكون يوم القيامة مع الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق، من الأنبياء الكرام، وأتباعهم الذين صدّقوهم واتبعوا مناهجهم، والشهداء في سبيل الله الذين ضحّوا بأنفسهم، والصالحين الذي صلّحت سريرتهم وعلا نيتهم. ما أحسن هؤلاء من رفقاء! {ذلك الفضل من الله}

هذا الذي ذكر من الجزاء لمن يطيع الله ورسوله هو الفضل الذي لا يعلوه فضل، والمنزلة العظمى التي يتبوّأها ذلك المؤمن في دار النعيم، وكيفي المؤمن ان الله عالم بحاله فيما هو يقوم بطاعته وطلب مرضاته.

أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: جاء رجل الى رسول الله فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحبّ قوما ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله عليه السلام: «المرء مع من أحب».

الحذر والحذر: الاحتراس والاستعداد لأتقاء شر العدو. ثبات: جماعات، جمع ثبة. انفروا: اخرجوا للجهاد. بطاً: تأخر، او حمل غيره على التأخير.

في هذه الآيات والتي تليها يرسم لنا سبحانه الهيئة الحربية التي يجب ان نتحلّى بها. ومن أهم خططها الحذر والاستعداد واستكمال العدة، وهو ينبئنا الى الحذر ممن يدعون أنهم مسلمون وما هم كذلك، وانماهم ضعاف الإيمان لم يرسخ الإيمان في قلوبهم بعد. يا أيها الذين آمنوا كونوا على حذر دائماً من أعدائكم، واحترسوا واستعدّوا وخذوا الأهبّة لأتقاء شر العدو، وارجعوا للقتال جماعات متتابعة او اخرجوا جميعاً. وهذه كلّها مبادئ حربية عامة، فهي ثابتة لعموميتها. اما الخاص فإنه يتحور ويتغير. وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام دائم الحذر، له عيون وجواسيس في أرض العدو، كي يظل على علم تام بأرض عدوه وتحركاته. اما نحن اليوم فإننا نأتمن عن عدونا وهو منتبه متيقظ، جواسيسه منتشرة بيننا، ويسخر من من نتفق مصالحه مع مصالحهم طمعاً في المنصب او الثروة.

لقد استعدّ عدونا استعداداً كاملاً وأخذ حذره التام، ونحن غير مستعدين، ولا أرى عندنا اي عزم على القتال، وكل همتنا ان نتباهى بالمظاهر الجوفاء من العظمة التافهة، وفي سبيلها يهدم بضعنا بعضاً، ويكيد بعضنا لبعض، مدّعياً الحفاظ على مصلحة الأمة زوراً وبهتاناً، ومسخرّاً في خدمته كل مرتزق وحقير.

{وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ}

ان بينكم من يتثاقل ويتأخر عن الجهاد، فاحذروا هؤلاء المشبّطين والعوّقين ونقّوا صفوفكم منهم. وهذا لعمرى اليوم أكبر داء بيننا وفي صفوفنا يخذلون، طمعاً في بقاء منصب او استدرار مال.

وكان حال أمثال هؤلاء في الماضي أ، هم إذا أصاب المسلمين نكبة في الجهاد، قالوا شامتين: قد أنعم الله علينا إذ لم نكن معهم ولم نشهد القتال، وقد سلّنا الله من هذه المصيبة. أما إذا منّ الله عليكم بالنصر والغنائم، فإنهم يقولون متحسرين: ياليتنا كنّا معهم في القتال فننوز بعظيم الغنائم. وهم بقولهم هذا لم يُبقوا لهم بكم رابطة، فقد خسروا الدنيا والآخرة.

يشرون: يبيعون.

فليقاتل في سبيل الله من أراد أن يبيع الحياة الدنيا ويجعل الآخرة ثمناً لها وعوضاً عنها، لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه. ان من يقاتل في سبيل الله لن يعدم إحدى الحسينين: أن يُقتل فيكون شهيداً، وتلك منزلة عظيمة عند الله، أو ينتصر فينال فضل الفوز في الدنيا، وأجره عند الله عظيم في كلتا الحالتين.

أي عذر لكم في ألا تقاتلوا في سبيل الله لتقيموا التوحيد مكان الشرك، والعدل مكان الشر والظلم! وكيف لا تقاتلون في سبيل المستضعفين، إخوانكم في الدين، الذين استذلّهم أهل مكة المشركون وأذوهم فباتوا يستغيثون ويستنصرون ضارعين الى الله: ربنا أخرجنا من هذه البلدة ومن ولاية هؤلاء الظالمين، وفرّج علينا رحمتك وألحقنا بأهلنا وإخواننا في الدين، واجعل لنا من عندك نصيراً.

ان منهج القرآن في كثير من آياته ان يأتي بصور متقابلة، وهنا يأتي بصورتين لفئتين من الناس متقابلين: فئة «الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله» بعد ان صدّقوا بالحق فهم يقاتلون لإعلاء كلمته، وفئة «الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت» لأنهم جحدوا وعاندوا فهم يقاتلون تمكيناً لبقاء الظلم والفساد، وبذلك كانوا أولياء الطاغوت وأولياء الشيطان.

فيمنا ايها المؤمنون: قاتلوا اعوان الشيطان وأنصاره، واعلموا أنكم منتصرون عليهم بتأييد الله، لأن كيد الشيطان ومكره ضعيف سخيف، اما الغلبة والنصر فهي للحق بإذن الله.

٤٠٥٠ 77

كفوا ايديكم: أي عن القتال. أجل: ميعاد: متاع الدنيا: كل ما يستمتع به ويلذ. الخطاب لجماعة من المسلمين وفيهم المنافقين وضعفاء الإيمان. .

ألم تنظروا يا محمد الى أولئك الذين أمرهم الله بحقن الدماء وكف الأيدي عن القتال قبل ان يجيء الإذن به فقبل لهم: كفوا عن القتال فهو لم يُفرض عليكم بعد، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة التي تمكّن الإيمان في قلوبكم. ففعلوا. ولما فُرض عليهم القتال كرهه الضعفاء منهم وخشوا ان يقاتلهم الكفار وينزلوا بهم النكال، وخافوا منهم تكوفهم من الله أو أشد، وقالوا مستغربين: ربنا لم كتبت علينا القتال في هذا الوقت! متوهمين أن فرض القتال فيه تعجيل الآجالهم، ولذلك قالوا: هلا أخرتنا الى زمن قريب نستمتع فيه بما في هذه الدنيا؟ قل لهم يا محمد: تقدّموا للقتال ولو أدى ذلك الى موتكم، فإن متاع الدنيا تافه حقير بجانب متاع الآخرة. والآخرة أفضل لمن اتقى الله وعمل صالحا، وستُجزون على أعمالكم في الدنيا بالتقام والكمال، لا تخسرون خيطاً بقدر الفتيل الذي على شق النواة. قراءات:

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي «ولا يظلمون» بالياء.

٤٠٥١ 78

البروج: القصور العالية والحصون والقلاع. مشيدة: مرتفعة. يفقهون: يفهمون.

إن الموت أمر لا مهرب منه، ولسوف يدرككم حيث كنتم ولو تحصّنتم في شواهد القصور او في القلاع والحصون. وما دام المت لا بدّ منه فلماذا تكرهون القتال وتجنّبون. ان هؤلاء الجبناء إن أصابهم رخاء ونعمة قالوا انها من عند الله، وان أصابهم شدة وجذب قالوا لك يا محمد: هذا من عندك، وما كان الا شؤمك.

ولك هذا ضعف في إيمانهم ونقص في عقولهم. وهذه مقالة اليهود والمنافقين حين قدم الرسول المدينة وأصابهم حط وجفاف. فقل لهم الآن يا محمد: إن هذا زعم باطل، فكل ما يصيبكم مما تحبون أو تكرهون هو من عند الله، ومن تقديره. ماذا أصاب هؤلاء القوم، وماذا داهم في عقولهم حتى باتوا لا يعقلون شيئا!

٤٠٥٢ 79

ما يصيبك أيها النبي الكريم من رخاء ونعمة وعافية فهو من فضل الله وجوده، يتفضل به إحساناً منه اليك. أما ما يصيبك من شدة ومشقة وأذى فهو من نفسك لتقصيرٍ او ذنب.

والخطاب ظاهره للنبي ولكنه تصوير للنفس البشرية عامة، وان لم يقع منه عليه السلام ما يستوجب السيئة. وهذا كله ليعلمنا ان كل شيء من عند الله، على معنى انه خالق الأشياء وواضع النظم للوصول الى هذا الأشياء بسعي الانسان وكسبه. وأن الانسان لا يقع فيما يسوءه الا بتقصير منه في معرفة السبب والأسباب او مخالفتها. ولقد أرسلناك يا محمد للناس جميعاً، فليس لك دخل فيما يصيبهم من حسنات ولا سيئات، وكفى بالله شهيدا.

٤٠٥٣ 80

حفيظاً: تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم فيها. ويقولون طاعة: أمرنا طاعة او منا طاعة. يبت: دبر الأمر ليلاً، والمراد دبوا أمرهم سرّاً.

من أطاع الرسول فقد أطاع الله، لأنه لا يأمر الا بما أمر ولا ينهى الا عما نهى الله عنه، لذلك كانت طاعته طاعة الله. ومن أعرض عن طاعتك يا محمد على هذا الاعتبار فليس لك أن تُكرهه عليها، لأنك أرسلت مبشراً ونذيراً، ولم ترسل مسيطراً ورقياً تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم.

روي ان النبي عليه الصلاة والسلام قال: «من أحبني فقد أحب الله، ومن اطاعني فقد أطاع الله»، فقال المنافقون: ألا تسمعون الى ما يقول هذا الرجل؟ لقد قارف الشرك، قد نهى ان نعبد غير الله ويريد أن نتخذَه رَبًّا لَكُمَا اتخذت النصراني عيسى، فأنزل الله هذه الآية. . . .

ويقول هذا الفريق من الناس إذا أمرتهم بأمر: أمرك مطاع، وليس لك منا الا الطاعة، ولكنهم اذا خرجوا من عندك دبرت طائفة منهم أمراً مناقضاً لما أخبرتهم به. والله سبحانه وتعالى يحصي عليهم ما يدبرونه في الخفاء، فأعرض عنهم، وفوض أمرك الى الله، فهو يكفيك شرهم ولا يضرك احد.

قراءات:

قرأ أبو عمرو وحمزة «بيت طائفة» بالإدغام.

٤٠٥٤ 82

يتدبرون: يتأملون.

أفلا يتدبر أولئك المنافقون ويتفكرون جيداً في القرآن حتى يعلموا حقيقة الرسالة التي يدلّ عليها ويهدي اليها ذلك الكتاب! ما بالهم يعمون عن هذا التناقض الذي في سوره وآياته، وتلك الأخبار والأحكام التي جاء بها، والحقائق التي تصوّرنا العقائد، وقواعد الشرائع، وسياسة الشعوب والقبائل وضرب الأمثال! كيف يتأتى هذا كله لرجل أمي: لَو كان هذا الكتاب من عند غير الله، لتناقضت معانيه واختلّت أحكامه اختلافاً كثيراً.

٤٠٥٥ 83

إذاعوا به: إذاعوه ونشروه. يستنبطونه: يستخرجونه.

تصوّر هذه الآية حال المؤمنين في المدينة، حيث كونوا مجتمعاً جديداً. وكان بينهم طائفة تدّعي الاسلام، وهم المنافقون، وطائفة اخرى ممن لم يتركز حالهم من ضعاف المؤمنين. لذلك كان كل خبر يصلهم سيتفرّجهم ويطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس، سواء أكان من ناحية الجيش الذي يغزو ويقاتل العدو، أو من ناحية الأمن الداخلي عندهم. وكان لكثير من المسلمين علاقات جوار أو نسب أو صداقة مع اليهود والمنافقين، فكان هؤلاء يستغلّون سداقة المسلمين ويتلقون الأخبار ويشيعونها بين الناس مع زيادة وتغيير وتبديل. لذلك بين الله لهم ما ينبغي عمله في مثل هذه الحال، فقال: ولو رده الى الرسول وإلى أولي الأمر من القواد وكبار الصحابة لوجدوا عند العلم الحقيقي بالأمر، لأن لهم الخبرة والدراية، وهم الذين يعرفون كيف يستخرجون خفايا الحقائق بدقة نظرهم.

هذا من جهة سبب نزول الآية. أما حكمها فإنه عام لجميع المسلمين ودائم في كل زمان ومكان. وفيها تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع، وكفى بذلك كذبا. وفي روى مسلم عن النبي الكريم أنه قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بك ما سمع».

ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا بهديه في كل زمان ولما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم حكامهم واستبدّلوا، ولما زال ملكهم وسلطانهم. ولولا فضل الله عليكم بثبت قلوبكم على الايمان لا تبّع أكثركم الشيطان، ولم ينبج من إغوائه الا القليل. هكذا يريّننا القرآن الكريم ويعلمنا، ليغرس الايمان والولاء لصالح المسلمين، يحدّده أولو الرأي فيهم لا أولي القوّة والأموال، ويعلم نظام الجندية في آية واحدة.

التحريض: الحث على الشيء.. البأس: القوة. التنكيل: معاقبة المجرم بما يكون فيه عبرة للناس. اذا أردت الفوز والظفر على الأعداء يا محمد جاهد أعداء الله من أهل الشرك وأعرض عن هؤلاء المنافقين الذين قالوا «لَمْ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ» والذين يتذبذبون فيقولون لك «طاعة» وهم يضمرون خلاف ما يقولون. انك لست مسئولاً الا عن نفسك. ثم ادعُ المؤمنين الى القتال وحرّضهم عليه، وعسى الله ان يدفع عنكم شدة الكافرين وبأسهم. إنه أشد قوة منهم، وأشد تنكيلاً بالكافرين. وقد روي ان الرسول الكريم واعد أبا سفيان بعد أحد موسم بدر الصغرى في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد دعا الناس الى الخروج. وخرج في شعبان من سنة اربع في سبعين راجاً، ووافوا الموعد. وألقى الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعب فرجعوا من مَرَّ الظهران.

الشفاعة: السعي في جلب الخير الى الآخرين او دفع الشر عنهم. كَفَلَ: نصيب. مقيتا: مقتدرا. بمناسبة تحريض الرسول للمؤمنين على القتال الذي ورد الأمر به، وذكر المبطلين عنه يقرر تعالى هنا قاعدة عامة في الشفاعة: فالذي يشجع على القتال ويعاون عليه يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة، والذي يثبط الهمم تكون عليه تبعة سيئة ووزر كبير. ثم إن المبدأ عام في كل شفاعة، فالشفاعة الحسنة هي التي روعي بها حق المسلم وابتغي بها وجه الله، لا الرشوة كشفاعات هذا العصر، وكانت في امر جائز. اما الشفاعة السيئة فما كانت بخلاف ذلك. وقد وردت أحاديث كثيرة في أمر الشفاعة ومساعدة الناس في بلوغ الحق، فقد روى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر ان رسول الله قال: «المسلم اخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربةً فرج الله عنه كربةً من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». وروى ابو داود عن أبي أمامة ان رسول الله قال: «من شفع لأخيه بشفاعة فأهدى له هديةً فقبلها، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر» وهكذا: الهدية رشوة، اذا كانت لقاء خدمة او لغمط حق بفعل محسوبة.

اصل التحية: الدعاء بالحياة، ثم صارت للسلام. بعد ان علمنا الله تعالى طريق الشفاعة الحسنة، وانها الخالصة لله جاءت هذه الآية للتأديب في المعاملة: كيف نسلم على الناس، وكيف نرد التحية بأحسن منها. ذلك أن التحية في المجتمع علاقة من العلاقات الطيبة التي تدور بها عجلة الحياة بيسر. وفي جعل الإسلام تحيته «السلام عليكم» لأنه دين السلام، فهو حتى حين يدعو الى القتال فإنما يدعو لإقرار السلام في الأرض. وأذا حيّاكم أحدٌ بتحية فردوا بأحسن منها أو بمثلها، فلن قال لكم: السلام عليكم، أجبوا: وعليكم السلام ورحمة الله. هذا وإلقاء سُنّة: وردّوه واجب. روى ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وان كان مجوسياً، فإن الله تعالى يقول: {وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها}». وإنَّ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً} انه تعالى رقيب عليكم في مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحلية ويحاسبكم على ذلك. وفي هذا اشارة الى تأكيد امر هذه الصلة بين الناس.

جمعت هذه الآية الكريمة التوحيد، والايان بالعبث والجزاء في الدار الآخرة، وهما الركبان الأساسيان للدين. وبعد أن مهد الشارعُ بذكر هذه القواعد الثابتة بنى على ذلك احكاماً شتى في تعامل المسلمين مع غيرهم كما سيأتي.

الله لا إله الا هو، ولا سلطان لغيره، فلا تقصّروا في عبادته. انه سيعثكم بعد موتكم ويحشركم الى موقف الحساب والجزاء يوم القيامة، وهو يوم آتٍ لا ريب فيه، ولهذا لا تشكّوا في حديثه فإن لا قول أصدق من قوله.

الفئة: الجماعة. أركسهم: ردهم الى حكم الفكرة، واصل الرّكس رد الشيء مقلوباً. تولّوا: أعرضوا. أولياء: نصراء، جمع وليّ. ميثاق: عهد. حضرت صدروهم: ضاقت. السلم: الاستسلام.

هذه أحكام في معاملة المسلمين لغيرهم، وهي بعض القواعد التي أنشأها الاسلام لأول مرة في تاريخ البشرية وفي مجال المعاملات الدولية. وبفضلها يُقيم المجتمع المسم علاقاته مع غيره من المجتمعات الاخرى على اساس العدالة. وقد وردت هذه القواعد متفرقة في سورة القرآن الكريم، فحرص عليها المسلمون وطبقوها.

أما غير المسلمين فإنهم بدأوا في سنّ القانون الدولي في القرن السابع عشر الميلادي، أي بعد نزول القرآن بعشرة قرون. ومن المؤسف أن كانت جميع القوانين التي سنّت والمنظمات التي أوجبت مجرد أدواتٍ تختفي وراءها الأطماع الدولية، لا أجهزة لأحقاق الحق. وأكبر شاهد على ذلك الآن هي المنظمة الدولية الكبرى «هيئة الأمم»، فإنها لم تحلّ اية قضية، ولم ترعَ حقاً من حقوق الأمم المهضومة، بل ظلت لعبة في يد الدول الاستعمارية لحماية مصالحها.

والآية هنا تعالج قضايا المنافقين، والذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق، والمحايدين الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين أو بحرب قومهم وهم على دينهم، والمتلاعبين بالعقيدة الذين يُظهرون الإسلام إذا قدّموا المدينة الكفر إذا عادوا الى مكة.

مالكم ايها المسلمون حرّم في المنافقين وانقسمت فئتين لاختلافكم حول كفرهم! ان الأدلة تتظاهر على ذلك فما يسوغ لكم ان تختلفوا في شأنهم أهم مؤمنون أم كفرون؟ ولا بصدد وجوب قتلهم أم لا؟

وهؤلاء الذين اختلف المسلمون في أمرهم هم فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين وهم كاذبون. وكان المؤمنون في أمرهم فرقتين: واحدة ترى انهم يُعدّون من الموالين، فيجوز ان يستعان بهم على المشركين، وأخرى ترى ان يعاملوا كما يعامل غيرهم من المشركين. وقد حسم الله الخلاف في ذلك وأمر المسلمين ان يبتوا في أمر ككفرهم، فإنه هو قد أركسهم. ومن ثم: كيف تختلفون أيها المسلمون في شأنهم والله قد صرفهم عن الحق الذي أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشر والشرك! ليس في استطاعتكم هداية من قدّر الله ضلاله، ولن تجدوا له طريقاً الى الهداية على الإطلاق.

إنكم تودّون هداية هؤلاء المنافقين فيما هم لا يقنعون منكم إلا بأن تكفروا مثلهم، وحتى يُقضى على الاسلام الذي أنتم عليه. فاحذروا غوائل نفاقهم.

{فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ. . .}

إذا كانت هذه حالهم فلا تتخذوا منهم مناصرين لكم، ولا تعبتوهم منكم حتى يؤمنوا ويهاجروا مجاهدين في سبيل الاسلام. بذلك تزول عنهم صفة النفاق. فإن أعرضوا عن ذلك، وانضمّوا الى أعدائكم نفذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم. أيأكم أن تتخذوا منهم ولياً يتولّى شيئاً من أموركم، ولا نصيراً ينصركم على أعدائكم.

ثم استثنى من هؤلاء أولئك الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين فيدخلون في عهدهم. كما استثنى الذين هم في حيرة من أمرهم، قد وقفوا على الحياد، مسالمين لا يقاتلون قومهم معكم ولا يقاتلونكم انتم فهؤلاء جميعاً لا يجوز قتالهم. هذا هو مبدأ الاسلام كما جاء صريحاً

في قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا} .
{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ} .

لو شاء تعالى لجعلهم يحاربونكم، ولكنه رحمكم بأن صرفهم عن قتالكم. فإذا اعتزلوكم ولم يقاتلوكم فليس لكم من حق في الاعتداء عليهم، ولا يسوغ لكم قتالهم.

٤٠٦١ 91

تقفتموهم: وجتموهم. السلطان المبين: الحجة الواضحة.

ستجدون طائفة أخرى منافقة شريرة كالطائفة السابقة، لكنها ليست مرتبطة بميثاق ولا متصلة بقوم لهم معكم ميثاق. وهؤلاء فريق من المنافقين كانوا يُظهرون الإسلام للرسول وأصحابه ليأمنوا القتل والسياء. اما الحقيقة فإنهم كفار. يعلم ذلك منهم قومهم. وكان هؤلاء يأتون النبي فيُسلِّنون رياءً ثم يرجعون الى قريش فيرتكسون في الأوثان، يريدون ان يأمنوا ههنا وههنا.

{كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا}

كلما دعاهم قومه الى الشرك بالله ارتدوا، فصارو مشركين مثلهم. فأمر الله بقتالهم ان لم يصلحوا. أي إذا لم يعتزلوكم ويلتزموا الحياد على الأقل: خذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فلا علاج لهم غير ذلك.

٤٠٦٢ 92

تحرير رقبة: عتق عبد رقيق مؤمن. الدية: مبلغ من المال يدفعه القاتل لأهل القتل.

في هذه الآية الكريمة أحكام لعلاقات المسلمين بعضهم ببعض، وفيها أحكام تناول ثلاثة حالات من القتل الخطأ. وهو المفروض ان يكون بين المسلمين، لأن المسلم لا يجوز ان يقتل أخاه المسلم أبداً، ولا قتل إلا في حدٍّ أو قصاص.

فالحالة الأولى: أن يقع القتل خطأ على مؤمن أهله مؤمنون في دار الاسلام. في هذه الحالة يجب عتق رقبة مؤمنة، وان تؤدي دية، أي مبلغ من المال (حدده النبي بمائة من الإبل أو ألف دينار) إلى اهل القتل لتسكن ثائرة نفوسهم، وتعوضهم عما فقدوه من نفع المقتول. هذا الا اذا عفا أهله وعفوا عن الدية، وهو أقرب الى جو التعاطف والتسامح في المجتمع الاسلامي.

وأما عتق الرقبة فإنه تعويض للمجتمع المسلم عن القتل المفقود، فمن أعدم نفساً مؤمنة تكون كفارته أن يوجد نفساً. والعتق كأنه إيجاد من جديد. فالإنسان حر، ولا يكمل وجوده إلا مع حريته. وفي هذه دليل كبير على ان الإسلام جاء ليحرر لا ليسترق. وهنا معنى قوله تعالى:

{وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا} .

والحالية الثانية: ان يقع القتل خطأ على مؤمن في دار الحرب وأهله محاربون للإسلام. وفي هذه الحالة يجب عتق رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التي قُتلت، لكنه لا يجوز أداء الدية لقومه المحاربين، خشية ان يستعينوا بها على قتال المسلمين. ولا مجال هنا لاسترضاء أهل القتل لأنهم أعداء للمسلمين.

وهذا معنى قوله تعالى:

{فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} .

والحالية الثالثة: ان يقع القتل على رجل قومه معاهدون للإسلام. وهنا يجب تحرير رقبة مؤمنة، ودفع الدية كاملة الى أهله. فالله سبحانه قد حرم قتل المعاهد كما حرم قتل المؤمن.

ويقول بعض المفسرين في هذه الحالة الثالثة اذا كان المقتول خطأ هو المؤمن فقط، وجبت الدية وعتق الرقبة.

فمن لم يجد رقبة يفتديها أو عجز ماله عن ذلك وجب عليه صيام شهرين متتابعين، وذلك من باب «توبة من الله» شرعها لكم، ليتوب عليكم ويطهر نفوسكم من التهاون الذي يفضي إلى القتل الخطأ.

{وكان لله عليهما حكيماء} والله عليم بأحوال النفوس وما يطهرها، حكيم فيما شرعه من الاحكام والآداب التي تضمن إرشادكم الى سعادة الدارين.

٤٠٦٣ 93

وردت الحالات الثلاث المتقدمة في قتل الخطأ. أما الآن فنحن أمام القتل العمد. وهو أكبر جريمة في الدنيا، وكبيرة لا تكفر عنها دية ولا عتق. وانما جزاء مرتكبها عذاب جهنم الأليم، والطرده من رحمة الله. وفي ذلك تهديد ووعد لمن أقدم على هذه الجريمة واقترب هذا الذنب العظيم الذي قرنه الله تعالى بالشرك به في كثير من الآيات. منها قوله تعالى {والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق} [الفرقان: ٦٨].

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ورد في الصحيحين عن ابن مسعود قال: «قال رسول الله أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء».

وفي حديث الترمذي والنسائي عن بان عمرو: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم».

ان من قتل مؤمناً متعمداً مستحلاً ذلك القتل، فجزاؤه على جريمته البشعة ان يدخل جهنم خالداً فيها، إنه يستحق غضب الله وأن يطرده الله من رحمته، وقد اعد له عذاباً عظيماً.

قال ان القيم: لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي قامت به السماوات والأرض، وأرسل الله سبحانه رسله، وأنزل كتبه فهو من أكبر الكبائر عند الله، ودرجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه. لذا صار قتل الانسان المؤمن من أقبح الظلم وأشده.

وقد قال بعض العلماء ومنه ابن العباس: ان القاتل عامداً متعمداً لا تقبل توبته، وسخّذ في النار. وقال آخرون: إذا تاب ورجع الى الله تقبل توبته، لأنه تعالى يقول: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}. وهذا هو الذي يتشئ مع قواعد الاسلام.

٤٠٦٤ 94

الضرب في الارض: السير فيها بالسفر، للجهاد او التجارة. في سبيل الله: الجهاد. تبينوا: تثبتوا تأنوا. ألقى اليكم السلم: استسلم وانقاد. عرض الحياة الدنيا: حطام الدنيا من مال وغيره. مغنم: جمع مَغَمَ: رزق وفضل كثير، وما يغنم في الحرب.

بعد أن بين الله في الآيات السابقة أحكام قتل الخطأ والقتل العمد ينبّه المؤمنين ويحذرهم في هذه الآية من نوع قتل خطأ كان يحصل أحياناً. فيأمر المسلمين اذا خرجوا غزاة ألا يبدأوا بقتال أحدٍ أو قتله حتى يثبتوا من واقعة، وعليهم ان يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان، فمن نطق بالشهادتين في تلك الحال قبل منه.

وروى البخاري والترمذي عن ابن عباس قال: «مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي وهو يسوق غنماً له فسلم عليهم، فقالوا ما سلم علينا الا ليتعوذ منا، فعمدوا اليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي، فنزلت الآية» ومعناها:

«يا أيها الذين آمنوا إذا ذهبتم للجهاد فاحترسوا ان تقتلوا المؤمنين وأنتم لا تعلمونهم. ان عليكم أن تثبتوا في قتل من اشتبه أمره عليكم لتعلموا أن مسلم هو أم كافر».

ولا تقولوا لمن استسلم لكم ولم يقاتلكم وأظهر لكم الاسلام إنك لست بمؤمن، فتقتلوه طمعاً في ما معه من حطام الدنيا. إن عند الله أرزاقاً كثير لكم ونعماً لا تحصى. لقد كنتم على الكفر قبل ان هداكم الله بمنه وكرمه، فكونوا على بينة من الأمر الذي تقدّمون عليه. لا

تأخذوا بالظن، فالإسلام يكتفي بظاهر القول. وليس لكم ان تفتشوا عما في القلوب. إن الله تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء. وفي هذا الآية وعيد لنا وتحذير شديد من الوقوع في مثل هذا الخطأ. وهو أشد في حال من نحكم بتكفير من يخالفنا من اهل القبلة. أما الحرب من أجل الغنائم فقط فأمر مرفوض.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «فتثبتوا» بالتاء والتاء في الموضعين، والباقون فتبينوا كما هو هنا. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة «ألقى اليكم السلم» بدون ألف.

٤٠٦٥ 95

الضرر: المرض والعاهات التي يعجز صاحبها معها عن الجهاد كالعمى والعرج. الحسنی: الحنة.

هنا حث للمسلمين المتخلفين في دار الكفر والحرب على الهجرة الى دار المسلمين، ليجاهدوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، فتقوى صفوف المسلمين ويكثر عددهم.

لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم، مساوين للذين يبذلون أموالهم أو يعرضون أنفسهم للقتل في سبيل الحق. فالجاهدون هم الذين يحمون الأمة والدين والبلاد لا القاعدون، الا اذا كان القعود لعذر يمنع من الخروج للقتال، فيرفع اللوم. المجاهدونه افضل درجة. ومع هذا فقد وعد الله الفريقين العاقبة الطيبة والجنة في الدار الآخرة: {وكلاً وعد الله الحسنی} . وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين الذين لم يجاهدوا، غير أصحاب العاهات والأعذار.

ثم بين الله تلك الدرجة، فإذا بها ما ادخره تعالى لعباده من المنازل الرفيعة التي يقصر عنها الحصر، ومغفرة من لدنه تكفر ذنوبهم الكثيرة، ورحمة يخصهم بها زيادة على ذلك. وكان الله ولا يزال شأنه الغفران والرحمة لمن أطاع، أو عصى ثم تاب توبة نصوحاً.

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر والكسائي: «غير أولي الضرر» بنصب الراء من غير. والباقون «غير» بالرفع.

٤٠٦٦ 97

توفاهم: تتوفاهم، تقبض أرواحهم. مأواهم: مسكنهم.

ان الذين تقبض الملائكة أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بتركهم الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام سوف نسألهم في أي شيء كنتم من أمر دينكم، ولماذا لم تهجروا؟ فإن قالوا: كنا مستضعفين بين المشركين يمنعونا من الايمان بالله، واتباع رسوله، أجابهم الملائكة: ألم تكن أرض الله واسعة؟ لماذا لم ترحلوا الى دار الإسلام حيث تستطيعون ان تعبدوا الله وتبوعوا نبيه؟ ان مثل هؤلاء الذين قدروا على الهجرة ولم يهاجروا مأواهم جهنم يُعَذَّبُونَ فيها وساءت مصيرها.

ثم استثنى جل ذكره المستضعفين حقيقة، من الرجال والنساء والولدان، فهم لا يستطيعون الهجرة، فبين ان عسى الله ان يعفو عنهم لعذرهم الواضح والله عفو غفور.

وقد روى المحدثون في سبب نزولها روايات عدة منها: قال ابن عباس: كان قوم بمكة قد أسلموا، فلما هاجر رسول الله كرهوا ان يهاجروا، وخافوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفي بعض الروايات تسمية لعدد منهم، مثل: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة، وعلى بن أمية بن خلف، والحارث بن زمة بن الأسود، والعاصي بن منبه بن الحجاج وغيرهم.

وتقول الروايات أنهم قُتلوا جميعاً أو أكثرهم.

وعلى كل حال فإن حكم الآية باقٍ، ينطبق على كل من خذل المسلمين أو قصر في نصرهم وساعد الكفار.

مراغما: مكاناً ومأوى يصيب فيه الخير ومعيشة حسنة. وقع أجره على الله: ثبت أجره عند الله ووجب. ومن يهاجر في سبيل الله، ولنصرة دينه، يجد في الأرض مأوى يصيب فيه الخير وسعة الرزق والنجاة من الاضطهاد. هذا وعد من الله تعالى للمهاجرين في سبيله. اما من يموت في الطريق مهاجراً الى الله ورسوله، قبل وصوله، فقد وعده الله بالأجر العظيم، مكافأة له على ترك وطنه لاقامة دينه واتباع رسوله. وقد ذكر العلماء ان من سار لأمر فيه منفعة كطلب علمٍ وحجٍّ وكسبٍ حلال مات قبل الوصول الى مقصده فله مثل هذا الحكم.

إذا ضربتم في الأرض: سافرتهم فيها. جناح: ذنب. ان تقصروا من الصلاة: ان تصلوا ركعتين بدل الاربعة. هنا يبين تعالى حكم الصلاة في حالة الخوف، فيرخّص لنا أن نصلي ركعتين بدلاً من اربع. وهذه رخصة لنا من الله في حالة الجهاد والخوف من العدو. وهي تدل على أن الصلاة لا تُترك أبداً، بل يجب ان تؤدي مهما كان الامر خطيراً. وهو يشير الى ان اقامة الصلاة في ساحة المعركة، وفي اوقات الخوف سلاح عظيم يقوّي معنوية المسلمين ويزيدهم اطمئناناً الى النصر. ومع هذا فانه يجب الحذر من الأعداء، لأنهم لا يقصرون في فتنكم، فالحراسة متعينة عليهم آنذاك حتى لا يغدروا بكم.

قضيت الصلاة: أديتها. كُتبا موقوتا: فرضاً محدود الاوقات. إذا كنت ايها الرسول في جماعتك وقامت صلاة الجماعة فلا تنسوا الحذر من الأعداء. . دع طائفة منهم تصلي معك فيما تقف الطائفة الأخرى قبالة العدو يحرسون اخوانهم المصلين. وعلى المصلين ان يكونوا يقظين ويحملوا اسلحتهم ولا يتركوها وقت الصلاة، يفعلون ذلك استعداداً لمواجهة وحيلة من الغدر. {فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ} . إذا سجدوا المصلون معك فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم، لأن الساجد أحوَجُ ما يكون للحراسة حين السجود. فإذا انقضت الركعة الأولى تقوم الجماعة التي صلت وتقف مكان الجماعة الحارسة، وعند ذلك تأتي الجماعة الأخيرة فتصلي معك ركعة كذلك. وهنا يكون الإمام قد أتم صلاته فيسلم وعندئذ تأتي الطائفة الأولى فتصلي الركعة الثانية وتسلم، بينما تحرّسها الجماعة الثانية، ثم تجيء الجماعة الثانية فتصلي الركعة الثانية وتسلم. بذلك يكون الجميع قد صلوا بإمامة الرسول. وهكذا يفعل كل إمام وقائد عند الخطر. واحذروا أيها المؤمنون فإن أعداءكم يمتنون أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم أثناء صلاتكم، فيحملوا عليكم حملة واحدة عليهم يصيبون منكم غرة فيقتلون وينهبون. ولا إثم عليكم في وضع أسلحتكم إذا أصابكم أذى من مطرٍ أو مرضٍ من جراح، لكن عليكم في جميع الأحوال ألا تغفلوا. إن عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم.

{إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً} بما هذاكم اليه من أسباب النصر، بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة. وقد قال بالصلاة على الصفة أوردناها عدد كبير من فقهاء الصحابة منهم: علي، وابن عباس، وابن مسعود، وابن عمرو، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري. ومن فقهاء الأمصار: مالك، والشافعي وغيرهما. وفي كتب الفقه خلاف كبير في صفة هذه الصلاة لا مجال لذكره هنا.

فإذا أدبتم الصلاة على هذه الصورة فاذكروا الله تعالى في أنفسكم قائمين محاربين، وحتى نائمين، فان ذلك يقوّي القلوب ويطمئنها {أَلَا

يَذْكُرُ اللهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ} . فاذا زال الخوف وأمنتم فادوا الصلاة كاملة، فلقد فرضها الله في أوقات معينة، يحافظ الناس عليها ولو لم تكن موقوتة لأمكن إهمالها اذ يؤديها كان انسان اذ ذاك على هواه. وهي تعلمنا النظام ونحن أحوج ما نكون الى النظام.

٤٠٧٠ 104

ولا تنهوا: لا تضعفوا. ابتغاء: طلب. تألمون: تتألمون. لا تضعفوا في طلب الكافرين الذين اعلنوا عليكم الحرب، واستعدوا لقتالكم، فإذا كنتم أنتم تتألمون من الحرب وشدتها وما تجلب من ويلات، فإنهم هم أيضاً يتألمون مثلكم. فكلكم بشر. والفرق بينكم وبينهم أنكم على الحق، ترجون من الله رضاه ونصره، وهم على الباطل، لا يرجون شيئاً. والله تعالى عليم بأعمالكم وأعمالهم، حكيم يجازي كل واحد بما يعمل. وقد سبق له وقرر ان النصر لكم ما دتم عاملين بهديه سائرين على الطريق القويم.

٤٠٧١ 105

بما أراك الله: بما عرّفك وأوحى إليك. خصيماً: مخصماً، مدافعاً عنهم. يختانون أنفسهم: يخوفونها. خوانا: كثير الخيانة. يستخفون: يستترون. يديرون ويزورون، يبت الأمر: دبره بالليل.

نزلت هذه الآيات والتي بعدها إثر حادث سرقة قام به طعمة بن أبيرق، الأنصاري، ثم ذهب مع بعض أقربائه الى النبي وقالوا: يا نبي الله، صاحبنا بريء، وإنما الذي سرق الدرع فلان اليهودي. وقد وجدت الدرع في بيت زيد بن السمين هذا فعلاً. وعند ذلك برأ الرسول الكريم طعمة، وعذره على رؤوس الاشهاد.

ولما جاء صاحب الدرع المسروقة الى النبي يكلمه في أمر السارق اتبه النبي وقال له: «عمدت الى أهل بيت يذكّر منهم إسلام وصلاح وترميمهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة!» قال قتادة بن النعمان، وهو من أقارب صاحب الدرع: لما سمعت ما قال الرسول الكريم ورجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله في ذلك الأمر. فنزلت هذه الآيات تبين الحقيقة، وكانت درساً قاسياً وعظيماً لإحقاق الحق والفصل في الأمر وابعاد الظلم عن اليهودي. وقد بين كتاب الله أن الحق أحق أن يتبع. . اذ ظهر بعد أن طعمة قد سرق الدرع ثم خبأها عند اليهودي. وبإزالة هذه الآيات أعطى الله درساً بليغاً للمسلمين فخّوا أن مهمة هذا الدين تحقيق العدالة بين الناس جميعاً، لا يحابي مسلماً ولا يمالئ حاكماً ولا شريفاً.

إنا أنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن حقاً وصديقاً كي تحكم بين الناس بما اهلك الله به من الاحكام، فلا تكن مدافعاً عن الخائنين، ولا تتهاون في تحري الحق. واستغفر الله يا محمد مما يعرض لك من شئون البشر وأحوالهم، خشية ان تميل الى من تراه أقوى حجة من خصمه. وبعد ان شدّد سبحانه في صورة انقطاع الناس عن هذه الجرائم، بين انه غفور لمن استغفره، ريمح بعباده، يقبل منهم التوبة والرجوع اليه دائماً.

{وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ}

لاتدافع ايها النبي عن هؤلاء ولا تساعدهم، فان الله لا يحب من اعتاد الخيانة، وألفت نفسه اجتراح السيئات والكذب. ان هؤلاء يستترون بخياناتهم من الناس، ولا يستترون من الله. لقد غفلوا عن أنه لا تخفى عليه خيانتهم، بل بلغ من جهلهم انهم يدبرون التهم الباطلة للأبرياء علّهم يلقون بالجرمة عن ظهورهم. والله عليم بكل شيء، محيط بالأسرار، وهم تحت عينه وفي قبضته.

٤٠٧٢ 109

إذا كنتم تدافعون عنهم في الدنيا، فمن يجادل الله ويدافع عنهم يوم القيامة! يومذاك يكون الخصم والحاكم هو الله، وهو محيط بأعمالهم، فلن يستطيع ان يدافع عنهم أمامه احد. وهنا تحذير كبير لك من تحدثه نفسه ان يساعد مجرماً، او يعين خائناً مهما كان.

٤٠٧٣ 110

بعد تلك الحملة الغاضبة على الخونة، والعقاب الشديد للمنافخين عنهم والمجادلين تأتي هذه الآية الكريمة وتقرر ان باب التوبة مفتوح عند الله. ونحن نجد هذا الاسلوب في القرآن الكريم يتكرر، يؤكد الكتاب بعد كل تهديد ووعيد لثلاثاً تقننطوا من رحمة الله. والمعنى: إن من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه بارتكاب المعاصي، ثم يستغفر الله ويطلب عفوه يجد الله تعالى غفراً لذنوبه، قابلاً لتوبته رحيماً متفضلاً عليه.

٤٠٧٤ 111

الاثم: الذنب المتعمد. الخطيئة: الذنب غير المتعمد. البهتان: الكذب على الغير الذي يجعله حائراً. تعود مضار الذنوب على من يفعلها، لأن الله يعلم ما ارتكب الفاعل، ويعامله بمقتضى حكمته، فمن يعمل ذنباً فانما يضر نفسه وعليه يعود ضرره. ومن يكسب ذنباً خطأ او اثماً متعمداً ثم يبرئ نفسه بأن ينسبه الى رجل بريء فقد اقترف ذنبين: احدهما الكذب والافتراء باتهام الأبرياء، والثاني الذنب الواضح المبين. هنا يرسم لنا القرآن الكريم ميزان العدالة الذي يحاسب الله بمقتضاه كل فرد على ما جنى، وفي الوقت نفسه يفتح باب التوبة على مصراعيه. فالتوبة مقبولة دائماً.

٤٠٧٥ 113

لولا أن تفضل الله عليكم يا محمد بالوحي، ورحمك ببيان حقيقة الواقع لأرادت جماعة من المتحكمين اليك ان يضلوك عن سلوك العدل، ولكنهم في الواقع لا يضلون الا أنفسهم، فالله قد أوحى إليك ببيان الحقيقة قبل ان يطمعوا في صرفك عنه، وذلك لتقيم اركان العدل والمساواة، وتنقذ البريء، ولو أنه يهودي من أعداء الا سلام.

{وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ}

لقد عصمك الله من الناس ومن اتباع الهوى، وأنزل عليك القرآن ميزاناً للحق، وآتاك الحكمة من لجنه كي تبين للناس مقاصد الدين وأسراره، وعلمك من الشرائع والاحكام ما لم تكن تعلمه من قبل. وكان فضله عليكم عظيماً حين أرسلك للناس كافة وجعلك خاتم النبيين.

٤٠٧٦ 114

النجوى: الحديث بالسر. المعروف: عمل الخير. ابتغاء مرضاة الله طلباً لرضاه. يشاقق الرسول: يعاديه. نوله ما تولى: نجعله والياً لما اختار من الضلال.

لا خير في كثير من تناجي أولئك الذين يسرون الحديث من جماعة طعمة، فقد أرادوا مساعدته على اتهام اليهودي بالسرقة. كذلك لا خير في كل من كان على شاكلتهم، من الذين يتناجون بالإثم والعدوان ويدبرون المكائد للمسلمين.

وانما الخير في التناجي بالبر والتقوى، كأمر بصدقه او عمل معروف، او قيام بإصلاح ذات البين. ومثل هذا ان يجتمع الرجل بأخيه المسلم فيقول: ان فلاناً بحاجة فهِياً لنساعده، او قم معي الى دار فلان فقد بلغني وبين جاره نزاعاً، وغير ذلك من اعمال الخير. فهذه من الأمور الحسنة المطلوبة شرعاً.

وقد ورد في الحديث عن النبي عليه السلام: «أَفْضَلُ الصَّدَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ» ومن يفعل هذا الخير لوجه الله وطلب مرضاته فان الله سيؤتيه الثواب العظيم في الدنيا والآخرة.

قراءات:

قرأ حمزة وابو عمرو «فسوف يؤتيه» بالياء.

{وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ}

ومن يجعل من الرسول شقاقاً، بارتداده عن الإسلام، واطهار عداوته له ومن بعد ما ظهرت له الهداية، تركه وما اختار لنفسه، ونكّله الى ما توكل عليه، ثم ندخله النار يوم القيامة، وساءت مصيراً.

ذكر في سبب نزول هذه الآيات ان بشير أبيرق ارتد عن الاسلام والتحق بالمشركون {مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى} . وبعضهم يقول إنه منافق. وبعض الروايات تقول ان طعمة هرب والتحق بالمشركون. . والعبرة هنا بعموم النص، فالحكم ينطبق على كل من يكيدون للاسلام، او يرتدون عنه، او يشاققون الرسول عليه الصلاة والسلام.

٤٠٧٧ 116

الدعاء: الطلب، ولكن يدعون هنا بمعنى يعبدون، لأن من عبد شيئاً دعاه عند الحاجة. اناث: معناها معروف، والمراد هنا اللات والعزى ومناة، لأن أسماءها مؤنثة، وقيل: المراد بالاناث الأموات، لأن العرب تصف الضعيف بالأنوثة. المريد: بفتح الميم، مبالغة في العصيان والقرود اللعن: الطرد والاهانة. النصيب المفروض: الحصة الواجبة. الأماني: جمع أمنية. البتك: القطع. المحيص: المهرب، والميم فيه زائدة، لأنه مصدر حاص بحيص، يقال: وقع في حيص بيص، أي في أمر يعسر التخلص منه.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} . تجد تفسيرها في الآية ٤٨ من هذه السورة، ولا اختلاف بين النصيبين إلا في التهمة، حيث اقل هناك: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} وقال هنا: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} والمعنى واحد. وهنا نتعرض للتكرار في القرآن، من جديد، فنورد ما قاله صاحب «تفسير المنار» عند تفسيره لهذه الآية:

«ان القرآن ليس قانوناً، ولا كتاباً فنياً، يذكر المسألة مرة واحدة، يرجع اليها حافظها عند ارادة العمل بها، وانما هو كتاب هداية. . وانما ترجى الهداية بايراد المعاني التي يراد ايداعها في النفوس في كل سياق يعدها ويهوها لقبول المعنى المراد، وانما يتم ذلك بتكرار المقاصد الاساسية. ولا يمكن أن تتمكن دعوة عامة إلا بالتكرار، ولذلك نرى أهل المذاهب الدينية والسياسية الذي عرفوا سنن الاجتماع وطبائع البشر وأخلاقهم يكررون مقاصدهم في خطبهم ومقالاتهم التي ينشرونها في صحفهم وكتبهم» .

{إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا} . كان أهل الجاهلية يزعمون ان الملائكة بنات الله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} [الإسراء: ٤٠] . وقد حملهم هذا الاعتقاد على أن يتخذوا تماثيل يسمونها أسماء الاناث، كاللات والعزى ومناة، ويرمزون بها الى الملائكة التي زعموا انها بنات الله. . ومع الزمن تحولت تلك الأصنام عندهم إلى آلهة تخلق وترزق. . وهكذا تحول وتطور زيارة قبور الأولياء عند الاعراب والعوام من تقديس المبدأ الذي مات عليه صاحب القبر الى الاعتقاد بأنه قوة عليا تجلب النفع، وتدفع الضرر.

{وَأِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} . أي ان عبادة المشركين للاصنام هي في واقعها عبادة الشيطان نفسه، لأنه هو الذي أمرهم بها فأطاعوه.

{لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكُمْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} . المعنى ان الشيط

ان قال لله، جل وعز: ان لي سهماً فيمن خلقتهم لعبادتك، وقلت عنهم فيما قلت: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦] ، وان هذا السهم فرض واجب لي يطعني ويعصيك. والآن: ان ظاهر الآية يدل على ان الشيطان شخص حقيقي، وانه يخاطب

الله بقوة وثقة، فهل الكلام جارٍ على ظاهره، أو لا بد من التأويل؟ .

نقل صاحب «تفسير المنار» عن أستاذه الشيخ محمد عبده ان في كل فرد من أفراد الانسان استعداداً لعمل الخير والشر، ولاتباع الحق والباطل، والى هذا الاستعداد أشار سبحانه بقوله: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠] ، وان النصيب المفروض للشيطان من الانسان هو استعدادة للشر الذي هو أحد النجدين. وعليه يكون لفظ الشيطان كناية عن هذا الاستعداد. الشيطان والعلم الحديث:

لقد سيطرت فكرة الشيطان على عقول الناس يوم كان العلم مجرد كلمات تقال، وسطور تملأ صفحات الكتب، ولا تتجاوزها الى العمل الا قليلاً، أما اليوم فقد أصبحت فكرة الشيطان بشتى تفاسيرها أسطورة بعد أن صار العلم مقياساً لكل حقيقة، وأساساً لكل خطوة يخطوها الانسان، وقوة في كل ميدان، حتى إنه يطير الى القمر والمريخ، يخاطب أهل الأرض من هناك؟ . على هذا التساؤل نقول:

لننظر أحداً يهون من شأن العلم، ولا كونه قوة وثروة، فحاجة الناس اليه تماماً كحاجتهم الى الماء والهواء. . ولكن لا أحد يجهل ان العلم استعداداً للخير والشر، فهو حين يوجه الى الخير ينتج الطعام للجائعين، والكساء للعراة، والعلاج للرضى، وحين يوجه الى الشر يقتل ويدمر. . والشر هو الركيزة الأولى لسياسة الشيطان الذي نعينه. وقد أصبح العلم اليوم في يد السياسة تتجه به الى الفتك والهدم، والسيطرة والاستغلال.

ولقد تضاعف نصيب الشر أو الشيطان مهما شئت فغير بتقديم العلم وتطوره. كان أعوان الشر والاستعمار فيما مضى يتسلحون بقوة العضلات، أما الآن، وبعد ان بلغ العلم من الجبروت ما بلغ فإنهم يتسلحون بالذرة والصواريخ واسلحة الحرب الكيماوية. وهم لا ينسون إشعال حرب نفسية من الدسائس، يخططونها لأتباعهم، لكما اهتزت كراسيهم بفعل رغبة الشعوب في التحرر وفعل الخير لأوطانهم.

{وَلَا ضَلِيلُهُمْ وَلَا مُدِينُهُمْ} اضلال الشيطان للانسان أن يزين له الحق باطلاً، والخير شراً، أو يوهمه انه لا حق ولا خير في الوجود، ولا جنة ولا نار، وفي الحديث: «خلق ابليس مزيناً، وليس اليه من الضلالة شيء» أما تمنية الشيطان للانسان فهو يخيل اليه ادراك ما يتمناه رغم انه باطل، ويؤمله في النجاة يوم الحساب، وما الى ذلك من الأمانى الكاذبة، والسعادة الموهومة.

{وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْرِزْ خَلْقَ اللَّهِ} . كان العرب في الجاهلية يقطع آذان بعض الانعام، ويوقفونها للأصنام، ويحرمونها على أنفسهم، ويأتي التفصيل عند تفسير {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} من سورة المائدة.

وبعد ان كان الشر أو الشيطان يأمر حزبه في عصر الجاهلية يقطع آذان الانعام وتغيير خلق الله أصبح يأمرهم بالقاء قنابل النابالم على النساء والأطفال في فيتنام، والقنبلة الذرية على المدن ك «هيروشيما» و «ناكازاكي» لافناء خلق الله.

{وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا} . حيث يصبح ضحية الأهواء والشهوات، وأسير الأوهام والخرافات. {يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} . حيث سار بهم على طريق التهلكة بعد ان زين لهم انه سبيل النجاة، فالزاني أو شارب الخمر مثلاً يخيل اليه انه يتمتع باللذات، وهو في واقعه يتحمل أعظم المضار دنيا وآخرة.

{وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} . أي ان حزب الشيطان من المشركين والمفسدين لا نجاة لهم من عذاب الله. .

بعد ان بين الله احوال الذين يتبعون أهواءهم وملذاتهم بإغواء الشيطان، ويتخذون آلهة غير الله، وذكر ان عاقبتهم الخسران في الدنيا

ومأواهم جهنم في الآخرة بين هنا عاقبة أولئك الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا صالحاً وهي فوزهم من الله بجنت وارفة، فيها انهار جارية، يتمتعون فيها بنعمي خالد. هذا وعد من الله، ووعد الله لا يكون إلا حقاً، وهل أصدق من الله وعداً.

٤٠٧٩ 123

الأماني: ما يتمناه الانسان، وغالباً ما تكون خيلاً لا حقيقة. ولياً: يلي أمره ويدافع عنه. نقيراً: شيئاً تافهاً، والنقيير لغة ما يكون على نواة التمرة. الخفيف: المستقيم لأنه مائل عن الزيغ والباطل. خليلاً: صديقاً محباً.

يقرر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة قاعدة الاسلام الكبرى في العمل والجزاء، وهي: ان ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً الى الأماني بل الى أصل ثابت، وسنة لا تتخلف. إنه قانون تستوي أمامه الأمم، لا يحابي أحداً، ولا تُخرق له القاعدة. ان صاحب السوء مجزيّ بالسوء، وصاحب الحسنة مجزيّ بالحسنة. وليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة اهله ان يقول القائل منهم: ان ديني أفضل وأكمل، فالجزاء على قدر العمل، لا بالتني والغرور. انه ليس بما تتمنون أيها المسلمون، ولا بما يتمناه اليهود والنصارى. فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهي، ولا تحصل فائدتها بمجرد الانتساب اليها دون العمل. انما النجاة من العذاب بالايان والعمل الصالح.

فني عمل عملاً شيئاً يُجز به، ولن يجد له ولياً غير الله يدفع عنه الجزاء، ولا نصيراً ينقذه مما يحل به. ومن يعمل عملاً صالحاً سواء كان ذكراً او انثى، وهو مطمئن القلب بالايان يدخل الجنة، لا يظلمه ربه شيئاً ولا ينقص من علمه قليلاً او كثيراً.

وقد أردف سبحانه بعد ذلك ذكر درجات الكمال فبين: أن اساس عمل الخير منبعث من الاعتقاد السليم، وأن أحسن الدين ان يُخلص المرء فيجعل وجهه وعقله ونفسه لله، لا يطلب الا رضاه. بذلك تستقيم مداركه فيدرك رسالة الرسل. وقد عبر سبحانه عن توجه الانسان لله بالوجه، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من إقبال واعراض، وشروء وكآبة، وذلك مرآة لما في السريرة.

{وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} أي الملة التي كان عليه إبراهيم في ابتعاده عن الوثنية وأهلها، وعند سيدنا ابراهيم تلتقي الوحدة الدينية للمسلمين واليهود والنصارى، فاتبعوا طريق من أكرمه الله فاتخذ خليلاً.

وفي هذا الآية رد قاطع على كل من حدثته نفسه بأنه هو أحسن من غيره، أو دينه أحسن من دين غيره، دون ان يعمل عتملاً صالحاً ويؤمن إيماناً كاملاً. فقد كانت اليهود والنصارى يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وديننا خير دين. ولعل فكرة الاستعلاء هذه راودت بعض المسلمين فقالوا نحن خير أمة أخرجت للناس، وأن الله متجاوز عما يقع منا على أساس من ذلك. . .

لقد جاء هذا النص يردّ هؤلاء وهؤلاء الى الصواب، فهناك عند الله ميزان واحد هو اسلام الوجه لله، مع الاحسان واتباع ملة ابراهيم. فأحسن الدين هو هذا الاسلام، ملة ابراهيم، واحسن العمل هو الاحسان، والإحسان ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

٤٠٨٠ 126

ان كل ما في السموات والأر ملك له، وهي من خلقه مهما اختلفت صفات أفرادها. انها مملوكة له خاضعة لأمره، وهو مهيمن على كل شيء، يعلم علم إحاطة بكل ما يعمل الانسان، ويجازيه بمقتضاه.

٤٠٨١ 127

يستفتونك: يطلبون منك بيان الحقيقة. يفتيكم: يبين لكم ما أشكل عليكم. المستضعفين: الضعفاء من اليتامى والولدان. إنهم يطلبون منك يا محمد بيان ما غمض من أحكام النساء، والمراد بهن هنا اليتيمات. كان من عادة العرب في الجاهلية اذا كانت عند أحدهم بنت يتيمة صار وليها ووارثها، ورغب في تزوجها ليأخذ مالها. وقد تكون غير جميلة ولها مال ولا يتزوجها ولا يزوجه.

من أحد. . خشية ان يُحرم من مالها؟ فجاءت الآية هنا تدعو الى ترك عادات الجاهلية. فالرجل الذي عنده يتيمة يريد ان يتزوجها يجب عليه ان يدفع لها مهرأ كالمراة الغربية عنه. واذا لم يرغب في زواجها فليتركها تتزوج من غيره. كما بينت الآية أنه يجب توريث الضعفاء من الأولاد الصغار والنساء واعطاؤهم حقوقهم كاملة. ثم رغب الله تعالى المؤمنين في العمل بما فيه فائدة لليتامى، وذكرهم انه عالم لا يعزب عن علمه شيء، وهو مجازيهم بما يعملون.

والخلاصة: ان الذي يتلى عليهم في الضعيفين، المراة واليتيم، هو ما تقدم في أول السورة، لذلك يذكرهم الله بتلك الآيات المفصلة ليتدبروها ثم يعملوا بها. وهو بذلك كله يريد استئصال عادات الجاهلية والممقوتة، ويضع عوضاً منها تقاليد انسانية راقية يبنى عليها المجتمع الاسلامي العظيم.

٤٠٨٢ 128

نشوزاً: تجافياً وترفعاً وإعراضاً. وأحضرت الأنفس الشح: جُبلت النفوس على البخل، والشحُّ أشدُّ البخل. إن خافت الزوجة من زوجها إهمالاً لشئون الأسرة وجفاءً لها وعدم اقبال عليها، كأن يقلل من محادثتها او غير ذلك فيجب عليها ان تترىث. فلعلّه يكون مشغولاً، او يواجه بعض المشاكل في عمله. ومن الأفضل لها أن تصارحه وتسعى في المصالحة معه، ولا بد لأحد الطرفين ان يتنازل قليلا عن بعض حقوقه. والصلح خير من الفراق، ورابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ. ولما كان الرجل هو الأقوى فإن عليه ان يعاشر زوجته بالمعروف وان يتحرى العدل معها قدر المستطاع.

{وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ}

ان النفوس عرضة للبخل، فينبغي ان يكون التسامح بينهما كاملاً، لأنهما قد ارتبطا بميثاق الزوجية العظيم. ثم رغب الله تعالى في بقاء الرابطة الزوجية جهد المستطاع فقال: {وَأِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} ، يعني: إن تحسنوا العشرة فيما بينكم ايها الأزواج وتيقوا أسباب النشوز والإعراض فان الله سوف يجازي من أحسن منكم ويثيبه على ذلك.

٤٠٨٣ 129

فتذروها: فتركوها. المعلقة: التي ليست مطلقة ولا ذات بعل. من سعتة: من غناه. مهما حرصتم على العدل والمساواة بين الزوجات، حتى لا يقع ميل الى احداهن، فلن تستطيعوا ذلك. وحتى لو قدرتم عليه لما قدرتم على إرضائهن به. فالعدل الكامل ههنا في حكم المستحيل. اذ لا بد ان يميل الزوج بقلبه الى واحدة أكثر من الأخرى. . من ثم رفع الله عنكم ذلك، وما كلفك الا العدل فيما تستطيعون بشرط ان تبدلوا فيه وسعكم، لان الميل القلبي لا يملكه المرء.

وقد كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل: ثم يقول: «اللهم هذا قسَمي فيما أملك، فلا تُلْهِنِي فيما تملك ولا أملك»، يعني القلب.

{فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ}

اذا كان العدل الكامل غير مستطاع فعليكم ألا تميلوا كل الميل الى من تحبون منهن وتعرضوا عن الأخرى، فتركونها كأنها ليست زوجة، ولا مطلقة. وعليكم ان تصلحوا في معاملة النساء وتفقوا ظلمهن ولا تفضّلوا بعضهن على بعض فيما يدخل في اختياركم كالقسم والنفقة، والله يغفر لكم ما لا يدخل في اختياركم كالحب وزيادة الإقبال.

ثم يبين الله تعالى ان الفراق قد يكون فيه الخير ان لم يكن هناك وفاق.

{وَأِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ}

اذا لم يُمكن الإصلاح واستحكمت النفرة، فان التفريق أفضلُ إذ ذاك. والله تعالى يعني كليهما من سعة رحمته وفضله. الأرزاق بيده،

وهو واسع الرحمة، وحكيم فيما شرع من الأحكام.

٤٠٨٤ 131

بعد أن أمر سبحانه بالعدل في شؤون المرأة والإحسان لليتامى والضعفاء والمساكين بين هنا أنه قد أمرنا بكل ذلك، لا لأنه يستفيد منه أو أنه بحاجة الى اعمال العباد، فهو مستغن عن جميع المخلوقات، وإنما أمرنا بالعدل حتى نزداد إيماناً وعملاً صالحاً. لذلك ترى انه كرر كونه مالك السماوات والأرض ومن فيهن ثلاث مرات ليعلموا ذلك علم اليقين.

إن لب الدين هو الخضوع خالق هذا الكون، والاعتراف بسلطانه المطلق على كل ما في السماوات والأرض أبرز وصيته لكل من أنزل عليهم كتاباً من عنده فقال ما معناه: وصينا أهل الديانات السماوية ووصيانكم أنتم يا معشر المسلمين أن تخافوه وتعبدوه.

{وَأَن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَآ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَآ فِي الْأَرْضِ}

لا يخلّ بسلطانه شيء. وهو غني عنكم. ومع ذلك، فإنه يمد لكم إيمانكم. ثم كرر ذلك {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَآ فِي الْأَرْضِ. . .} فهو المسيطر والمدبر، وكفى ان يكون هو المتولي أمر هذا الكون العظيم لينظم، والناس كي يعبدوه ويفوضوا أمورهم اليه.

ثم بين لمن يكفرون مآل شأنهم في ملك الله، وذكر قدرته على الذهاب بهم والمجيء بغيرهم فقال {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} اي أنه قادر على إفنائكم من الوجود، وإيجاد قوم آخرين من البشر وهو اذ يوصيهم بتقواه لا يضره شيء اذا لم يسمعوا الوصية ان ذلك لن ينقص من ملكه شيئاً، وانما يوصيهم بالتقوى لصلاح حالهم.

وبقدر ما يؤكد الاسلام كرامة الانسان على الله وتفضيله على كل ما في الكون يقرر هوانه على الله حين يكفر ويتجبر، ويدعي خصائص الألوهية.

٤٠٨٥ 134

ينجم الله هذه الآيات بتوجيه القلوب الطامعة في الدنيا وحدها الى أن فضل الله أوسع، فعنده ثواب الدارين معاً. فعليكم ان تطلبوها معاً، لا ان تقصروا طلبكم على الأدنى وتتركوا الاعلى والأبقى. ان الجمع بينهما هين ميسور، والله سميع لأقوال عباده بصير بجميع أمورهم. وهكذا نجد ان الدين الاسلامي تكفل بسعادة الحياة في الدارين، وقد حققها للمسلمين في صدر الاسلام. ولو استقام المسلمون على سنة نبيهم لا ستردوا مكانهم التي بهرت العالم قروناً طويلة.

٤٠٨٦ 135

القسط: العدل. قوامين بالقسط: عاملين على اقامة العدل. فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا: فلا تتبعوا الهوى كراهة ان تعدلوا. وان تلوا: وان تلوا ألسنتكم عن شهادة الحق بأن تحاولوا كتمانها. او تعرضوا: تمتنعوا.

بعد ان حث الشارع على العدل والمساواة في النساء واليتامى والضعفاء، عمم الأمر هنا بالعدل بين الناس جميعاً. والعدل أحد مبادئ الاسلام الهامة، فهو نظام الوجود، والقانون الذي لا يختلف النظر فيه.

يا أيها المؤمنون. كونوا مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته. أدوا شهاداتهم لوجه الله ولو على أنفسكم او والديكم او اقاربكم. وان كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً فلا تمتنعوا عن أداء الشهادة احتراماً لغناه، ولا رحمةً به لفقره. ان الله أولى بالنظر الى حال الغني والفقير منكم، فلا تتبعوا أهواءكم كراهة ان تعدلوا. وإن تلوا ألسنتكم لإخفاء معالم الحق او تمتنعوا عن الشهادة فإن الله يعلم ذلك، وسوف يجازيكم عليه بالحق.

يا أيها المؤمنون، آمنوا بالله، ورسوله محمد، والقرآن الذي أوحاه إليه، وبما أنزله على من جاءوا قبل محمد من المرسلين. إن من يكفر بالله وملائكته وكتبه جميعاً ورسوله ويوم البعث قد ضلّ عن الغاية التي يجب ان يبلغها الانسان من الكمال.

قراءات:

قرأ نافع وابن كثير وابو بكر وابو عمرو وعاصم والكسائي «وان تلوا» كما هو هنا في المصحف، وقرأ حمزة وابن عارم «وان تلوا» يعني وان وليتم اقامة الشهادة. وقرأ نافع والكوفيون: الذي نزل، الذي نزل، والذي أنزل، بفتح النون والهمزة، والباقون «نزل» و «أنزل» بضم النون والهمزة.

٤٠٨٧ 137

ان الذين آمنوا من اليهود بموسى، ثم كفروا حين غاب فعبدوا العجل، ثم آمنوا بعد ان عاد اليهم، ثم كفروا بعبسى، ثم ازدادوا كفراً بحمد لن يغفر الله لهم ما يفعلونه من شر، ولن يهديهم الى الحق. ذلك لأن أرواحهم قد دنست وقلوبهم قد عميت فلم يتوبوا، ولأن غفران الله يقتضي توبة واقلاعاً عن الشر، وهدايته تكون لمن يتجهون الى الحق ويطلبونه، لا للمترددين المضطرين في معتقدهم. وبشّر أيها النبي المنافقين (والبشارة هنا سخرية منهم) بأن الله قد أعدّ لهم عذاباً مؤلماً يوم القيامة. ذلك لأنهم يتخذون الكافرين أصدقاء ونصراء من دون المؤمنين، اعتقاداً منهم ان الغلبة ستكون من نصيبهم. والصحيح ان العزة لله وحده، يؤتيها من يشاء، ومن اعتز بغير الله ذل.

٤٠٨٨ 140

يتربصون بكم: ينتظرون وقوع أمرٍ بكم. ألم نستحوذ عليكم: الاستحواذ هو الاستيلاء. لقد أوصاكم الله في القرآن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها الكافرون أو يستهزؤن ألا تجلسوا معهم. اهجروهم الآن يخوضوا في حديث آخر، فإن ظلمتم معهم وهم على تلك الحالة كنتم اذن مثلهم في الكفر. وهذا تهديد لكل من يسمع تنقصاً في الدين او القرآن ولا يستطيع تغييره ثم لا يترك المجلس. ان الله جامعُ المنافقين والكافرين وكلّ من يقعد معهم في جهنم جميعاً. اولئك المنافقون ينتظرون ما يحدث لكم من خير أو شر، فإن نصركم الله قالوا: الم نكن معكم باعتبارنا من جماعتكم؟ وان كان للكافرين الظفر عليكم مثوا عليهم وقالوا لهم: ألم نمسحكم مودتنا ونمنعكم من المؤمنين؟ فاعرفوا لنا هذا الفضل وهاتوا نصيبنا مما اصبتم. والله تعالى يحكم بينكم وبين هؤلاء المنافقين يوم القيامة، ولن يجعل للكافرين سبيلاً للغلب على المؤمنين ما دام هؤلاء متمسكين بدينهم متبعين لأوامره ونواهيه.

٤٠٨٩ 142

يخادعون الله: يحاولون خداعه. كُسالى: جمع كسلان. يراؤون الناس: يعملون من أجل أن يرام الناس هم لا يؤمنون. مذبحين: مترددين لا يستقرون على حال. ان المنافقين يحسبون انهم يخدعون الله ويخفون عنه حقيقة أمرهم، وهو يكشف خداعهم لا محالة، فيمهلهم يرتعون في شرهم، ثم يحاسبهم على ما يفعلون. واذا قام هؤلاء المنافقون إلى الصلاة قاموا متثاقلين بدون رغبة ولا ايمان. إنهم يخشون الناس فيوهمونهم انهم مؤمنون، كما يعملون الاعمال الطيبة لمجرد الرياء، حتى يراهم المؤمنون ويظنونهم منهم. وهم لا يذكرون الله الا نادراً، ويظنون مذبحين تارة مع المؤمنين وتارة مع الكافرين، لأنهم طلاب منافع، ومن قضت سنته تعالى ان يكون ضالاً عن الحق، فلن تجد له سبيلاً للهداية.

٤٠٩٠ 144

الدرك: بسكون الراء وبفتحها الطبقة من جهنم. اعتصموا بالله: لجأوا اليه. يا أيها المؤمنون لا تتخذوا الكافرين أحباباً وانصاراً لكم من دون المؤمنين، أتريدون ان تجعلوا لله حجةً عليكم بأنكم منافقون؟ .

إن المنافقين في سفلى طبقات جهنم، لأنهم شر أهلها. . فقد جمعوا بين الكفر والنفاق، ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم. ولن تجد لهم يا محمد نصيراً ينقذهم من العذاب. ولا ينسحب ذلك على الذين رجعوا عن النفاق ولاذوا بالله وأخلصوا لدينه، فأولئك يعدون من المؤمنين، وقد أعد لهم جزاءً عظيماً في الدنيا والآخرة.

ماذا ينال الله من تعذيبه إياكم ان شكرتم وآمنتم؟ إنه لا يعذب أحداً من خلقه انتقاماً منه، ولا طلبنا لنفع، ولا دفعاً لضرٍ وإنما يعاقب المجرمين لإصلاحهم وتطهيرهم، وهو شاكر لعباده عمل الخير، كما يعلم حالهم من خير أو شر.

قراءات:

قرأ الكوفيون «الدرك» بسكون الراء والباقون «الدرك» بفتح الراء وهم لغتان.

٤٠٩١ 148

حُبُّ الله للشيء: الرضا به والإثابة عليه. سوء من القول: ما يسوء الذي يقال فيه، كذكر عيوبه ومساويه. إن الله لا يرضى من المؤمنين ان يقول السوء بضعهم لبعض، الا الذي وقع عليه ظلم، فإن الله رخص له أن يشكو من ظلمه، ويشرح ذلك لصدق أو حاكم أو غيره مما يساعده على ازالته. والله لا يحب لعباده ان يسكتوا على الظلم، وهو سميع لكلام المظلوم، وعليم باظلم الظالم، لا يخفى عليه شيء من أقوال العباد ولا افعالهم ونياتهم فيها. وهكذا فإن الإسلام يحبي سمعة الناس مال م يظلموا. . فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية، عند ذلك يحق للمظلوم ان يجهر بكلمة السوء في ظلمه. هذا يوفق الإسلام بين حرصه على العدل، وحرصه على الأخلاق. . ثم يوجه الناس إلى الخير عامة ويدعوهم إلى العفو عن السوء.

٤٠٩٢ 150

الايان بالله ورسله ركان أساسيان في العقيدة الاسلامية، والايان بهما واجب بدون تفرقة بين رسول وآخر. وهناك فريق من الناس يؤمن ببعض الرسل دون بعض كقول اليهود: تؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد، وقول النصارى: تؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد. . والفريقان على خطأ. وهناك فريق ينكرون النبوات. وكل هؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى: {أولئك هم الكافرون حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} .

ثم بعد أن بين حال الخارجين عن طريق الايمان ذكر حال الفريق الذي هو على الصراط المستقيم فقال: والذين آمنوا بالله ورسوله. . الآية: ١٥٢.

٤٠٩٣ 152

أما هؤلاء الذين يعتقدون بالله وبجميع رسله فإن الله سوف يجزل لهم الأجر يوم القيامة، ويهيئ لهم الثواب العظيم، والله سبحانه غفور رحيم.

قراءات:

قرأ حفص عن عاصم وقالون عن يعقوب «سوف يؤتيهم» بالياء. والباقون: «نؤتيهم» بالنون.

٤٠٩٤ 153

جهرة: عياناً، جهراً. الصاعقة: الشرارة الكهربائية التي تسبق سماع الرعد. البينات: الدلائل الواضحة. في هذه الآية الكريمة وما يليها بيان لتعنت اليهود وجدلهم واصرارهم على الفكر، فقد طلبوا الى رسول الله ان يأتيهم بكتاب من السماء {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ} يروونه ويلبسونه بأيديهم. فقد قالوا: يا محمد، إن موسى جاء بالأرواح من عند

الله، فأُتينا بالواح مكتوبة بخط سماوي يشهد انك رسول الله.

ولقد روى الطبري في تفسيره ان اليهود قالوا للنبي: «لن نبائعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله يكون فيه» من الله تعالى الى فلان. . انك رسول الله، والى فلان. . انك رسول الله، وهكذا، ذكروا أسماء معينة من أحبارهم «. ما قصدُهم من ذلك الا التعنت والجدل. ولن يقتنعوا حتى لو انزل الله ذلك الكتاب ولمسوه بأيديهم كما قال تعالى. {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام: ٧] .

فلا تعجب ايها الرسول من سؤالهم هذا، فقد سألوا موسى فقالوا: أرنا الله عياناً، فعاقبهم الله بأن أرسل عليهم صاعقة أهلكتهم. ولم يقفوا عند هذا الحد بل ازدادوا كفرًا، فاتخذوا العجل إلهاً وعبدوه، وهم عبيد الذهب والمادة، كل هذا رغم ما جاءهم به موسى من الأدلة الواضحة. ومع ذلك فقد عفونا عنهم. لكن العفو لم ينفع معهم ولم يقدره، فأتينا موسى سلطة ظاهرة فأخضعناهم له.

٤٠٩٥ 154

ورفعنا فوقهم جبل الطور المعروف ظلةً، مهددين بإسقاطه عليهم، ليفوفوا بعهدهم بعد أن امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة. وقلنا لهم ادخلوا باب القرية خاضعين لله، وأمرناهم ألا يعتدوا يوم السبت فلا يتعاطون فيه عملاً. وأخذنا منهم عهداً مؤكداً بذلك، لكنهم نقضوه.

٤٠٩٦ 155

فسبب نقضهم للميثاق الذي أخذ عليهم، إذ أحلوا ما حرم الله وحرّموا ما أحله من جراء كفرهم بآيات ربهم، وقتلهم الأنبياء الذين أرسلناهم، ظلماً وعدواناً، وإصرارهم على الضلال بقولهم: ان قلوبنا غُلف لا تعي شيئاً ختم الله على قلوبهم وأبقاهم في كفرهم فلا يؤمن منهم الا نفر قليل.

٤٠٩٧ 156

بهتاناً: اختلافاً وكذباً. شبه لهم: وقع لهم الشبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه. لقد غضب الله عليهم جزاء كفرهم، بسبب رميهم مريم كذباً من عندهم باقتراف الزنا، وبحكم قولهم إننا قتلنا عيسى بن مريم رسول الله مع ان الحق انهم لم يقتلوه ولم يصلبوه وإنما شبه لهم ذلك. والواقع أنهم قتلوا شخصاً يشبهه. اما الذين اختلّفوا في شأنه فهم في شك من أمره، اذ ليس لهم به علم قطعي، وما يتبعون إلا مجرد الظن.

وروايات الأنجيل الموجودة الآن حول هذا الموضوع متناقضة، فبضعها يرى أن يهوذا الاسخريوطي أحد تلاميذ المسيح هو الذي سلّبه للجند وأخذ ثلاثين قطعة من الفضة اشترى بها قالاً. اعمال: ١٨ و ١٩.

وفي انجيل متى ان يهوذا ندم ورد الثلاثين من الفضة الى رؤساء الكهنة والسيوخ قائلاً: قد اخطأت إذ سلّمت دماً بريئاً. . . . متى ٣٧ ٧.

وفي انجيل متى أيضاً أن يهوذا ندم ومضى وخنق نفسه. ٢٧: ٥.

اما كتاب اعمال الرسل فيذكر ان يهوذا لم يخنق نفسه بل (سقط على وجهه فانشق من الوسط. . . .) : انخ ذلك.

والخلاصة: ان روايات المسلمين جميعها متفقة على ان عيسى نجا من أرادوا قتله فقتلوا آخر ظناً منهم انه المسيح.

{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. . .}

وهذا تأكيد من القرآن بأن عيسى لم يُقتل أو يصلب بل رفعه الله إليه وأنقذه من أعدائه، والله عزيز لا يُغلب. بهذه العزة أنقذ رسوله الكريم من أعدائه، وبحكمته جازى كل عامل بعمله. وموضوع الرفع: أهو بالروح أو بالجسد موضوع تكلم فيه المفسرون كثيراً فلا

داعي لتفصيله هنا.

٤٠٩٨ 159

ان كل فرد من أهل الكتاب ينكشف له الحق في أمر عيسى قبل ان يفارق الحياة، فيدرك ان عيسى ما كانت إلا عبد الله ورسوله، ويؤمن على ذلك الأساس. غير أن ايمانه يأتي متأخراً لا ينفعه. ولسوف يشهد عليهم عيسى يوم القيامة انه قد بلغ رسالة ربه، كما جاء في آخر سورة المائدة: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة: ١١٧] .

٤٠٩٩ 160

فبسبب ما ارتكبه اليهود من الجرائم، ولنعهم كثيراً من الناس الدخول في دين الله، وتعاملهم بالربا وقد نهى الله عنه، وأخذهم أموال الناس بالرشوة والخيانة بسبب كل ذلك عاقبهم الله، فحرم عليهم ألواناً من الطيبات كانت حلالاً لهم من قبل وأعد لهم عذاباً مؤلماً في جهنم الى الأبد.

٤٠١٠٠ 162

ولكن: هنك في اليهود والنصارى علماء راسخون في العلم، يؤمنون، شأن المؤمنين من أمتك أيها النبي، بما أوحى إليك، أنت والرسول من قبلك (مثل عبد الله بن سلام وأسيد بن سعية وثعلبة بن سعية، وغيرهم) ، ويطعمون الصلاة ويؤدون على أحسن وجوهها، ويدفعون الزكاة ولا يخلون بها، ويؤمنون بالله واليوم الآخر. هؤلاء جميعاً سيجزيهم الله جزاءً وافياً وأجراً عظيماً لا يدرك وصفه إلا هو.

٤٠١٠١ 163

الأسباط: جمع سبط وهو ولد الولد، والمراد بهم قبائل بني اسرائيل. قصصناهم عليك: رويناً لك أخبارهم. الزبور: الكتاب اسمه الزبور. يا محمد، لقد أوحينا إليك هذا القرآن بنفس الطريق التي أوحينا بها الى نوح والنبيين من بعده، ولم ينزل الله تعالى صفائح مسطورة من السماء على أحد، كما سألك اليهود للتعجيز والعناد. كذلك أوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وباقي الأنبياء المذكورين، وآتيناً داود كتاباً اسمه الزبور. بل لقد أرسلنا غير هؤلاء رسلاً آخرين أخبرناك ببعض أحداثهم ووقائعهم، (كما في سورة الأنعام والقصص والأنبياء وهود والشعراء) ورسلاً لم نخبرك عنهم شيئاً.

اما طريقة الوحي الى موسى على الخصوص، فاعلم يا محمد أن الله قد كلمه تكليماً. والحق أننا قد أرسلنا كل هؤلاء الرسل ليشيروا من آمن وعمل صالحاً بالثواب العظيم، وينذروا من كفر بالعقاب المقيم.

اما اذا لم يشهد مجادلوك اليهود بصدق رسالتك، فان الله تعالى يشهد بذلك. لقد أنزل كتابه إليك محكماً بمقتضى علمه، والملائكة يشهدون بذلك. . وشهادة الله تعالى وملائكته تكفيك وتغنيك.

قراءات:

قرأ حمزة: زبوراً بضم الزاي والباقون بفتح الزاي.

٤٠١٠٢ 167

ان الذين كفروا بحمد القرآن، ومنعوا غيرهم من الدخول في دين الله بشتى الوسائل قد ضلّوا وبعثوا عن الحق.

ان الذين كفروا بما أنزل إليك قد ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الطريق والموصل الى الخير والسعادة، كما ظلموا غيرهم بإغوائهم وكذبهم على الناس بكتمان الحقيقة. لذلك لن يغفر الله لهم ما داموا على الكفر، ولن يهديهم طريق النجاة. أما جزاؤهم فهو النار يُعَذَّبُونَ خالدين فيها ابدا. تلك مقتضى حكمته تعالى سنته في خلقه: إن أحسنوا أثيبوا، وإن أساءوا حق عقابهم. . . . وكان ذلك على الله يسيرا.

٤٠١٠٣ 170

بعد أن أقام الله تعالى الحجّة على أهل الكتاب وردّ شبهاتهم جاء هنا بهذه الدعوة الشاملة لجميع الناس: إن هذا الرسول الكريم جاءكم بالدين الحق من عند ربكم، فمن آمن منكم فقد اهتدى الى الصراط المستقيم، وذلك أفضل لصالحكم، فالله عني عنكم جميعاً، له ما في السموات والارض، وهو يعلم الأمر كلّ ويجريه وفق حكمته.

٤٠١٠٤ 171

الغلو: مجاوزة الحد. كلمته: وهي «كُن» التي وُجد فيها. ألقاها الى مريم: أوصلها اياها. روح منه: لأنه خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل. الاستنكاف: الامتناع عن الشيء أنفةً وكبراً.

بعد ان انتهى القرآن من محاجة اليهود وإنصاف سيدنا عيسى وأمه الطاهرة من افتراءاتهم وغلوهم في تحقيره عطف هنا الى إنصاف عيسى من غلو النصارى في شأنه، ورفض ما دخل عليهم من أساطير الوثنية التي تسربت الى عقيدة المسيح بعده، بفعل شتى الأقوام والملل.

يا أهل الكتاب من اليهود، لا تتجاوزوا الحدود التي حدّها الله، ولا تعتقدوا الا الحق الثابت: أذكروا ان فتتروا على الله الكذب. فتذكروا رسالة عيسى، او تجعلوه آلهة مع الله. إنما هو رسول من عند الله كسائر الرسل، خلقه بقدرته، كلمته التي نفخها روحه جبريل في مريم. فالمسيح سرٌّ من أسرار قدرته، وليس ذلك بغريب. أما خلق آدم من قبله من غير أب ولا أم!! {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩] .

قال القاسمي في تفسيره: «يحكى ان طيبيا نصرانياً من أطباء الرشيد ناظر عليّ بن حسن الواقدي ذات يوم فقال له: ان في كتابكم ما يدل على ان عيسى عليه السلام جزء منه تعالى. وتلا هذه الآية؟ {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} . فقرأ الواقدي قوله تعالى في سورة الجاثية: {وَنَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ} ، فقال إذن يلزم ان يكون جميع تكل الأشياء جزءاً من الله، تعالى علواً كبيراً. فانقطع النصراني وأسلم. وفرح الرشيد بذلك الجواب ووصل الواقدي بصلّة فخرية. آمنوا يا نصارى بالله ورسله جميعاً إيماناً صحيحاً، ونزهوه عن كل شريك ومثيل. لا تقولوا إن الآلهة ثلاثة. انتهوا عن هذا الباطل، فهو نقيض لعقيدة التوحيد التي جاءت بها الأديان السماوية. إن الله يا هؤلاء واحد منزّه عن التعدد، فليس له أجزاء ولا أقانيم، ولا هو مرگب ولا متحد بشيء من المخلوقات.

الأقانيم: جمع اقنوم معناها الاصل، والاقانيم الثلاثة عند النصارى هي: الأب والابن وروح القدس. قال مرقس في الفصل الثاني عشر من انجيله: ان أحد الكتبة (من اليهود) سأل يسوع عن أول الوصايا فأجابه: أول الوصايا إسمع يا إسرائيل، الربّ الهنا واحد. . . فقال له الكاتب «جيداً يا معلّم، بالحق قلت إنّه واحد وليس آخر سواه. فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له لست بعيداً عن ملكوت السماوات.»

هذا نص صريح على ان عقيدة المسيح التوحيد، سبحانه تعالى، تقدّس ان يكون له ولد. وما حاجته اليه، وكل ما في السموات والأرض ملك له!!

لن يأنف المسيح او يترفع عن ان يكون عبداً لله، فهو عارف بعظمة الله وما يجب له من العبودية. كذلك لن يأنف الملائكة المقربون عن ذلك، ومن يتكبر على ذلك، أباً كان، فإن الله سيحشرهم يوم القيامة ويجزيهم اشد الجزاء.

٤.١٠٥ 173

أما الذين آمنوا وصدّقوا بالله وعملوا ما استطاعوا من الخير فإن الله سيوفهم ثواب أعمالهم، ويزيدهم إكراماً وإنعاماً من فضله. اما الذين تكبروا وأنفوا ان يعبدوه، فقد أعد لهم عذاباً شديداً لا يلام، لن يدجدوا من يعينهم في دفع أذاه، ولا نصيراً ينصرهم على تخفيفه، ذلك انه لا عاصم آنذاك من امر الله إلا هو: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩] .

٤.١٠٦ 174

يا أيها الناس . . . هذا نداء عام للناس جميعاً، لأن الانسانية مشتركة في البشر فالخطاب للجميع: لقد جاءكم الدليل الواضح يا بني الانسان من قبل ربكم، وهو يبين لكم حقيقة الايمان، وصدق رسالة محمد النبي الأمي. . ولقد أنزلنا اليكم مع هذا الرسول وعلى لسانه قرآناً يهديكم، يضيء لكم الطريق، ويوصلكم الى سعادة الدارين. مع هذا اختلفتم. . . فاما الذين صدّقوا منكم بالله ورسالاته، وتمسكوا بدينه فسيُدخلهم الله برحمته في جنات عدن، ويغمرهم بواسع فضله ورحمته، ويهديهم طريقاً قويمًا، يفضي بهم الى السعادة في الدنيا والكرامة في الآخرة. والمعنى الضمني: وأما الذين كذبوا. . فقد سبق ما قرره لهم من عذاب.

٤.١٠٧ 176

الكلالة: الذي ليس له ولد ولا والد. هلك: مات. روى الإمام أحمد، الشيخان، وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال: «دخل عليّ رسول الله وأنا مريض لا أعقل، فتوضّأ ثم صبّ عليّ ففعلت. فقلت نه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فنزلت هذه الآية». والمعنى: إن مات رجل وليس له ولد ولا والد يرثه، ولكن له أختاً فإنها تفوز بنصف التركة. وان ماتت امرأة لا ولد لها لكن لها أخاً واحداً نال ذلك الأخ كما ما تركت من المال. فإن كان للبيت اختان فقط فلهما الثلثان، وان كان للورث عدد من الأخوة والأخوات تنقسم التركة بينهم: للذكر نصيبان وللمرأة نصيب، والله عالم بكل ما تعملون. هكذا تحتّم هذه السورة العظيمة التي بدأت بعلاقات الاسرة، وتكافلها الاجتماعية وتمضت الكثير من التنظيمات الاجتماعية في ثنائها. إنها تحتّم بتكلمة أحكام الكلالة. وكان قد ورد بعض هذه الأحكام في أول السورة، بقوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً.} الآية.

ومع ختم آية الميراث، تحتّم السورة بذلك التعقيب القرآني الذي يردّ الأمور الى الله ويربط تنظيم الحقوق والواجبات والأموال وغير ذلك بقوله {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

{بِكُلِّ شَيْءٍ} من الميراث وغيره من علاقات الأسر والجماعات، والمجتمع وما فيه، من الأحكام والتشريعات. والخلاصة: إن سورة النساء عالجت أحوال المسلمين فيما يختص بتنظيم شؤونهم الداخلية، وحفظ كياناتهم الخارجية، لم تقف عند حد التنبيه على عناصر المقاومة المادية، بل نهت على ما يجب ان تحفظ به عقيدة الأمة ومبادئها من الشكوك والشبه. وفي هذا ايجاء يجب على المسلمين ان يلتفتوا اليه هذه الأيام، وهو ان يحتفظوا بمبادئهم كما يحتفظون بأوطانهم، وان يحصّنوا انفسهم من شرب حرب

هي أشد خطراً وابتعد في النفوس أثراً من حرب السلاح المادي: تلك هي حرب التحويل من دين الى دين، مع البقاء في الأوطان والاقامة في الديار والأموال. .
 ألا وان بقاء شخصية الأمة ليتطلب الاحتفاظ بالجنابين: جانب الوطن والسلطان، وجانب العقيدة والايان. وذلك كي نسترد ما ذهب من أوطاننا، ونرداً الخطر الكبير الذي يحيط بنا، من عدو غاشم لا يتمسك بدينه ولا خلق.

٥ المائدة

٥.١ 1

أوفوا بالعقود: أنجزوها. العقد كل اتفاق بين اثنين فأكثر. البهيمة: ما لا ينطق من الحيوان. الانعام: البقر والابل والغنم وما أحل من الحيوان البري. حرم: جمع حرام وهو المحرم بالحج أو لعمرة.
 يا أيها المؤمنون، حافظوا على الوفاء بالعقود التي بينكم وبين الله، والعقود المشروعة التي بينكم وبين الناس. فعلى كل مؤمن ان يفي بما عقده وارتبط به من قول أو فعل. وكل عقد، وكل وعد، وكل عهد، وكل ميثاق انما هو عقد بين طرفين الله ثالثهما، فمن نقضه فقد أخل بالوفاء مع ربه.
 فالزواج عقد، الوفاء به حسن المعاشرة وترك المضارة. والبيع عقد، والوفاء به عدم الغش وحسن المعاملة. والوعد عقد، والوفاء به انجازه. . وهكذا سائر الاتفاقات التي تحمل بين طياتها حقوقها والتزامات.
 إن هذا القرآن الكريم نزل على محمد لينشئ أمة، وليقيم دولة، وليربي ضمائر وأخلاقاً وعقولا، ولينظم مجتمعاً ويحدد روابطه مع غيره من المجتمعات والأمم. ذلك هو الدين كما هو في حقيقته عند الله، وكما عرفه المسلمون أيام كانوا مسلمين.
 وقد أحل الله لكم أكل لحوم الأنعام من الإبل والبقر والغنم وجميع الحيوانات الوحشية الا ما ورد النص بتحريمه.
 ولا يجوز لكم صيد البر إذا كنتم حرمين بالحج أو العمرة، او كنتم داخل حدود الحرم. ان الله يستن ما يريد من الأحكام، فهي تصلح شؤونكم وتناسب مصالحكم.

٥.٢ 2

شعائر الله: معالم دينه ومنها مناسك الحج. الهدى: ما يهدي الى الحرم من الأنعام ليذبح فيه. القلائد: ذات القلائد من الهدى، والقلادة ما يعلق في عنق الحيوان علامة على أنه هدي للحج. آمين: قاصدين. لا يجرمنكم: لا يمحونكم. شئان: شدة البغض.
 يا أيها المؤمنون: لا تستبيحوا حرمة شعائر الله فتصرفوا بها كما تشاؤون. ان مناسك الحج من هذه الشعائر، فحافظوا عليها، ولا تتهاونوا في تعدي حدودها.
 كذلك الشهر الحرام. . لا تنتهكوا حرمة هذه الأشهر، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والحرم، ورجب، فلا تحاربوا فيها.
 ولا تعترضوا الهدى باعتصابه أو منع بلوغه محله، ولا تنزعوا القلائد من أعناق الأنعام المهداة للحج ولو كانت لأعدائكم.
 وكذلك لا تعترضوا الذين يقصدون بيت الله، يبتغون فضلاً منه ورضا. وأياكم أن تصطادوا وأنتم في الحرم. ليس ذلك لكم. فإذا تحللتم من الإحرام فاصطادوا إن شئتم. ولا يجوز ان يدفعكم بغضكم الشديد لقوم سبق أن صدوكم عن المسجد الحرام الى أن تعتدوا عليهم.
 وتعاونوا أيها المؤمنون على عمل الخير والطاعات، لا على المعاصي والاعتداء على الناس. واتقوا الله بالسير على سننه التي بينها لكم في كتابه حتى لا يصيبكم عقابه، انه شديد العقاب.
 قراءات:

قرأ ابن عامر، واسماعيل، عن نافع، وابن عياش عن عاصم «شئان» بسكون النون، وقرأ ابن كثير وابو عمرو «إن صدوكم» بكسر الهمزة.

الموقوذة: التي ضربت حتى ماتت. المتردية: التي سقطت من مكان عالٍ، أو في بئر، وماتت. النطيحة: التي نطحها حيوان آخر فقتلها. مخصمة: جوع. متجانف: منحرف، مائل.

يبين لنا هنا عشرة أنواع أكلها محرم: لحم الميتة: وهي الحيوان الذي مات من غير ذبح شرعي. ولا يموت الحيوان إلا من مرض، وهذا المرض يجعل لحمة مضرراً، والله تعالى لا يحب لنا الضرر. وكان العرب يأكلون لحم الميتة ويقولون: لم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟! .

الدم: وكان العرب يأكلونه.
لحم الخنزير.

ما أهل لغير الله: ويعني ما ذكر اسم غير الله عند ذبحه. كل حيوان مات خنقا.

الموقوذة: وهي التي ضربت حتى ماتت. وما سقط من مكان عال فمات. وما نطحه آخر فمات. وكل حيوان افترسه السبع فمات. الا ما ادركتموه قبل ان يموت، فذبجتموه، فهو حلال لكم بالذبح. وكل حيوان ذبح للنصب والأصنام.

ويحرم عليكم ان تستقسموا بالأزلام، وهي أعواد ثلاثة كان الجاهليون يطلبون بواسطتها معرفة المغيبات. كان يكتب على أحدها «أمرني ربي» وعلى الثاني «نهاني ربي» ويترك الثالث دون كتابة. فكان من أراد سفراً، أو زواجاً أو غير ذلك يأتي سادن الكعبة ويقول له: استقسم لي، أي اعرف لي ما قسم الله لي. فيخرج السادن هذه الأعواد ويحركها في كيس أو جراب ثم يسحب واحداً. فإذا خرج الذي عليه «أمرني ربي» أقدم الرجل على ما نوى، وإذا خرج الذي عليه «نهاني ربي» امتنع عن العمل. وان خرج الثالث واسمه الغفل أعاد السحب من جديد.

وهذا وما شابه من الخرافات والأوهام لا يركن إليها الا ضعيف لعقل والإيمان. وقد حرّمها الاسلام «ذلكم فسق» ، فهي خروج عن طاعة الله، فامتنعوا عنه.

{اليوم يئس الذين كفروا من دينكم}

انقطع رجائهم في القضاء عليكم، فلا تخافوا ان ينقلبوا عليكم واتقوا مخالفة أوامري.

{اليوم اكملت لكم دينكم} .

نزلت هذه الآية يوم الجمعة، بعرفة، في حجة الوداع، «وأتممت عليكم نعمتي» بإعزازكم وثبيت أقدامكم، «واخترت لكم الاسلام ديناً» . روى الطبري في تفسيره ان النبي عليه السلام لم يعيش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، فكانت آخر ما نزل من القرآن.

ونعود الآن الى عطف على آية التحريم، لنجد ترخيصاً فيه منطلق وتيسير. إنه يقول: لقد عددت المحرمات، لكن من الجأته الضرورة الى تناول شيء منها ففعل، لدفع الهلاك عن نفسه، غير متعدّ ذلك الحد، ولا منحرف عن أوامر الله فلا إثم عليه ان يأكل. ان الله يغفر له، فالضرورات تبيح المحذورات.

الجوارح: كل ما يصيد من الكلاب والفهود والطيور. مكلبين: من التكلب، وهو تعليم الكلاب الصيد، وصار يستعمل في تعليم الجوارح. يسألك المؤمنون أيها الرسول: ماذا أحل لنا من الطعام؟ فقل لهم: أحل لكم كل طيب تستطيع النفوس السليمة، وأحل لكم صيد الجوارح التي علمتموها الصيد بالتدريب. مستمدّين ذلك مما علمكم الله، فكلوا ما تمسكه هذه الجوارح عليكم وتصيده لكم. واذكروا اسم الله عند إرسالها كما روي ذلك عن ابن عباس «إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ، فقتل، فكل» . واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه،

فإنه سريع الحساب.

٥.٥ 5

المحصات: الحرائر الغفيفات. الأجور: المهور. محصنين: أعفاء. مسافحين: مجاهرين بالزنا. أخذان: عشاق. حبط عمله: بطل ثواب عمله. اليوم، بعد نزول هذه الآية، أُحلت لكم الطيبات وصار حكمها مستقراً ثابتاً. وأُحلّ لكم طعام اليهود والنصارى وذبايحهم مما لم يرد نص بتحريمهن، كما أُحلّ طعامكم لهم. ومن النساء أُحلّ الله لكم نكاح الحرائر الغفيفات من المؤمنات، ومن نساء اهل الكتاب، إذا أدّيتن لهن مهورهن بقصد الزواج، لا لإنشاء علاقات غير شرعية، أو اتخاذ عشاق. كل هذا حلال لكم. ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جملتها ما بيننا هنا فقد بطل ثواب عمله وخاب، وهو في الآخرة من الهالكين.

٥.٦ 6

ان أعظم الطاعات بعد الايمان الصلاة، ولا يمكن إقامتها الا مع توافر الطهارة. لذلك بدأ سبحانه في بيان كيفية الوضوء. فأبان: إذا أردتم ان تقوموا الى الصلاة، أيها المؤمنون، لم تكونوا متوضئين، فابدأوا بغسل وجودهم وأيديكم الى المرافق، وامسحوا رؤوسكم كلّها او بعضها، واغسلوا أرجلكم الى الكعبين. هذه هي فروض الوضوء، أما سننه ومستحباته فيه مفصلة في كتب الفقه. وعند الشيعة الإمامية يجب مسح ظاهر القدمين الى الكعبين فقط. وقد قال بعض علماء السلف بالمسح، لكن مسح القدمين بكاملهما الى الكعبين. أما اذا كنتم جنباً وتودون الصلاة فعليكم ان تنظفوا بغسل جميع جسدكم بالماء. وان كنتم مرضى مرضاً يضر معه استعمال الماء فتمموا. فإن كنتم مسافرين ولم تجدوا ماء فتمموا. واذا ذهبتم لقضاء الحاجة، او لا مستم النساء ولم تجدوا ماء فتمموا أيضاً، ففي ذلك كفاية. وكيفية التيمم أن يضرب بكفيه على التراب ويمسح بهما وجهه، ثم يضرب ضربة أخرى يمسح بها كفيه الى الرسغين. الترخيص تيسير من فضل الله، فهو لا يريد ان يُخرجنا، بل ان يطهرنا ظاهراً وباطناً وأن يتم نعمه علينا بالهداية والبيان والتيسير، حتى نشكره على ذلك بالمداومة على طاعته. انظر الآية (٤٣) من سورة النساء. قراءات: قرأ ابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب «وأرجلكم» بنصبه، وقرأ حمزة والكسائي «وأرجلكم» بجره، عطفاً على «رؤوسكم» . وقرأ حمزة والكسائي «لمستم» دون ألف، والباقون «لامستم» .

٥.٧ 7

بعد ان بين سبحانه هذه الأحكام للمسلمين يومذاك أتبع بنعمه التي أنعم بها عليهم، ومنها انهم كانوا كفاراً متباغضين فأصبحوا بهدايته إخواناً متحابين. وهو يخاطبهم أن اذكروا العهد الذي عاهدكم به حين يابستم رسوله محمداً على السمع والطاعة حين قلتم له: سمعنا ما أمرتنا به ونهيتمنا عنه، وأطعناك فيه فلا نعصيك في معروف. اتقوا الله بالمحافظة على هذه العهود فإنه عليم بخفيات ما تضمرونه فجازيكم.

٥.٨ 8

قوامين لله: دائبين على القيام بعهود الله واماناته. شهداء بالقسط: بالعدل. لا يجرمكم: لا يحملكم الشئان: البغض الشديد. بعد ان أمر الله عباده بالوفاء بالعقود عامة، ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات وأمرهم بالطهارة مع رف الحرج عنهم دعاهم الى العدالة المطلقة مع الأولياء والأعداء على السواء.

يا أيها المؤمنون، حافظوا على أداء حقوق الله دائماً، وأدّوا الشهادة بين الناس بالعدل، فالعدل ميزان الحقوق. وحين يسود الجور والظلم في أمة تزول الثقة في الناس. لذا انتشرت المفسدات وتقطعت روابط المجتمع في هذه الأيام. ولا تسمحوها لأنفسكم ان تنساق وراء مشاعركم الخاصة، فلا يجوز أن يدفعكم بغضكم الشديد لقوم ان تُجانبوا العدل معهم. ان العدل منكم اقرب للتقوى وخشية الله، فاحشوا الله في كل أموركم، انه عليم بها، وسيجازيكم على أساسها. فالعدالة في الإسلام أساس عظيم ترتكز عليه هذه العقيدة المتينة التي ترتقي بها النفوس الى اعلى مستوى في هذه الحياة. وقد كثرت أوامر الله في القيام بالعدل، فأمر به عاماً وخاصاً، مع المخالفين في الدين، وفي الحكم والقضاء، وبين الأولاد والزوجات، بل أمر به المؤمن مع نفسه.

٥.٩ 9

لقد تفضل سبحانه فوعد المؤمنين العاملين بإيمانهم أن يعفو عن ذنوبهم ويعطيهم الأجر العظيم. وهنا قرّن الإيمان بالعمل، ذلك ان العمل مظهر لازم عنه في تلك الحال. اما الذين جحدوا دينه، وكذبوا بآياته الدالة على وحدانيته فهم من أهل جهنم يوم القيامة. وهكذا يأتي القرآن بصور متقابلة في كثير من آياته حتى يظهر الفرق بين المؤمن والكافر، وما ينتظر كلا منهما.

٥.١٠ 11

هناك عدة روايات في سبب نزول هذه الآية، احداها قصة أعرابي «جاء الى الرسول الكريم وهو جالس تحت شجرة، سيفه معلق عليها، وأصحابه متفرقون عنه. فأخذ الأعرابي السيف وقال للنبي: ما يمنعك مني؟ فقال: الله، فسقط السيف من يد الرجل. وهنا أخذ الرسول وقال للرجل: ما يمنعك مني؟ فقال: لا أحد، فكن خير آخذ. أي اقتلني برفق ان كنت ستفعل. وقد عفا عنه الرسل. فأسلم وذهب الى قومه وقال لهم: جئتكم من عند خير الناس». وهناك عدة روايات أخرى. والمهم أن الله تعالى يمن على المؤمنين ويذكرهم بنعمه عليهم. يا أيها الذين آمنوا، تذكروا نعمة الله عليكم وقت الشدة حين هم قوم من المشركين ان يغدروا بكم وبنبيكم، فأحبط الله كيدهم وكف أذاهم. فاتقوا الله الذي أراكم قدرته على أعدائكم، وتوكلوا عليه وحده في جميع أموركم، انه خير كافل وأعظم معين.

٥.١١ 12

النقيب: الرئيس. عززتموهم: نصرتموهم. . التعزيز يأتي بمعنى النصر والتعظيم. لقد اخذ الله عهداً على بني اسرائيل ان يعملوا بما في التوراة، شريعتهم التي اختارها لهم، ولا يزال هذا الميثاق في آخر الاسفار الخمسة المنسوبة الى موسى. يومذاك أقام عليهم اثني عشر رئيساً منهم لتنفيذ العهد، ووعدهم أن يكون معهم ويمدّهم بالعون والنصر إن أقاموا الصلاة على حقيقتها، وأدعوا الزكاة المفروضة عليهم، وصدقوا بجميع رسله ونصروهم، ثم بذلوا المال نافلةً منهم في سبيل الخير. اذا فعلوا كل ذلك، تجاوز عن ذنوبهم، وأدخلهم جناتٍ في الآخرة من تحتها الأنهار. أما من جحد ونقض العهد فقد حاد عن الطريق السوي، فله جزاء آخر.

لكن بني اسرائيل نقضوا الميثاق. لذا استحقوا اللعن والطرده من رحمة الله وصارت قلوبهم قاسية لا تلين لقبول الحق. لقد أخذوا يحرفون كلام الله عن معناه الأصلي الى ما يوافق هواهم، وتخلّوا عن كثير مما أمروا به في التوراة. وها أنت يا محمد لا تزال تطّلع من

اليهود على خيانة إثر خيانة، فلا تظن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم. لا، فهم قوم غدارون لا أمان لهم، الا قليلا منهم أسلموا وصدّقوا فلم يخونوا. وعن هؤلاء تجاوز يا محمد واصفح، وأسكن اليهم، ان الله يحب المحسنين.

٥.١٢ 14

وكما أخذنا ميثاقاً على اليهود أخذنا مثله من النصارى: أن يؤمنوا بالإنجيل وبالوحدانية، والثبات على طاعتنا وأداء فرائضنا، وابتاع رسلنا والتصديق بهم. لكن هؤلاء أيضاً تخلّوا عن كثيرا مما أمروا به في الإنجيل الحقيقي. فعاقبهم الله على ذلك بإثارة العداوة والخصومة بينهم، وهذه المشاهد والحوادث ثبتت هذه العداوة. وأكبر دليل على ذلك ما يجرى اليوم من قتال مرير في أيرلندا الشمالية بسبب التعصب الديني والطائفي. وفي كل الدول التي تدّعي المدنية ممن يدين بالنصرانية، لا تدخل طائفة كنيسة الطائفة الأخرى حتى هذا اليوم. ولا يصلّون الا في كنائسهم، ولا يتزاوجون الا نادراً، ويكون الزواج مديناً في أغلب الأحيان. وسوف يخبركم الله يوم القيامة بما كانوا يعملون.

٥.١٣ 15

يا أهل الكتاب: لقد جاءكم محمد داعياً الى الحق، يظهر لكم كثيراً مما كنتم تكتُمونه من التوراة والإنجيل، مثل: صفة النبي، وقضيته الرجم، وبشارة عيسى فيه، وغير ذلك. ومع هذا فإن رسولنا لا يتعرض لكثير مما تحفونه وتكتُمونه لأنه لا حاجة الى إظهاره. فلماذا تحيدون عن صواب اتباعه!! لقد جاءكم من عند الله بشريعة كاملة هي نور بذاتها، أضاءت العالم، ونشرت فيه العدالة والمساواة. فلماذا تتعامون عن الحقيقة!! إن الله يهدي بهذا الكتاب كل من أطاعه واتبع رضاه وبه يُخرج هذا العالم من ظلمات الكفر الى نور الإيمان، كما يهديهم الى الطريق القويم.

٥.١٤ 17

لقد دخل على عقيدة النصارى كثير من التغيير والتبديل، ولم تسرّب هذه الانحرافات والتبديلات كلها دفعة واحدة، بل على فترات. لقد أضافتها المجامع واحدةً بعد الأخرى، الى ان انتهت بهذا الخلط العجيب الذي تحار فيه العقول، حتى عقول الشارحين للعقيدة من اهلها.

وقد كُتب الكثير في هذا الموضوع في الغرب والشرق. والأقوال في المسيح كثيرة، عُقدت لتصفية الخلافات فيها عدة مجامع. منها: «مجمع نيقية» عام ٣٢٥ ميلادية، و«مجمع القسطنطينية» عام ٣٨١ م. و«مجمع إفسس» عام ٤٣٠ م. و«مجمع خلقيدونية» عام ٤٥١ م، وغير ذلك. ومن أحبّ التفصيل فليراجع كتاب «محاضرات في النصرانية» للاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة.

والله تعالى هنا يكذب الجميع ويقول: لقد كفر الذين زعموا باطلاً أن الله هو المسيح ابنُ مريم. أسألهم يا محمد: هل يقدر أحد على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه، بل عن سائر الخلق جميعاً ان اراد

الله ان يهلكهم؟ ان هناك فرقاً مطلقاً بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيتته وسلطانه، وبين ذات عيسى وذات أمه وكل ذات أخرى. فذاتُ الله واحدة، ومشيتته طليقة، وسلطانه منفرد. فإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه او أمه الهلاك، كما لا يستطيع ان يدفعه عن غيره فكيف يكون هو الله؟! ان لله وحده، لا لعيسى، مُلك السماوات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء على اي مثال أراد، والله على كل شيء قدير.

٥٠١٥ 18

روى ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس قال: أتى رسول الله جماعة من اليهود، فكلمهم وكلموه، ودعاهم الله وحذرهم نقمته فقالوا: «ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباءه». وكذلك قالت النصارى. فأنزل الله تعالى هذه الآية يرد فيها عليهم. والتفسير:

قالت اليهود والنصارى: نحن المفضلون، لأننا أبناء الله والمحبيون لديه. فقل لهم أيها الرسول: لماذا يعذبكم بذنوبكم إذن؟ ولماذا يدخلكم نار جهنم بأعمالكم؟ إنكم في قولكم هذا لكاذبون، فما أنتم إلا بشر كسائر الناس. والله تعالى بيده كل شيء، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. هو رب السماوات والأرض وإليه مرد كل مخلوقاته.

٥٠١٦ 19

يا أهل الكتاب، ها قد جاءكم رسول الله من عند ربكم يظهر لكم الحق، بعد أن توقفت الرسالات فترة من الزمن، ويبين لكم جميع ما أنتم في حاجة إليه، لئلا تقولوا: ما جاءنا بشير ولا نذير؟ ها قد جاءكم بشير لمن أحسن، ونذير لمن أساء. فماذا أنتم فاعلون؟ افعلوا ما شئتم، فالله على كل شيء قدير.

٥٠١٧ 20

اذكر يا محمد حينما قال موسى لقومه: يا بني إسرائيل، تذكروا فضل الله عليكم، واشكروا له نعمه وأطيعوه، إذ جعل فيكم أنبياء يتولونكم بالهداية والارشاد، وجعل منكم ملوكاً فأعزكم بهم بعد أن كنتم أذلاء في مملكة فرعون، وحباكم بنعم لم يؤت مثلاً أحداً غيركم فأطيعوا. يا قوم، أدخلوا الأرض المقدسة التي قدر الله عليكم دخولها، ولا تجبنوا أمام أهلها، ولا تتراجعوا عن طاعته أيضاً. فإن انقلبتم عن الطاعة عدتم خاسرين لثواب الدارين.

٥٠١٨ 22

قال قوم موسى مخالفين أمر الله: يا موسى، إن في هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها جبارة لا طاقة لنا بهم، ولا نقوى على محاربتهم ولهذا فإننا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجابرون فيها، فإذا خرجوا منها دخلناها. عند ذلك قال رجلان من رؤسائهم أنعم الله عليهم بالطاعة والتوفيق: أدخلوا أنتم على الجبارين واقتحموا الباب مفاجئين لهم، وستنتصرون عليهم. توكلوا على الله يا قومنا في كل أموركم ان كنتم صادقين في إيمانكم.

٥٠١٩ 24

بذلك أصرّوا على العناد والتمرد ومخالفة أوامر الله وبيهم. لقد قالوا: نحن مصممون على البقاء في مكاننا وعدم لقيا هؤلاء الجبارين، فدعنا يا موسى واذهب أنت وربك. . قاتلا الجبارين وحديكم. فلن نشارككم ذلك.

٥٠٢٠ 25

فلما يئس موسى من قومه وأصرّوا على العناد قال مناجياً ربه: يا رب، لا سلطان لي إلا على نفسي وأخي، فافصل بيننا وبين هؤلاء القوم المنحرفين عن طاعتك، بقضاء تقضيه بيننا، فاستجاب الله لموسى وقال: ان هذه الأرض محرمة عليهم أربعين سنة، يقضونها تائبين في الصحراء. ثم ودّ الله أن يواسي موسى، فأمر ألا يحزن على ما أصابهم، لأنهم عصوا أمري إليك، فاستحقوا عذابي هذا تأدياً لرؤوسهم.

وإذا نظرنا لحالنا اليوم وجدنا أنفسنا أتعس من أولئك اليهود . لنعودنا عن الجهاد وجُبنا عنه، وضعفنا وتشتت كلمتنا. لقد تخلفنا عن الجهاد في سبيل وطننا السليب، وصار بعضُ حكامنا ينتظرون من أميركا وبريطانيا، حلفاءِ عدونا وشركائه في الجريمة، ان يساعدونا على حل مشكلتنا. والحق، أننا طوال ما ظللنا على هذه الحال فسنظل مشردين معذبين، يضل اليهود يحتلون أرضنا وينتهكون حرمة مقدساتنا. ولعلنا نستفيد من هذه العبر وتندبر قرآنا ونعتبر بهذا التأديب الإلهي.

٥٠٢١ 27

التلاوة: القراءة وغلبت على قراءة القرآن. النبأ: الخبر. القربان: ما يُتقرب به من الذبائح والصدقات. بسط يده: مدها ليقبله. تبوء بإثمي: تلتزم بجريرتي.

في هذه الآيات والتي تليها بيان بعض الأحكام التشريعية الأساسية في الحياة البشرية، وهي التي تتعلق بحماية النفس والحياة، والنظام العام، والسلطة التي تقوم عليه، في ظل شريعة الله. وقد بدأها سبحانه بقصة ابني آدم، وهي قصة تكشف عن طبيعة الجريمة وبواعثها في النفس البشرية.

اتل يا محمد على الناس ذلك النبأ العظيم، وهو خبر ابني آدم: هابيل وقايل. لقد قدم كل واحد منهما قرباناً إلى الله. كان هابيل صاحب غنم فقدم أكرم غنمه واسمها (وهذا يمثل طور البداوة والرعي) . وكان قايل صاحب زرع فقدم شر ماعنده (وهذا يمثل طور الزراعة والاستقرار) . فتقبل الله قربان هابيل (الراعي) ولم يتقبل قربان قايل (المزارع) ، (وكانت علامة القبول ان تأتي نار وتحرق القربان المقبول) . فحسد قايل أخاه وتوعد بالقتل حقدًا عليه، فرد عليه الأخير ان الله لا يتقبل العمل الا من الأتقياء المخلصين. وقال له: لئن أغواك الشيطان ومددت يدك لتقتلني، فلن أقبلك بالمثل. إني أخاف الله ربي ورب العالمين، ولن أقاومك إذا أردت قتلي. فإن فعلت حملت ذنب قتلي، علاوة على ذنبك في عندم اخلاصك لله. بذلك ستكون في الآخرة من أهل النار، وهذا جزاء الضالين.

٥٠٢٢ 30

فطوعت: فسَّهت.

لم تنفع معه المواعظ التي قدمها أخوه ولم يخش بشاعة الجريمة وما يترتب عليها من إثم وعقاب. وظلت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه حتى قتل أخاه، فأصبح من الخاسرين: خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق. لقد خسر دنياه فلم تعد تنهأ له حياة، وخسر آخرته بدخوله النار. كذلك أصبح حائرًا لا يدري ماذا يصنع، بعد ان رأى جثة أخيه وقد بدأ يسري فيها العفن.

٥٠٢٣ 31

عند ذلك أرسل الله غراباً (وانتقى الغراب لأنه مقرون بالدمار في لغة العرب، والقتل شر دمار) يعلمه كيف يدفن غراباً ميتاً. وقد باشر الغراب الحفر في الأرض ثم دفن الغراب الميت. فقال القاتل عند ذلك: يا حسرتي، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأستر جثة أخي! وهكذا ظهرت سنة الدفن. وندم على جرمه الذي ارتكبه حيث لا ينفع الندم.

وفي الحديث الصحيح «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم كفلٌ من دمها لأنه أولٌ من سنّ القتل» .

وتقدم القصة صورتين لطبيعة بني آدم: صورة لطبيعة الشر والعدوان كقاتل، وأخرى لطبيعة الخير والسماحة كرافض لأن يقتل لذا بين سبحانه انه يجب ان يكون هناك تشريع يحفظ التوازن بين الناس، بموجبه يجب ان يلقي المجرم جزاءه. وبذلك يعيش الناس في أمان وتصاب نفوسهم، فقال: من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل: الآية ٣٢.

بسبب هذا الجرم الفظيع الذي ارتكبه ابن آدم أوجبنا قتل المعتدي، لأن من قتل نفساً واحدة ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للقصاص، ولا فساد يخل بالأمن، مثل (قتل الأنفس ونهب الأموال وقطع الطرق) فكأنما قتل الناس جميعاً. هذا دليل على تعظيم أمر القتل العمد، وبشاعة هذا الجرم الكبير. فقتل النفس الواحدة كقتل جميع الناس عند الله. لأن القاتل هتك حرمة دمائهم، جرّاً غيره عليها.

ومن كان سببا في انقاذ نفس من الموت وإحيائها فكأنما أحيا الناس كلهم، لصيانتهم دماء البشر، فهو يستحق الثواب العظيم من الله. والآن. . ما جزاء من يقتل المئات والألوف بأمرٍ منه! سواء كان القتل بوسائل الحرب أم بالتجويع أم بقتل حرّيتهم عن طريق تجريدهم منها، فهو قتلٌ على كل حال؟ فانظروا ايها المسلمون الى واقعكم وتدبروا أمركم، والله في عونكم حين تؤوبون الى صراطه. فالاعتداء على الفرد اعتداءً على المجتمع، لذلك قال الفقهاء: ان القصاص حق لولي الدم، ان شاء عفا واخذ الدية، وان شاء طلب القصاص.

وفي الآية ارشاد الى ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع. وكثيراً ما يشير القرآن الى وحدة الأمة ووجوب تكافلها وتضامنها، كما يؤكد وجوب تأزرها لرفع الضيم عن حقوقها المهدورة. ولقد بعث الله الرسل بالآيات الواضحة الى البشر. فلم تغن عن الكثير منهم شيئا، اذ لم تهذب نفوسهم ولم تطهر اخلاقهم، فكانوا رغم كل ذلك يسرفون في الأرض فساداً.

يحاربون الله: الذين يتعدون على الناس بالقتل والنهب وترويع الآمنين، ويخرجون على أحكام الشرع، ويفسدون في الأرض بقطع الطريق أو نهب أموال الناس. . والاحتكار ضربٌ من الهب. وعقابهم على اربعة انواع: إما القتل او الصلبن، او تقطيع الايدي والأرجل من خلاف. (أي ان تُقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس) او النفي من البلد الذي هم فيه. والعقوبة اللازمة على قدر الجريمة المقترفة، وولادة المسلمين عن حقٍ وجدارة هم الذين يقضون في ذلك.

والحكمة في عدم التعيين والتفصيل أن المفسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان، فيختلف ضررها كذلك فلا إمام الذي يختاره المسلمون ان يقتلهم ان قتلوا، او يصلبهم ان جمعوا بين أخذ المال والقتل، او يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ان اقتصرنا على أخذ المال، او أن يُنفوا من الأرض ان أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق ولم يقتلوا.

ان ذلك العقاب ذلّ لهم وفضيحة في الدنيا ليكونوا عبرة لغيرهم من الناس، وجزاؤهم عذاب عظيم في الآخرة. ثم استثنى ممن يستحقون العقوبة من تاب قبل ان يقدر عليه الحاكم. فإن عقوبة الحاكم تسقط عنه، وتبقى حقوق العباد، او الحقوق الخاصة، فهي لا تسقط عنهم الا اذا ساء أصحاب الحقوق. فاذا رأى الحاكم ان يسقط الحق الخاص عن الجاني التائب، ولمصلحة هو يراها وجب على ذلك الحاكم ان يعرض أصحاب الحقوق من مال الدولة.

وفي هذا الحكم بيان أن الشريعة الاسلامية تنظر الى آثار الجريمة التي فيها اعتداء مباشر على المجتمع، وتجعل العقوبة بقدر ما تحدثه الجريمة من اضطراب فيه، لا بقدر ذات الجرائم المرتكبة فقط.

ويروى في سبب نزول هاتين الآيتين أن نفراً من قبيلة عُكل وعرينة قدموا المدينة، واعلنوا الاسلام، فأمر لهم النبي بعدد من الإبل وراعي، وأمرهم ان يقيموا خارج المدينة، فانطلقوا حتى اذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا الراعي وهربوا بالإبل. وحين بلغ النبي بعث بعض أصحابه فأدركوهم، وأحضرهم الى المدينة. فعاقبهم الرسول الكريم أشد عقاب وقتلوا جميعاً.

وعلى كل حال فإن العبرة بعموم اللفظ. وقد احتج بعموم هذه الآيات جمهور العلماء وقالوا: ان حكم الذين يحاربون الله قائم، في

اي مكان حصل منهم الاعتداء، في المدن والقرى، ام خارجها، لقولهن تعالى: {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا} . وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد، والشافعي واحمد بن حنبل. وزاد مالك فقال: ان الذي يحتال على الرجل حتى يدخله بيتاً فيقتله ويأخذ ما معه انما قد حارب الله، دمه مهدور، يقتله السلطان، حتى لو عفا عنه أولياء المقتول. وقال ابو حنيفة وأصحابه: لا تكون الا في الطرق وخارج المدن.

٥٠٢٦ 35

تقوى الله: طاعته واجتناب ما نهى عنه الشرع. الوسيلة: ما يتوسل به الانسان إلى ثواب الله، والفعل (وسل) بمعنى تقرب، واسم لأعلى منزلة في الجنة. الجهاد: من الجهد والمشقة. سبيل الله: كل معمل في طريق الخير والفضيلة وفي الدفاع عن العقيدة والوطن، فكل عمل في هذه الأمور هو جهاد في سبيل الله.

بعد أن ذكر الله تعالى ان اليهود قد هموا ببسط أيديهم الى الرسول الكريم حسداً منهم لقوله، وغروراً بدينهم وأنفسهم أمر المؤمنين ان يتقوا ربهم. وذلك باجتناب نواهيه، والتقرب الى ثوابه ومرضاته بالايمان والعمل الصالح. ثم أمرهم ان يجاهدوا في سبيله بإعلاء كلمته، ومحاربة اعدائه، كل ذلك للفوز بالفلاح.

اما الوسيلة التي هي منزلة من اعلى منازل الجنة فقد وردت في الأحاديث الصحيحة عن عدد من الصحابة الكرام. روى البخاري وأحمد وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله ان النبي عليه الصلاة والسلام قال: «من قال حين يسم الأذان: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة» .

٥٠٢٧ 36

ان الذين جحدوا ربوبية ربهم، وعبدوا غيره، وماتوا على كفرهم لن يستطيعوا افتداء أنفسهم أبداً، فلو ملكوا ما في الأرض كلها وضعفه معه وأرادوا ان يجعلوه فدية لأنفسهم من عذاب يوم القيامة لما قبل منهم ذلك، ولا أخرجهم من النار. فلا سبيل الى خلاصهم من العقاب.

روى مسلم والنسائي عن أنس بن مالك أن رسول الله قال: «يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع. فيقال: هل تفتدي بتراب الأرض ذهباً؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت، سألتك أقل من ذلك لم تفعل، فيؤم به الى النار» .

٥٠٢٨ 38

النكال: العقاب. او العبرة، {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} [البقرة: ٦٦] . بعد أن بين سبحانه عقاب الذين «يحاربون الله ورسوله» ، وأمر بتقوى الله، وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله ذكرنا بعقاب اللصوص السارقين. وقد جمع في هذه الآيات الكريمة بين الوازع الداخلي وهو الايمان والصلاح، والوازع الخارجي وهو الخوف من العقاب والنكال.

يا ولادة الأمور، اقطعوا يد من يسرق من الكف الى الرسغ. وذلك لأن السرقة تحصل بالكف مباشرة. وتقطع اليد اليمنى أولاً لأن التناول يكون بها في الغالب.

والسرقة هي أخذ مال الغير الحرز خفية، فلا بد ان يكون المسروق مالاً مقوماً. والمبلغ المتفق بين فقهاء المسلمين على عقوبة سرقته هو ربع دينار. ولا بد أن يكون هذا المال محفوظاً في دار او مخزن وان يأخذه السارق من هناك. فلا قطع مثلاً على المؤمن على مال إذا سرقه او أنكره. وكذلك الخادم المأذون له بدخول البيت لا يقطع فيما يسرق. ولا على المستعير اذا جحد العارية. ولا على سارق الثمار في الحقل. ولا على المال خارج البيت او الصندوق المعد لصيانته.

ولا قطع حين يسرق الشريك من مال شريكه، ولا على الذي يسرق من بيت مال المسلمين. وعقوبة هؤلاء هي التعزير أو الحبس أو ما يراه القاضي.

والشبهة تدراً الحد، فشبهة الجوع والحاجة تدراً، وشبهة الشركة في المال تدراً، ورجوع المعترف وتوبته تدراً. وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام «إدراًوا الحدود بالشبهات» وفي ذلك يقول سيدنا عمر بن الخطاب: «لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات».

والعقوبة هنا على السرقة الصريحة، أما السرقة الضمنية، كالالتواء في التجارة وسرقة أقوات الشعب بتهديب الأموال الى خارج دار الاسلام فلها أحكام أخرى.

والاسلام يكفل حق كل فرد من الحصول على ضرورات الحياة، فمن حق كل فرد (حتى غير المسلم) الحصول على ضرورات الحياة، أن يأكل ويشرب ويلبس ويكون له بيت يؤويه، وأن يوفر له العمل ما دام قادراً. فإذا تعطل لعدم وجود العمل، أو لعدم قدرته على العمل فله الحق بأن تؤمن له الدولة الضروري من العيش. فإذا سرق وهو مكفئ الحاجة، فإنهم لا يعذرون، ولا ينبغي لأحد أن يراف به.

فأما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها، فالمبدأ العام في الاسلام هو درء الحدود بالشبهات. ولذلك لم يوجب سيدنا عمر القطع في عام الرمادة حيث عمت المجاعة. كذلك لم يقطع عندما سرق غلمان حاطب بن أبي بلتعة ناقة رجل من مزينة ثم تبين للخليفة أن سيدهم يتركهم جوعاً.

هكذا يجب أن نفهم الحدود في الاسلام: يضع الضمانات للجميع، ويتخذ أسباب الوقاية قبل العقوبة.

{والله عزيز حكيم} عزيز في انتقامه من السارق وغيره من اهل المعاصي، حكيم في وضعه الحدود والعقوبات بما تقتضي المصلحة. قال الأصمعي: كنت أقرأ سورة المائدة ومعني أعرابي، فقرأ هذه الآية فقلت «والله غفور رحيم» سهواً. فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد، فأعدت. ثم تنهت فقلت «والله عزيز حكيم». فقال: الآن أصبت فقلت: كيف عرفت؟ قال: يا هذا «عزيز حكيم» فأمر بالقطع، ولو غفر ورحم لما أمر به. فقد فهم الأعرابي أن مقتضى العزة والحكمة غير مقتضى المغفرة والرحمة. {فَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ. . .}.

فمن تاب عن السرقة بعد ظلمه لنفسه باقترافها، وأصلح إيمانه بفعل الخير فإن الله يقبل توبته ويغفر به.

ولا يسقط الحد عن التائب، ولا تصح التوبة إلا بإعادة المال المسروق بعينه أن كان باقياً أو دفع قيمته إن هلك. ثم بين الشارع أن عقاب السارق والعفو عن التائبين جاء وفق الحكمة والعدل والرحمة فقال: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. . .} يدبره بحكمته أن وضع هذا العقاب لمن يسرق، كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين في الأرض، وأنه يغفر للتائبين من هؤلاء وهؤلاء إذا صدقوا التوبة. انه يعذب العاصي تربية له، وتأميناً للعباد من أذاه وشره. كما يرحم التائب بالغفران ترغيباً له.

٥٠٢٩ 41

الحزن: ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب. سارع في كذا: أسرع فيه وهو داخل فيه، وهنا الكفار داخلين في الكفر. الفتنة: الاختبار، كما يفتن الذهب بالنار. السحت: ما خبث من المكاسب وحرم. المقسط: العادل.

يا أيها الرسول: خطاب للنبي، وقد ورد الخطاب في جميع القرآن الكريم بعبارة «يا أيها النبي» إلا هنا في هذه الآية، والآية ٦٧ من هذه السورة {يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} . هذا الخطاب للتشريف والتعظيم، وتعليم المؤمنين أن يخاطبوه بهذا الوصف العظيم.

أيها الرسول، لا تهتم بهؤلاء المنافقين الذين يتنقلون في مراتب الكفر من أدناها الى أعلاها، ويسارعون في التحيز الى اعداء المؤمنين

عندما يرون الفرصة سانحة، فالله يكفيك شرهم، وينصرك عليهم وعلى من ناصرهم.

{مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ. . .}

. . . الَّذِينَ أَدَّعَوْا بِالسُّنْتِهِمْ وَلَمْ يُؤْمِنُوا قُلُوبُهُمْ.

{وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا. . .}

ومن اليهود الذي يُكثرون الاستماع إلى ما يقوله رؤسائهم وأحبارهم في النبي ﷺ والاستجابة لطائفة منهم، لم يحضروا مجلسك تكبراً وبغضاً. فهم جواسيس بين المسلمين يبلّغون رؤساءهم أعداء الاسلام كل ما يقفون عليه من أخبار، ويحرفون ما يحرفون، ثم ينقلون تلك الأكاذيب إلى الأحبار المتخلفين عن الحضور.

{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ. . .}

أي يحرفون كلام التوراة بعد أن ثبتته الله في مواضعه المعينة إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلماته، أو باخفائه وكتمانه تسهلاً لزيادة فيه أو النقص منه، وإما تحريفاً معنوياً بالتواء في التفسير.

روى الامام أحمد والبخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه قال: «ان اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم برجلٍ منهم امرأةٍ قد زنيا فقال: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا: نُسَخِمُ وجوههما ويخزيان، قال: كذبتُم ان فيها الرجم، فأُتُوا بالتوراة فأتوها إن كنتم صادقين. فجاءوا بالتوراة مع قارىء لهم أعور يقال له ابن صوريا. فقرأ، حتى اذا أتى الى موضع منها وضع يده عليه، فقي له: ارفع يدك. فرفع يده، فاذا هي تلوح» يعني آية الرجم «، فقالوا: يا محمد، إن فيها الرجم، ولكنا كنا نتكلمه بيننا. فأمر بهما رسول الله فرجما» .

ومن قبيل ذلك ما قاله مارتن لوثر في كتابه: اليهود وأكاذيبهم. «هؤلاء هم الكاذبون الحقيقيون مصاصو الدماء، الذين لم يكتفوا بتحريف الكتاب المقدس وإفساده، من الدفة الى الدفة، بل ما فتئوا يفسرون محتوياته حسب أهوائهم وشهواتهم. . . الخ» وهي كلمة طويلة.

{يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيَتْ هَذَا نَحْنُوه. . .}

يقول اولئك الرؤساء لأتباعهم الذين أرسلوهم ليسألوا النبي عن حكم الرجل والمرأة الزانين إن اعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضاً عن الرجم نخذوها، وارضوا بها، وإن حكم بالرجم فارفضوا ذلك.

{وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ. . .}

ومن يرد الله اختباره في دينه فيظهره الاختبار ضلاله وكفره، فلن تملك له يا محمد شيئاً من الهداية. هؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود. . . قد أظهرت فتنة الله لهم مقدار فسادهم، فهم يقلبون الكذب ويحرفون كلام الله، اتباعاً لأهوائهم ومرضاة رؤسائهم. لا تحزن البتة على مسارعهم في الكفر، ولا تطمع في جذبهم الى الايمان، ولا تخف عاقبة نفاقهم فإنما العاقبة للمتقين.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ. . .} إن الذين بلغت منهم الفتنة ذلك المبلغ هم الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق فلن تستطيع ان تهديهم، لهم في الدنيا خزي وذل ولهم في الآخرة عذاب شديد.

{سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ}

اعاد الله وصفهم بكثرة السماع للكذب، للتأكيد، وبيان أن أمرهم كله مبني على الكذب. كما وصفهم بأنهم أكالون للسحت، أي الحرام، لأنه انتشر بينهم، كالرشوة والربا واختلاص الأموال. وكل ذلك شائع في مجتمعنا نحن الآن مع الأسف.

قراءات: قرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويقعوب السُّحْت بضميتين، وهما لغتان.

{فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ. . .}

فإن جاءوك لتحكم بينهم فأنت مخير بين الحكم بينهم والاعراض عنهم. فإن اخترت الإعراض عنهم فلن يضروك بأي شيء، لأن الله

عاصمك من الناس. {وَأَنَّ حَكْمَتَ فَاحِكُمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} . وإن اخترت أن تحكم بينهم فاحكم بالعدل الذي أمر الله به، وهو ما تضمنه القرآن واشتملت عليه شريعة الاسلام. ان الله يحب العادلين. {وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} .

عجبا لهم كيف يطلبون حكمك في قضاياهم مع ان حكم الله منصوص عليه عندهم في التوراة، هي شريعتهم، ثم يرفضون ما حكمت به لأنه لم يوافق هواهم!! ان أمرهم لمن أعجب العجب، وما سبب ذلك إلا أنهم ليسوا مؤمنين لا بالتوراة ولا بك أيضا.

٥٠٣ 44

التوراة: الكتاب الذين أنزل على موسى. الذين هادوا: اليهود: الربانيون: المنسوبون الى الرب. الأحبار: جمع حبر، وهو العالمخ، بما استحفظوا من كتاب الله: بما طلب اليهم حفظه منه. شهد: رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به.

بعد ان ذكر سبحانه حال اليهود من تركهم حكم التوراة، وطلبهم من النبي ان يحكم بينهم، ثم رفضهم الحكم لما خالف اهواءهم بين لنا سبحانه وتعالى صفة التوراة التي يرفضونها فقال:

التوراة هداية أنزلت على موسى لبني اسرائيل، لكنهم أعرضوا عن العمل بها، لما عرّض لهم من الفساد. وفي ذلك من العبرة ان الانتماء الى الدين لا ينفع أهله اذا لم يقيموا بهديه، وان إثارة اليهود اهواءهم هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به. انا انزلنا التوراة على موسى مشتملة على الهدى والارشاد. وبهذا الهدى والنور خرج بنو اسرائيل من وثنية الفراعنة إلى طريق التوحيد. .

بموجب التروامة هذه كان يحكم النبيون الذي أخلصوا في دينهم، موسى ومن بعده من أنبياء بني اسرائيل الى وقت عيسى عليه السلام. كذلك كان يحكم بها الربانيون والأحبار في الأزمنة التي لم يكن فيها أنبياء، او بإذنهم حال وجودهم. كانوا شهودا رقباء على ذلك الكتاب وعلى من تحدّثه نفسه العبث به.

وقبل ان ينتهي السياق من الحديث عن التوراة يتجه الحديث الى المؤمنين عامة، فيدعوهم الى الحكم بكتاب الله، ويذكرهم أن من واجب كل من اسحفظ على كتاب الله ان يحفظه.

{فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ . .}

فلا تخافوا الناس في أحكامهم، وخافوني انا ربكم رب العالمين. ولا تجروا وراء طمعكم فتبدّلوا بآياتي التي أنزلتها ثمنا قليلا من متاع الدنيا كالرشوة والجة وغيرها. ان كل من رغب عن الحكم بما أنزل الله أو أخفاه وحكم بغيره هو كافر، يستر الحق ويبيد الباطل. فأين يقع حكمنا هذه الأيام!

٥٠٣ 45

هنا يعود الشارع لعرض نماذج من شريعة التوراة: وقد بقيت هذه الأحكام في شريعة الاسلام. والقاعدة عندنا ان شرع من قبلنا من الأديان السماوية شرع لنا ما لم يرد نسخه في القرآن. مثال ذلك: {فَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} .

فالأصل القصاص: النفس بالنفس الخ. . . ثم جاء التسامح الاسلامي بأن من تصدّق بما ثبت له من حق القصاص، وعفا عن الجاني، كان عفوّه كفّارة له، ويكفر الله بها ذنوبه. وقد تميز الاسلام بتسامحه، وورد ذلك في كثير من الآيات والاحاديث وسير الصحابة الكرام.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ كان اذا خرج من بيته تصدّق بعرضه على الناس» (أي آلى ان يسامح من قد يشتمونه) . وأبو ضمضم هذا ممن كان قبلنا من الأمم السابقة، كما جاء في رواية ابي داود.

وروي الإمام احمد، قال: «كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية، فقال: معاوية: استرضيه. فألح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك. كان أبو الدرداء جالساً فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصابُ بشيء من جسده فيتصدق به إلا شرفه الله به درجة، أو حطَّ به عنه خطيئة» فقال الأنصاري: فإني قد عفوت» .

هكذا يعلمنا الله ورسوله ان نكون متسامحين في أمورنا جميعها، وان نطلب العوض من الله. وبعد هذا العرض يعقب بالحكم الصارم بقوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .

ان كل من كان بصدد الحكم في شيء من هذه الجنايات، فأعرض عما أنزل الله من القصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس، وحكم بهواه فليعتبر نفسه من الظالمين. وجزاء هؤلاء معروف.

في الآية التي قبلها كان الوصف هو «الكافرون» وهنا «الظالمون» ، لكن هذا لا يعني ان الحالة الثانية غير التي سبق الوصف فيها بالكفر، وانما يعني الاضافة. فمن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون.

قراءات: قرأ نافع: والأذن بالأذن، باسكان الذال حيث وقع. وقرأ الكسائي وابن كثير وابو عمرو وابن عامر: والجروح، بضم الحاء.

٥٠٣٢ 46

قطينا: أتبعنا، قتي فلاناً وبه أتبعه اياه. الفاسق: الخارج عن حظيرة الدين. وبعثنا عيسى بن مريم بعد أولئك النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعاً أثرهم جارياً على سُننهم، مصداقاً للتوراة التي تقدّمته بقوله وعمله. فشرية عيسى عليه السلام هي التوراة التي لم تحرف. وقد ورد في الأناجيل انه قال: «ما جئت لأنقض الناموس، وإنما جئت لأتمم» ، يعني لأزيد عليها ما شاء الله من الأحكام والمواظ. وقد اعطيناه الإنجيل، مشتملاً على الهدى، ومنقذا من الضلال في العقائد والأعمال: كالتوحيد، والتنزيه النافي للوثنية. وقد جعل الله في الانجيل هدى ونوراً وموعظة للمتقين كما جعله منهج حياة وشرية حكم لأهل الانجيل، وليس رسالة عامة للبشر، شأنه في هذا شأن التوراة، لا شأن القرآن الكريم.

{وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ}

وهذا أمر قاطع لازم يجب تنفيذه وإطاعته، يعني: وأمرناهم بالعمل بالإنجيل، وأتباعه وعدم تحريفه. وقد جاء في الإنجيل الصحيح بشارةً بسيدنا محمد ﷺ في مواضع كثيرة، وكلن ذلك أخفي وحرف. كان عند النصارى عدد كبير من الأناجيل يربو على الخمسين، لكنهم في مجمع نيقية (سنة ٣٢٥ ميلادية) اعتمدوا هذه الأربعة المتداولة الآن وحرقوا ما عداها. وقد وجد إنجيل منسوب إلى برنابا، تلميذ المسيح، وترجم وطبع عدة مرات، وفيه البشارة واضحةً بالنبي في عدة أماكن. وهو قريب جداً من القرآن وتعاليمه، لكن النصارى لا يعترفون به ويقولون إنه مزيف.

{وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}

ان كل من يتقيد بالأحكام بشرائع الله هو من الخارجين عن حكم الله، المتمردين عليه. والنص هنا عام. وصفة الفسق تضاف الى صفتي الكفر والظلم من قبل. فالكفر يرفض ألوهية الله ممثلاً ذلك في رفض شريعته، والظلم يحمل الناس على غير شريعة الله، والفسق بالخروج عن منهج حكم الله واتباع طريق غير طريقه.

فالله سبحانه وتعالى يعرض هذه المسألة بأنها إيمان او كفر، لا وسط في هذا الامر، فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله، والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله. فإما أن يكون الحكم قائم على شريعة الله كاملة فهم من أهل الايمان، وإما ان يكونوا قائمين على شريعة أخرى فهم من أهل الكفر والظلم والفسق. وكذلك الديانات.

قراءات:

قرأ حمزة: وليحكم، بكسر اللام ونصب الميم، والباقون يجزم الميم كما هو هنا في قراءة المصحف.

٥٠٣٣ 48

المهيمن على الشيء: القائم على شئونه وله حق مراقبته وتولي رعايته. الشريعة والشريعة: مورد الماء، وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة. المنهاج: السبيل والسنة. الابتلاء: الاختبار. استبقوا: ابتدروا وسارعوا.

بعد ان بين الله تعالى أنه انزل التوراة ثم الإنجيل، وذكر ما أودعه فيهما من فروض وواجبات وأحكام ألزم بها بني إسرائيل جاء البيان هنا الى الرسالة الاخيرة، الرسالة التي تعرض الإسلام في صورته النهائية، ليكون دين البشرية كلها حتى يرث الار ومن عليها. وأنزلنا اليك ايها النبي الكتاب الكامل، وهو القرآن، الذي أكملنا به دين الله. وقد جاءك مصدقاً لما تقدمه من الكتب السماوية، وشاهداً لها بالصحة ورقياً عليها، لأننا سنحفظه من التغيير. لذا احكم بين أهل الكتاب، اذا تحاكموا اليك، بما في هذا القرآن. لا تتبع أيها الرسول في حكمك شهاداتهم ولا تخضع لأهوائهم ورغباتهم. فبسبب من ذلك حرفوا كثيراً من كتبهم.

روي ان اليهود عرضوا على رسول الله ﷺ ان يؤمنوا برسالته اذا تصالح معهم على التسامح في احكام معينة، منها حكم الرجم وغير ذلك، فنزل هذا التحذير.

{لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ . . .}

لكل أمة منكم أيها الناس جعل الله منهاجاً لبيان الحق، وطريقاً واضحاً في الدين تسيرون عليه، ولو شاء لجعلكم جماعة واحدة متفقة، لا تختلف مناهج حياتها وإرشادها في جميع العصور. لقد جعلكم شرائع ليختبركم فيما أتاكم، فيتين المطيع والعاصي. انتهزوا الفرص أيها الناس، وسارعوا الى عمل الخيرات، فإنكم الى الله ترجعون. يومئذ ينبئكم بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه من أمور الدين، ويجازي كلاً منكم بعمله.

٥٠٣٤ 49

ان يفتنوك: ان يميلوا بك من الحق الى الباطل. ييغون: يريدون.

نحن نأمرك أيها الرسول ان تحكم بينهم وفق شريعتك التي أنزلناها عليك، فلا تتبع رغباتهم أبداً، ولو لمصلحة في ذلك، كتأليف قلوبهم وجذبهم الى الاسلام. فالحق لا يوصل اليه بطريق الباطل. واحذرهم أن يميلوا بك من الحق الى الباطل، كأن يصرفوك عما أنزل اليك لتحكم بغيره.

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من زعماء اليهود: اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك عرفت أننا أحبار اليهود وشرافهم وساداتهم، وأننا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولم يخالفونا. وأن بيننا وبين قومنا خصومة، فخاصمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدق. فأبى الرسول ذلك، فأنزل الله ﷻ فيه {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ . . .} الآية.

فإن أعرضوا عن حكمك يا محمد بعد تحاكمهم اليك، فاعلم ان الله إنما يريد أن يصيبهم بفساد أمورهم، لفساد نفوسهم، بسبب ذنوبهم التي ارتكبوها، ثم يجازيهم على أعمالهم في الآخرة.

وهذا النص يسمو بالشرع الاسلامي عن غيره، في الحكم بين الناس:

أولاً لأنه يسمو بالأحكام العادلة عن ان تكون تابعة لأوضاع الناس، فهي حاکمة على أوضاع الناس بالخير والشر.

وثانياً: لأنه جعل باب القانون في الدولة واحداً لكل الناس ولكل الطبقات.

{أَحْكُمَ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ}

أريد أولئك الخارجون عن أمر الله ونهيه ان يحكموا بأحكام الجاهلية التي لا عدل فيه ولا هدى، بل الحيل والمداينة!!

روي «ان بني النضير، من اليهود، تحاكموا الى الرسول الكريم في خصومة كانت بينهم وبين بني قريضة. وقد طلب بعضهم ان يجري الحكم وفق ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل وجعل دية القرطي ضعفي دية النضيري. فقال عليه الصلاة والسلام: القتل براء، يعني سواء. فقالوا: نحن لا نرضى بذلك. فانزل الله تعالى هذه الآية تويخاً لهم. اذ كيف لهم وهم أهل كتاب وعلم أن ييغوا حكم الجاهلية»

قراءات:

قرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء.

٥٣٥ 51

الولاية: التناصر والمخالفة. ومن يتولهم منكم: من يتخذهم أنصاراً وحلفاء.

لما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام.

قسم صالحهم ووادعهم على ان لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه أحدا ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على دينهم آمنون على دماءهم وأموالهم. وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم تركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا إلّا ما يؤول أمره أمر أعدائه.

وقد عامل الرسول كل طائفة من هؤلاء بما أمره الله به. فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم عهداً بكتاب. وكانوا ثلاثة طوائف هم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. فخاربه بنو قينقاع بعد معركة بدر وأظهروا البغي والحسد. ثم نقض العهد بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر. ثم نقض بنو قريظة العهد لما خرج الى غزوة الخندق، وكانوا أشد اليهود عداوة للنبي والاسلام.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير في تفسيره عن عطية بن سعد قال: «جاء الصحابي عبادة ابن الصامت، من الخزرج، الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ان لي موالي من اليهود كثير عددهم، وإني أبرأ الى الله ورسوله من ولاية يهود، واتولى الله ورسوله. وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين حاضراً، فقال: إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من مولاة موالي. فقال له رسول الله: يا أبا الحباب، رأيت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة، فهو لك دونه» قال: اذن أقبل. فانزل الله تعالى:

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى}

يا أيها الذين آمنوا، لا يحل لكم أن تتخذوا اليهود ولا النصارى نصراء لكم على أهل الإيمان بالله ورسوله، فمن اتخذهم كذلك فهو منهم، والله ورسوله بريئان منه.

{بعضهم أولياء بعض}

ان اليهود بعضهم أنصار بعض، والنصارى بعضهم أنصار بعض، وقد يتخالف اليهود والنصارى معاً، أما أن يتحالفوا أو يصدقوا مع المسلمين فلا. وفي واقعنا الحاضر شاهد على ذلك. ولقد نقض اليهود ما عقده الرسول الكريم معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال. وكذلك فعلت أوروبا في الحروب الصليبية، وتفعل أمريكا اليوم مع كل من يطلب الحرية لشعبه، والمسلمين خاصة.

{إن الله لا يهدي القوم الظالمين}

ان الله لا يهدي الذين يظلمون أنفسهم منكم بموالاته أعداء المؤمنين.

فإن اليهود بتدبير من النصارى، وبقوة سلاحهم أيضاً جاؤا واغتصبوا فلسطين وأجواء من سورية ومصر، بمعونة أمريكا وسلاحها ومالها، ولا يزالون في حماية أمريكا. وحتى أوروبا والدول الغربية جميعاً فإنهم يعطون على اليهود أعداء العالم أجمع ونحن بحكم جهلنا، لا نزال نستنصر أمريكا وغيرها ونطلب المعونة منها، مع أننا لو اجتمعت كلمتنا ووحدنا صفوفنا، لما احتجنا الى شيء من ذلك. ولكننا تفرقنا، وبعدنا عن ديننا ومرآتنا الأهواء وحب المناصب. بذلك قوي اليهود من ضعفنا، فهم يهددوننا، ويهاجمون بلداننا وقرانا، ويعيثون في

الأرض فسادا. هذا وكلُّ منّا يود المحافظة على منصبه ويبيع في سبيله كل ماعداه.
ثم أخبر سبحانه وتعالى أن فريقاً من ضعاف الإيمان يفعل ذلك فقال: فترى الذين في قلوبهم مرض. ٥٠ الآية ٥٢.

٥٠٣٦ 52

هذا تصويرٌ لحال المنافقين وبعضِ ضعاف الإيمان في المدينة. لم يكونوا واثقين من نجاح دعوة الإسلام، فكانوا يوالون اليهود ويسارعون إلى ذلك كلّما سنحت لهم فرصة. لذا ورد قوله تعالى {يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} بمعنى إننا نخاف أن نتعرض لكارثة عامة فلا يساعدوننا. عسى الله يا محمد أن يحقق النصر لرسوله وللمسلمين على أعدائهم، أو يظهر نفاق أولئك المنافقين، فيصبحوا نادمين آسفين على ما كتموا في نفوسهم من كفر وشك. وقد تحقق وعد الله بالنصر للمؤمنين.

كان هذا النداء موجهاً في الأصل إلى المسلمين في المدينة المنورة، لكنه جاء في الوقت ذاته موجهاً لكل المسلمين في جميع أركان الأرض، وفي كل زمان ومكان. وقد أثبت التاريخ والواقع أن عداء النصارى لهذا الدين وأهله في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداء اليهود. وأكبر شاهد هو ما يجري اليوم من دعم أمريكا وأوروبا جميعها لليهود وثبيتهم في فلسطين بكل ما يستطيعون من قوة ومال. فالنصارى بدافع من تعصبهم قد حملوا للإسلام منذ ظهوره كل عداوة وضغن ولا يزالون. ولا تزال نعاني من الحروب الصليبية التي لم تنته إلى الآن. ولذلك فإن قوله تعالى: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} حقيقة قائمة.

أما النصارى العرب الذين يعيشون معنا ولا يماثلون الأعداء ضدنا فإنهم مواطنون في ديار الإسلام، لهم ما لنا وعليهم ما علينا. والمعاملة التي يلقونها أكبر شاهد على ذلك. بل إنهم في كثير من الحالات قد أخذوا وأكثر مما لهم. وحتى اليهود الذين يعيشون في البلاد العربية، فإنهم معززون مكرمون ما داموا يخدمون المجتمع الذي يعيشون فيه ضمن القانون، ونحن عندما نطلق كلمة نصارى أو يهود نقصد بذلك أولئك المعتدين من الغربيين وغيرهم.

٥٠٣٧ 53

جهد أيمانهم: أغلظ أيمانهم. حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها نفاقاً كالصلاة والصيام، ففسروا أجرها وثوابها. ويقول المؤمنون الصادقون، متعجبين من حال المنافقين إذ أقسموا بأغلظ الإيمان لهم أنهم معهم، وأنهم مناصرون على أعدائهم اليهود، أهؤلاء الذين بالغوا في حلفهم بالله أنهم معكم في الدين مؤمنون مثلكم؟ لقد كذبوا فبطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها نفاقاً. بذلك خسروا ما كانوا يرجون من الله. لقد صدق الله وعده مع المؤمنين المخلصين وخذل الكافرين.

قراءات: قرأ عاصم وحمة والكسائي «ويقول» بالواو، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «يقول» بدون واو، وقرأ أبو عمرو «ويقول» بنصب اللام.

٥٠٣٨ 54

أذلة على المؤمنين: متواضعون رحماء للمؤمنين. أعزّة على الكافرين: أشداء على الكافرين. كما قال تعالى في سورة الفتح {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}.

بعد أن ذكر سبحانه أن من يتولّى الكافرين من دون الله يعدّ منهم، بين هنا حقيقة دعمها بخبر من الغيب أظهره الزمن يومذاك، وهي: أن بعض الذين آمنوا نفاقاً سيرتدون عن الإسلام جهراً.

يا أيها الذين آمنوا: إن من يرجع منكم عن الإيمان إلى الكفر، لن يضر الله قليلاً ولا كثيراً. فالله سوف يأتي بدّلهم بقوم خير منهم، يحبهم الله لأنهم يحبونه، فيوفقهم للهدى والطاعة.

وسيكون هؤلاء ذوي تواضع ورحمة بإخوانهم المؤمنين، وفيه شدة على أعدائهم الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخشون في الله لومة لائم. وذلك فضل الله يمنحه لمن يشاء ممن يستحقونه، والله كثير الفضل، عليم بمن هو أهل له.

في هذه الآية إخبار من الغيب، فإنه لما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم ارتد كثير من العرب. وكان المرتدون فريقين: فريقاً ارتد عن الإسلام، وفريقاً منع الزكاة. وكان قد ارتد في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، بنو مدلج ورئيسهم ذو النخار، وهو الأسود العنسي. وكان كاهناً تنبأ باليمن، فأهلكه الله على يد فيروز الديلمي، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله فسر به، وقبض عليه السلام من الغد. وارتد مسيلة ومعه بنو حنيفة، وكتب إلى رسول الله ﷺ:

«من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك: أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون».

فكتب إليه النبي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وحاربته جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، وقتله وحشي قاتل حمزة، وكان يقول: «قتلت في الجاهلية خير الناس، وفي إسلامي شر الناس».

وتنبأ طليحة بن خويلد الأسدي، وتبعه جمع غفير، فهزمه خالد بن الوليد. وهرب طليحة إلى الشام ثم أسلم فحسن إسلامه. وتنبأت سجاح بنت المنذر، الكاهنة، وزوجت نفسها من مسيلة، ولها قصص طويل في التاريخ، ثم أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها. وارتدت سبع قبائل في عهد أبي بكر منهم: فزارة، وغطفان، وبنو سليم، وبنو يربوع، وبعض بن تميم، وكندة، وبنو بكر. وهؤلاء كلهم حاربهم أبو بكر يُنصره المهاجرون والأنصار، وهزمهم جميعاً، وهكذا ثبت أبو بكر رضي الله عنه الإسلام بعزيمة صادقة، وإيمان قوي راسخ. وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين بست صفات: بأن الله يحبهم وهم يحبونه. وأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم. وأنهم يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم. وأنهم صادقون لا يخافون في الله لومة لائم.

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وأهل المدينة «من يرتدد» بدالين، والباقون «من يرتد» بإدغام الدالين.

٥٠٣٩ 55

الولي: الناصر. راععون: خاضعون. يتول الله ورسوله: يتخذها أولياء وناصرين. إنما ولايتكم أيها المؤمنون لله ورسوله، فلا ناصر ينصركم غيره، ورسوله، والمؤمنون الصادقون الذين يقيمون الصلاة ويحسنون أداؤها، ويؤدون الزكاة وهم خاضعون.

قال الزمخشري في: الأساس «العرب تسمي من آمن بالله ولم يعبد الأوثان، راععاً» ومن يتخذ الله ورسوله والمؤمنين أولياءه فإنه يكون من حزب الله. وحزب الله هم المنتصرون الفائزون. فلنسمع نحن الآن هذه التحذيرات، ولنبتعد عن موالاة الأعداء والاستنصار بهم، ونعتمد على أنفسنا، تشدنا عقيدتنا، وينصرنا الله والعاقبة للمتقين.

٥٠٤٠ 57

بعد أن نهى الله عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دونه، وبين العلة في ذلك بأن بضعمهم أولياء بعض أعاد النبي هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء، وبين الوصف الذي لأجله كان النبي، وهو إذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء، ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا

الى ذلك سبيلا. فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا أعداء الاسلام الذين اتخذوا دينكم سخريةً، وهم اليهود والنصارى والمشركون نصراء وأولياء ابدأ. خافوا أيها المؤمنون في مالا هؤلاء ان كنتم صادقين في ايمانكم. من استهزأهم بكم: أنكم إذا أذن مؤذنكم داعياً الى الصلاة استهزؤا بها، وسخروا منكم وتضحكوا أو لعبوا فيها، وذلك أنهم قوم لا يدركون الفرق بين الهدى والضلال. الاسلام يأمر بالسماحة وحسن المعاملة لأهل الكتاب عامة وللنصارى خاصة اذا كانوا غير محاربين لنا، وللمواطنين بيننا، وأما المعادون لنا، الذين يساعدون اسرائيل فيهم أعداء لا يجوز موالاتهم، فمن ولاهم فقد عصى الله.

٥٠٤١ 59

نقم منه كذا: أنكره عليه وعابه بالقول او الفعل. المثوبة: الجزاء والثواب. الطاغوت: الطغيان، وهو مجاوزة الحد المشروع. السحت: المحرم، والدنيء من المحرمات.

بعد النداءات الثلاثة التي مرت {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى. . .} و {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم. . .} و {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً. . .} يتوجه الخطاب إلى الرسول ان يواجه أهل الكتاب فيسألهم ماذا ينقمون من المسلمين؟ قل لهم يا محمد: أنتم يا أهل الكتاب، هل تعيين علينا شيئاً غير إيماننا الصادق بالله وتوحيده، وإيماننا بما أنزل الله إلينا وسابقينا من رسله، واعتقادنا الجازم أن أكثركم خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح؟

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود منهم ابو ياسر أخطب، ورافع بن أبي رافع في جماعة، فسأله عمن يؤمن به من الرسل فقال: «أومن بالله ما أنزل إلينا، وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى عيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» .

فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لا تؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم {قل يا أهل الكتاب. . .} .

قل لهم: ألا أخبركم بأعظم شر في الجزاء عند الله. إنه انصب على موقع لعنهم الله، وسخط عليهم، وطمس على قلوبهم، فكانوا كالقردة والخنازير، وعبدوا الشيطان أولئك الذين اتصفوا بما ذكر من المخازي وشنيع الأمور، ولا مكان لهم في الآخرة إلا النار، لأنهم أبعد الناس عن طريق الحق. ثم بين حال المنافقين منهم فقال:

{وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا}

وإذا جاءكم المنافقون، كذبوا عليكم بقوله: آمنا، والحق أنه قد دخلوا إليكم كافرين، كما خرجوا من عندكم كافرين. كما جاء في سورة البقرة. . {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذْتُنَّهِمْ إِبْرَافِيمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبُحْثُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ مِنَ النِّفَاقِ.

ثم ذكر في شئونهم ما هو شر مما سلف فقال:

{وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ} .

وترى أيها الرسول كثيراً من هؤلاء يسارعون في المعاصي والاعتداء على الناس، وفي أكل الحرام كالرشوة والربا. ثم بالغ في تقييح هذه الأعمال، فقال {لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي والله، ما أقبح هذا العمل الذي يعمل هؤلاء من مسارعته في كل ما يفسد النفوس ويقوض نظم المجتمع! ويل للأمة التي تعيش فيها أمثال هؤلاء! فهلاً نهاهم علماءهم وزهادهم عن أفعالهم القبيحة! وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله:

{لَوْلَا يَنهَاهُمُ الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} .

هلاّ ينهى الربانيون، والأخبار هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصي!! ، لبئس ما يصنع أولئك الأخبار حين يرضون ان تُقترف هذه الأوزار والخطايا ويتركون فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

روي عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن أشدّ توييحاً من هذه الآية للعلماء إذا قصّروا في الهداية والارشاد، وتركوا النهي عن الشرور والآثام. وعلى العلماء والحكام وأولي الأمر أن يعتبروا بهذا السخط على اليهود، ويعلموا أن هذه موعظةٌ وذكرًا لهم.

قراءات: قرأ أبو عمرو ونافع والكسائي {من قبلكم والكفار} بالجر، والباقون «والكفار» بالنصب. وقرأ حمزة «عبد الطاغوت» بكسر التاء، والباقون «عبد الطاغوت» فتح التاء.

٥٠٤٢ 64

لبيد عدة معان، منها اليد الجارحةُ المعروفة، والنعمة، اذ يقال: لفلان عندي يد أشكره عليها. والقدرةُ والمُلك، كما في قوله تعالى {الذي بيده عُدَّةُ النكاح} . والمقصود هنا اليد الحقيقة كما يقصدون بذلك. غلّت أيديهم: أمسكت وانقبضت عن العطاء، وهو دعاء عليهم بالبخل. يداه مبسوطتان: يعني هو كثير العطاء. الحرب: ضد السلم، فهي كل ما يهيج الفتن والقلاقل، ولو بغير قتل. اقامة التوراة والانجيل: العمل بما فيهما على أتم الوجوه. لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم: أي لوسّع الله عليهم موارد الرزق. مقتصدة: معتدلة في أمر الدين.

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السالفة بعض مخازيهم التي أدت الى اختلال نظم مجتمعهم ذكر هنا أفضع مخازيهم وأقبحها، وهي جرأتهم على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس من صفته، وإنكار نعمته عليهم. والذي يطالع التلمود ويقرأ ما فيه من جرأة على الله ومن كلام تقشعرّ له الأبدان يعلم خُبثهم وقباحتهم.

وقالت اليهود اللهُ بخيل لا تبسط يده بالعطاء، بل كذبوا إنهم هم البخلاء، لعنهم الله وأبعدهم من رحمته. ان الله عني سخيّ ينفق كما يشاء، فهو الجواد المتصرف وفق حكمته. أما تقتير الرزق على بعض العباد فإنه لا ينافي سعة الجود، فهو سبحانه له الإرادة والمشئنة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق.

ان كثيرا من هؤلاء المنكرين سوف يزدادون إمعاناً في الضلال، حسداً لك يا محمد، ونقمة على ما أنزله إليك ربك من كلامه في القرآن. {وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} والعداوة ملهوسة فيما بينهم وبين النصارى وفيما بينهم أنفسهم. وإن المقام ليضيق عن سرد أقوال علماء النصارى وقادتهم ورؤسائهم في شتم اليهود وإبراز مساوئهم. لذا تجديني أكتفي بذكر بعض هذه الأقوال:

يقول بنيامين فرانكلين في خطابه في المؤتمر الدستوري التأسيسي المنعقد في فيلادلفيا (الولايات المتحدة) سنة ١٧٨٧ م. «في كل بلد استوطنه اليهود. انحطت القيم الأخلاقية الى الدرك الأسفل وشاعت الفوضى واللامسؤولية والاحتيال في معاملات أبنائه التجارية. هذا بينما يعزل اليهود متوقعين على أنفسهم في كُفٍّ وعصابات، لم نتكمن القضاء عليها ولا دمجها في مجتمعنا. لقد هزىء اليهود من قيم ديانتنا المسيحية التي تقوم دولتنا عليها وتعيش بها، متجاهلين كل أنظمتنا ومحظوراتنا، فكأنهم ذلك من إقامة دولة لهم داخل دولتنا» إلى أن يقول:

«إنكم إن لم تطردوهم عن ديارنا فلن يمضي أكثر من مائتي سنة حتى يصبح أحفادنا خدماً في حقولهم بمدّونهم بثروات بلادنا. . . ان اليهود يشكّلون خطراً عظيماً على هذه البلاد، وإنني أؤكد على ضرورة طردهم منها ومنعهم من الدخول إليها أو الإقامة فيها، بموجب نصوص دستورية صريحة» .

وقد تحققت نبوءته، فاليهود هم حكام الولايات المتحدة الأمريكية دون جدال، وبأصواتهم في الانتخابات على الأقل. هذا سيرينغ، السفير البريطاني في أمريكا، يقول في تقريره المؤرخ في ١٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ من كتاب ادمونسون «أنا أشهد» ص ١٩٣ ما يأتي: «يعتبر بول م. واربورغ الألماني المولد، اليهودي الأصل، المسير الوحيد لسياسة الولايات المتحدة الاقتصادية والمالية، إبّان عهد

الرئيس ويلسون. ومنذ وفاة ج. ب. مورغن الأب، قفز أصحاب المصارف اليهود في أمريكا الى أرفع المراكز في السلطة وأعلى مقامات النفوذ؟ .

ويقول ويليام دادلي بالي، في الصفحة ٩ من كتاب «الامبراطورية الخفية «ما يأتي» كان للرئيس فرانكلين روزفلت ٧٢ مستشاراً، منهم ٥٢ من اليهود المهاجرين الى الولايات المتحدة. والأهم من ذلك، ان الإحصاءات الرسمية تدل على ان اليهود يملكون ٨٠ بالمائة من عقارات الولايات المتحدة وأبنيتها ومواردها الطبيعية. كما يشكل اليهود نسبة ٨٦ بالمائة من مجموع الموظفين في واشنطن.»

هذا إلى كتب كثير ألفت في هذا الموضوع، لكن الأمريكيان مخدرون تحت وطأة رشوة اليهود للمسؤولين في البلاد والضغط عليهم بشتى الوسائل المغرية.

أما الأوربيون فإنهم تكلموا عن اليهود وحذروا منهم كثيراً وانتقدوهم. فهل هناك إلا قبض الريح من أمل لبعض الحكام، لا الشعوب العربية، في أمريكا! لكن كل ذلك ذهب ادراج الرياح.

{كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ}

كلّما همّوا بالكيد للرسول وللمؤمنين عليهم. وقد كان اليهود يغرون المشركين بمحاربة النبيّ والمؤمنين، بل إن منهم من سعى لتحريض الروم على مهاجمتهم. ومنهم من كان يؤوي أعداء المسلمين ويساعدهم مثل كعب بن الأشرف أحد كبار زعمائهم. وكان هذا عربياً من نهبان من طي، أمه يهودية، فالتخذ اليهودية ديناً له. وكان شاعراً، فأذى النبيّ عليه السلام والمسلمين كثيراً الى ان قُتل.

وما سبب هذا الكيد إثارة الفتن الا الحسد والعصبية من قبل اليهود، وخوف الأحرار ان يزيل الإسلام امتيازاتهم العلمية والدينية التي كانوا يعيشون عن طريق استغلالها في الارشاء والدجل على صغار العقول.

{وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا} .

ان ما يأتونه من عداوة الرسول الكريم والمؤمنين، بنشر الفاسد في الأرض وإثارة الحروب ليس الا الفساد بعينه. فهم يخافون اجتماع كلمة العرب، حيث تقوى شوكتهم. وبذلك يذهب نفوذ اليهود الذي يمتنعون به، {والله لا يحبّ المفسدين} بل ييغضهم ومن ثم لن ينجح سعيهم، أو يصلح عملهم.

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} .

ولو أن اليهود والنصارى آمنوا بالإسلام وبنبيه، واجتنبوا الآثام التي ذكرناها لحونا عنه سيئاتهم التي اقترفوها وغفرنا لهم ذنوبهم، ولأدخلناهم في جنات النعيم في الآخرة.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} . . .

لو أنهم عملوا بالتوراة والإنجيل، وحفظوهما من التحريف، وآمنوا بما أنزل إليهم ربهم، وهو القرآن الكريم لأعطتهم السماء مطرها وبركتها، والأرض نباتها وخيراتها.

وهذا معنى: لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وكما قال تعالى {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ٩٥]

ثم بين الله تعالى أنهم ليسوا سواء في أفعالهم وأقوالهم، فهناك فيهم جماعة معتدلة في أمر دينها، وهم الذين آمنوا بحمد القرآن. بيد أن الكثير من جمهورهم متعصبون مغرورون ساء ما يعلمون.

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد، وهو أحد الصحابة الكرام ممن شهد بدرًا قال: «ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: وذلك عند ذهاب العلم. قلنا: يا رسول الله: وكيف يذهب العلم نحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناءنا أبناءهم الى يوم القيامة؟ قال: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء.» .

ومغزى هذا أن العبرة في الأديان هو العمل بها، فإذا لم نعمل نحن بالقرآن الكريم، بل اكتفينا بلوك الألسن فقط، فإن مصيرنا معروف نسأله تعالى أن يلهمنا الصواب.

٥٠٤٣ 67

عصمه الله: حفظه ووقاه ومنعه من سوء. يا أيها الرسول، بلغ الناس جميعاً بكل ما أوحى الله إليك، ولا تخش في ذلك أحداً ولا تخف مكرهاً، فإن لم تقم بالتبليغ تكن قد خالفت أمر ربك. ان الله يحفظك من مكائد الناس ويمنعك من أذاهم وفتكهم. وهذه الآية مكية نزلت في مكة، ولكنها وضعت في السورة المدنية لحكمة دوام التبليغ. فقد روى الترمذي وابو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن عدد من الصحابة. «أن النبي ﷺ كان يُحرس في مكة قبل نزول هذه الآية، وكان العباس ممن يحرسه، فلما نزلت ترك رسول الله الحرس» .

«وروى أن أبا طالب كان يبعث مع رسول الله من يحرسه إذا خرج حتى نزل قوله تعالى {والله يعصمك من الناس} فذهب ليعث معه، فقال الرسول: يا عم، ان الله حفظني، لا حاجة بي الى من تبعث» . وقد صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام بالأمر وبلغ الرسالة جميعها، وبين للناس كل شيء ولم يخص أحداً بشيء من علم الدين، فلا مجال لرأي بعض الفرق الإسلامية بصد ذلك.

قال ابن أبي حاتم ان هارون بن عنترة الشيباني أخبره أن أباه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال له: ان ناساً يأتوننا فيخبروننا أن عندكم شيئاً لم يبيده رسول الله للناس. فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} والله ما ورثنا رسول الله سوداء في بيضاء.

وفي صحيح البخاري عن ابي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وان لا يقتل مسلم بكافر.

هذا كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال في خطبة الوداع «أيها الناس، إنكم مسئولون عني، لما انتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع اصبعه الى السماء وينكسها اليهم ويقول: اللهم هل بلغت» .

{إن الله لا يهدي القوم الكافرين}

ان الله تعالى لا يهدي الكافرين الذي هم بصدد إيدائك يا محمد بل سيظلون خائنين، وتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين.

قراءات: قرأ نافع وابن عامر وابو بكر «رسالاته» بالجمع، والباقون «رسالاته» .

٥٠٤٤ 68

الطغيان: مجاوزة الحد المقبول، والظلم والاسراف والتجبر. {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧-٣٩] لا تأس: لا تحزن.

بين الله تعالى هنا أن الانتساب الى الأديان لا ينفع أهلها إلا اذا عملوا بها، فقل أيها الرسول لليهود والنصارى: إنكم لن تكونوا على دين صحيح، الا اذا أعلتم جميع الأحكام التي أنزلت في التوراة والانجيل وعلمتم بها وآمنتم بما بشر به الكآبان من بعثة نبي يجيء من ولد إسماعيل الذي سماه المسيح روح الحق والبارقليط. وأقسم بأن الكثيرين من أهل الكآب لا يزيده القرآن الا غلواً في تكذيبهم وكفراً

على كفرهم، فلا تحزن عليهم. ويجب أن نأخذ نحن من هذه عبرا، ونتمسك بالقرآن الكريم وسنة رسوله حتى لا نكون مثل السابقين من أهل الكتاب. وقد سبق تفسير باقي الآية الكريمة من قبل.

٥٠٤٥ 69

الصائبون: الكلمة آرامية الأصل، تدل على التطهير والتعميد. والصابئة فرقتان: جماعة المندائيين أتباع يوحنا المعمدان، وصابئة حرّان الذين عاشوا زمناً في كنف الاسلام، ولهم عقائدهم وعلماؤهم، ومن أشهرهم ابراهيم من هلال الصابي الأديب الكبير، والعالم بالفلك والفلسفة الرياضية. ورد ذكرهم في القرآن ثلاث مرات بجانب اليهود والنصارى، مما يؤذن بأنهم من أهل الكتاب. وكتب عنهم المؤرخون المسلمون. وخاصة الشهرستاني في «الملل والنحل»، والدمشقي في «نخبة الدهر في عجائب البحر». وهم يعدّون بين الروحانيين، الذين يقولون بوسائط بين الله والعالم، ويحرصون على تطهير أنفسهم من دنس الشهوات والارتقاء بها إلى عالم الروحانيات. للقوم طقوس ثابتة، منها أنهم يتطهرون بالماء إذا لمسوا جسداً، ويحرّمون الختان كما يحرمون الطلاق إلا بأمر من القاضي، ويمنعون تعدّد الزجّات، ويؤدّون ثلاث صلوات كل يوم بالسريانية. أما قبلتهم فهي القطب الشمالي. وقد خدموا الإسلام في مجالات العلم والسياسة والترجمة. ولا يزال منهم بعضة آلاف في العراق الى الآن، كتب عنهم السيد عبد الرزاق الحسن رسالة مطبوعة بمصر، وقال إنهم إربع فرق. وتفسير الآية الكريمة

ان الذين صدّقوا الله ورسوله، واليهود، والصائبين، والنصارى وغيرهم كل اولئك اذا أخلصوا في الإيمان بالله، وصدّقوا بالعبث والجزاء، وأتوا الأعمال الصالحة التي جاء بها الاسلام فيسكنون في مأمن من العذاب، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٥٠٤٦ 70

الميثاق: العهد. الفتنة: الاختبار، ما يسبب التخريب والقتل. لقد أخذ الله العهد على بني اسرائيل في التوراة أن يتبعوا أحكامها، لكنهم نقضوا هذا الميثاق (كما تقدم في أول السورة)، وعاملوا الرسل أسوأ معاملة، فكانوا كلّما جاءهم رسول لم يوافق هواهم كذبوه أو قتلوه. وقد أوغلوا في الضلال، حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل ولا هديتهم. لقد تمكّن من نفوسهم أنه لن تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد، انطلاقاً من زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه. لذلك لم يعودوا يبالون بآثامهم. وهكذا أصابهم العمى عن آيات الله التي أنزلها في كتبه، وصمّوا عن سماع المواعظ التي جاءهم بها أولئك الرسل. وإذا ظلّوا انفسهم فقد سلّط عليهم الله من أذاقهم الخسف.

لقد غزاهم بختنصر، فأهلكهم واستباحهم وسقاهم الى بابل. ثم رحمهم الله وأعاد اليهم ملكهم على يد كورش، أحد ملوك الفرس، فرجع عدد كبير منهم الى القدس. لكنهم ما لبثوا ان عمّوا وصمّوا مرة أخرى، وعادوا الى ظلمهم وفسادهم في الأرض، فقتلوا زكريّا وأشعيا، وأرادوا قتل عيسى عليه السلام، فسلّط الله عليهم الفرس ثم الرومان فأزالوا ملكهم.

وفي قوله تعالى: {كَثِيرٌ مِنْهُمْ} إشارة الى أنه فيهم أناسٌ خيرون أتقياء. لكن الله سبحانه يعاقب الأمم بذنوبها اذا كثرت وشاعت فيها، ولو كان فيهم قلة من الصالحين. لذلك يقول تعالى في آية أخرى {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥]. {والله بصيرٌ بما يعملون}

الله مطلع عليهم مشاهد لأعمالهم، ومجازيهم عليها. قراءات:

قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي {أَلَّا تَكُونَ} بالرفع والباقون بالنصب.

٥٠٤٧ 72

بعد ان جادل الكتاب اليهود، وعدّد مخالفتهم لصلب ديانتهم، ونقضهم المواثيق والعهود، شرع هنا يفصل ما عمله النصارى من تحريف في عقيدتهم.

إن الذين ادّعوا أن الله هو المسيح بن مريم قد كفروا وضلّوا ضلالاً بعيداً. والحق أن عيسى بريء من هذه الدعوى، فقد قال لهم عكس ما ينسبون إليه. لقد أمرهم بعبادة الله وحده، معترفاً بأنه ربه وربهم. . وجاء هذا صريحاً في الانجيل، ففي إنجيل يوحنا (هذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته) . وبعد ان أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} . ن الله هو الذي خلّقني وخلقكم جميعاً، وهو مالك أمرنا جميعاً، وإن كل من يدّعي لله شريكاً، فإن جزاءه ان لا يدخل الجنة أبداً، وليس لمن يتعدى حدوده ويظلم ناصر يدفع عنه العذاب يوم القيامة.

لقد كفر الذين قالوا ان الله، وهو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما ثالث أقانيم ثلاثة: الأب، والابن، روح القدس، فالحق أنه يتصف بالوحدانية، ولا تركيب في ذاته ولا في صفاته. إنه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} . ثم قال متوعداً {وَأَن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} فإن لم ينته هؤلاء عن العقائد الزائفة، ويرجعوا إلى الإيمان بالله وحده، فوالله ليصيبهم عذاب شديد يوم القيامة. {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} . ن الله واسع الرحمة اذا تابوا ورجعوا إليه.

ثم أكد الله تعالى ان المسيح رسول كغيره من الرسل وأقام الدليل على ذلك فقال: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} ليس عيسى بن مريم إلا عبداً من البشر، أنعم الله عليه بالرسالة كغيره من الرسل. أمّا أمه مريم فهي صديقة في مرتبة تلي مرتبة الأنبياء، ولكنها أيضاً من البشر، فعيسى وأمّه يأكلان الطعام كغيرهما من الناس، فانظر أيها السامع نظرة عقل وفكر، ثم تأمل كيف ينصرفون عن الحق مع وضوحه.

٥٠٤٨ 76

الغلو: الإفراط وتجاوز الحد. الأهواء: الآراء التي تدعو إليها الشهوة. سواء السبيل: وسطه.

قل أيها الرسول لليهود والنصارى: أتعبدون غير الله ممن لا يملك لكم ضرراً تخشونه ولا نفعاً ترجون ان يجزيكم به اذا اعبدتموه!! . كيف تتركون عبادة الله، وهو الاله القادر على كل شيء، السميع العالم بكل شيء!!

يا أيها اليهود والنصارى، إن الله ينهاكم عن الإفراط في معتقداتكم فتجاوزوا حدود الحق الى الباطل. ولا تتبعوا أهواء أسلافكم الذين ضلّوا عن الحق من قبل، وأضلّوا خلقاً كثيراً معهم. لقد حادوا عن الصراط المستقيم، وهو دين الاسلام، فلا تقتفوا آثارهم.

٥٠٤٩ 78

اللعن: الحرمان من لطف الله وعنايته. يتولون الذين كفروا: يوالونهم. يأتي هذا التقرير في موقف النبي داود وعيسى عليهما السلام من اليهود على مدى التاريخ، وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل لعصيانهم وعدوانهم. وقد استجاب الله له جزاء سكوتهم عن المنكر يفشو فيما بينهم.

لعن الله الذين كفروا من بني اسرائيل في الزبور والانجيل، من جرّاء تماديهم في العصيان وتمردهم على الأنبياء، وهذا معنى {بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} . ثم بين أسباب استمرارهم في العصيان فقال: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ} فدأبهم ألا يتناصحوا، فلا ينهى احد منهم احداً عن منكر يقتضيه مهما قُبِح. وفي الآية تلميح إلى فسوّ المنكرات فيهم، وانحلال مجتمعهم لما فيه من فسق وفجور. وهذا داء قديم فيهم، لا يزال مستمرا حتى الآن، ف {لِبئس ما كانوا يفعلون} من اقتراف المنكرات، والسكوت عليها. هذا ما يحدثنا به اخواننا من الشعب الفلسطيني عن مجتمع اليهود. إنه موبوء فاجر.

روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل لنقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك ان يكون أكله وشربه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم قال {لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} . {إلى قوله} {فَاسْقُونَهُ} . ثم قال ﷺ: «كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، ثُمَّ لَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطِرَّنَّ عَلَى الْحَقِّ، أَوْ لَتَقْسُرَّنَّ عَلَى الْحَقِّ قَسْرًا، أَوْ لَيُضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» .

تأطرنه: تردونه، والقسر: القهر.

والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة. وأظن كثيراً من أحوالنا تسير الى السوء، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معطل. نسأله تعالى ان يردنا الى ديننا.

{تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}

هذا هو من الأمور التي كانت تقع منهم، فقد كان اليهود يتحالفون مع مشركي قريش والعرب ضد النبي والاسلام. وقد ذهب كعب بن الأشرف مع جماعة منهم الى مكة يحرض كفار قريش على قتال الرسول الكريم، كما حالف بنو قريظة المشركين في وقعة الخندق. وحوادثهم كثيرة.

{لِبئس ما قدمتم لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون}

إن هذه الشرور عمل ادخرته لهم أنفسهم الشريعة حتى غضب الله عليهم، وسيخلدون في جهنم وبئس المصير.

{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ} .

ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب، يؤمنون بالله والنبي، وما أنزل اليك من القرآن، لما اتخذوا عبدة الأوثان أنصاراً، {ولكن كثيراً منهم فاسقون} متمردون في النفاق، خارجون عن حظيرة الدين، لا يريدون الا الجاه والرياسة.

٥٥٥ 82

العداوة: البغضاء. المودة: المحبة. القس: جمعه قسوس، والقسيس: جمعه قسيسون، الذي يكون بين الشماس، والكاهن. الراهب: العابد المنقطع عن الناس في دير أو صومعة حرم نفسه فيها من التمتع بالزواج ولذات الطعام. تقبيض من الدمع: تمتلئ دمعاً حتى يتدفق من جوانبها. مع الشاهدين: الذين شهدوا وصدقوا نبوة محمد ﷺ. فأثابهم: جازاهم.

نزلت هذه الآية في نجاشي الحبشة وأصحابه، حين هاجر فريق من المسلمين إلى هالك. قالت أم سلمة وكانت من المهاجرات الى الحبشة قبل ان يتزوجها الرسول الكريم: لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ، النجاشي. . امّا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه.

وقد بقي المهاجرون فيها الى ان هاجر الرسول الكريم الى المدينة، ولم يقدروا الوصول اليه، فقد حالت بينهم وبينه الحرب. فلما كانت وقعة بدر وقتل فيها صناديق قريش، قال كفار قريش: ان تأركم بأرض الحبشة، فابعثوا الى سيدها رجلين من ذوي الرأي

فيكم مع هدايا له ولرجاله لعله يعطيكم من عنده فتقتلونهم بقتلى بدر. فعبث كفار قريش عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا. نخرجاً حتى قدما على النجاشي، فأهدوا الى البطارقة مما معهما من الهدايا، وطلبوا منهم ان يساعدهما عند الملك بأن يسلمهما أولئك المهاجرين. ثم قابلا النجاشي وقدما له هداياهما فقبلها منهما. ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، قد جاء الى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا من آبائهم وأعمامهم أشرف قومهم لتردهم إليهم. فقالت بطارقتة حوله: صدقاً أيها الملك، فأسلمهم إليهما. فغضب النجاشي ثم قال: لا والله لا أسلمهم حتى أدعوه، فأسلمهم عما يقول هذان في أمرهم. ثم أرسل إليهم. فلما جاؤا، قال لهم النجاشي وأساقفته: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد؟

فقام جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك، كما قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. وظللنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وعفافه، فدعانا الى الله، أن نوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد قبله من الحجارة والأوثان. ولقد أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. كما نهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. أمرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله. . .

فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا لنرتد الى عبادة الأوثان. . . فلها قهرونا وضيقوا علينا، خرجنا الى بلادك، ورجعنا في جوارك. فقال النجاشي: هل معك مما جاء به من الله من شيء؟ قال جعفر: نعم أول سورة مريم. قالت أم سلمة: فبكي والله النجاشي، حتى اخضلت لحيته. وبكت اساقفته حين سمعوا ما تلا جعفر. ثم قال النجاشي: ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. إنطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما. انخ القصة.

فهذه القصة من أسباب نزول هذه الآيات. فبعد أن حاجَّ الله تعالى أهل الكتاب، وذكر مخالفاتهم لكتبهم وأنبيائهم، وانهم اتخذوا الاسلام هزواً ولعباً، وبلغت الجرأة باليهود ان يتطالوا على الله بقولهم {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ}، وان النصارى اعتقدوا بأن المسيح ابن الله ذكر هنا احوالهم في عداوتهم للمؤمنين، أو محبتهم لهم. ومقدار تلك العداوة أو المحبة:

{تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}

قسماً أيها الرسول لسوف تجد أشد الناس عداوة لك وللمؤمنين معك، اليهود المشركين من عبدة الاصنام. وقد وقع ذلك. فإن أشد إيذاء واجهه النبي عليه السلام إنما كان من اليهود في المدينة وما حولها، ومن مشركي العرب، ولا سيما قريش.

ويشترك اليهود والمشركون في بعض الصفات والاخلاق، كالتكبر والغرور، وحب المادّة، والقسوة. والمعروف عن اليهود انهم يعتبرون كل من عداهم لا حرمة له ولا قيمة، فكل من كان غير يهودي مباح لهم دمه وماله وعرضه، هذا مقرر في تملودهم.

{وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}

أما أقرب الناس محبة للذين آمنوا بك وصدقوك فهم النصارى. رأى النبي من نصارى الحبشة أحسن المودة. ولما أرسل كتبه الى الملوك ورؤساء الدول كان النصارى منهم أحسن رداً، واستقبالاً للرسول. والواقع ان مودة النصارى للمسلمين في عصر النبي الكريم كانت ظاهرة ملموسة.

{ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا. . .}

وسبب تلك المودة أن فيهم قسيسين يعلمون دينهم، ورهبانا يخشون ربهم. هذا كما أنهم لا يستكبرون عن سماع الحق واتباعه. وفيهم من إذا سمعوا القرآن وتأثروا به، فتفيض اعيانهم بالدمع. انهم يعرفون ان ما سمعوه حق، فتميل اليه قلوبهم وتنطلق ألسنتهم بالدعاء الى الله قائلين: ربنا آمنا بك وبرسلك، وبالحق الذي انزلته عليهم، فتقبل منا إيماننا، واجلنا مع الشاهدين من أمة محمد الذين جعلتهم حجة

على الناس يوم القيامة. وأي مانع يمنعنا من الايمان بالله، وتصديق ما جاء على محمد ونحن نرجو ان يدخلنا ربنا الجنة مع خبرة عبادته!!
لذا كتب الله لهم ثواباً، جنات تجري من تحتها الانهار، خالدون فيها الى الأبد.

هذا جزاء المحسنين من ربهم. اما عقاب المسيئين الى انفسهم بالكفر والجحود والتكذيب، اي: {والذين كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} فهو الجحيم. انهم أهل النار، وسيبقون في العذاب الشديد الدائم.

ويجب ان نوضح هنا موضوعاً مهماً، وهو أن النصارى الذين تعنيهم الآية إما هم أصحاب النجاشي الذين عاصروا النبي، وقد جاء بعضهم مع جعفر بن ابي طالب الى المدينة وأسلم.

اما اذا استعرضنا النصارى الأوروبيين، وما كادوا للاسلام والمسلمين، وما شئوه من حروب صليبية مجرمة في المشرق الاسلامي كما في الاندلس، وما قاموا به من مذابح يسعها التعصب والحقد فإننا لا نجد لهم يختلفون عن اليهود. بل إن احقادهم مستمرة في موازنة الصهيونية. وقد لنا سابقاً، ونكرر هنا ان هذا لا يشمل النصارى العرب، الذين لم يقصروا في واجبه نحو وطنهم واخوانهم.

٥٠٥١ 87

عندما نزلت الآيات السابقة، وفيها مدح للقسيسين والرهبان، ظنه بعض المؤمنين ان في هذا ترغيباً في الرهبانية، ودعوة إلى ترك الطيبات من الطعام واللباس والنساء، فأزال الله تعالى هذا الظن بهذا النهي الصريح.

ذلك ما يرويه كثير من المحدثين. فقد روى الطبري: ان عثمان بن مظعون وعلي بن ابي طالب وعبد الله بن مسعود والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى ابي حذيفة، وقدامة بن مظعون تبتلوا فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح وحرّموا طيبات الطعام واللباس، وهَمُّوا بالاختصاص واجمعوا على القيام بالليل وصيام النهار، فنزلت هذه الآية. فلما نزلت، بعث اليهم رسول الله فقال: «ان لأنفسكم حقاً، وان لأعينكم حقاً، وان لأهلهم حقاً، فصلّوا وناموا، وصوموا وأفطروا، فليس منا من ترك سنّتنا» فقالوا: اللهم صدّقنا واتبعنا ما انزلت مع الرسول.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا، لا تحرّموا على أنفسكم ما أحلّ الله لكم من الطيبات، ولا اعطاكم الله من الرزق الحلال، ولا تعتدوا بالتضييق على انفسكم مما لم يكلفكم به الله.

من محاسن شرعنا انه يميل دائماً الى التوسط في الأمور، وعلينا ان نقتدي بالرسول الكريم عليه صلوات الله، فانه كان يأكل أطيب الطعام، إذا وجد، وتارة يأكل اخشنه، وحينما يجوع، واخرى يشبع، ويحمد الله على الحالين.

٥٠٥٢ 89

اللغو في اليمين: الحلف على وجه الغلظ من غير قصد. بما عقدتم: بما قصدتموه. الكفارة: الستر والتغطية، لانها تحو الذنوب وتستترها. الاوسط: الطعام العادي، ليس. بالردى، ولا الفاخر. تحرير رقبة: عتقها.

روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: لما نزلت {ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم} قالوا يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا؟ فأنزل الله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم}.

لا يؤاخذكم الله بالأيمان التي تحلفون بلا قصد، ولا يعاقبكم عليها، وإنما يعاقبكم إذا أنتم حنثتم باليمين فيما قصدتم به.

فلو قال رجل: والله لا أفعل كذا، وفعلّه، فعليه الكفارة. وهذه الكفارة هي إطعام عشرة مساكين وجبة واحدة، مما جرت العادة أن تأكلوا في بيوتكم من غير إسراف ولا تقتير. او كسوة عشرة مساكين كسوة معتادة. او ان تحرروا إنساناً من الرق. فاذا لم يستطع الحالف القيام بأي من هذه الأمور فعليه ان يصوم ثلاثة أيام. ان كل واحد من هذه الامور كفارة كافية، لكن عليكم ان تحفظوا أيمانكم فلا تحلفوا على أتفه الاشياء. لا تكثروا من الأيمان سواء أكانت صادقة ام كاذبة، فالاحسن تجنب الحلف.

{ كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

على ذها النحو الشافي الوافي يبين الله أحكامه ويشرحها لكم، لتشكروا نعمته بعد معرفتها بالقيام بحقها.
والإيمان ثلاثة أقسام:

(١) قسم ليس من أيمان المسلمين، مثل الخلق بالخلوقات، نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وغير ذلك. . وهذه من اللغو في الايمان، غير منعقدة، ولا كفارة فيها، ولا يجوز الحلف بها.

(٢) أيمان بالله تعالى، كقول الحالف: والله لأفعلن كذا، وهذه يمين منعقدة فيها الكفارة عند الحلف.

(٣) أيمان بمعنى الحلف بالله، يريد بها الحالف تعظيم الخالق، كالحلف بالنذر، والحرام الطلاق، كقوله: إن فعلت كذا فعلي صيام شهر، أو الحج الى بيت الله، أو الطلاق يلزمي، أو علي الطلاق لا أفعل كذا، أو ان فعلته فنسائي طواق، أو كل صدقة أو نحو ذلك، فهذا كله فيه كفارة اليمين.

وهناك نوع من الأيمان تسمى اليمين الغموس، وهي كما جاء في صحيح البخاري عند عبد الله بن عمرو قال: «جاء اعرابي الى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله، قال: ثم ماذا؟ قال عقوق الوالدين، قال: ثم ماذا؟ قال: اليمين الغموس». . قال وما اليمين الغموس؟ قال: «التي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب» .

فهذه اليمين لا كفارة فيها لأنها جرم لا يغتفر. ولأنها تغمس صاحبها في النار، ولا يكفرها عتق ولا صيام ولا صدقة، بل لا بد من التوبة ورد الحقوق.

ويلاحظ ان الكفارات وردت كثيراً في عتق العبيد، فان الاسلام رغب كثيراً في عتقه، والعتق يدخل في أكثر الكفارات للذنوب. قراءات

قرأ حمزة والكسائي وابو كبر عن عاصم «عقدتم» بالتخفيف، وقرأ ابن عامر «عاقدم» وقرأ الباقون «عقدتم» .

٥٠٥٣ 90

الخمر: كل شراب مسكر. الميسر: القمار. الانصاب الأصنام التي نصبت للعبادة، وكانوا يذبحون قرايينهم عندها. الأزلام: قِداح اعداد من الخشب بهيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية. الرجس: المستقذر حساً أو معنى.

بعد ان نهى سبحانه عن تحريم الحلال من الطيبات، وامر بأكل الطيب من الرزق، نظر إلى الخمر والميسر والأزلام. وكانت هذه من الطيبات في الجاهلية، وكان العرب يشربون الخمر بإسراف، بل يجعلونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها. وكان يصاحب مجلس الشراب نحر الذبائح، واتخاذ الشواء منها للشاربين، والمقامة عليها بالأزلام. كذلك كانوا يذبحون قرايينهم عند الانصاب. . فنهى الله تعالى عن هذه المفاصد كلها نهياً قاطعاً، بعد ان مهد لتحريم الخمر مرتين من قبل هذه الآية.

وأول ما ذكرت الخمر في سورة النحل، وهي مكية، في قوله تعالى {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَنًا. . . } الآية.

ثم نزل في المدينة وفي سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخمرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا. . . } الآية فالمنافع في الربح والتجارة، والإثم في الشر والمفاصد التي تنجم عنهما. وقد تركها بعض الصحابة، واستمر آخرون.

ثم نزل قوله تعالى في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ. . . } الآية كذلك تركها البعض واستمر عليها آخرون. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه دائماً يقول: اللهم بين لنا في الخمر. وقد حدثت حوادث بين بعض الأنصار ونفر من قريش، وهم على الشراب، وكان من جملة الذي لحقهم أذى سعد بن أبي وقاص حيث ضربه احد الانصار ففزر له أنفه. وحين نزلت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخمرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ. . . } الآية كانت الحاسمة في تحريم الخمر تحريماً قاطعاً.

يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله: إن الخمر التي تشربونها، والميسر الذي تقامرون به، والاصنام التي تذبجون عندها قرايبكم، والأزلام التي تستقسمون بها، كل ذلك رجسٌ قدّر من إغواء الشيطان لكم، وقد كرهه لكم ولذلك حرّمها، فاجتنبوها نهائياً، رجاء أن تفلحوا وتفوزوا برضاه.

{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} .
بعد أن أمر الله تعالى باجتناب الخمر والميسر ذكر أن فيهما مفسدتين: أحدهما دنيوية، هي إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس. والثانية دنيوية هي الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة التي هي عماد الدين. ثم أكد بذلك بهذا الاستفهام بقوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} ، أي انتهوا عن هذه الأشياء.

وأسمع بعض الناس يقولون: إن الخمر غير محرّمة، لأنّ لم يقل الله أنها حرام صراحةً بل قال: اجتنبوه. وقولهم هذه كلام فيه الهوى والتدّرع بالتلاعب بالالفاظ لتعليل الأمور التي يحبونها، فالقرآن ليس كتاب فقه حتى ينصّ على كل شيء بأنه حرام أو حلال، وإنما هو قرآن كريم له أسلوب عربي فريد لا يدانيه أسلوب. وأكبر دليل على تحريم الخمر تحريماً نهائياً أن الله تعالى قرن الخمر بالميسر الذي هو القمار، وبالأزلام والأنصاب، وقد جاء تحريم الأزلام والأنصاب صريحاً بقوله تعالى في أول هذه السورة {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ . . } الآية ولما نزلت {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ . . } الآية قال سيدنا عمر: أَقْرَبَتِ بِالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ، بعداً لك وسحقاً.

فإذا كانت عبادة الأصنام والذبح عندها تقريباً لها حلالاً، فإن الخمر تكون حلالاً، وإذا كانت الأزلام والاستقسام بها حلالاً، فإن الخمر تكون كذلك، وإذا كان الميسر والمقامرة حلالاً فإن الخمر كذلك تكون حلالاً. الذين يقولون بتحليلها أناس يتبعون أهواءهم، ولا يخشون الله فيما يقولون.

والأزلام: هي سهام من خشب، وهي ثلاثة أقسام. (١) قداح الميسر وهي عشرة واساؤها كما يلي: القدّ والتوأم والرقيب والحلّس والنافس والمسيل والمعلّى والمنيح والسّفيح والوغد، ولكل واحدٍ من هذه نصيبٌ إذا فاز، وإذا خاب عليه ذلك النصيب. وأعلاها المعلّى له سبعة أجزاء. (٢) والقسم الثاني: ثلاثة أزلام: مكتوب على أحدها: امرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، والثالث غفل ليس عليه كتابة. (٣) وهذا القسم للأحكام.

وكانت العرب في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرًا أو تجارة أو نكاحاً أو اختلفوا في نسب، أو أمر قتيل أو تحمل دية مقتول أو غير ذلك من الأمور جاء إلى هبل، أعظم صنم في الكعبة لقریش، وقدم مائة درهم إلى السادن، فيخرج له القداح ويسحب واحداً منها من الكيس التي هي فيه. فإذا خرج أمرني ربي، أمضى عمله، والا تركه.
ولقد رحم الإسلام هذه الأمور لأنها تشتمل على مفساد، والإسلام يريد أن يبني مجتمعاً نقيّاً طاهراً.

٥٠٥٤ 92

طعم: ذاق، وتأني بمعنى أكل. جناح: إثم أو جرم.
أطيعوا الله تعالى فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرهما من المحرمات، وأطيعوا الرسول فيما بينهن لكم مما نزل عليكم، واحذروا ما يصيبكم إذا خالفتم ذلك من فتنة في الدنيا وعذاب في الآخرة. فإن أعرضتم عن الطاعة، فسيقنوا أن الله معاقبكم. ولا عذر لكم بعد هذا البلاغ الواضح المبين. وفي هذا تهديد ووعيد شديد.

ليس على الذين آمنوا وصدّقوا بالله ورسوله، وأتوا بصلاح الأعمال إثمٌ فيما يأكلون من الطيبات ولا فيما سبق أن أكلوه من المحرمات

قبل عملهم بتجريمها، شرط ان يبتعدوا عنها بعد الآن، وان يستمروا على خوفهم من الله وتصديقهم بما شرعه لهم من احكام. والله يجب المتقربين اليه بنوافل الاعمال التي يرضاها. والاتقاء الأول في هذه الآية: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق. والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق، وترك التبديل والتغيير. والاتقاء الثالث: هو الاتقاء بالإحسان، والتقرب بنوافل الاعمال.

٥٥٥ 94

الابتلاء: الاختبار. الصيد: كل صيد من حيوان البر والبحر. تناله ايديكم: تصيدونه. حُرْم: مفردة حرام، للذكر والانثى، وهو المحرم بحج او عمرة. النعم: الحيوان من البقر والضبان والإبل. العدل: بفتح العين، والمساوي للشيء. الوبال: الشدة، وسوء العاقبة. السيارة: جماعة المسافرين. تُحشرون: تجمعون وتساقون اليه.

كان الصيد احد معاش الناس في ذلك الزمان، وكان كثير من الصحابة لا مورد لهم إلا ما يصيدون، وقد نزلت هذه الآية عام الحديبية، وفيها تحريم الصيد للمحرم بالحج او بالعمرة.

يا أيها الذين آمنوا، إن الله يمتحركم في الحج بترقيم صيد الحيوان البري بأيديكم أو برماحكم، ليظهر الذين يراقبونه منكم في غيبة من اعين الخلق ويعلم إطاعتكم لأوامره. وما ذلك إلا تربية لكم وتزكية لنفوسكم، فمن اعتدى بأن أخذ شيئاً من ذلك الصيد بعد هذا التحريم فله عذاب شديد في الآخرة.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إن هذا البلد حرام، لا يُعصد شجره، ولا يُحتلّ خلاه، ولا يُنفر صيده، ولا تُلقت لقطته إلا لمعرف». .

يُعصد شجرة: يقطع. الخلا: الرطب من النبات، ويحتلّ يحشّ.

ولا يجوز قتل او صيد أي حيوان أو طير ما عدا «الغراب والحداة والعقرب والفأرة والكلب العقور والحية» كما ورد في الاحاديث الصحيحة.

وفي الصحيحين، ان رسول الله عليه السلام قال: «ان ابراهيم حرم مكة ودعا لها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة»، كما قال: المدين حرم ما بين عير الى ثور».

عير: جبل كبير القسم الجنوبي من المدينة. ثور: جبل صغير خلف جبل أحد.

يا أيها الذين آمنوا، لا تقتلوا الصيد وقد نويتم الحج والعمرة. ومن فعله منكم قاصداً فعليه ان يؤدي نظير الصيد الذي قتله، يُخرجه من الإبل والبقر والغنم، بمعرفة رجلين عادلين منكم يحكان به، ويقدم ذلك هدية للفقراء عند الكعبة. . او يدفع لدله إليهم. . أو يُخرج بقيمة المثل طعاماً للفقراء، لكل فقير ما يكفيه يومه. هذه كفارة مسقطه لذنب تعديه على الصيد في الوقت الممنوع. فإذا عجز عن الثلاثة السابقات، فإن عليه ان يصوم أياماً بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه.

وقد شرع ذلك ليحس المعتدي بنتائج جرمه. لقد عفا الله عما سبق قبل التحريم، اما من عاد الى قتل الصيد وهو محرم بعد النهي فان الله سيعاقبه، والله غالب على أمره، ذو انتقام شديد ممن يصر على الذنب.

والآية صريحة في ان الجزاء الدنيوي يمنع عقاب الآخرة اذا لم يتكرر الذنب، فان تكرر استحق.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: اذا قتل المحرم شيئاً من الصيد فعليه الجزاء، فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه ذبح شاة في مكة، فان لم يجد فإطعام ستة مساكين، فان لم يجد صام ثلاثة أيام.

أما إن قتل آيلاً «من بقر الوحش» فعليه بقرة، فإن لم يجد صيام عشرين يوماً. وإن قتل نعامة او حمار وحش أو نحو ذلك فعليه بدنة من الإبل، فان لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، والطعام مد يشبعهم.

وقد أحل الله لكم صيد حيوان البحر، تأكلون منه وينتفع به المقيمون منكم والمسافرون، ووحرم عليكم صيد البر ما دتم محرمين بالحج

او العمرة، سواء صاده غيركم، أو انتم قبل إحرامكم. واتقوا الله بطاعته فيما امركم به وما نهاكم عنه، فإن إليه مرجعكم، فيجازيكم على ما تعملون.

يشيع على ألسنة بعض الناس خطأ {أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ} ولا يوجد في القرآن آية بهذا النص، وإنما {أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا. . .} .

قراءات: قرأ الكوفيون ويعقوب «فجاء مثل» برفع جزاء ومثل، وقرأ الباقر «فجاء مثل» برفع جزاء والاضافة. وقرأ نافع وابن عامر «كفارة طعام» بالاضافة والباقر «كفارة» بالتنوين.

٥٥٦ 97

الكعبة: هي البيت الحرام بمكة. قياما: ما يقوم به أمر الناس. الشهر الحرام: ذو الحجة. الهدى: ما يهتدي الى الحرم من الأنعام. القلائد: الأنعام التي كانوا يزينونها بقلائد اذا ساقوها هديا، وخصها بالذكر لعظم شأنها.

جاءت هذه الآية استكمالاً للسياق السابق، فلقد حرم الله في الآية المتقدمة الصيد على المحرم، باعتبار الحرم موطن أمن للوحش والطيور، فالأولى إذن ان يكون موطن أمن للناس من الآفات والمخاوف، وسبباً لحصول الخير والسعادة للناس في الدنيا الآخرة.

ان الله جعل الكعبة التي هي البيت الحرام مانعاً وحاجزاً تؤمن الناس، أرواحهم ومصالحهم ومنافعهم في معاشهم، بها يلوذ الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويرجى التاجر، ويتوجه اليها الحاج والمعمرون.

فمعنى «قياماً» المانع الذي به يكون صلاح الناس، كالحكومة التي بها قوام الرعية، ترعاها وتحجز ظالمهم، وتدفع عنهم المكروه. كذلك هي الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد قوام العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية.

فقد كان الرجل لو فعل اكبر جريمة ثم لجأ الى الحرم لم يُتناول، ولو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له أو يقربه، ولو لقي الهدى مقلداً، وهو يأكل العصب من الجوع لم يقربه. كان الرجل اذا اراد البيت تقلد قلادة من شعر حُمته من الناس، وإذا عاد من الحج تقلد قلادة من الأذخر أو السمر فنعتته من الناس حتى يأتي أهله.

الأذخر: نبات كيب الريح: السمر: مفمردها سمر، شجر الطلح.

وهي في الاسلام معالم حج الناس، ومناسكهم، فهم في ضيافة الله اذ ذاك، فليعلموا على جمع شملهم، ويتجهوا اليه في صلاتهم. أما الهدى فقد جعله تعالى سبباً لقيام الناس، لأنه يهتدي الى البيت ويذبح ويفرق لحمه على الفقراء. . . بذلك يكون نسكاً للهدى، وقياماً لمعيشة الفقراء.

{ذلك لتعلموا أن الله يعلم . . . وأن الله بكل شيء عليم}

ان ذلك التدبير اللطيف من الله تعالى إنما جعله كي توقنوا أن علمه محيط بما في السماوات وما في الارض، فهو يشرع لمن فيهما بما يحفظهم ويقوم بمصالحهم. فإذا احست قلوب الناس رحمة الله في شريعته، وتذوقت جمال هذا التطابق بينها وبين فطرتهم، أدركوا يقيناً ان الله بكل شيء عليم.

قراءات:

قرأ ابن عامر «قيماً» وقرأ الباقر «قياماً» كما هو هنا في المصحف.

٥٥٧ 98

بعد ان ارشدنا الله تعالى في الآية السابقة الى بعض آيات علمه في خلقه نبهنا هنا الى أن العليم بكل شيء، لا يمكن ان يترك الناس سُدى، كما انه لم يخلقهم عبثاً، فلا يليق بحكمته وعدله ان يجعل الذين اجتروا السيئات كالذين عملوا الصالحات، ولا ان يسوي بين

الطيب الخبيث، فيجعل البرّ كالفاجر. لا بد إذن من الجزاء بالحق. ولا يملك الجزاء الا من يقدر على العقاب كما على المغفرة والرحمة. لذلك جاءت هذه الآيات ترغيباً وترهيباً، فقال: {اعلموا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ، فلأنه يعلم ما في السموات والارض، لا يخفى عليه شيء من سرائر اعمالكم وعلايتها. ومن ثم فهو شديد عقابه لمن عصاه، وواسعة مغفرته لمن أطاعه وأتاب اليه. والله سبحانه وتعالى دائماً يوعد ويعد، والرحمة غالبية. لذلك يغفر كثيراً من ظلم الناس لأنفسهم {وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} .

{مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ}

هذا بيان لوظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام، فليس عليه الا أن يؤدي الرسالة، وبعد ذلك يكون الناس هم المسئولين عند الله، وهو يعلم ما يبذون وما يكتمون.

وبعد ان بين الله تعالى ان الجزاء منوط بالأعمال، اراد ان يبين ما يتعلق به الجزاء من صفات الأعمال والعاملين لها، وأرشد الى حقيقتين يترتب على كل منهما ما يليق بها من الجزاء:

١- لا يستوي الرديء والجيد من الاشياء والأعمال، لا من حيث صلاح أمور الحياة بهما، ولا في حكمهما عند الله. فبالظلم لا تستقيم الحياة ولا يرضى الله عنه. وذلك بخلاف العدل والصلاح.

٢- ان الخبيث غرّار في الظاهر، لكن الطيب أفضل وأبقى. فالقليل من الحلال خير من الكثير الحرام، كما أنه أدوم وأطهر. وما دام الأمر كذلك يا ذوي العقول المدركة، فسارعوا الى طاعة الله وقاية لكم من عذابه، باختيار الطيبات واجتناب الخبائث. بذلك تفوزون في الدنيا والآخرة.

٥٠٥٨ 101

بعد ان بين الله تعالى ان وظيفة الرسول هي التبليغ، ناسب ان يصرّح بأن الرسول قد أدى وظيفة البلاغ الذي كُل به الاسلام، وانه لا ينبغي للمؤمنين ان يكثروا عليه من السؤال، لئلا يكون ذلك سبباً لكثرة التكليف التي يشق على الأمة احتمالها.

يا أيها المؤمنون، لا تسألوا عن أشياء من أمور الدين ودقائق التكليف ولا من أمور الغيب، مما يُحتمل أن يكون إظهارها سبباً لإرهاقكم، إما بشدة التكليف وكثرتها، أو بظهور حقائق تفضح أهلها، وإن تسألوا النبي عنها في حياته اذ ينزل عليه القرآن يبينها الله لكم. ولقد فعلتم ذلك، لكن الله عفا عن مسألتكم، وهو حكيم بكم رؤوف في معاملتكم. عفا الله عنكم في هذه الاشياء، فلا يعاقبكم عليها، ولقد سأل عن أمثال هذه الامور الشاقة اقوام سبقوكم، وأجابهم الله على السنة انبيائهم، وحين زادت التكليف ثقل عليهم تنفيذها، فأعرضوا عنها وأنكروها. وبذلك كانوا هم الخاسرين.

والله سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر لا العسر، وقد أنزل هذا القرآن ليربي الرسول على هديه وينشئ مجتمعا متكاملا، فمن الأدب مع الله والرسول ان يترك الناس لحكمة الله تعالى تفصيل تلك الشريعة وإجمالها.

وفي الحديث الصحيح عن ابي ثعلبة الخشني قال، قال رسول الله عليه السلام: «ان الله فرض فرضا فلا تضيّعوها، وحدّ فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» رواه الدارقطني وغيره.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ، فَإِنَّمَا أَهْلُكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بكَثْرَةِ سُؤْلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» .

وذكر عن الزهري قال: «بلغنا ان زيد بن ثابت الانصاري وهو من علماء الصحابة الكرام كان يقول اذا سئل عن الأمر: أكان هذا؟ فإن قالوا: نعم قد كان، حدّث فيه بالذي يعلم، وان قالوا: لم يكن، قال: ذروه حتى يكون» .

البحيرة: الناقة اذا انتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، شقوا أذننها وخلّوا سبيلها فلا تُركب ولا تُحمّل. السائبة: كان الرجل يقول اذا شُفيت من مرضي فناقني سائبة، ويجعلها مثل البحيرة. الوصيعة: اذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، واذا ولدت ذكرا فهو لأهلهم، واذا ولدت توءماً ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يُذبح الذكر. الحامي: كان من عادتهم إذا تنج من صلب الفحل عشرة أبطن حرّموها ظهره، ولم يمنعوه من ماءٍ ولا مرعى وقالوا حمى ظهره.

بعد ان نهى الله تعالى في الآية السابقة عن السؤال عما لا لزوم له من الأمور، ناسب ان يبين هنا ضلال أهل الجاهلية وخرافاتهم فيما حرموه على انفسهم، فقال: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ} بالمعنى المشروح أعلاه. فهذه الامور كلها من بدع الجاهلية، {ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب}، أي يضعون من عندهم تقاليد وعادات، ينسبونها الى الله كذبا وزورا. قال ابن الكلبي في كتاب «الأصنام»: «كان أو من غير دين اسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيب السائبة، ووصل الوصيعة، وبحر البحيرة، وحى الحامي، عمرو بن لحي الخزاعي. فقد مرض مرضاً شديداً فقيل له إن باللقاء من الشام حمة إن أتيتها برئت. فأتاها، فاستحم بها فبرئ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو. فسألهم ان يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

وقد روى ابن جرير عن ابي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكم بن الجون الخزاعي: «يا اكثم، رأيت عمرو بن لحي يجر قصبة يعني أمعاءه في النار، فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به، ولا به منك. فقال أكثم: أضرني شبهه يا نبي الله. قال: لا، لأنك مؤمن وهو كافر، وإنه أول من غير دين اسماعيل، ونصب الأوثان وسيب السائب، فيهم «أي في اهل الجاهلية.

حسبنا: كفانا.

واذا قيل لهؤلاء الجاحدين: تعالوا الى ما انزل الله من القرآن، وما بينه الرسول من الشريعة لنهتدي به قالوا: لا نبغي زيادة، بل يكفيننا ما وجدنا عليه آباءنا، فهم لنا أئمة وقادة. بذلك يصرون على التقليد الأعمى حتى لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا من الشرائع، ولا يهتدون سبيلا الى الصواب.

عليكم أنفسكم: احفظوها، والزموا اصلاحها.

بعد ان نعى الله تعالى على المشركين ما هم عليه من جهل وعناد في اتباع القديم المتوارث رغم عماه، دون إخضاعه لنقد ولا تحييص أمر المؤمنين أن يهتموا بإصلاح أنفسهم، فاذا أصلحوها وقاموا بما أوجب الله عليهم، لن يضرهم بعد ذلك ضلال غيرهم.

روى ابن جرير عن قيس بن ابي حازم قال: سمعت أبا بكر يقول وهو يخاطب الناس: يا أيها الناس، إنكم تقرأون {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم}. الآية ولا تدرون ما هي. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه عمهم بعقاب».

ومعنى أن الأمة يجب أن تتخلى عن واجباتها في دعوة الناس الى الهدى، ولا في كفاح الشر، ومقاومة الضلال، فإذا ضل أناس من غير ديننا، ولم يستجيبوا لهدايتنا، فلا يضرّونا ذلك. أما اذا قصرنا في الدعوة، فقد يعمنا العقاب.

اعلموا أيها المؤمنون بما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه، ومروا من حاد عن سبيلي، بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، فإن اليّ مرجعكم، وأنا العالم بما تعملون من خير وشر، وفأخبركم يوم الحساب بكل ذلك ثم أجازي كل فرد على ما قدم.

الشهادة: قول صادر عن علم حصل بالمشاهدة. ضربتم في الارض: سافرتهم. تحبسونهما: تمسكونهما وتمنعونهما من الهروب. ارتبتم: شككتهم في صدقهما فيما يُقرآن به.

يرشدنا الله تعالى هنا الى اداء الشهادة بحقها، بالوصية، حتى لا يضيع حق من الحقوق على أصحابها، فيقول: يا أيها الذين آمنوا: حينما تظهر على احد منكم علامة الموت، ويريد ان يوصي بشيء، فالشهادة بينكم على الوصية: أن يشهد اثنان عادلان من اقاربكم، أو آخران من غيركم اذا كنتم في سفر. وعليكم ان تجمعوا هذين الشاهدين بعد أداء الصلاة التي يجتمع عليها الناس، فيحلفان بالله قائلين: لا نستبدل باليمين عوضاً ولو كان فيه نفع لنا أو لأحد من أقاربنا، ولا نخفي الشهادة التي أمرنا الله بأدائها. فإذا أخفينا الشهادة أو قلنا باطلاً حق علينا عذاب الله لأننا ظالمون.

فان ظهر فيما بعد ان الشاهدين قد كذبا في شهادتهما أو اخفيا شيئاً، فإن اثنين من اقرب المستحقين لتركه الميت، هما أحق أن يقفا مكان الشاهدين بعد الصلاة، ليحلفا بالله أن الشاهدين قد كذبا، وأن ذينك الرجلين لم يتيها الشاهدين زورا وبهتاناً، ولو فعلا فإنهما يكونان من الظالمين المستحقين عقاب من يظلم غيره.

ان هذا التشريع اقرب اطرب الى ضمان أن يؤدي الشهود شهاداتهم صحيحة، وذلك محافظة على حلفهم بالله، وخوفاً من فضيحتهم بظهور كذبهم، حين يحلف الورثة لرد أيمانهم. راقبوا الله أيها المؤمنون في ايمانكم وأماناتكم، واطيعوا احكامه راضين بها، فان فيها مصالحكم، ولا تخافوها فتكونوا من الخارجين على الله، والمطرودين من هدايته، المستحقين لعاقبه.

روى القرطبي في تفسيره قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران الى مكة في الجاهلية، فلما هاجر الرسول ﷺ حولاً تجارتهم الى المدينة. فخرج بدليل مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجوا تجاراً الى الشام. حتى اذا كانوا ببعض الطريق استكى بدليل، فكتب وصية بيده ثم دسها في متاعه وأوصى اليهما. فلما مات فتحا متاعه، فأخذا منه جاماً من فضة عليه خيوط من ذهب، وقديماً على أهله فدفعها اليهم متاعه. ففتح اهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده. وفقدوا الجام فسألوها عنه فقالوا: هذا الذي قبضنا منه، فقالوا: هذا كتابه بيده. قالوا: ما كتمنا له شيئاً. فترافعوا الى النبي ﷺ، فنزلت الآية. فأمر رسول الله أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر. فحلفا، ثم بعد ذلك ظهر الجام معهما، فافل اهل بدليل: هذا من متاعه، قالوا: نعم، لكننا اشتريناه منه ونسينا ان نذكره حين حلفنا فكرهنا ان نكذب نفوسنا. فترافعوا الى النبي ﷺ فنزلت الآية {فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا} فأمر النبي رجلين من أهل الميت ان يحلفنا على ما كتما وغيبا ويستحقانه.

قال تميم الداري: فلما أَسْمَلْتُ، تأثمت من ذلك، فأثمت اهل بدليل وأخبرتهم الخبر، وأديت اليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم ان عند صاحبي مثلها. فأتوا به الى رسول الله، فسألهم النبي، فلم يجدوا. فأمرهم ان يستحلفوه بما يقطع به على أهل دينه. فحلف، فأنزل الله ﷻ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا. . .} الآيات فقام عمرو بن العاص ورجل آخر مهم فحلفا، فنزعت خمسمائة درهم من يد عدي بن بداء. وكان تميم يقول: صدق الله ورسوله، أنا اخذت الإثاء. ثم قال: يا رسول الله، ان الله يُظهركَ على أهل الأرض كلها فهَبْ لي قرية عَيْنُون من بيت لحم. وهي القرية التي وُلِدَ فيها عيسى، فكتب له بها كتاباً، فلما قَدِمَ عمرَ الشامِ أتاه تميم بكتاب رسول الله. فقال عمر: أنا حاضرٌ ذلك، فدفعها إليه.

قراءات:

قرأ حفص والكسائي «استحق» بفتح التاء الحاء، الباقون «استحق» بضم التاء وكسر الحاء، وقرأ حمزة وأبو بكر «الأولين» بفتح الواو المشددة وفتح النون، والباقون «الأوليان» بالتثنية.

وتذكروا يوم القيامة حين يجمع الله أمامه كلَّ الرُّسل ويسألهم قائلاً لهم: ماذا أجابكم أُممكم الذين أرسلتكم إليهم؟ والناس في ذلك اليوم من كل الأمم واقفون بين يدي الله يسمعون، لتقوم عليهم الحجة بشهادة رسلهم، اذا يقولون لا نعمل ما كان بعدنا من أمر الأمم الذين بلغناهم رسالتك، أنت وحدك علام الغيوب.

روح القدس: هو جبريل ملك الوحي. الكتاب: كل ما يكتب. الحمة: العلم الصحيح الذي يبعث الإنسان على العمل النافع مع معرفة الأسرار ما يعمل. الاكمة: الذي ولد أعمى. البرص: داء بشكل بياض يظهر على الجلد. السحر: تمويه وتخيل يرى الانسان به الشيء على غير حقيقته. الحواريون: انصار سيدنا عيسى. الوحي: الإشارة الخفية السريعة، والإلهام، {وأوحينا إلى أم موسى} ، {وأوحى ربك إلى النحل} .

بعد أن وجه السؤال الى جميع الرسل، واعلنوا ان العلم الحقيقي لله وحده، {قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} يتلفت الخطاب الى عيسى ابن مريم ويذكره بنعمة الله عليه وعلى والدته، وبالمعجزات التي آيده بها، فيناديه من بين الرسل، ويقول له: اذكر ما أنعمتُ به عليك وعلى أمك في الدنيا، حينما ثبتك بالوحي، وأنطقك في المهدي بما يبري أمك مما اتهمت به، كما انطقك وانت كبير بما قد أوحيتُ اليك. لقد علمتُك الكتابة، وآتيتُك الحكمة وعلمتُك توراة موسى، والإنجيل الذي انزلته عليك. كما آتيتُك بمعجزات تخرج عن طوق البشر، فصرت تتخذ من الطين صورة الطير، فتنفخ فتصبح طائراً حياً بقدرته الله لا بقدرتك. كذلك تشفي من ولد أعمى، وتبري الأبرص من برصه بإذن الله. كذلك تم لك إحياء الموتى بقدرته تعالى.

ففي انجيل يوحنا ان عازر مات في بيت عنيا ووضع في مغارة، فجاء المسيح وكان للميت أربعة أيام. فرفع المسيح عينيه الى فوق وقال: «أيها الأب، أشكرك لانك سمعت لي، وانا علمت انك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا انك ارسلتني» ولما قال هذا: صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً، فخرج الميت الخ. وفي هذا النص يصرح المسيح أنه رسول وليس إلهاً، ويطلب من الله ان يعينه. واذكر أيضاً يا عيسى. حينما منعت اليهود من قتلك وصلبك عندما أتيهم بهذه المعجزات ليؤمنوا بالله، فأعرض فريق منهم، وادّعوا ان ما أظهرته من المعجزات ما هو الا من قبيل السحر والواضح.

قراءات
قرأ حمزة والكسائي «ساحر مبین» . وقرأ الباقون «سحر مبین» كما هو هنا في المصحف.

المائدة: خوان الطعام، او الطعام نفسه. العيد: الفرح والسرور، او الموسم الديني الذي يجتمع الناس له في أيام معينة من السنة. آية منك: علامة.

لا يزال الكلام عن سيدنا عيسى وأمه، وهذا عرض لشيء من نعمة الله على قومه، ومن معجزاته التي آيده الله بها وشهد بها الحواريون، وعدد كبير من قومه.

اذا قال الحواريون: يا عيسى: هل يجيبك ربك لو سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ فأجابهم: يا قوم، خافوا الله من أمثال هذا السؤال ان كنتم تؤمنون به، ولا تطلبوا حُججاً غير التي قدمتها لكم.

قالوا: نريد أن نأكل من هذه المائدة. عند ذلك تطمئن قلوبنا بما تؤمن به من قدرة الله، ونعلم بالمشاهدة الحية انك قد صدقنا فيما أخبرتنا عنه، ونشهد لك بالمعجزة عند قومنا.

فاستجاب لهم عيسى وقال: يا ربنا ومالك أمرنا، أنزل علينا مائدة من السماء يكون يوم نزولها عيداً للمؤمنين منا، ولتكون معجزة تؤيد بها دعوتك، وارزقنا رزقاً طيباً، وانت خير الرازقين.

قال الله تعالى: سأُنزل المائدة عليكم من السماء، فأَيُّ امرئ منكم يكفر بعد ذلك فسوف أعاقبه عقاباً لا أعاقب بمثله احداً من الناس. . فلقد كفر بعد ما شاهد دليل الإيمان الذي اقترحه.

وبين لنا هذا الحوار بين المسيح والحواريين، ذلك الفرق الكبير بين الحواريين وأصحاب سيدنا محمد ﷺ. فلقد شاهد الحواريون كذلك من المعجزات التي أظهرها الله على يد رسولهم، ومع ذلك فهامهم يطلبون معجزة جديدة لتطمئن نفوسهم. اما أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فإنهم لم يطلبوا أية معجزة بعد اسلامهم. . لقد اطمأنت قلوبهم مذ خالطتها بشاشة الايمان، وصدقوا رسولهم، ومضوا في سبيل الله يعملون في نشر الاسلام، ولم يطلبوا على ذلك دليلاً.

ولقد تكلم المفسرون كثيراً في موضوع المائدة، هل نزلت فعلاً أم ورد ذلك لضرب المثل، كما تكلم بعضهم في ألوان طعامها، وأطلقوا لخيالهم العنان في كل ذلك. ونحن لا نرى فائدة في ذكر كل ذلك، بل نضرب عنه صفحا، ولكننا نشير الى أنه قد ورد عن الحسن البصري، ومجاهد المفسر الكبير وقتادة أحد كبار المحدثين انها لم تنزل. وقالوا في تأويل قوله تعالى {إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ} . . { الى آخر الآية. إن الحواريين لما سمعوا هذا الوعيد قالوا: إننا نستغفر الله ولا نزيدها.

هذا وقد استدلل بعض الكتّاب على عدم نزولها بأن قال: إن النصارى لا يعرفونها وليس لها ذكر في كتبهم. ونحن نقول: إن كتب النصارى التي بين أيديهم كتب ناقصة، فليست هي كل ما جاء به عيسى. اما الاناجيل الاربعة المتداولة فلا تعدو كونها تراجم سيرة حياة المسيح كتبها أناس مجهولين بعد المسيح بمدة طويلة.

وقد كتبت هذه الاناجيل من الذاكرة، وهي ليست الا قصصاً منقحةً للأناجيل التي بلغ عددها فوق الخمسين انجيلاً. وقد قرر مجمع نيقية المنعقد في سنة ٣٢٥ ميلادية برئاسة الامبراطور قسطنطين البيزنطي اعتماد هذه الاناجيل الاربعة، وإعدام ما عداها. فالأمر انتقائي وافق هوى نفس الحاكم. ويعلمنا التاريخ في مثل هذه الحال ان الحاكم لا ينتقي الا ما يتفق ومصلحته في السيطرة والحكم، دون النظر الى الصدق او غيره.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة، ولا يلزم ان يكون كل ما قصّه الله تعالى في القرآن قد قصّه في غيره من الكتب المتقدمة، فليس الأمر تجميل طبعات الكتاب الواحد، كما لا يلزم ان يكون أصحاب الاناجيل المارون عدم ذكرهم لقصة المائدة دليلاً على عدم ورودها. يقول الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما يختص بنسبة القصص القرآني عامة الى كتب العهد القديم: «وإذا ورد في كتب اهل الملل او المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص، فعلياً ان نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيه ونُقل إلينا بالتواتر هو الحق، وخبره الصادق، وما خالفه هو الباطل، وناقله مخطئ او كاذب، فلا نعدّه شبهة على القرآن، ولا نكلف انفسنا الجواب عنه. فإن حال التاريخ قبل الإسلام كانت مشبهة الأعلام، حالكة الظلام، فلا رواية يوثق بها في معرفة رجال سندها. وقد انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال الى حال، فكان بداية تاريخ جديد للبشر، كان يجب عليهم لو أنصفوا أن يؤرخوا به أجمعين» .

هذا ونحن نؤمن بما قصه القرآن الكريم من ان الحواريين قد سألوا عيسى ان يُنزل عليهم الله المائدة، فسأل عيسى ربه ذلك، واجاب الله سؤاله على كيفية اقنعتهم.

لا يفوتنا هنا ان نشير الى انه قد ورد في الاناجيل خبر يشبه خبر المائدة. ففي إنجيل متى، نهاية الاصحاح الخامس عشر: «واما يسوع فدعا تلاميذه، وقال إني أشفق على الجميع، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي، وليس لهم ما يأكلون، ولست اريد ان اصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق، فقال له تلاميذه: من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يُشبع جمعاً هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمرالجموع أن يتكثوا على الأرض، وأخذ السبع خبزات والسمك وشكّر وكسّر. وأعطى تلاميذه. والتلاميذ أعطوا الجمع. فأكل الجمع وشبعوا. ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبع سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة

آلاف ما عدا النساء والأولاد». فإذا سلّمنا جدلاً، بصحة هذا الخبر وأمثاله مما ورد في الاناجيل التي كتبت بعد المسيح بأجيال، فإن خبر المائدة أحق بالتسليم وأصوب. ولماذا لا يكون هذا الخبر نفسه هو حديث المائدة، لكنّه جاء محرّفاً لأنّه كُتب من الذاكرة بعد سنين عديدة!!
قراءات

قرأ الكسائي «هل تستطيع ربك» وقرأ نافع وعاصم وابن عامر «إني منزلها» بالتشديد. والباقون «منزلها».

٥٠٦٦ 116

كان الكلام قبل هذه الآيات في تعداد النعم التي أنعم الله بها على عيسى، وفي إلهامه للحواريين بالإيمان به وبرسوله، وفي طلب الحواريين من عيسى انزال المائدة من السماء، وبقية القصة، أما فيه هذه الآيات فنحن أمام أحد مشاهد يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم الذي يكشف فيه كل شيء، على مرأى من الناس جميعاً. يومذاك يأتي جواب سيدنا عيسى الصريح بأنّه بريء من كل افتروا عليه، وأنه يفوض الأمر لله العليّ القدير.

أذكر يا النبي ما سيحدث يوم القيامة، حين يقول الله مخاطباً عيسى ابن مريم على رؤوس الأشهاد: أأنت يا عيسى قلت للناس اجعلوني أنا وأمّذ [إلهين، من دون الله؟ فيقول عيسى: سبحانك. إني أنزهك تنزيهاً تاماً عن أن يكون لك شريك، ولا يصح لي أن طلب طلباً ليس لي أدنى حق فيه. ولو كنت يا ربّي قلت ذلك لعلمته سبحانك، فأنت تعلم خفايا نفسي، ولا أعلم ميط بكل شيء، أما أنا فلا أعلم شيئاً.

وبعد تنزيه ربه، وبرئة نفسه مما نُسب إليه، بين المسؤول حقيقة ما قاله لقومه وأن ذلك لم يتعدّ تبليغ الرسالة التي كُلّف بها، وأنه أعلن عبوديته وعبوديتهم لله، ودعاهم إلى عبادته.

{ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ }

ما قلت لهم إلا ما أمرتني بتبليغه لهم. قلت لهم: اعبدوا الله وحده مالك أمري وأمركم، وانك ربي وربهم، وانني عبد من عبادك مثلهم.

{ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ }

كنت قائماً عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون ويفعلون مدة وجودي بينهم.

{ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }

فلما انتهى أجل إقامتي الذي قدرته لي بينهم، وقبضتني إليك، ظلمت انت وحدك المطلع عليهم، لأنني إما شهدت من أعمالهم ما علوه وأنا بين أظهرهم، فكل شيء غيروه بعدي لا علم لي به، وأنت تشهد على ذلك كله.

وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله تعالى توفّي عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه، فيما تفيد بعض الآثار أنّه حيّ عند الله. وليس هناك أي تعارض، فإن الله تعالى قد توفاه من حياة الأرض، لكنّه حيّ عنده، مثل بقية الشهداء. فهم يموتون في الأرض وهم عند الله أحياء. أما صورة حياتهم عند ربهم فشيء لا نعرف كيفه.

وقد جاء في إنجيل يوحنا نص صريح بأن المسيح رسول: «وهذه هي الحياة الأبدية، ان يعرفوك انت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته». فالتبديل في العقيدة والتغيير، انما حدث بعد غياب المسيح.

وقد تكلم المفسّرون والعلماء في موضوع الرفع الذي نظره واطالوا في ذلك، وقد بحث أستاذنا المرحوم الشيخ محمود شلتوت هذا الموضوع مستفيضاً في فتاواه، وخلاصه ما قال: «والمعنى ان الله توفّع عيسى ورفعته اليه وظهره من الذين كفروا.

وقد فسّر الألوسي قوله تعالى {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} بمعنى: إني مُستوفٍ أجلك ومميتك حتف أنفك لا اسلّط عليك من يقتلك، وهو كناية عن عصمته من الأعداء وما كانوا بصدده من الفتك به عليه السلام.

وظاهر أن الرفع الذي يكون بعد استيفاء الأجل هو رفع المكانة لا رفع الجسد، خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله: {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} مما يدل على أن الأمر أمرٌ تشریف وتكريم.

وقد جاء الرفع في القرآن كثير بهذا المعنى، {فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ}، {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ}، {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}، {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}، {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} . الى ان يقول وبعد، فما عيسى إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، ناصبه قومه العداء، وظهرت على وجوههم بوادر الشر النسبة إليه، فالتجأ إلى الله، فأنقذه الله بعزته وحمته وخيب مكر أعدائه. هذا هو ما تضمنته الآيات {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ} إلى آخرها، بين الله فيه قوة مكره بالنسبة الى مكرهم، وأن مكرهم في اغتيال عيسى قد ضاع اذ قال: {يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فهو يبشّره بإنجائه من مكرهم وردّ كيدهم في نحورهم، وانه سيّتوفي أجله حتى يموت من غير قتل ولا صلب، ثم يرفعه الله إليه. الخ «.

ثم ينتهي عيسى ابن مريم إلى التفويض المطلق في أمرهم إلى الله تعالى وحده:

{إِنْ تَعَذَّبْتُمْ مِنْهُمْ فَانْتَبِهْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .

ان تعذبهم بما فعلوا من تبديل وتغيير فإنهم عبادك، وتنتصرف فيهم كما تريد، وإن تعف عنهم فإنك وحدك مالك أمرهم، والقاهر الذي لا يُغلب. ومهما تدفعه من عذاب فلا دافع له من دونك، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحولك وقوتك، لأنك أنت العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم الذي يضع كل شيء موضعه.

ثم يعقب على كل هذا المشهد بقوله تعالى:

{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}

أي أن هذا اليوم هو يوم القيامة، اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم في إيمانهم، وفي سائر أقوالهم وأحوالهم.

فهؤلاء الصادقون أعدّ الله لهم جناتٍ يعجز عنها الوصف تجري من تحت أشجارها الأنهار، ثواباً من عند الله. وهم مقيمون فيها لا يخرجون منها ابداً.

قراءات:

قرأ نافع «هذا يوم «النصب، والباقون» هذا يوم «بالرفع».

وبعد أن بين ما أعدّ لأهل الصدق عنده من الجزاء الحق في مقعد صدق عند ملكٍ مقتدر، ختم هذه السورة المباركة بختام عظيم بين فيه تعالى أنه وحده له ملك السماوات والأرض وما فيهن، فهو وحده المستحق للعبادة.

{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ} . . .

أي ان الملك كله والقدرة كلها لله وحده فلا يجوز لانسان ان يتوجه الا اليه.

وقد روى الامام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن جبير بن نفير الحضرمي الشامي، (أحد المخضرمين، أسلم في زمن أبي بكر) قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت: يا جبير، تقرأ المائدة؟ قلت: نعم. فقالت: أما إنها اخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه.

والحقيقة ان سورة المائدة من اعظم السور في القرآن الكريم لما اشتملت عليه من احكام وارشادات وبيان للحقائق بعد ان استتب الأمر للمسلمين. وفيها ما يريد الى الوقت الذي نزلت فيه، والحالة التي صار إليها المسلمون في ذلك الوقت. فقد جاء فيها بعد ان فصل الله المحرمات قوله تعالى: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} تُقَرَّرُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ دَائِمًا عَلَى قَهْرِ الْمُسْلِمِينَ وَادْلَاهُمْ وَتَشْتِيهِمْ وَتَفْرِيقَ كَلِمَتِهِمْ وَفَتْنَتِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ صَارُوا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ فِي عَجْزٍ وَضَعْفٍ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْيَأْسُ فِي الْوُصُولِ إِلَى أَغْرَاضِهِمْ. وَعَلَيْهِ فَجِيبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَبَدَّلَ بَضْفَهُمْ قُوَّةً، وَبَخَوْفَهُمْ أَمْنًا، أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ رَبَّ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَأَنْ لَا يَكْتَرِثُوا فِي إِقَامَةِ دِينِهِ وَتَنْفِيزِ أَحْكَامِهِ بِأَحَدٍ سِوَاهُ. فَلَقَدْ يَتَسَّ الْمُشْرِكُونَ بِإِكْمَالِ الدِّينِ. وَإِكْمَالُ الدِّينِ يَتَنَاوَلُ إِكْمَالَهُ بِالْبَيَانِ وَالتَّشْرِيعِ، وَبِالْقُوَّةِ وَالتَّرْكِيزِ.

وقد روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إن في كتابكم آية تقرؤونها لو أنها أنزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا اليوم الذي أنزلت فيه عيداً. قال عمر: وأية آية؟ قال {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}. فقال عمر: إنِّي والله لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه والساعة التي نزلت فيها. نزلت على رسول الله عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ لَنَا عِيدًا.

وفي هذه السورة المباركة ظواهر تنفرد بها لا نكاد نجد شيئاً منها في غيرها من السور المدنية حتى في أطول سور القرآن وهي سورة البقرة. ولذلك نرى أن كل ما يدور الحديث عنه في سورة المائدة يتعلق بأمرين بارزين: تشريع للمسلمين في خاصة أنفسهم وفي معاملة من يخالطون، وإرشادات لطرق الحاجة في المزاعم التي كان يثيرها أهل الكتاب.

وفي سياق هذه الحاجة تعرض السورة لكثير من مواقف الماضين من أسلاف أهل الكتاب مع أنبيائهم، تسلياً للنبي من جهة، وتنديداً بهم عن طريق أسلافهم من جهة أخرى.

وقد اشتملت على عدة نداءات الهیة للمؤمنين، يُعتبر كل واحد منها قانوناً لشأن من الشؤون، فنأدى الله تعالى عباده المؤمنين بما شرع لهم من أحكام، وأرشد إليه من أخلاق في مواضع لم نر عددها في أطول سورة وهي البقرة، نذكرها بالترتيب:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ شَيْءًا مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ سُوؤُكُمْ. . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . . .}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ . . .}

هذه ستة عشرة نداءً وُجِّهَتْ الى المؤمنين خاصة، يعتبر كل نداء منها قانوناً ينظم ناحية من نواحي الحياة عند المسلمين بأنفسهم، وفيما يختص بعلاقتهم بأهل الكتاب.

وفيها كذلك نداءات من الله لرسوله، وليس هناك نداء له عليه الصلاة والسلام بهذا الوصف في غير هذه السورة: وهما قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ} ،

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} .

وقد وجهت نداءين الى أهل الكتاب: وهما قوله تعالى:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} ، وقوله تعالى:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرِّسَالِ} .

وأمرت الرسول الكريم ثلاث مرات ان يوجه اليهم النداء في موضوعات ثلاثة في شأن ما يثيرون به الخلاف بينه وبينهم.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ} .

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} .

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} .

هذه جملة النداءات التي وجهت الى الرسول ﷺ، والى المسلمين، والى أهل الكتاب، أو أمر النبي بتوجيهها اليهم في هذه السورة، وقد مرت كلها في اثناء الكلام عليها باختصار، ومن اراد زيادة تفصيل فليرجع الى ما كتبه في التفسير استاذنا المرحوم الشيخ شلتوت. نسأل الله تعالى ان يجعلنا ممن توجهت قلوبهم اليه، ولم يعتمدوا في قبولهم ونجاتهم الا عليه، وان يجعل ثمرة ايماننا زكاة نفوسنا، وثبات قلوبنا، وصلاح اعمالنا، وفكاك اسرارنا.

{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} . والحمد لله رب العالمين.

٦ الأنعام

٦٠١ 1

الحمد: الثناء الحق والذكر الجميل. الظلمة: الحال التي يكون عليها كل مكان لا نور فيه، والنور قسمان: حسي وهو ما يدرك بالبصر، ومعنوي وهو ما يدرك بالبصيرة.

الجعل: الانشاء والابداع كالتخلق، الا ان الجعل مختص بالإنشاء التكويني كما في هذه الآية، وبالتشريعي كما في قوله تعالى: «وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة» الآية.

ولم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمة إلا جمعاً. وذلك لأن النور واحد حتى لو تعددت مصادره، فيما تتم الظلمة بعد حجب النور واعتراضه، ومصادر ذلك كثيرة. وكذلك حال النور المعنوي، فهو شيء واحد فيما الظلمات متعددة. فالحق واحد لا يتعدد، والباطل الذي يقابله كثير. والهدى واحد، والضلال المقابل له كثير. وقُدمت الظلمات في الذكر على النور لأنها سابقة عليه في الوجود، فقد وُحِدَت مادة الكون وكانت سديماً كما يقول علماء الفلك، ثم تكونت الشمس والأجرام بما حدث فيها من الاشتعال لشدة الحركة. والى هذا يشير حديث عبد الله بن عمرو: «ان الله خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فن أصابه نوره اهتدى، ومن أخطأه

ضل» رواه احمد والترمذي. ويؤيده قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} .

ومثل ما سبق أن الظلمات المعنوية أسبق في الوجود، فان نور العلم والهداية كسي في البشر، وغير الكسي منه الوحي، وظلمات الجهل والأهواء سابقة على هذا النور {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} يعدلون: يجعلون له عديلاً مساوياً في العبادة، أيك يتخذون له أنداداً. الأجل: المدة المقدرة. يمترون: تشككون في البعث. {الحمد لله الذي خَلَقَ السماوات والأرض} .

الثناء والذكر الجليل لله، الذي خلق هذا الكون وما فيه مما نراه وما لا نراه، وأوجد الظلمات والنور لمنفعة العباد. ثم مع هذه النعم الجليلة يُشرك به الكافرون ويجعلون له شريكاً في العبادة!! بدأت سورة الأنعام هنا في آياتها الأولى، فركزت اتجاهها نحو القضايا الثلاث التي اشرنا اليها: الألوهية، الوحي والرسالة، وقضية البعث بعد الموت فقررت في اولها ما يوجب النظر في التوحيد، وأثبتت لله في سبيل ذلك استحقاق الحمد بحقيقته الشاملة لجميع أنواع صوره، واهابات بالعقول أن تلتفت الى أنه هو الذي خلق الكون بمادته وجوهرة، فلا أحد غيره يستحق شيئاً من الحمد والثناء، لأن الله هو وحده المصدر، ولا يصح في عقل أن يتجه بالعبادة والتقديس الى غيره، فما أضل أولئك الذين تنكبوا طريق العقل السليم واتخذوا له شركاء هو الذي خلقهم في جملة ما خلق.

ففي الآية الكريمة إشارة الى عظمة الخلق ووحدته، وعظمة الخلق تدل على وحدانية الخالق وجلاله: فالسماوات بنجومها وكواكبها، والأرض وما عليها من حيوان ونبات، وما في باطنها من معادن جامدة وسائل، والبحار وما يسبح فيها من لآلئ وأحياء- كلها تدل على وحدانية الخالق. وكذلك النور الواحد والظلمات المتنوعة، كظلمة الصخر والبحر والكهف والضباب المتكاثف. . . . كل هذا يدل على ابداع الخالق. {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ} .

هو الذي بدأ خلقكم من طين هذه الأرض، ثم قدر لحياة كل واحد منكم زمناً ينتهي بموته، واجلاً مسمى عنده. وهذا يعني ان الله تعالى قضى لعباده أجلين: أجلاً لحياة الفرد قبل مماته، وأجلاً آخر محدداً عنده تعالى لبعث جميع الناس بعد النقضاء عمر الدنيا. ثم أنتم ايها لاكافرون بعد هذا تجادلون في قدرة الله على البعث! ما دام الله هو الذي خلق الإنسان من طين، وسخر له ما في الأرض والسماوات ينتفع بما فيها، فكيف يشك اي إنسان في ان له حياة اخرى!! {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} .

هو وحده المستحق للعبادة في السماوات وفي الأرض، يعلم ما أخفيتموه وما أظهرتموه، ويعلم ما تكسبون من الخير والشر فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به.

تقرر هذه الآية الكريمة خاصة الألوهية من العلم الشامل وعموم القدرة، وهما الاساسان في فهم الحق بالنسبة الى الألوهية، وبالنسبة الى البعث والجزاء، وبالنسبة الى الوحي والرسالة.

٦.٢ 4

الآية: العلامة والعبرة والحجة، ومن القرآن جملة او جمل. الاعراض: التولي عن الشيء. الحق: دين الله الذي جاء به خاتم رسله. الإنباء: الإخبار الذي جاء به القرآن الكريم من وعد ووعد القرن: القوم المقترنون في زمن واحد، جمعه قرون. مكّاهم في الارض: جعلناهم يتصرفون فيها. ارسلنا عليهم السماء مدراراً: امطرنا عليهم مطراً غزيراً.

بعد أن أرشد سبحانه وتعالى في الآيات السالفة الى دلائل وحدانيته، وذكر انها على شدة وضوحها لم تنفع المشركين من أن يتجاهلون ذلك

كله- جاءت هذه الآية تقرر أن الله آياتٍ يبعث بها أنبياءه إلى خلقه، وهي آيات الشرائع والاحكام، وآيات الخلق والانتقان. لكن الناس مع وضوح هذه الآيات تأخذهم فتنه الحياة، فيعرضون ويكذبون. ثم توعدهم ربهم على إعراضهم ذلك وأنذرهم عاقبة التكذيب بالحق، ووجه أنظارهم الى ما حل بالأمم التي قبلهم لعلم يراعون.

{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} .

ولا تنزل عليهم آية من تلك الآيات الناطقة بتفصيل بدائع صنع الله إلا أعرضوا عنها استهزاءً وتكذيباً.

ولما بين تعالى أن شأنهم الإعراض عن الآيات قال: {فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} أي أنه بسبب من ذلك الإعراض عن النظر في الآيات كذبوا بالحق الذي جاءهم به النبي عليه السلام، ولم يتأملوا ما فيه.

ثم هددهم وتوعدهم على تكذيب فقال: {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي ان عاقبة لا تكذيب أن تحل بهم العقوبات العاجلة، من نصر رسوله وأصحابه، وإظهار دينه على الدين كله. وقد حقق ذلك، وتم فتح مكة والنصر لدين الله.

وبعد ان توعدهم سبحانه بنزول العذاب بهم بين أن مما جرت به سنته في المكذبين قبلهم ليتعظوا فقال:

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ مَّكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَّكَمْ؟}

ألم يعلموا أننا أهلكنا أئماً كثيرة قبلهم، أعطيناهم من أسباب القوة والبقاء في الأرض ووسعنا عليهم في الرزق والنعيم ما لم نعطيكم مثله أيها الكافرون.

ولما لم يشكروا هذه النعم، أهلكناهم بسبب شركهم وكثرة ذنوبهم {وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} أي أوجدنا أناساً غيرهم خيراً منهم. وفي هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم، قبالة ضعف أصحاب النبي ﷺ وفقرهم في ذلك الوقت. كما حكي الله عنهم في قوله: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ} [سبأ: ٣٥] .

٦٠٣ 7

الكتاب: الصحيفة المكتوبة، ومجموعة الصحف في موضوع واحد. القرطاس: الورق الذي يكتب فيه. اللبس: مس الشيء باليد، وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء، يقال: لمسه والتمسه وتلبسه. السحر: خداع وتمويه يري ما لا حقيقة له في صورة الحقائق لقضي الأمر: لم هلاكهم. لا ينظرون: لا يمهلون. اللبس: الستر والتغطية.

بعد أن أرشد سبحانه في الآيات المتقدمة إلى ما دعا اليه الرسول الكريم من التوحيد والبعث، ثم ذكر أن قريشا نعت إلى التكذيب، وأنذرهم عاقبة ذلك طالباً اليهم أن يتعظوا من أمم غابرة- أورد هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحي وبعثة الرسول ﷺ منها لجوؤهم الى رمي الحديث بالسحر. وتفسير الآية:

ولو أنزلنا عليك أيها النبي هذا القرآن مكتوباً في ورق ظاهر، كدليل على رسالتك، قرأوا بأعينهم وتأكدوا منه بلمسه بأيديهم لقالوا: ما هذا الذي رأيناه ولمسناه إلا سحر واضح ظاهر.

وكان كفار قريش وزعمائهم يتعنون كثيراً ويطلبون من الرسول الكريم أشياء للتعجيز، وكان النبي يعجب من كفر قومه به وبما أنزل عليه، رغم وضوح برهانه - فبين الله تعالى أسباب ذلك، وان هذا قديم في طباع البشر وأخلاقهم.

وكان من تعنت قريش أنهم اقترحوا ان يُنزل على الرسول ملك من السماء يسمعون كلامه ويرونه، ويكون معه رسالته من ربه. وقد رد الله تعالى الاقتراحين بقوله تعالى:

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ}

قالوا: نطلب ان ينزل الله عليه ملكاً يصدق، ولو أنزلنا كما اقترحوا لقضي الأمر بإهلاكهم ثم لا يؤخرون ساعة. ولو جعل الرسول ملكاً

لجعل متمثلاً في صورة بشر، وذلك ليستطيعوا رؤيته، وسماع كلامه فالملائكة ارواح لطيفة لا ترى، ولا يمكن ان يظهروا للعيان الا في صورة جسم بشري. ولو جاءهم ملك في صورة بشر لاعتقدوا انه بشر مثلهم، وحينئذ يقعون في اللبس والخطأ الذي يتخبطون فيه الآن.

وقد ذكر الإمام البخاري في تفسير «قضاء الأمر» عدة وجوه:

- ١- ان سنة الله قد جرت بأن أقوام الرسل إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها بعد أن جاءتهم - عذبهم الله عذاب الاستئصال. والله لا يريد ان يستأصل هذه الأمة التي بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} .
- ٢- انهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية لماتوا من هول ما يشاهدون.
- ٣- انهم اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان، فلو أعطوه ولم يجد ذلك معهم نفعاً - دل ذلك على منتهى العناد الذي يستدعي الاهلاك وعدم الإمهال. . .

٦٠٤ 10

الاستهزاء والهزؤ: السخرية والاحتقار. حاق به المركوه: احط به. بعد ان ذكر سبحانه مقترحات كفار قريش السخيفة وتعنتهم، وخفف عن الرسول ما يلاقيه منهم من سوء الأدب- بين له انه ليس اول رسول يلاقي ما يلاقيه. . فان كثيراً من الرسل قبله لاقوا من أقوامهم مثل ما لاقى بل أشد ثم أمر هؤلاء المكذبين أن يسيروا في الأرض ليروا كيف كانت عاقبة الذين كذبوا أنبياءه من قبلهم.

والتفسير: لقد استهزأ الكفار برسل كرام قبلك، فأحاط بالساخرين العذاب الذي أنذرهم به رسلهم جزاء على سوء صنيعهم. وفي الآية تسليية للرسول الكريم عن إيذاء قومه له، وتعليم له بسنن الله في الأمم مع رسلهم، وبشارة له بحسن العاقبة، وما سيحل بالمستهزئين من الخزي والنكال. كذلك فيها تحذ لهم: قل يا محمد للمستهزئين بل من قومك: سيروا في الأرض، وتأملوا كيف كان الهلاك نهاية المكذبين لرسلهم، وكيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم، ثم اعتبروا انتم بهذه النهاية، وذلك المصير.

٦٠٥ 12

كتب على نفسه الرحمة: أوجب على نفسه ايجاب فضل وكرم. سكن: من السكون، ضد الحركة، الولي: الناصر ومثولي الأمر. فاطر السموات والارض: بمدعها على غير مثال. وهو يطعم ولا يطعم: هو الرزاق ليغره ولا يرزقه احد. يصرف عنه: يبعد عنه. في الآيات السابقة ذكر الله تعالى أصول الدين الثلاثة: التوحيد، والبعث والجزاء، ورسالة محمد، ثم ذك شهادت الكافرين الجاحدين وبين ما يدحضها، ثم أرشد الى سننه تعالى في اقوام الرسل المكذبين وعاقبتهم. وهنا يرد ذكر هذه الاصول الثلاثة بأسلوب آخر: أسلوب السؤال والجواب. ويسير هذا الأسلوب في طريقتين بارزتين لاتكاد نجد هما بهذه الكثرة في غير هذه السورة. فهي تورد الأدلة المتعلقة بتوحيد الله، وتفرد به بالملك والقدرة في صورة الشأن المسلم بالتقرير الذي لا يقبل الإنكار او الجدل {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} هذا الأسلوب. أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب التلقين: تلقين الحجة والأمر بقذفها في وجه الخصم حتى تحيط به من جميع جوانبه فلا يستطيع التفلت منها، ولا يجد بداً من الاستسلام لها. ففي حجج التوحيد والقدرة:

{قُلْ لِّمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ}

{قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلْحَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. . . الآية} .

{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} .

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .
{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}

وفي حجج الوحي وبيان مهمة الرسول، وأن الرسالة لا تنافي البشرية، وفي إيمان الرسول بدعوته، واعتماده على الله، وعدم اكترائه بهم، او انتظار الأجر منهم:

{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} .
{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ} إلى آيات كثيرة.
وفي وعيدهم على التكذيب:

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ} .
{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} .
{قُلْ يَأْقُومُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} .
{قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} .

وفي الرد عليهم في التحليل والتحریم من دون الله وتفنيد شبهتهم في الشرك وآثاره، وفي بيان ما حرم خاصة في الطعام، وعامة في نظام الله:

{قُلْ لِلَّهِ الذِّكْرُ حَرَمٌ أَمِ الْأَنْثَيْنِ} .
{قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَلَايَةً} . .
{قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟} .
{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ} .

هذان الاسلوبان قد تناوبا معظم ما تضمنته هذه السورة العظيمة، والقرآن كله عظيم .

ويدل الاسلوبان على انهما صدرا في موقف واحد، وفي مقصد واحد، ولخصم واحد بلغ من الشدة والعتو مبلغاً استدعى من الله تزويد الرسول بعدة وقية تتضافر في جملة شديدة يقذف بها في معسكر الاعداء، فتزلزل عمدته، وتهده من بنيانه، فيخضع بالتسليم للحق.

{قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟} .

قل ايها الرسول لقومك الجاحدين لرسالتك، المعرضين عن عدوتك: من هو مالك السماوات والأرض ومن فيهن؟ فان اجموا ولم يجيبوا، فقل الجواب الذي لا جواب غيره: إن مالكها هو الله وحده لا شريك له. لقد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه، فلا يجعل في عقوبتهم وانما يقبل توبتهم. ومن مقتضى هذه الرحمة ان يجمعكم الى يوم القيامة.

{الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} .

والذين ضيعوا أنفسهم، وعرضوها للعذاب في هذا اليوم هم الذين لا يؤمنوا بالله، ولم يصدقوا رسوله، ولا بيوم الحساب.

{وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} .

فله ما في السماوات والأرض، وله كل ما فيهن من ساكن ومتحرك في كل مكان وزمان، وهو السميع المحيط علمه بكل شيء.

{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا؟ أَلَايَةً} . .

قل أيها النبي، أنا لا اتخذ غير الله إلهاً وناصراً، وهو وحده منشئ السماوات والأرض على نظام لم يسبق اليه. روى عن ابن عباس انه قال: ما عرفت معي فاطر السماوات والارض، حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر، فقال احدهما: أنا فطرتها، اي ابتدعتها.

وهو الرزاق لعباده طعامهم، ولي هو بحاجة الى من يرزقه ويطعمه. قل لهم يا محمد: بعد ان استبانت لكم الأدلة وجوب عبادة الله وحده، فأنا أبلغكم أنني قد أمرني ربي ان اكون أول من أسلم اليه، ونهاني عن ان اشرك معه غيره في العبادة. ذلك أني أخاف إن خالفتُ أمر ربي وعصيته، عذاب يوم يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم على اعمالهم ويجازيهم بما يستحقون. إنه يوم شديد عند ذلك، فمن صرف عنه العذاب ونجا من العقوبة، فقد رحمه الله، فدخل الجنة، وفاز عظيماً.

٦.٦ 17

المس: أعم من اللبس، يقال مسه سوء او الكبر او العذاب او التعب، أصابه.
الضر: الألم والحزن والخوف، القاهر: الغالب. الشهيد: الشاهد عن علم ويقين. الانذار: التخويف.
قعد أن بين سبحانه وتعالى ان صرف العذاب والفوز بالنعيم هو من رحمته تعالى في الآخرة- بين هنا ان الامر كذلك في الدنيا، وان التصرف فيها له وحده.
{وَأَن يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} .

إن يُصَبِّكَ الله بأي نوع نم الألم والسوء والحزن وغيره فلا صارف يصرفه عنك الا الله وان يمنحك خيراً كصحة وغنى وقوة وجاه فلا راد لفضله، وهو القادر على حفظه عليك، لأن التقدير على كل شيء.
وبعد ان اثبت الله تعالى لنفسه كمال القدرة، اثبت لها كمال السلطان والقوة، مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الامور، فقال:
{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} .

وهو لغالِب بقدرته، المتسلي على عباده، المتصف بالحكمة في كل ما يفعل، هو المحيط علمه بما ظهر واستتر، والخبير بمصالح الاشياء، ومضارها، لا تخفى عليه خوافي الامور.
{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} .

قل ايها النبي لمن يطلبون شهادة على رسالتك: أي شيء أعظم شهادة وأحق التصديق؟ قل: ان الله اعظم شاهد بيني وبينكم على صدق ما جئتكم به، وقد أنزل عليّ هذا القرآن ليكون حجة لصدقي، لأحذركم به أنتم وكل من بلغه خبره.
واسألهم: أنتم الذين تقولون، معتقدين، إن مع الله آلهة غيره؟ ثم لهم: لا أشهد بذلك، ولا أقرم عليه، وانما المعبود بحق إله واحد هو الله ربي وربكم، وأنا بريء مما تشركون به من الأصنام والأوثان.

٦.٧ 20

افترى: كذب. تزعمون: تظنون، واكثر ما يستعمل الزعم فيما هو باطل. ضل: غاب، وخفي.
بين الله تعالى في الآية السابقة ان شهادة الله على صحة نبوة رسوله كافية في تحققها، وذكر كذب أهل الكتاب في ادعائهم أنهم لا يعرفون محمداً ﷺ، فأورد أنهم يعرفون نبوته كما يعرفون ابناءهم. وقد روي أن كفار قريش أرسلوا ليهود وسألوهم عن صفة النبي هل جاء في كتبهم عنا شيء، فأذكروا أن في التوراة والانجيل شيئاً من ذلك وقد كذبوا في ذاك، إن صفته في كتبهم واضحة ظاهرة.
{الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} .

فهؤلاء قد ضيعوا أنفسهم لأنهم كذبوا، لوم يقرّوا بما عرفون، بل أصرّوا على إنكارهم الحقائق. وليس هناك من هو أشد ظلماً ممن افترى على الله كذباً، كمن زعم ان له ولداً أو شريكاً، ولا ممن كذب بآياته المنزلة على أنبيائه السابقين وأنكرها.
{وَيَوْمَ نُحْشِرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِن شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ؟} .

اذكر لهم ايها الرسول ما سيحصل لهم يوم نجمع الخلق كلهم للحساب، ثم نقول للذين عبدوا مع الله غيره: أين الذين جعلتموهم شركاء لله، وزعمتم في الدنيا أنهم اولياؤكم من دونه؟
 {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} .

لن تكون نتيجة محنتهم الشديدة في هذا الموقف الحرج الا محاولة التخلص من شركهم السابق بالكذب، قائلين ما أشركنا في العبادة احدا.
 {انظر كيف كذبوا على أنفسهم} .

انظر كيف سيغالطون انفسهم بهذا الكذب، كيف غاب ما كانوا يختلفونه من عبادة الاحجار، ويزعمونها شركاء لله.
 قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «ثم لم يكن» بالياء والباقون «لم تكون» بالتاء. وقرأ بن كثير وابن عامر وحفص «فتنتهم» بالرفع، والباقون «فتنتهم» بنصب التاء. وقرأ حمزة وخلف والكسائي «والله ربنا» بنصب الباء، والباقون بكسرها.

٦٠٨ 25

الأكنة: الأغطية مفردها كان. الوقر: الثقل في السمع، الصمم. الأساطير: مفردها أسطورة هنا ما يوجب اليأس من ايمان بعضهم مهمات توات الآيات والندر.

ومنهم من يستمع اليك حين تلتو القرآن، لا يلتفهموه وليتدوا به، وانما ليتلمسوا سبيلا للطعن فيه والسخرية منه. لذا فقد حرمانهم من الانتفاع بعقولهم وأسماعهم، فباتوا وكأن عقولهم عليها أغطية تحجب عنهم الادراك الصحيح، وكأن في آذانهم صمماً يحول دون سماع الآيات على صحة نبوتك وحتى لو رأوا كل دليل فإنهم لن يؤمنوا. وسيظلون اذا جاءوك ليجادلوك بالباطل، قالوا مدفوعين بكفرهم: ما هذا الاخراقات عن الأولين.

{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} .

وهم ينهون الناس عن الإيمان بالقرآن، ويتعدون عنه بانفهم، فلا ينتفعون ولا يدعون غيرهم ينتفع به.

{وَأِنْ يُّهْلِكُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} .

الواقع انهم لا يضررون بذلك الا أنفسهم، وما يشعرون بقبح ما يفعلون.

روى ابن عباس: قال حضر عند النبي ﷺ أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر ابن الحارث، والحارث بن عامر، وأبو جهل. . . . في جمع من كفار قريش، واستمعوا النبي وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة، ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعل الكعبة بيته ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يحرك شفثيه ويتكلم بأساطير الأولى مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية (وكان النضر كثير الحديث عن القرون الاولى) قال ابو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقاً. فقال ابو جهل: طلا فأنزل الله الآية. . . . وهناك روايات اخرى.

٦٠٩ 27

وقفوا على النار: اطلعوا عليها وعرفوها.

يبين الله تعالى هنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وبعض ما يكون من أمر الكفار عندما يُعرضون على النار ويشاهدون هولها، عند ذاك ينتمون ان يعودوا الى الدنيا ليعملوا صالح الاعمال. وقد كذبهم الله فيهما يقولون من أمر ذلك.

ولو ترى ايها النبي، هؤلاء الكفار وهم واقفون على النار يعانون احوالها لرأيت أماراً غريباً رهيباً، إذا يتمنون الرجوع الى الدنيا، ويقولون ياليتنا نردّ إليها نردّ إليها لنُصلح أعمالنا، ونكون من المؤمنين.

لكن قولهم هذا ليس إلا رهمة وتخلصاً، فقد جاء بعد أن ظهر لهم ما لا يمكن اخفائه والمكابرة فيه. ولو رُدوا الى الدنيا كما يتمنون، لعادوا للكفر الذي نهاهم الله عنه، اغتراراً منهم بزخرفها وإطاعة لأهوائهم. انهم لكاذبون في دعواهم الايمان اذا ردوا الى الدنيا، فلو أُعيدوا الى الدنيا لقالوا: ليس لنا حياة إلا هذه، وما نحن بمبعوثين بعد ذلك.

قراءات:

قرأ حمزة ويعقوب وحفص «لا نكذب بآيات ربنا ونكون» بالصب فيها والباقون بالرفع. وقرأ ابن عامر «ونكون» بنصب النون.

٦٠١٠ 30

الساعة: الزمن المعين، والمراد به هنا يوم القيامة. بغتة فجأة. الحسرة: الغم والندم على ما فات. فرطن: قصرنا الأوزار: جمع وزر وهو الحمل الثقيل، ومعناه هنا الإثم والذنب يبين الله هنا حال الكفار حين ينكشف لهم كل شيء يوم القيامة، ويجدون انفسهم في موقف حرج، فيتحسرون ويندمون على تفريطهم السابق في الدنيا، وغرورهم بمتاعها الزائل.

{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ . . .} ولو ترى يا محمد هؤلاء الظالمين المكذبين حين يقفون للحساب امام ربهم، ويعرفون صدق ما أنزله على رسله لرأيت سوء حالهم اذ يقول اله لهم: أليس هذا تشاهدونه الآن هو الحق الذي أنكروتموه في دنياكم؟ فيقولون متذللين: بلى وربنا إنه الحق فيقول الله لهم بعد ذلك: ادخلوا النار بسبب ما كنتم حريصين عليه من الكفر.

يومذاك يكون الذي انكروا لقاء الله للحساب والجزاء يوم القيامة قد خسروا كل شيء. . . حتى اذا فاجأتهم مشاهد يوم القيامة وهولها ندموا وقالوا: يا سحرتنا على إهمالنا اتباع الحق وما فرطنا في الدنيا. إنهم هم يتحملون ذنوبهم ويرزحون تحت اعبائها، وما أسوأ تلك الاثقال!

الحق أقول لكم: ليست هذه الحياة الدنيا التي حسب الكفار أنه لا حياة غيرها إلا لهواً ولعباً لا نفع فيه، أما الدار الآخرة فهي الحياة الحقيقية. إن نعيم الآخرة هو أنفع للذين يخافون الله فيمتثلون أمره فلا تعقلون هذا الأمر الواضح، وتفهمون ما يضركم ولا ينفعكم؟ .

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب «تعقلون» بالتاء والباقون «يعقلون» بالياء.

٦٠١١ 33

الجمود والجمد: الانكار، وعدم الاعتراف بالحق. كلمات الله: وعده ووعيده النبأ: الخبر ذو الشأن العظيم كبر الامر: عظم، وشق وقعه. الاعراض: لاتولي والانصراف عن الشيء رغبة عنه، او احتقاراً له. الاتبعاء: طلب ما في طلبه مشقة. النفق: سرب في الارض له مدخل ومخرج السلم: المرقاة، مأخوذة من السلامة لأنه الذي يُسلمك إلى المكان الذي تريد الجهل: ضد العلم ويُدَم الانسان بجهل ما يجب عليه عليه.

{قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ} .

اننا نعلم بتكذيبهم لرسالتك وحزنك واسفك عليهم، فلا تحزن من ذلك، فان منشأ هذا التكذيب هو العناد والجمود.

{فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} .

إن الحقيقة أنهم لا يتهمونك يا محمد بالكذب، ولكنهم يظلمون أنفسهم مكابرة في الحق وعناداً له، فينكرون بألسنتهم دلائل صدقك، وعلامات نوبتك.

هناك روايات كثيرة وردت عن إقرار بعض زعماء قريش بصدق النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن سرّاً بينهم. فقد روى ابن جرير عن السدي أن الأخنس ابن شريق وأبا جهل التقياء، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم اخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فانه ليس ها هنا أحد يجمع كلامك غيري. قال ابو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن اذا ذهب بنو قومه بالواء والسقاية والحجابه والندوة النبوة فاذا يكون لسائر قريش؟! والزعامة الدنيوية والمصلحة هنا هما أساس إعراض أبي الحكم، كما ترى.

وروى سفيان الثوري عن عليّ كرم الله وجهه قال: قال ابو جهل للنبي ﷺ: إِنَّا لَا نَكْذِبُكَ وَلَكِنْ نَكْذِبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ. فهم يعلمون حق العلم ان الرسول صادق، وقد جربوه منذ نشأته وعرفوه، لكن خوفهم على مراكزهم جعلهم يصرون على الكفر والمجود.

{وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} .

لقد قبل رسل قبلك يا محمد بالكذب والإيذاء من اقوامهم كما تجد أنت الآن من قومك، فصبروا حتى نصرناهم، فاصبر أنت مثلهم. {وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ} .

اصبر وسيأتيك نصرنا، فلا مغير لوعده الله بنصر الصابرين.

{وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ} .

لقد قصصنا عليك من أخبار هؤلاء الرسل وتأيدنا لهم، ما فيه تسلية لك، ويقتضيه توجيه الرسالة نم تحمل الشدائد.

{وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ . الْآيَةُ} .

ان كان قد شق عليك انصرافهم عن دعوتك، فإن استطعت أن تتخذ طريقا في باطن الأرض، أو سلما تصعد به الى السماء، فتأتيهم بدليل على صدقك- فافعل. ليس في قدرتك ذلك يا محمد، فأرح نفسك واصبر لحكم الله. ولو شاء الله هدايتهم لحلهم جميعاً على الإيمان بما جئت به قسراً وقهراً. لكنه تركهم لاختبارهم، فلا تكون من الذين لا يعلمون حكم اله وسنته في الخلق. قراءات:

قرأ نافع والكسائي «لا يَكْذِبُونَكَ» من الكذب والباقون «يَكْذِبُونَكَ» وقرئ «لِيُحْزِنَكَ» .

٦٠١٢ 36

استجاب: أطاع في ما دُعي إليه، وأجاب الداعي واستجاب له: لباه وقام بما دعاه اليها. والاستجابة من الله يعبر بها في الأمور التي تقع في المستقبل. استجاب الله فلاناً، ومنه، وله- قبل دعاءه وقضى حاجته الموتى: هنا الكفار يبعثهم الله: يحييهم.

بعد أن بين الله تعالى أن حكمته اقتضت أن يكون البشر متقاوتفين في الاستعداد مختارين في ترفاتهم اعمالهم، فمنهم من يختارون الهدى ومنهم من يختارون الضلال- بين هنا أن الأولين هم الذين ينظرون في الآيات ويفقهون ما يسمعون، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون، فهم والاموات سواء.

{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} .

إنما يجب دعوة الحق مقبلين عليه، أولئك الذين يسمعون كلام الله سماع فهم وتدبر، أما الذين لا تُرجى استجابتهم فإنهم لا يسمعون السماع النافع، ولا تنفعون بدعوتك، لأنهم في حكم الاموات، يُترك أمرهم الى الله، فهو سبعثهم يوم القيامة من القبور، ويرجعهم اليه فيجاسبهم على ما فعلوا.

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} .

ذكر شيئا من تعنتهم وعنادهم الدال على عظيم جحودهم. إذا قالوا: إننا نطلب ان تُنزل آية معجزة على محمد كدليل مادي من ربه تشهد بصدق دعوته.

{قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} .

قل لهم ايها الرسول: إن الله قادر على ان ينزل اي دليل تفترحونه، ولكن أكثرهم لا تعلمون حكمة الله في إنزال الآيات. انها ليست تابعة لأهوائكم، ولو أجاب مقترحاتكم ثم كذبتكم بعد ذلك لاهلككم، لكم اكثركم لا يعلمون نتائج أعمالهم.

الدابة: كل ما يدب على الأرض من الحيوان. الطائر كل ذي جناح الأمم: واحدها أمة: وهي كل جماعة يجمعهم امر واحد، كزمان أو مكان، أو صفات أو مصالح التقريب: التقصر. الكتاب: اللوح المحفوظ يحشرون: يجمعون. بعد ان بين سبحانه وتعالى انه قادر على انزال الآيات اذا رأى من الحكمة والمصلحة انزالها- ذكرهنا ما هو كالدليل على ذلك، فأرشد الى عموم قدرته وشمول علمه وتديره في ما اوجد من مخلوقات على الأرض، أو في الفضاء. ان أقوى دليل على قدرة الله وحكمته، أنه خلق كل شيء، وليس من حيوان يدب في ظاهر الأرض وباطنها، او طائر يسبح في الهواء- الا خلقها الله جماعات تماثلكم أيها البشر، وجعل لها خصائصها ومميزاتها ونظام حياتها. إنه لم يترك في الكتاب المحفوظ شيئاً إلا ذكره. وان كانوا قد كذبوا، فسوف يحشرون مع كل الامم للحساب يوم القيامة.

{والذين كَذَّبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظلمات. . .} .

والذين لم يصدّقوا بآياتنا الواضحة الدالة على قدرتنا، لم ينتفعوا بحواسهم من معرفة الحق فتخبّطوا في ضلال الشرك ولعنات تحبّط الأسم والابكم في الظلمات الحالكة: ظلمة الوثنية، وظلمة الجاهلية، والكفر، والجحود. وهؤلاء لا نجاه لهم من الهلاك. ولو كان لديهم أي استعداد للخير لوفّقهم الله اليه. فانه سبحانه إذا أراد إضلال إنسان لفساد قصده، تركه وشأنه. وإذا أراد هدايته لسلامة قصده، يسهّر له السير في طريق الايمان الواضح المستقيم.

وهذه الآية الكريمة وامثالها ترشدنا الى البحث في طباع الأحياء لنزاداد علماً بسنن الله وأسراره في خلقه، ونزداد بآياته إيماناً، ونعتبر بحال من لم يستفيدوا مما فضلهم الله به على الحيوان، وهو بالعقل، ومما جاء به الرسول الكريم من هدى وارشاد، وهو القرآن.

أرأيتم: أخبروني، وهو أسلوب يذكر للتعجب والتنبيه الى أن ما يذكر بعده غريب عجيب. يكشف: يزيل ما تدعونه الى كشفه البأساء: المشقة، والعذاب الشديد. الضراء: الضر ضد النفع يتضرعون: يظهرون الخضوع بتكلف. مبلّسون: متحسرون، يائسون من النجاة. دابر القوم: آخرهم.

بعد أن بين الله تعالى للمشرّكين أن علمه محيد بالكون كله، وعنايته تعم كل ما فيه، وأن أمم الحيوان، كأمم الانسان، قد اوتيت نعم الإلهام والغريزة ما تميز به بين ما ينفعها وما يضرها- أمر نبيه الكريم ان يوجه الى الكفار هذا السؤال، ليعلموا ان ماتقلّدوه من الشرك عارض يُفسد أذهانهم وقت الرخاء، حتى اذا جد الجد ونزل بهم مكروه دعوا الله مخلصين عار يُفسد أذهانهم وقت الرخاء، حتى اذا جد الجد ونزل بهم مكروه دعوا الله مخلصين له الدين. والسؤال هو: أخبروني أيها المكذّبون إن اتاكم عذاب كالذي نزل بمن قبلكم، او جاءكم القيامة بأهلواها، الى من تتجهون؟! الغير اله تضرعون أن يكشف ما نزل بكم من البلاء؟ إن كنتم صادقين في عبادتكم لغير الله فيجب ان تتجهوا إليهم.

{بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ} .

الواقع أنكم لا تتجهون إلا اليه، تدعونه ان يكشف عنكم البلاء ان شاء. إنكم في حال الشدة تنسون كل ما تجعلونه شركاء لله، فلماذا تفتنون لهم في الرخاء!!

وقد بين الله في اكثر من آية أن المشرّكين ينسون آلهتهم المزيّفة عند الشدة والضعف، مثل قوله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [الروم: ٦٥] .

ثم بين أن من سنّته تعالى أخذ عباده بالشدائد لعلهم يثوبون الى رشدهم، فقال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ

والضراء لعلهم يتضرعون .

فلا يشق عليك أيها الرسول ما تلاقيه من قومك . . لقد بعثنا قبلك رسلاً إلى أمم كثيرة قبل أمتك فكذبوهم، فعاقبناهم لعلهم يرجعون إلى الله .

لكن كثيراً من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيرها بأس ولا يحولها بؤس فلا تجدي معهم العبر والمواعظ، ومنهم تلك الأمم الذين أرسل إليهم أولئك الانبياء .

ولا تذهب بعيداً، وحالنا نحن العرب شاهد ودليل . . . لقد نزل بنا أكبر الشدائد وهاجنا في ديارنا الأمم الناس وأخبثهم، بل أخذوا قسماً عزيزاً من بلادنا، ومع ذلك لم نتعظ ولم نغير من حالنا شيئاً. إننا لا زلنا سادرين في غرورنا، نتفاخر بماضينا، غافلين عن دونا الحاضر، ويقتل بعضنا بعضاً طمعاً في مناصب فصلها لهم عدُّ الأمة وخصيم الاسلام . . لم نرجع إلى ديننا، ولم نتضرع إلى ربنا، بل تضرعنا إلى أعدائنا الألداء في أمريكا وأوروبا، نطلب منهم النصر، غافلين متعمدين عن أن النصر من عند الله ومن عند انفسنا. {فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون} .

هلاً تضرعوا إلينا خاشعين تائبين قبل أن جاءتهم مقدمات العاب. إنهم لم يفعلوا، واستمرت قلوبهم على قسوتها، وزين لهم الشيطان ما هم عليه من الشرك والفجور.

{فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء} .

فلما أعرضوا عن الاعتاظ بما ابتليناهم من الفقر والمرض وأصرّوا على كفرهم، ابتليناهم بعد ذلك بالرزق الوسع، وفتحنا عليهم ابواب رخاء العيش وصحة الانجم والأمن على النفس، حتى إذا فرحوا بكل ذلك ولم يشكروا الله عليه، جاءهم العذاب بغتة، فإذا هم متحسرون يأسون من النجاة لا يجدون إليها سبيلاً.

والخلاصة أن الله تعالى سلط عليهم المكاره والشدائد ليعتبروا ويتعظوا، فلما تجدد معهم شيئاً نقلهم إلى حال هي ضدّها، ففتح عليهم أبواباً الخيرات، وسهل لهم سبل الرزق والرخاء فلم ينتفعوا به ايضاً. عند ذاك أذاقهم جزاءهم العادل.

وروى مسلم عن صهيب عن النبي انه قال: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس لك لأحد الا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»

{فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} .

لقد هلك أولئك القوم الظالمون وأيدوا عن آخرهم.

والحمد . . . هنا ارشاد منا لله لعباده بتذكيرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وإيماء إلى وجوب ذكره في عاقبة كل أمر وخاتمة كل عمل، {وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين} .

قراءات:

قرأ نافع أرايتكم بتسهيل همزة، وقرأ الكسائي: أرايتكم بحذف همزة. والباقون «أرايتكم» بتحقيق همزة وحزة يسهل همزة بالوقف.

٦٠١٥ 46

نصرّف الآيات: نكررها على وجوه مختلفة. يصدفون: يعرضون. يمسهم العذاب: يصيبهم.

قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بك وما جئت به من الهدى والحق: أخبروني ماذا يكون من أمركم مع آلهتكم الذين تدعونهم من دون الله إن أصمكم الله فذهب بسمعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، ثم طبع على قلوبكم بما يحجبها عن الإدراك . . من غير الله تعالى تأيتكم بكل ما أخذ منكم؟ أنظر أيها النبي كيف تتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال على وجوه شتى ليعتبروا ويعودوا عن كفرهم، ولكنهم مع كل هذه البراهين يصرون على عنادهم وكفرهم.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ} .

وهذا تهديد. قل لهم أيها الرسول: أخبروني إن حل بكم عذاب الله فجأة دون توقع، أو جاءكم عياناً وأنتم تنظرون إليه، فمن الخاسر عند ذلك إلا الذين ظلموا أنفسهم بالإصرار على الشرك والضلال؟ .

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} .

وهذه وظيفة الرسل. وما نرسل الأنبياء إلا ليمشروا من يؤمن بالخير والثواب، وليحذروا من يكفر من العذاب. {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ولا حاجة الى تفسير.

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} .

أما الذين كذبوا بآياتنا الواضحة على صدق ما جاء به الرسل، فإن لهم العذاب جزاءً خروجهم عن الطاعة وعدم الإيمان. قراءات:

أرأيتم، وأرأيتم، مثل ما تقدم، نافع يسهل الهمزة، والكسائي يحذفها، وحمزة يسهلها بالوقف، والباقون يثبتونها «أرأيتم» كما هي هنا في المصحف.

٦٠١٦ 50

الخزائن: واحدها خزانة، ما يُخزن فيه ما يراد حفظه ومنع التصرف فيه. الغيب: ما غيَّبَ عنه عن الناس. الاعمى والبصير: المراد به هنا الضال والمهتدي.

كان الكلام في الآيات السالفة في بيان اركان الدين واصل العقائد ووظيفة الرسل، والجزاء، على الاعمال يوم الحساب، وهنا يبين لنا وظيفة الرسل العامة. قل ايها الرسول لهؤلاء الكفار المعاندين: أنا لا أقول لكم عندي خزائن الله فأعلم التصرف في أرزاق العباد، وشئون المخلوقات. كلا، ان التصرف المطلق من شأن الله وحده. وليس موضوع الرسالة ان يكون الرسول قادراً على ما لا يقدر عليه البشر، كتفجير الينابيع والأنهار في مكة، وإيجاد الجنات والبساتين، والإتيان بالله والملائكة وغير ذلك من التعجيز. وكان المشركون قد جعلوا ذلك شرطاً للإيمان بالرسول.

كذلك لا أدعي علم الغيب الذي لم يطلعني الله عليه، ولا أقول إني ملك أستطيع الصعود الى السماء اما قوله تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} فإن إظهار شيء خاص من عالم الغيب على يدي الرسل هو من الأمور التي يخص بها الرسل ليؤيد بذلك دعوتهم ورسالتهم. وهو لا يتعدى إلى حمل أقوال الرسل على المستقبل، فهم لا يعلمون الا ما علمهم الله به. {إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ} .

إنما أنا بشر أتبع ما يوحيه الله تعالى إلي، فأمضي لوحيه واعمل بأمره.

{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ. .} .

هنا وبخهم الله تعالى على ضلالهم، فأمر رسوله ان يسألهم ما اذا كانوا يعتقدون أن الضال والمهتدي ليسا سواء فقال: قل هل أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم، يعدل ذا البصيرة المهتدي إليه؟ هل يليق بكم ان تعرضوا عن الهدى الذي أسوقه إليكم بعد هذا كله!! تعقلوا ايها القوم ما في القرآن من ضروب الهداية والعرفان.

٦٠١٧ 51

الحشر: اجتماع الخلق يوم القيامة.

بعد أن أمر الله تعالى نبيه الكريم بتبليغ الناس حقيقة رسالته، أمره بإنذار من يخافون الحساب والجزاء فقال:

أَنْذِرْ مَا مُحَمَّدٌ بِمَا يُوحَى إِلَيْكَ، وَحَذِّرْ بِمَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَهْوَالَ يَوْمِ الْحَشْرِ، حَيْثُ لَا نَاصِرَ وَلَا شَافِعَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَيَتَّعِدُونَ عَمَّا يُغْضِبُهُ.

{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} .

ثم نهى الرسول أن يطيع المترفين من كفار قريش في شأن المستضعفين من المؤمنين.

فقال لا تستجيب أيها النبي، لدعوة المتكبرين من المشركين، فتُبعد عنك المستضعفين من المؤمنين. إنهم هم الذين يعبدون ربهم طول الوقت لا يريدون إلا رضاه. لا تلتفت يا محمد لدس المشركين عليهم، فلست مسئولاً أمام الله عن شيء من أعمالهم، وليسوا مسئولين عن أعمالك، فإن استجبت وأبعدت المؤمنين، كنت من الظالمين.

كان زعماء المشركين وكبرائهم - أمثال أبي جهل وعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، والحَارِثُ بْنُ عَامِرٍ، وقرظة بن عمرو وغيرهم - كثيراً ما يتضايقون من المؤمنين المستضعفين - مثل عمار بن ياسر، وبلال، وصهيب، وخَبَّابٍ، وسالم مولى أبي حذيف، وابن سمعود - وكانوا يطلبون من النبي أن يبعدهم عنه حتى يحضروا مجلسه ويستمعوا إليه.

روى أحمد، وابن جرير، والطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: «مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صُهَيْبٌ وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أَرْضَيْتَ هَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ؟ هَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ انْخُنْ نَكُونَ تَبْعاً لِهَؤُلَاءِ؟ أَطْرَدُهُمْ عَنْكَ، فَلَعَلَّكَ أَنْ تُطْرِدْتَهُمْ أَنْ تَتَّبِعَكَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمُ الْقُرْآنَ: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} . . . إِلَى قَوْلِهَا لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} . {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} .

تشير الآية الكريمة الى ما سبق وتفسيرها:

وبمثل هذا الابتلاء الذي جرت به سنتنا، امتحناً المتكبرين. . . لقد سبقهم الضعفاء الى الاسلام، ليقول المتكبرون مستنكرين ساخرين:

هل هؤلاء الفقراء هم الذين أنعم الله عليهم من بيننا بالخير الذي يعد به محمد؟

وفي الآية إشارة الى أن ما اغتر به الكبراء من النعيم لن يدوم، كما لن يبقى المؤمنون على الضعف الذي صبروا عليه. . . لا ان ينعكس

الحال، وتداول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين وقد صدق الله وعده.

قرأ ابن عامر: «بالغدوة» و«الباقون»، «بالغداة» .»

٦٠١٨ 54

السلام: البراءة والعافية من الآفات والعيوب، والسلام ايضاً من اسماء الله تعالى.

وقد استعمل السلام في التحية بمعنى تأمين المسلم عليه من كل أذى من المسلم.

كتب: أَوْجَبَ الْجَهَالَةُ: السَّفَهُ وَالْخَفَةَ وَالْغَفْلَةَ. تستبين: تتضح وتظهر.

بعد ان نهى الله تعالى نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته أملاً في استمالة المشركين المتكبرين من بني قومه - أمره أن يلقي الذين

يدخلون في الاسلام بين حين وآخر، يعلمهم ويبشّرهم برحمته تعالى ومغفرته.

{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} . . . الآية} .

اذا جاءك الذين تصدّقون بك وبرسالتك سائلين عما اذا كان لهم توبة عن ذنوبهم التي فرطت منهم، فقل لهم تكريماً لهم: سلام عليكم،

إنني أبشّرکم برحمة اله الواسعة. . . لقد أوجبها على ذاته تفضلاً منه. وهي تقضي ان من تاب ورجع عن ذنبه نادماً ثم أصلح عمله - غفر

الله له، وشمله بعطفه.

{وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} .

يبين سبحانه انه فصل الحقائق للمؤمن حتى يتعدوا عن سلوك المجرمين.
قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بفتح الهمزة «أنه من عمل منكم سوءا» والباقون بكسر الهمزة. وقرأ ابن عامر ويعقوب «فأنه غفور رحيم» بفتح الهمزة، والباقون بكسرها. وقرأ نافع «لتستبين سبيلاً» بالنصب وقرأ ابن عامر وابو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم بالرفع. والباقون بالياء، ويرفع سبيلاً.

٦٠١٩ 56

وتدعون من دون الله: تعبدون البينة: الحجة الواضحة، وكلها يُتَبَيَّن به الحق. يَقْصُ الحق: يخبر به. خير الفاصلين: القاضين في الأمور.
{قُلْ إِنِّي نَبِيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}.

قل ايها النبي لهؤلاء الكفار الذين يدعونك الى الشِّرك بالله، إن الله قد نهاني عن عبادة الذين تعبدونهم من دون الله، فلا أتبع أهواءكم، ولو فعلت ذلك واتبعتم أكون قد انحرفت عن الحق، وسرتُ على غير هدى.

ثم امره ان يقول لهم: إني على هدى من ربي فيما أتبعه، فأنا على شريعة واضحة منزلة من ربي. أما أنتم فقد كذبتُم القرآن الذي جاء بها، وليس في قدرتي أن أقدم ما تستعجلونه من العذاب، فذلك داخل في قدرة الله ومروهو بارادته. ثم اكد ما سبق بقوله: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ} في هذا وفي غيره من شئون الأمم، إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخر. وله في ذلك سنن حكيمة، وهو يقص على رسوله القصص في وعده ووعيده، إنه خير الفاصلين بيني وبينكم.

قل ايها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب بقولهم {اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢] لو ان في قدرتي انزال العذاب الذي تستعجلونه، لأنزلته عليكم غضباً لربي، لكن الأمر لله، وهو اعلم بما يستحقه الكافرون من العذاب العاجل او الآجل.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يقص» بالصاد من القصص والباقون «يقضي» من القضاء.

٦٠٢٠ 59

المفاتيح: جمع مفتاح بفتح الميم، ومفتاح. يتوفاكم بالليل: جعل النوم مثل الموت. توفاه أخذه وافياً كاملاً. جرحتم: عملتم. يبعثكم فيه: يرسلكم ويوقظكم من النوم في النهار. الأجل المسمى: مدة البقاء في الدنيا. الحفظة: الملائكة الكرام الكاتبون.

بعد أن أمر الله تعالى الرسول ان يبين للمشركون انه على بينة من ربه فيما بلغهم من الوحي، وان ما يستعجلونه من العذاب ليس عنده، وان الله تعالى يقضي الحق ويقصه على رسوله - عمداً الى وصف حقيقة الالهية في مجال عميق من مجالاتها الفذة، هو مجال الغيب المكنون. فيقول:

وعند الله علمُ جميع المغيبات، لا يحيط بها علماً الا هو وحده، ومن أظهره هو على بعض العلم كما جاء في سورة الجن {عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ}.

والمغيبات قسمان:

مغيبات مطلقة لا يمكن أن يصل إليها العقل الانساني، ومنها ما يقع للإنسان في المستقبل من حوادث تتعلق به. ومغيبات نسبية، وهي ما يتعلق بأسرار الكون وما فيه، وتسخيره لخدمة الإنسان، فإن العلم بها قد يغيب اجيالاً ثم يظهر من بعد. ومفاتيح هذه المغيبات أيضاً بيد الله، ويوفق إليها من يشاء من عباده الذين يتعمقون في دراسة الكون. ومن ذلك الاختراعات التي نرى بعض الناس يصلون إليها بعد جهد جهيد بتوفيق الله.

روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «الغيبُ نحس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، ما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير». .
ويحيط علم الله كذلك بجميع الموجودات في البر والبحر، ولا تسقط ورقة عن شجرة إلا بعلمه، ولا حبة ما في باطن الأرض، ولا شيء رطب ولا يابس، إلا هو في اللوح المحفوظ عند الله.

والخلاصة، إن عند الله علم ما لا تعلمونه، وعنده علم ما يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة. وهو الذي يتوفى أنفسكم في أثناء النوم، أي يزيل إحساسها، ويوقظكم في النهار، ويعلم ما كسبتم فيه. . . حتى ينتهي أجل كل منكم، ثم ترجعون إليه يوم القيامة فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها.
{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً} .

بعد أن بين الله أمر الموت والرجوع إليه للحساب، والجزاء، ذكره فهره لعباده وأرسال الحفظة لأحصاء أعمال البشر فقال: إن الله هو الغالب بقدرته، المستعلي بسلطانه على عباده، يرسل عليكم ملائكة يحصون أعمالكم إلى أن تجيء نهاية كل منكم، فتقبض روحه ملائكتنا الذين نرسلهم لذلك وهم لا يقصرون فيما يوكل إليهم.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون». .
قراءات:

قرأ حمزة «توفاه رسلنا» بالألف الممالة، والباقون «توفته رسلنا» .

٦٠٢١ 63

ظلمات البر والبحر: حسيّة، كظلمة الليل وظلمة السحاب، ومعنوية، كظلمة الجهل بالمسالك، وظلمة الشدائد والاختار. والعرب تقول لليوم الذي فيه شدة: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب. وفي المثل، رأي نجوم الظهر. التضرع: المبالغة في الدعاء. والخفية: بضم الخاء وكسرهما الخفاء والاستتار. الكرب: الغم الشديد.

بعد أن أبان تعالى لعباده إحاطة علمه، وشمول قدرته، وأنه القاهرة فوق عباده- ذكرهم هنا بالدلائل الدالة على كمال قدرته الإلهية. فأمر رسوله أن يسأل المشركين الغافلين عن أنفسهم: من ينجيكم من ظلمات البر إذا ضلتم فيه فتحيّرتم أين تذهبون، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه فأظلم عليكم فلم تهتدوا؟ من يفعل ذلك غير الله الذي تلجأون إليه في خضوع، معلنين الدعاء تارة ومخفين إياه أخرى، مقسمين: لئن أنجيتنا من هذه المخاطر لنكونن من الشاكرين لفضلك بالعبادة لك.

{قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} .

إن الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه الأهوال، ومن كل شدة أخرى، وعلى ذلك فسرعان ما تحنثون بأقسامكم وتشركون مع في العبادة غيره.

قراءات:

قرأ يعقوب «قل من يخيك» بدون تشديد، والباقون «ينجيكم» بتشديد الجيم. وقرأ أبو بكر: «وخفية» بكسرا لخاء والباقون بضمها وقرأ أهل الكوفة «انجانا» وأماله حمزة والكسائي وخلق. وقرأ الباقر «لئن أنجيتنا» وقرأ أهل الكوفة: «قل الله ينجيكم» بالتشديد، والباقر بالخفيف.

الشيعة: واحدها شيعة، وهم كل قوم اجتمعوا على أمر. او يلبسكم شيعة: يخلط أمركم خلط اضطراب فيجعلكم فرقاً مختلفة. بأس: شدة نصرف الآيات: نحولها من نوع الى آخر من فنون الكلام. يفقهون: يفهمون. مستقر: وقت استقرار ووقوع. بعد ان بين تعالى الدلائل على كمال القدرة الآلهية، ونهاية الرحمة بعباده، ذكر هنا قدرته على عذيبهم إن عصوه، وأبان ان عاقبة كفران النعم زوالها.

قل ايها الرسول لقومك الذين لا يشكرون نعمة الله ويشركون معه غيره في العبادة: ان الله وحده هو الذي يقدر على أن يرسل عليكم عذاباً يأتيتكم من أعلاكم او من أسفلكم، او يجعل بعضكم لبعض عدواً، وتكونون طوائف مختلفة الاهواء متناكرة، يقتل بعضكم بعضاً. انظر ايها الرسول كيف دلت الدلائل على قدرتنا واستحقاقنا وحدنا للعبادة، ومع هذا لا يؤمن قومك بذلك!! لا شك ان هذه الآية من معجزات القرآن الذي لاتنفى عجائبه، فإن فيها نبأ من كان قبل الإسلام، ومن كان زمن التنزيل، ومن سيأتي بعدهم. فهذه الحروب التي تشب في عصرنا فيها من الأهوال ما لم يسبق له نظير، فقد ارسل الله على تلك الأمم المحاربة عذاباً من فوقها تقذفه الطائرات والصواريخ وعذاباً من تحتها تقذفه الغواصات من اعماق البحار، وتهلك به مختلف السفن، كما جعل امم اوروبا شيعاً متعادية، ذاق بعضها بأس بعض فحل بها من القتل والدمار والتخريب ما يشيب له الاطفال.

واذا نظرنا في احوالنا نحن العرب والمسلمين، نجد أننا يعادي بعضنا بعضاً ونحترب، فيما العدو متربص بنا يتظر لينقض علينا ويلتهم ما يستطيع من أراضينا وبلادنا. وما ذلك إلا لأننا بعدنا عن ديننا، وغررنا الحياة الدنيا، فاصبحنا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون. روى أحمد والترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال «سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية» قل هو القادر الخ. . . «قال: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد. . . .»

{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ. . . } .

ثم ذكر الله تعالى ان قوم الرسول الكريم قد كذبوا بالقرآن على ما فيه من الآيات الواضحة البينة، وهو الحق الثابت، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم امر رسوله أن يبلغهم أن لا سبل له في اجبارهم على الايمان به فقال: «قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» لا أنا حفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي، ولا أملك القدرة على اجبار الناء ان يؤمنوا. ثم هددهم وتوعدهم على التكذيب به فقال:

{لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} لك خبر جاء به القرآن وقت يتحقق فيه، وسوف تعلمون صدق هذه الاخبار عند وقوعها.

يخوضون في آياتنا: يسترسلون في الحديث بتشويه تلك الآيات. ولكن هذا تذكير لهم. ان تبسل نفس: ان تحبس بما كسبت وتمنع. السبل: حبس الشيء ومنعه بالقهر، ومنه شجاع باسل اي مانع غيره. تعدل: تفدش كل فداء. الحميم: الشديد الحرارة. أليم: شديد الألم. بعد ان ذكرنا الله تعالى في الآيات السابقة تكذيب كفار قريش، وبين ان الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغ للناس عن ربه لا خالق للايمان فيهم- جاءت هذه الآيات لبيان كيف يعامل المؤمن من يتخذ دين الله هزواً ولعباً من الكفار الذين كانوا يستهزئون بالقرآن وبالرسول والمستضعفين من اصحابه الكرام. وكذلك كيف يعامل المؤمن أهل الأهواء والبدع في كل زمان ومكان. والمخاطب في هذه الآيات هو الرسول عليه الصلاة والسلام ومن كان معه من المؤمنين، ثم المؤمنين في كل زمان. {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ. . . الآية} .

اذا حضرت مجلس الكفار، او جاء المشركون ليستمعوا اليك، ووجدتهم يطعنون في آيات القرآن، او يستهزئون بها، فانصرف عنهم يا

محمد حتى ينتقلوا الى حديث آخر. وإن نسيتَ وجالسَهم وهم يخضون، ثم تذكّرتَ أمر الله بالبعد عنهم- فلا تبقَ معهم أبداً. وسرُّ هذا النهي أن الإقبال على أولئك الخائضين والقيود معهم يغريهم في التماذي، ويدل على الرضا به والمشاركة فيه. وهذا خطر كبير لما فيه من سماع الكفر والسكوت عليه.

{وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} .

ثم بين الله تعالى ان المؤمنين اذا فعلوا ذلك فلن يشراكوا الخائضين في الإثم، لكن عليهم أن يذكّروهم، لعلهم يكفون عن الباطل. {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} .

واترك يا محمد، انت ومن اتبعك من المؤمنين، جميع الذين اتخذوا دينهم لعباً، فلقد خدعتهم الحياة الدنيا عن الآخرة، فأثروها واشتغلوا بلذائدها الفانية.

{وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} .

وبعد ان امرهم بترك المستهزئين بدينهم امر بالتذكير بالقرآن فقال: ذكّر يا محمد دائماً بالقرآن، وحذرهم هول يوم القيامة، يوم تُحبس فيه لك نفس بعلمها. {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} لا ناصر يومذاك ولا معين غير الله.

{وَأَنْ تَعْدِلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا} .

ثم أرشد الى أنه لا ينفع في الآخرة إلا صالح الاعمال، فلا شفيع ولا وسيط، وكلُّ فدية للنجاة من العذاب مرفوضة ولا ينفع النفس أي فدية تقدمها في ذلك اليوم.

ثم بين الله أن هذا الإيسال كان بسوء صنيعهم، حيث اتخذوا دينهم هزواً ولعباً فحرموا الثواب، وحُبسوا عن دار السعادة. لقد أحاطت بهم خطاياهم، فاستحقوا ان يكون {لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} ، أي شراب من ماء شديد الحرارة، وعذاب شديد الألم بنار تشتعل في أبدانهم.

وفي ذلك عبرة لمن ينفعه القرآن، ولا يغترُّ بقلب الاسلام فقط، ويعلم أن المسلم من اتخذ القرآن إمامه، وسنةً رسوله طريقه، لا من اغترَّ بالأمانى وركن إلى شفاعة الشافعين.

وفي ذلك عبرة لمن ينفعه القرآن، ولا يغترُّ بقلب الاسلام فقط، ويعلم ان المسلم من اتخذ القرآن إمامه، وسنةً رسوله طريقه، من اغترَّ بالأمانى وركن إلى شافعة الشافعين.

٦٠٢٤ 71

الاعقاب: واحداها عقب، مؤخر الرجل، نردّ على أعقابنا: نرجع الى الشك.

استهوته الشياطين: ذهبت بعقله. الصور: القرن يُستعمل للفتح، وقد استعمله الناس قدما. ويوم القيامة ينفخ في الصور، فيقوم الناس لرب العالمين. عالم الغيب والشهادة: الغيب ما غاب عنا، والشهادة ما نراه من خلقه. قال ابن عباس: هما السر والعلانية.

القرآن الكريم في جميع مراحلہ يعرض الخير والشر للناس، يرغب في الخير واتّباعه، ويحذّر من الشر وعواقبه، ويهدي الى الصراط المستقيم ومعنى الآيات:

قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار: هل يصحّ أن نعبد غير الله مما لا يملك جلب نفع ولا دفع ضرر؟ ونتكسّ فُردّ على أعقابنا بالعودة الى الضلال والشك بعد إذ هدانا الله الى الاسلام!! .

ثم ضرب الله مثلاً يصوّر المرتدّ في أقبح حالة تتخيّلها العرب وهي:

{كَلِذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا . . } .

أي: الذي غرّرت به الشياطين وأضلّته في الأرض، فصار في حيرة لا يهتدي معها الى الطريق المستقيم، وله رفقة مهتدون يحاولون تخليصه من الضلال، فهم ينادونه قائلين: إرجع الى طريقنا السوي، لكنه لا يستجيب لهم.

{قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ} .

أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يرغب المشركون فيما يدعون اليه بلطف واسلوب حكيم.

قل أيها النبي: ان الإسلام هو الهدى والرشاد، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا ما تدعون إليه من أهوائكم وأساطير آبائكم الاولين. وكل ما عدا هدى الله فهو ضلال لا فائدة منه. وقد أمرنا الله بالانقياد اليه، واتباع دينه القويم، فهو خالق العالمين.

كذلك أمرنا الله بأقامة الصلاة على اكل وجه من الخضوع، وان نخاف الله ونتقيه حق تقاته، لأنه هو الذي تُجْعَلون وتساقون الى لقاءه يوم القيامة، فيحاسبكم على ما كسبتم.

وهو وحده الذي خلق السماوات والأرض، وأقام خلقها على الحق والحكمة. وفي اي وقت تتجه إرادته الى إيجاد شيء فإنه يوجد به بكلمة «كن» ان قوله هو الحق ولا صدق، وله وحده التصرف المطلق يوم القيامة، حين يُنفخ في الصور فيبعث من في القبور. عندئذ يقف الخلق بين يديه، لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله. وهو سبحانه الذي يستوي في علمه الغائب والحاضر، والسر والعلانية. وهو الذي يتصرف بالحكمة في جميع افعاله، ويحيط علمه ببواطن الأمور وطواهرها، «فلا تدعوا مع الله أحداً» .

٦٠٢٥ 74

ابراهيم: خليل الرحمن، أبو الانبياء بعد نوح، والاسم أعجمي معناه ابو الجمهور العظيم، او أبو الأمة. أزر: ابو ابراهيم. قال البخاري: ابراهيم بن أزر، وهو في التوراة تارح والله سماه أزر. وقال كثير من المفسرين ان اسمه تارح، وأزر وصف له الضلال: العدول عن الطريق الحق. ملك الله وملكوته: سلطانه وعظمته جنة الليل: ستره أفل: غاب بزغ القمر: طلع وجهت وجهي: قصدت بعبادتي فطر السماوات: خلقها ومعنى فطر: شق الخيف: المائل عن الضلال، المخلص في عبادته.

بعد ان بين الله لنا ان عبادة غيره عبث وضلال، وأمرنا أن نسلم اليه، لأننا سوف نُحْشَر يوم ينفخ في الصور - جاءت هذه الآيات لتشرح الموضوع الأساسي لهذه السورة، وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية، ومنا بينهما من ارتباطات. لكنه يعالج ذلك في اسلوب من القصص اللطيف.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} .

اذكر ايها الرسول لهؤلاء المشركين، حين قال ابراهيم لأبيه أزر منكراً عليه عبادة غير الله: ما كان لك يا أبي ان تعبد الأصنام، وتتخذها الهة وهي لا تضر ولا تنفع إني أراك وقومك في ضلال ظاهر.

{وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السماوات والأرض} .

وكما أرينا ابراهيم الحق في أمر أبيه وقومه فقد عمدنا الى أن نريه مُلْكَا العظيم للسماوات والارض - بما فيها من بدع النظام وغريب الصنع - ليقم الحجة على المشركين، وليكون في خاصة نفسه من الراسخين في الايمان.

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي}

ثم فصل سبحانه وتعالى كيف هداه الى الايمان. فال استنكر ابراهيم عبادة الأصنام طلب هداية الله، وأخذ يفكر في هذا الكون العظيم. وكان من أول أمره في ذلك انه لما أظلم عليه الليل، وهو يفكر في ملكوت الله - رأى كوكباً عظيماً يقال إنه «المشتري» وكان قوم ابراهيم يعبدونه، فلما رآه قال: هذا ربي لكن النجم غاب فلما غرب قال ابراهيم مبطلاً لربوبية ذلك النجم: أنا لا أحب الآفلين،

ولا اقبل عبادة الآلهة المتغيرين. وفي هذا تعريض بجهل قومه في عبادتهم الكواكب.
 {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} .
 وحين رأى إبراهيم القمر طالعا بعد ذلك قال محدثا نفسه: هذا ربي فلما أفل القمر، شأن ساقه الكوكب- قال إبراهيم مسمعا من حوله من قومه، ليوجه نفوسهم الى الهداية: أقسم إن لم يوفقني ربي لإصابة الحق في توحيدهِ لأكون من القوم الضالين.
 {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} .
 وفي هذه المرة الثالثة انتقل من التعريض الى التصريح بالبراءة منهم، والتصريح بأنهم على شرك بين، فقد ظهر له الحق غاية الظهور.
 ثم رأى إبراهيم الشمس طالعة بعد ذلك، فقال محدثا نفسه: هذا ربي، لأن اكبر مما يرى من الكواكب قدرا، وأعظم ضياء ونورا، فهو أجدر بالربوبية. بيد أنها أفلت كما أفل غيرها. وعند ذاك صرح إبراهيم بما أراد التعريض به، وقال: يا قوم، إني بريء من هذه المعبودات التي تشركونها مع الله في العبادة.
 وبعد ان تبرأ من شركهم بين لهم عقيدته، وهي عقيدة التوحيد الخالص التي هداه الله إليها، فقال:
 {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .
 إني جعلت وجهي في عبادتي لمن خلق السماوات والأرض مجانياً كل سبيل غير سبيله، ولست بعد الذي رأيت من دلائل التوحيد ممن يرضى ان يكون من المشركين.
 قراءات:
 قرأ يعقوب: آزر بالضم على انه منادى.

٦٠٢٦ 80

حاجه: جادله. السلطان: الحدة والبرهان. لم يلبسوا: لم يخطوا الظلم هنا: الشرك في العقيدة او العبادة.
 بعد ان اطمأن قلب إبراهيم الايمان، جاء قومه يجادلونه فيما انتهى اليه من يقين، ليخوفوه آلهتهم التي تنكر لها. فظل صامداً يواجههم بيقين حازم، واعتماد على ربه وخالقه الذي هداه.
 {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ . .} .
 وجادله قومه في توحيد الله وخوفه من غضب آلهتهم، فقال: لهم ما كان لكن ان تجادلوني في التوحيد بعد ان هداني الله الى الحق. أما آلهتكم التي تدعونها فلا أخشاهما، بل انها لا تضر ولا تنفع. لكن اذا شاء ربي شيئا من الضر وقع ذلك، لأنه وحده القادر على كل شيء. ثم اتى إبراهيم بما هو كالعلة لما قبله فقال: {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} واحاط بكل شيء.
 {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟} .
 أتعرضون أيها الناس عن قولي بعدما أوضحت لكم من أن آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضرر، وتغفلون عن أن العاجز الجاهل لا يتحقق ان يعبد؟ .
 {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} .
 إنه لمن العجب أن أخاف آلهتكم الباطلة ولا تخافون أنكم عبدتم مع الله، الذي لا إله إلا هو، آلهة باطلة؟!
 {فَإِیُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} .
 فأی فريق- أنا أم أنتم- في هذه الحال أحق بالطمأنينة، واجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته ان كنتم تعلمن الحق وتدركونه؟!

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} .

هنا يأتي الجواب. وهو لا شك في ان الذين آمنوا بالله تعالى، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم، كعبادة احد سواه، هم الاكثر أمناً، كما انهم هم المهتدون الى طريق الحق والخير.

روى ابن جرير قال ما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} شقَّ على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ «فقال: رسول الله:» ليس كما تظنون، وإنما هو كما قال لقمان لابنه: «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» .

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} .

هذه هي الحجة لاتي أعطيناها ابراهيم لقيمها على قومه، فارتفع بها عليهم، وسينتنا في عبادنا ان نرفع بالعلم والحكمة من نريد منهم درجات، ان ربك يا محمد حكيم يضع الشيء في موضعه، عليم بمن يستحق الرفعة ومن لا يستحقها.

٦٠٢٧ 84

وهب: اعطى بغير عوض. هدينا. أُرشدنا. احسن: فعل ما هو حسن. اجتبتنا: اصطفينا حبط علمه: بطل.

بعد ان حكى الله تعالى أن ابراهيم اظهر حجة الله في التوحيد، وعدد وجوه نعمه واحسانه اليه، ذكر هنا انه جعله عزيزاً في الدنيا، وابقى له هذه الكرامة الى يوم القيامة.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا} .

ووهبنا لإبراهيم إسحاق نبياً، ثم جعلنا من ذريته يعقوب وغيره من الأنبياء والمرسلين.

وانما ذكر إسحاق هنا دون اسماعيل لأنه هو الذي وهبه الله تعالى لأبراهيم بعد كبر سنه وعقم امرأته سارة، جزاء ام ظهر من إيمانه في قصة ذبح ولده إسماعيل، ولم يكن له ولد سواه.

{وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ} .

ووقفنا من قبلهم نوحاً الى مثل ما هدينا ابراهيم وذريته. وقد ذكر نوح هنا إيماء الى شرف نسب ابراهيم.

{وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ} وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (*) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} .

ومن ذرية إبراهيم تناسل هؤلاء الأنبياء فقد ذكر في هذه الآيات سبعة عشر نبياً. وستأتي الإشارة إلى آخرين من ذرياتهم وآبائهم واخوانهم. كل هذا ليدل على فضل إبراهيم ونوح عليها السلام، حيث جعل الله الكتاب والنبوة في نسلهما.

وقد جاء في سورة الحديد، {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} وهدينا من ذريته (إبراهيم) كلاً من داود وسليمان وغيرهما. فداود وسليمان وأيوب وموسى وهارون، آتاهم الله الإمارة والملك مع النبوة والرسالة. وأيوب كان أميراً غنياً محسناً ويوسف كان وزيراً عظيماً وحاكماً متصرفاً وموسى وهارون كانا حاكمين ولم يكونا ملكين.

وزكريا ويحيى وعيسى والياء، كانت لهم ميزة الزهد والاعراض عن لذات الدنيا ومن ثم خصهم بوصف الصالحين.

واسماعيل واليسع ويونس ولوط، وهؤلاء لم يكن لهم من ملك الدنيا ما كان للقسم الأول، ولا من المبالغة في الزهد ما كان للقسم الثاني.

{وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ} .

وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم واخوانهم واصطفيناهم، فسلخوا طريق الخير والصراف الذي لا اعوجاج فيه.

{ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} .

إن ذلك التوفيق العظيم الذي نالته هذه النخبة الكرام لهو توفيق من عند الله يُكرم به من يشاء من عباده.
{وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

ولو أشرك هؤلاء النخبة المختارة، لضاعت كل أعمال الخير التي عملوها، فلم يكن عليها ثواب.
{أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} .
أولئك الذين آتيناهم الكتب المنزلة والعلم النافع، وشرف النبوة، كما آتيناهم الحكم، والقضاء بين الناس.
فإن يكفر المشركون من أهل مكة بالكتاب والحكم والنبوة، فقد وفقنا للإيمان بها وتولي نصر الداعي إليها قوماً كراماً لن يكفروا، وهؤلاء هم مسلمو مكة، ثم الانصار في المدينة، ومن أسلم بعد الهجرة. وحُكِّم هذه الآية مستمر وباقي الى الابد ما دامت السماوات والارض.
{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ} .

أولئك الانبياء الثمانية عشر الذين ذكرت اسمائهم في الآيات السالفة، هم الذين وفقهم الله وهداهم، فاتبعهم أيها النبي أنت ومن معك واقتد بهم.
{قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} .

قل ايها الرسول لقومك، كما قال الانبياء لأقوامهم: إني لا أسألكم على هذا القرآن أجراً من مال أو منصب، وما هو الا تذكير للعالمين، كل غايت من تبليغه ان ينتفع به البشر جميعا ويهتدوا بهديه.
قراءات:

قرأ ابن ذكروان، وحمزة والكسائي وخلق ويحيى، «رأى» بكسر الراء وامالة الهمزة. وقرأ ابو عمرو بفتح الراء وامالة الهمزة والباقون «رأى» بفتح الراء والهمزة. وقرأ اهل المدينة وابن ذكوان «اتحاجوني» بتخفيف النون والباقون «اتحاجوني» بتشديدها. وقرأ الكسائي «وقد هدياني» بالامالة.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف «الليّسع» بتشديد اللام وفتحها وسكون الياء. والباقون «إليّسع» بسكون اللام وفتح الياء.
وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب، بحذف الهاء في «اقتده» في الوصل، واثباتها في الوقف، والباقون باثبات الهاء في الوصل والوقف.

٦٠٢٨ 91

ما قدره الله حق قدره: ما عرفوه حق معرفته والقدر والمقدرا: القوة ايضاً. والقدر الغنى والشرف. قراطيسك واحداها قرطاس، وهو ما يكتب فيه من ورق أو جلد او غيرها ذرهم: اتركهم خوضهم: كلامهم بالباطل، وتصرفهم الشائن، أم القرى: مكة المكرمة، لأنها قبله الناس، وفيها أول بيت وُضع للناس، فهي تعظم كالأم.

بعد ان ذكر الله ما تفضل به على إبراهيم والانبياء الذين ذكرهم، وانه اجتباهم وهداهم الى الصراط المستقيم، وامر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يهتدي بهداهم- جاء في هذه الآيات يندد بمنكري الرسالات، ويصفهم بانهم لا يقدرون الله كما يجب، ولا يعرفون حكمته ورحمته وعدله. ومن ثم يقرر أن الرسالة الأخيرة التي جاء بها محمد ﷺ تجري على سنة الرسالات قبلها، فالقرآن الكريم مصدق لما سبقه من الكتب، وكل من عند الله.
{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} . . الآية} .

ما قدر هؤلاء الكفار الله حق التقدير، إذ أنكروا أن تنزل رسالته على أحد من البشر. فقل أيها النبي للمشركين ومن يشايعهم على ذلك من اليهود: إذن من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، نوراً يضيء، وهدى يرشد؟ إنكم ايها اليهود تجعلون كتابه في أجزاء متفرقة. . . تظهرون منها ما يتفق وأهواءكم، وتخفون ما يلجئكم الى الإيمان بالقرآن والنبي. هكذا مع أنكم علمتم منه ما لم تكونوا تعلمون، لا انتم ولا آباؤكم.

وبعد ان بين سبحانه انكار المنكرين للوحي بعبارة تدل على جهلهم، قال لرسوله: تولّ إذن أيها النبي الجواب وقل لهم: إن الله هو الذي أنزل التوراة. ثم دعهم بعد هذا فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم.

ومن المؤسف ان هذا القول الذي قاله مشركو مكة في جاهليتهم إنما يقوله أمثالهم في كل زمان بل منهم من يقولونه الآن، ممن يزعمون ان الأديان من صنع البشر، قد تطوّرت وترقت بتطور البشر في أحوالهم. وكثير من هؤلاء المثقفين على ايدي الأجانب، وكثير منهم يحتلّ مراكز كبيرة في الدول العربية والاسلامية غرّتهم الحياة الدنيا، وغرهم الغرور.

{وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ. . . الآية} .

وهذا القرآن كتاب عظيمًا لقدّر أنزلناه على خاتم رسلنا كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى. وقد باركنا فيه فجعلناه كثير الخير، دائم البركة، يبشر بالثواب والمغفرة، مصدقًا لما تقدّمه من كتب الأنبياء، ومنذراً لأهل مكة من عذاب الله. فمن كان يؤمن بالقيامة فإنه يؤمن بهذا الكتاب. والمؤمنون به يحافظون على صلاتهم، فيؤدونها في أوقاتها كاملة مستوفاة. وقد خُصت الصلاة بالذكر ههنا، لأنها عماد الدين.

قراءات:

قرأ أبو عمرو وابن كثير: «يجعلونه قراطيس بيدونها ويخفون» بالياء، والباقون «بالتاء» وقرأ أبو بكر عن عصام «لينذر» بالياء، والباقون «لتنذر» بالتاء.

٦٠٢٩ 93

الاقتراء: اختلاف الكذب. غمرات: واحدا غمرة، الشدة. اليوم: المراد به يوم القيامة عذاب الهون: الذل الهوان. فرادى: واحدهم فرد. خولناكم: اعطيناكم. وراء ظهوركم: لم تنتفعوا به تقطّع بينكم: انقطع ما بينكم من صلوات ضل: غاب.

بعد ان بين سبحانه أن القرآن كتاب من عند الله، وبذلك رد على الذين أنكروا إنزاله على محمد- قفّ هنا على ذلك بوعيد من كذب على الله أو ادعى النبوة.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} .

ليس امرؤ أشدّ ظلماً ممن كذب على الله، او قال تلقّيت وحياً من عند الله كذبا وبهتاناً، كما فعل مسيلمة الكذاب والأسود العنسي فيما بعد.

{وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} .

كذلك ليس أحد أشدّ ظلماً ممن قال: سأتى بكلام مثل هذا القرآن. وكان النضر ابن حارث بن كعدة، أحد كفار قريش، يقول: ان القرآن أساطير الاولين، وهو شعر لو نشاء لقنا مثله. كما كان يجمع الناس بمكة ويقول لهم: تعالوا: أحدثكم بأحسن من حديث محمد. وقد أسر النضر يوم بدرٍ وقتل بعد ان انتهت المعركة، وجاءت أخته قتيلة، ويقال إنها بنته الى النبي ﷺ بقصيدة ترثي أخاها وتعاتب الرسول الكريم منها:

يا راجباً ان الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وانت موفق
أحمد يا خير ضنء كريمة ... في قومها والفحل فحل مُعَرِّق
ما كان ضرّك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحقّق
الأثيل: بالتصغير موضع قرب المدينة. ضنء: نسل.

قال ابن هشام في السيرة: ان النبي عليه السلام عند سماعها «قال: لو بلغني هذا الشعر قبل قله لمننتُ عليه» .

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ} .

الخطاب للرسول الكريم، ثم لكم من سمعه أو قرأ ومعناه: لو تبصّر إذ يكون الظالمون في شدائد الموت، تحيط بهم كما تحيط غمرات الماء

بالعرق- رأيت ما لا قدرة للبيان على وصفه. اذن لرأيت الملائكة ينزعون ارواحهم من اجسادهم في قسوة وعنف. ثم حكى سبحانه أمر الملائكة لهم على سبيل التكم ولا توبيخ حين بسطوا أيديهم لقبض ارواحهم «أخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» . {اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} .

يؤمئذ يقال لهم: الآن تبدأ مجازاتكم بالعذاب المذل المهين، جزاء ما كنتم تقولون على الله غير الحق (كقول بعضهم: ما أنزل الله على بشر من شيء، وقول بعض آخر: إنه أوحى اليه، وما أشبه ذلك من الكفر والعناد) ، وجزاء استجباركم عن النظر والتدبر في آيات الله الكونية والقرآنية.

ثم ذكر الله تعالى ما يقوله لهم الله يوم القيامة بعد ذلك ما تقول لهم ملائكته فقال: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} .

لقد تأكدتم الآن أنكم بُعِثتم أحياء من قبوركم، كما خلقناكم اول مرة، وجئتم إلينا منفردين عن المال والولد، تاركين وراءكم في الدنيا كل شيء كنتم تغترون به. اننا لا نرى معكم اليوم أولئك الشفعاء الذين زعمتم انهم ينصرونكم عند الله، لأنهم شركاء له في العبادة. . . لقد تقطعت بينكم وبينهم كل الروابط، وخابت آمالكم في كل ما زعمتم، فلا فداء ولا شفاعة، ولا يغني عنكم من عذاب الله من شيء.

٦٠٣. 95

الفلق: الشق. الحب: الحنطة، وكل انواع الحبوب. النوى: واحدها نواة وهي بزره التمرة والزبيبة. الإصباح: الصبح جعل الليل سكمنا: ليسكن الإنسان فيه ويستقر. الحسبان: الحساب والتوقيت. المستقر: موضع القرار والاقامة. المتسودع: موضع الوديعه. خضر: نباتا غضا اخضر. متراكبا: بعضه فوق بعض. الطلع: اول ما يظهر من زهر النخل قبل ان يشق عنه الغلاف. القنوان: واحدها قنؤ: العذق وهو مثل العنقود من العنب. ذانية: قريبة التناول. ينعه: حين ينضج: تؤفكو: تضلون، تصرفون.

بعد ان أثبت الله سبحانه امر التوحيد وثبته، ثم أردف أمر النبوة والبعث، وردّ على منكري الوحي، وأوعدهم يوم الجزاء شراً- جاء هنا ليطلع الناس على آياته العظمى في هذا الكون العجيب.

{إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} .

ان دلائل قدرة الله على البعث، واستحقاقه وحده للعبادة، متوافرة متنوعة. فهو وحده الذي يشق الحب ويخرج منه النبات، ويشق النوى ويخرج منه الشجر. انه هو الذي يخرج الحي من الميت، كالإنسان من التراب، والميت من الحي، كاللبن من الحيوان.

ولقد اقترنت (فالق الحب والنوى) بآية (فالق الإصباح) وهي تدل على وجود الضوء والضلام، وان الضوء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو النبات والاشجار. ذلك أن الحب والنوى بعد ان تُفلق نباتاً إنما تحتاج الى غذاء. . . وهذا الغذاء يتكون من عناصر الأرض الخصبه، ومن ضوء الشمس، فجذور النبات تتغذى من الارض، وأغصانه واوارقه تتغذى من حرارة الشمس التي يؤذن بها الصباح. وهذه من قدرة الله وحده، فلا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة الى خلايا حية، او تحويل الخلايا الحية مرة اخرى الى ذرات ميتة.

يقول الدكتور ايرفنج وليام في ماقبل عنوانه: المادية وحدها لا تكفي، في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» .

«ان العلوم لا تستطيع ان تفسر لنا كيف تشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع ان تفسر لنا، بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها، كيف تتجع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة. ولا شك ان النظرية التي تدعي ان جميع صور الحياة الراقية قد وصلت الى حالتها الراهنة من الرقي، بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن، نظرية لا يمكن الأخذ بها الا عن طريق التسليم فهي لا تقوم على اساس من المنطق والاقناع» .

ويقول الدكتور البرت ماكوب ونشستر، التخصص في علم الاحياء، في مقال: العلوم تدعم ايماني بالله، من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» .

«لقد اشتغلت بدراسة علم الآحياء، وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحية وليس بين مخلوقات الله اروع من الاحياء التي تسكن هذا الكون.

انظر الى نبات برسيم ضئيل، وقد نما على احد جوانب الطريق. هل تستطيع ان تجد له تظيلاً في روعته بين جميع ما صنعه الانسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟ انه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل واطراف النهار، بالآف من التفاعلات الكيماوية والطبيعية. ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم، وهي المادة التي تدخل في تركيب الكائنات الحية.

فمن أين جاءت هذه الآلة المعقدة؟ ان الله لم يصنعها هكذا وحدها، ولكنه خلق الحياة، وجعلها قادرة على صيانة نفسها، وعلى الاستمرار من جيل الى جيل، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر. ان دراسة التكاثر في الاحياء تعتبر أروع دراسات علم الاحياء، واكثرها اظهاراً لقدرة الله. ان الخلية التناسلية التي يتبع عنها النبات الجديد، تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها الا باستخدام المجهر. ومن العجيب ان كل صفة من صفات النبات، كل عرق، وكل شُعيرة، وكل فرع على ساق، وكل جذر أو ورقة- يتم تكوينها تحت اشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغاً كبيراً، فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي نشأ منها النبات!! تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة) ولك ذلك يتم بإذن الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وبقدر الله الذي تتم به كل حركة في الوجود كله» .

{ذلكم الله} ربكم مبدع المعجزة المتكررة ذات السر العجيب {فأنى تُؤفكون} ؟ فكيف تُصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والعيون! كيف تشركون به من لا يقدر على شيء من ذلك؟! .

ويجيء ذكر معجزة انبثاق الحياة من الموت كثيراً في القرآن الكريم كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداءً - في معرض التوجيه الى حقيقة الالوهية، وآثارها الدالة على وحدة الخالق وقدرته. ويهدف ذلك الى تقويم تصور البشر بإعطائهم العقيدة الصحيحة.

{فَالْقُلُوبُ لِلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} .

هو الذي يجلو غبش الصباح بضوء النهار ليسعى الاحياء الى تحصيل أسباب حياتهم ومعاشهم، وجعل الله الليل سَكَنًا يسترخ المتعب فيه من العمل بالنهار، وتسكن فيه نفسه. وأكثر الأحياء من الإنسان والحيوان تترك العمل والسعي في الليل، وتأوي الى مساكنها للراحة. كما سير الشمس والقمر بنظام دقيق يعرف به الناس مواقيت عبادتهم ومعاملاتهم، وهذا النظام المحكم تدير من الله المسيطر على الكون، المحيط علمه بكل شيء، البعيد المدى في الابداع والاتقان، والذي قال: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} .

قراءات:

قرأ اهل الكوفة «جعل الليل سَكَنًا» وقرأ الباقون «جاعل الليل» .

جعل: خلق النجوم: جمع نجم وهي الاجرام السماوية التي نرى كثيراً منها بالعين المجردة. والمراد بالظلمات ظلمة الليل، في اسفارنا برا وبحرا.

ان الله هو الذي خلق لكم النجوم ايها الناس تستدلون بها على الطريق فتسلكونها وتتجوز من الأخطار في البر والبحر. فالله سبحانه وتعالى يذكرها ببعض فضله علينا في تسخير هذه النيرات التي نراها صغيرة، لبعدها عنا، بعد ان سبق وذكرنا ببعض فضله في الشمس والقمر اللذين يدوان كبيرين في أعين الناس لقربهما.

وأقرب كوكب منا هو القمر، يبعد عن الارض بنحو مائتين وأربعين الف ميل، وهو يدور حول الأرض ويكمل دورته في سبعة وعشرين يوماً ونصف يوم. وتبعد أرضنا عن الشمس ثلاثة وتسعين مليون ميل، وهي تدور حول محورها بسرعة الف ميل في الساعة، وتدور حول الشمس في دائرة مساحتها مائة وتسعون مليون ميل، وتستكمل دورتها في هذه الدائرة مرة واحدة في سنة كاملة. وتوجد تسعة كواكب مع الارض هي: عطارد والزهرة والمريخ وزحل والمشتري واورانوس ونبتون وبلوتو، وكلها تدور حول الشمس بسرعة

فائقة، بعضها يكلم دورة كاملة في ثمانية يوماً وهو عطار، اقرب الكواكب الى الشمس، وبعضها يكمل دورة كاملة في مدة مائتين وثمان واربعين سنة وهو بلوتو، أبعد الكواكب من الشمس. وهو يدور في دائره مساحتها سبعة بلايين وخمسمائة مليون ميل. وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قرراً أخرى. وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفاً من «النجمات» وآلاف المذنبات، وشهب لا حصر لها ولكها تدور حول ذلك السيار العملاق الذي نسميه الشمس، التي يبلغ قطرها: ثمانمائة وخمسة وستين ألف ميل. وهي اكبر من الارض بمليون وربع مليون مرة.

ولا تشكّل هذه الشمس وما حولها من الكواكب المذكورة، والاقمار، والنجمات، والشهب التي تشغل هذا المجال الواسع- ذرة صغيرة في هذا المكان الواسع الذي لا يدركه عقل ولا بصر. ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة او واقفة في مكان ما، وانما هي بدورها، ومع كل هذه الاجرام التي ذكرناها- تدور في النظام الرائع البديع بسرعة ٠٠٠.٦٠٠ ألف ميل في الساعة وفي هذا الكون الفسيح العجيب آلاف الانظمة غير نظامنا الشمسي يتكون منها ذلكم النظام الذي نسميه «المجرات» او مجاميع النجوم، وكأنها جميعها طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب منفردة ومجمعة، كما يدور الخدروف «الببل» حين يلعب الاطفال.

ومجرات النجوم هذه تتحرك بدورها ايضا، فالجرة التي يقع فيها نظامنا الشمسي تدور حول محورها بحيث تكمل دورة واحدة كل مائتي بليون سنة ضوئية ٠٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ وهذا شيء مذهل ومحير لا نتصوره العقول.

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من المجرات، في كل منها «مائة مليون» من النجوم، او اكثر او اقل. ويقدرّون ان اقرب مجموعة من النجوم، وهي التي نراها في الليل تكيوط بيضاء دقيقة والتي نسميها درب التبانة، تضم حيزاً مداه ألف سنة ضوئية. وسرعة الضو ٠٣٠٠.٠٠٠ ألف كيلو متر في الثانية. وبمعرفة هذه الحقيقة يتبين لنا اتساع السنة الضوئية ومقدار زمنها، وكما تكون مسافة الف سنة ضوئية. انها شيء مذهل حقاً، فوق تفكير البشر وطاقته.

ونبعد نحن سكان الارض عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين الف سنة ضوئية، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجرة. وقطرة هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية.

والحديث في هذا الموضوع طويل جداً، ومحير ومذهل. وحين ينظر العقل الى هذا النظام العجيب، والتنظيم الدقيق الغريب المدهش لا يلبث ان يحكم باستحالة ان يكون هذا كله قائماً بنفسه، بل ان هنالك طاقة غير عادية هي التي تقيم هذا النظام العظيم، وتهين عليه. ولما في عالم السماوات وهذا الكون الذي بينا لمحة موجزة عنه- من بديع الصنع والنظام- ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله:

{قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} .

أي أنا بينا دلائل رحمتنا وقدرتنا لقوم ينفعون بالعلم. فهو يوجّهنا إلى هذا الكون، وما فيه من حقائق مذهلة، تدفعنا الى التدبر والتذكّر. الله اجعلنا ممن ينتفعون بالعلم والمعرفة، وثبت قلوبنا بالإيمان الصادق.

وبعد ان بين لنا تعالى بعض آياته في هذا الكون العجيب ليدركنا بذلك، وبنه الناس من غفلتهم، عطف الحديث ليدركنا بآياته العجيبة في انفسنا. ذلك لأن الإنسان هو أعظم شيء في الوجود.

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} .

الانشاء: ايجاد الشيء وتربيته. النفس: تطلق على الروح وعلى الشخص المركب من روح وبدن.

والنفس البشرية الأولى هي آدم، والله تعالى هو الذي أوجدكم من أصل واحد هو أب البشر آدم. وتبدأ الحياة من حيوان صغير لا يرى بالعين المجردة، فالنفس هي مستودع لهذه الخلية في صلب الرجل، وهي مستقر لها في رحم الأنثى. ثم تأخذ الحياة في النمو

والانتشار في هذه الارض التي هي مكان استقراركم في حياتكم، ومستودع لكم، بعد موتكم. هكذا فصلنا الآيات لقوم يفقهون، وبيننا دلائل قدرتنا لقوم يفقهون ما يتلى عليهم، ويدركون الأشياء على وجهها فالفقه هنا، وهو اعظم الفهم، ضروري لإدراك صنع الله في

هذه النفس الواحدة التي يخرج منها أشكال وألوان، فيهب الله لمن يشاء اناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو: فستقر بكسر القاف والباقون بفتح القاف.
{وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} .

خضراً: أخضر قنوان: جمع قنو وهو الفرع الصغير في النخلة، ويسمى العذق والعرجون وهو الذي يحمل الثمر.
دانية: قريبة متدلية ينعه: نضجه.

ثم ينقلنا الى مشاهد الحياة المفتحة في جنبات الارض، فيذكر آية اخرى من آيات التكوين ويبين لنا دور الماء الظاهر في إنبات كل شيء.

وهو الذي أنزل من السحاب ماءً فأخرج به نبات كل صنف، جاء بعضه غصّاً طرياً، يخرج منه حبٌ كثير بعضه فوق بعض. ون غبار طلع النخل تخرج عراجين محملة بالثمار قريبة سهلة التناول. كذلك أخرجنا بفضل الماء جنات من الأعناب والزيتون والرمان، منها ما هو متشابه الثمر حين يثمر، والى نضجه كيف تم بعد اطوار مختلفة. ثم وازنوا بين صفاته في كل من الحالين، يتبين لكن لطف الله وقدرته. أليس في ذلك دلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم لقوم ينشدون الحق؟!
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: ثمره بضم الثاء والميم، جمع ثمرة والباقون: ثمره بفتح الثاء والميم.

بعد هذا العرض الواضح لدلائل وجود الله ووحدانيته وقدرته يبين لنا الله تعالى شرك المشركين وأوهامهم وسخفهم، فيعقب على ذلك كله بالاستنكار فيقول:
وجعلوا لله شركاء. . .

٦٠٣١ 100

خلق الكلمة، واختلقها، وخرقها، واخترقها: ابتدعها كذباً، واخلق فعل الشيء بتدبير ورفق بديع السماوات: خالقها ومنشئها، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء الادراك: الوصول الى الشيء، يقال: تبعه حتى أدركه البصر: حاسة الرؤية اللطيف: ضد الكثيف، واللطيف في العمل: الرفق فيه.

بعد ان ذكر سبحانه البراهين الدالة على توحيده بالخلق والتدبير في هذا الكون - ذكر هنا بعض انواع الشرك التي كانت منتشرة عند العرب وكثير من الأمم، وهي اتخاذ شركاء لله من علام الجن المستتر عن العيون. وهم لا يعرفون من هم الجن، ولكنها الوثنية هذا كما اخترعوا لله نسلًا من البنين والبنات. . . لقد قالوا ان الملائكة والشياطين شركاء لله، وقد خلقهم الله جميعاً، فإذا كان هو الذي خلقكم فكيف يكونون شركاء له في الألوهية والربوبية!!
{وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ} .

فقد قال مشركو العرب: ان الملائكة بنات الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله كل هذه الادعاءات لا تقوم على أساس من علم، بل هي الجهل المطبق.

{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ} .

تنزه الله تعالى عن كل نقص ينافي انفراده بالخلق والتدبير.

قراءات:

قرأ نافع وأهل المدينة «خرقوا» بتشديد الراء.

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} .

هنا يواجه كذبهم واختلاقهم بالحقيقة الالهية ويكشف لهم جهلهم وأوهامهم، فيقول: ان الله هو الذي انشأ السماوات والارض على غير مثال سبق، فكيف يكون له ولد، كما يزعم هؤلاء، مع انه لم تكن له زوجة، ولقد خلق جميع الاشياء بما فيها هؤلاء الذين اتخذوهم شركاء له، فكيف يخلقهم ويشاركون في القدرة على الخلق؟ انه هو عالم بكل شيء يحصي عليهم ما يقولون وما يفعلون.

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ} .

ذَلِكُمُ اللَّهُ الْمُنَزَّهَ عَنْ كُلِّ مَا يَصِفُونَهُ بِهِ، الْمُتَصِفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا كَانَ وَمِمَّا سَيَكُونُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ. فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ. وَهُوَ مَعَ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ الشَّأْنُ مُتَوَلٍّ جَمِيعِ الْأُمُورِ، يَدِيرُ مَلِكُهُ بَعْلَهُ وَحَكَمَتُهُ، فَيَرْزُقُ عِبَادَهُ، وَيَكْلُؤُهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

{(*) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} .

أَيُّ لَا تُبْصِرُ ذَاتَهُ الْعَيُونُ، لَكِنَّهُ يَعْلَمُ الْأَبْصَارَ وَالْبَصَائِرَ، وَهُوَ الرَّفِيقُ بِعِبَادِهِ وَالْخَبِيرُ بِخَلْقِهِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ.

٦٠٣٢ 104

البصائر: جمع بصيرة، لها عدة معان: العبرة، والمعرفة الثابتة باليقين، والشاهد للأمر والحجج، والقوة التي تدرك بها الحقائق العلمية، وعقيدة القلب. أما البصر فهو الذي تدرك به الأشياء الحسية.

والمراد بالبصائر هنا الآيات الواردة في هذه السورة أو القرآن كله بعد أن أقام الله الأدلة والبراهين الواضحة على توحيده وكمال قدرته وعلمه، قرّر هنا أمر الدعوة والرسالة، وحدود تبليغ النبي ﷺ لأوامر ربه، قل أيها النبي للناس: من خالقكم جاءكم هذه الآيات البينات كدلائل تبصرون فيها من الحجج الكونية والبراهين العقلية، كيما تثبت لكم عقائد الحق اليقينة التي عليها مدار سعادتكم في دنياكم وآخرتكم وأنتم أحرار بعد ذلك فمن أبصر فلنفسه قدّم الخير وبلغ السعادة، ومن عمي عن الحق، وأعرض عن سبيله، فعلى نفسه جنى إنني لست عليكم بحافظ ولا رقيب.

٦٠٣٣ 105

نصّر الآيات: نأتي بها متواترة حالا بعد حال، مفسرين لها في كل مقام بما يناسبه. درس الكتاب والعلم يدرسه درسا ودراسة ومدارسة: قرأه وتعلمه.

يتجه الخطاب هنا الى الرسول الكريم، فيتحدث عن تصريف الآيات على مستوى لا يمكن أن يأتي به النبي الأُمِّي من عنده. وفي ذلك إشارة الى أن المشركين يعلمون حق العلم أن النبي محمداً عاش بينهم ولم يدخل مدرسة، ولم يجلس إلى معلم، ومع هذا فهم يعاندون فيقولون: إن محمداً درس هذه القضايا العقيدية والكونية مع أحد أهل الكتاب.

كيف هذا وما كان شيء من حياتك يا محمد خافياً عليهم، لا قبل الرسالة ولا بعدها! وكيف هذا وليس من أهل الكتاب من يعلم شيئاً على هذا المستوى! ان كتب أبجلاً لكتاب موجودة قائمة، والمسافة شاسعة بين ما فيها وما فيه هذا القرآن الكريم. ولا نريد أن نقول في هذه الكتب التي بين أيديهم شيئاً، لكن علماءهم وكتّابهم انتقدوها وبنوا كثيراً من زيفها وتحريفها. وقد صدر حديثاً كتاب لعالم وطبيب فرنسي كبير هو الدكتور «موريس بوكاي» جعل اسمه «القرآن والتوراة والانجيل والعلم» وفيه بين هذا العالم الكبير عبد دراسته التحليلة أن القرآن لا يتناقض مع الحقائق العلمية والتاريخية، خلافاً للتوراة والانجيل. وهو يقول: «لقد اعتبر الاسلام دائماً أن هناك اتفاقاً بين معطيات كتابه المقدس والواقع العلمي. ولم تكشف دارسه نص القرآن في العصر الحديث عن الحاجة الى إعادة النظر في هذا. وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية. وهي وقائع كثيرة جداً، خلافاً لقلتها في التوراة. وليس هناك أي وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية، وبين تعدد الموضوعات ذات السمة العلمية وكثرتها في القرآن.

وعلى سبيل المثال، نحن نجهل التاريخ التقريبي لظهور الانسان على الارض. . . لكننا لا نستطيع علمياً قبول صحة نص سفر التكوين الذي يورد أنساباً وتواريخ تحدّد أصل ظهور الانسان (خلق آدم) بحوالي ٣٧ قرناً قبل المسيح. . . هذا فيما نستطيع ان نظمّن إلى

أنه لن يمكن أبداً إثبات أن الإنسان قد ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة كما يقول التاريخ العبري في ١٩٧٥. وبناء على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقديم الإنسان غير صحيحة.

وان الدراسة التي نقدمها الآن تختص بما تُنبئنا به الكتب المقدسة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية المتنوعة الكثيرة، والتي تحيطها تلك الكتب بقليل أو بكثير من التعليقات والشروح. ولا بد من الملاحظة ان الوحي القرآني غني جداً في تعدد هذه المواضيع، وذلك على خلاف ندرتها في العهدين القديم والجديد.

لقد قُتْ أولاً بدراسة القرآن الكريم، وكان ذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث.

وكنتم أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات- ان القرآن يذكر انواعا كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة ادرت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في لعصر الحديث.

وبنفس الموضوعية قُتْ بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل: أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب الى ابعاد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، حيث وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأنجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة، ونعني بها شجرة انساب المسيح. ذلك أن نص إنجيل متّى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا. اذ أن هذا الاخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقديم الإنسان على الأرض. غير ان وجود هذه الامور المتناقضة وتلك التي لا يحتلها التصديق، وتلك الأخرى التي لا تتفق والعلم- لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الايمان بالله. ولا تقع المسؤولية فيها إلا على البشر. ولا يستطيع أحدا أن يقول كيف كانت النصوص الاصلية، وما نصيب الخيال والهوى في عملية تحريرها، او ما نصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص، او ما نصب التعديلات غير الواعية التي ادخلت على الكتب المقدسة.

ان ما يصدمننا حقاً في أيامنا هذه ان نرى المتخصصين في دراسة النصوص يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة، او نراهم يكشفون عن بعض نقاط الضعف ليحاولوا التستر عليها، مستعيني في ذلك ببهلوانات جدلية.

وسنقدم في هذا الكتاب أمثلة لاستخدام وسائل التستر على التناقض او على امر بعيد التصديق، مما يسمونه «صعوبة» استحياءً منهم، وأنه كان ناجحاً في كثير من الاحيان. وهذا ما يفسر لنا كيف ان كثيراً من المسيحيين ظلوا يجهلون نقاط الضعف الخطيرة في كثير من المقاطع في العهد القديم وفي الأنجيل وسيجد القارئ في الجزئين الأول والثاني من هذا الكتاب امثلة صحيحة في ذلك.

اما الجزء الثالث فسيد فيه القارئ أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة، وهو تطبيق لم يكن يتوقعه الانسان كما سيجد القارئ في ذلك بياناً لما قد جاء به العلم الحديث الذي هو في متناول كل يد، من اجل فهم أكل لبعض الآيات القرآنية التي ظلت حتى الآن مستغلة او غير مفهومة. ولا عجب في هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائماً ان الدين والعلم توأمان متلازمان.

فند البدء كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. والواقع أن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى الى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الاسلامية. تلك الحضارة التي اقتان منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوروبا. ان التقدم الذي تم اليوم، بفضل المعارف العلمية، في شرح بعض ما لم يكن مفهوماً، أو بعض ما قد أسيء تفسيره حتى الآن، من آيات القرآن- ليس شكلاً قمة المواجهة بينالعلم والكتب المقدسة ».

هذه مقتطفات مختصرة جداً من مقدمة هذا الكتاب الرائع الذي يقدم لنا شهادة صادقة صادرة عن دراسة وبحث بأمانة وحياد وشجاعة بدون تحيز ولا تعصب.

{وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} .

وبمثل هذا التنوع في عرض الدلائل الكونية، نعرض آياتنا في القرآن منوعة مفصلة، لنقيم الحجة بها على الجاحدين، فلا يجدوا الا اخلاق الكذب، فيهتموك بأنك تعلّمت من الناس لا من الله.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو» دارست «وابن عامر ويعقوب» درست «بصيغة الماضي.

هكذا بين سبحانه لرسوله ان الناس في شأن القرآن فريقان: فريق فسدت فطرتهم ولم يبقَ لديهم استعداد لهدية، ولا للعلم بما فيه من تصريح الآيات، ومن ثم كان نصيبهم منه الجحود والانكار. وفريق آخر اهتدى به وعمل بما فيه. . من ثم أمر رسوله ان يتبع ما أوحى اليه من ربه، وان يُعرض عن المشركين، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم.

{اتبع مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} .

اتبع أيها النبي ما جاءك به الوحي من الله، هو المعبود الواحد الذي لا شريك له فالتزم طاعته، ولا تبال بعناد المشركين وإصرارهم على الشرك.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} .

ولو شاء الله ان يلزمهم الهدى لهداهم، ولكنه تركهم لاختيارهم، فلقد خلق تعالى الناس بهذا الاستعداد للهدى والضلال، {فَنَ شَاءَ فليؤمن وَمَنْ شَاءَ فليكفر} وما جعلناك يا محمد رقيباً تحصي عليهم اعمالهم، ولا أنت بمكلف أن تقوم عنهم بتدبير شئونهم وإصلاح أمرهم.

٦٠٣٤ 108

عدواً: ظلماً.

بعد أن أمر الله تعالى رسوله الكريم بتبليغ وحيه قولاً وعملاً، وبالإعراض عن المشركين، وبيّن له أن سنة الله في البشر ان لا يتفقوا على دين واحد، لاختلاف استعدادهم وتفاوتهم في درجات الفهم والفكر- وجه الحديث هنا الى المؤمنين طالباً منهم أن يقابلوا المشركين والمخالفين بأدب، فلا يسبوا آلهتهم مخافة ان يحملوا المشركين على سب الله سبحانه. فقال: لا تسبوا الله تعدياً وسفهاً، كذلك زيناً لكل أمة عملهم، كفرأ وإيماناً، حسب استعدادهم، ثم يرجع الجميع إلينا يوم القيامة ونجازيهم على أعمالهم بما يستحقون.

قراءات:

قرأ يعقوب «عدواً» بضم العين والdal وتشديد الواو، والباقون «عدوا» بفتح العين وسكون الdal. والمعنى واحد.

٦٠٣٥ 109

الطغيان: مجاوزة الحدود. يعمهون: يترددون في الضلال، والعمه للبصيرة كالعمى للبصر.

وأقسموا بالله بأقصى أيمانهم أن لو ظهرت لهم معجزة مادية يرونها بأعينهم لآمنوا، فقل لهم ايها النبي: إن الله يُظهر الآيات متى شاء لا حسب رغباتكم بل ما يدرك أنهم لن يؤمنوا حتى لو ظهرت! هكذا فعل أسلافهم.

ونقلّب قلوبهم وعيونهم فلا يعقلونها، ولا يبصرونها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمن آباؤهم بالحق اول مرة، وندعهم في ظلمهم وظغيانهم يترددون.

هنا انتهى الجز السابع، والحمد لله الذي هدانا لهذا، اللهم ثبت اقتدنا وابصارنا على الحق واحفظنا واهدنا الصراط المستقيم.

قُبْلًا: مواجهة ومعانية، وبعضهم قال: قبلا جمع قبيل، يعني قبيلة قبيلة. الشيطان: المتمرد العاتي من الجن والانس. يوحى: يعلم بطريق خفي. الزخرف: الزينة، وكل ما يَصْرِفُ الساع عن الحقائق الى الأوهام. الغرور: الخداع بالباطل. تصغى: تميل الفعل الماضي صَغِيَ يصغى. اقترف الذنب: ارتكبه، واقترف المال اكتسبه. العدو: ضد الصديق، يطلق على الجمع والمفرد.

بعد ان بين سبحانه في الآيات السابقة ان مقترحي الآيات الكونية أقسموا بالله لو جاءتهم آية ليؤمنن بها، وان المؤمنين ودُّوا لو أُجِيبَ اقتراحهم، وبين الخداعة في ذلك الاقتراح- فصل هنا ما أجمله في قوله {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} فقال: {وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ . الآية} .

وهذه الآية متعلقة بما كان يقترحه مشركو العرب على الرسول منا لحوارق فيكون المعنى: ان اولئك الذين أقسموا ان يؤمنوا اذا جاءتهم آية قوم كاذبون. فحتى لو نزلنا إليهم الملائكة يرونهم رأي العين، وكلهم الموتى بعد إحيائهم واخراجهم من قبورهم، وجمعنا لهم كل شيء مواجهة وعياناً- لظلوا على كفرهم، ما لم يشأ الله تعالى أن يؤمنوا. إن اكثر هؤلاء المشركين يا محمد يجهلون الحق، قد امتلأت قلوبهم بالحق والعدا.

قراءت

قرأ نافع وابن عامر «قَبْلًا» بكسر القاف وفتح الباء، والباقون «قبلا» بالضم.

قال ابن عباس: كان المستهزئون بالقرآن خمسة: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاصي ابن وائل السهمي، والأسود بن يغوث الزهري، والأسود بن المطلب، والحارث بن حنظلة: أتوا رسول الله في رهط من أهل مكة وقالوا: أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله، او ابعث بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول أم باطل؟ او ائتنا بالله والملائكة قبيلة.

فالآية ترد عليهم باطلهم وتعتهم.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ}

ومثلا أن هؤلاء عادوك يا محمد وعاندوك رغم أنك تريد هدايتهم فقد واجه كل نبي جاء قبلك أعداء مثلهم. وكانوا من الإنس والجن، يوسوس بعضهم لبعض بكلام مزخرف لا حقيقة فيه، فيشحنونهم بالغرور والباطل. وكانوا يفعلون ذلك بطرق خفية لا يفتن الى باطلها إلا قليل. ولو شاء الله ما فعلوه، لكن ذلك كله بتقدير الله ومشيتته، لتحيص قلوب المؤمنين. فترك يا محمد الضالين وما يفترون من كذب، وامض لشأنك، فأنصر لك آخر الأمر.

{وَلَتَصْغِي إِلَيْهِ أَفْتَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} .

ان قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لتستمع الى ذلك الخداع والقول المموه بالباطل فهؤلاء يحضرون همهم كله في الدنيا، ويعتقدون أن الحياة هي الدنيا فقط، وينالون أبتاع النبي بالأذى.

{وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} .

يعني: تميل افئدة المشركين الى الباطل وترضاه وتخضع للشياطين، ومعجبين بزخرفهم الباطل، فليرتكبوا من هذه الدسائس ما هم مرتكبون فانهم لن يضروك بشيء.

الحكم: من يتحكم الناس اليه. مفضلاً: مبيناً فيه الحلال وكل ما يحتاجه البشر من الأحكام. الممترين: الشاكين. كلمة ربك: القرآن الكريم. تمام الشيء: انتهاؤه الى حد لا يحتاج الى شيء خارج عنه وتماها هنا كافية وافية. . . والصدق في الإخبار ومنها المواعيد، والعدل يكون في الاحكام لا مبدل لكلماته: لا يتغير فيها.

ذَكَرَ اللهُ هُنا المبدأ الاسلامي الأول وهو مبدأ حق الحاكِمية المطلقة لله وحده، وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق او مزاولته في أي صورة من الصور، كما بيّن أنه أنزل القرآن الكريم، وهو الآية الكبرى، وأقوى الأدلة على رسالة نبيّه، وهو الذين يجب الرجوع اليه في امر الرسالة واتباع حكمه فيها.

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا} .

قل لهم ايها النبي: ليس لي أن أتعدّي حكم الله، ولا أن أطلب حكماً غيره يفصل بيني وبينكم. لقد أنزل القرآن الكريم مفصلاً واضحاً ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وبيّن في المبادئ الاساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة، كما تضمن أحكاماً تفصيلية والعلمية. وبهذا وذاك كان في القرآن غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة. ويعلم الذين أوتوا الكتاب أن القرآن منزل من عند الله مشتملاً على الحق، كما بشرت به كتبهم، لكنهم يحاولون إخفاء ذلك وكتمانه، فلا تكونن يا محمد انت ومن اتبعك من الذين يشكون في الحق بعد ان بيناه.

{وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} .

ان حكم الله قد صدر، فتمت كلمات ربك الصادقة العادلة فيما وعدك به من نصر، وأوعد المستهزئين بالقرى، من خذلان. وليس في قدرة أحد أن يغير كلمات الله وكتابه، وهو سميع لك ما يقال عليم بكل شيء.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم: «منزل» بالتشديد. والباقون «منزل» بالتخفيف. وقرأ الكوفيون ويعقوب «كلمة ربك» والباقون «كلمات» بالجمع.

٦٠٣٨ 116

يُخْرِصُونَ: يقولون بالظن، ويكذبون سبيله: طريقه، وهو دين الله القويم.

بعد أن أجاب الله تعالى عن شبهات المشركين- قرر هنا أنه لا ينبغي للنبي الالتفات الى ما يقوله اولئك الضالّون، لأنهم يريدون أن يضلّوا المؤمنين. وهم لا يتبعون في كلامهم الا الكذب والظن الفاسد.

{وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ} .

واذا كان الله تعالى هو الحكم العدل الذي يرجع الى كتابه في طلب الحق ومعرفة، فلا تتبع أيها النبي أنت ومن معك أحدا يخالف قوله الحق، ولو كانوا عدداً كثيراً. إنك إن تفعل، يبعدوك عن طريق الحق المستقيم، لأنهم لا يسرون الا وراء الظنون والأوهام.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ} .

ان ربك هو العليم بالذين بعدوا عن طريق الحق، وبمن هو من المهتدين.

٦٠٣٩ 118

بعد أن بين الله ضلال مشركي العرب ومن على شاكلتهم في عقائدهم، لأنهم خراصون ضالون- أردف ذلك بيان مسألة هامة لها خطرها هي مسألة الذبائح لغير الله.

{فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} .

واذا كان الله تعالى هو الذي يعلم المهتدين من الضالين، فلا تلتفتوا أيها المؤمنون الى ضلال المشركين في تحريم بعض الانعام. كلوا منها، فقد رزقكم الله إياها، وجعلها حلالاً لكم، واذكروا اسم الله تعالى عليها عند ذبحها إن كنتم مؤمنين.

وكان مشركو العرب وغيرهم من الوثنيين وارباب الملل المختلفة يجعلون الذبائح من امور العبادات، ويقرونها بأصول الدين والاعتقادات، فيتعبدون بذبحها لآلهتهم ولمن قدسوا من رجال دينهم، وهذا شرك بالله.

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} .

ليس لكم أي مبرر او دليل يمنعكم ان تأكلوا مما يذكر اسم الله عليه عند ذبحه من الأنعام ولقد بين سبحانه وتعالى المحرم في غير حال الاضطرار، كالميتة والدم، بيد أن كثيراً من الناس يضلون غيرهم بأهوائهم الزائفة من غير علم او برهان.

قراءات ابن كثير وابو عمرو وابن عامر: «فصل» بضم الفاء، والباقون «فصل» بفتح الفاء وقرأ نافع ويعقوب وحفص: «حرم عليكم» بفتح الحاء، والباقون: «حرم» بضم الحاء.

وقرأ الكوفيون: «ليضلون» بضم الياء، والباقون «يضلون» بفتح الياء.

٦٠٤٠ 120

ذروا: اتركوا. الاثم: كل ما حرمه الله ظاهر الاثم ما تعلق بالجوارح من الاعمال، والباطل ما تعلق باعمال القلوب، كالكبر والحسد وتدمير المكابد الضارة بالناس.

يقترفون: يكتسبون.

اتركوا أيها المؤمنون جميع الاعمال المحرمة وابتعدوا عنها، فالتقوى الحقيقة هي في ترك الاثم ظاهره وباطنه، أما الذين يكسبون الإثم فسيُجزون بما اقترفوا من سيئات.

وإذا كانت الأنعام حلالاً لكم بذبحها، فلا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه عند ذبحه. إن ذلك فسقٌ وخروج عن حكم الله، وإن المفسدين من شياطين الإنس والجن ليؤسوسون في عقول من استولوا عليهم ليجادلوكم بالباطل، علّهم يُقنعونكم بأكل الذبائح التي يذكرون عليهم اسم آلهتهم، او يخرونها لليسر. ومثل ذلك شأن الميتة، فقد كان المشركون يجادلون المسلمين في تحريمها، ويقولون إن الله ذبحها، فكيف يأكل المسلمون مما ذبحوا بأيديهم، ولا يأكلون مما ذبح الله؟ ان هذا من السخف، فإن قبلتموه وأطعتموهم كنتم مثلهم في الشرك بالله.

ونجد الأئمة رحمهم الله قد اختلفوا في هذه المسألة على ثلاثة اقوال:

فبعضهم يقول: ان لك ذبيحة لم يذكر اسم الله عليها او سهواً لا يحل أكلها مطلقاً. وهذا القول مروى عن ابن عمر ومولاه نافع، ورواية عن مالك، وعن احمد بن حنبل ومذهب ابي ثور، وداود الظاهري.

والقول الثاني: ان التسمية على الذبيحة ليست شرطاً بل هي مستحبة. . . فإن تركها عمداً أو نسياناً لا يضر. وهذا مذهب الإمام الشافعي وجميع أصحابه. وروي ذلك عن ابن عباس وابي هريرة، وعطاء بن رباح، وقالوا: إن النهي كان عن الذبائح التي تذبحها قريش لآلهتهم، أما ترك التسمية فلا يضر.

والقول الثالث: إن ترك التسمية سهواً لا يضر، وان تركها عمداً لم تحل. وهذا هو المشهور من مذهب مالك وأحمد بن حنبل، وبه يقول ابو حنيفة واصحابه، وهو مروى عن سيدنا علي وابن عباس والحسن البصري وغيرهم.

قال ابن جرير في تفسيره: اختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نسخ من حكمها شيء ام لا؟ فقال بعضهم: إنها محكمة ولم ينسخ منها شيء، وقال بعضهم: إنها نسخت بقوله تعالى: {اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم} .

ثم قال ابن جرير: والصواب: انه لا تتعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما يذكر اسم الله عليه. وهذا هو الصحيح.

وبعض العلماء يرى أن ما يُذبح عند استقبال ملك أو أمير حرام، ولا يجوز أكله وفي هذا تشديد وتزمت، فإن مثل هذه الذبائح حلال، وليست محرمة، لأن الناس لا يعبدون هؤلاء الذين ذبحوا لهم عند قدومهم. وليس هذا الاستبشار بقدومهم إلا كذبح العقيقة للولود

المثل والمثل (بفتح الميم وكسرها) الشبه والنظير. الأكبر: الرؤساء اصحاب النفوذ. المجرم: فاعل الفساد والضرر. القرية: البلد المكر: الخديعة، وصرف المرء عن مقصده الى غيره بالحيلة. هنا مقارنة فبعد ان بين الله تعالى ان اكثر الناس ضالّون يتبعون الظن، وأن كثيراً منهم يضلّون غيرهم بغير علم، وكيف أن من الشياطين متمردين على أمر ربهم، يظلّون يوسوسون الى أوليائهم، ويحاولون ان يزعزعا ايمان المؤمنين، كما بين الفرق بين المؤمنين المهتدين حتى يقتدي الناس به، والكافرين الضالّين للنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم- أراد هنا ان يقارن بين الفتنتين فصور لنا صورة تمثيلية بديعة ملخصها:

أَفَن كَانَ مِيتًا بِالْكَفَرِ وَالْجَهْلِ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْإِيمَانِ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَسِرُ عَلَى هَدْيِهِ فِي عِلَاقَاتِهِ بِالنَّاسِ، وَيَكُونُ بِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، أَمْرٌ دِينُهُ وَآدَابُهُ- هو في حلا مثل حال ذلك الذي يعيش في ظلام الجهل والكفر، والتقليد الاعمى وفساد الفطرة!! كما زين الإيمان في قلوب المؤمنين، زين الشيطان الشرك في نفوس الظالمين الجاحدين. {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا. . . الآية} .

لا تعجب أيها النبي إذا رأيت أكبر المجرمين في مكة يدبرون الشر ويتفنون فيه. إن سنة الله في الاجتماع البشري قد قضت أن يكون في كل مجتمع زعماء مجرمون يُمَكِّرون بالرسول والمصلحين، لكن عاقبة هذا المكر والإجرام لاحقة بهم، منصبة عليهم. {وَمَا يُمَكِّرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} وإن كانوا لا يشعرون بذلك.

الصغار: الذل والهوان.

يبين الله تعالى هنا تعنت المشركين وعنادهم وحسدكم للنبي ﷺ فيقول: إن هؤلاء الكبار من المجرمين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من علم ونبوة وهدايته، فإذا جاءتهم حجة قاطعة تتضمن صدق الرسول الكريم لا يدعون لها. بل يقولون: لن نؤمن بها حتى ينزل علينا الوحي كما ينزل على الرسل.

هكذا قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقاً لكنّت أولى بها من محمد، فأنا أكبر منه سنّاً، وأكثر منه مالاً وولداً. وقال ابو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً، الا ان يأتينا وحي كما يأتيه.

وقد رد الله عليهم جهالتهم وبين لهم خطأهم بقوله: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} .

فإن الله تعالى وحده هو الذي يعلم من يستحق الرسالة، وهي فضل من الله يمنحه من يشاء، لا ينالها أحد يكسب، ولا يتصل إليها بسبب ولا نسب وهي أمر لا يورث حتى ينتقل من والدها الى ولده، ولا فضل لقربة او اشتراك في الدم. وقد جعلها سبحانه حيث علم، واختار لها اكرم خلقه وأخلصهم، محمداً خيراً الخلق وخاتم النبيين.

ثم أوعد الله المكابرين وبين سوء عاقبتهم لعدم استعدادهم للإيمان فقال: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} .

إذا كان هؤلاء يطلبون الرياسة بهذا العناد، فسينالهم الصغار والذل في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة، جزاء مكرهم وتدبيرهم السيء. وقد عذب الله أكبر مجرمي مكة الذين تصدّوا لإيذاء النبي عليه الصلاة والسلام، فقتل منهم من قتل في بدر، ولحق الصغار والهوان بالباقيين، وسينالهم العذاب الشديد في الآخرة، والعاقبة للمتقين.

قراءات: قرأ ابن كثير وحفص (رسالته) ، والباقون (رسالاته) بالجمع.

٦٠٤٣ 125

شرح الصدر: توسيعه، ويراد به جعل النفس مهيأة لتقبل الحق. الضَيِّقُ والضَيِّقُ (بالتشديد والتخفيف) ضد الواسع. الحرج: شدة الضيق. الحرجة: الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض بحيث يصعب الدخول فيه يصعد في السماء: يرتفع الى أعلى فيضيق نفسه الرجس: كل ما يُستقذر، واللعة في الدنيا، والعذاب في الآخرة. يوازن الله تعالى في هذه الآية بين الضالين المستكبرين، وبين المستعدين للإيمان بما جاء به الرسول الكريم. فيقول: اذا كان أولئك الاشرار قد ضلّوا واهتديتم، فبارادة الله تعالى وقضائه، فمن يكتُبْ له الهداية يتسع صدره لنور الاسلام، ويستقبله في سر ورغبة. ومن يكتُبْ عليه الضلال يجعل صدره ضيقاً شديداً الضيق، كأنه من شدة الضيق كمن يصعد الى مكان شديد الارتفاع فتتقضع أنفاسه. بهذا يكتب الله الخذلان على الذين لم يهتدوا.

وقد اثبتت الدراسات العلمية أنه كلما ارتفع الانسان أخذ التنفس يضعف ويضيق لقلّة الاوكسجين في الهواء. وذلك أن الطبقات العليا من الهواء اقل كثافةً من الطبقات التي هي أدنى منها. ولذلك نرى الطائرات الحديثة الآن مكيفةً ومجهزة بأحدث الاجهزة لوقاية الركاب فيها. {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} .

قراءات: قرأ ابن كثير: «ضَيِّقاً» والباقون: «ضَيِّقاً» بالتشديد. وقرأ نافع وابو بكر عن عاصم: «حرجاً» بكسر الراء، والباقون «حرجاً» بفتح الحاء والراء. وقرأ ابن كثير «يُصْعَدُ» بسكون الصاد وفتح العين بدون تشديد، وابو بكر عن عاصم: «يُصَاعِدُ» بمعنى يتصاعد.

٦٠٤٤ 126

صراط ربك: طريقه الذي ارتضاه، ودينه القويم المستقيم: الذي لا اعوجاج فيه ولا زيف. دار السلام: الجنة. وليهم: متولّي أمورهم، وكافهم كل ما ما يهمهم. ان هذا الذي بيناه هو طريق الحق المستقيم، هو الاسلام الذي يشرح له صدر من يريد هدايته، ولقد فصلناه ووضحناه للناس، كي ينتفع به الذين من شأنهم التذكر وطلب الهداية. وهؤلاء السالكين صراط ربهم دار السلام وهي الجنة، حيث يظلّون في ولاية الله ومحبه، بسبب ما عملوا في الدنيا من خير.

٦٠٤٥ 128

المعشر: النفر والقوم. الرهط: الجمع من الرجال. استكثر الشيء: اخذ منه الكثير اوليائهم: الذين تولوهم اي اطاعوهم في وسوستهم. الاستمتاع بالشيء: الانتفاع به طويلاً. بلغنا اجلنا: وصلنا يوم البعث والجزاء. المثوى: مكان الاقامة. الخلود: المكث الطويل غير المحدود.

في الآيات السابقة بين الله حال الذين سلكوا صراطه المستقيم، وان الله شرح صدورهم، وجزاؤهم الجنة، فهم في كفالة ربهم ناعمون. وهنا يعرض سبحانه وتعالى حال الذين سلكوا طريق الشيطان. وهو يعرض يوم الحشر في القيامة وما فيه من هول، في مشهد حيّ حافل بالحوار، فيقول: {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً يَأْمُرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ. . .} .

يوم يحشر الله تعالى الخلق جميعاً من انس وجنّ، ويقول جل جلاله: يا معشر الجن، قد أكثرتم من إغراء الانس حتى تبعكم منهم عدد كثير. فيقول الذين اتبعوهم من الانس {رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} ربنا، لقد انتفع بعضنا ببعض، واستمتعنا بالشهوات، وبما كان لنا

في طاعتهم ووسوستهم من اللذة والانغماس في الشهوات، {وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا} ثم إننا قد وصلنا الى الأجل الذي حددته لنا، وهو يوم البعث والجزاء، وقد اعترفنا بذنوبنا فاحكم فينا بما تشاء. وما هذا الاعتراف الا من نوع الحسرة والندامة على ما كان منهم من التفريط في الدنيا. فيقول جل جلاله:

{قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} .

ان النار منزلكم ومقرم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ينقذهم، فكل شيء بمشيئته واختياره، فله السلطان الكامل، {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} وهو حكيم فيما يفعل ويختار، عليم بما يستحقه كل من الفريقين.

وفي قوله تعالى {إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} فسحة كبيرة وبشرى عظيمة بسعة حلمه ورحمته، انه غفور رحيم. {وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} .

ومثل ذلك الذي ذكر من استمتاع اولياء الانس والجن بعضهم ببعض، نولي بعض الظالمين بعضاً بسبب ما كانوا يكسبون من الجرائم والجرائم.

روى ابو الشيخ عن منصور بن أبي الأسود قال: سألت الاعمش عن قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} قال: معناه كما سمعت من اشياخي: «اذا فسد الناس أمر عليهم شرارهم. وذلك ان الحكم يتصرفون في الأمم الجاهلة الضالة تصرف رعاة السوء في الأنعام السائمة» .

ولذلك تفرد الاسلام بوضع هذا الدستور العظيم، جعل أمر الأمة بين أهل الحل والعقد، وأمر الرسول بالمشاورة، لئلا يتفرد بالحكم طاغية يتحلل من الرقابة.

وانما يؤي الله الناس بأعمالهم، فالؤمن ولي المؤمن من اين كان وحيثما كان، والكافر ولي الكافر من اين كان وحيثما كان. وهذا ما نشاهده الآن من تجمع اولياء الشياطين من الكفار من صليبيين وصهيونيين وغيرهم.

وكلهم في صف واحد ضد الاسلام والمسلمين، وهم يدعمون اليهود ويساعدونهم لك ما لديهم من قوة وسلاح كما تفعل امريكا في الوقت الحاضر، وبريطانيا قبلها، ليحاربوا المسلمين ويسلبوا وطنهم ومالهم. إنه تجمع يتجلى فيه قوله سبحانه: {وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} .

والله سبحانه وتعالى غالب على أمره، وقد بشرنا بقوله:

{إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} .

ونحن نأمل في أن تتجمع قوى المسلمين على قلب واحد، لهدف واحد هو تخليص أرضنا المقدسة، فلسطين، من براثن الأعداء. قراءات:

قرأ حفصل عن عاصم، وروح عن يعقوب: «يحشرهم» بالياء، كما هو في مصحفنا. وقرأ الباقون «نحشرهم» بالنون.

٦٠٤٦ 130

الخطاب هنا موجه الى الجن والإنس معاً، فهل ارسل الله الى الجن رسلاً منهم كما ارسل الى الإنس؟ يقول جمهور العلماء: ان الرسل كلهم من الإنس كما يدل عليه ظاهر الآيات الاخرى. اما عالم الجن فهو غيبي لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص. وقد دل القرآن الكريم والاحاديث الصحيحة على ان النبي علي الصلاة والسلام قد أرسل إليهم ايضا في قوله تعالى:

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. . . الآيات} من سورة

الاحقاف. فهذا يدل على ان الرسل من الإنس وحدهم، وان الجن كانوا يستمعون لهم وينذرون أقوامهم. فالله تعالى يقول لهم يوم القيامة: يا أيها الإنس والجن، لقد جاءكم الرسل يذكرون لكم الحجج والبيّنات، ويتلون عليكم الآيات المبيّنة لأصول الايمان، والفصلّة لأحكام الشرائع، وينذرونكم لقاء الله في هذا اليوم العصيب، فكيف تكذبون؟ فأجابوا: قد أقررنا وشهدنا على أنفسنا بما ارتكبنا ولكنهم:

{وَعَرَّضْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} قد خدعتم الحياة في الدنيا ومتاعها من الشهوات والاموال والاولاد، وحبّ التسلط على الناس. بذلك أقرّوا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا جاحدين كافرين بالآيات والندر. ثم يلتفت سبحانه وتعالى بالخطاب الى الرسول الكريم والمؤمنين، والى الناس اجمعين فيقول:

{ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} .

وهذا من رحمة ربنا تعالى بنا جميعا، فهو لا يؤاخذ الناس حتى على الشرك والكفر حتى يرسل اليهم الرسل، كما بين ذلك في عدد من الآيات منها: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} . فالله سبحانه لا يهلك القرى بظلمهم وأهلها غافلون عن الحق، بل يهيم على يد رسله أولاً، فإن تماردوا نالوا جزاءهم. وعلاوة على ان هذه الآيات تصوّر رحمة الله بالانسان وفضله عليه، فإنها أيضاً تقرر ان العقل والمدارك وحدها لا تكفي، ولا تعصم من الضلال، ما لم تساندها العقيدة ويضبطها الدين.

ثم يختم بتقرير لطيف في شأن الجزاء، للمؤمنين وغيرهم على السواء، فيقول: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} . أي أن لكل عامل خير أو شر درجاته من جزاء ما يعمل. . . ان خيرا خيرا، وان شرا فشر، والله تعالى غير غافل عما يعملون، بل ان عملهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

٦٠٤٧ 133

يذهبكم: يهلككم. يستخلف: يأتي بغيركم، وينشء نسلًا جديداً غيركم. بمعجزين: لا تعجزونني. المكانة الحال التي هي عليها. عاقبة الدار: عاقبة الدنيا.

عبد أن قرر تعالى في الآيات السابقة حجة الله على المكلفين بعد إرساله الرسل اليهم بين أنهم يشهدون على انفسهم يوم القيامة انهم كانوا كافرين، وأوضح أنه لا يعذب أحدا ظلماً وعدواناً - بين أنه تعالى غني عن العباد وعن ايمانهم به. من ثم فإنهم إذا احسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم. بل ان رحمته للتجلى في الإبقاء على الناس، وان كانوا عصاة مشركين ظالمين، مع انه قادر على ان يهلكهم، وينشئ غيرهم ليخلفهم.

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} .

انه هو الغني عن العباد والعبادة، وصاحب الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء.

بعد كل ما سبق اكد الله للناس ان ما وعد حق، وهو تعقيب فيه تهديد شديد.

فقال: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} .

اي ان الذي ينذرکم الله به من عقاب، او يبشرکم، به من ثواب عد البعث والحشر والحساب- آتٍ لا محالة، فلا تظنوه بعيدا. انکم لن تعجزوا من يطلبکم يومئذ، وليس لکم ملجأ تهربون اليه من دون الله.

وتنتهي التعقيبات بتهديد عميق الایحاء والتأثير في القلوب، اذا يأمر الله رسوله الكريم ان ينذرهم بقوله:

{قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} .

اي قل لهم يا محمد مهديا: اعملوا على النحو الذي اخترتموه بكل ما في قدرتكم، أما انا فساعمل على طريقي التي رباني عليها ربي، وسوف تعلمون حتماً من تكون له العاقبة الحسنة في هذا الدار الآخرة. ان الله تعالى لم يكتب الفوز للظالمين، فهم لا يفلحون ابداً.
قراءات:
قرأ حمزة والكسائي «نم يكون له عاقبة الدار» بالياء، وقرأ الباقون «تكون» بالتاء كما هو في المصحف.

٦٠٤٨ 136

الحرث: الزرع. شركاؤنا: الاوثان التي كانوا يتقربون بعبادتها الى الله تعالى، وشركاؤهم سدنة الاوثان وخدمها. ساء ما يحكون: ما اسوأ حكمهم وقسمتهم.
بعد ان حاج الله تعالى المشركين وسائر العرب في كثير من أصول الدين، وكان آخرهم البعث والجزاء- أخذ هنا يفند أفعالهم وخرافاتهم في الحرث والزرع والانعام، وفي التحليل والتحریم حسب الاهواء.
لقد أوضح ان المشركين الذين يعبدون الاوثان في أوهام مستمرة، فهم يجعلون بعض الزرع والابل والبقر والغنم من نصيب الله تعالى بأن ينفقوه على الضيوف والمحتاجين، ويجعلون البعض الآخر من نصيب الاوثان وينفقونه في خدمتها. ومعنى ذلك انهم جعلوها شركاء لله تعالى. ثم يزعمون ان منا يجعلونه للاوثان يصل إليهم وما يجعلونه لله تعالى لا يصل إليه، بل يأخذه الأضياف والفقراء «ساء ما يحكون» فما اسوأ حكمهم الظالم: لقد جعلوا الاوثان نظرا لله وسبحانه الخالق الأوحد، كما انهم أساءوا حين انفقوا ما جعلوه لله في غير مصارفه.
قراءات:
قرأ حمزة والكسائي «من يكون له عاقبة الدار» بالياء، والباقيون «من تكون» بالتاء. وقرأ الكسائي: «بزعمهم» بضم الزاي، والباقيون «بزعمهم» بفتح الزاي.

٦٠٤٩ 137

شركاؤهم: سدنة الآلهة التي يعبدونها من الاوثان. ليردوهم: ليلكؤهم. ليلبسوا: ليخلطوا عليهم. حجر: محجور ممنوع. سيجزيهم: سيعاقبهم الله على هذه المنكرات.
كما زينت لهم أوهامهم تلك القسمات الظالمة التي مر ذكرها في الآية السابقة من الحرث والابل ولا بقر وغيرها- زينت لهم أوهامهم وتضليل شركائهم من خدام الاوثان وشياطين الانس ان يقتلوا اولادهم. وكان ذلك يتم إما تديناً وتقرباً لألهتهم في الجاهلية، او بسبب من الفقر، كما جاء في بعض الآيات. ومنهم من كان يئد البنات، اي يدفن في التراب، خوفاً من العار الذي يمكن ان يلحقه به.
وكان نذر قتل بعض الأولاد جارياً في دينهم، ومن ذلك نذر عبد المطلب ان يقتل آخر اولاده ان ولد له عشرة ذكور فكان العاشر عيد الله. وفداه بمئة من الابل كما أفناه بذلك بعض الكهان.
{لِيرُدُّوهُمْ وَلِيلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ} .
لقد يزناؤهم هذه الخرافات المنكرة ليلكؤهم بالاغواء، ويفسدوا عليهم فطرتهم، حين تتقلب عواطف الوالدين من رحمة ورأفة الى قسوة ووحشية. من ثم ينخر الوالد ولده، ويدفن بنته الضعيفة وهي حية.
{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ} .
تلك مشيئة الله في خلقه بما ينتحلونه من شرائع وما يفترون عليه من كذب، فاتركهم ايها الرسول. ان عليك ان تقوم بما أمرت به من التبليغ، والله هو الذي يتولى أمرهم، وله سنن فيه هداية خلقه لا تتغير ولا تبدل.
ثم ذكر الله تعالى ثالثاً من آرائهم وديانتهن الفاسدة فقال:

{وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ .}

يعني: ومن أوهام انهم قسموا أنعامهم وزعهم أقساما ثلاثة:

١- أنعام وأقوات وحبوب وغيرها ممنوعة، تُجعل لمعبوداتهم، لا يأكلها أحد الا من يشاؤون من خدمة الاوثان، ويقولون هي «حجر» يا مجبورة للآلهة لا تعطى لغيرهم.

٢- أنعام حُرمت ظهورها، فلا تُركب ولا يُحمل عليها، كما جاء في قوله تعالى بسورة المائدة: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} .

٣- أنعام لا يذكرون اسم الله تعالى عليها عند الذبح، بل يهدونها لألهتهم وحدها وذلك لكذبهم عللله تعالى بشركهم. ان الله تعالى سيجزيهم بالعذاب في الآخرة، بسبب اقترائهم عليه وتحريمهم ما لم يحرمه هو.

ثم ذكّر نوعاً آخر من أحكامهم في التحريم بين فيه سخفهم وكذبهم على الله فقال: {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ} . . .}

ومن ديانتهم الباطلة أنهم يقولون: ان ما في بطون الأنعام التي لا تُذبح ولا تُركب هو للذكور خاصة، ويحرم على النساء. لكن لك الجنين اذا سقط ميتا اشترك في أكل لحمه الذكور والاناث فكيف يجوز ذلك! ان الله سيجزيهم على كذبهم الذي وصفوا به فعلهم، اذا ادعوا ان هذا التحريم من عند الله وهو من عند أنفسهم. إن الله عليه بكل شيء، حكيم تسيّر جميع أفعاله على مقتضى الحكمة.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} .

لقد خسر اولئك قتلوا اولادهم، ووأدوا بناتهم سفهاً وحمقاً، فالولد نعمة من الله على العبد، {المال والبنون زينة الحياة الدنيا} فاذا سعى العبد في زوال هذه النعمة خسر خساراً عظيماً، واستحقّ الذم في الدنيا، والعقاب في الآخرة.

كذلك أولئك الذين حرّموا على انفسهم ما رزقهم الله من زرع وحيوان. . . . لقد ضلّوا وبعُدوا عن الحق، فهم لا يتصفون بالهداية بحال من الأحوال.

قراءات:

قرأ ابن عامر: «وكذلك زين لكثير، المشركين قتل اولادهم شركائهم بنصب اولادهم وجر شركائهم، وهنا فصل بين المضاف والمضاف اليه. وقرأ الباقون» زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركائهم «وقرأ ابن كثير وابن عامر:» قد خسر الذين قتلوا «بالتشديد.

٦٠٥٠ 141

أنشأ: خلق الجنات: الحدائق والبساتين والكروم المتنفة الاشجار لأنها تُجنُّ الارض وتستريحها. معروشات: محمولات على العرائش. غير معروشات: الاشجار التي تقوم على سوقها ولا تحتاج الى دعائم. الأكل (بضم الهمزة والكاف): ما يؤكل متشابهاً في النظر وغير متشابه في الطعم.

ان اصول الدين التي عني بها القرآن الكريم واهتم ببيانها وكررها كثيراً هي: التوحيد، ولقد شدّد عليه لانتشار الوثنية في الجاهلية وتعدد الآلهة، والنبوة والبعث والقضاء والقدر.

وقد شدّد سبحانه وتعالى في تقرير هذه الاصول، وسفّه أراء المشركين وبين سُخفهم وجهلهم، وجاء هنا ليبين عظمة الخلق، والحث على توحيد وإفراده بالعبادة. وأنه خالق كل شيء.

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ . . .} .

الله وحده هو الذي خلق حداث منها ما يُغرس ويُرفع على دعائم كالغنب وما شابهه، ومنها ما يقوم على ساقه من مختلف الأشجار. كذلك خلق النخل والزرع الذي يُخرج ثمرًا مختلفًا في اللون والطعم والشكل والرائحة وغير ذلك، كما خلق الزيتون والرمان متشابهًا في المنظر، وغير متشابه في الطعم، مع أن التربة قد تكون واحدة وتُسقى بماء واحد. فكلوا أيها الناس من ثمر ما خلق لكم إذا نضج وطاب. وأخرجوا الصدقة منه وقت حصاده، ولا تُسرفوا في الأكل فتَضُرُّوا أنفسكم. إن الله لا يرضى عن المسرفين في تصرفاتهم وأعمالهم. فالله سبحانه بعد أن أعلم بأنه هو الذي أنشأ لهم ما في الأرض من الشجر والنبات الذي يستعملون منه أقواتهم، أعلمهم بأنه أباح لهم ذلك كله، فليس لأحد غيره أن يُحرِّم شيئًا منه عليهم، لأن التحريم حق الله وحده. فن ادّعاء لنفسه فقد جعل نفسه شريكًا له تعالى، كما أن من ادّعى التحريم غير الله أشرك معه بعض ما خلق.

قراءات:

قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم: «حصاده» بفتح الحاء، والباقون بكسر الحاء وهما لغتان.

٦٠٥١ 142

الحمولة: الكبيرة من الابل والبقر الذي يحمل الناس عليه الاثقال. والفرش: هو ما يتخذ من صوف الحيوان ووبره وشعره. الخطوات (واحدتها خطوة بضم الخاء): المسافة بين القدمين في المشي.

ولقد خلق الله لكم من الانعام، وهي الابل والبقر والضأن والماعز، ما يحمل أثقالكم، وما تتخذون من أصوابها وأوبارها وأشعارها فراشا لكم. وهي رزق من الله لكم، فكلوا ما أحلّ الله منها ولا تتبعوا الشيطان وأوليائه في افتراء التحليل والتحريم، كما كان يفعل أهل الجاهلية. . . ان الشيطان لا يردي لكم الخير لانه عدو لكم ظاهر مبين.

٦٠٥٢ 143

ثمانية أزواج: يعين أن الانعام اربعة انواع هي: الضأن والماعز، والابل والبقر، وكل نوع منه زوج. . . ذكر وانثى ما اشتملت عليه الارحام: الأجنة.

بعد أن ذكر الله تعالى أن الأنعام إما حمولة وإما فرش، فصلها وقسمها ثمانية أزواج. فالحمولة هي الابل والبقر، والغرش من الضأن والماعز، وكل من الاقسام الأربعة إما ذكر وإما انثى. وكل هذا التفصيل ليبطل ما تقولوه المشركون على الله تعالى بالتحريم والتحليل. قل يا محمد للمشركين منكرًا عليهم تحريم ما حرموا من هذا: ما علّة تحريم هذه الأزواج كما تزعمون؟ اهي كونها ذكورا؟ ليس كذلك، لأنكم تحلون الذكور أحيانا. اهي كونها إناثا؟ لي كذلك، لأنكم تحلون الإناث أحيانا. أم هي التي في بطونها «ما اشتملت عليه الارحام»؟ وليس كذلك ايضا، لأنكم لا تحرمون الأجنة على الدوام.

{تَبَيَّنْ لِي بَيِّنَاتٍ} .

اخبروني بمسند صحيح يعتمد عليه، ان كنتم صادقين فيما تزعمون في التحليل والتحريم.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو، وابن عامر، ويعقوب «المعز» بفتح العين، والباقون بسكونها.

وخلق الله من الابل زوجين، ومن البقر زوجين، قل لهم يا محمد منكرًا عليهم: ما علّة التحريم لما حرمت من هذه الأزواج كما تزعمون؟ اهي كونها ذكورا؟ ليس كذلك، لأنكم تحلون الذكور أحيانا أم هي كونها إناثا؟ ليس كذلك، لأنكم تحلون الاناث أحيانا. ام هي التي في بطونها؟ ليس كذلك ايضا، لأنكم لا تحرمون الاجنة على الدوام. وتزعمون ان هذا التحريم من عند الله.

{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا} .

اكنتم حاضرين حين وجه الله إليكم هذا التحريم فسمعتم نهيه؟ لم يكن ذلك قطعاً، فانتهاوا عما أنتم فيه. إنه ظلم، وليس هناك أظلم ممن كذب على الله فنسب اليهما لم يصدر عنه.
 {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ} .
 إن مثل هذا الأفاك إنما يريد اضلال الناس من غير علم يستند عليه.
 {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} .
 إن الله لا يوفق للرشاد من افترى عليه الكذب، وقال عليه الزور والبهتان.

٦٠٥٣ 145

الطاعم: الآكل. الميتة: البهيمة ماتت بدون ذبح. المسفوح: السائل: كالدّم الذي يجري من المذبح رجس: قدر. أهل لغير الله: ذبح باسم الاصنام غير باغ: غير طالب لذلك قاصد له ولا عاد: ولا متجاوز قدر الضرورة.
 بعد ان بين الله تعالى أنه لي لأحد ان يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره الا بوحى من ربه على لسان رسله الكرام، وإلا كان اقترأ من عنده؛ وأبان ان من هذا الاقتراء ما حرّمته العرب في الجاهلية من الانعام والحارث- عطف هنا ليبين ما حرّمه الله على عباده من الطعام على لسان خاتم المرسلين، فقال:
 قل ايها النبي لهؤلاء المفتريين على الله الكذب، ولغيرهم من الناس: لا اجد فيما اوحاه الله اليّ طعاماً محرّماً على آكلٍ الا ان يكون ميتةً لم تُذبح ذبحاً شرعياً، او دماً مسفوحاً سائلاً، (فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكدب والطحال، فقد ورد في الحديث: «أُحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ: السّمكُ والجُرَادُ، ودَمَانِ: الكبدُ والطحالُ» أو يكون لحم خنزير. ان ذلك كله خبيث لا يجوز اكله.
 {أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} .

وان لا يكون هذا الشيء المحرم فيه خروج عن العقيدة الصحيحة، كأن ذكر عند ذبحه اسم غير الله، كصنم او معبود آخر. ومع هذا فإن من دعت الضرورة الى أكل شيء من هذه المحرمات غير طالب اللذة في الطعام، وغير متجاوز قدر الضرورة- فلا حرج عليه. إن الله يقدر المصلحة وهو غفور رحيم.
 قراءات:

قرأ ابن كثير وحمة «تكون ميتة» بالتاء. وقرأ ابن عامر «تكون ميتة» بالتاء ويرفع ميتة، وقرأ الباقون «يكون ميتة» بالياء وينصب ميتة.

٦٠٥٤ 146

الذين هادوا: اليهود. الظفر للانسان غيره مما لا يصيد، والمخلب والناب لما يصيد. الشحم: ما يكون على الامعاء والكرش والكل من المادة الدهنية. حملت ظهورها: اي علقت بها الحوايا: الأمعاء والمصارين بأسه: عذابه.
 فيه هذه الآية بيان لما حرّمه الله على بني اسرائيل خاصة، عقوبة لهم، لا على أنه من اصول شرعه.
 ولقد حرّمنا على اليهود أكل اللحم والشحم وغيرها من كل ما له ظفر من الحيوانات كالإبل والسباع. كما حرّمنا عليهم البقر والغنم شحوماً فقط، الا الشحوم التي حملتها ظهورها، او التي توجد على الأمعاء، او التي اختلطت بعظم. . . قد جاء هذا التحريم عقاباً لهم على ظلمهم، لأنه خبيث في ذاته.

فإن كذبك المكذّبون من اليهود والمشركين فيما أوحيت اليك يا محمد، فقل لهم محذراً: ان ربكم الذي يجب ان تؤمنوا به وحده ذو رحمة واسعة لمن اطاعة ولمن عصاه ايضاً: لذلك لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم، فلا تغتروا به وبسعة رحمته، فإن عذابه لا بدّ وقاع بالمجرمين.

يُخْرُصُونَ: يَحْزِرُونَ، يَخْجُونَ، وهو هنا بمعنى الكذب المحجة البالغة: الدلال الميينة للقصد المستقيم. هَلَمْ. احْضُرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ: يَتَّخِذُونَ لَهُ عَدِيلاً وَمِثِيلاً.

سيقول المشركون اعتذاراً عن شركهم، وتحريم ما أحلّ الله من المطاعم وتكذيباً لما أبلغتهم من مقت الله لما عليه: إن الإشارك متاً، وتحريم الحلال- كانا بمشيئة الله ورضاه ولو شاء عدم ذلك، وكره منّا ما نحن عليه، ما أشركتنا نحن ولا أسلافنا، ولا حرّمتنا شيئاً مما أحله لنا.

ولقد كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ رُسُلَهُمْ، كَمَا كَذَّبَ هَؤُلَاءِ، وَاسْتَمَرُّوا فِي تَكْذِيبِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَذَابُنَا. فَقُلْ أَيُّهَا الرُّسُلُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ: هَلْ عِنْدَكُمْ فِيمَا يَقُولُونَهُ هَذَا عِلْمٌ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ وَتَحْتَجُونَ بِهِ؟ أَظْهَرُوهُ لَنَا إِذَا كَانَ عِنْدَكُمْ ذَلِكَ. إِنَّا نُوَدُّ أَنْ نَفْهَمَهُ وَنَوَازِنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا جِئْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ.

ثم يبين حقيقة حالهم بقوله تعالى:

{إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} .

أي إنكم لستم على شيء من العلم، وما تتبعون فيما تقولون الا الظن الذي لا يُغني عن الحق شيئاً.

وبعد ان نفى سبحانه وتعالى عنهم حقيقة العلم - أثبت لذاته المحجة البالغة التي لا تعلوها حجة فقال:

{قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} .

قل أيها النبي لهؤلاء الجاهلين: إن لله الحجة الواضحة على كذبكم وادّعاءكم أن الله قد رضي بعلمكم، ولا حجة لكم فيما تزعمون من الشرك والتحليل والتحرير وغيرهما، ولو شاء الله أن يهديكم بغير هذه الطريقة التي اقام امر البشر عليها (وهي التعليم والارشاد بطريق النظر والاستدلال) - لهداكم اجمعين، ففعلكم تؤمنون بالفطرة كالملأئكة، ولجعل الطاعة فيكم بغير شعور منكم ولا ارادة. وحينئذ لا تكونون من نوع الانسان الذي قضت الحكمة وسبق العلم بخلقه مستعداً ملل الخير والشر، الحق والباطل.

وبعد أن نفى عنهم العلم وسجّل عليهم اتباع الهوى - أمر رسوله الكريم ان يطالب المشركين بإحضار من عساهم يعتمدون عليه من الشهداء في إثبات ما ادّعوه فقال:

{قُلْ هَلْ شَهِدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا} .

هاتوا أنصاركم الذين يشهدون لكم ان الله حرم هذا الذي زعمتم انه حرام. فان حضروا وشهدوا، فلا تصدِّقهم يا محمد، لأنهم كاذبون وإياك أن تتَّبِعَ أهواء هؤلاء الذين كذَّبوا بالأدلة الكونية والقرآن المتلُّو، والذين لا يؤمنون بالآخرة، كما شركون بالله، ويتخذون له مثيلاً يشاركه في قدرته.

الاملاق: الفقر. الفواحش: مفردھا فاحشة، وهي كل ما قبح من الاقوال والافعال. يبلغ أشده: تكتمل قواه العقلية والجسمية ببلوغ سن الرشد. القسط: العدل. لا تتبعوا السبل: لا تحيدوا عن تعاليم الإسلام فتحسروا.

بعد ان بين الله بعباده جميع ما حرم عليهم من الطعام، وذكر حجته البالغة على المشركين، لتحريمهم ما لم يحرمه الله، ثم دحض شبهتهم التي اتجوا بها على شركهم برهم- جاء بهذه الآيات الثلاث فيها بيان أصول المحرمات في الاقوال والافعال، واصول الفضائل وانواع البر. وقد عبر عنها بعض المفسرين بالوصايا العشر.

قل لهم ايها النبي: تعالوا أبيعن لكن المحرمات لاتي ينبغي ان تهتموا بها وتبتعدوا عنها:

١- لا تجعلوا لله شريكاً ما، بأي نوع كان من انواع الشرك.

٢- وأحسنوا الى الوالدين غاية الإحسان والبر.

٣- ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، فلستم، انتم الرازقين، بل نحن الذين نرزقكم ونرزقهم.

٤- وابتعدوا عن كل ما عظم قبحه من الأعمال. وقد جاءت كلمات فاحشة وخشياء وفواحش في كثير من الآيات، من ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} . {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ} . {يَا نَسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} فكل عمل قبيح هو فاحشة. وقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لا أحد أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش: ما ظهر منها وما بطن» .

٥- {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} ، يعني إذا استحق القاتل ذلك. وفي الحديث الشريف «لا يحل دم امرئ مسلم الا بأمر ثلاثه: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل نفس بغير حق» .
{ذَلِكَمُ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} .

أمركم الله تعالى أمراً مؤكداً باجتناب هذه المنهيات لتعقلوا ذلك.

٦- ولا تنصرفوا في مال اليتيم الا بأحسن تصرف يحفظه وينهيه، فاحفظوا مال اليتيم، وثمره، وأنفقوا منه على تربيته وتعليمه ما يصلح به معاشه واستمروا على ذلك حتى يبلغ رشد، ويستطيع ان يستغل ماله بالتصرف السليم. فإذا بلغ فسلبوه إليه كم قال تعالى في آية اخرى. {فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} .

٧- وأتموا الكيل إذا كلمتم للناس، او اكلمتم لأنفسكم. وأفرو الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون، او لغيركم فيما تبيعون ولا تكونوا من أولئك المطففين الذين وصفهم الله بقوله: {الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} .
{لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} فالله تعالى لا يكلف نفساً الا ما تستطيعه دون حرج.

وهذا الامر وقع في الأمم التي قبلنا قديماً كما حكي الله تعالى عن قوم شعيب بقوله: {وَيَا قَوْمِ أُوفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} .

وقال ﷺ لصحاب الكيل والميزان: «إنكم وليتم أمراً هلك فيه الأمم السالفة قبلكم» . ولا يزال ذلك يقع من كثي من ضعاف النفوس.

٨- {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} اذا قلتم قولاً في حكم او شهادة او خير او نحو ذلك، فلا تميلوا عن العدل والصدق، دون مراعات لصلة القرابة او المصاهرة او الجنس. فبالعدل والصدق تصلح شئون الأمم والافراد، فلا يحل لأحد ان يحابي احداً لقرابة او غيرها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ}

٩- {وَبِعَهْدِ اللَّهِ أُوفُوا} وأوفوا بعهد الله، فلا تنقضوا عهده الذي أخذه عليكم بالكليف، ولا العهد الذي تأخذونها بينكم، فيما يتعلق بالمصالح المشروعة {والموفون بعهدهم إذا عاهدوا} . فمن آمن فقد عاهد الله حين الإيمان به ان يمتثل أوامره ونواهيه، وما شرعه لناس ووصاهم به.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمران ان النبي ﷺ قال: «أربع من كنّ فيه كان مفقاً خلاصاً، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا عاهد غدر، واذا خاصم فجر» .

{ذَلِكَمُ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ان ذلك الذي تلوته عليكم من الأوامر والنواهي وصاكم الله به رجاء ان يذكره بعضكم لبعض مثل قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} .

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} .

وان هذا القرآن الذي ادعوكم اليه، وادعوكم به الى ما يحييكم، هو صراطي ومنهاجي الذي اسلكه الى مرضاة الله، لا يَضِلُّ سالكه، ولا يهتدي تاركه.

١٠- لا تتبعوا الطرق الباطلة المضلّة التي نهاكم الله عنها، حتى لا تتفرقوا شيعا واحزابا، وتبعدوا عن صراط الله المستقيم، كما هو حاصل اليوم. فنحن لنا في كل خربة دولة ذات مجد!! هداانا الله وتجاوز عما نحن فہي من مخادعة!

اخرج الامام احمد والنسائي وابو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال: «خَطَّ رسول الله خطأ بيده، ثم قال: سبيلُ الله مستقيما، ثم خط خطوكا عن يمين ذلك انخط وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل الا عليه شيطان يدعو اليه» ثم قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} . وقد جعل الله تعالى المستقيم واحدا والسبل المخالفة متعددة، لأن الحق واحد والباطل كثير. ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعز اهل الحق، كان التفرق فيه سبب الضعف وذلك التفرق وضياح حقهم.

{ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} لقد أوصاكم باتباع صراط الحق المستقيم ونهاكم عن سبل الضلالات والأباطيل ليهيئكم لاتقاء كل ما يشقي ويردي في الدنيا والآخرة.

وقد وردت احاديث كثيرة بشأن هذه الوصايا، من ذلك ما أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «يُكْم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. . . ثم قال فَمَنْ وَفَى بِهِ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ انتقص منهم شيئا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، من أخر إلى الآخرة كان أمره الى الله، إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه» .
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «وان هذا طرطي» بكسر همزة إن. وقرأ ابن عامر ويعقوب «وأن هذا صراط» بفتح همزة أن وبخفيف النون وقرأ ابن عامر «صراطي» بفتح الياء والباقيون بتسكين الياء. وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وعاصم: وأن، بفتح الهمزة وتشديد النون. لقد رسمت هذه الآيات للإنسان طريق علاقته بربه الذي يرجع اليه الاحسان والفضل في كل شيء: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ، ووضعت الأساس المتين الذي يُبنى عليه صرح الأُسَر التي تكون الأمة القوية الناجحة في الحياة: «وبالوالدين إحسانا» ، وسدّت منافذ الشر الذي يصب الانسان من الانسان في الأنفس والأعراض والاموال، وهي عناصر لا بدّ لسلامة الأمة من سلامتها: «ولا تقتلوا أولادكم» ، «ولا تقتلوا النفس» «ولا تقربوا مال اليتيم» ثم ذكرت أهم المبادئ التي تسمو الحياة الاجتماعية بالتزامها والحفاظة عليها: «وأوفوا الكيل والميزان» «واذا قلتم فاعدلوا» «وبعهد الله أوفوا» وختمت بأن هذه التكاليف، وتلك المبادئ، هي الصراط المستقيم، بُعث به محمد عليه الصلاة والسلام، كما بعث به جميع الرسل السابقين.

وقد اطلق العلماء على ما جاء في هذه الآيات الثلاث «الوصايا العشر» نظرا لتذيل آياتها الثلاث بقول الله: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ» وقد روي عن عبد الله بن مسعود انه قال: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَاتِ: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. . . إِلَى قَوْلِهِ: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال:

لما امر الله نبيه ﷺ ان يعرض نفسه على قبائل العرب خرج الى منى وأنا وأبو بكر معه. فوقف رسول الله على منازل القوم ومضاربهم، فسلم عليهم وردوا السلام. وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهاني بن قبيصة، والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك.

وكان مفروق أغلب القوم لساناً وأوضحهم بياناً، فالتفت إلى رسول الله وقال له: إلام تدعوا يا أخا قريش؟ فقال النبي ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة ان لا إله الا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وان تؤؤني وتنصروني وتمنعوني حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به، فن

قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد» .
 فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: «قل تعالوا تل ما حرم ربكم عليكم» . الآيات الثلاث» .
 فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه. فتلا رسول الله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} فقال مفروق: دعوتُ الله يا قريشياً إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وقد أفلك قوم كذبوك وظاهروا عليك.
 وقاله هاني بن قبيصة: قد سمعتُ مقاتلك واستحسنْتُ قولك يا أخا قريش ويعجبين ما تكلمت به. فبشّرهم الرسول- إن آمنوا- بأرض فارس وانهار كسرى. فقال النعمان: اللهم وإنّ ذلك يا أخا قريش؟ فتى رسول الله قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيرًا} ثم نهض رسول الله وتركهم وكلّهم يعجب من هذه الفصاحة، وتلك المعاني السامية، والفضائل العليا.
 هذه مكانة الآيات الثلاث من ذلك الكتاب العظيم، وهذا مبلغ تأثيرها في نفوس العرب، أهل الجاهلية! وكيف لا تكون لها تلك المكانة وقد جمعت بأسلوبها الآخذ بالقلوب أصول الفضائل، وعمد الحياة الطيبة التي تنبع من الفطرة السليمة!!
 وبعد، فأين المسلمون اليوم حينما يسمعون هذه الآيات، ثم ينظرون إلى ما هم فيه من تفرق في الآراء والأحكام، ومجافاة لأحكام الله، وبغض لما لا يتفق واهواءهم منها، ومن الارتقاء في أحضان أعدائهم المستعمرين، قدامى وجدداً!!
 نسأل الله تعالى ان يجمعنا على كتابه الكريم ويهدينا الصراط المستقيم.

٦٠٥٧ 154

تماماً على الذي احسن: تماماً للنعمة على المحسنين. الدارسة: القراءة والعلم. صدّف عنها: اعرض عنها.
 ولقد أنزلنا التوراة على موسى استكمالاً للإنعام على من احسن القيام بأمر الدين، وأنزلناه مفصلاً لكل شيء من التعاليم المناسبة لقومه، وهدى الى الطريق السوي، ورحمة لمن اهتدى به. . . وذلك ليؤمن بنو اسرائيل بقاء ربهم يوم القيامة.
 وقعد ان وصف التوراة بتلك الصفات وصف القرآن الكريم فقال: وهذا القرآن كتاب أنزلناه، مبارك مشتمل على الخير الإلهي، والمنافع الدينية والدينية، وجامع لاسباب الهداية الدائمة، فاتبعوا يا أيها الناس ما هداكم إليه، واتقوا ما نهاكم عنه، {لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ} .
 وأنزلنا اليك ايها النبي هذا الكتاب المرشد الى توحيد الله وطريق طاعته، حتى لا يعتذر من تبليغهم إياه ويقولوا يوم القيامة: انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبّلنا، اليهود والنصارى، وكنا عن تلاوتهما ذلك الكتاب غافلين. بل نحن لا ندري ما هي التوراة ولا الانجيل لعدم فهمنا ما يقول أهلهم، اذا كانا بلسان غير لساننا.
 {أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ} .
 كذلك نزلنا هذا القرآن حتى لا تقولوا: لو أنزل علينا الوحي الذي نزل عليهم، لكنا أكثر منهم هداية وأحسن حالاً، لسعة عقولنا وطيب استعدادنا.
 وهنا رد الله عليهم بجواب قاطع لكل حجة، دافع لكل اعتذار، فقال: {فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} .
 فلا حجة لكم بعد اليوم على عصيانكم، ولا محل لقولكم هذا. لقد جاءكم القرآن علامة واضحة على صدق محمد ﷺ ومبيناً كل ما تحتاجون اليه في دينكم ودنياكم.
 وبعد ان بين سبحانه وتعالى عظيم قدر هذا الكتاب بين سوء عاقبة من كذب به فقال:
 {فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} .

ان هذه الآيات مشتملة على الهداية الكاملة، والرحمة الشاملة، هل هناك أحد أظلم ممن كذب بها واعرض عنها؟! .
 {سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} .
 وسنعاقب الذين يعرضون عن آياتنا ولا يتدبرون ما فيها بالعذاب البالغ غايته في الإيلاام، جزاء إعراضهم وعدم تدبرهم.

٦٠٥٨ 158

بعد أن بين الله تعالى انه انما انزل الكتاب ازالةً للعدر، وهدى ورحمة للناس، بين هنا انه لا أمل في إيمان هؤلاء المعاندين. ماذا ينتظرون؟ لقد قامت الحجة على وجوب الايمان ولم يفعلوا! فماذا ينتظرون!!
 هل ينتظرون ان تأتيهم الملائكة رُسلاً بدل البشر؟ او ينتظرون شاهدين على صدقك؟ او ان يأتيهم ربك ليروه عيانا، او يشهد بصدقك؟
 او ان تأتيهم بعض علامات ربك لنفس الغرض؟
 ثم يشير الى تماديهم في تكذيب آيات الله، وعدم اتعدادهم بها، وانه لا امل في ايمانهم البتة.
 {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} .
 وعندما تأتي علامات ربك ما تلجئهم الى الايمان لن ينفعهم إيمانهم حينئذٍ، اذ يكون قد فات الأوان، وانتهت مرحلة التكليف، فلا ينفع العاصي ان يتوب.
 قل لهؤلاء المعرضين المكذبين: انتظروا احد هذه الامور الثلاثة، واستمروا على تكذيبكم، انا منتظرون حكم الله فيكم.
 قراءات:
 قرأ حمزة والكسائي: «يأتيهم الملائكة» بالياء والباقون «تأتيهم» بالتاء.

٦٠٥٩ 159

فرقوا دينهم: غيروا فيه وحلوه اديانا. شيعا: فرقا واحزابا.
 بعد ان وصى الله تعالى هذه الأمة على لسان رسوله باتباع صراطه المستقيم ونهى عن اتباع غيره من السبل الضالة، ثم ذكر شريعة التوراة الاصلية ووصاياها- جاء يذكر رسوله الكريم بان هذه الأمم التي قبله بدّلوا وغيّروا وتفرّقوا. أما هو وأُمته الإسلامية فليسوا منهم، والله سبحانه سيُعَلِّمُ يوم القيامة بكل ما فعلوا.
 لست يا محمد من الذين فرقوا الدين الحق الواحد بالعقائد الزائفة والتشريعات الباطلة، ولا تؤاخذ بتفرقهم وعصيانهم، فأنت لا تملك هدايتهم. ما عليك الا البلاغ، والله وحده هو الذي يملك امرهم، ثم يخبرهم يوم القيامة بما كانوا يفعلونه في الدنيا.
 قراءات:
 قرأ حمزة والكسائي: «فارّقوا دينهم» والباقون «فرّقوا دينهم» والمعنى واحد.

٦٠٦٠ 160

بعد ان بين الله في هذه السورة العظيمة أصول الايمان، وأقام عليها البراهين، وفند ما يورده الكفار من الشبهات، ثم ذكر في الوصايا العشر اصول الفضائل والآداب التي يأمر بها الاسلام وما يقابلها من الرذائل والفواحش- انتقل هنا لبيان الجزاء العام على الحسنا: كيف يزيد الله لمن يعملها اضعافا، فيما يجزي من يعمل السيئة سيئة مثلها فقط وهذا فضل عظيم من رب رحيم.
 من عمل صالحاً يضاعف له عند ثوابه الى عشرة أمثاله فضلاً وكرماً. وقد جاء في بعض الآيات {مَنْ ذَا الَّذِي يَقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} ووعد في بعضها بالمضاعفة الى سبعمائة ضعف كما في قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

كَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِثْلُ حَبِّهِ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ { والعشرة تُعْطَى لِمَنْ أَتَى بِالْحَسَنَةِ، أما المضاعفة فوق ذلك فتختلف بحسب ما يكون البذل والعطاء والمنفعة والمصلحة.

أما من عمل سيئاً فإنه سوف يعاقب بمقدار عصيانه فقط، ذلك عدلٌ من الله، وليس هناك ظلمٌ بنقصِ ثواب، ولا زيادة عقاب. روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عن النبي ﷺ انه قال: «ان الله تعالى كتبَ الحسنات والسيئات، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملة، فإن هو همَّ بها فعلها كتبها الله عنده عشرَ حسناتٍ الى سبعمائة ضعف إلى اضعاف كثيرة. ومن همَّ بيئةٍ فلم يعملها كتبها الله حسنةً كاملة، فإن هو همَّ بها فعلها كتبها الله سيئةً واحدة» .

قراءات: قرأ يعقوب «عشرةً امثالها» برفع عشرة منونة، وامثالها ايضاً مرفوعة، الباقون «عشر امثالها» .

٦.٦١ 161

دِينَا قِيَمًا: دين يقوم به امر الناس في معاشهم. وفي قراءة: «قيما» بفتح القاف وتشديد الياء: ومعناه ايضاً: مستقيم، ومنه قوله تعالى: {وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} يعني دين الامة المستقيمة. حنيفاً: مخلصاً لعبادة الله نسكي: عبادتي محيائي ومماتي: كل ما آتية في حياتي، وما اموت علي من الايمان والعمل الصالح. ابغي: اطلب. الوزر: الحمل الثقيل والاثم ومعنى «لا تزر وازرة وزر اخرى» لا يؤخذ أحدٌ بذنب غيره خلائف: خلفاء، مفردة خليفة ليلوكم: ليختبركم.

لما كانت هذه السورة أجمع السور لأصول الدين، مع اقامة الحجج عليها ودفع الشبهة عنها، وإبطال عقائد أهل الشرك وخرافاتهم - جاءت هذه الخاتمة بقول جامع لجملة ما فصل فيها. وهو أن الدين القيم والصراط المستقيم هم ملة إبراهيم دون ما يدعيه المشركون، وما حرفه أهل الكتاب. وان النبي عليه الصلاة والسلام مستمسكٌ به، معتمَصٌ بحبله، يدعو اليه قولاً وعملاً وأنه هو الذي أكل الدين بعد ان انحرفت الامم السابقة عنه.

ثم بين الجزاء عند الله على الأعمال، لا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، وأن المرجع إلى الله، فهو الذي يستخلف في الارض من يشاء ويختبر البشر بالنعم والنقم، يتولى عقاب المسيئين ورحمة المحسنين، فلا واسطة بينه وبين عبادته.

قل ايها النبي لقومك ولسائر البشر: إن ربّي أرشدني الى طريق مستقيم بلغ نهاية الكمال وكان هو الدين الذي اتبعه ابراهيم مخلصاً في عبادة الله وحده، مائلاً عن العقائد الباطلة، فلم يعبد مع الله إلهاً آخر كما يزعم المشركون.

ثم قل: إن صلاتي وجميع عبادتي، وما آتية حال حياتي من الاعمال الصالحة، وما أموت عليه من الايمان - كله خالص لوجه الله، اذ لا ينبغي ان تكون العبادة إلا لله، فهو رب العباد وخالقهم، فاستحق أن يعبد وحده ويُطاع.

إنه لا شريك له في الخلق، ولا في استحقاق العبادة، وقد أمرني بالإخلاص في التوحيد والعمل، وأنا اول المتقدين الى امتثال اوامره، وترك ما نهى عنه.

قل يا محمد منكراً على المشركين دعوتهم اياك لموافقتهم في شركهم: أأطلب بالعبادة رباً غير الله، مع انه خالق كل شيء؟ وقل لهم: لا تكسب كل نفسٍ إثماً الا كان عليها جزاؤه دون غيرها، ولا تؤاخذ نفس بأخطاء غيرها «وأن ليس للإنسان الا ما سعى» ثم تُبعثون يوم الحشر إلى ربكم، فيخبركم بما كنتم تختلفون فيه من أمر أديانكم وعقائدكم ويجازيكم عليها.

ليس للإنسان إلا ما عمل من عمل صالح، وفي الحديث الصحيح فيما رواه مسلم وأبو داود والنائي عن أبي هريرة ان النبي ﷺ قال: «إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، او علمٌ يُنتفع به، او ولدٌ صالحٌ يدعو له» .

إن ربكم، الذي هو رب كل شيء، هو الذي جعلكم خلفاء للأمم السابقة في عمارة الكون، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في

الكَمال المادِّي والعنويّ، لختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونها، وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها. لكنه سريع العقاب للمخالفين العاصين.

وهو سبحانه على سرعة عقابه وشديد عذابه للمشركين المخالفين، غفورٌ للتوابين رحيمٌ بالمؤمنين المحسنين، فلقد سبقت رحمته غضبه، ووسعت كل شيء.

خلاصة ما اشتملت عليه وسورة الانعام من العقائد والاحكام:

١- العقائد وأدلتها، بأسلوب يجمع بين الاقناع والتأثير، كبيان صفات الله بذكر أفعاله وسُنَّته في الخلق، وآياته في الانفس والآفاق، وتأثير العقائد في الأعمال، مع إيراد الحقائق بطريق الجدَل والمناظرة، او على طريق السؤال والجواب، وفي أثناء ذلك يأتي الرد على شبهات المشركين.

٢- الرسالة والوحي وتنيد مكابرة المشركين للرسول ﷺ، والزهم الحجة بآية الله الكبرى، وهي القرآن.

٣- البعث والجزاء والوعد الوعيد، بذكر ما يقع يوم القيامة من العذاب للمجرمين، والبشارة للمتقين بالفوز والنعيم. هذا مع ذكر علام الغيب من الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار. وقد كان العرب كغيرهم من الأمم يؤمنون بالملائكة وبوجود الجن، ويعتقدون أنهم يظهرون لهم أحياناً في صورة الغيلان فيسمعون اصواتهم، وأنهم يلقون الشعرَ في هواجس الشعراء.

٤- اصول الدين ووصاياه الجامعة في الفضائل والآداب، والنهي عن الرذائل، وأن دين الله واحد، لكنه تم تفريقه بالمذاهب والأهواء، وإن سعادة الناس وشقاءهم من اعمالهم النفسية والبدنية، وإن الجزاء على الاعمال يكون بحسب تأثيرها في الانس، فالجزاء على السيئة سيئة مثلها، وعلى الحسنة عشرة امثالها، ولا يحمل أحد ذنب غيره. ثم يأتي الترغيب في معرفة الكون والإرشاد الى معرفة سنن الله فيه، وآياته الكثيرة الدالة على علمه وقدرته، وإن التوبة الصحيحة مع ما يلزمها من العمل الصالح موجبة لمغفرة الذنوب وابتلاء الناس بعضهم ببعض، ليتنافسوا في العلوم والاعمال النافعة، واعلاء كلمة الحق.

٧ الأعراف

٧.١ 1

المص: هذه حروف تكتب بصورة كلمة واحدة، ولكن نقرؤها باسماء حروفها، فنقول: الف لام ميم صاد هكذا.

وحكمته افتتاح هذه السورة وامثالها اسماء الحروف التي ليس لها معنى مفهوم غير مسمّاها الذي تدل عليه، وهي تنبيه السامع الى ما سيُلقي إليه بعد هذا الصوت من الكلام، حتى يفوته من شيء. فكأنه أداة استفتاح بمنزلة ألا، وهاء التنبيه.

والسور التي بدئت بالأحرف وبذكر الكتاب، هي التي نزلت بمكة لدعوة المشركين الى الإسلام، واثبات النبوة والوحي. أما ما نزل منها بالمدينة البقرة وآل عمران، فالدعوة فيه موجهة الى اهل الكتاب. وهكذا الحال في سورة مريم والعنكبوت والروم، و (ص)، و (ن) فإن ما فيها يتعلق بإثبات النبوة والكتاب كالفتنة في الدين بإيذاء الضعفاء لإرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة، وكالإنباء بقصص فارس والروم ونصر الله للمؤمنين على المشركين وكان هذا من اظهر المعجزات الدالة على نبوة محمد ﷺ.

الحرج: الضيق من عاقبة المخالفة الذكرى: التذكر النافع والموعظة المؤثرة. ولاية الله لعباده: تولّى أمرهم ونصرهم على اعدائهم. تذكرون: اصله تذكرون.

لقد أنزل إليك القرآن من عند ربك لتنذر به المكذبين ليؤمنوا، وتذكّر به المؤمنين ليزدادوا إيماناً، فلا يكن في صدرك ايها النبيّ ضيق من الإنذار به وابلague إلى من أمرت بالإبلاغه اليهم. ولا تخش تكذيبهم، واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

أما اتم يا أصحاب الرسول فاتبعوا ما اوحاه ربكم ولا تتبعوا من دون الله أولياء تولّونهم أموركم وتستجيّبون لهم وتستعينون بهم، فالله وحده هو الذي يتولّى أمر العباد بالتدبير والخلق والتشريع، ويبيده النفع والضرر.

{قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ} .

ما تتعظون إلا قليلا، حيث تتركون دينه تعالى وتتبعون غيره.
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: «تذكرون» بفتح التاء والذال المخففة، وابن عامر: «يتذكرون» بالياء والتاء. وقرأ الباقون «تذكرون» بتشديد الذال والكاف.

٧٠٢ 4

القرية: هنا تعني المكان والسكان. البأس: العذاب بيانا: ليلا على حين غرة. او هم قائلون: وسط النهار وقت القيلولة دعواهم: قولهم. بعد ان بين الله تعالى انه أنزل الكتاب الى الرسول الكريم لينذر به الناس ويكون موعظة وذكرى لأهل الايمان، وانه طلب اليه ان يأمر الناس باتباع ما أنزل اليهم من ربهم، وان لا يتبعوا من دونه أحداً- أردف هنا بالخوف من عاقبة الخالفة لذلك، وبالتذكير بما حلّ بامم قبلهم بسبب إعارضهم عن الحق، وإصرارهم على الباطل.
{وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا جَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} .

لقد اهلكنا كثيراً من القرى بسبب عبادة اهلها غير الله وسلوكهم غير طريقه. وقد جاءهم عذابنا في وقت غفلتهم ليلاً وهم نائمون، كما حدث لقوم لوط، او نهراً وهم مستريحون وقت القيلولة كقوم شعيب.
{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} .
فاعترفوا بذنبهم الذي كان سبب نكبتهم، وكان دعاؤهم واستغثتهم حين جاءهم عذابنا أن قالوا- حيث لا ينفهم ذلك - إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ لأنفسنا بالمعصية.

٧٠٣ 6

قص: اخبر الوزن: هنا نتيجة الحساب توزن الاعمال بميزان دقيق. ثقلت موازينه. كانت اعماله صالحة خفت موازينه: كانت اعماله سيئة باياتنا يظلمون: يكذبون.
بعد ان أمر الله الرسل في الآية السابقة بالتبليغ، وأمر الأمم بالقبول والاتباع، ثم ذكرهم بعذاب الأمم التي عاندت وعصت الرسل السابقين- ذكر هنا ان الحساب يوم القيامة دقيق وعادل، حيث يُسأل كل انسان عن عمله ويحاسب عليه. يومئذ يُسأل الناس: هل بلغتكم الرسالة؟ وبماذا اجابوا المرسلين؟ ولنسأل الرسل ايضا: هل بلغتكم ما أنزل اليكم؟ وبماذا اجابكم اقوامكم؟
{فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} .

ولنخبرن الجميع أخباراً صادقة بجميع ما كان منهم، لأننا أحصينا عليكم كل شيء. إننا لم نك غائبين عنهم في وقتٍ من الأوقات ولا حالٍ من الاحوال، وسيكون السؤال ههنا للإعلام والإخبار، توبيخاً لهم وتأنيباً على رؤوس الاشهاد.
روى الترمذي عن أبي الأسلي عن النبي ﷺ انه قال: «لا تزولُ قدما عبدٍ حتى يُسألَ عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيمَ عمل به، وعن ماله من اين اكتسبه وفيم انقه، وعن جسمه فيم أبلاه» {والوزن يومئذ الحق. . .} وفي ذلك اليوم يكون تقدي الأعمال تقديراً عادلاً، ليأخذ كل واحد ما يستحقه من ثواب وعقاب فالذين كثرت حسناتهم ورجحت على سيئاتهم هم الفائزون بالنجاة من العذاب، والخائزون للنعيم في دار الثواب. أما الذين كثرت سيئاتهم ورجحت على حسناتهم فهم الخاسرون، لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان. ونحن لا نعلم كيفية وزن الحسنات والسيئات واذا كان العلم الحديث قد صنع موازين للحر والبرد واتجاه الريح والامطار وخزن المعلومات في الكمبيوتر وغير ذلك فان الله تعالى لا يعجز عن وزن الحسنات والسيئات وهو القادر على كل شيء.

مَكَّكُمْ فِي الْأَرْضِ: جعلنا لكم قُوَّةً لاسْتِغْلَالِهَا. معاش: جمع معيشة: وهي كل ما يمكن من وسائل العيش. بعد ان بين الله تعالى أنه هو واضع الدين فيجب اتباعه، وفقى على ذلك بذكر عذاب الدنيا، وذكر عذاب الآخرة- أردف هنا بذكر ما انعم به على عباده.

ولقد مَكَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وجعلنا لكم أوطاناً تستقرون فيها، ومنحناكم القوة لاستغلالها، وهياًنا لكم وسائل العيش فيها، من نبات وأنعام وطيور وسمك ومياه عذبة واشربة مختلفة الطعوم والروائح، ووسائل مختلفة للتنقل والارتحال من جهة الى اخرى نتقدم بتقدم العلم والاختراع، وغير ذلك مما يرفقه عنكم {وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} وكل ذلك يقتضي منكم الشكر الكثير، لكنكم {قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} وكما قال تعالى في آية اخرى {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ} .

قرءات: معاش بالياء، قرأ بذلك جميع القراء وروى عن نافع «معاش» بالهمز.

الخلق: التقدير خلق الله الخلق: أوجدهم من العدم. الهبوط: الانحدار اهبط منها: اخرج منها، كأنه انحدر من اعلى الى اسفل التكبر: الاستعلاء وتقدير الانسان نفسه اكثر من اللازم الصغار: الذلة أنظرنى أجلى وأخرجني أغوتني: حكمت علي بالغواية وهي الضلال مذهباً: مذموماً معيباً مدحوراً: مطروداً.

بعد ان ذكر الله عباده في الآية بنعمة عليهم- بين هنا ان الله خلق النوع الانساني مستعداً للكمال، لكنه قد تعرض له وسوسة من الشيطان تحول بينه وبين هذا الكمال الذي يبتغيه.

الخطاب لبني آدم جميعاً. . . لقد خلقنا مادة هذا النوع الانساني، وقدّرنا إيجادها، ثم صورناه على هذه الصورة الجميلة، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تعظيم، فأطاعوا أمرنا وسجدوا له الا إبليس. لقد أبى واستكبر، وامتنع عن السجود ولما قال له الله تعالى منكراً عليه عصيانه: ما منعك من امتثال أمري، فرفضت ان تسجد لآدم مع الساجدين؟ اجاب ابليس في عناد وكبر: أنا خير من آدم، لأنك خلقتني من نار، وخلقته من طين والنار أشرف من الطين.

فجزاه الله على عناده وكيده بطرده من دار كرامته، وقال له: اهبط منها بعد ان كنت في منزلة عالية. {فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا} .

اي ليس ينبغي ان تكبر في هذا المكان المعد للكرامة والتعظيم، ثم تعصي ربك فيه {فاخرج إناك من الصاغرين} اي المحكوم بالذلة والهوان.

قال ابليس لله: «قال أنظرنى إلى يوم يُبعثون» أي أمهلني الى يوم القيامة، فأجابه الله تعالى بقوله: {إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} اي اني أجبتك إلى ما طلبت، لما في ذلك من الحكمة التي انا بها عليم.

{قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} اي أنني بسبب حكمك علي بالغواية والضلال، أقسم ان أقعد لأبناء آدم هذا على صراطك المستقيم، كي اصرفهم عنه مُتَّخِذاً في ذلك كل وسيلة ممكنة.

{ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ} أي من كل جهة أستطيعها، ملهساً كل غفلة او ضعف فيهم. حتى لا يكون اكثرهم مؤمنين.

{وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} لنعمك عليهم.

فزاده الله نكايَةً وقال له: اخرج من دار كرامتي مذموماً يكبرك وعصيانك وهالكاً مطروداً من الجنة. وأقسم أن من تبعك من بني آدم ليكون في جهنم معك.

روى أحد ابني داود والنسائي من حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات: «اللهم اخفضني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي» .

٧٠٦ 19

الوسوسة: الصوت الخفي. وسوسة الشيطان: ما يجده الإنسان في نفسه من الخواطر الرديئة الجنة: كل بستان ذي شجرٍ يستر الأرض. والآن، هل الجنة في الأرض خلاف الجنة الموعودة؟ في هذا خلاف كبير بين العلماء أما الشجر التي أكل منها آدم فلم يبين القرآن نوعها، ولم يرد في حديث صحيح تفسير لحقيقتها. فدلّاهما بغرور: خدعهما. قاسمها اقسم لها وحلف ليخدعهما. سواءتاهما: عورتهما. يخصفان: يلزقان ورقة فوق ورقة. ما روي عنهما: ما غطي وستر.

لا يزال الحديث متصلاً في الكلام على النشأة الأولى للبشر.
{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} .

الجنة: هي التي خلق فيها آدم، أما هو فقد خلق من الأرض بنص القرآن الكريم. وقد تكررت قصة آدم في سبعة مواضع من القرآن الكريم.

وجمهور المفسرين على أنها جنة الجزاء التي وعد بها المتقون يوم القيامة. ولا خطاب لآدم. وهو: أسكن أنت وزوجك حواء الجنة، وتتعهما بما فيها، فكلّا من أي طعام أردتما إلا هذه الشجرة (شجرة قد عينها الله لهما) فلا تقرباها حتى تظلما نفسيكما بخالفة أوامري.
{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ} . . .

فزين لهما الشيطان مخالفة أمر الله، حتى إذا أكلا منها انكشفت عورتاهما. وقال الشيطان لهما: إنما نهاكما عن الأكل من هذه الشجرة حتى لا تكا ملكين، أو من الخالدين الذين لا يموتون أبداً.
{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} وأقسم لهما أنه ناصح لهما فيما رغبهما فيه من الأكل من تلك الشجرة.
{فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} .

فما زال يخدعهما بالترغيب في الأكل حتى أطاعاه، فلما ذاقا طعمها انكشفت لهما عورتاهما، فخجلا وجعلا يجمعان بعض أوراق الشجر من الجنة ليسترأ بها عورتهما.

فعاتبه الله تعالى على عصيانه أمره، وإطاعته للشيطان فقال:

{وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} .

وناداهما ربهما منبهاً لهما على خطئهما، ومعاتباً لهما قائلاً: ما نهيتكما عن أن تقربا هذه الشجرة وقلت لكما إن الشيطان لا يرد لكما الخير فان أطعتماه أخرجكما من الجنة الى حيث الشقاء والتعب!

عند ذاك قال آدم وزوجته ناديين متضرعين: يا ربنا، لقد ظلمنا أنفسنا بخالفة امرك، وإن لم تغفر لنا ما فعلناه لنكونن من الخاسرين.

{قَالَ اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} .

قال الله لآدم وزوجته حواء، وللشيطان، اهبطوا من هذه الجنة جميعاً، الى الأرض هناك سيكون استقراراً وبقاء الى زمن مقدّر في علم الله، وهو الأجل الذي تنتهي فيه أعماركم. كما ان لكم فيها متاعاً تنفتعون به في معاشكم.

ثم فصل بقوله: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} .

أي أنكم في هذه الأرض التي خلقتكم منها تولدون وتعيشون، وفيها تموتون وتدفون، ومن هذه الأرض تخرجون عند البعث، كما قال تعالى في سورة طه: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} .

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان وخلف ويعقوب: «تخرجون» بفتح التاء وضم الراء، والباقون «تخرجون» بضم التاء وفتح الراء.

٧٠٧ 26

الريش: اللباس الفاخر، وما يتزين به لباس التقوى: هو الطاعة والعمل الصالح والتقوى بما امر الله. الفتنة، الابتلاء والاختبار القبيل: الجماعة.

بعد ان ذكر الله تعالى خبر آدم وحواء والشيطان، وإبعادهم جميعاً إلى الأرض، وذكر ان الشيطان عدو لهما- بين هنا أنه انعم على آدم ونسله بأن خلق لهم كل ما يحتاجونه من اللباس والطعام، وأن خير لباس يتزين به الإنسان هو تقوى الله. لذلك حذرهم من الشيطان وفتنته بوسائله الكثيرة وأتباعه المتنوعين.

هنا نادى الله بني آدم وامتن عليهم بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف انواعه، وقال لهم: لقد خلقنا لكم، ملابس تستر عواريتكم، ومواد تزينون بها، لكن الطاعة والتقوى خير لباس يقيكم العذاب فتجملوا بها وتلك النعم من الآيات الدالة على قدرة الله، وعلى رحمته، ليتذكر الناس بها عظمته وأنه وحده يستحق الألوهية وتلك القصة من سنن الله الكونية التي تبين جزاء مخالفة أمر الله فيتذكر بها الناس ويحرصون على طاعة ربهم. وهذا معنى قوله تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ} .

{يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ. . .} .

يا بني آدم لا تستجيبوا للشيطان ولا تغفلوا عن محاولته خداعكم وإيقاعكم في المعاصي، فتخرجوا من هذه النعم التي لا تدوم بالشكر والطاعة. إياكم أن تفعلوا كما فعل أبواكم آدم وحواء، فأخرجهما الشيطان من النعيم والكرامة. انه يأتيكم وأعوانه بوسائل متعددة، حيث لا تشعرون بهم، ولا تحسبون بأسلبيهم ومكرهم. وليس للشيطان سلطاناً على المؤمنين، إذ جعلناه وأعوانه أولياء للذين لا يؤمنون إيماناً صادقاً، فهم أتباعه وجنوده.

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر والكسائي «ولباس التقوى» بالنصب، والباقون بالرفع.

٧٠٨ 28

الفاحشة والفحشاء: ما عظم قبحه من الأفعال القسط: الاعتدال في جميع الأمور إقامة الشيء: اعطاؤه حقه وتوفيته شروطه اقيموا وجوهكم: اعطوا توجهكم الى الله حقه.

بعد ان بين الله حالة الشياطين وأنهم قرناء للعاصين مسلطون عليهم- ذكر هنا أثر ذلك التسلط، وهو الطاعة لهم في أقبح الأشياء مع عدم شعورهم بذلك القبح. لذا فإنهم يقولون: إِنَّا نَقَلَدُ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِذَلِكَ.

وسبب ذلك أن العرب ما عدا قريشاً كانوا لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها من قبل، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا فيها. وكانت قريش فقط تطوف في ثيابها، ومن اعراهم قريشياً ثوباً طاف فيه، ومن كان معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه، ومن لم يجد ثوباً طاف عريان. كان هذا مذهبهم، رجالاً ونساءً، فحرم ذلك الإسلام فقال:

{وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} .

واذا فعل الذين لا يؤمنون بالله عملاً قبيحاً لطوافهم في البيت عرايا، وغير ذلك من الأمور الباطلة، فلامهم الناس على ذلك، قالوا وجدنا آباءنا يفعلون كما نفعل، ويسرون على هذا المنهاج، ونحن بهم مقتدون، والله أمرنا به ورضي عنه حيث أقرنا عليه. وقد رد الله على ذلك بقوله:

{قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} قل أيها النبي منكرًا عليهم اقترأهم: ان الله لا يأمر بهذه الأمور المنكرة. ثم رد عليهم أيضا بقوله:

{أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أتنسبون الى الله ما لا تعلمون انه شرعه لعباده، وليس عندكم دليل على صحة ما تقولون!! وبعد ان أنكر عليهم ان يكونوا على علم بأمر الله فيما فعلوا، بين ما يأمر به الله من محاسن الأعمال وكارم الاخلاق بقوله لرسوله: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} أي بالعدل، وما لا فحش فيه. وأمركم ان تخصّوه بالعبادة في كل زمانٍ ومان، وان تكونوا مخلصين له الدين، ولا تتوجهوا الى غيره.

وبعد أن بين أصل الدين، وأمرنا بالتوجه إليه وحده - ذكرنا بالبعث والجزاء على الاعمال فقال: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} أي إنكم أيها البشر كما بدأ الله خلقكم وتكوينكم ستعودون اليه اليوم القيامة، تاركين ما حوله من النعم وراء ظهوركم. {فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ} . وسيكون الناس يوم القيامة فريقين: فريقاً وفقه الله لأنه آمن وعمل عملاً صالحاً، وفريقاً حكم عليه بالضلالة لأنه اختار طريق الباطل وهؤلاء الضالون قد اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله فاتبعوهم، فضلّوا وهم يظنون أنهم مهتدون، لا غترارهم بخداع الشياطين.

٧٠٩ 31

الزينة كل شيء يزين الإنسان من لباس طيب وغيره. الاسراف: تجاوز الحد وعدم الاعتدال في المأكل والمشرب وصرف الأموال في غير موضعها.

في هاتين الايتين تأكيد على ستر العورة، والتزّين والتجمل عند كل صلاة: فالله سبحانه بعد أن أمر بالعدل في كل الأمور- أكد هنا ببناء إلى بين آدم: خذوا زينتكم من الثياب الحسنة، مع الخشوع والتقوى عند كل مكان للصلاة، وفي كل وقت تؤدّون فيه العبادة. ثم إنه أمرنا بالاعتدال في الأكل والشرب، وأن لا نتجاوز الحد المعقول: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} لأن الإسراف في المطعم يضر بالصحة، والإسراف في المال يؤدي الى الفقر، وبذلك يجني المرء على أسرته، ومن ثم على وطنه حين يغدو عالة على المجتمع.

والتزّين للعبادة عند كل مسجد وفق عرف الناس في تزينهم في المجتمعات والمحافل، أمر مطلوب شرعاً، لكيون المؤمن في أجمل حال عندما يقف بين يدي ربه، او في أي اجتماع. وهو أصل من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين. وقد كان سبباً في تعليم القبائل البدائية، والاوساط المتأخرة في إفريقية وغيرها من الامم التي تعيش عراة الأجسام رجالاً ونساء. وكان هذا من فضل الاسلام، الذي نقل امما وشعوباً من الوحشية الى الحضارة الراقية.

وقد روى النسائي وابن ماجه ان النبي ﷺ قال «كُلُوا وَشَرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَابْسُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَةٍ عَلَى عَبْدِهِ» . ومعنى «مخيلة» كبر وإعجاب بالنففس.

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} . . . { . }

قل لهم يا محمد، منكرًا عليهم اقترأ التحليل والتحریم على الله: من الذي حرم زينة الله التي خلقها لعباده؟ ومن الذي حرم الحلال الطيب من الرزق؟ وقل لهم: إن الطيبات نعمة من الله، ما كان ينبغي ان يتمتع بها إلا الذين آمنوا في الدين، لأنهم يؤدّون حقها بالشكر واطاعة، لكن رحمة الله الواسعة شملت جميع عباده الطائعين والعاصين في الدنيا اما في الآخرة فسوف تكون النعم خالصة للمؤمنين وحدهم.

روى ابو داود عن ابي الأحوص قال: «اتيت رسول الله ﷺ في ثوب دون، فقال: «ألك مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: فإذا آتاك الله فليَرِ أثرَ نعمته عليك وكرامته لك.»

{كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} .

ان هذا التفصيل لحكم الزينة والطيبات من الرزق الذي ضل فيه كثير من الأمم والأفراد، ما بين إفراط وتفریط، انما جاء في كتابنا هذا أيها الرسول، لقوم يدركون ان الله وحده مالك الملك، بيده التحليل والتحريم.

قراءات:

قرأ نافع «خالصة» بالرفع، والباقون «خالصة» بالنصب.

٧٠١٠ 33

السلطان: الحجة الفواش: واحدها فاحشة، كل ما يقبح علمه الاثم: الذنب يشكل جميع المعاصي البغي: تجاوز الحد، الظلم.

بعد أن أنكر الله فعل من حرم زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق- بين هنا أصولاً لمحرمات، حتى يعلم الناس انه لم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم. فقل أيها الرسول للذين اقترأوا على الله الكذب: إنما حرم ربي هذه الأمور التسعة، لما لها من ضرر شديد وخطر عظيم على الأمم وهي:

١، ٢- الفواحش، الظاهرة والباطنة، من الأعمال المتجاوزة لحدود الله.

٣- الإثم: وهو كل معصية لله أياً كان نوعها.

٤- البغي بغير الحق، وهو الظلم الذي فيه اعتداء على حقوق الأفراد والجماعات.

٥- الشرك بالله وهو أقبح الفواحش.

٦- {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أي تفتروا عليه سبحانه بالكذب في التحليل والتحريم بغير علم ولا يقين.

٧٠١١ 34

الامة: الجماعة الأجل: مدة الشيء ووقته الساعة: الوقت القصير.

بعد ان بين تعالى المحرمات على بني آدم، ذكر هنا حال الأمم وأنها مهما طال امها فانها ذاهبة، {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} اي أمد ونهاية معلومة {فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ} . فاذا جاء ذلك الوقت الذي وقته الله لنهائهم - ذهبوا، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون حتى وقتاً قصيراً.

والأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذي ينهي الحياة، واما أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمد المقدر لقوتها في الارض. وسواء كان المعنى هذا الأجل أو ذلك فإنه مرسوم محدد.

٧٠١٢ 35

بعد أن بين سبحانه بوضوح أن لك أمة أجلاً لا تعدوه، خاطب الناس يجمعاً بأنه يرسل الرسل الى لاناس كي يبينوا لهم اصول الدين.

يا بني آدم: إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من البشر ليلبغوكم آياتي التي أوحيتها لهم، كنتم فريقين: فالذين يؤمنون ويعملون لاصالحات لا خوف عليهم من عذاب الآخرة ولا هم يحزنون في دينهم واوراهم.

اما الذين يكذبون اولئك الرسل، ويستكبرون عن اتباع الآيات فأولئك أهل النار، يخلدون فيها باداء، لأن التكذيب للرسل والاستكبار عن الانقياد لله يلحق المستكبرين بوليهم إبليس في النار: حيث خاطبه ربه: {لَنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأعراف:

في هذه الآيات يصور الله تعالى حال الكفار: أولاً: عند احتضارهم يوم الموت، فيقول: إن من أشد الناس ظُلماً أولئك الذي يفترون على الله الكذب أو يكذبون بآيات الله. كيف تأييم رسل الله لقبض أرواحهم! .

ثم يأتي المشهد الثاني يوم القيامة حيث يدخلون جهنم. كيف يلعن بعضهم بعضاً عندما يتقابلون، وكيف يطلبون العذاب المضاعف! قراءات:

قرأ الجمهور: «لا تعلمون» بالتاء، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «لا يعلمون» بالياء.

{فَنَ أظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا. . .} .

لا أحد أظلم من الذين يفترون الكذب على الله، بنسبة الشريك والولد إليه، وادعاء التحلي والتحريم من غير حجة، أو يكذبون بآيات الله الموحى بها فيكتبه أولئك ينالون في الدنيا نصيباً مما قُدر لهم من الرزق والحياة، حتى إذا جاءهم ملائكة الموت، قال لهم الملائكة موبخين إياهم: أين الشركاء الذين كنتم تعبدون في الدنيا من دون الله! دعوهم يدرأون عنكم الموت؟ فيقولون: لقد بترأوا منا وغابوا عنا. ونحن نشهد على أنفسنا أننا كنا بعبادتنا لهم في ضلال ظاهر.

{قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ. . .} .

يومئذ يقول الله هؤلاء الكفار: ادخلوا النار منع أُمَمٍ من كفار الجن والإنس، قد مضت من قبلكم، كلما دخلت جماعة النار ورأت ما حل بها من الخزي لعنت سابقتها التي اتخذتها قُدوة لها. حتى إذا تناعبوا فيها مجتمعين، قال التابعون يذمُّون المتبوعين: ربنا هؤلاء أضلُّونا بتقليدنا لهم، وبتسلُّطهم علينا. إنهم هم الذين صرفونا عنا لحق، فعاقبهم عقاباً مضاعفاً. وهنا يرد صاحب العزة والجلال: لكل منكم عذاب مضاعف، لا ينجو منه أحد، ولا تعلمون شدته ولا مداه.

{وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ. . .} .

إذ ذاك يقول المتبوعون للتابعين: إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا أدنى فضلٍ تطلبون به ان يكون عذابكم دون عذابنا.

فيقول الله لهم جميعاً: ذوقوا العذاب الذي استوجبتموه بما كنتم تقتربون من كفرٍ وعصيان.

وبهذا ينتهي ذلك المشهد الأليم، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير المؤلم الذي لن يتبدل بقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا. . .} .

الآيات (هنا) الآيات الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع.

الجل: الحيوان المعروف. سم الخليا «ثقب الابرة. يلج: يدخل المجرمين: المفسدين المذنبين، وأصل الجرم القطع، والجرم الذنب. المهاد: الفراش الغواشي: الاغطية، وكل ما يستر ويغطي، والمعنى ان النار محيطة بهم من كل جهة.

في هاتين الآيتين تنم ما سلف من وعيد الكفار وجزاء المكذبين.

ان الذين كذبوا بآياتنا المنزل في الكتب، ولم يتبّعوا رسلنا، بل تكبروا عن التصديق بما جاءوا به ولم يتوبوا- ميؤوس من قبول أعمالهم، ومن المستحيل ان يدخلوا الجنة، كاستحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة.

{وكذلك نجزي المجرمين} .

على هذا النحو من العقاب نعاقب المرجمين المكذّبين والمستكبرين من كل أمة.
قراءات:

قرأ أبو عمرو: لا تُفْتَحُ بالتخفيف وقرأ حمزة والكسائي: لا يُفْتَحُ بالياء.
{لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ . . .}

إنّ لهم في جهنم فراشاً من نار، وأغطيةً من نار، أي أن النار محيطة بهم مطبقة عليهم كما جاء في كثير من الآيات {إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّهٌ} وهذا جزاء الظالمين.

٧٠١٥ 42

وسّعها: ما تقدر عليه نزعنا ما في صدورهم: أخرجنا من نفوسهم كل حقد الغل: الحقد من عداوة أو حسد. أورثتموها: صارت اليكم كما يصير الميراث الى أهله.

يعرض الله تعالى هنا المشهد المقابل، وهو حال المؤمنين وما يلاقونه يوم القيامة من نعيم، وكيف يذهب من صدورهم كل حقد وغل، فيحمدون الله على نعمة وما أورثهم من جنات. وتلك طريقة القرآن الكريم، وهذا منهجه الحكيم.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات التي لم نكلفهم إى ما يطيقونه منها، هم اهل الجنة يتنعمون فيها، خالدين فيها ابدًا. لقد أخرجنا ما كان من صدورهم من حقد، فهم اليوم في الجنة، إخوان متحابون- وهذا بخلاف الكفار الذين يلعن بعضهم بعضا- تجري من تحتهم الأنهار بمائها العذب، ويعبرون عن سورهم بما نالوا من النعيم قائلين: الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا على طريق هذا النعيم، ووفقنا الى سلوكه ولولا أن هدانا الله، بإرسال الرسل وتوفيه لنا، ما كان في استطاعتنا ان نهتدي وحدنا. لقد جاءت رسل ربنا بالوحي الحق فآمنّا برسالاتهم.

وهنا يناديهم ربهم ويقول لهم: إن هذه الجنة هبة من الله أعطيتموها فضلاً مني دون عوض منكم، كالميراث، كل هذا جزاء إيمانكم واعمالكم الصالحة في الدنيا.

قراءات:

قرأ ابن عامر: «ما كنا لنهتدي» بدون واو والباقون وما كنا لنهتدي.

روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، ان رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي مناد، إن لكم ان تصحّوا فلا تَسْقُمُوا أبداً، وإن لكم ان تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم ان تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم ان تتعموا فلا تيأسوا أبداً» .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «سَدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحدًا الجنة عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال «ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله بمغفرة ورحمة» .

سَدِّدُوا وقاربوا: لا تغلوا في دينكم، ولا تتكلفوا من العمل ما لا طاقة لكم به.

وهذا الحديث تنبيه من النبي الكريم لنا حتى لا نغترّ بأنفسنا وبأعمالنا فنتلكل عليها كما يفعل كثير من المتدينين. فإناهم يشمخون بانوفهم، ويتعالون على غيرهم، وهذا ليس من الاسلام.

ومعنى الحديث: إن هذا الجزاء الذي يحصل عليه الطائع ليس بدلاً مماثلاً لطاعتهم وليس جزاء مساوياً كالشأن بين البدلين، وإن كانت الطاعة هي التي اوجبته. لذا فإنه لن يدخل أحدكم الجنة بعملٍ يساوي ما فيها من النعيم ففضل الله عظيمٌ سابغٌ باعتبار جعله الجنة بدلاً من عمل محدود لا يقابلها في ذاته.

الوعد: خاص بالخير وعده بخير، وأوعده بالشر فأذن مؤذن: المراد به هنا رفع الصوت بالاعلام بالشيء. اللعنة: الطرد والابعاد يصدون عن سبيل الله: يعرضون يبعثونها عوجا: يريدون ان تكون الطريق معوجة، أي بالضلال والإضلال. بعد أن ذكر الله وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان بين ما يكون بين الفريقين: فريق أهل الجنة، وفريق أهل النار، من المناظرة والحوار بعد ان يستقر كل منهما في داره. ولا يقتضي هذا الحوار والتخاطب قرب المكاتب على ما هو معهود في الجنيا، فعالم الآخرة عالم مختلف كل الاختلاف فيجوز أن يكون بين الجنة والنار آلاف لأميال او اكثر، ومع ذلك يمكن للفريقين ان يروا بعضهم، ويسمعوا كلام بعض بحال لا يتعلمه، وبطريقة تختلف كل الاختلاف عن حالنا وعالمنا. {ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار. . .} .

ونادى اهل الجنة النار قائلين: قد وجدنا ما وعدنا ربنا من الثواب حقاً، فهل وجدتم أتم مثل ذلك في العذاب حقاً؟ فأجابوهم: نعم، قد وجدنا ما أوعدنا به ربنا حقاً كما بلغنا إياه على السنة الرسل فنادى مناد بين أهل الجنة وأهل النار قائلاً: إن الطرد من رحمة الله هو جزاء الظالمين لأنفسهم، الجانين عليها بالكفر والضلال. قراءات:

قرأ ابن كثير، وابن عامر وحزمة والكسائي: «أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ». بالتشديد وقرأ نافع وابو عمرو وعاصم: أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ بِسُكُونِ النُّونِ، ورفع لعنة. {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا. . .} .

إنهم هم الذين يعرضون عن سبيل الله ويمنعون الناس عن السير في الطريق السوي، وهو الايمان والعمل الصالح، ويبغون الطريق المعوجة الضالة المضلة. {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} .

وهم منكرون للبعث والجزاء. ولذلك تجدهم لا يبالون، فيأتون المنكر من القول والعمل. هؤلاء هم شر الناس.

الحجاب: السور الحجاز. الاعراف: مفرد عُرْف، وهو كل شيء مرتفع. والسيما والسيما: العلامة واذا صُرِفَ ابصارهم: حولت تلقاء: جهة وهي الجهة المقابلة.

فيه هاتين الآيتين والآيتين اللاحقتين يجيء ذكر لفرقة لم يتحدث عنها القرآن الكريم باسمها ومكانها وندائها إى في هذه السورة. وهي الفرقة التي سميت «أصحاب الأعراف» وسميت السورة باسمها.

وذلك وصف لمشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يبين أن بين اهل النار واهل الجنة حجاباً، وأن هناك جماعة على الأعراف ينادون أهل الجنة بالتحية والتكريم.

{يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ} .

يعرفون كلا من السعداء والاشقياء بعلامات تدل عليهم من اثر الطاعة والعصيان.

{لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} لم يدخلوا الجنة بعد، وهم يرجون دخولها.

{وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} .

وإذا تحولت أبصارهم إلى أصحاب النار، قالوا من هول ما رأوا: يا ربنا، لا تدخلنا مع هؤلاء الظالمين.

ثم يأخذ اصحاب الاعراف في تبكيث أهل النار من جهة مان كانوا يجمعون من جموع ليصدوا عن سبيل الله، وما كانوا يبدون من

استكبار عن تقبل دعوة الحق. ولا ينسون توبيههم من جهة موقفيهم من التسضعفين من المؤمنين في الدنيا مثل بلال وصهيب وآل ياسر وغيرهم، حيث كانوا يستهزئون بهم ويُقسمون الأيمان المغلظة على انهم لا يمكن ان يكونوا صالحين، فقال تعالى {ونادى أصحاب الأعراف} .

٧٠١٨ 48

وهذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستبرين الذين كانوا يعتزون في الدنيا بغناهم وقوتهم، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم. لقد كانوا يزعمون ان من أغناه الله وجعله قوياً في الدنيا فهو الذي يكون له نعيم الآخرة. فيقولون لهم الآن: ما أفادكم جمعكم الكثير العدد، ولا استكباركم على أهل الحق بسبب عصبيتكم وغناكم!! ها أنتم أذلاء ترون حالكم وحالكم. ثم وجه إليهم سؤال توبيخ وتأنيب:

{أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟} .

أهؤلاء الذين حلفتم في الدنيا أن رحمة الله لن تنالهم! ها هم قد دخلوا الجنة، وكانوا من الفائزين.

{ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون} .

قال الله تعالى لأصحاب الأعراف بعد أن طال وقوفهم، وهم ينظرون إلى الفريقين: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم من أمر مستقبلكم، ولا أنتم تحزنون عن أمر فاتكم.

وقد تكلم العلماء في هذا المقام كثيراً، وتعددت الآراء فبعضهم قال إن رجال الأعراف ملائكة، وبعضهم قال إنهم الأنبياء، أو عدول الأمم الشهداء على الناس، أو أهل الفترة، أو هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم إلى غير ذلك من الأقوال.

والذي يجب أن نقف عنده هو أن هناك حجاباً بين الجنة، والنار، الله أعلم بحقيقته، لأنه في عالم الآخرة. والمقصود أن ذلك الحجاب يحجز بين الفريقين، لكنه لا يمنع من وصول الأصوات وأن هناك مكاناً له صفة الامتياز والعلو، فيه رجال لهم من المكانة ما يجعلهم مشرفين على هؤلاء وهم ينادون كل فريق بما يناسبه. . يحيون أهل الجنة، ويكفون أهل النار. ثم إن أصحاب هذا الحجاب يدخلون الجنة برحمة من الله وفضله.

٧٠١٩ 50

إفاضة الماء: صبه، ثم استعمل في الشيء الكثير ويقال (اعطاه غيضاً من فيض) أي قليلاً من كثير.

في هاتين الآيتين مشهد من مشاهد الآخرة بين أصحاب الجنة. فبعد أن بين الله تعالى مقال أهل الجنة لأهل النار، ومقال أصحاب الأعراف لأهل الجنة- ذكر كيف يستجدي أهل النار، بعد أن لفحتهم حرارة النار واشتد بهم الظمأ، من أهل الجنة ان يمنحهم شيئاً مما يمتنعون به من شارب وطعام: فينادونهم قائلين: أفيضوا علينا بعض الماء، أو أعطونا شيئاً من طيبات المأكول والملبس في الجنة فيجيبهم أهل الجنة: اننا لا نستطيع، لان الله تعالى حرم ماء الجنة ورزقها على الكافرين، كما حرم عليهم دخولها.

وقد وصف أهل الجنة الكافرين بأنهم كانوا السبب في ذلك الحرمان:

{الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرَّتْهم الحياة الدنيا} أي شغلَّتْهم بزخارفها، وكان دينهم اتباع الهوى والشهوات. لقد ظنوا أن الحياة الدنيا لا حياة غيرها، فعكفوا على الجانب المادي المظلم، وحرَموا انفسهم من الجانب الروحي المشرق. هكذا عاشوا في ظلام المادة وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا.

وكثيراً ما يضيف القرآن الكريم هذا الوصف إلى الكفار ويعلن انه سبب نكبتهم وسوء مصيرهم.

بعد هذا يسمع أهل لنار الحكم الالهي العادل:
 {فَالْيَوْمَ نَسَاءَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} .
 فالיום نعاملهم معاملة الشيء المنسي الذي يبحث عنه أحد لقد جحدوا بآيات الكون فلم تفتح لها يعونهم، ولم تتجه إلهيا قلوبهم، وأعرضوا
 عن حكم الله وإرشاده. بذلك نسوا لقاء يومهم هذا، فوقعوا فيما وقعوا فيه.

٧٠٢٠ 52

الكتاب: القرآن الكريم. التفصيل: التبين بوضوح ينظرون: ينتظرون تأويله: عاقبته. الحق: الأمر الثابت خسروا انفسهم: غبنوها
 وهلكوها. ضل عنهم: غاب عنهم.

بعد ان بين الله احوال اهل الجنة وأهل النار وأهل الاعراف وما دار بينهم من حوار، عَقَّبَ بِذِكْرِ حَالِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ
 عَلَى الْبَشَرِ كَافَّةً، أَزَاحَ عِلَلَ الْكُفَّارِ وَأَبْطَلَ مَعَاذِيرَهُمْ. ثُمَّ أَرْدَفَ تَعَالَى بِذِكْرِ حَالِ الْمَكْذِبِينَ وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ
 وَتَمَنَّى الْعُودَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَكِنْ، هِيَاتِ. . لَقَدْ فَاتَ الْأَوَانُ وَطُوِيَ حَيَاةُ الْعَمَلِ.

لقد جئناهم بكتاب كامل البيان هو القرآن فصلنا آياته تفصيلاً على علم منا، فيه أدلة التوحيد وآيات الله في الكون، وما يحتاج إليه
 المكلفون من العلم والعمل وفيه بيان الطريق المستقيم.

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ} هل ينتظرون إلا عاقبة ما وعدوا به على السنة الرسل من الثواب والعقاب؟ ليس أمامهم شيء ينتظرونه إلا
 وقوع تأويله من امر الغيب لاذي يقع في المستقبل، في الدنيا ثم في الآخرة.

{يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} .
 ويوم يأتي هذا المال، وهو يوم القيامة، وينكشف كل شيء - يقول الذين تركوا أوامره وبياناته، معترفين بذنوبهم: قد جاءنا الرسل
 من عند ربنا داعين إلى الحق الذي أرسلوا به، فكفرنا بهم.

ثم ذكر الله حالهم في ذلك اليوم العصيب، وتلهفهم على النجاة. فقال:
 {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} .

هنا يتمنّون الخلاص بكل وسيلة ممكنة، إما بشفاعَةِ الشافعين، وإما بالرجوع إلى الدنيا. ولك ذلك مستحيل.
 {قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} .

قد غبنوا أنفسهم بغرورهم في الدنيا وباعوا نعيم الآخرة الدائم بالخسيس من عرض الدنيا الزائل، وغاب عنهم ما كانوا يكذبونه من ادعاء
 إله غير الله.

٧٠٢١ 54

الرب: السيد والمالك والمربي. الآله: هو المعبود بحق. والله: اسم الخالق الخلق اجمعين. السماوات والارض: هذا الكون وجميع ما
 فيه. اليوم: هو هنا غير أيامنا التي نحسب بها العرش: سرير الملك وكرسيه في مجلس الحكم والتدبير استوى على العرش: استولى عليه
 وملكه غشى الشيء: غطاه وستره. وأغشاه اياه جعله يغطيه وستره حيث: سرعيا مسخرات: مدلللات خاضعات لتصرفه، منقادات
 لمشيئته الخلق: الایجاد بقدر تبارك الله: تعاظمت بركاته: والبركة هي الخير الكثير الثابت.

في الآيات السابقة كان القول في أمر المعاد والفئات من الناس في ذلك اليوم، وما يدور من حوار بين تلك الفئات. وهنا، يذكر الخلق
 والتكوين وبيان قدرته تعالى وعظيم مصنوعاته.

إن ربكم الذي يدعوكم بواسطة رسله إلى الحق هو خالق الكون ومبدعه: خلق السماوات والأرض في ستة أيام. وهي غير أيامنا المعروفة لأن الإنسان عندما يخرج من جو الأرض ينعدم لديه الزمان المعروف عندما يصبح غير محدود، كما قال تعالى: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ} هذا مع انه جل جلاله قارء على ان يخلق الكون في لحظة واحد، ولكنه يقرب إلى أفهامنا الأمور على قدر مانستطيع فهمها.

{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ . . .} ثم استولى على السلطان الكامل.

وهو الذي يجعل الليل يستر النهار بظلامه، ويعقب الليل النهار سريعاً بانتظام كأنه يطلبه كذلك خلق الشمس والقمر والنجوم، وهي خاضعة له مسيرات بأمره. إن له وحده الخلق والأمر المطاع {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} . وقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة معان:

اولها: أن السماوات والأرض خلقهما الله تعالى في ستة أيام، لكنها ليست بقدر ما نراه الآن ونعيش فيه، ونعده في الحساب، بل المراد يتغير أحوال بين ظلام وغبش، وإصباح وضئ، وظهيره وأصيل.

والأحوال الستة التي اعتبرت أياماً كما يذكرها العلماء المختصون، هي: حال الأثير، وهي التي عبر عنها في سورة الدخان بأنها دخان. ثم كان من هذا الأثير شمس لا حصر لها، منها شمسنا ثم الأرض والكواكب وهذا النظام الذي نعيش فيه، وهو ذرة في هذا الكون الواسع.

ثانيها: أن كل ما في الكون هو في سلطان الله وحده، ولا سلطان لأحد سواه ومهما يؤت الإنسان من قوة فلن يستطيع تسيير الكون على ما يريد، وأقصى ما يستطيعه أن ينتفع به، ويعرف بضع ما فيه من أسرار.

ثالثها: أن تعاقب الليل والنهار جاء بعد خلق الأرض والسماوات، في احوال نسبية بالنسبة لأصل تكوين الأرض والعلاقات بينهما وحركاتهما.

قراءات: قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عصام: يُغْشَى، بالتشديد وقرأ نافع وبان كثير وابو عمرو وعاصم في رواية حفص يُغْشَى بضم الياء وسكون الغين.

٧٠٢٢ 55

تضرعا: تذلاً، ويقال تضرع له، إذا اظهر الذل في معرض السؤال. خفية: سرا ضد العلانية. لا يجب المعتدي: المتجاوزين الحدود، ومعنى لا يحبهم أنه لا يجازيهم بالثواب.

بد ان ذكر سبحانه وتعالى الأدلة على توحيد الربوبية، امر بتوحيد الألوهية أي إفراده تعالى بالعبادة.

إذا كان الله قد أنشأ الكون وحده، فاعدوه متضرعين مبتهلين، جهراً وغير جهراً. والدعاء خفية أفضل، لما روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجذون بالكبير فقال رسول الله: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إنكم سميعاً قريباً وهو معكم» رواه مسلم ومعنى اربعوا على أنفسكم: ارفقوا بأنفسكم.

وفي الحديث ايضا «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي» رواه احمد وابن حبان وابو يعلى عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه. وفصل بعض العلماء فقال: ان التضرع بالجهر المعتدل يحسن في حال الخلوة، والأمن من رؤية الناس للداعي وسماعهم لصوته. أما الدعاء خفية فيحسن في حال اجتماع الناس في المساجد وغيرها إلى ما ورد في رفع الصوت من الجميع كالتلبية في الحج وتكبير العيدين. {إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} .

لا تعتدوا بإشراك غيره معه في الدعاء او بظلم أحد من الناس، فان الله لا يحب ذلك.

{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} .

ولا تفسدوا في الأرض بإشاعة المعاصي والعدوان، بعد أن أصلحها الله بما خلق فيها من المنافع وما هدى الناس إليه من الاستغلال. والإفساد هنا شامل لإفساد العقول والعقائد والآداب الشخصية، والاجتماعية من جميع وجوهها.

وبدأ ان بين في الآية الأولى كيفية الدعاء أعاد الأمر به في الآية الثانية. وذلك إيداناً بأن من لا يعرف أنه محتاج إلى رحمة ربه، ولا يدعو ربه تضرعاً وخفية - يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح فقال:

{وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} ادعوه سبحانه خائفين من عقابه، طامعين في ثوابه. ثم إنه بين فائدة الدعاء وعلل سبب طلبه فقال: {إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} ، إن رحمته قريبة من كل محسن، وهي أكيدة محققة. والجزاء من جنس العلم، فمن أحسن في عبادته نال حُسن الثواب، ومن احسن في الدعاء نال خيراً مما طلب وقريب (فعيل) يوصف بها المذكر والمؤنث.

٧٠٢٣ 57

الريح: الهواء اذا تحرك.

قال الراغب: كل موضع ذكر الله فيه إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب، وكل موضع ذكر فيه الريح بلفظ الجمع كان للرحمة. واطن ان هذا في الغالب، لان الله تعالى يقول: {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} وفي سورة يوسف: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} سورة [يوسف: ٩٤] . بُشراً: مبشرة بين يدي رحمته: قدام رحمته اقلت: حملت. سخاباً ثقالاً: غيماً مثقالاً بالمياه البلد: يطلق على البلدة، وعلى الموضع لبلد ميت: ارض لانبات فيها.

الثمرات: كل ما تحمله الأشجار من جميع الانواع النكد: العسر: الشحيح: القلي النفع نصرف الآيات: نبدل الاشياء من حال الى حال. إن الله سبحانه تعالى وحده هو الذي يطلق الرياح مبشرة برحمته «وهي هنا الأمطار التي تنبت الزرع وتسقي الغرس» فتحمل هذه الرياح سخاباً محملاً بالماء، يسوقه الله إلى بلد ميت لا نبات فيه فينزل الماء، وبه ينبت الله أنواعاً من كل الثمرات تدل على قدرة الله وعلمه ورحمته وفضله.

وبعد ان ذكرهم بهد الآيات والنعم قفى على ذلك ما يزيل إنكارهم للبعث فقال: {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى} .

بمثل ذلك الإحياء للأرض بالإنبات نُخرج الموتى فنجعلهم أحياء.

{لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} .

أي تفتنون لهذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث، وبذلك تتذكرون قدرة الله تؤمنون به. قراءات:

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي (الريح) بالافراد. وقرأ ان عامر: نُشراً جمع نشور، وقرا حمزة الكسائي: نُشراً بفتح النون وقرأ عصام كما هو بالمصحف «بُشراً» وقرأ نافع: نُشراً بضم النون والشين.

وبعد أن ضرب الله إحياء البلاد بالمطر مثلاً لبعث الموتى، ضرباً لخلاف نتاج البلاد مثلاً لما في البشر من اختلاف الاستعداد لكل من الهدى والكفر.

{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً} .

أما الأرض الجيدة التربة فإن نباتها يخرج نامياً حياً بإذن ربه، ويكون كثير الغلة طيب الثمرة. وأما الأرض الخبيثة فإنها لا تخرج إلا نباتاً قليلاً عديم الفائدة.

{كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} .

في مثل ذلك التصريف البديع نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة، ونكرها لقوم يشكرون نعمنا، وبذا يستحقون المزيد منها.

يوم عظيم: يوم القيامة. الملائ: أشارف القوم، وسراتهم وكذلك الجماعة، وجمعه أملاء. نصح: نصح له الوعد ونصح له المشورة، ونصحه: أرشده الى ما ففهي صلاحه. ذكر من ربكم: موعضة من ربكم. على لسان رجل منكم الفلك: السفينة عمين: جمع عم، وهو الأعمر. وقال بعض العلماء إنه خاص بعمى القلب والبصيرة، فيما الأعمر هو أعمرى البصر.

بعد ان ذكر الله تعالى الإنسان ومعادة، وان مرده إليه يوم القيامة- جاء هنا يذكر قصص الأنبياء مع أمهم، وكيف أعرضت عن دعوتهم. وذلك حتى يبين للرسول الكريم أن إعراض المشركين عن قبول الدعوة ليس أمراً جديداً، بل وفي هذا تسلية له ﷺ.

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} .
أكد الله تعالى مخاطباً البشر جميعاً بأنه أرسل نوحاً إلى قومه الذين بعث فهم، وقال لهم مذكراً بأنه منهمك يا قوم أعبدوا الله تعالى وحده، فليس لكم أي إله غيره تتوجهون إليه فيعبادتم إني أخاف عليكم عذاب يوم شديد هولاً، وهو يوم الحساب والجزاء. . .
قراءات:

قرأ الكسائي: «ما لكم من إله غيره» بكسر الراء والهاء. والباقون «غيره» بضم الراء والهاء.

{قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} .

قال اهل الصدارة والزعامة منهم مجيبين تلك الدعوة الى الوحدانية واليوم الآخر: يا نوح، إنا لنراك في ضلال بين عن الحق، كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا من الاصنام؟

{قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} .

قال نوح مجيباً لهم، ونافياً ما رموه به: لست ضالاً كما تزعمون، بل أنا رسول لكم من رب العالمين، أهدىكم باتباعي إلى ما يوصلكم الى السعادة في الدنيا والآخرة.

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} .

وإني في هذه الدعوة الى الوحدانية والايمان باليوم الآخر، أبلغكم ما أرسلني به ربي، وأحضكم النصيح. واعلموا أنني في هذا التبليغ وذلك النصيح على علم من الله أوحاه إلي لا تعلمون منه شيئاً.

قراءات:

قرأ ابو عمرو: «أبلغكم» باسكان لاء والباء والباقون: أبلغكم بفتح الباء وتشديد اللام المكسورة.

{أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ} . . . { .

أترمونني بالضلالة والبعد عن الحق، ثم تعجبون من أن يأتيكم ذكر وموعظة من خالقكم، وعلى لسان رجل منكم جاء يحذركم عاقبة كفركم، رجاء ان تكونوا في رحمة الله في الدنيا والآخرة.

{فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} . . . { .

لكنهم مع تلك البينات لم يؤمن اكثرهم، بل كذبوه، وأصروا على كفرهم، فأنجيناه هو والذي أخذهم معه في الفلك من الطوقان، واغرقتنا من كذبه. لقد عاندوا فكانوا بك قوماً عمي القلوب والبصيرة. وقد ذكرت قصة نوح مفصلة في سورة هود.

روى مسلم وابو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، وعامتهم» .

أخاهم: تعني هنا أخوة الجنس: السفاهة: خفة العقل. بسطة: سعة قوة. آلاء الله: نعمة أحدها ألا وإلى. رجس: عذاب الغضب: الانتقام. المجادلة: الممارسة والمخاصمة السلطان: الحجة والدليل الدابر: الآخر، يعني أهلكتهم جميعاً. تعرض هذه الآيات قصة هود مع قومه، قوم عاد، فقد كانوا عباد أوثان، منازلهم في الأحقاف - وهو الرمل - بين عُمان وحضرموت. وقد رزقهم الله القوة والغنى، فلما جاءهم هود بالرسالة من عند ربه ليوحده، ويكفوا عن الإفساد في الأرض، أبوا ذلك، وكذبوه، وأصروا على عبادة أصنامهم.

ولقد قال لهم: يا قوم، اعبدوا الله وحده، ليس لكم إله غيره، «افلا تتقون» أي تحسون الله، علّه ينجيكم من الشر والعذاب. {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا} .

فأجاب ذوو الزعامة والصدارة من قومه: انا لنراك في خفة م العقل، وضلالٍ عن الحق، كيف لا وقد تركت ديننا، ودعوتنا هذه الدعوة الغريبة!! إنا لنعتقد أنك من الكاذبين.

قال: يا قوم، ليس بي في الدعوة أي قدرس من السفاهة ولست بكاذب، بل أنا رسول اليكم من رب العالمين، جئتكم بالهداية التي تخلصكم.

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} .

إني أنقل اليكم أوامر ربي ونواهيه، ومحضكم النصح الخالص ولست من الكاذبين.

{أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ} .

هل أثار عجبكم واستغربتم ان يجيء إليكم تذكير بالحق من ربكم على لسان رجلٍ مكم يخوفكم عقاب الله حتى تتركوا ما انتم عليه.

ثم اشار الى ما أصاب المكذبين الذين سبقوهم، وإلى نعم عليهم فقال:

{وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} . . { .

اذكروا فضل الله عليكم إذ جعلكم واثقين للأرض من بعد قوم نوح الذين أهلكهم لتكذيبهم نبيهم نوحاً، وزادكم قوة في الأبدان والسلطان وكل هذه نعم تقتضي الإيمان، فتذكروا هذه النعم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به.

لكنهم منع هذه الدعوة بالحسنى قالوا متسغرين: أجبتنا لدعونا إلى عبادة الله وحده، وأن ترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام؟

وقد ان استنكروا التوحيد تحدره وقالوا: اثبتنا بالعذاب الذي تهدونا به أن كنت صادقاً في قولك ووعيدك.

فأجابهم هود على تحديهم هذا:

{قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ} . . { .

انكم لعنادكم قد حق عليكم عذاب الله ينزل بكم، وغضبه عليكم. تُجادلونني في أصنام سميتموها أنتم وآباؤكم؟ ما جعل الله من حجة تدل على ألوهيتها، ولا لها قوة خالقة تجعلكم تبعدونها. وما دمتم كفرتم ولجتم هذه الحاجة فانتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه، ونحن ننتظر معكم.

فلما جاء أمرنا ووقع العذاب أنجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا، فيما استأصلنا دابر الكافرين الذين جحوا بآياتنا، حتى لم نبق منهم أحداً.

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين.

ثمود: قبيلة من العرب مساكنهم الحجر في شمال الحجاز جهة الشام، وهي «مداين صالح» وأخوة صالح لقومه: أخوته في النسب البينة: المعجزة الظاهرة الدلالة. اذكروا: تذكروا بؤاكم في الأرض: انزلكم فيها. الأرض: هي الحجر: النحت: نجر الشيء الصلب والحفر فيه، وكانت بيوتهم منحوتة في الجبل قطعة واحدة، ولا يزال بقية منها إلى الآن. لا تعثوا في الأرض: لا تفسدوا. استكبروا: تكبروا. عقروا الناقة: نحروها، وعادة العرب في نحر الابل ان يقطعوا قوائكها فتقع على الأرض فينحروها عتوا: تمردوا. الرجفة: الهزة تقع في الأرض، والزلزلة. في دارهم: في بلدهم جاثمين: قاعدين بلا حراك.

وهذه قصة اخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، هي قصة صالح عليه السلام ومفادها:

لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً الذي يشاركونهم في النسب والوطن، وكانت دعوته كدعوة الرسل قبله. قال لهم: أخلصوا العبادة لله وحده، مالكم إله غيره، قد جاءكم حجة وبرهان على صدق ما أقول، وحقيقة ما أدعو إليه. هذه ناقة ذات خلق خاص، فيها الحجة وهي ناقة الله، فتركوها تأكل مما تئبته أرض الله من العشب لا تتعرضوا لها ولا تنالوها بسوء، فإذا فعلتم أخذكم شديد.

وفي سورة الشعراء تفسير أوضح قسم الماء الموجود في البلدة بين قومه وبين الناقة «هذه ناقة لها شرب ولكن شرب يوم معلوم» .

ثم ذكرهم بنعم الله عليهم، وبوجوب شكرها بعبادته تعالى وحده فقال:

{واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد} .

تذكروا أن الله جعلكم وارثين لأرض عاد، وأنزلكم منازل طيبة في أرضهم، فصرتم تتخذون من السهول قصوراً نفخة، وتختون في الجبال بيوتاً حصينة. اذكروا نعم الله تعالى إذا مكّنكم في الأرض ذلك التمكن، ولا تيعيثوا فيها مفسدين.

وعلى ذلك أجاب أهل الصدارة، والزعامة، مخاطبين الذين آمنوا من المستضعفين متهمين عليهم: أعتقدون أن صالحاً مرسل من ربه؟ فأجابهم أهل الحق: نحن مصدقون بما أرسل به صالح.

قراءات:

قرأ ابن عامر: «وقال الملأ» بالواو.

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} .

فردّ عليهم المستكبرون: إنا جاحدون ومنكرون للذي آمنتم وصدقتم به من نبوة صالح هذه.

ثم لج العناد بأولئك المستكبرين، فتحدوا الله ورسوله، وذبحوا الناقة وتمردوا وتجاوزوا الحقد في استكبارهم، وقالوا متحدّين: يا صالح، اثبتنا بالعذاب الذي وعدتنا «إن كنت من المرسلين» عندئذ «فاخذتهم» الرجفة «أي دمرتهم الزلازل الشديدة، ومن ثم» فأصبحوا في دراهم جاثمين «باتوا مصعوقين جثثاً هامدة لا حراك بها، واصبحت ديارهم خاوية على عروشها إلى الآن.

روى الامام احمد والحاكم عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك - قال لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح، فكانت الناقة ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة أحمد الله من تحت أديم السماء منهم.

وكان قوم صالح عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً.

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ان لا يشربوا من آبارها ولا يسقوا منها، فقالوا: قد سجنّا منها واستقينّا. فأمرهم النبي الكريم ان يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء. ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة.

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} .

قال لهم صالحٌ بعد ان جرى لهم ما جرى، فرآهم صرعى بيوتهم خاوية، قال: يا قوم قد ابغتكم أوامر ربي ونواهي، ومحضت لكم النصيح، لكنكم بإصراركم على الكفر صرتم لا تحبون من ينصحكم.

٧٠٢٧ 80

لوط: هو ابن أخ إبراهيم، هاجر مع عمه من العراق الى فلسطين ثم سكن جنوب الأردن في سدوم وعامورة ثم منطقة البحر الميت الآن. الفاحشة: المقصود بها هنا إتيان الذكور. مسرفون: متجاوزون حد الاعتدال. من الغابرين: الذاهبين الهالكين. جاء ذكر قصة لوط بتمامها في عدة سور باختلاف يسير. وتلخص في أن قوم لوط كانوا أهل شر وأذى. . . كانوا يقطعون الطريق على الناس، قد ذهب الحياء من وجوههم، فلا يستقبحون قبيحا، ولا يرغبون في حسن، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ} .

وكان أشنع عمل لهم هو ما اشتهروا به من إتيان الذكور، فأرسل الله عليهم العذاب ودمر قراهم، وطمس معالمها فلم تعد تُعرف إلى الآن. {وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} .

ولقد أرسلنا لوطاً نبياً إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وينبئهم إلى وجوب التخلي عن أقيح جريمة يفعلونها، وهي اتصال الرجل منهم بالرجل أو الغلام في مباشرة جنسية شاذة. وفي ذلك خروج على الفطرة وقد قال لهم: يا قوم، إنكم قد ابتدعتم تلك الفاحشة بشذوذكُم، وفي هذا إسرافٌ ليس له مثيل في تجاوز حدود الاعتدال.

{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ} . فكان جواب قوط لوط على هذا الاستنكار لأقيح الافعال ان قالوا: أخرجوا لوطاً هذا مع آله وأتباعه من بلدكم. إنهم يتعففون عن مشاركتنا في ما نفعل.

وهكذا يتجلى الانحراف في جوابهم: يخرجون لوطاً وأتباعه لأنهم مستقيمون! أما الفاسقون الفاسدون، فقد بلغ من حقتهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة ويفخروا بها، بل أن يحتقروا من يتنزه عنها.

وتأتي الخاتمة سريعاً بلا تطويل ولا تفصيل: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} . ولقد حقت عليهم كلمة العذاب، فأنجينا لوطاً وأهله، الا امرأته لقد رفضت ان تؤمن به، فكانت من الهالكين. ثم أمطرنا عليهم حجارة مدمرة، ومادت الأرض بالزلازل من تحتهم، فانظر أيها المعبر كيف كانت عاقبة المجرمين.

قال الامام ابن القيم في زاد المعاد: هذا لم تكن تعرفه العرب، ولم يُرفع إليه حديث صحيح في ذلك. لكنه ثبت عنه ﷺ انه قال: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» .

رواه اهل السنن الأربعة بإسناد صحيح وقال الترمذي: حسنٌ صحيح، وحكم به أبو بكر الصديق، وكتب به إلى خالد بن الوليد، بعد مشاورة الصحابة وكان علي كرم الله وجهه أشدهم في ذلك.

وقد طعن ابن حجر في هذه الأحاديث وقال: إنها ضعيفة. ولذلك يجب على الحاكم ان يتحرى جيداً، فإن عقوبة القتل أعظم الحدود، فلا يؤخذ فيها إلا بالصحيح القاطع من كتاب أو سنة متواترة أو إجماع.

لا تخبسوا الناس: لا تنقصوهم حقوقهم. ولا تفسدوا: الفساد شامل لجميع الجرائم، والاصلاح: ضده بكل صراط: بكل طريق توعدون: تخوفون وتهددون. تصدون: تمنعون.

شُعَيْبُ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ الْعَرَبِ، واسمه في التوراة رعوئيل، ومعناه: صديقُ الله وقد ذُكر شعيب في القرآن الكريم عشر مرات: في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، وسورة العنكبوت. أما قومه فهم شعب مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت منازلهم في شمال الحجاز على الساحل.

وكان اهل مَدْيَنَ في عيشٍ رغيد لأنهم أهلُ تجارة. وكانوا يعبدون غير الله تعالى، ويفعلون الشرور، من ذلك أنهم كانوا يطففون المكيالَ والميزان، ويماكسون الناس في سلعهم ليشتروها بأبخس الأسعار وكان شعيب ينهأهم عن كل ذلك ويحذّرهم بأس الله تعالى، فأنكروا عليه ما جاء به ولم يستمعوا إليه.

ويسمّيه المفسرون خطيبَ الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، وبراعته في إقامة الحجة عليهم. ومع ذلك فقد مضوا في غيهم، وتمادوا في صدّ الناس عنه.

{وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} .

ولقد أرسلنا إلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ: يا قوم، اعبدوا الله وحده، قد جاءكم الحجج المبينة لحق من ركن مُمْتَنَةً رسالتي إليكم. (ولم تذكر الآية ما هي معجزته ولم يأت لها ذكر في بقية السور التي ذكرت فيها قصة شعيب) غير أنه كانت هناك بيّنة جاءهم بها، ودعاهم إلى توحيد الله كما أمرهم بالإصلاح بينهم بالمعاملة العادلة.

{فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} .

لقد أمرهم بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، ونهأهم عن أن ينقصوا حقوق الناس إذا اشتروا منهم. وطلب إليهم ألا يفسدوا في الأرض الصالحة، كإفساد الزرع وقطع الأرحام والمودة.

{وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} .

لا تعرضوا كل طريق من طرق الحق والهداية، تهددون سالكه، وتمنعون طالبي الخير من الوصول. {وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} تريدون سلوك الطريق المعوج. تدّكروا اذ كنتم قليلا فكثركم الله بما بارك في نسلكم، واشكروا له ذلك بعبادته وحده، واعتبروا بعاقبة المفسدين قبلكم، وإلا أصابكم مثل ما أصابهم.

{وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا} .

وإذا كانت طائفة منكم قد آمنت بالحق الذي أرسلت به فيما لم تؤمن طائفة ثانية فانتظروا حتى يحكم الله بين الفريقين. إنه خير من يفصل، وأعدل من يقضي وهو خير الحاكمين.

انتهى الجزء الثامن، نسأل الله تعالى ان يوفقنا إلى ما فيه رضاه، وإلى أن يتم هذا التفسير على أحسن حال، اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

افتتح بيننا: احكم بيننا الفاتحين: الحاكمين تورد هذه الآيات تمة قصص شعيب ففيها جوابُ الملأ الزعماء من قومه عما أمرهم به: من عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وعدم الفساد في الأرض.

وقد تولى الردّ عليه اشراف قومه وكبرائهم كما هو الشأن في بحث كبريات المسائل ومهمّات الأمور.

قال أولئك الاشراف: قَسَمًا لَّنُخْرِجَنَّكَ يَا شَعِيبُ أَنْتَ وَمَنْ آمَنَ مَعَكُمْ مِنْ بِلَادِنَا، لَوْ تَرَجَعْنَ إِلَى دِينِنَا الَّذِي هَجَرْتُمُوهُ. فَرَدَّ عَلَيْهِمْ شَعِيبُ قَلَائِلًا: أَنْصِيرُ فِي مِلَّتِكُمْ وَنَحْنُ كَارِهُونَ لَهَا لِفَسَادِهَا؟ .

ثم بالغ في قطع طمعهم من العود الى ملتهم كما يطلبون، فقال: إِنَّا نَكُونُ كَاذِبِينَ مَفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ إِنْ عُدْنَا إِلَى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ. وَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِمَحْضِ اخْتِيَارِنَا وَرَغْبَتِنَا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَيَهْطَ ذَلِكَ! لِأَنَّهُ رَبُّنَا، عَلِيمٌ بِمَصْلَحَتِنَا وَخَيْرِنَا، وَلَنْ يَشَاءَ رَجُوعَنَا إِلَى بَاطِلِكُمْ. لَقَدْ وَسَّعَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهَا، وَمَنْ عِلْمُهُ أَنَّهُ يَهْدِينَا إِلَى مَا يَحْفَظُ عَلَيْنَا إِيمَانَنَا. لَقَدْ سَلَّمْنَا أَمْرَنَا إِلَيْهِ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي سَيَحْكُمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

٧٠٣٠ 90

الرجفة: الحركة والاضطراب، والمراد بها الزلزلة غني بالمكان: نزل به واقم فيه الأسى: شدة الحزن. بعد أن يئس القوم من مطاوعة شعيب وأصحابه لهم، وعلموا أنهم ثابتون على دينهم، خافوا أن يكثر المهتدون بظهور قوة شعيب وشبائه على دعوته، فاتَّجَّه زعمائهم إلى أبتاعهم يهددونهم قائلين: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتِئِنَّ ابْتِغَمُ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَاً لَخَاسِرُونَ} . وقال زعماء قوم شعيب الكافرون: وَاللَّهِ إِنْ طَاوَعْتُمْ شُعَيْبًا فِي قَبُولِ دَعْوَتِهِ وَأَمْنْتُمْ بِهِ، لَتَنخَسِرُوا شَرْفَكُمْ وَثُرُوتَكُمْ، كَمَا تَكُونُونَ قَدْ تَخَلَّيْتُمْ عَنْ مِلَّتِكُمُ الَّتِي مَاتَ عَلَيْهَا آبَاؤُكُمْ مِنْ قَبْلِ.

بعد هذا ذكر الله تعالى عاقبة أمرهم وما أصابهم من نكال فقال: {فَاخَذَتْهُمْ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} أي دهمتهم الزلزلة فأهلكتهم في ديارهم وظلَّموهم منكبين على وجوههم لا حياة فيهم. {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ} . هذا شأن الله مع الذين كذبوا شعيبًا، وهددوه وأنذروه بالإخلاج من قريتهم. . . لقد هلكوا وهلكت قريتهم فخرموا كأن لم يعيشوا فيها بحال، وهكذا فإن الذين كذبوا شعيبًا وزعموا أن من يتبعه هو الخاسر قد باتوا هم الخاسرين. فلما رأى شعيب ما نزل بهم نم الهلاك المدمر، أعرض عنهم، وقال مبرئاً نفسه من التقصير معهم: لقد أبلغتكم رسالات ربي، وأديت إليكم ما بعثني به ربي، كما بالغت في إسداء النصح لكم، فكيف أحزن على قوم كافرين؟

٧٠٣١ 94

القرية: المدينة. البأساء: الشدة والمشقة كالحرب والجذب وشدة الفقر. الضراء: ما يضر الإنسان في بدنه أو نفسه. التضرع: اظهار الخضوع والضعف. عَفَوا: كثروا ونموا. بغتة: فجأة. اشار الله تعالى هنا إلى سنته في الأمم التي تكذب رسلها، فهو ينزل بها البؤس وشظف العيش وسوء الحال في دنياهم ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالتوبة. ثم ذكر أنه بدل الرخاء بالبؤس ليعتبروا ويشكروا، لكنهم لم يفعلوا، فاخذهم أخذ عزيز مقتدر. وما بعثنا نبياً من الأنبياء في مدينة من المدن، يدعو أهلها إلى الدين القويم، ثم أعرضوا عن قبول تلك الدعوة- إلا أصبناهم بالفقر والمرض، كي يتذلَّلوا ويخضعوا ويبتهلوا إلى الله راجين كشف ما نزل بهم.

ثم إنهم لما لم يفعلوا ذلك، بل تابعوا كفرهم وعنادهم، امتحنهم الله بالعافية مكان البلاء، فوهمهم رخاء وسعة وصحة وعافية، حتى كثروا ونموا في أموالهم وأنفسهم، وقالوا جهلاً منهم: إن ما أصاب آبائنا من الحن والبلاء كان شأن الدهر، يداول الضراء والسراء بين الناس. لم ينتبهوا أن ذلك كان جزاء كفرهم فيرتدعوا، فكانت عاقبة ذلك أن أصابهم الله بالعذاب المدمر فجأة وهم غافلون عما سيحلُّ بهم.

فلنعتبر نحن المسلمين، فإننا قد تركنا ديننا والعمل به، وأهملنا قرآننا وتعاليمه فسلط الله علينا شر خلقه وأخس الناس، يسلبونا مقدساتنا وأرضينا، ويذلونا شراً ذلال. كل هذا ونحن لا ينقصنا المال ولا الرجال، ولكن ينقصنا الإيمان بالله والحزم والثقة بأنفسنا، وهداية الحكام فينا كي يتبعوا عما هم فيه من انصراف عن الله وتناحر بينهم وفرقة.

٧٠٣٢ ٩٦

بركات السماء: تشمل الروحية والمادية، وبركات الارض الخصب، وما فيها من معادن وخيرات. البأس: العذاب بيّاتاً: ليلاً. الضحى: اولها النهار يلعبون: يلهون من فرط غفلتهم المكر: التدبير الخفي، والخداع وان تصرف غيرك عن مقصده بحيلة. ومكر الله مجازاته على المكر. هداية السبيل: دله عليه.

بعد ان بين الله أخذَه لأهل القرى الذين كذبوا رسلهم- ذكر هنا لأهل مكة ما يكون من إغداق النعم لو آمنوا بالرسول واهتدوا بهدية، واعتبروا بسنة الله في الأمم من قبلهم.

لو أن أهل تلك القرى آمنوا بما جاء به انبياءهم، وعملوا بوصاياهم، وابتعدوا عما حرمه الله- لفتحنا عليهم أنواعاً من بركات السماء والارض نعماً لا تحصى، كالطمر والنبات والثمار والمعادن والأرزاق، والسلامة من الآفات. . لكنهم جحدوا وكذبوا أولئك الرسل، فأنزّلنا بهم عقوبتنا، لما كانوا يقتربونه من الشرك والمعاصي. ثم عجب الله من حالهم وغفلتهم فقال:

{ أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ. . } .

هل جهل أهل هذه القرى فاطمأنوا الى أنه لن يأتيهم عذابنا وقت بيّاتهم! وفي هذا تحذير للناس أجمعين.

أو أن ينزل بهم العذاب في النهار وقت الضحى وهم منهمكون في أعمالهم العابثة حتى كأنها لعب!!

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: «أو آمن» بتسكين الواو. والباقون أو آمن بفتح الواو.

{ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } .

هل جهلوا سنة الله في المكذبين، فأمنوا عذابه ليلاً او نهاراً؟ إنه لا يحفل تدمير الله وقدرته في عقوبة المكذبين برسله الا الذين خسروا أنفسهم غباءً، فلم يفقهوا ما فيه سعادتهم.

فلا يجوز لأحد ان يأمن مكر الله ويظل مسترسلاً في المعاصي، اتكلاً على عفوه ومغفرته ورحمته. وقد كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك» وقد بين لنا الله تعالى ان الراسخين في العلم يدعونه فيقولون: «ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذا هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة» .

وكما ان الآمن من مر الله خسران ومفسدة، فاليأس من رحمة الله كذلك لذا وجب ان يظل المؤمن بين الخوف والرجاء دائماً. { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } .

هذا تحذير للسامعين، وخطاب لجميع الناس حتى يتعضوا ويستقيموا. ومعناه: أغابت عن الذين يخلفون من قبلهم من الأمم سنة الله فيمن قبلهم!! وإن شأنا فيهم كشأننا فيمن سبقوهم، لو نشاء ان نعذبهم أصبناهم كما أصبنا أمثالهم.

ولا يرد الله سبحانه وتعالى للناس بهذا التحذير الشديد ان يعيشوا خائفين قلقين، كلا، بل يلط مناهم اليقظة ومراقبة النفس والعظة من تجارب البشر.

هكذا ينبغي ان نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذي لا يُفَع، ومن مكر الله الذي لا يُدرك. إنه لا يدعو الى القلق وإنما الى اليقظة، ولا يؤدي الى الفرع بل الى الحساسية، وهو لا يعطل الحياة وإنما يحرسها من الاستهتار والطغيان.

يطبع الله على قلوب الكافرين: يختتمها ويقفلها. العهد: الوصية والميثاق. الفسوق: الخروج عن كل عهد، وعصيان أوامر الله. هذا الخطاب موجه الى النبي ﷺ تسلياً له على الصبر في دعوته، وذلك عن طريق تذكيره بما في قصص أولئك الرسل مع اقوامهم من العبر والمواعظ، وبيان ان ما يلاقيه هو من قومه من ضرورة العناد والإيذاء ليس بدعاً. تلك القرى التي بعد عهدها وجعل قومك حقيقة حالها، نقص عليك الآن بعض أخبارها. لقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم، فلم يؤمنوا بها. . .

{يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ} .

هكذا جعل الله حجاباً على قلوب الكافرين وعقولهم فيخفى عليهم طريق الحق وينأون عنه. إننا لم نجد لأكثر أولئك الاقوام وفاءً بما أوصيناهم بهمن الايمان، على لسان الرسل، بل وجدنا اكثرهم خارجين على كل عهد، فطري وشرعي، فهم ناكثون غادرون. وفي التعبير ب «اكثرهم» إيماء الى ان بعضهم قد آمن. وهذا من دأب القرآن الكريم في تحقيق الحقائق على وجه الصدق، فهو لا يسلب احداً حقه، ولا يعطيه حق غيره.

موسى: نبي الله ورسوله الى بني اسرائيل. فرعون: لقب للملك مصر القدماء، والفرعون الذي تربى موسى في قصره هو رعمسيس الثاني، اما الذي حصل في زمنه الخروج فهو منفتاح بن رعمسيس، وجثته موجودة بالمتحف المصري، وقد كتب بجانب هيكله هذه الآية الكريمة {فَالْيَوْمَ نُجَيِّدُكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً} .

الملا: اشراف القوم ظلوا بها: جحدوا وكفروا حقيق: جدير وخليق به. نزع يده: اخراجها لهم. فماذا تأمرون: فماذا تشيرون في امره أرجه: أرجئه أي أخره في المدائن: في مدائنك وبلادك. حاشرين: جامعين للحسرة. ساحر عليم: علام بفنون السحر ماهر فيها. هذه قصة سيدنا موسى، وقد ذكرت بتطويل وتفصيل في اثنتين وخمسين آية. وقد جاء ذكر موسى في نحو اثنتين وعشرين سورة بين مختصر ومطولة، وذكر اسمه اكثر من مائة وثلاثين مرة. وسر هذا التكرار ان قصص موسى شبيهه بقصص النبي ﷺ، فقد كانت شريعته دينية ودينية، ولقيب من أمته عنتاً كبيراً.

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى} .

ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى بالمعجزات التي تدل على صدقه فيما كلفناه تبليغه الى فرعون وقومه فبلغهم موسى الدعوة، وأراهم آية الله لكنهم ظلوا انفسهم وقومهم بالكفر، فاستحقوا من الله عقوبة صارمة كانت فيها نهاية امرهم.

قراءات:

قرأ أبو بكر وأبو عمرو ويعقوب: «أرجئه» وقرأ حمزة والكسائي: «بكل سخار» .

وقال موسى: يا فرعون، إن مرسل من الله رب العالمين، لأبلغكم دعوته، وأدعوكم الى شريعته وأنا حريص على قول الصدق، فاستمعوا لي.

ثم بين ان الله آيده بآيات تدل على صدقه في دعواه فقال:

{قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} .

ها أنا قد جئتكم بآية عظيمة الشأن، ظاهرة الحجّة، في بيان الحق الذي جئت به، فاترك بني إسرائيل لأخرجهم من العبودية في ديارك الى دار غيرها يعبدون فيها ربهم بحرية.

قال فرعون لموسى: ان كنت جئت مؤيداً بآية من عند من أرسلك فأظهرها لديّ إن كنت صادقاً. فوقف موسى وألقى عصاه التي كانت بيده اليمنى أمام فرعون وقومه، فإذا العصا حيّة تسعى من مكانٍ الى مكان، لم تحف على أحد. واخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ للناظرين مع ان موسى أسمر البشرة.

فلما أظهر موسى آية الله تعالى، ثارت نفوس بطانة فرعون وعظماء قومه وقالوا: «إن هذا لَساحرٌ عليمٌ» ماهرٌ في فنون السحر، وليس ذلك بآية من الله. انظروا، لقد وجه إرادته لسلب ملككم، وإخراجكم من أرضكم بسحره. فكروا يا قوم فيما يكون سبيلاً للتخلص منه. وحين استشارهم فرعون بقوله: فماذا تأمرون؟ أجابوه: أخر الفصل في موسى وأخيه هارون الذين يعاونه في دعوته، وأرسل في مدائن ملكك رجالاً من جندك يجمعون لك عظماء السحرة من كل البلاد.

والسحر أعمالٌ غريبةٌ وحيلٌ تخفى حقيقتها على جماهير الناس، لخفاء أسبابها ومهارة من يزاولها من السحرة. وقد كان السحر فناً منا لفنون العالية التي يتعلمها قدماء المصريين في معاهد خاصة لهم. وكان شائعاً في لك العصر ولا يزال السحر، او خفة الحركة موجوداً الى الآن، وفي امريكا وأوروبا عدد كبير من السحرة والمشعوذين. اما في البلاد الجاهلة المتأخرة، وبين القبائل الهمجية فله شأن عظيم.

٧٠٣٥ 113

لقف الشيء: تناوله بحذق وسرعة. يافكون: يصرفون الناس عن الحق وألقي السحرة ساجدين: خروا ساجدين. ولما جاء السحرة من جميع المدائن، واجتمع الناس ليروا ذلك المشهد الكبير، قال السحرة لفرعون: إننا نريد مكافأةً عيظمة اذا غلبنا موسى وأخاه، فقال فرعون مجيباً لهم: نعم، ان لكن أجراً عظيماً على ما تقومون به، وأنتم أولاً وأخيراً من أهل الخطوة لدى العرش. ثم توجه السحرة الى موسى، بعد ان وعدهم فرعون ومنأهم، وظهروا الثقة بأنفسهم واعتدادهم بسحرهم، فقالوا: يا موسى: اما ان تلقي ما عند اولاً، وإما أن نبدأ نحن.

فاجابهم موسى اجابة الواثق بالغبلة والنصر، «ألقوا» فلما ألقى كل واحد من السحرة ما كان معه من حبال وعصي، سحروا بها أعين الناس المشاهدين وموهوا عليهم ان مافعلوه هو حقيقة.

{واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيمٍ} .

فهاَل الأمر الحاضرين وأوقع في قلوبهم الرهبة والرعب. وبخاصة حين جعلت حبالهم وعصيم التي ألقوها تسير وتتحرك كأنها حقيقة. عند ذلك أصدر الله امره الى موسى بقوله: {أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} فالحقاها موسى، فاذا تلك العصا تبتلع ما لققه السحرة من التموه.

وهكذا، فان الباطل يكبر ويتزايد، ويسترهب القلوب ويخيل الى الكثيرين أنه غالب، وما إن يواجه الحق حتى يبطل وينكشف زيفه. {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَوَعْدُ اللَّهِ ثَبَتَ الْحَقُّ وَذَهَبَ مَا عَدَاهُ، {وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ومن ثم ذلَّ السحرة وصغروا بعد الزهو الذي استشعروه قبل قليل. كما هزم فرعون وملؤه في ذلك المجمع العظيم.

{وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} .

أما السحرة فقد بهرهم الحق لما عاينوا قدرة الله نفخروا ساجدين لربهم مدعين للحق. وقالوا: آمنا برب العالمين، ورب موسى وهارون، فانه الإله المعبود لا اله الا هو. لقد صدقنا بما جاءنا به موسى، وزالت من نفوسهم عظمة فرعون.

المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة. التقطيع من خلاف: ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس بالعكس. الصلب: وضع الانسان على خشبة وتعليقه مدة من الزمن نقتل الشيء: انكرته أفرغ علينا صبرا: أفض علينا صبرا يغمرنا، كأن الصبر في دلو من الماء يفرغ عليهم، وهو مجاز.

قراءات:

قرأ حفص آمنتم على الإخبار، وقرأ حمزة والكسائي وابو بكر: أأمتم. . . بهمزين، على الاستفهام، وقرأ الباقون آمنتم بتحقيق الهمزة الأولى وتلين الثانية.

هال ذلك الامرُ فرعون، وأثار حميته فقال للسحرة: هل آمنتم وصدقم برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم؟ ان ما فعلتموه انتم وموسى وهارون، ليس الا مكرًا دبرتموه في المدينة (مصر) كي تخرجوا منها أهلها بخدعكم وحيلكم لسوف ترون ما يحلّ بكم من العذاب، جزاء ذلك إني أقسم لأنك لن بكم أشد التنكيل: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، اليد من جانب والرجل من الآخر، ثم لأصلبن كل واحد منكم وهو على هذه الحالة المشوهة. . لتكونوا عبرة لمن تحدّثه نفسه بالكيد لفرعون والخروج عن أمره.

سمع السحرة هذا التهديد والوعيد من ذلك الجبار المتكبر، فرجعوا الى ربهم، وأبجأوا فرعون قائلين: «إنا إله ربنا منقلبون»، أي أنهم لم يأبهوا لتهديداته. ثم أضافوا: هل تعاقبنا يا فرعون لأننا صدقنا موسى، وأذعنا آيات ربنا! انها واضحة دالة على الحق، وقد جاءتنا، فهل تريدنا أن لا نعتبر بها؟!

ثم توجهوا الى الله ضارعين: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} يا ربنا هب لنا صبراً واسعاً نقوى معه على احتمال الشدائد، وتوفنا على الإسلام غير مفتونين بتهديد فرعون، ولا مطيعين له في قوله ولا فعله.

أذّر موسى: اتركه نستحي: نستبقى نساءهم أحياء.

بعد ان شاهد فرعون وقومه ما شاهدوا، من ظهور موسى وغلبته وإيمان السحرة به، قال الاشراف الكبراء من القوم، يا فرعون الجبار، هل تترك موسى وقومه احراراً آمنين؟ إن عاقبتهم إن ظلوا في هذه الديار ان يفسدوا عليك قومك بادخالهم في دينهم، وعندئذ يظهر لأهل مصر عجزك وعجز آلهتك.

قال فرعون مجيباً للملأ: سنقتل أبناء قوم موسى كلّما تناسلوا، ونستبقى نساءهم أحياء، فهن يخدمنا. بذلك لا يكون لهم قوة، {وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} نقرهم بالغلبة والسلطان. سنظل معهم كما كنا من قبل، فلا يقدرّون على أذانا، ولا الافساد في أرضنا.

ولما رأى موسى أثر الخوف والجزع في نفوس قومه، شدّ من عزمهم وطمانهم، فقال لهم: أطلبوا معونة الله وتأيدوه، واصبروا ولا تجزعوا. إن الأرض في قبضة الله، يجعلها ميراثاً لمن يشاء من عباده، لا لفرعون. والعاقبة الحسنة للذين يقون الله، بالاعتصام به، والاستمسك بأحكامه.

لكن هذه الوصية وتلك النصائح لم تؤثر لم تؤثر في قلوبهم، ففزعوا من فرعون وقومه، {قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} لقد نالنا الأذى يا موسى، قبل مجيئك وبعده.

وكانوا قبل مجيء موسى مستضعفين في يد فرعون، يرهقهم بالضرائب، ويخدمهم في القيام بالاعمال الشاقة، ويقتل أبناءهم ويتسحي نساءهم ثم جاء موسى، لكنه لم يستطع انقاذهم لذلك قالوا: {أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} .

عندئذ فتح لهم موسى باب الأمل وقال لهم:

{قَالَ عسى ربكم أن يهلك عدوكم} .

إن رجائي من فضل الله أن يهلك عدوكم الذي ظلمكم وآذاكم، ويجعلكم خلفاء في الأرض التي وعدكم إياها، {فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} . فيعلم سبحانه ما أنتم عاملون بعد هذا التمكين: أنشكرون النعمة أم تكفرون؟ وتصلحون في الأرض أم تفسدون؟ .

٧٠٣٨ 130

أخذنا آل فرعون: عاقبناهم وجازيناهم. آل فرعون: قومه وخاصته واعوانه. بالسنين: بالجذب والقحط. بالحسنة، المراد هنا: الخصب والرخاء، وبالسئية: ما يسوؤهم من جذب أو مصيبة يطيروا: يتشاءموا، لأن العرب كانت تتوقع الخير والشر من حركة الطير، فإذا طار من جهة اليمين تيمنت به ورجت الخير والبركة، وإذا طار من الشمال تشاءمت وتوقعت الشر، وسموا الشؤم طيرا وطائرا والتشاؤم تطيرا. الطوفان: كثرة المياه وطغيانها وتخريبها الأرض والزرع. القمل (بضم القاف وفتح الميم المشددة): حشرة صغيرة تلتصق بالحيوانات وتؤذيها. وتطلب إيا على حشرة تقع في الزرع فتأكل السنبله وهي غضة. والجراد معروف، وكذلك الضفادع الدم: الرعاف يصيب الناس.

ولقد عاقبنا فرعون وقومه بالجذب والقحط وضيق الميعشة، بنقص ثمرات الزروع والأشجار. . . رجاء ان ينتهوا الى ضعفهم وعجز ملكهم الجبار أمام قوة الله، فيتعظوا ويرجعوا عن ظلمهم، ويستجيبوا لدعوة موسى عليه السلام.

ولكن فرعون واعوانه أخذهم الاغترار بقوتهم وجبروتهم. كانوا اذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا: نحن المستحقون له لما لنا من الامتياز على الناس. ان اصيبهم ما يسوؤهم، كجذب أو مصيبة في الابدان والرزاق، قالوا: انما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه. لقد غفلوا عن ظلمهم لقوم موسى كما غفلوا عن فجورهم فيما بينهم. ألا فلعلوا ان ما نزل بهم كان من عند الله، وبسبب أعمالهم القبيحة، لا نحسأ رافقهم لسوء طالع موسى ومن معه. ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمة الله في تصرفه مع خلقه.

ثم اخبر الله تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوهم، وإصرارهم على الجحود فقال:

{وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا. . .} .

قالوا ذلك لموسى: مهما جئتنا أيها الرجل بانواع الآيات التي تستدل بها على حقيقة دعوتك، كيما تصرفنا عما نحن عليه من ديننا، ومن استعباد قومك- فلن نصدقك او نتبع رسالتك التي تدعيها.

فأنزل الله عليهم مزيذا من المصائب والنكبات، بالطوفان الذي يغشى اماكنهم وبالجراد الذي يأكل زروعهم، وبالقمل الذي يهلك حيواناتهم وسنابل غلاتهم، وبالضفادع التي تنشر فتنة على حياتهم، وبالدم الذي ينزف منهم ولا يتوقف نزيفه- أصابهم الله بهذه المصائب، فلم يتأثروا بها. لقد قست قلوبهم، وفسد ضميرهم، فعتوا عن الإيمان والرجوع الى الحق، وأصرروا على الذنوب «وكانوا قوماً مجرمين» موغلين في الإجماع كما هو شأنهم.

٧٠٣٩ 134

الرجز: العذاب الذي يطرب هل الناس في شئونهم. العهد: النبوة والرسالة. النكث: نقض العهود والمواثيق. اليم: البحر. بعد أن ذكر سبحانه الآيات الخمسة التي أرسلها على قوم فرعون، بين هنا ما كان من أثرها في نفوس المصريين جيمعا. لقد طلبوا من موسى ان يرفع الله عنهم العذاب، فاذا هو فعل آمنوا به. ثم تبين نقضهم للعهد، وخلفهم للوعد حتى حل بهم عذاب الاستئصال بالغرق.

{وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ. . .} .

ولما وقع ذلك العذاب بهم اضطربوا وفزعوا أشد الفزع وقالوا: يا موسى، سل ربك ان يكشف عنا هذا الرجز، ونحن نقسم أن نؤمن لك ونرسل معك بني اسرائيل كما أردت، إن كشفت عنا هذا العذاب.

فلما كشفنا عنهم العذاب، مرة بعد أخرى، اذا هم ينقضون عهدهم، ويخثون في قسمهم، ويعودون الى ما كانوا عليه، ولم تُجد فيهم هذه المحن الزاجرة. {فانتقمنا منهم} فانزلنا عليهم نعمتنا، بأن اغرقناهم في البحر جزاء استقرارهم التكذيب بآياتنا، وتماهم غفلتهم عما تقتضيه هذه الآيات من الايمان والأذعان. والخلاصة: لقد كانوا يُظهرون الايمان عند لكل آية من آيات العذاب ثم يكذبو، حتى اذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسب استقرارهم على الكذب. وكانوا غافلين عما يعقب ذلك من العذاب في الدنيا والآخرة.

٧٠٤٠ 137

مشارك الارض ومغاربها: جميع نواحيها، والمراد بالأرض بعض بلاد الشام تمت كلمة ربك: مضت، وهي وعده اياهم بالنصر. باركا فيها: بالخصب وسعة الرزق. دمرنا: خربنا وأهلكنا. ما كانوا يعرشون: ينصبون العرائش من الجنات، ويشيدون من الأبنية. هذا آخر ما قصّة الله علينا وأخبرنا به من نبأ فرعون وقومه، وتكذيبهم بآيات الله. ثم أتبعه بقصص بني إسرائيل، وما عينوه من الآيات العظام مثل: مجاوزتهم البحر، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من ظلم فرعون مثل: عبادتهم العجل، وطلبهم ان يروا الله جهرة، وغير ذلك من المعاصي، وذلك ليعلم حال الانسان وانه كما وصفه «ظلوم كفار» الا من عصمه الله، «وقيل من عبادي الشكور» وهذا كله ليسلي رسول الله ﷺ بما أظهر بنو اسرائيل من العناد. ومع كل ذلك فقد أعطيناهم الأرض التي حباها الله بالخصب والخير الكثير، في مشارقها ومغاربها. وقد نفذت كلمة الله الحسنى وتمت أما وعد الله بالنصر شاملا لبني اسرائيل، فكان جزاء صبرهم على الشدائد. وأما تدمير ما كان يصنع فرعون وقومه من الصروح والقصور المشيدة، وما يقيمون من عُروش للنبات والشجر المتسلق فهو جزاء ظلهمهم وكفرانهم بالله.

٧٠٤١ 138

جاوزنا: عدّيناهم. يعكفون: يلازمان الأصنام ويعبدها. الاصنام، واحداها صنم: ما يصنع من الحجارة والخشب والمعدن من التماثيل للعبادة من دون الله. وبعض العرب كان يصنع من التمر، فاذا جاع أكل الرب الذي صنع متبر ما هوهم فيه: مدمر، والتبوير التدمير والهلاك باطل: زائل وهالك اغير الله ابغيكم ربا: اطلب لكم ربا غيره. وجاز بنو اسرائيل البحر، بعنايتنا وتأييدنا، فلما قطعوه مروا على قوم كانوا منكبين على عباده أصنام لهم، فلما شاهدوا ذلك غلب عليهم ما ألقوه قديماً من عبادة المصريين للأصنام، فطلبوا نم موسى ان يجعل لهم صنماً يعبدونه كما رأوا القوم يفعلون. عندئذ سارع موسى الى توبيخهم قائلاً لهم: حقاً أنكم قوم سفهاء لا عقول لكم، لا تعرفون العبادة الصحيحة، ولا من هو الإله الذي يستحق ان يُعبد. ان القوم الذين ترونهم عاكفين على عبادة الاصنام قوم هالكون، وما يفعلون باطل وزائل، فهو من باب عبادة غير الله. ويحكم يا بني اسرائيل! أأطلب لكم، معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السماوات والأرض! أما منحكم من فضله، لقد خصكم بنعم لم يعطها غيركم من أهل زمانكم؟ ولقد فضلكم على أهل عصركم هذا بأن هداكم الى وحدانيته! اذكروا إذ أنجاكم بعنايته من آل فرعون وظلمهم. وأنتم تعلمون انهم كانوا يذيقونكم، اشد العذاب، ويسخرونكم لخدمتهم، ولا يرون لكم حرمة الا كما للبهائم. كانوا يقتلون ما يولد لكم من الذكور، ويسبقون الاناث لتزدادوا ضعفاً بكثرتهم، وليجعلوهن خدماً لهم ويستمتعوا بهن. ان فيما نزل بكم من تعذيب فرعون وانجائكم منه اختبار عظيم من ربكم ليس وراءه بلاء واختبار.

الميقات: الوقت المحدد. اخلفني: كن خليفتي. تجلي: ظهر نوره وعم الجبل. جعله دكا: مفتتا منهارا. خر موسى: وقع صعقا: مغشيا عليه من هول ما رأى. اصطفتيك: اخترتك. نخذها بقوة: بجذ وحزم وعزيمة.

بعد أن بين الله تعالى ما أنعم به على بني اسرائيل من نجاة لهم من عدوهم وتحريرهم من العبودية- ذكر هنا بدء التشريع المنزل على موسى عليه السلام، وكيف انه واعد موسى ثم أنزل عليه التوراة.

لقد ضرب الله تعالى موعدا لموسى لمناجاته وإعطائه الألواح فيها أصول الشريعة في مدة ثلاثين ليلة، ثم اتم مدة الوعد بعشر ليال يستكمل فيها موسى عبادته، ويتلقى أوامر ربه فصارت المدة أربعين ليلة. وعندما توجه موسى للمهاجرة قال لأخيه هارون: كمن خليفتي في قومي، أصلح ما يحتاجون اليه من امروهم، وراقبهم فيما يأتون وفيما يذرون، واحذر ان تتبع سبيل المفسدين.

ولما جاء موسى في الموعد الذي وقته له ربه لمناجاته كلمة ربه، لكن موسى قال: رب أرني ذاتك لأتمتع بها وأحصل على فضيلتي الكلام والرؤية، وأزداد شرفا. فقال له ربه: لن تطيق رؤيتي يا موسى. ثم اراد الله سبحانه ان يقنع موسى بانه لا يطيق رؤية ما يطلب فقال: انظر الى الجبل الذي هو أقوى منك، فإن ثبت في مكانه عند التجلي فسوف تراني اذا تجليت لك. فلما تجلى الله للجبل انهد الجبل وبات أرضا مستوية. عند ذاك سقط تنزيهاً عظيماً عما لا ينبغي في شأنك مما سألت، إن ثبت إليك من الإقدام على السؤال بغير إذن، وأنا أول المؤمنين من قومي بجلالك وعظمتك.

ولما منع الله موسى من رؤيته عدد عليه نعمه ليتسلى بها فقال: يا موسى، لقد اخترتك مفضلاً إياك على اهل زمانك، بتبليغ التوراة، وبتكليمي إياك من غير واسطة، نخذ ما فضلتك به، واشكرني كما يجب.

وقد وردت أحاديث كثيرة فيها إمكان رؤية الله عن اكثر من عشرين صحابياً، لكنه ورد عن السيدة عائشة خلاف ذلك. فقد روي عن مسروق قال: قلت لعائشة، يا أمّاه، هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك ان محمداً رأى ربه فقد كذب، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ومن حدثك انه كتم شيئاً من الدين فقد كذب. قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست وقلت: الم يقل الله: «ولقد رآه نزلةً أخرى» فقالت: أنا أول من سأل رسول الله عن ذلك فقال «إنما هو جبريل».

وهذه الرؤية هي في الدنيا، أما الآخرة فانها تختلف عن هذه الدنيا، وكل ما في الحياة الآخرة يختلف اختلافاً كلياً عن حياتنا الدنيا. وترى جمهرة المسلمين ان رؤية العباد لربهم في الآخرة حق.

بعد ان اخبر سبحانه في الآيات السالفة انه منع موسى من رؤيته في الدنيا، اخبرنا هنا بما آتاه يؤمئذ فقال:

{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . . . الْآيَةِ} .

أي أعطيناه ألواحاً بيننا له فيها كل شيء من المواعظ والاحكام المفصلة التي يحتاج الناس اليها وقلنا له: خذ الألواح بجذ وحزم، وأمر قومك ان يأخذوا بأفضل ما فيها وأيسره وان لا يشددوا على انفسهم. وسأجعلهم يرون دار الخارجين على أوامر الله، وما صارت اليه من الخراب، كما سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي، فلا تخالفوا حتى لا يصيبكم ما أصابهم.

الرشد: الصلاح والاستقامة، وضده الغي والفساد كل آية: كل بينة كذبوا بآياتنا: الآيات المنزلة من عند الله حبطت اعمالهم: بطلت. بعد ان بين الله تعالى لما لحق فرعون وقومه بسبب من استكباره وظلمه وفساده في الأرض، بين هنا ضلال البشر وتكذيبهم للرسول، وذكر ان السبب في كل ذلك هو التكبر.

ومعنى الآية:

سأمنع أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب بغير الحق من التفكير في دلائل قدرتي إنهم يروا كل آية تدل على صدق رُسُلنا لا يصدقوا بها، أما حين يشاهدون طريق الضلال فسرعان ما يكونه راغبين، وذلك لأنهم كذبوا بآياتنا المنزل، وغفلوا عن الاهتداء بها.

وامثال هؤلاء كثيرون اليوم في بلادنا من المسلمين، لقد درسوا في الغرب ورأوا رخرف المدنية الأوروبية، وغرَّهم بهرجها، وأخذوا منها ما يوفر لهم اللذات والمتع ولم يأخذوا العلم النافع ولا الصناعة المفيدة، والأنظمة النافعة. ان هذه تكلمهم جهاً كبيراً فيما هم لا يريدون غير المتع والمذات.

والذين كذبوا بآياتنا المنزل على رسلنا للهداية، كما كذبوا بلقاءنا يوم القيامة، ومن ثم أنكروا البعث والجزاء- بطلت أعمالهم التي كانا يرجون نفعها. لذا فإنهم لن يلاقوا إلا جزاء ما استمروا عليه من العصيان، وانكار دعوة الرسل.

٧٠٤٤ 148

الحلي: بضم الحاء وقرئ بكسرهما، مفردا حلي وهو كل ما يتزين به من المصوغات المعدنية والحجارة الكريمة. العجل: ولد البقرة. له خوار: له صوت البقر سُقط في أيديهم: ندموا، وهذا من تعابير القرآن الكريم البليغة.

بعد ان ذكر الله خبر مناجاة موسى واصطفاه له بالرسالة، وأمره إياه ان يأخذ الاواح بقوة- بين هنا ما حدث اثناء غياب موسى عن قومه، حيث بدّلوا الوثنية بديانتهم.

لقد ذهب موسى الى الجبل لمناجاة ربه، فما أسرع ما اتخذ قومه من مصوغاتهم وزينتهم جسماً على صورة عجلٍ من الحيوان، لا يعقل، له صوت كصوت البقر، كان قد صنعه لهم السامري وأمرهم بعبادته. لقد عمّوا، فلم يروا حين عبدوه انه لا يكلمهم ولا يقدر على هاديتهم الى طريق الصواب! ومع هذا فقد اتخذوه إلهاً لهم، وبذلك ظلّوا أنفسهم باقترافهم مثل هذا العمل الشنيع.

ولما شعروا بزلتهم وخطيئتهم، تحيَّروا فيما يفعلون، وندموا اشد الندم وتبينوا ضلالهم، وقالوا: والله لئن لم يتب علينا ربنا، لنكونن من الذين خسروا سعادة الدنيا والآخرة.

٧٠٤٥ 150

الاسف: الحزن أعجلتم امر ربكم: اسبقتم. القى: طرح، شمت بعدوه: فرح بمكروه اصابه. قراءات:

قرأ حفص يا ابن ام بفتح الميم، وقرأ الكسائي وحمة وابن عارم: يا ابن أم بكسر الميم.

بعدما ذكرت الآيات ما احديه السامري من صناعته العجل لبني اسرائيل وعبادتهم له، ثم ندمهم على ذلك وطلبهم الرحمة من ربهم- تورّد هذه الآيات ما حدث من غضب موسى وحزنه حين رأى قومه على تلك الحال من الضلال والغّي، وتصف ما وجهه موسى من التعنيف واللوم لأخيه هارون، الذي سكت عن قومه حين رأهم في ضلالهم يعمهون.

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا . . .}

ولما رجع موسى من مناجاة ربه ووجد قومه على تلك الحال غضب عليهم، وحزن لأنهم وقعوا في تلك الفتنة، وقال: ما أقبح ما فعلتم بعد غيبي عنكم! اسبقتم بعبادتكم العجل ما أمركم به ربكم من انتظاري حتى أتيتكم بالتوراة؟! آنذ وضع الألواح، واتجه الى اخيه هارون، واخذ يشده من رأسه، ويجره نحوه من شدة الغضب، ظناً منه انه قصر في ردعهم. فقال هارون: لا تعجل بلومي وتعنيفي يا أخي، ولا تظن اني قصرت في ردع القوم. لكنهم استضعفوني وكادوا يقتلونني حين نهيتهم عن عبادة العجل. لا تدع الأعداء يفرحون لتخاضعنا ويشتمون بي، ولا تجعلني في زمرة هؤلاء الظالمين فأنا بريء منهم ومن ظلمهم.

قال موسى: ربّ اغفر لي ما صنعتُ بأخي، واغفر لأخي إن كان قصّر، وأدخلنا جميعاً في رحمتك التي وسعت كل شيء فأنت أرحم الراحمين، بل وأرحم بنا منا على انفسنا.
والآية صريحة في براءة هارون من جريمة اتخاذ العجل، في القرآن الكريم. أما التوراة ففيها ان هارون هو الذي صنعه. وهذا احد مواضع التحريف الذي جرى فيها، كما نص عليه القرآن الكريم.

٧٠٤٦ 152

الغضب: هنا، هو ما امروا به من قتل انفسهم.
بعد ان ذكرت الآيات عتاب موسى لأخيه هارون، ثم استغفاره لنفسه ولأخيه، استطردت تذكر ما استحقه بنو اسرائيل من الجزاء على اتخاذ العجل.
ان الذين اتخذوا العجل إلهاً واستمروا على ذلك، كالسامريّ وأتباعه، سيواجهون مذلةً ومهانة شديدة.
{وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} .
بمثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي كل من اختلق الكذب على الله وعبدَ غيره.
هذا بخلاف الذين اقترفوا السيئات من الكفر والمعاصي ثم تابوا ورجعوا الى الله وصدقوا به، فإن الله سيغفر لهم ويعفو عنهم، فعفو الله أكبر وأجلّ، وكرمه أعظم، بشرط التوبة والندم والاستغفار.

٧٠٤٧ 154

السكوت: ترك الكلام، وهنا معناه: لما ذهب الغضب عن موسى. وفي نسختها: ما كتب منها هدى: بيان للحق الرهبة: اشد الخوف.
بعد ان ذكر الله حال القوم وبين انهم قسمان: قسم مصرّ على الذنب وعبادة العجل، وقسم تائب منيب الى ربه- هنا بيان حال موسى بعد ان سكنت سورة غضبه.
ولما ذهب عن موسى الغضب باعتذار أخيه، عاد الى الالواح التي ألقاها، فأخذها، وكان فيها الهدى والرشاد، واسباب الرحمة للذين يخافون الله ويرجون ثوابه.

٧٠٤٨ 155

اختار موسى قومه: اختار موسى من قومه. اختار: انتقى واصطفى. الرجفة: الصاعقة. السفهاء: الجهلاء. الفتنة: الاختبار والامتحان والابتلاء انت ولينا: المتولي امورنا الحسنة: في الدنيا: حسن المعيشة، والعافية. . . وفي الآخرة: دخول الجنة. هُنا اليك: تبنا ورجعنا اليك. النبي: هو من اوحى اليه الله وانباه بما لم يكن يعلم. والرسول: نبي امره الله بتبليغ شرع ودعوة دين. الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب. واهل الكتاب يلقبون العرب بالاميين كما قال تعالى: {٨:لِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران: ٧٥] المعروف: ما تعرف العقول السليمة حسنة. والمنكر ما تنكره القلوب وتأباه الطيبات: كل ما تستطيه الاذواق من الاطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة. الخبائث: كل ما حرم اكله وذبحه، والخبيث من الأموال: ما أخذ بغير حق. الإصر: الثقل الذي يتعب صاحبه الأغلال: واحداها غُلّ بضم الغين، هو القيد الذي يقيّد به الأسير والجاني. وهنا معناه الشدائد والحن. عظّروه: نصرّوه وهي من الكلمات التي لها معنيان مختلفان.

ثم أمر الله موسى أن يأتيه في جماعة من قومه يعتذرون عن عبدوا العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لم يشاركوا في عبادة العجل، وذهب بهم الى الطور. وهناك سألوا الله أن يكشف عنهم البلاء، ويتوب على من عبد العجل من قومه. فأخذتهم في ذلك المكان رجفة شديدة غشي عليهم بسببها، وكان هذا جزاء لهم لأنهم لم يفارقوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم ينههم عن المنكر فلما رأى موسى ذلك قال: يا ربّ، لو شئت إهلاكهم أهلكتهم من قبل خروجهم الى الميقات، وأهلكني معهم، ليرى ذلك بنو إسرائيل

فلا يهتموني، فلا تهلكا يا رب بما فعل الجهال منا، فما محنة عبدة العجل الافتنة منك، أضللت بها من شئت إضلالة ممن سلكوا سبيل الشر، وهديت بها من شئت هدايته. . إنك أنت المتوليّ امرونا والقائم علينا، فتجاوز عن سيئاتنا، وتفضل علينا باحسانك، وانت أكرم من يفعل ذلك.

كذلك قدّر لنا في هذه الدنيا حياة طيبة، وهبنا من لدنك عافية وتوفيا لطاعتك، وامنحنا من فضلك في الآخرة مثوبة حسنة ومغفرة ورحمة ندخل بها جنتك وننال رضوانك، فقد تبنا ورجعنا إليك.

فقال له ربه: إن عذابي أصيبُ به من أشياء ممن لم يتب، ورحمتي وسعت كل شيء. ثم بين من ستكتب له الرحمة فقال:

{فَسَأْكَتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} .

سأكتبها للذين يتقون شر المعاصي من قومك، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم، ويصدقون بجميع الكتب المنزلة وسوف أخص بها أولئك الذين يتبعون الرسول محمداً، الأُمِّيَّ الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو الذي يجدون وصفه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بكل خير وينهاهم عن كل شر، ويحل لهم ما يستطيعه الطبع من الأشياء، ويحرم عليهم ما يستخبئه منها، ويزيل عنهم الاثال والشدائد التي كانت عليهم:

فالذين صدّقوا برسالته وآزره وأيدوه ونصروه على أعدائه، واتبعوا القرآن الذي أنزل معه - هؤلاء هم الفائزون بالرحمة والرضوان دون سواهم.

لقد ظهر في هذه الايام كتاب جديد بعنوان «محمد في الكتاب المقدس» تأليف خوري طائفة الكلدانيين، واستاذ اللاهوت؛ البروفسور «عبد الحق داود» فقد اعتنق الاسلام والى هذا الكتاب وبين فيه المواضع التي ذكر فيها سام سيدنا محمد أو الاشارة اليه في التوراة والانجيل وكيف حرفت تلك الأصول. وقد ترجم الكتاب الى اللغة العربية صديقنا السيد فهمي شما.

٧٠٤٩ 158

كلماته: كل ما أنزل من تشريع على السنة رسله الكرام. بعد ان ذكر تعالى ما في التوراة والانجيل من صفات النبي ﷺ، وشرف من يتبعه من اهل الكتاب، ونيّهم السعادة في الدنيا والآخرة- بين هنا عموم رسالته، ودعوة الناس كافة الى الايمان به. قل يا أيها النبيّ لجميع بين البشر: إني رسول اليكم جميعاً، أرسلني الله، الذي له وحده ملك السماوات والارض، فهو يدبر أمرهما بحكمته، ويتصرف فيها كيف يشاء. انه لا معبود بحق إلا هو، وهو وحده الذي يُحيي ويميت. . . آمنوا به وحده، وصدقوا رسوله، فهو النبيّ الأُمِّيُّ الذي لا يقرأ ولا يكتب. واتبعوه في كل ما ينقل منا لدن ربّه، واسلكوا طريقه واقتفوا أثره. بذلك تهتدون وترشدون.

٧٠٥٠ 159

قطعناهم: صيرناهم فرقا كل فرقة سبط، والسبط ولد الولد، واسباط بني اسرائيل: سلال اولاده. الامة: الجماعة التي تؤلف بين افرادها رابطة او نظام او مصلحة. الاستسقاء: طلب الماء للشرب. انجيس: انفجر. الغمام: السحاب. المن: مادة بيضاء تنزل من السماء مثل الندى حلوة الطعم. السوى: طائر قدّر الحمام طويل الساقين والعنق سريع الحركة.

بد ان بين تعالى ان من يتبع النبيّ الكريم من قوم موسى مفلحون مهتدون - ذكر هنا حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذي اتبعوه حق الاتباع، ثم ذكر حالين من أحوال بني اسرائيل: أولاهما: انه قسمهم اثنتي عشرة فرقة بعدد أسباطهم الاثني عشر.

ثانيتها: أنهم لما استسقوا موسى ضرب موسى الحجر (إشارة إلى امكانية الحفر) ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا، بقدر عدد الأسباط وقد تقدم ذكر هاتين الواقعتين في سورة البقرة.

ومن قوم موسى جماعة تمسكوا بما جاء به موسى من الدين الصحيح، فظلموا يهودون الناس إلى الحق الذي جاء به نبيهم، فلا يتبعون هوى، ولا يأكلون سُخْتاً ولا رشوة.

ثم عدّ الله نعمة على قوم موسى، فذكر أنه صيّرهم اثنتي عشرة فرقة، وميّز كل جماعة بنظامها، منعاً للتحاسد والخلاف. وأنه أوحى إلى موسى حين طلب قومه الماء في التيه، أن يضرب الصخر في الأرض، ففعل موسى ذلك، فانفجرت عنه ذلك اثنتا عشرة عينا قد عرف كل سبط من القوم مورد شربهم الخاص بهم. هذا كما جعل لهم السحاب يلقي عليهم ظلة في اليتة ليقيم حر الشمس، وانزل عليهم المن وهو طعام حلوشهبي والسلوى وهو طائر يشبه السُماني. وقال لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم. لكنهم ظلموا انفسهم وكفروا بتلك النعم، وتمسكوا بالجحود والانكار. وهذا دأبهم وتلك اخلافهم لم تتغير ولم تبدل.

٧٠٥١ 161

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة الآية رقم (٥٩) والآية رقم (٦٠) وهناك بعض الفروق: (١) قال هنا: «اسكنوا القرية» وفي سورة البقرة قال «ادخلوا» (٢) وقال هنا: «وكلوا منها حيث شئتم» وفي سورة البقرة قال: «فكلوا من حيث شئتم رغدا» (٣) وقال هنا: «وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا» وقال في سورة البقرة «وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة» (٤) وقال هنا: «سنزيد المحسنين» وقال في سورة البقرة: «وسنزيد المحسنين» بالعطف والمعنى واحد (٥) وقال هنا: «فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم» فزاد هنا لفظة منهم، وقال في سورة البقرة: «فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم» (٦) وقال هنا: «فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون» ، وقال في سورة البقرة «وأنزّلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون» . والفرق بين الإرسال والانزال فرق لفظي. وكذلك بين (عليهم) و (على الذين ظلموا) ، ومثله (يظلمون) و «يفسقون» .

٧٠٥٢ 163

القرية: أيلة. حاضرة البحر: على شاطئه، قرية منه يعدون في السبت: يخالفون أمر الله بالصيد المحرم عليهم يوم السبت. يوم سبتهم: يوم عطلتهم وراحتهم شرعا: ظاهرة على وجه الماء نبوهم: نختبرهم. أمة منهم: جماعة منهم معذرة إلى ربكم: اتعذروا إلى ربكم نسوا ما ذكروا به: تركوه بئس: شديد. عتوا: تكبروا وعصوا. خاسئين: اذلاء صاغرين. هذه الآية إلى قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُنَّا الْجِبَلِ فَوْقَهُمْ . . . لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} مدنية نزلت في المدينة، وقد ضمت إلى هذه السورة المكية في هذا الموضع، تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بين إسرائيل.

وهنا عدل في أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل، إلى أسلوب المواجهة لذاريرهم التي كانت تواجه رسول الله ﷺ في المدينة وتحاروه وتجادلوه.

يأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يسأل يهود المدينة المنورة في زمانه عن هذه الواقعة المعلومه لهم من تاريخ أسلافهم، وهو يواجههم بهذا التاريخ باعتبارهم أمة متصلة الأجيال، ويذكرهم بعصيانهم القديم، فيقول:

اسأل أيها النبي اليهود المجاورين لك في المدينة عن فعل أهل القرية التي كانت على شاطئ البحر، كيف كان يفعل أسلافهم فيها فيخالفون أوامر الله بصدد صيد السمك يوم السبت. كانت تأيتهم الحيتان ظاهرة على وجه الماء يوم السبت، مع أنهم مأمورون بالتفرغ فيه للعبادة، وأما في غير السبت فلم تكن تأيتهم، كل ذلك ابتلاء واختبار من الله ليظهر المحسن من المسيء منهم.

وقد انقسم سكان القرية الى ثلاث فرق: فرقة كانت تحتال على صيد السمك يوم السبت الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه، وفرقة كانت تحذر هؤلاء العصاة مغبة عملهم واحتياهم وتنكر عليهم ذلك، وفرقة اخرى تقول لهؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ما فائدة تحذيركم لهؤلاء العصاة- وهم لا يرجعون عن غيِّهم وعصيانهم؟ لقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب! وذلك قوله تعالى:

{وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا. . .}

وإذ قالت جماعة من صلحاء أسلافهم لمن يعظون أولئك الأشرار، لأي سبب تنصحون قوماً سيهلكهم الله بسبب ما يرتكبون من مخالفات، أو يعذبهم في الآخرة عذاباً شديداً؟ لم تعد هناك جدوى لنصحهم وتحذيرهم.

قالوا: لقد وعظناكم اعتذاراً الى الله، وأدينا واجبنا نحوه، لئلا ننسب الى التقصير، ولعلّ النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيستثير فيها وجدان التقوى.

فلما تركوا ما ذكَّروهم به الصالحون وأعرضوا عنه، أنجينا الذين ينهون عن المنكر من العذاب، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب شديد بسبب تماديهم في الفسق، والخروج عن طاعة الله.

{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ. . .}

فلما تملأوا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه، ولم يردعهم العذاب الشديد جعلناهم كالقردة في مسخ قلوبهم، وعدم توفيقهم لفهم الحق، فكانوا قردة مهينين، وانتكسوا الى عالم الحيوان حين تخلَّوا من خصائص الانسان.

٧٠٥٣ 167

تأذن: أعلم. لبيعث: ليسلطن عليهم يسومهم: يذيقهم.

ثم كانت اللعنة الأبدية على جميع اليهود إلا الذين يؤمنون بالنبى الأُمِّيّ ويتبعونه. وقد بعث الله على اليهود في فترات من الزمن من يسومهم سوء العذاب، وسيظل هذا الأمر نافذاً في عمومهم الى الأبد، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وطغوا في الأرض، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية.

وقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت، وان اليهود عرَّوا واستطالوا كما هو ظاهر للعيان في فلسطين الآن، لكن ذلك ما هو إلى فترة عارضة من فترات التاريخ، وقد تم ذلك لتناوب الحكام العرب وفرقهم فيما بينهم، تفضيلاً للمصلحة الفردية على المصلحة العامة، حتى على حساب الجميع، وبسبب ما تمدهم به امريكا المتصهينة. وذلك لا يدوم أبداً، ولا يدري الا الله من ذا الذي سيسلَّط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها الى يوم القيامة، ونحن بانتظار مواكب المجاهدين الفاتحين، وكلاَّت قريب مهما طال الزمن.

{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} والله تعالى يعقِّب دائماً بعد ذكره العذاب بالرحمة والمغفرة للمحسنين.

٧٠٥٤ 168

قطعناهم: فرقناهم. امما: جماعات. دون ذلك: منحطون عنهم. بلوناهم: امتحناهم. خلف بسكون اللام: نسل شرير. الكتاب: التوراة العرض بفتح الراء: متاع الدنيا وحطامها. الادنى: الدنيا. تتقنا الجبل: رفعناه وبرزناه فوقهم الظلَّة: كل ما يظلل الناس.

تأتي بقية الآيات المدنية الواردة هنا تكملة لقصة بين اسرائيل بعد موسى، إذ تفرَّق اليهود في الأرض جماعات مختلفة المذاهب، مختلفة المشارب والمسالك، فكان منخم الصالحون وكان منهم دون ذلك، وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات تارة، وبالنعماء أخرى، علَّهم يرجعون لاي ربهم ويستقيمون.

وقد فصل سبحانه عقابهم فذكر بدء إذلالهم بإزالة وحدتهم وتمزيق جمعهم فقالك

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا. . .} .

وقد فرقناهم في الأرض جماعات وجعلنا كل فرقة منهم في قطر، منهم الصالحون وهم الذين آمنوا واستقاموا، ومنهم اناس منحطون عن الانصاف بالصلاح. لقد اختبرناهم جميعا بالنعم والنقم ليتوبوا عما نهوا عنه.

لجاء من بعد الذين ذكرناهم خَلْفُ سوءٍ ورثوا التوراة من أسلافهم، لكنهم لم يعملوا بها، ولم تتأثر قلوبهم ولا سلوكهم، وكلما رأوا عَرَضاً من أعراض الدنيا تهافتوا عليه ثم تأولوا وقالوا: «سَيُغْفَرُ لَنَا»، فهم مصرون على الذنب مع طلب المغفرة.

ثم وبَّجَّهم الله على طلبهم المغفرة مع إصرارهم على ما هو عليه فقال: إِنَّا انْفَذْنَا عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ فِي التَّوْرَةِ - وقد درسوا ما فيها- أن يقولوا الحق، فقالوا الباطل. . . لم يعقلوا بعد أن نعيم الدار الآخرة الدائم خير من مناع الدنيا الفاني، فقل لهم يا محمد: من العجب أن تستمروا على عصيانكم، افلا تعقلون أن ذلك النعيم خير لكم!

وفي هذه إيماء إلى أن الطمع في متاع الدنيا هو الذي افسد على بني إسرائيل امرهم.

وفيه عبرة للمسلمين الذي سرى إليهم كثير من الفساد، وغلب عليهم حب الدنيا وعرضها الزائل، والقرآن الكريم بين أيديهم لكنهم لا يعملون به بل هم عنه غافلون.

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَأَبِ. . .} .

والذين يتمسكون بالتوراة وأقاموا الصلاة المفروضة عليهم، ويعتصمون بحبله في جميع شؤونهم - لن يضيع اجرهم عند الله، لأنهم قد اصحوا اعمالهم.

ثم ختم الله هذه القصة مذكراً ببده حالهم في إنزال الكتاب عليهم عقب بيان مخالفتهم لأمر دينهم حتى بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق. وقد رد عليهم في قولهم: إن بين اسرائيل لم تصدر منهم مخالفة في الحق، فقال جل وعلا:

{وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ. . .} .

اذكر لهم أيها النبي حين رفعنا الجبل فوق رؤوسهم كأنه غمامة، يؤمئذ فزعوا مما رأوا، إذ ظنوا أن الجبل واقع عليهم، فقلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من هدى التوراة بجد وعزم على الطاعة، وتذكروا ما فيه لعكم تعتبرون وتهذب نفوسكم بالتقوى. لكن اليهود هم اليهود، فقد نقضوا العهد، ونسوا الله، ولجؤا في العصيان حتى استحقوا غضب الله ولعنته، وحق عليهم القول.

٧٠٥٥ 172

الظهور: جمع ظهر وهو معروف. الذرية: سلالة الانسان من ذكور واناث.

بين الله هنا هداية بين آدم بنصب الأدلة في الكائنات، بعد أن بينها عن طريق الرسل والكتب، فقال: واذكر أيها النبي للناس حين أخرج ربك من أصلاب بني آدم ما يتوالدون قرنا بعد قرن، ثم نصب لهم دلائل رويته في الموجودات، وركز فيهم عقولاً وبصائر يتمكنون بها من معرفتها، والاستدلال بها على التوحيد والربوبية، فقال لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فقالوا: بلى أنت ربنا شهدنا بذلك على أنفسنا. وإنما فعل الله هذا لئلا يقولوا يوم القيامة: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا التَّوْحِيدِ غَافِلِينَ.

وقد اكثروا المفسرون الكلام في تفسير هذه الآية وأوردوا عدداً من الاحاديث والأقوال، لكنه منا لصعب الوثوق بها، كما أنها غير صحيحة الإسناد.

وأحسن ما يقال: إن هذه الآية تعرض قضية الفطرة في صورة مشهد تمثيلي على طريقة القرآن الكريم. وإن مشهد الذرية المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود لمشهد فريد حتى في عالم الغيب. وهذه الذرية هي التي يسألها الخالق المربي: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، فتعترف له بالربوبية وتقر له بالعبودية.

أما كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم، وكيف خاطبهم - فكل هذه

الأمر من المغيبات التي تخالف حياتنا الدنيا.
وأقرب تفسير لأفهامنا ان هذا العهد الذي اخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة، فقد انشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه» اخرجه البخاري ومسلم.
وفي سورة [الروم الآية: ٣٠] {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} {أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا} .
او تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبلنا. ولقد خرجنا إلى هذا الوجود فوجدنا آبائنا على دين فاتبعهم، فهل تؤاخذنا يا رب بما فعل السابقون من آباءنا، فتجعل عذابنا كعذابهم فلا حجة لكم أبدا.
{وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} .
يرجعون الى فطرتهم وعهدها مع الله، فالله لا يقبل الاعتذار من أي إنسان بانه يقلد آباءه واجدادهم، وقد بين له الرسل الكرام الطريق الى الهدى.

٧٠٥٦ 175

التلاوة: القراءة. النبأ: الخبر. انسلخ منها: نبذها وكفر بها فاتبعه الشيطان: ادركه. من الغاوين: من الضالين. يلهث: يتنفس بشدة مع اخراج اللسان، والسبب في ان الكلب يلهث دائما، ان جلده أملس لا توجد فيه مسامات كافية.
بعد ان ذكر الله تعالى أخذ العهد والميثاق على بني آدم جميعا، وأشهدهم على أنفسهم أن الله ربهم . أي عذر سيكون لهم يوم القيامة في الإشراف بالله جهلاً او تلقيداً!
هنا نفى بضرب المثل للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله الكريم بعد ان أيدها بالأدلة العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها قادراً على بيانها، لكنه لا يعمل بها، بل يأتي عمله مخالفاً لعلمه. لذا سلبه الله ما آتاه، فكان ذلك الانسان كمثل الكلب يظل يلهث دون جدوى.
اقرأ آيتي النبي على قومك خبرها الإنسان الذي آتاه الله علماً بآياته المنزلة على رسله، فأهملها، بل انسلخ منها، كأنما الآيات جلد له متلبس بلحمه فهو ينسلخ منه بعد جهد ومشقة، ويخرف عن الهدى ليتبع الهوى، فلاحقه الشيطان، وتسلب عليه باغوائه، فصار في زمرة الضالين.
ولو شاء ربك رفعه الى منازل الأبرار لفعل، وذلك بتوفيقه للعمل بتلك الآيات، لكن الرجل اخذ الى الأرض، وهكذا هبط من الأفق المشرق فالتصق بالطين المعتم، ولم يرتفع الى سماء الهداية. لقد اتبع هواه، فبات في قلق دائم، وانشغل بالدنيا وأعراضهم، لذا فإن مثله مثل الكلب في اسوأ حواله. . . يظل يلهث على غير طائل، تماماً مثل طالب الدنيا الشره، يظل يلهث وراء متعه وشهواته، وهي لا تنقضي ولا هو يكتفي منها.
اما من هو الرجل الذي يشير إليه هذا المثل فقد وردت روايات عديدة تجعله بعضها «بلعام ابن باعوراء» من بني اسرائيل، والبعض الآخر «أمية بن أبي الصلت» الشاعر العربي المشهور، أو هو «ابو عامر الفاسق» وهناك روايات أخرى لا حاجة لنا بها اصلاً، فلنا مكلفين ان نعرف من هو.

٧٠٥٧ 178

ذرأنا: خلقنا. الجن: خلاف الانس الفقه: العلم بالشيء والفهم به. ويرد في القرآن الكريم المعنى دقة الفهم والتعمق في العلم.
بعد ان أمر الله تعالى نبيه الكريم ان يقص خبر ذلك ضل على علم منه، يقصه الى اولئك الضالين لعلمهم يهتدون ويتركون ما هم عليه من الاخلاص الى الضلالة، والكفر - بين هنا ان اسباب الهدى والضلال ينتهيان للمستعد لأحدهما الى احدي الغايتين بتقدير الله والسير

على سنته في استعمال مواهبه الفطرية، وإن الهدى هدى الله.
فمن يوفقه الله لسبيل الحق فهو المهتدي حقاً، الفائز بسعادة الدارين؛ ومن يُحرّم من هذا التوفيق بفعل سيطرة هواه فهو الضال
خسر سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.
ثم فصل سبحانه ما أجمله في الآية السالفة مع بيان سببه فقال:
{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ . . . } .

ولقد خلقنا كثيراً من الجن والانس مآلهم النار يوم القيامة. وتتساءل لماذا؟ فتأتي الإجابة: لأن لهم قلوباً لا ينفقون بها الى الحق،
وأعيناً لا ينظرون بها دلائل القدرة، وآذاناً لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، أفليس اصحاب هذه الصفات كالبهائم،
ما داموا لم ينتفعوا بما وهبهم الله من عقول للتدبر، بل الحقّ إنهم اضل منها، فالبهائم تسعى الى ما ينفعها، وتهرب مما يضرها، وهؤلاء
لا يدركون ذلك، فيظلون غافلين عما فيه صلاحهم في الدارين.

ثم بعد ذلك ذكرت الآيات الدواء لتلك الغفلة والوسائل التي تخرج الى ضدها وهي ذكر الله ودعاؤه في السرّ والعلن في جميع الاوقات.
ولله دون غيره الأسماء الدالة على أكمل الصفات فاذكروه بها، دعاءً ونداءً وتسمية، واركعوا جميع الذين يلحدون في اسمائه فيما لا يليق
بذاته العلية، لأنه سيلقون جزاء علمهم، وتحلّ بهم العقوبة.

وللذكر فوائد، منها: تغذية الإيمان، ومراقبة الله تعالى والخشوع له والرغبة فيما عنده، ونسيان آلام الدنيا. وقد وردت أحاديث كثيرة
في الحث على الدعاء والاتجاء الى الله، منها الحديث الصحيح: «من نزل به غم أو كرب، أو أمرٌ مهم فليقل: لا إله الا الله العظيم
الحليم، لا إله الا الله ربّ العرش العظيم، لا إله الا الله ربّ السماوات والأرض وربّ العرش الكريم» رواه البخاري ومسلم والترمذي
والنسائي.

وروى الحاكم في (المستدرک) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «ما يمنعك أن تسمعي ما
أوصيك به؟ ان تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيتك يا حيّ يا قيوم، برحمتك أسغيث، أصلح لي شأني، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» .
ثم بين وصف أمة الإجابة، وهي الامة الاسلامية، الذين أجابوا وأطاعوا وهدوا بالحق وبه يعدلون.

ومن خلقنا للجنة طائفة يدعون غيرهم للحق بسبب حبهم له، ويدلون الناس على الاستقامة، وبالحق يحكمون.
أخرج ابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ عن ابن جريج قال: ذكر لنا النبي ﷺ قال: «هذه أمتي، بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون
ويعطون» .

فهذه الأمة الثابتة على الحق، هي الحارسة لأمانة الله في الأرض، الشاهدة بعهده على الناس. وفي الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة
من أمتي ظاهرين على الحق» .

٧٠٥٨ 182

سنستدرجهم: سنأخذهم درجة بعد درجة، اي شيئاً فشيئاً الى العذاب. أملي لهم: امهلهم. الكيد، كالمكر: هو التدبير الخفي. الجنة:
ما يصيب الانسان من صرع وغيره من الجنون. الملكوت: الملك العظيم فبأي حديث بعده يؤمنون: الحديث هنا القرآن الكريم الطغيان:
تجاوز الحد في الباطل والشر. العمّة: التردد والحيرة بحيث لا يدري اين يتوجه.

والذين كذبوا بآيات الله سندعهم يسترسلوه في غيهم وضلالهم حتى يصلوا أقصى غاياتهم، وذلك بإدراار النعم عليهم، ومع انهما كم في
الغي، حتى يفاجئهم الهلاك وهم غافلون.

إنني أهل هؤلاء المكذّبين وسأمد لهم في الحياة بدون اهمال، لكن أخذي لهم سيكون شديداً، بقدر سيئاتهم التي كثرت بتماديهم فيها،

وفي الحديث الصحيح: «ان الله لميلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} .

كان زعماء قريش يقولون للناس: إن محمداً مجنون. . فردّ الله عليهم بقوله: او لم يتفكروا في حاله من بدء نشأته! إنهم يعرفونه حقاً. أما كان اسمه الامين! وهم يعرفون حقيقة دعوته ايضاً، انه سليم العقل، لا جنون به، بل هو منذر لهم، ناصح ومبلغ عن الله رسالته الى الناس كافة. ولو تأمل مشركو مكة في نشأته ﷺ وما عُرِف عنه من الامانة والاستقامة والصدق لما نزعوا الى هذه الفرية على رجل عرفوه، ولأدركوا أن ما يأتي به من عند ربه لن يصدر عن مجنون.

لقد كذبوا محمداً فيما يدعوههم اليه من التوحيد، ولم يتأملوا في هذا الملكوت العظيم من السماوات والأرضين وما فيها، مما يدل على قدرة الصانع ووحدانيته. كذلك لم يفكروا في انه قد اقترب أجلهم، فيسارعوا الى طلب الحق قبل مفاجأة الاجل. والحق أنهماذا لم يؤمنوا بالقرآن فباي حديث بعده يؤمنون!!

ثم يعقب تعالى بتقرير سنته الجارية بالهدى والضلال، وفق ما ارادته مشيئته: هداية من يطلب الهدى ويجاهد فيه، واضلال من يصرف قلبه عنه فيقول:

{مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} .

وتفسير ذلك: إن من يكتب الله عليه الضلال لسوء اختياره هو يظل في بُعدٍ عن الحق وعماء عنه، وحيرته بحيث لا يدري أين يتوجه. وليس في هذا الإهمال ظلم لأنه جاء بعد البيان والتحذير.

٧٠٥٩ 187

الساعة: القيامة، ايان: متى. مرساها: وقت حصولها. يجليها: يظهرها. بغتة: فجأة حفي عنها: عالم بها، مختم بالسؤال عنها. بعد أن أرشد الله من كانوا في عصر التنزيل الى النظر والتفكير في اقتارب اجلهم بقوله: {عسى أن يكون قد اقترب أجلهم} فتى على ذلك بالإرشاد الى النظر والتفكير في أمر الساعة التي ينتهي بها أجل جميع من على هذه الارض. وقد كانت عقيدة الآخرة والحشر وما فيها من حساب وجزاء غريبة عن أهل الجزيرة العربية، وكانوا يعجبون من الحياة بعد الموت، ومن البعث للحساب والجزاء. لذلك كله كان التوكيد في القرآن شديداً على عقيدة الآخرة.

يسألك مشركو مكة يا محمد عن الساعة والقيامة في اي وقت تكون؟ قل لهم علم وقتها عند ربي وحده، لا يكشف الخفاء عنها احد سواه، فقد ثقلت وعظم هلوها، وهي لن تأتيكم الا فجأة بلا إشعار ولا انذار وهم يسألونك هذا، وكأنك عالم بها حريص مهتم بالسؤال عنها، فكرر عليهم الجواب بأن علمها عند الله، ولكن اكثر الناس لا يدركون الحقائق التي تغيب عنهم. قل لهم أيها الرسول: إني لا أملك لنفسي جلب نفع ولا دفع ضرر الا ما شاء الله ان يقدّرني عليه. ولو كنت اعلم الغيب كما تظنون، لاستكثر من كل خير، ولدفعت عن نفسي كل سوء. لكن الحق أني لست الا نذيراً للناس أجمعين فالذين يؤمنون ينتفعون بما جئت به، ويذعنون للحق.

فالرسول عليه الصلاة والسلام كغيره من الرسل، بشر لا يدعي الغيب، بل إنه مأمور ان يكمل الغيب الى الله، فذلك من خصائص الألوهية، أما الرسل فهم عباد مكرّمون لا يشاركون الله في صفاته ولا أفعاله، وانما اصطفاهم تبليغ رسالته لعباده، وجعلهم قدوة صالحة للناس في العمل لما جاؤا به من هدى وفضيلة.

ليسكن إليها: ليأنس بها ويطمئن إليها. تغشّاها: باشرها في الاتصال الجنسي، وهو من التعابير القرآنية المهدّبة. فمَرَّت به: استمرت بالحمل ولم تُسقطه. اثقلت: حان وقت الولادة. صالحا: ولد سوياً تام الخلقة. فيه هاتين الآيتين تمثيل لطبع الإنسان وكيف انه: إذا نزل به ما يكره، أو أراد الحصول على ما يجب- اتلجأ الى الله يتضرع، ويقطع على نفسه العهود والمواثيق ان يشكر الله ويطيعه اذا حقق له ما يريد، فاذا تمّ له ما طلب تولى مُعرِضاً ولم يوفِ بالعهود والمواثيق. هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل زوجها من جنسها، وكانا يسكان معا فلما قارب الذكر الانثى علقت منه. وكان الحمل في اول عهده خفيفا لا تكاد تشعر به، فلما ثقل الجنين دعا الزوج والزوجة ربهما قائلين: والله لئن رزقنا ولدا سليما تام الخلقة، لنكونن من الشاكرين لنعمائك. ونالا ما طلبا، لكنهما جعللا الأصنام شركاء في عطيته الكريمة، وتقربا إليها بالشكر، والله وحده هو المستحق لذلك فتعالى الله يُشركون. وهناك بعض الروايات المأخوذة من الاسرائيليات تنسب هذه القصة لآدم وحواء وهذا خلط وتخريف.

افْتَتَحَتْ صورة الأعراف بدعوة القرآن إلى دين التوحيد والأمر باتباع ما انزل الله والنهي عن اتباع من دونه، وتلاه التذكير بنشأة الانسان الاولى في الخلق والتكوين، والعداوة بينه وبين الشيطان، ثم اختتمت بهذه المعاني، وفيها التذكير بالنشأة الاولى والنهي عن التشرك. والآية ههنا تتساءل:

هل يصحّ ان يشركوا مع الله أصناماً لا تقدّر أن تخلق شيئا من الاشياء، بل هي أضعف مخلوقاته! ان الخلق والأمر لله، هو وحده يخلق كل شيء.

ولا تستطيع هذه الاصنام ان تنصر من يعبدونها، بل حتى ان تردّ الأذى عن نفسها اذا تعدى عليها احد. وإن تدعوا إليها العبادون لغير الله هذه الاصنام طالبين ان ترشدكم الى ما تحبون، فإنها لن تجيبكم. ان دعاءكم إياها وعدمه سواء، فهي لا تنفع ولا تضر، ولا تهدي ولا تهتدي. أما الرب المعبود الذي بيده كل شيء فهو الله.

ثم بالغ في الرد عليهم واثبت أنّها أخط منزلة من الناس، ووبخهم على عبادة تلك الحجارة والاصنام، فقال:

{الْهَمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا. . .}

بل ان هذه الاصنام اقل منكم في الخلق والتكوين، فهل لهم ارجل يمشون بها؟ او أيّد يدفعون بها الضر عنكم وعنهم؟ او عين يبصرون بها؟ او حتى آذان يسمعون بها ما تطلبون منهم؟ ليس لهم شيء من ذلك، فكيف تشركونهم مع الله؟

وهذا التحديت للمشرّكين ليبنّي جهلهم وعجز آلهتهم، وقد تحداهم في اكثر من آية ولهم عجز هذه الآلهة. من ذلك قوله تعالى: {ياأيها الناس ضُربَ مَثَلٌ فاستمعوا له إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: ٧٣].

وبعد ان تحدى المشركين وآلهتهم قال لهم: ان الله هو موليّ أمري وناصري، الذي نزل عليّ القرآن، وهو وحده الذي ينصر الصالحين من عباده

ثم اكد هذا التحدي بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكَ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} وقد تقدم هذا في الآية ١٩٢، وجاء التكرار ليؤكد ان هذه الأصنام لن تناله بأذى وأنها أعجز من أن تنصر أحداً.

وبعد ذلك أضاف. . . وإن تسألوهم الهداية إلى ما فيه خيركم لا يسمعون سؤالكم، وإنك يا محمد لتراهم ينظرون إليك، وهم في الحقيقة ولا يرون شيئاً، لأنهم مجرد حجارة وتمائيل لا حياة فيها ولا حس.

العفو: الذي يأتي من غير كُلفة. ينزع: يوسوس بالشر. والنزع: وساوس الشيطان وما يحمل به الإنسان على المعاصي. طائف من الشيطان: ما يدور في خيال المرء من وساوس. اجتنبتها: افتعلتها.

جاءت هذه التوجيهات الربانية الى الرسول الكريم وأصحابه، وهم لا يزالون في مكة المكرمة، وفي مواجهة المشركين فيها ومواجهة الأعراب من حولهم في الجزيرة وأهل الأرض كافة.

يا محمد، خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة، ولا تطلب منهم ما يشقّ عليهم، واعفُ عن أخطائهم وضعفهم. ذلك ان التعامل مع النفوس البشرية بغية هدايتها يقتضي سعة صدر، وسماحة طبع، ويسراً في غير إفراط ولا تفريط في دين الله، وهكذا كان رسول الله ﷺ مثال الكمال والخلق العظيم.

وامرُ يا محمد بالعرف، وهو الخير المعروف، والعرف اسم جامع لك ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والإحسان الى الناس. وأعرض أيها الرسول الهادي عن الجاهلين، وهم الذين لا تُرجى هدايتهم، إذ قد يكون إهمالهم والإعراض عنهم أجدي في هدايتهم. روي عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه انه قال: «ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه» وقال بعض العلماء: تضمنت هذه الآية قواعد الشريعة، فلم يبق حسنة الا وعظها، ولا فضيلة الا شرحتها.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ان عيينة بن حصن، وكان فيه غلظة وجفاء، قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: هي يا ابن الخطاب، أفو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر، حتى همّ ان يوقع به. فقال له الحرّ بن قيس: يا امر المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» وهذا من الجاهلين.

قال ابن عباس: والله ما جوزها عمر حين تلاها عليه، كان وقافاً عند كتاب الله. وان تعرض لك يا محمد من الشيطان وسوسة لصرفك عما أمرت، كأن تغضب من لجأجتهم بالشر فاستجر بالله يصرفه عنك، إنه سميع لكل ما يقال عليم به.

ثم بين الله طريق سلامة من يستعبد من الشيطان من الوقوع في المعصية فقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} .

ان اخبار المؤمنين المتقين، إذا ألمّ بهم من الشيطان وسوسة تذكروا أن ذاك من إغواء الشيطان عدوهم، وعند ذاك يبصرون لاحق فيرجعون عن الأخذ بتلك الوسوسة.

هذا حال المتقين أما اخوان الشياطين من الكفار، فان الشياطين تزيدهم ضلالاً بالوسوسة، بذلك فهي تدمهم في غيهم وافسادهم. ومن ثم تراهم يستمرون في شرورهم وآثامهم.

واذا لم تأت يا محمد الكفار الذين يعاندونك بآية مما يطلبون، قالوا هلا اختلقتهم؟ قل لهم: إنني لا أتبع الا القرآن الذي يوحى الي من ربي، وفيه بصائر وحجج تهديكم الى وجوه الحق والخير، فهو نبع هدى يرشد ويهدي، ورحمة تغمر المؤمنين وتفيض عليهم البركات.

استمعوا له: اصغوا. انصتوا: اسكتوا. خيفة: حالة الخوف والخشية في الغدو والآصال: اوقات الصباح والمساء. يسبحونه: ينزهونه عما لا يليق به.

لما ذكر الله مزايا القرآن الكريم، وانه بصائر تكشف وتبهر وهدى يرشد ويهدي، ورحمة تغمر وتفيض - امر في هذه الآية بالاستماع والانصات له، لتدبر ما فيه من ذلك. فندوه الى أنه:

اذا تلى القرآن عليكم ايها المؤمنون فأصغوا اليه بأسماعكم، واستجمعوا حواسكم لتدبروا مواعظه، وتفوزوا برحمته ربكم.

وبعد أن جاء الأمر بهذا العلاج فيه يختص بالمعاملة، وفيما يختص بقراءة القرآن، يأتي الأمر والتوجيه الى ملاك الأمر كله وهو ذكر الله في القلب بعظمته وجلاله رجاء الثواب، على ان يكون ذلك بهدوء واطمئنان لا ازعاج فيه، كيما تهدأ الاعصاب ويسبح الفكر في معاني الجلال والجمال، كما يرشد الى ان يكون ذلك شأن المؤمن في كل وقت.

{واذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} .

استحضِرْ عظمة ربك من مشاهداتك في كونه الذي خلق، وفي آثاره العظيمة فيه، وانعاماته المادية والروحية عليك، فتعرّف من كل هذا على ربوبيته بالتقرب اليه والخضوع له والخوف منه. واذكر ربك هادئ النفس مطمئن البال في لاصباح وفي المساء تنغم نفسك بقيض من الرضا الرباني، يبعث منك واليك الخير كله، وتكون في مراقبة دائمة وشهود مستمر، بذلك لا تكون في عامة اوقاتك من الغافلين عن ذكر الله.

ثم تحتم السورة بالارشاد الى ان الملائكة مع عظيم شرفهم وسمو مرتبتهم معترفون بعوديتهم، خاضعون عزّ الربوبية، لا يخالجهم في عبادتهم كبر، وهم دائماً يسبحون الله وله يسجدون. فما احوج الانسان وقد ركب في مبادئ الشهوة والغضب ان يتخذ الى ربه سبيلاً، فيعبد بحق.

وهذه الآية إحدا الآيات التي طُلب الى المؤمنين ان يسجدوا عند تلاوتها او سماعها، وهي اربع عشرة آية في القرآن الكريم. وهذه هي السجدة المعروفة بسجدة التلاوة: وهي سجدة بين تكبيرتين: تكبيرة لوضع الجبهة على الأرض، وأخرى للرفع من السجود، دون تشهد ولا تسليم. ويشترط لها ما يشترط لصلاة م الطهارة والنية واستقبال القبلة.

والحكمة في هذه السجدة انها نوع من التربية العملية الروحية في اعلان التمسك بالحق والاعراض عن الباطل، ومراغمة المبطلين، والسير في طريق المثل العليا للذين حملهم الله امانة الحق والدعوة اليه. وبذلك كانت سجدة التلاوة وشعاراً عاماً للمؤمنين في اعلان تقديسهم عبادتهم، وشدتهم في مخالفة الباطل كلّها قرأوا القرآن أو سموه جعلنا الله من المسبحين بحمده، الساجدين له، المقتدين بآبائنا، المتشبهين بالملأ الأعلى، انه سميع مجيب.

٨ الأنفال

٨٠١ 1

الانفال: جمع نفل بالتحريك وهي الغنيمة. ذات بينكم: فيما بينكم. وجلت قلوبهم: فزت وخافت. خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً الى المدينة بسبب مكر المشركين وتديبرهم أمر قتله، وليكون للمسلمين دولة. وقد استقر بالمدينة ومن حوله المؤمنون من المهاجرين والانصار، وكان لا بد من الجهاد لدفع الاعتداء، ليكلا يُفْتَنَ أهلُ الايمان. فكانت غزوة بدر، وكان فيها النصر المبين والغنائم. وكان وراء الغنائم فيها نفوس بعض المسلمين لتطهيرها من الاختلاف الذي نشأ عن حب المال والتطلع الى المادة، وهو من اكبر اسباب الفشل.

فكان من مقتضيات الحكمة الإلهية ان يتلقى المؤمنون في مبدأ حياتهم هذا الدرس القوي الذي يقتلع بذور الشح والطمع وحب المادة من قلوبهم.

يسألونك أيها الرسول عن الغنائم. لمن هي؟ وكيف تقسم، ألسُّبَّان أم للشيوخ؟ أو للمهاجرين هي، أم للانصار؟ ام لهم جميعاً؟ قل لهم أيها الرسول:

إنها لله والرسول، والرسول بأمر ربه يتولى تقسيمها، فاتركوا الاختلاف بشأنها، واتقوا الله واجعلوا خوف الله وطاعته شعاركم، وأصلحوا ما بينكم فاجعلوا الصلاة بينكم محبة وعدلاً. هذه صفة أهل الايمان.

ثم وصف الله تعالى المؤمنين المخلصين في ايمانهم بأنهم هم الذين اجتمعت فيهم خصال خمس: (١) {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} الذين اذا ذكروا الله بقلوبهم فرعوا لعظمته وسلطانه، وامتلاّت قلوبهم هيبة.

- (٢) {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} وكلما تليت عليهم آيات من القرآن ازداد إيمانهم رسوخاً، وازدادوا إعاناً وعلماً.
- (٣) {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ولا يعتمدون الا على الله الذي خلقهم، ولا يفوضون أمرهم الى سواه. ومعنى التوكل: ان نسعى للعمل كما أمرنا الله راجين منه التوفيق في سعينا مؤمنين بان العمل شرط أساسي للتوكل.
- (٤) {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} واولئك المؤمنون الصادقون في ايمانهم، يؤدون الصلاة مستوفية الاركان، كاملة الخشوع والخضوع، وبهذا تحصل ثمرة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.
- (٥) {وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} وينفقون بعض ما رزقناهم من المال في الجهاد والبرِّ ومعاونة الضعفاء، وفي مصالح الأمة ومرافعها العامة. {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} . هؤلاء، هم الذين يوصفون بالامان حقاً وصدقاً. ولهم جزاؤهم درجات عالية عند الله، وهو الذي يمنحهم رضاه، ويغفر لهم سيئاتهم، ويرزقهم رزقاً طيباً كريماً في الحياة الدنيا، ونعيماً دائماً في الآخرة.

٨٠٢ 5

الشوكة: القوة والبأس، والسلاح، ومعنى ذات الشوكة: الطائفة المسلحة القوية. احدى الطائفتين: الأولى هي الطائفة التي جاءت من الشام بقيادة أبي سفيان ومعها العير وفيها اموال قريش. والثانية: قريش وقد خرجت بصناديدها ورجالها المسلحين ليحموا العير. دابر الكافرين: آخرهم ليحق الحق: ليعز الإسلام ويبطل الباطل: يزيل الشرك والكفر.

الكلام هنا عن غزوة بدر التي كانت أول فوز للمؤمنين وخذلان للمشركين. وملخص القصة: ان رسول الله ﷺ سمع أن أبا سفيان رجع من الشام يقود قافلة ضخمة فيها معظم اموال قريش وتجارها. فأخبر أصحابه ونذّبهم الى الخروج ليصادروا هذه القافلة لكن البعض ثاقل وكره الخروج وخرج الرسول في ثلاثمائة رجل ونيف، ولم يعلموا انهم مقبلون على واحدة من أعظم المعارك الفاصلة في التاريخ.

وعلم أبو سفيان بخروج الرسول وأصحابه فبعث الى قريش يطلب النجدة. ولم يبق أحد قادر على حمل السلاح في مكة إلا خرج. اما ابو سفيان فحول طريقه الى ساحل البحر ونجا، وبعث الى قريش يخبرهم بذلك ليرجعوا. فأبى أبو جهل وسار بالقوم الى بدر. فشاور النبي ﷺ أصحابه وقال لهم: ان الله وعدني إحدى الطائفتين، فوافقوه على القتال، وكره ذلك بعضهم وقالوا: لم نستعد له، لكنهم ساروا وأجمعوا على لقاء قريش وكانت المعركة في اليوم السابع عشر من شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة وقد انتصر المسلمون انتصاراً عظيماً، فقتلوا من قريش سبعين رجلاً، وأسروا سبعين، وفر الباقيون، واستشهد من المسلمين اربعة عشر رجلاً فقط. وكانت هذه المعركة أول نصر للمسلمين، فبدأ يخاز كثير من العرب الى جانبهم بعد ذلك.

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ} .

إن حال المؤمنين في خلافهم حول الغنائم مثل حالهم عند ما أمرك الله بالخروج من المدينة لقتال المشركين ببدر. يومئذ كانوا يجادلونك ايها لارسلو في لقاء قريش وقتلهم مع ان هذا اللقاء والقتال مع ان هذا اللقاء والقتال حق وخير. ولقد آثروا لقاء العير لأن فيها الأموال، ولأن حراسها قليلون. لكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدل فيه وجه كما يقول تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ} كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون} وكانوا في ذهابهم الى القتال كالذي يساق الى الموت وهو ينظر أسبابه ويعاينها. وهذه صورة يرسمها القرآن لشدة خوفهم من قريش، لأنها أكثر عدداً، وأقوى عدة.

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . . . الْآيَةُ} اذكروا أيها المؤمنون اذ يعدكم الله ان ينصركم على احدى الطائفتين، قريش وفرسانها، أو العير وما فيها من أموال. انتم تودّون أن تلقوا الطائفة التي فيها المال، لكن الله تعالى يريدكم ان تلقوا قريشاً وينصركم عليهم، ليثبت الحق بإرادته ويعز الإسلام ويظهره على الدين كله، وليقطع دابر الكافرين بعد ان يزيل الباطل، وهو الشرك، لقد أردتم أنتم حطام الدنيا

الزائل، واراد الله لكم النصر على قريش أعداء الله واعداكم، كيما يحقق لكم وعده بالنصر. هذا أفضل لكن وللإسلام وفيه العزة والكرامة، وهو خير من المال وكل ما في الدنيا من حطام الدنيا الزائل، واراد الله لكم النصر على قريش أعداء الله واعداكم، كيما يحقق لكم وعده بالنصر هذا أفضل لكم وللإسلام، وفيه العزة والكرامة، وهو خير من المال وكل ما في الدنيا من حطام.

٨٠٣ 9

مردفين: متتابعين، وأردفه اركبه خلفه. وأردف: تتابع يغشيكم النعاس: يغلبكم رجس الشيطان: وسوسته، وله معان أخرى كالذنب، وعبادة الاوثان. ليربط على قلوبكم: ليثبتها ويصبرها. فوق الاعناق: الرؤوس، والبنان: اطراف الاصابع. مفردة: بنانة. شاقوا الله: عادوه.

{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ . . . } روى ابن جرير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ الى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً، ونظر الى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون، فاستقل القبلة ثم مَدَّ يديه وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه لى منكبيه ثم التزمخ من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفك مناشدتك ربك فإن سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ . . . الآية } .

اذكروا وقت استغاثتكم ربكم، فأجاب الله دعاءكم، وأمدكم بألف من الملائكة متتابعين. وما جعل الله تعالى ذلك الإمداد بالملائكة إلا إشارة لكم بالنصر، لتطمئنوا وتقدموا، وما النصر الا من عند الله دون غيره من الملائكة أو سواهم، وقد تقدمت هذه الآية في سورة آل عمران ١٢٦.

قراءات:

قرأ أبو عمرو: «فاستجبا لكم إني مدمكم» بكسر همزة إنَّ والباقون «أني» بفتح الهمزة وقرأ نافع ويعقوب: «مُردفين» بفتح الدال. والباقون «مردفين» «بكسر الدال» .

{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً . . . } اذكروا ايها المؤمنون، وقت أن خفتم من قلة الماء، ومن الأعداء، فوهبكم الله الأمن وداهمكم النعاس فتمتم آمنين. وعند ذاك انزل الماء من السماء لتطهروا به ولتذهبوا وساوس الشيطان عنكم، وثبت قلوبكم واثقة بعون الله ولتتماسك به الأرض فتثبت منكم الاقدام.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو: «يغاشكم النعاس» بضم السين.

فقد أنزل الله في تلك الليلة مطراً طهركم به وأذهب عنكم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض وصلب الرمل، وثبتت الأقدام. وقد سبق رسول الله وأصحابه الى الماء فنزلوا عليه وصنعوا الحياض ثم عوروا ما عداها، وبذلك تمكنوا من الشرب والأعداء عكاش. وتفصل ذلك في كتب السيرة والحديث.

كذلك اذكروا أيها المؤمنون أن الله أوصى الملائكة أن تودع في نفوسكم أن الله معكم بالتأييد والنصر، فاثلاً لهم: ثبتوا الذين آمنوا، قووا قلوبهم. . . وسأجعل الرعب يستولي على قلوب المشركين، فاضربوا رؤوسهم التي فوق اعناقهم، وقطعوا ايديهم التي يحملون بها السيوف. { ذلکم فذوقوه وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ } ان هذا هو العقاب الذي مجلت لكم به ايها الكافرون من هزيمة وخزي وذل امام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين، فذوقوه في الدنيا عاجلاً، واعلموا ان لكم في الآخرة عذاب النار.

زحفاً: مشياً بثقل في الحركة. زحف الجيش الى العدو مشى اليهم في نقل كأنه جسم واحد الأدبار: واحدتها دُبر مؤخرة الانسان، يراد بها الهزيمة. متحرفاً لقتال: منحرفاً الى جانب آخر. متحيزاً الى فئة: منضمّاً اليهم. مأواه جهنم: مصيره اليها. موهن كيد الكافرين: مضعف كيدهم وتديبيرهم.

يا ايها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا في الميدان وهم زاحفون عليكم بكثرتهم فلا تقربوا منهم، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب، وحيث تختارون موقعاً أحسن، او تدبرون خطة، او يكون ذلك التحيز انضماماً إلى فئة أخرى من المسلمين، لتعاودوا القتال. ان من تولي منكم وانهزم من وجه العدو يغضب الله عليه، ومصيره الى النار.

والتولي يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات، كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يا رسول الله وما هن؟ قالك الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ} . إذا كنتم ايها المؤمنون قد انتصرتهم عليهم وقتلتموهم، فانكم لم تفعلوا ذلك بقوتكم، بل إن الله هو الذي نصركم عليهم بتأييده لكم والقاء الرعب في قلوبهم، وما رميت ايها الرسول اذ كمت ترمي التراب والحصى في وجوههم، ولكن الله تعالى هو الذي رمى فافزعهم.

{وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا} والله قد فعل ما ذكر ليلى المؤمنين بالشدة، ليظهر اخلاصهم، وينعم عليهم بالنصر والغنيمة، وليثيبهم عليه من فضله وهو الذي وهبهم إياه.

{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} يسمع استغاثتكم ويعلم حالكم.

{ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} ذلك هو النصر العظيم، وان الله مضعف بأس الكافرين وتديبيرهم بنصركم وخذلانهم. وهذه بشارة أخرى مع ما حل من النصر، فانه أعلمهم بانه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل من الأيام.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحمة والكسائي وابو بكر «موهن كيد الكافرين» بالتنوين ونصب كيد، وقرأ ابو عمرو وابن كثير ونافع: «موهن كيد» بتشديد الهاء. وقرأ حفص: «موهن كيد» بالاضافة وهي قراءة المصحف. وقرأ نافع وابن عامر وحفص «وَأَنَّ» بفتح الهمزة والباقون بكسرها.

{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} يتجه الخطاب هنا الى الكافرين فقد قال أبو جهل: «اللهم أينما كان اقطع للرحم، وآتى بما لا يعرف فأحنه الغداة» ويعني بذلك الرسول الكريم، وقوله: «كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد» ومعنى أحنه أمته. يعني اجعله يخني ويسقط على الأرض.

إن تستفتحوا فطلبوا من الله ان يفتح بينكم، وبين المسلمين، وأن يهلك أضلّ الفريقين وأقطعها للرحم فقد استجاب الله، فجعل النصر للمسلمين، والهزيمة عليكم.

{وَإِنْ تَنْتَهُوا فَنُحِمْكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ} وعلى ضوء هذه الحقيقة، يرغبهم الله في الانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر ومحاربة الله ورسوله وان تعودوا للاعتداء نعدّ عليكم بالهزيمة.

{وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ} لن تغني عنكم جماعتكم المجتمععة على الإثم شيئا، ولو كان عددها كثيرا، وماذا تفعل الكثرة اذا كان الله في جانب المؤمنين!

{أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} اذا صدقوا وأخلصوا لله وللرسول، وقاموا بواجبهم، ونصروا الله ورسوله.

تقدم أن سورة الانفال نزلت تحلّ مشكلات المؤمنين في غزوة بدر من العنائم والاسرى وغير ذلك، وتذكرهم بنعم الله عليهم، وتعرض لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من شجاعة وثبات حتى يظفروا بالنصر والفلاح، ويحصلوا على العزة التي جعلها الله لعباده المؤمنين. في سبيل هذا ناداهم الله ست مرات بوصف الايمان {يا أيها الذين آمنوا} وقد تقدم النداء الاول في الآية من ١٥-١٩ حذرهم فيه من الفرار امام الاعداء.

والنداء الثاني في هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله}. {أطيعوا الله ورسوله في الاجابة الى الجهاد، وقد علمتم ان النصر كان بتأييد الله وطاعة رسوله، فاستمروا على طاعتكم لله وللرسول، ولا تعرضوا عن دعوة الرسول الى الحق وانتم تسمعون كلامه الداعي الى وجوب طاعته وموالاته ونصره. ولا تكونوا كالمنافقين الذين قالوا: سمعنا الحق ووعيناه، لكنهم لا يذعنون له.

ان اولئك المشركين ومعهم المنافقون، هم كشرّ الدواب التي أصيبت بالصمم فلا تسمع، وبالبكم ف تتكلم، فقد صمّوا عن الحق فليسمعوه، ولم ينطقوا به ولم يفعلوه. ولو علم الله بعلبه الأزلي أن فيهم خيراً لأنفسهم وللناس وللحق، لأسمعهم مسامع هداية يوصل الحق الى عقولهم.

{وَلَوْ أَسْمَعُهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ} ولو سمعوه وفهموه لانصرفوا عن الهداية، وهم منصرفون عن تدبير ما سمعوا والانتفاع به، فقدوا نوره الفطرة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

هذا هو النداء الثالث: بعد ان ركّز الأمر على أساس من الطاعة والتحذير من المخالفة، ناداهم بإنهاض الهمة وتقوية العزيمة، والمبادرة الى الطاعة والامثال دون إبطاء وتسويف، وأرشدهم الى أن ما يدعون اليه فيه حياتهم، بالعلم والمعرفة، بالشرف والهمزة بالسلطان وعلا الكلمة، بالسعادة الحقة والنعيم المقيم.

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ولبّوه فيما يأمركم به، واجيبوا الرسول في تبليغه ما يأمره الله به، اذا دعاكم الرسول الى أوامر الله بالأحكام التي فيها حياة اجسامكم وارواحكم وعقولكم وقلوبكم. فنحن مأمورون ان نطيع الله بالأحكام التي فيها حياة اجسامكم وارواحكم وعقولكم وقلوبكم. فنحن مأمورون ان نطيع الرسول الكريم ونتبع ما يقول وما يفعل، وما يأمرنا به وما ينهانا عنه. ان سنّة الرسول الكريم أصل من أصول الاسلام، والعمل بها عملٌ على حفظ كيان الاسلام وتقدمه، وفي تركها انحلال الاسلام. كيف نفهم القرآن الكريم لولا سنّة رسوله؟ لقد وردت الصلاة والزكاة والحج وكثير من اركان الاسلام بألفاظ عامة في القرآن الكريم، والرسول هو الذي علّمنا إياها وشرحها لنا بأحاديثه وافعاله.

وهناك في هذه الأيام فئات من الناس يدعون الى ترك الحديث وسنة الرسول وعدم الأخذ بها، وما هذه الدعوة الا لهدم الاسلام وتقويض اركانه. وهذا خروج عن الاسلام والحاد كبير نعوذ بالله منه.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} واعلموا علم اليقين ان الله قائم على قلوبكم، يوجّهها كما يشاء.

روى البخاري واصحاب السنن قال: كانت يمين النبي «لا ومقلب القلوب». وفي صحيح مسلم: «اللهم مصرف القلوب، صرّف قلوبنا الى طاعتك».

{وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} وانكم جمعا ستجعون يوم القيامة يوم البعث والجزاء.

هنا امرنا الله ان نتقي الفتن الاجتماعية التي لا تخص الظالمين، بل نتعدها الى غيرهم، وتصل الى الصالح، فقال: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} قال ابن عباس: امر الله المؤمنين ان لا يُقَرُّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب «وفي صحيح مسلم عن زينب بن جحش انا سألت رسول الله، فقالت له: يا رسول الله أُنْكَرُ وفيما الصالحون؟ قال: نعم، اذا كثر الخبيث». فاتقوا ايها المؤمنون الفتن، واضربوا على أيدي الجرمين، فان الذنب العظيم مفسدٌ جماعتكم ولا يصيب الذين ظلموا وحدهم، بل يصيب الجميع. والأفراد في نظر القرآن مسئولين عن خاصة انفسهم، ومسئولون عن أمتهم ايضاً فإذا قصروا في أحد الجانبين او فيهما- عرّضوا انفسهم وأمتهم للدمار والهلاك.

{واعلموا أنَّ الله شديدُ العقاب} للأُمم والافراد اذا سكتوا عن الفحشاء والمكر فيهم، ولم يتلافوا المفاصد التي تحصل بينهم. ثم يشفع الله هذا التحذير بتذكيرهم بنعمة الله عليهم حينما استجابوا وتضامنوا في المسؤولية والحرص على اعلاء كلمته، وكيف نظر الله اليهم على قتلهم فكثرتهم، والى ضعفهم فقوّاهم وخوفهم فأمنهم، فقال:

{واذكروا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ. . .} تذكروا أيها المؤمنون، وقت أن كنتم عدداً قليلاً، وضعفاء يستغلّ أعداؤكم ضعفكم، وقد استولى عليكم الخوف من ان يتخطفكم اعداؤكم فيفتكوا بكم. يومئذٍ آواكم أيها المهاجرون إلى يثرب حيث تلقاكم الأنصار، وأيدكم وإياهم بنصره في غزواتكم، ورزقكم الغنائم الطيبة رجاء ان تشكروا هذه النعم تفسيرا في طريق الجهاد لإعلاء كلمة الله.

ثم يأتي النداء الرابع، وفيه يذنبهم الى ان مخالفة الله في اوامره- ومن أشدّها إفشاء سر الأمة للاعداء - خيانةُ الله ولرسوله وخيانة للأمة، وحسب الخائنين سقوطا عند الله قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٩].

يا ايها الذين آمنوا لا تحونوا الله والرسول بموالاته الاعداء، ولا تخونوا الامانات التي تكون بينكم، فالخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين.

واكبر خيانة في الوقت الحاضر هي قعود المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وترك المسجد الأقصى في يد أعداء اله اليهود. فالخيانة بكل معانيها صفة مذمومة. روى البخاري ومسلم عن ابي هريرة ان النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا اُتمن خان، وان صام وصلى وزعم انه مسلم» {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} وانتم تعلمون مفاصد الخيانة وتحريم الله لها وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة.

{واعلموا أنَّما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} يحذّر الله هنا من شهوة النفس في الحرص على المال والولد، ذلك ان فتنة الاموال والاولاد عظيمة لا تخفى على ذوي الالباب، فلا تغلبوا ايها المؤمنون محبة المال والولد على محبة الله تعالى. إن ذلك يفسد أموركم. فيجب على المؤمن الصادق الإيمان ان يتقي الفتنة في المال بأن يكسبه من الحلال وينفقه في سبيل البر والاحسان، ويتقي الفتنة في الأولاد بحسن تربيتهم وتعويدهم الفضائل وحسن الاخلاق.

{وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} يجزيكم به عن المال والولد، فعليكم ان تؤثروا ما عند ربكم. لما حذر الله تعالى عن الفتنة بالأموال والاولاد، فقي على ذلك بطلب التقوى التي هي اساس الخير كله، وان التقوى شجرة مثمرة، اعظم ثمارها الفرقان والنور الذي يبصرنا بالحق والعدل والصلاح، والذي به نهتدي ونسعد، كما تمّحة سيئاتنا، ويغفر الله لنا ذنوبنا، وبه تفتح لنا ابواب السماء.

وهذا هو النداء الخامس:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} انت تخضعوا لاوامر الله في السر والعلن، يجعل الله تعالى في انفسكم قدرةً تفرّقون بها بين الحق والباطل، وينصركم على أعدائكم، ويغفر لكم جميع ذنوبكم، فهو ذو

لِيُثْبِتُوا: لِيَمْنَعُواكَ مِنَ الْحَرَكَةِ بِالْحَبْسِ وَشَدِّ الْوِثَاقِ. يَمْكُرُونَ: يَدْبُرُونَ لَكَ أَخْبَثَ الْحِيلِ. وَيَمْكُرُ اللَّهُ: يُبْطِلُ مَكْرَهُمُ الْأَسَاطِيرَ: وَاحِدَهَا أُسْطُورَةٌ، وَهِيَ الْخُرَافَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الْقَدِيمَةُ. مُكَّاءٌ: تَصْفِيرٌ بِالْفَمِ. وَتَصْدِيَةٌ: تَصْفِيْقٌ بِالْيَدِ.

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ تَصْوِيرٌ لِمَوْقِفِ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يَبْتَغُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَيَتَأَمَّرُونَ عَلَيْهِ.

أَذْكُرُ أَيُّهَا الرَّسُولُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الْمُشْرِكُونَ لِلْإِقْقَاعِ بِكَ، إِمَّا بِالْحَبْسِ الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ لِقَاءِ النَّاسِ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِمَّا بِالْقَتْلِ، وَإِمَّا بِأَنْ يُخْرِجُوكَ مِنْ مَكَّةَ، يَدْبُرُونَ لَكَ التَّدْبِيرَ السَّيِّئَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْطِلُ مَكْرَهُمْ بِأَنْ يَدْبُرَ لَكَ الْخُرُوجَ مِنْ شَرِّهِمْ. وَتَدْبِيرُ اللَّهِ هُوَ الْخَيْرُ وَهُوَ الْأَقْوَى وَالْغَالِبُ.

وَمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مَكْرَهُمْ فِي ذَاتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَصَّ عَلَيْنَا هُنَا مَكْرَهُمْ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ فَقَالَ:

{وَإِذَا نَتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا. . .}

أَذْكُرُ أَيُّهَا النَّبِيُّ مَعَانِدَةَ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَمَا كُنْتَ تَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ آيَاتُنَا، فَيَقُولُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا لِلْحَقِّ: لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ مِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ لَفَعَلْنَا، إِنْ هَذَا يَشْبَهُ أُسَاطِيرَ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ وَخُرَافَاتِهَا.

وَكَانَ زَعَمَاءُ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَغَيْرُهُمْ يَتَوَاصُونَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنْهُ. وَكَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ يَحْفَظُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ كَالْفَرَسِ وَالْهِنْدِ وَالْيَهُودِ، فَكَانَ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَكُلَّمَا سَمِعَهُ يَتَلَوُّ الْقُرْآنَ، يَجْلِسُ عَلَى إِثْرِهِ وَيَحْدُثُ النَّاسَ بِأَخْبَارِ الْمُلُوكِ وَقِصَصِ الْفَرَسِ وَالْهِنْدِ ثُمَّ يَقُولُ: بِاللَّهِ أَنَا أَحْسَنُ قِصَصَنَا؟ أَمْ أَنَا مُحَمَّدٌ؟ .

وَلَقَدْ أَسْرَهُ الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَتْلِهِ.

{وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أَذْكُرُ أَيُّهَا النَّبِيُّ كَيْفَ ذَهَبُوا فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ إِلَى أَنْ قَالُوا، مُوجِّهِينَ النَّدَاءَ إِلَى رَبِّهِمْ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ هُوَ الْحَقُّ فَاجْعَلْ السَّمَاءَ تَمْطُرُ عَلَيْنَا حِجَارَةً، أَوْ أَنْزِلْ عَلَيْنَا عَذَابًا شَدِيدًا.

وَمَا كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ أَنْ يَعَذِّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ وَأَنْتَ فِيهِمْ تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ رَاجِيًا أَجَابَتِهِمْ لَهُ، وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَعَذِّبَ الْعَصَاةَ وَهُمْ يَتَسَخَّرُونَ، وَسَلْمُونَ وَيَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ.

{وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ.}

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَحَالُهُمُ الْقَائِمَةُ الْآنَ تَسُوْغُ تَعَذِّيبَهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَمْنَعُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَا كَانُوا مُسْتَحَقِّينَ لِلْوَلَايَةِ عَلَيْهِ لَشُرِّكَهُمْ، وَعَمَلِ الْمَفَاسِدِ فِيهِ.

{إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَقُونَ} أَنْ أَوْلِيَاءَهُ الْحَقِيقِيِّينَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الطَّائِعُونَ لِلَّهِ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الدِّينِ، وَلَا مَاقَمَ ذَلِكَ الْبَيْتِ الْكَرِيمِ.

{وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَّاءٌ وَتَصْدِيَةٌ} وَمَا كَانَتْ صَلَاةُ الْمُشْرِكِينَ وَطَوَافُهُمْ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِلَّا مِنْ قَبِيلِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، فَكَانُوا يَطُوفُونَ رِجَالًا وَنِسَاءً عَرَاءَ يَصْفَرُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَصْفَقُونَ.

{فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} ذُوقُوا عَذَابَ الْقَتْلِ لِبَعْضِ كِبَرَاتِكُمْ وَالْأَسْرِ لِلْآخَرِينَ مِنْهُمْ، وَانْهَزَمَ الْبَاقِينَ مَدْحُورِينَ يَوْمَ بَدْرٍ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْآيَاتِ مِنْ رَقْمِ ٣٠ إِلَى ٣٦ مَكِّيَّةٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ سُورَةِ الْهَجْرَةِ وَمَا كَانَ يَجْرِي بِمَكَّةَ مِنْ أَعْمَالٍ

مشركي قريش، وهذا وهمٌ غير صحيح، اذ ان سورة الأنفال كلها مدنية، اما ما جاء في هذه الآيات فهو لتسليّة الرسول الكريم، وللعبرة والذكرى.

٨٠٩ 36

يركّمه: يجعل بعضه فوق بعضه.

لما اصبحت قريش يوم بدر، ورجع فلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بقافلته- مشى رجال أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له في تلك القافلة تجارة، قالوا: يا معشر قريش، إنّ محمداً قد رزأكم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا. ففعلوا، وجمعوا ما استطاعوا من المال، ومولوا به غزوة أحد فنزلت فيهم. إن هؤلاء الكفار الذي جحدوا آيات الله وأشركوا به، ينفقون أموالهم لمينعوا الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله. . انهم سينفقون هذه الأموال لتكون حسرة عليهم، ولن تفيدهم شيئاً، وسيُغلبون في ساحة القتال في الدنيا ثم يساقون يوم القيامة الى جهنم وستكون تلك هي الحسرة الكبرى لهم.

وليس ما حدث قبل بدرٍ وبعدها إلا أنموذجاً من الأسلوب التقليدي لأعداء هذا الدين وقد استمرّ العداء منذ فجر الدعوة ولا يزال، ومن الشرق والغرب، فلم يتركوا وسيلة إلا اتخذوها ليهاجموا الإسلام والمسلمين، والله سبحانه وتعالى حفظ هذا الدين، وسيُقيّبه عالياً إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

{لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} لقد كتب تعالى النصر لعبادة المتقين والخذلان والحسرة لمن يعاديهم من الكفار، ليميز الكفر من الايمان، والحق والعدل من الجور والطغيان، وليجعل الخبيث بعضه فوق بعض، ثم يجعل اصحابه في جهنم، وهم الخاسرون في الدنيا والآخرة. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «لَيَمِيزَ» بالتشديد والباقون لَيَمِيزَ كما هو في المصحف. {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} ان باب الرجاء مفتوح في الاسم دائماً، والفرصة أمامهم سانحة لينهوا عما هم فيه من الصّد عن سبيل الله، وليتوبوا ويرجعوا الى الله، والله واسع المغفرة يغفر ما سبق من اعمالهم، والاسلام يُحب ما قبله. أما اذا عادوا بد هذا البيان الى كفرهم، فإن سنة الله في الأولين قد مضت، وهي ان يعذب المكذّبين، ويهب اوليائه النصر والعزّ التزموا بأوامر الشرع. ويتجه الحديث الى المؤمنين:

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتِهَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} . استمروا أيها المؤمنون في قتال المشركين حتى تزول الفتنة في الدين، ويمتنعوا عن إفسادهم لعقائد المؤمنين بالاضطهاد والأذى، فإن رجعوا عن الكفر وخلص الدين لله، فإن الله تعالى عليمٌ بأعمالهم ومجازيهم على ما فعلوا. {وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ} .

وإن استمروا على إعراضهم وإيذائهم للمؤمنين بعد بيان الرسول فاثبتوا لهم أيها المسلمون، واعلموا أنكم في ولاية الله، وهو ناصرٌكم عليهم، وحافظكم منهم، وهو خير الحافظين.

وما غلب المسلمون في هذه الأيام وذهبت أرضهم إلا لنهم تركوا الاهتداء بهدي دينهم، وتركوا الاستعداد المادي والحربي الذي طلبه بقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠] وتفرّقوا دولاً كثيرة فذهبت ریحهم وقتلت هيبتهم وغلبوا على أمرهم. نسأل الله تعالى ان يوفقنا جميعاً الى ما يحبه ويرضاه، ويجمع شتاتنا على الخير والهدى فنعود صفّاً واحداً، ونعيد مقدّساتنا إلى حظيرة الإسلام، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الْغَنَمِ وَالْمَغَنَمِ وَالْغَنِيمَةِ: ما يناله الانسان في الحرب من أموال الأعداء. يوم الفرقان: يوم بدر. اعملوا ايها المؤمنون ان حُكِمَ كل ما غنمتموه من الاعداء المحاربين ان يُقسم خمسة انحاس: خمس منها لله وللرسول ولقرباته، واليتامى، وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم وهم فقراء، والمساكين، وهم ذوو الحاجة من المسلمين، وابن السبيل، وهم المنقطع في سفره ويُنفق من هذا المخصص لله وللرسول في المصالح العامة التي يقررها الرسول في حياته، ويقررها الإمام بعد وفاته، وباقي الخمس يصرف للمذكورين آنفاً. واما الانحاس الاربعة الباقية من الغنيمة، فهي للمقاتلين.

وقرابة النبي عليه الصلاة والسلام هم بنو هاشم وبنو المطلب، دون بني عبد شمس ونوفل. روى البخاري عن مطعم بن جبير (من بني نوفل) قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان (من بين عبد شمس) الى الرسول فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب وتركنا، ونحن وهم بمنزلة واحدة، فقال الرسول الكريم: (إنما بنو المطلب وبنو هاشم واحد). والسر في هذا ان قريشاً لما حصرت بني هاشم في الشعب وقاطعتهم دخل معهم فيه بنو المطلب، ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل. والحكمة في تقسيم الخمس على هذا النحو، أن الدولة التي تدير سياسة الأمة لا بد لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة، كشعائر الدين والدفاع عن الأمة، وهو ما جعل لله في هذه الآية، ثم ان هناك نفقة رئيس حكومتها وهو سهم الرسول فيها، ثم لذوي القربى وذوي الحاجات من ضعفاء الأمة.

ولا يزال هذا الاعتبار معمولاً به في كثير من الدول مع اختلاف شئون المجتمع والمصالح العامة، فالمال الذي رُصد للمصالح العامة يدخل في موازنة الوزارات المختلفة ما بين مصروفات علنية وسريّة، ولا سيما الامور الحربية. وكذلك راتب رأس الدولة من ملك او رئيس جمهورية، منه ما هو خاص بشخصه، ومنه ما هو لأسرته وعياله. ومن موازنة الدولة ما يُبذل لإعانة، الجمعيات الخيرية والعلمية غيرها.

وعند الشيعة تفسيرٌ للغنيمة أعمُّ مما عند السنة، كما أنهم اختلفوا عنهم في تقسيم الخمس، فقالوا: يُقسم الخمس الى قسمين: الاول منها ثلاثة اسهم: سهم لله، وسهم لرسوله، وسهم لذوي قرباه. وما كان لله فهو للرسول، وما كان للرسول فهو لقرباته، ووليُّ القرابة بعد النبي هو الإمام المعصوم القائم مقام النبي، فان وُجد أعطي له، وإلا وجب إنفاقه في المصالح الدينية، وأهمُّها الدعوة الى الإسلام، والعمل على نشره وإعرازه.

أما القسم الثاني فهو ثلاثة أسهم: سهم لأيتام آل محمد، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء السبيل خاصة، لا يشاركهم فيه أحد لأن الله حرّم عليهم الصدقات فعوضهم عنها بالخمسة.

فاعلموا ذلك أيها المسلمون، واعملوا به كنتم آمنتم بالله حقاً، وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا محمد يوم الفرقان من آيات التثبيت والمدد، وهو اليوم الذي التقى فيه جمعكم وجمع الكافرين ببدر.

{والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ومن عظيم قدرته ان نصركم على قتلكم وضعفكم، وخذل الكافرين مع كثرتهم.

العدوة: جانب الوادي ويجوز في العين الفتح والضم والكسر. القُصوى: مؤنث الأقصى ومعناها البعيدة. البينة: الحجة الظاهرة. ذات الصدور: ما يدور في النفس من افكار.

اذكروا حين كنتم في موقعة بدر بالجانب الأقرب الى المدينة، وكفار قريش في أبعد الجانين، والقافلة التي خرجتم تطلبونها أقرب إليكم مما يلي البحر، ولو تواعدتم على التلاقي للقتال لما اتفقتم عليه، ولكن الله دبّر تلاقىكم على غير موعد، لينفذ أمراً كان ثابتاً في علمه انه واقع لا محالة، وهو القتال المؤدي الى نصركم وهزيمتهم.

{لَيْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ} ليلتك الهالكون من كفر قريش عن حجة ظاهرة، وهي هزيمة الكثرة الكافرة ويحيا المؤمنون من حجة بينة، وهي نصر الله للقلة المؤمنة، إن الله لسميع عليم لا يخفى عليه شيء من أقوال الفريقين ولا نيّاتهم.

قراءات: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «بالعدوة» بكسر العين والباقون بالضم.

اذكر أيها الرسول حين تفضل الله عليك، فأراك في منامك جيش الأعداء في قلة. كان ذلك ليظمتكم أنكم ستغلبونهم، فثبتوا أمام جمعهم حين يلتقون، ولو ترككم ترونها كثيراً، دون أن يثبتكم بهذه الرؤيا - لخفتم منهم ولترددتم في قتالهم. ولكن الله سلم أصحابك يا محمد من ذلك ونجّاهم من عواقبه، إنه عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به فيحجم أصحابها عن القتال. اذكر أيها الرسول أيضاً كيف كان الله يريكم أعداءكم قلة عند التلاقي ليشد من عزمكم، وتقاتلوهم بجرأة وثبات، كما يظهركم في أعينهم قلة، زيادة في الغرور بكثرتهم حتى قال أبو جهل: غنما أصحاب محمد أكلة جزور، يعني يكفيهم جزور واحد لقلّتهم. وذلك ليتم أمر الله، وكان لا بد أن يتم. وإلى الله ترجع الأمور كلها فلا ينفذ إلا ما قضاه وهياً أسباب بعدله وحكمته.

٨٠١٢ 45

تفشلوا: تجبنوا وتضعفوا. تذهب ريحكم: تذهب قوتكم وهيبتكم. البطر: إظهار الفخر، والطغيان في النعمة. رياء: نكص: جرع، تولى إلى الوراء. الذين في قلوبهم مرض: ضعاف الإيمان.

هذا هو النداء السادس: يؤكد ما تضمنته النداءات السابقة من مبادئ وأسسٍ ضرورية للحصول على النصر، وفيه يأمر الله المؤمنين بالتزام الفضائل والاخلاق التي لا بد من التحلي بها ساعة اللقاء في الحرب.

وأولها الثبات أمام الأعداء، ثم ذكر الله بالقلب واللسان، واستحضار ثم طاعة الله والرسول، فكل مخالفة تؤخر النصر، وفتتح ثغرة للعدو. ثم يؤكد ذلك كله بتحذير يسد به نافذة خطر يهب منها الفساد، هي نافذة التنازع والاختلاف فيما بينهم، مما يؤدي إلى الفشل وذهاب القوة هذه قاعدة مطردة من قواعد الاجتماع، وسنة ثابتة من سنن الله. وهذا ما هو حاصل في مجتمعنا العربي، وهو داؤنا الذي يفتت قوانا ويجعل العدو يعيش ويتوسع.

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة من أعدائكم فاثبتوا، وأكثرُوا من ذكر الله مستحضرين عظمتهم وحسن وعده بنصركم. إن الثبات وذكر الله هما وسيلتان من وسائل الفوز والنصر.

وأطيعوا الله ورسوله فيما أمرتم به أو نهيتهم عنه، وتجنبوا التنازع والاختلاف فيما بينكم، فإن ذلك من أكبر أسباب الفشل والخيبة. واصبروا على الشدائد وما تلقون من مكاره الحرب من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده، فإن الله مع الصابرين يمدّهم بالعون والتأييد.

• • • ومن كان الله معه غالب له.

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ} ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة مغرورين بطرين، متظاهرين أمام الناس رياء يريدون الثناء عليهم بالشجاعة.

{وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} والله عليم بما جاءوا من أجله، عالم بأعمالهم، وسوف يجازيهم عليها في الدنيا والآخرة. {وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ} اذكر أيها الرسول للمؤمنين كيف زين الشيطان

لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته، قائلاً لهم إنه لا أحد من الناس يغلبهم، لأنه هو مجير لهم، فلها تقابل الفريقان في الحرب نكص على عقبيه وهرب وتبرأ منهم. لقد خاف أن يهلكه الله، والله شديد العقاب على الذنوب.

{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ} اذكر يا محمد ماذا كان يقول المنافقون من الكفار، وضعفاء الإيمان عند

رؤيتكم في إقدامكم وثباتكم: لقد غرَّ هؤلاء المسلمين دينهم.
 {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ومن يكل أمر إلى الله ويؤمن إيماناً خالصاً فإن الله يكفيه ما أهمه، ويصره على أعدائه، فهو العزيز الغالب، والحكيم الذي يضع كل امر في موضعه.

٨٠١٣ 50

أدبارهم: ظهورهم. عذاب الحريق: عذاب النار في الآخرة كدأب: كعادة.

بعد ان بين الله تعالى حال هؤلاء الكفار في خروجهم إلى قتال المؤمنين بطراً ورياءً، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم - قفى على ذلك بذكر أحوالهم حين موتهم وبيان العذاب الذي ينالونه عندئذ ثم ذكر ان الملائكة تأخذ الذين كفروا بالتعذيب والتأنيب حين يقبضون ارواحهم بصورة منكرة، ويؤذونهم أذى مهيناً، جزاء على البطر والاستكبار. ويذكر في اثناء هذا العرض ان أخذ الكفار بتكذيبهم سنة ماضية. وانه كذلك أخذ فرعون.

ولو ترى ايها الرسول ذلك الهول الخطير ينزل بهؤلاء الكفار حين نتوفاهم الملائكة لرأيتهم يضربون وجوههم وظهورهم، ويقولون لم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

قراءاتك

قرأ ابن عامر: «اذ تَتَوَفَّى» بتائين. والباقون: «تَتَوَفَّى» بالياء.

ان الله لا يظلم أحداً من عباده، فلا يعذب الا بما عمل من سوء.

{كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ} .

ان الله تعالى لا يترك الناس سدى، وانما هي سنته يمضي بها قدره، وليس فعل هؤلاء المشركين من قريش الذين قُلتوا ببدر وما أصابهم الا ما يصيب المشركين في كل زمان. لقد اصاب مثله آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الخالية، وقد آتاهم الله من نعمته، وزرقهم من فضله، ومكن لهم في الأرض، وجعلهم خلائف فيها، فطغوا وبغوا وتجبروا، وجاءتهم آيات الله فكفروا بها، فحقت عليهم كلمة ربك، وأخذهم بالعذاب.

{إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} لا يغلبه غالب، شديد المجازاة لمن يستحقه عقابه.

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ان الله تعالى يقول: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي انما هي اعمالكم أحصيا لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه» والحديث طويل نفيس.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} .

ذلك، أي الذي ذكر من أخذه لقريش بكفرهم بنعم الله لقد كذبوا رسوله وخرجوه من دياره وحاربوه، ففعل الله بهم كما فعل بالأمم من قبلهم ولقد جرت سنة الله ان لا يغير نعمة أنعمها على قوم، كنعمة الامن والرخاء والعافية، حتى يغيروا ما بأنفسهم. وهذا عدل في الجزاء.

{وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} سميع لما يقولون عليم بما يفعلون.

{كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ} .

هنا كرر قضية آل فرعون فقد كانت المرة الأولى لبيان كفرهم فأخذهم بالعذاب، اما الثانية فهي أن حال هؤلاء كحال آل فرعون والذين من قبلهم في تغيير النعم.

وكما أن دأب هؤلاء الكفار في الإنكار لآيات الله ونعمه كدأب آل فرعون والذين من قبلهم - فان دأبهم ايضا الاستمرار على لا تكذيب

برسله، مثل آل فرعون والذين من قبلهم - من ثم كان الشبه بينهم في الكفر بالآيات ووجود رسالة الرسل، وفي الاستمرار على ذلك. لهذا أخذ الله الجميع بذنوبهم: أولئك بالصواعق والرياح ونحوها، وآل فرعون بالغرق، وكلهم كانوا ظالمين، فاستحقوا ما نزل بهم من العقاب.

٨٠١٤ 55

الدواب: كل ما دبّ على وجه الأرض، وغلب على ذوات الأربع من الحيوان، وشبه الله تعالى الكواب. فاما تثقفنهم: تدرّكهم وتظفر بهم فشرّد بهم. ابعدهم ونكل بهم. من خلفهم: كفار مكة واعوانهم من مشركي القبائل الموالية لهم. النبذ: الطرح. رباط الخيل: حبسها على الجهاد واقتناؤها. جنحوا: مالوا. السلم: بفتح السين وكسرهما، ضد الحرب.

لما قدم النبي ﷺ الى المدينة صار الكفار معه أقساماً ثلاثة: قسماً صالحهم ووادعهم على ان لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنوا على دماءهم واموالهم وقسماً حاربوه ونصبوا له العداوة. وقسماً تركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول اليه أمره وأمر اعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب انتصار الرسول في الباطن، ومنهم من كان يحب انتصار المشركين، ومنهم من دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين. هؤلاء هم المنافقون وقد عامل الرسول كما ظانفة من هذه الطوائف بما أمره به الله. وكان من بين من صالحهم ووادعهم طوائف اليهود الثلاث المقيمين حول المدينة، وهم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. كما كان من بينهم قبائل من المشركين مجاورة للمدينة.

وقد ورت روايات متعددة في المقصودين بهذا النص، قيل: انهم بنو قريظة، وقيل: انهم بنو النضير، وقيل: انهم بنو قينقاع، وقيل: انهم الاعتراب الذين كانوا حول المدينة من المشركين. وقد نقض اليهود عهودهم مع رسول الله اكثر من مرة، كما تكرر نقض المشركين من العرب لعهودهم. والمهم ان نعلم ان هذه النصوص تتحدث عن حالة واقعة قبل بدرٍ وبعدها.

{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ان شر ما يدبّ على وجه الارض عند الله في حكمه وعدله هم الكفار المصرون على كفرهم، الذي عقدت معهم العهود والمواثيق، ولا يزالون ينقضونها مرة بعد مرة. وقد تكرر ذلك من اليهود، فقد روي عن ابن عباس ان المقصودين بنو قريظة. . . نقضوا عهد رسول الله، وأعانوا عليه بالسلاح في يوم بدر، ثم قالوا نسينا وأخطأنا. فعاهدتهم مرة ثانية فنقضوا العهد ومالوا الكفار على رسول الله يوم الخندق. وقد ركب زعيمهم كعب بن الاشرف الى مكة فخالقهم على محاربة النبي ﷺ. . . . وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ} اي لا يتقون الله في نقض العهد، ولا يردعهم عن ذلك خوف من نقمته وعذابه. وبعد ان بين تعالى انهم قد تكرر منهم نقض العهد، ذكر ما يجب ان يعاملوا به قال:

{فَمَا تَتَّقُنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فُشِّرْدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ} فإن تدرّك أيها الرسول، هؤلاء الناقضين لعهدهم في الحرب ظافر بهم، فنكل بهم تنكيلاً يسوؤهم ويخيف من وراءهم من الأعداء، {لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ} لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون ذلك النكال فيمنعهم من نقض العهد والقتال.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} ان الخيانة مبغوضة بجميع ضروبها، فأبعدوا عنها ايها المؤمنون.

روى البيهقي ان النبي ﷺ قال: «ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء، من عاهدته فوفّ بعهدته، مسلماً كان او كافراً، فإنما العهد لله. ومن كانت بينك وبينه رحمة فصلها، مسلماً كان او كافراً. ومن أئتمك على أمانة فأدّاها اليه، مسلماً كان او كافراً» .

وبعد هذا أنذر الله أولئك الخائنين مما سيحلّ بهم من عقاب فقال:

{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ} ولا يظن الذين كفروا انهم قد نجوا من جزاء خيانتهم وغدرهم، فهم لا يعجزون الله ولن يعجزوه، ولا يفوقونه في مكرهم أبداً، بل هو القادر وحده، وسيجزئهم بقوته وعدله. قراءات:

قرأ ابن عامر وحزمة وحفص: «ولا يحسن» بالياء والباقون: «ولا تحسن» بالتاء، وقرأ ابن عامر «أنهم لا يعجزون» بفتح الهمزة، والباقون بكسرها.

بعد ذلك بين الله تعالى ان الاستعداد بما فيه القدرة والطاقة فريضة تصاحب فريضة الجهاد، والاستعداد انفى للاعتداء. {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} أعدوا يا معشر المسلمين لمواجهة أعدائكم ما استطعتم من قوة حربية شاملة لجميع عتاد القتال، ومن المرباطين في الثغور وأطراف البلاد بخيلهم، لتخيفوا بكل ذلك عدو الله وعدوكم من الكفار المتربصين. {وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} وليخيفوا أيضا آخرين غير هؤلاء الأعداء، أنتم لا تعلمونهم الآن لكن الله يعلمهم، لأنه لا يخفى عليه شيء.

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} ان الله يجزيكم جزاء وافيا، عن كل ما انفقتم من شيء في سبيل إعداد القوة قاصدين به وجه الله، دون ان ينقصكم مثقال ذرة مما تستحقون.

{وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا. . .} وإن مال الأعداء المحاربون الى السلم، فاجنح لها أيها الرسول، فليست الحرب غرضاً مقصوداً لذاته عندك، إنما تقع دفعا لعدوانهم وتحذيم لدعوتك، فاقبل السلم وتوكل على الله، ولا تخف كيدهم ومكرهم انه سبحانه هو السميع لما يتشاورون به، العليم بما يدبرون ويأتمرون.

قراءات:

قرأ ابو بكر: «للسلم» بكسر السين، والباقون بفتحها والمعنى واحد.

{وَأِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ} .

وإن أراد من تظاهروهم بالجنوح الى السلم الخداع بك، فان الله يكفيكم امرهم من كل وجه. وقد سبق له أن آتاك بنصره، حين هيأ لك من الاسباب الظاهرة والخفية ما ثبت به قلوب المؤمنين من المهاجرين والانصار، وجعلهم أمة واحدة متآلفة متعاونة على نصر الله ورسوله.

{وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

ان الله تعالى جمع بينهم على المحبة والإيمان بك، بعد التفرق والتعادي (دامت الحرب بين الأوس والخزرج سنين عديدة، وكذلك بين مختلف قبائل العرب) فأصبحوا ملتفين حولك، باذلين اموالهم وارواحهم في سبيل دعوتك. ولو انفقت جميع ما في الارض من الاموال والمنافع، في سبيل هذا التآليف بين قلوبهم، لما أمكنك ان تصل اليه، لكن الله آلف بينهم، بقدرته، انه تعالى قوي غالب يدير امر العباد على مقتضى ما ينفعهم.

٨٠١٥ 64

حسبك: كافيك، ما يهكم التحريض: الحث على الشيء. التخفيف: رفع المشقة الضعف: بالفتح والضم، ضد القوة.

يا أيها النبي إن الله كافٍ كل ما يهكم من أمر الأعداء، متكفل بك ومن اتبعك من المؤمنين.

فشجشع المؤمنين على القتال لاعلاء كلمة الله، ورغبهم فيما وراء ذلك من خير الدنيا والآخرة. واعلم يا محمد أنه إن يوجد منكم عشرون معتمصون بالإيمان والصبر يغلبوا مئتين من الذين كفروا بذلك بأن الكافرين لا يدركون حقائق الأمور، فليس لهم إيمان ولا صبر ولا مطمع في ثواب.

{الْآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} .

ان واجبكم أيها المؤمنون ان تصبروا على ملاقات أعدائكم ولو كانوا عشرة أمثالكم، لكن الله قد خفف عنكم الآن فجعل عليكم ان تصبروا امان مثليكم فقط، لعله ان فيكم ضعفاً يقتضياتيسير عليكم والترخيص لكم، فان يكن منكم مئة مجاهد صابر يغلبوا مئتين من الكفار، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين بارادة الله ومعونته، والله مع الصابرين.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: «ان تكن» بالتاء في الآيتين. وقرأ عاصم وحزمة: «ضعفاً» بفتح الضاد والباقون: «ضعفاً» بضمها.

٨٠١٦ 67

أسرى: جمع أسر وهو كل من يؤخذ من المحاربين. الإثخان: الشدة حتى يثخن في الأرض: يكثر القتال ويبالغ فيه. عرض الدنيا: حطام الدنيا وما فيها من زخارف مسكم: اصابكم.

لا يسوغ لأحد من الانبياء ان يكون له أسرى يحتجزهم، أو يأخذ منهم الفداء، او يمن عليهم بالعفو، حتى يتغلب على أعدائه، ويكثر القتل والجراح فيهم، فلا يستطيعوا قتالا بعد ذلك، ولكنكم أيها المؤمنون سارعتم في غزوة بدر الا اتخاذ الأسرى قبل التكن في الارض تريدون منافع الدنيا وحطامها، والله يريد لكم الآخرة.

{والله عزيز حكيم} عزيز يهب العزة للمؤمنين وإن لم يكن لهم أسرى، وهو حكيم في تدبيره وأمره ونهيه.

قراءات:

قرأ أهل البصرة «ان تكون» بالتاء.

روى الإمام أحمد عن أنس قال: «استشار النبي ﷺ في الاسارى يوم بدر فقال: ان الله مكّنكم منهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي، ثم عاد رسول الله لمقاتلته، إنما هم إخوانكم بالأمس وعاد عمر لمقاتلته، فأعرض عنه فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى ان تعفو عنهم، وان نقبل منهم الفداء؟ قال: فذهب عن وجه رسول الله ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء».

وفي رواية ابن عباس عن عمر زيادة هي: فلما كان الغد جئت، فإذا رسول الله وأبو بكر يبكيان فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي انت وصاحبك. . . فقال رسول الله ﷺ: «أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة». . . فأنزل الله ﷻ «وما كان لنبي. . .» الآية.

{لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} لولا حكم سابق من الله بالعفو عن المجتهد المخطيء لأصابكم فيما أخذتم من الفداء عذاب كبير بسبب ما تعجلتم به.

بعد ان عاتبهم الله على اخذ الفداء أباح لهم أكل ما أخذوه، وعده من جملة الغنائم التي أباحها لهم في اول السورة فقال:

{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} كلوا مما غنمتم من الفداء حلالا لكم طيبا في نفسه لا خبث فيه، واتقوا الله ما كل أموركم، انه غفور لذنبكم السابق حين أخذتم الفداء.

ثم يخاطب الاسرى بكلام رقيق يحیی فيهم الرجاء، ويشیع فيهم النور، ويؤملهم بحياة أكرم مما كانوا فيه، وكسب أطيب مما فقوا من مال وديار، وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَّعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} يا أيها النبي قل للأسرى الذين اخذتم منهم الفداء: ان يكن في قلوبكم خير يعلمه الله فسيخلف لكم خيراً مما أخذه المؤمنون منكم ويغفر لكم ما كان من الشرك والسيئات.

ان الله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه، رحيم بالمؤمنين يشملهم بعنايته وتوفيقه.

قراءات:

قرأ أبو عمرو: «من الأسارى» والباقون: «من الأسرى» .

وفي الوقت الذي يفتح الله للأسارى باب الرجاء، يحذرهم خيانة الرسول - ﷺ - كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير.

{وَأِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} .

وان يردوا خيانتك بما يظهر بعضهم من الميل الى الاسلام مع انطواء صدورهم على قصد مخادعتك بهذا الميل فلا تبتئس، فقد خانوا الله من قبل باتخاذ الأنداد والشركاء لله والكفر بنعمته، فامكن منهم اذ نصرك في بدر مع قلة عددكم وعددكم، وكثرتهم، والله قوي غالب متصرف بحكمته، يعلم ما يتونه وما يستحقونه من عقاب.

٨٠١٧ 72

الهجرة: مفارقة بلدٍ الى غيره، فان كانت قُرْبَةً إلى الله فهي الهجرة الشرعية. آواه: اسكنه.

قسم الله المؤمنين أربعة أقسام وبين حكم كل منها ومنزلته من بينها:

١- المهاجرون الاولون اصحاب الهجرة الاولى قبل غزوة بدر الى صلح الحديبية.

٢- الانصار الذين كانوا بالمدينة وآووا النبي عليه الصلاة والسلام والمهاجرين من اصحابه عند الهجرة.

٣- المؤمنون الذين لم يهجروا.

٤- المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحبيبية.

١- {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هَؤُلَاءِ هُمُ الْكَمَلَةُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ فِرَاراً بِدِينِهِمْ مِنْ فِتْنَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِرضَاءَ لِرَبِّهِمْ وَنَصراً لِرَسُولِهِ، ثُمَّ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

٢- {وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا} والآنصار من اهل المدينة الذي آووا الرسول الكريم ومن هاجر من اصحابه ونصروهم، وأمنوهم من المخاوف، وشاركوهم في أُمالهم حتى لا آثروهم على انفسهم - فحكمهم حكم المهاجرين الاولين {أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} بعضهم نصراء بعض في تأييد الحق وإعلاء كلمة الله على الحق.

٣- {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا} والذين لم يهاجروا من المؤمنين، لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين ونصرتهم، اذ لا سبيل إلى ولايتهم حتى يهاجروا.

{وَأِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} وان طلبوا منكم النصر على من اضطهدوهم في الدين، فانصروهم، فإن طلبوا النصر على قوم معاهدين لكم، لم ينقضو الميثاق معكم فلا تجيئوهم.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} لا يخفى عليه شيء.

قراءات:

قرأ حمزة: «ولايتهم» بكسر الواو، والباقون بفتحها.

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سراً وجهراً امتازت الشريعة الاسلامية على غيرها، فشعار أهل الإسلام الوفاء بالعهود، والبعد عن الخيانة والغدر.

{(*)} والذين كفروا بعضهم أولياء بعض {إن الكفار على اختلاف شيعتهم يوالي بعضاً وينصره ضد الاسلام. قد كان اليهود والمنافقون ومشركو العرب كتلة واحدة متفين على محاربة الاسلام والمسلمين. وهذا ما يحصل اليوم. . . جاء اليهود الى بلادنا واحتلوا قسماً منها بمساعدة النصارى في جميع أقطار الارض، وقد اتفق على ذلك جميع الأوروبيين والأمريكان، كلهم مجتمعون متفقون على حماية اليهود ومساعدتهم ضد الإسلام والمسلمين.

{إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض، يقع من المفتنة والفساد ما فيه أعظم الضرر عليكم، يتخاذلكم الذي يُفضي الى ظفر الاعداء بكم وسلبكم بلادكم. وهذا ما هو حاصل اليوم من تكلم الأعداء ضدنا، ونحن متمزقون في عدة دول وامارات، يحارب بعضنا بعضاً والعدو يسرح ويرتع في بلادنا.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} .

يبين الله تعالى في هذه الآية ميزة المهاجرين والانصار وفضلهم على غيرهم، ويذكر ان هؤلاء المهاجرين وانصارهم هم المؤمنون حق الايمان وأكله، فلهم مغفرة تامة من ربهم ورزق كريم في الدنيا والآخرة.

٤- {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} .

والذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الاولى، لكنهم هاجروا وجاهدوا معكم اعداءكم لاحقاً، فأولئك منكم أيها المهاجرون والانصار، لهم من الولاية والحقوق ما لبعضكم على بعض، وفي هذا دليل على فضل السابقين على اللاحقين كما جاء في قوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى} سورة الحديد.

{وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} وذوو القرابة من المؤمنون أولى من غيرهم بالبر من المؤمنون أولى من غيرهم بالبر والنصر والإحسان كما جاء في كتاب الله الكريم، فاتبعوه وتقيدوا به. فهو سبحانه إنما شرع لنا هذه الاحكام في الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق وصلة الأرحام وغير ذلك من التشريع، وهو على علم واسع محيط بكل شيء.

وقد استدلت الشيعة بهذه الآية على ان من كان أقرب إلى الميت نسباً فهو أولى بميراثه من الأبعد، فبنت الميت تحجب أخاه عن الإرث لأنها اقرب منه إلى الميت، واخته تحجب عمه لنفس السبب. وهكذا يحجب عندهم الأقرب الأبعد من جميع المراتب.

٩ التوبة

٩٠١ 1

براءة: إغذار وإنذار بانقطاع العصمة. فسيحوا في الارض: تجولوا فيها وتنقلوا. مخزي الكافرين: مذهم وأذان من الله: إعلام منه تعالى ومن رسوله ببراءتها من المشركين. لم ينقصوكم شيئاً: لم يخلوا في شروط المعاهدة. ولم يظاهروا عليكم: لم يعاونوا احداً عليكم. لقد دلت تجربة الرسول الكريم واصحابه مع المشركين في جميع انحاء الجزيرة العربية انه هؤلاء لا أمان لهم ولا عهود، ولا يؤمن غدوهم في حالتي القوة والضعف، بل لا يستطيع المسلمون ان يعيشوا على اسس المعاهدات ما داموا على شركهم. فجاءت هذه السورة تأمر المسلمين بنقض عهود المشركين المطلقة، وتمام عهودهم المؤقتة لمن استقام. وهكذا حاربهم النبي ﷺ حتى محا الشرك من جزيرة العرب ودانت كلها للاسلام.

وقد زاد اقبال العرب على الاسم بعد الحجّة التي حجّها أبو بكر سنة تسع للهجرة، وفي هذه الحجّة أرسل النبي ﷺ علي بن ابي طالب ليلحق بأبي بكر، ويتلو على الناس قرآناً. فكان فصلاً بين عهدين: عهد كان الإسلام يقوى فيه شيئاً فشيئاً، لكن مع بقاء الشرك في بعض القبائل، وعهد آخر خلصت فيه الجزيرة كلها للاسلام. والقرآن - الذي تلاه علي بن ابي طالب - وفرّق الله به بين هذين العهدين - هو هذه الآيات الكريمة من سورة التوبة.

{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .

هذه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم أيها المسلمون من المشركين، فيها إنذار بقطع تلك المعاهدات.

{فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} .

قولوا أيها المسلمون: سيروا في الأرض وانتم آمنون لا يتعرضون لكم أحد من المسلمين بقتال مدة أربعة أشهر، تبتدئ من عاشر ذي الحجة من سنة تسع للهجرة (وهو يوم النحر الذي بلغوا فيه هذه الدعوة) ، وتنتهي في العاشر من شهر ربيع الآخر من سنة عشر. انتقلوا طوال هذه المدة حيث شئتم، وانتم تفكرون في عاقبة أمركم، ثم تخيروا بين الاسلام والاستعداد للقتال، واعلموا انكم لن تعجزوا الله اذا أصرتم على شرككم، بل سيسلط عليكم المؤمنين ويؤيدهم بنصره الذي وعدهم به. والعاقبة للمتقين.

{وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} هذا بلاغ من الله ورسوله إلى الناس كافة، في اجتماعهم يوم النحر من الحج الأكبر، يصرح بالبراءة من عهود المشركين.

{فَإِنْ تَبِمَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} .

فيا أيها المشركون الناقضون للعهد: إن تبتم ورجعتم عن شرككم بالله، وعن خيانتكم وغدركم، كان ذلك خيراً لكم في الدنيا والآخرة، أما ان بقيتم على ما أنتم عليه، فاعلموا انكم لن تفلتوا من سلطان الله ولا من وعده لرسوله وللمؤمنين بالنصر عليكم. {وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} .

وبشر أيها الرسول الكريم جميع الكافرين بعذاب أليم في الآخرة.

{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ} .

أما من عاهدتم من المشركين، لحفظوا على عهودكم ولم يخلوا بشيء منها، ولم يعينوا عليكم أحداً - فأوفوا لهم عهدهم إلى نهايته واحترموه {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} الذين يحافظون على عهودهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقوداً وتصريح بأن العهد المؤقت لا يجوز نقضه الا بانتهاء وقته، هذا اذا حافظ العدو المعاهد على ذلك العهد، فان نقض شيئاً منه اعتبر ناقضاً كما قال تعالى {ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا} .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: ان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره ان يؤذن ببراءة، عين يتلوها على الناس.

٩٠٢ 5

فاذا انسلخ: اذا انقضت وانتهت. الاشهر الحرم: هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والحرم. حرم الله فهي القتال احصروهم: حبسهم امنعهم من الخروج. المرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو. استجار: طلب الامان والحماية. أجره أمنه. مأمنه: مسكنه الذي يأمن فيه إلاك جواراً او قرابة.

بعد تقريراً لحكم براءة الله ورسوله من المشركين، مع استثناء الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً ولم يظهروا عليهم أحداً - فقى على ذلك بذكر ما يجب ان يفعله المسلمون بعد انقضاء الأجل المضروب والامان الذي أعطي لهم.

فاذا انقضت الأشهر الاربعة التي حرم الله فيها قتال المشركين، فافعلوا كل ما ترونه موافقاً للمصلحة من تدابير الحرب وشؤونها. اقتلوا الناقضين للعهد في كل مكان، وخذوهم بالشدة، واضربوا عليهم الحصار بسد الطرق، واقعدوا لم في كل سبيل فإن تابوا عن الكفر، واسلموا والتزموا باحكام الاسلام - فلا سبيل لكم عليهم، لدخولهم في دين الله. ان الله تعالى يغفر لهم ما سبق من الشرك والضلال، فهو واسع الرحمة بعباده.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله، وان محمداً رسول الله، ويسيروا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام، وحسابهم

على الله» .

{وَأَنَّ أَحَدَ مَنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} .

وان طلب منك الأمان أيها الرسول، أحد من المشركين الذين أمرتم بقتلهم ليسمع دعوتك ويعلم ما أنزل الله، فأمنته حتى يسمع كلام الله، فان دخل في الاسلام فهو منكم، وإن لم يدخل فأبلغه مسكنه الذي يأمن فيه. وهذا الأمر بتأمين المستجدين من هؤلاء الناس حتى يسمع كلام الله إنما تبريره أنه جاهل للاسلام، وأمثاله قوم لا يدرون ما الكتاب ولا الايمان.

{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} .

انتهى في الآيات السابقة من تقرير الاحكام النهائية بين المسلمين والمشركين في الجزيرة، فأخذ في الآيات اللاحقة يقرر انه لا ينبغي ان يكون للمشركين عهد عند الله وسوله: كيف يكون هؤلاء الناقضين للعهد مرارا، عهد محترم؟ لا تأخذوا ايها المسلمون بعهدوهم الا لاذين عاهدتموهم منهم عند المسجد الحرام (مثل بني كنانة وبني ضمرة) لأنهم لم ينقضوا عهدهم الذي عاهدوا الرسول عليه يوم الحديبية، وهي قريبة من مكة، ولذلك قال تعالى: عند المسجد الحرام. فاستقيموا ايها المسلمون على عهد هؤلاء ما دأموا مستقيمين {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} الذين يخشون نقض العهد، فلا يفعلونه.

{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً} .

كيف تحافظون على عهدوهم، وهم قوم إن تمكنوا لم يدخروا جهدا فيا لقضاء عليكم، غير مراعين جواراً ولا قرابة ولا عهدا.

ثم بين الله ما تنطوي عليه نواياهم من الضغينة فقال:

{يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} .

انهم يخدعونكم بكلامهم المعسول، وقلوبهم منطوية كراهيتكم، وأكثرهم خارجون عن الحق ناقضون للعهد، فليس عندهم وفاء لكم ولا ود.

٩.٣ 9

يعود الله تعالى في هذه الآيات لاستنكار مبدأ التعاهد بأسبابه التاريخية والواقعية بعد ان استنكر بأسبابه العقيدية والايمانية، ويجمع بين هذه وتلك في هذه الآيات. فيقول عنهم انهم استبدلو بآيات الله عَرَضاً قليلا من حُطام الدنيا، وصدّوا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام ومنعوا الناس عن الدخول فيه {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ألا لقد قبح، علمهم هذا، من اشتراء الكفر بالايان، والضلالة بالهدى، ونكران ما جاء رسول الله به من البينات.

ثم إنهم لا يضرمون هذا الحقد لأشخاصكم فقط، بل يضمرونه لكل مؤمن، ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم، ولا يراعون فيكم عهداً.

{لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} .

من اجل هذا الكفر لا يحترمون لمؤمن قرابة ولا عهدا. ذلك ان سمة العدوان أصلية فيهم، فن شأنهم عدم التقيد بالعهد، بحكم عنادهم وكفرهم وكراهيتهم للايمان. ولا علاج هؤلاء أبداً الا إجبار على الرجوع عن الكفر، والاعتصام بالإيمان.

ثم بين الله كيف يقابل المؤمنون هذه الحال الواقعة من المشركين:

{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}

اذا رجع هؤلاء المشركون الذين أمرتم بقتلهم عن شرهم، والتزموا أحكام الاسلام باقامة الصلاة وايتاء الزكاة - فهم إخوانكم في

الدين، لهم ما لكم، والله يفصل هذه الأحكام ويبينها لمن يدركها ويدرك حكمتها من الذين يعلمون، وهم المؤمنون.

{وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} .

وان نكث هؤلاء ما أبرمته أيمانهم بالوفاء بالعهد الذي عقدوه معكم، وعابوا دينكم وصدّوا الناس عنه، فقاتلوهم، انهم أئمة الكفر، لأنهم لا عهد لم ولا ذمة، قاتلوهم رجاء ان ينتهوا عن الكفر ونقض الأيمان والعهود.

ومع ان هذه النصوص كانت في المشركين، زمن الرسول الكريم، فيه مستمرة مع أئمة الكفر في كل زمان ومكان. خذ اليهود اليوم، إنهم هم المعتدون، تساندتهم قوى الغرب المستبدّة الآئمة، وكلهم اعداء الانسانية والاسلام، فعلينا ان نصحو من سابتنا، ونستعدّ، واكبر سلاح لنا هو الايمان بالله وبقضيّتنا العادلة واتحادنا.

ثم اعاد الله الكرّة بإقامة الأدلة على وجوب قتال الناكثين للعهد المعتدين:

{أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟} .

قاتلوا هؤلاء المشركين لأسباب ثلاثة.

اولا: أنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه يوم صلح الحديبية.

ثانيا: أنهم همّوا بإخراج الرسول الكريم من مكة، وأرادوا قتله بأيدي عصابة من بطون قريش ليتفرق دمه في القبائل فتتعدّر المطالبة به. ثالثا: أنهم بدأوا بقتال المؤمنين في بدر حين قالوا بعد العلم بنجاة قافلته: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه، وكذلك قاتلوكم في أحد والخندق وغيرهما.

{أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} .

بعد هذا كله، أتركون قتالهم خوفاً وجبناً منكم! ان الله أحمق ان تخشوا مخالفة امره وأن تخافوه ان كنتم صادقين في إيمانكم.

ثم يحرض الله المؤمنين على القتال بقوله:

{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} .

قاتلوهم ايها المؤمنون ولا تخافوا، ان الله سوف يعذبهم على أيديكم، ويذللهم بالأسر لكم، وسوف ينصرم عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد هذه، ويشفي صدور أناس منكم نالوا من أذاهم قدرا كبيرا لم تكونا تستطيعون دفعه. . . انه سوف يشفي تلك النفوس من غيظها المكظوم، بانتصار الحق كاملا، وهزيمة الباطل.

{وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ} .

بانتصاركم عليهم سيملا الله قلوب المؤمنين فرحا، ويذهب عنهم الغيظ الذي كان قد وقر فيها من غدر المشركين وظلمهم.

{وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} .

ويقبل الله توبة من يشاء منهم، وهو العليم بشؤون عباده، الحكيم فيما يشّر لهم من الاحكام.

٩٠٤ 16

الوليعة: بطانة الرجل، وخاصته. المسجد: مكان السجود، ثم اصر اسماً للبيت الذي يخصص لعبادة الله. ان يعمرؤا: يتعبدون فيه، وتطلق على العمارة والبناء والخدمة.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} .

أظنتم ان تتركوا وشأنكم بغير فتنة ولا امتحان، ولم يتبين الخلل منكم الذين لم يتخذوا لأنفسهم بطانة من المشركين، من المنافقين الذين يتقنون استخدام الأعذار، ويدورون من خلف الجماعة ليطلعوا الأعداء على الاسرار! لا تظنوا أيها المؤمنون ان يترككم الله تعالى دون اختبار لكم بالجهاد ونحوه، ليظهر المحسن منكم من المسيء، وتعرف المداخل، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته.

{وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} لا يخفى عليه شيء من أمركم، فهو محيط بكل شيء علما.

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } .

بعد ان فتح المسلمون مكة، وظهر الرسول المسجد الحرام مما كان فيه من الأصنام، بقي ان يطهره من العبادات الباطلة التي كان المشركون يقيمونها فيه. فأرسل علي بن أبي طالب وأمره ان يتلو على مسامع الحجاج أوائل سورة التوبة يوم الحج الأكبر الى مكة. وكان مما تضمنه هذا البلاغ العام ان يعلم اهل مكة المشركون ان عبادتهم الباطلة ستمنع من المسجد الحرام، بعد ذلك العام. وقد نادى علي ومن معه في يوم النحر بمضى: لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

لا يحق للمشركين ان يعمرُوا مساجد الله بالعبادة او الخدمة والولاية، ولا ان يزوروها حجاجاً أو متعمرين، ما داموا مستمرين على كفرهم. ولبس بعد الآن تردد في حرمانهم من زيارة البيت الحرام او عمارته، انما تكون عمارته بالعبادة الصحيحة حقاً خالصاً للمؤمنين بالله، القائمين بفرائضه.

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } .

اولئك المشركون لا اعتداد بأعمالهم، ولا ثواب لهم عليها، وهم مقيمون في دار العذاب إقامة خلود وبقاء، لكفرهم، وصددهم عن سبيل الله.

{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ } .

ان المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله وحده والإيمان باليوم الآخر، الذين أدوا الصلاة على وجهها، وأخرجوا الزكاة، ولم يخشوا الا الله وحده.

{ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } .

اولئك الذين آمنوا ايماناً خالصاً، وجمعوا بين الاركان الهامة من ركان الاسلام هم الذين يرجون ان يكونوا من المهتدين الى ما حيب الله ويرضيه. فالعبادة تعبير عن العقيدة، فاذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة. اما اداء الشعائر وعمارة المساجد فليست بشيء ما لم تعمّر القلوب بالاعتقاد الصحيح، والعمل الواقع الصريح.

٩٠٥ 19

سقاية الحاج: ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يقوم بها العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في الجاهلية وبقيت معه في الاسلام.

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . . . } .

هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية والسدانة، وهي حجابة البيت، فأعملهم الله أن الفخر الحقيقي إنما يكون في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله. وذلك بمعنى انه لا ينبغي ان تجعلوا اهل السقاية والعمارة في الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله، ان الفتنتين ليستا بمنزلة واحدة عند الله.

{ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } .

المشركين الذين لا يخلصون عقيدتهم من الشرك، ولو كانوا يعمرّون البيت ويسقون الحجاج.

ثم بين سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم المشركين الظالمين فقال:

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ } .

ان الذين صدّقوا بوحداية الله، وهاجروا من دار الكفر الى دار الإسلام، وتحملوا مشاق الجهاد في سبيل الله بأموالهم وانفسهم، هم اعظم منزلة وأعلى مقاماً في مراتب الفضل والكمال عند الله من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد بدون ايمان بالله.

{ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته.

ثم فصل الله تعالى ذلك الفوز العظيم وبينه فقال: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} . هؤلاء الذين جمعوا الصفات الحميدة يبشرهم الله تعالى برحمته الواسعة التي تشملهم، ورضوان كامل من لدنه، وهو أكبر جزاء. وسيدخلهم يوم القيامة جنات لهم فيها نعيم ثابت دائم. {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} .

لهؤلاء المؤمنين الذين تحملوا مشاق الهجرة والجهاد ثواب لا يقدر قدره الا الله الذي تفضل به.

٩.٦ 23

استحب: احب الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. موضعه. العشيرة: ذو القرابة الادنون، وقبيلة الرجل. قال تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] . اقترفتموها: اكتسبتموها. فتربصوا: انتظروا. امره: عقوبته. لما اعلن الله براءته وبراءة رسوله من المشركين واذنهم بنبد عهودهم، عز ذلك على بعض المسلمين وتبرمه ضعفاء الايمان، وكان اكثرهم من الطلقاء الذين اعتقهم النبي يوم فتح مكة. وكان موطن الضعف نصره القرابة وعصبية النسب. فجاء «الكتاب» هنا يجرد المشاعر والصلات في قلوب المؤمنين، ويخصها فيدعو الى تخليصها من وشائج القرابة والمصلحة. ثم إنه يجمع لذائد البشر، ووشائج الحياة فيضمها في كفة، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد في الكفة الاخرى ويدعو المسلمين للخيار. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ} .

يا أيها المؤمنون لا تتخذوا من آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وعشيرتكم وأزواجكم نصراء لكم ما داموا يحبون الكفر ويفضلونه على الايمان. {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .

ومن يتولهم ويستنصر بالكافرين فإنه من الظالمين الذين تجاوزوا الطريق المستقيم.

وبعد ان بين ما وصل اليه حالهم من الإخلال بالإيمان انتقل الى بيان سبب ذلك فقال:

{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ . . . الْآيَةَ} .

قل أيا الرسول للمؤمنين: إن كنتم تفضلون حظوظ وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال، والتجارة التي تخافون كسادها، والمساكن التي ترضونها، على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله الذي وعدتم عليه أنواع السعادة الابدية في الآخرة - فانتظروا حتى يأتي الله بحكمه فيكم وعقوبته لكم.

والخلاصة: ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله والرسول والجهاد في سبيل الله، فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بعقوبته من عنده.

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} الخارجين على حدود الدين.

قراءات:

قرأ أبو بكر: «وعشيرتكم» .

٩.٧ 25

مواطن: جمع موطن وهو مقر الانسان ومحل اقامته. والمراد هنا الاماكن التي نصروا فيها. حنين: واد بين مكة والطائف على ثلاثة اميال من الطائف. لم تغن عنكم شيئا: لم تنفع ولم تدفع عنكم شيئا. رحبت: اتسعت مدبرين: هارين. السكينة: الطمأنينة. {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} .

لقد نصركم الله أيها المؤمنون على أعدائكم في كثير من المواقع بقوة إيمانكم، وخالص نياتكم، لا بكثرة عددكم ولا بقوتكم. {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِيرِينَ} .

وحين غرّتكم كثرتكم في معركة حنين، ترككم الله لأنفسكم أول الأمر، فلم تنفعكم كثرتكم، شيئاً، ولشدة الخوف والفرع ضاقت عليكم الأرض على اتساعها، فلم تجدوا وسيلة للنجاة إلا الهرب والفرار من العدو، فولّيت منكم من المؤمنين.

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة فبعد ان فرغ النبي من فتح مكة، بلغه ان هوازن جمعوا له ليقاتلوه، كما انضم إليهم بنو ثقيف وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر، وبعض بني هلال، وanas من بني عمرو بن عامر، وكان اميرهم مالك بن عوف النضري. وكان عدد جيش المسلمين عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، مع ألفين من الذين أسلموا من أهل مكة. وكان عدد هوازن ومن معها أربعة آلاف مقاتل، ومعهم نساؤهم وولدانهم وجميع ما يملكون من شاء ونعم.

خرج الرسول الكريم بهذا الجيش في غلس الصبح، وانحدروا بوادي حنين. وكان جيش العود قد سبقهم الى احتلال مضايقه، وكمن لهم فيها وما إن وصل المسلمون قلب الوادي، حتى أمطروهم العدو بوابل من سهامه، واصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد. فكانت مفاجأة أذهلت المسلمين حتى فر معظمهم. وثبت رسول الله وهو راكب بغلته الشهباء وعمه العباس أخذ بركابها الأيمن، وابو سفيان بن الحارث ابن عمه أخذ بركابها الأيسر، ويحيط به أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب والفضل بن العباس، وإيمن بن أم يامن، ونوفل بن الحارث، والمغيرة بن الحارث، وربيعة بن الحارث. . وكلهم أبناء عم الرسول، واسامة بن زيد وغيرهم نحو مائة رجل، والنبي عليه الصلاة والسلام يدعو المسلمين الى الرجوع ويقول: «إي يا عباد الله، إني أنا رسول الله» ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» ثم امر العباس بن عبد المطلب، وكان جهير الصوت، أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها. فجعل العباس يناديهم، وتارة يقول يا أصحاب سورة البقرة. فصار الناس يقولون لبيك لبيك، وانعطفوا وتراجعوا الى رسول الله.

ولما تكامل جمعهم شدوا على الكفرة بقوة وصدق وحملوا عليهم فانهمز المشركون. واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون، وغنموا جميع ما معهم من نعيم ونساء وأطفال.

وهكذا التقى الفريقان: المؤمنون بكثرتهم وقد أعجبته، والمشركون بقلتهم العنيفة، وكان الجولة في بدء المعركة للمشركين، لغرور المسلمين وعدم احتياطهم. ولكن المعركة انتهت بنصر المؤمنين. والعبرة في هذه الغزوة أن الكثيرة العددية ليست عامل النصر، وإنما هو القوة المعنوية، والايان بالله والصدق والاخلاص في العمل.

{ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} .

ثم أدركتكم عناية الله، فأنزل الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنون فلا بها قلوبهم. كما أنزل مع السكينة جنوداً لم تروها بأبصاركم، فثبتت أقدامكم فانتصرتهم، وعذب الذين كفروا بالقتل والسبي والأسر. وقد أذاقهم الله مرارة الهزيمة، وذلك جزاء الكافرين في الدنيا، وجزاؤهم في الآخرة اعظم.

{ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

ثم يقبل الله توبة من يشاء من عباده فيغفر ذنبه، إذا رجع عنه مخلصاً، والله عظيم المغفرة واسع الرحمة، وباب الرحمة مفتوح دائماً لمن يخطئ ثم يتوب.

روى البخاري عن المسور بن مخرمة: «أن ناساً من هوازن جاءوا رسول الله وبايعوه على الاسلام وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس وأبر الناس، وقد سبي أهلونا واولادنا وأخذت أموالنا، فقال عليه الصلاة والسلام: اختروا إما ذرايكم ونساءكم، وإما أموالكم، قالوا

ما نعدل الأحساب شيئاً، فرد ذراريهم ونساءهم» .

٩٠٨ 28

النجس: القذر. ويكون حسيّاً، ومعنويّاً العيلة: الفقر والنجاسة هنا معنوية، فإن جسم الانسان لا ينجس مهما كانت عقيدته. في هذه الآية القول الفصل بشأن المشركين، وأنهم منوعون من دخول الحرم. يا أيها المؤمنون، إنما المشركون بسبب شركهم بالله وعبادة الاوثان، قد نجست نفوسهم، وهم ضالون في العقيدة، فلا تمكّنوهم من دخول المسجد الحرام بعد هذا العام. وبلاد الاسلام في حق الكفار اقسام ثلاثة:

١- الحرم: ولا يجوز لكافر ان يدخله، بذلك قال معظم الائمة، وقال ابو حنيفة: يجوز للمعاهد ان يدخل الحرم بإذن الخليفة او نائبه. ٢- الحجاز: يجوز للكافر دخولها بإذن، ولكنه لا يقيم فيها اكثر من ثلاثة ايام. ففي حديث مسلم عن ابن عمر انه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، فلا أترك فيها الا مسلماً» . وقد اخرج مالك في الموطأ «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» . وقد أجلهم عمر في خلافته.

٣- سائر بلاد الاسلام: ويجوز للكافر ان يقيم فيها بعهد وامان. {وَأِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ} .

وان خفتم فقراً بسبب انقطاع تجارتهم عنكم، فإن الله سوف يعوضكم عن هذا، ويغنيكم من فضله إن شاء، فهو المتكفل بأمر الرزق. وقد فتح الله عليهم الرزق من أبواب واسعة، فأسلم اهل اليمن وصاروا يجلبون الطعام. وأسلم أولئك المشركون، ولم يبق احد منهم يمنع من الحرم، ثم جاءتهم الثروة من كل جانب بما فتح الله عليهم من البلاد، فكثرت الغنائم وتوجه اليهم الناس من كل فج. {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} عليم بشئونكم، حكيم يدبر الأمر كله عن تقدير وحساب.

٩٠٩ 29

يدينون دين الحق: يعتنقون الاسلام. الجزية: الضريبة على الاشخاص لا على الأرض او التجارة او الماشية. وهم صاغرون: أذلاء، خاضعون عزيز: هو الذي يسميه اهل الكتاب عزرا. يضاؤون: يشابهون ويحاكون. يؤفكون: يصرفون عن الحق الى الباطل. الاحبار: واحداهم حبر بفتح الحاء وكسرها، العلماء. البرهان: واحداهم راهب وهو المنقطع للعبادة نور الله: دين الاسلام.

بعد ان ذكر الله تعالى أحكام المشركين في إظهار البراءة من عهودهم، وفي وجوب مقاتلتهم وإبعادهم عن المسجد - جاء هنا بحكم أهل الكتاب وبيان الغاية منه. وفي لك توطئة للكلام عن غزوة تبوك والخروج إليها في زمن العسرة وقت الحر الشديد في الصيف، وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين. ثم بعد ذلك بين انحراف اليهود والنصارى عن دينهم الاصلي، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم يسعون في إبطال الاسلام، وإخفاء الدلائل الدالة على صدق رسول الله وصحة دينه.

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} .

يا أيها الذين آمنوا: قاتلوا الكافرين من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله، ولا يقرّون بالبعث والجزاء إقراراً صحيحاً، بل يقولون إن حياة الآخرة حياة روحانية يكون فيها الناس كالملائكة. وهم لا يحرمون ما نهى الله ورسوله عنه، ولا يعتنقون الدين الحق وهو الاسلام. . . قاتلوهم حتى يؤمنوا، أو يؤدوهم الجزية خاضعين طائعين.

والجزية ضريبة مالية من أموال غير المسلمين المستظّلين براية الاسلام، وهي مقدار يتراوح بين اثني عشر درهماً، وثمانية واربعين. وذلك

ليُسبوا في مزاينة الدولة التي تحميهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. فهي في مقابل ما يؤخذ من المسلم، فالمسلم يُؤخذ منه خمس الغنائم، والزكاة، وصدقة الفطر، وغير ذلك مثل الكفارات للذنوب المختلفة. وتتفق الجزية في المصالح العامة، وعلى فقراء اهل الذمة ايضاً. وتفرض الجزية على أهل الكتاب، ولا تُفرض على المشركين. هكذا عند جمهور العلماء. ويقرر ابو حنيفة أنها تفرض على غير المسلمين جميعاً، اما المشركون الذين لا تقبل منهم فهم مشركو العرب فقط.

وفيما يلي عهد كتبه احد امراء عمر بن الخطاب الى مرزبان واهل دهستان.

«هذا كتاب سويد بن مقرن لمزبان بن صول بن رزبان واهل دهستان وسائر اهل جرجان ان لكم الذمة وعليكم المنعة، على ان عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معوته عوضاً عن جزائه، ولكن الامان على انفسكم واموالكم ومللكم وشرائعكم ولا يغير شيء من ذلك» .

شهد بذلك سواد بن قطبة، وهند بن عمر، وسمك بن مخزومة وعتيبة بن النحاس.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} .

ترك اليهود الوحدانية في عقيدتهم وقالوا: عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ، وترك النصارى الوحدانية كذلك فقالوا: المسيح ابن الله. وقولهم هذا مبتدع من عندهم، يردّدونه بأفواههم، لم يأتهم به كتاب ولا رسول، وليس عليه حجة ولا برهان. وهم في هذا القول يشابهون قول المشركين قبلهم.

عجبا لهم كيف يضلّون عن الحق الظاهر ويعدّلون الى الباطل! وقد تُستعمل جملة «قاتله الله» هذه بالمدح.

روى ابن اسحاق، وابن جرير وابن مَرْدَوَيْهِ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أتى رسول الله ﷺ بن مشكم ونعمان بن اوفى وابو انس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، وهم من رؤساء اليهود واحبارهم، فقالوا: كيف نتبعك وقد تكتّ قبلتنا، وانت لا تزعم ان عُزَيْراً ابن الله» .

وعُزَيْر هذا كاهن يهودي وكانت شهر سَكَنَ بابل حالي سنة ٤٥٧ ق. م. أسس الجمع الكبير، وجمع أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الأحرف الكلدانية عوضاً عن العبرية القديمة، وألف أسفار الأيام، وعزرا، ونحيا، وأحيا الشريعة اليهودية بعد ان نُسيت من أجل هذا فاليهود يقدّسونه حتى إن بعض يهود المدينة أطلق عليه لقب (ابن الله) .

وأما النصارى فقد كان القدماء منهم يَعمُنون بقولهم عن المسيح انه «ابن الله» انه المحبوب او المكرم، كما نقول نحن «الخلق عيال الله» وكان منهم موحدون. لكنهم في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وتحت إشراف الملك قسطنطين، قرروا عقيدة التثليث، واعتمدوا الأناجيل الاربعة، واحرقوا ما عداها وكانت تزيد على سبعين انجيلا. وقد خالف في ذلك خلق كثير منهم يُسمّون الموحدّين او العقلين لكن الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستنتية لا تعتدّ بنصرانيهم ولا بدينهم، مع ان رسالة المسيح ثابتة في اناجيلهم. ففي انجيل يوحنا: «وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك، أنتَ الاله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي ارسلته» .

قراءات:

قرأ: «عزير» بالتنونين عاصم والكسائي. والباقون: «عزير» بترك التنوين. وقرأ عاصم: «يضاهئون» بالهمزة والباقون: «يضاهون» بغير همزة.

{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مَرْيَمَ} .

لقد اتخذوا رجال دينهم ارباباً، يشرعون لهم، ويكوّن كلامهم ديناً، ولو كان يخالف قول رسولهم، فاتبعوهم في باطلهم، وأضافوا الى الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم واقوال أحبارهم من قبل ان يدوتوه في المشنة والتلود، ثم دونوه، فكان هو الشرع العام وعليه العمل، وهو مقدّم عندهم على التوراة.

وانظروا النصارى باتخاذهم المسيح رباً وإلهاً، لقد غير رؤسائهم جميع الاحكام التي جاء بها المسيح، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاءوا، والله تعالى يقول:

{وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: ١٣٥] وزادوا القول بعصمة البابا في تفسير الكتب الالهية، ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من الطاعات، وينهى عنه من المحرمات.

روى الامام أحمد والترمذي وابن جرير عن عدي بن حاتم انه فرأى الشام (وكان قد تنصّر في الجاهلية) فذهبت أخته بعد ان اسلمت ورغبته في الاسلام والقُدوم على رسول الله، فقدم المدينة، وكان رئيسا في قومه، فدخل على رسول الله وهو يقرأ «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله»، قال عدي فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» .

وقال رسول الله: يا عدي ما تقول؟ ايضرك ان يقال الله اكبر؟ فهل تعلم شيئا اكبر من الله؟ وما يضرّك ان يقال لا إله الا الله، فهل تعلم إلهاً غيراً لله؟ ثم دعاه الى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال فلقد رأيت وجهه استبشر.»

{أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} .

وقد أمرهم الله في كتبه على لسان رُسله ان لا يعبدوا الا إلهاً واحداً، لأنه لم يستق العباداة في حكم الشرع والعقل الا الإله الواحد. تنزه الله عن الإشراك في العباداة والخلق والصفات.

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} .

يريد الكفار بمزاعمهم الباطلة ان يطفئوا نور الله وهو الاسلام، ولا يريد الله إلا ان يتم نوره على الناس بإظهار دينه على يد خاتم النبيين محمد ﷺ، الذي ارسله الى الخلق اجمعين. هذا هو الوعد الحق من الله تعالى، والدال على سنّته التي لا تبدل.

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} .

هو الله الذ كفل إتمام نوره بإرسال رسوله محمد ﷺ بالحجج البينات، ودين الاسلام ليُعلي هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان ولو كره ذلك المشركون. ولقد تحقّق هذا الوعد على يد رسول الله وخلفائه ومن جاء بعدهم، ونشروا نور الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. لقد دام هذا النور فترة طويلة من الزمن، ثم تخلّى اصحاب هذا الدين عنه خطو خطوة. غير أن حالنا المؤلم ليس نهاية المطاف. . . ان وعد الله قائم ينتظر العصبة المسلبة التي تحمل راية الاسلام التي لا تُهزم، ولن يُخلف الله وعده.

روى الامام احمد عن عدي بن حاتمك دخلت على رسول الله، فقال: «يا عدي أسلم: قلت: إني من أهل دين. قال: انا أعلم بدينكم منك. .

ألست من الركوسية: (دين بين الصابئة والنصرانية) وانت تأكل المربع (والمربع ما كان يأخذه رئيس القوم من الغنائم، وهو من عادات الجاهلية) ؟ قلت: بلى قال: فإن هذا لا يحلّ لك في دينك. قال عدي: فتواضعت لما قالها. . . . فقال: أتعرف الحيرة يا عدي؟ قلت: لم أرها، ولكن سمعتُ بها. قال: فوالذي نفسي بيده ليُتمن الله هذا الدين حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار احد، لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز. قلت: كنوز كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يعيله احد.»

قال عدي بعد ذلك: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار احد، ولقد كنت في من فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكون الثالثة. يعني كثرة المال.

فوعد الله حق، والله يقول: {إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٨] .

يأكلون أموال الناس: يأخذونها بغير حق وبطريق غير مشروعة. يصدون عن سبيل الله: يمنعون الناس عن معرفة الحقيقة. يكتزون الذهب والفضة: يخزنونها.

بعد ان بين الله تعالى في الآيات السالفة كيف بدل اليهود والنصارى ديانتهم واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، بين هنا سيرة كثير من هؤلاء الرؤساء الدينيين في معاملاتهم مع الناس، ثم أوعد الباخلين الذين يكتزون الذهب والفضة في خزائهم ولا ينفقون منها في سبيل البر والخير- واعد لهم بالعذاب الأليم في نار جهنم.

{يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} .

يا ايها المؤمنون: اعملوا أن كثيراً من علماء اليهود ورهبان النصارى يستحلون أكل أموال الناس بغير حق، ويستغلون ثقة الناس فيهم واتباعهم فلم في كل ما يقولون، ويصدون الناس عن الدخول في الاسلام، ويحلبونهم على الطعن فيه بما يبثونه من تعاليم تخالف الواقع. وقوله تعالى: «ان كثيراً من الأحبار والرهبان» فيه دقة واحتراز، فإن بينهم من لا يأكل أموال الناس ولا بد من أفراد في أية جماعة من الناس فيهم بقية خير.

وأخذ اوال الناس بغير حق شرعي له طرق عديدة، منها الرشوة لأجل الحكم والمساعدة على إبطال حق او إحقاق باطل. وهي حرام على كل من أخذها سواء اكان من الرؤساء الدينيين أو من الموظفين والحكام. . .

وكذلك الربا، فإنه من اكبر الفواحش. ومنها أخذ المال جعلاً على مغفرة الذنوب، ومنها أخذ الأموال على الفتاوى لتحليل الحرام وتحريم الحلال. وهذا من أشد الذنوب واكبر الكبائر، كما قال تعالى مخاطباً اليهود: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: ٩١] .

{وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} .

والذين يجمعون الأموال من جميع أصنافها ويكتزونها في خزائهم، ولا ينفقون منها في سبيل الله بأن يخرجوا زكاتها، ويتصدقوا منها لبناء المدارس والمستشفيات، ودور الأيتام والدفاع عن الوطن والعقيدة - فهؤلاء أنذرهم ايها الرسول الكريم بعذاب موجه.

وقد روت عدة روايات عن الصحابة والعلماء المجتهدين أن المال الذي تؤدى زكاته ليس بكنز، وهذا صحيح. ولكن هناك واجبات أخرى تستلزمها الضروة فيجب على اصحاب الاموال ان يشاركوا فيها مثل الجهاد بناء المدار والمساجد والمصححات وغير ذلك، والذي يدخل تحت قوله تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات: ١٩] .

{يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ} .
يؤتى بهؤلاء الناس يوم القيامة ويوقد على هذه الأموال في نار جهنم ثم تحرق بتلك الاموال المحمّة جباه أصحابها، وجنوبهم وظهورهم، ويقال تويخاً لهم: هذا ما ادخرتموه لأنفسكم ولم تؤدوا منه حق الله.

ان ما كنتم تظنونونه من منفعة في كنزه لأنفسكم قد كان لكم ضرراً، فقد صار في الدنيا لغيركم، وعذابه في الآخرة لكم، فذوقوا اليوم العذاب الشديد.

ومن أكبر أسباب الضعف الظاهر الذي ناره في مجتمعاتنا العربية والإسلامية البخل والشح المستولي على ارباب الاموال فهم لا ينجحون على شهوراتهم بانفاق الملايين، أما حين تطلب منهم الحقوق الواجبة من اجل الدفاع عن الاوطان وصد المعتدين - فإنهم لا يؤدون ما يجب عليهم.

وقد وردت عدة روايات في نزول الآية، منها حديث أبي ذر الذي أخرجه البخاري وغيره، قال زيد بن وهب، ابو سليمان الجهني،

وهو تابعي ثقة: ممرت بأبي ذرٍ بالرَّبْدَةِ (موضع بين مكة والمدينة) فقلت: يا ابا ذر، ما أنزلك هذه البلاد؟ فقال: كنت بالشام فقرأت (والذين يكتزون الذهب والفضة) فقال معاوية: هذه نزلت في أهل الكَّاب، فقلت: إنها فينا وفيهم. فصار ذلك سبباً للوحشة بيني وبينه، فكتب إليَّ عثمانُ أن أقبُلُ إليَّ. فلما قدمت المدينة انحرف عني الناسُ كأنهم لم يروني من قبل. فشكوت إلى عثمان، فقال: تنح قريباً. فقلت: اني والله لم أدع ما كنت اقول «وكان يندد باصحاب الاموال، ويخوف الناس من جمع الأموال وخزنها، وكان يحدث الناس ويقول لهم: لا يبتن عند أحدٍكم دينارٌ ولا درهم إلا ما ينفقه في سبيل الله او يعده لغيرم الخ. . .

وأخرج أبو داود والحاكم وابن أبي شَيْبَةَ وغيرهم عن ابن عباس: قال: «لما نزلت هذه الآية (والذين يكتزون الذهب والفضة) كَبُرَ ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحدٌ منا أن لا يُبقي لولده مالا بعده، فقال عمر: انا أفرج عنكم، فانطلق وتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، إنه قد كبر على اصحابك هذه الآية. فقال: ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من اموالكم، وانما فرضت المواريث عن أموالٍ تبقى بكم، فكبر عمر رضي الله عنه «يعني من فرط سروره. وذلك يعني ان المال الذي أخرجت زكاته ليس بكنز.

٩٠١١ 36

الشهور: واحدها شهر هو جزء من السنة القمرية يقدر بدورة القمر حول الأرض، ويسمى الشهرَ القمري، ويكون ٢٩ يوماً، وثلاثين يوماً. منها اربعة حرم: جمع حرام، وهي من الحرمة بمعنى التعظيم. القيم: الصحيح المستقيم النسيء: التأخير، تأخير حمة شهر الى شهر آخر كان العرب في الجاهلية يؤخرون شهراً الى شهر آخر فكانوا مثلاً يؤخرون المحرم الى صفر، وهكذا وقد أبطله الاسلام.

{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ . . . } .

ان عدد الشهور في السنة القمرية اثنا عشر شهراً في حكم الله وتقديره، وفيما بينه في كُتبه منذ بدء العالم، ومن هذه الاثني عشر شهراً اربعة أشهر محرمة معظمة يحرم فيها القتال، وهي: رجب وذو القعدة، وذو الحجة والمحرم.

{ذلك الدين القيم} .

والتحريم للأشهر الاربعة المذكورة هو دينُ الله المستقيم، الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، فلا تظلموا أنفسكم في هذه الأشهر باستحلال القتال فيها، او امتناعكم عنه اذا هاجمكم الأعداء. قاتلوا أيها المؤمنون كل من يقالتم من المشركين جميعاً، ولو كان ذلك في الأشهر الحرم. وذلك لأنهم انما يقاتلونكم لاطفاء نور الاسلام، فأنتم أولى بالاتحاد لدفع العدوان وجعل كلمة الله هي العليا.

{واعلموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} .

ينصركم ويعينهم ويوفقهم لما فيه خيرهم وصلاتهم. ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال.

وقت وقت الله بالأشهر القمرية لأنها هي الاشهر الجارية على سنن الطبيعة لا زيادة ولا نقصان، ولتدور المناسك على جميع فصول السنة.

{إِنَّمَا النَّسِيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سِوَاءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} .

ورثت العرب من ملة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقه. ولما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا في المناسك وفي تحريم الأشهر، اذا كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارات مدة ثلاثة أشهر متواليات، فكانوا يحلون شهر المحرم ويؤخرون تحريمه إلى صفر لتبقى الأشهر الحرم اربعة.

وقال ابن كثير: انما كانت الاشهر الحرم اربعة: ثلاثة سرّد متواليه، وواحد فردٌ وهو رَجَب، وذلك لأجل اداء المناسك، فحُرِّمَ قبل أشهرٍ لاجل شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّمَ ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون بأداء المناسك. وحُرِّمَ

بعده شهر آخر هو المحرم ليرجعوا فيه الى أقصى بلادهم آمنين. وحرم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعمار به، لمن يقدّم اليه من أقصى الجزيرة فيزوره ثم يعود الى وطنه فيه آمناً.

قال ابن اسحاق: كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحلّ منها ما حرّم الله، وحرّم منا ما أحلّ الله ﷻ - «القلمس» وهو حذيفة بن ققيم الكناي، ثم قام بعده أولاده واحفاده بذلك.

وكان آخرهم جنادة بن عوف، أبو ثمامة، وعليه قام الاسلام.

فكانت العرب اذا فرغت من حجّها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً وذا القعدة وذا الحجة ويحلّ المحرم عاماً ويجعل مكانه (صَفراً) ويحرّمه عاماً ليواطئ عدة ما حرّم الله، فحلّ ما حرّم الله، ويحرّم ما أحلّ الله.

ومعنى: {إِنَّمَا النِّسَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ. . . الآية} .

إن تأخير هذه الأشهر الحرم او بعضها مما ربّها الله عليه (كما كان يفعل اهل الجاهلية) هو إمعان في الكفر، به يزداد الذين كفروا ضلالاً فوق ضلالهم، وذلك لجعلهم الشهر الحرام حلالاً. لقد زينّ لهم الشيطان أعمالهم بهذه الشبهة الباطلة، والله لا يهدي القوم الضالين المصرين على كفرهم الى طريق الخير.

قراءات:

قرأ نافع برواية ورش: انما النسي، والباقون: «النسيء» بالهمزة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «يُضِلُّ» بضم الياء وفتح الضاد، وقرأ يعقوب: «يُضِلُّ» بضم الياء وكسر الضاد. والباقون: «يُضِلُّ» بفتح الياء وكسر الضاد.

٩٠١٢ 38

انفروا في سبيل الله: أقدموا على الجهاد وأسرعوا في الخروج اليه. اثاقلتم: تباطأتم. في الغار: الغار هنا هو غار ثور الذي لجأ اليه النبي ﷺ وصاحبه ابو بكر رضي الله عنه يوم الهجرة. سكينته: سكون النفس وطمأنينتها.

الكلام من هنا الى أواخر السورة في غزوة تبوك، وما لابسها من هتك ستر المنافقين وضعفاء الايمان، وتطهير قلوب المؤمنين من عوامل الشقاق. وهناك بعض الأحكام تخللت الآيات جرياً على سنة القرآن في أسلوبه الحكيم.

ومناسبة الآيات لما بلها ان الكلام السابق كان في حكم مشاكل اليهود، وبيان حقيقة أحوالهم المنحرفة، وبيان بعض عقائد العرب في الجاهلية وإبطالها.

والكلام هنا في غزوة تبوك، ومواجهة الروم ومن يشايعهم من عرب الشام، وجميعهم نصارى. وكانت المعركة في رجب، سنة تسع للهجرة، المصادف لشهر تشرين الثاني.

وتبوك موضع في منتصف الطريق بين المدينة، ودمشق، تبعد عن المدينة حوالي ٦٠٠ كيلو متر، وعن دمشق حوالي ٧٠٠ كيلو متر. كان ملك الروم يشمل بلاد الشام، وسمعوا بقوة الإسلام، فخاف ملكهم هرقل على دولته. لذلك بادروا الى جمع الجيوش ليهاجم المسلمين في دراهم. وقد نقل هذه الاخبار عدد من التجار الآتين من بلاد الشام، فغذب رسول الله ﷺ الناس واستنفرهم الى قتال الروم. وتجهّز المسلمون حتى اجتمع جيش كبير بلغ ثلاثين الفا. وقد تبارى المسلمون في البذل والعطاء، فدفع عثمان بن عفان رضي الله عنه الف دينار، وجاء أبو بكر بكل ما يملك، وجاء عمر بنصف ما يملك، وتطوع الناس بقدر ما يستطيعون.

كان الوقت في أواخر الصيف والحر الشديد، والسفر طويل وشاق، ولذلك سُميت غزوة العُسرة. كانت الثمار قد طابت بعد نضجها، والناس يحبون المقام لجمع ثمارهم، ويكرهون الشخوص آنذاك، ومن هنا تخلّف المنافقون وتعلّلوا بشتى المعاذير. وكان بينهم اربعة من كبار الصحابة هم: كعب بن مالك، وهلال بن امية، ومرارة بن الربيع، وابو خيثمة، وجاء أبو خيثمة الى داره فوجد زوجته قد مهدت له الفراش، وهيأت له كل سبيل للراحة، فلما وجد كل هذه الرفاهية في منزله قال: رسول الله ﷺ في الضحّ (الشمس) والريح والحر،

وأبو خيثمة في ظلّ بارد، وطعام مهيّأ، وامرأة حسناء، وفي ماله مقيم! ما هذا بالنّصف. ثم هياً نفسه ولحق بالرسول وجيشه. وسأتي خبر إخوانه الثلاثة الذين خلّفوا فيما بعد.

ومضى الجيش حتى وصل تبوك ولم يلق حرباً، وقد عقدت صلحاً مع حاكم تبوك وبعض حاميات الحدود، وعاد الرسول وجيشه الى المدينة. واستغرقت هذه الرحلة نحو عشرين يوماً.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} .

يا أيها المؤمنون، ما لكم حينما ندّبكم الرسول الى الجهاد في سبيل الله تباطأ بعضكم عن الخروج، وأخذوا للراحة واللذة! وكان من أسباب ثقلهم ما روى ابن جرير عن مجاهد قال: أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين وبعد الطائف، أمروا بالنفير في الصيف حين اختُرِفَت النخل (قُطِفَت) وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم الخروج، فقالوا: منا الثقل وذو الحاجة والشغل، والمنتشر به أمره في ذلك كله.

{أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} .

هل آثرتم لذات الدنيا الفانية على سعادة الآخرة الكاملة، ونعيمها الدائم؟! ما ها الذي تتمتعون به في الدنيا وما لذائذها المشوبة بالمنغصات إلا تافهاً أمام متاع الآخرة العريض! انه لا يرضى به عاقل ولن يقبله.

روى أحمد ومسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل إصبعه هذه في اليم، فلينظر يمّ ترجع - وأشار بالسبابة» .

{إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً} .

إن لم تستجيبوا للرسول، فتخرجوا للجهاد يعذبكم الله عذاباً أليماً في الدنيا يهلككم به، ويستبدل بكم قوماً آخرين، يطيعونه ولا يتخلّفون عن الجهاد. إنكم لا تضرون الله بهذا التخلّف شيئاً.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

قادر لا يعجزه عقابكم ولا نصره دينه بغيركم: كما قال تعالى {وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨] .

ثم بعد ذلك رغبتهم في الجهاد وبين لهم أنه تعالى هو الذي ينصر نبيه على أعداء دينه، سواء أعانوه ام لم يفعلوا، وهو سبحانه قد فعل ذلك والرسول في قلة من العدد، والعدو في كثرة، فيكف واصحابه الآن كثيرون، والعدو قليل!! .

{إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} .

ان لم تنصروا رسول الله فإن الله كفيل بذلك. فلقد أيده ونصره حين أجمع كفراً قريش على قتله، واضطروه الى الخروج من مكة مهاجراً، وليس معه الا أبو بكر ثاني اثنين في الغار. والغار هو غار ثور على ساعة من مكة الى جهة اليمن. وقد مكث فيه ثلاث ليالٍ، وبينما هما في الغار اقتفى اثرهما نفر من المشركين، نخاف ابو بكر على حياة الرسول، فقال له رسول الله: لا تحزن إن الله معنا، ولن يصلوا الينا.

روى الامام أحمد البخاري ومسلم عن أنس قال: «حدثني ابو بكر قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فنظرت الى أقوم المشركين، وهم على رؤسنا فقلت: يا رسول الله، لو ان أحدهم نظر الى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»

{فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا} .

عند ذلك انزل الله الطمأنينة على رسوله، وأيده بجنوده عنده لا يعلمهم إلا هو سبحانه، انتهى الأمر بأن جعل كلمة الشرك وشوكتهم هي السفلى، وكلمة الله وهي دينه، هي العليا بظهور نور الاسلام.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}

والله متّصفٌ بالعِزة لا يُقهر، حكيم إذ يضع الأمورَ في مواضعها. توقد اقتضت حكمته ان ينصر نبيه بعزّته ويظهر دينه على جميع الأديان.
قراءات:
قرأ يعقوب «وكلمة الله» بالنصب، والباقون بالرفع.

٩٠١٣ 41

خفافا: جمع خفيف والمراد النشاط والسرعة في الحركة ومن يستطيع التأهب يسر. ثقالا: جمع ثقل وهو كل من وجد صعوبة في السفر والتأهب اليه بمشقة. اي انفروا على كل حال. لو كان عرضا قريبا: كل ما يعرض للانسان مما فيه منفعة يحصل عليها بسهولة. وسفراً قاصدا: هينا لا مشقة. الشقة: الطريق التي فيها تعب وعناء.
بد ان توعّد من لم ينفروا مع الرسول وثاقلوا حين استنفرهم، جاء بأمر حازم لا هوادة فيه، فأوجب النفير العام على كل فرد، فلا عذر لأحد التي في التخلف وترك الطاعة.
{انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}.

أيها المؤمنون. إذا دعى داعي الجهاد فلبوا النداء، وانفروا على كل حال، من يسر أو عسر، او صحة او مرض. فعندما يعتدي عدو على بلد من بلاد الاسلام يجب الجهاد على كل فرد قادر ولو بمشقة، فاذا أعلن النفير العام وجب الامتثال إلا في حال العجز التام، وهو ما بيّنه الله تعالى بقوله: {لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٩١].

وجاهدوا أعداءكم الذين يقاتلونكم ويعتدون على بلادكم. . . بأموالكم وأنفسكم، فمن استطاع الجهاد بماله وبنفسه وجب ذلك عليه، ومن قدر على أحدهما وجب عليه ما كان في قدرته والآن، والعدو يحتلّ جزءا غالبا من بلادنا المقدسة هو فلسطين، فإن الجهاد واجب بالمال والنفس على كل مسلم وعربي في جميع بلاد الإسلام، وكل من يتخلف فهو آثم ومقصّر، وخارج عن طاعة الله ورسوله. وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «ما تكت أمة الجهاد إلا وقرنها الله بالذل». .
{ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

إن الذي أمرتم به من النفير العام والجهاد في سبيل الله - هو الوسيلة في حفظ كيان الأمة وعلو كلمتها. وهو خير لكم في دينكم ودنياكم. . . أما في الدين فلا سعادة الا لمن ينصر الحق ويقيم العدل. وأما في الدنيا فلا عزّ لأمة إى بالقوة، فهي وسيلة لدفع العدو وكبح جماحه. وقد علم فضل ذلك أسلافنا من المؤمنين الصادقين فامتثلوا واهتدوا ففتحوا البلاد واسدوا العباد.

قال القرطبي عند تفسيره هذه الآية: «قال ابن العربي: ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسر خيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده، فقلت للوالي عليه: هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نصره الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار، فيحاط به، فإنه هالك لا محالة أن يسركم الله له.

فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي، وصار كل واحد من الناس ثعلبا يأوي الى وجاره وان رأى المكيدة بجاره، فإننا لله وإننا إليه راجعون». . الوجار: جُر الثعلب.

ليس هذا ينطبق علينا اليوم في موقفنا من اليهود!! نحن أكثر منهم عددا، وأغنى ثروة، وأقوى، ولدينا كل الإمكانيات لنحاربهم ونسترد بلادنا منهم، ولكن غلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي. . .

ولما أمرهم بالنَّفَرِ تَخَلَّفَ بعضُ المنافقين لأعداءِ ضعيفة، وتَخَلَّفَ بعضُ المؤمنين فأَنْزَلَ اللهُ تعالى قوله: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} .

بعد ان رغبهم في الجهاد، وبين أن فريقاً منهم تباطأوا وثناقلوا - بينَ هنا أن فريقاً منهم تَخَلَّفُوا، رغم كل ما تقدم من الوعيد، وجعلوا ينتحلون الأعداء، ليستأذنوا الرسول في التَخَلُّفِ، فتدَّ بهم في تَخَلُّفِهِمْ من متابعة الرسول في الجهاد، فقال: لو كان في ما دعوتهم إليه منفعة من منافع الدنيا قريبة المنال ليس في الوصول إليها كبيرُ عناء، أو لو كان سَفَرًا هَيِّنًا لا تعبَ فيه - لاتبعوك ايها الرسول، ولكنك استنفرتهم الى بلد بعيد وشقَّ عليهم السفر، في ذلك الوقت من الحر والقيظ. وسيحلفون لك أنهم لو استطاعوا لخرجوا معك. إنهم بهذا النفاق يهلكون أنفسهم، والله لا يخفى عليه حالهم، ويعلم أنهم كاذبون.

ثم عاتب الله نبيه ﷺ في إذنه لمن تَخَلَّفَ عنه من المنافقين فقال: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} .

لقد عفا الله عنك ايها الرسول في إذْنِكَ لهؤلاء المنافقين بالتخلف عن الجهاد قبل أن تثبذن أمرهم، وتعلم الصادق من أعدائهم ان كان، كما تعرف الكاذبين منهم في اداعتهم الإيمان.

٩٠١٤ 44

العدة: الأهبة والاستعداد. انبعاثهم: خروجهم: فثبطهم: أوهن عزيمتهم وعوقهم. الخبال: الاضطراب في الرأي لأوضعوا خلالكم: لاسرعوا بينكم. يبغونكم الفتنة: يريدن لكم التشكيك في الدين والتخويف من الاعداء. وقلبوا لك الامور: دبوا لك المكاييد من كل وجه.

كانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال، وقد روي عن ابن عباس انه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة. والمراد انه لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شؤونهم بهذا التفصيل حتى نزلت، ولذلك كان من أسمائها «الفاضة»، لأنها فضحت احوال المنافقين.

لا يتسأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فالمؤمن الصادق الإيمان يجب داعي الله ورسوله حالا، ولا يستأذن في الجهاد، لأن صدق إيمان هؤلاء يحجب إليهم الجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: ١٥] .

والله عليمٌ بالمتقين} . والله يعلم صدق نيات المؤمنين المتقين.

{إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبٍ يَتَرَدَّدُونَ} .

انا يستأذنك في التَخَلُّفِ عن الجهاد من غير عذرٍ أولئك الذين لا يؤمنون إيماناً صادقاً بالله ولا بالحساب في اليوم الآخر، فهؤلاء قد ارتابت قلوبهم فهم يعيشون في حيرةٍ من أمرهم، ويعتذرون بالمعاذير الكاذبة هرباً من القيام بالواجب.

{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} .

لو صدقت نية المنافقين في الخروج مع الرسول للجهاد، لأخذوا أهبة الحرب واستعدوا لها، وقد كانوا مستطيعين ذلك، لكن الله كره خروجهم، لعلهم لو خرجوا معكم لكانوا عليكم لا لكم، فعوقهم الله عن الخروج بما امتلأت به قلوبهم من النفاق، وقيل لهم اقعدوا مع القاعدین، من الاطفال والعجزة. هذا مكانكم اللائق بكم، لما لكم من الهمم الساقطة، والقلوب المرتابة.

{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} .

بعد ان بين الله ان استئذانهم في التخلف عن القتال انما كان سترًا لنفاقهم، زاد في البيان هنا بيان المفسد التي كانت تنجم من خروجهم، وهي افساد النظام والاضطراب في الرأي، وتفريق الكلمة بالسعي بين المسلمين بالنميمة، وبخاصة ان هناك اناساً من ضعفاء الايمان يسمعون لهم ام يقولون، ويقبلون قولهم.

ولو خرجوا معكم الى الجهاد ما زادوكم قوة ومنعة بل اضطراباً في الرأي وضعفاً في القتال، ولاسرعوا في الدخول فيما بينكن ليشيعوا الفتنة فيكم، ويفرقوا كلمتكم وثبيط هممكم، وفيكم ناس بسطاء من ضعفاء الايمان ممن يجهلون خبث نياتهم، ويمكن ان يُخدعوا بكلامهم، والله عليم بهؤلاء المنافقين الذين يظلمون انفسهم اضراره من الفساد.

{لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ} .

ولقد سبق ان سعى هؤلاء المنافقون بالفتنة فيما بينكم، ودبروا لك - ايها الرسول - المكائد من كل الوجوه، فأحبط الله تدبيرهم، وحقق لك النصر المبين، وظهر أمر الله، فظاهر دينه على الرغم منهم.

٩٠١٥ 49

هذه الآيات سبقت لبيان اقوال قائلها المنافقون، بعضها قيلت جهراً، وبعضها أكنّوه في انفسهم.

{وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ اِئْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا} .

من المنافقين أناس يستأذنونك في التخلف عن القتال حتى لا يفتنوا بنساء الروم. «روي عن مجاهد وابن عباس انها نزلت في الجد بن قيس من بين سلمة، وكان من أشراف بين سلمة، فقد قال للرسول الكريم: أئذن لي يا رسول الله في القعود، فإن أخشى على نفسي إن أنا رأيت نساء بني الأصفر (يعني الروم) ، أن أفتن. فقال الرسول وهو معرض عنه: قد أدنت لك» .

{أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا} .

فليعلموا أنهم بمقاتلتهم هذه قد سقطوا وأوقعوا أنفسهم في معصية الله.

{وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} .

وان نار جهنم لمحيطَةٌ بهم في اليوم الآخر.

روى يعقوب بن سفيان في تاريخه وابو الشيخ في الأمثال: ان رسول الله قال لبني سلمة من الانصار: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس، على بخل فيه. فقال رسول الله: وأي داء أدوأ من البخل؟ ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض، بشر بن البراء ابن معرور. وفي الفائق في غريب الحديث للزمخشري: بلى سيدكم عمرو بن الجوح والجعد الكريم الجواد. واذا قيل جعد اليدين وجهه البنان فعناه: البخيل اللئيم.

ثم بين الله تعالى عداوة المنافقين، زيادةً في تشهير مساوئهم بقوله:

{إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ} .

ان هؤلاء المنافقين لا يريدون لك أيها الرسول ولا أصحابك الا المكارة، فيتألمون إذا نالكم خير من نصرٍ أو غنيمة.

{وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} .

ويفرحون إذا اصابكم مكروه م جراح او قتل او هزيمة، ويقولون شامتين: قد أخذنا حذرنا بالقعود، إذ تخلفنا عن القتال ولم نلق بأيدينا الى الهلاك. ثم ينصرفون مسرورين.

روى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: جعل المنافقون الذين تخلّفوا في المدينة عن غزوة تبوك يُشيعون أخبارَ السوء عن النبي وأصحابه، ويقولون إنهم جاهدوا في سفرهم وهلكوا، فتبينَ بعد ذلك كذبهم وسلامةُ النبي وأصحابه فساءهم ذلك، فأَنزل الله تعالى: {إِنْ تُصِيبْكَ... الآية} .

ثم أَرشد الله تعالى الى جوبهم بِبطلان ما بنوا عليه مسرّتهم بقوله:

{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} .

قل ايها الرسول لأولئك المنافقين الذين فرّحوا بمصائبك وساءتْهم نعموُ الله عليك: لن ينالنا في ديانا من الخير او الشرّ الى ما قدره الله علينا، فنحن راضون بقضائه.

{هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} .

هو ناصرنا ومتوليّ أمورنا، ونحن نلجأُ إليه ونتوكل عليه، وعليه وحده يعتمد المؤمنون الصادقون. فالمسلم الصادق يبذل جهده ويظلّ متوكلاً على الله.

{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} .
إن أمرَ المؤمنِ كلّ خير، سواء نال النصر أو الشهادة، أما الكافر فأمرته كلّ شرّ، سواء أصابه عذابُ الله المباشر أو على أيدي المؤمنين. قل لهم ايها الرسول: لن ينالنا الا أحدُ أمرين، وكلاهما خير، إما النصر والغنيمة في الدنيا، وإما الشهادة في سبيل الله والجنة في الآخرة. ونحن نتربّص بكم ان يُوقع الله بكم عذاباً من عنده يُهلككم به، او يعذبكم بالدلّة على أيدينا فانتظروا أمرَ الله، ونحن منتظرون.

٩٠١٦ 53

طوعاً: باردتهم. كرهاً: من غير ارادتهم. تزهق انفسهم: تخرج بصعوبة. يفرقون: يخافون بشدة. ملجأ: مكان يتحصنون به. مغارات: جمع مغارة، معروفة. مدخلا: سرباً في الارض يدخله الانسان بدة. يجمعون: يسرعون اسرعا لا يردّهم شيء. يقال جمع الرجل: ركب هواه فلا يردّه شيء.

{قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنتَكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ} .

بعد ان بين الله تعالى أَعذار المنافقين الكاذبة، تعلّلاتهم الباطلة في التخلّف عن الجهاد، وما يجول في نفوسهم من كراهم للرسول واصحابه، وأنهم يتربّصون بهم الدوائر- بين هنا أنّ بعض هؤلاء المتربّصين من المنافقين قد عَرَضَ ماله، وهو يعتذر عنه الجهاد، فردّ الله عليهم مناورتهم، وكلف رسوله ان يعلن ان إنفاقهم غير مقبول عند الله قل ايها الرسول للمنافقين: أنفقوا ما شئتم طائعين أو مُكرهين فلن يتقبل الله عملكم الذي أحبطه نفاقكم، لأنكم قوم فاسقون خارجون من دائرة الايمان.

{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} . وما منع الله من قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله، وكفرهم برسوله وما جاء به من الهدى.

{وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} .

ولا يصلّون إلا رياءً وتقيّة، لا إيماناً بوجوبها. فهم يؤدّونها غير مُقلّين عليها، سترًا لنفاقهم، ويؤدّونها متثاقلين كسالى لا تنشرح لها نفوسهم ولا تنشط لها أبدانهم، ولا يُنفقون أموالهم في مصالح الجهاد وغيره إلا وهم كارهون لذلك.

هذه صورة المنافقين في كل آن، خوفٌ ومداراة، وقلبٌ منحرف، وضمير مدخول، {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} «سورة الفتح» .

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «وما منعهم ان يقبل منهم نفقاتهم» بالياء.

{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} .

فلا تعجبك ايها الرسول اموالهم ولا اولادهم وما هم فيه من نعم وخيرات، فان الله تعالى جعل هذه الاموال حسرات عليهم، لأنهم لا ينتفعوا بها في الحياة الدنيا، ولن يؤجروا عليها في الآخرة. اما الأولاد فإنهم اعتنقوا الاسلام وأخلصوا له، فكان ذلك أشد حسرة على آبائهم، ولا شيء أشد على الوالد من ان يكون ولده على غير دينه. وكان عبد الله بن عبد الله ابن أبي من اكبر المسلمين المتحمسين للاسلام، وقد عرض على الرسول الكريم ان يقتل أباه، فلم يقبل النبي ﷺ. وهذا معنى: انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا. {وَتَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} .

وتخرج ارواحهم بصعوبة وشدة حين يموتون على الكفر فيعذبهم الله كفرهم في الآخرة كما عذبهم بأموالهم وأولادهم في الدنيا. وبعد ان بين الله حالة المنافقين وفضحهم بأنهم يظهرن غير ما يضمرون، ذكر هنا غلوهم في النفاق، فقال: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ} .

يقسم هؤلاء المنافقون كذباً بأنهم مؤمنون مثلكم وأنهم منكم، والحقيقة أنهم ليسوا مؤمنين بالله، وليسوا منكم، لكنهم قوم يخافونكم، مما يدفعهم الى النفاق.

لقد ملأ الرعب قلوبهم، فلا يدرون ماذا يفعلون، واين يتوجهون او يختبئون؟ وهذا ما تعبر عنهم الآية الكريمة الآتية: {لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدَخلاً لَّوَلَوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} .

وانهم لشدة كرههم للقتال معكم، ولبغضهم معاشرتكم، ولشدة جنهم وخوفهم من ظهور نفاقهم لكم- يتنون الفرار منكم والعيش في اي مكان يعتصمون به، فهم تطلقون أبداً الى محباً يجمعهم، ويأمنون فيه، وليكن حصناً او مفاغرة او رسداً ضيقاً. انهم مذعورون يطاردتهم الفزع الداخلي والجبن الروحي، ولذلك يحلفون بالله إنهم منكم، ليتقوا انكشاف طويتهم، ولكن الله لا يخفى عليه شيء..

58 ٩٠١٧

يلهزك: يعيبك ويطعن بك في وجهك. حسبنا الله: يكفيننا الله. الى الله راغبون: محبون ضارعون.

{وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْهِكُ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} .

لا يزال الحديث في مساوئ المنافقين. فبعض هؤلاء المنافقين يعيبك أيها الرسول، ويطعن عليك في قسمة الصدقات والغنائم. اذ يزعمون أنك تحابي فيها. . تأتي من تشاء من الأقارب، واهل المودة، ولا تراعي العدل، فإن أعطيتهم ما يرغبون رضوا عن عملك وإلا فإنهم يسخطون ويغضبون.

روى البخاري ومسلم عن ابي سعيد الخدري قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم مالا إذ جاءه حرقوص بن زهير ذو الخويرة التيمي، فقال: اعدل يا رسول الله فقال: ويلك، ومن يعدل اذا لم أعدل؟! فقال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال رسول الله: دعه» الحديث.

وهناك عدة روايات تدل على ان اشخاصاً من المنافقين قالوا ذلك لأنهم لم يأخذوا من الصدقات، فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم بين الله تعالى ما هو الأليق بالانسان، وهو الرضا بقسمة الله ورسوله، والقناعة والاكتفاء بالله، والرجاء في فضله، فقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} .

ولو ان هؤلاء المنافقين الذين عابوك في قسمة الصدقات، رضوا بما قسم الله لهم، وهو ما اعطاهم رسول الله، وطابت نفوسهم به- وان قل - وقالوا: كفنا حكم الله، وسيرزقنا من فضله، لأن فضله لا ينقطع، ورسوله لا يخس أحداً وإننا الى طاعة الله وإحسانه راغبون، لو فعلوا ذلك- لكان خيرا لهم من الطمع.

والخلاصة: انهم لو رضوا من الله بنعمته، ومن الرسول بقسمته، لكان في ذلك الخير كل الخير لهم.
قراءات:
قرا يعقوب: «يلمرك» بضم الياء وقرأ ابن كثير: «يلامرك» .

٩٠١٨ 60

الصدقات: الزكاة المفروضة. الفقراء: هم الذين لا يجدون كفايتهم. المساكين: الذين لا يجدون كفايتهم ولا يستطيعون العمل العاملين عليها: كل من يعمل على تحصيل المال. المؤلفة قلوبهم: هو الذين يراد استمالتهم الى الاسلام. وفي الرقاب: عتق العبيد والغارمين: الذين عليم دين لا يستطيعون تأديته. وفي سبيل الله: الجهاد، وكل عمل في الصالح العام، وابن السبيل: هو المنقطع عن بلده في سفر ولم يبق معه مال يوصله الى بلده.
بعد ان بين الله الأدب اللائق في حق الله والرسول، وأن الصدقات فرضها الله ثم أمر الرسول الكريم بقسمتها، عدد الذين يستحقون الزكاة المفروضة. وهؤلاء هم المحتاجون لها حقيقة.
{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ} .

لا تصرف الزكاة المفروضة إلا للفقراء الذين لا يجدون ما يكفيهم «والمساكين» وهم اسوأ حالاً من الفقراء، لقوله تعالى: {أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد: ١٦] {والعاملين عليها} الذين يجمعونها من جُباة او موظفين وغيرهم.
روى أحمد والشيخان عن ابن السعدي المالكي قال: استعملني عمرُ على الصدقة، فلما غرغْتُ منها وأديتها اليه امر لي بِعُمالةٍ، فقلت: إِنَّمَا عَمَلْتُ لِلَّهِ، فقال: خذْ مَا أُعْطِيتَ فَإِنِّي عَمَلْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي عُمَالَةً، فقلتُ مثْلَ قولك، فقال رسول الله: «إِذَا أُعْطِيتَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْأَلَ فَكُلْ وَتَصَدَّقْ» .
{والمؤلفة قلوبهم} وهم قومٌ يراد استمالتهم إلى الاسلام وترغيبهم فيه.
{وفي الرقاب} تُدفع الزكاة من أجل عتق العبيد، وهذا غير موجود اليوم.
{والغارمين} وهم الذين عليهم ديون وعجزوا عن وفائها، تُدفع لهم الزكاة ليوفوا ديونهم.
{وفي سبيل الله} في تزويد المجاهدين في سبيل الله، وفي كل عمل ينفع المسلمين في مصالحهم العامة.
{وابن السبيل} وهو المسافر الذي انقطع عن بلده، فيعطى ما يستعين به على العودة الى بلده، ولو كان غنيا.
{فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

شرح الله ذلك فريضةً منه لمصلحة عباده، وهو عليم بمصالح خلقه، ومقدار حاجاتهم، حكيم فيما يشرعه لهم.
والزكاة مفصلة في كتب الفقه: تدفع بنسبة العُشر من الزرع الذي يُسقى بماء السماء، ونصف العشر من الزرع الذي يسقيه صاحبه ويكلفه ذلك نفقة، وعن الاموال ربع العشر مقيماً اثنين ونصفاً بالمئة. وكل من عنده نحو عشرين ديناراً فائضه عن نفقته ودينه يدفع الزكاة.

٩٠١٩ 61

اذن: يسمع كل ما يقال ويصدق. اذن خير: يسمع الصدق ولا يخدع بالباطل. يؤمن للمؤمنين: يصدقهم لما يعلم فيهم من الاخلاص والايان الصادق.
لا يزال الحديث في المنافقين ومداوراتهم، وما كانوا يفعلون من توجيه الأذى للنبي ﷺ. وقد روت عدة روايات في هذا الموضع عن ابن اسحاق وابن المنذر وغيرهم. من ذلك ان رجلاً من المنافقين اسمه: نبتل بن الحارث، كان يأتي الرسول الكريم فيجلس اليه فسمع منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين. وهو الذي قال لهم: إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أَذُنٌ، مَنْ حَدَّثَهُ شَيْئًا صَدَقَهُ.

وكذلك روي ان جماعة من المنافقين منهم جلاس بن سويد بن الصامت، ومخشي بن حمير، وديعة بن ثابت - اجتمعوا فأرادوا ان يقعوا في النبي الكريم. فنهى بعضهم بعضا، وقالوا: نخاف ان يبلغ محمدا فيقع بكم. فقال بعضه انما محمد أذونٌ نخلف له فيصدقنا. . . فنزل قوله تعالى:

{وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

ومن المنافقين جماعة يتعمدون إيذاء النبي، فيتهمونه بأنه يسمع من كل أحد ما يقوله ويصدق، وانه يُخدع بما يسمع، فقل لهم ايها الرسول: إن من تتناولونه بهذه التهمة ليس كما زعمتم، بل هو أذنٌ خير لكم لا يسمع الا الصدق، ولا يُخدع بالباطل، ويصدق بالله وبما يوحى اليه، ويصدق المؤمنين، لانه يعمل ان إيمانهم يمنعهم من الكذب. وهو رحمةٌ للذين آمنوا منكم إيمانا صحيحا، اما الذين يؤذون الرسول بالقول او بالفعل فجزاؤهم العذاب الشديد.

وقد صار هذا القول عن بعض المنافقين لأن النبي الكريم كان لا يواجههم بسوء، ويعاملهم بكل سماحة، ويهش لم ويستقبلهم، فظنوا أنه يخدع بهم، وتنطلي عليه حيلهم ونفاقهم.

قراءات:

قرأ نافع: «أذن» باسكان الذال، والباقون «أذن» بضم الذال، وقرأ حمزة: «ورحمة» بالجر عطفًا على «خير» والباقون: «رحمة» بالضم. {يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ} .

الخطاب للنبي والمؤمنين: يخلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل عنهم لترضوا عنهم وتقبلوا معاذيرهم، والله والرسول أحق بالحرص على رضائهما، ان كانوا مؤمنين كما يدعون.

روى ابن المنذر عن قتادة قال: ذكر لنا ان رجلاً من المنافقين قال شأن المتخلفين عن غزوة تبوك: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شرٌّ من الحمر. فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله ان ما يقول محمد لحق، ولأنت شرٌّ من الحمار. وجاء وأخبر النبي بذلك، فأرسل الى الرجل فدعاه فقال له: ما حملك على الذين قلت؟ فجعل يلعن نفسه ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب. فأنزل الله {يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ} .

{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} .

ألم يعلم هؤلاء المنافقون ان من يكفر بالله وعبادي الله ورسوله جزاؤه العذاب الأليم في جهنم يوم القيامة، وأن ذلك هو الذل والهوان العظيم الذي يصغر دونه كل خزي في الحياة الدنيا.

٩٠٢٠ 64

مخرج ما تحذرون: مظهرٌ ما تخافون. كما نخوض ونلعب: الخوض في الشيء الدخول فيه، وكثرت استعماله في الباطل. {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِفُوا إِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ مَّا تَحْذَرُونَ} .

يخشى المنافقون ان تنزل سورةٌ فيهم على النبي تُخبرُ يخفون في قلوبهم، ويسرونه بينهم. إنهم يحذرون ان تنزل سورةٌ في شأنهم وبيان حالهم فتكون في ذلك فضيحتهم وكشف عواريتهم وإنذارٌ ما يترتب عليه من عقابهم. قل لهم أيها الرسول: استهزئوا ما شئتم، فان الله سيظهر ما تخشون ظهوره بما يفضحكم به.

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} .

إنك أيها الرسول ان سألت هؤلاء المنافقين عن أقوالهم هذه، وسبب طعنهم في الدين واستهزائهم بالله وآياته، اعتذروا بقولهم كنا نخوض في الحديث ونلهو؟

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابو الشيخ عن قتادة قال: «بينما رسول الله في غزوة تبوك، إذ نظر الى أناس يقولون:» أيرجو هذا الرجل ان يفتتح له قصور الشام وحصونها؟ هيئات هيئات، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال: احبسوا على هؤلاء الركب «بمعنى أوقفهم فاهم، فقال: قلتم كذا وقلتم كذا قالوا: يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب». فأنزل الله تعالى فيهم.

{قُلْ أَبَالَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} .

ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله!! ، هل ضاقت سبل القول، فلم تجدوا ما تخوضون فيه وتلعبون غير هذا.

{لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} .

لا تعتذروا بهذه الأعذار الباطلة، قد ظهر كفرهم بعد ادعائكم الإيمان، فان نعف عن طائفة منكم لأنهم تابوا وآمنوا وصدق توبتهم، فسنعذب طائفة أخرى منكم بسبب إصرارهم على الكفر والنفاق، وإجرامهم في حق الرسول والمؤمنين.

٩٠٢١ 67

المنكر: كل ما تستنكره الفطرة السليمة وستقبحه الشرع، وضده المعروف. نسوا الله فنسيهم: تركوا طاعة الله فجازاهم على نسيانهم بجرمانهم من الثواب. بخلاقهم: بنصبيهم خضتم: دخلتم في الباطل. حبطت اعمالهم: فسدت وذابت. اصحاب مدّين: قوم شعيب المؤمنفكات: قوم لوط.

{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} .

ان اهل النفاق، رجالاً ونساءً، يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم، فهم يفعلون القبيح ويأمرون به، كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد ونقض العهد. وفيه الحديث الصحيح عن ابي هريرة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» رواه البخاري ومسلم.

وينهون عن المعروف كالجهاد في سبيل الله وبذل المال، وهو الذي عبر عنه بقوله: {وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} أي يخلون في بذل المال في سبيل الله.

{نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} .

تركوا طاعة الله وخالفوا أوامره فجازاهم الله تعالى بجرمانهم من رحمته ونسيهم، فلا وزن لهم ولا اعتبار. إنهم خارجون عن الإيمان، منحروف عن الصراط المستقيم، ولذلك وعدهم الله مصيراً كصير الكفار، وبين ما أعد لهم ولأمثالهم من العقاب جزاء لهم فقال:

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ الْكَافِرَاتُ جَاهَنَّمُ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} .

وعد الله هؤلاء جميعاً نار جهنم يدخلونها ويصلونها خالدين فيها لا يخرجون منها أبداً، وهي حسبهم عقاباً، وعليهم مع هذا العقاب غضب الله وعذابه الدائم.

ثم بعد ذلك يذكر الله تعالى هؤلاء القوم بما كان من أسلافهم، ويصّرهم بأنهم يسلكون طريقهم، ويحذّره أن يلاقوا مصيرهم، لعلمهم بهتدون فيقوله:

{كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} .

إنكم أيها المنافقون كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم، فإنهم كانوا أقوى منكم وأكثر أموالاً وأولاداً، وقد استمتعوا بما قُدر لهم من

حظوظ الدنيا، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفافِ وسَخِرُوا منهم فيما بينم وبين أنفسهم. وقد استمتعتم أنتم بما قُدر لكم من ملاذ الدنيا، وحذوتم حذوهم ودخلتم في الباطل كما دخلوا، وخضتم فيما خاضوا فيه، وسلكتهم سبيلهم في طريق الضلال. {أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} .

إن أولئك المستمتعِينَ بملذاتهم في الدنيا، والخائضِينَ في الباطل، بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ بطلاناً أساساً، فل تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، وخسروا كل شيء وأنتم مثلهم في سوء الحال والمآل.

ثم شاء أن ينبيههم ويحذرهم من سوء عاقبة أعمالهم، فاتجه من خطابهم إلى خطاب عام، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسرون في طريق الهالكين، لعلهم يعتبرون بالذين خلوا من قبلهم، ويتعظون بهم، فيقول:

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} .

أفلا يعتبر المنافقون والكافرون بحال الذين سبقوهم ممن ساروا في نفس الطريق الخاطئة، عصوا رسلهم وخالفوا أمر ربهم فأخذهم العذاب!! ومن هؤلاء «قوم نوح» وقد غمرهم الطوفان وأغرقهم، وقوم «عاد» وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية، و «ثمود» وقد أخذتهم الصيحة، و «قوم إبراهيم» وقد أهلك الله طاغيته المتجبر الذي حاول إحراق إبراهيم، «واصحاب مدين» وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهُم الظِّلَّةُ، «والمؤتفكات» قرى قوم لوط، وقد جعل الله عاليها سافلها وقطع دابرهم. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين «أتتهُم رسلهم بالبينات» فكذبوا بها، فأخذهم الله بذنوبهم!! ، لقد ظلموا أنفسهم بكفرهم وتمردهم على الله، وإن كثيراً ممن سبيلهم الله بالقوة والنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم.

٩٠٢٢ 71

جنات عدن: جنات الخلود. رضوان من الله: رضى من الله. بعد أن ذكر الله تعالى أفعال المافقين وصفاتهم المنكرة، وذكر ما أعدَّ لهم من العذاب في الدنيا والآخرة - بين لنا صفة المؤمنين والمؤمنات، الصادقين في في إيمانهم، الذين هُودُوا إلى الطيب من القول، وساروا على الصراط المستقيم. {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} .

إنهم نصراء بعض يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتحقيق الخير ودفع الشر، مع التضامن والتعاون لإعلاء كلمة الله. وهم «يقيمون الصلاة» في أوقاتها، وهي الصلة التي تربطهم بالله، «ويؤتون الزكاة» تلك الفريضة العظيمة التي تربط بين جماعة المسلمين، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن، «ويطيعون الله ورسوله» بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

ماذا أعد الله للذين يتصفون بهذه الصفات السامية؟

{أولئك سيرحهم الله} .

إن الله يتعهدهم برحمته في الدنيا والآخرة.

فهذه الصفات الأربع في المؤمنين: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة - تقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، ونسيان الله، وقبض الأيدي، وصفات المؤمنين هي التي وعدهم الله عليها بالنصر والتمكين في الأرض، {الله عزيز حكيم} .

وبعد أن بين رحمته للمؤمنين ونصره لهم إجمالاً بين ثانياً ما وعدهم به من الجزاء المفسر لرحته تفصيلاً فقال:

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ} .
 لقد وعدهم الله الجنة خالدين في نعيمها، وأعد لهم مساكن طيب بها نفوسهم في دار الإقامة والخلود. ولهم فوقها ما هو اكبر واعظم.
 {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} .
 وإن الجنة لك ما فيها من نعيم لتتضاءل أمام ذلك الرضوان الكريم.
 {ذلك هو الفوز العظيم} .
 وذلك الوعد بالنعيم الجسماني والروحاني هو الفوز العظيم الذي يُجزى به المؤمنون المخلصون.

٩٠٢٣ 73

الغلظة: الخشونة والشدّة في المعاملة. وهموا بما لم ينالوا: ارادوا ان يعملوا شيئاً لم يستطيعوا. وما نعموا: ما انكروا وعابوا.
 بعد ان بين صفات المؤمنين الصادقين، وصفة المنافقين الذين يدعون الإيمان، اعاد الكثرة الى تهديد المنافقين وإنذارهم بالجهاد كالكفار
 المجاهرين بكفره، فان هؤلاء المنافقين قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد اسلامهم، وهموا بأمر خبيثهم الله فيه.
 {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} .
 يا ايها النبي ثابر على جهادك في ردع الكفار عن كفرهم، والمنافقين عن نفاقهم، فقد كان النبي ﷺ يلاين المنافقين، ويصفح عنهم
 كثيراً. لكن هذا كله لم يجد معهم، فأمره الله تعالى ان يعاملهم بالشدّة والغلظة لعل تربيهم وتردعهم، أما ما لهم الذي أعدّه الله لهم
 في الآخرة فهو جهنم وبئس المصير.
 ثم ذكر الله سبحانه الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار، وهي أنهم أظهروا الكفر بالقول وهموا بشر ما يغري به من الفعل، وهو الفتك
 برسول الله وهو عائد من تبوك. فقد تأمر بعض منهم على ان يفتكوا به عند عقبة في الطريق، لكنه تنبه وأخذ الحيلة ونجّاه الله منهم.
 {يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا} .
 يخلف المنافقون أمامك يا محمد بالله أنهم ما قالوا منكراً مما بلغك عنهم، لكنهم كاذبون في الإنكار، فقد قالوا كلمة الكفر التي رويت
 عنهم، وظهر كفرهم بعد ان كانوا يتظاهرون بالاسلام. بل إنهم هموا بما لم ينالوا.
 وهذا ما رواه كثير من أئمة الحديث، أنهم أرادوا ان يغتالوا رسول الله ف منصرفه من تبوك عند العقبة على الطريق، وقد احتاط
 الرسول لذلك وأمر عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ان يكونا معه حتى اجتاز المكان. ولما غشيهم المتآمرون كانوا منتبهين فنجا رسول الله.
 وقد عرفهم حذيفة، وكانوا اثني عشر رجلاً كما في صحيح مسلم. وحاول بعض الصحابة ان يقتلهم فلم يقبل النبي ﷺ وقال: «لا اريد
 ان يتحدث الناس بأن محمداً قتل أصحابه» .
 {وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} .
 ما كان سبب نقمتهم على الرسول الا بطراً بالنعمة، بعد ان أغناهم الله ورسوله بما حصلوا عليه من الغنائم التي شاركوا فيها المسلمين.
 {فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} .
 فان يرجعوا الى الله بترك النفاق والندم على ما كان منهم يقبل الله توبتهم، ويكون ذلك خيراً لهم، وان يعرضوا عن الإيمان يعذبهم
 الله في الدنيا بمختلف ألوان البلاء، وفي الآخرة بنار جهنم.
 {وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} .
 وليس في الأرض من يدافع عنهم او يشفع لهم وينصرهم.

أعقبهم: أورثهم ونجواهم: كلامهم الخفي.
تعتبر هذه الآيات بياناً لحال طائفة أخرى من المنافقين: أغناهم الله بعد فقرٍ، فلما كثر ما لهم وأصبحوا من الأغنياء كفروا النعمة وهضموا الحقوق.
{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} .
ومن المنافقين نفرٌ أعطى الله عهده وميثاقه لئن آتاه مالا وثروة لشكرن الله على نعمته بالصدقة، وليعلنن عمل أهل الصلاح من صلة الرحم والإنفاق في سبيل الله.
{فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} .

فلما استجاب الله لهم، وأعطاهم من فضله ما طلبوا، بخلوا بما أوتوا وأمسكوه، فلم يتصدقوا منه بشيء وانصرفوا عن الخير، وهم معرضون عنه وعن الله.
{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ} .
كانت عاقبة بخلهم أن تمكّن النفاق في قلوبهم الى ان يموتوا ويلقوا الله يوم الحساب.
ثم ذكر سببين هما من أخص أوصاف المنافقين: إخلاف الوعد والكذب فقال:
{بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} .
ذلك بسبب نقضهم لعهدهم وكذبهم في يمينهم.
{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} .

الم يعملوا - وهم يدعون الإيمان - أن الله مطلع على السرائر، لا يخفى عليه ما يضمرونه في السر من نقض العهد، وما يتناجون به في الخفاء من الطعن في الدين وتدمير المكاييد للمسلمين! وان الله يعلم الغيوب كلها لا يخفى عليه شيء في هذا الكون.
وقد وردت عدة روايات في سبب نزول هذه الآيات. «روى ان جرير ان ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال لرسول الله: ادع الله أن يرزقني مالا، فقال له رسول الله:» ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه .»

فراجعه مرة أخرى وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له فاخذ غنماً، فنت كما ينحى الدود حتى ضاقت بها المدينة. فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة. فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال: يا ويح ثعلبة، فبعث رسول الله مصدقين لآخذ الصدقات فاستقبلها الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه وأقرأه الكتاب الذي فيه الفرائض فقال ما هذه الا جزية ما هذه الا اخت الجزية فارجعا حتى أرى رأيي، فلما جريا اخبرا رسول الله بما قال ثعلبة، فقال: ويح ثعلبة، فانزل الله تعالى:» ومنهم من عاهد الله لئن آتاهم من فضله لنصدقن. . . «فسمع بذلك ثعلبة فجاء بالصدقة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ان الله منعي ان اقبل منك صدقتك. فجعل يحثوا على رأسه التراب. وقبض رسول الهل فجاء أبا بكر الصديق فلم يقبلها، ثم جاء عمر فلم يقبلها، وجاء عثمان فل يقبلها رضي الله عنهم، وهلك في خلافة عثمان» .
وهذه الصورة من البشر موجودة في كل زمان ومكان، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الصوليون.

يلزمون: يعييون. المطوعين: المتطوعين وهم الذين يؤدون ما يزيد على الفريضة. جهدهم: طاقتهم.

بعد ان ذكر الله بُخْلَ المنافقين وشُحَّهم بأموالهم حتى بعد أن عاهدوا على ان يتصدقوا اذا رزقهم من فضله، عَرَضَ هنا لونا آخر من رأي المنافقين في الزكاة، وكشَفَ عن الغمز واللمزِ النابغين عن طبعهم المنحرف.

{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} .

من نقائص هؤلاء المنافقين علاوة على بُخْلِهم أنهم يعيبون على الموسرين من المؤمنين تصدُّقهم على المحتاجين.

روى ابن جرير عن عكرمة قال: «حَثَّ رسول الله ﷺ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن ابن عوف بأربعة آلاف، وقال: يا رسول الله: مالي ثمانية آلاف، جئتكم بنصفها وامسكت نصفها. فقال: «بارك الله لك فيما امسكت وفيما أعطيت». وصدق عاصم بن عدي بمائة وسق وثلاثمائة وعشرين رطلاً من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، قال فلهم المنافقون وقالوا: ما الذي أعطى ابن عوف إلا رياء. وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا!!!؟»

{وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

ولذلك يلزمون الذين لا يجدون إلا طاقتهم من فقراء المسلمين، ويسخرون منهم لأنهم تصدَّقوا بالقليل الذي وجدوه وقَدَّرُوا عليه، جازاهم الله على سخريتهم بما كشف من فضائهم، وجعلهم سخرية للناس أجمعين، ولهم في الآخرة عذابٌ شديد.

ثم بين الله تعالى عقابهم وسوَّاهم بالكافرين فقال:

{استَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} .

لقد تقرر مصير هؤلاء المنافقين حتى إن الاستغفار لهم وطلب العفو عنهم لن يجدي، فسواءً ان تستغفر لهم أيها النبي ام لا، ومهما أكثرْتَ من طلب المغفرة لهم، فلن يعفو الله عنهم، وهذا معنى «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» فالمراد كثرة الاستغفار لا العدد المحدد.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} .

ولقد كفر هؤلاء بالله ورسوله، فلا أمل في العفو والمغفرة مع الكفر والاصرار عليه، والله لا يهدي الخارجين عليه وعلى رسوله، أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد تُرجى لهم توبة، وفسدت قلوبهم فلم يعد يُرجى لها صلاح.

٩٠٢٦ 81

خلاف رسول الله: بعده المخلفون: الذين تخلفوا عن الغزو. مع الخالفين: المتخلفين.

بعد ان ذكر الله بعض سيئات المنافقين من لمزهم المسلمين في الصدقات وغير ذلك- عادَ الى الحديث عن الذين تخلفوا عن القتال في غزوة تبوك، وإلى بيان ما يجب من معاملة هؤلاء بعد الرجوع اليها.

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} .

لقد فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين بقعودهم في المدينة بعد خروج النبي، وبخالفته أمره بالجهاد، وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل الله اعلاء كلمة الله ونصر دينه.

{وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} .

وكذلك أخذوا يثبطون غيرهم ويغرونهم بالقعود معهم، وقالوا لإخوانهم في النفاق: لا تَنْفِرُوا في الحر. قل لهم أيها الرسول: لو كنتم تعقلون لعلمتم أن نار جهنم أكثر حرارةً وأشد قسوةً من هذا الحر الذي تخافون.

ثم اخبر تعالى عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبارك الطويل التي تؤدي اليه أعمالهم السيئة بقوله:

{فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} .

فليضحكوا فرحاً بالقعود، وسخريّةً من المؤمنين. إنَّ ضَحَكَهُمْ زَمَنُهُ قَلِيلٌ، لانتهائه بانتهاى حياتهم في الدنيا، وسيعقبه بكاءٌ كثير لا نهاية له في الآخرة، جزاءٌ لهم بما ارتكبوا من الاعمال السيئة.

ثم بين ما يجب ان يُعاملوا به في الدنيا، وأنهم لا يصلحون لكفاح، ولا يُرجون للجهاد، ولا يجوز ان يتسامع معهم. {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} .

إن ردك الله يا محمد من سفرِكَ هذا وجاءت إليك طائفة من المنافقين المتخلفين عن الغزو، فاستأذنوك ليخرجوا معك للجهاد في غزوة أخرى، فلا تأذن لهم، وقل لهم: لن تخرجوا معي آية غزوة للجهاد في سبيل الله، ولن تقاتلوا معي عدوا.

ثم بين سبب النهي عن صحبتهم للرسول الكريم فقال:

{إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقَعْدِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} .

إنكم تخلفتم عن الخروج للجهاد في أول مرة بدون سبب، ورضيتم لأنفسكم، بخزي القعود، فاقعدوا كما ارتضيتم، وابقوا مع المتخلفين من العجزة والنساء والاطفال.

٩٠٢٧ 84

الطول: الغنى والقوة. ذرنا اتركنا: الخوالب: كل من تخلف عن الجهاد. طبع على قلوبهم: ختم عليها.

بعد ان امر الله رسوله بفضح المنافقين وإذلالهم بمنعهم من الجهاد، أمره ان لا يصلي على من مات منهم، ولا يوليهم أي تكريم، فهم لا يستحقونه أبداً.

{وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} .

لا تصل أيها الرسول عبد الآن في جنازة أحد من هؤلاء المنافقين، ولا تتول دفنه، ولا تقم عليه كما تفعل على قبور المؤمنين. وكان الرسول اذا فرغ من دفن الميت وقف على قبره وقال: «استغفروا لأخيكم وسلوه له التثبيت فإنه الآن يسأل» . رواه ابو داود والحكم عن عثمان رضي الله عنه.

{إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} .

لأنهم كفروا وامتضوا وهم خارجون من حظيرة الاسلام.

«روى احمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لما توفي عبد الله بن أبي، دُعي رسول الله للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قلت: أتصلي على عدو الله، عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا؟ ورسول الله يتسم. حتى اذا أكثرْتُ قال: يا عمر، أخر عني. أي قد خُبرت: قد قيل لي: استغفر لهم. . . الآية، فلو أعمل اني زدتُ على السبعين غُفر له لزدتُ عليها ثم صلى عليه ومشى معه حتى قام على قبره الى ان فرغ منه. فعجبتُ لي ولجرائي على رسول الله، فوا الله ما كان الا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان:» ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . «فما صلى رسول الله على منافق بعده» .

وقد أنكر بعض العلماء هذا الحديث، وقالوا إنه مخالف للآية، وقد روي عن طريق ابن عمر وجابر بن عبد الله، ولا أرى في هذا الحديث ما يخالف الآية اذا كان الحديث من اسباب النزول. والحديث صحيح لا مجال للطعن فيه، والنبي انما صلى عليه من أجل ولده المؤمن الصحابي الجليل، وكان هذا طلب من الرسول الكريم ان يصلي على والده وقال له: يا رسول الله، إنك ان لم تأته نُعير به.

{وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} .

تقدمت هذه الآية في نفس السورة رقم ٥٥ وفيها زيادة (لا) وهي: «فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم الخ. . .» وقد أعاد الله تعالى هذه الآية تأكيداً للتحذير.

{وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} .
 إذا أنزلت سورة تدعو المنافقين الى الإخلاص في الإيمان بالله، وتأمُرُ بالجهاد في سبيل الله - جاء الأغنياء منهم والذين عندهم المقدرة يطلبون من الرسول الكريم ان يأذن لهم في التخلف، وقالوا: اتركنا مع القاعد في بيوتهم.
 وذلك لجبنهم وبخلهم في ان يجودوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.
 {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} .
 انهم قد ارتضوا لأنفسهم ان يكونوا في عداد المتخلفين من النساء والعجزة والاطفال ممن لم يكتب عليهم القتال، وختم الله على قلوبهم بالخوف والنفاق، فهم لا يفقهون ما في الجهاد من عز في الدنيا ورضوان من الله في الآخرة.
 {لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} .
 ان الرسول والذين آمنوا معه قد جاهدوا وبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، اعلاء لكلمته، فلهؤلاء كل خير في الدنيا من العز والنصر والعمل الصالح، وهم الفائزون بسعاد الدنيا والآخرة.
 {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .
 قد هيا الله لهم في الآخرة النعيم الدائم، في جنات تتخللها الأنهار، وذلك هو النجاح الكبير. وهذا من أسلوب القرآن الحكيم يقابل الصور دائماً ويبين السيء من الحسن ليتعظ الناس بذلك.

٩٠٢٨ ٩٠

المعذرون: المعتذرين سواء كان العذر صحيحاً ام غير صحيح الاعراب: سكان البادية نصحو: اخلصوا.
 {وَجَاءَ الْمَعْذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} .
 كما تخلف بعض المنافقين في المدينة عن الخروج للجهاد، جاء فريق من أهل البادية، ينتحلون الأعذار ليؤذن لهم في التخلف، وقال بعضهم: يا نبي الله، إن غزونا معك أغارت طيء على نساءنا وأولادنا وأنعامنا، فقال لهم رسول الله: قد أنبأني الله من أخباركم وسسغني الله عنكم.
 {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} .
 وهؤلاء هم المنافقون. قعدوا عن كل من القتال والحجى للاعتذار وتخلفوا بلا عذر كاذبين على الله ورسوله.
 {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .
 سيكون جزاء الذين كفروا بكذبهم على الله ورسوله من المنافقين والكاذبين من المعتذرين، عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة.
 قراءات:
 قرأ يعقوب: «المعذرون» بسكون العين والذال المسكورة بدو تشديد.
 وبعد ان بين الله تعالى أحوال المنافقين والكاذبين، وما ينتظرهم من عذاب، ذكر هنا ثلاثة أصناف أعذارهم مقبولة، فالإسلام دين يسر، ولا يكلف الله نفساً الا وسعها.
 {لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} .
 ان التكليف بالغزو ساقط عن أصناف ثلاثة:
 ١- الضعفاء: وهم من لا قوة لهم تمكنهم من الجهاد كالشيخ المتقدم في السن، والعجزة، والصبيان وذوي العاهات التي لاتزول.
 ٢- المرضى: وهم من أصيبوا بأمراض أقعدتهم فلا يتمكنون معها من الجهاد، وتبي عذرهم اذا شفاهم الله.

٣- الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون منه على أنفسهم إذا خرجوا للجهاد ولا ما يكفي عيالهم. ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلّة في تكوينهم، أو شيخوخة تقهدهم، ولا المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهاد، ولا المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون منه - أي حرج إذا تخلّفوا عن المعركة، وقلوبهم مخلصّة لله ورسوله. {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

ليس على المحسن في عمله وإيمانه أية مؤاخذه ولا مسئولية، فالله كثير المغفرة، واسع الرحمة يستر على المقصر في أداء واجبه ما جام مخلصّة لله والرسول.

نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم، واختلّف في اسمه أهو: عبد الله أم عمرو بن قيس بن زائدة وكان هذا ضريراً جاء الى رسول الله فقال: يا نبي الله، إني شيخ ضير ضعيف الحال وليس لي قائد، فهل لي رخصة في التخلّف عن الجهاد؟ فسكت النبي الكريم فأنزل الله «ليس على الضعفاء ولا على المرضى... الآية» .

{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} . كذلك لا حرج ولا مسئولية على القادرين على الحرب، لكنهم لا يجدون الرواحل التي تحملهم الى أرض المعركة، وإذا جاؤك يطلبون منك العون لتؤمن لهم ما يركبون لم تجد أنت أيضاً ما تحملهم عليه، فانصرفوا من عندك وهم ييكون، لأنهم حرّموا من الجهاد ولم يجدوا ما يعينهم عليه.

هؤلاء هم البكاؤون نزلت فيهم الآية وهم سبعة أشخاص: عبد الرحمن بن كعب، وعليه بن زيد، وعمرو بن ثعلبة، وسالم بن عبيد، ومعل بن يسار، وعبد الله بن عمرو بن عوف، وعبد الله بن مغفل. . . جاؤوا الى الرسول الكريم فقالوا: يا رسول الله، احملنا فانه ليس لنا ما نخرج عليه، فقال: لا أجِدُ ما أحملكم عليه.

وهناك روايات أخرى. {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} . انما اللوم والمسئولية على هؤلاء الذين يطلبون الإذن في القعود عن الجهاد، وهم أغنياء قادرون على الخروج معكم، لكنهم مع قدرتهم رضوا بأن يقعدوا مع الخلفين من العجزة والمرضى. هؤلاء ختم الله على قلوبهم فأغلقت عن الحق، فهم لا يعلمون حقيقة أمرهم، ولا سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

٩٠٢٩ 94

عالم الغيب: كل ما غاب عنا علمه. والشهادة: ما نشهده ونعرفه. اذا انقلبتم اليهم: اذا رجعتم اليهم رجس: قدر يجب تجنبه. {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} .

سعتذر إليكم أيها المؤمنون المجاهدون هؤلاء المتخلفون المقصرون، عند رجوعكم من ميدان الجهاد. {قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ} .

قل لهم أيها الرسول: لا تعتذروا، فإننا لن نصدقكم. ثم بين الله السبب في عدم تصديقهم فقال: {قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ} .

فالله قد كشف حقيقة نفوسكم وأوحى الى نبيه بعض أخباركم التي تسرونها في ضمائركم. {وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد، ثم يكون مصيركم بعد الحياة الدنيا الى الله الذي يعلم ما تكتُمون وما تُظهرون، فيُخبرك بما كنتم تعلمون، ويجازيكم عليه.

ثم أكد ما سبق من نفاهم بقوله:

{سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ} .

سيؤكد لكم اعتذارهم بما يخلِفون بالله لكم من الأيمان الكاذبة بأنهم صادقون في معاذيرهم، إذا رجعت من سفرِكم في غزوة تبوك، لكي يُرضوكم فتغفلوا عن علمهم. . . لا تحقّقوا لهم هذا الغرض. {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ} .

فاجتنبوا وامقتوهم.

روى مقاتل أن النبي ﷺ قال حين قدم المدينة «أتجالسوهم ولا تكلموهم، إنهم رجس» فهم في أشد درجات الخبث النفسي والكفر. {وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} .

ومصيرهم إلى جهنم، عقاباً على ما اقترفوه من نفاق وكذب.

ثم زاد في تأكيد نفاقهم فقال: «يخلِفون لكم لترضوا عنهم» أي إنهم سوف يخلِفون لكم طمعاً في رضاكم عنهم، لتعاملوهم معاملة المسلمين.

{فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} .

فان خدعتم بأيمانهم ورضيتهم عنهم، فإن هذا لا ينفعهم، لأن الله ساخطٌ عليهم لفسقهم ونفاقهم، وخروجهم على الدين. روي عن ابن عباس ان هذه الآيات نزلت في الجذ بن قيس بن قشير واصحابه.

من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً أمر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا الى المدينة أن لا يجالسوهم لا يكلموهم.

وهكذا قرر الله العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين، كما قررها من قبل بين المسلمين والمشرّكين، وبي اهل الكتاب والمسلمين، وكانت هذه السورة العظيمة هي الحكم النهائي الأخير.

٩٠٣٠ ٩٧

الأعراب: سكان البادية من العرب. مغرماً: غرامة الدوائر: مفردها دائرة المصيبة. قربات: واحدها قربة، طلب الثواب، والكرامة من الله. صلوات من الرسول: دعوات منه.

كان يجاور المؤمنين السابقين المخلصين من المهاجرين والانصار، جماعات أخرى: الأعراب: وفيهم المخلصون والمنافقون؛ والمنافقون من أهل المدينة، وقد كشفهم الله تعالى بهذه السورة المباركة؛ وآخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ولم ينصروا في بوتقة لاسلام تماماً؛ وطائفة مجهولة الحال لا تُعرف حقيقة مصيرها، أمرها متروك لله؛ ومتآمرون يتسترون باسم الاسلام، ويدبرون المكائد ويتصلون بأعداء الاسلام في الخارج. والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الجماعات كلّها باختصار مفيد، ويقرر كيف يجب ان تعامل هذه الجماعات.

وهو يقسم الناس على أساس التقوى والإيما الخالص بالله والعمل الصالح، فقد تحدّث عن أحال العرب مؤمنهم ومنافقيهم، وبين في هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنهم ومنافقيهم فقال:

{الأعراب أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} .

الأعراب من أهل البادية اشدّ ونفاقاً من أمثالهم أهل الحضر، لأنهم يقضون جلّ أعمارهم في البادية يخدمون مواشيهم وأنعامهم، بعيدين عن أهل العلم والحكمة. وهم حقيقون أن يجهلوا حدود الله، وما أنزل على رسوله من شرائع واحكام، والله عليم حكيم، واسع العلم

بشئون عباده وأحوالهم، حكيم فيما يقدره من جزاء ومن نعيم.

وقد وردت أحاديث كثيرة تشير الى جفاء الاعراب، وغلظتهم، وبعدهم عن الآداب والمعرفة. قال ابن كثير في تفسيره: «جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان، أحد التابعين العلماء الشجعان، وقد شهد الفتوح وقطعت يده في نهاوند، فقال له الاعرابي: والله إن حديثك ليُعجبني، وإن يدك لتُريني. فقال زيد: وما يريك من يدي، إنها الشمال! فقال الاعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال فقال زيد بن صوحان: صدق الله ورسوله: {الأعراب أشدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ}. وعن ابن عباس ان رسول الله ﷺ قال: «من سكن الأبدية جفا» وهناك روايات كثيرة تكشف عن طابع الجفوة والفظاظة في نفوس الأعراب حتى بعد الاسلام.

وبعد هذا الوصف العام للأعراب يقسمهم القرآن قسمين فيقول تعالى:

{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

هنا بدأ بذكر المنافقين من الأعراب، لأن الحديث أصلاً كان من المنافقين عامة. ومعناه: ان بعض المنافقين من اهلا البادية يعتبرون الإنفاق في سبيل الله غرامةً وخسرانا، فالرجل منهم مضطر لأن ينفق من ماله في الزكاة وغيرها تظاهراً بالاسلام وهو كاره لذلك. وهو لا يفعل حباً في انصار الاسلام والمسلمين، وإنما ليستمتع بمزايا الحياة في المجتمع المسلم.

ومثل هذا المنافق البدوي ينتظر متى تدور الدوائر على المسلمين، فعليه وعلى أمثاله وحدهم ستحل دائرة السوء والمصيبة. ان الشر ينتظرونه لكم، أيها المسلمون سيكون محيطاً بهم، فالله سميع لما يقولون عنكم، عليم بأفعالهم ونياتهم تجاهكم.

وبعد أولئك الأعراب المنافقين، يذكر الكتاب حال المؤمنين الصادقين ممن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان:

{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

أما المؤمنون بالله واليوم الآخر، والذين يتخذون الإنفاق في سبيل الله وسيلةً يتقربون بها إلى الله، وسبباً لدعاء الرسول لهم «اذ كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، وستغفر لهم» فإن ما ينفقونه في، الخير وصلوات الرسول عليهم - قربة عظيمة قد تقبلها الله وأثاب عليها، وسيدخلهم في رحمته الواسعة، فهو وساع المغفرة لمن يخلصون في أعمالهم.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو: «السوء» بضم السين. والباقون: «السوء» بفتح السين. وقرأ ورش واسماعيل عن نافع: «انها قربة» بضم القاف والراء والباقون: «قربة» باسكان الراء.

٩٠٣١ 100

رضي الله عنهم: قبل طاعتهم. ورضوا عنه: بما افاض عليهم من نعمة. مردوا على النفاق: بتوا عليه، واتقنوا اساليبه.

بعد تصنيف الأعراب الى مؤمنين ومنافقين، صنف الله تعالى المجتمع كله حاضره وبادية الى اربع طبقات:

الأولى: السابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان.

الثانية: المنافقون الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة والأعراب.

الثالثة: الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

والرابعة: الذين ارجئ الحكم في أمرهم يقضي الله فيهم بقضائه.

{والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان}.

هؤلاء هم الطبقة الأولى: السابقون من المهاجرين الذين لاقوا من الشدائد والعذاب والاضطهاد ما اضطهرهم إلى الهجرة، والسابقون من الأنصار، الذي آووا الرسول ونصروه، والذين ابتعواهم بإحسان. هذه الطبقة بمجموعاتها الثلاث هم القاعدة الأساسية للمجتمع المسلم. هؤلاء جميعاً رضي الله عنهم في إيمانهم وإسلامهم، فقبل طاعتهم وبجيزتهم أحسن الجزاء، ورضوا عنه بالاطمئنان إليه، والثقة بقدره. ولذلك {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .

وها الوعد الكريم من رب العالمين هو الذي يستبشر به أولئك المسلمون. إنه جنات تجري الأنهار تحت أشجارها، فينعمون فيها نعيماً أدياً، وأي فوز بعد هذا!!

ثم إنه يذكر حال الطبقة الثانية، وهم منافقوا أهل المدينة ومن حولها:

{وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَهُمْ نَحْنُ نَعْلَهُمْ سَنَّادُكُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} .

لقد سبق الحديث عن المنافقين عامة، لكن الحديث هنا عن صنف خاص منهم، حدق النفاق ومَرَنَ عليه، حتى ليخفى امره على رسول الله مع كل فراسته وتجربته. والله تعالى يقرر ان هذه الفئة من الناس موجودة في أهل المدينة وفي الأعراب المحيطين بالمدينة، ويضمن الرسول الكريم والمؤمنين معه، من كيد هذه الفئة الماكرة، وانه سيتولى أمرهم ولن يدعهم، بل سيعذبهم عذاباً مضاعفاً: مرتين في الدنيا، مرة بنصر بالمسلمين على اعدائهم مما يغيب أولئك المنافقين، ومرة بفضيحتهم وكشف نفاقهم. أما في الآخرة فسيصلون عذاب جهنم وهولها الشديد.

وجملة القول ان المنافقين فريقان: فريق عُرِفوا بأقوال قالوها، وأعمال عملوها. . . وهؤلاء مكشوفون معروفون، وفريق حدقوا النفاق حدقوا النفاق حتى لا يشعر احد بشيء يستكره منهم.

وهذان الفريقان يوجدان في كل عصر، والأمة مبتلاة بهم في كل قطر، وهم يزعمون انهم يخدمون الأمة باسم الوطنية او اسم الدين، ويستغلون مناصبهم، ويجمعون الاموال لأنفسهم. نسأل الله السلامة منهم.

{وَأَخْرُوجُوا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

هذه هي الطبقة الثالثة: هؤلاء من المؤمنين ليسوا منافقين، ولا من السابقين الأولين ولكنهم من الذين خلطوا الصالح من العمل السيء منه، كالذين تخلّفوا عن الخروج الى غزوة تبوك من غير عذر صحيح، ولم يستأذنوا كاستئذان المرتاتين، ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين. ومنهم ثلاثة معروفون، هم أبو لبابة بن عبد المنذر، وثعلبة بن وديعة، وأوس ابن حذاف، من الأنصار، تخلّفوا عن رسول الله في غزوة تبوك. فلما رجع من غزوته، ندموا على ما فعلوا وأوثقوا أنفسهم في سواري المسجد. فلما مر بهم سأل عنهم فقالوا له تخلّفوا عنك يا نبي الله، فصنعوا بأنفسهم ما ترى، وعاهدوا الله ان لا يطلقوا أنفسهم حتى تطلقهم انت فقال: وأنا لا أطلقهم حتاً ومراً بإطلاقهم. فأنزل الله تعالى: {وَأَخْرُوجُوا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} . . . الآية} .

وهذا الصنف الناس كثير، فالإنسان ضعيف والمغريات كثيرة، والنفس أمارة بالسوء. ونحمد الله تعالى على أن باب التوبة مفتوح دائماً، ولذلك قال تعالى:

{عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

فلا اعتراف بالذنب والشعور بوطأته دليل على حياة القلب، ومن ثم فإن التوبة رجوة القبول، والمغفرة مرتبة من الغفور الرحيم. وقد قبل الله توبتهم ورحمهم. . وهذا ينطبق على كل مسلم يخطئ ثم يرجع الى الله. بل ان هذه الفئة من الناس هي الغالبية العظمى من البشر. . يخطئون ويتوبون، لكن الله رؤوف رحيم تواب يقبل التوبة.

الصدقة: ما ينفقه المؤمن قربة لله. تطهرهم: تحو ذنوبهم. وتزكّيمهم: تصلحهم وترفعهم الى منازل الابرار. ان صلاتك سكن لهم: ان دعائك لهم يدخل الاطمئنان والراحة الى نفوسهم وآخرون مرجون: مؤخرون لأمر الله.

والطبقة الرابعة ستأتي في الآية (١٠٦)

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

خذ أيها الرسول من أموال هؤلاء التائبين صدقات تطهرهم بها من الذنوب والشح، وترفع درجاتهم عند الله، وادع لهم بالخير والهداية. . . فإن دعائك تطمئن به قلوبهم، والله سميح للداء عليم بالمخلصين في توبتهم.

«روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبه انطلق ابو لبابة وصاحبه بأمواله الى الرسول الكريم، وقالوا: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصل علينا (يعني استغفر لنا وطهرنا) فقال رسول الله: لا آخذ منها شيئاً حتى يأتينا أمر الله» أنزل الله تعالى: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً . . الآية } فأخذ.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: «ان صلاتك» وقرأ الباقون: «ان صلواتك» بالجمع.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } .

ألا فليعلم هؤلاء التائبون أن الله هو الذي يقبل التوبة الخالصة من عباده، وهو الذي يأخذ الصدقة، وأنه سبحانه هو الواسع الفضل في قبول التوبة، ذو الرحمة الشاملة لعباده.

وباب التوبة مفتوح دائماً، روى الترمذي: ما أصرّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة.

وفي موضع الصدقات، روى الشيخان عن ابي هريرة ان النبي ﷺ قال: «ما تصدّق أحدكم بصدقة من كسبٍ حلال طيب، ولا يقبل الله الا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرّة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله» فالصدقة مقبولة مهما كان حجمها. وفي الحديث ايضا «تصدّقوا ولو بشقّ تمرّة» والغلو، المهر يفصل عن الفرس.

ثم يتوجّه الكلام بالخطاب إلى جميع المكلفين أن يعملوا، لأن الإسلام منحهم حياة واقعية، لا تكفي فيها المشاعر والنوايا، ما لم تتحوّل الى حركة وعمل دائم.

{ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } .

قل لهم ايها الرسول: اعملوا لدنياكم وآخركم ولا تقصّروا في عمل الخير وأداء الواجب. إن ربكم يعلم كل أعمالكم، وسيراها هو والرسول والمؤمنون، فيزنونها بميزان الإيمان ويشهدون بقتضاها. ثم ترجعون بعد الموت الى الله الذي يعمل سرّكم وجهركم، فيجازيكم بأعمالكم. والمنهج الإسلامي في حقيقته منهج عقيدة وعمل.

ثم جاء ذكر الطبقة الرابعة التي لم يبت في أمرها بل وكل أمرها الى الله.

{ وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِلَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } .

هؤلاء هم القسم الأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك، غير النافقين والمعتذرين والمخطئين التائبين. وقد تأخر البت في أمرهم، وكان أمرهم موكولاً الى الله، لم يعلموه، ولم يعلمه الناس. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: هم الثلاثة الذين خلّفوا وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً الى الدعة والتمتع بطيب الثمار، لا شكاً ولا نفاقاً. وسيأتي ذكرهم في الآية (١١٨) .

فهؤلاء مرجأون لأمر الله: إما أن يعذبهم، وإما ان يتوب عليهم ويغفر لهم.

قراءات:

قرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص «مَرْجُون» كما في المصحف، وقرأ الباقون «مرجأون» وهذا في اللغة جائز يقال أرجأت الأمر وأرجيته.

٩٠٣٣ 107

ضرارا: لمحاولة الضرر. ارسادا: ارتقبا. على شفا: على حرف. جرف: جانب الوادي هار: متداع آيل للسقوط.
سبب نزول هذه الآيات انه كان في المدينة رجل اسمه ابو عامر الراهب، قد تنصّر في الجاهلية وقرأ التوراة. وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرق كبير بين قومه من الأوس والخزرج، فلما قدم الرسول الى المدينة دعاه الى الله وقرأ عليه القرآن، فأبى أبو عامر أن يسلم وتمرد، فدعا عليه الرسول أن يموت طريداً. . . فنالته الدعوة مات في بلاد الروم.
وقد تجمّع حوله جماعة من المنافقين، ورأوا ان افضل وسيلة يكيدون فيها للإسلام ونبية الكريم أن يبنوا مسجداً تحت شعار الدين، ثم يعملون للكفر بالله ورسوله، ولهدم الإسلام، والإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم.

وقد بنوا المسجد وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ الى تبوك، وجاءوا فسألوه ان يصلي في مسجدهم ليكون ذلك ذريعة الى غرضهم، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية. فقال لهم الرسول الكريم: إنا على سفر، ولكن اذا رجعنا إن شاء الله. وقبل ان يصل المدينة في رجوعه من تبوك نزلت عليه هذه الايات، فبعث بعض أصحابه وأمرهم أن يهدموا ذلك المسجد، ففعلوا.
أما أبو عامر الفاسق كما سماه الرسول فإنه لما رأى الاسلام في ظهور وارتفاع - هرب إلى هرقل ملك الروم يستنصره. فوعده هذا وأقام أبو عامر عنده، وكتب الى جماعة من اهل النفاق في قومه يعدهم بأنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله، وأمرهم ان يتخذوا معقلاً يقدم عليهم فيه، ويكون له مرصدا بعد ذلك فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء كما تقدّمت قصته، وهلك أبو عامر ولم يعد.
وابو عامر هذا من الأوس، لكنه ورد في تفسير ابن كثير انه من الخزرج. . . وقديماً كانوا يسمون الأوس والخزرج باسم «الخزرج» .

هذا هو مسجد الضرار الذي اتخذ على عهد رسول الله مكيدة للإسلام والمسلمين.
{والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون} .

من المنافقين جماعة بنوا مسجداً لا يبتغون به وجه الله، وإنما لإلحاق الضرر والتفريق بين جماعة المؤمنين. وسخلفون على انهم ما ارادوا ببناء هذا المسجد إلا الخير والعمل الأحسن، لكن الله يشهد عليهم أنهم كاذبون في أيمانهم.

{لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} .

لا تصل أيها الرسول في هذا المسجد ابداً. إن المسجد الذي أقيم على التقوى ابتغاء لوجه الله، وطلباً لمرضاته، من اول يوم- هو أحق من غيره ان تصلي فيه وتؤدي شعائر الله وهو مسجد قباء.

{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا لِلَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} .

ان في مسجد قباء رجالاً يعمرونه بإقامة الصلاة، يحبون ان يطهروا اجسادهم وقلوبهم بأداء العبادة الصحيحة فيه، «والله يحب المطهرين» الذين يبالغون في طهارة الروح والجسد، لأن فيهما الكمال الانساني.

{أَفَنَنْتَ أَسَسَ بَنِيانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بَنِيانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} .

لا يستوي في عقيدته ولا في عمله من أقام بنيانه على الإخلاص في تقوى الله وابتغاء مرضاته مع ذاك الذي أقام بنيانه على النفاق

والكفر!! فإنَّ عمل المؤمن الصالح مستقيمٌ ثابت على أصل متين، فيما علم المنافق كالبناء على حافةٍ هابويةٍ بدون أساس، فهو واهٍ ساقط، يقع بصاحبه في نار جهنم، والله لا يهدي الظالمين إلى طريق الرشاد.

{لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} .

سيظل الذي بناه المنافون ريبةً مُصدراً اضطرابٍ وخوفٍ في قلوبهم، لا ينتهي حتى تُتقطع قلوبهم بالندم والتوبة أو بالموت، والله عليم بكل شيء، حكيم في أفعاله.
قراءات:

قرأ نافع وابن عامر: «الذين اتخذوا مسجدا ضارا» بدون واو والباقون: «والذين. . .» وقرأ نافع وابن عامر: «أسس بنيانه» بضم الألف ورفع بنيانه في الموضعين. وقرأ الباقون: «أسس بنيانه» وقرأ ابن عامر وحمزة وابو بكر: «جرف» باسكان الراء. وقرأ الباقون: «جرف» بضم الجيم والراء. وقرأ يعقوب: «الى ان تقطع قلوبهم» وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص: «تقطع» بفتح التاء والطاء المشددة. وقرأ الباقون: «تقطع» بضم التاء وتشديد الطاء المفتوحة.

٩٠٣٤ 111

يؤكد الله وعده للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيله بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمناً لما بذلوه. انهم يجاهدون في سبيل الله فيقتلون أعداء الله أو يستشهدون في سبيل الله. وقد أثبت الله هذا الوعد الحق في التوراة والانجيل كما اثبتته في القرآن، وليس أحد أبّر وأوفى بعهده من الله، فافرحوا ايها المجاهدون وأبشروا بهذه المبايعه. فيها الظفر الكبير لكم.

وهذا ترغيب في الجهاد عل أبلغ وجه، فالله سبحانه هو المشتري، والمؤمنون هم البائعون، والانفس والاموال هي المبيع، والثن هو اللجنة ذالك عقد ذكرته الكتب السماوية كلها، وفي ذلك منتهى الربح والفوز العظيم.

«روى ابن ابي حاتم عن جابر قال: نزلت هذه الآية على رسول الله في المسجد، فكبر في المسجد. فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرف ردائه على عاتقه فقال: يا رسول الله، أنزلت فينا هذه الآية؟ قال: نعم فقال الانصاري: بيع ربيع لا نقيلا ولا نستقيل» .

ثم وصف الله هؤلاء الكفلة من المؤمنين الذين اشترى منهم انفسهم وأموالهم، بأنهم صفوة مختارة، ذات صفات مميزة، منها ما يختص بذوات انفسهم، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فقال:

{التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين}

ان اوصاف هؤلاء باعوا انفسهم لله بالجنة، انهم: يكثرُون التوبة الى الله من هفواتهم، ويحمدونه على كل حال، ويسعون في سبيل الخير لأنفسهم ولغيرهم، ويحافظون على صلواتهم ويؤدونها كاملة في خشوع، ويأمرون بكل خير يوافق ما جاء به الشرع، وينهون عن كل شر ياباهن ويلتزمون بشريعة الله. وبشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات بخيري الدنيا والآخرة.
قراءات:

قرأ عاصم: (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) وهي قراءة المصحف وقرأ حمزة والكسائي: «فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ» بتقديم الفعل المبني للمفعول.

٩٠٣٥ 113

لأواه: كثير التأوه، الخاشع الكثير الدعاء. حليم: لا يغضب، هادئ الأعصاب.

كان الكلام من اول السورة الى هنا براءة من الكفار والمنافقين في جميع الاحوال، وهنا بين الله تعالى انه يجب البراءة من الكفار ولو كانوا أولي قرابة، وأن ابراهيم عندما استغفر لوالده كان قد وعدَه بذلك، فلما أصرَّ والده على كفره تبرأ ابراهيم منه.

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} .

ليس للنبي وللمؤمنين ان يطلبوا المغفرة للمشركين، ولو كانوا اقرب الناس اليهم، من بعد ما تبين لهم بالدليل انهم من اصحاب النار. وقد وردت روايات ان هذه الآية نزلت في ابي طالب، وهذا غير صحيح، فان ابا طالب مات قبل الهجرة، وهذه الآية نزلت بعد غزوة تبوك والمدة بينهما نحو ١٢ سنة.

ثم اجاب على سؤال قد يخطر بالبال، فيقال كيف يمنع النبي والمؤمنين من الاستغفار لاقربائهم وقد استغفر ابراهيم لأبيه فقال: {وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ} .

ولم يكن ما فعله ابراهيم عليه السلام منا لاستغفار لأبيه، الا تحقيقاً لوعده من ابراهيم له، وذلك بقوله تعالى: {سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مریم: ٤٧] وبقوله: {واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ} [الشعراء: ٨٧] وقد وفى ابراهيم بما وعد. {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} .

فلما مات ابوه ولم يؤمن تبين له انه مات كافراً وانه عدو الله، فتبرأ منه وترك الاستغفار له. {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} ان ابراهيم كبر الخشية والدعاء لله، صبور على الأذى والصفح عن غيره.

٩٠٣٦ 115

قل مات قوم من المسلمين على الاسلام قبل ان تنزل الفرائض، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم عند الله؟ فنزل قوله تعالى:

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} .

ما كان من سنن الله ولطفه بعباده ان يصف قوماً بالضلال، ويُجزى عليهم أحكامه بالذم والعقاب، بعد ان هداهم للإسلام. {حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ} من الأقوال والافعال بياناً واضحاً. {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

انه تعالى عليم بجميع الاشياء، محيط علمه بكل شيء.

{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} .

ان الله وحده مالك السماوات والأرض وما فيها، وهو المتصرف فيهما بالإحياء والإماتة، وليس لكن سوى الله من ولي يتولى امرهم، ولا نصير ينصرهم.

٩٠٣٧ 117

العسرة: الشدة والضيق وُسِّيت غزوة تبوك غزوة العسرة لما كا فيها من شدة وضيق وحاجة. يزيع: يميل بما رحبت: بما وسعت على اتساعها. ظنوا: معناها هنا اعتقدوا.

بعد ان استقصى الله احوال المتخلفين عامة من غزوة تبوك، عاد مرة اخرى الى الكلام في توبتهم.

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} .

لقد تفضل الله سبحانه عل نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والانصار الذين يخرجوا معه الى الجهاد في وقت الشدة. وقد سُميت غزوة تبوك غزوة العسرة لعسرة المسلمين مادياً إبان ذلك. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: عسرة الظهر، يعني عدم وجود ما يركبون عليه، وعسرة الزاد، وعسرة الماء.

{مِّنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ} .

لقد تاب عليهم فثبتهم وصانهم عن التخلف من بعد ما اشتد الضيق بفريق منهم، حتى كادت قلوبهم تميل الى التخلف. وكان الله بهم رؤوفاً رحيمًا.

وتوبة الله على عباده هي توفيقهم للتوبة وقبولها منهم. وقد كرر التوبة ههنا لتأكيد على قبولها عند الله. {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} .

لقد تفضل الله تعالى بالعفو عن الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج للجهاد في غزوة تبوك ولم يكن تخلفهم عن نفاق. وهو يعلم أنهم مؤمنون صادقون. لذا كانت توبتهم خالصة، وندمهم شديداً حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على سعتها، وضاقت عليهم نفوسهم همًا وحزنًا. لقد عموا انه لا ملجأ من غضب الله الا بالرجوع إليه، وحينئذ هداهم الى التوبة، وعفا عنهم، فهو التواب الرحيم. والثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك وهلال بن امية، ومرارة بن الربيع، وجميعهم من الانصار. وكان كعب بن مالك من أكابر الشعراء ومن الصحابة الصادقين وأحد المناخين عن النبي الكريم بشعره. وقد روى البخاري ومسلم قصته بالتفصيل. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله في غزوة غزاها الا في دبرٍ وتبوك، والرسول لم يعاتب احداً تخلف عن غزوة بدر.

وكنت وقت غزوة تبوك في حالة جيدة من المال والصحة، عندي راحلتان. وقد بقيت أغدو وأروح لأتجهز فلم أوفق، وظللت أتعلل باني قادر وسوف ابتعهم. ولما رجع رسول الله عن الغزوة وجلس للناس جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم عذرهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم الى الله. فحُثته أنا، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: ما خلقت؟ الم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى، اني والله لو جلست عند غيرك من اهل الدنيا، لرأيت ان سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله قد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله ان يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه، اني لأرجو فيه عفو الله.

لا والله ما كان لي من عذر. . فقال رسول الله: أما هذا فقد صدق، قم حتى يقضي الله فيك، فقمتم. وكذلك فعل صاحبه فصدق رسول الله. وكان الثلاثة من الصحابة المرموقين فأثروا الصدق وفاء لديهم، وخوفاً من ان يفضح الله كذبهم. وسمع النبي منهم واعلن انهم قد صدقوه، ولم يعف عنهم مع ذلك، بل ترك امرهم الى الله. وأمر المؤمنين ان لا يكلموهم. وينظر هؤلاء الثلاثة فإذا هم في عزلة بغیضة الى نفوسهم، السجن أهون منها.

يقول كعب: فبينما انا أمشي بسوق المدينة، اذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى اذا جاءني، رفع اليّ كتاباً من ملك غسان، فاذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني ان صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نؤاسك، فقلت لما قرأتها: وهذا ايضاً من البلاء، فأحرقت الكتاب.

وبعد ان مضت أربعون ليلة أرسل اليهم النبي ان يعتزلوا نساءهم. وبعد ان مضت عليهم نحسون ليلة في هذه العزلة، كان الندم قد أخذ من قلوبهم أقوى مأخذ، فأنزل الله توبته عليهم في هاتين الآيتين الكريمتين، وقد ابتهج المؤمنون كلهم لذلك، فكانوا يهتئونهم بذلك. يقول كعب: لما بلغني النبأ انطلقت الى رسول الله ﷺ فاذا هو جالس في المسجد حوله المسلمون. فقام اليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صاحفني وقالك لتهنك توبة الله، فلن انساها لطلحة. وقال رسول الله وهو يستنير اسنارة القمر: أبشريا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك. ثم تلا علينا الآية. . .

وفي هذه القصة عبرة للمؤمنين تخشع لها قلوبهم، وتفيض عبراتهم. قراءات:

قرأ حمزة وحفص: «يزيغ» بالياء، والباقون تزيع بالتاء.
{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ} .

يا أيها الذين آمنوا اثبتوا على التقوى والإيمان، وكونوا في الدنيا من أهل ولايته وطاعته تكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة.

٩٠٣٨ 120

الضماً: شدة العطش. النَّصَب: التعب المخصصة: الجوع الشديد. موطئاً: مكاناً.

بعد ان بين الله تعالى توبته عن المتخلفين أكد هنا وجوب اتباع الرسول والغزو معه.

لا نبغي لأهل المدينة ولا من حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، كما فعل بعضهم في غزوة تبوك، ولا ان يَضُنُّوا بأنفسهم فيرغبوا في الراحة والسلام، ولا يبدلوا فيما بذل نفسه الشريفة. . اذا أنهم لا يصيبهم في سبيل الله ظمأ او تعب او جوع، ولا ينزلون مكاناً يغيب الكفار، ولا ينالون من عدو غرضاً كالهزيمة او الغنيمة الا كتب لهم بذلك عملاً صالحاً يجزون عليه احسن الجزاء.

بل إنهم {وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً. . الآية} .

وكذلك لا يبدلون اي مال في سبيل الله، ولا يسافرون اي سفر الا كتبه الله لهم في صحائف اعمالهم الصالحة.

٩٠٣٩ 122

نفر: خرج للجهاد. الفرقة: الجماعة الكثيرة. الطائفة: الجماعة القليلة. تفقه: تعلم امور دينه. الذين يلونكم: من كانت بلادهم قريبة لبلدكم. غلظة: شدة.

هنا بين الله تعالى بقية احكام الجهاد مع بيان حكم التعلم والتفقه في الدين، لأن دين الاسلام قام على العلم ولا حجة والبرهان.

قال ابن عباس: لما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين لتخلفهم عن الجهاد، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله، ولا سرية بادا. فلما أمر الرسول الكريم بالجهاد نفر المسلمون جميعاً وتركوا رسول الله وحد بالمدينة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.
{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} .

ليس من شأن المؤمنين ان يخرجوا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، الا اذا اقتضى الأمر وخرج الرسول بنفسه او اسنتفر الناس جميعاً.
{فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} .

ان هناك واجبات اخرى مهمة غير الجهاد يجب على المؤمنين ان يقوموا بها، وذلك ان ينفر من كل بلد او قبيلة جماعة يأتون الى رسول الله ليتفقهوا في الدين ثم يعودوا الى قومهم فيرشدوهم ويعلموهم ليثبت هؤلاء على الحق، ويعلموا الباطل فيجتنبوه.

{يا أيها الذين آمنوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} .

لما امر الله تعالى بقتال المشركين كافة - أرشدتهم في هذا الآية الى طري السداد، وهو ان يبدأوا بقتال من يليهم من الأعداء ثم ينتقلوا الى الأبعد فالأبعد وهكذا فعل الرسول وصحابته. . فقد حرب قومه ثم انتقل الى غزو سائر العرب ثم الى غزو الشام. ولما فرغ الصحابة الكرام من الشام انتقلوا الى غيرها، وهكذا.

يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الكفار الذين يحاورونكم، حتى لا يكونوا مصدر خطر عليكم، وكونوا أشداء عليهم في القتال، وليجدوا فيكم شدة وجراً، ولا تأخذكم بهم رافة. . واعلموا ان الله معكم بعونه ونصره اذا اتقيتموه، وأعدتكم العدة الكاملة للحرب، وكنتم صفاً واحداً وعلى هدف واحد.

الرجس: النجس ومعناه هنا الكفر يعني ازدادوا كفراً الى كفرهم.

بعد ذكر الوان من مخازي المنافقين وكشف اخلاقهم بين هنا أنواعاً أخرى من تلك المثالب مثل سُخْرِيَتِهِمْ من القرآن الكريم، وتسللهم حين سماعه.

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} .

واذا ما أنزل الله سورةً من القرآن على رسوله، وسمعها المنافقون، سخروا واستهزأوا، وقال بعضهم لبعض: هل منكم من زادته هذه السورة إيماناً؟ وجواب ذلك يا محمد: نعم، المؤمنون الذين ابصروا النور وعرفوا الحق زادتهم إيماناً إلى إيمانهم. يفرحون بذلك ويستبشرون، لأنهم يرجون الخير من هذه الزيادة، وذلك بتزكية أنفسهم في الدنيا والآخرة.

{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} .

وأما المنافقون الذين في قلوبهم شك وارتباب، فقد زادتهم كفراً الى كفرهم، وحين ماتوا على الكفر والنفاق كان مأواهم جهنم وبئس المصير.

{أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ} .

أولاً يعتبر هؤلاء المنافقون بما يبتليهم الله به كل عام من ألوان البلاء بكشف أستارهم، وإنباء الله بما في قلوبهم وفضيحتهم، ونصر المؤمنين!! ثم هم مع كل هذا لا يتوبون من نفاقهم، ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب.

قراءات:

قرا حمزة ويعقوب: «اولا ترون» بالتاء.

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصرفوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} .

بعد ان بين حال تأثير إنزال آيات القرآن في المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول ﷺ، بين حالهم هنا وهم في مجلسه حين نزولنا واستماع تلاوته لها. واذا ما انزلت سورة وهم في مجلس الرسول الكريم تسارقوا النظر وتفاخروا وقال بعضهم لبعض: هل يراكم أحد؟ ثم انصرفوا متسللين لئلا يفتضحوا بما يزره عليهم من سخرية وانكار {صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} وهذا دعاء عليهم، فقد صرف قلوبهم عن الهدى فاهم يستحقون ان يزلا في ضلالهم يعمهون، لانهم قوم لا يفقهون، حيث عطلوا قلوبهم عن وظيفتها واستمروا على عنادهم ونفاقهم. ثم يختم الله تعالى هذه السورة الكريمة بآيتين تحدث احدهما عن الصلة بين الرسول وقومه، وعن حصة عليهم ورحمته بهم، والآية الثانية توجيه للرسول ان يعتمد على به وحده حين يتولى عنه من يتولى، فهو وليه وناصره وكافيه.

من انفسكم: من جنسكم. عزيز عليه ما عنتم: يشق عليه ما يصيبكم من مكروه الحرص على الشيء: شدة الرغبة فيه.

لقد جاءكم ايها العرب رسول من جنسكم، يشق عليه ما يصيبكم من الضرر. وهو حريص على هدايتكم، ولا يلقي بكم في المهالك، وهو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين فهو حريص عليكم ان يكون لكم شرف حمل الدعوة، وحظ رضوان الله، والجنة التي وعد بها المتقون.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} .

فان أعرضوا عن الإيمان بك، فلا تحزن لإعراضهم، وقل يكفيني الله الذي لا آله غيره. فتوكل عليه، فإنه تنتهي القوة والملك والعظمة والجاه، وهو حسب من لا ذ به، وحسب من والاه، هو مالك الملك ورب الكون وصاحب السلطان العظيم.

الآية: العلامة. الكتاب: القرآن الكريم. المحكم، وذو الحكمة. قدم صدق: سابقة حسنة، والمنزلة الرفيعة. مبين: ظاهر.
 الر: هذه الحروف تقرأ ساكنة غير معربة هكذا «الف. لام. را» وقد بدأ الله تعالى بها السورة لتنبية السامع الى ما يتلى عليه، وفي ذلك
 اشارة الى ان القرآن مكون من مثل هذه الحروف، ومع ذلك عجزتم ايها المشركون عن ان تأتوا بمثله.
 {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} .
 ما كان للناس ان يعجبوا وينكروا إنزال الوحي على رجل من جنسهم. ولم هذا التعجب والانكار، والله قادر على ان يتصل بأي عبد
 من عباده ويصطفيه برسالته، {الله أعلم حيث يجعل رسالته} [الانعام: ١٢٤] وان لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من الصفات
 والمكرمات ما يؤهله الرسالة الكريمة.
 وبعد ان بين الله عجب الكافرين من الوحي الى النبي الكريم بين حقيقة ما أوحى به إليه، وهو انذار الناس وتحذيرهم من عذابا لله،
 وتبشير المؤمنين بأ، هلم منزلة عالية عند ربهم نالوها بصدق القول وحسن النية.
 {قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ} .
 فلما أتاهم بوحى الله وتلاه عليهم قالوا: ان هذا الرجل ساحر أمره واضح، فما جاء به سحر لأنه خارق للعادة في تأثيره على الناس، وحذبه
 النفوس الى الايمان به.
 قراءات:

قرأ ابن كثير وعاصم وحمة والكسائي: «لساحر مبين» بالف بعد السين. وقرأ الباقون «لسحر مبين» بغير الف «.

خلق السماوات والارض: صنعها وابدعها. في ستة ايام: في ست مراحل فقد يكون اليوم الاف السنين من ايامنا، العرش: مركز
 التدبير ولا نعلم كنهه وصنعتة. استوى: استولى. القسط: العدل. حميم: حار شديد الحرارة.
 بعد ان افتتح السورة بذكر آيات الكتاب، وأنكر على الناس تعجبهم من أن يوحى الى رجل منهم يُنذر ويُبشّر، جاء بذكر أمرين.
 ١- إثبات ان لهذا الكون إلهاً قادراً يفعل ما يشاء.
 ٢- اثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب.
 {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ} .
 إن ربكم أيها الناس هو الذي خلق هذا الكون بأسره في ست مراحل تتضمن المرحلة منها أحقاباً وأزمنة ليست كأيامنا هذه، قد تم
 في كل منها طور من اطوار الخلق، ثم استوى على عرشه وهيمنَ بعظيم سلطانه ودبر أمور مخلوقاته.
 {مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} .
 فليس لأحد سلطان من الله من شيء، ولا يستطيع أحد من خلقه ان يشفع لأحد الا بإذنه.
 {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} .
 ذلکم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير هو الله ربكم وولي نعمتكم، فاعبدوه، وصدّقوا رسوله، وآمنوا بكتابه.
 {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} .

اتجهلون هذا الحق الواضح فلا تذكرون نعمة الله، وتندبرون آياته الدالة على وحدانيته.

{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} .

كما بدأت الله الخلق فإليه مرجعكم، ومرجع المخلوقات كلها. لقد وعد الله بذلك وعداً صادقاً لا يتخلف. . . إنه بدأ الخلق بقدرته، وسيعيده بقدرته بعد فناءه.

{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ} .

سوف يعيدهم الله من أجل أن يثيب المطيعين بعدله التام.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} .

واما الكافرون فلهم شراب في جهنم شديد الحرارة يقطع أمعاءهم، وعذابٌ شديد جزاء أعمال الكفر والعناد.

١٠٠٣ 5

الضوء والضياء: النور. والضوء أقوى من النور، لان الضوء م الشمس ذاتها، والنور في القمر مستمد من الشمس.

قدره منازل: جعله ينتقل بينها وهي ثمانية وعشرون منزلاً. غافلون: ناسون، الغفلة النسيان. آخر دعوائهم: آخر دعائهم.

بعد ان ذكر الله الآيات الدالة على وجوده، ومنها خلق السماوات والأرض على ذلك النظام المحكم، ذكر هنا أنواعاً من آياته الكونية

الدالة على ذلك. وهو تفصيل لما تقدم وبيان له على وجه بديع واسلوب عجيب.

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا} .

إن ربكم هو الذي خلق السماوات والأرض وهذا الكون العجيب، وفيه جعل الشمس تشع ضياءً، والقمر يرسل نورا.

{وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ} .

وجعل للقمر منازل عددها ثمانية وعشرون ينتقل فيها، فيختلف فيها، فيختلف نوره تبعاً لهذه المنازل، وذلك لتستعينوا به في تقدير

مواقيتكم، وتعلموا عدد السنين والحساب، فتحسبوا الأشهر والأيام وتضبطوا فيها مواعيدكم وعباداتكم ومعاملاتكم.

{مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} .

وما خلق الله ذلك إلا بالحكمة، وهو هنا يبين الدلائل ويبسط الآيات الدالة على ألوهيته وكمال قدرته لقوم يتدبرون بعقولهم.

وقد قررت هذه الآية الحقيقة العلمية التي لم يصل إليها العمل الا أخيراً، وهي ان الشمس جرم ملتهب، ومصدر الطاقات، ومنها الضوء

والحرارة، بينما القمر جرم مظلم غير ملتهب. أما النور الذي يبدو منه فهو مستمد من الشمس. ولذا عبّر الله تعالى عن الشمس بأنها

ضياء، يعين مصدراً للضوء، وأن القمر نور منير فقط. كذلك اشارات الآية الى حقيقة فلكية، وهي ان القمر يدور حول الأرض،

فيحتل مكاناً خاصاً بالنسبة لها في كل يوم. وهو يتم دورته في الشهر القمري، وبه تعلم السنة القمرية. وعلى ذلك يمكن بطريق الرؤية

الحسبة لمنازله ومعرفة السنين وحساب الأشهر.

قراءات:

قرأ ابن كثير برواية قبل: ضياء بالهمزة. والباقون بالياء. وقرأ ابن كثير وأهل البصرة وحفص: «يفصل الآيات» بالياء والباقون:

«نفسل» بالنون.

{إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ} .

ان في تعاقب الليل والنهار واختلافهما بالزيادة والنقصان، وفي خلق السماوات والأرض وما فيها من الكائنات، لدلائل عظيمة

وبراهين بيّنة على وجود الصانع، وألوهيته، وقدرته لقوم يتقون مخالفة سننه تعالى.

وتشير هذه الآية الى حقيقة مشاهدة، وهي اختلاف طويل الليل والنهار على مدار العام في أي مكان على الأرض، وكذلك تعاقب

النهار والليل وكون النهار مبصراً، والليل مظلماً. وتفسير ذلك أساسه دوران الأرض حول محورها وحول الشمس. وكل هذه دلائل

على قدرة الخالق المبع، والعلم بها لم يكن البتة في عهد النبي ﷺ، فهذا دليل على انه وحي من الله إليه.

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} .

لا يرجون لقاءنا: لا يريدون، لا يأملون، لا يتوقعون.
ان الذين لا يتوقعون لقاء الله في اليوم الآخر، إذا اعتقدوا أن الحياة الدنيا هي منتهاهم ليس بعدها حياة، فقَصَرُوا كل همهم على الحصول على أغراضهم منها، واطمأنوا الى ذلك، ولم يعملوا لما بعدها، والَّذِينَ غَفَلُوا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ - أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} .
ذلك جزاء الفريق المنحرف الضال، اما الفريق المقابل وهم الذين آمنوا إيماناً صحيحاً، وعملوا الصالحات في دينهم بمقتضى هذا الايمان، فإنهم ربحوا بثبتهم على الهداية، ويدخلهم يوم القيامة جنات تجري الأنهار خلالها، يتمتعون خالدون فيما ابدوا.
{دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} .
لي في دار النعيم هموم ولا شواغل، فهم يتلذذون بالدعاء الى الله وتسبيحه، وتزيينه عما كان يقوله الكافرون في الدنيا، ونياجونه بقولهم: سبحانك اللهم، ويحيي بعضهم بعضاً بالسلام، فهي تحية المؤمنين.
وآخر كل دعاء يناجون به ربهم، ومطلب يطلبونه من احسانه وكرمه قولهم: «الحمد رب العالمين» على توفيقه إياهم بالايمان وفوزهم برضوانه عليهم.

١٠٠٤ 11

الطغيان: مجاوزة الحد في الشر: يعمهون: يترددون فيحترتهم وضلالهم. القرون: جمع قرن ويطلق على كل مائة سنة، وفي كتب اللغة الاختلاف كبير في تحديده. خلائف: جمع خليفة وهو من يخلف غيره.
{وَلَوْ يَعْلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بَاخِرَ لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} .
لو أجاب الله ما يستعجل به الناس على أنفسهم من الشر مثل استعجالهم لطلب الخير لأهلَكُهُمْ جميعاً، ولكنه يتلطف بهم، فيرجئ هلاكهم، انتظاراً لما يظهر منهم حسب ما علمه فيهم، فتتضح عدالته في جزائهم.
وفي هذه الآية جواب لمشركي مكة الذين قالوا: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً في ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء.
لقد استعجلوا وقوع الشر، كما استعجلون الخير، ولكن الله أخرهم الى ما أَرَادَهُ.
{فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} .
إننا ندعُ لا يتوقعون لقاءنا فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلاً للخروج منه.
قراءات:

قرأ ابن عامر ويعقوب: «لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ» بفتح القاف والباقون «لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ» بضم القاف.
{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا} .

واذا أصاب الانسان ضرر في نفسه او ماله او نحو ذلك أحس بضغفه، ودعا ربه على أي حال من أحواله: مضجعا لجنبه، او هو قاعد، أو قائم على قدميه، حائراً في أمره - دعاه ان يكشف ما نزل به من محنته.
{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ} .

فلما استجاب الله له، فكشف عنه ضرره وأزال عنه السوء، انصرف عن جانب الله، مضى في طريقه واستمر على عصيانه ونسي فضل الله عليه، كأن لم يصبه ضرر، ولم يدعُ الله ليكشفه عنه.

{ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

وكمثل هذا المسلك زين الشيطان للمشركين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من سوء وكفر وعناد، وما اقترفوه من باطل .
{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا } كذلك نُجْزِي القوم المجرمين { .
بين هنا ما يجري مجرى التهديد، وهو أنه تعالى ينزل بهم عذاب الاستئصال كما حدث للأمم الغيرة قبلهم حتى يكون ذلك رادعاً لهم عن هذا الطلب . ولقد أهلكنا كثيراً من الأمم السابقة قبلكم بسبب كفرهم حين جاءتهم رسلهم بالآيات الواضحة على صدق دعوتهم الى الإيمان، وما كان في علم الله أنهم سيؤمنون، لإصرارهم على الكفر والعصيان . فاعتبروا يا كفار قريش، فكما أهلكنا من قبلكم، سنجزى المجرمين بإهلاكهم .

{ ثُمَّ جَعَلْنَا كُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } .

ثم جعلناكم يا امة محمد خلفاء الأرض، تعمرونها من بعد هؤلاء السابقين، لنختبركم ونرى ماذا تعملون في خلافتكم فجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم . وهذا واضح في ان هذه الخلافة منوطة بالأعمال الصالحة والاستقامة والعدل والاحسان، حتى لا يغتر إنسان بما سيناله من ملك او ولاية . وهذا كما قال تعالى: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [النور: ٥٥] .

١٠٠٥ 15

من تلقاء نفسي: من عند نفسي . لبث فيكم عمراً: مدة من الحياة .
{ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ } .
واذا نتلى على هؤلاء المشركين آياتنا الواضحة، قال لك يا محمد الكافرون الذين لا يتوقعون لقاءنا ولا يخافون عذاب الله: أحضر لنا كتاباً غير القرآن، او بدل ما فيه مما لا يعجبنا ولا يخالف ديننا ومعتقداتنا الوثنية .

{ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ } .

قل لهم ايها الرسول: لا يمكنني أن أغير او ابدل من عندي ولا يجوز لي ذلك، وما أنا الا متبع ومبلغ ما يوحي إلي من ربي، إن أخاف إن خالفت ربي عذاب يوم عظيم الشأن هو يوم القيامة .

{ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ } .

قل لهم، ايها الرسول: لو شاء الله ان لا ينزل علي قرآناً من عنده، وان لا أبلغكم به - ما أنزله، وما تلوته عليكم، ولا أعلمكم الله به .
لكنه نزل، وأرسلني به، وتلوته عليكم كما أمرني .

{ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } .

وقد مكثت بينكم زمناً طويلاً قبل البعث لم ادع فيه الرسالة، ولم أتل عليكم شيئاً، وانتم تشهدون لي بالصدق والامانة . أفلا تعقلون أن من عاش بينكم أربعين سنة لم يقرأ كتاباً ولم يلقن من أحد علماً، ولم يمارس اسالي البيان من شعر ونثر - لا يمكنه ان يأتي بمثل هذا القرآن المعجز، فاعقلوا الأمور وأدركوها .

قراءات:

قرأ ابن كثير: «ولأدراكم به» والباقون: «ولا أدراكم به» .

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } .

ان شر أنواع الظلم الإجماع افتراء الكذب على الله، والتكذيب بآيات الله التي جاء بها رسوله .

{إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ} .

لن يفوز الذين اجترموا الكفر وافتروا على الله الكذب عندما يلاقون ربهم.

١٠٠٦ 18

بعد ان بين الله في الآيات السابقة أن المشركين طلبوا ان يأتي محمد بقرآن غير هذا او تبديله، لأن فيه طعناً على آلهتهم، وتسفيه آرائهم في عبادتها - نعى عليهم هنا عبادة الأصنام وبين حقارة شأنها، اذا لا تستطيع ضرا ولا نفعاً، فلا يليق بالعاقل ان يعبدوها من دون الله. {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} .

ان هؤلاء القوم يعبدون اصناماً لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً.

{وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} .

ويقولون: ان هذه الاصنام تشفع لنا عند الله في الآخرة.

{قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} .

قل لهم أيها الرسول مبيناً لهم كذبهم، واقترأهم على الله: هل تخبرون الله بشيء لا يعلم له وجوداً في السماوات ولا في الارض؟! ما الذي تزعمون!

{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} .

تنزه ربنا وعلا علواً كبيراً عكن الشريك، وعما تزعمون بعبادة هؤلاء الشركاء. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «عما تشركون» بالتاء، والباقون «عما يشركون» بالياء.

{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} .

بعد ان اقام الأدلة على فساد عبادة الاصنام - ذكر هنا ما كان عليه الناس من الوحدة في الدين، ثم ما صاروا اليه من الاختلاف والفرقة. وقد كان الناس أمة واحدة على الفطرة، والقطرة في أصلها كانت على التوحيد، ثم بعث الله اليهم الرسل لارشادهم وهدايتهم. فاختلقت نزعاتهم، منهم من غلب عليه الخير، ومنهم من غلب عليه الشر. وقد اقتضت مشيئة الله ان يمهلهم جميعاً الى أجل يستوفونه، وسبقت كلمته بذلك لحكمة يريدها، ولولا ذلك لعجل لهم الهلاك بسبب الخلاف الذي وقعوا فيه.

{وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} .

ويقول هؤلاء المشركون: هلا أنزل على محمد معجزة غير القرآن تُقنِعنا بصدق رسالته كآيات الانبياء السابقين الين يحدثنا عنهم!! ومعنى هذا أنهم ما زالوا غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية، من حيث أنها ليست معجزةً وقتية تنتهي بانتهاء جيلهم، بل معجزة دائمة وعامة تخاطب الناس جميعاً جيلاً بعد جيل. ولذلك اجابهم جواباً فيه الامهال والتهديد: قل لهم ايها الرسول: إن نزول الآيات غيب، ولا يعلم الغيب الا الله، فإن كان القرآن لا يقنعكم فانتظروا قضاء الله بيني وبينكم في ذلك، وانا معكم من المنتظرين.

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال:

«ما من نبي الا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله لي، فأرجوا ان أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» .

أصل الذوق: ادراك الطعم بالفم، ومعنى «اذقنا الناس رحمة»: اعطيناهم صحة ومالا ونعمة. المراد بمكر الله: تديره الخفي. الفلك: السفن يطلق على الجمع والواحد. بريح طيبة: موافقة، مريحة سهلة، ريح عاصف: شديدة مهلكة. احيط بهم: هلكوا. بعد ان ينتهي الكتاب من عرض ما يقول المشركون وما يعترضون به ويطلبون، يعود الى الحديث عن بعض طبائع البشر، حين يذوقون الرحمة والنعم بعد الضر، كما تحدث من قبل عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه. ويضرب لهم مثلاً مما يقع في الحياة بصدق ذلك. {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا} .

عجيب أمر هذا الانسان لا يذكر الله إلا ساعة العسرة، فاذا أنعمنا على الناس من بعد شدة أصابتهم في أنفسهم او أهلهم وأموالهم، لم يشكروا الله على ما أنعم به، بل تجدهم يقابلون ذلك بالإصرار على التكذيب والكفر بالآيات. {قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} .

قل لهم أيها الرسول: إن الله أقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون، وأن الحفظة من الملائكة الموكلين بكم يكتبون اعمالكم سيحاسبكم الله عليها ويجازيكم بها. قراءات:

قرأ يعقوب: «ما يمكرون» بالياء، وبالباقون «ما تمكرون» بالتاء. ثم ضرب الله مثلاً من أبلغ أمثالا القرآن الكريم في صورة حية كأنها واقعة يشاهدها الناس، وتبعتها المشاعر ليظهر لهم بهذا المثل ما هم عليه فقال:

{هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} .

ان الله تكفرون بِنِعْمِهِ وتكذبون بآياته، هو الذي وهبكم القدرة على السير والسعي في البر مشاة وركبانا، وفي البحر بما سخر لكم من السفن التي سخرها لكم، وجرت بكم تدفعها ريح طيبة اطمأنتم اليها وفرحتم بها- هبت ريح شديدة أثارت عليكم الموج من كل جانب، وأيقنتم أن الهلاك واقع لا محالة، ولا تجدون ملجأ غير الله. عند ذلك تدعونه مخلصين له الدعاء موقنين أنه لا منقذ لكم سواه، ومتعهدين بأن تكونوا من الشاكرين إن انجاكم من هذه الشدة.

{فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} .

هذه تكملة للصورة. فلما أنجاهم الله مما تعرضوا له من الشدة والهلاك، نقضوا عهدهم، وعادوا يبغيون في الأرض ويفسدون بغير الحق. قراءات:

قرأ ابن عامر. «ينشركم» بالنون والشين. والباقون «يسيركم» بالياء والسين والياء اي زمان وجدوا فقال:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

أيها الناقضون للعهد، ان عاقبة بغيكم وظلمكم سترجع عليكم وحدكم، أما ما تحصلون عليه من ظلمكم هذا فهو مجرد متاع دنيوي زائل، ينقضي بسرعة، ثم تعودون الى الله فيجزىكم بأعمالكم التي اقترتموها.

والحق، أن البغي، وهو أشد أنواع الظلم، يرجع على صاحبه، لما يولد م العداوة والبغضاء بين الأفراد، ولما يوقد من نيران الفتن في الشعوب.

روى الامام احمد والبخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر، والنكث، والبغي»

ثم تلا: {بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} . {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣] {فَنَنْكُثُ فَاِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١١] .

الزخرف: الزينة وكمال حسن الشيء، وزخرف الأرض الوان نباتها. كأن لم تغن بالأمس: كأن لم تكن مأهولة. دار السلام: الجنة. لما كان سببُ بغي الناس في هذه الدنيا هو إفراطهم في حبها، والتمتع بزيتها وما يجنون منها - ضرب الله بذلك مثلاً يعزف بفضله العاقل عن الغرور بها، ويدفع الى الكف عن الظلم والفساد.

{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ. . . الْآيَةُ} .
شبه الله حال الحياة الدنيا في روعتها وبهجتها، بماء أنزله من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكله الناس والحيوان، فيزدهر ويثمر، وتزدان به الأرض نضارة وبهجة، حتى إذا بلغت هذه الزينة تمامها، وأيقن أهلها أنهم ملكوها وقدرُوا على الاستمتاع بثمارها وخيراتها، أتاها أمرُ الله فجأة، فباتت كالأرض المحصودة التي قطع زرعها ولم يبق منه شيء.
{كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} .

إننا بالأمثال الواضحة، نبين الآيات ونفصل ما فيها من الاحكام لقوم يتفكرون ويعتبرون ويعلمون أن الدنيا زائلة وأن متاعها قليل.
{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .
إن الله يدعو الناس جميعاً الى العمل الصالح والإيمان الصادق ليدخلوا الجنة، وهو يهدي من يشاء الى الطريق الموصل إليها وهو الإسلام.

لا يرهق وجوههم: لا يغطيها ولا يغطيها. قتر: دخان ساطع الذلة: الهوان. العاصم: المانع فزيلنا بينهم: فرقنا وميزنا بينهم.
بعد أن بين الله تعالى في المثل الذي ضربته غرور المشركين الجاهلين بمتاع الدنيا الزائل، ودعا الناس جميعاً الى نشدان السعادة الأبدية - عقب هنا ببيان حال المحسنين والمسنين، وما أعد لكلٍ منهم في الآخرة فقال:
{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} .

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا، الْمُنْزَلَةُ الْحُسْنَى فِي الْآخِرَةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ، وَلَهُمْ زِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَتَكْرِيماً، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
{وَزَيْدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء: ١٧٣] ، [النور: ٣٨] ، [فاطر: ٣٠] ، [الشورى: ٢٦] . وقد فسرتك الزيادة عدد من الصحابة والتابعين برؤية الله، روى ذلك الإمام أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه.
{وَلَا يَرَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .
لا يغطي وجوههم كآبة من هم أو ذل، وهؤلاء هم اهل الجنة ينعمون فيها دائماً.
{وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا} .

أما الذين لم يتسحبوا لدعوة الله، فكفروا وعصوا أمر ربهم، فسيُجزون بمثل ما عملوا من سوء.
{وَتَرَهُمْ ذِلَّةً مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} .

وتغشاهم ذلة الفضيحة والهوان، وليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله.

{كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .

وجوههم مسودة عليها الغم والكآبة كأنما أسدل عليها سواد من ظلمة الليل، أولئك اهل النار هم فيها خالدون.
قراءات:

قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: «قطعا» بسكون الطاء والباقون «قِطْعًا» .

ثم بين الله ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والحزى بقوله تعالى:

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ} .

اذكر أيها الرسول هول الموقف يوم نجع الناس كافة، الذين أحسنوا والذين أساءوا، ثم نقول لمن أشرك منهم: الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم لا تبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم.

{فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ} .

فرقنا بين المشركين والشركاء ووقعت بينهم الفقة.

{وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ} .

أي تبرأ الشركاء من الذين عبدوهم، وقالوا لهم: إنكم ما كنتم تعبدوننا، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم.

{فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} .

تكفينا شهادة الله، والله يعلم أننا ما أمرناكم بذلك، وما أردنا عبادتكم لنا، ولا نعلم بها ابدا.

{هُنَالِكَ تَبْلَوْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} .

هنالك في موقف الحساب تُختبر كل نفس فتعلم ما قدمت من خير أو شر وتلقى جزاءه، وأرجعوا الى الله ربهم الحق، وتكشف الموقف عن رب واحد يرجع اليه الجميع، ولم يجد المشركون شيئا مما كانوا يفترونه على الله.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «هنالك تثلوا» بتاءين من التلاوة يعني تقرأ ما عملت، او تثلوا تتبع عملها فيقودها الى الجنة او الى النار.

١٠٠١٠ 31

فأني تصرفون: كيف تعدلون عن عبادة الله. اني تؤفكون: كيف تصرفون وتعديلون عن عبادة الله.

بعد عرض يوم الحشر وما فيه، وكيف تُكشف الأعمال وتُسقط الدعاوي والأباطيل، يؤكد الله هنا قدرته، وأنه مالك كل شيء، يدبر

الأمر في هذا الكون، ويسأل: كيف بعد هذا كله يعدلون عن عبادته!!

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} .

قل لهم أيها الرسول: من الذي يأتيكم بالرزق من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بما تُنبته من شتى أنواع النبات والثمر؟ من الذي

يمنحكم السمع والبصر، وانتم بدونها لا تدرن شيئا!! وقد خص هاتين الحاستين، لأنهما أهم الحواس.

{وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} .

من ذا الذي بيده أمر الموت والحياة، فيخرج النبات الحي من الأرض الميتة، ويخرج الميت من الحي فيما تعرفون من المخلوقات وما لا تعرفون؟! .

{وَمَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} .

من الذي يصرف جميع أمور هذا الكون بقدرته وحكمته؟ . وهم يجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة بأن فاعل هذا كله هو الله وحده،

فقل لهم ايها الرسول: إذن، أفلا تخافونه وتثقون بسخطه وعذابه، وتتركون عبادة غيره وترجعون اليه!!

{فَذَلِكُمُّ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} .

ان المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المربي لكم بنعمه والمدير لأموالكم، وهو الحق الثابت بذاته، والذي تجب عبادته دون

سواه. ليس بعد الحق من توحيد الله وعبادته الا الضلال، وهو الشرك بالله وعبادة غيره، فكيف تتحولون عن الحق الى الباطل؟! .

{كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} .

كما تحققت ألوهية الله ووجبت عبادته، حقّ قضاءه على الذين خرجوا وتمردوا على أمره، بأنهم لا يؤمنون. . . لأن الله تعالى لا يهدي إلى الحق إلا من سلك طريقه المستقيم.
قراءات:

قرأ نافع وابن عامر: «حقّت كلمات ربك» بالجمع، والباقون: «كلمة» كما هو في المصحف.
ثم أقام الله الحجّة على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى من بدء الخلق واعادته فقال سبحانه: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ قُلُوبُ اللَّهِ يَدْعُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُ فَأَنْتِ تُؤْفَكُونَ} .
قل لهم أيها الرسول: هل من معبوداتكم من يستطيع أن ينشئ الخلق ثم يعيده بعد فناءه؟ سيعجزون عن الجواب، فقل لهم: الله وحده يفعل ذلك، فكيف تتصرفون عن الحق الواضح والایمان بالله!!

١٠١١ 35

وهذا ضرب آخر من الحجّة أقامه الله تعالى دليلاً على توحيده وبطلان الاشراك به، وقد جاء بطريق السؤال للتوبيخ وإلزام الخصم بالحجة. {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} .
أيها الرسول، قل لهؤلاء المشركين: هل من هؤلاء الذين عبدتموهم من يستطيع التمييز بين الهدى والضلال، فيرشده سواء الى السبيل الحق؟ إن الله وحده يفعل ذلك.

{أَفَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي} .
هل القادر على الهداية الى الحق أولى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع ان يهتدي في نفسه، ولا يهدي غيره الا اذا هداه الله!!
{فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} .

ما الذي جعلكم تحرفون حتى أشركتم هذه الأصنام وغيرها في العبادة مع الله! كيف تحكمون بجواز عبادتهم وشفاعتهم عنده وتؤمنون بانحرافات، رغم الأدلة الواضحة على فسادها!
قراءات:

كلمة يهدي: جاءت ثلاثة مرات «يهدي» بفتح الياء وسكون الهاء وكسر الدال، والرابعة: «أَمَّنْ لَا يَهْدِي» بفتح الياء وكسر الهاء والدال المشددة. وهذه قراءة حفص ويعقوب كما هي بالمصحف ومعناها يهتدي.
وقرأ ابن كثير وورش عن نافع عامر: «يهدي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. وقرأ أبو بكر: «يهدي» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال. {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} .

وما يتبع أكثر المشركين في متعقداتهم الا ظناً لا دليل عليه، والظن لا يفيد ولا يغني عن العلم الحق اي شيء.
{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} .

ان الله عليم بما يفعله رؤساء الكفر وأتباعهم وسيجازيهم على ذلك.
وفي هذا تهديد لكل من يتبع الظن في أمر من أمور الدين.
{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} .

لا يصح ولا يعقل ان يفترى هذا القرآن أحد، لأنه في إعجازه وأحكامه لا يمكن ان يكون من عند غير الله، لما فيه من علوم عالية، وحكم سامية، وتشريع عادل، وآداب اجتماعية وإنباء بالغيب من الماضي والمستقبل، وإنما هو مصدق لما سبقه من الكتب السماوية، فيما جاءت به من الحق.
{وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} .

وهو مفصلٌ وموضحٌ لما كُتبَ وسَبَقَ من الكتب السماوية، فهو لا شك منزلٌ من عند الله رب العالمين. هكذا بين الله تعالى أنَّ القرآن أجلُّ من أن يُفترى، لعجز الخلق عن الإتيان بمثله، ثم انتقل إلى حكاية زعم المعاندين المشركين الذين قالوا: إن محمداً قد افتراه فقال:

{أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

بل يقول هؤلاء المشركون: إن محمداً اختلق هذا القرآن من عنده، فقل لم أيها الرسول: إن كانت هذا القرآن من عمل البشر، فأتوا أنتم بسورة واحدة مماثلة له، واستعينوا على ذلك بمن تشاءون من دون الله، إن كنتم صادقين فيما تزعمون.

وهذا التحدي قائم إلى الآن، وقد عجز عنه الأولون الآخرون، وسيظل ثابتاً إلى أبد الأبد.

{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} .

لقد سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه، أو يقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين والحقائق.

{كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} .

وبمثل هذه الطريقة في التكذيب من غير علم، كذب الذين قبلهم من مشركي الأمم رسلهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله، فانظر أيها الرسول الكريم كيف كان عاقبة الظالمين، وما آل إليه أمر المكذبين السابقين كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم.

بعد أن بين الله أن المشركين كذبوا بالقرآن قبل أن يأتيهم تأويله أو يحيطوا بعلمه - ذكر هنا كيف يكون حالهم بعد أن يأتيهم التأويل، إذ سينقسمون فريقين: فريق يؤمن به وفريق يستمر على كفره وعناده.

١٠٠١٢ 40

{وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} .

من هؤلاء المعاندين من يؤمن بالقرآن بعد أن يفتن إلى ما فيه، ومنهم من سيظل يعاند ويكابر فيصر على الشرك ويستمر عليه، والله تعالى أعلم بهؤلاء.

{وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} .

وان أصرّوا على تكذيبك بعد كل هذه الأدلة، فقل لهم: إن لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم، أنا مستمر في دعوتي، وأنتم لا تؤاخذون به، وأنا بريء مما تعملون.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمْ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} .

من هؤلاء من يستمع إليك بأذانهم فقط حين تدعوهم إلى الله، أما قلوبهم فقد اغلقت وأما عقولهم فقد غابت، فهل تقدر على إسماع الصم!! وإنهم لا يعقلون ولا يفهمون.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ} .

ومنهم من يتجه نظره إليك حين تقرأ القرآن، فيرى دلائل نبوتك واضحة، لكنهم كالعميان الذين لا يبصرون، إن نفوسهم قد انصرفت عن استعمال عقولهم وأنتم لا تستطيع هداية العمى.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} .

لقد سهّل تعالى للناس كلّ أسباب الهداية بإرساله الرسل، وهو لا يظلم أحداً، لكن الناس بكفرهم واتباع أهوائهم يظلمون أنفسهم بصدّهم وعدم اتباع الحق الموصّل إلى السعادة.

{وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ. . .}

أنذرهم أيها الرسول يومَ يجمعهم الله للسحاب، وقل لهم إن هذه الدنيا التي غرَّتهم بمتاعها الزائل، لهي قصرة الأمد وستزول بموتهم. وفي يوم القيامة سيقدرّون قصرها بساعة من النهار، وبتلاومون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. يومئذ سيعرفون أن الذين آثروا هذه الحياة السريعة الزوال وكذبوا باليوم الآخر- قد خسروا السعادة الأبدية ولم يهتدوا إلى طريقها.

قراءات:

قرأ حفص «يُحْشَرُهُمْ» بالياء كما هو في المصحف، والباقون «نُحْشَرُهُمْ» بالنون.

{وَأَمَّا نُزُيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} .

وإن أريناك أيها الرسول، وفي أثناء حياتك، بعض ما نعدّهم من العقاب، من نصرّك عليهم، وإلحاق العذاب بهم، أو توفّيّاك قبل أن ترى كل ذلك، فلا مناص من عودتهم إلينا للحساب والجزاء.

{ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} .

والله تعالى رقيب على كل ما يفعلونه عالم بذلك، وسيجزّيهم عليه.

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} .

لقد أرسل الله لك أمة رسولاً قبلَها دعوة الله. فأمن بعضهم، وكذب آخرون وهكذا استوفى الجميع حقهم الذي فرضه الله على نفسه بن لا يعذب قوماً إلا بعد الرسالة. وبعد الاغذار لهم فإن الله يقضي بينهم بالقسط حسب استجابتهم لرسوله. {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء: ١٥] .

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

ويقول كفار قريش للرسول الكريم: متى يكون هذا الذي تعدّنا به من العذاب ان كنت ومن معك صادق فيما تؤمنون به؟! {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضِراً وَلَا نفعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} .

قل لهم أيها الرسول: إني بشرٌ مثلكم، لا أملك لنفسي خيراً ولا شراً، إلا ما قدّرني الله عليه.

{لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} .

ان لكل أمة من الأمم فترة حدّدها الله، فإذا جاءت تجدهم لا يستطيعون التأخر عنها، ولا سبقها. فإذا كان الرسول الكريم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكه ليغره، بل كيف يملك غيره لنفسه! ان الأمر لله يحقّق وعيده في الوقت الذي يشاء، والأجل قد ينتهي بالهلاك المادي كما وقع لبعض الأمم السابقة، وقد ينتهي بالهلاك المعنوي، أي الهزيمة والضياع والأمة الإسلامية بانحرافها عن دينها وخلقها قد انهزمت ولا يمكن ان تعود إلى مجدها وعزها بدون الرجوع إلى الله.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} .

قل أيها الرسول لهؤلاء المكذّبين المستعجلين وقوع العذاب: أخبروني إن وقع بكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، فأيّ فائدة تحصلون عليها من استعجالكم إيها! ، وأي عذاب تستعجلون؟ عذاب الدنيا، أم عذاب الآخرة؟

{ثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ} .

ثم اذا حل بكم، هل تؤمنون به حين لا ينفع الايمان؟

{الآن وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} .
عند ذاك يقال لكم على سبيل التوبيخ: الآن آمنتم به اضطرارا، وقد كنتم تستعجلونه في الدين!! .
{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ}
يومنذ يقال للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب: يا هؤلاء، الآن ذوقوا العذاب الدائم.
{هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} .
إنكم اليوم لا تُجزون إلا على أعمالكم في الدنيا، ونحن لن نظلمكم شيئا.
{وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} .
ويسألونك ايها الرسول ان تخبرهم عن هذا العذاب الذي تعدتهم به في الدنيا والآخرة، ويقولون: يا محمد، أحق أنه سيقع؟ فقل لهم:
نعم، أقسم لكم بربي إنه حاصل لا شك فيه.
{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ} .
وفي تلك اللحظة من ذلك اليوم لو ان لكل نفس كفرت بالله جميع ما في الأرض لافتدت به من عذابها لو تستطيع، وذلك لما تراه من
عذاب يوم القيامة.
{وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} .
ولما رأوا العذاب أخفوا ندمهم لعجزهم عن النطق، ولشدة ما دهاهم من الفزع، ونفذ فيم قضاء الله.
وهم غير مظلومون في هذا الجزاء لأنه نتيجة لما قدّموا في الدنيا.
ثم أبع الله ما تقدّم بالدليل على قدرته على نفاذ حكمه وإنجاز وعده، فقال.
{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} .
فليتذكر من نبي أو جهل وغفل ان الله وحده يملك جميع ما في هذا الكون يتصرف فيه كيف يشاء.
ثم اكد ما سلف بقوله:
{أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} .
وليعلو أن وعده حق، فلا يعجزه شيء، ولكن اكثر الكفار قد غرّتهم الحياة الدنيا فباتوا لا يعلمون ذلك حق اليقين.
ثم أقام الدليل على قدرته على ذلك فقال:
{هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} .
والله تعالى يهب الحياة بعد عدم، ويسلبها بعد وجود، ثم إليه المرجع في الآخرة حين يُحييكم بعد موتكم ويحشركم اليه للحساب والجزاء.

١٠٠١٥ 57

موعظة: نصيحة ووصية بالخير واجتناب الشر. شفاء لما في الصدور: دواء للنفوس.
بعد ان ذكر الله تعالى الادلة على أسس الدين الثلاثة: الوحدانية، والرسالة والبعث، ذكر هنا القرآن الكريم وما فيه من مقاصد هامة
أجملها في أمور اربعة:
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} .
يا أيها الناس جاءكم على لسان الرسول الكريم كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه.
١- موعظة تصلح اخلاقكم وأعمالكم.

- ٢- شفاء لأمراض قلوبكم من الشرك والنفاق.
- ٣- الهداية الواضحة الى الصراط المستقيم الذي يوصل الى سعادة الدارين.
- ٤- ورحمة للمؤمنين من رب العالمين.
- {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} .
- قل لهم أيها الرسول: إفرحوا بفضل الله عليكم ورحمته بكم بإنزال القرآن، وبيان شريعة الإسلام. ان هذا خير من كل ما يجمعه الناس من متاع الدنيا، لأنه هو سبب السعاد في الدارين.
- وقد نال المسلمون في العصور الأولى بسببه الملك الواسع والمال الكثير، لكنهم تأخرون الآن لبعدهم عن القرآن والدين، لانشغالهم بالدنيا ومتاعها، نسأل الله تعالى ان يردنا إلى ديننا، ويلهمنا الصواب في القول والعمل.
- قراءات:
- قرأ رويس عن يعقوب: «فلتفرحوا» بالتاء والباقون «فليفرحوا» بالياء. وقرأ ابن عامر ورويس: «تجمعون» بالتاء والباقون «يجمعون» بالياء.
- {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ جَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا} .
- قل ايها الرسول لهؤلاء المشركين: أخبروني عن الرزق الذي منحكم الله إياه، حلالاً طيباً، لكنكم جعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً، فلماذا؟
- وكان العرب في الجاهلية يحرمون على أنفسهم بعض الإبل وغيرها، ويجعلون بعضها للذكور منهم خاصة. وقد تقدم بيان ذلك في سورة الانعام.
- {قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} .
- قل لهم أيها الرسول: إن حق التحريم والتحليل لا يكون الا لله، فله إذن لكم بذلك، ام أنكم تكذبون في ذلك؟! .
- وبعد ان سجل الله تعالى عليهم جريمة افتراء الكذب على الله، بين هنا ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة فقال: {وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} .
- أيظن أولئك الذين يكذبون على الله أنهم يتركون بلا عقاب على كذبهم وافتراءهم؟ وهذا ينافي العدالة. والله تعالى يقول: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟} [ص: ٢٨] .
- {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} ان الله تعالى قد انعم على الناس نعماً كثيرة من فضله، ولكن أكثرهم لا يشكرون الله عليها.
- اخرج البخاري والطبراني عن زهير بن ابي علقمة قال: «إذا آتاك الله مالا فلير عليك، فان الله يحب ان يرى أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» .

١٠١٦ 61

- الشأن: الأمر، والحال، والمنزل. تفيضون فيه: تتوسعون في الحديث. وما يعزب: ما يغيب. مثقال ذرة: قدر ثملة صغيرة او ما يرى في الغبار. الكتاب: اللوح المحفوظ البشري: الخبر السار، البشارة.
- {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا تَعْلَمُونَ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} .
- وما تكون أيها الرسول في أمر من أموركم، وما تقرأ عليهم من قرآن أو تعمل أنت وأمتك من عمل الا ونحن شهود عليه حين تخوضون فيه.
- {وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} .
- ولا يغيب عن علم ربك شيء ولو كان في وزن الذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر منه، إلا وهو معلوم

في كتاب عظيم الشأن.

قراءات:

قرأ الكسائي: «يعزب» بكسر الزاي. والباقون «يعزب» بضم الزاي. وقرأ حمزة وخلف ويعقوب «ولا أصغر من ذلك ولا أكبر» بالرفع، والباقون بفتح الراء.

بعد ان بين الله تعالى لعباده سعة علمه وقدرته مراقبته لعباده، ذكر هنا حال الشاكرين المتقين الذين لهم حسنُ الجزاء يوم القيامة.

{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} .

إن أولياء الله الذين يخلصون له بالعبادة ويتوكلون عليه لا خوفٌ عليهم في الدنيا والآخرة، وهم لا يحزنون على ما فاتهم من عرض الدنيا لأن لهم عند الله ما هو أعظم من ذلك.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} .

وأولياء الله هؤلاء هم الذين صدقوا بكل ما جاء من عند الله، واتقوا الله حق تقاته.

{لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} .

كذلك فإن البشري لهؤلاء الأولياء بالخير في الدنيا بما وعدهم الله من نصرٍ وعز، وفي الآخرة بتحقيق وعده بعظيم الجزاء.

{لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .

لا تغيير ولا خلف في مواعيد ربهم، وهذا هو الفوز العظيم.

١٠٠١٧ 65

العزة: الغلبة والقوة. يخرصون: يحزرون ويقولون بلا علم. والنهار مبصراً: يعين تبصرون فيه. من سلطان: من حجة او برهان.

{وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ} .

لا تحزن أيها الرسول لما يقوله المشركون من سخرية وطعنٍ وتكذيب.

{إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} .

ولا تظن يا محمد أن حالهم ستدوم، بل إن العزة كلها لله، والنصر بيده، وسسينصرك عليهم، وهو السميع لما يقول من تكذيب الحق، كما يعلم بما يفعلون وما يضمرون، وسيجازيهم على ذلك.

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} .

اعملوا أيها الناس أن الله وحده يخضع كل من في السماوات والأرض، فهو الخالق وهو المالك وهو المدبر.

ثم بين الله أنه لا شريك له أبداً فقال:

{وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} .

إنه هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله، لا يتبعون شركاء له في الحقيقة، بل أوهاماً باطلة. وليسوا في ذلك إلا واهمين، يحزنون ويحسدون بلا علم ولا يقين.

بعد ما نبه الله تعالى على انفراده بالقدرة الكاملة، ووجه الأنظار الى بعض مجالي تلك القدرة في المشاهدة الكونية، قال:

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} .

إن الله تعالى هو الذي خلق لكم الليل لتستريحوا فيه من عناء العمل والسعي في النهار، كما خلق لكم النهار مضيئاً لتسعوا فيه الى مصالحكم، وفي تعاقب الليل والنهار دلائل بينة لقوم يسمعون ويتدبرون.

ثم شرع في تفنيد نوع آخر من أباطيلهم فقال:
 {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} .
 وقال المشركون: لقد اتخذ الله ولداً، إن الله منزّه عن ذلك، فهو غني عن اتخاذ الولد، لأن الولد مظهر الحاجة الى البقاء، والله باقٍ خالد.
 {إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} .
 ليس لديكم من البراهين ما يؤيد صحة ما تقولون وتفترون.
 {أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} .
 لماذا تختلقون على الله أمراً لا أساس له من الحقيقة.
 {قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} .
 قل لهم ايها الرسول: إن الذين يكذبون على الله، ويزعمون ان له ولداً لن يفلحوا ابداً.
 {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} .
 سيكون لهم متاع قليل في الدنيا ثم إلينا مرجعهم فنحاسبهم نذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم.

١٠٠١٨ 71

النبأ: الخبر له خطر وشأن. فاجمعوا امركم: اعزموا عليه من غير تردد. الغمة: ضيق الأمر الذي يوجب الحزن. خلائف: يخلفون من مضى.
 يذكر الله تعالى هنا الأمم السالفة وأخبارهم مع رسولهم، وكيف كذبوهم وعاندوهم، وفي ذلك تسليّة للرسول الكريم، وبيان له بأن قومه لم يكونوا بدعاً في عنادهم، بل سبقهم في مثل فعلهم كثير من الأمم قبلهم. لكن العاقبة كانت على الدوام ان يفوز الرسل المؤمنون.
 {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} .
 اقرأ يا محمد على المشركين، قصة نوح أحسن كراهية قومه وعداءهم لرسالته، فقال لهم: يا قومي، إن كان وجودي فيكم لتبليغ الرسالة أصبح ثقبلاً عليكم، فإني مثابر على دعوتي، متوكل على الله في أمري.
 {فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ} .
 فأعدوا أمركم واعزموا على ما تقدّمون عليه في أمري انتم وشركاءكم الذي تبعدونهم. لا تدعوا في عدايتكم لي أي خفاء، ولا تمهلوني فيما تريدون لي من سوء ان كنتم تقدرّون على ذلك.
 قراءات:

قرأ نافع: «فاجمعوا» بوصل الهمزة وفتح الميم. والباقون: «فأجمعوا» بالهمزة وكسر الميم. وقرأ يعقوب: «وشركاءكم» بالرفع، والباقون «وشركاءكم» بالنصب.

{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} .
 فإن اعرضتم عن دعوتي، لم يضرنّني ذلك، لأنني ما سألتكم أن تدفعوا لي أجراً على ما دعوتكم اليه، بل إن ثوابي على الله وحده، وهو يؤتيني إياه، وقد أمرين أن أسلم إليه جميع أمري.

{فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} .

ومع كل هذه الجهود التي بذلها من اجل هدايتهم، فقد أصروا على تكذيبه، فنجاه الله ومن معه من المؤمنين في السفينة، وجعلهم خلفاء في الأرض، وأغرق الكافرين بالطوفان. فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة هؤلاء المكذبين لرسولهم: نَجَّى اللهُ نوحا والذين آمنوا معه واستخلفهم في الارض على قلتهم، أغرق المكذبين وهزمهم على كثرتهم.

١٠٠١٩ 74

نطبع على قلوب المعتدين: نختمها ونغلقها. الملائ: أشرف القوم لتلفتنا: لتصرفنا. {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فِجَاءُ وَهُمْ بِالْبَيْنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} . ثم أرسلنا من بعد نوح رسلاً آخرين، مبشرين ومنذرين، ومعهم الدلائل والمعجزات لكم أقوامهم رفضوا أن يصدقوا ويذعنوا، وأصروا على موقفهم، فلم ينتفعوا بتعاليم الرسل الكرام. {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} .

وعلى مثل هذه الصورة اغلق الله قلوب الكافرين المعتدين عن الإيمان وطبع الباطل عليها، فتحجرت ولم تعد صالحة للهداية ابدًا. {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} . ثم أرسلنا من بعد أولئك الرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون مصر وخاصته وأشرف قومه، فاستكبروا عن متابعة الرسلين في دوتهما، ورفضوا إلا ان يكونوا مجرمين. {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} .

وحين ظهر لهم الحق من عند الله على يد موسى، قالوا عن معجزته إنها مجرد سحر مؤكد. {قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} . قال لهم موسى مستنكراً: أتصفون الحق الذي جئتكم به من عند الله أنه سحر؟ كذبتُم. وثقوا أنه لن يفوز الساحرون أبداً. وبعد أن أخمهم موسى بحجته كشفوا عن حقيقة الدوافع التي تصدهم عن الايمان بالله، ألا وهي الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة، وضياع مصالحهم.

{أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَنْكُمْ وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ} . قال فرعون وقومه لموسى: لقد جئت إلينا لتصريفنا عن دين آبائنا وتقاليد قومنا، لكم نصير لكم أتباعاً ويكون لك ولأخيك الملك والعظمة والرياسة؟! ولقد كان زعماء قريش يدركون ما في رسالة محمد ﷺ من صدق وسمو، وما في عقيدة الشرك من فساد وخرافات، لكنهم كانوا يخافون على مكانتهم الموروثة ومصالحهم الذاتية، كما خشي الملائ من قوم فرعون مثل ذلك، فقالوا: «وما نحن لكم بمؤمنين» . {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} .

وظن فرعون أن موسى وأخاه ساحران، والسحرة عنده كثيرون، فأمر رجاله ان يحضروا له كل ساحر عظيم في ملكته. {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} .

ولما حضر السحرة ووقفوا أمام القوم لمنازلة موسى قال لهمك هاتوا ما عندكم من فنون السحر. {فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى سَاحِرُونَ إِنْ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنْ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} .

فلما ألقوا جبالهم وعصيتهم وجعلت تسعى كأنها الأفاعي، قال لهم موسى: إن الذي فعلتموه هو السحر حقاً، وهو خيال لا حقيقة فيه، والله تعالى سبطله على يدي، فهو لن يجعل عمل المفسدين صالحاً للبقاء، بل يزيله ويحقه.

{وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} .

ويثبت الله الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره، ولو كره ذلك كل مجرم.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «بكل سحر» على صيغة المبالغة، والباقون «بكل ساحر» وقرأ أبو عمرو: «ما جئتم به السحر» بالاستفهام والباقون: «السحر» .

١٠٠٢٠ 83

الذرية: النسل. ان يفتنهم: ان يختبرهم ويبتليهم وهنا معناه ان يضطهدهم. لعال في الأرض: مستبداً. تبوأ المكان: اقام فيه. اطمس على اموالهم: أزها واشدد على قلوبهم: ضيق عليهم.

{فَأَمَّا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} .

كان الذين آمنوا بموسى مجرد فئة قليلة من السحرة والشبان، آمنوا على خوف من فرعون وزعماء قومهم، خشية أن يضطهدوهم ويعذبوهم ليرتدوا عن دينهم.

{وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} .

ان فرعون مستبد جبار، غالى وأسرف وتجاوز كل حد في الظلم والطغيان.

{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} .

وقال موسى لمن آمن من قومه، ولقد رأى عليهم الخوف من الفتنة والاضطهاد: إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فتوكلوا عليه، وسلموا أموركم له، وثقوا بنصره.

{فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} .

فقالوا ممثلين أمره: على الله وحده توكلنا. ثم دعوا ربهم أن لا يجعلهم أداة فتنة وتعذيب على يد الكفارين.

{وَجَنَّبَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} .

كذلك دعوا ربهم قائلين: خلصنا يا ربنا برحمتك من أيدي فرعون وقومه الكافرين.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا} .

وقلنا لهما: اتخذوا لقومكما بيوتاً في مصر تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها «واجعلوا بيوتكم قبلة» أي متقابلة على جهة واحد.

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} ، وأدوا الصلاة على وجهها الكامل، واستبشروا أن يحفظكم الله من فتنة فرعون واعوانه.

{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ} .

لما يئس موسى من فرعون وأعوانه أن يرجى لهم صلاح، قال: يا رب، إنك أعطيت فرعون وخاصته بهجة الدنيا وزينتها من الأموال والبنين والسلطان، لكن عاقبة هذا الغنى والنعيم كانت الاسراف في الضلال عن سبيل الحق.

{رَبَّنَا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} .

اللهم اسحق أموالهم واتركهم في ظلمة قلوبهم، فلا يوفقوا للإيمان حتى يروا العذاب رأي العين. قارن بين موسى ومحمد، دعى موسى على قومه، ودعا سيدنا محمد لهم.

{قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكَ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} .

قال الله تعالى: قد أُجِيبْتُ دَعْوَتُكَ يَا مُوسَى وَهَارُونَ فِي فِرْعَوْنَ وَأَعْوَانِهِ، فامضيا لأمرِي واثبتا على ما انتما عليه، ولا تسلكا سبيلَ الذين لا يعلمون الأمور على وجهها.

قراءات:
قرأ ابن عامر: «ولا تتبعان» بكسر النون بدون تشديد. وقراءة أخرى: «ولا تتبعان» بسكون التاء الثانية وفتح الباء وتشديد النون. وقرأ الباقون «ولا تتبعان» بتشديد التاء الثانية وكسر الباء وتشديد النون المسكورة.

١٠٠٢١ 90

نَجِيكَ بِيَدِنَا نَخْلُصُ بَدَنَكَ بَعْدَ غَرَقِكَ لِيَرَاهُ النَّاسُ. بَوَئِنَّا: انزلنا. مَبُوءٌ: صدق. منزلاً صالحاً.
في هذه الآيات الثلاث خاتمة قصة موسى وأخيه هارون مع فرعون، وما كان من تأييد الله لهما، وقوة فرعون وقومه. وكانت دولة الفراعنة من أقوى دول العالم في ذلك الزمان.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا} .
ولما أنقذنا موسى وأخاه من بني إسرائيل وقطعوا البحر، تعقبهم فرعون وجنوده للانتقام. فلما دخل بنو إسرائيل البحر انفلق لهم، فكانت فيه الطرق والسبل على قدر عدد فرقتهم، فساوا فيها آمنين. وأغرى ذلك فرعون وجنده أن يكون من ورائهم، فلحقوا بهم. عند ذاك انطبق عليهم البحر وكانوا من الغارقين.

ولم يُعرف موضع العبور من البحر، ولم يرد بذلك خبر صحيح.
{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} .
فلما أدرك الغرق فرعون قال: آمنتُ بالإله الذي يؤمن به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين. ولكن، هيات! لقد قات الوقت وجاء إيمانك متأخراً.

وهذا ما بينه الله تعالى بقوله:
{الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} .
الآن تُقِرُّ لَهِ بِالْعُبُودِيَّةِ وَتَسْتَسْلِمُ لَهُ بِالذَّلَّةِ، أَمَا قَدْ عَصَيْتَهُ مِنْ قَبْلُ؟ بلى، لقد كُنتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَرْضِ الضَّالِّينَ لِلْعِبَادَةِ يَا فِرْعَوْنَ، فَاِيْمَانُكَ لَنْ يَقْبَلَ.

{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} .
واليوم نُخْرِجُ جِثَّتَكَ مِنَ الْبَحْرِ وَنَعْرِضُهَا عَلَى النَّاسِ لِتَكُونَ عِظَةً وَعِبْرَةً لِمَنْ كَانُوا عِبْدُوكَ وَمَعَ كُلِّ هَذَا فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ سَيُظَلُّونَ فِي غَفْلَةٍ عَنِ الْبَيِّنَاتِ وَالْأَدْلَةِ الظَّاهِرَةِ فِي هَذَا الْكُونِ عَلَى قَدَرَتِنَا.

وقد كان فرعون موسى «منفتحاً» بن رعمسيس الثاني، وكان خروج بين إسرائيل في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد في عهد الأسرة التاسعة عشرة. وقد عُثر على جثة «منفتح» هذا في قبر «المنحطب الثاني» وهي موجودة الآن في المتحف المصري. وهذا مصداق لقوله تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً} ولم يكن هذا معروفاً لأحد في العالم إلى ما بعد نزل القرآن بثلاثة عشر قرناً. وهذا أكبر دليل على أنه منع عند الله وقد أخبرني الدكتور مورييس بوكاي أنه أخذ قطعة من الجثة وحللها فوجد أن صاحب هذه الجثة مات غرقاً. وقد زار الأردن وامتضى اسبوعاً وحاضر في الجامعة عن الموضوع نفسه.

قراءات:
قرأ حمزة والكسائي: «آمنت انه» بكسر همزة انه. والباقون: «أنه» بفتح الهمزة. وقرأ يعقوب: «ننجيك» بأسكان النون الثانية. والباقون: «ننجيك» بفتح النون الثانية وكسر الجيم المشددة.

{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} .

ولقد اسكناهم منزلاً مرضياً في أرض خصبة طيبة، بعيدين عن الظلم الذي كانوا فيه، أغدقنا عليهم الرزق الوافر من جميع الطيبات. {فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} . ولكنهم حين ذاقوا نعمة العزة بعد الهوان تفرقوا واختلّفوا، مع أنهم تعلّموا وتبين لهم الحق والباطل! سيقضي الله بينهم يوم القيامة، ويجازي كلا منهم بما عمل.

١٠٠٢٢ 94

{فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} .

الخطابُ للرسول الكريم ويقول: ان كنت يا محمد في شك مما أنزل الله اليك، من هذا القصص او غيره فاسأل أهل الكتاب . . . إن لديهم علماً يقرأونه فيكتبهم، وفيها الجواب القاطع الموافق لما أنزلنا عليك.

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يشك فيما أنزل اليه، وقد روى ابن جرير وعبد الرزاق عن قتادة ان الرسول الكريم قال حين نزول الآية: «أشك ولا أسأل» وانما كان هذا تثبيتاً للرسول لشدة الموقف وتأزمه في مكة بعد حادث الاسراء، وبخاصة ان بعض من أسلموا قد ارتدوا آنذاك، وبعد موت خديجة وأبي طالب، واشتدوا الأذى على الرسول واصحابه. {لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} .

لقد جاءك الحق الواضح يا محمد بأنك رسول الله، فلا تكونَنَّ من الشاكِّين في صحة ذلك.

{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ} .

إياك ان تكون أنت أو أحد من الذين اتبعوك، من الذين يكذبون بآياتنا البينات! ، اذا ذاك يحلّ عليك الخسران والغضب. . والخطابُ ههنا للرسول الكريم ولكن به هو وكل من يساوره ادنى شك في صدق رسالته.

{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} .

ان الذي سبق عليم قضاء الله بالكفر لما علم من عنادهم وتعصّبهم، لا يؤمنون وذلك لرسوخهم في الكفر والطغيان. وحتى لو جئتهم يا محمد بكل حجة واضحة فإنهم لن يقنعوا، بل يظلّوا على ضلالهم، وإلى أن يحلّ بهم العذاب الأليم.

١٠٠٢٣ 98

الخرزي: الذل والهوان. الى حين: الى مدة من الزمن. الرّجس: العذاب.

بعد ان بين الكتاب أن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، جاء بهذه الآيات الثلاثة لبيان سنن الله تعالى في الأمم مع رسلهم، وفي خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر، والخير والشر؛ وفي شيئة الله وحشكته بأفعاله وأفعال عباده، وبين أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الايمان.

{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَآبَ الْخُرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَمَتَّ عَنْهُمْ إِلَى حِينٍ} .

ولو أن قرية من القرى تؤمن لنفعها إيمانها، إلا قوم يونس. فقد بعث الى أهل نينوى بأرض الموصل، فدعاهم الى الايمان بالله وحده وترك ما يعبدون من الاصنام. ولم يستجيبوا له، فأخبرهم أن العذاب آتيتهم قريباً وتركهم ورحل عنهم. فلما أيقنوا بالهلاك آمنوا، فوجوا النفع لهم، فكشفنا عنهم عذاب الخزي وما يترتب عليه متعناهم في الحياة الدنيا حيناً من الزمن.

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} .

ولو أراد الله أن يؤمن أهل الأرض كلهم لآمنوا، فلا تحزن على كفر المشركين، فأنت لا تستطع أن تكره الناس على أن يؤمنوا بالله. وقد اقتضت حكمة ربك أن يخلق البشر على هذه الحالة مستعدين للخير والشر والكفر والإيمان. فليس لك أن تحاول إكراههم على الإيمان.

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} .

ما كان لنفس (بمقتضى ما أعطاها الله من الاختيار والاستقلال في الأفعال) أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سننه في نظام هذا الكون.

{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} .

فإذا كان كل شيء بمشيئته وتيسيره، فسنة الله أن يجعل العذاب والغضب على الذين ينصرفون عن الحجج الواضحة ولا يتدبرونها.

١٠٠٢٤ 101

في هذه الآيات الكريمة، وهي في ختام سورة يونس، بين الله تعالى أن مدار سعادة البشر على استعمال عقولهم في التمييز بين الخير والشر، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار وبيان الطريق المستقيم الوصول إلى السعادة وأن الدين مساعد للعقل على حسن الاختيار إذا أحسن الإنسان والتفكر في أمر الله.

{قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتِ وَالنَّذْرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} .

تدعو هذه الآية وكثير غيرها، إلى العمل بالمشاهدة والتأمل واستعمال العقل، كما تدعو إلى العلم بالكون وما فيه لأنه مسخر للإنسان، فإن ما في السماوات والأرض حافل بالآيات ولكن الآيات والنذر لا تفيد الذين لا يؤمنون، لأنهم لم يلقوا بالآيات ولم يتدبروها.

{فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ} .

يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام محذراً من قومه: هل ينتظر هؤلاء المكذبون أي أن ينالهم من الأيام الشداد مثل ما أصاب الذين مضوا من الأم السابقة؟! .

{قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} .

قل أيها النبي منذراً ومهدداً: إذا كنتم تنتظرون مثل ذلك، فانتظروا إني معكم من المنتظرين. وهذا تهديد كبير من رب العالمين.

{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ} .

أن سننتنا في رسلنا مع أقوامهم الذين يبلغونهم الدعوة، أن يؤمن بعضهم فيما يصرون على الكفر. فننجي رسلنا والمؤمنين من العذاب ونهلك المكذبين. هذا وعد حق عليم لا يخلفه كما قال تعالى: {سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً} [الإسراء: ٧٧] .

قراءات:

قرأ يعقوب: «ثم نُنَجِّي» بالتخفيف. والباقون بالتشديد «نُنَجِّي» وقرأ الكسائي ويعقوب وخفص: «ننج المؤمنين» بأسكان النون الثانية وحذف الياء لالتقاء الساكنين، والباقون بالتشديد.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} .

في هذه الآية والتي بعدها أمر الله بإعلان الدين الإسلامي، وإظهار الفارق بينه وبين ما عليه المشركون والمكذبون من عبادة الأوثان. قل أيها الناس جميعاً: إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوك إليه هو الحق، فإن هذا لا يحولني عن يقيني، ولا يجعلين أعبد ألهتكم التي تعبدونها من دون الله، فهو الذي يملك أجسامكم وأعماركم، وقد أمرني أن أكون من المؤمنين به.

{وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .

وأمرت أن أقم وجهي للدين القيم واتوجه الى الله وحده، وأن لا أدخل في غمار الذين أشركوا بالله، بل ابتعد عنهم أنا ومن اتبعني من المؤمنين.

{وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ} .

ولا تلجأ بالدعاء الى غير الله مما لا يجلب لك نفعاً، ولا ينزل بك ضرراً، فانك ان فعلت ذلك كنت من الظالمين وهذا النهي الموجه للنبي عليه الصلاة والسلام هو موجه لأمته.

١٠٠٢٥ 107

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ} .

ان يصيبك الله بضراً فلن يكشفه عنك أحد غيره، وان يقدر لك الخير فلن يمنعه عنك أحد، لأن الله يهب الخير من فضله لمن يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم، فلا يأس احد من فضله وعفوه.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} .

ختم الله تعالى هذه السورة بهذا البلاغ للناس كافة، وهو إجمال لما تقدم من التفصيل فيها.

بلغ أيها الرسول دعوة الله الى الناس كافة، وقل لهم: ايها الناس، لقد أنزل الله عليكم الشريعة الحقة من عنده، فمن شاء ان يهتدي بها فليُسارع، ومن أصر على ضلاله فإن ضلاله سيكون عليه وحده، وما أنا بموكل من عند الله بأمركم، ولا مسيطر عليكم.

{وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} .

وهذا الختام خطاب الى الرسول الصلاة والسلام، باتباع ما أمر به، والصبر على ما يلقيه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه، وهو الختام المناسب الذي يلتقي مع مطلع السورة، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن الكريم في التصوير والتنسيق.

١١ هود

١١٠١ 1

تقدم الكلام على هذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور، وانها تقرأ باسمائها: فيقال: «الف لام را» احكمت آياته: اتقنت فصلت: جعلت واضحة. يتمتعكم متاعاً حسناً: يجعل معيشتكم كلها صالحة وراضية الى اجل مسمى: الى عمر مقدر.

{الرِّكَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ. . .} .

حروف ابتدأت بها السورة للإشارة الى ان القرآن معجز، مع انه مكون من الحروف التي ينطقون بها، وللتنبية الى الاصغاء عند تلاوة القرآن الكريم الى انه كتاب آياته محكمة النظم واضحة المعاني، قد فصلت أحكامها، وأنزلها رب حكيم يقدر حاجة عباده، وخبير يضع الأمور في مواضعها.

{الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} .

قل أيها النبي للناس: لا تعبدوا الا الله، اتي مرسل من عنده لأنذركم بعذابه إن كفرتم، وأبشركم بثوابه ان آمنتم وأطعتم.

{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} .

وقل لهم ايضاً: ادعوا الله واسألوا ه ان يغفر لكم ذنوبكم، ثم توبوا ليه بإخلاص، فيمتّعكم في معيشتكم متاعاً حسناً بالرزق الطيب والعافية والأمن الى ان ينتهي الأجل المقدر لكم في هذه الحياة.

{وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} .

ويعطي كل صاحب عمل صالح في الدنيا أفضل اثواب واحسن الجزاء في الآخرة.

{وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} .

وان توليتم وأعرضتم عما دعوتكم إليه، فإن أخاف عليكم عذاب يوم كبير، هو يوم القيامة، لما فيه من أهوال شديدة.

{إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم، وحينئذ تلقون جزاءكم بالعدل والقسطاس، والله قادر على كل شيء.

١١.٢ 5

ثنى الشيء: عطف عضه على بعض فطواه. يثنون صدورهم: عن الحق وينكسون رؤوسهم. ليستخفوا منه: ليخفوا انفسهم يستغشون ثيابهم: يتغطون بها.

بعد ان ذكر الله تعالى أنهم إن أعرضوا حلّ بهم عذاب كبير، بينه هنا في هذه الآية وصف حالتهم العجيبة وكيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات، عندما يتلوها عليهم النبي الكريم.

{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ} .

إن هؤلاء الكافرين يطوون صدورهم ليكتُموا ما يجول فيها.

{أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} .

والله سبحانه وتعالى مطلع على أحوالهم حتى في حال خلوتهم حين يتغطون بثيابهم، فهو يعلم سرهم وعلايتهم.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} .

وهو يعلم بأسرار الصدور وخواطر القلوب.

١١.٣ 6

الدابة: كل حي يدب على الأرض، وغلبت على كل ما يركب من الخيل والبغال والحمير. المستقر: مكان الاستقرار. ومستودعها: الموضع الذي كانت فيه قبل استقرارها، كالصلب والرحم والبيضة. الى امة معدودة: الى زمن معين. حاق بهم: نزل بهم واحط بهم.

يبين الله في الآيات آثار قدرته، وما يتعلق بحياة البشر وشؤونهم المختلفة، ويعرّف الخلق بربهم الحق الذي عليهم ان يعبدوه، فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه، وهو الرزاق الذي لا يترك أحداً من زرقه. ثم يُطلعها على آثار قدرته وحكمته في خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوا او آماد مُحْكَمَة.

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} .

لي هناك دابة تتحرك على الارض الا وقد تكفل الله برزقها، فكل مخلوق له رزق مقدر من الله في سُنَّته التي ترتب النَّتَاجَ على الجُهد، فلا يقعدن أحد عن السعي فالسَّماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} [النجم: ٣٩] .

{وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} .

ان الله يعمل اين تستقر تلك الدابة او المخلوق واين تقم، والمكان الذي تودع فيه بعد موتها.

{كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} .

كل شيء من ذلك مسجلٌ عنده سبحانه في كتاب مبين موضح لأحوال ما فيه.
{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} .

انه هو الذي خلق السماوات والأرض في ستّ مراحل، كما تقدم في سورة الاعراف الآية ٥٤، وسورة يونس الآية ٤، ومن قبل ذلك لم يكن الوجود اكثر من عالم الماء.

{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} يعني أن الماء كان موجوداً، خلّقه سبحانه وتعالى قبل ان يخلق السماوات والأرض.

أما كيف كان هذا الماء، وكيف كان عرشه عليه، فليس هناك نص على شيء من ذلك، والعقل وحده لا يملك العمل به وترك البحث فيه.

ثم علل الله بما أنفأ بعض حكمه الخاصة بالملكفين المخاطبين بالقرآن فقال:

{لِيَلْوَكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا} .

ولقد خلق هذا الكون ليظهر أحوالكم ايها الناس، بالاختبار وليظهر أيكم احسن إتقاناً لما يعمله لنفسه وللناس.

{وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} .

لئن اخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيعثهم من قبورهم بعد مماتهم، سارعوا الى الرد عليك مؤكدين ان هذا الذي جئتم به لا حقيقة له، وما هو الا كالسحر الواضح تسحر به العقول. فما أعجب هذا القول وما أغربه؟!
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «ان هذا الا ساحر مبين» .

{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ؟} .

ولئن أخرنا عنهم عذابنا الذي توعدهم به ايها الرسول إلى وقت محدد ليقولون مستهزئين: ما الذي يمنعه عنا الآن! شأنهم في التكذي بالبعث، كشأنهم في مسألة العذاب الدنيوي، يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيرهم.

{أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} .

الا فليعلم هؤلاء القوم ان العذاب آتٍ حتماً، لا خلاص لهم منه، وأنه سيحيط بهم بسبب استهزائهم واستهتارهم.

١١٠٤ 9

أدقنا: اعطينا. نزعناها منه: اخذنا منه. يؤوس: مبالغة في اليأس. نعماء: نعمة. ضراء: مضرة.

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا . . . الآية} .

هذه طبيعة الانسان العجول القاصر، إذا أعطيناه بعض النعم رحمة منا كالصحة والرزق الواسع، ثم نزعنا تلك النعمة أسرف في يأسه من عودتها، وقطع الرجاء من رحمة الله. إنه يؤوس من الخير، كفور بالنعمة.

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} .

واذا منحنا هذا الانسان يؤوس نعمة أذقناه لذتها بعد ضرر لحق به، لم يقابلها بالشكر والطاعة، بل تجده يبطر ويفخر على الناس ويقول: ذهب ما كان يسؤوني.

{إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} .

وذلك لا ينطبق على الذين صبروا عند الشدائد، وعملوا الصالحات في السراء والضراء، فهؤلاء لهم مغفرة من الذنوب، وأجر كبير عند الله في نعيم الجنة الأبدي.

وضائق به صدرك: تحس بالغم والحزن. كنز: أصل الكنز المال المدفون تحت التراب، وكل مال مدخر فهو كنز اقتراه: جاء به من عنده كذبا.

لا تحاول ايها النبي إرضاء المشركين، فهم لا يؤمنون ولعلك يا محمد تارك تلاوة بعض ما يوحى اليك ما يشق سماعه على المشركين، بل قد تحس بالضيق وانت تملوا عليهم ما لا يقبلون.
{أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} .
إنهم يطلبون ان ينزل الله عليك كنزا، او يجيء ملك يؤيئك في دعوتك، فلا تبال بعنادهم.
{إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} .

فأنت منذر ومحذر من عقبا الله لمن يخالف أمره، وقد أدت رسالتك، وليس عليك من أعمالهم شيء.
{أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .
لقد تكرر هذا القول، وتكرر التحدي، فقد جاء في سور {البقرة الآية: ٢٣} قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ} . . الآية { وفي سورة [يونس الآية ٣٨] {أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ} . . الآية { أمن هنا في سورة هود فالوضع فيه تحدٍ، لكنه يختلف عن السورتين السابقتين، فالله تعالى يقول لهم: {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ} أي فاتوا بمثله ولم كذبا مفترى.

والمعنى: قل لهم: إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله من عندي، فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه، فهاتوا من عندكم عشر سور مثله مفتريات مكذوبات، واستعينوا في ذلك لك من تستطيعون من فصحاءكم وبلغائكم وشعرائكم وجنكم وإنسكم.
فالقرآن الكريم معجز بأسلوبه، وبما فيه من القصص الصادق، وما فيه من العلوم الكونية التي اشار اليها، ولم تكن معروفة في عصر نزوله، وفي الاحكام التي اشتمل عليها.

{فَلَمَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} .
فان عجزتم وعجز من استعنتم بهم، فاعلموا ان هذا القرآن اما أنزل على محمد ﷺ بمقتضى علم الله وارادته، ولا يقدر عليه محمد ولا غيره ممن تدعون زورا انهم أعانوا. واعلموا انه لا إله الا الله، فلا يعمل علمه احد، فهل انتم بعد ان قامت عليكم الحجة داخلون في الاسلام الذي ادعوكم اليه بهذا القرآن؟ وان هذا التحدي لايزال قائما الى يوم القيامة.

نوف اليهم: نؤد الحق كاملا. لا يخسون: لا ينقصون. وحبط ما صنعوا: بطل وفسد. بينة: برهان واضح. يتبعه. مريّة: شك.
بعد قيام الحجّة على حقيقة الاسلام، والتحديث الشديد بالقرآن وعجزهم عن الإتيان بمثله - ظل المشركون يكابرون. . لأنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به من منافع وسلطة وشهوات، لهذا يعقب القرآن على ذلك بما يناسب حالهم يصور لهم عاقبة أمرهم بقوله:
{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ} .
من كان يطلب الحياة الدنيا والتمتع بلذاتها وزينتها من طعام وشراب ومال وأولاد وغير ذلك نعطيهم ثمرات أعمالهم لا ينقص منها شيء.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

هؤلاء الذين قَصَرُوا هَمَّهُمْ على الدنيا وما فيها من لذائذ ليس لهم في الآخرة إلا عذاب النار، جزاء كل ما صنعوه في الدنيا، لأنه لم يكن للآخرة فيه نصيب.

وبعد ان ذَكَرَ اللهُ مَالَ من يعمل للدنيا وزينتها، ولا يهتمُّ بالآخرة وأعمالها، ذكر هنا من كان يريدُ اخرة ويعمل لها، ومعه شاهد على صدقه وهو القرآن فقال:

{أَفَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} .

أَفَن كَانَ يسير في حياته على بصيرة وهداية من ربه، ومعه شاهد بالصدق من الله وهو القرآن، وشاهد من قبله وهو كتاب موسى الذي أنزله الله قدوة ورحمة لمتبعيه، كمن يسير على ضلال وكفر فلا يهتمُّ الا بالدنيا وزينتها؟! كلاً أبداً.

اولئك الأولون هم الذين أنار الله بصائرهم، فهم يؤمنون بالنبى والكتاب الذي أنزل عليه.

{وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} .

ومن يكفر به ممن تألبوا على الحق وتحزبوا ضده، فالنار موعده يوم القيامة.

{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ} .

لا تكن أيها النبى في شك من هذا القرآن. وحاشا النبى ان يشك. واذا كان لخطاب موجها اليه فالمقصود به كل من سمع برسالة محمد، ولا في القرآن المنزل عليه.

{إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} .

ان هذا القرآن هو الحق النازل من عند ربك، لا يأتيه الباطل، ولكن اكثر الناس تضللهم شهواتهم فلا يؤمنون.

١١٠٧ 18

الأشهاد: جمع شاهد. الذين يصدون عن سبيل الله: الذين يصرفون الناس عن الدين. ييغونها عوجا: يريدونها ملتوية معوجة. لا جرم: حقا. واخبتوا: خشعوا واطمأنوا.

بعد ان بين الله الناس فريقان: يريد الدنيا وزينتها، وفريق مؤمن بربه وبرسالة رسوله الكريم، ذكر هنا بيان حال كُلِّ من الفريقين وما يكون عليه في الآخرة. وهو يضرب للفريقين مثلا: الأعمى والأصم، والبصير والسميع.

لا أحد أكثر ظلماً لنفسه وبعدا عن الحق من الذين يكذبون على الله. ان افتراء الكذب في ذاته جريمة نكراء وظلم لمن يُفتري عليه الكذب، فكيف إذا كان هذا الافتراء على الله!!

{وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} .

لا أحد أكثر ظلماً لنفسه وبعدا عن الحق من الذين يكذبون على الله. ان افتراء الكذب في ذاته جريمة نكراء وظلم لمن يُفتري عليه الكذب، فكيف إذا كان هذا الافتراء على الله!!

{أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} .

سيعرض هؤلاء المفترون يوم القيامة على ربهم ليحاسبهم على أعمالهم السيئة، فيقول الاشهاد من الملائكة والانبياء والناس: هؤلاء هم الذين ارتكبوا جريمة الكذب على الله. بذلك يفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعة، اي خروجهم من رحمة الله.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إن الله يُدْني المؤمنَ حتى يضعَ كَنَفَهُ عليه ويستَرَهُ من الناس، ويقرِّره بذنوبه ويقول له: اتعرف ذنبَ كذا؟ اتعرف ذنبَ كذا؟ فيقول: يا ربِّ أعرف، حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه انه قد هلك قال: فَإِنِّي سترْتُها عليك في الدنيا وأنا أغفر لك اليوم، ثم يعطى كتابَ حسناته» .

{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} .
الذين يَصْرِفُونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وهو دينه القيم وصراطه المستقيم؛ ويريدون ان تكون هذه السبيلُ معوجةً لتوافقَ شهواتهم واهواءهم، وهو كافرون بالآخرة والبعث والجزاء.

{أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} .
هؤلاء الذين يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لم تكنْ لهم قوةٌ تعجزُ الله عن أخذِهِم بالعذاب في الدنيا، ولم يكنْ لهم أنصارٌ يمنعون عنهم العذاب لو شاء ان يُعْجِلَهُ لهم. انهم سيلقون ضعف العذاب في الآخرة.

ثم بين علة هذه المضاعفة للعذاب بقوله:
{مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} .
لقد أعماهم وأصمهم انهماكهم في الكفر والضلال حتى كرهوا ان يسمعوا القرآن أو يبصروا آيات الله في الكون.
{أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} .
هكذا اضاع اولئك الكافرون أنفسهم، ولم يربحوا بعبادة غير الله شيئاً، وغاب عنهم في الآخرة ما كانوا يفترونه من الكذب على الله في دنياهم.

{لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ} .
حقاً إنهم أشدُّ الناس خسارةً في الآخرة، وبذلك يكونون قد أضاعوا أنفسهم في الدنيا والآخرة.
وبعد ان بين الله حال الكافرين واعمالهم ومآلهم، بين حال المؤمنين اصحاب العمل الصالح وعاقبة أمرهم فقال:
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .
ان الذين آمنوا بالله ورسله، وعملوا الاعمال الصالحة، وخشعت قلوبهم واطمأنت الى ربها، سيكونون أهل الجنة خالدين فيها ابدًا.
{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ} .

مثل الفريقين: الكافرين والمؤمنين: الكافرين كالأعمى الذي يسير على غير هدى، والأصم الذي لا يسمع ام يُرشد به الى النجاة؛ والمؤمنين، كالْبَصِيرِ يرى طريق الخير، وقوي السمع الذي يسمع كل ما ينفعه.
{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} .
هل يستوي هذان الفريقان في الحال والمآل؟ افلا تتفكرون ايها الناس فيما بين الباطل والحق من خلاف فتعتبروا به، وتسيروا على الصراط المستقيم!

١١٠٨ 25

ورد ذكر نوح في ثلاثة واربعين موضعاً من القرآن الكريم في ثمان وعشرين سورة. وذكرت قصة نوح مفصلة في القرآن الكريم في سورة الاعراف وهود وسورة المؤمنين والشعراء والقمر وسورة نوح، وهي مختلفة اللفظ حسب ما تكون العناية موجهة نحوه من البيان والمعنى:

كما أرسلناك يا محمد الى قومه لتنذرهم وتبشّرهم، فقابلكَ فريقٌ بالكفر والجحود، أرسلنا من قبلُ نوحاً الى قومه فقال لهم: إني رسولُ الله إليكم، أنذرتكم من عذابِ الله وأبين لكم طريق النجاة.

ثم فسر هذا الانذار بكلام مختصر.
{أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمٍ} .

وَإِنِّي أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، لِأَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِنْ عَبْدْتُمْ غَيْرَهُ أَوْ اشْرَكْتُمْ مَعَهُ سِوَاهُ أَنْ يَنَالَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ مُؤَلَّمٍ.
قراءات:
قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمة: «إني لكم نذير مبين» بكسر همزة ان، والباقون بفتحها.

١١٠٩ 27

الملا: كبار القوم. اراذل: جمع اراذل، وهو الخسيس الدنيء. بادی الرأي: ظاهره قبل التأمل في باطنه. رأيتم: اخبروني. عميت: خفيت انلزمكموها: انكرهم عليها. تزدري: تستهزئ.
اختار الله تعالى نوحاً من بين أولئك القوم لينذرهم عذاب الله، لأنهم تهادوا في غيهم وضلالهم. وقد اجتمع كبارهم وأهل فيهم على تكذيبه واحتقاره هو ومن ابتعه، واستعدوا ان يكون واحد منهم - لا يمتاز عليهم بالغنى والجاه- هو المختار لهدايتهم، وأنفوا ان يكونوا مثل الذين اتبعوا نوحاً من الضعفاء. وزعموا ان هؤلاء قد اتبعوه من غير روية ولا تكفير، «بادی الرأي» وطلبوا اليه لن يجد ناصر يدفع عنه عقاب اله اذا ما طردهم عن الهدى.
كذلك أوضح لهم ان إنما جاءهم بالهداية، وليس رجل مال قد مكّنه الله من خزائنه وأطلعه على غيبه، وقال إنه الملك فيهم، وإنما هو شخص اختاره الله تعالى لدعوتهم وتبليغهم أمره. أما اتباعه من المؤمنين الذين تزدريهم أعين الكبراء فإن أمرهم الى الله، وهو أعلم بسرّهم، لان ادراك الهداية الى الحق لا يكون بالمظهر الفاخر بل باطمئنان النفس وركونها الى الهدى مع اليقين التام والرضى به، ثم إنه لا يطلب منهم أجراً على دعوته، فأجره على الله وحده.
قراءات:

قرأ ابو عمرو: «بادی الرأي» بالهمزة والباقون بدون همزة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «فعيت» بضم العين وتشديد الميم. «فعميت» بفتح العين وكسر الميم بدون تشديد.

١١٠١٠ 32

جادلتنا: نافشتنا وخاصمتنا. يغويكم يضلكم.
قالوا: يا نوح، قد ناقشتنا بجدالك فأطلت حتى مللنا. ان كنت صادقاً فيما تدعيه، فعجل وهات ما توعدنا به من العذاب.
{قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} .
عند ذلك قال نوح: هذا أمرٌ بيد الله وحده، فهو الذي يأتيكم بما تشاء حكمته، ولن تعجزوه ابداً، لأنه لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء.
{وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} .
إنه لن ينفعكم نصحي لمجرد إرادتي الخير لكم، إذا كان الله قد شاء ان يضلكم. . . انه ربكم وخالقكم لا أنا، واليه ترجعون يوم القيامة، ويجازيكم على اعمالكم.

ونرى من هذا الحوار الذي دار بين نوح والملا من قومه أنهم عجزوا عن الجدال فطلبوا ان يأتيهم بالعذاب تشكيكاً فيه، وهذا ديدن الأمم في عدم الخضوع لحكم العقل إذا خالف الأمر ما ألفوه وورثوه عن آبائهم.

في هذه الآية الكريمة دَفْعُ شبهةٍ من شُبُهَةِ المشركين من قريش الذين ادَّعوا أن محمداً يفتري هذا القصص، فيردُّ الله عليهم بأن هذا القصص صادق، وقل لهم أيها الرسول: إن كنت افتريته على الله كما تزعمون، فهو جرمٌ عظيمٌ عليّ وحدي إثمه، وإذا كنت صادقاً، فأنتم المجرمون، وأنا بريء من جرمكم هذا.

فلا تبئس: فلا تحزن الفلك: السفينة. مفرد وجمع. بأعيننا: تحت رعايتنا. وحيناً: بارشاد وحيناً. في تلك الحال أوحى الله الى نوح أنه لم يؤمن من قومك غير الذين سبق وآمنوا، فلا تحزنْ على ما كانوا يعملون. . . ابن السفينة تحت رعايتنا وبارشادش وحيناً، ولا تشفع في الذين ظلموا. . . فهم محكومٌ عليهم بالغرق. وشرع نوح في صنع الفلك، فكان كلما مر عليه نفر من قادة الكفر من قومه استهزأوا به، لجهلهم الغرض من بناء السفينة، فيقول لهمك ان تهزأوا منا فنحن ايضاً نهزأ منكم، لكنكم سوف تعلمون من منا الذي سيأتيه عذابٌ يذله في الدنيا، ثم يحلّ عليه في الآخرة عذاب دائم.

فار التنور: نبع منه الماء بقوة. التنور: فرن له شكل خاص للخبر. مجراها ومرساها: اجراؤها وارساؤها. ومجراها بفتح الميم ومرساها بضم الميم. معزل: مكان بعيد عن ابيه. ساوي الى جبل: سألتجئ الى جل يعصمني: يحميني. اقلعي: أمسكي. وغيض الماء: نصب الجودي: اسم جبل يقال انه في الموصل.

حتى اذا جاء وقتُ أمرنا بإهلاكهم نبع الماء بشدة من التَّنُّور. وحينئذ قلنا لنوح: إحملْ معك في السفينة من كل زوجين ذكرًا وأنثى، واحملْ اهلكَ جميعاً الا من سبق عليه حُكْمنا بإهلاكه. كذلك واحملْ معك من آمن بك من قومك، وهم نفر قليل. وقال نوح: اركبوا في السفينة باسم الله جريانها ورسوها، ان ربِّي لواسع المغفرة لعباده. وركبوا في السفينة وهم يذكرون الله، وجرّت بهم في أمواج هائجة عالية كالجبال، ثم ان نوحاً دعتهُ الشفقة على ابنه الذي تخلف ولم يرافق أباه. فناداه قائلاً: تعال اركب معنا يا بني، ولا تكن من الجاحدين. فكان جواب ذلك الوالد العاصي: يا أبتِ، سألجأ الى جبلٍ يحميني من طغيان الماء. فقال نوح: لا شيء يعصم أحداً من عذاب الله في هذا اليوم العصيب، الا من رحمة الله. ثم إن الموج حال بينهما وغاب الولد في اللجة وكان من الهالكين. ثم ذكر الله ما حدث بعد هلاكهم، فأمرت الأرض أن تبتلع ماءَها، والسماء أن تكفّ عن المطر. وغاض الماء، وانتهى حكمُ الله بالإهلاك، ورسّت السفينة عند الجبل المسمّى بالجودي عند المَوْصِل بالعراق. «وقيل بعداً للقوم الظالمين» .

قراءات:

قرأ حفص: «من كل زوجين اثنين» بتثنية كل والزوج يطلق على الواحد وعلى الاثنين. والباقون: «من كلّ زوجين اثنين» وقرأ حمزة والكسائي: «مجرها» بفتح الميم والباقون بضم الميم.

{وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} . وبعد ان هدأت العاصفة، وسكن الهول، ثارت الشفقة في قلب نوح على ابنه، فنادى ربّه ضارعاً مشفقاً: يا ربّ، إن ابني مَنّي وهو من أهلي، وقد وعدت أن تنجي أهلي، ووعدك هو الحق، وأنت أعدل الحاكمين. {قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} .

قال الله تعالى: يا نوح، إن ابنك هذا ليس من أهلك، بكفره قد انقطعت الصلة بينك وبينه، فهو عملٌ غير صالح. واحذر ان تطلب ما ليس لك به علم، فأنا أرشدك الى الحق لكيلا تكون من الجاهلين الذين تُنسيهم الشفقة الحقائق الثابتة. قراءات:

قرأ الكسائي ويعقوب: «انه عملٌ غير صالح» والباقون «عملٌ غير صالح» وقرأ ابن كثير: «لا تسألن» بتشديد النون وفتحها. وقرأ نافع وابن عامر: فلا تسألني.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} .

قال نوح: يا رب، إني أُلجأ إليك فلا أسألك بعد هذا ما لا أعلم لي بحقيقته، وإن لم تنفضل عليّ بمغفرتك، وترحمي أكن في عداد الخاسرين.

وفي هذه الآية دليل على ان الله تعالى يجازي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم، فلا بأنسابهم. انه لا يحابي أحدا لأجل الآباء والاجداد ولو كانوا من الأنبياء.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا قاطمة بنت محمد، والله لا أغني عنك من الله شيئا». فأساس الدين عندنا انه لا علاقة للصالح بالوارثة والأنساب. وانما بالايان والعمل الصالح.

{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

قال تعالى: يا نوح، انزل من السفينة بسلام منا، وأمن وبركاتٍ عليك.

ويسأل أناس كثيرون: هل كان الطوفان عاماً في الأرض جميعاً، ام حدث في المنطقة التي كان يسكنها نوح وقومه، وأين كانت هذه الأرض؟

لم يرد نص صريح بذلك، وقد ودت روايات واسرائيليات كثيرة واخبرنا غير مقطوع بصحتها، ولذلك نضرب عنها صفحاً.

ثم ذكر الله تعالى لنبيه الكريم أن هذا قصص من عالم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل، قال:

{تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} .

ان هذه القصة عن نوح وقومه من أخبار الغيب التي لا يعلمها الا الله، ما كنت تعلمها يا محمد ولا قومك من قبل هذا. فاصبر على إيذاء قومك كما صبر الأنبياء قبلك، فان عاقبة الفوز للذين يتقون الله بالإيمان والعمل الصالح.

١١٠١٥ 50

فطرنى: خلقتني. مدرارا: كثيرا.

جاء ذكر عاد قومي النبي هود سبع مرات بدون ذكره هو صراحة، وذلك سورة المؤمنون، وفصلت، والاحقاف، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر.

والقارئ لقصة هود مع قومه يراه إنساناً وقوراً رزيناً يزن الكلام قبل إلقائه، ويتجلى الإخلاص وحسن النية على قسماات وجهه. فهو لا يقابل الشر بمثله، بل لا يفارقه اللين مع قومه أبداً، ويتلطف معهم بذكر نعم الله عليهم ويرغبهم في الايمان، ويذكرهم بما أنعم الله عليهم به من اموال وبنين وجنات وعيون، وأنه زادهم في الخلق بسطةً، وجعلهم خلفاء الأرض من بد قوم نوح، فإذا آمنوا حازوا رضي الله، فيرسل السماء عليهم مدراراً لسقي زروعهم وإنبات الكلا لماشيتهم، كما يزيدهم عزراً على عزهم، وكان في كل محاوراته معهم واسع الصدر، مثال الحكمة والرزانة والأناة.

وقد ذكرت قصة هود في سورة الاعراف بأسلوب ونظم يخالف ما هنا، وفي كل من الموضعين من العظمة والعبرة ما ليس في الآخرة. {وإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} .

وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم في النسب والوطن هودا، فقال لهم: يا قوم، اعبدوا الله وحده، ليس هناك إله غيره، أما عبادتكم للأصنام والأوثان فهي محض افتراء منكم على الله.

كانت مساكن عاد في أرض الأحقاف، في شمال حضرموت، وفي شمالها يوجد الربع الخالي، وفي شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم رمال خالية ليس بها أنيس. ولم يرد ذكر لقوم عاد في الكتب القديمة سوى القرآن الكريم.

{يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون} .

يا قوم إنني لا أطلب منكم أجراً على تبليغ رسالة ربي إليكم، فأجري على من خلقتني وبعني إليكم. أفلا تعقلون ما ينفعكم وما يضركم؟ .
{ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين} .

يا قوم اطلبوا المغفرة من ربكم على سلف من ذنوبكم، ثم توبوا إليه توبة صادقة، فإنه يغيثكم بالمطر الغزير المتتابع، ويزيدكم قوة إلى قوتكم التي تغترون بها، ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وأنتم مصرون على إجرامكم وآثامكم.

١١٠١٦ 53

الناصية: شعر مقدم الرأس، ومقدم الرأس.

{قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين} .

قالوا: يا هود ما جئتنا بحجة واضحة تؤيد دعواك في أنك مرسل من عند الله، ولن ترك عبادة آلهتنا قولك.

{إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء} قال إني أشهد الله واشهدوا أنني بريء مما تُشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون} .
وبالغوا في الرد وقالوا: ما نقول فيك إلا أن بعض آلهتنا قد أصابك بمس من جنون. فقال: مصرّاً على إيمانه متحدياً: إني أشهد الله، وأشهدكم على قولي إن أبرأ إلى الله مما تُشركون به. واتحدى أن دبراً كل حيلة لإهلاكي إذا استطعتم.
{إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها} إن ربي على صراط مستقيم} .

حتى إذا عجّزتم جميعاً، ولم يبق شبهة في أن آلهتكم لا تضر ولا تنفع، أحببتكم أنني توكل على الله واعتمدت عليه. هو ربي وربكم. وليس في ها الكون من دابة إلا هو مالك أمرها يصرفها كما يريد، فلا يعجزه حفظها من أذاكم. وهو عادل تجري كل أفعاله على طريق الحق والعدل، ولا يضيع عنده مظلوم.

١١٠١٧ 57

{فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرّونه شيئاً} إن ربي على كل شيء حفيظ} .

فان تعرضوا عن دعوتي لم يضرني إعراضكم أبداً. . . لقد أبلغتكم رسالة ربي إليكم، وقد يهلككم الله ويستخلف قوماً غيركم في دياركم وأموالكم. وكذلك لا تضرّون الله بإعراضكم عن الإيمان، وهو رقيب على كل شيء من أعمالكم.

{ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ} .

ولما نزل عذابنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه من العذاب الشديد الذي نزل بقومه ثم ذلك سبب ما نزل بهم من البلاء فقال:

{وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد} .

وتلك قبيلة عاد. لقد أنزلنا لهم نعمتنا لأنهم أنكروا الحجج الواضحة، وعصوا رسل الله جميعاً بعضيائهم رسولهم، وطاعتهم لأمر كل طاغية من رؤسائهم وكبرائهم.

{وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} .

ولقد لحقت بهم اللعنة في هذه الدنيا، وسوف تلحقهم يوم القيامة.

ثم أكد الله كفرهم بشهادته عليهم فقال:

{أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ} .

فليعلم كل الناس ان عاداً جحدوا خالقهم عليهم ولم يشكروها بالإيمان، فبعداً لهم. وهذا دعاء عليهم بالطرد عن رحمة الله.

١١٠١٨ 61

أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ: أوجدكم منها. استعمركم فيها. جعلكم تعمرونها. مرجوا: نرجوا منك الخير. مريب: موجب للتهمة والشك. تخسير: خسران.

صالح هو الرسول الثاني من العرب، ورد ذكره في القرآن تسع مرات، في سورة الأعراف ثلاث مرات، وفي سورة هود أربع مرات، وفي كل من الشعراء والنمل مرة واحدة. وجاء ذكر ثمود في سورة الحجر، وفُصِّلَتْ، والذاريات، والنجم، والقمر، والحاقة، والشمس.

كانت مساكن ثمود بالحجر التي تُعرف اليوم بمدائن صالح، في شمال الحجاز، وآثارها باقية إلى اليوم، وكانوا وثنيين يعبدون الأصنام. {وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} .

وأرسلنا إلى قوم ثمود رسولهم صالحاً، فقال لهم: يا قومي، اعبدوا الله وحده، لي لكم آله غيره يستحق العبادة. لقد خلقكم من الأرض، ومكنكم من عمارتها، واستثمارها خيراتها، فاستغفروهم من ذنوبكم، ثم ارجعوا إليه بالتوبة الصادقة، فهو قريب الرحمة مجيب لمن دعاه. {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} .

قالوا: يا صالح، لقد كنا نرجو الخير فيك قبل هذه الدعوة، كما نرى فيك حكمة وأصالة رأي، فما بالك الآن؟ أتنهانا عن عبادة ما كان يعبد آبائنا؟ نحن في شك من دعوتك هذه إلى عبادة الله وحده، شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَهَلْ يُنَصِّرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} .

قال صالح: أخبرني ان كنت على بصيرة من ربي، واعطني رحمة منه لي ولكن، وهي النبوة والرسالة، ماذا اصنع؟ وكيف أخالف أمره وأعصيه؟ ومن يعينني إن عصيته؟ ، إنكم لن تزيدوني غير الضياع والوقوع في الخسران.

١١٠١٩ 64

الآية: المعجزة. ذروها: اتركوها فعقروها: قطعوا قوائها ثم بعد ذلك ينخرونها. في داركم: في بلدكم. الصيحة: صوت الصاعقة. جاثمين: ساقطين على وجوههم. كأن لم يغنوا فيها: كأنهم لم يقيموا في تلك الديار.

يا قوم، هذه ناقة الله معجزة لكم تشهد على صدقي، فاتركوها تأكل في الأرض ولا تمسوها بأذى فينزل بكم عذاب قريب. فعقروها. . فقال لهم صالح: استمتعوا بجياتكم في بلدكم ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك يأتيكم عذاب الله. هذا وعد من الله الذي لا يخلف وعده.

فلما نزل العذاب نجى الله صالحا والذين آمنوا معه من الهلاك ومن فضيحة ذلك اليوم على السوء والله هو القوي العزيز. واخذت الصيحة ثمود، فاصبحوا في ديارهم هامدين ساقطين على وجوههم. يؤمئذ انتهى أمرهم وباتت ديارهم خالية مهجورة كأنهم

لم يسكنوها. لقد كفر قوم ثمود بآيات ربهم، فبعداً لهم. وهكذا كانت الخاتمة، تجيل الذنب وإتباعهم للنعنة، وهلاكهم إلى الأبد. قراءات:

قرأ نافع: «ومن خزي يومئذ» بفتح ميم يومئذ. وقرأ الباقون بكسرهما. وقرأ الكسائي «ثمود» بكسر الدال وتوينها. وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ويعقوب: «الا ان ثمود» بفتح الدال بدون تنوين. والباقون: «ثمودا» بالتنوين.

١١٠٢٠ 69

فما لبث: أسرع. حنيد: مشوي بالحجارة المحاماة. نكرة: أنكره، ضد عرفه. واوجس منهم خيفة: احس بالخوف. يا ويلتا: يا عجباً. البعل: الزوج.

جاء ذكر إبراهيم عليه السلام في خمس وعشرين سورة سيأتي بعض التفصيلات عنها في سورة إبراهيم.

{وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَدْ لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ .}

ولقد أرسلنا الملائكة إلى إبراهيم تبشّره بأن الله سيرزقه غلاماً من زوجته سارة. وكان له اسماعيل من هاجر. فقالوا يحْيونه: سلاماً، فقال: سلام، وأسرع فهيأ لهم طعاماً لذيذاً، عجلأ مشوياً، وكان كريماً يحب الضيوف.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «قال سلم» بكسر السين وسكون اللام.

{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ .}

استغرب إبراهيم حال ضيوفه حين رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام، وأدرك أنهم ليسوا من البشر، وأضر ذلك في نفسه وخاف أن يكون مجيئهم لأمرٍ خطيرٍ لا يعلمه. فالذي لا يأكل الطعام من الضيوف يكون امره مريباً، ويشعر بأنه ينوي خيانةً أو غدرًا حسب تقاليد العرب.

وعند ذلك شفوا له عن حقيقتهم، قالوا: لا تحف، لقد أرسلنا إلى قوم لوطٍ لإهلاكهم. وكانت ديارهم قريبةً من ديار إبراهيم.

{وَأَمْرَاتِهِ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ .}

وكانت امرأة إبراهيم سارة واقفةً تسمع ما يقال، فضحكت سروراً بالأمن من الخوف، فبشّرها الملائكة بأن الله سيرزقها ولداً اسمه إسحاق، ومن بعده سيولد لإسحاق يعقوب.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحمزة حفص «ويعقوب» بنصب الباء، والباقون «ويعقوب» بالرفع.

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ .}

قالت سارة متعجبة: كيف ألد وأنا كبيرة في السن عجوز، وهذا زوجي كما ترونه شيخاً كبيراً لا يولد مثله! إن بشارتكم هذه شيء عجيب مخالف لما هو معروف.

{قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .}

قال الملائكة: لا ينبغي لك ان تعجبي من قدرة الله وأمره. انه لا يعجزه شيء.

لتكن هذه معجزة من معجزاته الخارقة للعادات، وهي رحمة منه لكم واحدى نعمه الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة. وهل جلّ ثناءه مستحق لجميع المحامد، تحقيق بالخير والاحسان.

١١٠٢١ 74

الروع: الخوف. حلیم: يصبر على من آذاه وجهل عليه ويعامله بلطف. اواه: كثير التأوه والتضرع الى الله. منيب: يرجع الى الله في كل امر.

وكان ابراهيم عليه السلام رجلاً رقيق القلب، فلما علم أن قوم لوط هالكون، كما أعلمه الملائكة- أخذته الشفقة عليم، فجعل يجادل ويسأل الرحمة بهم، رجاء ان ينظر الله اليهم نظر رحمة.

قال تعالى:

{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعَ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} .

حين اطمأن ابراهيم الى ان ضيوفه ملائكة من رسل الله، وذهب عنه الخوف، وسكن قلبه ببشرى الولد التي حملها اليه، أخذ يجادل الملائكة في خلاك قوم لوط. وكان لوط هذا ابن أخ ابراهيم، وقد آمن بعمه كما قال تعالى: {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي} [العنكبوت: ٢٦] .

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} .

لقد جادل ابراهيم الملائكة في عذاب قوم لوط لأنه كان يعمل ان لوطاً من الصديقين، ولان ابراهيم نفسه كان حليماً لا يعجل بالانتقام من المسيء، بل هو كثير التأوه والتضرع الى ربه، ويرجع في كل اموره الى الله.

{يَا إِبْرَاهِيمُ اعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} .

وجاءه الرد بقوله الملائكة: دُع هذا الجدل لمصلحة قوم لوط والتماس الرحمة لهم يا ابراهيم، فقد صدر أمر ربك بهلاكهم، فالعذاب آتيتهم لا يُرد، بعد أن حقت عليهم الكلمة بالهلاك.

١١.٢٢ 77

سيء بهم: ساءه مجيئهم. وضاق بهم ذعاً: تحير ولم يطق هذه المصيبة. الذرع: منتهى الطاقة، يقال: ضاق الامر ذرعاً: اذا صعب عليه احتاله عصيب: شديد يهرعون اليه: يسرعون. لا تخزوني: لا تخجلوني. رشيد: عاقل الى ركن شديد: الى من ينصرني من اصحاب النفوذ.

{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} .

كان لوط ابن أخ ابراهيم. آمن بنبوة عمه وتبعه في رحلاته. فكان معه بمصر وأغدق عليه ملك مصر كما اغدق على ابراهيم. فكثرت ماله ومواشيه. ثم إنه افترق عن ابراهيم لأن المكان الذي سكنه عمه لمي عد يتسع لمواشيها، ونزل سدوم في جنوب فلسطين، وهو المكان الذي فيه البحر الميت الآن.

وقد ذكر لوط في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة في اربع عشرة سورة هي: الانعام، الاعراف، هود الحجر، الانبياء، الحج، الشعراء، النمل، العنكبوت، الصافات، ص، ق، القمر، التحريم.

وكان أهل سدوم، قوم لوط، ذوري أخلاق دينئة لا يتسحون من منكر، ولا يتعففون عن معصية، بل يأتونها علناً على رؤوس الاشهاد، كما قال تعالى: {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ} [العنكبوت: ٢٩] .

وقد ذكرت قصة لوط بتمامها في عدة سور، وخلاصتها ان قوم لوط كانوا من الشر بمكان. . كانوا يقطعون الطريق على السابلة، قد ذهب الحياء من وجوههم فلا يستقبحون قبيحا، ولا يرغبون في حسن. وكانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم اليه أحد، ومن ذلك أنهم يأون الذكور من دون النساء، ويرون في ذلك سوءا. وقد عظمهم لوط ونصحهم ونهاهم وخوفهم بأس الله فلم يأبوا له ولم يرتدعوا. فلما ألح عليهم بالعظاات والإنذار هددوه: تراء بالرجم، وتارة بالإخراج، لأنه غريب، الى أن جاء الملائكة الذين مر ذكرهم.

وقد جاءوا الى لوط بهيئة غلمان مُرد حسان الوجوه، فلما جاءوا على هذه الهيئة تألم واستاء، واحس بضعف عن احتمال ضيافتهم وحمايتهم من فساد قومه، وقال: هذا يومٌ شديد، شره عظيم.

{وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ} .

ولما علم قوم لوط جاءوا مسرعين اليه، وكانوا معتادين على ارتكاب الفواحش والفُسوق وعمل السيئات.
 {قَالَ ياقوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد} .
 وحاول لوط ردّهم فقال: يا قوم، هؤلاء بناتي، تزوجوا بهن، ذلك أظهر لكم من ارتكاب الفواحش مع الذكور. . . اخشوا الله واحذروا عقابه، وتفضحوني بالاعتداء على ضيوفي، الي فيكم رجل عاقل سديد الرأي يردكم عن الغي والضلال!!
 {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَأَنْتَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} .
 فأجابه قومهم بقولهم: أنت تعلم أ، الا نريد النساء كما تعلم ما هي رغبتنا.
 وأجمعوا أمرهم على فعل ما يريدون من العمل الخبيث.
 عند ذلك تحير لوط، وأحسّ بضغفه، وهو غريب بينهم، لا عشيرة له تحميه، فقال بحزن:
 {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} .
 أه لو كان لي قوة تدفعكم عن بيتي هذا، او ركن شديد أعتد عليه في حماية ضيوفي، ومنعكم من ارتكاب السيئات.
 وفي صحيح البخاري ان رسول الله ﷺ كان وهو يقرأ هذه الآيات يقول: «يغفر الله للوط، أنه كان ليأوي إلى ركن شديد» .
 فلما ضاق الأمر واستحكمت حلقاته، وبلغ الكرب اشده، كشف الرسل عن حقيقة أمرهم وأنهم ملائكة فقالوا:
 قَالُوا يَا لَوَطِ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ. . . { .

١١٠٢٣ 81

فأسر بأهلك: فسر بأهلك في الليل، السرى والاسراء: السير ليلاً. بقطع من الليل: بجزء منه. من سجيل: من طين متحجر. منضود: متتابع منتظم. مسومة: لها علامة خاصة.
 فما اشتد الأمر على لوط، وضائق عليه الأرض بما رحبت، قالت الملائكة، وقد ظهرت على حقيقتها: لا تخف يا لوط، نحن رسل ربك، ولسنا بشراً كما بدا لك. ان قومك لن يؤذوك. سنمنعهم من ذلك. ولن يصلوا اليك بشر او ضر، أسر بأهلك ليلاً، واخرج بهم من هذه القرية، ولا يلتفت أحد منكم خلفه لكيلا يرى هول العذاب فيصاب بشراً منه، الا امرأتك التي لم تؤمن فإنها من الهالكين مع قومها، ان موعد هلاكهم الصبح، وهو موعد قريب.
 فلما جاء وقت لا عذاب قلبنا ديارهم، بهم، وجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من طين متحجر، عليها علامة من عند ربك.
 {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} .
 ليس العذاب الذي حل بقوم لوط وديارهم بعيا عنكم أيها المشركون من أهل مكة.
 قراءات:

قرأ بان كثير ونافع: فاسر بهمزة الوصل، والباقون: «فأسر» من الإسراء. وقرأ ابن كثير وابو عمرو: «الا امرأتك» بالرفع، والباقون: «الا امرأتك» بالنصب.

١١٠٢٤ 84

الا يتخسوا الناس اشياءهم: لا تنقصوهم من حقوقهم. ولا تعثوا في الارض مفسدين: لا تبالغوا في الافساد. بقية الله: ما ابقاه الله لكم من الربح الحلال.

تقدم ذكر قصة شعيب في سورة الاعراف، وقد ذكر شعيب في القرآن عشر مرات في سورة الاعراف وسورة هود، وفي سورة الشعراء وسورة العنكبوت. وفي كل موضع من العظمت والأحكام ما لي في الأخرى.

وأرض قومه فهي مدين في شمال الحجاز لا تزال معروفة الا الآن، ويسمي المفسرون شعيباً خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وبراعته في الحوار واقامة الحجّة عليهم. ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» صفحة ١٤٩:

«أما شعيب فقد كان زمنه قبل زمن موسى، فان الله تعالى لما ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً قال:» ثم بعثنا من بعدهم موسى بأياتنا الى فرعون وملأه «سورة الاعراف، ومثل ذلك في سورة يونس وهود والحج والعنكبوت. . .» .

ولقد أرسلنا الى قوم مدين أخاهم في النسب شعيباً، قال لهم: يا قوم اعبّدوا الله وحده، ليس لكم إله يستحق العبادة غيره، ولا تنقصوا الميالك والميزان حين تبيعون. إن اراكم أهل ثروة واسعة في الرزق تُغنيكم عن الدناءة في بخس حقوق الناس وأكل اموالهم بالباطل، وأخاف ان يحلّ عذاب يومٍ يحيط بكم لا تستطيعون تفلتوا من احواله اذا لم تشكروا الله وتطيعوا امره؟

{وياقوم أوفوا الميالك والميزان بالقسط} .

أتمرها بالعدل دون زيادة ولا نقصان.

{وَلَا تَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} .

بسرقه أموالهم بالباطل.

{وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} .

ولا تفسدوا في الارض بقطع الطريق، وتهديد الأمن، وتعطيل مصالح الناس.

{بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ} .

ان ما يبقى لكم من المال الحلال الذي تفضّل الله به عليكم خير لكم من المال الذي تجمعونه من الحرام، ان كنتم تؤمنون بالله حق الإيمان ولست استطيع أن أكون رقيباً أحصي أعمالكم واحاسبكم عليها.

١١٠٢٥ 87

بينة: حجة واضحة، ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه: ولا أريد ان أفعل ما انهاكم عنه. واليه أُنيب: الى الله ارجع. ولا يجرمنكم شقاقي: لا يحملنكم الخلاف بيني وبينكم على العناد.

بعد ان بين الله تعالى أمر شعيب لقومه بعباده الله وحده وعدم النقص في الكيل والميزان- ذكر هنا ردّهم عليه، ثم أعدا النصح لهم بأنه لا يريد لهم الا الإصلاح، فقالوا متهمين به:

أصلاّتك يا شعيب تأمرك ان تترك ما كان يعبد آباؤنا؟ ون لا نتصرّف في أموالنا كما نشاء؟ أفأنت الحليم الرشيد كما هو معروف بيننا؟ . فأجاب شعيب:

يا قوم، أرايتم ان كنتُ على حجة واضحة من ربي (وهي النبوة) ورزقي منه رزقاً حسناً. . . هل يصحُّ لي مع هذه النعم الجزيلة ان كتم ما أمرين بتبليغه لكم؟ إنني لن آتي ما أنهاكم عنه لأستبدّ به دونكم، وانما اريد الإصلاح قدر طاقتي، وما توفيتي لإصابة الحق والصواب في كل ما آتي الا بهداية الله تعالى، عليه توكلت في أداء ما كلفني من تبليغكم، وإليه أرجع في كل ما أهمني.

ويا قوم، لا يحملنكم الخلاف بيني وبينكم على العناد والإصرار على الكفر. عندئذ يصيبكم ما أصاب قوم نوح من الغرق، او قوم هود من الريح، او قوم صالح من الرّجفة. ان ديار قوم لوط قريبة منكم، فاتبروا بما أصابهم.

{وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} .

واطلبوا من الله ان يغفر لكم ذنوبكم، ثم ارجعوا إليه نادمين، فهو يرحم من اسغفر واعتذر، ويتودد الى عبادہ بالإنعام عليهم، والنصح لهم.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: «اصلاتك» بالافراد، والباقون: «اصلواتك» بالجمع.

١١٠٢٦ 91

ما نفقه: ما نفهم. لولا رهطك: ولولا جماعتك. لرجناك: لرميناك بالحجارة. واتخذتموه وراءكم ظهرياً: وراء ظهرهم نسياً منسياً. اعملوا على مكاتبتكم: ما يمكنكم، اقصى استطاعتكم. ارتقبوا: انتظروا الصيحة: صيحة العذاب. جاثين: باركين على ركبهم مكبين على وجوههم. كأن لم يغنوا: كأنهم لم يقيموا في ديارهم ولم يسكنوها. بعداً لمدين هلاكاً لهم.

قالوا: يا شعيب، نحن لا نفهم كثيراً مما تقول، وأنت بيننا ضعيف في مكانتك، ولولا ان عشيرتك عزيزة علينا لقتلناك رجماً بالحجارة، وما انت علينا بعزيز حتى نجلّك ونحترمك.

قال شعيب: يا قوم أعشيري أعزّ عليكم من الله ارسلني اليكم! لقد جعلتم أوامره منبوذة وراء ظهوركم. ان ربي محيط بكل ما تعملون. يا قوم، اعملوا ضدي كل ما تستطيعون، أما انا فساظل أعمل على الثبات والدعوة الى الله. وسوف تعلمون من منّا الذي يأتيه عذاب يفضحه ومن هو كاذب انتصروا وأنا معكم من المنتظرين.

ويجن جاء عذابنا نجينا شعبياً ومن آمن معه، واخذت الظالمين من اهل مدين الصيحة المهلكة، فأصبحوا في ديارهم باركين مكبين على وجوههم.

وانتهى أمرهم وزالت آثارهم وصارت ديارهم باركين مكبين على وجوههم. وانتهى أمرهم وزالت آثارهم وصارت ديارهم خاوية كأن لم يقيموا فيها. الهلاك لمدين، وبعداً لهم من رحمة الهل كما بعدت ثمود من قبلهم.

١١٠٢٧ 96

الآيات التسع المعدودة في سورة الإسراء، والمفصلة في سورة الاعراف وغيرها. سلطان مبين: الحجة الواضحة والدليل الظاهر. الملاء: اشراف القوم وزعمائهم: بلوغ الماء، والمورد: الماء. وهنا استعمل بمعنى النار مجازاً. والرغد: العطاء والعون، والمرفود: المعطى.

لقد تكرر ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم مرات كثيرة، ولما ذكر سبحانه ما أصاب أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، اشار في هذه الآيات الى قصص موسى مع فرعون وقومه للإعلام بان عاقبة فرعون وزعماء قومه الهلاك مثل الظالمين من اولئك الأقوام، والغاية من ذلك العبرة والعظة.

لقد ارسلنا موسى، مؤيداً بالمعجزات الدالة على صدقه والحجة، إلى فرعون وكبار قومه. فكفر فرعون وأمر قومه ان يتبعوه في الكفر، فاتبعوا أمره وخالفوا أمر موسى. ولي ما فعل مما يدل على الرشد. وسيأتي يوم القيامة يتقدم قومه كما كان يتقدمهم في الدنيا، فيوردتهم النار. ولبئس ذاك المورد. فعلى فرعون وعليهم لعنة الله والملائكة والناس. «بئس الرغد المرفود» بئس العطاء المعطى. . . اي تلك اللعنة.

١١٠٢٨ 100

منها قائم: موجود. وحصيد: محصود أمت آثاره كالزراع المحصود. تنبيب: اهلاك وتخسير تب: هلك وخسر. {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} .

ان هذا القصص يا محمد هو بعض اخبار القرى التي أهلكها، وهي جديدة عليك لم تكن تعلمها من قبل، لكن الوحي من لدنا ينبئك بهذا الغيب. وذلك بعض اغراض القرآن في قصصه. «منها قائم» ومن هذه القرى ما لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة وال عمران، كآثار الفراعنة بمصر، وبقايا عاد وثمود، «وحصيد» ومن تلك الآثار ما درس وزال، كأنه زرع محصود، كما حل بقوة نوح او قوم لوط وغيرهم.

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} وما ظلمناهم بإهلاكهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وعبادة غير الله والفساد في الارض، فما استطاعت آلهتهم ان ترد عنهم الهلاك، ولا نفعهم بشيء لما جاء أمر ربك، فما زادوهم غير هلاك وتخسير.

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} .

مثل هذا الذي قصصنا عليك من الأخذ الشديد يأخذ ربك القرى حين يهلكها وهي ظالمة مشرقة تدين لغيره بالربوبية.

١١٠٢٩ 103

لا تكلم: لا تتكلم. يوم مشهود: يشهده جميع الناس. لأجل معدود: معين الزفير: تنفس الصعداء من الهم والكرب. شقيق: نشيق في البكاء اذا اشتد تردده في الصدر وارتفع به الصوت. غير مجذوذ: غير مقطوع مرية: شك.

بعد ان ذكر الله تعالى العبرة في إهلاك الأمم في الدنيا، ذكره هنا العبرة بجزاء الآخرة للأشقياء والسعداء، وما ينال الاشقياء من العذاب والخلود في النار. ما يتمتع به المؤمنون في الجنة.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} .

ان في ذلك القصص عبراً ومواعظ يعتبر بها من آمن بالله وخاف عذاب الآخرة بعد يوم القيامة، وهو يوم يُجمع له الناس كلهم للحساب، وتشهده الخلائق جميعاً من الجن والانس والملائكة.

{وَمَا تُوْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} .

ونحن تؤخر ذلك اليوم حتى تمضي مدة محدّدة في عالمنا لا تزيد ولا تنقص، ولم يُطلع عليها أحداً من الخلق.

{يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} .

في ذلك اليوم الذي يأتي لا تتكلم نفس من الأنفس الا بإذنه تعالى، ويكون الناس فريقين: شقياً مستحقاً للعذاب الأليم، وسعيداً مستحقاً لما وعد به المتقون من نعيم الآخرة

قراءات:

قرأ ابن عامر وعاصم وحزة: «يوم يأت» بكسر التاء بدون ياء. والباقون «يوم يأتي» بالياء.

ثم فصل جزاء الفريقين فقال:

{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَنُفِئُوا إِلَى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} .

فاما الذين شقوا في الدنيا ففي النار ما لهم يكون فيها تنفسه مصحوباً بالآلام مزعجة، وشهيقهم يشتد تردده في الصدر من شدة كربهم.

{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} .

خالدين في النار ما دامت السموات والارض، لا يخرجون منها الا في الوقت الذي يشاء الله، وليعذبهم بنوع آخر من العذاب. ان ربك أيها النبي فعال لما يريد فعله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

{وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنُفِئُوا إِلَى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ} .

اما الذين رزقهم الله السعادة فيدخلون الجنة خالدين فيها الى ما لا نهاية {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} الا الفريق الذي يشاء الله تأخيرَه عن دخول الجنة مع السابقين، وهم عصاة المؤمنين، وهؤلاء يتأخرون في النار ريثما يتم توزيع الجزاء عليهم، ثم يخرجون منها الى الجنة ويعطي ربك أهل الجنة عطاءً دائماً غير مقطوع ولا منقوص.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: «واما الذين سعدا» بضم السين وكسر العين والباقون: «سعدوا» بفتح السين وكسر العين.

{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُفَوِّهِمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ} .

بعد ان بين الله تعالى قصص عبدة الأوثان وما آل اليه أمرهم، ثم أتبعه بأحوال الاشقياء والسعداء - أعاد الخطاب الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ليسري عنه عن المؤمنين معه ويثبتهم.

ما دام امر الأمم المشركة في الدنيا ثم في الآخرة كما قصصنا عليك يا محمد- فلا يكن لديك أدنى شك في مصير عبدة الأوثان من قومك. انهم يعبدون ما كان يعبد آباؤهم من قبل، من الاوثان والاصنام فهم مقلدون لهم، وسوف نعطيهم نصيبهم من العذاب جزاء اعمالهم وافيا على قدر جرائمهم.

١١٠٣٠ 110

شك منه مريب: قوي دائم. طرفي النهار: الغدوة العشيّة، يعني صلاة الصبح والظهر والعصر. وزلماً من الليل: الساعات الاولى منه، صلاة المغرب والعشاء.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكَتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} .

بعد ان ذكر مشركي مكة بالماضين من أمثالهم، وما جرى لهم في الدنيا وما سينالهم في الآخرة - ذكرهم هنا في هاتين الآيتين بقوم موسى، واختلافهم في الكتاب. فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فلا عجب أن آمن بك قوم ايها الرسول وكفر بك آخرون.

ولقد آتينا موسى التوراة فاختلف بنو اسرائيل فيها، ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير عذابهم الى يوم القيامة لفصل بينهم بإهلاك المبطلين ونجاة المحقّين. ان كفار قومك يشكون في صدق القرآن، وكذلك هؤلاء ورثوا التوراة واقعون في حيرة وبعدٍ عن الحقيقة.

{وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لِيُؤْفِكْهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} .

ان ربك سيوفي كل فريق من هؤلاء: المصدقين والمكذّبين، جزاء اعمالهم، وهو خبير بهم يحيط علمه بكل ما يعملون.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابو بكر «وان كلا» باسكان النون. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة «لما» بالتشديد والباقون «لما» بالتخفيف.

وبعد ان بين الله أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وذكر وعدهم ووعدهم - أمر رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين بالاستقامة، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعمل والعمل والاخلاق الفاضلة، فقال.

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

ما دام هذا حال الأمم التي جاءها كتاب من الله فاختلفت فيه وخرجت عليه، فاستقم انت يا محمد ومن معك من المؤمنين ولا يتجاوزوا حدود الاعتدال، انه سبحانه محيط علمه بكل ما تعملون.

{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} .

لا تميلوا ادنى ميل ولا تطمئنوا الى اعداء الله وأعدائكم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك فتستحقوا عذاب النار مثلهم. انه لا ناصر لكم غير الله، ولا تنصرون الا بالاستقامة والايمان.

وكذلك لا تسكتوا عن المنكر إذا رأيتموه. . . فإن الامام أحمد وأصحاب السنن رووا عن ابي بكر رضي الله عنه انه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ان الناس رأوا المنكر بينهم فلم ينكروا، يوشك أن يعمهم الله بعاقبه» وهذا ما هو حاصل فينا اليوم. {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} .

بعد ان امر الله رسوله بالاستقامة وعدم تجاوز ما رسمه الدين، وعدم الركون الى الظالمين، أمره هنا بأفضل العبادات وأجل الفضائل، فقال:

يا محمد، أقم الصلاة كاملة على أحسن وجه، وداوم عليها في طرفي النهار (وهما أوله وآخره) وفي اوقات متفرقة منه. وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة دوت تحديد عددها، لكن السنة وعمل الرسول الكريم حددت ذلك. وقد خص الله تعالى الصلاة بالذكر لانها أساس العبادات. {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} .

ان الأعمال الحسنة تحو السيئات التي قلما يخلو منها البشر، والمراد بالسيئات الذنوب الصغيرة، لان الكبائر لا يكفرها الا التوبة. كما قال تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١] .

وفي الحديث الصحيح: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنب الكبائر» رواه مسلم وفي صحيح البخاري ايضا: «أيتم لو ان نهراً يباب أحدكم يغتسل فيه لك يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا قال: فذلك مل الصلوات الخمس يحو الله بها الخطايا» . {ذلك ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} .

ان في الوصايا السابقة من الاستقامة، والنهي عن الركون الى الذين ظلموا، واقامة الصلاة في تلك الأوقات عبرة للمتعتبين المستعدين لقبولها، الذين يذكرون ربهم على الدوام.

والاستقامة في حاجة الى الصبر، ولذلك عقب الله على ذلك بقوله:

{وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} .

اصبر ايها النبي على مشاق ما أمرناك به، فالاستقامة احسان، واقامة الصلاة في اوقاتها احسان، والصبر على المكروه احسان، والله لا يضيع أجر المحسنين.

١١٠٣١ 116

فلولا: فهلا القرون: جمع قرن، الجيل من الناس وشاع تقديره بمائة سنة. اولوا بقية: ما يبقية من اهل الصلاح والعقل. ما اترفوا فيه: ما تنعموا فيه من ملذات الدنيا فافسدتهم وابطرتهم. وتمت كلمة ربك: قضاؤه وأمره.

{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَّهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ} .

فهلاً وجد هناك من أهل القرون التي كانت قبلكم جماعة أصحاب شيء من العقل او الرأي والصلاح ينهون قومهم عن الفساد في الأرض.

{إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} .

ولكن كان هناك نفر قليل من المؤمنين لم يسمع لهم راي ولا توجيه فأنجاهم الله مع رسلهم. أما الظالمون المعاندون فقد تمسكوا بما رزقناهم من أسباب الترف والتعيم فبطروا واستكبروا وصدوا عن سبيل الله، وكانوا بذلك مجرمين.

ثم بين الله تعالى ما يحول بين الأمم وإهلاكها فقال:

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ} .

ما كان من سنة الله، ولا من عدله في خلقه، ان يظلم أمةً من الأمم فيهلكها وهي متمسكة بالحق، ملتزمة الفاضل. وهذا هو لعدل من احكم الحاكمين.

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} .

لو شاء ربك ايها النبي لجعل الناس على دين واحد، مطيعين الله بطبيعة خلقهم، كالملائكة، ولكان العالم غير هذا العالم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل خلقهم مختارين كاسين، وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم، وهي لا يزالون مختلفين في كل شيء حتى في اصول العقائد، تبعاً لميولهم وشهواتهم وتفكيرهم. الذي هم فيه مختلفون} .

لا يزالون مختلفين في شئونهم الدنيوية والدينية، الا من رحم الله منهم لسلامة فطرهم، فانهم اتفقوا على حكم الله فيهم، فآمنوا بجميع رسله وكتبه واليوم الآخر. ولهذا المشيئة التي اقتضتها حكمته تعالى في نظام هذا الكون، خلقهم مستعدين لهذا الاختلاق ليرتب على ذلك استحقاق الثواب والعقاب.

{إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} .

ولقد سبق في قضائه وقدره وحكمته النافذة، أن يملأ جهنم من اتباع ابليس من الجن والناس من الذين ظلموا ولا يهتدون.

١١.٣٢ 120

نقص عليك: تخبرك. من ابناء الرسل: من اخبارهم ثبت: نقوي على مكاتكم: على تمكنكم واستطاعتكم.

في خاتمة السورة خطاب للرسول الكريم ﷺ أن في قصص الأنبياء والأمم القديمة فائدة عظيمة له وللمؤمنين، وهي تثبت الفؤاد وتلقي العظمة.

{وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} .

إننا نقص عليك ايها النبي كل نبأ من انباء الرسل المتقدمين مع أمهم كيما نقوي قلبك على تحمل اعباء الرسالة. وقد جاءك في هذه الأنبياء بيان الحق الذي تدعو اليه مثلاً دعا اليه السابقون من الرسل، وفيها موعظة وذكرى وعبرة ينتفع بها المؤمنون.

{وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ} .

ايها النبي، قل للذين يصرون على العناد والكفر: اعملوا ما تستطيعون من محاربة الاسلام وايداء المؤمنين، فاننا ماضون في طريقنا على قدر ما نستطيع من الثابت على الدعوة وتنفيذ أمر الله.

{وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} .

وانتظروا بنا ما تترقبون لنا. إننا كذلك منتظرون وعد الله لنا بنجاح الدعوة والانتصار.

{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعبدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} .

ولله وحده علم الغيب في هذا كله، واليه وحده يرجع تصريف كل أم من الأمور. وإذا كان الامر كذلك فاعبد ربك وحده، وتوكل عليه، وامثل ما أمرت به من دوام التبليغ والدعوة وما ربك بغافل عما تعملون جميعاً ايها المؤمنون والكافرون. وقد صدق وعده ونصر عبده، واطهر دينه على الدين كله.

الف. لام. را. سبقت الإشارة الى تلك الحروف وأمثالها في القرآن الكريم. المبين: الواضح المرشد الى مصالح الدنيا وسبيل الوصول الى سعادة الآخرة.

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} .

لقد انزلنا هذا الكتاب على النبي العربي ليبين لكم بلغتكم نفسها ما لم تكونوا تعلمونه، فعلنا ذلك تسهيلاً عليكم في أن تعقلوا معانيه وتفهموا ما ترشد اليه آياته من مطالب الروح، ومدارك العقل.

{لَنُخَبِّرَنَّكَ عَنْهُمْ أَجْرَ مَا أَقْرَبْتَهُمْ وَلَنُخَبِّرَنَّكَ عَنْهُمْ أَجْرَ مَا أَقْرَبْتَهُمْ وَلَنُخَبِّرَنَّكَ عَنْهُمْ أَجْرَ مَا أَقْرَبْتَهُمْ}

نحن نروي لك يا محمد أحسن الأخبار التي تتضمن العبر والحكم، بإيحائنا اليك هذا القرآن، وكنت قبل نزوله عليك لا تعلم شيئاً عنها، وبخاصة أنك في مجتمع أمي جاهل لا يعرف شيئاً من أمور الماضين ولأخبار الأنبياء واقوامهم.

أحد عشر كوكبا: هم اخوة يوسف. والشمس والقمر: ابوه وامه الرؤيا: ما يراه النائم في المنام. يجتبيك ربك: يختارك ويصطفيك. تأويل الاحاديث: تعبير الرؤيا.

قال يوسف لأبيه يعقوب: لقد رأيت في منامي أحد عشر كوكبا ساجدة لي، ومعها الشمس والقمر ساجدين أيضاً. (وهذا السجود سجود تعظيم لا سجود عبادة) وقد علم أبوه ان هذه الرؤيا سيكون لها شأن عظيم، وان يوسف سيكون له مستقبل وسلطان يسود به أهله والناس، فقال لولده: يا بني، لا تقص على إختوتك هذه الرؤيا، فإنها تثير في نوسهم الحسد ويكيدون لك كيداً عظيماً، فالشيطان بالمرصاد للانسان وهو عدوه الظاهر على الدوام.

لقد اصطفاك ربك يا يوسف فأراك هذه الرؤيا التي تبشر بخير عظيم، وسختارك أيضاً للنبوة والملك، ويعلمك الرؤيا، فيعظم قدرك وذكرك. وتتم نعمة الله عليك بالنبوة، كما أتمها من قبل على أبويك: ابراهيم واسحاق إنه عليم بمن يصطفيه حكيم في تديره.

ان بعض الرؤى حق، ويتحقق كثير منها في المستقبل، وما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف وصاحبيه في السجن، ورؤيا ملك مصر - يجعلنا نؤمن بها. وقد حصل معنا الكثير من الرؤى ومع اشخاص عرفناهم، وتحقق بعضا في حالات متكررة. قراءات:

قرأ ابن عامر: «يا ابت» بفتح التاء والباقون: «يا ابت» بكسر التاء.

آيات: عبر. عصابة: جماعة اقوياء. الحب: البئر غيابه الحب: قعرها بعض السيارة: بعض المسافرين من القوافل يرتع: يلهو ينعم. واوحينا اليه: ألهمناه. لتنبئهم: سوف تخبرهم فيما بعد.

لقد كان في قصة يوسف وإخوته عبر للسائلين عنها والراغبين في معرفتها، اذا قال إخوة يوسف لبعضهم: إن يوسف وأخاه أحبُّ على أيينا منا، فهو يفضلهما علينا على صغرهما. ونحن أكبرُ منهما وأنفعُ لكن أبانا بإيثاره يوسف وأخاه بنيامين يقع في الخطأ ويتعمد البعد عن الحق والصواب.

وتشاوروا فيما بينهم، فقال بعضهم: اقتلوا يوسف حتى لا يكون لأبيه أمل في لقائه، او أبعده الى أرض بعيدة عن العمران حتى يلا يهتدي الى العودة منها. بذلك يخلص لكم حبُّ أبيكم، وتصيرون قوماً يرضى عنكم، اذ يقبل الله توبتكم، ويقبل ابوكم اعتذاركم.

فقال: واحد منهم: لا تقتلوا يوسف، ان ذلك ذنبٌ عظيم، ويكفي ان تلقوه في قعر بئر يلتقطه منها بعض المسافرين من القوافل. . . وبذا يتم لكم ما تريدون.

قراءات:

قرأ نافع: «في غيابات» بالجمع والباقون «غيابه بالمفرد.

فأعجبهم هذا الرأي وأقروه، وذهبوا الى أبيهم يخادعون، ويمركون به ويوسف، فقولوا له: يا أبنائنا، لماذا تخاف على يوسف منا فلا تأمنّا عليه؟ نحن نحبّه ونُشفق عليه، فأرسله معاً غداً الى المراعي؟ هناك يتمتع بالأكل الطيب، ويلعب ويمرح شأن بقية الصبيان، ونحن نحرص عليه من كل مكروه.

قراءات:

قرأ ابن كثير: «نرتع ونلعب» بالنون فيها، وقرأ أبو عمرو وابن عامر: «نرتع ونلعب» بالنون وجزم العين. وقرأ نافع: «يرتع ويلعب». قال ابراهيم: انني لأشعر بالحزن إذا ذهبت به بعيدا عني، وأخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه لاهون.

قراءات:

قرأ الكسائي وخلف: «الذئب» بدون همز. والباقون: «الذئب» بالهمز.

قالوا: كيف يأكله الذئب ونحن جماعة قوية! لا خير فينا لأنفسنا في تلك الحال.

وذهبوا به لينفذوا المؤامرة، واتفقوا على إلقائه في غور البئر وفي تلك اللحظات ألهمناه الاطمئنان والثقة بالله، وانه سيعيش ويذكر إخوته بموقفهم هذا منه فيما بعد.

١٢٠٤ 16

بعد ان بين الله تعالى أن كل من في السموات والأرض خاضع لقدرته عاد الى المشركين يسألهم عدة أسئلة ليُلزمهم الحجّة ويقنعهم بالدليل.

قُلْ لهم ايها النبي: من خَلَقَ السماوات والأرض؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: إن الذي خلق هذا الكون وما فيه هو الله، ثم اسألهم وقل لهم: كيف اتخذتم من دون الله أرباباً مع انهم لا يملكون لأنفسهم ولا لكم نفعا ولا ضرا!!؟

ثم ضرب مثلاً للمشركين الذي يعبدون الأصنام وغيرها من دون الله، والمؤمنين المصدقين بالله، فقال: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير؟} .

هل يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ولا يهتدي، مع البصير الذي يبصر الحق فيتبعه.

ثم ضرب مثلاً للكفر والايان فقال:

{أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور؟} .

لا يستوي الكفر والإيمان، فالظلمات التي تحجب الرؤية هي التي تلفهم وتكفهم عن إدراك الحق الظاهر المبين.

ام جعلوا لله شركاء خلقوا نخلقه فاشتبه الأمر عليهم فلم يعرفوا من خلق هذا ومن خلق ذاك، قل لم أيها النبي: الله وحده هو الخالق لكل ما في الوجود، وهو الواحد القهار الغالب على كل شيء.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر: «هل يستوي الظلمات والنور» بالياء، والباقون «تستوي» بالتاء كما هي في المصحف.

١٢٠٥ 21

اكرمى مثواه: أحسن معاملته. المثوى: مكان الإقامة مكا ليوسف: جعلنا له مكانه رفيعة. والله غالب على امره: قادر عليه من غير مانع حتى يقع ما أراد، او غالب على امر يوسف يدبره ويحوطه. بلغ اشده: استكمل قوته وبلغ رشده. آتيناه حكماً وعلماً: وهبناه حكماً

صحيحاً صائباً، وعلمها بحقائق الأشياء.. انتهت محنة يوسف الاولى، وبدأ عهداً جديداً في بلدٍ جديد عليه، ومجتمع غريب مختلف عن بيئته واهله. هناك بيع يوسف لرئيس الشرطة في المدينة وقال رئيس الشرطة لزوجته: خذي هذا الغلام، اشترتيه من أصحابه أكرمي مقامه عندنا لعله ينفعنا أو ننهذه ولداً لنا. وأحبه سيده كثيراً، فجعله رئيس خدمه، حتى لم يكن لأحد في الدار كلمة أعلى من كلمة يوسف سوى سيده وسيدته، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} الآية.

{وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} .

ألهمناه قدرأ من تعبیر الرؤيا، ومعرفة حقائق الامور، والله غالب على كل أمرٍ يريد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون خفايا حكمته ولطف تدبيره. ذلك أنا ما حدث ليوسف من اخوته، وما فعله الذي أخذوه حراً وباعوه عبداً، ثم ما وقع له من امرأة العزيز ودخوله السجن - كل ذلك كان من الاسباب التي أراد الله تعالى بها المكين ليوسف في الأرض.

ولما بلغ يوسف أشده واستلکم قوته، اعطيناه حكماً صائباً وعلماً نافعا، ومثل ذلك الجزاء العظيم نجازي بها المحسنين على احسانهم.

١٢٠٦ 23

وراودته: طلبت منه برفق ولين ومخادعة. هيت لك: هلم اقبل وأسرع. قال معاذ الله: قال اعوذ بالله. انه ربي: انه سيدي. احسن مثواي: احسن معاملتي فلا اخونه.

وراودته امرأة سيده عن نفسه، (وانه لتعبير لطيف محتشم) وغلقت أبواب قصرها وقالت: هلم، علي يا يوسف، فقد هيأت لك نفسي فقال يوسف: معاذ الله اخون ربي وسيدي ومالك نفسي. . . لقد أحسن إلي غاية الاحسان، فكيف أخونه بعد كل هذا الاكرام!! {إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ} .

الذين يخونون من أحسن اليهم بالتعدي على اعراض الناس.

قراءات:

قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي: «هَيْتَ لَكَ» كما هي في المصحف. وقرأ ابن كثير: «هَيْت» بفتح الهاء وضم التاء مثل حَيْثُ. وقرأ نافع وابن عامر: «هَيْت» بكسر الهاء وفتح التاء. وروى هشام ابن عامر: «هَيْتُ» يعني تهيأت لك.

١٢٠٧ 24

وهذه محنة يوسف الثانية: لقد افتنت امرأة العزيز بجماله، فأشعل ذلك في نفسها جذوة الحب، فراودته عن نفسه، فأبى، وحاولت اغراءه بشتى الطرق، حتى همت عن المعصية والخيانة، وثبت على طهره وعفافه. بذلك صرف الله عنه سوء الخيانة والمعصية وظل هو من عباد الله الذين أخلصوا دينهم له.

وهرب منها. . فلحقت به عند الباب، وتعلقت بقميصه فشقته من خلف. وفي تلك الأثناء جاء سيدها، وصادف الحادث وهو يهيم بالدخول ومعه ابن عمها. فلا رأت زوجها ارادت ان تشفي غل صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به، فقالت لزوجها: {مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سَوَاءً إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

لقد أرادت ان توهم زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها، وطلبت منه ان يسجنه أو يعذبه عذاباً اليم. وهنا وقف يوسف وجهر بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل، فقال: «هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي» لا أنا الذي فعلت. لقد حاولت ان تخدعني وتوقعني في المعصية. فقال ابن عمها: ان كان قميصه شق من أمام، فقد صدقت وهو من الكاذبين، وان كان فيمصه شق من الخلف، فقد كذبت في قولها، وهو من الصادقين.

فلما رأى الزوج قيص يوسف تمزّق من خلفٍ، قال لزوجته: ان اتهاكم له باطل، وما الأمر الا من كيدكن معشر النساء، إن كيدكن عظيم.

ثم التفت الى يوسف، وقال له: يا يوسف، أعرض عن هذا الأمر، اكتبه ولا تذكره أبداً. وقال لزوجته: اما انتِ فاستغفري لذنبك من هذا العمل الخطأ.

وانتهى الامر الى هنا، ولم يوقع العزيز أية عقوبة على يوسف، لتأكده من براءته.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر ويعقوب: «المخلصين» بكسر اللام والباقون: «المخلصين» بفتح اللام كما هو في المصحف.

١٢٠٨ 30

فتاها: عبدها قد شغفها حباً: شغاف قلبها، والشغاف: حجاب القلب الذي يغشيه. وأعدت لهن متكأ: وهيات لهن مجلساً مريحاً فاخرا. وأكبرنه: أعظمه ودّهش من جماله. وقطعن أيديهن: جرحن أيديهن من فرط الدهش. حاش لله: تنزيها له استعصم: عفّ وامتنع عن المعصية. أصب اليهن: أمل اليهن.

شاع نبأ حادثة امرأة العزيز وفتاها في أرجاء المدينة، ولا كته افواه النساء، وشرعن يلبنها على فعلتها. وبلغ ذلك امرأة العزيز فأخذت تأكيد لهن حتى يعذرنها. وهكذا ارسلت الدعوة الى طائفة من نساء عليه الوقم، وأعدت لهن مجلساً من الوسائد والتمارق وقدمت اليهن طعاماً، وأعطت كلاً منهن سكيناً تقشر بها الفاكهة. وحين اتخذن مجالسهم قالت ليوسف: اخرج عليهن. فلما رأيته بهرنّ جماله، وألهاهن عن تقطيع الطعام والفاكهة، وجرحن أيديهن من فرط الدهشة والذهول، واعلنّ لذلك الجمال، حتى قلن «حاش الله، ما هذا بشراً إن هذا الا ملك كريم».

حينئذ باحت لهن امرأة العزيز بحبها ليوسف، وقالت: إن هذا التفي الذي بهركنّ حسنه، هو الذي لمنني في شأنه، {وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ} وحاولت إغراءه، لكنه امتنع وعف، {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجِنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ} وان لم يقبل فانه سيسجن ويكون من الاذلة المقهورين. ولما سمع يوسف هذا التهديد والوعيد قال: يا رب، السجن أحب الى نفسي مما يطلبه مني، وان لم تبعد عني شرهن، أمل الى موافقتهن، وأقع في شباك مكرهن، «وأكن من الجاهلين» الذين تستخفهم الالهواء والشهوات. فاستجاب له ربه، فصرف عنه شر مكرهن، انه هو السميع لدعاء من تضرع اليه، العليم بصدق إيمانه. {ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيُصْجِنَنَّ حَتَّىٰ حِينٍ}.

ولما فشّت الفضحية في الناس، رأى العزيز ان يصدّع أمر زوجته ويسجنه، وبذلك كيف ألسنة الناس عنه وعن زوجته ويخلص من العار. كانت الدلائل كلها تشير الى براءة يوسف وعفته وطهارته، ولكن امرأة العزيز المتغترسة أمرت بالسجن، وزوجها نفذ ذلك.

قراءات:

قرأ ابو عمرو ونافع: «حاشا» بالالف. والباقون: «حاش» بدون الف.

١٢٠٩ 36

وهكذا، دخل يوسف السجن ظلماً، وهذه هي المحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف، فكل ما بعدها رخاء. ودخل معه السجن فتیان، كان أحدهما رئيس الخبازين عند الملك، والثاني رئيس السقاة. وقد سبنا لخيانة نسبت اليهما كانت ستودي بحياة الملك.

وبعد ان استقر يوسف في السجن ظهر أمره للناس، وانه يختلف عن السجناء الآخرين. وفي ذات يوم جاءه صاحب شراب الملك واخبره انه رأى في منامه انه يعصر نحرماً للملك، وجاءه الخباز وقال له: إني رأيتُ فوق رأسي طبقاً من الخبز تأكل منه الطيور، وطلبا

اليه ان يفسر لكل واحد منهما ما رأى في منامه.
فانتبه يوسف هذه الفرصة ليعلن لهم دينه ويدعوهم اليه، وقال لأهل السجن ينبئهم بمقدرته على تأويل الرؤيا: لن يأتيكما طعام الا نبأكما بشأناه.
كل ذلك مما علمني ربّي. ثم أضاف:
{إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} .
إني برئت من ملّة من لا يصدّق بالله ولا يقر بوحدانيته، ويعبد عدداً من الآلهة لا تضر ولا تنفع، لأن هؤلاء الناس يكفرون بالآخرة والحساب والجزاء. وبدلاً من ذلك، أجدني اتبعت ملّة آبائي الذين دعوا الى التوحيد الخالص وهم: إبراهيم وإسحق ويعقوب.
ثم بين أساس الملّة التي ورثها عن آبائه الكرام بقوله:
{مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟}
وذلك كلّ من فضل الله علينا أهل بيت النبوة، {ولكن أكثر الناس لا يشكرون} .

١٢٠١٠ 39

واسترسل يوسف بين دينه القويم. . . وبعد ان بين بطلان الشرك اتجه الى السائلين وقال لهما: يا رفيقي في السجن، هل عبادة أرباب كثيرين متفرقين لا ينفعون ولا يضرّون خير لكما ولغيركما، ام عبادة الله الواحد القهار الذي له ملك السماوات والارض وبيده كل شيء؟ .
ثم بين لهما ان ما يعبدونه ويسمونه آلهة انما هي من اختراعهم، وتسمية من تلقاء انفسهم توارثها خلف من سلف، ليس لها مستند من عقل ولا وحي سماوي. فقال:
{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} .
وان هذه الأرباب، سواء كانت من البشر أم من غيرهم، ليست من الربوبية في شيء. . . انظروا، ليس لها قوة ولا إرادة. اما الربوبية الحقّة فلا تكون إلا لله الواحد القهار، لقد أمر ان لا تعبدوا سواه.
{ولكن أكثر الناس لا يعلمون} . لا يدركون ما هم عليه من جهل وضلالة.

١٢٠١١ 41

بعد ذلك شرع يوسف يفسر لهما الرؤيا فقال: يا صاحبي السجن، ما أحلكما فسيعود الى ما كان عليه، ساقى الملك وصاحب شرابه، واما الثاني فيصّلب ويترك مصلوباً، فتقع عليه الطير وتأكل من رأسه، إن الأمر الذي يهكمما ويشكل عليكما وتشتفتيانني فيه قد اتضح وانتهى حكمه.
ثم التفت يوسف الى الذي اعتقد انه ناجٍ منهما، وهو ساقى الملك، فقال له: اذكر حالي عند سيدك يا هذا، عساه يُنصّفي وينقذني مما أنا فيه.
فشغل الشيطان ذلك الرجل بعد أن خرج من السجن وأنساه ان يذكر للملك قصة يوسف. وهكذا مكث يوسف في السجن بضع سنين والبضع من ثلاث الى تسع، ولا ندري كم المدة التي امضاها على التحديد.

سمان: جمع سمينة. عجاف: هزيلة مفردة عجف وعجفاء. تعبرون: تفسرون. اضعاف احلام: احلام مضطربة يصعب تأويلها، والضعف وجمعه اضغاث: الحزمة من النبات او من كل شيء. واذكر: تذكر بعد امة: بعد حين. تزرعون سبع سنين دأبا: دواما. سبع شداد: سبع سنين صاعب، تشتد على الناس تحصنون: تدخرون. يغاث الناس: من الغيث، وهو المطر والرحمة يعصرون: يستخرجون العصير مما يعصر كالزيت والعنب والتمر والقصب.

بعد أن أمضى يوسف عدداً من السنين في السجن أراد الله ان يبعث بالفرج فهيئاً الاسباب لذلك. اذ رأى الملك رؤيا أفرعته. لقد رأى سبع بقرات سمان ترعى في روضة، ثم جاءت سبع بقرات اخرى هزيلات قبيحات المنظر خرجت من النهر وأكلت البقرات الاولى السمان. كذلك رأى سبع سنابل خضر حسنة طالعة في ساق واحدة، واذا سبع سنابل يابسات خلفها قد فلتحتن الريح تهجم على السنابل الخضر فتأكلها.

استيقظ الملك منزجاً لهذين المنامين، وفي الصباح دعا اليه بالسحرة وكبراء دولته، وقص عليهم الرؤيا وسألهم عن تأويلها فلم يجد عند احد جواباً. قالوا:

{قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ} .

هذه أحلام مضطربة ايها الملك.

وفي ذلك الوقت انتبه رئيس سقاة الملك، رفيق يوسف في السجن الذي فسر الرؤيا، وتذكره، فقال للملك: إن في السجن شاباً ذكياً له علم في تعبير الرؤيا، فأرسلوني اليه لأسأله عن تفسير هذين المنامين. وأرسله الملك اليه فلما التقى بيوسف قال له:

{يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} .

قال يوسف: سيأتي على مصر سبع سنين مخصبات تجود الأرض فيها بالغللات الوفرة، ثم يأتي ذلك سبع مجذبة تأتي على المخزون من السنين السبع التي تقدمتها.

نصحهم أن يقتصدوا في السنين ويخزنوا ما فضل عن القوت في سنبله، حتى اذا حلّ الجذب وجدوا ما يسدّ الرمق الى أن يأتي الخصب من جديد.

ما بال النسوة: ما شأنهن. ما خطبك: ما شأنكن: حَصَّصَ الحق: ثبت واستقر. ولما عاد رئيس السقاة الى الملك وأخبره بتأويل رؤياه سرّ الملك بذلك، وعلم أنه تأويل مناسب مع الرؤيا فقال: ائتمني بيوسف، فلما جاؤوا ليوسف وطلبوا منه ان يخرج من السجن أبي حتى يعرف أمره على حقيقته. كذلك طلب الى الرسول ان يعود ويسأل عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فلما سألهن قلن: حاش الله ما علمنا عليه من سوء، وأنكرن ان يكنّ سمعن شيئاً عن شأنه امرأة العزيز. ولما سمعت امرأة العزيز بشهادة النسوة، وان الأمر قد استبان على حقيقته ببراءة يوسف، ورأت انه أصبح من همّ ان يأتي بيوسف من السجن ليستخلصه لنفسه - أقربت بجرميتها وباحت بما كتمته عن زوجها عدة سنين. فقالت:

{الآن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ} .

الحق أنني لم أنل من امانته أو أطعن في شرفه وعقته، بل صرحت للنسوة بأني قد راودته عن نفسه لكنه تعفّف، وها أنذار أقرّ بهذا أمام الملك ورجال دولته.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أَبْرَىٰ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} .

وبهذا الاقرار من امرأة العزيز انتهت تلك المحنة التي وقع فيها يوسف، وجاءت خاتمتها خيراً.

أستخلصه لنفسه: أجعله خالصاً لي. مكين أمين: ذو مكانة عالية وامانة. يتبوا منها حيث يشاء: ينزل في اي مكان يشاء. ولما ظهرت براءة يوسف للملك طلب إحضاره من السجن بعد أن وقى له بما اشترط لجيئه. فجاء يوسف، وكلّمه الملك فأعجب بكلامه لما رأى من حسن تعبير يوسف ووفرة عقله وحكمته وقال له: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» وسأله أي عمل يرضاه لنفسه ويكون فيه سروره؟ فقال يوسف: «اجعلني على خزائن الأرض» وما يخرج منها من الغلات والخيرات «غني حفيظٌ عليم» . وقبل الملك عرضَه، فاستوزره، وبذلك انعم الله على يوسف نعمة جليلة، فجعل له سلطاناً وقدرة في أرض مصر، يتبوا منها حيث يشاء. وهذا شأن الله في عباده، يهب نعمته لمن يختاره منهم، ولا يُضيع أجر المحسنين. وان ثوابه في الآخرة لأفضل واوفى لمن صدقوا به وبرسهل، وكانوا يتقون الشرك، ويخافون يوم الحساب.

قراءات:

قرأ ابن كثير: «يتبوا منها حيث نشاء» بالنون والباقون «حيث يشاء» .

منكرون: لم يعرفوه. جهزهم بجهازهم: امر ان يعطوا من الطعام ما يريدون. خير المنزلين: خير من يضيف. سناود عنه أباه: نخادع ونستميل برفق. لفتيانه: لغلبانه من الخدم. اجعلوا بضاعتهم في رحالهم: اجعوا ما جاؤا من البضاعة او اوعيتهم. مرت السنين السبع المحصبة وأعد يوسف عدته فيها، واتخذ الخازن وملاها وخزوا الغلات في غُلْفِها. ثم جاءت السنين السبع المجذبة، واشتدَّ المحلُّ والجفاف في جميع أنحاء الأرض. وجاء المصريون الى فرعون يطلبون القوت، فأحالهم الجذبُ بلاد الشام وأحسن أهلُ فلسطين الجوع وعلموا أن الطعام بصر موفور. فأرسل يعقوب أولاده ومعهم الجمال والبهايم الى مصر لشراء القوت لأهلهم من هناك، ولما دخلوا على يوسف عرفهم ولم يعرفوه. . وذلك طبيعي، فقد فارقه وهو غلام أضمره، وها هو الآن قارب الأربعين، وقد كسسته أبهة الملك مهابة، اما هم فانهم على حالتهم في ملبسهم ولُغْتهم ومنظرهم لم يتغير منهم شي.

وأمر يوسف ان يكرّموا في ضيافته، واعطاهم من المؤونة ما طلبوا، واخذ يحدّثهم ويسأل عن احوالهم سؤال الجاهل بها وهو بها عليم. فأخبروه ان لهم اباً شيخاً كبيراً ولهم آخر صغير يحبه أبوهم حبا جما ولا يريد ان يفارقه. وهو بنيامين شقيق يوسف. فقال لهم بعد ان جهزهم الجهاز الكامل: احضروا اخاكم الصغير في المرة القادمة ولا تخافوا شيئاً، وإلا فلا كيل لكم عندي ولا تأتوا الي، فقال له اخوته: سناود عنه أباه.

وقد اكرمهم يوسف غاية الإكرام، وقال لفتيانه: ردوا اليهم بضاعتهم التي دفعوها ثمناً للطعام، واجعلوها في أوعيتهم، فإنهم يعودون اليها.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: «لفتيانه» كما هو في المصحف والباقون: «لفتيته» .

متاعهم: اوعيتهم. يضاعتهم درت اليهم: هي ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام. ما نبغي: ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من احسان الملك اليها؟ ونمير أهلنا: نجلب لهم الطعام والمؤونة. عهدا. الا ان يحاط بكم: الا ان تغلبوا على امركم.

عاد إخوة يوسف الى أبيهم وأخبروه ان الوزير المسئول اكرمهم غاية الاكرام وأخبرهم انه سيمنعهم من شراء الطعام في المرة الآتية حتى يأتوه بأخيهم بنيامين، فتدّكر يعقوب امر يوسف، وكيف فرطوا به فقال لهم: «له آمنكم عليه (بنيامين) الا كما أمنتكم على أخيه من قبل»؟! وفتح إخوة يوسف متاعهم لاستخراج الطعام الذي أتوا به من مصر، فوجدوا نقودهم بحالها، وعرفوا ان ما جاؤا به من الطعام كان مجاناً. فكان ذلك مما شدد عزائمهم في الكلام مع أبيهم، حين قالوا له: يا أبانا، ماذا نطلب اكثر من ذلك! هذه بضاعتنا

رَدَّتْ إلينا، فاذا سمحتْ بأخينا يذهبُ معنا فاننا نشترى الميرةَ (الطعام) لأهلنا، ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، وهو شيء يسير عند الملك الكريم.

والظاهر ان القحط كان شديدا جعل يعقوب يسمح بسفر ابنه تحت شروط اشتراطها على اولاده، فقال لهم: لن ارسله حتى تؤتوني عهداً بالله لتعودون به إليّ الا إن عجزتم عن ذلك. فأعطوه عهدهم، وحينئذ قال: الله على ما نقول وكيل.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «يكنل» بالياء، والباقون: «نكنل» بالنون.

١٢٠١٧ 67

اطمأن يعقوب الى عهد أبنائه، ثم دفعته الشفقة والحرص عليهم الى ان يوصيهم بدخول مصر من ابواب متفرقة، لكي يلفتوا الأنظار عنهم عند دخولهم، ولا تترقبهم أعين الطامعين. ثم قال: {وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} وليس في قدرتي ان ادفع عنكم أذى، فالحكم في تدبير العالم ونظم الاسباب لله وحده، {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} .

ولقد استجابوا لوصية ابيهم، فدخلوا من أبواب متفرقة، وما كان ذلك ليدفع عنهم أذى كتبه الله لهم، ولكنها حاجة في نفس يعقوب، وكان من باب شفقة الأب على أبنائه.

١٢٠١٨ 69

أوى إليه اخاه: ضمه إليه. لا تبتئس: لا تحزن السقاية: وعاء يسقى به ويكال به الطعام، وهو المراد الملك. العير: القافلة من الابل والبغال والحمير. زعيم: كفيل.

ولما دخل اخوة يوسف عليه انزلهم منزلا كريما، واختص أخاه بنيامين بأن ضمه إليه وأسر له قائلا: إني اخوك يوسف، فلا تحزن بما كانوا يصنعون معك، وما صنعوه معي.

ثم إنه أكرم وفادتهم، وكال لهم الطعام، وزادهم حمل بعير لأخيه وجهّزهم للسفر، لكنه أمر أعوانه ان يدسّوا كأس شراب الملك في أمتعة أخيه بنيامين. وغادر القوم، فنادى مناد: أيها الركب القافلون بأحاملهم، قفوا إنكم لسارقون.

ارتاع إخوة يوسف للنداء، واتجهوا الى المنادين يسألونهم: ما الذي ضاع منكم، أي شيء تفقدون؟ فأجابهم هؤلاء: لقد سرقت سقاية الملك يوسف، ونحن نعطي لمن جاء به حمل بعير من المؤونة.

فقال اخوة يوسف وقد فوجئوا بهذا الاتهام: إن اتهمكم آينا بالسرقة أمر عجيب. {مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ} .

فقال فتیان يوسف وقد فوجئوا بهذا الاتهام: إن اتهمكم آيانا بالسرقة أمر عجيب.

فقال فتیان يوسف وأعوانه لإخوته: فما جزاء من سرق صواع الملك ان ظهر انه عند احدكم؟ قالوا: من وجدتم ذلك في رحله فجزاؤه ان يؤخذ عبدا للملك، {كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} .

فتش كبير الأعوان وأحاملهم، مبتدئاً بالكبير منتبها بالصغير، فوجد السقاية في عدل بنيامين. {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} وبذلك نجحت حيلته، وحق له ان يحتجز أخاه. ورجع بقية الإخوة الى مصر ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين. عند ذاك لامهم يوسف على ما صنعوا بعد ان اكرمهم وأحسن اليهم.

ثم علل الله ما صنعه من التدبير ليوسف بقوله: {مَا كَانَ لِأَخِيذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ} ولولا هذا التدبير على يوسف ان يضم أخاه إليه. فنحن {اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ} بالعلم والنبوة، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} .

استيأسوا: يئسوا. خلصوا نجيا: انفردوا يتناجون ويتشاررون. موثقا: عهدا فرطتم: قصرتم. فلن ابرح الارض: فلن افارق مصر. قال إخوة يوسف وقد ملئوا غيظا على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة: إن يشرق فقد سرق* أخ له من قبل. يقصدون بذلك يوسف. وفطن يوسف الى طعنهم الخفي بقولهم: {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} ساءه ذلك، لكنه أسرها، وقال في نفسه: {أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} لانه العليم بحقائق الاشياء.

ثم أرادوا ان يستعطفوه ليطلق لهم بنيامين فيرجعوا به الى أبيهم، لأنه قد أخذ عليهم ميثاقا بان يردوه اليه، {قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا طَاعَنَا فِي السِّنِّ لَا يَكَادُ يُسْتَطِيعُ فِرَاقَهُ، {نَحْنُ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} إلينا في ضيافتنا وتجهيزنا. قال: حاش لله ان نأخذ إلاّ م وجدنا عنده السقاية المسروقة. ولقد حكمتم بذلك حين قلتم: {قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}. فلما انقطع منهم الأمل، ويئسوا من قبول الرجاء، اختلوا بأنفسهم يتشاورون في موقفهم من أبيهم. فقال كبيرهم: لقد أخذ أبوك عليكم عهداً من الله برّد أخيك. وقد سبق ان فرطتم في يوسف، وعلى ذلك فإنني لي أبرح أرض مصر حتى يأذن لي أبي في القدوم عليه، او يحكم الله في شأني وهو خير الحاكمين.

١٢٠٢٠ 81

سولت لكم: زينت. تولى: اعرض. ابيضت عيناه: صار عليهما غشاوة بيضاء من كثرة البكاء، او ما يسمى المياه الزرقاء. كظيم: مملوء غيظا. تفتأ تذكر: لا تفتأ تذكر، لا تزال. حرضا: مشرفا على الهلاك. بئى: همي. تحسسوا: ابجثوا بكل حواسكم. بعد ان تشاور إخوة يوسف في أمرهم اشار عليهم أكبرهم أن يعودوا الى أبيهم ويخبروه بالأمر على حقيقته، فيقولوا له: ان ابنك سرق صواع الملك، وعوقب على ذلك باسترقاقه، {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَيْنَا} وحدثت تحت سمعنا وبصرنا. فإذا كنا يا أبانا في شك مما بلغناك، فأرسل من يأتيك بشهادة أهل مصر، او اسأل رفاقنا في القافلة لتظهر لك براءتنا. فلما سمع يعقوب مقتلهم لم يصدّقهم، وقال في نفسه: هذا امر دبروه لبنيامين كما دبروا أسوأ منه لأخيه يوسف من قبل. وزاد به الحزن حتى ابيضت عيناه، وعادوه من الوجد انقضى امره، وقالوا: ألا تزال تذكر يوسف حتى تشرف على الهلاك؟! فقال لهم: انما أشكوا ما بي من الحزن والحسرة الى الله، وأعلم منه ما لا تعملون. يا بني، ارجعوا الى مصر فانضموا الى أخيك الكبير، وابجثوا جميعا عن يوسف وأخيه، ولا تقنطوا من رحمة الله أن يردّهما، فلا يقنط من رحمة الله الا الكافرون.

١٢٠٢١ 88

الضر: المجاعة. ببضاعة مزجاة: قليلة آثرك: فضلك واختارك. لا تثريب عليكم: لا لوم ولا تأنيب. واستجاب أبناء يعقوب لطلب أبيهم فذهبوا الى مصر، ودخلوا على يوسف مسترحمين، وقالوا: يا أيها العزيز، مسنا وأهلنا الضر والجوع، وجئنا ببضاعة قليلة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا، ان الله تعالى يكافئ المتصدقين بأحسن الثواب. فاخذت يوسف الشفقة الأخوية، وابتدأ يكشف امره لهم قائلا في عتب: هل أدركتم قبح ما فعلتموه بيوسف من إلقاءه في الحب، وبأخيه من أذى؟!.

نبتهم تلك المفاجأة السارة الى إدراك ان هذا يوسف، فقولوا مؤكدين: إنك لأنت يوسف حقا! فقال يوسف مصدقا لهم: أنا يوسف، وهذا أخي، قد منّ الله علينا بالسلامة من المهالك، وبالكرامة والسطان {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}. فقولوا: صدقت فيما قلت. . . إن الله فضلك علينا بالتقوى والصبر وحسن السيرة، وأثابك بالملك وعلو المكانة، وكنا نحن آثمين. فرد عليهم النبي الكريم قائلا: لا لوم عليكم اليوم، ولكم عندي الصفح الجميل، وليغفر الله لكم {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.

ثم سألهم يوسف عن أبيه، فلما أخبروه عن حاله وسوء بصره، أعطاهم قيصه وقال لهم: عودوا به الى أبي فاطرحوه على وجهه، فسيفرح بسلامتي ويعودُ إليه بصره، وحينئذ تعالوا به وبأهلكم أجمعين.
قراءات:
قرأ ابن كثير: «انك» بهمزة واحدة. والباقون «إنك» بهمزتين.

١٢٠٢٢ 94

ولما توجهت القافلة نحو ديار الشام، وكان يعقوب مسغرفاً في ترقب ما تأتي به رحلةُ بنيه، قال: إني لأشتم رائحة يوسف، ولولا خشية أن تهموني في قولي لأنبأتكم عن يوسف بأكثر من الشعور والوجدان.
فقال من حضر وسمع مقاله: {قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ قَدِيمٍ} يا يعقوب، من حبّ يوسف لا تسلوه. ولم يطل الانتظار حتى جاء البشير الى يعقوب بسلامة يوسف وأخيه، والقي قيص يوسف على وجه يعقوب بصيراً وقرّت عينه وبشّر نفسه باللقاء، فقال لمن لاموه وفندوا رأيه: {أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} .
فأقبلوا عليه معتردين عما كان منهم، وطلبوا منه ان يستغفر لهم ذنوبهم، واعترفوا بخطأهم، فقال لهم: سأظلّ أطلب لكم العفو من الله عن سيئاتكم، {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} .

١٢٠٢٣ 99

وتبها يعقوب وبنوه وأهله للسفر وشدّوا رحالهم الى مصر، فلما بلغوها دخلوا على يوسف، فأوى إليه أبويه: يعقوب وزوجته، خالة يوسف، لان أمه ماتت وهو غصير، ورفعهما على العرش. وسجد له ابوه وزوجته واخوته الاحد عشر، وقال لابيّه: يا أبت، هذا تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربّي تتحقّق، وقد أكرمني وأحسن إليّ، فأظهر براءتي وخلّصني من السجن، وأتى بكم من البادية لتلتقي بعد ان افسد الشيطان بيني وبين إخوتي، وهذا كله من لطف الله بي وبكم، إن ربي لطيف لمن يشاء انه هو العليم الحكيم.
واتجه يوسف الى الله بشكره قائلاً: ربّ ما أكرّمت عليّ، وما أعظمتها! لقد منحتني الملك ووهبتني من العمل الكثير. يا خالق السماوات والأرض، أنت مالك أمري ومتولي نعمتي في محياي وبعد مماتي {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} من آبائي ابراهيم واسحق ومن قبلهم، واحشُرني في زمريتهم.

ذلك الذي قصصنا عليك ايها النبيّ (الرسول الكريم) من أخبار الماضي البعيد، لم يأتك الا عن طري الوحي منها، وما كنت حاضراً إخوة يوسف وهم يدبرون له المكائد، وما علمت بكيدهم الا عن طريقنا. انتهت قصة يوسف اكبر قصة في القرآن الكريم كما تقدم.

١٢٠٢٤ 103

غاشية: عقوبة شاملة. الساعة: القيامة. بغتة: فجأة.
{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} .
انتهت قصة يوسف وبدأت بعد ذلك التعقيبات عليها، ومعها لفتات متنوعة، وجولات موحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس، وفي الغيب المجهور، وكل هذا لولا وحي الله تعالى لما وصل الى علم النبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام.
لقد كان رسول الله حريصاً على إيمان قومه، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم، ورحمة لهم مما ينتظرُ المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة.
وما اكثُرُ مشركي قومك يا محمد- ولو حرصت على ان يؤمنوا بك ويتبعوا ما جئتهم به من عندك ربك - بمؤمنين.

{وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} .
 أنت غني عن إيمانهم يا محمد، فلست تطلب منهم أجرا على الهداية ولا مالا ولا منفعة. انك انما تدعوهم ان يتبعوا أمر ربك، وفي ما تعدوهم اليه تذكير وموعظة لارشاد العالمين كافة الا لهم خاصة.
 {وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} .
 ما اكثر الدلائل الماثرة في تضاعيف الكون على وجود الخالق ووحدانيته وكأله. انها معروضة للابصار والبصائر، في السموات والارض، وهم يمررون عليها صباح مساء، ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون ايقاعها العميق.
 {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ} .
 قال ابن عباس: هم اهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون في تلييتهم: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، الا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وهذا هو الشرك الاعظم.
 فإيمان اكثرهم لا يقوم على اساس سليم من التوحيد، لأنهم لا يعترفون بوحدانية اله اعترافا خالصا، ولكنه مقترن في نفوسهم بشوائب تسلكهم في مسلك المشركين.
 والشرك انواع، روى الامام احمد ان رسول الله قال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَاءَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجْشَدُونَ عَنْهُمْ مِنْ جِزَاءٍ» .
 وبعد، فما الذي ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله الناطقة في صفحات الوجود بعد اعراضهم عن آيات القرآن التي لا يطلب منهم عليها أجر.
 {أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} .
 افأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله لكنهم يشركون به غيره في العبادة، ان تاتيهم عقوبة شاملة تغشاهم، او تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون!!

١٢٠٢٥ 108

هذا سبيلي: السبيل يذكر ويؤنث، هذا طريقي. على بصيرة: على حجة واضحة بأسنا: عقابنا عبرة: موعظة.
 بعد ان بين الله تعالى ان اكثر الناس لا يفكرون فيما في السموات والارض من آيات، تدل على ان الله هو الخالق المدبر- امر رسوله ان يخبر الناس ان طريقه هي الدعوة إلى اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، يدعو بها هو ومن ابتعه على بصيرة واضحة وبرهان.
 {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .
 قل ايها الرسول: ان هذه الدعوة التي أدعو اليها هي سنتي ومنهاجي، وهي الطريق الى الله، وانا على يقين مما أدعو اليه ولدي الحجة والبرهان، وكذلك يفعل كل من تبني وآمن بشريعتي، ونزه الله وعظمه عما لا يليق به، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وأبرأ من أهل الشرك لست منهم.
 وكان المشركون في مكة يقولون: لو أراد الله بإرسال لبعث ملكا، كما حكى عنهم سبحانه بقوله: {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [فصلت: ١٤] فرد عليهم بقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} .
 نحن لم نرسل الى الأمم السابقة إلا رجالاً نزل عليهم الوحي ونرسلهم مبشرين ومنذرين، فلم يكونوا ملائكة ولا خلقا آخر، بل بشرا مثلك.

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم على تكذيب الرسول بتوجيه نظرهم الى آثار الغابرين كيف تركوا ديارهم خاوية على عروشها، فقال: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ الخ} .

أفلم يسر هؤلاء المشركون المكذبون في الارض فينظروا كيف أهلكنا الذين كفروا قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم!!

{وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} .

ان ثواب الآخرة أفضل، لأن نعيمها دائم، أفلا تفكرون في هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة!!

ثم ذك سبجانه، تثبيتاً لفؤاد رسوله عليه الصلاة والسلام، أن العقبة دائماً لرسله، وان نصره تعالى ينزل عليهم حين يضيق الحال فقال: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين} .

لا تبتئس ايها الرسول، فان نصري قريب أكيد، لكنه لا بد من الشدائد، حتى إذا يئس الرسل من إيمان من يدعونهم، وتيقنوا انهم جاءهم نصرنا، أنعمنا بالنجاة والسلامة على المؤمنين، ونزل عقابنا بالمجرمين المكذبين. قراءات:

قرأ أهل الكوفة: كذبوا «بضم الكاف وكسر الذال بدون تشديد. وقرأ الباقون» كذبوا «بتشديد الذال. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب:» فننجي «بضم النون وكسر الجيم وتشديدها.

وقرأ الباقون: «فنجي» بنونين على صيغة الاستقبال.

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

إن في أخبار الانبياء واقوامهم عبرة وموعظة يستنير بها أصحاب العقول، وليس هذا القرآن حديثاً مختلفاً ولا أساطير مفتراة، وانما هو وحي يؤكد صدق ما سبق من كتب السماء ومن جاء بها من الرسل، ويبين كل ما يحتاج الى تفصيله من أمور الدين، انه هدى لمن تدبره وامعن النظر فيه ورحمة عامة للمؤمنين الصادقين.

وهكذا تختتم سورة يوسف بمثل ما بدئت، وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها وبين ثناياها متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها. وكما قدمنا، بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة، فيها مشاهد وألوان م الشدائد، ثم كانت العقابة خيراً للذين اتقوا ربهم، وهذا هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب.

ولقد بدأت السورة بقوله تعالى: {لَنَحْنُ نُقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ} وختمت بقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

١٣ الرد

١٣٠١ 1

ألف ميم راء صوتية، وقد سبق الكلام عليها في سورة البقرة تبدأ بها بعض سورة القرآن، وهي تشير الى أنه معجز مع انه مكودن من الحروف.

إن تلك الآيات العظيمة هي هذا القرآن، الكتاب العظيم الذي نزل عليك أيها النبي، بالحق والصدق من الله الذي خلقك، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما جاء بهم من الحق.

هكذا تبدأ السورة بقضية من قضايا العقيدة: قضية الوحي بهذا الكتاب، والحق الذي اشتغل عليه، وتكل هي قاعدة بقية القضايا من توحيد الله، والايمان بالبعث والجزاء، والعمل الصالح في هذه الحياة - فكلها متفرعة عن الايمان بالله، وان هذا القرآن وحي من عنده.

١٣.٢ 2

بغير عمد: العمد جمع عمود وهي السواري. مد الارض: بسطها. رواسي: جبال ثابتة يغطي الليل النهار: يغطيه ويستتره. جنات: بساتين. صنوان وغير صنوان: الصنوء، النظير والمثل، وجمعنا صنوان. والمراد هنا النخلات الكثيرة يجمعها اصل واحد. وغير صنوان: متفرقات ومن اصول شتى. الأكل: ما يؤكل.

بعد ان ذكر الله تعالى أن أكثر الناس لا يؤمنون، بدأ هنا باستعراض آيات القدرة، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحمته وتديره، وما في هذا الكون من امور تدل على وجوده ووحدانيته، بعضها سماوي، وبعضها أرضي.

{الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلىقاء ربكم توقنون} .

ان الله الذي أنزل هذا الكتاب هو الذي رفع ما ترون من سموات تجري فيها النجوم بغير أعمد تثرى ولا يعلمها الى الله، ثم ملك هذا الكون باستيلائه على العرش، وسخر الشمس والقمر وجعلهما طائعين، فكل يسير في مدار له لوقت معين بنظام عجيب. وهو سبحانه يدبر كل شيء، ويبين لكم آياته الكونية الدالة على القدرة الكاملة والحكمة الشاملة.

{لعلكم بلىقاء ربكم توقنون} .

حين ترون هذه الآيات مفصلة منسقة.

وبعد ان ذكر سبحانه الدلائل السماوية على وحدانيته أردفها بالأدلة الأرضية فقال: {وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} .

وهو سبحانه الذي بسط لكم الأرض، وجعلاً متتسلاً تسرون فيها شرقاً وغرباً، وهي لعظمها تظهر مبسوطة مع أنها مكورة (وهذا أيضاً من عجائب الكون) وجعل فيها جبلاً ثابتة راسيات وانهاراً تجري لمنافع الانسان والحيوان. وقد جعل في هذه الأرض زوجين اثنين، ذكراً ونثى، من كل أصناف الثمرات. ويتم التلقيح بينهما تلقائياً اذا كان في شجرة واحدة او بواسطة الهواء، اذا كانا في شجرتين.

وانه تعالى يلبس النهار ظلمة الليل فيستره فيصير الجو مظلماً، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئاً، ان في هذا الكون وعجائبه لعلامات بينة ثبتت قدرة الله ووحدانيته للذين يتفكرون.

{وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

وفي الارض ذاتها عجائب، فهناك قطع من الأرض يجاور بعضها بعضاً، ولكنها تختلف في التفاضل، فبعضها قاحل لا ينبت، وبعضها خصب جيد التربة ينبت أفضل الثمرات ومنها صالحة للزرع دون الشجر، وأخرى مجاورة لها تصلح للشجرة دون الزرع، وفيها زرع من كل نوع وصنف، وخيل صنوان يجمعها أصل واحد وتنشعب فروعها، وغير صنوان متفرقة مختلفة الاصول. . وذلك كله يسقى بماء واحد لكنه يعطي طعاماً مختلفة.

{إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

ويقدرّون قدرة الخالق وحكمته وله يشكرون.
قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو ويعقوب وحفص: «وزرُ ونخيل صنوان وغير صنوان» بالرفع والباقون بالجر. وقرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم «يُسْقَى» بالتذكير كما هو في المصحف، وقرأ حمزة والكسائي «يفضّل» بالياء والباقون: «نفضّل» بالنون.

١٣.٣ 5

الاغلال: واحدا غل وهو طوق من حديد. السيئة: النعمة. الحسنة: النعمة. المثالات: مفردا مثلة بفتح الميم وضم الثاء. العقوبة والتنكيل بحيث تترك اثرا من تشويه ونحوه.
{وَأَن تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَنَعْلَمُ خَلْقَ جَدِيدٍ؟} .

ان أمرَ المشركين مع كل هذه الدلائل لعجب، فإن كنت تعجب يا محمد، فالعجب هو قولهم: أبعد الموت وبعد ان نصير ترابا سوف نخلق من جديد؟ ان الذي خلق هذا الدون وديره قادر على إعادة الناس في بعث جديد.
{أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .
كل هذه أوصافٌ للمنكرين للبعث، فمثل هذه الاقوال لا تصدر الا عن الذين كفروا برّبهم، لقد أغلقوا عقولهم وقيدوها بالضلال وجزأؤهم يوم القيامة أغلالاً في أعناقهم يقادون فيها إلى النار.

قراءات:

قرأ ابن عامر: «إذا كنا» بهمزة واحدة والباقون «إذا» بهمزتين على الاستفهام. وقرأ نافع وابن كثير ورويس «إذا» بتخفيف الهمزة الأولى وتلين الثانية.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} .
ثم العجبُ منهم أنهم يستعجلونك يا محمد أن تأتيهم بعذاب الله، بدلاً من ان يطلبوا هدايته ورحمته.
لقد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم ممن أهلكهم الله، وان ربك لذو عفو وصفح عن ذنوب التوابين من عباده وان ظلّوا أنفسهم فترة، لكنه شديد العقاب لمن يستمر على ضلاله.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} .

وهم يطلبون منك آيةً خارقة، والحواريق ليست من عمل الرسل ولا اختصاصهم. انما يبعث الله بها مع الرسول ولا اختصاصهم. انا يبعث الله بها مع الرسول حين يرى بحكمته أنها لازمة. ولست ايها النبي الا منذراً لهم ومخدراً ولكل قوم هاد يهديهم الى الحق ويدعوم الى سبيل الخير.

الاغلال: واحدا غل وهو طوق من حديد. الس

١٣.٤ 8

وما تغيض الارحام: ما تنقص غاض: نقص وغاب. عالم الغيب والشهادة: الغيب كل ما هو غائب عنا، والشهادة: الحاضر المشاهد. المتعالي: المستعلي على كل شيء. سارب: ذاهب على وجهه، ويقال سرب في حاجته. معقبات: ملائكة يحفظونه. من وال: من ناصر.

الله يعمل ما تحمله كل انثى في غيابات الأرحام من ذكر أو أنثى، واحداً أو اكثر، وما تنقصه تلك الارحام من خلوها من الولد، وما تزداد بولادتها وقتاً بعد آخر. كل شيء عنده بقدر معلوم وله زمان معلوم.

{عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} .

هو الذي يعمل ما احتجب وغاب عن حسنا، كما يعمل ما نشاهده في حاضرنا علماً أعظم مما نشاهد ونرى، وهو سبحانه الكبير العظيم المستعلي على كل شيء.

قراءات:

قرأ ابن كثير: «المتعالى» باثبات الياء.

ثم بين الله تعالى ان علمه شاملٌ لجميع الأشياء فقال:

{سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} .

ان علمه شاملٌ لكل شيء في هذا الوجود، يعلم كل أحوالكم وأقوالكم في حياتكم، ومن أسر القول أو جهر به عنده، سواءً، لأنه يعلم استخفاءكم بالليل، وظهوركم بالنهار.

{لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} . . . { .

كل واحد من الناس له ملائكة تحفظه بأمر الله، وتتناوب على حفظه في كل حال.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} .

ان الله تعالى لا يغير النعمة علة قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وكذلك لا يغير ذلة أو مهانة الا ان يغير الناس من اعمالهم وواقع حياتهم، وأكبر دليل على ذلك واقعنا اليوم من تفكك وتمزق. . . فنحن العرب والمسلمين نملك اكبر ثروة في العالم، ونعيش على أعظم بقاع الارض، ومع ذلك نعاني من الذل والفقر والمرض والجهل وكل ذلك بسبب تردى أحوالنا وبعُدنا عن ربنا، وفي ذلك عبرة كبيرة لنا.

{وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} .

اذا أراد الله ان ينزل بقوم ما يسوءهم فليس لهم ناصرٌ يحميهم من أمره، ولا من يتولى امورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم.

١٣٠٥ 12

شديد المحال: شديد القوة والكيد. الضلال: جمع ظل وهو خيال الشيء. الغدو: اول النهار. الآصال: جمع اصيل، وهو ما بين العصر والمغرب.

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} .

ان آثاره قدرة الله في الكون ظاهرة، والبرق من هذه الظواهر الكونية العجيبة، فهو الذي يستخر البرق فيخافه بعض الناس خشية الضرر على محصوله من نزول المطر او ما يترتب عليه من الصواعق، ويطمع فيه بعضهم رجاء نزول الغيث لسقي الزرع. . فبعضهم يخاف وبعضهم يطمع في الخير من ورائه، والله تعالى هو الذي ينشئ السحاب المملوءة بالأمطار فيغيث بها الزرع والضرع.

{وَيَسْبِغُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ} .

ويسبغ الرعد بدلالته على وحدانية الله بحمده وتقديسه، فهذا الصوت المدوي في السماوات إنما هو حمد وتسبيح بالقدرة التي صاغت هذا النظام، ويسبغ الملائكة الكرام من هيئته وجلاله. ثم تتم الصورة الرهيبة المشمولة بالرهبة والابتهاار والبقر والرعد والسحاب الثقال، بإرسال الصواعق، فيصيب الله بها من يشاء.

ومع كل هذه الآيات والظواهر الكونية العجيبة يجادل الكفار في شأن الله ووحدانيته وتفرده بالملك، وهو سبحانه لا يغالب، فهو شديد في عقوبة من طغى عليه وتمادى في كفره.

روى الإمام أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ اذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك» .

{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} .

المشركون المعاندون يجادلون في الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه، ودعوة الله هي وحدها الحق، وما عداها باطلٌ ذاهب. وفي هذا وعيدٌ للكفار على مجادلتهم الرسول الكريم في الله. هذا ما ان الذين يدعونهم من الآلهة المزيفة من دون الله لا يستجيبون دعاءهم ولا يُجِدُونهم بشيء، ومثلهم في ذلك كمن يبسط كفيه ليأخذ بهما ماءً الى فمه، وهيات ان يحصل على شيء. {مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} . في ضياع وخسارة بدون فائدة.

ثم بين الله تعالى عظيم قدرته فقال:

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ} .

في الوقت الذي يتخذ الجاحدون آلهة من دون الله، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء، نرى كل من في هذا الكون يخضع لإرادته ويعنون لعظمته من أناس وجن وملائكة طائعين أو كارهين، حتى ظلالهم خاضعة لأمر الله ونهيهِ في جميع أوقات النهار، وفي هذا تعميم لكل شيء.

عند قراءة هذه الآية يُسن للقارئ والمستمع ان يسجد.

١٣.٦ 17

زبدًا: هو ما يطفو على وجه الماء كالرغوة. رابيا: منفخا عاليا. جفاء: الجفاء هو كل ما رمى به الوادي من زبد وفتات الاشياء مما لا نفع فيه. بئس المهاد: بئس القرار.

{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا} .

في هذه الآية ضرب الله مثلين الأول هنا وهو المقارنة بين الماء الذي يمكث في الأرض وينتفع الناس به من سقي الزرع والشجر والشرب وما فيه من الخير للناس، وبين الزبد الذي يعلو على وجه الماء وليس فيه نفع. وهي مقارنة بين الحق والباطل.

والمعنى أن الله تعالى أنزل عليكم من السماء غيثاً تسيل به الوديان والأنهار، كل بالمقدار الذي قدره الله تعالى لفائدة الناس، وهذا السيول في جريانها تحمل ما لا نفع به من الزبد الذي يعلو سطحها.

والمثل الثاني أيضا للمقارنة بين الحق والباطل قوله تعالى:

{وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ} .

كذلك المعان التي تذيبونها في النار من ذهب او فضة او نحاس وغيرها مما تصنعونها منها حلية أو آلة أو آنية فإن المعدن يبقى لمنفعة الناس. وما فيه من زبد وخبث يذهب، فالحق كالمعدن النافع، والزبد كالباطل.

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} .

يعني أن الحق مثل الماء النافع الذي يمكث في الأرض والمعدن المفيد للناس، والباطل مثل الزبد الذي يطفو على سطح الماء لا نفع فيه، وهذا معنى قوله تعالى:

{فَإِذَا زَبَدٌ مِثْلُ بَخَارٍ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ} .

كذلك الامر في العقائد، منها ما هو ضلالٌ فيذهب، ومنها ما هو صدق فيبقى.

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} .

وبمثل هذا يبين الله سبحانه للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم وتظهر الفوارق بين الحق والباطل. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: «يوقدون» بالياء، والباقون: «توقدون» بالتاء.

وبعد ان بين الله تعالى شأن كل من الحق والباطل، شرع يبين حال أهل الحق والباطل وما يؤول اليه حالهم ترغيباً، فقال: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أَوَّلَتْكَ لَهُمْ سِوَاءَ الْحِسَابِ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمِهَادُ} .

فمن أطاع الله ورسوله وانقاد لأوامره فلهم العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة، ومن لم يجب دعوة الله ولم يطع أوامره فلهم العاقبة السيئة. ولو ان لهم ملك ما في الأرض ومثله معه وقدموه قديماً لما نفعهم أو دفع عنهم العذاب، ومصيرهم جهنم وبئس القرار.

١٣٠٧ 19

يدرأون: يدفعون عن انفسهم. جنات عدن: جنات الاقامة. لهم عقبي الدار: خاتمة مكانهم الجنة وهي سعادة الدنيا والآخرة.

{أَفَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} .

لا يستوي المهتدي والضال، فالذي يعلم ان الوحي حق، وإن الله تعالى الذي اصطفاك أنزل إليك هذا الوحي- مهتد وبصير، والذي كذب وعاند فهو أعمى ضال.

{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} .

إنما يؤمن ويعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها، أهل العقول السليمة التي تفكر وتبصر.

ومن ثم بين أولي الأبواب فقال:

{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} .

هؤلاء هم أولو الابواب، فهم الذين آمنوا برّبهم وعقدوا الميثاق بينهم وبينه على أن يقوموا بأوامره ويتبعوا عن كل ما خالف الشرع، ولا ينقضون هذا العهد.

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} .

ومن صفات أولي الأبواب: انهم يصلون الرحم ويعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ويحسنون الى الناس بقدر ما يستطيعون، ويعينون المحتاج، ويكونون في خدمة دينهم وأمتهم ووطنهم، كل ذلك ضمن خشية الله، وخافة العقاب.

{وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدار} .

وكذلك من صفات أولي الأبواب: أنهم ثبتوا على العهد، فصبروا على أداء التكاليف والواجبات وصبروا في خدمة الناس ما استطاعوا،

لا يريدون في ذلك كله إلا وجه الله، وأدوا الصلاة أتم أداء، وأنفقوا من أموالهم وجاههم في سبيل الله في السر والعلن، ويقابلون

الاساءة بالإحسان. {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: ٦٣] .

{أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدار} .

هؤلاء الذين تحلوا بكل هذه الصفات هم أولو الأبواب ولهم سعادة الدارين.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عَقَبَى الدار} .

أولئك الذين وصفناهم بتلك المحاسن لهم عقي الدار: جنات عدن للإقامة الدائمة والخلود، وفي هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين

من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فيجتمع الأحاب ويتلاقون في جو من السعادة، وترحب بهم الملائكة ويدخلون عليهم بالتحية والإكرام

من كل باب قائلين لهم: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عَقَبَى الدار} .

{والَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} بعد ان بين الله تعالى صفات المتقين، وما أعدَّ لهم عنده في دارِ الكرامة، بين هنا حالَ المكذِّبين الجاحدين وما ينتظرُهم من العاب وأن مقرَّهم النار، فهذه الصفاتُ التي وصفَ بها أولئك الأشقياء هي السببُ في خسرانهم. إنَّهم الذين لا عهدَ لهم ولا ميثاق، ولا إيمان، ولا يصلون أرحامهم، وليس لأحدٍ عندهم نفعٌ ولا رجاء، يعيشون لأنفسهم ولا يعلمون أن الدنيا أخذٌ وعطاء، ومع كلِّ هذا فهم مفسدون في الأرض فلهم اللعنةُ وسوءُ العاقبة في جهنم.

١٣٠٨ 26

يبسط الرزق: يوسعه. ويقدر: يضيق. أناب: رجع اليه بالتوبة. طوبى لهم: العيش الطيب. وحسن مآب: المنقلب الحسن. {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} . ان الله تعالى يُعطي الرزقَ الواسعَ لمن يشاء إذا أخذَ في الاسباب، ويضيِّقه على من يشاء، فهو يعطيه للمؤمن وغير المؤمن، لا يظنُّ أحدٌ ان كثرة المال دليلٌ على أنه على الحق. {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} .

والذين يفرحون بما أُوتوا من مالٍ في هذه الحياة الدنيا، ويعتبرون ذلك أكبرَ متاعٍ وأعظمَ لذة ولا يفيدون غيرَهم منها. يَقعون في غرورٍ باطل، لأن الحياة الدنيا بدونِ عملٍ صالحٍ ونفعٍ للناس متاعٌ زائل، والدنيا مزرعةُ الآخرة، والعمر مهما طال فيها قصير. «روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصر فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتَّخذنا لك فراشاً ناعماً، فقال: مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا الا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها» . {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ} . ويلجَّ المشركون في طلب آيةٍ من السماء. والجواب على طلبهم هذا ان الآيات ليست هي التي تقودُ الناس الى الإيمان، وأن هذا الطلبُ وأمثاله من العناد والتعجيز، فلا إيمان دواعيه الأصلية في النفوس، وأسبابه المؤدية اليه. فالله يهدي من يُنيبون إليه، فاسألوا الله الهداية. {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} . وأما الذين اتَّجهوا الى الله، وأقبلوا على الحق فهم الذين آمنوا واطمأنت قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله وحده تطمئنُّ قلوبُ المؤمنين. {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا أَجَبَ} .

هؤلاء الذين أنابوا الى الله ورجعوا اليه واطمأنت قلوبهم بذكره، وعملوا الصالحات، يُحسن الله ما بهم إليه، ولهم الفرحُ وقرَّةُ العين عند ربهم.

١٣٠٩ 30

خلت: مضت. متابي: مرجعي. سيرت به الجبال: سارت بسببه. قطعت به الارض: شققت. كلم به الموتى: جعلهم يتكلمون. يئأس: يعمل وهو لغة هوزان من العرب. قارعة: مصيبة. {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ . . .} .

كما أرسلنا إلى الأمم من قبلك وأعطيناهم كتباً نُنلى عليهم، أرسلناك يا محمد في أمة لاحقة وأعطيناك القرآن معجزة لتقرأ عليهم. {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} فقل لهم ايها النبي الله الذي خلقتني هو ربي لا إله بحق غيره، {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ} عليه وحده توكلت في جميع أموري، واليه توجتي ومرجعي.

{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَ بِهِ الْمَوْتُ} .

يعني: إنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن العجيب، الذي لو كان من شأن قرآن أن تُسِيرَ به الجبال، أو تَقَطَّعَ به الأرض، أو يَكْفَرَ به الموتى لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ما تَمُّ به هذه المعجزات، ولكنهم معاندون بل لله الأمرُ جميعاً بل مرجعُ الأمور كلها بيد الله.

{أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا} .

أَفَلَمْ يَعْلَمِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ شَاءَ هِدَايَةَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ لَهُدَاهُمْ.

{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} .

ان قدرة الله ظاهرة بين أيديهم، فلا يزال كفروا تُصِيبُهُمْ بسبب عناده وكفرهم المصائب الشديدة التي تُهْلِكُهُمْ، أو تنزل قريبا منهم فتدعهم وتُفْلِقُهُمْ، حتى يأتي وعد الله الذي وعدهم به، والله تعالى لا يخلف موعده.

١٣.١٠ 32

فأملت: فأهلت. قائم: رقيب. واق: حافظ.

{وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} .

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، على سفاهة قومه، فإذا كان أولئك الجاحدون قد استهزأوا بما تدعو إليه يا محمد وبالقرآن فقد نال الانبياء الذي قبلك من أقوامهم كذلك، فلا تحزن. فإني أهلت الذين كفروا ثم أخذتهم بعقاب شديد.

{أَفَنُ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} .

أفمن هو قائم حفيظ على كل نفس لا يخفى عليه شيء ما كسبت كمن ليس كذلك! فالجواب محذوف وهو: كمن ليس كذلك. وهذا من بلاغة القرآن.

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُ سَمُوهُمْ} .

وقد جعل هؤلاء الكفرة لله شركاء فعبدوهم، فقل أيها النبي: صفوهم بأوصافهم الحقيقة، {أَمْ تَنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ} أتخبرونه بشركاء يستحقون العبادة في الرض وهو لا يعلمهم. {أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ} أم تدعون أنهم آلهة بالقول الباطل من غير حقيقة.

{بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ} .

بل الحقيقة أنه زين للذين كفروا تدبيرهم الباطل، فتخيّلوا أباطيل ثم ظنّوها حقاً، وصُرفوا عن السبيل وتاهوا، ومن يخذله الله فما له من هادٍ يهديه إلى الصواب.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابن عامر: «وصدوا عن السبيل» بفتح الصاد. والباقون «وصدوا عن السبيل» بضم الصاد وهي القراءة في المصحف.

{لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ} .

لهم العذاب في الدنيا بالهزيمة والأسر والقتل، ولعذاب الآخرة أشد وأدوم، وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله.

١٣.١١ 35

الأكل: ما يؤكل. الأحزاب: الكفرة الذين تحزبوا على رسول الله. المآب: المرجع. الواقي: الحافظ.

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} .
بعد ان ذكر الله تعالى ما أعدّه للكافرين من العذاب في الدنيا والآخرة، أتبعه بذكر ثواب المتقين، فإذا كان للجاحدين العذاب الدائم، فإن للمؤمنين الجنة ونعيمها، وتجري تحت أشجارها هذه الجنة، أنهار عذبة الماء، وثمراتها دائمة لا تنقطع، وظلها ظليل دائم. هذه عاقبة المؤمنين الذي وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح، أما الذي كفروا فلهم النار وبئس القرار.
{وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} .

إن فريقاً من الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى الذين آمنوا وصدّقوا يفرحون بما أنزل من القرآن، لأنهم يجدون فيه مصداقاً للقواعد الأساسية في عقيدة التوحيد وامتداداً للرسالة الالهية، ومن هؤلاء من آمن مثل عبد الله بن سلام واصحابه، وبعض النصارى من الحبشة ونجران واليمن.
{وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ} .

ومن الذين تحزّبوا ضدّ الإسلام من كفار قريش وغيرهم من أهل الأديان السابقة من ينكر بعض ما أنزل إليك عناداً وكفراً.
{قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٍ} .
قل أيها النبي: إنني أمرت بأن أعبد الله حده، ولا أشرك في عبادته أحداً، الى عبادته وحده أدعو الناس وإليه مرجعي ومصيري.
{وكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} .

وكما أرسلنا قبلك المرسلين ونزلنا عليهم الكتب، أنزلنا عليك القرآن حكماً عربياً بلسانك ولسن قومك، فهو حاكم لأن فيه بيان الحلال والحرام وجميع ما يحتاج اليه المكلفون مما يوصلهم الى السعادة في الدنيا والآخرة.
{وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} .

لئن اتبعت أهواء الأحزاب ابتغاء رضاهم بعد ما منحك الله من العلم اليقين، فليس لك من دون الله ولي ولا ناصر ينصرك. ان ما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أويقين.
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً} .

إذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول الكريم، وأنه تزوج النساء، وله أولاد وذرية، فقد كان الرسل الذين أرسلناهم من قبله بشراً وكانوا يتزوجون ولهم نساء وذرية.

{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} .
إذا كان يعترض بعضهم من المتعنين ويطلب من الرسول ان يأتي بخارقة مادية، فذلك ليس من شأنه، إنما هو من شأن الله، وهو الذي يقدر ذلك يدبره بحكمته ومشيتته، ولكل أمر كبتة الله اجل معين ووقت معلوم.

١٣٠١٢ 39

الاطراف: الجوانب. لا معقب لحكمه: لا راد له. ام الكتاب: أصله.

{يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} .
ينسخ الله ما يشاء من الشرائع، ويحل محلها ما يشاء ويثبت، وعنده أصل الشرائع الذي لا يتغير، فما انتقضت حكمته يحوه، وما هو نافع يثبته حسبما تقتضيه حكمته، ولا راد لقضائه.

{وَأِنْ مَا نُزِّنُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} .

ولئن أريناك ايها الرسول بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العقاب، او توفيناك قبل ان نريك ذلك، فليس عليك الا تبليغ رسالة ربك، لا طلب صلاحهم، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم باعمالهم.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} .

ألم يروا ان قوة الله فوق كل شيء، فهي تأتي الأمم القوية الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتُنقص من قوتها ومن ثرائها وقدرتها، وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد ان كانت ذات سلطان وحكم وامتداد! وإذا حكم الله عليها بالنقص والتدهور فلا راد لحكمه، وهو سريع الحساب.

وللمفسرين القدماء آراء كثيرة ومتعددة، وكذلك لبعض المفسرين المعاصرين تأويل عن سرعة دوران الارض وما ينتج عنها من تفلطح ونقص في طرفيها، وكل ذلك حدس وخبط.

وبعد ذلك بين الله ان قوم النبي عليه الصلاة والسلام ليسوا بدع في الأمم، فقد مكر كثير من قبلهم بأنبيائهم فأخذهم الله فقال:

{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} .

وقد مكر كثير من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم، ثم دارت الدائرة على الظالمين، وأهلك الله المفسدين، والله سبحانه تدير الامر كله في حاضر الكافرين ومستقبلهم، وهو يعمل ما تعمله كل نفس، وسيعلمون يوم القيامة لمن تكون العاقبة الحسنة.

وفي هذا تسلية للرسول الكريم وتعبير بان العاقبة له لا محالة، وقد حقق الله له وعده.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال له الرسول الكريم، هل تجديني في الإنجيل رسولا؟ قال: لا فنزلت هذه الآية، وتكون ختام سورة الرعد بإنكار الكفار للرسالة، وقد بدأها الله تعالى بإثبات الرسالة، فيلتقي البدء واختتام بقوله تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} اي حسبي الله شاهدا بتأييد رسالتي {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} وهو من اسلم من اليهود والنصارى وغيرهم.

اخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه منهم عبد الله بن سلام والجارود وتميم الداري وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

١٤ إبراهيم

١٤٠١ 1

{الرَّكَابُ أُنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} .

الف. لام. را. لقد أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف لتخرج به البشرية من ظلمات الكفر والجهل الى نور الإيمان والعلم، وذلك بإذن الله وتوفيقه ولطفه بهم، وتقودهم الى الطريق الى الله.

{اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} .

إن العزيز الحميد هو الله، مالك ما في السموات وما في الأرض، الغني عن الناس، والمسيطر على الكون وما فيه، والويل والعذاب للكافرين يوم القيامة لأنهم لم يستجيبوا لدعوة الرسول الكريم.

ثم وصف الله أولئك الكافرين بصفات ثلاث.

الأولى: {الذين يَسْتَحْيُونَ الحياة الدنيا عَلَى الآخرة} .
 يختارون الحياة الدنيا ومتعها ولذاتها دون ان يعملوا لآخرتهم شيئاً.
 والثانية: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} يمنعون الناس عن شريعة الله.
 والثالث: {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} ويردون ان تكون الشريعة معوجة لا استقامة فيها لينفروا الناس منها.
 {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} أولئك الموصوفون بهذه الصفات قد ضلّوا عن الحق، وبعُدوا عن الطريق المستقيم.
 قراءات:
 قرأ نافع وابن عامر: «الله» بالرفع، والباقون «الله» بالجر كما هو في المصحف.
 {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .
 وفي ذلك نعمة من الله واحسان إلى عباده، فهو يرسل كل رسول الى قومه بلسانهم الذي يفهمونه، وليس على الرسول هدايتهم، فالله تعالى يضل من يشاء لعدم استعداده، ويهدي من يشاء لحسن استداده، وهو العزيز الحكيم، فلا يهدي ولا يضل الا لحكمة.

١٤٠٢ 5

أيام الله: وقائع في الأمم السابقة. يسومونكم: يذيقونكم أشد العذاب. ويستحيون: يبقون نساء كم أحياء والاسترقاق. تأذن: أعلم.
 {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} .
 يذكر الله تعالى هنا بعض قصص الأنبياء، وما لا قوه من أقوامهم من الأذى والتمرد والناد تسلياً للرسول الكريم والمؤمنين، وأن المقصود من إرسال الرسل هو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات والضلال إلى النور والإيمان.
 ولقد أرسلنا موسى مؤيداً بمعجزاتنا، وقلنا له: يا موسى، أخرج قومك من ظلمات الكفر والجهل الى نور العلم والإيمان، وذكّرهم بوقائع الله في الأمم السابقة، ان في لك التنبيه والتذكير لدلائل عظمة على وحدانية الله، تدعو كل من تحلى بالصبر والشكر الى الإيمان.
 {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِجُونَ كُذُوبًا وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} .

واذكر أيها النبي لقومك لعلهم يعتبرون: اذكر ما قاله موسى لقومه يذكّرهم بنعمة الله عليهم يوم أنجاهم من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون. فقد كان هؤلاء يذبجون الذكور من أولادهم حتى لا يتكاثروا، ويبقون الإناث أحياء للخدمة والاسترقاق. . . وفي ذلك كله ابتلاء واختبار شديد.

ويمضي موسى بين لقومه ما رتبّه الله جزاءً على الشكر والكفران:
 {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} .
 واذكروا يا بني إسرائيل حين أعلمكم ربكم أن الشكر على ما أنعم يجلب زيادة الخير، وأن بحود النعمة يوجب العذاب الشديد.
 {وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} .
 ان الله تعالى غني بذاته محمود بذاته لا بحمد الناس وشكرهم، واذا كفر جميع أهل الأرض فلن يضرّوا الله شيئاً، انه غني حميد.

١٤٠٣ 9

ردوا أيديهم في أفواههم: جعلوا أيديهم على أفواههم من التعجب او الغيظ. وهذا تفعله العرب. مريب: مقلق. سلطان: حجة.

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} .

ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه فيقول: ألم يصلِّكم خبرُ الأقسام الماضية من قبلكم مثل قوم نوح وعاد وثمود، والأمم الذين جاؤا من بعدهم، أمم كثيرة لا يعلمها الا الله، وقد جاءتهم رسلهم بالحجج الظاهرة والمعجزات فوضعوا أيديهم على أفواههم استغراباً واستنكاراً وقالوا للرسول: إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ أَدْيَانٍ جَدِيدَةٍ، وَإِنَّا لَنَشُكُّ فِي كُلِّ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} .

قالت لهم رسلهم: أفى وجودِ الله شك! إنه خالقُ السماوات والأرض على غير مثال، وهو {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} يدعوكم الى الإيمان ليغفر لكم بعض ذنوبكم، {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} ويؤخركم الى وقت محدد معلوم لديه. فردَّ أولئك المنكرون الجاحدون على الرسل بتعنت:

{قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} .

كيف نصدِّقكم وأنتم بشر مثلنا لا فضلَ لكم علينا، وتريدون ان تمنعونا من عبادة الآلهة التي كان آبائنا يعبدونها؟! إن كنتم صادقين في دعواكم فأتونا بدليلٍ ظاهر واضح.

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} . فكان جوابُ رسلهم: نعم إننا بشر مثلكم، ولكن الله يصطفي من يشاء من عباده فيخصهم بالنبوة والرسالة، ولي في قدرتنا أن نأتيكم بآية معجزة أو حجة إلا بتيسير الله ومشئته.

{وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} .

لقد أجابهم الانبياء على أقوالهم وما فيها من عناد بأن قولوا: إنا قد أبلغناكم رسالتنا، ونحن لا نخاف في سبيلها أحداً، بل نتوكل على الله، وأئى عذر لنا في ترك التوكل عليه! لقد هدانا إلى الحق، وأنار لنا سبل الخير، وسنصبر على أذاكم. ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل وبيان ان اizardهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم فقالوا: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} .

١٤٠٤ 13

الملة: الدين والشرعة. استفتحوا: طلبوا النصر. كل جبار عنيدك كل عال متكبر معاند. ماء صديد: ماء قبيح الطعم في جهنم. لا يكاد يسيغه: لا يستطيع ان يبلعه. عذاب غليظ: شديد.

بعد ان ذكر الله ما دار من الحوزار والجدل بين الرسل وأقوامهم، وبين الحجج المقنعة التي جاء بها الرسل الكرام، ولم يستطع الذين كفروا ان يردوا عليها- لم يجدوا وسيلةً الا استعمال القوة مع أنبيائهم، وتلك حجة المغلوب، فخيروا رسلهم بين أمرين: الخلود من الديار، أو العودة الى ملة الآباء والأجداد. فأوحى الله تعالى الى أنبيائه أن العاقبة لهم.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} .

وقال الطغاة من زعماء الكافرين لما أعيتهم الحيلة، وعجزوا عن مقاومة الدليل. قالوا لرسولهم: لكم احد امرين، إما ان نُخرجكم من أرضنا، أو أن تعودوا إلى عبادة الأوثان، ديننا القائم، فأوحى الله الى رسوله مثبتاً لهمك لا تخافوا، سنهلك الظالمين. {وَلَنَسْكُنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ} .

إننا سنجعلكم تسكنون ارضهم بعد اهلاكهم. . . هكذا أفعل بمن خاف موقفه بني يدي يوم القيامة، وخاف وعيد فاتقاني بطاعتي، فلم يفسد في الأرض، ولم يظلم الناس.

ووقف الطغاة المتجبرون، ووقف الرسل المتواضعون ومعهم قوة الله، ودعا كلاهما بالنصر والفتح، وكانت العقابة للرسل.

{واستفتحوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .}

وطلب الرسل على أقوامهم من الله لما يؤسوا من إيمانهم، وطلبت تلك الأقوام النصر لنفسها، فنصر الله رسله، وخسر كل جبار متكبر عنيد.

{مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمُ وَيَسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ .}

إن جهنم لذلك الجبار الخاسر بالمرصاد، سيصلاها يوم القيامة وشرابه فيها ماء كريحه.

{يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ .}

إنها صورة مرعبة وخيبة أمل لهؤلاء الكفار المعاندين، يتجرعون ذلك الماء الكريه فلا يكادون يستسيغونه لقدراته، وتحيط بهم أسباب الموت من كل جهة، وما هم بميتين في جهنم، ولهم عذاب مؤلم شديد.

١٤٠٥ 18

برزوا: ظهوروا جميعاً يوم القيامة. تبع: جمع تابع. مغنون عنا: دافعون عنا. محيص: مهرب.

{مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .}

مثل أعمال الكافرين التي كانوا يعملونها في الدنيا كمثل رماد حملته الريح في يوم عاصف وأسرعت بالذهاب به فلم يبق له أثر، وهم لا يستفيدون شيئاً يوم القيامة مما عملوا في الدنيا.

{ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .}

ومثل هذا السعي والعمل على غير أساس ولا استقامة، هو الضلال البعيد عن الحق.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .}

ألم تعلم أيها الرسول أن الله خلق السموات والأرض لتقوم على الحق بمقتضى حكمته، ومن قدر على هذا العمل العظيم هو قادر على إهلاك الكافرين، والإتيان بخلق جديد غيرهم.

{وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .}

وليس بمتنع على الله ولا متعذر أن يستخلف قوماً مكان قوم من قريش أو غيرهم من المعاندين الجاحدين.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «خالق السماوات والارض» والباقون «خلق» كما هو في المصحف.

{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ .}

هذه صورة حية لموقف هؤلاء المجرمين وأتباعهم والحوار بينهم، فحين يقفون جميعاً بين يدي الله يوم القيامة، يقول الضعفاء التابعون للزعماء المستكبرين: لقد كنا تابعين لكم في تكذيب الرسل ومحاربتهم، فهل تدافعون عنا اليوم في هذا الموقف الرهيب؟ فيقول المستكبرون: لو أن الله هَدَانَا لأرشدناكم، ولكن ليس بيدنا أية حيلة، ولي لنا مهرب ولا خلاص مما نحن فيه جميعاً، وسيان الجزع والصبر، فلا نجاة لنا من عذاب الله.

ما كان لي عليكم من سلطان: من تسلط. ما انا بمصرخكم: ما انا بمغيثكم. استصرخني: استغاثني.
 {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} .
 وجاء دور الشيطان، كل عظمته وحيله قد ذهب الآن، وهو يقف موقف الدليل وتنصل من أتباعه. انه يعترف بصراحة أنه كان كذاباً، وعد أتباعه كذباً وزوراً ويتسرسل قائلاً:
 {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَا أَنْفُسُكُمْ} .
 ما كان لي عليكم قوة أجبركم بها على اتباعي، لقد دعوتكم الى الضلال فأسرعتم الى إجابتي، فلا تلموني بوسوستي ولو ما أنفسكم لأنكم استجبتم لي.

ثم يتبرأ منهم وتنصل.
 {مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي} .
 أنا لا أستطيع اليوم ان أغيثكم، ولا انتم تستطيعون إغاثتي من العذاب.
 ثم يتبرأ من كفرهم وإشراكهم ويكفر بهذا الإشراك فيقول:
 {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .
 فأنا لا أقبل أن أكون شريكاً لله فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم، ان الكافرين لهم عذاب شديد مؤلم.
 ثم لما جمع الله تعالى الخلق وذكر ما لقي الأشقياء وصفهم بأسوأ حال، ذكر حال السعداء، وما أعد لهم من نعيم مقيم في ذلك اليوم فقال:
 {وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} .
 وهكذا يقابل الله تعالى بين حال الأشقياء والسعداء، ويبين ان الذين آمنوا وصدّقوا وعملوا الأعمال الصالحة في جنّاته ناعمين مسرورين، خالين فيها على أحسن حال بإذن الله تعالى، تحييتهم الملائكة بالسلام، وهو شعار الإسلام.
 قراءات:
 قرأ حمزة: «وما انتم بمصرخي» بكسر الياء المشددة. والباقون بفتحها. «بمصرخي» كما هو في المصحف.

كلمة طيبة: كلمة الحق ويدخل فيها الايمان وجميع الاعمال الصالحة. كلمة خبيثة: الباطل ويدخل فيه كل شر.
 بعد ان بين الله حال الأشقياء وحال السعداء ومآل كل منهم ضرب هنا مثلاً يبين فيه الحق من الباطل، ويوضح الفرق بين الفئتين.
 {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} .
 هنا شبه الله تعالى كلمة الإيمان التي هي كلمة الحق بشجرة طيبة ثبتت جذورها في الأرض وارتفعت اغصانها في السماء، فهي:
 {تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} .
 فهي تعطي ثمرها الدائم في كل وقت بإذن ربها. كذلك تكون الهداية إذا ملأت قلباً فاضت منه على غيره وملأت قلوباً كثيرة ويبين الله الأمثال للناس ليتعضوا ويؤمنوا.
 {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} .

وان الكلمة الخبيثة، كلمة الباطل، كالشجرة الخبيثة التي لا تنفع الناس، لي لها قرار ثابت وقد اقتلعت من فوق الأرض لأن جذورها غير قوية، فكما ان هذه الشجرة لا ثبات لها ولا دوام، فكذلك الباطل لا يدوم ولا يثبت. وبعد ان وصف الكلمة الطيبة بالوصف الجميل أخبر بفوز اصحابها في الدنيا والآخرة: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} .

يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا بكلمة الإيمان المستقرّة في الضمائر، الثابتة في قلوبهم، المثمرة بالعمل الصالح، والفوز في الآخرة، ويضلّ الظالمين بظلمهم وشركهم، وبفعل ما يشاء بإرادته المطلقة.

وبهذه الخاتمة يتم التعقيب على القصة الكبرى للرسالات والدعوات، وقد استغرقت الشطر الأكبر من سورة إبراهيم. والكلمة الطيبة تحتوي دائماً على الحقيقة الكبرى، حقيقة الرسالة الواحدة التي لا تبدّل، وحقيقة الدعوة التي لا تتغير، وحقيقة التوحيد لله.

١٤٠٨ 28

دار البور: دار الهلاك. يصلونها: يدخلونها ويقاسون حرها. اندادا: امثالا. لا بيع فيه ولا خلال: لا فدية ولا صداقة تنفع او تشفع. {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} .

الم تر وتعلم كيف تصرف هؤلاء القوم! لقد تنكروا لنعمة الله الممثلة في دعوة رسوله إلى الإيمان ونبذوها (وأولئك هم السادة من قريش وكبراء قومهم) ، بعد ما رأوا ما حلّ بمن قبلهم. وقد عرض القرآن عليهم مشاهد تلك القصة التي مرت في هذه السورة!! لقد استبدوا بنعمة دعوة الرسول إياهم كفرا، وأنزلوا أتباعهم من قومهم دار الهلاك، جهنم يدخلونها ويقاسون حرها وبئس المنزل والقرار. {وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} .

وجعلوا لله الواحد في العبادة نظراء، ليضلوا الناس عن دينه القويم فقل لهم أيها الرسول، تمتّعوا قليلاً في هذه الحياة الى الأجل الذي قدره الله لكم، وعاقبتكم ومصيركم إلى جهنم.

{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ} .

بعد ان هدّد الله الكفار على جحودهم وانغماسهم في اللذات خاطب نبيه الكريم أن يأمر المؤمنين من عباده أن أحسنوا وأقيموا الصلاة وأنفقوا بعض ما رزقكم ربكم في وجوه البر في السر والعلن، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا تنفع فيه صداقة ولا شفاعة ولا بيع ولا عمل، انا ينفع ما تقدّمون من اعمال طيبة.

١٤٠٩ 32

الفلك: السفينة للواحد والجمع والمذكر والمؤنث. دائبين: دائمين في الحركة لظلم: ظالم لنفسه. كفار: شديد الكفر والجحود. في هذه الآيات الكريمة يذكر الله تعالى بنعمه الكثيرة التي لا تحصى، فإنه خلق السموات والأرض لبني الإنسان ليتمتع بخيراتها، وأنزل من السماء غيثاً عسيماً أحيا به الشجر والزرع فأثمرت لكم رزقاً تأكلون منه وتعيشون به، وسخر لكم السفن لتجري في البحر بأمره، وتحمل أرزاقكم وتحملكم، وسخر لكم الأنهار العذبة لتنتفعوا بها في ريّ الأنفس والزرع. {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} .

لا يفتران عن الدوران، {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} يتعاقبان، تستريحون في الليل، وتعملون في النهار {وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} وهياً لكم كل ما تحتاجون، سواء أسألتُموه ام لم تسألوه. . . لأنه قد وضع فيه هذه الدنيا منافع يجهلها الناس وهي معدّة لهم، فلم يسأل

الله أحد قديماً ان يعطيهم الطائرات والكهرباء وغير ذلك من الأشياء الجديدة، ولم يزل هناك عجائب ستظهر فيما بعد، {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٨] .
 {وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} . ان حاولتم ان تعدوا نعمة الله فإنكم لا تستطيعون حصرها، فهي أكبر وأكثر من ان يحصيها البشر.
 وبعد هذا كله تجعلون لله أنداداً، ولا تشكرون نعم الله {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} فالإنسان الذي بدّل نعمة الله كُفْراً بعد كل هذه النعم لهو شديد الظلم والجحود.

١٤.١٠ 35

واجنبني: وأبعدني. تهوي إليهم: تسرع شوقاً وحباً.
 في هذه الآيات يتجلى النموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر في شخصية أبي الانبياء إبراهيم عليه السلام، فهو يدعو الله تعالى ان يجعل مكة بلداً آمناً مطمئناً، ويسأله ان يبعده هو وابناه عن عبادة الأصنام، ثم يذكر مساوئ الأصنام وكل ما عبّد من دون الله بقوله:
 {رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ}
 وبين الدين الحق الذي هو عليه ويتابع الدعاء فيقول:
 {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} .
 فأما من تبع طريقي فهو مني، ينتسب إليّ ويلتقي معي، وأما من عصاني منهم فأفوّض أمره إليك، فأنت غفور رحيم.
 وهنا تتجلى رحمة إبراهيم وعطفه ورأفته، فهو لم يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله، كما أنه لا يستعجل العذاب لهم، وإنما يكلمهم الى غفران الله ورحمته.
 {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ} .
 وهنا يمضي في دعائه: بأنه أسكن من ذريته بمكة، وهي بوادٍ قاحلٍ لا زرع فيه عند بيت الله المحرم، ثم يبين الوظيفة التي أسكنهم في هذا المكان القف ليقوموا بها، وهي عبادة الله وإقامة الصلاة على حقيقتها.
 ثم يدعو تلك الدعوة اللطيفة التي استجابها الله، بقوله: {فاجعل أفئدةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} اي تميل بشوقٍ إلى ذلك البيت العتيق واهله في ذلك الجديب، {وارزقهم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} وقد اجاب الله دعاءه، فألهم الناس الحج منذ آلاف السنين إلى ما شاء الله، وفي أي وقت ذهب الانسان الى الحجاز يجد فيه أنواع الثمار والخيرات. وفي هذا اظهار لقدرة الله وصدق وعده.
 {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} .
 إنك يا ربنا تعلم ما نخفي نفوسنا وما تظهره مجاهرةً به، فليس يخفى عليك شيء في هذا الكون.
 ثم يتوجه إبراهيم الى الله ويذكر نعمة الله عليه، فيلهج لسانه بالحمد والشكر فيقول:
 {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} .
 فإن هبة الذرية على الكبر أوقع في النفس، فهو يحمّد الله تعالى على هذه النعم ويطمع في رحمته.
 {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} .
 بعد الحمد والشكر الذي قدّمه على ما وهبه الله من الذرية على الكبر، يطلب إبراهيم من ربه ان يعينه على مداومة شكره بإقامة الصلاة هو وذريته، وان يتقبل دعاءه. والدعاء هو العبادة كما جاء في الحديث الصحيح.
 {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} .

بهذا الدعاء يختم إبراهيم شكره وتضرّعه الى الله، ويطلب المغفرة له ولوالديه ولجميع المؤمنين، يوم القيامة.

١٤٠١١ 42

شخص: ترتفع. مهطعين: مسرعين الى الداعي. مقنعي رؤوسهم: ارفعين رؤوسهم كثيرا. لا يرتد اليهم طرفهم: لا يرجع، كأن ابصارهم جامدة من الهول. واقتدتهم هواء: خالية من العقل والفهم لفرط الدهش والحيرة. من زوال: من انتقال. {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} .

الخطاب في صورته للنبي عليه الصلاة والسلام، والمراد به جميع الناس. وفيه تسليّة للمؤمنين، وتهديد للكافرين. . . فإن الله لا يغفل عما يعمل الظالمون في محاربة الاسلام. {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} .
إنما يمهّلهم ويمتّعهم بكثير من لذات الحياة، ليوم شديد الهول تبقى فيه أبصارهم شاخصة مفتوحة من الفزع. {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ حَوَاءٌ} .

إنها صورة رهيبة وهم معروضون رافعين لرؤوسهم، وطرفهم جامد لا يتحرك من شدة الهول، وأفتدتهم خاوية مضطربة لا إدراك فيها ولا وعي. . . هذا هو اليوم الذي يؤخّرهم الله إليه، والذي ينتظرهم بعد الإمهال. {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرِّسْلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ} .

وانذر الناس ايها الرسول أنه إذا جاء اليوم فلا اعتذار ولا نكال، يوم يقول الظالمون الجاحدون حين يرون ذلك الهول: ربنا ارجعنا الى الدنيا، وأملنا امداً قريباً حتى نجيب فيه دعوة الرسل الى توحيدك، فيأتيهم الرد: ألم تحلفوا في الدنيا أنكم إذا متم لا تخرجون لبعث ولا حساب، فكيف ترون الآن، ويان قولكم «ما لنا من زوال»؟! .

{وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} .
وسكنتم في الدنيا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي من الأمم قبلكم، وقد ظهر لكم بمشاهدة آثارهم كيف عاقبناهم، وضربنا لكم الأمثال الواضحة، ثم بعد لك كله تُقسّمون «ما لكم من زوال» فلم ترعوا ولم تنوبوا من كفركم، والآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم العذاب.

قراءات:

قرأ أبو عمرو: «انما تؤخرهم» بالنون والباقون «يؤخرهم» .

١٤٠١٢ 46

مقرنين: مربوطين. في الاصفاد: في القيود. سرايهم: ثيابهم. من قطران: نوع من الزيوت شديدة الاشتعال اسود اللون تدهن به الابل عندما يصيبها الجرب. تغشى وجوههم النار: تعلوها وتغطيها. هذا بلاغ للناس: كفاية في الموعظة. {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} .

ولقد مكرؤا ودبروا في إبطال الحق وبالرسل الكريم، وعند الله علم مكرهم، وان كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال، والله تعالى محيط بهم وبمكرهم.

قراءات:

قرأ الكسائي: «لتزول» بفتح اللام الاولى، وضم اللام الاخيرة. وقرأ الباقون: «لتزول» بكسر اللام الاولى وفتح اللام الاخيرة كما هو في المصحف.

{فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} .
لا تظنَّ ايها الرسول ان الله تعالى مخلف رُسُلَه ما وعدهم به من النصر، فإلهذا المكر من أثر، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر،
وأخذ هؤلاء الماكرين أخذ عزيز مقتدر، ان الله شديد الانتقام لا يدع الظالم يفلت، ولا يدع الماكر ينجو.
{يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ} .
ان الله تعالى سينتقم من هؤلاء الكفار يوم القيامة يوم تبدل الأرض والسماوات. ولا ندري كيف يتم هذا، ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات، وكل ما بعد الموت شيء غير عادي بالنسبة إلينا والله أعلم بذلك.
{وَرَزَوْا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} خرجوا من قبورهم، ووقفوا مكشوفين بارزين لا يسترهم ساتر بين يدي الله الواحد القهار.
وبعد ان وصف نفسه بكونه القهار، بين عجز المجرمين وذلتهم فقال:
{وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} وهي صورة عن مشاهد يوم القيامة فيها منظر واقعي للمجرمين كأنك تراه، وهم يخبئون في قُيُودِهِمْ .
{سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} .
وهذا مشهد آخر لباسهم فيه من هذا الزيت القبيح، والنار تغشى وجوههم، وفي ذلك ما فيه من الذل والتحقير.
{لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} .
لقد فعل الله بهم ذلك ليؤدي الى كل نفس جزاءها بما فعلت، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ان الله سريع الحساب يوم القيامة.
{هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} .
هنا يختم الله السورة بمثل ما بدأت. . . بإعلان لجميع البشرية في الكون أجمع.
هذا القرآن بلاغ لجميع الناس، لنصحهم وإنذارهم من عذاب الله، وليكون لديهم العلم الحقيقي أن الله إله واحد عدة آله كما يقول المشركون، وليتذكروا اولو العقول عظمة ربهم، ويتعظوا فيتعبدوا عما فيه هلاكهم، ويرجعوا الى ربهم في كل احوالهم.

١٥ الحجر

١٥.١ 1

ربما: بتشديد الباء وتخفيفها، تفيد التقليل. ذرهم: اتركهم.
{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} .
الف، لام، را. . . من هذه الأحرف تتألف آيات الكتاب المعجزة، وهي القرآن الواضح المبين الذي يبين لمن تأمله وتدبره رُشدَه وهُداه.
{رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} .
سيأتي يتنى فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين في دار الدنيا، وهو يوم القيامة عندما يرون العذاب، لكن هذا التمني لن يفيدهم شيئاً.
قراءات:
قرأ نافع وعاصم: «ربما» بفتح الباء بدون تشديد. والباقون: «ربما» بالتشديد.
{ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} .

دعهم أيها الرسول في غفلتهم، يأكلون، ويتمتعون في شهواتهم ولذاتهم، وتلهيهم الآمال. فسوف يعلمون سوء أعمالهم عندما يرون العذاب. وفي هذا وعيد شديد.

{وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ} .

إننا لم نُهلك أيًا من الأمم السابقة إلا بعد أجلٍ مقدّر لا يُنسى ولا يُغفل. هذه سنة الله الماضية التي لا تتخلف، وهلاك الأمم مرهون بآجالها، وهذا ما أكدّه بقوله تعالى:

{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} .

فلا يغرنهم تخلف العذاب عنهم فترة من الزمن، فإن أجلهم آتٍ لا يسبقونه ولا يتأخرون عنه.

١٥.٢ 6

الذكر: القرآن. منظرين: مؤخرين. في شيع: في جماعات مفردة شيعة. نسلكه: ندخله. يعرجون: يصعدون. سكرت: سدت ومنعت من الابصار. بروج: منازل الشمس والقمر. شهاب: شعلة من نار، والشهب ما ترى ليلاً تتساقط من السماء.

{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} .

وقال بعض كفار قريش مستهزئين بالرسول الكريم: يا أيها الرجل الذي زعم أنه نُزِّلَ عليه القرآن إنك لمجنون.

وقال «مقاتل»: إن الذين قالوا ذلك هم: عبد الله بن أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة من زعماء قريش. {لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ} .

إن كانت ما تدّعيه حقاً وقد آيدك الله وأرسلك، فلماذا لا تسأل الله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بصدق نبوتك؟ ويتكرر طلب نزول الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذّبين من قومه حين ينتهي الأجل المعلوم فقال:

{مَا نُنْزِلُ الْمَلَأَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ} .

إننا لا ننزل الملائكة إلا عندما نقرر أمراً له أهميته، ويكون قد مضى الأجل وحق القول على الكافرين، ولو أنزلنا الملائكة لأهلكنا أولئك الكافرين، ولم يكونوا مؤخرين.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص «ما تنزل الملائكة» بنونين وبنصب الملائكة. وقرأ أبو بكر «ما تنزل الملائكة» بالتاء والفعل يبنى للمجهول ورفع الملائكة. وقرأ الباقون: «ما تنزل الملائكة» بفتح التاء ورفع الملائكة.

ثم أجاب الله تعالى عن إنكارهم تنزيل القرآن واستهزائهم بالرسول الكريم بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} .

ان هذه من الآيات الجليلة، والقرآن كله جليل عزيز، وفيها تحدّ كبير لكن معاند، وطمأنينة للمؤمنين. فالله سبحانه وتعالى يمن علينا بأن هذا القرآن من عنده، وهو حافظ له، لم يكَلْ حفظه لغيره، فهو ذكّر حي خالد مصون من التحريف والزيادة والنقصان، وهو باقٍ محفوظ لا يندثر ولا يتبدّل. والتحدي قائم لكل معاند.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} .

ولا تحزن أيها الرسول، فقد أرسلنا قبلك رسلاً إلى أممٍ قد مضت، وما أتى رسولٌ أمةً إلا كذبوه واستهزأوا به. وفي هذا تسليّة للرسول الكريم عما أصابه من سفّه قومه، بأن هذا دأب الأمم المكذّبة لرسلها من قبل. فلقد أصابهم مثل ما أصابك، وقد نصرنا رسلنا وسننصرك انت والمؤمنين، فطِبْ نفساً ولا يضيّقن صدرك بما يقولون.

{ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } .

وكا كانت حال الأمم الماضية حين أنزلت عليهم الكتب من الملائكة الأعلی فأصروا على الكفر والاستهزاء بالرسل - كذلك نلقي القرآن في قلوب المجرمين من بين قومك وهو غير مقبول لديهم، لأنهم أجروا بإصرارهم على الكفر فلم يؤمنوا به. وقد مضت سنة الله في إمهالهم، وهكذا تجدنا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين.

ثم بين الله تعالى عذابهم ومكابرتهم للحق فقال:

{ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ } .

ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين باباً من السماء يصعدون فيه بأجسامهم ويرون من فيها من الملائكة، وما فيها من العجائب - لقالوا لفرط عنادهم، إنما سُدَّتْ أَبْصَارُنَا، فما نراه تخيلاً لا حقيقة له، وقد سحرنا محمدٌ بما يظهر على يده من الآيات، وظلّوا في عنادهم ومكابرتهم سادّرين.

قراءات:

قرأ ابن كثير: «سُكِّرَتْ» بالتخفيف، والباقون بالتشديد كما هو في المصحف.

{ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ } .

بعد بيان مكابرة المعاندين، وانهم لا يؤمنون حتى بالأشياء المحسوسة، عرّض هنا الآيات الكونية، وما فيها من إبداع لمن يفكر ويُبصر. لقد أبدعنا هذا الكون، وجعلنا في السماء أشكالاً عديدة من النجوم، منها تلك البروج الظاهرة للعيان، البديعة، الدالة على جمال هذا الكون، وحسن نظامه وزينها بالكواكب للنّاظرين والمفكرين.

فهلاً نظر أولئك المعاندون إلى هذه السماء وما فيها من بروج ظاهرة، ونجوم ساطعة وأقمار نيّرة، ومجرات عظيمة، فإن فيها عبرة لمن اعتبر!

{ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ } .

ولقد حفظنا السماء ومنعنا كل شيطانٍ رجيمٍ من القرب منها، فلا ينالها ولا يدنسها، ولكن من أراد من هؤلاء الشياطين ان يسترق الاستماع من عالم الغيب، فنحن نلحقه بشهابٍ مشتعل محرق، فهم أعجز من ان يصلوا إليها.

١٥٠٣ 19

مددناها: بسطناها. رواسي: هي الجبال الثابتة. موزون: مقدر. فانزلنا: فأعطينا. لواخ: جمع لواح. معناها حوامل للماء، ومعنى آخر لانها تلقح النباتات والشجر. المستقدمين: الذين ماتوا. المستأخرين: الاحياء الذين لم يموتوا بعد.

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ } .

وخلقنا لكم الأرض ومهدناها حتى صارت كاللبساط الممدود، ووضعنا فيها جبالاً راسياتٍ ثابتة، وأنبتنا لكم فيها من كلّ أنواع النبات ما يحفظ حياتكم، وجعلناه مقدراً بأزمانس معينة في نموه وغذائه، ومقدراً بمقدار حاجتكم، في أشكاله في الخلق والطبيعة.

وتقرر هذه الآية حقيقة كونية لم تُعرف الا في العصور الأخيرة، وهي ان كلّ صنفٍ من المبات أفرادُه متماثلة من الوجهة الظاهرية، وكذلك في التناسق الداخلي، التوازن دقيق فيكل أجهزة النبات المختلفة، وكذلك بين الخلايا لتحقيق الغرض الذي وجدت من أجله. { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } .

وجعلنا لكم في الأرض أسباب المعيشة الطيبة من غذاء وماء، ولباسٍ ودواء، ومعادن تنفعون بها، وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى. وكما أن فيها أسباب المعيشة الطيبة ففيها المعيشة لمن يكونون في ولايتكم من عيالٍ وأبتاع، فالله وحده يرزقهم وإياكم، فكل أولئك رزقهم

على خالقهم لا عليكم.
 {وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} .
 وما من شيء ينتفع به العباد من المصادر والموارد إلا هو موجود عندنا مخزون، وما نعطيه إلا بقدر معلوم وحسب مشيئتنا وحاجة الخلق إليه.
 ثم فصل بعض ما في خزائنه من النعم فقال:
 {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} .
 وقد أرسل الله تعالى الرياح بالماء تحمله، فتحيي الأمطار الخلق والأرض وتعطيها حياة جديدة، فتزهر بكل لون بهيج، ويشرب منها الإنسان ويسقي زرعه وحيوانه.
 والخلاصة: نحن القادرون على إيجاد الماء وتخزينه في السحاب وإنزاله مطراً، وما أنتم على ذلك بقادرين، لأنه في دورة مستمرة، يبتخر من البحر والأرض، ثم تحمله السحب فينزل على الأرض ويعود إلى البحر.
 وقد زاد بعض المفسرين معنى آخر لكلمة لواح فقالوا: إن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة، ومن نبتة إلى أختها، وهذا أيضاً لم يكن معروفاً في الأزمان السابقة، فيكون هذا أيضاً من معجزات القرآن الكريم.
 قراءات:
 قرأ حمز وحده: «وارسلنا الريح» بالإفراد، والباقيون بالجمع كما هو في المصحف.
 بعد أن ذكر الله تعالى نظم المعيشة في هذه الحياة بين أن الحياة والموت بيده وأنه هو الحي الباقي يرث الأرض ومن عليها.
 {وَأَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} .
 أن كل شيء في هذه الحياة مَرْجِعُهُ إلى الله، الحياة والموت بيده، وسيموت الخلق جميعاً ولا يبقى حي سواه.
 {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧ - ٢٨] .
 {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} .
 ولقد علمنا من مضى منكم وأحصيناهم وما كانوا يعملون، وعلمنا من هو حي ومن سيأتي بعدكم، فلا تخفى علينا أحوالكم ولا أعمالكم.
 {وَأَنَّ رَبَّكَ هُوَ يُخْشِرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} .
 وسيجمع الله المتقدمين والمتأخرين جميعاً عنده يوم القيامة وإليه المصير، حيث يجازي كلاً بما عمل، وهو حكيم يقدر لكل أمة أجلها بحكمته، ويعلم متى تموت ومتى تُحْشَرُ.

١٥٠٤ 26

من صلصال: من طين يابس غير مطبوخ. من حمأ: طين اسود. مسنون: يمكن تصويره على هيئة الإنسان، وله معنى آخر وهو المتغير. الجن: وهم نوع من الخلق لا نراهم. نار السموم: النار الشديدة الحرارة. سويته: اتممت خلقه. نفخت فيه من روحي: جعلت فيه الحياة.
 بعد جولة طويلة في بيان تنزيل الذكر، وتنزيل الملائكة، ورجم الشياطين، وتنزيل الماء من السماء؛ ثم ذكر ما في هذا الكون من مشاهد وعجائب كالسماء والكواكب والبروج والشهب والأرض والجبال والنبات والرياح؛ وبعد ضرب الأمثلة على المكابرة من الكفار المعاندين- بعد هذا كله يأتي الحديث عن قصة البشرية وخلق الإنسان والجان بطيعةتين مختلفتين، وقصة الهدى والضلال. وقد عُرِضَت هذه القصة في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي كل مرة لها عَرْضٌ مختلف وجوٌّ خاص، يلائم السياق ويتمشى مع الغرض المطلوب. وهنا يركز سبحانه على سرّ التكوين في آدم، وسرّ الهدى والضلال وعواملهما الأصلية في كيان الإنسان:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} .

نحن في خلقنا للعالمين في هذه الأرض خلقنا طبيعتين: خلقنا الانسان من طينٍ يابس يصلصل ويصوت عند نقره. {والجآن خلقناه من قبل من نار السموم} أما عالم الجن فقد خلقناه من قبل آدم من نار السموم الشديدة الحرارة.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} .

أذكر ايها النبي إذ قال ربك للملائكة إني سأخلق بشراً من طين هذه الارض.

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} .

فإذا اكملت خلقه، وشرفته على سائر المخلوقات ونفخت فيه من روحي، (وبهذه النفخة العلوية فرقت بينه وبين سائر الأحياء، ومنحته خصائصه الإنسانية، حيث تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلاً للاتصال بالله) فاستجدوا له سجود تحية واکرام، لا سجود عبادة. . . . فإن العبادة لله وحده.

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} .

فسدوا جميعاً خاضعين لامر الله، الا إبليس رفض اني يسجد واستكبر أن يكون مع الملائكة الآخرين.

١٥٠٥ 32

رجيم: مرجوم، مطرود من كل خير يوم الدين: يوم القيامة. فأنظري: فامهين. يوم القوت المعلوم: يوم القيامة. جزء مقسوم: لكل فريق من اتباع ابليس جزء معين في جهنم.

{قَالَ يَا إِبْلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} .

قال الله تعالى: ما منعك يا إبليس ان تسجد مع الساجدين؟

{قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} .

قال إبليس، وقد ركه الغرور والاستكبار، إنه لن يسجد لبشر مخلوق من طين، فهو خير من آدم، آدم مخلوق من طين، وإبليس مخلوق من نار، والنار خير من الطين.

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} .

قال الله تعالى: فاخرج من الجنة، أنت مطرود من رحمتي كنت فيه من الدرجات الرفيعة. لقد كتبت عليك اللعنة إلى يوم القيامة.

{قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} .

قال إبليس، وهو المتردد على طاعة الله: يا رب، أمهلني الى يوم القيامة. فقال الله تعالى: إنك من المؤجلين الممهلين، إلى اليوم المعلوم، يوم القيامة.

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} .

قال إبليس: يا ربّي، بما امتحنّني به من الأمر بالسجود لآدم، الأمر الذي أوقعني في العصيان، لأزینّ لبني آدم السوء والعصيان في هذه الأرض، وسأعمل كل شيء لإغوائهم وإضلالهم.

{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ} ولن ينجو من إضلاي الا الذين أخلصوا لك من العباد.

فرد الله تعالى عليه بالتهديد والوعيد بقوله:

{قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} .

قراءات:

قرأ يعقوب: «صراط عليٍّ مستقيم» برفع، عليّ، صفة لصراط. والباقون «عليّ».

قال الله تعالى إن الإخلاص هو الصراط المستقيم، فمن سلكه نجا، إن عبادي الذين أخلصوا لدينهم ليس لك قدرةٌ على إضلالهم، وأما من تبعك فإنه من الضالين الغاوين ومصيرهم جهنم.

{وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} .

فعاقبتهم جهنمُ يجتمع فيها كل من تبع إبليس.

{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ} .

وجهنمُ هذه ذات سبعة أبواب لكثرة من يردّها من المجرمين. ولكل باب طائفةٌ مختصةٌ به، ولكل طائفةٌ مرتبةٌ معلومةٌ تتكافأ مع شرهم. ويقول عدد من المفسرين ان لجنهم سبع طباقات ينزلها مستحقوها بحسب مراتبهم في الضلال وهي: جهنم والسعير ولظى والحطمة وسقر والجحيم، والهاوية.

١٥٠٦ 45

سرر: جمع سرير. نصب: تعب. تبيء: خبر.

بعد ذكر حال اهل الغواية، وعلى رأسهم ابليس، وما يلاقون يوم القيامة في جهنم - جاء ذكر حال المتقين، أهل الجنة، وما يتمتعون به من نعيم مقيم.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} .

ان الذين اتقوا الله وأطاعوا أوامره يتمتعون في جنّات تجري من تحتها الأنهار، حيث يُقال لهم: ادخلوها بسلام آمنين} .

ادخلوها وأنتم على احسن حال من الفرح والسعادة والأمن، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} .

ولقد طهرنا قلوبهم من الحسد والغل والكراهية، فاجتمعوا فيها على المحبة والصفاء، يتنادمون على سرر متقابلين، وتيزاورون ويتواصلون.

{لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} .

لا يخلقهم في تلك الجنّات مشقة ولا تعب، ونعيمها دائم لا يخرجون منه ابدا.

{نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} .

وهذا ايضا من اسلوب القرآن الحكيم، فان الله تعالى فتح باب الرحمة على مصراعيه وهو الغفور ذو الرحمة الواسعة، فنبئ يا محمد عبادي بذلك، وأخبرهم ان العذاب للعصاة المعاندين شديد أليم، فالترغيب والترهيب متلازمان دائما في اسلوب القرآن الكريم.

١٥٠٧ 51

وجلون: خائفون. لا توجل: لا تخف. من القانطين: من اليأسين. ما خطبكم: ماذا تريدون. قدرنا: قضينا. الغابرين: الباقيين في الهلاك.

{وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} .

يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين، ويذكر طرفاً من أخبارهم ومعجزاتهم، وليس الغرض من هذا القصص التاريخ ولا استقراء الوقائع، وإنما الغرض منه الهداية والعبرة والعظة. {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [سورة يوسف: ١١١] .
وقد وردت قصة إبراهيم ولوط في مواضع متعددة بأشكال متنوعة، تناسب السياق الذي وردت فيه، ووردت قصة لوط وحده في مواضع أخرى.

وهنا يقول الله تعالى: اخبرني أيها النبي عن حال ضيف إبراهيم، عندما دخلوا عليه وسلموا، فقال: إنا منكم خائفون، فطمأنوه وقالوا له: لا تخف، إنا جئنا نبشرك بسلام عليم. قال: كيف تبشرونني بمولود يولد لي وأنا شيخ كبير السن، إن هذا الأمر لغريب عجيب! فأجابوه مؤكدين ما بشروه به: لقد بشرنك بالحق فلا تكن من القانطين اليأسين. فقال إبراهيم، إني أياس من رحمة الله، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون.

ثم لما استأنس بهم وعرف أنهم جاؤوا بأمر عظيم، واستفسر منهم فقال لهم: ما شأنكم بعد هذه البشري أيها المرسلون؟ قالوا: لقد أرسلنا الله تعالى الى قوم مجرمين في حق الله وحق نبيهم وحق أنفسهم، وسنهلكهم إلا آل لوط ومن اتبعه فإنهم ناجون، دون امرأته (لأنها كفرت بالله ولم تتبع زوجها) فستكون من الماكثين في الهلاك مع القوم المجرمين.

قراءات:
قرأ نافع: «فهم تبشرون» وقرأ ابن كثير: «تبشرون» بكسر النون مشددة. وقرأ الباقون: تبشرون بفتح النون وقرأ ابو عمرو والكسائي: «ومن يقنط» بكسر النون، والباقون «يقنط» بفتح النون.

١٥٠٨ 61

فاسر بأهلك: اذهب بهم ليلاً. وابتع أدبارهم: وكن انت وراء اهلك. لعمرك: قسم.
وبعد ان بشر إبراهيم بالود وخبروه أنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين، ذهبوا الى لوط. وبدأت المعركة بين لوط وقومه حول هؤلاء الرسل.

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. . .}

ولما وصل الملائكة إلى ديار لوط، لم يعرفهم لوط في بادئ الأمر، وقال لهمك إنكم قوم منكرون، ما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟ قولوا: لا تخف، إنا رسل من عند ربك، جئناك بأمر يسرّك، وهو إنزال العذاب بهؤلاء المجرمين.

ثم شرعوا يرتبون له كيف ينجو هو وأهله والمؤمنون معه قبل حلول العذاب بقومه، فقالوا له: سر ليلاً بأهلك ومن آمن معك بعد مرور قطع من الليل، وكُنْ خَلْفَهُمْ حَتَّى يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنْ الْجَمِيعَ سَارُوا وَنَجَوْا، وَلَا يَتَلَفَّتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ خَلْفَهُ، بَلْ امْضُوا حَيْثُ يَأْمُرُكُمْ رَبُّكُمْ. {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} .

وقدّرنا ان هؤلاء المجرمين هالكون عن آخرهم عند دخول الصباح.

وعندما علم القوم بوصول الرسل وهم بهيئة جميلة، أسرعوا نحوهم مستبشرين بحبيبتهم الى مدينتهم طمعاً فيهم، فلما رآهم لوط مسرعين قال لقومه: إن هؤلاء الذي جئتم تريدون منهم الفاحشة هم ضيوفي، فلا تفضحوني فيهم، «واتقوا الله ولا تخزون»، اي خافوا عقاب الله ان يحل بكم.

فقال له قومه: أولم ننهك ان تضيف أحداً من العالمين؟ فلما رآهم متمادين في غيبتهم، لا يراعون عن غوايتهم، قال لهم لوط: هؤلاء بناتي وبنات القرية، يمكنكم ان تتزوجوهن إن كنتم راغبين في قضاء الشهوة.

{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} . بحق حياتك أيها النبي الأمين، انهم لفي غفلة عما سينزل بهم، جعلتهم كالسكارى يترددون

وَيَتَجَبَّطُونَ، فَلَا يَرَجِيْ اَنْ يَفِيْقُوا وَلَا اَنْ يَسْمَعُوا.

١٥.٩ 73

الصيحة: العذاب. مشرقين: عند شروق الشمس. من سجيل: حجارة من طين. للمتوسمين: للعقلاء اصحاب الفراسة. لبسبيل مقيم: بطريق واضح.

اصحاب الايكة: قوم شعيب. الايكة: الشجر اللهتف الكثيف. لبامام مبين: بطريق واضح. وللامام معان كثيرة. اصحاب الحجر: هم ثمود قوم صالح، والحجر مكان في شمال الحجاز معروف للآن. الصفح الجميل: العفو.

ثم ذكر الله تعالى عاقبة أمر قوم لوط فقال:

{فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ} .

فنزّل بهم العذاب المنتظر وقت شروق الشمس.

{فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} .

جزاء ظلمهم جعل الله عالي المدينة سافلها، أي أنه قلبها، وأمطر عليهم حجارة من طين متحجرة، مع صيحة عالية تصعق كلّ من سمعها.

ثم بين ان في هذا القصص عبرة لمن اعتبر.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} .

ان ما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والتدمير لآيات للذين يعقلون ويفكرون ويعتبرون. ثم وجه انظار أهل مكة الى الاعتبار بها لو أرادوا ذلك فقال:

{وَأَنهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ} .

ان هذه المدينة - مدينة سدوم - التي اصابها العذاب والتدمير تقع على طريق ظاهر ثابت هو طريقكم وتم ذاهبون الى الشام، وآثارها

باقية في البحر الميت كما قال تعالى: {وَأَنكُم تَنُرُّوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧-١٣٨] .

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} ان فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار ونجاة لوط وأهله لدلالة للمؤمنين الصادقين.

وبعد ان ذكر قصص قوم لوط ابتعه بقصص قوم شعيب فقال:

{وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} .

وان قوم شعيب، اصحاب الغابة الكثيفة، كانوا ظالمين، فانتقمنا منهم وانزلنا عليهم العذاب. وكذلك أهل مدين قد أخذتهم الصيحة.

{وَأَنَّهُمَا لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} يعني ان كلا من مدينة لوط والأيكة واقعة على طريق ظاهر لكم تمر عليها قوافل قريش في ذهابهم الى الشام، فمن حقهم ان يعتبروا بآثارهم وهي باقية الى الآن.

ثم ذكر الله تعالى قصة صالح فقال:

{وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ} .

لقد كذبت ثمود نبيهم صالحاً، ومن كذب رسولاً واحداً من رسل الله فكأنما كذب جميع المرسلين.

{وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} .

وأريناهم حججنا الدالة على نبوة صالح، منها الناقة وغيرها، فأعرضوا عنها، ولم يعتبروا بها.

{وَكَانُوا يَخْتَوْنَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ} .

ولا تزال آثارهم وبعض ما نحتوه في الجبال باقياً الى الآن في شمال الحجاز، ويُعرف المكان بمدائن صالح.

{فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ} .

اهلكهم الله بالصيحة التي تصعق كل واحد منهم في وقت الصباح.
{فَأَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} .

ولم يدفع عنهم الهلاك الذي نزل بهم، ما كانوا يكسبونه من أموال، ويتحصنون وراءه من حصون.
{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحُ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ} .
وما خلقنا هذا الكون وما فيه الا بالعدل والانصاف والحكمة، وان الساعة لآتية يوم القيامة لا ريب في ذلك، فأعرض عنهم أيها النبي واصفح الصفح الجميل وخالقهم بخلق حسن. {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} .
ان ربك هو الذي خلقهم وخلق كل شيء.

١٥٠١٠ 87

سبعا من المثاني: سورة الفاتحة. وبعضهم يقولك انها سبع السور الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الانعام، الاعراف، ويونس. لا تمدن عينيك: لا تنظر او لا تتن. واخفض جناحك للمؤمنين: تواضع لهم. المقتسمين: اليهود والنصارى. عضين: اجزاء، مفردا عضه. فاصدع بما تؤمر: اجهر به. اليقين: الموت.
في ختام هذه السورة العظيم يمن الله على الرسول الكريم أنه اعطاه القرآن العظيم ومنه السبع المثاني، ويوصيه ان لا ينظر الى ما عند غيره، ويتواضع للمؤمنين، ثم يخلص الى البيان السابق وهو أمر النبي عليه الصلاة والسلام ان يجهر بالدعوة ولا يحزن عليهم ولا يضيق صدره بما يقولون، فان الله تعالى كفاه أمرهم، وسوف يعلمون، وأمره ان يعبد ربه حتى ينتهي أجله من هذه الحياة.
{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المثاني وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ} .

ولقد اكرمناك ايها النبي بسبع آيات من القرآن هي سورة الفاتحة التي تكرر في كل صلاة. وهذه السورة لها مكانتها الخاصة، لانها تشتمل على مجمل ما في القرآن. فقاصد القرآن هي: بيان التوحيد، وبيان الوعد والبشرى للمؤمنين، وبيان الوعيد والانذار للكافرين والمسيئين، وبيان السعادة في الدنيا والآخرة، وقصص الذين أطاعوا الله ففازوا، والذين عصوا نكفوا.
والفاتحة تشتمل بطريق الایجاز والاشارة على هذه المقاصد ولذلك سميت «ام الكتاب» والسبع المثاني.
وبعد ان عرف الله رسوله عظيم نعمه عليه، نهاه عن الرغبة في الدنيا فقال:
{لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} .

لا تتمن ايها الرسول ما جعلنا من زينة الدنيا متاعاً للاغنياء من اليهود والنصارى والمشركين، فإن هذا كله زائل وزهيد بالنسبة لما أوتيته من كمال الاتصال بنا ومن القرآن العظيم.
والخطاب تعليم للمؤمنين، فقد روي أنه أتت من بصرى الشام سبع قوافل لقريظة والنضير من اليهود في يوم واحد، فيها أنواع البضائع من الطيب والجواهر والألبسة، فقال المسلمون: لو كانت لمن لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله.
فالله تعالى يعلمهم ان هذا كله لا قيمة له بالنسبة لما أوتيت، «ولا تحزن عليهم» بسب استمرارهم على الغي والكفر، وتواضع يا محمد لمن اتبعك من المؤمنين.

ثم بين وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام فقال:
{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} .

وقل ايها الرسول للناس اجمعين أنا النذير لكم من عذاب أليم، فارجعوا الى الله وآمنوا بما انزل الي تريحوا وتفوزوا بالجنة.
ثم بعد ان ذكر الله أنه اكرم الرسول بالقرآن العظيم والسبع المثاني - يبين هنا أن الذين سبقوه من اليهود والنصارى قسموا القرآن الى اجزاء، فبلوا بعضه وكفروا ببعض منه. فقال:

{الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} .
 وكم آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، أنزلنا من قبلك على اليهود والنصارى التوراة والإنجيل، وهم الذين اقتسموا القرآن فآمنوا ببعضه الذين وافق ما عندهم، وكفروا ببعض، وهو ما خالفهم.
 {فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .
 فوالذي خلقك ورباك لנסألك الكفار جميعاً عن ما كانوا يقولون ويفعلون، ولنحاسبنهم أجمعين.
 ثم يؤكد الله تعالى على نبيه بالجر والقوة في تبليغ الرسالة جهد المستطاع فيقول:
 {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} .
 فاجهر بدعوة الحق، وابلاغ ما أمرت به، ولا تلتفت الى المشركين وما يقولون.
 ولما كان ما يلاقه من المشركين امراً عسيراً، واذى كبيراً، طمأنه الله بانه هو يكفيه شرهم فقال: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} .
 إنا كفيناك شر المستهزين من قريش الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن، وكانوا طائفةً من قريش لهم قوة، وكانوا كثيري السفاهة والأذى للرسول الكريم، وقد أبادهم الله وأزال كيدهم، فهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث. وقد ماتوا جميعاً.
 ثم وصف هؤلاء المستهزين بالشرك فقال:
 {الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} .
 انهم اتخذوا آلهة مع الله يعبدونه، فسوف يعلمون عاقبة امرهم، يوم القيامة، يوم يرون العذاب الشديد.
 {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} .
 إنا نعلم ما يصبك من ضيق وألم نفسي بما يقولونه من الفاظ الشرك والاستهزاء، فسلاه الله تعالى بان يسبح ويلوذ به، ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال حياته حتى يأتيه اليقين.
 {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} .
 وهذا هو ختام السورة: ارشاد من الله تعالى أن يكشف ما يجده من الغم باللجوء باليه بعمل الطاعات، والاكثار من العبادات، وقد كان النبي ﷺ اذا حزبه امر واشاد عليه خطب، فزع الى الصلاة.
 اللهم وفقنا لطاعتك، واهدنا لعبادتك، واجعلنا من المتقين الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

١٦ النحل

١٦٠١ 1

اتى امر الله: دنا وقرب. امر الله: وعده وحكمه. الروح: الوحي. انذاروا: خوفوا: خصيم: مخاصم.
 كان مشركو مكة يستعجلون الرسول عليه الصلاة والسلام ان يأتيهم بعذاب الدنيا او عذاب الآخرة، فجاء ملطع هذه السورة حاسماً:
 {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} .
 وقد تحقق هذا الوعيد بان اهلك الله عدداً من صناديدهم في هذه الدنيا ونصر رسوله والمؤمنين، ولعذاب الآخرة أشد، وهو واقع لا ريب فيه {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} تنزه الله عنه ان يكون له شريك يعبد دونه.
 قراءات:
 قرأ حمزة والكسائي: «تشركون» بالتاء، والباقون «يشركون» بالياء كما هي في المصحف.

{يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} .

بعد ان تبرأ سبحانه من الشريك- بين انه تعالى وحده يعرف أسرار هذا الكون، وانه ينزل ملائكته بالوحي الذي يُحيي القلوب على من يريد من عباده الذين يصطفهم، ليعلموا الناس، وينذروهم بأن إله الخلق واحد لا اله الا هو، فاحذروا، وأخلصوا له العبادة، والتزموا بالتقوى والإيمان.
قراءات:

قرأ الكسائي عن ابي بكر: «تنزيل الملائكة» بفتح التاء والنون والزاي المشددة. وقرأ ابن كثير وابو عمرو: «ينزل» بضم الياء وكسر الزاي من أنزل. والباقون: «ينزل» بضم الياء وكسر الزاي المشددة.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} .

بعد ان بين الله أنه تنزه عن الشريك، وأنه هو الخالق الواحد، وأمر الناس بتقواه وإخلاص العبادة له - أخذ في عرض أدلة التوحيد، والآيات الدالة على النعمة عرضاً لطيفاً هادئاً.

خلق الله العالم العلوي والسفلي بما حوة بالحق على نهج تقتضيه الحكمة، لوم يخلقه عبثاً، وقد تنزه عن ان يكون له شريك يتصرف في ملكه، او يستحق ان يعبد مثله، تعالى عن شركهم، وتعالى عما يشركون.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «تشركون» بالتاء.

{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} ما أعجب هذا الانسان الذي خلقه الله من مادة لا ترى بالعين المجردة، فإذا به إنسان قوي مخاصم مجادل، ان هذا الكون كله عجب، وأعجب ما فيه هذا الانسان.

١٦٠٢ 5

الانعام: الابل والبقر والمعز والغنم. الدفء: ما يدفئ الانسان من ثياب وغيرها. المنافع: ما يفيد الانسان منها من ركوب وحرث ولبن. وجمال: زينة. تريحون: تردونها من المرعى الى مراحلها بعد رعيها. تسرحون: تخرجونها صباحاً الى مراعيها. الاثقال: الامتعة. بشق الانفس: بمشقة وتعَب. قصد السبيل: الطريق المستقيم. جائز: مائل، منحرف.

{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} .

وقد تفضل الله عليكم بأن خلق لكم الابل والبقر والغنم والمعز لتتخذوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ما تحتاجون إليه في حياتكم وتشربون من ألبانها، وتأكلون من لحومها.

{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} .

ولكم في هذه الأنعام بهجة وسرور عندما ترجع من مراعا وهي مُقْبِلَةٌ مساءً ملأى البطون، حافلة الضروع، رائحةً سميحة، وحين تُخرجونها صباحاً إلى المرعى، فإن منظرها يسر الناظرين. وهذا يبدو لأهل الريف والبدو، ولا يدركه أهل المدينة.

{وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا لِبَشَقِ الْأَنْفُسِ} .

وبعض هذه الأنعام كانت من وسائل المواصلات ولا تزال كذلك في كثير من البلدان، تحمل أمتعتكم الثقيلة وتوصلكم الى بلد لم تكونوا تستطيعون الوصول إليه بدنها إلا بكل مشقة وتعَب.

{إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوُوفٌ رَّحِيمٌ} إن ربكم الذي هيأ لكم كل هذه النعم وجعلها لراحتكم هو رؤوف بكم واسع الرحمة لكم.

{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} .

وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضاً لتركبوها، وهي بالإضافة الى الإبل كانت وسائل النقل، وزينة لكم. وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن والإسلام للحياة، فإن الجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل هناك ما يدخل السرور على الانسان، ويلبي حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور بالجمال. ومع ان هذه الوسائل أصبحت قديمة، فإن كثيراً من الناس لا يزال يربي الخيل والإبل ويسر فيها صباح مساء، ولا تزال في كثر من البلدان فرق كاملة من الفرسان والهجانة في الجيش، وهي من أجمل الأشياء التي يحبها الانسان. {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} .

وهذا من عظمة القرآن حيث أشار الى ما يجد من وسائل النقل، وستجد وسائل كثيرة لا نعلمها نحن في الوقت الحاضر. والقرآن الكريم دائماً يهين القلوب والأذهان بلا جمود ولا تحجر. ولحوم الخيل محرمة عند أبي حنيفة، وحلال عند مالك والشافعي وابن حنبل، اما لحوم البغال والحمير فهي محرمة عند أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل، ومكروهة عند مالك، وجميعها حلال عند الشيعة الإمامية مع الكراهة. {وعلى الله قصد السبيل} .

وعلى الله بيان الطريق المستقيم يوصلكم الى الخير. «ومنها جائز» ومن الطرق ما هو جائز منحرف لا يوصل الى الحق، وعلى الله بيان ذلك ليتدي إليه الناس. ثم أخبر سبحانه ان الهداية والضلال بقدرته ومشيبته فقال: {وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} .

ولو شاء هدايتكم جميعاً لهادكم، لكنه شاء ان يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال وان يدع لإرادته اختيار الطريق.

١٦٠٣ 10

تسيمون: ترعون الماشية، تجعلونها ترعى النبات. ذراً: خلق. سخر البحر: ذلله وجعله في خدمتكم. مواخر: جمع ماخرة: جارية فيه، مخر الماء شقة. الرواسي: الجبال. ان تميد بكم: ان تميل وتضطرب. وسبلا: طرقا. وعلامات: اشارات، ومعالم يستدل الانسان بها. {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} .

بعد أن ذكر الله نعمته على الناس بتسخير الدواب والأنعام، شرع يذكر نعمت عليهم بإنزال المطر والخلق وتسخير الكون كله لهذا الإنسان. إن الذي خلق لكم الأنعام والخيول وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذاباً زلالاً تشربون منه وتسقون الشجر والنبات. وهذا الجش والنبات هو الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم باللبن واللحم والأصواف والأوبار والأشعار والجلود. {يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} .

إن هذا الماء ينزله الله من السماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات ويجعله رزقاً لكم ونعمة منه عليكم، وحجة على من كفر به.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} .

ان فيما ذكر من الآيات الدالة على قدرة الله وما فيها من نعم لا تحصى لأدلة وحججاً لقوم لهم عقول تفكر، بها يدركون حكمة الله، ويفهمونها حق الفهم.

قراءات:

قرأ أبو بكر: «نبت لكم» بالنون، والباقون: «ينبت لكم» بالياء.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} .

ومن نعمة تعالى عليكم ان جعل لكم الليل مهيناً لراحتكم، والنار جعله مناسباً لِسعيكم وحركتكم وأعمالكم، والشمس تمدكم بالدفع والضوء، والقمر لتعرفوا به عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر الله لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات البر والبحر. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

إن في كل هذه النعم والدلائل آيات لقوم لهم عقول تدرك وتندبر ما وراء هذه الظواهر من قدرة. {وَمَا ذَرَأَّا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} .

ومن نعمه التي لا تحصى عليكم ما خلق لكم في الأرض من أنواع الحيوان والنبات والجماد، وجعل في جوفها من المعادن المختلفة الألوان والأشكار، وجعل كل ذلك لمنافعكم، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} ان في ذلك كله لأدلة واضحة لقوم يذكرون ولا ينسون. {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: ٢٦٩] .

قرأ حفص: «والنجوم مسخرات» بالرفع. وقرأ ابن عامر: «والشمس والقمر والنجوم مسخرات» بالرفع. والباقون «والشمس والقمر والجوم مسخرات» كلها بالنصب.

{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لَئَلَّكُمْ مِنْهُ لَجَأٌ طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} .

ومن هذه النعم الكبرى نعمة البحر وما فيه من أنواع الحيوان، فإن الله تعالى جلع هذا كله للإنسان ليأكل منه ذلك اللحم الطري الشهي، ويستخرج من جوفه أنواع اللؤلؤ والمرجان حيلة جميلة تلبسونها ايها الناس وتلحون بها. {وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} .

وترى أيها الناظر تلك السفن تخر عباب الماء وتشقه. كل ذلك في خدمتكم، سخرى الله لكم أيها الناس لتنتفعوا بما فيه، وتطلبوا من فضل الله الرزق عن طريق التجارة وغيرها، فلتشركوا الله على ما هيأ لكم وأنعم به عليكم.

{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}

وجعل في الأرض جبلاً ثابتة حتى لا تميل بكم وتضطرب بما عليها.

{وَأَنهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} .

وجعل في هذه الأرض أنهاراً تجري فيها المياه الصالحة للشرب والزرع، وجعل فيها طرقاً ممهدة لتهتدوا بها في السير إلى مقاصدكم. {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} .

وجعل لكم في هذا الكون علامات ودلائل يهتدي بها الساري ويسترشد في أثناء سيرة ليلاً بالنجوم التي أودعها الله في السماء. بعد ان بين الله الدلائل على وجود الإله القادر، الذي خلق هذا الكون على أحسن نظام، وان جميع ما في هذا الكون في خدمة الإنسان- أخذ يرد على المشركين ويطل شرهم عبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان، وأنهم عاجزون لا يستطيعون اني يخلقوا شيئاً

فقاً: {أَفَنُ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} .

أفمن يخلق كل هذه الأشياء التي مر ذكرها وغيرها، كمن لا يخلق شيئاً لا كبيراً ولا صغيراً، اتعمون أيها المشركون عن آثار قدرة الله فلا تعتبروا وتشركوا الله عليها؟! .

ثم بعد ان نبههم سبحانه إلى عظّمته وقدرته، ذكر الناس بنعمة عليهم واحسانه فقال:

{وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} .

إِنْ تَحَاوَلُوا عَدَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا احْصَاءَهَا لكَثْرَتِهَا. . . وَأَكْثَرُ النِّعَمِ لَا يَدْرِي بِهَا الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ يَأْلَفُهَا فَلَا يَعِشُرُ بِهَا إِي حِينَ يَفْتَقِدُهَا. إِنْ اللَّهُ لَغَفُورٌ، يَسْتُرُّ عَلَيْكُمْ تَقْصِيرَكُمْ فِي الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا، رَحِيمٌ بِكُمْ يُفِيضُ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ.
{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} . لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سِرِّكُمْ وَجَهْرِكُمْ.

١٦٠٤ 20

أَيَّانَ يَبْعَثُونَ: متى يبعثون. لا جرم: لا بد. ولا محالة وتأتي بمعنى القسم: حقاً.
{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} .

إِنْ هَذِهِ الْأَوْثَانُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَخْلُقُ شَيْئاً بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ، فَيْكْفُ يَكُونُ إِلَهاً مَا يَكُونُ مَصْنُوعاً بِالْأَيْدِي!!
وَهُمْ {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ} .

إِنَّهَا جِمَادَاتٌ مَيْتَةٌ لَا حِسَّ لَهَا وَلَا حَرَكَةً، وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ، وَمَا تَدْرِي هَذِهِ الْأَصْنَامُ مَتَى تَكُونُ الْقِيَامَةُ وَالْبَعْثُ لِلنَّاسِ، فَلَا يَلِيقُ بِكُمْ أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّهَا تَنْفَعُكُمْ فَتُشْرِكُوهَا مَعَ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ.
وَلِمَا أَبْطَلَ اللَّهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَبَيَّنَّ فُسَادَ مَذْهَبِ الْمُشْرِكِي - بَيَّنَّ أَنَّهُ الْإِلَهِ الْوَاحِدُ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ.
{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} .

إِنَّ الْإِلَهِ الَّذِي تَجِبُ عِبَادَتُهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْخَالِقُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَمَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ مَغْلَقَةٌ مُنْكَرَةٌ لَوْحْدَانِيَّتِهِ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ لَا يَرِيدُونَ التَّسْلِيمَ بِالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ.
وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْأَسْبَابَ الَّتِي لِأَجْلِهَا أَصْرَّ الْكُفَّارَ عَلَى الشِّرْكِ وَانْكَارِ التَّوْحِيدِ - ذَكَرَ هُنَا وَعِيدَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فَقَالَ:
{لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} .

حَقّاً إِنْ اللَّهُ يَعْمَلُ مَا يَسِرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ وَيَعْمَلُ مَا يَعلَنُونَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَاقْتِرَائِهِمْ عَلَيْهِ. {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ وَالْخُضُوعِ لَهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» وَفِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ آخَرَ «إِنَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ امْتِثَالُ الذَّرِيمِ الْقِيَامَةِ، تَطَوُّهُمْ الْقِيَامَةِ، تَطَوُّهُمْ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ لَتَكْبَرِهِمْ» .

١٦٠٥ 24

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ: أَبَاطِيلُ وَخِرَافَاتُ السَّابِقِينَ مِنَ الْأُمَمِ. الْأَوْزَارُ: الْآثَامُ وَاحِدُهَا وَزْرٌ. سَاءَ مَا يَزُرُونَ: بُئْسَ مَا يَعْمَلُونَ مِنْ آثَامٍ فَاتَى اللَّهُ بَنِيَانِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ: هَدَمَهَا مِنَ الْأَسَاسِ. نَفَرَ عَلِيمُ السَّقْفِ: سَقَطَ عَلَيْهِمْ. فَالْقُوا السَّلْمَ: اسْتَسلَمُوا. مَثَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ: مَكَانُ إِقَامَتِهِمْ.
بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاهِينَ الْوَاضِحَةَ عَلَى بَطْلَانِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَعَدَّدَ نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا سَخَّرَهُ فِي هَذَا الْكُونِ لِلْإِنْسَانِ - أَرَدَفَ ذَلِكَ بِذِكْرِ شِبْهَاتٍ مِنْ أَنْكَرُوا النُّبُوَّةَ وَالْجَوَابَ عَنْهَا فَقَالَ:
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} .

كَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَزَعَمَاءُهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَأْتِيَ النَّاسُ وَيَجْتَمِعُوا بِالرَّسُولِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا رَجُلٌ حَلَوُ اللِّسَانِ، إِذَا كَلَّمَهُ أَحَدٌ ذَهَبَ بِعَقْلِهِ. وَكَانُوا يَرْقُبُونَ الطَّرِيقَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى يَمْنَعُوا مَنْ يَأْتِي قَاصِداً الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَيَصُدُّوهُ، كَمَا يَفْتَرُونَ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَقْوَالاً مُخْتَلِفَةً، فَتَارَةً يَقُولُونَ إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَأُخْرَى إِنَّهُ شَاعِرٌ أَنْ كَاهِنُ الْخَلْجِ، وَمَا هَذَا الَّذِي يَأْتِي

به إلا أباطيل الأمم السابقة وخرافاتها يتلوها على الناس.

وكل هذه الأمور التي أتونها من نوع الدعاية يدبرونها حتى يتفادوا الإيمان بالنبي الكريم ولكن الله هزمهم ونصر رسوله والمؤمنين.

{لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ} .

إما عملوا، وتقولوا الكذب ليصدوا الناس عن اتباع رسول الله، ولتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين غرّروا بهم وأضلّوهم فاتبعوهم على جهل وبغير علم.

{أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ} بئس ما يرتكبونه من الإثم والذنوب.

ثم بين لهم أن عاقبة مكرهم عائدة إليهم، كدأب من قبلهم من الأمم السابقة الذين أصبهم من العذاب ما أصبهم بتكذيب رسلهم، فقال:

{قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ نَحْرًا عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} .

ان الذين من قبلهم من الأمم السابقة قد مكروا برسلهم وكذبوهم ودبروا لهم المكاييد، فأبطل الله كيدهم ودمرهم بلادهم وهدمها من الأسس، فانهارت البيوت وخرت سقوفها على أصحابها، واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون.

والله سبحانه سوف لا يُنجيهم من العذاب في الآخرة، بل لهم عذاب أشد وأعظم.

{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ؟} .

يسألهم الله تعالى يوم القيامة على سبيل الخزي والاستهزاء بهم ويقول لهم: اين الذي اتخذتموهم شركاء لي في العبادة، وكنتم تحاربوني ورسلي في سبيلهم؟ أين هم حتى ينصروكم ويمدوا لكم يد العون؟ فلا يستطيعون جوابا.

{قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسَّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} .

وحينئذ يقول الذين يعلمون الحق من الأنبياء والمؤمنين والملائكة ان الذل والخزي والهوان اليوم على الكافرين المكذبين.

قراءات:

قرأ نافع: «تُشَاقُّونَ» بكسر النون. والباقون «تُشَاقُّونَ» بفتحها.

ثم بين ان الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمروا على كفرهم الى ان تتوفاهم الملائكة وهم ظالمون:

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} .

ماذا يفعلون في ذلك الموقف المخزي؟

{فَالْقَوْمُ الْأَسْمَاءُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} .

إنهم استسلموا لما عاينوا العذاب قائلين: ما كنا نشرك بربنا احداً، ولكن الله يكذبهم بقوله:

{بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

ان الله لا يخفى عليه شيء، وهو على علم بما كنتم تكفرون وتكذبون.

ثم بين الله تعالى مصيرهم المحتوم، فقال:

{فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ} .

ان مصيركم جهنم فادخلوها من أبوابها المتعددة، وذوقوا الوأناً من العذاب خالدين فيها أبداً، وبئس المقام والمثوى لمن كان متكبراً عن اتباع الرسل والاهتداء بما أنزل عليهم من آيات.

قراءات:

قرأ حمزة: «الذين يتوفاهم» بالياء. والباقون بالتاء.

ينظرون: ينظرون. أمر بك: حكم ربك فيهم. حاق بهم: أحطا بهم.

بعد ان بين الله أحوال المكذبين وما ينالهم في الدنيا والآخرة، وذكر هنا وصف المؤمنين وثقتهم بالله ورسوله، وما أعد لهم من الخير والسعادة في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء إيمانهم واحسانهم.

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ} .

وقيل للذين آمنوا بالله واتقوا: ما الذي أنزله ربكم على رسوله؟ قالوا: أنزل عليه القرآن فيه خير الدنيا والآخرة للناس جميعا، فكانوا بذلك من المحسنين. والله تعالى وعد بان يكافئ المحسنين بحياة طيبة، وفي الآخرة لهم الجنة بما أحسنوا.

{وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ} .

لنعم الدار التي يقيم فيها المتقون، جنات عدن تجري من تحت قصورها واشجارها الانهار، ولهم فيها ما يردون من النعيم. ومثل هذا الجزاء الأوفى يجزي الله الذين اتقوه.

وفي هذا حث للمؤمنين على الاستمرار على التقوى، ولغيرهم على تحصيلها.

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

هؤلاء المتقون تقبض الملائكة أرواحهم طيبين، طاهرين من دنس الشرك والمعاصي، وتستقبلهم الملائكة بقولهم: سلام عليكم، ادخلوا الجنة بما قدمتم من أعمال صالحة في دنياكم ولن يصيبكم بعد اليوم مكروه.

أخرج ابن جرير والبيهقي عن محمد بن القرظي قال: «إذا اشرف المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة» .

ثم يعود الكلام عن المشركين من قريش: ماذا ينتظرون، بعد عنادهم وكفرهم وتكذيبهم للرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه؟ وجزاء كفرهم وتكبرهم النار وبئس القرار.

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} .

ماذا ينتظر كفار مكة الذين قالوا ان القرآن أساطير الأولين غير ان تأتيهم الملائكة لتقبض ارواحهم، او يأتي أمر الله بالعذاب المهلك. وهم ليسوا بأول من كذب الرسل، فقد فعل مثلهم الذين من قبلهم من الأمم وحل بهم العذاب، وما ظلضمهم الله في ذلك، فقد اندرهم بواسطة الرسل، وإنزاله الكتب، ولكن ظلهموا أنفسهم بخالفه الرسل وتكذيبهم ما جاؤا به. ثم اعقب الله ذلك بذكر ما ترتب على اعمالهم فقال:

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} .

لهذا نزلت بهم عقوبة من الله جزاء ما عملوا من سيئات، وأحطا بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به.

الطاغوت: كل ما عبد من دون الله من شيطان وكاهن وصنم، وكل من دعا الى ضلالة. حقت عليه: وجبت عليه.

{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} .

لقد تكرر هذا القول من المشركين، وهم يريدون بقولهم هذا أن الله سبحانه أراد ان يشركوا ورضي بذلك. وهذه مغالطة وحجة باطلة يستندون عليها من كفرهم.

وقد رد الله عليهم شبهتهم هذه بقوله:

{كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} ومثل هذا الفعل الفعل الشنيع فعل مَنْ قَبْلَهُمْ من الأمم. ثم يبين خطأهم فيما يقولون ويفعلون فقال: {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ؟} .

هذه هي مهمة الرسل. . . إبلاغ الناس رسالات ربهم وإنذارهم، وليس عليهم هدايتهم. فالله لا يريد لعباده الشرك، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات، وإرادته ظاهرة منصوص عليها في شرائعه، وإنما شاءت إرادة الله أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين. لذا منحهم العقل يرجحون به أحد الاتجاهين، وبعث الرسل منذرين ومبشرين.

ثم بين الله تعالى أن بعثة الرسل امرٌ جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها، وجعلت سبباً لهدى من أراد الله هدايته، وزيادة ضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح ينفع الصحيح السليم، ويضر بعض المرضى.

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} .

ولقد أرسلنا في كل أمة سلفت قبلكم رسولا يقول لهم: اعبدوا الله وحده، واجتنبوا عبادة من دونه مما لا ينفع ولا يضر، ففريق استمع إلى الرسول واهتدى، وفريق أعرض عن سماع الحق فحق عليه العذاب. وإذا كنتم في شك أيها المشركون، فسيروا في الأرض قريبا منكم، فانظروا ما حلّ بالمكذّبين من عاد وثمود وقوم لوط، وكيف كانت عاقبة أمرهم لعلكم تعتبرون بما حل بهم.

فالقرآن الكريم ينفي بهذا النص، وهم الإجماع لوجّه به المشركون، والذي يستند إليه كثير من المنحرفين. والعقيدة الإسلامية عقيدة واضحة، فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر، ويعاقب المذنبين أحيانا في الدنيا، وعقاب الآخرة لا شك فيه، ويثيب المؤمنين المتقين.

ثم خاطب الله رسوله الكريم مسلماً له عما يراه من جحود قومه وشديد إعراضهم، مع جذبه عليهم وعظيم رغبته في إيمانهم، ومبيناً له أن الأمر بيد الله. فقال:

{إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} .

ان تكن حريصا ايها النبي على هداية المشركين من قومك فلن ينفعهم حرصك، لانهم قد تحكمت في نفوسهم الشبهات والكبر والعناد، وليس لهم يوم القيامة ناصر ينصرهم من عذاب الله.

قراءات:

قرأ أهل الكوفة: «لا يهدي بفتح الياء وكسر الدال. والباقون:» لا يهدي «بضم الياء وفتح الدال.

١٦٠٨ 38

جهد إيمانهم: اشد إيمانهم، أي بالغوا في الإيمان لنبوئتهم: نسكنهم، ونعطيهم.

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} .

لقد أقسم المشركون أشد إيمانهم وأكدوا بأن الله لا يبعث من يموت. وكانت قضية البعث بعد الموت هي المشكلة الكبرى عند المشركين. . . لقد غلقوا عن معجزة الحياة الأولى، مع أن الله الذي أوجد الإنسان من العدم قادر على أن يبعثه بعد الموت. لذلك رد الله عليكم وكذبهم فقال:

{بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} .

بلى إن الله سبعت الخلق بعد الموت، قد وعد بذلك وعدا حقا لا بد منه، ولن يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لجهلهم لا يعلمون

حكمة الله في خلق هذا العالم.

ثم ذكر سبحانه الحكمة في المعاد، وقيام الأجساد يوم القيامة فقال:

{لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ} .

ان من عدل الله في خلقه ان يبعثهم جميعاً بعد موتهم، ليبين لهم حقائق الأمور التي اختلفوا فيها، فيعلم المؤمنون أنهم على حق، ويعلم الكافرون كذبهم في دعواهم ان الله لا يبعث من يموت.

ثم أخبر عن كامل قدرته، وانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فقال:

{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} .

إننا اذا أردنا شيئاً فإنما نقول له كن فيكون، والبعث شيء من هذه الأمور يتم عندما نريد. {مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان: ٢٩] .

قراءات:

قرأ الكسائي وان عامر: «فيكون» بنصب النون. والباقون بالرفع.

ثم جاء العرض للجانب المقابل للمنكرين، فذكر لمحة عن المؤمنين الذين حملهم إيمانهم على الهجرة في سبيل الله، فقال:

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} .

والمؤمنون الذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم وهاجروا الى بلاد غريبة عنهم وتحملوا التعب احتساباً لأجر الله، وإخلاصاً لعقيدتهم من بعد ما وقع عليهم الظلم والعذاب، سنعوضهم عن ذلك مساكن طيبة في الدنيا وسيكون أجرهم يوم القيامة أكبر ونعيمهم في الجنة أعظم.

ثم وصف اولئك المهاجرين بقوله: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} سينالون أعظم الأجر عند الله في الدنيا والآخرة.

١٦٠٩ 43

اهل الذكر: اهل العلم. البينات: المعجزات. الزبر: الكتب، مفردا زبور. زبرت الكتاب: كتبت. المكر: السعي بالفساد خفية. في قلبهم: في سيرهم وسعيهم وتصرفهم. على تخوف: على تنقص. يتفياً ضلاله: يعود ويرجع. داخرون: صاغرون. من فوقهم: بالقهر والغلبة وهي كناية عن قدرة الله.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} .

انكر كفار قريش بعثة الرسول الكريم، وقالوا: الله أعظم من ان يكون رسوله بشراً. فردّ الله تعالى عليهم مبيناً أنه لم يرسل الرسل إلا رجالاً من بني آدم، مؤيدين بالوحي، وانه لم يرسل ملائكةً وخلقاً آخر. فاسألوا اهل العلم بالكتب السابقة، ان كنتم لا تعلمون ذلك. {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَآنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} .

وقد آيدنا هؤلاء الرسل بالمعجزات والدلائل المبينة لصدقهم، وانزلنا إليك أيها النبي القرآن لتبين للناس ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام، وتدعوهم الى التدبر فيه، ولعلهم يتفكرون في آيات الله، ويتدبرون القرآن ويدركون أسرارها واهدافها، ويعلمون انه أنزل لخيرهم ومصلحتهم.

ثم حذرهم وخوفهم مغبة ما هم فيه من العصيان والكفر فقال:

{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ} .

فَأَمِّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ وَحَاوَلُوا صَدَّ أَصْحَابَهُ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَنْ يَصِيبَهُمْ بِعَقُوبَةٍ مِنْ عِنْدِهِ.

١- إِمَانٌ بَأَنَّ يَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ وَيُبِيدُهُمْ مِنْ صَفْحَةِ الْوُجُودِ كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ وَغَيْرِهِ.

٢- أَوْ بَأَنَّ يَأْتِيهِمْ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ جُفَاءً مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ لُوطَ.

٣- أَوْ يَأْخُذَهُمْ بِعَقُوبَةٍ وَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ أَوْ أَسْفَارِهِمْ يَكْدَحُونَ فِي الْأَرْضِ.

٤- أَوْ يَهْلِكُهُمْ بِنَقْصِ أَمْوَالِهِمْ أَوْ بِنَقْصِ أَنْفُسِهِمْ رَوِيداً وَهُمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ فِي عَذَابٍ مِنْ الْخَوْفِ مِنْهُ وَالتَّرْقِيبِ لَوَقْعِهِ، فَلَا تَتَدَاوَى أَيْهَا الْمُشْرِكُونَ وَتَعْتَرُوا بِتَأْخِيرِ عِقَابِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ شَامِلَةٌ.

{أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّئُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} .

أَغْفَلَ هَؤُلَاءِ النَّاسَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ حَوْلَهُمْ، وَلَمْ يَرَوْا مَا خَلَقَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْقَائِمَةِ تَنْتَقِلُ ظِلَالُهَا، وَتَمْتَدُّ تَرَاةٌ يَمِينًا وَتَارَةً شِمَالًا، وَكُلُّ ذَلِكَ خَاضِعٌ لِأَمْرِ اللَّهِ مُنَاقِدٌ لِأَحْكَامِ تَدْبِيرِهِ وَالْكَلِّ سَاجِدٌ لِلَّهِ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وخلق: «الم تروا» بالتاء والباقون بالياء.

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ} .

وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَخْضَعُ وَيَتَقَادُ جَمِيعُ مَا خَلَقَهُ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَمْشِي عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ مَخْلُوقَاتٍ، وَفِي مَقَدِّمِهِمُ الْمَلَائِكَةُ يَخْضَعُونَ لَهُ وَلَا يُسْتَكْبَرُونَ عَنْ طَاعَتِهِ.

{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} وهنا موضعُ سجدة.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَرَّ ذِكْرُهُمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمُ الْقَاهِرَةَ، وَيَفْعَلُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ.

١٦٠١٠ 51

الواصل: الدائم. تجأرون: يتضرعون، جأر: رفع صوته بالدعاء والاستغاثة.

{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِتِمَّا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي آيَ فَا رَهْبُونَ} .

يَحْذَرُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الشَّرِكِ بِهِ، وَيَقْرُرُ وَحْدَهُ الْإِلَهِ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَا تَعْبُدُوا مِنْهُ إِلَّا آخِرَ، وَخَافُونِي وَلَا تَخَافُوا غَيْرِي.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لِهَذَا الْكَوْنِ، وَإِنَّ الدِّينَ لَهُ وَالطَّاعَةَ فَقَالَ:

{وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تُنْتَقُونَ} .

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَالِكُ الْوَاحِدُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَهُ الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ دَائِماً، فَتَحَرَّرُوا أَيْهَا النَّاسُ مِنْ عِبَادَةِ سِوَاهُ، وَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ. . أَفَبَعْدَ أَنْ عَلِمْتُمْ هَذَا تَرْهَبُونَ غَيْرَ اللَّهِ، وَتَخَافُونَ سِوَاهُ؟

{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} .

إِنَّ كُلَّ مَا لَدَيْكُمْ مِنْ نِعَمٍ فِي أَبْدَانِكُمْ مِنْ صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ وَسَلَامَةٍ، وَفِي أَمْوَالِكُمْ - لَهَا هِبَةُ اللَّهِ، فَبِيدُهُ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، إِنَّهُ هُوَ الْمُلْجَأُ الْوَاحِدُ لَكُمْ، فَإِذَا لَحِقَكُمْ مَا يَضُرُّكُمْ فَإِلَيْهِ تَتَضَرَّعُونَ بِالدُّعَاءِ أَنْ يَكْشِفَهُ عَنْكُمْ.

{ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} .

ثُمَّ اسْتَجَابَ لِدُعَائِكُمْ وَرَفَعَ عَنْكُمْ مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الضُّرِّ، وَفَرَّجَ الْبَلَاءَ عَنْكُمْ، إِذَا جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ يَنْسَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ، وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ.

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} .

ذلك يحدث من بعضهم إذ ينكرون فضل خالقهم، ويكفرون بنعمة التي لا تحصى، ولذلك هددهم وتوعدهم بقوله: {فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} تمتعوا في هذه الحياة الدنيا، فسوف تعلمون عاقبة كفرهم.

١٦.١١ 56

تفترون: تكذبون. كظيم: ممتلئ غيظاً وغماً. يتوارى: يستخفي. على هون: على ذل. يدسه في التراب: يخفيه في التراب، وهو وأد البنات. مثل السوء: الصفة السيئة. المثل الأعلى: الصفة العليا. بعد ان بين الله اقوال المشركين، اردف هنا بذكر قبائح افعالهم فقال: {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ} .

ويجعل المشركون لاهتهم التي لا علم لها، لأنها جاد، شيئاً من أموالهم يتقربون به إليها. وقد مر في سورة الانعام قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً} [الانعام: ١٣٦] .

{تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} . هذا قسم من الله عظيم فيه تهديد ووعيد على كذبهم واقترائهم، وأن الله سوف يسألهم عن هذا الكذب. {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} .

وهذا ايضاً من افترائهم، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن بنات الله، فنسبوا اليه الولد، وهو لم يلد ولم يولد. سبحانه تنزه عن إفكهم. {وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} يختارون لأنفسهم الذكور، ويأنفون من البنات. وهذا جهل كبير، والحياة تنشأ من الذكر والأنثى، فالأنثى أصلية في نظام الحياة أصلية الذكر، بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر، فكيف يأنفون من الأنثى ونظام الحياة يقوم على وجود الزوجين!!

ثم أشار الى شدة كراهيتهم للأنثى بقوله:

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} .

وإذا أخبر أحدهم بانه ولدت له أنثى، اسود وجهه من الغم والغیظ، وحاول الاختفاء عن أعين الناس، وبات بين أمرين: إما أن يبقيا على قيد الحياة مع ما يلحقه من الذل في زعمه، وإما ان يدفنها في التراب. . بشس ما قالوا، وبشس حكمهم الذي ينسبون فيه الى الله ما يكرهون ان ينسب اليهم.

{لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .

للاذين لا يصدقون بالمعاد والثواب والعقاب صفة السوء، وله تعالى الصفة العليا، تنزهه عن الولد، وله العزة والحكمة، وجميع صفات الجلال والكمال.

١٦.١٢ 61

اجل مسمى: يوم القيامة. ما يكرهون: البنات. تصف السنتهم الكذب: يكذبون. لا جرم: حقا. مفرطون: بفتح الراء، معجل بهم. ومفرطون بكسر الراء: متجاوزون الحد. ومفرطون بكسر الراء المشددة: مقصرون وقرئ بالثلاثة كما سيأتي.

لما حكي الله عن المشركين عيم كفرهم وقبيح أفعالهم، بين هنا علمه بخلقهم مع ظلمهم وأنه يمهلهم بالعقوبة وإظهاراً لفضله ورحمته. {وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} .

لو أن الله يؤاخذ الكفار والعصاة بذنوبهم، ويعاجلهم بقعوباتهم واستحقاق جنائياتهم، لما ترك على وجه الأرض أحداً ممن يستحق ذلك من الظالمين، وإنما يؤخرهم تفضلاً منه ليراجعوا التوبة، ولكن يؤخرهم الى أجلٍ سماه وعينه لهم.

{فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} .

فاذا جاء الوقت الذي عينه، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون. وقد تقدم في سورة الأعراف {فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [٣٣] .

{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} .

وينسب هؤلاء المكون الى الله ما يكرهون لأنفسهم من البنات، وتنطق ألسنتهم بالكذب إذ يزعمون أنهم سيدخلون الجنة. وروى أنهم قالوا: إن كان محمد صادقاً في البعث فإن لنا الجنة، فردّ عليهم مقالهم بقوله: {لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ} حقا ولا شك أن لهم جهنم وأنهم إليها معجلون.

قراءات:

قرأ نافع: «مفراطون» بكسر الراء، وقرأ أبو جعفر «مفراطون» بكسر الراء المشددة. والباقون «مفراطون» بفتح الراء كما هو في المصحف. ثم بين الله ان هذا الصنيع الذي صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم السابقة في حق أنبيائهم، فقال مسلياً رسوله الكريم على ما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم وعنادهم.

{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .

يقسم الله تعالى بأنه أرسل رسلاً من قبلك أيها الرسول الى أمم سابقة فحسن لهم الشيطان الكفر فاتبعوه وكذبوا رسلهم، فهو متولي أمورهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار الأليم.

{وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

القرآن هو الفاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه، وهو الهداي الى سبيل الرشاد لجميع الخلق، وما أنزلنا عليك هذا القرآن الا لتبين به للناس أجمعين الحق فيما اختلفوا فيه، ولتهديهم الى الصراط المستقيم.

١٦.١٣ 65

الأنعام: يطلق على الجمع ويذكر ولذلك قال هنا مما في بطونه وفي سورة المؤمنين ونسقيكم مما في بطونها بالتأنيث «الآية ٢١» من بين فرث ودم، الفرث: ما يبقى في كرش الحيوان من بقايا الاكل. سائغا: سهل المرور في الحلق تتخذون منه سكرا: نحرا. ورزقا حسنا: كل ما يستخلص من الثمرات من انواع المربي وغيره. يعرشون: بضم الراء وكسرها. يرفعون العرائش من الكرم وغيرها. ذللا: مفردها ذلول: الطائع المنقاد.

{وَاللَّهُ أَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} .

هذه الآية من الحجج الدالة على توحيد الله، وقد ذكرت في سورة البقرة ٢٢ و ١٦٤ والانعام ٩٩ وسورة الرعد ١٩، وسورة ابراهيم ٣٢ وفي سورة النحل هذه ١٠.

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّقِصُكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ} .

ان لكم أيها الناس في الأنعام من الإبل والبقر والغنم لموعظة دالة على قدرة الخالق، إذ يخرج اللبن السائغ اللذيذ الطعم من بين الفرث والدم، فالعشب الذي يأكله الحيوان يتولد من الماء والتراب، فهذا الطين يصير نباتا وعشبا، ثم يأكله الحيوان فيتحول الى لبن سائغ للشاربين. . . وفي هذا كله أكبر وأعظم دليل على قدرة الخالق سبحانه.

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب: «نسقيكم» بفتح النون والباقون: «نسقيكم» بضمها والمعنى واحد، سقاه وأسقاه.
{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

ومن هذه النعم التي أنعم الله بها عليكم ما تتخذون من العنب والتمر، فتصنعون منه خمرًا، (وكان هذا في مكة وقبل تحريم الخمر) ، ورزقًا حسنًا من الثمار وما تعلمون منه من شراب ومرّ وغير ذلك. وفي هذه آية دالة على قدرة الله ورحمته لكم لعلكم تسمعون فتعقلون.
{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ إِلَى اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} .

وألهم الله النحل أسباب حياتها، ووسائل معيشتها، فهي تتخذ بيوتًا في كهوف الجبال، وفي الشجر، وفي عرائش الكرم وغيرها.
ومن يرى خلية النحل وما فيها من نظام وتديير وهندسة بيوت يجد العجب في هذه القدرة الفائقة والترتيب العجيب. وقد كُتب في ذلك مؤلفات عديدة، فالخلية مملكة قائمة بذاتها، لها ملكة واحدة، وعدد كبير من الشغّالين منهم من يطعم الملكة التي تبيض لهم، ومنهم من يخدم الصغار ويربهم، ومنهم من يحرس الخلية، ومنهم من يصنع العسل والشمع الذي تُبنى منه البيوت السداسية الشكل العجيبة في الدقة والصنع.

قراءات:

قرأ أبو بكر وابن عامر: «يعرشون» بضم الراء.

والباقون: «يعرشون» بكسر الراء.

{ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} .

ثم هداها الله للأكل من جميع أنواع الثمرات والنبات، وأن تسلك الطرق التي هيأها لها الله. وبعد ان تتغذى من شتى أنواع الثمار تهضم ذلك كله ثم يخرج من بطونها شراب مختلف الألوان، جعل الله فيه شفاءً عظيمًا للناس، وغذاء لا مثيل له. ومنيرة العسل انه يُستعمل غذاء ودواء. وقد ألفت فيه مؤلفات عديدة، وكان العسل هو الوسيلة للتخلية من أقدم العصور الى ان صار السكر سلعة تجارية هامة. وكما قتل: ان عسل النحل مغذٍّ ويمتصه الجسم بسهولة، وينتفع به، ويحتوي على ٧٠ - ٨٠

١٦٠١٤ 70

أرذل العمر: أخسه وهو الهرم مع فقدان الذاكرة، لان كثيرا من المعمرين يبلغون مرحلة كبيرة في السن ويبقون بصحة وذاكرة جيدة. ما ملكت ايمانكم: العبيد. حفدة: جمع حفيد، ان الابن وابن البنت. فلا تضربوا لله الامثال: لا تجعلوا له اشباها ونظائر. بعد ان ذكر الله عجائب أحوال ما ذكر من النبات والماء والأنعام والنحل - أشار هنا الى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمر الإنسان الى آخره وتطوراتها فيما بين ذلك.

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} .

ان الله خلقكم أيها الناس ولم يتكونوا شيئا، ثم قدر آجالاً مختلفة، منكم من يتوفاه مبكراً ومنكم من يهرم ويصير إلى أردل العمر فتتقص قواه، ويكون في عقله وقوته كالطفل، فتكون عاقبته أن يفقد ذاكرته ولا يعود يعلم شيئا، حتى انه لا يستطيع التمييز بين أهله وأولاده وأقربائه، (وقد رأينا أناساً بهذه الحالة) ان الله عليم بأسرار خلقه، قادر على كل شيء.

ثم بعد ان ذكر الله تفاوت الناس في الأعمال ذكر تفاوتهم في الأرزاق فقال:

{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} .

والله جعلكم متفاوتين في أرزاقكم، فمنكم الغني ومنكم الفقير، فما لاذين فضّلوا بالرزق وأعطاهم الله المال الكثير بمعطين قسماً من أموالهم ليعيدهم المملوكين لهم حتى يصيروا مشاركين لهم في الرزق ومساوين لهم، مع أنهم إخوانهم وبشرٌ مثلهم وهم اعوانهم. فما بالكم ايها المشركون بالله، وهو الذي خلقكم ورزقكم وأنعم عليكم! كيف تجحدون بنعمة الله وتشركون به غيره.

قراءات: قرأ ابو بكر: «تجحدون» بالتاء والباقون بالياء.

ثم ذكر ضرباً آخر من ضروب نعمه على عباده تنبيهاً الى جليل إنعامه بها إذ هي زينة الحياة فقال:

{والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات} .

والله أنعم عليكم نعماً لا تحصى، منها ان خلق لكم أزواجاً لتسكنوا الهيا، وأكبر نعمة على الانسان هي الزوجة الصالحة، فهي جنة البيت. وجعل لكم من أزواجكم بنين وأبناء البنين والبنات، كما رزقكم من الأرزاق الطيبة التي تتعمون بها، وهذه من زينة الحياة الدنيا. {أفبالباطل يؤمنون وينعمة الله هم يكفرون؟} .

ابعد كل هذه النعم، وكل هذه الدلائل البينة يشركون بالله، ويكفرون بهذه النعم!!

{ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون} .

ومع كل هذه النعم التي أنعم الله بها عليهم فإنهم يعبدون الأصنام التي لا تملك شيئاً، ولا تستطيع أن ترزقهم أي رزق، سواء كان كان هذا الرزق آتياً من السماء كالماء أم من الارض كالنبات والشجر.

{فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون} .

لا تجعلوا لله مثلاً ولا تشبهوه بخلقه، ولا تعبدوا غيره، فانه لا شبيه له ولا مثيل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١٠].

١٦٠١٥ 75

الكم: اخرس. كل: عاجز، كأنه حمل ثقي على غيره فهو لا يستطيع ان يعمل شيئاً. الساعة: القيامة.

بعد ان بين الله دلائل التوحيد البيان الشافي، وبين بعض نعمه على عباده، ضرب هنا مثلين يؤكد بهما إبطال عبادة الأصنام والشرك. المثل الاول: عبد مملوك لا يقدر على شيء ورجل حر كريم غني كثير الإنفاق سراً وجهراً، {هَلْ يَسْتَوُونَ} هل يجوز ان يكونا سواء في الكفاية والمقدرة!! وعلى هذا فكيف يجوز ان يسوى بين الله القادر الرازق، وبين الأصنام التي لا تملك شيئاً ولا تقدر على النفع والضرر!! {الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون} إن الثناء كله والحمد لله، وان أكثر هؤلاء لا يعملون فيضيفون نعمه الى غيره، ويعبدون من دونه. والتعبير بقوله: «هل يستوون» بالجمع، ولم يقل: هل يستويان، لانه اراد النوع يعني هل يستوي العبيد والاحرار؟

والمثل الثاني: مثل رجلين احدهما أبكم عاجز لا يقدر على عمل شيء، واينما توجه لا يأتي بخير، والثاني فصيح قوي السمع، يأمر بالحق والعدل، وهو مستقيم ومن مخلص، هل يستويان؟ ولذلك لا يجوز مساواة الجهاد برب العباد.

{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

والله علم ما غاب عن أبصاركم في هذا الكون، وما أمر مجيء يوم القيامة وبعث الناس عند الله الا كرد الطرف، بل أسرع من ذلك، ان الله قادر على كل شيء، ولا أحد يملك معه شيئاً.

في جو السماء: الجو: الفضاء ما بين السماء والارض، سكا: مسكا. يوم ظعنكم: وقت ترحالكم وتنقلكم وسفركم. الاثاث: فرش البيت. متاعا: ما يتمتع وينتفع به في المتجر والمعاش. ظلالة: ما يستظل به. اكلانا: واحدا كن وهو كل ما يقي الحر كالبيت والكهف وغيره. سرايل: واحدا سرايل وهو القميص او الثوب. وساريل الحرب الدروع. البأس: الشدة عند الحرب.

{والله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} .

وهذه المنز التي يذكرها ربنا يعرّض فيها مثلاً من حياة البشر تعجز عنه قواهم، ويعجز عنه تصوّرهم، وهو يقع كل يوم. إن الله تعالى يُخرجكم ايها الناس من بطون أمهاتكم لا تدري كون شيئاً مما يحيط بكم، ثم أعطاكم السمع والبصر والأفئدة. وقد ثبت للباحثين اليوم أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جداً في حياة الطفل في الأسابيع القليلة الأولى، اما البصر فيبدأ في الشهر الثالث، تركيز الإبصار إلا بعد الشهر السادس، وأما الفؤاد وهو الإدراك والتمييز- فلا يتم إلا بعد ذلك. وهكذا فالترتيب الذي جاء به القرآن هو ترتيب ممارسة الحواس.

وهذه الاجهزة: السمع والبصر والافئدة، في الإنسان من أعجب العجب في تركيبها وعملها وأداء وظيفتها، ومن أكبر الأدلة على وجو الخالق القدير، وهي وسائل للعمل والإدراك، لتؤمنوا بالله، وتشكروه على ما فضل عليكم.

ثم بعد ذلك نبه عباده الى دليل آخر من آثار القدرة الالهية يراها الناس كل يوم فلا يتدبرونها، فقال:

{أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

الم ينظر المشركون الى الطير سابحات في الهواء، بما زودها الله به من أجنحة أوسع من جسمها تبسطها وتقبضها، وسخر الهواء لها، فما يمسكهن في الجو الا الله بالنظام الذي خلقها عليه، ان في النظر إليها والاعتبار بحجة الله في خلقها، لدلالة عظيمة ينتفع بها المؤمنون.

ولقد اخترع الانسان الطائرة وغيرها مما تطير في الفضاء، وقد انتفع بالطير وآلاته، وانه لعمل جبار ولكنه لا يزال غير أمين، ولا تزال تحف بالراكبين الاخطار، كما جعلوا القسم الاكبر منها للحرب والتدمير.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحزمة وخلف ويعقوب: «الم تروا» بالتاء والباقون بالياء.

{والله جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} .

ومن نعمه تعالى عليكم أن جعلكم قادرين على إنشاء بيوت لكم تتخذونها مساكن لكم فيها وتطمثون فيها بأمن وسلام، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تسكنون فيها وتقلونها بخفة وسرعة في أسفاركم وتنقلكم، كما تتخذون من صوفها ووبرها وشعرها فرشاً ولباساً تمتنعون بها في هذه الدنيا الى حين آجالكم.

{والله جَعَلَ لَكُم مَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} .

ومن نعمه تعالى عليكم ان جعل لكم من الأشجار وغيرها ظلالاً تقيكم شر الحر والبرد، وجعل لكم من الجبال مواضع تسكنون فيها، وجعل لكم ثياباً تقيكم الحر والبرد، ودروعاً من الحديد تصونكم من قسوة الحرب، كما جعل لكم هذه الأشياء فهو الآن يتم نعمته عليكم بالدين القيم، لعلكم تسلمون، وتخلصون عبادتكم له دون غيره.

قراءات:

قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو: «يوم ظعنكم» بفتح العين. والباقون بتسكينها.

وبعد ان عدد ما أنعم به عليهم من النعم ذكر ما يتبع معهم إذا أصرّوا على عنادهم فقال:

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} .

فإن أعرضوا وتولوا عنك أيها النبي، فلا تبعه عليك في إعراضهم، فما عليك إلا التبليغ الواضح، وحسبك ذلك وعلينا نحن حسابهم. {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} .

انهم يعرفون أن هذه النعم كلها من الله، ولكنهم ينكرونها بكفرهم وعنادهم، وإن أكثرهم لجاحدون نعم الله كافرون بها.

١٦٠١٧ 84

الامة: الجيل من الناس. شهيدا: شاهدا. لا يستعقبون: لا يقبل عذرهم. ولا هم ينظرون: لا يؤخرون. فאלقوا اليهم القول: يعين ان شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم كذبوهم. السلم: الاستسلام تبينا: بيانا.

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} .

ويوم القيامة نحشر الناس ونأتي من كل أمة بشهيد يشهد لها او عليها بما قابلت رسولها، ويومئذ لا يسمع من الكافرين أي قول، لا يقبل لهم اعتذار. وذلك كما قال تعالى: {هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المسرات: ٣٥-٣٦] .

{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} .

ويوم القيامة اذا رأى الظالمون عذاب النار، وطلبوا ان يخفف عنهم لا يجاب طلبهم، ولا يؤخرون عن دخول جهنم.

ثم اخبر الله عن محاولة المشركين إلقاء تبعه أعمالهم على آلهتهم التي عبدوها ورد آلهتهم عليهم فقال:

{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ} .

واذا رأى الذين أشركوا آلهتهم التي عبدوها قالوا: يا ربنا هؤلاء الذين كنا نعبدهم خطئين، نخفف عن العذاب بإلقاء بعضه عليهم. فيجيبهم شركاؤهم قائلين:

{فَالْقُوا إِلَهُمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} .

فردوا عليه قولهم وقالوا إنكم لكاذبون في دعواكم أننا شركاء لكم في الإثم، وإنكم لما عبدتمونا، إنما عبدتم أهواءكم. {وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السِّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} .

واستسلموا إلى الله خاضعين، ولم يجدوا من ينصرهم وخاب ظنهم بمعبوداتهم وما كانوا يفترون على الله الكذب.

{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} .

ان الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الإيمان بالله زدناهم عذاباً فوق العذاب الذي استحقوه بالكفر، بسبب ما كانوا يعملون من الفساد وإضلال غيرهم من الناس، فلهم على ذلك عذاب مضاعف.

ثم يخاطب الله رسوله الكريم بهذه الآية المبشرة للمؤمنين.

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ} .

اذكر أيها الرسول يوم القيامة، يوم يبع الله نبي كل أمة شاهداً عليهم، ونبي بك شاهداً على هؤلاء الذين كذبوك.

{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} .

ولقد أنزلنا عليك القرآن يبين للناس كل شيء من الحق وما يحتاجون اليه، وفيه الهداية والرحمة والبشرى للذين أسلموا وآمنوا بك وصدقوك.

العدل: الانصاف، والاستقامة واعطاء كل ذي حق حقه. العهد: كل ما يتلزمه الانسان باختياره. ولا تنقضوا الايمان: لا تخنثوا بها. كفيلاً: ضامناً. انكاثاً: واحداً نكث، بمعنى منكوث، منقوض. دخلاً بينكم: مكرًا وخديعة: اربى: أكثر. {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} .

ان الله يأمر عباده بالعدل في اقوالهم وأفعالهم، والإحسان الى الناس والتفضل عليهم ومساعدتهم، ويأمر بصلة الأقارب والأرحام وإعطائهم ما يحتاجون اليه لدعم روابط المحبة بين الأسر، وينهى عن إتيان الفواحش والغلو في تحصيل الشهوات، كما ينهى عن الظلم والاعتداء على الغير. . والله سبحانه يذكركم بهذا ايها الناس ويوجهكم الى الخير لعلكم تذكرون فضله.

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي انه قال: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال لي: صف العدل، فقلت بـح، سألت عن أمرٍ جسيم، كمن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس قدر ذنوبهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العنادين.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجمع آية في كتاب الله للخير والبعد عن الشر قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ. . .} .

رواه البخاري وابن جرير وابن المنذر.

{وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} .

أوفوا أيها المؤمنون بالعهود التي تعطونها على انفسكم، ولا تنقضوا الأيمان بالحنث فيها بعد عقدها، وقد جعلتم الله كفيلاً عليكم بالأيمان التي حلفتموها، ان الله رقيب ومطلع عليكم، فكونوا عند عهودكم وأيمانكم.

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ} .

لقد شدد الاسلام على الوفاء بالعهود، ولم يتسامح فيها ابداً، لأنها قاعدة الثقة التي يفرط بدونها عقد الجماعة، ولذلك أكد هنا بضرب هذا المثل، بالمرأة الحمقاء التي تفتل غرلها ثم تنقضه من بعد ان يكون قد اكتمل، منتخذين أيمانكم وسيلةً للمكر والخداع، وتتوون الغدر بمن عاقدتم، لأنكم أكثر وأقوى منهم.

{إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيْبَيْنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} .

انما يخبركم الله، فإن آثرتم الوفاء كان لكم الغنم في الدنيا والآخرة، وان اتجهتم الى الغدر كان الخسران، وليبين لكم يوم القيامة حقيقة ما كنتم تختلفون عليه في الدنيا، ويجازيكم حسب أعمالكم.

وهاتان الآيتان تدلان على أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم، مع العدالة والوفاء بالعهد وان العلاقات الدولية لا تنظم الا بالوفاء بالعهود، وان الدول الاسلامية إذا عقدت عهداً فإنما تعقده باسم الله فهو يتضمن يمين الله وكفالاته، وفيهما ثلاثة معان لو نفذتها الدول لساد السلم العالم.

اولها: انه لا يصح ان تكون المعاهدات سبيلاً للخديعة وإلا كانت غشاً، والغش غير جائز في الاسلام في العلاقات الانسانية سواء كانت بين الافراد او الجماعات والدول.

ثانيها: ان الوفاء بالهد قوة في ذاته، وان من ينقض عهده يكون كمن نقض ما يناه من اسباب القوة، مثل تلك الحمقاء التي نقضت غرلها بعد ان أحكمتها.

ثالثها: انه لا يصح ان يكون الباعث على نكث العهد الرغبة في القوة او الزيادة في رقعة الأرض او نحو ذلك، كما تفعل اسرائيل، وكانت من ورائها بريطانيا، واليوم امريكا.

هذه المبادئ لم تكن معمولاً بها قبل الاسلام، وقد رأينا دولاً عظمت لم تفِ بالعهد وكذبت في عهودها فبدد الله شملها وعادت من الدول الفقيرة الحفيرة.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

ولو شاء الله لجعل الناس على دين واحد، ولكنه خلقهم متفاوتين بالاستعداد، وجعل نواميس للهدى والضلال، وشاء ان تختلفوا في الأجناس والالوان، ولكل اختياراً أوتي به بحسب استعداده، وكلُّ مسئول عما يعمل، فلا يكون الاختلاف في العقيدة سبباً في نقض العهود. وهذه قمة في صدق التعامل والسماحة الدينية، لم يحققها في واقع الحياة الا الاسلام.

١٦٠١٩ 94

ان تزل قدم بعد ثبوتها ان تقعوا في الحن والخطايا ما عندكم ينفد: ينتهي ولا يبقى. فاذا قرأت القرآن فاذا اردت ان تقرأ القرآن. السلطان: التسلط. يتولونه: يطيعونه.

{وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السَّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} .

يؤكد الله تعالى على التمسك بالعهود والأيمان، والمحافظة عليها، ويحذر من نقضها واتخاذها سبيلاً للمكر والخديعة والتغريب بالناس، رجاء منفعة دنيوية زائلة. وفي هذه الآيات تهديد ووعد لمن ترك الحق الى الباطل، والهدى الى الضلال. ثم أكد هذا التحذير بقوله:

{وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} .

لا تغرنكم الدنيا فتؤثروا منافعكم الخاصة بنقض العهود، فإن متاع الدنيا قليل زائل، مهما كان كثيراً، وان ما عند الله من جزيل الأجر والثواب هو خير لكم من ذلك العرض القليل إن كنتم من ذوي العقول الراجحة.

{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

ان كل ما عندكم زائل لا يبقى، وما عند الله من نعيم الآخرة خالد لا ينقطع، وسوف نكافئ الذين صبروا على مشاق التكليف بما وعدناهم، بثواب احسن بكثير مما كانوا يعملون. . ينعمون به دائماً في جنات عدن. قراءات:

قرأ ابن كثير وعاصم: «ولنجزيَن» بالنون، والباقون «وليجزيَن» بالياء.

ثم رغب في المثابرة على أداء الطاعات والواجبات الدينية فقال:

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

في هذه الآيات الكريمة حُضُّ على العمل الصالح لجميع الناس ذكورا واناثا، وان العمل الصالح مع الايمان جزاؤه طيبة في هذه الدنيا، يحيا فيها مطمئناً في رعاية الله وعند الله في الآخرة له الجزاء الأوفى، والنصيب العظيم من الأجر والثواب. وقد كرر الله قوله: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} للترغيب في العمل الصالح.

{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} .

هنا يرشدنا الله تعالى الى ان الذي يحمي النفس من كل شر هو القرآن الكريم، فاذا اردت ايها المؤمن ان تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وبذلك تفوز بطيب الحياة في الدارين.

{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} .

إذا فعلت أيها المؤمن ما أمرك الله مخلصاً، حماك الله من الشيطان، لانه لا تأثير له على الذين آمنوا بصدق، وعلى ربهم يتوكلون، واليه يقولونهم يتوجهون.

أما الفريق الثاني الذين يجعلون الشيطان وليهم، ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم فهم الذين عناهم بقوله: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} .
يعني أنهم اشركوا بسبب طاعتهم للشيطان ولي أمرهم، وبسبب اغوائه لهم - بالله جلّ جلاله.

١٦٠٢٠ 101

واذا بدلنا آية مكان آية: غيرنا ونسخنا مكانها آية. روح القدس: جبريل. يلحدون اليه: يميلون اليه. الأعكي: من كان غير عربي.
{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} .
واذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى (والله اعلم بالذي هو أصلح لخلقهم فيما يبدل، وهذا دليل على مرونة الشرع الاسلامي، فقد تستدعي الحكمة والمصلحة ان يشرع الله حكماً لعباده لا مد معين، فيفعل، حتى اذا انتهى الامد واقتضت المصلحة التغيير شرع غيره مكانه) قال المشركون انما انت متقول على الله تأمر بشيء ثم تنهى عنه، وان اكثرهم جاهلون لا يعلمون الحقائق.
ثم بين الله لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ، الزاعمين ان ذلك لم يكن من عند الله وان رسول الله قد افتراه فقال: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} وهذا رد واضح من الله تعالى بانه هو الذي انزل هذا القرآن من عنده تثبيتاً للمؤمنين وليكون هادياً للناس الى الصواب ومبشراً بالنعيم المقيم للمسلمين.
{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُرِيتُهُمْ بَشَرٌ لِّلسَّانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} .
وانا لنعلم ان هؤلاء المشركين يقولون افترأ، ان رجلاً من البشر يعلم محمداً هذا الذي يتلوه عليكم. وهذا الذي يزعمون هو عبد رومي كان يقرأ التوراة بلغة اعجمية. فلسان الذي يقولون عنه اعجمي لا يفصح، والقرآن لسان عربي مبين واضح، تحداكم به اكثر من مرة، ولم تستطيعوا ان تأتوا بآية من مثله.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «يلحدون» بفتح الياء والحياء. والباقون «يلحدون» بضم الياء وكسر الحاء، وهما لغتان: لحد، وألحد.
ثم توعدهم الله على ما قالوا بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال:
{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .
ان الذين اصروا على كفرهم ولم يؤمنوا بأن هذه الآيات من عند الله لا يهديهم الله، وفي الآخرة لهم عذاب اليم، ولا يفتي الكذب على الله الا الذين كفروا وحذوا الوهيته واولئك وحدهم هم الكاذبون.

١٦٠٢١ 106

أكره: غصب بالضغط. من شرح بالكفر صدرا: اعتقد الكفر من طيب نفس. لا جرم: حقاً، لاشك.
{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} .
ان الذين يكفرون بعد ان دخلوا الاسلام وآمنوا عليهم غضب الله، ويستثنى من ذلك من أمره على الكفر بالضغط والتعذيب ونطق بالكفر ولكنه مؤمن ايماناً صادقاً، فلا لوم عليه. وقد ان كفار قريش يعدّون الضعفاء من المسلمين الذين ليسوا من قريش مثل عمار بن ياسر وابويه وبلال وغيرهم، ويجبرونهم على النطق بكلمة الكفر، فاذا لم يفعلوا قتلوه، فنزلت الآية تجيز لهم النطق بكلمة الكفر ظاهراً ليتخلصوا من عذاب المشركين، ولا يثريب عليهم.
{وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} .
أما الذين كفروا طائعين مختارين، فغضب الله عليهم ولهم عذاب عظيم في الآخرة.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} .
هؤلاء الذين كفروا طوعا واصرروا على لا شرك إنما آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة، والله لا يوفق من يشربه ويوجد آياته.
{أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} .
إن الذين اتصفوا بما تقدم لهم الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم فأغلقها عنا لحق، فلا يؤمنون ولا يهتدون.
{لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} .
لا شك بأنهم هم الخاسرون لكل خير في الدنيا والآخرة، ولا خسران أعظم من غضب الله.
{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} .
ثم اعلم أيها النبي ان ربك ناصر الذين هاجروا من مكة فراراً بدينهم، وبأنفسهم من عذاب المشركين، ثم جاهدوا وصبروا على مشاق التكليف، ان ربك من بعد ما تحملوا ذلك الغفور لما حصل منهم، رحيم بهم فلا يؤاخذهم على ما أكرهوا عليه. . . الآية كما يظهر من لفظها تعم جميع الذين اضطهدوا وعذبوا من ضعفاء المسلمين.
{يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ} .
ويوم القيامة يأتي كل انسان لا يهمله الا نفسه والدافع عنها، وينسى كل شيء من مال ووالد وولد، والله تعالى يومئذ يوفى كل نفس جزاء ما كسبت من اعمال، ولا يظلم ربك احداً.

١٦٠٢٢ 112

رغدا: كثيرا واسعا. بأنعم الله: بنعم الله.
في هاتين الآيتين مثل يضربه الله لأهل مكة ولكل من يأتي بعدهم ممن يحدون النعم وكفرون بها وهم آمنون مطمئنون ولا يعتبرون، فبين الله صفة لقريه كان أهلها آمنين من العدو، يأتيها الرزق الكثير من كل مكان، فكفروا بنعم الله ولم يشركوه، فعاقبهم الله بالمصائب التي أحاطت بهم، وذاقوا مرارة الجوع والخوف عبد الغنى والأمن.
وقد جاءهم رسول منهم، فكذبوه عناداً وحسداً، فأخذهم العذاب واستأصل شأقتهم، بسبب ظلمهم وكفرهم.
فهذا المثل ينطبق على اهل مكة حيث كانوا آمنين مطمئنين، فيها بيت الله الحرام وجميع العرب، يعطونه ومم دخله كان آمناً لا يجرؤ احد على إيذائه، وكان الناس يصلهم الأذى من حولهم، واهل مكة في حراسة البيت وحمايته آمنون مطمئنون كذلك كان رزقهم يأتيهم من كل مكان مع الحجيج والقوافل منذ دعوة ابراهيم الخليل.
وجاءهم رسول منهم يعرفونه صادقاً أميناً بدعوتهم الى ما فيه كل الخير لهم وللناس أجمعين فكذبوه، فأذهب الله هيبتهم، ونصر رسوله عليهم، وعادت مكة الى حظيرة الاسلام.

١٦٠٢٣ 114

{فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} .
بعد ان بين الله حال الجاحدين بنعمة الله وكيف عاقبهم، يقول للمؤمنين: اذا كان المشركون يكفرون بنعم الله فيبدلها بؤساً وعذاباً، فكلوا ما رزقكم الله من الحلال، واشكروه على ما أنعم عليكم ان كنتم تعبدونه بإخلاص. وبعد ان امرهم بالاكل من الحلال الطيب بين ما حرم عليهم فقال: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ} تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة وفي الآية ٤ من سورة المائدة بأوسع من ذلك.
 {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} .
 ولا تحللوا ان تحروما كذباً وزورا دون استناد الى دليل، لتفتروا الكذب على الله. ثم اوعد المفترين وهددهم اشد التهديد فقال:
 {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} .
 ان الذين يختلقون الكذب على الله من عند انفسهم لا يفوزون بخير ولا فلاح.
 ثم بين ان ما يحصل لهم من المنافع بالاقتراء على الله ليس شيئا مذكورا اذا قيس بالضرر الذي يصحل منه فقال:
 {مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .
 ان ما يحصل عليه من الفوائد بسبب جرأتهم وكذبهم شيء قليل من المنافع يتمتعون به، ولهم في الآخرة عذاب شديد.
 {وعلى الذين هادوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} .
 في هذه الآية اشارة الى ما تقدم في سورة النساء: {فَظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا} . . . { [النساء: ١٦٠] وما ظلمناهم بتحريم ذلك عليهم ولكن ظلموا انفسهم بمعصيتهم لربهم وتجوزهم حدوده.
 ثم بين الله تعالى ان الاقتراء على الله وانتهاك حرمة لا يمنع من التوبة التي يتقبلها الله منهم، ويغفر لهم رحمة منه وتفضلا فقال:
 {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السَّوَاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ} .
 {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الانعام: ٥٤] ، فن تاب واصلح فان يغفر له، وباب التوبة عنده مفتوح دائما للخطائين.

١٦٠٢٤ 120

أمة: اماما، والامة: الرجل الجامع لخصال الخير. فانتا: مطيعا. حنيفا: مائلا عن الباطل، مستقيما. اجتبا: اختاره واصفاه.
 {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} الى قوله: {لَمِنَ الصَّالِحِينَ} .
 بعد ان بين ما حرم على اليهود خاصة، وكان مشركو قريش يدعون انهم على ملة ابراهيم فيما يحرموه على انفسهم ويجعلونه لآلهتهم، يبين الله تعالى هنا حقيقة دين ابراهيم ثم بعد ذلك يأمر الرسول الكريم باتباعه.
 ان ابراهيم كان إماماً جامعاً لكل الفضائل، مطيعاً لله متبعاً للحق، ولم يكن من المشركين، وكان موحداً ليس يهودياً ولا نصرانياً، شاكراً لنعمة ربه، اختاره للنبوّة، وهذاه الى الحق، وحبّه الى جميع الناس، فجميع أهل الاديان يعرفون به وهو في الآخرة في زمرة الصالحين.
 وبعد ان وصل ابراهيم بهذه الصفات الشريفة التي بلغت الغاية في علوم المرتبة - أمر نبيه محمداً ﷺ باتباعه فقال:
 {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .
 ثم اوحينا اليك ايها النبي باتباع ملة ابراهيم الخفيفة السمحة الخصاله من الشرك والزيغ والضلال، وذلك كرم الله تعالى قوله: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ثم نعى الله على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال:
 {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} .
 فاما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه، وليس من ديانة ابراهيم، وليس كذلك من ديانة محمد السائر على نهج ابراهيم، وان ربك ليفصل بين الفريقين في الخصومة والاختلاف ويجازي كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب.
 وايراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه انذار للمشركين وتهديد لهم بما في مخالفة الانبياء من عظيم الوبال، كما ذكر مثل القرية فيما سلف.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة المباركة بأربع آيات فيها مثال الكمال، وجماع الاخلاق الفاضلة والتسامح والصبر، والحث على التحمل، ووعد بأننا اذا تحلينا بهذه الاخلاق فانه سيكون معنا وينصرنا ويوفقنا.

ادعُ يا محمد الى دين ربك بالحكمة، والقول اللطيف بالموعظة الحسنة، وجادل من يخالفك بالتي هي احسن، وان اردتم عقاب من يعتدي عليكم ايها المسلمون فخذوا حقكم بان تعاقبوا بمثل ما فعل بكم، وتأكدوا انكم ان صبرتم وتسامحتم ولم تقتصوا لانفسكم فانه خير لكم في الدنيا والآخرة، لما في ذلك من ضبط النفس واستجلاب القلوب. عاقبوا لأجل الحق، ولا تعاقبوا لأجل انفسكم.

ثم يلتفت الخطاب الى رسول الله {واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون} .

فلا يأخذك الحزن لان الناس كلهم لا يهتدون، فانما عليك واجب اداء الرسالة، اما الهدى والضلال فهما بيد الله، ولا يضيق صدرك من مكربهم وتديبرهم، فالله كافيك اذاهم، وناصرك عليهم. وقد وفي بوعده.

قراءات:

قرأ ابن كثير واسماعيل: «في ضيق» بكسر الضاد. والباقون: «في ضيق» بفتح الضاد.

ثم تأتي الخاتمة الحسنة في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} .

ان الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها، والذين يحسنون في كل شيء، فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

نسأل الله تعالى ان يجعلنا منهم، وان يوفق هذه الامة الى الاحسان والتقوى والاتحاد، والحمد لله رب العالمين.

١٧ الإسراء

١٧٠١ 1

سبحانه الله: تنزيها له عن كل ما لا يليق بجلاله. أسرى: سار ليلا. المسجد الحرام: مسجد مكة. المسجد الاقصى: الحرم في بيت المقدس، وهو اقصى، أي بعيد بالنظر الى الحجاز.

تنزيها لله الذي اسرى بعبد محمد في جزء من الليل، ومن المسجد الحرام بمكة الى المسجد الاقصى ببيت المقدس، ذلك المسج الذي جعلنا البركة فيه وحوله لسكانه في معاشهم وقواهم، لنري عبدنا محمدا من أدلتنا ما فيه البرهان الكافي والدليل الساطع على وحدانيتنا وعظم قدرنا. ان الله الذي اسرى بعبد هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من اهل مكة، البصير بما يفعلون.

حادث الاسراء:

كان حادث الاسراء في ليلة ٢٧ من رجب قبل الهجرة بسنة واحدة، وقد حصل الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بالجسد والروح فعلا، ولوم كان الاسراء بالروح فقط لما كان في ذلك شيء من العجب، ولما قامت ضجة قريش، وبادروا الى تكذيبه.

فالرواية تقول ان الرسول الكريم كان نائما في بيت انبه عمه ام هاني، فأُسري به ورجع من ليله وقص القصة على ام هاني، ثم قام ليخرج الى المسجد فتشبث ام هاني بثوبه، فقال لها: مالك؟ قالت: اخشى ان يكذبك قومك ان أخرتهم: قال: وان كذّبوني. فخرج فجلس اليه ابو جهل، فاخبره رسول الله بحديث الاسراء، فقال ابو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلم. فحذّاهم. فاستنكر القوم ذلك، فن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا. وارتد ناس من المسلمين. وسعى رجال الى ابي بكر رضي الله عنه قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أشهد لئن قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدّقه في ان يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع الى مكة قبل ان يصبح؟ قال: نعم، انا أصدقه بأبعد من ذلك، اصدقه بخير السماء. فسُمّي الصديق. وكان منهم من سافر الى بيت المقدس، فطلبوا اليه وصف بيت المقدس فوصفه لهم وصفا دقيقا، فقولوا أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها واحوالها، وقال: تقدّم يوم كذا، فكان كما قال. وفي الليلة ذاتها كان العروج الى السماء من بيت المقدس.

بيت المقدس بناه العرب الكنعانيون، واليبوسيون منهم، على جبل صهيون نحو سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد. وكلمة «صهيون» كنعانية أخذها اليهود وجعلوها شعاراً لهم. والرحلة من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى رحلة تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام الى محمد خاتم النبيين ﷺ. كما تربط من الاماكن المقدسة لديانات التوحيد، وتعيد الحق الى أهله. والمقصود من هذه الرحلة العجيبة اعلان وراثة الرسول الاخير لمقسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه الرحلة العجيبة اعلان وراثة الرسول الاخير لمقسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدرات وارتباط رسالته بها جميعاً، فهي رحلة ترمز الى ابعاد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من ذلك.

كما أنها تتضمن معاني اكبر من المعاني القرية التي تتكشف عنها النظرة الأولى. وهي آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري، والاستعدادات الدينية التي تهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في اشخاص المختارين من هذا الجنس الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه.

وفي هذه الآية الكريمة يدلنا الله تعالى الى ان بيت المقدس والشام أجمع هي بلادنا وملك لنا فسارِعوا الى اخذها. ولم تمض عشرون سنة حتى كانت في حوزة المسلمين وبقيت وستبقى الى الأبد في أيديهم مهما كانت الغمة القائمة.

ومهما جمعت اسرائيل من قوة واسلحة ودعمها الامريكان والانكليز وغيرها فانها سوف تزول، ولسنا نشك في ان دائرة السوء ستدور عليهم جميعاً، ويذهب هذا الباطل، وينحى ذلك في الزيف والكذب وتبقى القدس عربية مسلمة، وتبقى الصخرة المشرفة، ومسجد عمر {لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} [الروم: ٤].

١٧٠٢ 2

الكتاب: التوراة ويكلا: كفيلا تكون اليه امورك.

وقد أعطينا موسى التوراة، وجعلنا فيها هدايةً لبني اسرائيل، وقلنا لهم لا تتخذوا غير الله إلهاً تفوضون اليه أموركم، فانكم أبناء نبي كريم، هو ذلك العبد الشاكر، فاقصدوا به واستقيموا كما كان مستقيماً، وكونوا شاكرين مثله ذاكرين كما كان.

قراءات: قرأ ابو عمرو وحده: «الا يتخذوا» بالياء. والباقون بالتاء.

١٧٠٣ 4

وقضينا: اخبرنا بالوحي. لتعلن: لتطغون. فجاسوا خلال الديار: دخلوها ووطئوها. رددنا لكم الكرة: اعطيناكم الغلبة. اكثر نفيرا: اكثر عدداً. وليتبروا ما علوا تبيرا: وليهلكوا ويدمروا ما استولوا عليه من بلادكم تدميرا. حصيرا: مكانا للكافرين.

بعد ان ذكر تعالى انه أكرم رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام بالإسراء من مكة الى بيت المقدس - ذكر هنا ما أكرمه به موسى قبله من إعطائه التوراة، وجعلها هدى لبني اسرائيل، لكنهم أعرضوا عنها ولم يعملوا بهديها، بل أفسدوا في الأرض.

{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} .

فافسدوا واعلوا علواً كبيراً.

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا} .

كانت هذه الحملة الاولى من الملك البابلي نبوخذ نصر سنة ٥٩٧ قبل الميلاد على مملكة يهوذا، فاستولى على القدس وسبي اليهود ومعهم ملكهم «يهوياكين» واهل بيته، واخذ جميع ما عندهم من اموال وذهب وكنوز.

ثم عاد نبوخذ نصر في حملة ثانية سنة ٥٨٦ قبل الميلاد يعين بعد احد عشر عاما واحتل القدس وخرجها واحرق الهيكل وسبي نحو ٥٠ الف من اليهود.

وبقي اليهود في بابل الى ان جاء كورش الانحيني سنة ٥٣٩ قبل الميلاد فسمح لهم بالعودة الى فلسطين، فعاد قسم وبقي عدد كبير في بابل ولم يعودوا لانهم استوطنوا واصبح لهم أملاك وتجارة، وحالوا بناء الهيكل، فاحتج السكان من غير اليهود والاقوام المجاورين

من الحثيين والخوريين والعمونيين والأدوميين، ولم يتم بناء الهيكل، وبقي الى ان احتل دارا الأول ملك الفرس البلاد فسمح لهم ببناء الهيكل سنة ٥١٥ قبل الميلاد.

فاذا اعتبرنا هذه الفترة كلها هي الأولى، تكون هي المقصودة بقوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}

وتكون هذه الفترة تفرقة استقرار. ثم جاء عهد اليونان حيث لا قوا أسوأ الحالات في عهد الملك السلوقي انطيوخس الرابع وذلك سنة ١٧٥ قبل الميلاد، اذا دمر الهيكل ونهب خزائنه واجبر اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية. وبقي الصراع بين اليهود يشتد حتى اندلعت ثورة المكابيين ودام عصرهم نحو قرن وربع، الى ان جاء الرومان، وعين الملك هيرودس الأدومي فسمح لليهود باعادة بناء الهيكل سنة ٣٩ قبل الميلاد. وفي سنة ٦٦ م. قامت ثورة عارمة شاملة من اليهود على الحكم الروماني، بعد سلسلة من المعارك سيطر تيطس الروماني على الموقف وتمكن من القضاء على اليهود سنة ٧٠. ووقع فهيرم مذبحه مريعة وخرب المدينة، واحرق

الهيكل ومره نهائيا فأزيل من الوجود بحيث لم يعد يهتدي الناس الى موضعه، وسبق الانحاء عبيدا. ويقول المسعودي ان عد القتلى من اليهود والمسيحيين بلغ ثلاثة ملايين، فيكون هذا معنى قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتَبِّرًا} . هذا محصل تاريخ اليهود في فلسطين والله اعلم.

فاذا تأملنا في الآيات الكريمة نجد النص الصريح على ان بين اسرائيل اذا حكموا وسيطروا طغوا وبغوا وافسدوا في الارض وعلو كبيرا، واذا لم يحكموا افسدوا وسيطروا على المال، وهذا ما نراه اليوم من طغيانهم وبيغهم وتسلطهم في فلسطين. وهم في بقية انحاء العالم ايضا مفسدون مسيطرون، يسيرون الحكام والزعماء على اهوائهم وحسب ما يريدون، وينشرون الفساد في كل ارجاء العالم، وسيظلون على هذا الحال ولا يمكن ان يغيروا من طباعهم وتعاليم دينهم المحرف. والله تعالى يقول:

{عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِمَ عُثِمَ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} .

فالمفهوم أن اليهود عادوا وسيعودون الى الإفساد ما دام لهم سيطرة، وفيهم بقية، فلهم جهنم تحصرهم فلا يفلت منهم احد، وتوسع لهم فلا يند عنها احد.

فالمفسرون على اختلاف طبقاتهم اعتبروا المرتين مضي زمانهما، الاولى في عهد نبوخذ نصر والاخير في عهد تيطس الروماني حيث زال الهيكل وزال حكمهم.

وفي عصرنا هذا وبعد وجود كيان اليهود الجديد، كتب بعض المفكرين يقول: ان الفترة الثانية هي هذه بوجود دولة اسرائيل (ودار نقاش طويل في الصحف، والمجالس، وشهدت بعض هذا النقاش في المغرب لما كنت هناك) وان الله سبغ عليهم من يدمرهم.

والواقع ان وجود اسرائيل تقوى وتمركزت تفككتا نحن العرب والمسلمين، وبعدها عن ديننا. ونحن الذين جعلناهم اقوياء بخلافاتنا، ومحاربة بعضنا. وواقعهم غير صحيح، ودولتهم تعتمد على شيئين امريكا تمدها بالمال والسلاح، وضعفنا انشقاقنا وخلافاتنا، فتي وحدنا كلمتنا وجمعنا صفوفنا وعزمننا على استرداد مقدساتنا فان اسرائيل تزول ولا يبقى لها وجود، والله تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٨] .

قراءات:

قرأ حمزة وابو بكر وابن عامر: «ليسوء» بالافراد، وقرأ الكسائي: «لنسوء» بالنون.

١٧٠٤ 9

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ. . .} .

ينتقل الكلام على القرآن الذي يرشد الناس الى اقوام السبل وأسلمها في الوصول الى السعادة الحقيقة في الدنيا، ويبشر المؤمنين الصادقين

العاملين، بالأجر العظيم، وينذر الذين لا يصدقون بالآخرة والحساب والجزاء بالعذاب الأليم في جهنم.
 {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} .

الإنسان عجول بطبعه فغالب الناس اذا تألموا من شيء لا يصمدون، فيسارعون بالدعاء على انفسهم وعلى اولادهم كما يدعون لأنفسهم بالخير، فالمطلوب من المؤمنين ان يضبطوا أعصابهم، ويصبروا فان المشكلة مهما عظمت لا بد ان تحل، ويبعث الله الفرج.
 {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ}

وجعلنا الليل والنهار بتعاقبهما وتناسقهما علامتين دالّتين على وحدانيتنا وقدرتنا، فأذهبنا آية الليل وصار ظلاما، وجعلنا النهار مضياء يصير فيه الناس ويتصرفون في اعمالهم ومعاشهم، ولتعلموا باختلاف الليل والنهار عدد السنين وحساب الاشهر والأيام وكل شيء لكم فيه مصلحة بيناه لكم بيانا واضحا.

١٧٠٥ 13

طائرة: عمله. في عنقه: ملازم له كالقلادة. كتابا يلقيه منشورا: صحيفة فيها جميع اعماله. الوزر: الاثم والذنب.
 تتحدث هذه الآيات الثلاث عن بعض المشاهد يوم القيامة فكل انسان مسؤول عما يقول ويفعل، فجميع ما تلفظه من كلام حسنا كان او قبيحا، حمدا او سخطا - كل ذلك يُحفظ في سجل كامل: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨] وهذا السجل سوف يعرض امام محكمة الآخرة، ليتم حساب الانسان، فيخرج له كتابه ويلقيه منشورا لا يغادر كبيرة ولا صغيرة. وكذلك اعمالنا مسجلة مثل الاقوال، وهكذا شأن ما يقترفه الانسان، وشأن الاحداث التي يعيشها، فان شريطاً كاملاً لتلك الاحداث سوف يوضع بين يد كل فرد يوم القيامة حتى يقول الناس: {يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} [الكهف: ٥٠] وعندما يقدم للمحكمة يقال له: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} .

من اهتدى وابتع طريق الحق نفع نفسه، ومن ضل وحاد عن الطريق فقد اضر بنفسه، ولا يتحمل انسان ذنب انسان آخر، وحاش لله ان يعب احدا قبل ان يبين له الحق عن طريق الرسل الكرام.

١٧٠٦ 16

المترفون: المنعمون المتمردون الذين لا يبالون. امرنا مترفيا: بالطاعة، ففسقوا. فدمرنا: اهلكناها. العاجلة: الدنيا. يصلها: يدخلها ويقاسي حرها. مدحورا: مطرودا. محظورا: ممنوعا.

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا} .

الحياة لها قوانين لا تختلف، وسنن لا تبدل كما بين الله لنا ذلك، والله لا يأمر بالفسق والفحشاء، ولكن اذا كثر الفساد في مجتمع ما، وطغى كبرائه بالانغماس في اللذات واتباع الشهوات، ولمن يوجد من يضع حدا لهذه الفوضى، ويضرب على ايديهم - نزل بلاء الله بهم وهلكت القرية ودمرت بمن فيها.

ويوضح هذا قراءة الحسن البصري: أمرنا مترفيا، بتشديد الميم. وبذلك تكون الصورة واضحة تمام الوضوح، والناس دائما تبع للمترفين من السادة والرؤساء.
 قراءات:

قرأ يعقوب: امرنا بمد الهمزة. وقرأ حسن البصري: «امرنا» بالتشديد وهي ليست من القراءات السبع المعتمدة.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} .

وقد أهلكنا أمما كثيرة من بعد نوح، بتردهم على انبيائهم وجودهم آيات الله، وحسبك ايها الرسول بيان ربك إعلامه بأن الله عالم بكل شيء، وهو الخبير بذنوب عباده البصير بها. وفي هذا تهديد ووعد لمن كذبه من قومه.

ثم قسما لله عباده قسمين: محبٍ للدنيا لا يشبع منها، ومؤمنٍ مخلص محبٍ للآخرة: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا} . من كان يطلب لذات ومتاعها ويعمل لها ولا يؤمن بالآخرة عجلنا له في الدنيا ما نشاء من الغنى والسعة في العيش، وله في الآخرة جهنم يصلها خالداً محتقراً مطروداً من رحمة ربك. {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} . ومن اراد بعمله الآخرة، وعمل لها وهو مؤمن بالله وجزائه فأولئك يقبلهم بالله تعالى، وينالون عنده خير الثواب. ثم بين الله تعالى ان عطاءه لا يخطر على بال احد فقال: {كُلًّا نُّنْذِرُهُ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} . ورزق الله وعطاؤه للناس اجمعين فكل من يعمل ويسعى يحصل على عطاء ربنا في هذه الدنيا، وما كان عطاء ربك ممنوعاً من احد، مؤمناً كان او كافراً، ما داموا يعملون وينشطون في هذه الحياة. {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} . ان التفاوت في هذه الحياة المعيشة ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم ونشاطهم في الاعمال. وان تفاوتهم في الدار الآخرة درجات من تفاوتهم في الدنيا، فالآخرة هي التي تكون فيه الرفعة الحقيقية، والتفاضل الحقيقي.

١٧٠٧ 22

مخدولاً: غير منصور. خذله: تخلى عنه. قضى: امر وأجب. اف: كلمة معناها التضجر. لا تنزهما: لا تزجرهما بغلظة. خفض الجناح: التواضع والتذلل. للأوابي: للتوايين الراجعين الى الله. {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} . لا تشرك بالله احداً، فتبقى ملوماً لا ناصر لك، ويكون الخذلان مكتوباً عليك. {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً} . وقد امر الله تعالى بعبادته باخلاص واكد ان لا نبعد غيره، ثم بعد ذلك امرنا بالبر والطاعة بالوالدين، لانهما عماد الاسرة، وفضلهما على الانسان لا يحده، وان اكبر نعمة تصل الى الانسان هي نعمة الخالق، ثم نعمة الوالدين. {إِنَّمَا يَبْغِيَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَخَفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} . واذا كبرا في السن او كان احدهما عندك في مرحلة الشيخوخة وحال الضعف في آخر العمر، فلا تنضجر منهما، ولا تتأفف، ولا تزجرهما، وقل لهما قولاً جميلاً لينافيه احسان اليهما وتكريم لهما. وألن لهما جانبك وتواضع لهما مع الاحترام الزائد، وادع لهما وتوجه الى الله ان يرحمهما برحمته الباقية، كفء رحمتهم لك في صغرك وجميل شفقتهم عليك. وهما ادبت لهما من خدمات فلن تستطيع ان تكافئهما. وقد وردت احاديث كثيرة في بر الوالدين. منها عن عبد الله بن مسعود قال: «سألت رسول الله ﷺ اي العمل أحب الى الله ورسوله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم اي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله». «وروى البزار عن بريدة عن ابيه: ان جلا سأل رسول الله ﷺ وكان يطوف حاملاً امه، فقال: هل ادبتُ حقها؟ قال: لا، ولا يزفرة واحدة». «قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: «اما يبلغان» وقرأ ابن كثير ويعقوب: «أف» بفتح الفاء من غير تنوين. وقرأ حفص واهل المدينة «اف» بالكسر والتنوين كما هو في المصحف، والباقون «أف» بدون تنوين.

{رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا} .

ربكم ايها الناس اعلم منكم بما في ضمائرکم، فإن أنتم أصلحتم نياتکم واطعتم ربکم، فانه يتوب عليكم، ان هفوتم واتيتم بما يخالف اوامره ثم تبتم، لانه دائم المغفرة للتوابين.

١٧٠٨ 26

التبذير: انفاق المال في غير موضعه. اخوان الشياطين: كل من خرج على الدين وسلك سلوكا مشينا. ميسورا: لينا. مغلوله: مقيدة، كناية عن البخل. ولا تبسطها كل البسط: لا تنفق بدون عقل، لا تبذر. محسورا: منقطعاً. خشية املاق: خوفا من الفقر. خطئا: اثماً. فاحشة: كل عمل قبيح فهو فاحشة. فلا يسرف: فلا يتجاوز الحد المشروع فيه والعفو افضل واحسن. بالقسطاس المستقيم. بالميزان العادل. ولا تقف ما ليس لك به علم: لا تندخل بما لا يعينك. ولا تمش في الأرض مرحاً: لا تتكبر في مشيك ولا نتعال. لن تحرق الارض: لن تؤثر فيها شيئا. لن تبلغ الجبال طولا: لن طاول الجبال. الحكمة: المعرفة والتعقل والتخلق بهذه الاخلاق الواردة في هذه الآيات الكريمة.

في هذه الآيات الكريمة وصايا بالاقرباء والمساكين والغرباء الذين انقطعوا عن السفر بسبب نفاد المال منهم، ثم تعاليم خلقية قيمة بأن تنفق ولا تبذر، لأن التبذير من الامور المكروهة وهي سبل الشيطان، ثم يقول الله تعالى:

{وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ. . . الآية} .

يعني اذا سألك احد الاقرباء او المساكين او ابن السبيل شيئا من المال ولم تجد ما تعطيه، الا الدعاء له، فقل لهم قولا سهلا حسنا، وعده عدة حسنة، والكلمة الطيبة صدقة، وفي الحديث: «انكم لا تسعون الناس باموالكم، فسعوهم باخلاقكم» .

ثم يأمرنا بالتوسط في الامور بان لا نبخل باموالنا كأننا مقيدون بالاغلال، ولا نسرف بالعتاء فنقع فقراء محرومين، فالاعتدال والتوازن أساس كل شيء في الاسلام.

والله تعالى يعتدنا اذا اعتدنا بأن يبسط الرزق ويسعه لمن يشاء من عباده، {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} فهو خير بطائعهم، بصير بحوائجهم.

ثم ينص على عادة قبيحة كانت عند العرب في الجاهلية وهي قتل الاولاد خشية الفقر فيقول هنا:

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} .

فينص على تحريم قتل الاولاد خوفا من الفقر، يعني ان الرجل يكون عنده المال ويكثر عنده الاولاد فيخاف من الفقر فيقتلهم. وهذا ذنب كبير، والله تعالى قد تكفل بالرزق للجميع.

وفي سورة الانعام يقول: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} .

وهذه لها معنى غير الآية التي في سورة الاسراء، فها يقول تعالى لا تقتلوا اولادكم لانكم فقراء لا مال عندكم نحن نرزقكم واياهم، ففي آية الاسراء قدم رزق الابناء على رزق الآباء، {نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} ، فلا تخافوا على اموالكم. وفي سورة الانعام قدم رزق الآباء على رزق الابناء {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} فهنا قتل الاولاد خوفا من وقوع الفقر بسببهم، فقدم رزق الاولاد، وفي الانعام لان الفقر حاصل وموجود بسبب فقر الآباء فقدم رزق الآباء، فلا يظن من لا معرفة له بان الآيتين فيهما تكرار.

{وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ} .

ثم يؤكد على موضوع كان متفشيا في الجاهلية وهو الزنا، ولذلك سماه فاحشة وساء سبيلا. وقد اكد على تحريم هذه الفاحشة عدة مرات في القرآن الكريم، ذلك لما فيها من مفسد واختلاط الانساب، والتعدي على حرمة الغير.

ثم نص على صيانة النفس، وانه لا يجوز بحال من الاحوال قتل الانسان بدون جناية جناها وبغير حق، وقد تقدم ايضا في سورة المائدة وغيرها النص على حرمة قتل النفس الا بالحق. . .

ثم بين هنا القصاص فقال:

{وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} .

فمن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لمن يلي امره من اقربائه الحق بالقصاص، ولا يجوز لأقربائه ان يسرفوا في القتل بان يقتلوا احداً غير القاتل كما يفعل كثير من الناس، يأخذ الثأر من اي واحد من اقرباء القاتل إن هذا حرام لا يجوز في شرع الاسلام. والله سبحانه يقول: انه كان منصورا، فله ناصره بان اوجب له القصاص من القاتل. وقد خير الاسلام اولياء القتل بين اخذ دية والعفو عنه او قتله، وفي الحديث الشريف: «من قتل فتيلاً فأهله بين خيرتين: ان احبوا خذوا الدية» .

ثم اكد وكرر بالوصية على رعاية مال اليتيم. وقد تقدم في سورة الانعام الآية ١٥٢، وتقدم الكلام عليها مستوفى، وكذلك في اول سورة النساء: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} ان كل ما امر الله به ونهى عنه عهد الوفاء به واجب، وقد تكرر الأمر بالوفاء بالعهد في عدد من الآيات.

ثم حض على إيفاء الكيل والوزن، وان نكون امناء في المكيال والميزان وجاء ذلك في عدد من الآيات. فالأمانة والاستقامة والعدل من قواعد الاسلام . . . ذلك خير وأحسن تأويلاً اجمل عاقبة واحسن مآلاً في الآخرة، لما يترتب على ذلك من حفظ الحقوق، وعدم العش والتحلي بالامانة.

والرسول الكريم يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به الا مخافة الله، الا ابدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير من ذلك» .

ثم ينص على امر هام لا يزال الى الآن موجودا في مجتمعاتنا، وهو الفضول، والتدخل في امر الغير، والكلام على الناس، والغيبة، ونقل الكلام بدون ثبوت، فيقول: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} ولا تتبع ايها المرء ما لا علم به، فلا تكن فضولياً تتدخل في شئون غيرك، ولا تنقل خبراً ما لم تتأكد منه وتثبت من صحته من قول يقال، او رواية تروى، ومن حكم شرعي او قضية اعتقادية، ولا تشهد الا بما رأيت عينك، وسمعت اذنك، ووعاه قلبك، ففي الحديث الشريف:

«اياكم والظن، فان الظن اكذب الحديث» وفي سنن ابي داود: «بئى مطية الرجل زعموا» ان الله يسأل الانسان عما فعلت جوارحه، وستسأل الجوارح نفسها عما اجترأت {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٩-٩٠] .

وانها لقواعد اخلاقية عظيمة، تؤمن سلامة المجتمع، وتجعل الناس يعيشون بامن وسلام. وهذا هو الاسلام، وهذا هو القرآن الكريم {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} .

ثم ينهى عن خلة سيئة، وصفة بغیضة يختم بها هذه الوصايا والأوامر فيقول:

{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} .

التكبر صفة ممقوتة، والخيلاء الكاذبة من الأدلة على نقص العقل، ولماذا يزعو الانسان وعلى من يتكبر؛ انه من طين وسيعود الى التراب، والله تعالى بين له بانه ضئيل ضعيف ازاء ما في هذا الكون من مخلوقات اعظم واكبر، فلو تواضع لرفع الله كما جاء في الحديث الشريف {من تواضع لله رفعه} فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير. كل هذه الصفات التي نهى الله عنها سيئة مكروهة عند الله. {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} .

ان كل ما قدمنا اليك ايها الانسان هو من الحكمة التي تشتمل على التعقل والاعتزان وحب المعرفة.

ثم يختمها بالتحذير من الشرك، والحفاظ على عقيدة التوحيد، وهذه بعض الحكمة التي يهدي اليها القرآن الكريم الذي اوحاه الى الرسول

عليه الصلاة والسلام.

قراءات:

قرأ ابن كثير: «كان خطأ كبيراً» بكسر الخاء وفتح الطاء والمد. وقرأ ابن عامر: «خطأ» بفتح الخاء والطاء. والباقون: «خطأ» بكسر الخاء وسكون الطاء. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «القسطاس» بكسر القاف كما هو في المصحف، والباقون: «القسطاس» بضم القاف، وهما لغتان. وقرأ أبو بكر عن عاصم: «بالقسطاس» بالصاد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «كان سيئة» والباقون: «كان سيئة» مضافاً إلى الهاء.

١٧٠٩ 40

أصفاكم: خصمكم. صرفنا. بينا. ليذكروا: ليتدبروا. نفورا: بعدا لا تبتغوا: تطلبوا. لا تفقهون: لا تفهمون.
{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ. . .} .

لقد انكر الله، على القائلين أن الملائكة بنات الله وكان العرب في الجاهلية يفضلون الذكر على الأنثى، ولا يزال هذا في كثير من المجتمعات الجاهلية. ولذلك قال: أفضلكم ربكم على نفسه نخصكم بالبنين، واتخذ لنفسه من الملائكة بنات بزعمكم!! والعجيب من أمر هؤلاء: أنهم جعلوا الملائكة إناثاً، ثم ادعوا أنهن بنات الله، ثم عبدوهن، ولذلك قال {إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} أنكم في قولكم هذا تفترون على الله بهتاناً عظيماً.
{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} .

لقد بينا في هذا القرآن أحسن بيان واضح من الأمثال والمواعظ والأحكام ليتذكروا ويتعظوا، ولكنهم لتحجر قلوبهم لا يزيدهم ذلك التبيين لا نفورا وبعدا عن الحق.
{قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ. . .} .

قل أيها الرسول هؤلاء المشركين لو كان مع الله آلهة أخرى كما يقولون، لحاولوا الوصول إلى عرش الرحمن ونازعوه الملك، ولكن هذا غير صحيح، {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢] . تنزه الله عما يقولون، وتعالى جل شأنه عما يزعمون علواً كبيراً. . .
{تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} .
أن جميع من في هذا الكون من المخلوقات تسبح بحمده وتنزهه وتقده، والأكوان شاهدة بتنزهه تعالى عن مشاركته للمخلوقات في صفاتها المحدثه.
{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} .

ولكن لا تفهمون تسبيح هذه المخلوقات، ولا تدركون ما يقولون لأنكم محجبون عن ذلك، والله تعالى حلیم غفور لمن تاب واصلح.
قراءات:
قرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر: «يسبح» بالياء. وقرأ ابن كثير وحفص: «عما يقولون» بالياء. وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: «عما تقولون» بالتاء.

١٧٠١٠ 45

حجاباً مستورا: مانعاً ساتراً. اكنت: جمع كان وهي الأغطية. وفي آذانهم وقرا: صمما. نفورا: بعدا. مسحورا: مخبول العقل.
{وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ. . .} .

وإذا قرأت أيها الرسول القرآن على هؤلاء المشركين جعلنا بينك وبينهم حجاباً يمنع قلوبهم أن تؤمن بهذا الكلام الواضح مع أنهم كانوا يتأثرون بالقرآن بفطرتهم، ولكنهم بكفرهم وعنادهم بعيدون عنه، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجاباً خفياً لا يظهر للعيون، فلا يبتدون. ثم بين السبب في عدم فهمهم لمدارك القرآن فقال:

{وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} .

فقد جعل الله في قلوبهم ما يشغلهم عن سماع القرآن، كان عليها اغطية من الكفر والعناد كما قال تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فاعمل إِنَّا عَامِلُونَ} [فصلت: ٦] السجدة.

{وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} .

ينفرون من التوحيد وهم مشركون ويحبون ان تذكر آلهتهم مع الله سبحانه وتعالى، ولقد انوا يتسمعون سرا الى القرآن ويدركون معانيه، ولكن كبرياءهم يدفعهم عن التسليم والاذعان.

يقول ابو جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فاطمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فاعطينا، حتى اذا تساونا وكنا كفرنسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به ابدا ولا نصدقها. فلم تقصر افهامهم عن القرآن ولكنه العناد والكبرياء.

{لَنْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} .

نحن اعلم بالسبب الذي يدعوهم للاستماع اليك، وهو الاستهزاء بك وبالقرآن، ونحن اعلم ايضا اذ هم يتناجون، اذا يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلاً مسحوراً قد ذهب عقله.

{انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوهم فلا يستطيعون سبيلاً} .

انظر كيف ضربوا لك الامثال فثلوك بالشاعر والساحر والكاهن فضلوهم في جميع ذلك، فلا يستطيعون الوصول الى الحق.

١٧.١١ 49

ورفاتا: الرفات ما تكسر ويلى من كل شيء. يكبر في صدوركم: يستبعد قبوله، ذراًكم: أوجدكم. فيسيغضون اليك رؤوسهم: يحركون رؤوسهم تعجباً وسخرية.

في هذه الآيات حكاية عن هؤلاء المعاندين المنكرين للحياة الآخرة، وقالوا إذا كنا عظاما وحطاما هل نبعث في الآخرة خلقا جديدا!! قل ايها النبي: لو كنتم حجارة او حديدا، او خلقا اكبر مما تنكره قلوبكم لبعثتم، فسيقولون: من يعيدنا؟ قل: يعيدكم الذي خلقكم اول مرة. فسيحركون اليك رؤوسهم تعجباً، ويقولون استهزاء: متى هذا البعث الذي يعدنا به؟ قل لهم: عسى ان يكون قريبا، يوم يبعثكم من قبوركم، بقدرته، والله الحمد على كل حال، وتظنون ما لبثتم الا قليلا.

ان الحياة الآخرة ذات هدف عظيم، هو المجازاة على اعمال الدنيا، خيرا كانت او شرا، فان للانسان ثلاثة أبعاد، يعرف من خلالها، هي: نيته، وقوله، وعمله. وهذه الثلاثة تسجل باكملها، فكل حرف يخرج عن لساننا، وكل عمل يصدر من عضو من اعضائنا يحل في سجل ويمكن عرضه في اي وقت من الاوقات بكل تفاصيله.

ان الاكتشافات الجديدة قربت هذه لامور، فان «الكمبيوتر» العقل الالكتروني، يخزن ملايين المعلومات، فيكيف بسجل الله القدير؟

١٧.١٢ 53

ينزع بينهم: يفسد بينهم. الوكيل: المفوض اليه الأمر. الزبور: الكتاب الذي انزل على داود. الوسيلة: القربة الى الله. محذورا: يخاف منه.

{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} .

قل ايها الرسول وعلم الناس ان يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائما بالحسنى، كما قال تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} [النحل: ١٢٦] «والكلمة الطيبة صدقة» والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب.

{إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} .

ان الشيطان يدخل بينهم فيهبج فيهم المراء والشر، وربما فضى ذلك الى عناد الخصوص وازدياد فسادهم. فان الشيطان عدو كبير لبني الانسان فاحذروه.

{رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} .

ربكم اعلم باحوالكم ان يشأ يهدمكم للايمان قيرحكم، وإن يشأ يعذبكم، وما جعلنا امرهم وموكولا اليك يا محمد فتجبرهم على الايمان، وانما ارسلناك بشيرا ونذيرا.

{وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} .

إن ربك اعلم باحوال من في السموات والارض جميعا، فيختار منهم لنبوته من يشاء، والانبياء ليسوا سواء، فقد فضل الله بعضهم على بعض بالمعجزات وكثرة التابعين، وفضل داود بالنبوة والكتاب الذي انزل عليه لا بالملك، لان داود كان ملكا نبيا، فالفضل الذي اوتيته بالنبوة.

{قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} .

قل ايها الرسول لهؤلاء الذين يعبدون المخلوقين، ويزعمون انهم آلهة، ادعوا من شئتم منهم ان يكشفوا عنكم البلاء، فانهم لا يستطيعون ذلك، ولا يقدررون ان يحولوه عنكم اذا نزل بكم.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} .

ان هؤلاء المعبودين من دون الله، يتقربون الى الله، ويحرص كل منهم ان يكون اقرب الى الله، يطمعون في رحمته، ويخافون عذابه، ان عذاب الله مخيف يجب ان يبتعد عنه الانسان بالطاعة والتقوى.

١٧٠١٣ 58

الناقة: مبصرة: معجزة فيها دلالة واضحة. قظلموا بها: فكفروا بها. احاط بالناس: احاطت بهم قدرته.

{وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} .

وقد جرت سنتنا ان نهلك كل قرية ظالمة بمن فيها، او نعذب اهلها عذابا شديدا بالقتل وغيره، فليحذر قومك ذلك، فقد جرى بذلك قضاؤنا، وسطر ذلك في اللوح المحفوظ.

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ} .

كان كفار قريش يقولون: يا محمد، تزعم انه كان قبلك انبياء منهم من سُخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإن سرك ان تؤمن بك ونصدقك فادع ربك ان يجعل لنا الصفا ذهباً. فقال: ما منعنا من ارسال الآيات التي سألوها الا تكذيب الاولين بمثلها، فان ارسلناها، وكذبوا بها، ارسلنا عليهم العذاب واستأصلناهم.

{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا} .

وقد كنا ارسلنا الناقة الى قوم ثمود فنحروها، فكفروا، فانزلنا عليهم العذاب فأبدناهم. {بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} فالآيات التي يرسلها الله ما هي الا لتخويف الظالمين ليعتبروا بها.

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ} .

واذكر ايها النبي اذ اوحينا اليك ان ربك هو القادر على عبادته، فهم في قبضته، فبلغ رسالتك ولا تخف من احد فهو يعصمك منهم، فالله ناصرك ومؤيدك.

في صحيح البخاري والترمذي عن ابن عباس قال: «وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس» قال: هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أُسرى به الى بيت المقدس. «والشجرة الملعونة في القرآن» هي شجرة الزقوم.»

فقد افتن أناس من المسلمين ليلة الإسراء فارتدوا، وقامت ضجة كبرى في مكة كما مر في أول هذه السورة، وكان أبو جهل يقول: ان محمداً توعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم انها تنبت شجرة، وتعلمون ان النار ترحق الشجر!! وهؤلاء لا يعلمون أنَّ الحياة الأخرى تختلف عن حياتنا كل الاختلاف ولكنهم ضلوا فلم يؤمنوا وفتنوا بالإسراء، وفتنوا بالشجرة.

{وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} ونخوف هؤلاء الضالين، فما يزيدهم هذا التخويف الا تماديا في الطغيان والضلال. والشجرة الملعونة ولا ذنب لها، والمعنى ملعون آكلها، وهذا التعبير كثير في كلام العرب.

١٧٠١٤ 61

أرأيتك: اخبرني. لأحتكن: لا قودنهم كما اقود الدواب. موفورا. مكملًا، تامًا. واستفزر من استطعت: واستخف من استطعت. وأجلب عليهم: صح عليهم، وافرغ جهدك في جميع انواع الاغراء. بخيلك ورجلك: بفرسانك ومشاتك من جنودك. تقدم الكلام على حسد ابليس لآدم، وأن العداوة قديمة ومنشؤها الحسد، ففي سورة البقرة {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤] وكذلك في سورة الاعراف من الآية ١١ الى الآية ١٨، والحسد بلية قديمة، ومحنة عظيمة للخلق.

وخلاصة هذه الآيات: واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تعظيم وتفضيل فسجدوا الا ابليس، تكبر ان يسجد، لأن آدم من طين وابليس من نار، ثم طلب من الله ان يمهل الى يوم القيامة وقال ان هذا الذي كرمته علي، لانتقم من ذريته، واجعلهم يفسدون ويفسقون. فقال الله له: اذهب فن تبعك منهم فان جهنم جزاؤهم جميعا، وهيج من سئت منهم بصياحك واجمع عليهم اعوانك من راكب وارجل، وشاركهم في الاموال والاولاد، بلحهم على كسبها من الطريق المحرم، وعدهم الوعود الخلابه، وما وعود الشيطان الا كذبا وزورا وغرورا.

أما عبادي المخلصون لي، فليس لك على اغوائهم قدرة، فانا وكيهم وكفيتهم امرك،

قراءات:

قرأ حفص وحده: «ورجلك» بكسر الجيم، والباقون بستكينها.

١٧٠١٥ 66

يزجي: يسوق، يجري. الضر: الخوف. ضل: غاب. ان يخسف بكم: يجعل البر يغور بكم. حاصبا: ريحا فيها حصباء وحجارة. قاصفا من الريح: ريحا تكسر الشجر وغيره. التبيع: المطالب بالثار.

{رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ الْآيَاتِ. . .}

ربكم الذي يجري لكم السفن في البحر لتطلبوا الربح بالتجارة والحصول على ما ليس عنكم من محصول المم وصناعتها، انه دائم الرحمة بكم. واذا خفتم الغرق وانتم في البحر ذهب عن ذاكرتكم كل ما تعبدون من دون الله، والتجأتم اليه وحده، فلما انجاكم الى البر أعرضتم وعدتم الى ما كنتم عليه، ان شأن الانسان الكفر وحمد النعمة. وقد مر نظير هذا في سورة يونس الآية ٢٢ وما بعدها.

افأمنتم وقد نجوتم الى البر ان يخسفه بكم فتغرور بكم الارض، او يرسل عليكم ريحا تفدقكم بالحصباء ثم لا تجدون من يحميكم منه؟! ام أمنتم ان يعيدكم في البحر مرة اخرى، فيرسل عليكم ريحا لا تمر على شيء الا قصفته، فيغرقكم بسبب كفركم وخذوكم نعمة الله حين انجاكم من قبل، ثم لا تجدون من يطالبنا بما فعلنا بكم! .

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو: «ان نخسف بكم، او نرسل عليكم، ام امنتم ان نعيدكم، فنرسل عليكم» بالنون في هذه جميعا، والباقون بالياء.

بإمامهم: بكتّابهم الذي فيه اعمال. وله معنى آخر: بامامهم: صاحب رسالتهم كأن يقول ادعوا اصحاب ابراهيم، اعوا اتباع موسى الخ. .
 . . الفتيل: اصل الفتيل: الخيط الضئيل الذي على نواة التمر، والمقصود به هنا الشيء الذي لا قيمة له. أعمى: اعمى البصيرة.
 {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ الْآيَةَ. . . } .

ولقد كرّمنا بني آدم بحسن الصورة، واعتدال القوام، وبالمواهب العقلية والنطق والتفكير، وحملناهم برا وبحرا وجوا ولا نجدرى ما يستجد من مواصلات في المستقبل لان الله تعالى يقول: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٩] وزرقناهم من الطيبات المستلذة، وفضلناهم على كثير من المخلوقات.

{يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} اذكر ايها النبي لقومك يوم ندعو كل قوم باسم زعيمهم فيقال يا اصحاب موسى. يا أهل القرآن، ليتسلموا كتب اعمالهم، فن أعطي كتّابه بيمينه وهم السعداء فأولئك يقرأون كتّابهم مسرورين، ولا ينقص من اجرهم شيء.
 {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} .

ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب والبصيرة فسيبقى على حاله ويكون في الآخرة اكثر عمى وابعد مدى في الضلال، وابعد عن سبيل الخير.
 قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابوبكر: اعْمَى بالامالة

كدت تركن اليهم: قربت من الميل اليهم. ضعف الحياة: عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا، وفي الآخرة. لا يلبثون: لا يبقون. خلافا: بعدك. تحويلا: تبديلا.

{وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا} .

لقد حاول المشركون من قريش، ومن ثقيف وغيرهم ان يساوموا الرسول الكريم بان يتساهل معهم في عدم شتم آلهتهم، وبعضهم قال له ان يتسح بالهتهم حتى يدخلوا في دينه. قد تكررت هذه المحاولات، وقاربوا ان يخدعوك، ولو انك اتبعت ما يريدون لاتخذوك صديقا، ولكنك رسولنا الامين.

{وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} .

وهذا نص واضح ان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يجهم الى اغرائهم.

{إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} .

وهذا وعيد شديد للرسول، فلو قاربت الركون اليهم، لجمعنا عليك عذاب الدنيا وضاعفناه، وعذاب الآخرة وضاعفناه، ثم لا تجد من ينصرك ويمنع عنك العذاب.

{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا} .

ولقد قارب اهل مكة ان يزججوك ويخرجوك من مكة بالقوة، ولو انهم فعلوا ذلك واخرجوك لا يبقون بعدك الا زمانا قليلا.

{سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا} .

وهكذا مضت سنتنا مع الرسل الذين ارسلناهم قبلك. . . اهلكنا اقوامهم الذين اخرجوا رسلهم. ان سنتنا في هذه الحياة لا تبدل. وقد أخرج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة، ولم يمض على اخراجه سنة ونصف حتى كانت وقعة بدر وقتل فيها صناديد قريش واهلكهم الله.

وبعض المفسرين يقول ان هذه الآية مدنية، وان اليهود هم الذين ضايقوه وهم بترك المدينة، ولكن هذا بعيد.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص: «خلافك» والباقون: «خلفك» والمعنى واحد.

١٧٠١٨ 78

دلوك الشمس: زوالها عن منتصف السماء في النهار. غسق الليل: شدة الظلمة. قرآن الفجر: صلاة الصبح. التهجد: صلاة الليل. نافلة لك: صلاة زائدة عن الفريضة. مقاما محمودا: مقاما عاليا يحمد به الناس. زهق: زال واضمحل.

{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} .

الصلاة لب العبادة، لحافظ عليها وأدائها على أحسن وجه، من زوال الشمس من وسط السماء الى ظلمة الليل، وهذا الوقت يشمل الصلوات الأربع: الظهر والعصر والمغرب والعشاء. {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} .

وصلاة الصبح فان الملائكة تشهدها. وقد بينت السنة من اقوال الرسول الكريم وافعاله تفاصيل هذه الاوقات وكيفية ادائها واقامتها.

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} .

وصل من الليل صلاة زائدة عن الفريضة بقدر ما تستطيع. وبهذه الصلاة، وبهذه الصلة الدائمة بالله. يقيمك ربك يوم القيامة في مقام سام يحمذك فيه الخلائق. وفي هذا تعلم لنا أن نتعبد ونقوم بالليل، فاذا كان الرسول الكريم مأموراً بذلك فنحن أولى واحوج.

{وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} .

وقل رب ادخليني فيما حملته من اعباء الرسالة ادخلا مرضيا، واخرجني مخرجا حسنا مرضيا (وهذا دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعو به، ولتعلم أمته كيف تدعو الله وفيم تتجه اليه) واجعل لي قوة أعلي بها دينك ورسالتك التي حملتني اياها.

{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} .

وقل جاء الحق بالاسلام، وذهب الباطل واضمحل، ان الباطل مضمحل زائل دائما.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنهما بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» .

١٧٠١٩ 82

{وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ . . .} .

نأى بجانبه: استكبر. شاكلته: مذهبه وطريقته. يئوسا: شديد اليأس. أهدي سبيلا: اقوم طريقا.

ونزل عليك ايها الرسول من القرآن ما هو شفاء لأدواء النفوس ورحمة للمؤمنين، ولا اصابته مصيبة الا خسرا لكفرهم وعنادهم.

واذا انعمنا على الانسان بالصحة والسعة بطر واستكبر وبعد كأنه مستغن عنا، واذا اصابته مصيبة كان كثير اليأس والقنوط من رحمة الله.

ولما ذكر حال الضالين والمهتدين ختم ببيان ان كلاً يسير على مذهبه فقال:

{قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} .

قل أيها النبي: كل منا يعمل ويسير على طريقته، وعلى ما طبع علي من الخير والشر، وربكم أعلم من كل واحد بمن هو سائر على الطريق المستقيم.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . . .} .

ويسألك قومك عن حقيقة الروح، قل الروح من علم ربي الذي استأثر به، وما منحتهم من العلم الا شيئا قليلا.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي «ونأى بجانبه» بالامالة. وقرأ ابن عامر: «وناء بجانبه» من الفعل ناء ينوء.

الظهير: المعين. طرّفنا: كررنا القول ورددناه بوجوه مختلفة. الكفور: الجحود. ولو أردنا ان نحو من صدرك القرآن الذي اوحينا اليك، لفعلنا، ثم لا تجد من ينصرك، ولكن أبقيناه منا لأن فضل ربك في هذه المعجزة كان عليك عظيما. قل لهم ايها النبي متحديا ان يأوا بمثله، لئن اجتمعت الإنس والجن وتعاونوا على ان يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يستطيعون، ولو كانوا متعاونين. ولقد نوعنا مناهج البيان بوجوه مختلفة للناس في هذا القرآن، فأبى اكثر الناس الا الجحود والانكار، والاعراض عن الحق.

الينبوع: النبع، عين الماء. كسفا: جمع كسفة كَقِطْعَةٍ لفظا ومعنى. قبيلًا: مقابلين، تأتي بهم عيانا. الزخرف: الزينة، الذهب. ترقى: تصعد. وقالوا في تَعَنُّتِهِمْ لَنْ نؤمن لك يا محمد حتى تخرج لنا ماء من عين تفجّرنا لا ينضب ماؤها. او يكون لك في مكة بستان من نخيل وعنب فتجرى الانهار وسطه، او تسقط السماء فوق رؤوسنا كما زعمت ان الله توعّدنا بذلك، او تأتي بالله والملائكة نقابلهم نراهم مواجهة ليشهدوا على صحة ما تقول لنا. او يكون لك بيت مزخرف من ذهب، او تصعد في السماء. ولن نصدقك في هذا الحل الا اذا جئتنا بكتاب من الله يقرر فيه صدقك نقرؤه. قل لهم ايها الرسول: سبحان ربي ان يتحكّم فيه احد، او يشاركه في قدرته، فهل انا الا بشر رسول من الذين يرسلهم بما يلائم احوالهم ويصلح شئونهم، وما منع مشركي مكة ان يؤمنوا لما جاءهم الرسول بالهدى. الا زعمهم جهلاً هم ان قالوا: كيف يبعث الله رسولا من البشر، قل لهم ايها الرسول: لو ان في الارض بدل البشر ملائكة يعيشون مستقرين فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا من جنسهم، فان الحكمة الالهية اقتضت ان يرسل لكم جنس ما يناسبه من الرسل. قل: يكفي ان الله شاهد على صدق رسالي اليكم، انه كان بعباده خبيرا يعمل احوالهم، بصيرا لا تخفى علي منهم خافية. قراءات: قرأ الكوفيون ويعقوب: «تفجر» بفتح التاء وضم الجيم. والباقون: «تفجر» بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم المشددة. قراءات: قرأ اهل المدينة وابن عامر وعاصم: «كسفا» بكسر الكاف وفتح السين. والباقون «كسفا» باسكان السين. وقرأ ابن كثير وابن عامر: «قال سبحان ربي» والباقون: «قل سبحان ربي».

خبت: سكن لهيبها. السعير: اللهب. خشية الانفاق: خوف الفقر. قنورا: شديد البخل. ومن تيولاه الله بالهداية فهو المهتدي، ومن يقضي عليهم بالضلال فلن تجد لهم من ينقذهم، ونحشرهم يوم القيامة فيُسبحون على وجوههم، لا ينطقون ولا يرون ولا يسمعون، منزلهم جهنم كلها سكن ليهبها زناها توقدا واشتعالا. وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الاعراف ١٧٨. أَغْفَلُوا ولم يعلموا ان الله الذي خلق هذا الكون موما فيه، قادر على ان يخلق مثله! والذي يقدر على خلق مثل هذه السموات والارض يقدر على اعادتهم. وهو اهلون عليه. لقد جعل لاعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة، وبعد اقامة الحجة عليهم ابوا الا تماديا في ضلالهم وكفرهم. وتقدم ففي نفس السورة نفس المعنى الآية ٥٠. ثم بين حرصهم على الدنيا، وتمسكهم بها وشحهم بانهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبخلوا فقال: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي} .

قل ايها الرسول لهؤلاء المعاندين لو كنتم تملكون خزائن رزق الله وسائر نعمه لبخلتم مخافة نفادها بالانفاق، والانسان مطبوع على شدة الحرص والبخل والله هو الغني الرزاق.

١٧٠٢٣ 101

مسحورا: مخبول العقل. بصائر: حجبا وبينات. مثبورا: هالكا. يستفزههم: يخرجهم من الارض. جئنا بكم فليفا: جميعا. ولول أوتي هؤلاء من الآيات ما اقترحوا، لما آمنوا بها، ولقد آتينا موسى تسع آيات هي: العصا، واليد البيضاء. والطوفان. والجراد والضفادع والقمل والدم. والجذب ونقص الثمار وفلق البحر، وابنجاس الماء من الحجر. وتتوق الجبل كأنه مظلة. وخطابه لربه، واسأل بني اسرائيل لما جاءهم، فانهم مع كل ذلك كفروا وقال فرعون لموسى: اني اظنك مسحورا. قال موسى: لقد علمت يا فرعون ان الذي انزل الآيات هو الله خالق هذا الكون وربّه. وهي دائل واضحة تبصر بك بصدق، ولكنك تكابر وتعاقد، واني لأظنك يا فرعون هالكا. فتمادى فرعون بطغيانه، افارد ان يخرج موسى وبني اسرائيل من ارض مصر فاغرقناه مع جنوده جميعا.

قراءات:

قرأ الكسائي: «لقد علمت» بضم التاء والباقون: بفتحها.

ونجينا موسى وقومه، وقلنا من بعد اغراق فرعون لبني اسرائيل، اسكنوا حيث شئتم بمصر او الشام، وكان المفروض ان يشكروا الله ان خلصهم من ذلك البلا الكبير، ولكنهم لم يلبثوا ان عبدوا العجل من دون الله، وبدلوا نعمة الله كفرا، فاذا جاء وقت الحياة الاخرى جئنا بكم من قبوركم جميعا ثم نحكم بينكم بالعدل.

١٧٠٢٤ 105

فرقناه: انزلناه مفرقا. على مكث: على مهل وبتأن يخرجون للاذقان: يسقطون على وجوهه. خفت الرجل بقراءته: لم يرفع صوته با. لا تخافت بها: اقرأها بوضوح.

ولقد انزل الله هذا القرآن قائما بالحق، فنزل ليقر الحق في الارض ويثبت، فالحق مادة، والحق غايته. فأنزلناه مؤيدا بالحكمة الالهية. وما ارسلناك ايها النبي الا بمشرا من آمن بالجنة، ونذيرا لم نجحد بالنار.

وقد فرقنا هذا القرآن ونزلناه منجما على مدة طويلة، لتقرأه على الناس على مهل، ليفهموه. نزلناه شيئا بعد شيء تنزيلا مؤكدا لا شبهة فيه.

ثم هدد الله تعالى اولئك الجاحدين على لسان نبيه بقوله:

{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوْمِنُوا} .

قل لاولئك الضالين اخترتوا لانفسكم ما تحبون من الايمان بالقرآن وعدمه، ان الذين اتوا العمل وقرأوا الكتب السابقة، يخرجون لله سجدا، شكرا له على انجاز وعده بارسالك، حين يتلى عليهم القرآن، ويقولون في سجودهم:

{سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} ان وعده كان محققا.

ويخرجون للاذقان باكين من خشية الله ايتلى عليهم، ويزيدهم ما فيه من العبر والمواعظ خشوعا وخضوعا. وهنا موضع سجدة. قل ايها الرسول هؤلاء المشركين: سمو الله، او سمو الرحمن فبأي اسم تمسونه فهو حسن، ثم امر رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ان يقرأ بصلاته صلاة متوسطة لا يرفع صوته بها ولا يسر كثيرا.

وتحتم السورة كما بدئت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك، وتزيهه عن الحاجة الى الولي والنصير، وهو العلي الكبير.

{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} .

فالحمد سبحانه وتعالى غني عن كل معين ان نصير او شريك او ولد، وهو مالك هذا الملك، وهو اكبر من كل شيء، فكبره تكبيرا.

١٨ الكهف

١٨٠١ 1

عوجا: العوج بكسر العين عدم الاستقامة. قيماً: مستقيماً، معتدلاً. البأس: العذاب. من لدنه: من عنده. كبرت كلمة: ما اعظمها من مقالة في الكفر، ومعنى الكلام الاستغراب والتعجب. فلعلك باخع نفسك: لعلك مهلك نفسك. على آثارهم: من بعدهم. صعيداً جزاً: تراباً لا ينبت.

ان الله تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها، ولهذا حمد نفسه على إنزاله القرآن على رسوله الكريم، وهو اعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض. فيه أخرجهم من الظلمات الى النور، ولم يجعل فيه اعوجاجاً لا باختلال ألفاظه، ولا بتباين معانيه، بل جعله مستقيماً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط، لينذر الجاحدين بعداً شديداً من عنده، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بأن لهم ثواباً جزيلاً. {مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَدْأُ} مقيمين فيه ابداء.

وينذر على الخصوص الذين قالوا إن الله اتخذ ولداً، وهو منزّه عن الولد والشريك، ولا دليل لديهم على قولهم هذا لا هم ولا آباؤهم، فما أعظم هذا الافتراء، وما اكبر هذه الكلمة التي تفوهوا بها! وما قولهم هذا الا محض اختلاق وكذب.

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ} لا تهلك نفسك أيها النبي أسفاً وحسرة عليهم. لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن، أبلغهم رسالة ربك، فمن اهتدى منهم فلنفسه، ومن ضل فانما يضل عليها.

إنا خلقناهم للخير ولا شر، وصيرنا ما فوق الأرض زينة لها ومنفعة لأهلها، لنرى من يحسن منهم ومن يسيء، ويمتاز افراد الطبقتين بعضهم عن بعض بحسب درجات اعمالهم.

{وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً} وانا لجاعلون الأرض وما عليها تراباً لا نبات فيه عند انقضاء الدنيا. والخلاصة ان {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن: ٢٧].

١٨٠٢ 9

الكهف: النقب المتسع في الجبل. الرقيم: اللوح الذي كتبت فيه اسماء اصحاب الكهف. فضربنا على آذانهم: أعمناهم عدداً من السنين، والنائم عادة لا يسمع. ثم بعثناهم: أيقظناهم. احصى: اضبطُ لاوقات لبثهم.

لقد انكر الذين استهوتهم الدنيا البعث، مع ان الوقائع تثبت الحياة بعد الرقود الطويل، وهذه قصة أهل الكهف واللوحة الذي رُقئت أسماءهم فيه بعد موتهم لم تكن وحدها من العجائب وان كانت قصة خارقة للعادة.

اما قصتهم فهي ان جماعة من الشباب آمنوا بربهم، وهربوا بدينهم من الاضطهاد، فلبجأوا الى كهف، ودعوا ربهم ان ينقذهم قائلين: ربنا آتينا من عندك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

فاستجبنا دعاءهم، فأمنناهم آمنين في ذلك الكهف سنين عديدة لا ينتبهون. ثم أيقظناهم لنعلم من من الحزبين اللذين اختلفا في مدة مكثهم بالكهف أضبط احصاءً لطول المدة التي مكثوها.

روي عن ابن عباس: ان الرقيم اسم قرية قرب أيلة «العقبة»، ويقول ياقوت في معجم البلدان: «ويقرب البلقاء من اطراف الشام موضع يقال له الرقيم». ويقول: «ان بالبلقاء بأرض العرب من نواحي دمشق موضعاً يزعمون انه الكهف والرقيم قرب عمان، وذكروا ان عمان هي مدينة دقيانوس» الملك الذي كان في ذلك الزمان.

وهناك اقوال كثيرة متضاربة عليها عند الله. وقد اورد الطبري وغيره من المفسرين قصتهم، وليس لها سند صحيح، وقد اعتنى احد موظفي الآثار من اهل عمان بهذا الكهف وهو اليوم في ضواحي عمان، وعمل له باباً، وألف رسالة مؤكداً فيها انه هو الكهف المقصود

في القرآن، وبني بجانبه مسجداً، والآن يزور الكهف كثير من السياح.

١٨٠٣ 13

النبا: الخبر العظيم. وربطنا على قلوبهم: قوينا عزائمهم. الشطط: الجور والظلم. السلطان المبين: الحجة الظاهرة. اعتزلتهم: بعدتم عنهم وتجنبتموهم. المرفق: كل ما ينتفع به. تزار: اصله تتزار، تميل. وتقرضهم: تجاوزهم. في فجوة منه: متسع من الارض. وتحسبهم ايقاظا: تظنهم صاحين غير نائمين. وهم رقود: جمع راقد نائم. باسط ذراعيه: عندما يجلس الكلب فانه يمد ذراعيه. بالوصيد: فناء الكهف.

نحن نقص عليك أيها الرسول خبرهم بالصدق، إنهم شباب آمنوا بربههم وسط قوم مشركين، وزدناهم هدى بالتثيت على الإيمان. وثبتنا قلوبهم، فثبتوا ولم يرهبوا أحداً، ووقفوا وقفة واحدة فقالوا: ربنا الحق رب السموات والارض، ولن نعبد غيره إلهاً، ولن نتحول عن هذه العقيدة، لأننا اذا دعونا غير الله نكون قد بعدنا عن الحق وتجاوزنا الصواب.

ثم إنهم تشاوروا فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض: ما دمننا قد اعتزلنا قومنا في كفرهم وشركهم، فاجأوا الى الكف فراراً بدينكم، وأخلصوا لله العبادة، فإنه تعالى ييسر لكم الخير من رحمته في الدارين، ويسهل لكم من امركم ما تنتفعون به من مرافق الحياة ثم بين تعالى حالهم بعد ان لجأوا الى الكهف فقال:

{وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّاورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ. . .}

وانك ايها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين، ورأيتها حين الغروب تركهم وتعديل عنهم جهة الشمال، وهم في متسع من الأرض، فحرارة الشمس لا تؤذيهم، ونسيم الهواء يأتيهم. وذلك كله من دلائل قدرة الله، فمن اهتدى بآيات الله فقد هاده وفق ناموسه حقاً، ومن لم يأخذ بأسباب الهدى فقد ضلّ، ولن تجد له من يرشده ويهديه.

وتظنهم أيها الناظر منتبين، وفي الحقيقة هم نيام، ونقلهم في نومهم مرة يمينا، وخرى يسارا لنحفظ أجسامهم من تأثير الارض، وكلبهم الذي صاحبهم ماداً ذراعيه بفناء الكهف وهو نائم في شكل اليقظان. ولو شاهدتهم وهم على تلك الحال لهربت منهم، {وَلَمِلْتُمْ مِنْهُمْ رُعباً} ولفزعت منهم فزعاً شديداً، لأنهم في وضع غريب، وذلك لكيلا يدنومهم احد ولا تمسهم يد.

قراءات:

قرأ ابن عامر واهل المدينة: «مرفقا» بفتح الميم وكسر الفاء. والباقون: «مرفقا» بكسر الميم وفتح الفاء. وقرأ ابن عامر ويعقوب: «تزور» بفتح التاء وإسكان الزاي وتشديد الراء. والباقون: «تزار». وقرأ اهل الحجاز: «لمليت» بتشديد اللام وبالياء وبدون همزة. والباقون.

١٨٠٤ 19

بورقكم: الورق بفتح الواو وكسر الراء، والورق باسكان الراء: الفضة، سواء كانت عملة او غيرها. ازكى طعاما: اجود او اطيب. وليلطف: ليكن حذرا ومعاملته لطيفة. ولا يشعرون بكم احدا: لا يفعل ما يؤدي الى كشف احوالهم. ان يظهروا عليكم: ان يطلوا عليكم. وكذلك اعثرنا عليهم: كذلك كشفنا امرهم فاطلع عليهم اهل المدينة. رجما بالغيب: القول بدون علم.

وكما أمانهم بعثناهم ثم نومهم، ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة بقائهم نائمين. فقال احدهم: كم مكثتم نائمين؟ قالوا: مكثنا يوماً او بعض يوم. ثم احوالوا العلم الى الله، فقالوا: الله أعلم بما لبثتم. وشعروا باحتياجهم الى الطعام والشراب فقالوا: ابعثوا أحداً بدرائهم الفضية الى المدينة، فلينظر أي الاطعمة أشهى فليأتنا برزق منه وليتلف بالتخفي حتى لا يعرفه احد. وكانوا لا يعلمون ان ثلاثة قرون قد مرّت عليهم وهم راقدون.

انهم ان يطلعوا عليكم يقتلوك رجماً بالحجارة، او يعيدوكم الى دينهم، ولن تفلحوا إذن أبداً.

واطلعنا عليهم أهل المدينة ليعلم الناس أن وعد الله بالبعث حق، وإن القيامة لا شك فيه. وآمن أهل المدينة بالله واليوم الآخر، ثم أمت الله الفتية وتنازع الناس في شأنهم، فقال بعضهم: أبناؤنا عليهم بنيانا وتركهم وشأنهم، فربهم أعلم بحالهم. وقال الذين غلبوا على امرهم لتتخذن على مكانهم مسجداً نعبد الله فيه.

قراءات:

قرأ أبو عمرو وحزمة وأبو بكر: «بَرْقَم» بفتح الواو وسكون الراء. والباقون «بَرْقَم» بفتح الواو وكسر الراء.

{سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ. . .}

لما ذكر الله القصة ونزع المتخاصمين فيما بينهم، شرع يقص علينا ما دار في عهد النبي ﷺ من الخلاف في عدد أصحاب الكهف. سيقول فريق من الخائضين في قصتهم من أهل الكتاب: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول آخرون: هم خمسة سادسهم كلبهم، ظناً بدون يقين، ويقول آخرون هم سبعة وثامنهم كلبهم. قل يا محمد لهؤلاء المختلفين: ربي أعلم بعددهم، ولا يعلم حقيقته إلا قليل من الناس أطلعهم الله عليه، فلا تجادل في شأن الفتية إلا جدلاً سهلاً ليناً، ولا تستفت في شأنهم احداً، فقد جاءك الحق الذي لا مرية فيه.

١٨٠٥ 23

{وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} .

جاءت هاتان الآيتان معترضتين اثناء القصة فيهما ارشاد وتأديب للرسول الكريم، وتعليم للمؤمنين بأن يفوضوا الأمور كلها إلى الله، بعد ان يتخذوا كل الاحتياطات، وان يقرنوا قولهم بمشيئة الله علام الغيوب.

لا تقولن ايها الرسول لشيء تقدم عليه وتهتم به: إني فاعل ذلك غداً او بعد غد دون أن تقرن قولك بمشيئة الله بان تقول: «إن شاء الله». فاذا كان هذا الخطاب للرسول الكريم الذي قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» فنحن أولى وألزم ان نلتزم بهذا الادب القرآني العظيم، ونشعر دائماً اننا مع الله يوجهنا الى ما فيه الخير لنا ولأمتنا.

واذا نسيت امراً فتدارك نفسك بذكر الله، وقل عسى ان يوفقني ربي إلى امرٍ خير مما عزمْتُ عليه وأرشدَ منه. ثم بعد ذلك بين الله تعالى ما أجمل في قوله: فضرَبْنَا على آذَانِهِم في الكهف سنينَ عدداً فقال: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا} . وثلاثمئة سنة وتسع قرية هي ثلاثمئة سنة شمسية، ولذلك جاء هذا النص مبيناً حقيقة علمية لم تكن معروفة في ذلك الزمان.

قل أيها الرسول للناس: ان الله تعالى وحده هو الذي يعلم كم لبثوا في كهفهم وهو الذي يعلم ما غاب في السموات والارض. {أَبْصُرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} ما اعظم بصره في كل موجود وما اعظم سمعه بكل مسموع، فهو لا يخفى عليه شيء. والله ولي امر هذا الخلق جميعهم، لا يُشرك في قضائه أحداً من خلقه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: ثلاثمئة سنين: بالاضافة، والباقون «ثلاثمئة سنين» بتنوين مئة.

١٨٠٦ 27

لا مبدل لكلماته: لا مغير لأحكامه. ملتجداً: ملجأ. واصبر نفسك: احبسها. بالغداة والعشي: في الصباح والمساء. يريدون وجهه: يطلبون رضاه. فرطاً: مجاوزاً للحد. أعتدنا: هيأنا، اعددنا. السرادق: الخيمة، الفسطاط، كالمهل: خثارة الزيت، المعدن المذاب. مرتفقاً: متكأ.

بعد ان ذكر الله قصة اهل الكهف، وبين ان هذا القرآن يقص الحق، لأنه وحي من علام الغيوب، أمرَ بالمواظبة على تلاوته ودرسه، وبين في هذه الآية الكريمة، ان القيم الحقيقية ليست هي المال، ولا الجاه، ولا السلطة، ولا لذائذ الحياة ومتعتها - فانها كلها قيم زائفة - وان الاسلام لا يحرم الطيب منها، ولكنه لا يجعل منها غاية الحياة، فمن شاء ان يتمتع بها فليمتنع، ولكن ليذكر الله الذي انعم بها، وليشكره على نعمة بالعمل الصالح.

{واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً.} .
اتل ايها الرسول الكتاب الذي اوحى اليك، والزم العمل به، واتبع ما فيه من احكام وتعليم وتأديب. ولا يستطيع أحد ان يغير او يبدل ما فيه، وليس لك ملجأ الا الله، فإليه المرجع والمآب.

{واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} .
احتفظ بصحابتك ايها الرسول، الذي يعبدون الله وحده في الصباح والمساء، يطلبون رضوانه، وهم فقراء الصحابة مثل: عمار بن ياسر، وصهيب، وبلال وغيرهم، فقد روي ان عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس وغيرهم - جاءوا الى الرسول الكريم، طلبوا منه ان يبعد هؤلاء الفقراء من الصحابة ليحادثوه ويسلموا. فنزلت. ويقال إن أشراف قريش هم الذين طلبوا ذلك من رسول الله ﷺ، فأمره الله تعالى ان لا يتخلل عن اصحابه، ولا يلتفت إلى هؤلاء وما عندهم من قوة وجاه ورجال، فالله أكبر من كل ما عندهم. وهذا الأصح لأن السورة مكية.

ثم امره بمراقبة أحوالهم ومجالسهم فإن فيهم الخير فقال:
{ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا.} .

ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة، فهذه زينة الحياة الدنيا الزائلة.
ثم أكد هذا النهي بقول: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً} .

لا تطع هؤلاء المتكبرين فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء، وطردهم من مجلسك. فهؤلاء قد أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا، واتجهوا الى ذواتهم وإلى لذاتهم، وشغلوا قلوبهم بزخرف الدنيا وزينتها، وصار أمرهم في جميع أعمالهم بعيداً عن الصواب. ولقد جاء الاسلام ليسوي بين الناس امام الله، فلا تفاضل بينهم بمال ولا نسب ولا جاه.

قراءات:
قرأ ابن عامر: «بالغدوة والعشي» والباقون: «بالغداة والعشي» .
{وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.} .

بعد ان أمر الله رسوله ﷺ ان لا يلتفت الى قول أولئك الأغنياء الذين قالوا: إن طردت أولئك الفقراء منا بك، أمره ان يقول لهم ولغيرهم على طريق التهديد والوعيد: ان ما جئت به هو الحق من عند ربكم، فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن، فذلك خير له، ومن شاء ان يكفر فليكفر، فانه لا يظلم الا نفسه. إن الله قد أعد لمن ظلم نفسه بالكفر نارا تحيط بهم كالسرادق، وإن يطلبوا الغوث بطلب الماء يؤت لهم بماء عكر أسود يحرق الوجوه لشدة غليانه.

{يشس الشراب وساءت مرتفقاً.} .
ما أقبح ذلك الشراب، ويا لسوء النار وسرادقها مكانا للارتفاق والاتكاء.

جنات عدن: جنات الإقامة والاستقرار. يقال عدن بالمكان اذا اقام فيه. الاساور: واحدها سوار، معروفة. من سندس: من حرير الديباج وهو حرير رقيق، فاسيُّ معرب. استبرق: حرير ايضا ولكنه غليظ. الأرائك: جمع اريكة، المقعد المنجد. بعد ان ذكر حال اهل النار وما يلاقون فيها من عذاب وشقاء، ثنى هنا بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وبدينه الحق، وعملوا الصالحات، فانهم عند ربهم في جنات عدن يقيمون فيها منعمين أبدا، تنساب الانهار من تحتهم بين أشجارهم وقصورها، ويتخللون فيها بمظاهر السعادة، إذ يرفلون بالحرير من سندس ناعم، واستبرق كثيف، في ايديهم الأساور من الذهب، ومتكئين على أنخر المقاعد بين الوسائد والستائر، نعم الثواب لهم، وحسنت الجنة دار إقامة وراحة.

الجنة: البستان. حففناهما بنخل: جعلنا النخل يحيط بهما. آتت أكلها: اثمرت الثمر الجيد. ولم تظلم منه شيئا: كان له مال. وهو ظالم لنفسه: لكفره وغروره. يحاوره: يجادله. اعز نفرا: اكثر خدما وحشما واعوانا. ان تبيد: ان تفتي. وما أظن الساعة قائمة: لا أؤمن بيوم القيامة. منقلبا: مرجعا وعاقبة. حسابنا من السماء: مطرا عظيما، آفة مهلكة. صعيدا زلقا: ارضا ملساء لا شيء فيها. او يصبح مأوها غورا: يغور نهرها في الارض. واحيط بثمره: هلكت امواله. يقلب كفيه: تصويراً للندامة والحسرة. خاوية: خالية، خلت من اهلها وزرعها. على عروشها: ساقطة على عرائشها. عاقبة.

لقد ضرب الله مثلاً في هذه الآيات الكريمة بين فيه أن المال لا ينبغي ان يكون موضع نحر، لأنه ظل زائل، وانه كثيرا ما يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، وغنما الذي يجب ان يكون أساس التفاضل هو الإيمان بالله والعمل الصالح الذي ينفع الناس. واذكر ايه الرسول مثلاً وقع فيما سلف بين رجلين: كافر ومؤمن، وقد رزقنا الكافر جنتين فيما أعناب واصناف كثيرة من الشجر المثمر، وأحطناهما بالنخل، وجعلنا بين البستانين زرعا جيدا.

وقد اثمرت كل واحدة من الجنتين ثمراً كثيراً، ولم ينقص منه شيء، وقد فجرنا بينهما نهرا يسقيهما. وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى مثمرة، فداخله الغرور والكبرياء بتلك النعم، فقال لصاحبه المؤمن وهو يجادله: أنا أكثر منك مالا وأكثر خدماً وحشماً وانصاراً.

ثم زاد نفرا على صاحبه المؤمن، فدخل إحدى جنتيه وهو مأخوذ بغروره فقال: ما أظن أن تفتي هذه الجنة أبدا، وما أظن ان يوم القيامة آت كما تقول، ولو فرض ورجعت إلى ربي البعث كما تزعم، ليكون لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، لأنه لم يعطني هذه الخيرات في الدنيا الا ليعطيني ما هو أفضل منها فيما بعد.

فقال له صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر: كيف تكفر بربك الذي خلّقك من تراب ثم من نطفة لا ترى، ثم صورك رجلاً كاملاً. أنا أقول: إن الذي خلّقني وخلق هذا الكون وما فيه هو الله ربي، وأنا أؤمن به وأعبده وحده ولا أشرك معه أحداً.

ثم زاد في وعظه قائلاً: هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت الى ما فيها من رزق وجمال حمدت الله على ما أنعم به عليك وقلت: {مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} هذا ما شاء الله، فيكون ذلك شكراً كفيلاً بدوام النعمة عليك.

وبعد ان نصح الكافر بالإيمان، وأبان له عظيم قدرة الله وكبير سلطانه، قال له: إن ترني انا أفقر منك وأقل ولدا، فإني ارجو من الله ان يرزقني خيراً من جنتك ويرسل على جنتك سيولاً عظيمة وصواعق تخربها فتصير أرضاً ملساء لا ينبت فيها شيء ولا يثبت عليها قوم، وتصبح أنت وما تملك أثراً بعد عين.

وقد اخبر الله تعالى بانه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال:

{وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يَقْلَبُ كَفِّهِ. . .}

أحاطت الجوائحُ بثمار جنته التي كان يقول: {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} وأهلكتها الصواعقُ والآفاتُ، وأبادت أصولها، فأصبح يقلبُ كفيه ندماً وتحسراً على خسارته وضياع ماله حين رآها ساقطةً على عروشها خاليةً من الثمر، وضاعت منه الدنيا وحُرم الدنيا والآخرة معاً، وعظمت حسرته وقال: ليتني لم أشرك بربِّي أحداً.

{وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً} . ولم تكن له عشيرة تنصره من دون الله، وما كان منتصراً بقوة. وهنا تبين أن الله ينفرد بالولاية والنصرة والعزة، ومن اعتز بغير الله ذل، فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره، وثوابه.

ويسدل الستار على مشاهد الجنة الخاوية على عروشها، وصاحبها يقلبُ كفيه أسفاً وندماً، وجلالُ الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان.

قراءات:

قرأ حمزة: «الولاية لله الحق» بكسر الواو، وقرأ أبو عمرو: «الولاية لله الحق» بفتح الواو، وبضم القاف. وقرأ الكسائي: «الولاية لله الحق» بكسر الواو وضم القاف من الحق.

وقرأ عاصم: وكان له ثمر. وأحيط بثمره، بفتح الثاء والميم. وقرأ أبو عمرو: بضم الثاء واسكان الميم، والباقون: ثمر بضم الثاء والميم.

١٨٠٩ 45

هشيمًا: يابسًا متفتتًا. تذرؤه الرياح: تنثره، تفرقه. الباقيات الصالحات: الاعمال الصالحة.

أذكر أيها الرسول للناس مثلَ حال الدنيا في نُضْرَتِها ثم سرعةِ فنائِها وزوالِها كمثلِ نباتٍ اخضرَّ والتفَّ وأزهر، ثم صار هشيمًا يابسًا تنثره الرياح، والله قادر على كل شيء، وكل ما نراه إلى زوال، وفي الحديث: «الدنيا كسوقٍ قام ثم انفضَّ»

والمال والبنون جمالٌ ومتعة للناس في هذه الحياة الدنيا ولكن لا دوامَ لشيءٍ منها. وقد بين الله تعالى ما هو الباقي فقال: {والباقيات الصالحات خيرٌ عندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْلاً} ، فإن الاعمال الصالحة التي تنفع الناس، وطاعة الله خيرٌ عند الله يُجْزَلُ ثوابها، وخير أملٍ يتعلّق به الانسان.

١٨٠١٠ 47

بارزة: ظاهرة ليس على وجهها شيء. حشرناهم: سقناهم الى الموقف. فلم نغدر: لم نترك. وعرضوا: أحضروا للفصل والحساب. صفا: مصطفين. ووضع الكتاب: جعل كتاب كل انسان في يده. مشفقين: خائفين. الويل: الهلاك. احصاها: عدها.

بعد ان بين الله تعالى ان الدنيا فانية زائلة، وانه لا ينبغي ان يعتزَّ أحدٌ بزخرفها ونعيمها، أردف هنا بذكر مشاهد يوم القيامة وما فيها من أهوال، وانه لا ينبغي في ذلك اليوم الا من آمن وعمل صالحا، ولا ينفع الانسان مالٌ ولا بنون ولا جاهٌ ولا مناصب.

أذكر أيها الرسول للناس وأنذرهم يومَ نُفِني هذا الوجودَ ونقتلع هذه الجبالَ من أماكنها ونسيرها ونجعلها هباءً منثورا، كما قال تعالى في سورة النمل ٨٨: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} وتبصر في ذلك اليوم الأرض ظاهرة مستوية لا عوج فيها ولا وادي ولا جبل.

{وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} .

وجمعنا الناس وبعثناهم من قبورهم فلم نترك أحدا، كما قال تعالى: {ذلك يومٌ مجمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٤] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:» يُحْشَرُ النَّاسُ حِفَاةً عِراءَ . فقالت: الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى

بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن يهملهم ذلك «وزاد النَّسَائِيُّ: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٦] ، يعني من شدة الهول لا ينظر أحد إلى غيره.
قراءات:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «ويوم تُسِيرُ الجبالُ» بضم التاء ورفع الجبال، والباقون: «بضم النون ونصب الجبال.
ثم بين كيفية حشر الخلق وعرضهم على ربهم بقوله:
{وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا. . .} .

ويعرض الناس في ذلك اليوم على الله في جموع مصفوفة ويقول الله تعالى: لقد بعثناكم بعد الموت كما أحييناكم أول مرة، وجئتمونا فرادى حفاة عراة لا شيء معكم من المال والولد، وقد كنتم في الدنيا تكذبون بالبعث والجزاء.
ووضع كتاب الأعمال في يد كل واحد، فيبصره المؤمنون فرحين بما فيه، ويبصره الجاحدون قتراهم خائفين مما فيه من الأعمال السيئة.
وعند ذلك يقولون: يا ولينا ما لهذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا بينها بالتفصيل والدقة وعدّها!! .
ثم أكد الله ذلك بقوله: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا} .

ووجدوا أمامهم في كتابهم كل عمل عملوه مثبتا، والله سبحانه عادل لا يظلم أحدا من خلقه بل يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بحكمته وعده.

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ان الله تعالى ينادي يوم القيامة: يا عبادي، أنا الله لا اله الا انا ارحم الراحمين وأحكم الحاكمين واسرع الحاسبين، أحضروا حجتكم، ويسرروا جوابكم، فإنم مسئولون محاسبون»

١٨٠١١ 50

فَسَقَ عن امر ربه: خرج عن طاعته. فهم لكم عدو: العدو يطلق على الواحد والجمع. العضد: ما بين المرفق والكتف ومعناه هنا المعين المساعد والنصير. فدعوهم: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم. موبقا: حازا فيه الهلاك. الموبق: المهلك، وبقي بيق وبوقا: هلك. مواقعوها: واقعون فيها. مصرفا: مكانا ينصرفون اليه.
{وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ. . .} .

تقدم ذلك في الآية ٣٤ من سورة البقرة والآية ١١] من سورة الاعراف، والآية ٦١ من سورة الاسراء، وهي في كل موضع جاءت لفائدة ومعنى غير ما جاءت له في المواضع الأخرى، على اختلاف اساليبها وعباراتها المعنى المراد منها.

وهنا يشير الله تعالى الى أن الكفر والعصيان مصدرهما طاعة الشيطان، وإبليس أعدى الأعداء. وقد خرج عن طاعة الله ولم يسجد لآدم سجود تحية وإكرام، مع أن الملائكة كلهم سجدوا وأطاعوا أمر ربهم، فعصى ربه عن امره. ومع هذا وبعد أن عرفت عصيانه وتمردّه على الله تتخذونه هو وأعوانه أنصاراً لكم من دون الله، وهم لكم اعداء!

{يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} بئس البديل للكافرين بالله اتخذ إبليس وذريته أولياء من دونه.

{مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} .

ما أطلعهم على أسرار التكوين، وما احضرت إبليس ولا ذريته خلق السموات والارض وما أشهدت بعضهم خلق بعض لأستعين بهم، وما كنت في حاجة الى معين، وما كنت متخذ المضللين الجاحدين أعوانا وانصارا، تعالى الله الغني عن العالمين.

ثم اخبر سبحانه عما يخاطب به المشركون يوم القيامة على رؤو الاشهاد تقرعاً لهم وتوبيخاً فقال:

{وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا} .

أذكر لهم أيها الرسول يوم يقول الله للمشركين: نادوا الذين ادَّعَيْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَائِي فِي الْعِبَادَةِ لِيُشْفَعُوا لَكُمْ كَمَا زَعَمْتُمْ، فَاسْتَغَاثُوا بِهِمْ فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ حَاجِزًا مَهْلَكًا، وَهُوَ النَّارُ. ورأى المجرمون النارَ بأعينهم، فأيقنوا أنهم واقعون فيها، ولم يجدوا عنها مُجِيدًا. قراءات: قرأ حمزة وحده: «ويوم نقول» بالنون، والباقون: «ويوم يقول» بالياء.

١٨.١٢ 54

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} .
لقد وضحنا للناس كل ما هم في حاجة إليه من أمور دينهم ودنياهم، ليتذكروا ويعتبروا، لكنهم لم يقبلوا ذلك. {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} كان الانسان بمقتضى جبلته اكثر شيء مراء وخصومة، لا يُنِيب الى حق، لا يزدجر بموعظة. {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا} .
وما منع هؤلاء المشركين من الإيمان، حين جاءهم الحق وهو الرسول والقرآن، الا تعنتهم وطلبهم من الرسول أن يأتيهم بالهلاك، وهي سنة الاولين، أو يأتيهم العذاب مواجهة وعيانا. قراءات:

قرأ اهل الكوفة: «قُبَلًا» بضم القاف والباء. والباقون: «قبلا» بكسر القاف وفتح الباء {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} .

وما نرسل الرسل والأنبياء الا ليبشروا بالإيمان والتصديق بالله ورسله وبجزيل ثوابه، وينذروا الناس بعظيم عقابه وأليم عذابه. ويجادل الذين أشركوا بالباطل، ليبطلوا الحق، واتخذوا آيات الله وحججه والنذر التي انذرهم بها استهزاء وسخرية.

١٨.١٣ 57

اكنته: أغطية، واحدها كان. ان يفقهوه: ان يفهموه. وقرا: ثقلاً. موثلاً: ملجأ، يقال وَأَلَّ يَلَّ وَأَلَّ وَوُؤَلًا: لجأ. ليس هناك أظلم من وعظ بآيات الله فلم يتدبرها، ونسي عاقبة ما عمل من المعاصي، وبسبب ميلهم الى الكفر جعلنا على قلوبهم أغطية، فلا تعقل، وفي آذانهم صمماً فلا تسمع، وإن تدعهم ايها الرسول الى دين الله الحق فلن يهتدوا ابدا. ثم بين الله تعالى انه لا يعجل العقوبة لعباده على ما يقتربون من السيئات والآثام، لعلهم يرجعون اليه ويتوبون فقال: {وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ} .
إن ربك ايها الرسول عظيم المغفرة لذنوب عباده، فهو يرحمهم ويتجاوز عن خطاياهم. ولو شاء ان يؤاخذهم على أعمالهم السيئة لعجل لهم العذاب، لكنه لحكمة قدرها إنما أخرهم لموعده ليس لهم عنه مهرب ولا ملجأ. {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} . وتلك القرى من عاد وثمود واصحاب الأيكة وغيرهم دمرناهم لما ظلم اهلها بتكذيب رسلهم، وجعلنا لهلاكهم موعدا، وكذلك نفعل بالمكذبين من قومك اذا لم يؤمنوا. قراءات:

قرأ حفص: لمهلكهم: بفتح الميم وبكسر اللام والكاف. وقرأ ابو بكر: لمهلكهم: بفتح الميم واللام: والباقون: لمهلكهم: بضم الميم وكسر اللام.

فتاه: خادمه، تلميذه. لا ابرح: لا ازال سائرا. مجمع البحرين: مكان اجتماعهما. حقبا: مدة طويلة: سربا: مسلكا. نصيبا: تعباً. اويناً: التجأنا. ذلك ما كنا نبغي: ذلك ما كنا نريد. فارتدا على آثارهما قصصا: رجعا في نفس الطريق التي جاءوا منها. الحوت: السمكة الكبيرة.

هذه القصة الثالثة التي اشتملت عليها سورة الكهف، وهي قصة موسى مع الرجل الصالح الذي آتاه الله علما. وهذه القصة وردت هنا في سورة الكهف ولم تكرر في القرآن. وموسى هذا اختلف المفسرون فيه: هل هو موسى بن عمران النبي المرسل صاحب التوراة، او موسى آخر؟ واكثر المفسرين على انه موسى بن عمران. وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: ان نوحا البكالي من اصحاب امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني اسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله.

ونوف البكالي هذا كان من التابعين ومن اصحاب سيدنا علي بن ابي طالب وإمام اهل الشام في عصره. وكان ابن زوجة كعب الاحبار، وكان راويا للقصص، توفي نحو سنة ٩٥ هـ.

وعند اهل الكتاب وبعض المحدثين والمؤرخين ان موسى هذا ليس موسى بن عمران، بل موسى آخر، وهو متقدم في التاريخ. والقرآن الكريم لم يحدد الاسماء ولا زمن الحادثة، ونحن لا يهمننا الاشخاص وانما نقف مع نصوص القرآن، والعبرة من القصص، وما نستفيد منها.

وفتاه: يقول المفسرون انه يوشع بن نون تلميذه وخليفته. ومجمع البحرين لم يحدد مكانهما، وهناك اقوال كثيرة منها انهما البحر الاحمر والبحر الابيض، او مجمع البحرين عند طنجة وغير ذلك.

قال البقاعي في «نظم الدرر»: الظاهر والله اعلم ان مجمع البحرين عند دمياط او رشيد من بلاد مصر، حيث مجمع النيل والبحر الابيض.

وكلها اقوال بدون دليل او خبر قطعي.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا. . .}

اذكر ايها الرسول حين قال موسى لفتاه خادمه وتلميذه: سأظل اسير حتى ابلغ ملتقى البحرين او أسير زمنا طويلا حتى التقي به.

وسبب ذلك كما في كتب الحديث: «عن ابي كعب رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول: ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل، فسئل اي الناس اعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه، فأوحى الله اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك. قال

موسى: يا رب وكيف لي به؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكمل، فحيثما فقدت الحوت فهو هناك» المِكَل: النزيل، القفة.

فلما وصل موسى وفتاه المكان الجامع بين البحرين نسيا حوتهما الي حملاه معهما، وكان الحوت سقط في الماء وغاص فيه.

فلما ابتعدا عن ذلك المكان، أحس موسى بالجوع والتعب، فقال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا في هذا السفر تعباً ومشقة.

فقال له فتاده: اذكر حين جلسنا نستريح عند الصخرة، فاني نسيت الحوت هناك، ان الحوت سقط في البحر، ونسيت ان اذكر لك ذلك، وما انساني ذلك الا الشيطان.

فقال له موسى: ان هذا الذي حدث هو ما اريده لحكمة ارادها الله. فرجعا في الطريق الذي جاء فيه يتبعان اثرهما حتى أتيا الصخرة.

رشدا: اصابة الخير. على ما لم تحط به خبرا: على معرفة الشيء معرفة تامة. والخبر: المعرفة. ذكرا: بيانا وشرحا.

فلما بلغا تلك الصخرة وجدا عندها رجلا صالحا اعطاه الله الحكمة، أي علمه من عنده علما كثيرا. وسلم عليه موسى، وقال له: هل

اصحبك لتعلمني مما علمك الله أسترشد به في امري؟ فقال الرجل الصالح: انك لن تستطيع الصبر على ما تراه مني.

وكيف تصبر على أمور ظاهرها منكر، وباطنها مجهول لا خبرة لك بمثلها؟ قال موسى: ستجدني ان شاء الله صابرا معك مطيعا لك فيما تأمر به.

قال الرجل الصالح: ان سرت معي ورأيت اني عملت عملاً منكراً فلا تعترض علي وتسالني عنه حتى أحدثك عنه وأبين لك سره. وهذا العبد الصالح اختلف العلماء فيه، هل هو الخضر كما هو شائع بين اكثر المفسرين او هو رجل آخر، وهل هو نبي او ملك من الملائكة، او ولي؟ وهذا قول كثير من العلماء.

واختلف فيه: هل هو لا يزال حيا الى اليوم او انه مات، فقد انكر البخاري ان يكون حيا، وعلماء السنة يقولون انه ميت بدليل قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ} [الأنبياء: ٣٤].

وبذلك جزم ابن المناوي وابراهيم الحربي وابو طاهر العبادي، وابو يعلى الحنبلي، وابو الفضل بن تامر، والقاضي ابو بكر بن العربي، وابو بكر بن النقاش، وابن الجوزي. قال ابو الحسين بن المناوي: بحثت عن تعبير الخضر، وهل هو باق ام لا فاذا اكثر المغفلين مغترون بانه باق، والاحاديث الواردة واهية والسند الى اهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم.

وقال في «فتح البيان»: والحق ما ذكره البخاري واضرابه في ذلك، ولم يرد في ذلك نص مقطوع به، ولا حديث مرفوع اليه ﷺ حتى يقيمه عليه.

ويقول الصوفيون انه حي، وان بعضهم لقيه، وهذا كلام ليس عليه دليل ويناقض نصوص القرآن.

وبما انه لم يرد نص معتمد في القرآن او الحديث فاننا نكتفي بالعبارة من القصة، ولا يهمننا معرفة الاسماء والاشخاص.

وقد كتبنا لحافظ ابن حجر في «الاصابة» بحثا طويلا في نحو عشرين صفحة قال فيه: وقد جمعت من اخباره ما انتهى إليّ علمه مع بيان ما يصح من ذلك وما لا يصح.

١٨٠١٦ 71

إمرا: منكرا. لا ترهقني: لا تمهلني ما لا اطيع. العسر: الشدة والمشقة وضد اليسر، يعني ارفق بي وعاملني باليسر. زكية: طاهرة من الذنوب. نكرا: منكرا تنفر منه النفوس. قد بلغت من لدني عذرا: وجدت عذرا من قبلي. استطعما اهلها: طلبا منهم ان يطعموهما. جدارا يريد ان ينقض: حائطا مشرفا على السقوط. فأقامه: فسواه ورممه. هذا فراق بيني وبينك: إلى هنا انتهى اجتماعنا. سأنبك بتأويل: سأخبرك بتفسير ما لا تعرفه. خيرا منه زكاة: احسن منه طهارة. واقرب رحما: قرابة ورحمة. كنز: مال مدفون تحت الجدار. يبلغا اشد هما: بلوغ الرشد وكمال العقل.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، حتى وجدا سفينة فركبها، فغرقها العبد الصالح فاعترض موسى قائلا: أحرقت السفينة لتغرق من فيها من الركاب؟ لقد راتكيت امراً منكرا.

قال العبد الصالح: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} لما ترى من اعمالي ولا تدرك سرها. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: «ليغرق اهلها» بالياء ورفع اهلها.

قال له موسى: لا تؤاخذني فقد نسيت العهد الذي بيننا، ولا ترهقني مشقة ويسر عليّ أمري.

وخرجا من السفينة فانطلقا يمشيان، فلقيا صبياً، فقتله العبد الصالح فقال موسى مستنكرا هذا العمل: كيف تقتل نفسا طاهرة بريئة من الذنوب، ولم ترتكب ذنبا!

{لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} لقد ارتكبت اثما عظيما.

الى هنا تم تفسير الجزء الخامس عشر، والحمد لله على ذلك، واسأل الله تعالى ان يعين على اتمامه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} .

قال العبد الصالح: لقد قلت لك: انك لن تستطيع الصبر على ما ترى من اعمالي.

قال موسى: ان سأئتلك عن شيء بعد هذه المرة عن عجيب افعالك التي اشاهدها فلا تصاحبني، قد بلغت الغاية التي تعذر بسببها في فراق.

قراءات:

قرأ يعقوب: فلا تصحبي. والباقون: فلا تصاحبني. وقرأ نافع: من لدني. بتخفيف النون. وقرأ أبو بكر: من لدني: بإسكان الدال.
قرأ ابن كثير والبصريان: لتخذت عليه اجرا، بفتح التاء وكسر الخاء.
فانطلقا يمشيان حتى وصلا الى قرية، فطلبا من اهلها ان يطعمهما، فرفضوا ان يضيفوهما ووجدا في القرية جدارا يكاد يسقط، فسوّاه العبد الصالح ورممه. فقال موسى: لو شئت لطلب اجره على بنائه.
فقال: هذا الاعتراض الدائم منك على ما افعل سبب الفراق بيني وبينك، وسأخبرك بحكمة هذه الافعال التي خفي عليك امرها ولم تستطع الصبر عليها.

اما السفينة التي احدثت فيها خرقا، فهي لمساكين ضعفاء يعملون بهافي البحر لتحصيل رزقهم، فحدثت فيها عيبا، لانه كان هناك ملك يغتصب كل سفينة صالحة، ويعمل هذا نجت السفينة من ذلك.

واما الغلام الذي قتلته، فكان ابواه مؤمنين، وعلمت انه ان عاش فإنه سيكون سبباً لكفرهما.

واراد ربك بقتله ان يعوضهما خيرا منه ديناً واقرب براً ورحمة. واما الجدار الذي أقمته دون اجر، فكان لغلامين يتيمين من اهل المدينة، وكان تحته مال مدفون تركه ابوهما لهما، وكان رجلا صالحا، فاراد الله ان يحفظ لهما ذلك المال حتى يبلغا رشدهما ويستخرجاه، رحمة ربهما، وتكريماً لأبيهما.

واعلم اني ما فعلت هذا كله بأمرى واجتهادي من عندي نفسي، وانما فعلته بتوجيه من ربي، هذا تفسير ما خفي عليك يا موسى، ولم يستطع الصبر عليه.

قرأ نافع وابو عمرو: ان يبدلها بتشديد الدال. وقرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم: رحما بضم الراء واسكان الحاء. والباقون: رحما بضم الراء والحاء.

اختلف المؤرخون والمفسرون في شخصية ذي القرنين، فقال كثير من المفسرين انه اسكندر المقدوني، وفي تاريخ ملوك حمير واقبال اليمن ان ذا القرنين هو تبع بن شمريرعش. . وانه غزا بلاد الروم واوغل فيها حتى وصل الى وادي الظلمات.
وفي رواية انه الصعب بن تبع ابن الحارث ويلقب بذي القرنين، وروايات كثيرة، وكلها من باب الرجم بالغيب والظن الذي لا يغني عن الحق شيئا.

ويقول ابو الكلام آزاد في كتابه عن ذي القرنين انه «كورش الأكبر» مؤسس الاسرة الانحينية، والذي يقول العقاد إننا اذا انعمنا النظر في التاريخ نجد ان اوصافه تنطبق على ما وصف به القرآن ذا القرنين، اذ كان ملهماً وفاتحا عظيما، غزا الارض شرقا وغربا واقام سدا ليصد به هجمات المغيرين من «يأجوج ومأجوج» على بلاده. واما اسكندر المقدوني فقد كان وثنيا معروفا بالقسوة والوحشية، ثم ان الاسكندر لا يعقل ان يكون هو باني سور الصين، فهو اولاً لم يصل الصين، بل عاد من الهند حيث تمرد عليه رجاله، وان سد الصين بني بعده بنحو مائة وعشرين سنة. ما بين سنة ٢٤٦ - ٢٠٩ قبل الميلاد وبانيه معروف وهو الملك «ش هو النجتي». وطول سد الصين ٢٤٠٠ كيلو متر استغرق بناؤه سنين عديدة. وسيأتي الكلام على السد ومكانه قريبا.

١٨٠١٧ 83

ذكراً: خبرا. مكّأ له في الارض: جعلنا له قوة وسلطة. آتيناه من كل شيء سبباً: هيأنا له السبب الذي يوصله الى ما يريد. وأتبع سبباً: سار في طريقه. حمّة: ذات طين اسود. نكراً: فظيعة. الحسنى: المثوبة الحسنة. يسرا: سهلا ميسرا. خبرا: علما.
{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا}

يسألك بعض زعماء قريش ايها الرسول عن نبأ ذي القرنين فقل لهم سأقص عليكم بعض اخباره.

روي في سبب نزول سورة الكهف ان زعماء قريش ارسلا النضر بن الحارث وعقبة بن ابي معيط الى احبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته، واخبراهم بقوله فانهم اهل الكتاب الاول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الانبياء. . فقال لهم اليهود: سلوه عن ثلاث، فان اخبركم بهن فهو نبي مرسل والا فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر

الاول، ما كان من امرهم، فانهم كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طَوَّاف بلغ مشارق الارض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فان اخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه. . . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قریش فقالا: يا معشر قریش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، فأخبروهم بما قال اليهود. فجاؤا رسول الله ﷺ وسأله عن هذه الأمور الثلاثة. فقال: اخبركم غدا عما سألتكم ولم يقل ان شاء الله، ومكث خمس عشرة ليلة لم يأته الوحي. فأرجف اهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم نمش عشرة قد اصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه! وشق ذلك على النبي الكريم، ثم جاءه جبريل بسورة الكهف. وهناك روايات اخرى في سبب النزول ولا يهمننا ذلك كله، والمهم العبرة من القصص القرآني وكيفينا ذلك.

{إِنَّا مَكَّاءٌ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}

انا مكاء لأمره في الأرض، فاعطيناه سلطانا قويا، ويسرنا له اسباب الحكم والفتح، واسباب البناء والعمران، وآتيناه الكثير من العلم بالاسباب كي يستطيع توجيه الأمور، ورحل ثلاث رحلات: واحدة الى المغرب، وواحدة الى المشرق، وواحدة الى ما بين السدين. قراءات:

قرأ ابن عامر واهل الكوفة: فأتبع سببا، بفتح الهمزة وسكون التاء، اولباقون: فأتبع سببا: بجعل الهمزة الف وصل، وتشديد التاء المفتوحة.

{فَاتَّبَعَ سَبَبًا} ومضى بهذه الاسباب يبسط سلطانه على الارض، حتى اذا وصل الى مكان بعيد جهة مغرب الشمس، ووقف على حافة البحر، وجد الشمس تغرب عند عين ذات حمأة وطين اسود، ووجد بالقرب من هذه العين قوما كفارا. فألهمه الله ان يتخذ فيهم احد امرين: اما ان يدعوهم الى الايمان، وهذا امر حسن في ذاته؛ واما ان يقاتلهم إن لم يجيبوا داعي الايمان. قراءات:

قرأ ابن عامر واهل الكوفة الا حفصا: في عين حائمة. والباقون: في عين حمئة بفتح الحاء وكسر الميم وفتح الهمزة، كما هو في المصحف. قرأ اهل الكوفة الا ابا بكر: فله جزاء الحسنی: بنصب جزاء مع التنوين. والباقون فله جزاء الحسنی: برفع جزاء واضافته الى الحسنی. فقال ذو القرنين: ان من ظلم نفسه بالبقاء على الشرك، استحق العذاب في هذه الدنيا على يديه، ثم يرجع الى ربه فيعذبه عذابا شديدا. واما من استجاب وآمن بربه وعمل صالحا، فله المثوبة الحسنی في الآخرة، وسنعامله في الدنيا برفق ولين ويسر.

{ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا} وقفل راجعا من مغرب الشمس حتى بلغ مشرق الشمس حيث بلغ غاية المعمور من الارض في ذلك الزمن، فوجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكتنهم، ولا لباس لهم، فهم عراة في العراء او في سرايب في الارض.

{كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}

ان امر ذي القرنين كما وصنا من قبل بلوغه طرفي المشرق والمغرب، ونحن مطلعون على جميع احواله لا يخفى علينا شيء منها.

١٨٠١٨ 92

السدين: الجبلين. خرجا: اجرة من اموالنا. ردما: حاجزا. زبر الحديد: قطع الحديد، المفرد زبرة، الصدفين: واحدها صدف: جانب الجبل. قطرا: نحاسا مذابا، او رصاصا. ان يظهره: ان يرقوا عليه ويجتازوه. دكاء: مهدوما مستويا مع الارض. نفخ في الصور: الصور: قرن ينفخ فيه فيحدث صوتا عاليا.

{حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} . وهذه رحلة ذي الرقنين الثالثة فلما وصل الى مكان بعيد بين جبلين وجد هناك قوما لا يفهمون ما يقال لهم لغرابة لغتهم وجهلهم. ويقال ان الجبلين المذكورين عند مدينة دربند، بالقرب من مدينة ترمذ حيث يرعف بباب الحديد.

{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} . قال المجاورون لهذين الجبلين لذي الرقنين انه يوجد اناس مفسدون في الارض وهم يأجوج ومأجوج، ويقال انهم التتر والمغول، وكانوا يغيرون على الأمم المجاورة لهم فيفسدون ويدمرون، ولذلك توسل المجاورون الى ذي القرنين ان يجعل بينهم وبينهم سدا.

ولذلك أجاب طلبهم بأنه بحول الله وقوته سيبنى هذا السد، وشرع فيه وقال لهم: أعينوني بما تقدرون عليه من رجال وادوات احقق لكم هذا الطلب و {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} . وطلب منهم ان يمدوه بقطع الحديد، فاقام سدا عاليا ساوى به بين حافتي الجبلين، ثم امر ان يوقدوا نارا حتى انصهر الحديد فصب عليه النحاس المذاب، فاصبح سدا منيعا. ويقول الخبراء الذين زاروا تلك المنطقة: ان هذا السد موجود الآن ويعرف بسد دريند، وطوله ٥٠ ميلا وارتفاعه ٢٩ قدما، وسمكه عشرة اقدام، وتتخلله بعض الأبواب الحديدية، فوي اعلاه برج للمراقبة.

{فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} .

فما استطاع يأجوج ومأجوج ان يجتازوه، ولا ان ينقبوه لصلابته.

وبعد ان أتم ذو القرنين بناء السد، قال شاكرًا لله:

{قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} .

ان هذا السد من رحمة الله بكم، وسيظل قائما حتى يسويه بالارض، وان امر الله نافذ لا محالة.

وهذا النص لا يحدد معيناً لخروج يأجوج ومأجوج، ففي سورة الانبياء {حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ} [فن الجائز ان تكون هي غارات المغول والتتر التي دمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاء، ويكون هذا تصديقا للحديث الصحيح الذي رواه الامام احمد عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول:

«ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا.

وحلق باصبعيه السبابة والابهام. قلت: يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم اذا كثر الخبث.»

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}

وتركنا يأجوج ومأجوج خلق السد يموج بعضهم في بعض لكثرتهم الى ان نأمر بفتحه ويخرجون الى ما وراءه يفسدون ويدمرون كعادتهم.

فاذا كان موعد يوم القيامة ونفخ في الصور، يجمع الله الخلائق جميعا للحساب والجزاء.

قراءات:

قرأ نافع وحمزة والكسائي وابن عامر وابو بكر ويعقوب: بين السدين بضم السين. والباقون بين السدين بفتح السين، وهما لغتان.

وقرأ حمزة والكسائي: لا يكادون يفقهون قولاً «بضم الياء وكسر القاف. والباقون: يفقهون بفتح الياء والقاف. وقرأ عاصم وحده: يأجوج ومأجوج بالهمز. والباقون: ياجوج وماجوج بدون همز.

وقرأ أهل الكوفة: خراجا، الا عاصما: خرجا. وقرأ ابن كثير: ما مكثني. وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر الصدين بضم الصاد والذال، وقرأ ابو بكر: الصدين بضم الصاد واسكان لادال. والباقون: الصدين بفتح الصاد والذال. وقرأ حمزة وابو بكر: اثوني. والباقون: آتوني بمد الهمزة. وقرأ أهل الكوفة: دكاء بالهمزة مع المد. والباقون: دكا، بدون همزة.

١٨٠١٩ 100

غطاء: غشاوة. اعتدنا هيأنا. نزلا: اصل النزلا ما يُهَيَّأ للضيف النزيل، وهنا جعل جهنم مكانا لهؤلاء الجاحدين ينزلون به. الهزؤ: السخرية.

{وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ} . . .

بعد ان ذكر الله تعالى انه اذا نفخ في الصور وجاء يوم القيامة جمع الناس من جميع اطراف الارض - بين هنا انه عند ذلك يبرز جهنم ويعرضها للذين كفروا بالله، الذين كانت اعينهم في الدنيا مقفلة، وقلوبهم في غفلة عن ذكره، وكانوا لا يستطيعون ان يسمعون ذكر الله.

ثم بين ان ما اعتمدوا عليه من المعبودات الاخرى لا تنفعهم ولا تنصرهم في ذلك اليوم.
 {أَحْسَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ. . .}

اظنوا ان اتخاذهم المعبودات الضعيفة التي لا تملك لهم ضرا ولا نفعا ينفعهم او ينجيهم من العذاب. إنا أعتدنا لهم جهنم مقرا ينالون فيه ما يستحقون من جزاء.

وفي ذلك تهكم بهم، وتهطئة في حسابهم ذلك، وإشارة الى ان لهم وراء جهنم الوانا اخرى من العذاب.
 ثم بين سبحانه ما فيه تنبيه الى جهلهم وخسرانهم فقال:

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}

قل ايها الرسول لهؤلاء الجاحدين هل نخبركم بأشد الناس خسرانا لأعمالهم، الذي بطل عملهم في الحياة الدنيا، وهم يعتقدون انهم يحسنون بعملهم صنعا! انهم عملوا بغير ما امرهم الله به، وظنوا انهم بفعلهم هذا مطيعون له، وقد ذهب سعيهم هباء فلم يجدهم شيئا.

ثم بين الله السبب في بطلان سعيهم فقال:

{وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا. .}

هؤلاء الذين كفروا بما جاء به الرسول من دلائل وآيات، وانكروا البعث والجزاء ولقاء الله فحبطت اعمالهم، اي فسدت وبطلت. وأصل الحبوط انتفاخ بطن الدواب عندما تأكل شيئا يضرها من الكلال ثم تلقى حتفها، وهذا انسب شيء لوصف اعمال هؤلاء الكفار الذين هم اشبه شيء بالدواب. ولذلك سوف يمهلون يوم القيامة ويتركون في جهنم، ولا قيمة لهم.

ثم بين ما لهم بسبب كفرهم وسائر معاصيهم بعد ان بين حبوط اعمالهم وخسرانهم فقال {ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} ذلك الذي بيناه وفصلناه شأن هؤلاء، وجزاؤهم جهنم بسبب كفرهم وسخريتهم بما انزل الله.

١٨٠٢٠ 107

الفردوس: المنازل العليا في الجنة: حولا: تحولا. مدادا: حبرا. يرجو لقاء ربه: يطمع في لقائه.

بعد ان ذكر سبحانه ما اعد له للكفار من عذاب، جزاء بجحودهم بربهم واستهزائهم برسله وآياته - بين هنا المقابل، وهو حال المؤمنين وما ينتظرون من نعيم مقيم وجنات تجري من تحتها الانهار فقال:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا. .}

ان الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاؤا به، وعملوا صالح الاعمال جزاؤهم اعلى المنازل في الجنة، خالدين فيها ابدًا، لا يرضون غيرها بديلا.

ثم ختم السورة ببيان حال القرآن الذي فيه الدلائل والبيانات على وحدانية الله، وارساله الرسل، وكلماته التي لا نهاية لها، فالبحر وسعه مهما كبر يظل صغيراً الى جنب علم الله وكلماته التي تمثل العلم الالهي الذي لا حدود له، والذي لا يدرك البشر نهايته.

{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي. . .} قل ايها الرسول للناس: ان علم الله محيط بكل شيء، ولو كان ماء البحر مدادا يسطر به كلمات الله الدالة على علمه وحكمته لنفذ هذا المداد، ولو مد بمثله، قبل ان تنفذ كلمات الله، لأن علوم الله ولجته لا نهاية لها. ومثل قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} [لقمان: ٢٧].

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ. . .} قل لهم ايها الرسول: انما انا انسان مثلكم أستمّد علي من الوحي الالهي، اعلمكم ما علمني الله اياه، وقد اوحى الله الي ان ربكم واحد لا شريك له، فمن كان يطمع في لقاء الله وثوابه فليعمل الاعمال الصالحة مخلصا له، {وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} هذا هو العمل العظيم الذي ينجي الانسان عند لقاء ربه.

وهكذا تختم سورة الكهف التي بدأ بذكر الوحي والتوحيد بما بدئت به من ان محمد عليه الصلاة والسلام بشر مرسل يوحى اليه، والتوحيد وعدم الشرك هما الجواز الذي يوصل الى الجنة. نسأل الله تعالى ان يجعل علمنا خالصا لوجهه الكريم.

١٩ مريم

١٩٠١ 1

كاف. ها. يا. عين. صاد. هكذا تُقرأ. وهي تنبيه للسامعين، وتوجيه لنظرهم. وهن العظم مني: ضعف ورق من الكبر. اشتعل الرأس شيئا: صار الشيب كأنه نار، والشعر كالخطب، والمقصود أن رأسه شاب من الكبر. ولم اكن بدعائك رب شقيا: وكنت بدعائي لك سعيدا غير شقي، فإنك كنت تستجيب لي دائما. الموالي: أقارب الرجل. من ورأي: من بعد موتي. عاقر: لا تلد، ويقال للرجل والمرأة عاقر. وليا. وراثا. رضيا: مرضيا عندك.

ذكر زكريا في القرآن الكريم ثمان مرات: في سورة آل عمران، والانعام، ومريم والأنبياء. ولم يذكر نسب زكريا في القرآن، ولا في كتب الأنبياء عند اهل الكتاب. وكل ما هو معروف أنه من ولد سليمان بن داود، وكان زوجا لخالة مريم. وذكر في حديث المعراج ان زمكريا ويحيى ابنا خالة وعلى هذا يكون ذلك تجوزا.

ويحيى بن زكريا عرف عنه الصلاح وطلب العلم منذ صباه، فكان يقضي أكثر أوقاته في البرية يعيش على العسل والجراد، حتى حصل على رتبة عالية في الشريعة الموسوية، وأصبح مرجعا مهما لكث من يستفتي في أحكامها. {وَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} .

وكان يحيى على أكل أوصاف الصلاح والتقوى، وقد نبىء قبل الثلاثين، وكان يدعو الناس الى التوبة من الذنوب، وكان يعمدهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا. وهو الذي عمّد المسيح واسمه عندهم «يوحنا المعمدان» .

وكان حاكم فلسطين في زمنه «هيرودس» وكانت له بنت أخت يقال لها «هيروديا» كانت بارعة الجمال، فأراد عمها ان يتزوجها. وكانت البنت موافقة وكذلك أمها، غير ان يحيى لم يرص عن هذا الزواج لأنه محرم. فاخذت الأم ابنتها الى مجلس عمها وجعلتها ترقص له، وقالت لها: إذا عرّض عليك شيئا، فاطلبي رأس يحيى. ففعلت. ووفى لها عمها الحاكم بذلك. . قتل يحيى وأحضر لها رأسه على طبق. وبعد ان قتل يحيى أخذ المسيح يجهر بدعوته، وقام في الناس واعظا.

{ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. . . .}

نقص عليك أيها الرسول خبر رحمتنا لعبدنا زكريا حين دعا ربه في خفية عن الناس، فقال: رب إني قد ضعفت، وشاب رأسي، وإنك يا رب تمن علي دائما وتستجيب دعائي. لذلك فإني سعيد بدعائي لك، ولم أكن به شقيا. لقد خفت بعد موتي ألا يحسن أقاربي القيام على امر الدين، وامراتي عاقر لا تلد، فارزقني من رحمتك وفضلك غلاما يخلفني في قومي، اجعله يا رب يرثني في العلم والدين، ويرث من آل يعقوب واجعله يا رب برا تقيا مرضيا عندك وعند خلقك. والمراد بالورثة هنا وراثه العلم والدين، لأن الأنبياء لا يورثون مالا ولا عقارا.

قراءات:

قرأ ابو عمرو والكسائي: يرثني ويرث من آل يعقوب بجزم الفعلين.

لم نجعل له من قبل سمياً: لم يُسَمَّ أحد بهذا الاسم قبله. عتاً الشيخ: كبر وانتهى. وقد بلغت من الكبر عتياً: بلغت من الكبر حالةً يست معها مفاصلي وعظامي. آية: علامة. سوياً: سليماً صحيحاً. المحراب: المصلى. فأوحى زكريا اليهم: أشار اليهم. {يا زكريا إنا نبشرك بغلام. . . .} .

لقد أخبر الله تعالى زكريا انه أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسه، ونادى: زكريا، إنا نبشرك بهبتنا لك غلاماً اسمه يحيى، ولم نسم به احداً من قبله.

فَسَرَّ زَكِيَا هَذِهِ الْبَشْرَى وَقَالَ مَتَعَجِباً: يَا رَبِّ، كَيْفَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَزَوْجَتِي عَاقِرٌ وَأَنَا قَدْ ضَعُفْتُ مِنَ الْكِبَرِ وَبَلَغْتُ سِنَ الشَّيْخُوخَةِ! . {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ. . . .} .

فأوحى الله لعبد زكريا أن الأمر كما بُشِّرَتْ. ان مَنَحَكَ الولدَ وأنت على هذه الحالة من كبر السن وعقم الزوجة هيّن علي. ثم ذكر ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً} خلقتك من العدم.

قال زكريا عندما سمع هذه البشري وتحقق من تمامها: رَبِّ اجْعَلْ لِي عِلَامةً تَدَلُّ عَلَى حُصُولِ مَا بُشِّرْتُ بِهِ، قال: علامتك هي أن لا تستطيع الكلام مدة ثلاث ليال وأنت صحيح سليم الحواس.

نفرج زكريا على قومه من مصلاه وهو منطلق اللسان بذكر الله ولا يستطيع ان يكلم الناس، فأشار الى قومه ان سبّحوا الله صباحاً ومساءً. قراءات:

قرأ حمزة: نُبَشِّرُكَ: بضم النون واسكان الباء من أبشر. والباقون: نبشرك بفتح الباء وتشديد الشين. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: عتياً، بكسر العين. والباقون: عتياً، بضم العين.

الكتاب: التوراة. بقوة: بجهد واجتهاد. الحكم: الحكمة والمعرفة. حنانا: عطفنا على الناس. وزكاة: طهارة من الذنوب. وبرا بوالديه: كثير الاحسان اليهما. ولم يكن جباراً عصياً: لم يكن متكبراً متعالياً مخالفاً لما أمر به.

ثم ناداه الله: يا يحيى، خذ التوراة واعمل بجد واجتهاد وعزم، وآتاه الحكمة والعلم منذ صباه، ونشأ على التقوى. وقد جعله الله ذا حنان وشفقة على الناس، وطهارة نفس، وكان تقياً. كما جعله كثير البر بوالديه والاحسان اليهما والى الناس، ولم يجعله متجبراً عليهم، ولا عاصياً لله.

ثم ذكر سبحانه جزاء يحيى على ما قدّم من عمل صالح وأسلم من طاعة ربه فقال:

{وَسَلَامٌ عَلَيْهِ. . . .}

وتحية من الله عليه، وأمان له يوم موته، ويوم يُبعث يوم القيامة حياً. في هذه المواطن الثلاثة يكون العبد أحوَج ما يكون للرحمة والأمان. ذلك هو يحيى الذي اعطاه الله الحكم صبياً، واستجاب دعاء ابيه زكرياً ووهبه ذلك الغلام الطاهر.

انتبذت: اعتزلت. مكاناً شرقياً: شرقي بيت لحم، وذلك في الغور لأنه المكان الوحيد في بلادنا الذي يثمر فيه النخل. روحنا: جبريل. بشراً سوياً: رجلاً كامل الخلقة. أعوذ: أعتصم والتجىء. تقياً: مطيعاً. لأهب: لأكون سبباً في هبته لك. زكريا: طاهراً. أتى يكون لي غلام: كيف يكون لي غلام. آية: علامة على قدرة الخالق. مقضياً: محتوماً.

بعد ان ذكر الله قصة زكريا واستجابة دعائه، ويحيى الذي اوجده الله من شيخين فانيين - ثنى بقصة عيسى لأنها اغرب من ذلك. وقد فتنت قصة عيسى عليه السلام كثير من البشر حتى تصوره إلهاً، ونسجوا حوله كثيراً من الخرافات والاساطير، فجاء القرآن الكريم يقص كيف وقعت هذه القصة العجيبة، ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفي تلك الخرافات والاساطير.

واذكر ايها الرسول ما في القرآن من قصة مريم حين اعتزلت عن اهلها في مكان شرقي بيت لحم والقدس حيث كانوا يقيمون. وضربت بينها وبينهم حجاباً. فارسلنا اليها جبريل في صورة انسان معتدل الخلق، فلما رآته مريم فزعت منه وقالت: اني استجير بالرحمن منك ان كنت ثقتي الله وتحشاه.

فقال جبريل مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لا تخافي اني رسول من ربك لاكون سبباً في ان يهب الله لك غلاماً طاهراً مبرأ من العيوب.

فعجبت مريم مما سمعت وقالت لجبريل: كيف يكون لي غلام، ولست بذات زوج، ولم يقربني انسان ولست من اهل الفجور؟ . فقال لها الروح الامين: ان الله قد قال: ان هذا الأمر عليه هين، وان اسباب الولادة لا تنحصر عند الله بما هو المعتاد من زوجين، فانه كما اوجد آدم من غير اب وأم، واوجد هذا الكون من العدم - فانه يهب لك الغلام من غير اب {إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٤٧] . وقد نفخ جبريل في قيصها فكانت تلك النفخة سبباً للحمل، كما في قوله تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا} [الأنبياء: ٩١] . وفي سورة التحريم الآية ١٢ {وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا} وقد قدرنا ذلك لنجعل خلقه برهاناً على قدرتنا كما يكون رحمة لمن يهتدي به، وكان خلق عيسى محتوماً.

قرءات: قرأ ابو عمرو ونافع: ليهب لك، بالياء. والباقون: لأهب لك كما هو في المصحف.

١٩٠٥ 22

قصياً: بعيداً عن اهلها في غور الاردن. فأجاءها المخاض: فألجأها الطلب. نسيا منسياً: نسياً بفتح النون وكسرها، الشيء الذي لا قيمة له فيظل منسياً لا يذكر. سرياً: شريفاً. رطباً جنياً: الرطب، هو ثمر النخل اذا ادرك ونضج قبل ان يصير تمراً. جنياً: صالحاً للقطف. نذرت للرحمن صوماً: يعني صوماً عن الكلام.

وتحققت ارادة الله تعالى، وحملت مريم بعيسى، وذهبت بحملها الى المكان البعيد عن الناس. . الى غور الاردن، لأنه هو المكان الذي يوجد فيه النخل وهو المكان الشرقي البعيد وكان مأهولاً من بعض المتعبدين. وكون الوقت فيه رطب يعين ان يكون وقت الولادة في الصيف، لا في الشتاء كما يقرر النصارى الذين يوقتون الميلاد في الشتاء.

فألجأها ألم الولادة والطلق الى جذع النخلة لتستند اليه وتستتر به، وتمنت لو انها كانت ماتت قبل هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت، حياء من الناس وخوفاً من لومهم، وكان شيئاً منسياً. لان الناس لا يعرفون الحقائق ولا يعذرون.

فناداها عيسى من تحتها، حيث انطقه الله. وتلك ايضا من المعجزات: لا تحزني بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومن الألم، ومما يقوله الناس، فقد جعل ربك تحتك انساناً شريفاً رفيع القدر والشأن.

يفسر بعض المفسرين: سرياً بمعنى الجدول او النهر، وان المنادى جبريل، فكيف يكون جبريل تحتها؟ . . {وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا} .

وهزي النخلة يتساقط عليك الرطب الطيب، والرطب فيه الغذاء الكافي، ويعيش عليه خلق كثير.

ويقول بعض المفسرين ان الوقت لم يكن صيفاً، والله أحياناً تلك النخلة وجعل فيها الرطب. . وهذا كلام ليس عليه دليل.

فكلي من ذلك الرطب، واشربي من الماء عندك وطيب نفسي، فان رأيت احداً من البشر ينكر عليك امرك، فأفهميه بانك نذرت لله الصوم عن الكلام وأنت لا تكلمين اليوم احداً.

قرءات

قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وابو بكر: يا ليتني مت بضم الميم، والباقون: مت بكسر الميم. فهما لغتان. قرأ حمزة وحفص: نسيا بفتح النون، والباقون: نسيا بكسر النون وهما لغتان. قرأ حفص وحمزة والكسائي ونافع: من تحتها من حرف جر وكسر تحتها، كما هو في المصحف، والباقون: من تحتها. بفتح ميم من، وتحتها بفتح التاء. قرأ حفص: تساقط بضم التاء وكسر القاف. وقرأ حمزة: تساقط بفتح التاء والسين بدون تشديد. وقرأ أبو عمر وابن عامر والكسائي وابو بكر: تساقط بفتح التاء والسين المشددة. وقرأ يعقوب: يساقط بضم الياء والجميع باسكان الطاء جواب الامر.

١٩٠٦ 27

فريا: عجيبا، مختلفا. يا اخت هارون: يا شبيهة هارون في التقوى والصلاح. المهد: الموضع يهياً للصبي. الكتاب: الإنجيل. يمترون: يشكون يوتازعون.

بعد ان وضعت مريم وليدها أقبلت على أهلها تحمل عيسى، فقالوا لها مستنكرين: يا مريم، لقد جئتِ أمراً عظيماً منكراً!! . يا اخت هارون، يا من انتِ شبيهة بهارون النبي في التقوى والصلاح، كيف يصدر عنكِ هذا العمل المنكر، وما كان أبوك بالفاجر، ولم تكن أمك من البغايا! فمن أين لك هذا الولد؟

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وعبد بن حميد وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: رأيت ما تقرأون: {ياأخت هارون} وموسى وهارون قبل عيسى بزمن بعيد. قال فرجعت، فذكرت ذلك لرسول الله فقال: ألا اخبركم أنهم كانوا يُسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم! يعني يُشبهون بهم»

وفي دائرة المعارف البريطانية: ان القرآن غلط تاريخياً حين قال: {ياأخت هارون} في سورة مريم مع أن بين مريم وهارون أخ موسى مئات السنين.

وهذا طبعاً من الاقتراءات المبنية على الجهل الفاضح، والحديث المذكور يفسر ذلك.

{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ. . . .}

فأشارت الى ولدها عيسى ليكلّمه، فقالوا: كيف نكلّم طفلاً لا يزال في المهد، وهم يظنون انها تزدرى بهم. فلما سمع عيسى كلامهم أنطقه الله: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} .

يعني انه سيؤتيه الإنجيل، ويجعله نبياً، ويكون مباركاً في كل أوقاته، وأين ما كان، معلماً للخير، وأوصاني بالصلاة وأداء الزكاة مدة حياتي، كما أمرني ان اكون باراً بوالدي مطيعاً محسناً لها ولم يجعلني متجبراً في الناس ولا شقياً بمعصيته.

{وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} .

وهذه الآية مثل الآية التي وردت في يحيى في نفس السورة رقم ١٥.

ذلك الذي ذكرت مناقبه ووصافه هو عيسى بن مريم، وهذا هو القول الحق في شأنه الذي يجادل فيه المبطلون، ويشك في امر نبوته الشاكون، لا ما يقوله الذين آلهوه، او المتهمون لأمه في مولده.

{مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ. . .}

تعالى الله وتنزهه عن ان يتخذ ولداً. والولد إنما يتخذه الفانون والضعاف، والله باقٍ قادر لا يحتاج مُعيناً. والكائنات كلها توجد بكلمة منه، فهو إذا قضى أمراً من الأمور نفذت إرادته بكلمة - فما يريد تحقيقه يحققه بتوجه الإرادة لا بالولد المعين.

جاء ذكر عيسى بلفظ المسيح تارةً ولفظ عيسى بن مريم في القرآن في ثلاث عشرة سورة، وفي ثلاث وثلاثين آية منه. قراءات:

قرأ الكسائي: آتاني واوصاني بالامالة. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب: قول الحق، بنصب قول على انه مصدر. والباقون: قول الحق على انه خبر المبتدأ.

١٩٠٧ 36

الأحزاب: طوائف اهل الكتاب. من مشهد يوم عظيم: من حضور يوم القيامة. ويل: خزي وهوان. أسمع بهم: ما أسمعهم. ابصر بهم: ما ابصرهم. يوم الحسرة: يوم القيامة، حيث يندم المفرطون على انهم لم يعملوا صالحا في الدنيا. قُضي الأمر: انتهى وفرغ من الحساب.

{وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ...}

وهذا من بقية كلام عيسى. . إن الله ربي وربكم، وأمرهم بعبادته، وان هذا هو الذي أوصيتكم به وأن دين التوحيد هو الصراط المستقيم.

ثم اشار الله الى انه مع وضوح الأمر في شأن عيسى، وانه عبدُ الله ورسوله، وكلمته القاها الى مريم، وروح منه - اختلفوا فيه كما قال: {فاختلف الأحزاب من بينهم...}

ومع ما تقدم من قول الحق في عيسى، فقد اختلف اهل الكتاب فيه، وذهبوا مذاهب شتى، والعذاب الشديد للكافرين منهم يوم القيامة، يوم يحضرون موقف الحساب ويلقون سوء الجزاء.

ما أشد سماعهم وأقوى بصرهم يوم يلقون الله، والظالمون في ذلك اليوم يتحققون أنهم كانوا في ضلال مبين لا يخفى.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ان ينذر قومه المشركين جميعا فقال:

{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ...}

أنذر أيها الرسول هؤلاء الظالمين يوم يتحسرون ويندمون على ما فرطوا في الدنيا في حق الله وحق أنفسهم. . وسُمي يوم الحسرة لأن المجرمين يندمون ويقولون: {يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين} [الزمر: ٥٦].

وقُضي الأمر وفرغ من حسابهم ونالوا جزاءهم وقد كانوا في غفلة عن ذلك اليوم وحسراته وأهواله، وهم لا يصدقون بالبعث ولا بالجزاء.

ثم سأل الله رسوله وتوعد المشركين فقال:

{إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ...}

لا يُحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق، فإن إلينا مرجعهم ونحن الوارثون، والكل عائد إلينا عودة الميراث الى الوارث الوحيد، فنجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا ظلم في ذلك اليوم.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع ويعقوب: وأن الله ربي وربكم، بفتح الهمزة. والباقون وإن. . بكسر الهمزة.

١٩٠٨ 41

واذكر في الكتاب: في القرآن. صديقا: من يكون صادقا ومخلصا في أفعاله وأقواله او صحبته. صراطا سويا: طريقا مستقيما. أراغب أنت عن آلهتي: أكاره لها. لأرجمنك: لأضربنك بالحجارة. واهجرني مليا: اتركني دهرا طويلا. إنه كان بي حفيّا: إن ربي كان مبالغيا في العناية بي وإكرامي. لسان صدق: ثناء حسنا.

انتهت قصة المسيح، وقد بينا القرآن بوضوح، خالية من كل شائبة من الأساطير والخرافات. وهنا تأتي حلقة من قصة إبراهيم حيث

ذَكَرَ فِي خَمْسٍ وَعَشْرِينَ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ. وَهَذَا فِي هَذِهِ الْحَلَقَةِ يَتَبَيَّنُ مَا فِي عَقِيدَةِ الشِّرْكِ مِنْ كَذِبٍ وَضَلَالٍ. وَإِبْرَاهِيمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ الْعَرَبُ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَعَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ. وَتَبْدُو فِي هَذِهِ الْآيَاتِ شَخْصِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ الْأَوَّابِ الْحَلِيمِ، وَوِدَاعَتُهُ وَحِلُّهُ فِي الْفَاضِلَةِ وَتَعْبِيرِهِ.

وَأَذْكُرُ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِقَوْمِكَ وَلِلنَّاسِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الصَّدِيقِ (وَالصَّدْقُ مِنْ أَكْمَلِ الصِّفَاتِ وَاصْدَقُهَا) حِينَ نَهَى قَوْمَهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَوَجَّهَ الْخُطَابَ لِأَبِيهِ فِي رَفَقٍ وَلِينٍ قَائِلًا لَهُ: يَا أَبَتِ، كَيْفَ تَعْبُدُ أَصْنَامًا لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصُرُ، وَلَا تَجْلِبُ لَكَ خَيْرًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْكَ شَرًّا؟ وَيُظْهِرُ مِنْ هَذَا الْمَنْهَجِ أَنَّهُ سَلَكَ فِي دَعْوَتِهِ أَجْمَلَ الْآدَابِ فِي الْحِجَاجِ، وَاحْتَجَّ بِأَرْوَاحِ الْبَرَاهِيمِ لِيُرَدَّهُ عَنْ غِيَّهِ. يَا أَبَتِ، لَقَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ، فَاتَّبِعْنِي فِيمَا أَدْعُوكَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ - أَدْلَكَ عَلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ الْمَوْصِلِ إِلَى اللَّهِ.

يَا أَبَتِ، لَا تَطْعُ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَزِينُ لَكَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ عَصَى اللَّهَ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَكُلُّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ. ثُمَّ حَذَّرَهُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةٍ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَقَالَ:

{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ. . . .}

يَا أَبَتِ، إِنِّي أَخْشَى أَنْ أَصْرَرْتَ عَلَى الْكُفْرِ أَنْ يَصِيبَكَ عَذَابٌ شَدِيدٌ مِنَ اللَّهِ، فَتَكُونَ قَرِينًا لِلشَّيْطَانِ فِي النَّارِ. فَأَجَابَهُ أَبُوهُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْكَلَامِ اللَّطِيفِ وَالْعِبَارَاتِ الرَّقِيقَةِ بِكُلِّ جَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ فَقَالَ:

{قَالَ أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ؟}

أَتَكْرَهُ آلِهَتِي وَلَا تَرْغَبُ فِي عِبَادَتِهَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟ لِئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنَ النَّهْيِ عَنْ عِبَادَتِهَا وَالدَّعْوَةِ إِلَى مَا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ، لَأَرْجَمَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ، فَاحْذَرْنِي وَأَبْعِدْ عَنِّي وَفَارِقْنِي دَهْرًا طَوِيلًا. وَلَمَّا سَمِعَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلَامَ أَبِيهِ أَجَابَهُ بِأَمْرَيْنِ:

١ - {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ} .

سَلِّمْتَ مِنِّي لَا أَصِيبُكَ. وَهَذَا جَوَابُ الْحَلِيمِ لِلْسَفِيهِ، وَفِيهِ مَقَابَلَةٌ لِلْسَيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ. وَزَادَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ:

٢ - {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} .

سَأَدْعُو لَكَ رَبِّي أَنْ يَهْدِيكَ وَيَغْفِرَ لَكَ. وَقَدْ عَوَّدَنِي رَبِّي أَنْ يَكُونَ رَحِيمًا بِي مَجِيبًا لِدَعَائِي.

وَإِنِّي سَأَهْجُرُكُمْ وَأَبْتَعِدُ عَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ، رَاجِيًا أَنْ يَقْبَلَ مِنِّي طَاعَتِي، وَلَا يَخْيبَ رَجَائِي، وَإِنْ لَا يَجْعَلُنِي شَقِيًّا. وَقَدْ حَقَّقَ إِبْرَاهِيمُ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَحَقَّقَ اللَّهُ رَجَاءَهُ وَأَجَابَ دَعَاءَهُ، فَلَمْ يَتْرِكْهُ وَحِيدًا، بَلْ وَهَبَ لَهُ ذُرِّيَّةً وَعَوَّضَهُ خَيْرًا. {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} .

فَلَمَّا فَارَقَ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ وَهَاجَرَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالذَّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، وَرَزَقَهُ إِسْحَاقَ، ثُمَّ رَزَقَهُ مِنْ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، وَكُلَاهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

وَاعْطَيْنَاهُمْ فَوْقَ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ كَثِيرًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِرَحْمَتِنَا.

مُخْلِصًا: بِفَتْحِ اللَّامِ، مُخْتَارًا. الطُّورُ: الْجَبَلُ. وَقَرَّبَاهُ نَجِيًّا: قَرَّبَاهُ تَقْرِيبَ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ، وَنَجِيًّا: مُنَاجِيًا وَمُكَلِّمًا بِلَا وَاسِطَةٍ. وَاجْتَبَيْنَاهُ: اصْطَفَيْنَاهُ.

اتلُ أيها الرسول على الناس ما في القرآن من قصة موسى، وما اتصف به من صفات حميدة، واذكر أن الله أخلصه واصطفاه للنبوّة والرسالة.

وكرمناه فناديناه من الجانب الأيمن للطور في سيناء، وقربناه تقريب تشریف وتكريم، حين مناجاته لنا. ففُرب من ربه وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى مناه. ثم إننا وهبنا له من رحمنا مؤازرة أخيه هارون نبياً، ليعاونه في تبليغ الرسالة.

وقد جاء في سورة طه {واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري} . وقد استجاب له ربه فقال: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} .

قراءات:

قرأ الكوفيون الا ابا بكر: مخلصا بفتح اللام بمعنى اخلصه الله للنبوّة. والباقون: مخلصا بكسر اللام بمعنى اخلص هو العبادة لله. واتل عليهم أيها الرسول ما جاء في القرآن من قصة إسماعيل أب العرب، ومن أخص صفاته صدق الوعد والوفاء به، حتى إنه وعد أباه بالصبر على الذبح ووفى به: {قَالَ يَا أَبَتِ افعل مَا تُؤْمُرُ ستجدني إن شاء الله من الصابرين} [الصفات: ١٠٣] . فقداده الله وشرفه بالرسالة والنبوّة.

وكان إسماعيل يأمر أهله بالصلاة وإيتاء الزكاة، {وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً} في جميع أعماله، محموداً فيما كلفه به، مستقيماً في أقواله وأفعاله. واتل أيها الرسول على الناس ما في القرآن من قصة إدريس إنه كان من الصديقين ونبياً ذا مكانة عالية عند الله. وهذا معنى {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً} أي رفعنا ذكره في الملأ، كما خاطب الله تعالى الرسول الكريم بقوله: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الانشرح: ٤] .

وقد نُسجت حول إدريس خرافات وأساطير، ونُسب إليه انه مصدر لجميع العلوم، واول من خط بالقلم، وأول من بنى الهاكل ومجدد الله فيها، واول من نظر في علم الطب، وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية، وغير ذلك كثير جداً. وكلها أخبار لم تؤيد بنقل صحيح، ولم يسندها نص قاطع، ومن أراد الاطلاع عليها فعليه الرجوع الى كتاب: قصص الانبياء، للمرحوم عبد الوهاب النجار.

وبعد أن ذكر الله تعالى هؤلاء الرسل الكرام وهم عشرة، وأثنى عليهم بما هو جدير بهم، أردفه بذكر بعض ما جزاهم به من النعم. فقد هداهم إلى سبل الخير واصطفاهم من سائر خلقه.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ. . .} .

بنعم الدنيا والآخرة من ذرية آدم وذرية من نجاه الله مع نوح في السفينة، ومن ذرية إبراهيم ويعقوب، ومن هديناهم إلى الحق، واختارناهم لإعراء كلمة الله. واذا تلى عليهم آياتنا خروا لله سجداً، وهم باكون خشية منه، وحذراً من عقابه. وهنا موضع سجدة عند قوله: خروا سجداً وبُكياً.

١٩٠١٠ 59

الخلف: بسكون اللام، العقبُ السوء، النسل الطالح. اضاعوا الصلاة: تركوها. غيا: ضلّالاً. جنات عدن: جنات الاقامة الدائمة. مأتيا: آتيا. اللغو: فضول الكلام. التنزل: النزول. سمياً: شبيهاً، او مثيلاً.

بعد ان استعرض الله أولئك الأنبياء السعداء ومن تبعهم بإحسان، جاء هنا يوازي بين أولئك المؤمنين الأتقياء، وبين الذين خلفوهم. فإذا المسافة شاسعة والفارق بعيد. فلقد جاء من بعد هؤلاء الأنبياء الأخيار خلف سوء كانوا على غير هديهم، تركوا الصلاة وانهمكوا في المعاصين وآثروا شهواتهم على طاعة الله.

ثم ذكر عاقبة أعمالهم، وسوء مآلهم فقال:

{فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} . وسيلقى هؤلاء جزاء غيرهم وضلالهم في الدنيا والآخرة.

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تهبُّ منه نسماتُ الرحمة والطف والنعمى. فَنَ تدارك منهم نفسَه بالتوبة والإيمان الصادق، والعمل الصالح - فإن الله يقبل توبته، ويدخله الجنة، ويوفي له أجره كاملاً، والتوبة تُجَبُّ ما قبلها. كما جاء في الحديث: «التائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له» أخرجه ابنُ ماجه والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود. ثم أوضح الله جنة الخلد ومن فيها فقال:

{جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا} .

هذه الجنات هي جنات إقامة دائمة قد وعد الرحمن عباده بها فأمنوا بها بالغيب في ان يروها. ووعد الله واقع لا محالة. ثم يوضح تلك الصورة الجميلة وما فيها من عيشة راضية، ونعيم مقيم، فيقول:

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا. . .} .

لا يسمعون فيها فضولاً في الحديث، ولا ضجة ولا جدالاً، وانما صوت السَّلام والأمان. والرزق في هذه الجنات مكفولٌ دائم. {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} .

هذه هي الجنة ذات هذه الصفات الشريفة، نورثها عبادنا المتقين الذي يطيعون الله في السر والعلن. {وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} .

بعد ان ذكر الله قصص الأنبياء عليهم السلام، وأعقبه بذكر ما أحدثه الخلف بعدهم، وذكر جزاء الفريقين - أعقب ذلك بقصص تأخير جبريل على النبي ﷺ رداً لما زعمه المشركون من أنه كان يتأخر عليه، وبياناً لهم أن الأمر على غير ما زعموا.

وما تنزل الملائكة الوحي إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته، وتدعو اليه مصلحة عباده. والكلام على لسان جبريل: إن أمرنا موكل إلى الله تعالى، يتصرف فينا حسب مشيئته، فهو سبحانه المالك المدبر، العالم بمستقبلنا وماضينا، وما بين ذلك. وإلا حاطة عليه بملكه، فإنه لا يطرأ عليه غفلة ولا نسيان.

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. . .} .

فهو سبحانه الخالق المالك لهذا الكون كله، والمدبر لشؤونه، والمستحق وحده للعبادة، فاعبده أيها الرسول ومن معك، واصطبر وثابر على عبادته، هل تعلم له شبيها؟ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} . الشورى.

١٩٠١١ 66

يتذكر. لنحشرنهم: لنجمعنهم. جثيا: جمع جاث، وهو البارك على ركبتيه. شيعة: جماعة تعاونت على أمر واحد. عتيا: تكبراً، ويقال عتوا ايضاً. صلياً: دخولا. صلي النار دخلها وقاسى حرها. واردها: مار عليها. حتما: واجبا. مقضياً: جرى به قضاء الله. بعد أن ارود الله قصص الأنبياء الكرام وغبابة مولد يحيى، وعيسى بن مريم وذكر إبراهيم واعتزاله أباه، وهجره لقومه ووطنه، وذكر من خلف بعدهم من المهتدين والضالين، ثم جاء اعلان الربوبية الواحدة، التي تستحق العبادة بلا شريك، وهي الحقيقة الكبيرة التي يبرزها ذلك القصص بأحداثه ومشاهدته وتعقيباته - يذكر هنا ما يدور من الجدال حول عقائد الشرك وإنكار البعث، ويعرض مشاهد القيامة، ومصير البشر في مواقف حيّة. ثم ينتقل السياق إلى ما بين الدنيا والآخرة.

{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا. . .} .

ويقول الجاحد الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت متعجباً ومستبعداً: كيف أبعث حياً بعد الموت والفناء!! .

كيف يستغرب هذا الانسان قدرة الله على البعث في الآخرة، ولا يتذكر أنه تعالى خلقه في الدنيا من عدم، ولم يك شيئاً! قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وعاصم «أولا يذكر» باسكان الذال وضم الكاف. وقرأ الباقر: «أولا يذكر» بتشديد الذال المفتوحة وفتح الكاف. ثم يعقب الله على هذا الانكار بقسم فيه تهديد كبير، اذ يقسم بنفسه أنهم سيحشرون بعد البعث.

{فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ. . .} .

فوربك الذي خلقك يا محمد لنجمعن الكافرين يوم القيامة مع الشياطين، الذين زينوا لهم الكفر، وسنحضرهم حول جهنم جاثين على ركبهم في ذلة وفزع.

ثم لناخذن من كل جماعة أشدهم كفراً بالله، وتمردا عليه، فيدفع بهم قبل غيرهم الى أشد العذاب.

{ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا} .

ونحن أعلم بالذين هم أحق بسبقهم الى دخول جهنم والاصطلاء بنارها. وأنهم جميعاً يستحقون العذاب، لكننا ندخلهم في جهنم بحسب عتيتهم وتجبرهم في كفرهم.

ثم خاطب الناس جميعاً ليذكروا ويعتبروا:

{وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} .

وما أحد منكم أيها الناس إلا يدنو من جهنم، يراها المؤمن ويمر بها، والكافر يدخلها. . هكذا قضى ربك، وجعله أمراً محتوماً.

ثم إننا نشمّل المتقين برحمتنا، فننجيهم من شر جهنم، ونترك بها الذين ظلموا أنفسهم جاثين على ركبهم،، تعذيباً لهم، وجزاء ما اقترفوا وكذبوا.

قراءات:

قرأ الكسائي ويعقوب: ثم نُخَيِّ بِضَمِّ النون الاولى واسكان الثانية، والباقر بضم النون الاولى، وفتح الثانية وتشديد الجيم. وقرأ ابن كثير: مُقَامًا: بضم الميم الاولى والباقر: مُقَامًا بفتح الميم.

١٩٠١٢ 73

بينات: ظاهرات الإعجاز. مقاما: مكانا، منزلا. نديا: مجلسا، الندي والنادي والمنتدى بمعنى، وكذلك الندوة. القرن: أهل كل عصر، واصبح في العرف الآن مائة عام. الأثاث: متاع البيت وفرشه وكل ما يحتاج اليه، لا واحد له. رثيا: منظرا، ونضارة وحسنا. فليمدد له: فليمهله. جندا: انصارا. مردا: مرجعا وعاقبة.

بعد ان أقام الله تعالى الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث بعد الفناء، أتبعه هنا بذكر شبهة أخرى، حيث قال بعض زعمائهم (وهم النضر بن الحارث وأبو جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم) عندما كانت تنلى عليهم آيات الله واضحة الدلالة.

{أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} . . .

أعرضوا عنها وقالوا للمؤمنين: لستم مثلنا حظاً في الدنيا، فنحن خير منكم منزلاً ومجلساً، فكذلك سيكون حظنا في الآخرة.

انظروا الى المؤمنين الذين حول محمد، مثل بلال وعمار وخباب وغيرهم من الفقراء المعدمين، فأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ منا ومنكم أوسع عيشاً وأنعم بالاً؟! .

فرد الله عليهم شبهتهم بقوله:

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئِيًّا} .

كان على هؤلاء المتكبرين الجاحدين ان يتعظوا بمن سبقهم، وكانوا أحسن منهم حظاً في الدنيا، وأكثر متاعاً، فأهلكناهم بكفرهم، ولم ينفعهم أثاثهم ورياشهم، ولم يعصمهم شيء من الله حين كتب عليهم الهلاك.

ثم أمر سبحانه نبيه الكريم ان يُجيب هؤلاء المفتخرين بما عندهم بقوله:
{قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا. . . .} .

قل ايها الرسول لهؤلاء المدّعين أنهم على الحق، وأنكم على الباطل: من كان في الضلالة والكفر أمهله الله، وأملى له العمر، ليزداد طغياناً وضلالاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، إما بعذاب الدنيا، وإما بعذاب الآخرة. سيعلمون أنهم شرّ مكاناً وأضعف جُنداً وأقلّ ناصرًا من المؤمنين. وعند ذلك يظهر من هو خير مقاماً واحسن نديًا.
اما المؤمنون بآيات الله لإِنْ الله تعالى يزيدهم هدى وتوفيقاً، ذلك ان الطاعات التي يبقى ثوابها لأهلها خير عند ربهم جزاءً، وأبقى عند الله ثواباً وعاقبة.

١٩٠١٣ 77

لأوتين: لأعطين. اطلع الغيب؟: اظهر له علم الغيب. سنسجل كل اقواله ونظهرها له يوم القيامة. ونمّد له من العذاب: ونزيد له من العذاب. ونرثه ما يقول: ونسلبه كل ما عنده من مالٍ وولد، وذلك لأنه يقول لأوتين مالاً وولداً. ضداً: أعداء. تؤزّره: تزجهم. وفداً: وهم القادمون المكرمون. ورداً: مشاةً مهانين كأنهم دواب حين ترد الماء.
في صحيح البخاري ومسلم عن خباب بن الأرت قال: كنتُ حدّاد وكان لي على العاص بن وائل والد عمرو بن العاص، دين. فأتيته أتقاضاه منه فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا متّ ثم بُعثت جئتني ولي مال وولد، فأعطيك. فأُنزل الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ . الآية} .

وقول العاص هذا نموذجٌ من تهكّم الكفار واستخفافهم بالبعث. فالقرآن هنا يعجب من هذه الجرأة والاستخفاف.
انظر ايها الرسول الى حال هذا الجاحد المتكبر. واعجب من مقالته الشنيع، وجرأته على الله إذ قال: سيكون لين مالٍ وولد في الآخرة. هل اطلع هذا الكافر على الغيب، حتى يتجرأ ويقول ما قال، ام أخذ من الله عهداً بذلك!!
«كلا»، وهي لفظة نفى وزجر، ليس الأمر كذلك. إنه لم يطلع على الغيب ولم يأخذ عند الله عهداً، عليه كلّ أقواله، ونزيده من العذاب ونطيله عليهم في جهنم.

{وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ. يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} .
ونسلبه ما عنده من المال والولد وكلّ ما يعتز به في الدنيا، ويأتي في الآخرة وحيداً منفرداً، لا مال معه ولا ولد ولا نصير.
أولئك الذين كفروا عبدوا غير الله آلهة مختلفة، لتكون لهم شفعاء يعتزّون بها يوم القيامة. كلا: فسيكفر بهم الملائكة والجنّ وكلّ المعبودات، ويبرأون الى الله منهم، ويكونون لهم أعداء وخصوما.

ألم تعلم أيها الرسول أنا سلّطنا الشياطين على الكافرين واستحوذوا عليهم، يُغرونهم بالمعاصي ويدفعونهم إلى التمرّد والوقوع فيها. فلا يضيقُ صدرك أيها الرسول بكفرهم، ولا تستعجلُ لهم بالعذاب، فإنما تركهم في الدنيا لمدة محدودة، ونُحْصي عليهم أعمالهم وذنوبهم لنحاسبهم عليها في الآخرة.

ثم يبين الله ما يكون في ذلك اليوم، وكيف يستقبل المتقين بالتكريم، ويسوق المجرمين كالدواب.
{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} .

اذكر أيها الرسول ذلك اليوم الذي نجع المؤمنين فيه الى جنة الخلد وفوداً مكرمين، كما نصوق المرحمين الى جهنم وندفعهم عطاشاً كالدوابّ الواردين الى الماء، لا شفاعَةَ لأحدٍ في ذلك اليوم الا من قدّم عملاً صالحاً، فهو عهدٌ له عند الله ينجيهِ ويجعله من الفائزين.

جئتم: فعلتم. إدا: منكرا عظيما. يتفطرون: يتشققن. تحز: تسقط. دعوا: نسبوا. قوماً لداً: قوماً شديدي الخصومة. ركزا: صوتا خفيا. بعد ان فند مقولة عبده الأوثان وأثبت أنهم في ضلال يعمهون - أردف ذلك بالرد على الذين نسبوا الى الله الولد، وبين انها منكرا يهتز لها الكون بأجمعه.

{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} .

وقال المشركون: إن الله اتخذ من الملائكة بنات، وقال اليهود والنصارى ان الله اتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك. لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا أمراً منكراً، تنكره العقول المستنيرة. ان السموات تكاد تنشق من هذا القول لشدة هول، وتُخسف الأرض، وتسقط الجبال لمجرد سماعه.

قراءات:

قرأ نافع والكسائي: يكاد بالياء، والباقون: تكاد بالتاء. وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وحفص: يتفطرن، بالتاء. والباقون: ينفطرن، بالنون.

إنها لكلمة شنيعة لو صورت بصورة محسوسة لم تحملها هذه الأجرام العظام، ولتفتت وتفرقت اجزاؤها من شدتها. ثم بين علة ذلك بقوله:

{أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} .

من أجل أنهم نسبوا الى الله اتخاذ الولد، وما يليق به اتخاذ الولد لان اثبات الولد له يقتضي أن يكون حادثاً ومحتاجاً، وهذا محال على الله سبحانه.

ان كل ما في السموات والأرض من مخلوقات هم عبيد الله، ينقادون لحكمه، ويخضعون له. لقد أحاط بهم جميعاً وبأعمالهم، وعدّ أشخاصهم وانفاسهم وافعالمهم.

{وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} .

وهم جميعاً سيأتون إليه يوم القيامة منفردين عن النصراء والولد والمال.

وقد تكرر لفظ «الرحمن» في هذه السورة ست عشرة مرة، لأ المشركين كانوا ينكرون هذه الكلمة وكانوا يقولون ما هو الرحمن، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٦٠] . والرحمن وصف يدل على عموم الرحمة، فهي شاملة لكل موجود. ان الله مع كل ما يأتيه المنكرون رحمن رحيم سبقت رحمته غضبه.

ثم ختم السورة بذكر احوال المؤمنين عموماً وما ينتظرهم يوم القيامة، حيث سيستقبلهم الرحمن بالترحيب والمودة.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} .

ان الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله، وعملوا الاعمال الطيبة الصالحة - سيجعل الله لهم محبة في قلوب الناس، ويكونون في رحاب الله وتكرمه يوم القيامة.

روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي ان النبي ﷺ قال «إذا أحبَّ الله عبداً يقول لجبريل: إني احببتُ فلانا فأحبَّه، فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في الارض»، فذلك قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} . الآية} وللحديث روايات متعددة.

وبعد، فان هذه لبشرى للمؤمنين، ومعها إنذار للجاحدين، وقد يسر الله فهم كتابه على العرب، فأنزله بلسانهم ولسان رسوله الامين.

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} .

لقد يسرنا القرآن بلغتك لتبشر برضى الله ونعيمه من اتبع أوامره واجتنب نواهيه، وتندر بسخط الله وعذابه من كفر واشتد في خصامه.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} .

فلا يحزنك أيها الرسول عنادهم لك، فقد أهلك الله قبلهم كثيرا من الأمم والاجيال. . . ولقد اندثروا، فلا ترى منهم أحدا، ولا تسمع لهم صوتا. إنهم بادوا وهلكوا، وخلت منهم دورهم واوحشت منازلهم. وكذلك هؤلاء، فهم صائرون الى ما صار اليه أولئك ان لم يتداركوا أنفسهم بالتوبة.

٢٠ طه

٢٠٠١ 1

لتشقى: للتعب. تذكرة: تذكيرا. يخشى: يخاف الله. العلى: جمع العليا، مؤنث الأعلى. العرش: في الأصل سرير الملك، وهنا مركز تدبير العالم. استوى: استولى عليه، وهذه الكلمة عدة معان. الثرى: التراب، والمراد به هنا الأرض. وأخفى: أخفى من السر كحديث النفس، وما يخطر بالبال.

طه: تقرأ هكذا طاه. واختلف المفسرون اختلافا كبيرا في معناها، هل هو اسم من أسماء الله، أم معناها: يا رجل، كما قال الطبري: او انها اسم من أسماء النبي ﷺ.

قراءات:

قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب: طاه، هكذا. وقرأ حمزة والكسائي وخلف وابو بكر: طه بالإمالة. ابتداء الله تعالى السورة بهذه الحروف، لتحدي المتكبرين والإشارة إلى أن القرآن مكون من هذه الحروف التي تتكلمون بها، ومع ذلك عجزتم عن الإتيان بسورة قصيرة أو آيات مثله.

{مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. . . .}

ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب نفسك في مكابدة الشدائد، وتحسر على عدم إيمان من تدعوه، بل أنزلناه عليك لتبلغ وتذكر، وقد فعلت. قال الواحدي وغيره من المفسرين في أسباب النزول: قال ابو جهل والنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والمطعم بن عدي للنبي ﷺ: إنك لتتشقى بترك ديننا، لما رأوا من طول عبادته واجتهاده، فأنزل الله تعالى: {طه مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} .

ولكن أنزلناه تذكيراً لمن يخاف الله ويطيعه، فحسبك ما حملته من متاعب التبليغ والتبشير والانذار.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما كان يعتز به من التعب حين كان يدعو أولئك القوم، وهم معاندون جاحدون. والذي نزل القرآن عليك هو خالق الأرض والسموات العلى، إنه هو الرحمن، نزله عليك من الملاء العلى. لق داستوقى على العرش، ويده زمام الأمر كله، وله وحده سبحانه ملك السموات وما فيها والأرض وما فيها وما عيها. لقد شملت قدرته كل شيء، واحاط علمه بهذا الكون، فان تجهر بالدعاء يعلمه الله، لأنه يعلم حتى ما تحدث به نفسك، {والله عليم بذات الصدور} [آل عمران: ١٥٤] . {الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى} .

الله هو الإله الواحد، لا إله غيره، وهو المتصف بصفات الكمال، وكل أسمائه حسنة لأنها تعبر عن أحسن المعاني.

٢٠٠٢ 9

امكثوا: انتظروا، توقفوا. آنت: أبصرت، ولها معان أخرى. بقبس: بشعلة من نار على رأس عود. بالواد المقدس: الذي اسمه طوى. لذكري: لتكون ذا كرا لي. أكاد اخفيها: ابالغ في اخفائها عن الناس. قتردى: قتهلك.

بدأ قصة موسى من الآيات التاسعة وتستمر الى نهاية الآية السابعة والتسعين، والواقع ان ذكر موسى في القرآن أكثر قصص المرسلين وروداً فيه. وتأتي القصة على ما يناسب موضوع السورة. وهنا جاءت قصة موسى لتسلية الرسول الكريم، وتقوية قلوب المؤمنين،

وإظهار كيف كانت العاقبة لموسى والنصر حليفه بعد أن شُرِدَ، وأذاق فرعونُ قومه ألوانَ العذاب. وقد تحمّل موسى من المكارِه ما تنوء به راسياتُ الجبال، وقابل ذلك بعزمٍ لا يفتر.

هل بلغك أيها النبي خبرُ موسى وكيف كان بدء الوحي إليه. . لقد أبصر ناراً في مسيره ليلاً من مدينَ ومعه زوجته وبعضُ أهله، فقال لزوجته ومن معها من أهله: انتظروا في مكانكم، إني أبصرتُ نارا، وأرجو أن أجيئكم بشعلة منها، أو أجد حول النار من يهديني الطريق. وفي سورة القصص ٢٩ {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} هذا يدل على أنه كان هناك بعضُ البرد، والجذوة: الجرة.

فلما بلغ المكان الذي رأى فيه النار، سمع صوتاً علوياً يناديه: يا موسى. فلم ير شيئاً وتحجى روهو يتلفت يميناً ويساراً. فإذا بالصوت يقول له: إني أنا الله ربك، فاخلع نعليك احتراماً للبقعة المقدسة، وتكريماً للموقف، فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمى «طوى»، وقد اصطفتك من قومك بالنبوة والرسالة، فأصغ لما أوحى إليك لتعيه وتبلغه الى قومك، فإن هذا الذي جاءك أمرٌ عظيم فتأهب له. ثم بين الله له أهم ما أوحى إليه:

{إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} .

لقد عرّفه الله بنفسه وأنه إله واحد إلا هو. ثم بعد ذلك أمره بعبادته دون غيره، وإن يقيم الصلاة على أحسن وجهٍ ليذكره دائماً. فهذان أمران من الأصول: توحيدُ الله، وعبادته بالخلاص. ثم بين الأصل الثالث المهم الذي ينكره المشركون والمليحدون. فقال:

{إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} .

إن يوم القيامة آتٍ لا محالة، وإني أنا أخفي توقيته ليُجزى كل عمل وتحاسب كل نفس على ما عملت. وقد فسّر بعض المفسرين: أكاد أخفيها: أكاد أظهرها. وفي اللغة خفيت الشيء أظهرته.

فلا يصرفك يا موسى عن الإيمان بالساعة والاستعداد لها من لا يؤمن بها، ولا يصدّق بالبعث، فهو لا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً، فإن فعلت ذلك يا موسى هلكت. قراءات:

قرأ حمزة: فقال لأهله امكثوا، بضم هاء لأهله. والباقون لأهله بكسر الهاء. وقرأ ابن كثير وابو عمرو: أني أنا ربك بفتح همزة اني. والباقون إني بكسر الهمزة. وقرأ حمزة: وأنا اخترناك، بصيغة الجمع. والباقون: وأنا اخترتك كما هو في المصحف.

٢٠٠٣ 17

أتوكأ عليها: اعتمد عليها في المشي. أهش بها على غنمي: اخبط بها ورق الشجر لتأكله الغنم. مآرب: واحداها مأرب، ومأربة: الحاجة. سيرتها الأولى. تعود كما كانت عصا. جناحك: أصل الجناح للطائر، والمراد به هنا: الإبط والجانب. من غير سوء: من غير عاهة كالبرص. آية أخرى: معجزة أخرى. طغى: تجاوز الحد. واحلل عقدة من لساني: كان في لسان موسى حبسة، وهو يسأل الله تعالى أن يطلق لسانه. يفقهوا قولي: يفهموه. وزيرا: معينا. وأشركه في أمري: اجعله شريكاً لي في النبوة والرسالة. انك كنت بنا بصيراً: عالماً بأحوالنا.

{وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى} .

وبينما موسى مستغرق في لحظات ربّانية، في نشوة روحانية مما سمع وما تلقى، قد نسي نفسه وما جاء من أجله، كما نسي أهله وما هم فيه - إذا بنداءٍ قدسي وسؤال يلقي عليه: ماذا تحمل بيمينك يا موسى؛ والله أعلم بما في يده. فقال موسى مجيباً: إنها عصاي، أعتمدُ عليها في سيري، وتوقفي، واسوق بها غنمي، وأضرب بها ورق الشجر ليسقط وتأكله الغنم، ولي فيها حاجاتٌ ومنافع أخرى.

وبعد ان ذكر هذه الأجوبة أمره تعالى بالقاء لتبين لها فوائد لم يعرفها موسى من قبل .
 { قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى فَلَقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } .

قال الله لموسى: إرم بها على الأرض، فألقها فإذا هي ثعبان عظيم ينتقل من مكان الى مكان. وكانت مفاجأة لموسى جعلته يهرب منها كما جاء في قوله تعالى: { فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ } [النمل: ١٠] [القصص: ٣١] .
 فلما خاف منها طمأنه الله وأمره بأخذها وهي على حالها:

{ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } .

خذها بيمينك ولا تخف منها، إنا سنرجعها الى حالتها الأولى التي كانت عليها من قبل عصا.
 { وَاضْمِ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ آيَةً أُخْرَى } .

أدخل يدك في جيبك ثم أخرجها تخرج بيضاء ناصعة من غير مرض كالبرص وغيره وذلك لأن موسى كان أسمر، وكان خروج يده بيضاء ثلثاً ويسطع منها النور - معجزة ثانية جعلها الله له بعد العصا. وذلك كله لترى يا موسى بعض معجزات الله الكبرى فتكون دليلاً لك أمام قومك على صدقك في الرسالة.

وبعد ان زوده بهذه المعجزات أمره بالذهاب الى فرعون الطاغية فقال:
 { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } .

اذهب الى الطاغية فرعون المتكبر، وادعه الى الإيمان بالله الواحد الأحد، فإنه تجاوز الحد في كفره وطغيانه.
 بعد هذا سأل موسى ربه بعض الأمور ليستعين على تبليغ رسالته فقال:

{ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي وَاجْعَلْ لِّي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي } .

لقد طلب من ربه أربعة أمور: أن يشرح له صدره فلا يغضب بسرعة حتى يؤدي رسالته، ويسهل له امره بأن يمهده بالعون والتوفيق لأداء ما كلفه به، وان يطلق حُبسة لسانه حتى يستطيع تبليغ رسالته، ويفهم الناس ما يقول.

أما الطلب الرابع فهو ان يمهده بأخيه هارون يكون نبياً معه يعينه ويساعده، لأن هارون كان فصيحاً، ولينا رقيقاً، ووسيماً، بخلاف موسى الذي كان حاد الطبع سريع الغضب. وهذه امور تعين الانسان على أداء اكبر مهمة تناط به.

ثم قال: { كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً } . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } .

إننا اذا تعاوننا على أداء الرسالة، بإمدادك لي بأخي، فلسوف ننزهك عما لا يليق بك، ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك، لأنك تفضلت علينا وكنت دائماً علينا بأحوالنا، ومتكفلاً بأمرنا.
 قراءات:

قرأ ابن عامر: أشدد به أزرى بفتح همزة أشدد، وأشركه في أمري: بضم همزة أشركه، والباقون: أشدد بهمزة وصل، فعل امر، وأشركه: بفتح الهمزة.

٢٠٠٤ 36

سؤالك: مطلوبك. مننا: أنعمنا. أوحينا: ألهمنا. أقذفه في التابوت: ضعي فيه. فاقدفيه في اليم: فألقه في البحر. ولتصنع على عيني: ولتتربى برعايتي. تقرر عينا: تسر به. وفتناك: اختبرناك. مدين: ببلد في شمال الحجاز معروفة الى الآن.
 { قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ } .

بعد ان سأل موسى ربه فأطال السؤال، وبسط حاجته، وهو لا يزال في ذلك الموقف الكريم في ضيافة ربه - من عليه ربه وأجابه على سؤاله، قائلاً: قد اعطيتك ما سألت يا موسى. ولقد سبق ان تفضلنا عليك بمنة أخرى من قبل، وذلك حين ألهمنا أمك إلهاماً كريماً

كانت فيه حياتك، ألهمناها ان تضعك في التابوت، (وهو صندوق صغير) ثم تلقي به في النيل، حتى تنجو أنت من فرعون، لأنه يقتل كل ذكر يولد في بني اسرائيل. وشاءت إرادتنا أن يلقي النيل ذلك التابوت في بستان فرعون، عدوي وعدوك. وبينما فرعون جالس في ذلك البستان مع زوجته إذا بالتابوت يجري به الماء، فأمر فرعون غلمانه بإخراجه. وفتحوه، فإذا فيه صبي لطيف. فأحبه فرعون، وأمر ان يكون تحت رعايته.

{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} .

وجعلت كل من رآك يحبك، ومن ثم أحبك فرعون وزوجته حتى قالت: {قَرَّةٌ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} [القصص: ٩] . وحتى تتربى برعايتي وكما أحب.

ورحمة بأملك، هيأت الظروف حتى جمعتك بها، وكانت أختك تمشي متبعة التابوت حتى علمت أين ذهب. فجاءت متكررة الى قصر فرعون حيث وجدتهم يطلبون لك مرضعا، فقال: هل أدلكم على من يرضعه ويحفظه ويريه؟ قالوا: نعم، فجاءت بأملك، ورجعت إليها حتى تفرح وتسر وتقر عينها بك، ويزول عنها الحزن والقلق عليك.

وكنت قد قتلت نفساً من أهل مصر فنجيناك مما لحقك من الخوف والغم، كما جاء في سورة القصص ١٥: {فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى فقضى عليه} وهذا كما يأتي في سورة القصص: حين كبر وشب في قصر فرعون، ونزل المدينة يوماً فوجد فيها رجلين يقتتلان: أحدهما من شيعته والآخر من شيعته فرعون، فاستغاثه الذي هو من شيعته، فوكر موسى المصري بيده فسقط ميتاً. ولم يكن موسى ينوي قتله، فاغتم لذلك فهرب الى مدين، وهذا معنى قوله تعالى: {وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا} .

اختبرناك اختباراً شديداً بالغربة ومفارقة الأهل والوطن. وامتنحن بالخدمة ورعي الغنم، وهو ريب القصور عند الملوك، وجاز الامتحان ونجح في كل عمل عمله.

{فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} (*) واصطنعتك لنفسى .

ونجيناك من الهم الذي لحق بك فذهبت الى مدين. وهناك لقيت شعيب وتزوجت ابنته على شرط ان ترعى له الغنم مدة، وأمضيتهما على أحسن حال، ثم عدت من مدين في الموعد الذي قدرناه لإرسالك، وقد اصفيتك لنفسى وحمل رسالتي. وفي هذا تشریف كبير لموسى عليه السلام.

٢٠٠٥ 42

آياتي: المعجزات، منها العصا واليد البيضاء. لا تنيا: لا تقصراً، لا تفترا. في ذكرى: في تبليغ رسالتي. قولاً لنا: كلاماً لطيفاً لا عنف فيه ولا خشونة. ان يفرط علينا: ان يعجل علينا بالعقوبة. والسلام على من اتبع الهدى: السلامة من العذاب لمن آمن وصدق. بعد ان أجاب الله موسى ما سأل، شرع الكتاب الكريم يذكر الأوامر والنواهي التي طلب اليه الله ان يقوم بتنفيذها ويؤدي الرسالة على اكمل وجه.

اذهب انت وأخوك الى رفعون، مؤيدين بمعجزاتي التي زودتك بها: العصا واليد البيضاء، وغيرها، كما قال تعالى في الآية ١٠١ من سورة الإسراء: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} ولا تنهاونا في تأديه الرسالة التي حملتكم إياها.

إذها الى فرعون معاً وبلغاه الرسالة، لأنه طغى وتجبر حتى ادعى الربوبية {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤] . وكثيراً ما يخص فرعون بالدعوة لأنه كان متجبها متألهاً، فلو أنه استجاب للدعوة لآمن قومه جميعاً.

ثم أرشدهما كيف يتكون دعوتهما لفرعون بقوله:

{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} .

فَكَلِّمَاهُ بِكَلَامٍ رَّقِيقٍ لِّينٍ، لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي نَفْسِهِ، لَعَلَّهُ يُجِيبُ دَعْوَتَكُمَا إِلَى الْإِيمَانِ، وَيَخْشَى عَاقِبَةَ كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ.

قال موسى وهارون متضرعين إلى الله: يا ربنا، إننا نعرف هذا الجبار المتكبر، ونخشى أن يبادرنا بالأذى والعقوبة، أو يزداد طغياناً وكفراً.

وهنا يشجعهما الله تعالى، بأنه معهما. لا تخافا من فرعون، إنني معكما بالرعاية والحفظ، أسمع لكل ما يجري في هذا الكون، وأبصر ما يفعل فرعون وغيره، فلا يستطيع أن يلحق بكما أذى.

اذهبا إلى فرعون فقولا له: إننا رسولان إليك من ربك، جئنا ندعوك إلى الإيمان به، وسنألك أن تطلق بني إسرائيل من الأسر والعذاب. وقد أتيناك بمعجزة من الله تشهد لنا بصدق ما دعوناك إليه، {والسلام على من اتبع الهدى} .

والسلامة والأمن نعم العذاب على من اتبع رسل ربّه، واهتدى بآياته التي ترشد إلى الحق.

وان الله قد أوحى إلينا أن عذابه الشديد واقع على من كذبنا واعرّض عن دعوتنا.

٢٠٠٦ 49

أعطى كل شيء خلقه: اتقن خلق كل شيء وأعطاه صورته وشكله. ثم هدى: ثم عرّفه كيف ينتفع بما أُنْعِمَ به. ما بال القرون الأولى: ما حال هؤلاء الماضين. لا يضل: لا يخطئ. مهذاً: ممهدة كالفراش. وسلك لكم فيها سبلاً: سهل لكم فيها طرقاً. ازواجاً: اصنافاً. شتى: مختلفة النفع والطعم واللون. لأولي النهى: لأصحاب العقول، مفردها: نهيّة.

ذهب موسى وهارون إلى فرعون. وتقول الرواية عن ابن عباس أنهما لما جاءا إلى باب فرعون أقاما مدّة لا يُذَوْنَ لهما، ثم أُذِنَ لهما بعد حجاب شديد، فدخلوا ودار بينهما من الحوار ما قصّه ربنا علينا.

قال فرعون وهو جالس في طغيانه وجبروته: مَنْ رَبِّكُمْ الذي أرسلكما يا موسى؟ قالوا: ربنا الذي منح نعمّة الوجود لكل موجود، وأودع في كل شيء صفاته الخاصة، وخلقّه على الصورة التي اختارها سبحانه له. {ثمّ هدى} ثم أرشده ووجهه لما خلق له.

فقال فرعون يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا هذه الإلهة: وماذا جرى لها؟ فاجابه موسى: {قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} .

إن علم هذه القرون عند ربّي، وهي من علوم الغيب، وهي مسجّلة لديه في كتاب لا يغيب عن علمه شيء منه، ولا ينساه. ثم عاد إلى تميم كلامه بإبراز الدلائل على الوجود فقال:

{الذي جعل لكم الأرض مهذاً. . .} .

انه هو الإله المتفضل على عباده بالوجود والحفظ، مهّد لكم الأرض فبسطها بقدرته وجعلها لكم كالفراش، وشقّ لكم فيها طرقاً تسلكونها. وأنزل المطر عليها تجري به الأنهار فيها، فأخرج أنواع النبات المختلفة في ألوانها وطعومها ومنافعها.

وقال لخلقه يوجههم إلى الانتفاع بما أخرج من النبات، كلوا منها، وارعوا أنعامكم. إن في هذا الخلق والإبداع والإنعام به دلائل واضحة، يهتدي بها أصحاب العقول إلى الإيمان بالله ورسالاته.

ثم بين سبحانه أن هذه الدنيا ومن عليها دارُ ممر، وإن هناك حياةً أخرى هي الحياة الدائمة فقال:

{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} .

من تراب هذه الأرض خلق الله آدم وذريته، وإليها يردّهم بعد الموت، ومنها يُخرجهم أحياء مرة أخرى للبعث والجزاء.

ولقد أرينا فرعون على يد موسى المعجزات البينة المؤيدة لرسالته وصدقته في كل ما أخبر به عن الله، ومع هذا كله تمادى فرعون في كفره، وكذب بكل ما رأى ولم يؤمن.

قراءات:
قرأ الكوفيون: مهذا. والباقون: مهادا بالجمع.

٢٠٠٧ 57

سوى: مستوى من الارض. يوم الزينة: يوم عيد كان لهم. يُحشر الناس: يجمعون فيه. فجمع كيده: ما يكيد به من السحرة وادواتهم. ويلكم: هلاك لكم. فيسحتكم: استأصلكم بعذاب شديد. وأسروا النجوى: بالغوا في اخفاء كلامهم. بطريقتكم المثل: بدينكم الصحيح. فأجمعوا كيدكم: اجعلوا كيدكم مجعاً عليه. صفًا: مصطفىين. استعلى: غلب.

فلما رأى فرعون ما عند موسى من الحجج والآيات اتهم موسى بالسحر وانه يريد بسحره اخراجه وقومه من أرضه، ويجعلها في يد بني اسرائيل، وقال ذلك ليحمس شعبه ويحملهم على السخط على موسى، فلا يتبعه أحد منهم.

ثم قال: فوالله لنا تينك بسحر مثل سحر، فاجعل بيننا وبينك موعدا نجتمع فيه نحن وأنتم، فنبطل ما بُعث به بما عندنا من السحر، ولا يتخلف من أحد عن ذلك الموعد في مكان مستور مكشوف حتى يحضره اكبر عدد من الناس.

قال موسى: ميعادكم للاجتماع يوم عيدكم الذي تسمونه يوم الزينة، فيجتمع الناس في ضحى ذلك اليوم، ليكون الحف عاماً، وليشهد الناس ما يكون بيننا وبينكم.

فانصرف فرعون من ذلك المجلس، وأمر بجمع أعظم السحرة، وأشرف بنفسه على جمع كل وسائل السحر وأدواته. ثم أقبل في الموعد المحدد، وجلس على سرير ملكه وحوله اكبر دولته وأعوانه، واجتمع الناس ينتظرون، وجاء موسى يتوكأ على عصاه ومعه اخوه هارون وحدهما لا سند لهما ولا نصير الا الله يسمع ويرى.

ووقف موسى وحذر السحرة {قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} . لا تحتلقوا على الله الكذب، بزعمكم أن فرعون إله، وتكذبوا رسل الله، فإن فعلتم استأصلكم الله بعذاب شديد، وقد خاب من افتري على الله الكذب.

فلما سمع السحرة كلام موسى هاجوا وذُعروا، فتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلوا، وبالغوا في كتمان ما يقولون عن موسى وأخيه حتى لا يسمعا ما يُقال عنهما.

ثم بين الله خلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التشاور السري الذي خاضوا فيه.

{إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ. . .} .

إن هذا الرجل وأخاه ساحران خبيران بصناعة السحر، وهما يعملان على إخراجكم من أرضكم، حتى تكون الرياسة لهم دونكم. ثم بين السحرة ما يجب لمقابلة هذا الخطر الداهم فقالوا:

{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} .

اجعلوا ما تكيدون به موسى أمراً متفقاً عليه، ثم احضروا مصطفىين مجتمعين، وألقوا ما في أيديكم دفعة واحدة، لتكون لكم في نفوس الناس الهيبة والغلبة، وقد فاز اليوم من غلب.

قراءات:

قرأ ابن عمر وعاصم وحمزة ويعقوب: يوم الزينة بضم ميم يوم. والباقون: يوم الزينة بنصب الميم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب: فيسحتكم: بضم الياء وكسر الحاء والباقون: فيسحتكم: بفتح الياء والحاء. وقرأ ابو عمرو: ان هذين لساحران، بتشديد ان ونصب هذين. وقرأ نافع وحمزة والكسائي، وابو بكر عن عاصم: ان هذان لساحران.

باسكان نون ان. وقرأ ابو عمرو وحده: فاجمعوا كيدكم، بهمزة الوصف واسكان الجمي. والباقون: فأجمعوا كيدكم: بهمزة القطع.

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً: أَحْسَنَ بِالْخَوْفِ. انتِ الأَعْلَى: الْمُتَنَصِّرُ. مَا فِي يَمِينِكَ: هِيَ الْعَصَا. تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا: تَبْتَلَعُ كُلَّ حَبَالِهِمْ وَعَصِيَّتِهِمْ. حَيْثُ أَتَى: أَيْنَمَا كَانَ. أَنَّهُ لِكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ: أَنَّ مُوسَى لَزَعِيمِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ. مِنْ خِلَافٍ: وَذَلِكَ أَنَّ تَقْطَعُ الْيَدَ الْيُمْنَى وَالرَّجْلَ الْيُسْرَى مِثْلًا. لَنْ تُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا: لَنْ نَفْضَلَكَ عَلَى الْإِيمَانِ الَّذِي حَصَلْنَا عَلَيْهِ. فَطَرْنَا: خَلَقْنَا. فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ: أَعْمَلْ مَا تَرِيدُ. تَزَكَّى: تَطَهَّرَ.

بعد أن اتفقوا على الموعد وهو يوم الزينة، جاؤا مصطفىين مستعدين أتم استعداد وسألوا موسى وخيروه بين أن يبدأ فيلقي عصاه، أو يكونوا هم البادئين.

قال موسى: بل ابتدئوا، ألقوا ما عندكم. فalcوا حبالهم وعصيتهم فإذا هي افاع تسعى.

وخيل لموسى أنها حقيقة من شدة سحرهم، واحس بالخوف لما رآه من أثر السحر. فأدركه الله بلطفه فأوحى إليه قائلا: {لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} لا تخش شيئا، إنك انت الغالب المنتصر على باطلهم. ألقى العصا التي يمينك فإنها تبتلع ما زوروا من السحر، فليس الذي فعلوه إلا كيد ساحر. وكانت صنعة السحر هي الغالبة في ذلك الزمان، وكانوا يضعون الزئبق بطريقة خفية في الحبال والعصي، فعندما تتأثر بحرارة الشمس (وجو مصر حار) تضطرب الحبال وتتحرك فيظن من يراها أنها تسعى.

فلا تخف يا موسى، فالساحر لا يفلح امتثل موسى أمر ربه، وألقى عصاه فإذا هي حيدة تسعى. بل إنها اخذت تلقف ما زوروه من حبال وعصي وتبتلعها. فلما رأى السحرة تلك المعجزة آمنوا بموسى وربه وسجدوا لله قائلين: {أَمَّا بَرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} وعلموا أن ما جاء به موسى ليس سحرا.

وقال رئيس السحرة: كنا نغلب الناس بالسحر، فلو كان هذا سحرا فأين الذي ألقيناه من حبال وعصي، أي ذهب؟ ما هذه العصا الصغيرة التي تأكل كل ما عندنا؟ ان هذا ليس سحرا، انما هو شيء آلهي خارق للعادة؟ ولذلك آمنوا وخروا ساجدين.

قال صاحب الكشف: سبحان الله، ما أعجب أمرهم، قد القوا حبالهم وعصيتهم للكفر الجحد، ثم ألقوا رؤوسهم ساعة للشكر والسجود!! وقال ابن عباس رضي الله عنه: كانوا اول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بررة، لأن فرعون قتلهم.

ولما خاف فرعون أن يصير إيمانهم سبباً لاقتداء الناس بهم في الإيمان.

{قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ}.

قال فرعون: كيف تؤمنون بهدون إذن مني؟ إنكم تلاميذ موسى في السحر وهو كبيركم الذي علمكم إياه، وليس عمله معجزة كما توهمتم. ثم هددهم بالقتل والتعذيب تحذيراً لغيرهم من الاقتداء بموسى وهارون: فقال:

{فَلَا تُقِطْعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ}.

وأقسم إني لأقطعن من كل واحد منكم يده ورجله المختلفتين، يده اليمنى، ورجله اليسرى.

ولم يكتف بذلك بل قال: {وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}. زيادة في التعذيب والإيلام، وتشهيرا بهم. ولا جعلنكم مثلة يتعجب منها الناس.

ثم يزيد استعلاء بقوته وجبروته فيقول: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}.

وسوف ترون من هو الذي يكون أشد عذاباً، انا، أم آله موسى وهارون؟

لم يكن يعلم أنه فات الاوان، وان الإيمان قد بلغ ذروته في قلوبهم، وهانت عليهم نفوسهم في الله، فلن يأبهوا لوعيده وتهديده، فأجابوه مطمئنين:

{قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا}.

اراد فرعون من السحرة ان يرجعوا عن إيمانهم، فثبتوا عليه، ودفخوا تهديده بقولهم: لن نختارك على ما جاءنا من الهدى، وعلى خالقنا

الذي فطرنا وإنشأنا من العدم.

{ فاقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. . . }

افعل ما تريد، إن سلطانك وحكمك لا يتجاوز هذه الحياة الدنيا.

آمن بربنا الحق، ليغفر لنا ما سلف من الخطايا، وعن ممارسة السحر الذي أكرهتنا على تعلمه والعملش به.

{والله خير وأبقى}

خير منك يا فرعون ومن ثوابك، وأبقى منك سلطانا وقدرة.

ثم ختم السحرة كلامهم بهذه الآيات التي تبين حال المجرمين، وحال المؤمنين يوم القيامة وم ينتظر كلاً منهم.

{إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} .

إن من يلقي الله وهو مجرم بكفره يكون مصيره الى جهنم لا يموت فيها فينتهي عذابه، ولا يحيى حياة طيبة ينتفع فيها بالنعيم.

{وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} .

أما من يلاقي ربه على الإيمان وصلاح الاعمال، فله المنازل الرفيعة، والدرجات العالية.

ثم فسر تلك المنازل والدرجات بقوله:

{جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} .

تلك المنازل هي جنات الاقامة الدائمة، في نعيم خالد، تجري بين اشجارها الأنهار، وذلك الفوز الذي أوتوه جزاء لمن طهر نفسه من

الكفر بالايمان والطاعة والاعمال الصالحة.

قراءات:

قرأ حفص: تلقف بفتح القاف وسكون الفاء. وقرأ ابن عامر: تلقف: بتشديد القاف ورفع الفاء. والباقون: تلقف: بتشديد القاف

وسكون الفاء. وقرأ حمزة: كيد سحر. والباقون كيد ساحر. قرأ حفص وابن كثير وورش: أمتنم، فعل ماض على انه خبر. وقرأ

الباقون: أمتنم بهمزتين.

٢٠٠٩ 77

أسر بعبادي: سر بهم ليلا. اضرب لهم طريقا في البحر يبسا: افتح لهم طريقا يابسا لا ماء فيه. لا تخاف دركا: لا تخاف ان يلحقك

احد. دركا: لحقا. فغضبيهم من اليم ما غشيهم: فغمهم من البحر ما علاهم. واصل فرعون قومه: صرفهم عن طريق الرشده والهداية.

ولا تطغوا فيه: لا تأخذوه من غير حاجة اليه. هوى: سقط.

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي. . . الآية} .

لم يذكر في هذه السورة ما الذي حصل بعد مواجهة موسى لفرعون وقومه حيث آمن السحرة وبنو اسرائيل (ولقد فصل ذلك في سورة

اخرى) وانما انتقل الكلام هنا الى الهجرة والنصر الكبير الذي حصل عند عبور البحر وغرق فرعون وجنوده. ثم أتبع ذلك بتعداد

نعمه على بني اسرائيل، وذكره بأن يكونوا معتدلين فلا يأتوا أعمالاً توجب غضبه، وانه غفار لمن تاب وآمن.

وأوحى الله الى موسى ان يخرج بني اسرائيل ليلا، وان يشق لهم طريقا في البحر، وطمأنه ان لا يخاف من فرعون فإنه لن يدرهم.

وضرب موسى بعصاه البحر، فانشق شقين، كل جانب كأنه طود عظيم كما جاء في سورة الشعراء {فانفلق فكان كل فرقة كالطود

العظيم} ، واجتازه موسى ومن معه.

وتبعهم فرعون وجنوده، ودخلوا الطريق نفسها فانطبق عليهم الماء، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا جميعا. هكذا اضل فرعون قومه

عن الحق، وغرر بهم فهلكوا.

ثم عدد الله نعمه عليهم فقال:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ. . .} .

لقد أنجيناكم من عدوكم فرعون وجنوده حين كانوا يسومونكم سوء العذاب، وقد أقر الله أعينكم بغرقهم وأنتم تنظرون، كما قال تعالى:

{وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [البقرة: ٥٠] .

{وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ} .

وواعدناكم جانب الطور الأيمن بمنجاة موسى لربه وإنزال التوراة عليهم، ونزل عليكم المن والسلوى رزقاً طيباً من الحلو ولحم الطير الشهي. وقلنا لكم: كلوا من تلك اللذائذ التي أنعمنا بها عليكم، ولا تطغوا فيه: لا تظلموا وتبطلوا فتركبوا المعاصي ولا تسرفوا بل عيشوا في هذه النعم، حتى لا ينزل عليكم غضبي، ومن ينزل عليه فقد هلك.

وإني لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب عن شركه، ويقطع عن ذنبه، ويخلص في العمل، ويؤدي فرائضي. فهذه أربعة شروط كاملة تتحقق بها التوبة الحقيقية.
قراءات:

قرأ الجمهور: قد أنجيناكم، وواعدناكم بنون الجمع. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: قد أنجيتك من وواعدتك، وقرأ الجمهور: «ما رزقناكم» بنونا لجمع، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «ما رزقتكم» بناء المفرد.

قرأ حمزة: لا تخف دركا. والقاون: لا تخاف دركا. وقرأ الكسائي: فيحل عليكم غضبي: بضم الحاء، ومن يحلل عليه غضبي: بضم اللام. والباقون: بالكسر فيحل، ومن يحلل عليه.

٢٠٠١٠ 83

ما أعجلك عن قومك: لماذا تركت قومك، فلقد غيروا وبدلوا بعدك. على أثري: لاحقون بي. فتتأ قومك: اختبرناهم. وأضلهم: أوقعهم في الضلال. السامري: دجال من شعب إسرائيل. أسفا: حزينا. فاخلقتم موعدي: ما وعدتموني من الثبات على الإيمان. بملكنا: بقدرتنا واختيارنا. أوزارا: اثقالا. من زينة القوم: من حلبيهم ومصاغهم. فقدفناها: طرحناها في النار. جسدا: جثة لا روح فيها. له خوار: لوصوت.

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى} .

سأله ربه عن سبب تعجله بالمجيء إليه وترك قومه خلفه، والله اعلم بما سأل. فقال موسى مجيبا:

{قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} . انهم لاحقون بي، وإنما عجلت إليك وتقدمتهم يا ربي رغبة في رضاك.

يقول بعض المفسرين: ان موسى ذهب الى الميعاد قبل الوقت المحدد وترك قومه وراءه ليلحقوا به، وهذا سبب لوم ربه له على الاستعجال بالمجيء.

والقصة هنا مختصرة، وقد مرت مفصلة في سورة البقرة وسورة الأعراف، وذلك ان موسى لما نجا هو وقومه من فرعون، واستقر في سيناء، وأعدّه ربه، وضرب له ميقاتا كما جاء في سور الأعراف ١٤٢ {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ . . . الآية} فذهب إلى ربه عند الطور، وكلّمه وتلقّى عنه. وكان استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل. فجاءهم السامري وأضلهم بجعله لهم عجلاً من الذهب له صوت، فعكفوا عليه يعبدونه، ولم يستطع هارون ان يردّهم عن غيهم وكفرهم. وقد أخبره ربه بأن قومه من بعده قد ضلّوا فقال:

{قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} .

لقد أوصلهم الى اتخاذ العجل إلهاً والدعاء الى عبادته، وظهر عندهم الاستعداد لذلك، لأنهم حديثو عهد بالوثنية في مصر. وفي سورة الاعراف سألو موسى ان يجعل لهم إلهاً كما للقوم الذين مروا عليهم آلهة: {فَاتَوَّأْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ

لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }
 {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا } .

عاد موسى الى قومه بعد ان قضى الميعاد وهو في غضبٍ شديد وحزنٍ لما أحدثوه بعده، وخاطب قومه منكراً عليهم عملهم:
 {قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا } .

لقد وعدكم ربكم بالنجاة والهداية بإنزال التوراة، والنصر، فهل تناسيتم وعد ربكم؟ .
 {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } .

لم يطل عليكم العهد حتى تنسوا وعد الله لكم، أم أردتم بسوء صنيعكم ان ينزل بكم غضبُ الله جزاء عبادتكم العجل، فأخلفتم عهدكم لي!!
 فاعتذروا بعدرٍ عجيب إذ قالوا: {قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكًا } .

نحن لم نخلف موعداً باختيارنا، {وَلَكَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا} وإنما غلبنا السامريّ وحملنا أثقالاً من حلي المصريين الذي
 خرجنا به، فقذفناها في النار بإشارة السامريّ فصاغ لنا عجلاً جسداً له صوت.
 {فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ } .

قال السامري ومن تبعه: هذا معبودكم ومعبود موسى، ونسي السامري ربّه فعمل هذا العمل السيء وأضلّ به القوم.
 وقال عدد من المفسرين: نسي موسى الطريق الى ربه وضلّ عنه، وهذا غير واضح. وتكلم المفسرون في السامري كلاماً طويلاً، عن أصله، واسمه وهل هو من بني اسرائيل او هو قبضي. وهذا كله كلام طويل لا طائل تحته. والسامري يهودي من بني اسرائيل دحلّ. ثم ردّ عليهم الله سبحانه مقبّحاً أفعالهم، مسقّهاً أحلامهم بقوله:
 {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } .
 أفلا يعتبرون ويتفكرون في ان هذا العجل لا يتكلم ولا يردّ على اقوالهم، وانه لا يستطيع ان يدفع عنهم ضرراً، ولا ان يجلب لهم نفعاً، فكيف يتخذونه إلهاً! وتقدير الكلام: أفلا يرون انه لا يرجع اليهم قولاً.

وليس اتخاذ العجل من الذهب إلهاً بغريب على اليهود، فإنهم عبيد الذهب والمادة منذ خلّقوا. ومن يقرأ التلمود يجد العجائب في استحلال كل شيء في سبيل المال والحصول عليه، فهم يحللون كل وسيلة في أخذ المال من غير اليهود لأن كل ما في الارض لهم وحدهم.
 قراءات:

قرأ الجمهورك على أثري بفتح الهمزة. وقرأ رويس عن يعقوب: على إثري بكسر الهمزة وسكون الثاء. قرأ نافع وعاصم: بملكا بفتح الميم. وقرأ ابن كثير وابن عامر وابو عمرو ويعقوب: بملكا بكسر الميم. وقرأ حمزة والكسائي وخلق: بملكا بضم الميم وهي ثلاث لغاة. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب: حملنا بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة. وقرأ ابو بكر وحمزة وابو عمرو والكسائي: حملنا بفتح الحاء والميم مخففة بدون تشديد.

٢٠٠١١ 90

انما فتنتم به: اتبعتم اهواءكم في عبادة العجل. لن نبرح عليه عاكفين: لا نزال عليه مقيمين. ولم ترقب قولي: لم تحفظ وصيتي ولم تعمل بقولي. فما خطبك: فما شأنك. بصرت بما لم يصبروا به: علمت ما لم يعلمه القوم. قبضة من اثر الرسول: الرسول جبريل او موسى. فنبذتها: فطرحتها. سولت نفسي: زينت وحسنت. لا مساس: لا مخالطة، فلا يخاطله احد، فعاش وحيدا طريدا. لن تخلفه: سيأتيك حتما. ظلت: ظلت، اقلت. اليم: البحر.
 {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ } .

في هذه الآيات تمةً للقصة، فقد نصح هارون لقومه الذين عبدوا العجل قبل رجوع موسى، فقال لهم: يا قوم، ما الذي غركم من عبادة هذا العجل فوقعت في فتنه السامري؟ إن إلهكم الحق هو الرحمن، فاتبعوني فيما أنصحكم به واطيوني أهدكم سبيل الرشاد. فلم يسمعوا نصيحة، ولم يطيعوا أمره وأجابوه بعناد:

{قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} .

سنبقى مستمرين على عبادة العجل الى أن يعود إلينا موسى.

وجاء موسى: فالتفت الى أخيه هارون بعد ان فرغ من خطاب قومه وبيان خطأهم. {قَالَ يَاهَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} .

قال موسى متأثراً مما رآه من عمل قومه: يا هارون، اي سبب منعك ان تلحقني الى الطور بمن آمن معك من قومك، حين رأيت الباقيين قد ضلوا بعبادتهم للعجل؟ أخرجت عن طاعتي وخالفت أمري؟ . فقال هارون مجيباً أخاه في رفق ولين:

{قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} .

قال هارون لموسى: يا ابن أمي، لا تغضب علي ولا تجرني بلحيتي، ومن شعر رأسي. لقد خفت إن شددت عليهم ان يفرقوا، فتقول لي: لقد فرقك بين بني اسرائيل، ولم تخلفني فيهم كما أمرتك، ولم تحفظ وصيتي كما عهدت اليك. وقد رأيت من الصواب ان أحفظ العامة، وأدأريهم على وجه لا يختل به نظامهم حتى ترجع فتدارك الأمر بحسب ما ترى. ولقد كادوا يقتلونني، كما جاء في سورة الأعراف الآية ٥٠ {إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي}. وبعد ان انتهى موسى من سماع اقوال قومه واسنادهم الفساد الى السامري، ومن سماع اعتذار هارون، التفت الى السامري ووجه الخطاب اليه:

{قَالَ: فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ} .

ما هذا المر الخطيب الذي أتيت، وأفسدت به بني اسرائيل؟ . {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي} .

قال السامري لموسى: إني علمت ما لم يعلمه قومك، وصنعت لهم العجل من الذهب فعبدوه. وقد اتبعتك مدةً واخذت من دينك، ثم تبين لي أنه غير صحيح فتركته.

كذلك زين لي نفسي أن أفعل ما فعلته.

فكان السامري يريد ان يهرب ثم ذكر الحقائق ويموه على موسى.

هذا ما أراه أقرب الى الصواب في تفسير هذه الآية، وبهذا المعنى قال عدد من المفسرين الحديثن، ولكن اكثر المفسرين القدامى قالوا: إن المراد بالرسول هو جبريل، وان السامري رآه راكباً على فرس، واخذ تراباً من أثر الفرس، وألقاه على العجل حتى صار له خوار. وذكروا أقوالاً كثيرة، وروايات عديدة!!

وهناك معركة كبيرة بين المرحوم عبد الوهاب النجار، ولجنة من علماء الأزهر حول السامري والعجل وحقيقتهما، لمن اراد الاطلاع عليها ان يجدها في كتاب «قصص الانبياء» ص ٢٢٠ - ٢٢٣.

{قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ . . . } .

قال موسى للسامري: اذهب فأنت طريد لا يمسك أحد، ولا تمس أحداً، بعيداً عن الناس، معزولاً عنهم، لا يخالطك احد.

وخرج السامري طريداً في البراري. هذا جزاؤه في الدنيا. أما في الآخرة فله موعدٌ محدد لعذابه لا مفر منه. وقد ند موسى به وبالهه قائلاً: انظر الى إلهك الذي عبدته، ماذا نصنع به؟ سنحرقه ونلقيه في البحر حتى نتخلص منه.

ثم يعلن بعد ذلك كله حقيقة العقيدة، والدين الحق فيقول:

{إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} .

وبهذه الآية وما فيها من إعلان عن الاله الحقيقي الذي لا اله الا هو ينتهي هذا القدر من قصة موسى في هذه السورة، وتجلي فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته من عباده.
قراءات:

قرأ الجمهور: يا ابن أمّض بفتح الميم. وقرأ ابن عامر وحمزية والكسائي وابوبكر وخلف: يا ابن أم بكسر الميم.
وقرأ الجمهور: بصرت بما لم يبصروا: بالياء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: بما لم تبصروا بالتاء، على انه خطاب لموسى وقومه. وقرأ الجمهور: لن تخلفه: بفتح اللام. وقرأ ابن كثير ويعقوبك لن تخلفه: بكسر اللام.

٢٠١٢ 99

ذكرًا: القرآن. ومن اعرض: من كذب. وزرا: حملا، وقد فسر في الآية التي بعدها. الصور: قرن ينفخ فيه ويدعى لاناس الى المحشر. زرقا: ألوانهم متغيرة. يتخافتون: يتحدثون بصوت خفي. أمثلهم: افضلهم. ينسفها: يجعلها كالغبار. يذرّها: يتركها. قاعا: ارضا ملساء. صفصفا: مستوية. عوجا: انخفاض. امّا: نتوءا يسيرا. لا عوج له: مستقيم. همسا: صوتا خفيا. عنت: خضعت، ذلت. القيوم: القائم بتدبير الأمور. هضما: نقصا، بخسا.

بعد ان ذكر الله تعالى قصص موسى مع فرعون ثم السامريّ وفتنته، بين للرسول الكريم في هذه الآيات ان مثل هذا القصص عن الأمم الماضية يليق به سبحانه وتعالى إليه تسليّة لقلبه وإذهابا لحزنه حتى يعلم ان ما يحدث له قد حدث مثله للرسل من قبله.
{مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا} ان من كذب بهذه القرآن واعرض عن اتّباعه، فانه يضلل في حياته، ويأتي يوم القيامة حاملا إثم عناده، ويجازى بالعذاب الشديد. وسيكون هؤلاء خالدين في ذلك العذاب.
{وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا} .

بئس الحمل الى حملوه من الأوزار في ذلك اليوم العصيب. ذلك اليوم الذي يُنفخ فيها بالصور، ويُساق المجرمون الى المحشر زرق الالوان، يرهق وجوههم الذلّ، يتهايمسون بينهم من الرعب، ويقول بعضهم لبعض ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة أيام.
والله يسمع تهايمسهم وهو أعلم بما يقولون بينهم، كما يعلم ما يقول أعدلهم رأيا واكملهم عقلا: ما لبثتم إلا يوما واحدا.
ويسأل المُنكرون للبعث ايها الرسول عن مصير الجبال يوم القيامة، فقل لهم: ان الله تعالى يفتتها، ثم ينسفها هباء.
اخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش يا محمد، كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ} . . .

ثم بعد ذلك يدع أماكنها بعد نسفها ملساء مستوية، ولا تبصر العين في الأرض انخفاضاً ولا ارتفاعاً، وكأنها لم تكن معمورة من قبل.
{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ} .

يومئذ يرى الناس هذه الالهوال، يتبعون داعي الله الى المحشر، يجمعهم فيه الى موقف الجزاء والحساب، ولا يستطيع احد ان يعدل عنه.
{وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} . . .

بالسكون والرهبة لعظمة الله، فلا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يبين.
يومئذ لا تنفع الشفاعة من أحد، الا من أكرمه الله فأذن له بالشفاعة، ورضي قوله فيها، ولا تنفع الشفاعة في أحد الا من أذن الرحمن في ان يشفع له.

والله تعالى يعلم ما تقدّم من امورهم في دنياهم، وما يستقبلونه في الآخرة، ولا يحيطون علماً بتدبيره وحكمته.
وكما ذكر سبحانه وتعالى خشوع الاصوات أتبعه خضوع ذوبها فقال:

{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} .

استسلمت الخلائق لخالقها الحي الذي لا يموت، القائم على خلقه بتدبير شئونهم. في ذلك اليوم خسر النجاة كل من ظلم نفسه في الدنيا فأشرك بربه.

وبعد ان ذكر أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين في ذلك اليوم فقال:

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} .

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجاءوا ربهم في ذلك اليوم، فإنهم في كنف الله وضيافته، لا يخافون من ظلم ولا نقص لحقوقهم. {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧] .

قراءات:

قرأ الجمهور: يوم ينفخ في الصور بالياء، وقرأ أبو عمرو وحده: ننفخ بالنون. وقرأ الجمهور: فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا: بالياء. وقرأ ابن كثير: فلا يخف بالجزم.

٢٠١٣ 113

صرفنا: كرنا وفصلنا. ذكرنا: عظمة وعبرة. لا تضحي: لا تبرز للشمس، ولا نتعب. طبقا يخصفان: شرعا يلزقان ورق الجنة. غوى: ضل. اجتباه: اصطفاه وقربه.

{وكذلك أنزلناه قرآنًا عَرَبِيًّا. . .} .

وكما انزلنا ما ذكر من البيان الحق الذي سلف في هذه السورة، كذلك أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربي واضح، وصرفنا فيه القول في أساليب الوعيد ليجتنبوا الشرك والوقوع في المعاصي، او يتذكروه غذا اذنبوا فيتوبوا الى الله ويسألوه العفو.

{فتعالى الله الملك الحق. . .} .

تقدس الله المتصرف بالأمر والنهي، المحق في ألوهيته وعظمته. ولا تعجل يا محمد بقراءة القرآن من قبل ان يتم جبريلُ تبليغه اليك. أنصت حين نزول الوحي بالقرآن عليك، حتى يفرغ الملك من قراءته، ثم اقرأه بعده.

{وقل رب زدني علمًا} .

بالقرآن ومعانيه وكل شيء. وهذا يدل على فضيلة العلم، فان الله تعالى لم يأمر رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم. ولقد قام الاسلام على العلم والتعلم من بدايته، وبالعالم سيطرت الأمم المسيطرة في الوقت الحار، ولو أننا اتبعنا القرآن حق اتباعه لكنا اليوم في الذروة من كل شيء.

وسبب نزول هذه الآية ان الرسول الكريم كان اذا لقنه جبريلُ الوحي، يتبعه عند تلفظ كل كلمة وكل حرف، لكمال اعتناؤه بالتلقي والحفظ، فأرشده الله الى التأني ريثما يسمعه ويفهمه. ونحوه قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٦ - ١٩] .

روى الترمذي عن ابي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم انفعني بما علمتني، وعلمي ما ينفعني، وزدني علما، والحمد لله على كل حال، واعوذ بالله من حال أهل النار»

قراءات:

قرأ يعقوب: من قبل أن نقضي اليك وحيه. بفتح النون وكسر الضاد ونصب وحيه. والباقون: من قبل ان يقضى اليك وحيه، بضم الياء ورفع وحيه.

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا لِلْآدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} .

بعد تلك الجولة الطويلة في قصة موسى، والعرض الموجز لأحوال القيامة وتذكير الناس بأهوال ذلك اليوم العظيم، ثم ذكر القرآن وما

فيه من وعيد ومن احكام، والأمر للرسول ان لا يجعل في تلقّيه خوف ان ينسى - يأتي الحديث هنا عن قصة آدم. فقد نسي آدم ما عهد الله به اليه، وضعف أمام الإغراء بالخلود فاستع لوسوسة الشيطان. وكان هذا ابتلاءً من ربه قبل ان يعهد اليه بخلافة الأرض. ثم تداركت رحمة الله آدم فاجتباها وهداه.

ولقد وصينا آدم وقلنا له أن لا يخالف لنا أمراً، فنسي العهد وخالف، ولم نجد له ثباتاً في الرأي، ولا تصميمًا قوياً يمنع من ان يتسلل الشيطان الى نفسه بوسوسته.

وكل هذا العرض بإجمال لأنه فصل في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف.

ثم بين الله تعالى ما عهد اليه به وكيفية نسيانه وفقدان عزمه فقال:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى. . . .} .

اذكر ايها الرسول حين امرنا الملائكة ان يسجدوا لآدم سجوداً تعظيماً، فامتثلوا ولبوا الأمر، إلا ابليس الذي امتنع وأبى ان يكون من الساجدين.

فقلنا يا آدم ان هذا الذي رأيت منه ما رأيت عدوً لك ولزوجتك، فاحذرا وسوسته فلا يكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقى يا آدم بعد الخروج. إن في هذه الجنة عيشاً هيناً رغداً بلا كلفة ولا مشقة، فلا جوع فيها ولا عري، ولا ظمأ ولا حر شمس.

{فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ. . . .} .

بعد ان بين الله أنه عظم آدم وعزّاه شدة عداوة ابليس، ذكر هنا أن آدم أطاع إبليس، وأكلض من الشجرة المحرّمة عليه، لأن إبليس جاءه وقال له: هل أدلك على شجرة إن اكلت منها خلّدت ولم تمت أبداً؟! فنسي آدم العهد وأكل هو وزوجته، وخالفاً أمر ربهما، فظهرت لهما عوراتهما جزاء مخالفتهم الأوامر الربانية، وصاروا يقطعان من ورق شجر الجنة، ويستتران بها ما بدا منهما.

{وعصاً آدم ربه فغوى} .

خالف آدم أمر ربه، فحرم الخلد، وأفسد على نفسه تلك الحياة الهنيئة التي كان يعيشها.

{ثم اجتباها ربه فتآب عليه وهدى} .

ثم ادركت آدم وزوجته رحمة الله بعد ما عصاه، فاصطفاه للرسالة، وقبل توبته، وهداه الى الخير. قراءات:

قرأ نافع وابو بكر: (وانك) لا تظماً فيها، بكسر ان. والباقون: (وانك) بفتح الهمزة.

٢٠١٤ 123

معيشة ضنكا: معيشة ضيقٍ شديد. أعمى: أعمى البصيرة: فنسيها: فتركها. وكذلك اليوم تُنسى: تترك. لأولي النهى: لذوي العقول. لازماً: لازماً لهم.

أمر الله آدم وزوجته ان يخرجوا من الجنة، فقال لهما انزلا منها الى الأرض، وأخبرهما بان العداوة ستكون بين ذريتهما، وان الله تعالى سيمدّهم بالهدى، فمن استقام واتبع الهدى منهم فإنه لا يضلّ في هذه الحياة، ولا يشقى بالعذاب.

روي عن النبي ﷺ ان قال: «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة» ومن أعرض عن هدى الله وطاعته، فإن له معيشةً ضيقةً شديدة {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} أي أعمى البصيرة عاجزاً عن الحجّة التي عتذر بها فيسأل ربه في هذا الموقف الحرج:

{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} .

فيقول: يا رب، لم حشرتني أعمى عن حجتى وعن رؤية الاشياء على حقيقتها وقد متُ في الدنيا ذا بصيرٍ بذلك؟ .

فيجيبه ربه بقوله: { . . . كذلك أُنْتُكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وكذلك اليوم تنسى } .

لقد جاءت آياتنا ورسلنا في الدنيا فنسيته، وتعاميت عنها، وكذلك اليوم تُترك وتنسى.

وهكذا نعاقب في الدنيا من أسرف فعصى ربه ولم يؤمن به وبرسله، وإن عذاب الآخرة في النار أشدُّ ألمًا، وأكثر بقاء، لأنه لا نهاية له.

{ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النِّهْيِ } .

أفلم يرشدْهم الى وجه العبر، إهلاكنا لكثير من الأمم الماضية قبلهم بسبب كفرهم، ولم يتعظوا بهم مع أنهم يمشون في ديارهم ومسالكهم، ويشهدون آثار ما حلَّ بهم من العذاب! ان ما يشاهدون، ويرون من آثار ما حلَّ بهم لدلائل وعبراً واضحة لأصحاب العقول الراجحة.

ولولا حكم سبق من ربك بتأخير العذاب عنهم إلى أجلٍ مسمى هو يوم القيامة، لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا، كما حل بأصحاب القرون الماضية. وتقدير الكلام: ولولا كلمة واجلٌ مسمى لكان العذاب لازماً.

٢٠٠١٥ 130

آناء الليل: ساعاته. مفردا إنِّي، وإنو، بكسر الهمزة وسكون النون. وأنى بفتح الهمزة والنون مقصورةً مثل على. وإنَّى بكسر الهمزة وفتح النون مثل إلى. لا تمدَّن عينك: لا تنظر الى ما عند هؤلاء. متعنا: اعطيناهم ما يتلذذون به. ازواجاً: اشكالا واشباهها. زهرة الحياة الدنيا: زينتها وبهجتها. لنفتنهم: لنختبرهم ونبليهم.

فاصبر أيها الرسول على ما يقولون من كفر واستهزاء، واتَّجه إلى ربك وسبِّح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ونزهه وابعده في ساعات الليل، وفي أطراف النهار. { لَعَلَّكَ تَرْضَى } فتطمئنَّ الى ما أنت عليه.

ولما صبرَّ رسوله الكريم على ما يقولون وأمره بالعبادة والتسبيح، أتبع ذلك بنهيه عن مدِّ عينيه إلى ما مُتَّعوا به من زينة الدنيا فقال: { وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ . . . } .

ولا تتعدَّ بنظرك الى ما متعنا به أصنافاً من الكفار، لأن هذا المتاع زينة الحياة الدنيا وزخرفها، يمتحن الله به عباده في الدنيا. { وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } يدخره لك الله في الآخرة، وهو رزق نعمة لا للفتنة، رزق طيب باق، وهو خير من هذا المتاع الزائل.

عن زيد بن ثابت قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول:» من كانت الدنيا همه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتِه من الدنيا الا ما كتب له »

وهذه التَّنبِهاَت ليست دعوةً للزهد في طيبات الحياة، ولكنها دعوة الى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية، وبالصلة بالله والرضى به. قراءات:

قرأ أبو بكر والكسائي: «لعلك ترضى» بضم التاء. والباقون: طلعك ترضى» بفتح التاء.

{ وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } .

دوام على الصلاة ووجه أهلك أن يؤدوها في أوقاتها، فإن أول واجبات المسلم أن يحول بيته الى بيت مسلم. ونحن لا نكلفك مالا، بل عملاً نؤتيك عليه أجراً عظيماً. إننا نعطيك الرزق، والعاقبة الصالحة لأهل الخسبة والتقوى، والإنسان هو الراجح بالعبادة في دنياه وأخراه.

قراءات:

قرأ يعقوب: زهرة الحياة. بفتح الزاء والهاء وهي لغة. والباقون: زهرة، بسكون الهاء.

٢٠٠١٦ 133

بآية: بمعجزة. البيئة: البرهان. الصحف الأولى: التوراة والتنجيل. نخزى: نفتضح. متربص: منتظر. الصراط: الطريق. السوي: المستقيم.

وقال المشركون المعتنون في عنادهم: لماذا لا يأتينا محمدٌ بمعجزة تدلّ على صدقه في دعوى النبوة؟ ألم يأتيهم القرآن؟ وهو أكبر بينة جاء مشتملاً على ما في الكتب السابقة من أنباء الأمم الماضية، وكفى بذلك آية. وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة ١١٨، وفي سورة يونس الآية ٢٠. ولو أهلكنا هؤلاء المكذّبين قبل أن نزل عليهم القرآن على يد رسول كريم لقالوا: ربّنا، هلاًّ أرسلتَ إلينا رسولا قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه، من قبل أن ينزل بنا العذابُ واخزي في الآخرة؟! ولكن الله بإرساله النبي الكريم قطع جميع حججهم وأعدّاهم. {قُلْ كُلُّ مَرْبِصٍّ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَى} .

قل ايها الرسول لهؤلاء المعاندين: إننا جميعاً منتظرون قترَبصوا وارتقبوا، فستعلمون من هم أهل الطريق المستقيم، وأي الفريقين صاحب الدين الحق والمهتدي بهدى الله.

وهكذا خُتمت سورة طه بأن يؤمر الرسول أن يترك هؤلاء المشركين فلا يشقى بهم من ولا يكرّبه عدم إيمانهم. وقد بدأت السورة بنفي الشقاء عن النبي الكريم من تنزيل القرآن، وحددت وظيفة القرآن بأنه تذكرة لمن يخشى. وجاء الخاتم متناسقاً مع المطلع كل التناسق، فهو التذكرة الأخيرة لمن ينفعه التذكير، وسيندم المخالف حيث لا ينفع الندم.

٢١ الأنبياء

٢١٠١ 1

اقرب للناس حسابهم: اقرب يوم القيامة. من ذكر: من قرآن. محدث: جديد: لاهية قلوبهم: غافلون عن ذكر الله. أسروا النجوى: أخفوا حديثهم بينهم. اضغاث أحلام: الاضغاث هي الأشياء المختلطة بعضها ببعض، ومعنى اضغاث أحلام: ما كان منها ملتبساً مضطرباً يصعب تأويله. بل: كلمة تذكر للانتقال من غرض لآخر

دنا للناس وقت حسابهم بقرب مجيء يوم القيامة، وهم غافلون عن هول ذلك اليوم، ساهون لا يتفكرون في عقابهم. . فإن يوم الحساب آتٍ لا محالة.

ثم بين الله ما يدل على غفلتهم واعراضهم بقوله:

{مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} .

ما ينزل الله من قرآن يجدد لهم فيه الذكر، ويُحَدِّثُ لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلمهم يتعظون، الا زادهم ذلك لعباً واستهزاء. ولقد بالغوا في اخفاء نجواهم وتآمرهم على الرسول الكريم، فهل محمدٌ إلا بشرٌ مثلكم! {أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ} .

اتصدّقون محمداً وتذهبون الى مجلس السحر وأنتم تعلمون انه ساحر؟! .

قال لهم الرسول وقد أطلعه الله على حديثهم الذي أسروه: إنكم وإن أخفيتم قولكم وطعنكم فيّ فإن ربّي يعلم كل ما يقال في السماء والأرض، لا يخفى عليه شيء.

ثم بين الله خوضهم في فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدّم من أن النبي ساحر بقوله تعالى:

{بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ اقْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ} .

إنهم لم يثبتوا على صفة له، ولا على رأي يرونه. . . كيف يصفون هذا القرآن، وكيف يتقونه. قالوا في أول الأمر إن محمداً بشرٌ مثلكم، ثم قالوا إن ما جاء به سحر، ثم قالوا إنه أحلامٌ مختلطةٌ يراها محمد ويرويها عليكم، ثم عادوا وقالوا إن هذا الذي يجيء به كذبٌ

مفتري، بل هو شاعر، فإذا كان رسولاً حقيقياً فليأتنا بمعجزة مادية تدل على صدقه، كما أرسل الأنبياء الأولون مؤيدين بالمعجزات. إنهم حائرون لا يدرون بماذا يصفون هذا الرسول والقرآن، فينتقلون من ادعاء الى ادعاء، ومن تعليل إلى تعليل، ولا يستقرون على رأي.

{مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ} .

إن القرى التي أهلكناها لم تؤمن مع أننا أرسلنا إليهم رسولنا بالمعجزات المادية، فأهلكناهم، فهل يؤمن هؤلاء من قومك إذا جاءهم ما يطلبون!! .

قال قتادة: قال أهل مكة للنبي ﷺ إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن تؤمن، فحول لنا الصفا ذهباً. فأتاه جبريل فقال: ان شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا، لم ينظروا (يعني ان الله يهلكهم حالا) وان شئت استأنيت بقومك، قالك بل أستأني بقومي. فانزل الله:

{مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ} . الآية} .

٢١٠٢ 7

أهل الذكر: العلم. الجسد: الجسم ذكركم: عظمتكم. كم قصمنا من قرية: كم أهلكنا، أصل القصم الكسر. أنشأنا: أوجدنا. أحسوا: أدركوا. الى ما أترفتم: الى ما بطرتم فيه من نعيم. يا ويلنا: يا هلاكنا، يا خزينا. حصيدا: مثل الحصيد. خامدين: كالنار التي نحدث وانطفأت. بين الله تعالى لهم جواباً لشبهتهم أن الرسول لا يكون بشراً بقوله:

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}

وما أرسلنا قبلك يا محمد من الرسل إلا رجالاً من البشر نوحى إليهم الدين ليبلغوه الى الناس، فاسألوا أيها المنكرون أهل العلم بالكتب المنزلة ان كنتم لا تعلمون.

ثم بين الله كون الرسل بشراً كسائر الناس في أحكام الطبيعة البشرية فقال:

{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} .

وما جعلنا الرسل الذين قبلك أجساداً تخالف أجساد البشر، فقد كانوا لا يعيشون دون طعام، وما كانوا مخلدين، بل إنهم كغيرهم من الناس كلّفهم الله بتليغ الرسالة.

قرئات

قرأ عاصم: نوحى بالنون، والباقون: يوحى بالياء وفتح الحاء.

{ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} .

إننا أرسلنا رسلاً من البشر وصدقناهم وعدنا فنصرناهم على المكذّبين، وأنجيناهم هم ومن آمن معهم، وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم في تكذيبهم برسالة أنبيائهم.

وبعد أن حقق الله رسالته ﷺ ببيان أنه كسائر الرسل الكرام - شرع يحقق فضل القرآن الكريم، ويبين نفعه للناس.

{لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} .

لقد أنزلنا إليكم القرآن ورفعنا فيه ذكركم أيها العرب، وفيه مجدكم وعظمتكم بما اشتهل عليه من مكارم الأخلاق، وفاضل الآداب وسديد الشرائع والأحكام، أفلا تتفكرون؟ ، ومن هم العرب لولا القرآن؟ هو الذي جعلهم أمة ذات حضارة ودين قويم، بعد ان كانوا خاملين يعيشون في ظلام الممجية والجاهلية.

{وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ} { .

والقصم أشد حركات القطع، والتعبير به يشير إلى شدة وقع الضربة على تلك القرى.

وكثير من أهل القرى أهلكتهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لأنبيائهم، ثم أنشأنا بعد إهلاكهم أمماً أخرى أحسن منهم حالاً ومالاً. ثم بين حالهم حين حلول البأس بهم فقال:

{فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ} .

فلما أيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة سارعوا إلى الهروب، فخرجوا منها يركضون. . . . ولكن إلى أين!

{لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} .

يقال لهم على سبيل الاستهزاء والتهمك: لا تهربوا أيها المنكرون، فلن يعصمكم من عذاب الله شيء، ارجعوا إلى ما كنتم فيه من نعيم وترف ومساكن طيبة، لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه.

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} .

حين يتسوسوا من الخلاص قالوا: يا هلاكنا إنا كنا ظالمين. بهذا كانوا يحاولون التوبة والاعتذار، ولكن فات الآوان. {فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِئِينَ} فما زالوا يرددون هذه المقالة، ويصيحون بها حتى جعلناهم بالعذاب كالزرع المحصود، خامدين لا حياة فيهم.

٢١٠٣ 16

نقذف: نرجمي. فيدمغه: فيبطله ويمحوه. ومن معاني الدماغ: الكسر والشج. زاهق: زائل، هالك. ومن عنده: يعني من عند الله، وهم الملائكة. ينشرون: يحيون، انشر أحياء. ولا يستحسرون: لا يتعبون. لا يفترون: لا يضعفون؛ ولا يترaxon.

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} .

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة عنده، لا لعباً ولا لهواً. . . خلقه بنظام محكم، وصنع بدیع. فتكوين العالم وإبداع هذا الخلق مؤسس على قواعد أصيلة، وغايات جلية محكمة.

{لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوَاً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} .

ولو أراد الله تعالى أن يتخذ لهواً لاتخذ من عنده، ولكن هذا مستحيل عليه، ولن يفعله، ولا يليق به. وإنما خلقنا الله لحكمة، وصورنا لغاية سامية.

{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} .

بل أمرنا الذي يليق بنا أن لا يكون هناك لهو، وإنما هو جد فنقذف الحق في وجه الباطل فيمحوه ويبطله، فإذا هو هالك زائل، والويل لكم أيها الكافرون من وصفكم ربكم بصفات لا تليق بهن وافترائكم على الله ورسوله.

هذه هي سنة الحياة الأصلية، الحق دائماً يعلو، وإذا تغشى الباطل وعلا امره فانما يكون ذلك من تقصير منا، وتخاذل في أمرنا، وبعد عن ديننا، وفي الحديث الشريف: «للباطل صولة ثم يضمحل» .

{وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} .

لله وحده كل ما في هذا الكون خلقاً ومُلْكاً، فمن حقه وحده أن يعبد. والملائكة عنده يعبدونه حقاً ولا يستكبرون عن عبادته والخضوع له، ولا يكفون ولا يتعبون.

{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} .

فهم دائبون في العبادة ليل نهار، لا يتخلل تسبّحهم وتنزيههم لله فتور ولا ملل.

{أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ} .

بل عبدوا غير الله، واتخذوا آلهة من هذه الأرض من الأصنام وغيرها. كيف يعبدون هذه الأصنام وهي لا تستطيع إعادة الحياة! ثم أقام الدليل العقلي على التوحيد ونفي تعدد الآلهة فقال:

{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} .

لو كان في السموات والأرض إله آخر غير الله لوقع الاضطراب والفساد في هذا الكون، واختل النظام فيه بتعدد الآراء، واختلاف الأوامر.

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} .

فتنزيهاً لله رب العرش المحيط بهذا الكون، عما يقول هؤلاء المشركون.

{لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} .

الله تعالى هو الحاكم المطلق، لا معقب لحكمه، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى، فهو لا يحاسب ولا يسأل عما يفعل، فهو الحكيم العليم، لا يخطئ في فعل شيء، واخلق جميعهم يسألون.

٢١٠٤ 24

هذا ذكر من معي: هذا القرآن الذي معي. وذكر من قبلي: الكتب السابقة. لا يسبقونه بالقول: لا يتكلمون حتى يأمرهم. مشفقون: حذرون، خائفون.

أعاد الاستنكار مرة أخرى لبشاعة ما يقولون، ولإظهار جهلهم فقال:

{أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً...} .

بعد هذه الأدلة التي ظهرت تقولون: إن الله شركاءن فأين الدليل؟ هاتوا دليلكم على صحة ما تقولون. ان هذا القرآن قد جاء مذكراً لأمتي بما يجب عليها، هذه كتب الأنبياء التي جاءت لتذكر الأمم من قبلي - كلها تشهد على توحيد الله، وليس فيها ذكر للشركاء الذين تزعمون.

ولما كانوا لا يجدون لهم شبهة فضلاً عن حجة، ذمهم الله على جهلهم بمواضع الحق فقال:

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ} .

بل أكثر هؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل، وهذا هو السبب في إعراضهم وتجاهلهم عن سماع الحق.

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} .

ان الرسل جميعاً أرسلوا بالتوحيد، فهو قاعدة العقيدة منذ ان بعث الله الرسل للناس، لا تبديل فيه ولا تحويل، فأخلصوا لله العبادة.

وبعد أن بين سبحانه بالدلائل القاطعة أنه منزّه عن الشريك والشبيه، أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد فقال:

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} .

وقال بعض مشركي العرب وهم بعض خزاعة وجُهينة وبنو سلمة: ان الملائكة بنات الله، فرد الله عليهم بقوله: سبحانه، تنزهه عن أن

يكون له ولد، بل الملائكة الذين عنده هم عباد مكرمون مقربون.

{لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} .

لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يخالفونه في ذلك ولا يتعدون حدود ما يأمرهم به.

ثم علل سبحانه هذه الطاعة بعلمهم أن ربهم محيط بهم، لا تخفى عليه خافية من أمرهم فقال:

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} .
ان الله يعلم كل أحوالهم واعمالهم، وما قدموه وما أخروه، وهم لا يشفعون الا لمن رضي الله عنه، وهم من خوف الله والإشفاق من عقابه دائماً حذرون.

{وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَلَنُجْزِيَهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} .
ومن يقل من الملائكة إني إله، فذلك جزاؤه جهنم، ومثل هذا الجزاء نجزي كل من يتجاوز حدود الله من الظالمين.
قال بعض المفسرين: عنى بهذا إبليس حيث ادعى الشراكة ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة، ولم يقل أحد من الملائكة إني إله غيره.

٢١٠٥ 30

رتقا: ملتصتين. ففتقناهما: ففصلناهما. رواسي: جبالا ثابتة. تميد: تضطرب وتحرك. فجاجا سبلا: الفجاج واحدها فج: المكان المنفرج، والسبل واحدها سبيل: وهو الطريق الواسع. في فلك: في دائرة بهذا الكون الواسع. نبلوكم: نختبركم.
لقد ذكر الله هنا ستة أدلة ثبت وجود الخالق الواحد القادر، ولو تدبرها المنصفون، وعقلها الجاحدون، لم يجدوا مجالاً للإنكار.
الأول: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا} .
أولم يعلم الذين كفروا ولم يبصروا الحق، أن السموات والأرض كانتا في بدء خلقهما ملتصتين في صورة كتلة واحدة ففصلناهما حتى صارتا في هذا النظام! وهو ما يسمونه: النظام الشمسي، ويتكون من الشمس، يدور حولها تسعة كواكب سيارة هي: عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأورانوس، ونبتون، وبلوتو، وعدد من الأقمار يدور حول كل من هذه الكواكب.
ويدخل ضمن هذه الأسرة عدد من الاجسام الصغيرة تقع بين مداري المريخ والمشتري، وتدور حول الشمس كسرب من الطير، ومن بينهما المذنبات، والشهب التي نرى الكثير منها يتهاوى في الليل نحو الأرض، ويتمزق عند احتكاكه بالغلاف الجوي المحيط بها.
أما بقية الأجرام التي نراها في السماء ليلاً تزين سطح القبة السماوية فهي النجوم، وهي شموس لا حصر لها، والكثير منها يكبر شمسنا. وهي بعيدة جداً لا نستطيع الوصول إليها بكل ما لدينا من وسائل حديثة، والبحث فيها يطول.
ولعلماء الفلك نظريات عديدة في كيفية انفصال هذه الأجرام عن بعضها البعض، لكن هذا الموضوع ليس موضع بحثه. والقرآن الكريم كتاب يهدي الانسان الى سعادته في دنياه وآخرته وليس كتاب نظريات في الفلسفة والعلم والفلك وغيره، وان كان ما يرد فيه لا يخالف أحدث نظريات العلم والفلك، واكبر دليل على ذلك هذه الآية العظيمة.

الثاني: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} .

وخلقنا من الماء كل ما في هذا العالم من حياة، فلما مصدر الحياة لكل نام، إنساناً كان او حيواناً او نباتاً، فهل بعد كل هذا يعرضون، فلا يؤمنون بانه لا اله الا الله!

وتقرر هذه الآية حقيقة علمية ثابتة، وهي ان الماء هو المكون الهام في تركيب مادة الخلية، وهي وحدة البناء في كل كائن حي. ولقد اثبت علم الكيمياء الحيوية ان الماء لازم لحدوث التفاعلات والتحويلات التي تتم داخل اجسام الأحياء.

وأثبت علم وظائف الاعضاء ان الماء ضروري لقيام كل عضو بوظائفه التي بدونها لا تتوافر له مظاهر الحياة ومقوماتها.

الثالث: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ} .

وجعلنا في الأرض جبالات ثابتة لئلا تضطرب بمن عليها من الخلق، وجعلنا فيها طرقاً فسيحة، ومسالك واسعة، لكي يهتدوا بها في سيرهم الى أغراضهم.

وقد ثبت ان توزيع اليا بس والماء على الأرض، ووجود سلاسل الجبال عليها - يحقق الوضع الذي عليه الأرض من التوازن، فالجبال ذات الجذور الممتدة في داخل القشرة الارضية الى اعماق كبيرة تتناسب مع ارتفاعها، فهي كأنها أوتاد. وبهذا الترتيب تتوزع الأوزان على مختلف جوانب الكرة الارضية.

وهذه المعلومات معجزة في الآية ترشد الى ان القرآن وحى يوحى، لن احداً لم يكن يعلم عن هذه المعلومات شيئاً في العصر الذي نزلت فيه.

ولما ارتفعت الجبال حدثت السهول والأودية والممرات بين الجبال وشواطئ البحار والمحيطات والهضاب، وكانت سُبلاً وطرقاً. وهذا هو الدليل الرابع حيث يقول الله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَبَالاً سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} .

وجعلنا في الارض طرقاً بين جبالها يسلكها الناس من قطر الى قطر ومن إقليم الى آخر، ليهدوا بذلك الى مصالحهم وأمورهم في هذه الحياة الدنيا.

الخامس: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} .

وجعلنا السماء فوقهم كالسقف المرفوع، وحفظناها من أن تقع كما في الآية الاخرى، {وَيَمْسُكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٦] . او يقع ما فيها عليهم، وهم مع ذلك منصرفون عن النظر في آياتنا الدال على قدرتنا وحكمتنا.

فالآية تقرر أن السموات وما فيها من أجرام محفوظة بكيانها متماسكة لا خلل فيها، وفق نظام بديع لا يتخلف ولا يتبدل. وقد جعل الله لهذه الأرض غلافاً جويّاً يحفظها وتنبع الاشعاعات الضارة من أن تصل إليها، وجعل فوق الغلاف الجوي أجرام السماء على أبعاد مختلفة تحتفظ بنظام دورانها وكيانها منذ القدم وإلى ما شاء الله.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} .

والله خلق لكم الليل والنهار نعمةً منه عليكم فهما يختلفان عليكم لصلاح معاشكم وأمور دنياكم، وخلق الأرض والشمس والقمر تجري في افلاكها، لكل جرم سماوي مداره الخاص يسبح فيه. وأجرام السماء كلها لا تعرض السكون، وتتحرك في مدارات خاصة.

بعد ذكر هذه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر، بين سبحانه وتعالى في كتابه للناس أن هذه الدنيا لم تُخلق للخلود والدوام، وإنما للابتلاء والامتحان، ولتكون وسيلةً الى الآخرة التي هي دار الخلود فقال:

{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ} .

وما جعلنا لأحد من البشر قبلك ايها النبي الخلود في هذه الدنيا، فكل من على هذه الأرض ميت، كما قال تعالى ايضاً: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} {إِنْ مِتَّ فَهُمْ يَخْلَدُونَ في هذه الحياة!!} .

نزلت هذه الآية لما تضايق كبراء قريش من الرسول الكريم فقالوا: نتربص به الموت فنستريح منه.

ثم أكد الله الأمر وبين انه لا يبقى أحد في هذه الدنيا فقال:

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} .

كل نفس لا بد ان تذوق الموت، إنما نعاملكم في هذه الحياة معاملة المختبر بما يصيبكم من شر او خير، ونعلم الشاكر للخير والصابر على البلاء.

إلينا مرجعكم فحاسبكم على أعمالكم. والكثير من الناس يصبرون على الابتلاء بالشَّرِّ من مرضٍ او فقرٍ او غير ذلك، لكن القليل القليل منهم يصمد أمام الابتلاء بالخير، ولا تبطره النعمة، ويقوم بحققها خير قيام، ويصبر على الإغراء بالمناصب والمتاع والثراء.

روى مسلم في صحيحه «ان الرسول الكريم قال:» عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للهؤمّنين، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »

{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُّونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} .

واذا رآك المشركون ايها النبي يسخرون منك ويستهزئون، لأنك سفّهت أحلامهم وأتيتهم بالدّين القويم، ويقول بعضهم لبعض: هذا الذي يذكر آلهتكم بالغيب! وكيف يعجبون من ذلك وهم كافرون بالله الذي خلقهم وأنعم عليهم!

٢١٠٦ 37

خلق الانسان من عَجَلٍ: خلق الله الانسان عجولا، يطلب الشيء قبل أوانه، والعجلة مذمومة. لا يكفون عن وجوههم: لا يدفعون، لا يمنعون. بغتة: فجأة. فتبّتهم: تحيرهم، تدهشهم. وهم لا ينظرون: لا يمهّلون، لا يؤخّرون. ولا هم منا يصحبون: ولا هم منا يجارون، من الجور، ويقال في الدّعاء، صحبتك الله: حفظك وأجارك، وأصحب الرجل: حفظه، وأجاره.

{خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} .

خلق الله الإنسان وفي طبيعته العجلة، فهو دائماً يستعجل الأمور لأنه طبع على العجلة، فيريد ان يجد كل ما يجول في خاطره حاضراً. والعجلة مذمومة، وفي المثل: ان في العجلة الندامة، والعجلة من الشيطان. فتمهلوا أيها المشركون ولا تستعجلوا طلب العذاب، سأريكم آياتي الدالة على صحة رسالة النبي محمدن وما ينذركم به من عذاب في الدنيا والآخرة.

وهم في كل اوقاتهم وحالاتهم مستعجلون.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

فهم يسألون النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين: متى يبيئنا هذا الوعد بعذاب الدنيا والآخرة الذي تعدوننا به ان كنتم صادقين فيما تقولون؟ لذا بين الله شدة جهلهم بما يستعجلون، وعظيم حماقتهم لهذا الطلب فقال:

{لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورهمُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} .

لو يعلم هؤلاء الكفار ما سيكون حالهم في النار، يوم لا يستطيعون دفع النار عن ان تلفح وجوههم وتشوي ظهورهم، ولا يجدون من ينصرهم وينقذهم - لو يعلمون كل هذا ما قالوا ذلك، ولا استعجلوا العذاب، وهذا هو الجواب وهو محذوف. . .

ثم بين أن هذا الذي يستعجلونه غير معلوم ولا يأتي الا فجأة فقال:

{بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً بَعْدَ بَعْدِهِمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} .

ان الساعة لا تأتي إلا بغتة، تفاجئهم فتحيرهم وتدهشهم، ولا يستطيعون ردها، او تأخيرها، ولا هم يمهّلون حتى يتوبوا ويعتذروا فقد فات الأوان.

ثم سلى رسوله الكريم على استهزائهم به فقال: {وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ خَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} .

إن ما حدث لك من استهزاء قد حدث قبلك: فخلّ بالذين سخروا من رسلهم العذاب والبلاء، فلعلهم أن مصير المستهزين بالرسول معروف، وعاقبتهم وخيمة، وسيكون لك النصر المبين، وفي وسرة الانعام {وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الآية: ٣٥] . وقد نصره الله وصدق وعده.

{قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ} .

سألهم أيها الرسول: من يحفظكم في الليل والنهار من عذاب الرحمن إن نزل بكم؟ ان الله هو الحارص وسفته الرحمة الكبرى، بل هم عن القرآن الذي يذكرهم بما ينفعهم، ويدفع العذاب عنهم - منصرفون.

وانظر أيها القارىء كيف يصف الله نفسه بالرحمة دائماً.

ثم يعيد السؤال في صورة اخرى وهو سؤال للأنكار والتوبيخ: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا} كلاًّ فهؤلاء الآلهة لا يستطيعون أن يعينوا أنفسهم حتى يعينوا غيرهم.

{وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ} .

ولا هم يجارون ويحفظون منا.

ثم بين الله تفضله عليهم مع سوء ما أتوا به من الاعمال فقال:

{بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} .

إننا لم نجعل لهم العذاب بل استدرجناهم ومتعناهم حتى طالت أعمالهم وهم في الغفلة فنسوا عهدنا، وجهلوا مواقع نعمتنا، فاعتروا بذلك. أفلا يرى هؤلاء المشركون أننا نقصد الأرض فننقصها من أطرافها بالفتح ونصر المؤمنين، ونقتطعها من أدي المشركين. أفهم الغالبون، ام المؤمنون الذين وعدهم الله بالنصر والتأييد؟

٢١٠٧ 45

الصم: واحدُه أصم، الذي لا يسمع. نفحة: الشيء الضئيل. الخردل: نباتٌ عشبي ينبت في الحقول، تُستعمل بذوره في الطب، والطعام، ويضرب به المثل في الصغر. القسط: العدل. حاسبين: محصين عادين. الفرقان: ما يفرق بين الحق والباطل وتطلق على التوراة، وكذلك على القرآن، والضياء كالفرقان لأنه ينير الطريق للناس. مشفقون: خائفون.

بعد ان بين الله هول ما يستعجلون، وحالهم السيئة حين نزوله بهم، ثم نعى عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار - أمرَ رسوله الكريم ان يقول لهم: إنما أخبركم به قد جاء من عند الله فقال:

{قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ} .

قل أيها النبي لهؤلاء الجاحدين السادرين في غيهم: إنما أهدركم بالوحي الصادق الصادر عن الله، فإن كنتم تسخرون من أمر الساعة وأهوالها، فإنها من وحي الله وأمره، لا من وحي الخيال.

ثم أردف بأن الانذار مع مثل هؤلاء لا يجدي فتيلًا، فهم كالصم الذي لا يسمعون داعي الله فقال:

{وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُ الدَّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ} .

وكيف يجدي الإنذار من كان أصم لا يسمع! وكيف يسمع الطرش النداء حين يوجه اليهم! وكل من لا يستجيب لداعي الله فهو أصم ولو كان يسمع ويرى.

{وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} .

وحين يسمهم أقل العذاب يوم القيامة يدعون على أنفسهم بالويل والثبور ويقولون: إنا كنا ظالمين لأنفسنا بكفرنا، ويندمون على ما فرط منهم، لكنه لن ينفعهم الندم ولا الاعتراف بعد فوات الأوان.

ثم بين في خاتمة هذا الحوار ما سيقع من أحداث يوم القيامة وحين يأتي ما أنذروا به فيقول:

{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} .

في ذلك اليوم العظيم نضع الموازين العادلة الدقيقة التي تُحصى كل شيء، ويأخذ كل إنسان حقه كاملاً، ولا تُظلم نفس شيئاً، ولو كان العمل بوزن حبة الخردل، وحبة الخردل جزء من الف جزء من الغرام، فإن الكيلو غرام يحتوي على ٩١٣ الف حبة، وهذا صغر وزن حبة نبات عُرف حتى الآن. فإن كان الإنسان اخترع الكمبيوتر، الذي يحصي أدق المعلوما فإن الله عنده ما هو أدق منه وأعدل. ولا يخفى ما في هذه الآية من التحذير الشديد والوعيد.

قراءات:

قرأ ابن عامر: «ولا تُسمع الصم الدعاء» بضم التاء وكسر الميم. والباقون: ولا يَسْمَعُ الصَّمُّ بفتح الياء والميم، وضم الصم. . وقرأ نافع: وان كان مثقالُ حبة يرفع مثقال، والباقون: مثقال بال نصب.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفِرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ} .

يبين الله تعالى هنا أن الرسل كلهم من البشر وهي السُّنة المطردة، وأن نزول الكتاب على الرسول محمد ﷺ ليس بدعةً مستغربة، فقد أنزلنا على موسى وهارونَ الفرقانَ، وهو التوراة.

والفرقان من صفات القرآن ايضاً، فالكتب المنزلة من عند الله كلها فرقان بين الحق والباطل، وضياء تكشف ظلمات القلب، وتذكير ينتفع به المتقون.

ثم يذكر صفات المتقين:

{الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} .

والمتقون هم الذي يخافون ربهم في السر والغيب والعلانية، وهم مع ذلك خائفون وجُلون من عذاب يوم القيامة، فهؤلاء هم الذين ينتفعون بالضياء ويسرون على هداه.

{وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ} .

وهذا القرآن الذي أنزلنا على محمد الأمين كما أنزلنا الذكر على موسى وهارون، ذكر لكم فيه البركة والخير، وموعظة لمن يتعظ بها، أفبعد ان علمتم شيئاًه وعظمته تنكروه، وانتم أولى الناس بالايان به!

٢١٠٨ 51

رشده: هدايته. التماثيل: الاصنام. لها عاكفون: مواظبون على عبادتها. فطرهن: أوجدهن: لأكيدن أصنامكم: لأديرن لها تدييرا يسوؤكم. جذاذا: قطعاً.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} .

لقد أعطينا إبراهيم النبوة والهداية الى التوحيد الخالص، من قبل موسى وهارون، وكنا علمين بفضائله التي تؤهله لحمل الرسالة.

كان ابراهيم من أهل «فدان آرام» بالعراق، وكان قومه أهل أوثان، وكان أبوه نجاراً ينحت التماثيل ويبيعها لمن يعبدها من قومه، وقد أنال الله قلب إبراهيم وهداه الى الرشده فعلم ان الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تنفع.

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ؟}

اذكر أيها النبي حين استنكر إبراهيم عبادة الأصنام وقال لأبيه وقومه: ما هذه الاصنام التي تعبدونها وتظلون ملازمين لها؟

{قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ}

لم يجدوا جواباً مقنعاً فلجأوا إلى التشبث بالتقليد، لذلك قالوا: إننا نعبدها كما عبدها آبائنا من قبل، فنحن مقلدون لهم.

فكان ابراهيم معهم صريحاً، واجابهم ببيان سوء ما يصنعون:

{قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} .

لم يقنع ابراهيم بجوابهم هذا، وقال لهم إنكم أنتم وآباؤكم في ضلال واضح بعبادتكم لهذه التماثيل التي لا تنفع ولا تنفع.

فأجابوه إجابة مستفهم متعجب مما يسمع ويرى:

{قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ؟} .

لما سمعوا ما في كلام ابراهيم مما يدل على تحقير آلهتهم، استبعدوا ان يكون جاداً فيما يقول، فقالوا: هل ما تقوله هو الحق، أم أنت هازل من اللاعبين؟!

عند ذاك ردّ عليهم ببيان الحق وذكر الإله الذي يستحق العبادة.
 {قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} .
 قال: جئكم بالحق لا باللعب. ثم بين لهم ان الإله المستحق للعبادة هو رب السموات والأرض الذي خلق كل شيء، فمن حق هذا الإله وحده أن يُعبد، وأنا على ما أقول لكم من الشاهدين.
 وبعد ان أقام البرهان على إثبات الحق نوى الشر في نفسه لهذه الآلهة التي جمدوا على عبادتها، ولم تُفدّهم موعظة ولا برهان عن الغواية بها، فأقسم في نفسه ان يلحق الأذى بها فقال:
 {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ يَجْعَلُهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} .
 أقسم ابراهيم بالله انه سيكيد الأصنام بأن يكسرها بعد ذهابهم من معبدهم. وأقبل عليها فكسرها جميعا الا الكبير فتركه. وقد اراد بهذه الطريقة ان يفهم القوم مركز آلهتهم، ويقيم الحجة عليهم في أن تلك الاصنام لا تنفع ولا تضر. فها هي لم تستطع ان ترد الأذى عن نفسها.
 أما ترك ابراهيم كبيرها قائماً فذلك لكي يسأله اذا كان يجيب او يتكلم.

قراءات
 قرأ الكسائي: جذاذاً بكسر الجيم. والباقون: جذاذاً بضم الجيم.
 {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} .
 وعاد القوم الى معبدهم فأروا أصنامهم مكسرة قطعاً، إلا كبيرهم فقالوا: من الذي اعتدى على آلهتنا ففعل بها هذا العمل المنكر؟! إنها لجراءة عظيمة وانه لمن الظالمين. قال بعضهم: سمعنا شاباً يذكرهم بالشم والتحقيق يدعى ابراهيم.

٢١٠٩ 61

على أعين الناس: علناً أمام جميع الناس، كما يقال: على رؤوس الأشهاد. فرجعوا الى أنفسهم: فكفروا وتدبروا. ثم نكسوا على رؤوسهم: بعد أن أقرّوا انهم ظالمون، انقلبوا تلك الحال الى المكابرة والجدل بالباطل.
 {قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَنْطِقُونَ} .
 واتفقوا أن يحاكموه علناً على رؤوس الأشهاد فقالوا: أحضروه أمام جميع الناس ليشهدوا عليه وتكون شهادتهم عليه حجة لنا. فلما أتوا به قالوا له: أنت كسرت هذه الآلهة وجلّتهم قطعاً؟ وطلبوا منه ان يعترف بذنبه.
 فأجابهم جواباً ذكياً لطيفاً، أدهشهم وحيرهم إذ قال: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} فاسأله واسألوا أصنامكم ليخبروكم إن كانوا يتكلمون. فكانت مقالة ابراهيم عليه السلام حجة شديدة الوقع في نفوسهم وحيرتهم ولم يعرفوا ما يقولون.
 {فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ}
 فكأنهم أفاقوا نم غفلتهم لحظات، فراحوا يلومون أنفسهم ويقولون: حقيقة إنكم أنتم الظالمون، كيف نعبد آلهة لا تدفع الأذى عن نفسها!
 {ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ} .
 ثم عادوا الى جهالتهم كأنهم وقفوا على رؤوسهم، وانقلبوا من الرشاد الى الضلال، وقالوا لإبراهيم: أنت تعلم ان هؤلاء لا يتكلمون فكيف تطلب منا ان نسألهم؟

وهنا ظهرت حجة إبراهيم واضحة، ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم الحجة فقال: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفِ لَكُمْ لَكُمْ وَلَمْ تَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} .

فقال إبراهيم متكبها عليهم: لقد أقررتم أن هذه الأصنام لا تنطق ولا ترد أذى ولا تنفع، ومع ذلك تعبدونها من دون الله، متى ترد إليكم عقولكم! أف لكم وقبحاً لأهتكم.

ولما بان عجزهم وظهر الحق أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة حين يفقدون الحجة، فلجأوا الى استعمال القسوة. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} .

هنا لجأوا الى منطق العتاة وفعل الطغاة، فقالوا: احرقوا إبراهيم هذا بالنار، وانصروا آلهتكم عليه بهذا العقاب، إن كنتم تريدون نصرها. ولكن الله تعالى أبطل كيدهم، ودفع عنه الهلاك بمعوته وتأيدته فقال:

{قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} .
أوقدوا ناراً عظيمة ليحرقوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، فلم تضره بإذن الله، ونجا منها، وكانت معجزة كبرى لإبراهيم. لقد أرادوا ان ييطشوا به ويهلكوا بالنار، فنجيناه ورددنا كيدهم في نحورهم وجعلناهم الخاسرين. ونقل كثير من المفسرين كلاماً كثيراً في سيرة إبراهيم من الاساطير القديمة نضرب عنه صفحا لعدم الفائدة منه.

٢١.١٠ 71

لوط: ابن أخ إبراهيم: الأرض التي باركنا فيها: الديار المقدسة وهي ديار الشام كاملة. نافلة: عطية، هبة. ويراد بها الأحفاد، اولاد الاولاد. حكماً: نبوة ومعرفة. القرية: سدوم من اراضي البحر الميت. الخبائث: الاعمال القذرة. الكرب: الغم.
ونجينا إبراهيم ولوطاً الذي آمن معه وهاجرا الى الأرض المباركة، وهي أرض الشام، فنزل إبراهيم جنوبي القدس في الخليل من أرض فلسطين، ونزل لوط في سدوم وعاموراء وهي منطقة البحر الميت. ووهبنا لإبراهيم إسحاق، ثم زدناه نافلةً يعقوب بن اسحاق، وكلاهما من الصالحين. وجعلناهم أئمة يهدون الناس الى الحق بأمرنا، وأوحينا اليهم فعل الخيرات ليعلموا الناس وان يقيموا الصلاة ويؤدوا الزكاة، وكانوا هم من اهتدى بهم لنا عابدين.
لقد ترك إبراهيم عليه السلام وطناً واهلاً وقوماً، فعوضه الله وطناً خيراً من وطنه، وجعل ابنه اسحاق، وحفيده يعقوب اهلاً خيراً من أهله السابقين.

أما لوط فقد منحه الله حكمةً ونبوةً وعلماً ونجّاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث وهي اللواط، ان أهلها كانوا قوم سوء خارجين عن الدين، وقد سبقت قصة لوط مفصلة في سورة الاعراف، وسورة هود. ونوحاً إذ دعا على قومه بالهلاك فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الغم الشديد، {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} .
وقد ذكر نوح في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم. وذكرت قصته مفصلة في سورة الاعراف وسورة هود وسورة المؤمنون، وسورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة نوح.

٢١.١١ 78

الحرب: الزرع. نفشت فيه غم القوم: رعته الغم في الليل بلا راع. صنعة لبوس: الدروع من الحديد. لتحصنكم: لتحفظكم. من بأسكم: من حربكم، والبأس هي الحرب. الأرض التي باركنا فيها: أرض الشام. من يغوصون: الذين يغوصون الى قاع البحر ليخرجوا

ما به من كنوز ثمينة. عملاً دون ذلك: غير ذلك من بناء المدن والقصور والصناعات.
{وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} .

أذكر أيها الرسول نبأ داود وسليمان حين حكما في الزرع الذي رعته غنم لقوم آخرين غير صاحب الزرع فأفسدته، وكان ربك شاهداً
عليماً بما حكم به داود وسليمان.

{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}

وقد فهمنا سليمان الحكم الصواب وآتيناه الحكمة والعلم جميعاً.
وقصة الحكم:

أن غنماً رعت في زرع بالليل فأفسدته، ففضى داود بأن صاحب الزرع يأخذ الغنم مقابل زرعه. فلما علم سليمان بالحكم، قال: الحكم
ان تبقى الغنم مع صاحب الزرع ينتفع بلبنها وصوفها، ويكلف صاحب الغنم بأن يحرق الأرض ويزرعها حتى اذا استوى الزرع سلّمه
الى صاحبه وساترد غنمه. وكان هذا الحكم هو الصواب. ولما علم داود بالحكم استحسنته وأمضاه.
{وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}

وسخّرنا الجبال والطير لداود يسبحن معه بتسبيح لا يسمعه البشر، وكما فاعلين ذلك بقدرتنا. وهذا التسبيح لا نفهمه نحن. وفي سورة
الإسراء الآية ٤٥، {وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} فعلماؤنا الأقدمون كانوا يقولون ان هذا التسبيح
مجازي، وذلك عديم معرفتهم. وكيف يكون مجازياً، والله تعالى في عدد من الآيات يتحدثنا عن تسبيح الكون والذرات وكل شيء
لخالق العظيم!!

يقول الدكتور عماد الدين خليل في مجلة العربي العدد ٢٥٩ رجب ١٤٠٠ حزيران ١٩٨٠.

«واننا لنقف هنا خاشعين أمام واحد من جوانب الإعجاز القرآني، تلك المجموعة من الآيات الكريمة التي تحدثنا عن تسبيح الكون
والذرات لخالق العظيم، من سورة الحشر والصف والاسراء... ان التسبيح ها هنا لا يقتصر على كون الذرات والاجسام الفضائية
تخضع للنواميس التي وضعها الله فيها، فهي تسبح بحمد الله سبحانه، فهناك ما هو أبعد من هذا وأقرب الى مفهوم التسبيح الحي أو
التقديس الواعي. إن هذه الأشياء المادية تملك ارواحاً، وهي تمارس تسبيحها وتقديسها بالروح وربما بالوعي الذي لا نستطيع استيعاب
ماهيته. وان هذا ليقودنا الى مقولة» اوينقتون «:» ان مادة العالم هذه مادة عقلية «، كما يقودنا الى الآية الكريمة {وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ}...» .

{وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبِّسٍ لَّكُم لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} .

وعلمنا داود صنعة الدروع لتكون لباساً يمنعكم في الحرب ويقيكم من شدة بعضكم لبعض فاشكروا الله على هذه النعم التي أنعم بها عليكم.
وهذه حقيقة واقعة، وذلك ان الحديد استعمل في عصر داود في صناعة الدروع.
قراءات:

قرأ ابن عامر وحفص: لتحصنكم بالتاء، وقرأ ابو بكر: لنحصنكم بالنون، والباقون: ليحصنكم بالياء.

{وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} .

وسخّرنا لسليمان الريح عاصفة شديدة المهبوب تارة ولينة رخاء تارة أخرى، تجري بحسب رغبته الى أي بقعة في أرض الشام المباركة،
وكنا بكل شيء عالمين، لا تغيب عنا صغيرة ولا كبيرة.

{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}

وسخّرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في الماء الى أعماق البحار، ليستخرجوا له اللؤلؤ والمرجان، ويعملون له ما يريد من بناء
الحصون والقصور والمحاريب والتماثيل كما جاء في سورة سبأ ١٢ {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ

رَأْسِيَّاتٍ { وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } من التمرّد على أمر سليمان، فهم لا ينالون أحداً بسوء.

٢١.١٢ 83

الضر: الضرر بالنفس كالمرض ونحوه. والضر: بالفتح الضرر من كل شيء. ذو النون: النبي يونس بن متى. والنون: الحوت. مغاضبا: غضبان من قومه. الظلمات: جمع ظلمة، المكان المظلم. اصلحنا له زوجه: جعلناها تلد وكانت عقيما. {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ} .

أذكر أيها النبي قصة أيوب حين دعا ربه وقد أضناه المرض، ومسه البلاء، فقال: يا رب، قد أصابني الضر وأنت الكريم الجواد، وانت أرحم الراحمين. فاستجبنا له دعاءه، وعافيناه ورفعنا عنه الضر، وأعطيناه أولاداً بقدر من مات من أولاده، وزدناه مثلهم، رحمةً به من فضلنا، وتذكراً لغيره من العابدين.

وقصة أيوب من القصص الرائعة، والنصوص القرآنية تشير الى مجملها دون تفصيل. وقد ذكر صاحبها في القرآن أربع مرات: في سورة النساء، والأنعام، والانباء، وص. وله سفر خاص به في العهد القديم يحتوى على ٤٢ إصحاحا في خمسة فصول كبيرة:

الأول: يتضمن تقوى ايوب وأملاكه واقرباه وصفاته
الثاني: يتضمن ما جرى بينه وبين أصحابه من الجدل.

الثالث: يذكر أقوال الحكمة التي نطق بها «الياهو» اصغر اصحاب ايوب.

الرابع: يذكر مخاطبة الله إياه من العاصفة.

الخامس: يتضمن خضوعه وشفاءه وتعويض ما فقده من المال والأهل.

وأيوب من أنبياء العرب كان يسكن أرض «عوص» في شرق فلسطين او في حوران. وهو من بني ابراهيم كما جاء في سورة الأنعام الآية ٨٤ {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} وسفر ايوب عربي الأصل بما فيه من أسماء للأشخاص والأماكن، ومن وصف لبادية الشام وحيواناتها ونباتاتها. . . . يقول الأب لويس شيخو في كتابه: النصرانية وآدابها، وهو يذكر علم النجوم: ولنا شاهد في سفر أيوب على معرفة العرب لأسماء النجوم وحرركاتها في الفلك، إذ كان ايوب النبي عربي الأصل عاش غربي الجزيرة حيث امتحن الله صبره.

ويقول الدكتور جواد علي في كتابه: تاريخ العرب قبل الاسلام. . من القائلين بأن سفر أيوب عربي الاصل والمتحمسين في الدفاع عن هذا الرأي المستشرق «مرجليوث». وقد عالج هذا الموضوع بطريقة المقابلات اللغوية ودراسة الاسماء الواردة في سفر ايوب. وقد أكد هذا الرأي كثير من المؤرخين.

وخلاصة قصته انه كان صاحب أموال كثيرة، وابتلاه الله بان أذهب أمواله حتى صار فقيرا، وابتلاه بجسده حتى نفر عنه أقاربه، وبقي طريحا مدة من الزمن، وهو صابر مستمر على عبادته وشكره لربه. ثم ان الله تعالى عافاه ورزقه ورد له احسن مما ذهب عنه من المال والولد.

{وَأَسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} .

أذكر أيها النبي اسماعيل وإدريس وذا الكفل، كل منهم كان من الصابرين على احتمال التكليف والشدائد، وكل هؤلاء ادخلناهم جنات النعيم، إنهم من عبادنا الصالحين.

{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنُجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ} .

واذكر ايها الرسول يونس، صاحب الحوت، حين بعثه الله الى أهل «نينوى» في العراق، فدعاهم الى توحيد الله وعبادته فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم، فغضب منهم وتركهم. وركب مع قوم في سفينة، فهاج البحر وكان لا بد من إلقاء أحدٍ ممن في السفينة، فوقع القرعة على يونس، كما جاء في قوله تعالى: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} [الصافات: ١٤١] ، فألقى نفسه في البحر فالتقمه الحوت. فدعا ربه وهو في الظلمات، واعترف بأنه من الظالمين، فاستجاب الله له دعاءه، ونجّاه من ذلك الكرب الشديد. هكذا ننجي المؤمنين الذي يعترفون باخطائهم ويدعون ربهم مخلصين.

قرأ يعقوب: فظن ان لن يُقدَر عليه بضم الياء وفتح الدال. والبقاون: نقدر بفتح النون وكسر الدال. {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} .

اذكريا محمد خبر زكريا حين نادى ربه وطلب منه أن يرزقه ولدا، فرزقه يحيى من خيرة الأنبياء. وأصلحنا له زوجته بأن جعلناها تلد، فهم أهل بيت صالحون، يعملون الخير ويعبدوننا رغبة منهم في رحمتنا، وخوفا من عذابنا. وقد مر ذكر زكريا في سورة آل عمران، وسورة مريم.

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} .

كذلك اذكرىا محمد مع هؤلاء الأبرار قصة مريم التي صانت نفسها، فألقينا فيها سرا من أسرارنا، ومعجزة كبيرة بأن حملت دون زوج، وجعلنا امرها هي وابنها آية للناس يستدلون بها على قدرة الله وحكمته.

٢١٠١٣ 92

الأمة: جماعة من الناس تجمعهم صفات مورثة ومصالح وأمانى واحدة، او يجمعهم امر احد من دين او مكان او زمان، ثم شاع استعمالها في الدين. وتقطّعوا امرهم: تفرقوا وصاروا شيعة. فلا كفران لسعيه: لا يضيع سعيه، ولا يُجحد. حرام على قرية: ممتنع على اهل القرية. من كل حذب: من كل مرتفع من الارض. ينسلون: يسرعون. حصب جهنم: وقود جهنم. زفير: شدة تنفسهم في النار.

بعد عرض سنن الله الكونية، الشاهدة بوحدة الخالق، وسنن الله في ارسال الرسل بالدعوات الشاهدة بوحدة العقيدة - يؤكد القرآن الكريم هنا وحدة الأمة والإله، وان الله لا يضيع عمل عاملٍ مخلص، ثم يعرض مشهداً من القيامة، ومصير المشركين والشركاء في ذلك اليوم.

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون} .

الخطاب هنا لجميع الناس، ان هذه ملّةكم واحدة، وأنا ربكم ايها الناس، فعليكم ان تدينوا جميعاً بدين التوحيد الذي جاء به جمع الانبياء. فاعبدوني دون جميع هذه الآلة والأوثان. وأمة بالنصب حال.

{وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} .

مع كل هذا الإرشاد تفرّق أكثر الناس بحسب شهواتهم، وصاروا شيعةً مختلفة، منهم الجاحدون ومنهم المشركون، وكلّهم راجعون إلينا، فمن يعمل الأعمال الصالحة وهو مؤمن بالله فلا ينقص شيء من سعيه، بل سيوفاه كاملاً {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: ٣٠] .

{وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} .

ان كل أهل قريةٍ اهلكناهم في الدنيا لا بد ان يرجعوا إلينا ليلاقوا جزاءهم يوم القيامة فالجزاء على الاعمال إنما يتم في الآخرة ولو قدّم منه شيء في الدنيا. وهذه الآية أشكلت على المفسرين، وقال بعضهم إنها مشكّلة، وتعذر معناها: وحرام على أهل قريةٍ حكمنا باهلاكها

ان يقبل لهم من عمل لأنهم لا يتوبون، وقال بعضهم: وحرم الله على أمة قرية اهلكها الله أن يعيدها الى الدنيا. . .
قراءات:

قرأ أبو بكر وحمة والكسائي: وحرم بكسر الحاء واسكان الراء. والباقون: وحرام بفتح الحاء والراء والفاء بعدها والمعنى واحد.
{حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون} .

لا يزال الأمر يجري على ما قدمنا، نكتب الأعمال الصالحة للمؤمنين ونشكر سعيهم، ونهلك القرى الظالمة، ونحرم رجوعهم بعد الهلاك الى ان يفتح سد يأجوج ومأجوج، وتراهم يسرعون من كل مرتفع من الارض. وهذا الأمر من علامات اقتراب الساعة، كما جاء في سورة الكهف ٩٨ {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} قراءات:

قرأ ابن عامر: فُنَحْتُ بالتشديد. والباقون: فَتَحْتُ بالتخفيف.

{واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كُنا في غفلةٍ من هذا بل كُنا ظالمين}

لقد رب مجيء يوم القيامة، وعندها تشخص أبصار الذين كفروا من شدة الهول، فيصيحون قائلين: يا هلاكنا قد كنا في غفلة من هذا اليوم، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالكفر العناد.

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} ويقال لهؤلاء الكفار: انكم جميعا مع من عبدتم من دون الله وقود نار جهنم واردون لها، وداخلون فيها.

{لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} .

لو كان هؤلاء الأصنام الذين عبدتموهم من دون الله آلهة ما دخلوا النار، وكلهم: العابدون والمعبودون المزيّفون - في النار مخلصون. ولكم في النار زفير ونفس متقطع، من شدة ما ينالكم من العذاب، ولن تسمعوا شيئا يسركم.

٢١٠١٤ 101

الحسنی: البشارة بالجنة. حسيسها: صوتها. السجل: الصحيفة والكتاب؟ كطيّ السجل للكتب: كما تطوى الورقة في الكتاب أو كما يطوي الكاتب الكتاب. الزبور: الكتاب الذي أنزل على داود.

بعد ان ذكر الله حال أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، بين أحوال السعداء من المؤمنين بالله، والذين قدموا صالح الأعمال فقال: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} .

ان الذين وفقناهم لاتباع الحق وعمل الخير، وسبقت لهم منّا البشارة بالجنة، أولئك لا يدخلون النار ولا يقربونها، ولو أن بعضهم عبد من دون الله كالمسيح بن مريم، فإنه لا دخل له بعصيان من عبده.

إنهم لا يسمعون صوت النار، وهم في سرور دائم وفيما تشتهيهم أنفسهم خالدون.

{لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} .

لا يحزنهم الهول الأكبر الذي يخيف الكفار، وتستقبلهم الملائكة بالتهنئة البشرى بالنجاة، قائلين لهم: هذا هو اليوم الذي وعدكم الله به. {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} .

يوم نطوي السماء كام تطوى الورقة في الكتاب، ونعيد الخلق الى الحساب والجزاء، وهو علينا هيّ، فكما بدأناهم نعيدهم، قد وعدنا بذلك وعداً حقاً، لا بد من تحقيقه وإنا لذلك لفاعلون.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: للكتب بالجمع. والباقون: للكتاب بالمفرد.

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} .

لقد كتب الله عنده وأثبت في قديم عليه، ثم أثبت في الكتب السماوية من بعد ذلك أن الأرض لا يعمرها من عباده الا من يصلح لعمارته، وهذه سنة من سنن الله لا تتخلف ولا تبدل. كما قال تعالى ايضاً: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨] ، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ} [النور: ٥٥] .

{إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} .

ان فيما ذكرنا من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، وأخبار الجنة والنار - لكفاية في التذكير والاعتبار لقوم يتعظون بالعبر وينتفعون بالنذر. وما أرسلناك يا محمد بهذا الدين القويم، والقرآن الكريم الا رحمة عامة للعالمين.

٢١٠١٥ 108

مسلمون: منقادون مستسلمون. تولوا: أعرضوا. آذنتكم على سواء: أعلمتكم جميعاً بلا استثناء. لعله فتنة: لعله اختبار. ومتاع: كل ما يتمتع به. احكم بالحق: اقتص بالعدل. المستعان: الذي نستعين به. على ما تصفون: على ما تفترون وتكذبون. {قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} .

قل يا محمد لمشركي قومك وللناس اجمعين، ان الله أوحى إلي أنه لا إله إلا هو اله واحد، فأسلهوا اليه واخضعوا جميعاً. {فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ} .

فإن أعرضوا عن اتباع دعوتك، فقل لهم: لقد أعلمتكم جميعاً برسالي وما أمرني به ربي ولا أدري ما توعدون به من البعث والحساب أهو قريب أم بعيد. . . . إن علمه عند الله.

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} .

ان الله يعلم كل ما يقال مما تجهرون به وما تكتمون في أنفسكم.

{وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ}

وما أدري سبب تأخير جزائكم، لعله اختبار لكم يمتحنكم به الله، ويؤخركم ليمتحنكم بلذاذ الحياة الى حين قدره الله بحسب حكمته. وهنا في ختام هذه السورة يتوجه الرسول الى ربه وقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة فيطلب من ربه حكمه الحق بينه وبين قومه، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم.

{قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} .

يا رب، احكم بيني وبين من بلّغتم الوحي بالعدل، والله الرحمن هو المستعان به على ما تصفون من الشرك والضلال وما تزخفون من أباطيل.

الحج ٢٢

٢٢٠١ 1

اتقوا ربكم: أطيعوه ولا تعصوه. الزلزة: حركة الأرض الشديدة. تذهل: تسلو وتترك الشيء من الدهش والخوف. المرید: الطاعى، الشرير. النطفة: كمية قليلة من ماء الرجل. العلقة: القطعة الصغيرة الجامدة من الدم. المضغة: القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ. مخلقة: تامة الخلقة. غير مخلقة: غير تامة الخلقة. الى اجل مسمى: حين الوضع. لتبلغوا أشدكم: تكمل قوتكم. اردل العمر: آخره

مع الكبر والخرف بحيث لا يعرض شيئا. هامة: يابسة لا حياة فيها. اهتزت: تحرك نباتها. وربت: ازاد نباتها نموا. من كل زوج بهيج: من كل صنف حسن يسر الناظرين.

{يَأْيَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسَكَارَى وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ} .

تبدأ السورة بمطلع رهيب مخيف: يا أيها الناس، نداء إلى جميع الخلق، احذروا عقاب ربكم، فأطيعوه ولا تعصوه. . إن زلزلة الساعة، وهي قيام بعد خراب هذا الكون - شيء مذهل. ففي ذلك اليوم يبلغ الأمر من الهول والدهشة، ان تذهل المرصعة عن ولدها فتتركه وتحاول ان تنجو بنفسها، وتسقط الحوامل ما في بطونها من الأجنة من الفزع. وترى الناس كأنهم سكارى مع أنهم ليسوا كذلك، لكن شدة الموقف وعظمة الساعة وما فيها من أهوال جعلتهم بهذا الحال، {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل: ١٧] . ان الهول الذي يشاهدونه والخوف من عذاب الله الشديد هو الذي أفقدهم توازنهم، وجعلهم في حيوة مذهلة.

قراءات

قرأ حمزة والكسائي: سكرى، والباقون: سكارى.

وبعد ان أخبر الله تعالى ما فيه القيامة من أهوال وشدائد، ودعا الناس الى التقوى والعمل الصالح، بين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثير من الناس يتكبرون هذا البعث، ويجادلون في امور الغيب بغير علم فقال:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآخُذُهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} مع هذا التحذير الشديد، فإن بعض الناس يدفعه العناد الى الجدال في الله وصفاته، لا يستند في جدله وإنكاره الى علم صحيح أو حجة صادقة، ولكنه يقلد ويتبع خطوات كل شيطان متمرد على ربه، شرير دأبه الفساد والضلال.

ولقد قرر الله وقضى أن كل من اتبع ذلك الشيطان، وسلك سبيله - أضله الشيطان عن طريق الحق، ووجهه الى الباطل المفضي به الى عذاب جهنم.

{يَأْيَا النَّاسِ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ}

يا أيها الناس إن كنتم في شك من بعثكم من القبور بعد الموت يوم القيامة، فانظروا الى خلقكم. لقد خلناكم من تراب. ثم جعلنا منه نطفة صغيرة حولناها بعد مدة الى علقة، أي قطعة صغيرة من الدم، ثم الى مضغة وهي قطعة صغيرة من اللحم، تارة تكون تامة الخلقة، وتارة غير مخلقة.

وذلك لبنين لكم قدرتنا، وعظيم حكمتنا، والتدرج في التكوين.

{وَنَقِرْ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}

ونقي ما نشاء من الأجنة في الأرحام الى الوقت الذي يكمل فيه الحمل وتتم فيه الولادة، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم اطفالا، ثم نرعاكم حتى تبلغوا تمام العقل والقوة. ومنكم بعد ذلك من يتوفاه الله، ومنكم من يمد له عمره حتى يبلغ درجة من الكبر يعود فيها الى الخرف وعدم معرفة اي شيء، وذلك هو أرذل العمر نعوذ بالله منه. . فالله الذي بدأ خلقكم بهذه الصورة لا يعجزه إعادتكم.

ثم ذكر الاستدلال على امكان البعث بحال خلق النبات ايضا فقال:

{وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}

وأمر آخر يدلنا على قدرة الله على البعث، أننا نرى الأرض بينما تكون هامة يابسة قاحلة، فإذا نزل عليها الماء دبَّت فيها الحياة وتحركت وثمرت وازدهر نباتها، وأظهرت من أصناف النباتات ما يروق منظره، وتبتهج النفس لمراة.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

ذلك الذي تقدّم من القدرة على خلق الانسان ونبات الزرع - شاهد على ان الله هو الإله الحق، وأنه يحيي الموتى عند بعثهم كما بدأهم، فهو القادر على كل شيء.

{وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} .

وأنكم إذا تأملتم في خلق الانسان والحيوان والنبات وهذا الكون العجيب - أمكنكم ان تؤمنوا بقدرة الله على كل شيء، وان الساعة آتية لا شك فيها، وان الله يبعث من في القبور بعد موتهم، للحساب والجزاء.

٢٢٠٢ 8

بغير علم: بغير معرفة ولا مشاهدة حسية. ولا هدى: ولا نظراً صحيح ولا عقل. ولا كتاب منير: ولا وحي. ثاني عطفه: جاء متكبراً مختالاً. على حرف: على ناحية معينة، اذا رأى شيئاً لا يعجبه عدل عنه. وأصل معنى الحرف الطرف، وله معان كثيرة. فان أصابه خير: مال وكثرة في الولد. فتنة: بلاء ومحنة في نفسه او أهله او ماله. انقلب على وجهه: ارتد عن دينه. خسر الدنيا والآخرة: ضيعهما. يدعو من دون الله ما لا يضره. . . . يعبد غير الله. المولى: الناصر. العشير: الصاحب المعاشر.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} .

ومع كل هذه الأدلة الواضحة فإن بعض الناس يجادل في الله وقدرته، وينكر البعث بغير معرفة، ولا برهان عقلي على ما يقول، ولا وحي من عند الله ينير صحته.

{ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ}

تراه متكبراً مختاراً بين الناس، معرضاً عن قبول الحق، ليصد المؤمنين عن دينهم. . وهذا الصنف من الناس له في هذه الدنيا هوان وخزي، وسيصل في الآخرة عذاب الجحيم.

قراءات

قرأ ابن كثير وابو عمرو ورويس: لِيُضِلَّ بفتح الياءن والباقون: لِيُضِلَّ بضم الياء.

ثم بين الله سبب هذا الخزي المعجل والعذاب المؤجل فقال:

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}

ويقال لهذا المتكبر المختال الضال: ذلك الذي تلقاه من خزي وعذاب بسبب ضلالك وكبريائك، والله لا يظلم أحداً.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ}

ومن الناس نوع آخر لم يتمكن الإيمان من قلبه، فهو كأنه واقف على طرف غير ثابت على حال، فهو مزعزع العقيدة، مضطرب مذبذب، يعبد الله على وجه التجربة. فان أصابه خير بقي مؤمناً، وإن أصابه شر من مرض او ضياع مال او فقد ولد - ترك دينه وارتد كافراً. خسر الدنيا والآخرة. . . نفخر في الدنيا راحة البال والاطمئنان الى قضاء الله، كما خسر في الآخرة النعيم الذي وعد الله المؤمنين به.

وذلك هو الخسران الذي لا خسران مثله.

{يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} .

ان مثل هذا يعبد من دون الله أصناماً لا تضره ولا تنفعه. وأي ضلال وخسران اكبر من هذا الضلال، وابتعد عن الهدى!!

{يَدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْتَ الْمَوْلَى وَلَيْتَ الْعَشِيرُ} .

يدعو من دون الله من ضرره أقرب من نفعه، لبئس ذلك المولى ناصرًا، ولئس ذلك المعبود من صاحبٍ معاشر لا فائدة منه. فأَيُّ ناصرٍ ذلك الذي لا ينفع ولا يضر!! .

بعد ان بين الله حال المشركين الضالين وما يعبدون من دون الله، ومصيرهم في الآخرة ذَكَرَ هنا ما يدّخره للمؤمنين، وهو خيرٌ من عَرَضِ الحياة الدنيا كله فقال:

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} .

ان الله يتفضل على لامؤمنين الذي عملوا صالح الأعمال، ويكافئهم لقاء إحسانهم، بدخول جناته التي تجري من تحت اشجارها الأنهار بسبب صدقهم وإيمانهم وما قاموا به من جليل الاعمال. {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} من اكرام من يطيعه، وإهانة من يعصيه، ولا راد لحكمه، ولا مانع لقضائه.

٢٢.٣ 15

بسبب: بجبل. الى السماء: الى مكان مرتفع. ثم ليقطع: ليختنق. فلينظر: فليقدّر في نفسه النظر. الذين هادوا: اليهود. والصابئين: وهم فرقتان: جماعة يوحنا المعمدان واسمهم المندائيون، وصابئة حرّان، الذين عاشوا زمنا في كنف الاسلام. . وسيأتي في الشرح التعريف بهم. المجوس: كلمة إيرانية، أهلها أتباع زرادشت. وهم يقدّسون النار، والشمس والقمر، وقد انقرضت المجوسية او كادت بعد استيلاء المسلمين على فارس. الذين اشركوا: عبدة الأوثان. ألم تر: ألم تعلم.

{مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِظُ} .

من كان من الناس يحسب أن الله لن ينصر نبيه محمداً في الدنيا والآخرة فليقتل نفسه وينظر هل يذهب ذلك ما يجِدُ في صدره من الغيظ!

وهناك من المفسرين من يقول من يفقد ثقته بنصر الله في الدنيا والآخرة، ويقنط من عون الله حين تشتد به المحن، فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء؛ فليمدد بجبل الى السماء ويشنق نفسه به، ثم ينظر هل ينقذه تديره ذلك مما يغیظه.

قراءات

قرأ ابن عامر وابو عمرو ورويس: ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ: بكسر اللام. والباقون: بسكون اللام.

{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ} .

ومثل ما بينّا حجتنا الواضحات فيما سبق، أنزلنا القرآن كله على محمدٍ آياتٍ واضحة، والله يهدي من أراد هدايته وارشاده الى سبيل السلام.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

ان الذين آمنوا بالله وبرسله جميعا، واليهود، والصابئين (وهم فرقتان: جماعة المندائيين أتباع يوحنا المعمدان، وصابئة حرّان. وقد ورد

ذكرهم في القرآن ثلاث مرات بجانب اليهود والنصارى، مما يؤذن بأنهم أهل كتاب. وقد فصل تاريخهم وطقوسهم كل من الشهرستاني

في «الملل والنحل» والدمشقي في «نخبة الدهر في عجائب البحر» . وهم قوم لهم طقوس، ويعدّون بين الروحانيين الذي يقولون بوسائط

بين الله والعالم، وهم يتطهرون بالماء إذا لمسوا جسداً، ويحرّموا الختان، كما يحرمون الطلاق إلا بأمر القاضي، ويمنعون تعدد الزوجات،

ويؤدون ثلاث صلوات كل يوم. ولقد عاشوا متفرقين في العراق، وكان مركزهم الرئيسي حرّان، ولغتهم السريانية، وكان منهم المترجمون

والرياضيون والنباتيون في صدر الاسلام كما نبغ منهم شخصيات عديدة. ومنهم بقية في العراق في الوقت الحاضر.

والنصارى أتباع سيدنا عيسى. والمجوس: الذين يقدّسون النار، ويقولون ان الخير من النور، والشر من الظلام، وهؤلاء تقريبا انقرضوا

ولا يزال منهم بقية في الهند. والذين اشركوا هم عبدة الاوثان وهم كثيرون، ولا يزال منهم عدد هائل في عصرنا الحاضر، وهم

منتشرون في افريقيا، وآسيا وكثير من البلدان.

إن الله سيفصل بين هؤلاء جميعاً يوم القيامة بإظهار الحق من المبطل منهم، فهو مطلع على كل شيء، عالم بأعمال خلقه وما تكنه ضمائرهم.

تقدم في سورة البقرة ٦٦ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} فلم يذكر المجوس ولا الذين أشركوا.

وفي سورة المائدة ٦٩ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى...} فلم يذكر المجوس ولا الذين أشركوا. {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

الخطاب لجميع الناس، وجعله «الطبري لسيدنا محمد. وتفسيره: ألم تعلم أن هذه الخلائق جميعها مسخرة لقدرة الله، منقادة لإرادته، فتسجد له سجوداً لا تطالع أنت عليه، وكثير من الناس يؤمن بالله ويخضع لأوامره. وبذلك استحقوا الجنة، فيما أعرض كثير منهم ولم يؤمن فاستحقوا العذاب، ومن يهنه الله لسوء سلوكه فليس له من مكرم، ان الله يفعل في خلقه ما يشاء، فهو لا يسأل عما يفعل، فمن سلك طريق السلام سلم، ومن سلك طريق الهلاك هلك.

هذه الشجدة من غزائم السجود في القرآن فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند تلاوتها او سماع تلاوتها.

٢٢٠٤ 19

خصمان: واحدتهما خصم وهو المنازع. قطعت لهم: قدرت، فصلت لهم وهي الأولى. الحميم: الماء المغلي. يصهر به: يذاب به. مقامع: واحدتها مقمعة بكسر الميم الأولى، خسبة او حديدة يضرب بها الانسان على رأسه ليذل ويهان. الحريق: المحرق: أساور: الاسوار والسوار هو الحلية التي تلبس في المعصم، جمعها أسورة، وجمع الجمع أساور وأساوره. هدوما: ارشدوا. الطيب من القول: الكلام اللطيف الرقيق. الصراط الحميد: الطريق المحمود. العاكف: المقيم. البادي: الطارئ القادم عليها. الاحاد: الانحراف، والعدول عن القصد. بظلم: بغير حق.

{هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...}.

إن أهل الأديان الستة الذين سبق ذكرهم فريقان: فريق المؤمنين وفريق الكافرين، جادلوا في دين الله، وتنازعوا في أمر ربهم، وكل فريق يعتقد أن الذي عليه هو الحق. فالذين كفروا أعدت لهم نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدّرت على أجسامهم، ولزيادة تعذيبهم تصب الملائكة على رؤوسهم الماء المغلي، فينفذ إلى بطونهم فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم.

ولتعذيبهم سيّاط من حديد، تضرب بها رؤوسهم، يُقمعون بها كلّما حاولوا الهروب من جهنم والخروج منها من شدة الغم. وتردّهم الملائكة الى جهنم، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار المحرقة جزاء كفركم.

ويرى جماعة من المفسرين ان هذه الآيات نزلت يوم بدر، وان المراد بالخصمين: حمزة ابن عبد المطلب، وعلي بن ابي طالب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنهم والمؤمنون، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة وهم الكافرون، وهؤلاء اول من تبارزوا يوم بدر.

فقد روى ابن جرير الطبري في تفسيره أن أبا ذر رضي الله عنه كان يقسم ان هذه الآيات نزلت في المبارزين يوم بدر. وفي الصحيحين عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه قال: فينا نزلت هذه الآيات، وأنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يد الله يوم القيامة. . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وبعد ان بين الله سوء حال الكافرين أردف ذلك بيان ما يناله المؤمنون من الكرامة من المسكن والحلية والملبس وحسن القول والعمل {فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٥] .

{إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} .
أما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة، فإن الله تعالى أعد لهم نعيماً مقيماً في جنات الخلد، ترجي من تحت قوصرها وأشجارها الأنهار، ويتمتعون فيها بالحلي من الذهب واللؤلؤ، ويلبسون انحر أنواع الحرير.

قراءات

قرأ نافع وعاصم: ولؤلؤا بالنصب. والباقون: ولؤلؤ بالجذر.

{وهودوا إلى الطيب من القول وهودوا إلى صراط الحميد} .

وزيادة في ما اسبغ الله عليهم من النعيم، يتعاملون فيما بينهم بالكلام اللين الطيب، والعشرة المحمودة بحبة وسلام.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} .

ان الذين كفروا بالله ورسوله، ويمنعون الناس أن يدخلوا في دين الله وأن يصلوا الى المسجد الحرام الذي جعله الله لجميع الناس، سواء الميم فيه والطارىء الذي جاء قاصداً له من مكان بعيد - يجازيهم الله على ذلك بالعذاب الشديد. . . . وكذلك يجازي من ينحرف عن الحق، ويميل إلى الظلم في الحرم ويعذبه عذاباً أليماً.

روى ابن عباس رضي الله عنهما: ان الآية نزلت في أبي سفيان وأصحابه من قريش حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام، ثم صالحوه على أن يعود في العام المقبل.

٢٢٠٥ 26

بوأنابراهيم مكان البيت: أنزلناه فيه، يعني في الحرم. وطهر بيتي: اجعله مطهراً بالعبادة الصحيحة. للطائين: الذين يدورون حوله. وأذن في الناس بالحج: ناد الناس للحج وادعهم اليه. رجالاً: مشاة. وعلى كل ضامر: جمل ضامر وناقاة ضامر، قليلة اللحم تتحمل مشاق السفر. فج عميق: طريق بعيد. ليذكروا اسم الله: ليحمدوه ويشكروه. في أيام معلومات: أيام النحر الثلاثة وهي يوم العيد ويومان بعده. بهيمة الانعام: الإبل والبقر والضأن. البأس: الذي افتقر واشتدت حاجته. ثم ليقضوا تفثهم: ليزلوا ما علق بهم من اوساخ. وليوفوا نذورهم: يؤدوا ما نذروه. بالبيت العتيق: المسجد الحرام، لأنه أول بيت وضع للناس.

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} .

واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذي يصدون عن سبيل الله ودخول المسجد الحرام ويدعون انهم أتباع ابراهيم. . . . اذكر لهم قصة إبراهيم والبيت الحرام حين أنزلناه فيه وأمرناه باعادة بنائه، وقلنا له: لا تشرك بي شيئاً، وطهر بيتي من عبادة الاثنان لمن يطوف به ويقيم بجواره ويتعبد عنده.

{وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}

وقلنا له (إبراهيم): ناد الناس داعياً إياهم الى الحج وزيارة هذا البيت الذي أمرت ببنائه أتويك مشاة على ارجلهم، وركبانا على كل جمل ضامر وناقاة ضامر من كل طريق بعيد.

ثم بين السبب في هذه الزيارة فقال: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَأْسَ الْفَقِيرَ} .

نادهم يا إبراهيم ليحصلوا على منافع دينية لهم بأداء فريضة الحج، ومنافع دنيوية بالتعارف مع إخوانهم المسلمين والتشاور معهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم. (والحج أكبر مؤتمر في العالم، وهو من أعظم التجمعات لو عرف المسلمون كيف يستفيدون منه). وليذكروا اسم الله في أيام النحر ويشكروه ويمجدوه على ما رزقهم ويسر لهم من الإبل والبقر والغنم، فكلوا منها ما شئتم وأطعموا الفقراء وكل محتاج من البائسين والمحتاجين.

{ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} .

ثم عليهم بعد ذلك أن ينظفوا أجسامهم مما علق بها أثناء الإحرام من آثار العرق وطول السفر، لأن الحاج لا يستطيع أن يقص شعره أو يقلم ظفره أو يزل ما علق به من أدران حتى يتحلل من الإحرام، ثم بعد ذلك يقومون بما عليهم من نذور فيؤدونها، ويطوفون.

٢٢٠٦ 30

حرمت الله: التكليف الدينية وكل ما نهى الله عنه. فاجتنبوا الرجس من الأوثان: ابتعدوا عن عبادتها. الزور: الكذب. حنفاء: واحد هم حنيف، وهو من استقام على دين الحق، ومال عن كل زيغ وضلال. كأنهما خر من السماء: كأنما سقط من السماء. فتخطفه الطير: يعني بعد أن يسقط ويموت تأكله الطير. مكان سحيق: مكان بعيد. شعائر الله: جمع شعيرة وهي كل أعمال الحج والهدايا التي يسوقها الحاج. منسكا: مكانا للعبادة. محبتين: خاشعين. وجلت قلوبهم: خافت.

{ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} .

ذلك الذي أمرنا به من قضاء المناسك هو الواجب عليكم في حُجِّكم، ومن يلتزم أوامر الله ونواهيه في حجه تعظيماً لحدود الله يكن ذلك خيراً له عند ربه في دنياه وآخرته. لقد أحل الله لكم لحوم الإبل والبقرة والغنم، إلا في حالات مما بينه القرآن، كالميتة وغيرها، فاجتنبوا عبادة الأوثان وطاعة الشيطان. . إن ذلك رجس. ابتعدوا عن قول الزور على الله وعلى الناس.

{حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} .

تمسكوا بهذه الأمور مخلصين العبادة لله وحده، دون إشراك أحد به. . . . إن من يشرك بالله يعرض نفسه للهلاك المريع، وكأنه سقط من السماء فتمزق قطعاً تخطفه الطور فلا تبقي له أثراً، أو كأن الريح العاتية عصفت به فشتت أجزائه، وهوت بكل جزء منها في مكان بعيد.

{ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} .

امتثلوا ذلك واحفظوه، لأن من يعظم دين الله وفرائض الحج وأعماله، ويسوق البدن والهدايا إلى الحرم ويختارها عزيمة الأجسام صحيحة سميئة - فقد اتقى الله، لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب.

{لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ}

لكم في هذه الهدايا منافع دنيوية، فتركبوها حين الحاجة وتحمل أثقالكم، وتشربون من ألبانها، ثم لكم منافعها الدينية كذلك حين تذبونها عند البيت الحرام تقرباً إلى الله.

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيُذَكَّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} .

ليست هذه المناسك خاصة بكم، فقد جعلنا لأهل كل دين من الأديان من قبلكم قرابين يتقربون بها إلى الله، يذكرون اسم الله عليها ويعظمونه عند ذنبها شكراً له على ما أنعم عليهم، ويسر لهم منها. إن عبودكم إله واحد فاسلموا له وحده، ولا تشركوا معه أحداً. ويا

أيها الرسول بشر بالجنة والثواب الجزيل المخلصين، الخاضعين لله من عباده. وقد بين الله علامات أولئك المختبين فقال: {الذين إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} . وهؤلاء المختبين لهم صفات:

أولاًها: أنهم إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ عرَّتْهم رهبةٌ من خشيته، وخوفٌ من عقابه.
ثانيتهما: الذين يصبرون عند الشدائد على ما يصيبهم من المكروه والمتاعب.
ثالثتهما: ويطعمون الصلاة على أحسن وجه في أوقاتها بخضوع ونشاط.
رابعتهما: وينفقون بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق في وجوه البر وفي سبيل الله.

٢٢٠٧ 36

البدن: بضم الباء جمع بدنة، وهي الناقة أو البقرة التي تخرب بمكة أيام الحج. وتطلق اللفظة على الذكر والأنثى. صواف: قائمات قد صُفَّت أيديهن وأرجلهن، مفردة: صافّة. وجبت جنوبها: سقطت على الأرض عند نحرها. القانع: الراضي بما يعطى له نم غير سؤال. المعتر: الذي يتعرض للسؤال ويطلب الصدقات من الناس.
بعد أن حثَّ الله على التقرب بالأنعام كلها، وبين أن ذلك من تقوى القلوب - خصَّ من بينها الإبل والبقرة لأنها أعظمها خلقاً وأكثرها نفعاً، وأغلاها قيمة.

{وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} .

وقد جعلنا تقديم الإبل والبقرة هدايا في الحج من شعائر الدين ومظاهره، ولكم فيها خير كثير، ركوبها وشرب ألبانها ولكم في الآخرة أجر وثواب بإطعام الفقراء منها. فإذا صُفَّت للذبح فادْكُرُوا اسمَ الله عليها. فإذا تم ذبحها وسقطت على الأرض، فكلوا بعضاً منها، وتصدقوا على لافقير القانع المتعفف الذي لا يسأل، والفقير الذي يسأل. وكذلك سَخَّرْنَاهَا لكم وذلك سَخَّرْنَاهَا لإرادتكم لتشكرونا على نعمنا التي لا تحصى عليكم.

ثم بين الله تعالى أن عملكم هذا ينفع الفقراء والمحتاجين، والله غنيُّ عن ذلك كله فقال:

{لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومًا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} .

اعملوا أن الله تعالى غني عن العالمين، ولا يصله شيء من هذه الأضاحي والهدايا والصدقات، وهو لا يريد منكم مجرد التظاهر بالذبح وإراقة الدماء، لكنّه ينال رضاه تقواكم وإخلاص نواياكم. وهذا سَخَّرَهَا لكم لتشكروه على هدايتكم لمعالم دينه، ومناسك حجّه. وبشّر أيها النبي المحسنين الذين أحسنوا أعمالهم بثواب عظيم وجنةٍ عرضها السموات والأرض.

قراءات

قرأ يعقوب: لن تنال الله لحومها، ولكن تناله، بالتاء، والباقون بالياء.

٢٢٠٨ 38

اذن: رخص. صوامع: واحدها صومعة، وهي معابد الرهبان خارج المدن. وبيع: واحدتها: بيعة، وهي الكنيسة. وصلوات: معابد اليهود. ومساجد: معابد المسلمين.

{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} .

قراءات

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ان الله يدفع بدون الف.

إن الله يدفع عن عباده المؤمنين شرَّ المعتدين، ويحميهم وينصرهم بإيمانهم. وفي الآية تمهيد لما في الآية التي بعدها من الاذن في القتال، فهو يدفع عن الذين آمنوا لأنه يدفع عن دينه، ولا يحب الخائنين لأماناتهم، المبالغين في كفرهم بربهم.

وكان المؤمنون وهم في مكة يسألون النبي ﷺ أن يطلب من الله الاذن بالقتال، وكان المشركون يؤذونهم ويظلمونهم، فيأتون الى النبي الكريم بين مضروب ومشجوج في رأسه، ويتظلمون إليه. فيقول لهم: «صبراً صبراً، فإني لم أؤذن بالقتال، حتى هاجر وانزل الله تعالى هذه الآية: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}».

وهذه، كما يقول العلماء، أول آية نزلت بالاذن بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية كما رواه «الحاكم (في: المستدرک، عن ابن عباس).

لقد أُبيح للمؤمنين أن يقاتلوا المشركين دفاعاً عن أنفسهم وأموالهم ووطنهم، وأن يردوا اعتداءهم عليهم، بسب ما نالهم من ظلم صبروا عليه طويلاً.

ثم وعدهم الله بالنصر ودفع أذى المشركين عنهم: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}.

سبق ما ذكره القرآن الكريم في هذه الآية من الاذن بالقتال، جميع القوانين الوضعية، وهو ان الدفاع عن النفس والمال والوطن والعقيدة - امر مشروع مهما كانت نتائجه، وان المدافع عن نفسه وماله ووطنه وعقيدته، لا يؤاخذ امام الله وامام العدالة ولو قتل نفساً وأزهق أرواحاً. وقد قررت الآية ان المسلمين مأذون لهم في الدفاع عن أنفسهم اذا اعتدي عليهم.

والآن وقد اعتدى علينا العدو الاسرائيلي وحلفاؤه الغربيون، وسلب أ {ضنا، فان الله تعالى أذن لنا بالدفاع عن مالنا وانفسنا ووطننا، فيجيب علينا ان نعدّ العدة ونسلك بالايمان الصادق ونعمل على استرداد مقدساتنا، ولا يستطيع أحد أن يلومنا اذا فعلنا ذلك، بل إننا مقصرون في حق ديننا ووطننا اذا لم نفعل ذلك ومؤاخذون عند الله والرسول.

روى احمد والترمذ والنسائي وابن ماجة عن ابن عباس: قال لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال ابو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا اليه راجعون، ليهلكن القوم. فأنزل الله تعالى {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا. . .} قال ابو بكر: فعرفت انه سيكون قتال. قراءات

قرأ نافع وحفص: اذن للذين قاتلون بضم الهمزة من أذن وفتح التاء من يقاتلون.

وقرأ ابن كثيره وحمزة والكسائي: اذن بفتح الهمزة، للذين قاتلون بكسر التاء.

ثم وصف الله هؤلاء المؤمنين بقوله:

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}.

الذين ظلمهم المشركون وأرغموهم على ترك مكة والهجرة منها بغير حق، لأنهم آمنوا بالله وحده. {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

ولولا ان سخر الله للحق أعواناً يردعون الطغاة بالقوة لسادت الفوضى وعم الفساد في الأرض، وأخذوا صوت الحق، وهدموا صوامع الرهبان وكنايس النصارى، ومعابد اليهود، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً.

وقد تعهد الله بأن ينصر كل من نصر دينه، ووعد الله لا يتخلف، ان الله قوي على تنفيذ ما يريد، عزيز لا يغلبه غالب.

ثم وصف الله الذين أخرجوا من ديارهم بقوله:

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}

هؤلاء المؤمنون الذي أخرجوا من ديارهم هم الذين ان قوينا سلطانهم في الارض، حافظوا على صلواتهم، وعلى صلتهم بالله، وأدوا الزكاة وأمروا بالمعروف، وحثوا على كل خير، ونهوا عن كل ما فيه شر، والله وحده مصير الأمور، وإليه المرجع.

قراءات
قرأ ابن كثير وابو عمرو ان الله يدفع، ولولا دفع الله بدون الف، وقرأ نافع ان الله يدافع ولولا دفاع الله، وقرأ نافع وابن كثير: لهدمت صوامع بدون تشديد الدال.

٢٢٠٩ 42

فأملت: فاهلت. ثم أخذتهم: أهلكتهم. النكير: العقوبة الرادعة. خاوية: خالية وساقطة. عروضها: سقوفها. بئر معطلة: مهملة لا يُستقى منها. قصر مَشِيد: عظيم نفم. معاجزين مسرعين من الحق الى الباطل.

{وَأَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}

هؤلاء المشركون بالله، فلا تحزن أيها الرسول. . . . لقد كذبت أمم كثيرة رسلهم قبلك، ولست أول رسول كذبه قومه وآذوه، فقد كذب قوم نوح نوحا، وكذبت عاد وثمود رسلهم، وكذب قوم ابراهيم رسلهم ابراهيم، وكذلك فعل قوم لوط، وكذب اهل مدين رسلهم شعيبا، وكذبت فرعون وقومه موسى. . . . وقد أهلت أولئك المكذبين مدة لعلمهم يتوبون الى رشدهم ويستجيبون لدعوة الحق، فلم يرتدعوا بل تماردوا في غيهم، فعاقبتهم بأشد انواع العقاب، فانظريا محمد في آثارهم كيف كان عقابي لهم.

{فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ}

وكثير من القرى أهلكها بسبب ظلم أهلها وكفرهم، وأصبحت خالية من سكانها، سقوفها ساقطة على جدرانها، كأن لم تكن بيوتها موجودة من قبل. وكم بئر معطلة لا يرد عليها أحد، وقصر عظيم خلا من سكانه!

قراءات

قرأ اهل البصرة: اهلكتها بالتاء. والباقون: اهلكها بالنون.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} أَوَلَمْ يَتَعَزَّ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ، وَيَنْظُرُوا كَيْفَ أَصْبَحَتْ دِيَارُهُمْ خَالِيَةً وَدَوْرُهُمْ مُعَطَّلَةٌ! أَيْنَ عَقُولُهُمْ وَسَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ، هَلْ تَعَطَّلَتْ؟

ان العمى الحقيقي ليس في العيون، ولكنه في القلوب والبصائر، فإنهم في هذه الحالة يرون ولا يدركون، ويسمعون ولا يعتبرون.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} .

ها إن قومك يا محمد بدلاً من التأمل في مصارع الماضين، وديارهم الخاوية، والاتعاض بها والايان بالله - راحوا يستعجلون في العذاب الذي أخره الله عنهم إلى أجل معلوم!! وهذا غرور كبير منه، والله تعالى لن يخلف وعده، فهو واقع بهم، ولكن في موعد قدره الله في الدنيا او في الآخرة. ان أيام الله لا تقدير لها، فان يوماً واحداً من أيامه كألف سنة من أيامكم.

ولم يكن هذا مفهوماً في الزمن الماضي، ولكنه اليوم أصبح بديها، بعد ان صعد الانسان الى المر وعرف أن الزمن نسبي، وان الانسان إذا خرج من جو الأرض الذي نعيش فيه أصبح الزمن بلا حدود.

قراءات

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي: مما يعدون بالياء والباقون: مما تعدون بالتاء.

ثم أكد الله تعالى ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وان طالب الأمد فقال:

{وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ} .

كم من قرية أخرجت إهلاكها مع استمرارها على ظلها، فاعتزّت بذلك، ثم أنزلت بها أشد العذاب، ثم مرجعهم جميعاً إلى يوم القيامة فأجازيهم بما يستحقون. . . . فلا تغتروا أيها الجاحدون بتأخير العذاب عنكم.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (*) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}

بعد ان بين مصارع الغابرين، وسنة الله في المكذبين، يخاطب سبحانه وتعالى رسوله الكريم لينذر الناس ويبين لهم ما ينتظرهم. قل ايها النبي لهؤلاء المكذبين الذين يطلبون منك استعجال العذاب: ليس ذلك إليّ، وإنما ارسلني ربي نذيراً لكم محذراً تحذيراً واضحاً، والله هو الذي يتولى حسابكم ومجازاتكم. فالذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله كما ان لهم رزقاً كريماً في الجنة. واما الذين سَعَوْا في محاربة القرآن وتعطيل آياته، ظناً منهم أنهم يُعْجِزُونَا وأنهم لا يُعْثُونَ - فأولئك هم أهل النار المقيمون خالدين فيها ابداً.
قراءات

قرأ ابن كثير وابو عمرو: معجزين بتشديد الجيم المكسورة بمعنى مثبطين وبمطئين. والباقون: معاجزين بالالف.

٢٢٠١٠ 52

تمنى: تمنى الشيء أَرَادَهُ: وحدث نفسه بما يكون وما لا يكون. وتمنى: سأل ربه: وفي الحديث: اذا تمنى أحدكم فليستكثر. وتمنى الكتاب: قرأه. ينسخ: يبطل. يحكم: يجعلها محكمة مثبتة. في مرة: في شك. يوم عقيم: منفرد لا شبيه له. مهين: مذل.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} .

إن اعلی أمنية لأي رسول أو نبي هي ان يعرف الناس حقيقة رسالته ويفهموها ويدركوا أهدافها ليهتدوا بها، فلا حزن أيها الرسول من محاولات هؤلاء الكفار أرباب الأطماع، فقد جرت الحوادث من قبلك مع كل رسول ونبي من أنبيائنا أنه كلما قرأ عليهم شيئاً يدعوهم به الى الحق تدرى له شياطين الانس المتمردون لإبطال دعوته وتشكيك الناس فيما يتلوه. وذلك لكي يحولوا دون تحقيق أمنيته في إجابة دعوته، فينسخ الله ما يدبرون، ثم يثبت شريعته وينصر رسله، ويجعل آياته محكمة لا تقبل الرد. انه عليم باحوال الناس ومكايدهم، حكيم في أفعاله يضع كل شيء في موضعه.

وجاء في كثير من التفاسير رواية منسوبة الى ابن عباس، ان النبي ﷺ تلا على قريش سورة النجم، ولما بلغ قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ} ألقى الشيطان في تلاوة الرسول: «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى». فلها سمعت قريش ذلك فرحوا به. ولما سجد الرسول سجد المسلمون والشمركون جميعاً بسجوده. . . . فنزلت هذه الآية والآيات الثلاث التي بعدها. وهذه الرواية مكذوبة لا اصل لها ولم ترد في كتاب من الكتب الموثوقة، وليس لها سند صحيح. بل إنها من وضع الكذابين المشككين في الدين.

وقد كذبها العلماء. . . قال القاضي عياض في الشفاء: ان هذا لم يخرج أحد من أهل الصح، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل.

وقال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل.

وقال الفخر الرازي في تفسيره: هذه الرواية باطلة موضوعة عند أهل التحقيق.

وقال الامام ابو بكر البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.

وهذه السورة مدنية فكيف نوفق بينها وبين سورة النجم وهي مكية ومن اوائل ما نزل بمكة! ولا أعتقد بصحة ما يقوله بعض المفسرين أن هذه الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥ من سورة الحج مكية، فإنهم قالوا إنها مكية حتى توافق هذه الرواية الباطلة.

{يَجْعَلُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}

إن الشيطان ليجد الفرصة مهيأة أمامه ليلقي الفتنة في نفوس أوليائه الذين في قلوبهم مرض من نفاقٍ او انرحاف، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين، فيجدون في مثل هذه الأقوال مادةً للجدل والشقاق والتمرد على أحكام الله.

{وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}

اما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل، فيزيدهم إيماناً وعلماً بأن ام يقوله الأنبياء والرسل هو الحق المنزل من عند الله.

ثم بين الله حسن مآلهم وفوزهم بالسعادة الأبدية فقال:

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

ان الله ليهدي الذين آمنوا إلى تأويل ما تشابه من الدين، وينسخ ما ألقاه الشياطين من الفتن، فلا تلحقهم حيرة، ولا تعثرهم شبهة، ولا تزلزل أقدامهم ترهات المبطلين.

{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ}

ذلك شأن الذين كفروا مع القرآن كله، فهم لا يزالون في شك منه، فلا مطمع في إيمانهم، ولا زوال الشك من قلوبهم، . سوف يستمرون على شكهم في القرآن حتى يأتيهم الموت فجأةً أو يأتيهم عذاب يوم القيامة، العذاب العقيم الذي لا شبيه له.

{الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}

في ذلك اليوم يكون المثل: لله وحده، فلا ملك لأحد، والحكم يومئذٍ لله وحده، يحكم بينهم بالحق. والناس في ذلك اليوم فريقان: فريق في الجنة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتنعمون في جنات النعيم، وفريق في الجحيم هم الذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين.

٢٢٠١١ 58

مدخلا يرضونه: الجنة. بغى عليه: اعتدى عليه، ظلم.

بعد ان ذكر الله أن الملك له يوم القيامة، وانه يحكم بين عباده المؤمنين والكافرين - ذكر هنا وعده الكريم للمهاجرين في سبيله بالجنة، ثم بين أنه ينصر الذين يضطرون إلى مفارقة أوطانهم في سبيله، والذين يعتدى عليهم، وجميع المظلومين، وذكر بعض آياته التي تتجلى في صفاحات الكون ونواميس الوجود.

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}

الذين تركوا أوطانهم، وفارقوا أهلهم وعشيرتهم، حفاظاً على عقيدتهم وابتغاءً رضوان الله، ثم قُتلوا في ميدان الجهاد، أو ماتوا على فراشهم - لهم عند الله رزقٌ أكرم من كل ما تركوا في ديارهم. هذا وعدٌ من الله لهم بالعوض الكريم وهو خير الرازقين.

ثم بين هذا الرزق الحسن بقوله:

{لِيُدْخِلَهُمْ مَّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}

وهذا تعهدٌ من كريم بأن يدخلهم الجنة، ويحقق لهم ما يرضونه، ويكرمهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وإنه عليم بما وقع عليهم من ظلم وأذى، وبما يرضي نفوسهم ويعوّها، حليمٌ يمهّل، ثم يوفّي الظالمَ والمظلومَ الجزاءَ الأوفى.

{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}

ذلك شأننا في مجازاة الناس، لا نظلمهم شيئاً. والذي يقتصّ من جنى علي، ويجازيه بمثل اعتدائه عليه دون زيادة، ثم اعتدي عليه بعد ذلك، فإن الله ينصره على من تعدّى عليه. والله كثير العفو والمغفرة، فهو يسترّ هفوات عباده الطائعين ويعفو عنهم.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوجِلُّ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوجِلُّ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}

ذلك النصر الذي ينصره الله لمن بُغِيَ عليه هين على الله، لأنه قادر على كل شيء، ومن آيات قدرته البارزة هيمنته على العالم، فيداول بين الليل والنهار، بأن يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فتصير بعض ظلمة الليل مكان ضوء النهار، وعكس ذلك. والقادر على هذا الكون، قادر على نصر المظلومين. وهو مع تمام قدرته سميعٌ لقول المظلوم بصيرٌ بفعل الظالم، لا يغيب عنه شيء.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}

ذلك الاتصاف بكمال القدرة، والتصرف المطلق في الكون، إنما هو لأن الله هو الحق الذي لا اله معه غيره، وأن ما يعبد المشركون من الأصنام هو الباطل، وهو العليُّ لا سلطان فوق سلطانه، وهو الكبير الذي وسع كل شيء قدرةً وعلماً ورحمة.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}

لم تبصراً أيها القائل بما ترى حولك من مظاهر قدرة الله، فهو الذي ينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض فتنبت أنواعاً مختلفة من النبات بديعة الألوان والأشكال تسر الناظرين، انه تعالى لطيف يصلِّ علمه الى الدقيق والجليل، خير بمصالح خلقه ومنافعهم.

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}

كل ما في السموات والأرض وما في هذا الكون ملكٌ له، يتصرف فيه كما يشاء، فما به سبحانه حاجة الى من في السماء والأرض.

. انه الغني عن الجميع، وهو الحمود على نعمه المشكور عليها من جميع خلقه.

قراءت

قرأ ابن عامر: ثم قتلوا بتشديد التاء. والباقون: ثم قتلوا بالتخفيف، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عارم وأبو بكر: وان ما تدعون من دونه بالتاء والباقون: ما يدعون بالياء.

٢٢٠١٢ 65

المنسك: موضع العبادة، والشريعة والمنهاج. ناسكون: عابدون فيه، ملتزمون به. والناسك: العابد، والنسك العبادة.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ...}

ألا تنظروا أيها العاقل المظاهر قدرة الله، كيف يسر للناس جميعاً الانتفاع بالأرض وما فيها، وهياً لهم البحر تجري فيه السفن بمشيئته، وسير هذه الأجرام السماوية بنظام محكم لا يختل، وامسك كل ما في السماء ان تقع على الأرض، وذلك بقدرته!!

لقد تجلّت مشيئة الله ورأفته بالعباد بأن هياً غلافاً جويّاً يحتوي على العناصر الغازية التي لا غنى للحياة عنها، كما يحيي سكان الأرض من الإشعاعات الكونية وأسراب الشهب والنيازك التي تهيم في الفضاء، وتساقق. وعندما تدنو من الأرض تحترق في جوها العلوي قبل ان تصل الى سطح الأرض.

ومن رحمته تعالى بنا أن سقوط النيازك الكبير التي تدمر سطح الأرض نادر الحدوث جداً، وهو يتم في الأماكن الخالية من السكان، وفي هذا تأييدٌ وتصديق لقوله تعالى:

{وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ}.

كم في هذا الكون وهذه الارض من قوة؛ وكم من ثروة سخرها الله لهذا الانسان؟ والانسان غافل عن قدرة الله ونعمه التي لا تحصى. {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}

وهو الذي أنعم عليكم بهذه الحياة بعد أن كنتم تراباً، ثم يُمِيتكم حين تنقضي آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة للحساب والجزاء، فيلقى كل حساباً.

ثم بين طبيعة الانسان التي فطر عليها بقوله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ} أي أن الانسان مع كل هذه الدلائل والنعم يظل شديد الجحود بالله ويعمه عليه.

{لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ. . .}

لقد جعلنا لأهل كل دين من الأديان شريعة خاصة يعملون بها، ومنهجاً يسرون عليه ويعبدون الله به، فلا ينبغي للمشركون من قومك أن ينازعوك في أمر هذا الدين. . . فاثبت أيها الرسول على دينك، ولا تلتف لمجادلتهم واستمر في الدعوة الى ربك كما أمرك. إنك تسير على هدى من ربكم مستقيم، وشريعة توصل الى السعادة.

{وَأَن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} .

وإن أصر هؤلاء المشركون على المجادلة، فأعرض عنهم وقل لهم: الله أعلم بأعمالكم: إن الجدل يجدي مع القلوب المستعدة للهدى، لا مع القلوب التي تصر على الضلال، فلا ضورة الضاعة الوقت والجهد معهم.

{اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}

دعهم في غيهم يا محمد، فقد اندرت، وقل له: الله هو الذي يحكم بين الناس جميعاً يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. وعندها يتبين الحق من المبطّل، فيثيب المهتدي، ويعاقب المضللين.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} .

ألم تعلم أيها الرسول ان الله يحكم بعلم كامل، وهو محيط بكل ما بكل ما في السماء والأرض، لا ينخدع عنه سبب، ولا تخفى عليه خافية في العمل والشعور. . . كل ذلك ثابت عنده في لوح محفوظ، واثباته وحفظه يسير عليه كل اليسر.

٢٢.١٣ 71

سلطانا: حجة، برهان. نصير: ناصر، معين. يسطون: يبطشون. يستنقذوه: يخلصونه. يصطفي: يختار.

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. . .}

وأعجب شيء ان هؤلاء المشركين يعبدون أوثاناً وأشخاصاً ولا يعبدون الله، مع أن هؤلاء الذين يعبدونهم لم ينزل بهم كتاب من الله ولم يقم دليل على أنهم آلهة. . . ليس لهؤلاء الظالمين ناصر يوم القيامة ولا معين.

{وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ. . .}

وهؤلاء الجاحدون لا يناهضون الحجة بالهجة، وإنما يلجأون الى العنف والبطش، فإذا تليت عليهم آياتنا الواضحة تلاحظ في وجوههم الخلق والغيظ. بل يحاولون البطش بالذين يتلون عليهم هذه الآيات.

ثم بين الله أن هذا الغيظ الكمين في نفوسهم ليس بشيء إذا قيس بما سيلاقونه من العذاب يوم القيامة فقال:

{قُلْ أَفَأَنْتُمْ بُشِّرُ مِنْ ذَلِكَ. . .}

قل لهم ايها النبي: هل أخبركم بشر من غيظكم وبطشكم؟ إنه النار التي وعد الله الكافرين أمثالكم يوم القيامة، وبئس المصير.

{يَأْيَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ. . .}

يعلن الله في هذه الآية على الناس جميعاً ضعف هذه المعبودات المزيفة، فهي عاجزة عن خلق ذباب واحد على حقارته، بل اعجب من ذلك انها عاجزة عن مقاومة الذباب. فلو سلم شيئاً لما استطاعوا ان يخلصوا ذلك الشيء منه. وما اضعف الذي يهزم امام الذباب! فكيف يليق بانسان عاقل أن يعبد تلك الأوثان ويلتمس النفع منها! ويختم الله تعالى هذه الآية بعبارة ناطقة للحقيقة: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} .

ما أضعف الطالب وهو تلك الآلهة، وما أضعف المطلوب وهو الذباب!

{مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}

ما عرف هؤلاء المشركون الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، حين اشركوا به في العبادة اعجز الاشياء، وهم يرون آثار قدرته وبدائع مخلوقاته.

{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}

اقتضت ارادة الله تعالى وحكمته ان يختار من الملائكة رُسُلًا يبلغون الانبياء الوحي، ويختار من البشر رسلا، ليبلغوا شرعه الى خلقه، فكيف يعترض المشركون على من اختاره رسولا اليهم؟ انه تعالى سميع لأقوال عباده بصير بهممن فيعلم من يستحق ان يختار منهم لهذه الرسالة.

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}

يعلم سبحانه مستقبل احوالهم وماضيها، فهو يسمع ويرى ويعلم علماً شاملاً لا يند عنه حاضرا ولا غائب، وإليه وحده الأمور كلها، فهو الحكم الأخير، وله السيطرة والتدبير.

٢٢٠١٤ 77

وجاهدوا في الله: في سبيل الله. اجتنابكم: اختاركم. من حرج: من ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم. شهيدا: شاهدا. واعتصموا بالله: استعينوا به وتمسكوا بدينه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

يا أيها الذين آمنوا: لا تلتفتوا إلى تضليل الكفار، واعبدوا الله بإقامة الصلاة كاملة، وافعلوا الخير الذي أمركم بفعله من صلة الأرحام ومكارم الاخلاق والاستقامة التامة كي تكونوا من المصلحين السعداء وتنالوا رضوان الله.

السجدة: عند قوله تعالى {واسجدوا}: قال بعض العلماء إنه يُسنُّ للقارئ والمستمع ان يسجد عند تلاوتها، منهم ابن المبارك والشافعي واحمدن وقال بعضهم لا يُسنُّ السجود لأنها للصلاة فقط ومنهم: الحسن البصري وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو حنيفة ومالك.

{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ. . .} .

وجاهدوا في سبيل الله إعلاءً لكلمته ونشر دينه حتى تنتصروا على أعدائكم وشهواتكم، فإن الله تعالى اختاركم صر دينه، وجعلكم أمة وسطاً، ولم يكلفكم في شرعه ما يشق عليكم، ويسر عليكم ما يعترضكم من المشقات التي لا تطيقونها بما جعله لكم من انواع الرخص. فتمسكوا بهذا الدين القويم، فهو دين أبيكم إبراهيم الذي سماكم المسلمين.

{مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا. . .}

من قبل في الكتب السابقة، وفي هذا القرآن الكريم، فكونوا كما سماكم وانصروا الله ينصركم. . ليكون الرسول شاهداً عليكم بانكم عملتم بما بلّغكم، وتكونوا شهداء على الأمم السابقة بأن رسلها بلّغوها. فاذا كان الله قد خصكم بهذه الميزات كلها، فمن الواجب عليكم ان تقابلوها بالشكر والطاعة له، فتقيموا الصلاة على أتم وجوها، وتؤدوا الزكاة، وتوكلوا على الله وتعتصموا به في كل اموركم، وهو ناصركم،

٢٣ المؤمنون

٢٣.١ 1

أفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ: ظفروا وفازوا. خاشعون: خاضعون، اقبلوا بقلوبهم على صلاتهم. اللغو: ما لا فائدة فيه من الكلام. الزكاة: اخراج شيء من المال. وأصل الزكاة: التزكية وطهارة النفس. أو ما ملكت أيماهم: من الجواري، وهذا لم يعد موجوداً. فمن ابتغى وراء ذلك: فمن طلب غير. العادون: الذين يتجاوزون الحدود. راعون: حافظون. الفردوس: في هذه الآيات الكريمة صورةً للمؤمن الحقيقي، وهو الذي يجمع هذه الخصال السبع الحميدة. لقد فاز المؤمنون الذين هم خاضعون في صلاتهم مقبلين عليها بقلوبهم، والذين هم معرضون عما لا يفيد من الكلام، والذين يؤدون الزكاة، ذلك الركن الإسلامي العظيم الذي يؤدي إلى توثيق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، وأشعار كل فرد منهم بأنه مسئول عن أخيه ومجتمعه، والزكاة من أكبر الأهداف الاقتصادية التي تقضي على الفقر أينما حل. والذين يحافظون على أنفسهم من أن تكون لهم علاقة محرمة بالنساء، إذ أن الزنا من الأمور التي حرّمها الإسلام تحريماً قاطعاً، لما فيه من الآثار الاجتماعية السيئة التي لا يشك فيها عاقل، وما له من عواقب وخيمة من الناحية الصحية لما ينقله من الأمراض، وما يؤدي إليه من اختلاط الأنساب.

والله تعالى أباح لنا الزواج أو ملكَ اليمين من الإماء فقال:

{إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} .

فمن طلب ما بعد ذلك مما حرّم الله فهو متعدّد للحدود المشروعة، وبذلك يكون مؤاخذاً ومذنباً يستحق العقاب.

{فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}

من صفات المؤمن مراعاة الأمانة وحفظها وأداؤها، وحفظ العهود التي بينه وبين الله، أو بينه وبين الناس، فالمؤمنون لا يخونون الأمانات، ولا ينتقضون العهود.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} .

وقد كرر ذكر الصلاة والمحافظة عليها لما لها من أهمية في حياة المؤمنين، وذلك لتعظيم شأنها، وإشارة إلى أنها أولى بالاعتناء فهي مصدر جميع الكمالات النفسية، إذ بها يستمد الإنسان من الله روحاً عالية، وتكون له نوراً فياضاً. . . . فمن خشع فيها وحافظ عليها كان جديراً بأن يتصف بجميع الصفات السامية التي تقدمت.

وقد افتتح الله هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة، دلالة على عظيم فضلها، وكبير مناقبها. وقد ورد في الحديث «اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»

وماذا ينتظر من اتصف بهذه الصفات؟ ان من تحلّى بهذه الصفات يجازيه الله بالجنة.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} .

يتفضل الله عليهم بالفردوس، أعلى مكان في الجنة، يتمتعون فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون. وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين، وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال.

قراءات:

قرأ ابن كثير وحده: لأمانتهم، والباقون: لأماناتهم بالجمع. وقرأ حمزة والكسائي: على صلاتهم، والباقون: على صلواتهم بالجمع.

سُلالة: الخلاصة، ما انتزع من الشيء، النسل. نطفة: القطرة من الماء، المني. قرار مكين: محل استقرار حصين. علقّة: دما متجمدا. مضغة: قطعة لحم بقدر ما يمضغ الإنسان. سبع طرائق: سبع سماوات. ولقد حَلَفْنَا أَصْلَ هذا النوع الانساني من خلاصة الطين، ثم جعلنا نسله في أصلاب الآباء، ثم قُدِّفَت في الأرحام نُطفة فصارت في حِرز حصين من وقت الحمل الى حين الولادة. ثم حوّلنا النطفة من صفتها الثانية الى صفة العلقّة وهي الدم الجامد. ثم جعلنا ذلك الدمض الجامد مضغةً، اي قطعة من اللحم بمقدار ما يُمضغ. ثم صيرناها هيكلاً عظيماً، ثم كسونا العظام باللحم. ثم أتممنا خلقه فصار في النهاية بعد نفخ الروح فيه خَلْقاً مغايراً لمبدأ تكوينه، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} . ثم إنكم يا بني آدم بعد النشأة الأولى من العدم تصيرون الى الموت، فالموتُ نهاية الحياة الأرضية، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة، وهو إذن طورٌ من أطوار النشأة الانسانية، وليس نهاية الأطوار. ثم بعد ذلك تبعثون يوم القيامة، فالبعثُ هو المؤذن بالطّور الأخير من تلك النشأة وبعده تبدأ الحياة الكاملة. {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}

لفظ العدد في القرآن لا يدلّ على الحصر، فقد يكون هناك مليون سماء. وقد ثبت الآن في علم الفلك ان هناك عدداً من المجموعات من السُدم والنجوم في هذا الكون الواسع لا نستطيع الوصولُ عليها حتى رؤيتها على كل ما لدينا من وسائل. فقد يكون المعنيُّ هو المجموعات السماوية التي لا حصر لها، وقد يكشف العلم عنها في المستقبل.

وقد خلقنا هذا الخلق كله، ونحن لا نغفل عن جميع المخلوقات، بل نحفظها كلّها من الاختلال، وندير كلّ أمورها بالحكمة. قراءات: قرأ ابن عامر وابو بكر: نخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظم لحما، بالافراد، والباقون: عظاما بالجمع.

بقدر: بمقدار معلوم. فأسكاه في الارض: جعلناه ثابتاً فيها. على ذهاب به: على ازالته واعدامه. وشجرة تخرج من طور سيناء: الشجرة هي الزيتون. طور سيناء: هو الجبل لازدي ناجى فيه موسى ربه، وهو معروف الآن باسم جبل الطور في سيناء، ويسمى طور سينين. الصبغ: ما يؤتد به الاكل، وهو الزيت يؤكل مع الخبز، ويستعمل في كثير من الطعام. وكان في الزمن الماضي يستعمل للانارة، وكان زيت الزيتون هو بترول العالم في الزمن القديم، ولا يزال محتفظاً بقيمته. {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}

وأنزلنا من السماء ماءً موزعاً بتقديرٍ لائقٍ حكيم، لاستجلاب المنافع ودفع المضار، وتكفي لسقي الزروع وللشرب، ولحدوث التوازن الحراري المناسب في هذا الكوكب. كما ان المياه انزلت على الأرض بقدرٍ معلوم، لا يزيد فيغطي كلّ سطحها، ولا يقلّ فيقصر دون ربيّ الجزء البري منها. وإنا لقادرون على إزالته ونفي إمكانكم الانتفاع به، ولكننا لن نفعل رحمةً بكم. وهذا من فضل الله على الناس ونعمته. ثم يبين ان الحياة تنشأ من الماء فيقول: {فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}

فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء بساتين وحدائق فيها نخيلٌ وأعنان وفواكه كثيرة تتمتعون بها زيادة على ثمرات النخيل والاعنان. ومن زروع هذه الجنّات وثمارها تأكلون، وتحصلون معاشكم.

ثم خَصَّ شَجَرَةَ الزَّيْتُونِ بالذكر لما لها من المنافع والقدر الكبير فقال: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٌ لِلَّائِكِينَ}

وخلقنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في منطقة طور سيناء، وهي من أكثر الشجر فائدةً بزيتها وزيتونها وخشبها، وفيها طعام للناس. والزيتونة تعمر طويلاً، لا تحتاج إلى خدمة كثيرة، وهي دائمة الخضرة. ويعتبر الزيتون مادة غذائية جيدة، فيه نسبة كبيرة من البروتين، بالإضافة إلى عدة مواد هامة وأساسية في غذاء الإنسان. وزيت الزيتون من أهم أنواع الدهون، وهو يستعمل في كثير من أنواع الطعام، لأنه يفيد الجهد الهضمي عامة، والكبد خاصة. وهو يفضل جميع أنواع الدهون النباتية والحيوانية، ويستعمل في كثير من الأدوية والمنظفات مثل الصابون والصناعات الغذائية.

وفي الحديث الشريف: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن سيدنا عمر بن الخطاب، والحاكم عن أبي هريرة.

وبعد ان بين لنا فوائد النبات انتقل الى عالم الحيوان، وكل هذه المخلوقات إنما نشأت من الماء.

{وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ} .

وان لكم في خلق الأنعام لخدمتكم لعبرة لمن ينظر إليها بقلب مفتوح وحسن بصيرة.

فهذه الإبل والبقر والغنم نسقيكم لبناً منها خالصاً سائغاً للشرابين، ولكم فيها منافع في أصوافها وأوبارها وأشعارها.

ثم يخصص منها منفعتين كبيرتين مهمتين فيقول:

{وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ تُجْلُونَ}

فكما أنكم تنتفعون بألبانها وأوبارها وأشعارها، كذلك تأكلون من لحومها، وتُجْلُونَ عليها وعلى الفلك التي تجري في البحر. وقد ذكر الفلك هنا لأنه يجري على الماء الذي تفضل الله علينا به.

وكل هذه من دلائل الإيمان الكونية، لمن يتدبرها تدبر الفهم والادراك.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: سيناء بكسر السين، والباقون: سيناء بفتح السين وهما لغتان. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «تنبت» بضم التاء وكسر الباء. والباقون: تنبت بفتح التاء وضم الباء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: نسقيكم بفتح النون، والباقون: نسقيكم بضمها. وهما لغتان: سقى وأسقى.

٢٣٠٤ 23

الماء: زعماء القوم. يتفضل عليكم: يدعي الفضل والسيادة. به جنة: مجنون. فتربصوا: فانتظروا. بأعيننا: بحفظنا ورعايتنا. فار التنور: نبع منه الماء بقوة، والتنور: فرن خاص يخبز فيه. فاسلك: فادخل. استويت: استقرت على الفلك. لمبتلين: لمختبرين.

بعد ان عدد سبحانه ما أنعم به على عباده في نشأتهم الأولى، وفي خلق الماء لهم لينتفعوا به، وإنشاء النبات وما فيه من الثمرات، وفي خلق الحيوان وما فيه من المنافع للإنسان - ذكر هنا ان كثيراً من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار في هذا، فكفروا بهذه النعم، وجعلوا قدر المنعم بها، وعبدوا غيره، وكذبوا رسله الذين أرسلوا اليهم. . . فأهلكهم الله بعذاب من عنده. وفي هذا إنذار وتخويف لكل من يخرف ويكذب ويعبد غير الله.

وقد مرّت قصة نوح في سورة هود بتفصيلٍ أوسع في الآيات ٢٥ الى ٤٩ ومر شرحها فلا داعي لتكرار ذلك، وانما اذكر موجزاً لبحث قيم اورده الدكتور موريس بوكاي في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» اذ يقول ما ملخصه:

«الاصحاحات ٦، ٧، ٨، من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان، ويشكل أدق روايتين غير موضوعيتين جنباً الى جنب. . . . والحقيقة أن في هذه الاصحاحات الثلاثة تناقضات صارخة. وتقول الرواية: إن الارض تغطت حتى قمم الجبال وأعلى منها بالماء، وتدمرت الحياة كلها، وبعد سنة خرج نوح من السفينة التي رست على جبل أرارات بعط الانحسار.

وتقول الرواية اليهودية ان مدة الطوفان أربعون يوماً، وتقول الرواية الكهنوتية ان المدة مئة وخمسون يوماً. ومعنى هذا ان البشرية قد أعادت تكوينها ابتداءً من أولاد نوح وزوجاتهم. . . . ان المعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة. فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من زمن ابراهيم، كما يوحي بذلك نص سفر التكوين في الانساب، فإن الطوفان يكون قد وقع في القرن ٢١ أو ٢٢ قبل الميلاد.

وفي العصر الحديث لا يمكن تصديق هذا التاريخ، إذ من المعلوم بأن حضارات متقدمة بقيت آثارها خالدة قد نمت في هذه الفترة في بلاد ما بين النهرين وفي مصر. فكيف يكون الطوفان قد عم الأرض جميعها!! فالنصوص التوراتية إذن في تعارض صريح مع المعارف الحديث.

وان وجود روايتين لنفس الحدث، هذا بالإضافة الى التضارب الذي تحويانه - يوضح بصورة قطعية ان ايدي البشر قد حورت الكتب التوراتية.

اما القرآن الكريم فان رواية الطوفان فيه كما يبسطها تختلف تماماً عن رواية التوراة، ولا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية. وذلك لاسباب بسيطة جداً، فالقرآن لا يحدد الطوفان بزمان، ولا يذكر كارثة حلت بالأرض قاطبة، ولكنه يذكر عقاباً سلط على قوم نوح دون سواهم، وهذا يدل دلالة قاطعة على ان القرآن أنزل بنوح من عند الله» .

قراءات:

قرأ أبو بكر: منزلاً بفتح الميم وكسر الزاي، والباقون: منزلاً بضم الميم وفتح الزاي. وقرأ حفص عن عاصم: من كل زوجين اثنين بتنوين كل. والباقون: من كل زوجين بالإضافة.

٢٣٠٥ 31

القرن: الأمة، اهل العصر الواحد، والمراد بهم هنا عاد، قوم هود، لقوله تعالى في سورة الاعراف: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح} . ارفناهم: وسعنا عليهم الرزق وجعلناهم في ترف ونعيم. لخاسرون: مغبون. هيات: بضعد ما توعدون وهو البعث والحساب. ليصبحن: ليصيرن. الصيحة: العذاب. غشاء: هو ما يحمله السيل من الاشياء التافهة التي لا ينفع بها. بعدا: هلاكاً. {ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين. . . } .

ثم أوجدنا من بعد مهلك قوم نوح قوماً آخرين هم قوم عاد، فأرسلنا فيهم رسولاً منهم هو هود، وقد تقدم الكلام عليهم في سورة هود من الآية ٥٠ الى ٦٥، فقال لهم الرسول: اعبدوا الله لا إله إلا هو، أفلا تخافون عذابه؟ فقال زعماء قومه من الذين كفروا وكذبوا بالحياة الآخرة، وقد وسعنا الرزق في هذه الحياة: ما هذا الا بشر مثلكم. ولئن أطعتم بشر مثلكم إذن أنتم خاسرون. وهذا يعدكم أنكم إذا متم وصرتم تراباً وعظاماً بالية أنكم بعد ذلك لمبعوثون من جديد، ومحاسبون على ما قدتم من اعمال. وذلك غير معقول، هيات هيات لما توعدون. ليس هناك الا حياة واحدة هي هذه الحياة الدنيا التي نجد فيها الموت والحياة، ولن نبعث بعد الموت أبداً.

وما صاحبكم هذا الا رجل كذب على الله، وادعى أنه أرسله، وكذب فيما يدعو اليه، ولن نصدقه ابداً. قال هود بعد ما يؤس ما إيمانهم: رب انصُرني عليهم وانتقم منهم، بسبب تكذيبهم لدعوتي. قال الله له مؤكدا وعده: سيندمون بعد قليل على ما فعلوا عندما يحلُّ بهم العذاب.

فأخذتهم صيحةٌ شديدةٌ أهلكتهم، وجعلناهم كالغُثاء الذي يجرفه السيل، فبعداً للقوم الظالمين.

٢٣.٦ 42

تترى: متتابعين، تواترت الأشياء ثابعت مع فترات، واطر الشئ: تابعه. وجعلناهم احاديث: يتحدث الناس بما جرى عليهم. بآياتنا: هي الآيات التسع التي سبقت في سورة الاعراف. وسلطان مبين: حجة واضحة. عالين: متكبرين. ربوة ذات قرار معين: الربوة: المرتفع من الأرض، ذات قرار: مستوية يستقر عليها الناس. معين: ماء. وهي القدس.

{ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}

ثم خلقنا من بعدهم أقواماً غيرهم، كقوم صالح ولوط وشعيب. ولكل أمةٍ زمنها ووقتها المعين، لا نتقدم عنه ولا نتأخر، وكذلك لا تهلك أمةٌ قبل مجيء أجلها ولا بعده.

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُولُهَا كَذَبُوهُ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ}

ثم أرسلنا رسلنا متتابعين، كلاً الى قومه، وكلما جاء رسول قومه كذبوه في دعوته، فأهلكناهم متتابعين، وجعلنا أخبارهم أحاديث يرددها الناس ويعجبون منها. ومثل هذه الآية قوله تعالى: {جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٌ} [سبأ: ١٩]. فبعداً لهم عن الرحمة، وهلاكاً لقوم لا يؤمنون.

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. . . .}

ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم الى فرعون وقومه، وفامتنعوا وتكبروا ولم يؤمنوا، وقالوا في تعجب وإنكار: أنؤمن بدعوة رجلين من البشر مثلنا، وقومهما لنا خاضعون وخادمون لنا كالعبيد!! فكذبوهما في دعوتهما فكانوا من الملهكين بالغرق. ولقد أوحينا إلى موسى بالتوراة، ليهدي قومه بما فيها من أحكام وإرشادات لعلمهم يهتدون. وجعلنا عيسى بن مريم وأمه: في حملها به من غير ان يمسيها بشر، وفي ولادته من غير أب - دلالة قاطعة على قدرتنا البالغة، وأنزلناهما في أرض طيبة مرتفعة يجدان فيها الرعاية والإيواء. ففي كل هذه الآيات اجمال وتلخيص لتاريخ الدعوة، يقرر سنة الله الجارية، في امد الطويل بين نوح وهود وموسى وعيسى، كل قرن يستوفي أجله ويمضي.

٢٣.٧ 51

أمتكم: ملتكم وشريعتكم. فتقطعوا: تفرقوا وتمزقوا. زُبرا: قطعاً وجماعات واحداً زُبرة. فذرهم: دعهم وتركهم. في غمرتهم: في جهلهم، وأصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة ويسترها. حتى حين: الى ان يموتوا فيستحقوا العذاب.

{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}

هذا نداؤ لجميع الرسل في كل زمان ومكان، ان يأكلوا من الحلا الطيب، وان يعملوا في هذه الدنيا ويعمروها، فالعمل من مقتضيات البشرية. فالرسل كلهم يتلقون من عند الله، لا فرق بين أحد منهم والآخر.

وهذا النداء، وإن كان موجهاً الى الرسل والأنبياء فانه ايضاً للأمم جميعاً. فهو نداء لجميع الناس في جميع الأقطار أن يأكلوا من الحلال الطيب، وان يعمروا هذه الارض، بالأعمال الصالحة. ثم قال في ختام الآية: {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} لا يخفى علي شيء منها وأنا مجازيكم على ما تعملون.

{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}

يقرر الله تعالى في هذه الآية وحدة الأديان، وأنها كلها من عنده، غايتها واحدة، هي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والعمل على إحياء هذه الأرض. والجدد والكذب في سبيل الأمة وتماسكها ووحدتها.

وفي هذا دليل كبير على وحدة الدين، وأن الأديان جميعها من عند الله، لكن الأمم اختلفت وخالف الناس رسلهم واتبعوا أهواءهم فبدلوا وغيروا وتفرقوا شيعاً واحزاباً، كما قال: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} .

فتفرق أتباع الرسل والأنبياء فرقاً واحزاباً، وأصبح كل فريقٍ معجباً بنفسه، فرحاً بما عنده، معتقداً أنه على الحق وحده. فبعد أن كان الرسل أمةً واحدة ذات كلمة واحدة وعبادة واحدة تفرق الناس من بعدهم شيعاً واحزاباً لا تلتقي على منهج ولا طريق. {فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ} .

الخطاب للنبي الكريم عليه صلوات الله وسلامه، فاترك الكافرين يا محمد في جهالتهم وغفلتهم ما دمت قد أدت رسالتك، حتى يقضي الله فيهم فيفاجئهم المصير حين يجيء موعده المحتوم. قراءات:

قرأ أهل الكوفة: وإن امتكم بكسر الهمزة. وقرأ ابن عامر: وإن بكسر الهمزة وسكون النون. والباقون: وإن بفتح الهمزة وتشديد النون. ثم بين خطأهم فيما يظنون من أن سعة الرزق في الدنيا علامة رضا الله عنهم في الآخرة فقال: {الْيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} .

أظن هؤلاء المغرورون أن المقصود مما نعطيهم من الأموال والأولاد والرزق الواسع هو المسارعة بالخيرات لهم! إنما هي فتنة لهم وابتلاء، إنهم لا يشعرون أنني غير راضٍ عنهم، ولا أن هذه النعم استدراجٌ مني لهم، ثم وراءها المصير المظلم.

٢٣٠٨ 57

من خشية ربهم: خوف ربهم. مشفقون: خائفون، يقال اشفق منه خاف منه، واشفق عليه عطف عليه. وجلة: خائفة. سابقون: ظافرون بنيلها. الوسع: القدرة والطاقة. كتاب: هو صحائف الاعمال.

في هذه الآيات يبرز الله تعالى الصورة الحسنة للمؤمنين، بعد أن بين صورة الغفلة والغمرة في القلوب الضالة. {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} .

إن هؤلاء المؤمنين يشفقون من ربهم خشيةً وتقوى، وهم يؤمنون بآيات ربهم الكونية التي نصبها في الأنفس والآفاق دلالةً على وجوده ووحدانيته، ولا يشركون به. وهم يؤدون واجباتهم ويقومون بالتكاليف خير قيام، ويأتون من الطاعات ما استطاعوا. والذين يعطون مما أعطوا، ويتصدقون بما تصدقوا، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم، لأنهم راجعون إلى ربهم ومحاسبون.

اولئك الذين جمعوا هذه المحاسن يرغبون في الطاعات أشد الرغبة، وهم الذين يسبقون لها فينالون الخيرات. {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} .

هنا يتكرم الله علينا بأن ما كلفنا به سهل يسير لا يخرج عن حد القدرة والطاقة، وأنه مهما قلّ محفوظاً عنده في كتاب ينطق بالحق، ولا يظلم الله أحداً من خلقه بزيادة عقاب أو نقص ثواب.

٢٣٠٩ 63

الغمرة: الجهالة والغفلة. من دون ذلك: من غير ذلك. المترف: صاحب النعمة الكثيرة الذي يستعملها في غير موضعها. يجأرون: يصيحون. تنكصون: تدبرون وتعرضون عن سماعها، وأصل النكوص: الرجوع إلى الخلق. سامراً تهجرون: تسمرون بالليل بالكلام

القبیح والطعن في القرآن. به جنة: مجنون. الحق: من الالفاظ المشتركة لها عدة معان. فالحق هو الله، والحق: هو القرآن، والحق: الدين كله بما فيه القرآن، والمراد به هنا: الله. أتيناهم بذكرهم: بالقرآن الذين هو نجرهم. فهم عن ذكرهم معرضون: فهم معرضون عن نجرهم. الخروج والخراج: الجعل والأجر.

{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} .

بعد أن ذكر الله تعاليسماحة هذا الدين، وأنه لا يكلف أحداً الا بما يطيق، وان كل عملٍ يعملهُ الانسانُ مسجلٌ عليه في كتاب محفوظ، ثم بين صفات المؤمنين من الإيمان بالله، والمسارة الى الخيرات، وما ينتظرهم من الجزاء يوم القيامة - بين هنا أن المشركين بسبب عنادهم وغيهم في غفلة عن كل هذا، ولهم اعمالٌ سوءٌ أخرى من فنون الكفر او الطعن في القرآن والرسول الكريم.

{حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ أَنْ تَنْصَرُوا}

فإذا حلَّ بهم بأسنا وأوقعنا العذاب بالأغنياء المترفين يومَ القيامة صاحوا واستغاثوا، فنقول لهم: لا تصرخوا ولا تستغيثوا، فلن ينصركم أحدٌ من عذابنا ولن تجدوا من يُغيثكم في هذا اليوم العظيم. والتعبير بإذا للشيء المحقق، وإنَّ للشك.

{قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ}

ان هذا الصراخ لن يفيدكم لأنكم فرطتم في الدنيا، وقد جاءكم الآيات والنذر على لسان رُسلي فلم تستمعوا لها، وكنتم تُعرضون عنها ولا تسمعون لها.

{مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ} .

كنتم في غعراضكم وتوليكم عن آياتي متكبرين، وتسمرون حول الحرم وتناولون القرآن والرسول الكريم بهجر القول وقبيح الألفاظ والطعن في الدين.

ثم أنبهم على ما فعلوا، وبين أن إقدامهم عليه لا بد ان يكون لأحد أسباب أربعة فقال: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ}

١ - أجهل هؤلاء المعرضون فلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه حق، وما يحتوي عليه من تشريع وتهذيب للنفوس، وما فيه من فضائل وآداب وأخلاق.

٢ - أم كانت دعوة محمد ﷺ غريبة عن الدعوات التي جاءت بها الرسل الكرام الى الأقسام السابقين.

٣ - أم لم يعرفوا رسولهم محمداً عليه الصلاة والسلام الذي نشأ بينهم، وما كان يتحلَّى به من صدق وأمانة (وكانوا يسمونه: الأمين) فهم ينكرون دعوته حسداً منهم وعناداً.

٤ - ام يقولون: انه مجنون؟ فلا يدري ما يقول، وهم أعلم الناس به!

وبعد ان عدد سبحانه هذه الوجوه، ونبه الى فسادها، بين وجه الحق في عدم إيمانهم فقال:

{بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} .

كلا: إنه جاءهم بالدين الحق، لكن اكثرهم كارهون للحق، لأنه يخالف شهواتهم واهواءهم فهم لا يؤمنون به، وذلك لأنه يسلبهم زعاماتهم والقيم الباطلة التي يعيشون بها، فالدفاع عن مصالحهم هو الذي يتسترون فيه. ومثل هؤلاء كثيرون في الوقت الحاضر يتخذون الدين ستاراً لزعاماتهم ومنافعهم.

ثم بين الله ان اتباع الهوى يؤدي الى الفساد الكبير فقال:

{وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}

ولو أن الله تعالى ساير هؤلاء فيما يشتهونه ويقترحونه، لفسدَ هذا النظام العظيم الذي نراه في السموات والأرض، واختلَّ نظام الكون،

وساد الظلم والفساد في الخلائق، ولكن الله ذو حكمة عالية، وقدرة نافذة. وبعد ان أنبهم على كراهمهم للحق، ذكر أنه أعرضوا عن أعظم خير جاءهم فقال: {بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ} .

بل جئناهم بالقرآن الذي فيه نغفرهم وشرفهم، وهم مع ذلك معرضون عن هذا الخير العظيم، والشرف العظيم، وكان قال تعالى: {وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف: ٤٤] .

وهذا هو القول الحق، فإن العرب قبل الإسلام لم تكن أمة متحدة، ولم يكن لها ذكر في التاريخ حتى جاءها الاسلام، فأصبحت بفضلها تُذكر في الشرق والغرب، وظل ذكرها يدوي في العالم قرونا طويلة. ولما تركت وحدتها ودينها وأعرضت عنه تضائل ذكرها وخبا نورها، ولن يقوم لها ذكر إلا برجعها الى الاسلام، والأخذ بالعلم، ووحدة الصف.

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا نَفْرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}

إنك أيها الرسول لا تسألهم أجراً على أداء رسالتك، ان أجر ربك لك خير مما عندهم، وهو خير الرازقين. قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو نافع وعاصم: «أم تسألهم خراجاً نفاج ربك خير» كما هو في المصحف، وقرأ حمزة والكسائي: «ام تسألهم خراجاً نفراج ربك» وقرأ ابن عامر «ام تسألهم خراجاً نفراج ربك خير» .

٢٣.١٠ 73

ناكبون: زائغون، عادلون عن الرشاد. للجبّاء: لتماذوا فيه. يعمهون: يتخبرون، يترددون في الضلال. استكانوا: خضعوا وذلوا. مبلسون: آيسون من كل خير. انشأ: خلق. ذراً كم في الارض: خلقكم وبثكم فيها.

{وَأَنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

وأنت يا محمد على الحق الذي لا معدل عنه، وتدعو هؤلاء المشركين الى الدين القيم الموصل الى السعادة الأبدية.

{وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ} .

ان الذين لا يصدقون بك، ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وقيام الساعة، لزائغون عن الحق، ومائلون عن النهج القويم، وضالون عن الطريق المستقيم.

{وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ لَّجَبُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}

لقد بلغوا في التمرّد والعناد حداً لا يرجى معه صلاحهم، فلو رحمناهم وأزلنا عنهم ما نزل بهم من ضرر في أبدانهم وقطّ في أموالهم - ل زادوا كفرًا في طغيانهم يترددون في الضلال.

{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} .

ولقد عذبناهم بأنواع كثيرة من العذاب منها قتل زعمائهم يوم بدر، والقحط الذي أصابهم، وغير ذلك - فما خضعوا لربهم وما تضرعوا، بل أقاموا على عتوهم واستكبارهم. . . . لم ينفع معهم الإنذار ولا التحذير.

ثم بين الله عاقبة أمرهم وما يكون من حالهم إذا جاءت الساعة فقال:

{حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}

حتى إذا جاء أمر الله، وجاءتهم الساعة ووقفوا بين يدي الله، وأخذهم من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون - أيسوا من كل خير وانقطعت آمالهم وخاب رجاءهم.

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}

ثم يبين الله تعالى بعض ما أنعم على خلقه لعلهم يتذكرون: كيف تكفرون بالله وهو الذي أنشأ لكم السمع لتسمعوا الحق! والأبصار لتروا الكون وما فيه من عجائب! والعقول لتدركوا عظمته فتؤمنوا به! ومع كل هذه النعم فإنكم لم تشكروها ولم تؤدوا واجبها.

{وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}

وهو الذي خلقكم وبثكم في هذه الأرض تستثمرون خيراتها، وإليه وحده تحشرون يوم القيامة. وهو الذي يحيي ويميت، وبأمره وقوانينه يتعاقب الليل والنهار طولا وقصرا، فهل بعد كل هذه الدلائل، وهذه النعم تجدون!!

٢٣.١١ 81

أساطير: أباطيل، والاحاديث العجيبة واحداها أسطورة، واسطار، واسطير. الملكوت: الملك، والتدبير. يُجِير: يغيث. ولا يجار عليه: لا يعين أحداً منه احدا. تُسَحَّرُونَ: تخدعون عن الحق، لأن السحر تمويه وتخيل وخداع.

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأُولُونَ. . .}

لم يعتبر المشركون بكل هذه الأدلة الواضحة بل ولا تدبروا الحجج، بل قلّدوا أسلافهم السابقين فقالوا مثل قولهم. قالوا منكرين للبعث: أمن المعقول ان نبعث بعد الموت، وبعد انتصير تراباً وعظاماً! لقد وعدنا هذا الوعد، ووعد آبائنا من قبلنا بذلك، وما هذا الكلام إلا من أساطير الأمم السابقة، ليس له أصل من الصحة.

{قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. . .} في هذه الآيات الثلاث يجادل الله المنكرين للبعث ويبين اخطاءهم: ١ - قل ايها الرسول: من الذي يملك الأرض ومن عليها من الناس وسائر المخلوقات، إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله. إنهم ولا شك سيقرون بالحقيقة ويقولون المالك هو الله. قل لهم حين يعترفون: أفلا تتذكرون فتعلموا أن من قدر على خلق هذا الكون هو قادر على إحيائكم وبعثكم!

٢ - ثم قل لهم ايضا: من هو رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقرون ويقولون الله. قل لهم: أتعملون ذلك ولا تتقون عقاب ربكم!!

٣ - وبعد ان أقرّوا بأن هذا الكون جميعه ملك له تعالى بين لهم جلّ جلاله أن تدبير هذا الملك الواسع بيده، وانه مالك كل شيء، فهو المدبر لنظام العالم بأجمعه، له الحكم المطلق في كل شيء، وهو يحمي بقدره من يشاء، ولا يمكن لأحد ان يجير أحداً من عذابه. ثم أجاب عن هذا السؤال قبل ان يجيبوا فقال: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}.

إنهم سيقرون بالحقيقة ويقولون كل شيء لله، فقل لهم: إذن كيف تُخدعون وتُصرفون عن هذه الحقائق الثابتة، وتنصرفون عن طاعة الله!!

ثم بعد كل هذه الاسئلة والمحاورة يجيء التقرير الفاصل بقوله تعالى:

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} لقد أتيناهم بالدين الحق على لسان رسولنا، وهم كاذبون في إنكار ذلك، وفي كل ما يخالف هذا الحق.

قراءات:

قرأ أبو عمرو: سيقولون الله. والباقون: سيقولون لله.

٢٣.١٢ 91

الغيب: ما غاب عنا. الشهادة: الحاضر الآن. همزات الشياطين: وساوسهم. من وراءهم: من امامهم. يرزخ: حاجز.

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} .
من الحقِّ الى جاء به الرسول الكريم من عند ربه معلناً للناس كافة أن الله تعالى لم يلد ولم يولد ولم يتخذ ولداً، ولم يشاركه في الملك آله آخر، وبين ذلك بدليلين:

١ - إذا لذهب كل إله ما خلق. يستقل كل اله بما خلقه، يصرفه حسب ما يريد، فيصبح لكل جزء من الكون، او لكل فريق من المخلوقات - قانون خاص، ويحصل التباين في نظام هذا الكون. . . وهذا غير واقع، فنظام الكون منسق منتظم {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ} [الملك: ٣] .

٢ - ولعلا بعضهم على بعض. ولحصل خلاف كبير بين الإلهين، وقهر أحدهم الآخر، وكل هذه الامور غير موجودة. على العكس فإن وحدة الكون ظاهرة تشهد بوحدة مكوّنه، بوحدة خالقه، وكل شيء في هذا الكون يبدو متناسقاً منتظماً بلا تصادم ولا نزاع. وبعد ان وضح الحق وصار كفلق الصبح جاء بما هو كالنتيجة لذلك فقال:
{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}

تنزه الله عما يقوله المشركون مما يخالف الحق. ثم وصف نفسه بصفات الكمال فقال:
{عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}

هو العالم بما غاب عن خلقه من الشاء فلا يرويه ولا يشاهدونه، وبما يرونه ويعملونه، فليس لغيره ثم خلق يستقل به، فتنزه اله عما ينسبه الكافرون إليه من وجود الشريك.

ثم بعد أن يقرر هذه الحقائق يأمر رسله الكريم ان يتوجه إليه، وان لا يجعله قريباً لهؤلاء المشركين، وأن يستعبد به من الشياطين، فلا ثور نفسه، ولا يضيّق صدره بام يقولون:

{قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}

قل: يا رب، إن عاقبتهم وانا أشاهد ذلك فإني أسألك ان لا تجعلني مع القوم الكافرين. والرسول عليه الصلاة والسلام في منجاة من ان يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب، ولكن هذا تعليم له وللمؤمنين ان لا يؤمنوا مكر الظالمين، وان يظلوا أبداً أيقاظاً، يلودون بحمي الله.

روى الإمام أحمد والترمذي «ان النبي ﷺ كان يدعو ويقول:» واذا أردت بقوم فتنة فتوفني غير مفتون «
{وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُزِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ} .

ان الله قادر على ان يحقق ما وعد به الظالمين في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام. ولقد أراه بعض ما وعدهم في غزوة بدر من قتل زعمائهم، وفي غزوة الفتح من النصر العظيم.

ثم أرشده الى ما يفعل بهم إذا لحقه أذاهم، وهو أن يصبر حتى يأتي امر الله:
{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ}

استمر يا محمد في دعوتك، وقابل إساءتهم بالتي هي أحسن، ومن العفو والصبر والتجاوز عن جهلهم. . نحن أعلم بما يصفوننا به، وبما يصفون دعوتك من سوء وافتراء، وسنجازيهم عليه.

روي عن أنس رضي الله عنه: «يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول له: ان كنت كاذباً فإني أسأل الله ان يغفر لك، وان كنت صادقاً فإني أسأل الله ان يغفر لي» .

ولما أدب الله رسوله الكريم بأن يدفع بالحسنى أرشده الى ما يقوى به على ذلك، من الاستعاذة من همزات الشياطين.
{وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ}

وقل أيها الرسول: يا رب، إني ألتجئ إليك من أثر وساوس الشياطين، وإن يبعثوا إلي أعدائك لإيذائي، وإن يكونوا بعيدين عني في جميع أعمالي، ليكون عملي خالصاً لوجهك الكريم.

أخرج الامام أحمد وأبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان رسول الله ﷺ يعلننا كلمات نقولها عند العزم خوف الفزع:» بسم الله، اعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ثم أخبر عما يقوله الكافرون حين قرب الوفاة، ومعاينة المصير من سؤال الرجعة الى الدنيا ليصلحوا ما كانوا أفسدوا حال حياتهم فقال: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}

سوف يستمر هؤلاء المعاندون على كفرهم، حتى إذا حلّ موعد موت أحدهم، ورأى مصيره ندم وقال: يا رب، ردني إلى الدنيا لأعمل عملاً صالحاً فيما قصرت فيه من عبادتك، وما تركت من مالي. ولكن هيأت، فقد فات الأوان، ولن يجاب الى طلبه، وإنما هو كلام يقوله دون فائدة. إن أمامهم حاجزاً بينهم وبين الرجوع الى الدنيا.

قراءات: قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر وحفص: عالم الغيب بالجر. والباقون: عالم الغيب بالرفع، على تقدير هو عالم الغيب.

٢٣.١٣ 101

الصور: بوق ينفخ فيه. لا يستاءلون: لا يسأل بعضهم بعضاً، كل واحد مشغول بنفسه. موازينه: بما فيها من حسنات او سيئات. المفلحون: الفائزون. تلفح وجوههم النار: تحرقها. كالحون: مكشرون عابسون. غلبت علينا شقوتنا: سوء العاقبة، شقاؤنا من كثرة معاصينا. اخسئوا: كلمة زجر، اسكتوا سكوت ذل وهوان. حتى أنسوكم ذكري: حتى أنسوكم عبادتي. {فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ}

إذا جاء موعد البعث دعوناهم الى الخروج من قبورهم بالنفخ في الصور فيقومون مذهولين، لا تنفع أحداً منهم يومئذ قرابة ولا نسب، ولا يسأل بعضهم بعضاً. . . . كل امرئ مشغول بنفسه {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧]. {فَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} وفي ذلك اليوم يكون العمل هو ميزان التقدير، فمن جاء بعمل صالح ربح ميزانه وفاز فوزاً عظيماً، ومن لم يكن له عمل صالح ولا حسنات فقد خف ميزانه وخسر كل شيء وذهب إلى نار جهنم خالداً فيها.

{تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}

يومئذ تحرق النار وجوه الذين خسروا، وهم فيها معبسون مكشرون. نعوذ بالله منهم، ومن سوء المصير. {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَكَنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ}

هنا يعدل الحديث عن اسلوب الحكاية الى الخطاب والمواجهة: لقد كانت آياتي المنزلة تُقرأ عليكم في الدنيا، لكنكم كنتم تكذبون بما فيها فيقولون مقررّين بخطئهم:

{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ}

إننا نعترف إليك يا ربنا بكثرة معاصينا التي أورثتنا الشقاء، وكنا بذلك ضالّين عن طرق الهدى.

ثم يطلبون من الله أن يخرجهم من النار ليعملوا صالحاً: {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} وذلك بعد ان انسد باب التوبة، وانقطع التكليف.

فَيَأْتِيهِمُ الْجَوَابُ الْقَاطِعُ.
 {قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}
 اخرسوا واسكتوا أذلاءً مهانين، ولا تكلموني مطلقاً.
 {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} .
 كيف أرحمكم وأترك عبداً لي آمنوا برسلي والتزموا بما أمرتهم وقدّموا الأعمال الصالحة وكانوا يطلبون الرحمة والغفران في جميع احوالهم!
 ليس من العدالة في شيء ان تكونوا مثلهم في هذا اليوم فلم يكن جرمكم أنكم لم تؤمنوا فحسب، بل إنكم تماديتم في السخرية منهم.
 {فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ}
 لقد بلغ بكم السفه والوقاحة ان تسخروا من الذين آمنوا وتضحكوا منهم حتى شغلكم ذلك عن ذكري وطاعتي.
 ثم بين الله ما جازى به أولئك المستضعفين فقال:
 {إِنِّي جَزَّيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ}
 لقد صبروا فكان جزاؤهم الجنة وفازوا بنعيمها خالدين فيها ابداً.
 قراءات:
 قرأ اهل الكوفة: غلب علينا شقاوتنا. والباقون: شقوتنا بكسر الشين كما هو في المصحف.

٢٣٠١٤ 112

اللبث: الإقامة. العادين: الحفظة الحاسبين لأعمال البشر. فإنما حسابه عند ربه: جزاؤه.
 {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ}
 الله تعالى يعلم كل شيء لكنه يسألهم هنا للتقريع: كما كانت إقامتكم في الدنيا؟ فيقولون لبثنا يوماً او بعض يوم من فاسأل الحفظة العارفين لأعمال العباد.
 {قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}
 إنكم لم تقيموا في الدنيا الا رمقاً قليلاً بالقياس الى ما أنتم مقبلون عليه لو كنتم تحسون التقدير.
 ثم يعود فيعنفهم على تكذيبهم بالآخرة فيقول:
 {الْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}
 أظننتم أننا خلقناكم بغير حكمة، وظننتم انكم لا تبعثون لمجازاتكم؟!
 ثم تنتهي السورة بتقرير القاعدة الأولى للإيمان، وهي التوحيد، وإعلان الخسارة الكبرى للمشركين، في مقابل الفوز والفلاح للمؤمنين كما افتتحت السورة بذلك. ثم بالتوج الى الله في طلب الرحمة والغفران وهو أرحم الراحمين:
 {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}
 العظمة لله وحده، هو مالك الملك كله، لا معبود بحق سواه، وهو رب العرش الكريم.
 وبعد ان ذكر انه الملك الحق، أتبعه ببيان ان من ادعى ان في الكون إلهاً سواه فقد ادعى باطلا لا دليل عليه فقال:
 {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}
 افتتحت السورة بفلاح المؤمنين، وختمت بخيبة الكافرين. . . ومن يعبد مع الله آلهة أخرى لا دليل على صحة الوهيته، يعاقبه الله على شركه، وان الكافرين لا يفلحون. وهنا يتناسق مطلع السورة مع ختامها، نسأل الله تعالى حسن الختام.

{وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} gt;
وقل أيها النبي بالختام داعياً الله ضارعاً إليه: يا رب اغفر لي ذنبي وارحمي وارحم عبادك. فأنت خير الراحمين.

٢٤ النور

٢٤٠١ 1

السورة: المنزلة الرفيعة، الفضل والشرف، العلامة. فرضناها: اوجبنا العمل بها. يرمون المحصنات: يقذفون العفيفات بالزنا.
{سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} .

هذه سورة أوجبنا بها وأوجبنا أحكامها، وأنزلنا فيها دلائل واضحة على قدرة الله ووحدانيته، لعلكم تتعظون فتعملون بهذه التعاليم الإلهية.
{الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} .

تبين هذه الآية الكريمة حد الزاني غير المتزوج والزانية غير المتزوجة اذا ثبت عليهما ذلك بإقرارهما او بشهادة أربعة شهود رأوا ذلك العمل بأعينهم وحلفوا عليه، فلو كانوا ثلاثة شهود لا تثبت الجريمة، ولا يقع الحد. وتنص الآية ان لا ترأف عند تنفيذ الحكم. وتطلب ان يكون ذلك بمشهد من الناس، ليكون في العقاب ردع لغيرهما من الناس. ويزاد على عقاب الجلد ان يغرب الزاني عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، وعند أبي حنيفة أن التغريب عائد الى رأي الإمام ان شاء غرّب وان شاء لم يغرب.
قراءات:

قرأ ابن كثير: رآفة بفتح الهمزة ومدها. والباقون: رآفة باسكان الهمزة. وقرأ ابن كثير وابو عمرو: فرضناها بتشديد الراء اي فصلناها. والباقون: فرضناها بفتح الراء دون تشديد.

أما عقوبة الزاني المتزوج فقد ثبتت بالسنة الشريفة أنها القتل رجماً بالحجارة. وكانت العقوبة في أول الاسلام: للمرأة الحبس في البيت والأذى والتعير، وللرجل الأذى والتعير كما تنص الآية على ذلك من سورة النساء: {وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا} الآيتان ١٥، ١٦. ثم نسخ هذا الحكم بهذه الآية.

فالاسلام جاء ليحافظ على المصالح المعتبرة وهي خمس:

- ١ - المحافظة على النفس.
- ٢ - المحافظة على الدين.
- ٣ - المحافظة على العقل.
- ٤ - المحافظة على المال.
- ٥ - المحافظة على العرض.

فالقتل اعتداء على النفس، والردة اعتداء على الدين، وتعاطي الخمر والمخدرات اعتداء على العقل، والسرقة اعتداء على المال، والزنا اعتداء على العرض.

{الزاني لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} .

روى مجاهد وعطاء وغيرهم من المفسرين أن المهاجرين لما قدموا المدينة كان فيهم فقراء ليس لهم أموال ولا أقارب في المدينة، وكان فيها عدد من النساء بغايا يؤجرون أنفسهن، وهن يومئذ اخصب أهل المدينة عيشاً، وعلى أبوابهن رايات للتعريف عنهن، فرغب في زواجهن رجال من فقراء المسلمين المهاجرين، وقالوا نتزوجهن الى أن يغنينا الله عنهن، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت الآية.

وفي هذه الآية زجرٌ كبير، وإيضاح بأن من يرغب في زواج الزانية فهو زانٍ أو مشرك، والزانية لا يرغب في زواجها الصالحون من الرجال المؤمنين، وهذا النكاح لا يليق بالمؤمنين فهو محرم عليهم.
أما إذا تابت الزانية فيجوز الزواج منها، وكذلك الزاني إذا تاب يجوز أن يتزوج من المؤمنات العفيفات، كما نصّ على ذلك الإمام أحمد رضي الله عنه.

{والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ} .

والذين يتهمون العفيفات من النساء بالزنا، ثم لا يثبتون ذلك بأربعة شهود عدولٍ يشهدون انهم رأوا ذلك بالعين، فعاقبهم بالضرب ثمانية جلدة، ولا تقبلوا شهادتهم على أي شيء مدى الحياة، جزاءً على هذه الفرية الشنيعة. هؤلاء خارجون عن طاعة ربهم، وأصحاب واحدةٍ من الكبائر، الا الذين رجعوا منهم عما قالوا وندموا على ما تكلموا به وتابوا توبةً نصوحاً، فإن الله يتجاوز عنهم ويغفر لهم.

٢٤٠٢ 6

يرمون أزواجهم: يتهمون زوجاتهم بالزنا. يدرأ عنها العذاب: يدفع عنها الحد.
والذين يتهمون زوجاتهم بالزنا، ولا يستطيعون إثباته بأربعة شهود عدول، فإن على الواحد منهم ان يشهد بالله أربع شهادات (يعني اربع مرات) انه صادق في هذا الاتهام، ويقول في المرة الخامسة أن عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين.
وعلى الزوجة إذا لم تعترف بهذا الاتهام ان تقف وتقول أربع مرات: أشهد بالله أن الزوج كاذب في اتهامه إياها بالزنا، وتقول في المرة الخامسة إن عليها غضب الله إن كان زوجها من الصادقين. وهذا يدفع عنها الحد.

وفي هذه الحالة يقضي القاضي بالتفريق بينهما الى الأبد، وتحرم عليه حرمة مؤبدة، ويسقط عنها الحد، وينتفي نسب الولد عن الزوج فلا يرثه، ويبقى الولد ابن الزوجة فقط هي أمه الشرعية، وليس لها مسكن ولا نفقة وليس لها أي حقوق من زوجها.
وهذا التشريع من لطف الله وحكمته، فيه ستر للأعراض، وتهدة للنفوس، واطمئنان للقلوب، وتيسير على الناس.
وقد عقب الله بعد ذلك بقوله الكريم:

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} .

من فضل الله عليكم ورحمته بكم أن شرع لكم هذه الأحكام الميسرة، وإلا لكان وقع بينكم شر عظيم. لقد ستر عليكم، ورفع عنكم الحد باللعان، وإن الله توابٌ حكيم. وجواب لولا محذوف تقديره: لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة.
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: فشهادة أحدهم أربع شهادات برفع العين. والباقون: أربع شهادات بفتح العين. وقرأ نافع ويعقوب: والخامسة أن لعنة الله، وأن غضب الله عليها باسكان النون، ورفع كلمة لعنة. وق {أنافع: وأن غضب الله عيها. وقرأ يعقوب وان غضب الله عليها. والباقون: والخامسة أن لعنة الله. . . . وأن غضب الله، بتشديد ان وفتح لعنة وغضب. وقرأ حفص: والخامسة ان غضب الله عليها بنصب الخامسة. والباقون بالرفع.

٢٤٠٣ 11

الإفك: الافتراء، والفعل أفك يَأفِك مثل ضرب يضرب، وأفك يَأفِك: مثل علم يعلم. وأفك الناس: كذبهم. العصبية: الجماعة. تولى كبره: تحمل معظمه. إفك مبين: كذب ظاهر. لولا: بمعنى هلا. أفضتم فيه: خضتم فيه. اذ تُلَقون بالسنتم: اذ تُلَقون الافك ويتناقله بعضكم عن بعض. بهتان عظيم: كذب محير لفظاعته. تشيع: تنتشر. الفاحشة: الزنا، وكل امر قبيح.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

نزلت هذه الآيات العشر في شأن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حين رماها أهل الافك والبهتان من المنافقين ومن انضم اليهم من بعض المؤمنين بما قالوه من الكذب والافتراء. وكان القصد من ذلك إيذاء الرسول الكريم ﷺ في أحب نسائه اليه، فأُنزل الله تعالى هذه الآيات لبراءتها. وهذا باتفاق المفسرين والرواة من جميع الطوائف والمذاهب الاسلامية إلا من شذ.

وقد روى حديث الافك عدد من العلماء في مقدمتهم البخاري عن السيدة عائشة وابن الزبير؛ وام رومان ام السيدة عائشة؛ وابن عباس وابي هريرة وابي اليسر. كما رواه عدد من التابعين. والحديث طويل من أَراده فليرجع الى صحيح البخاري وسيرة ابن هشام وغيرهما. وخلاصته: ان الرسول الكريم كان إذا اراد سفراً عمل قُرعةً بين زوجاته، فالتى تخرج قرعتها أخذها معه. وفي سنة ست من الهجرة (كما حددها ابن هشام في السيرة) خرج الرسول الى غزوة بني المصطلق وأخذ السيدة عائشة معه. فلما انتهى من الغزوة رجع، تقول السيدة عائشة: «حتى اذا قفلنا ودنونا من المدينة، نزلنا منزلاً. ثم نودي بالرحيل في الليل، فقمْتُ لأقضي حاجة، ومشيتُ حتى جاوزتُ الجيش. فلما قضيتُ شأني أقبلت الى رحلي فلهست صدري فاذا عقدي قد انقطع. فرجعتُ ألتسه. فحبسني ابتغاءه. وجاء الذين توكّلوا بهودجى فاحتملوه ووضعوه على بعيري وهم يحسبون اني فيه لخفي في ذلك الوقت. ورحل الناس. وبعد ان وجدت عقدي جئت الى منزل الجيش فلم أجد أحداً، فجلست في مكاني وأنا أعلم أنهم سوف يفتقدوني ويعودون في طلبي. فبينما أنا جالسة في مكاني غلبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمي قد تخلف عن الجيش، فلما ورأني عرفني، فاستيقظت على صوته وهو يقول: إنا لله وانا اليه راجعون. فخمرت وجهي بجلابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه غير استرجاعه. ثم أناخ راحلته فقمْتُ إليها فركبتها، وانطلق يقود بي الراحلة حتى ادركنا الجيش عند الظهر وهم نزل. وكانوا قد افتقدوني وماج القوم في ذكرى. فبينما الناس كذلك إذ وصلت عندهم.

«وبعد ووصلهم الى المدينة، بدأ الناس يتهمسون: ما بال عائشة تأخرت عن الجيش، وجاءت مع صفوان على بعيره، وصفوان شاب وسم الطلعة مكتمل القوة! وقاد هذه الحركة وتولّى كبرها رأس المنافقين عبد الله بن أبي وبعض المؤمنين سيأتي ذكرهم وعدد من المنافقين.

وبلغ النبي الخبر، واضطرب له. وبعد مدة بلغ السيدة عائشة الخبر. وهاج الناس وماجوا واضطربت المدينة لهذا الخبر، وبقيت كذلك مدة شهر إلى ان نزلت هذه الآيات تبرئ السيدة عائشة وتحسم الموضوع حسماً كاملاً.

ان الذين اتهموا عائشة أم المؤمنين بالزنا هم جماعة من كبار الكذابين المفتريين، وهم من المنافقين الموجودين بينكم، لا تظنوا هذه الحادثة شراً لكم بل هي خير لكم، لأنها ميزت المنافقين من المؤمنين، وظهرت كرامة المبرئين منها، ولكل امرئ منهم جزاؤه على مقدار اشتراكه في هذه الجريمة.

{تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}

ورأس الكفر والمنافقين عبد الله بن أبي هو الذي قاد هذه الحركة وتولى معظمها - له يوم القيامة عذاب عظيم. وقد انساق معه بعض المؤمنين منهم حسان بن ثابت ومسطح بن ائاثة وهو أقارب ابي بكر الصديق، وحننة بنت جحش أخت زينب أم المؤمنين. ولما نزل آية البراءة أمر رسول الله ﷺ بجلدهم.

{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ} .

كان مقتضى الإيمان ان تظنوا بمن اتهم خيراً عند سماع هذه التهمة، وكان عليكم ان تقولوا هذا كذب واضح لا يصدق.

ثم علل لسحبانه كذب الآفكين ووبخهم على ما اختلقوه واذاعوه فقال:
 {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ}
 هلاً جاء الخائضون في الإفك بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوه، فإن لم يستطيعوا فهم الكاذبون فيما اتهموا به عائشة.
 {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}
 ولولا فضل الله عليكم ببيان الأحكام، ورحمته لكم في الدنيا بعدم التعجيب بالعقاب، وفي الآخرة بالمغفرة - لنزل بكم عذاب عظيم على هذه التهمة الشنيعة.
 {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} .
 فقد تناقلتم هذه التهمة بألسنتكم وأشعتموها بينكم، وتخوضون فيما لم يكن لكم علم بصحته، وتحسبون ان هذا الأمر هين بسيط لا يعاقب الله عليه، مع أنه أمر خطير عظيم يعاقب عليه الله اشد العقاب.
 {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}
 كان عليكم أن تقولوا حين سمعتموه: إن هذا كذب واختلاق كبير، وأن تنصحو بعدم الخوض فيه. . . . لأنه غير لائق بكم، وأن تقولوا متعجبين من هول هذه الفرية: سبحانك يا رب، نحن ننزهك، إن هذا كذب عظيم.
 ثم حذر الله المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا فقال:
 {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}
 يعظكم الله بهذه المواظ ونبهاكم ان تعودوا لمثل هذه المعصية ابدًا، ان كنتم مؤمنين حقًا، لأن هذه الأعمال تنافي مع الإيمان الصادق.
 {وَيَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْأَحْكَامِ وَمَحَاسِنِ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ، وَاللَّهُ وَاسِعُ الْعِلْمِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي كُلِّ مَا يَشْرَعُ وَيَخْلُقُ} .
 {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} .
 ان الذين يحبون ان يفسوا القبايح ويتهمون بها المؤمنات لهم عذاب مؤلم في الدنيا بالعقوبة المقررة، وفي الآخرة بالنار، والله عليم بجميع أحوالكم وأنتم لا تعلمون ما يعلمه.
 {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم، لما بين لكم الأحكام ولعجل عقوبتكم في الدنيا وكنتم من الهالكين.

٢٤٠٤ 21

خُطُوات: بضم الخاء والطاء، واحداثها خطوة: المسافة ما بين الرجلين في المشي، والمقصود: وساوس الشيطان. لا يأتلي: لا يحلف.
 اولو الفضل: الاغنياء. المحصنات: العفيفات. الغافلات: سليمان الصدور، اللاتي لا يفكرون في السوء. دينهم الحق: جزاءهم الثابت.
 ان الله هو الحق: ان الله هو الموجود الظاهر الذي بقدرته وجود كل شيء ويبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا.
 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ}

يا أيها الذين آمنوا، لا تسلكوا سبل الشيطان، بل احذروا وساوسه التي تجرّكم الى شاعة الفاحشة والمعاصي بينكم. ومن يتبع الشيطان فقد عصي. . . . لأنه يأمر بكبائر الذنوب. ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ببيان الأحكام - ما طهر أحد منكم من ذنوبه ابدًا،

ولكن الله يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبته، والله سميع لما تقولون، عليم بما في قلوبكم.
{وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

كان أبو بكر الصديق ينفق على مسطح بن أثاثه ابن خالته، وهو صحابي بدرى من المهاجرين الفقراء، ولكن هذا كان من المخائضين في حديث الإفك، فحلف أبو بكر ان يقطع النفقة عنه، فنزلت هذه الآية:
لا يحلف أصحاب الفضل من الأغنياء منكم الامتناع عن الإنفاق على أقاربهم من المساكين والمهاجرين ولو أسأوا اليهم، بل عليهم ان يسامحهم ويصفحوا عنهم. ألا تحبون أن يسر الله عليكم ويغفر لكم ذنوبكم!! إن الله غفور لذنوب من أطاعه رحيم به. فاستغفر أبو بكر ربه وأعاد النفقة على مسح.

{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}
ان الذين يتهمون المؤمنات المتزوجات الشريفات الغافلات عن كل سوء عليهم لعنة الله والطرْد من رحمته في الدنيا، ولهم عذاب عظيم في الآخرة.

{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} .
في ذلك اليوم العظيم لا يحتاج الله شهوداً، لأن جوارح الانسان تشهد عليه بما كان يعمل. . . . الله تعالى يجعلها تنطق بالحق. وعند ذلك يحاسبهم الله حساباً دقيقاً ويجزيهم على ما عملوا جزاء الحق والعدل. عندئذ يعلمون أن ما وعدهم الله هو الحق الذي لا شك فيه ولا ريب.

٢٤٠٥ 26

تستأنسوا: تستأذنوا، لأن الاستئذان يحصل به الأئس لأهل البيت. تذكرون: تتعظون. أركى: اطهر. جناح. حرج. المتاع: كل ما ينتفع به من طعام وأثاث ومال.
{الْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثِينَ . . . الآية} .

في هذه الآية تأكيد على نفي الريبة عن السيدة عائشة بأجلى وضوح، فقد جرت سنة الله في خلقه على مشاكلة الاخلاق والصفات بين الزوجين، فالطيبات للطيبين والخبثات للخبثين. . . . ورسول الله ﷺ من أطيب الطيبين، وكذلك الصديقة عائشة يجب ان تكون من اطيب الطيبات على مقتضى المنطق السليم.
{أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ . . .} .

مبؤون من التهم التي يلصقها بها المنافقون، وقد من الله عليهم بالغفران وورزق كريم عند ربهم في جنات النعيم.
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ . . . الآيات}

في هذه الآيات الثلاثة بين الله تعالى حكم دخول المرء بيت غيره، وانه لا يجوز لأي انسان ان يدخل بيت غيره الا بعد الاستئذان، فعلى المؤمنين ان لا يدخلوا بيوت غيرهم الا بعد ان يستأذنوا ويسألوا على أهلها. فإن لم يجدوا فيها أحداً فلا يجوز لهم ان يدخلوها، وان قيل لهم ارجعوا لأننا مشغولون لا نستطيع استقبالكم فيعلمهم ان يرجعوا، فان ذلك من فضائل الأخلاق، وحسن المعاشرة، وهو أركى لهم وأطهر.

ولا بأس ان يدخل المرء بيتاً وضع فيه حاجاته ومتاعه، ان كان غير مسكون، وله ان يدخله دون اذن، والله يعلم ما يُظهره الانسان وما يخفيه فليتيق الله وليراقب نفسه.

يغضوا من أبصارهم: يكفونها عن المحرمات ويخفضونها. الخمر: جمع نحر وهو ما تغطي به المرأة رأسها. الجيوب: واحدها جيب، وهو فتحة في أعلى القميص. البعولة: الأزواج، واحدها بعل. الإربة: الحاجة إلى النساء، يقال أرب الرجل إلى لاشيء إذا احتاج إليه، والاربة والأرب بفتح الهمزة والراء، والمأربة بفتح الراء بمعنى واحد. الطفل: يطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ويجوز أن يقال طفل وطفلة واطفال وطفلات، ويقال له طفل حتى يبلغ. لم يظهرها على عورات النساء: لم يبلغوا حد الشهوة ولا يدرون ما هي.

{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ. . .}

في هاتين الآيتين تعليم لنا وتهذيب لأخلاقنا، لأن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع سليم نظيف، وذلك بالحيولة دون استثارة المشاعر، وابقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليماً. ذلك أن الميل الفطري بين الرجل والمرأة ميل عميق في التكوين الحيوي، لأن الله قد أناط به امتداد الحياة على هذه الأرض. والله سبحانه يرشدنا إلى أرقى الاخلاق وأسماها لنعيش في أمن وسلام.

قل أيها الرسول للمؤمنين: كفوا أبصاركم عما حرم الله عليكم من عورات النساء ومواطن الزينة منهن، واحفظوا أنفسكم من عمل الفاحشة. ان ذلك الأدب أكرم بكم واطهر وأبعد عن الوقوع في المعصية. {إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} فلا يخفى عليه شيء مما يصدر منهم من الافعال.

وبعد ان أمر المؤمنين بغض أبصارهم - أمر المؤمنات كذلك. فقل يا أيها النبي للمؤمنات: عليهن ان يحفظن أبصارهن فلا ينظرن إلى المحرم من الرجال. ويحفظن أنفسهن من الوقوع في الزنا وفتنة الغير. وذلك بستر أجاسهن ما عدا الوجه والكفين. وهذا معنى قوله تعالى: {وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} .

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى تخفاء بعض مواضعها فقال:

{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}

وليضعن الخمار على رؤوسهن ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وصدورهن.

{وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ. . .}

لا يحل لهن ان يظهرن شيئاً من اجسامهن الا لأزواجهن والاقارب الذين يحرم عليهن التزوج منهم تحريماً مؤبداً مثل آبائهن أو آباء أزواجهن، أو أبائهن، أو أبناء أزواجهن من زوجات سابقات، أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو ما ملكت إيمانهن من الأرقاء، أو من يشتغل عندهن من المسنين الذي ماتت شهواتهم والاطفال الذين لم يبلغوا سن البلوغ.

ثم نهى الله عن إظهار وسوة الحلي وما يثير الشهوة فقال:

{وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}

اطلب منهن أيها الرسول ان لا يفعلن شيئاً يجلب أنظار الرجال إلى ما خفي من الزينة، وكل ما يثير الفتنة من المشي غير المعتاد.

{وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

ارجعوا إلى الله وإلى طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه من عادات الجاهلية، والتزموا آداب هذا الدين القويم لتسعدوا في دنياكم وأخراكم. قراءات:

قرأ ابن عامر وابو بكر: غير أولي الإربة، بنصب غير. والباقون: غير بالجر كما هو في المصحف.

الأيامى: واحداهم أيم، وهو غير المتزوج رجلاً كان أو امرأة، بكراً أو ثيباً. يقال: أم الرجل وآمت المرأة إذا لم يتزوجا. من عبادكم: من عبيدكم. الإماء: جمع أمة وهي المملوكة.

والذين يبتغون الكتاب: المكاتبه وهي ان يكتب العبدُ سيده على مبلغ من الماء اذا اداه اليه يصبح حراً. الفتيات: الاماء. البغاء: الزنا. التحصن: العفة. مبيّنات: مفصلات لكل ما تحتاجون.

{وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} .

وزوجوا من لم يتزوج من رجالكم ونسائكم، وأعينوهم على الزواج، حتى لا يقعوا في المعصية، ويسروا الزواج بقدر ما تستطيعون من تقليل المهور، والمساعدة بكل الوسائل.

وأعينوا الصالحين من عبيدكم وإمائكم على الزواج ليتحصنوا أو يعفوا. ولا تنظروا الى فقر من يخطب أو فقر من تريدون زواجهما، ففي فضل الله ما يغنيهم، والله ذو سعة عليم بكل شيء.

{وَلَيْسَتَعْفَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}

اما الذين لا يجدون القدرة على ثنونات الزواج فعليهم أن يصبروا ويسلكوا طرق العفة وينتظروا حتى يغنيهم الله من فضله. وقد ورد في الحديث الصحيح ان النبي ﷺ قال «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»

الباءة: النكاح ومؤنته. وجاء: الخصاص، يعني انه يعين على نسيان النكاح.

وفي الحديث الصحيح: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» أخرجه الترمذي والنسائي.

{وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}

هنا يحث الله تعالى على تيسير تحرير الرقيق. . . . فكل عبد أو عبدة تريد التحرر وتكتب سيدها على مبلغ من المال - على المؤمنين ان يساعدوها في ذلك ويسهلوا لهما طريق الحرية من العبودية. وهكذا كان الاسلام أول من شرع تحرير الرقيق، وقد انتهى نظام الرق الآن.

ثم حث الله المؤمنين جميعاً على تحرير الرقاب فقال:

{وَاتَوْهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}

وعلى جميع المسلمين أن يساعدوا أولئك الذين يريدون التحرر فدفّع ما يستطيعون من الأموال لهم حتى يتم تحريرهم.

ثم نهى المؤمنين عن السعي في جمع المال من الطرق غير المشروعة فقال:

{وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

كان من عادات الجاهلية ان الرجل يكون عنده غمء فيكرههن على البغاء حتى يكسبن له المال، ليأخذ أجورهن. وكانت هذه العادة فاشية فيهم. وقد اشتكت بعض الجواري الى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فأنزل الله هذه الآية ليقطع دابر تلك العادة القبيحة.

{وَمَنْ يُّكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

ومن يكره غمءه على البغاء فإن الله غفور رحيم لهن، والذنب على المكره، وقد وعد المكرهات بالمغفرة بعد الاكراه على عمل لا يد لهن فيه.

{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}

لقد أنزلنا اليكم في هذا القرآن آيات واضحة مبيّنة للأحكام، كما أنزلنا اليكم امثلة من احوال الأمم السابقة، وارشادات ومواعظ للذين يخافون الله وهدى وعزاً لمن تولاه.

المشكاة: الكوة في الحائط غير نافذ يوضع فيها المصباح. الزجاجة: القنديل من الزجاج. دري: مضيء متلألئ نسبةً الى الدر. لا شرقية ولا غربية: يعني في مكان متوسط، لا شرقية فتُحرم حرارة الشمس آخر النهار، ولا غربية فتُحرمها أول النهار. الغدو: جمع غدوة: الصباح. الآصال: جمع أصيل، وهو المساء.

{الله نور السماوات والأرض. . .}

الله مصدرُ النور في هذا الكون، فهو منورُ السماوات والأرضِ بكل نورٍ حسيّ نراه ونسير فيه، وبكل نورٍ معنويّ كنور الحق والعدل، والعلم والفضيلة، والهدى والایمان. إن مثلَ نوره الباهر في الوضوح كمثل نور مصباح شديد التوهج، وُضع في فجوة من حائط يشعّ نوره، وقد وُضع المصباح في زجاجة يتلأأ نورها كالدر (والعربُ تسمي النجومَ العظامَ الدَّارِي) ، ويستمدّ هذا المصباح وقوده من زيت شجرة مباركة طيبة التربة والموقع، زيتونة مغروسة في مكان معتدل لا يسترها عن الشمس في وقتِ النهار شيء، فهي شرقية غربية، تصيبها الشمسُ بالغداة والعشي، يكاد زيت هذه الشجرة لشدة صفائه يضيء ولو لم تمسه نار المصباح.

{نور على نور}

نور مترادف متضاعف تجتمع فيه نور المشكاة والزجاج والمصباح والزيت، وفق ذلك كله نور رب العالمين بهديه الناس الى الصراط المستقيم.

{يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

وهكذا، تكون الشواهد المبنية في هذا الكون، الحسي منها والمعنوي، آيات واضحة لا تدع مجالاً للشك في وجود الله، والله يوفق من يشاء الى الإيمان، إذا حاول الانتفاع بنور عقله. وهو يأتي بالأمثلة المحسوسة ليسهل على الناس إدراكها، ولما فيها من الفوائد والنصح والارشاد. وهو سبحانه واسع العلم، محيط بكل شيء، يعطي هدايته من يستحقها ممن صفت نفوسهم واستعدوا لتلقي احكام الدين وآدابه.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص: دُرِّي بضم الدال وتشديد الراء بدون همز. وقرأ ابو عمرو والكسائي: دريء بكسر الدال والهمزة. وقرأ حمزة وعاصم: دُرِّي بضم الدال وتشديد الراء وبالهمزة المضمومة في آخره.

وقرأ ابن كثير وابو عمرو: تَوَقَّدَ بفتح التاء والقاف المشددة وفتح الدال على انه فعل ماض. وقرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي: يُوَقَّدُ فعل مضارع بضم الياء وفتح القاف وضم الدال فعل مضارع مبني للمجهول كما هو في المصحف. وقرأ حمزة وأبو بكر: تَوَقَّدَ بضم التاء والدال.

{فِي بُيُوتِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ. . .} الآية.

ذلك النور المشع في السموات والأرض يتجلى في بيوت الله (وهي المساجد) التي تتصل فيها القلوب بالله.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: المساجدُ بيوت الله في الأرض، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الارض. أمر الله ان تبني وتعظم وتعمّر بذكر الله من رجال لا تشغلهم الدنيا وزخرفها ولا يبيعوهم وتجارتهم عن ذكر الله. فهم يعملون للدنيا في الأسواق والحقول والمصانع، ويعملون للآخرة فيؤدون جميع فروضهم وواجباتهم، فلا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولا الآخرة عن الدنيا. وهم مع هذا يخافون هول يوم القيامة لاذي تضطرب الأفتدة من شدته، وتشخص فيه القلوب والأبصار في حيرة ودهشة. والله تعالى مع كل ذلك يطمئن المؤمنين ويبين مآل أمرهم وحسن عاقبتهم بقوله:

{لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}

إنها بشرى عظيمة للذين آمنوا واحسنوا، فانه بعد أن يجزيهم أحسن ما عملوا يزيدهم من فضله. {والله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ما أحسن هذه البشرى وما اعظم فضل الله.

قراءات:

قرأ ابن عامر وابو بكر: يسبح بضم الياء وفتح الباء. والباقون: يسبح بضم الياء وكسر الباء.

٢٤.٩ 39

السراب: ظاهرة ضوئية سببها انعكاس الشعاع من الأرض عندما تشتد حرارة لاشمس فيظنه الانسان ماء يجري ويتلأأ على وجه الأرض، وما هو الا وهم لا حقيقة فيه. القيعه: مكان منبسط من الأرض لا نبات فيه ويقال لها القاع ايضاً. لُجِّي: اللج معظم الماء حيث لا يدرك قعره، وبحر لحي: عميق. يغشاه: يغطيه. لم يكدرها: تصعب رؤيتها. صافات: باسطة اجنحتها في الهواء. المصير: المرجع.

{والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ . . .}

في هاتين الآيتين بين الله في مقابل ذلك النور المتجلي في السموات والأرض، المشع في بيوت الله والمشرق في قلوب المؤمنين - مجالاً مظلم لا نور فيه، مخيفاً لا أمن فيه، ضائعاً لا خير فيه. . . . ذلك هو حال الذين كفروا. فمثل أعمالهم في بطلانها وعدم جدواها كمثل السراب الذي يراه الظمان في الفلاة في شدة حرارة الشمس فيسرع إليه، حتى إذا وصله لم يجد الماء الذي رجا ان يشرب منه. . . {وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} يعني ان كل ما عمله هذا الجاحد من أعمال خير تذهب هباء منثوراً، وفي يوم القيامة يحاسبه الله ويفيه جزاءه وعقابه. فلا يستفيد من أعماله شيئاً، لأنه لم يؤمن بالله والبعث والجزاء. وكما قال تعالى: {وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ جَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣]

{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ . . .}

وهذه صورة أخرى من صور حال الكفار الجاحدين. فأعمال الكافرين في الدنيا كمثل السراب الذي ليس بشيء، او كهذه الظلمات في البحر العميق، تتلاطم امواجه ويتراكم بعضها فوق بعض. ومن فوق ذلك كله سحب كثيف مظلم لو رفع الإنسان يده الى وجهه لما رآها من شدة الظلام. ان قلوب الكافرين وأعمالهم مثل هذه الظلمات المتراكمة تراكت عليها الضلالات، فهي مظلمة، في صدور مظلمة، في اجساد مظلمة.

ولقد جمع الله تعالى في هذا الوصف بين الليل المظلم، وتراكب الأمواج في البحر بعضها فوق بعض، ومن فوقها السحاب الكثيف. . . وهذا أشد ما يكون من الظلمات.

وتجمع هذه الآية الكريمة أهم ظواهر عواصف المحيطات العظيمة. وهذا من أكبر الأدلة على ان القرآن من عند الله، لأن الرسول الكريم لم يركب المحيطات وكان يعيش في بلاد صحراوية. . . . فرود هذه الدقائق العلمية دليل على أنها وحي من عند الله. {وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ}

ومن لم يوفقه الله لنور الإيمان، فليس له نور يهديه الى الخير، ويدله على الصراط المستقيم.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}

ألم تعلم ايها النبي أن جميع من في هذا الكون يسبح بحمد الله تعالى، وان تسبيح كل صنف يختلف باختلاف صفاته وخصائصه، وكل يسبح بدلالة وجوده وصورته وأحكامه على وجود المصور الحكيم، فالعاقل يسبح بلسان المقال، وغيره يسبح بلسان الحال، والطير صافات باسطة أجنحتها في الفضاء تسبح الله وتحمده بلغات لا نعملها.

واعلم أن هذا الوجود كله حي، ولا معنى للوجود بغير حياة، وإن الحياة على مقدار إشراق الأنوار العلوية على المخلوقات، فلإنسان وللحيوان وللنبات حياة، أي إن هناك نوعاً من الشعور. وهكذا الجماد له نوع من الشعور لا ندركه. وكل هذه المخلوقات تسبح بحمده تعالى.

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}

والله تعالى هو مالك هذا الكون ومن فيه وصاحب السلطان عليهم، وكلهم راجع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء.

٢٤.١٠ 43

يزجي: يسوق برفق. يؤلف بينه: يجمع بين أجزائه وقطعه. ركاماً: متراكماً بعضه فوق بعض. الودق: المطر. من خلاله: من بينه. من جبال: من قطع عظام تشبه الجبال.

سنا برقه: ضوء برقه. يذهب بالأبصار: يخطفها لشدة بريقه ولمعانه. يقلب الليل والنهار: يتصرف فيهما طويلاً وقصراً. لأولي الأبصار: لأهل العقول والبصائر.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزِجِي سَحَابًا...}

في هذه الآية والتي تليها دلالة على قدرة الله ووحدانيته. . . . انظر أيها الرسول الكريم السحاب يسوقه الريح بقدرة الله أول ما ينشئه، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه، ثم يجعل بعضه متراكماً فوق بعض، فترى المطر يخرج من خلاله. والله ينزل من مجموعات السحب المتراكمة التي تشبه الجبال في عظمها برذاً ينزل على قوم فينفعهم أو يضرهم تبعاً لقوانينه وإرادته، ولا ينزل على آخرين كما يريد الله. وانظر إلى ما في هذه السحاب من برق يضيء بشدة وسرعة حتى يكاد يخطف الأبصار، كما في قوله تعالى: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} [البقرة: ٢٠].

وهذه الظواهر من أقوى الدلائل على قدرة الله، وكل من ركب الطائرة يعرف التشابه بين السحب والجبال، فانه يراها متراكمة كأنها الجبال والآكام، وهذا من الأدلة الباهرة على إعجاز القرآن الكريم. ولم تعرف هذه الصورة إلا بعد وجود الطائرات التي ترفع الإنسان فوق السحب فيراها على حقيقتها كما وصفت في القرآن.

{يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}

انظر أيضاً إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبها بزيادة أحدهما ونقص الآخر، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة. . . . إن في ذلك كله عبرة لذوي العقول السليمة، وعظة لكل من ينظر ويتأمل.

{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ...}

والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من الماء، وكما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: ٣٠]. ثم بين أقسام هذا الحيوان، فمنهم من يمشي على بطنه كالزواحف، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطيور، ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام والوحوش. {وَيَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} من الحشرات التي تمشي على أكثر من أربع أرجل، وغير ذلك على اختلاف أنواعها.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

إن الله على إحداث ذلك وخلق ما يشاء لذو قدرة، لا يتعذر عليها شيء فالماء هو أصل الإنسان، وجسم الإنسان معظمه من الماء إذ يحتوي على نحو ٧٠

{لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}

لقد أنزلنا عليك يا محمد دلائل واضحة تبين الأحكام والعظات، والله يوفق إلى الخير من يشاء من عباده، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: والله خالق كل دابة. والباقون: والله خلق كل دابة.

٢٤.١١ 47

يتولى: يعرض ولا يطيع. مذعنين: منقادين. أفي قلوبهم مرض: فسادٌ وبغضٌ يحملهم على الضلال. ارتابوا: شكوا. يحيف: يجور. جهد أيمانهم: أقصى غايتها. فان تولوا: فان ثولوا بحذف التاء، أصله ثولوا. الحديث في هذه الآيات الكريمة عن المنافقين الذي يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فيقولون: آمنا بالله والرسول وأطعنا وأمرهما، ثم يفعلون ضد ما يقولون، فهو لاء ليسوا بمؤمنين. فاذا طلبوا الى التحاكم أمام رسول الله فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا ان يحكم عليهم. اما اذا عرفوا الحق في جانبهم فإنهم يأتون الى الرسول مسرعين ليحكم بينهم. لماذا يقفون هذا المقوف، هل هم مرضى القلوب بالكفر والنفاق؟ أم يشكّون في عدالة الرسول الكريم؟ ام يخافون ان يجور عليهم الله ورسوله؟

كل هذا لم يحصل، بل هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم بسبب كفرهم ونفاقهم وعدولهم عن الحق. وبعد ان نفى عن المنافقين الإيمان الحق بين صفات المؤمنين فقال: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} . فأما المؤمنون حقاً الصادقون فعلاً فإنهم إذا طلبوا الى التحاكم بمقتضى ما جاء عن الله الى رسوله قالوا مطيعين: سمعنا وأطعنا الأمر، وأولئك هم المفلحون.

ومن يطع الله ورسوله فيما أمرا به وترك ما نهيا عنه، وخشي الله وغيظه - فأولئك هم الفائزون في الدنيا والآخرة. ثم بعد المقابلة بين المنافقين والمؤمنين يعود لاستكمال الحديث عن المنافقين: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ يَخْبِرُ بِمَا تَعْمَلُونَ} أقسم المنافقون بالإيمان المغلظة لئن أمرتهم يا محمد بالخروج إلى الجهاد معك ليخرجون، قل لهم: لا تحلفوا، إن طاعتكم معروفة لنا، فهي طاعة باللسان فحسب، والله تعالى خبير لا تخفى عليه خافية من أعمالكم فلا يحتاج الى حلف او توكيد. {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ. . .} .

قل لهم ايها الرسول: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول طاعة صادقة، فإن أعرضوا ولم يمتثلوا، فإنما على الرسول ما حمّله الله من أمر التبليغ، وعليكم ما حمّلكم من التكليف والطاعة. إنكم ان تطيعوا الرسول تهتدوا الى الخير، وما عليه الا التبليغ الواضح. قراءات:

قرأ حفص: «يتقه» باسكان القاف، والباقون: «يتقه» بكسر القاف والهاء. قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي: ويتقهي بكسر القاف ومد الهاء.

٢٤.١٢ 55

ليستخلفنهم: يجعلهم خلفاء في الحكم على هذه الارض. ويمكنن لهم دينهم: يثبت لهم الاسلام الذي ارتضاه لهم ديناً. {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. . .} وعد الله المؤمنين الصادقين في إيمانهم العاملين المجاهدين لجعل الاسلام هو الحاكم في الأرض - أن ينصرهم ويجعلهم حكام الأرض، كما فعل مع المؤمنين الذين سبقوهم. كما وعدهم ان يريخ دعائم دينهم الذي ارتضاه لهم، وان يبذل حالهم من الخوف الذي عاشوا فيه

عند بداية الإسلام الى أمن واستقرار وعز، وبشرط ان يعبدوا الله وحده.

وقد تحقق هذا الوعد لأسلافنا، وهو قائم الى الأبد إذا نحن أقمنا على شرط الله بأن نصدق في إيماننا، ونسير على منهاج ديننا. ان وعد الله حق قائم وشرط الله حق معروف،

ومن أوفى بعهده من الله.؟!

والذين كفروا بعد هذا الوعد الصادق، هم الخارجون المتمردون، وحسابهم على الله.

{وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. . . }

وبعد الوعد الصادق للمؤمنين بالنصر واستخلاصهم في الأرض يأتي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن طيب خاطر لمستحقها، واطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام في سائر ما أمرنا الله به حتى يكون لنا رجاء في رحمته ورضوانه.

ثم بين الله بعد ذلك أن الكافرين لا قيمة لهم، وانه سيحل بهم العذاب، ولا يجدون مهرباً مما أوعدهم به ربهم، وأن مصيرهم النار وبئس القرار.

قراءات

قرأ أبو بكر: كما استخلف، بضم التاء وكسر اللام. والباقون: كما استخلف بفتح التاء واللام. وقرأ ابن عامر وحمة: لا يحسن بالياء. والباقون: لا تحسن بالتاء. وقرأ ابن كثير وابو بكر: وليبدلهم باسكان النون. والباقون: وليبدلهم بالتشديد.

٢٤٠١٣ 58

ما ملكت إيمانكم: العبيد والاماء. الحلم: بضم اللام وسكونها، البلوغ. تضعون ثيابكم: تخلعونها. الظهيرة: وقت اشتداد الحر عند منتصف النهار. العورة من الجسم: كل ما يستحي الانسان ان يظهره من جسمه. ثلاث عورات: ثلاث مرات في الاوقات التي تستريحون فيها. جناح، بضم الجيم: اثم. طوفون عليكم: يطوفون لخدمته والمخالطة. القواعد من النساء: العجائز الكبار في السن. لا يرجون نكاحا: لا يطمعون بالزواج. التبرج: اظهار المحاسن.

في هذه الآيات توجيه للمؤمنين وتربية وتعليم إلى اللياقة الاجتماعية في محيط الأسرة، وذلك أن اندماج الخدم والصبيان في أسرهم قد يتجاوز بهم الاحتشام في المخالطة فيدخلون على الكبار دون استئذان في هذه الاوقات الثلاثة المذكورة في الآية. وظراً لأنها أوقات خلوة وحرية شخصية ويتخلل الانسان فيها من لباس الحشمة، جاء القرآن الكريم بتشريع الاستئذان في تلك الاوقات بالنسبة لمن ذكرتهم من الهدم والصبيان حتى لا يطلعوا على ما يعتبر سراً لا يستساغ إطلاعهم عليه، إذ هو كالعورة التي ينبغي سترها.

وفي هذا توجيه لأعضاء الأسرة المؤمنة الى اتخاذ الملابس اللائقة لمقابلة بعضهم البعض، حتى تظل كرامتهم مصونة، وحريةهم مكفولة وأدابهم مرعية، فالقرآن الكريم جاء ليعلمنا ويوجهنا الى الخير وفضائل الاخلاق وحسن المعاشرة.

وكان الخدم والصبيان والعبيد قبل هذا يدخلون على بعضهم دون استئذان. وهناك روايات عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأسماء بنت مرثد وغيرهما ان بعض الخدم دخل عليهم في بعض هذه الاوقات فتأذوا من ذلك فنزلت هذه الآيات، وهناك احاديث كثيرة في هذا الموضع.

بين الله تعالى في هذه الآيات ان على الاطفال والخدم ان يستأذنوا للدخول على الكبار في ثلاثة اوقات من اليوم هي: قبل الفجر، وعند الاستراحة وقت الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء. وفيما عدا ذلك يمكن ان يدخلوا دون اذن.

أما اذا بلغ الاطفال سن البلوغ فعليهم ان يستأذنوا كما يفعل الكبار على كل حال. واما النساء الكبار في السن اللاتي لا مطمع لهن في الزواج، فلا جناح عليهن اذا تحللن من بعض الملابس في بيوتهن، واذا تعفن باللباس الساتر فانه خير لهن، والله سميع بما يجري بين الناس، عليم بمقاصدهم لا تخفى عليه خافية.

قراءات:

قرأ الجمهورك ثلاث عورات بضم الثاء، وقرأ أبو بكر وحمة والكسائي: ثلاث عورات بفتح الثاء.

٢٤٠١٤ 61

الحرج: الضيق، ومعناه هنا الإثم. ما ملكتم مفاتيحه: ما كان تحت تصرفكم. الصديق: يطلق على الواحد والجمع. جميعا: مجتمعين. اشتاتا: متفرقين.

في هذه الآية الكريمة توجيه للمؤمنين لتنظيم العلاقات والمعاشرة والمخالطة بين الأقارب والاصدقاء، فقد سمح الله للمؤمنين أن يأكلوا مع أصحاب العاهات من عُمِّيٍّ وعُرجٍ ومرضى من هذه البيوت التي سماها، يدخلونها مجتمعين او متفرقين. وعليهم إن ارادوا دخولها ان يسلبوا على أهلها إن كانوا موجودين، او يسلبوا على انفسهم ان لم يكن في البيت احد. وهذه التحية تحية مشروعة مباركة، بها تطيب النفوس. وعلى هذا النحو يوضح الله لنا آياته لعلنا نعقلها وتفهم ما فيها من الأحكام والعظات لنعمل بها، ونعم الأدب والمؤدب.

٢٤٠١٥ 62

امر جامع: امر هام يستدعي ان يجتمع الناس عليه للتشاور والتداول. لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضا: لا تتادوا الرسول باسمه: يا محمد، بل عظموه وقولوا: يا رسول الله. يستلون منكم. . .: يخرجون خفية. لو اذا: متسترين يلوذ بعضهم في بعض. يخالفون عن امره: يخرجون عن طاعته.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. . .}

كما أمر الله تعالى المؤمنين بالاستئذان عند الدخول - أمرهم هنا بالاستئذان عند الخروج، وفي هذا تعليم وتأديب لنا جميعا. ان المؤمنين حقاً اذا كانوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام في امر مهم من أمور المسلمين، كتشاور في أمر الحرب، او ما ينفع المسلمين - فلا يحق لهم ان ينصرفوا الا بعد استئذانه ومشورته، فمن التزم بهذا فهو من المؤمنين الكاملين، ويحق للرسول أن يأذن لمن يشاء منهم كما تقتضي المصلحة التي اجتمعوا عليها، ويستغفر للمستأذنين.

فقد حدث حين بدأ المسلمون بحفر الخندق عندما غزتهم قريش ومن معها من العرب - وكان في مقدمتهم الرسول الكريم - أن بعض المنافقين أخذوا يتسللون من ذلك المكان ويذهبون الى أهلهم، اما المؤمنون فقد ثبتوا معه، وكان من يريد ان يذهب الى قضاء حاجة يستأذن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فإن قضى حاجته عاد إلى مكانه وعمله.

{لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا.}

وعندما تخاطبون الرسول الكريم فلا تتادوه باسمه: «يا محمد» مثلاً، أو يا أبا القاسم، وإنما خاطبوه بيا أيها الرسول، واحترموه غاية الاحترام، باللين من القول وخفض الجناح.

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا}

والله تعالى يعلم علم اليقين الذين ينصرفون متسللين بدون إذن حتى لا يراهم الرسول، فليحذر الذين يخالفون أمر الله أن يصيبهم بلاء من الله او عذاب أليم.

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. . .}

واعلموا أيها الناس أن هذا الكون وما فيه ملك لله وحده لا شريك له، ويعلم كل ما تعلمون، وسترجعون عليه فينبئكم بكل ما عملتموه من خير او شر، وسيجازيكم عليه، والله بكل شيء عليم.

وهكذا ختمت السورة بتعليق القلوب والابصار بالله، وتذكيرها بخشيته وتقواه، والحمد لله أولاً وآخراً، ونسأله التمام على خير.

تبارك: عظمت بركتته، والبركة كثرة الخير لعباده بإنعامه عليهم. الفرقان: القرآن، وسمي الفرقان لانه فرق بين الحق والباطل. على عبده: على محمد بن عبد الله ﷺ. الافك: الكذب. اقتراه: اختلقه. فقد جاءوا ظلماً: قالوا باطلا. زورا: كذبا. أساطير الاولين: خرافات الأمم السابقة. اكتبها: نقلها عن غيره. تملى عليه: تلقى عليه ليحفظها. بكرة وأصيلاً: صباحاً ومساءً. تعالى الله عما سواه، صاحب البركة العظيمة، نزل القرآن الذي يفرق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ، لينذر به الناس جميعاً، ويبلغه للعالم كله، ليجعلوه منهاج حياتهم في جميع امورهم. ثم وصف نفسه بأربع صفات انفرد بها فقال:

١ - الذي له ملكُ السموات والأرض: له السلطانُ القاهر عليهما، وهو وحده المالك المتصرف في هذا الكون، وله السيطرة المطلقة فيه.

٢ - ولم يتخذ ولداً، وهو منزّه عن اتخاذ الولد، والتناسل من نواميس الخلق لامتداد الحياة، والله تعالى باقٍ لا يفنى، قادر لا يحتاج.

٣ - ولم يكن له شريك في الملك، والدليل على ذلك وحدة هذا الكون، ووحدة نظامه ووحدة التصريف، ولو كان له شريك لاختل النظام وتعدد.

٤ - وخلق كل شيء فقدره تقديراً، وهذه هي الصفة الرابعة التي انفرد بها سبحانه. فقد خلق كل شيء في هذا الوجود وقدره تقديراً دقيقاً منظماً بنواميس تكفل له أداء مهمته بنظام. وقد أثبت العلم الحديث ان كل الموجودات تسير بحكم تكوينها وما يجري عليها من تطورات مختلفة وفق نظام دقيق ثابت لا يقدر عليه الا خالق قدير مبدع. ويظهر تقدم العلم للناس إعجاز القرآن الكريم ومعنى قوله تعالى {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا}.

{واتخذوا من دونه الهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً} مع كل هذه الأدلة الظاهرة اتخذ المشركون أرباباً لهم ضعافاً عاجزين، لا يقدرّون ان يخلقوا شيئاً، وهم مع ذلك مخلوقون، ولا يستطيعون ان يدفعوا عن انفسهم الضرر، ولا جلب الخير لها. وكذلك لا يستطيعون إماتة أحدٍ ولا إحياءه، ولا بعثاً من القبور. فهل يستحق هؤلاء ان يُعبَدوا؟

{وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ . . .} وزعم الجاحدون أن هذا القرآن ليس من عند الله، وان النبي عليه الصلاة والسلام جاء به من عنده ونسبه الى الله، أعانه على وضعه جماعة من أهل الكتاب ممن أسلبوا، فردّ الله عليهم بقوله:

{فقد جاءوا ظلماً وزوراً} . لقد كذبوا في مقالهم، وظلموا وزوروا الحقيقة، ولو أنه من عند محمد نفسه لاستطاع كثير من الفصحاء أن يأتوا بمثله!! وقد تحدّاهم أكثر من مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا. . . ولا يزال التحدي قائماً.

ثم أمعنوا في الكذب والافتراء بأن قوماً آخرين أعانوه عليه كما قال تعالى: {وقالوا أساطيرُ الأولين اكتبها فبهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً} .

وقالوا ايضاً: إن القرآن ليس إلا خرافات الأولين الماضين نقلها محمد ان قرئت عليه صباحاً ومساءً حتى يحفظها ويقولها للناس. فأجابهم الله بقوله:

{قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً}

قال لهم أيها النبي: ان هذا القرآن أنزله الله الذي يعلم الأسرار الخفية في السماوات والارض، الرحيم الغفور.

٢٥٠٢ 7

مسحورا: مغلوبا على عقله، مخدوعا. الأمثال: الأقاويل العجيبة. فضلوا: فبقوا متحيرين في ضلالهم. أعتدنا: هيأنا. سعيরা: ناراً شديدة اللهب، يعني جهنم. إذا رأتهم: إذا قربوا منها وكانت بمرأى منهم. سمعوا لها تغيطاً: غلياناً وهيجاناً عظيماً. وزفيرا: وتنفساً شديداً. مقرنين: مقيدين بالسلاسل. ثورا: هلاكاً.

سخر المشركون من النبي الكريم، وقالوا: انه لا يميز عنا بشيء، بل هو مثلنا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فهل الانبياء مثل البشر؟ لو كان رسولاً لأنزل الله معه ملكاً من السماء يساعده على الإنذار والتبليغ، أو ينزل الله عليه كنزاً يُنفق منه، أو يكون له سبتان يأكل منه. ثم زادوا في تعنتهم فقال الجاحدون: إنكم تتبعون رجلاً سخر فاختل عقله فهو لا يعي ما يقول.

انظر ايها النبي كيف ضربوا لك الأمثال، وقالوا عنك إنك مخدوع بما يترأى لك. بذلك ضلوا عن طريق الهدى، وصاروا حائرين لا يدرون ماذا يقولون.

ثم رد الله عليهم بما اقترحوه من الجنة والكنز فقال:

{تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا. . . .}

تعالى الله وتزايد خيره، وهو قادر على ان يجعل لك في الدنيا أحسن مما اقترحوا، جنات تجري من تحتها الأنهار وقصوراً عاليات، لكنه أراد ان يكون ذلك لك في الآخرة، والآخرة خير وأبقى.

ثم انتقل من ذلك الى كلامهم في البعث وإنكار أمر الساعة وما ينتظرهم فقال:

{بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} .

ولقد أتوا بأعجب من هذا كله، وهو تكذيبهم بيوم القيامة. وهم يتعللون بهذه المطالب ليصرفوا الناس إلى باطلهم، وقد أعدنا لمن كذب بيوم القيامة ناراً مستعرة شديدة الحرارة واللهب، اذا قربوا منها ورأته من مكان بعيد سمعوا غليانها وأصوات زفاتها التي تملؤهم بالرعب. واذا ألقوا في مكان ضيق منها مقرونة أيديهم الى أعناقهم بالسلاسل - نادوا هنالك طالبي هلاكهم ليستريحوا من العذاب.

فيقال لهم توبيحاً: لا تطلبوا هلاكاً واحداً، بل اطلبوه مراراً، فلن تجدوا خلاصاً مما أنتم فيه.

ثم يعرض في المقابل ما وعد الله المتقين لتزداد حسرة المكذبين وندامتهم:

{قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ. . . .}

قل ايها النبي للكافرين: هل هذا العذاب خير من جنة الخلد التي أعدّها الله للمتقين، ثواباً لهم يجدون فيها جزاء ما قدموه؟! قراءات:

قرأ ابن كثير وابن عامر وابو بكر: ويجعل لك قصوراً برفع لام يجعل. والباقون: يجعل بالجزم.

٢٥٠٣ 17

ضلّ السبيل: خرج عن طريق الهدى. نسوا الذكر: تركوا ما ذكروا به من القرآن وهدى النبي الكريم. بورا: هالكين. يقال رجل بور وأمرأة بور، وجماعة بور. فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً: فلا تقدرون على رفع العذاب، ولا نصر أنفسكم. فتنة: ابتلاء واختبار.

بعد ان ذكر الله ما أعد للمكذبين الجاحدين يوم القيامة من العذاب الأليم، وما أعد للمتقين من النعيم في جنات الخلد - بين هنا أحوال الكافرين مع من عبدوهم من دون الله، وأن هؤلاء المبعودات تكذبهم فيما نسبوه اليها. فيوم القيامة يحشر الله المشركين مع من

عبدوهم من دون الله مثل عيسى بن مريم وعزير والملائكة فيسألهم ويقول لهم: أنتم أضلّتم عبادي فأمرتوهم أن يعبدوكم، أم هم الذين ضلّوا باختيارهم؟

فيقولون: سبحانك، ما كان يحقّ لنا أن نطلب من أحد أن يتخذ إلهاً غيرك، لكن هؤلاء الذين أنعمت عليهم بالرزق الكثير (هم وآباؤهم) أطعاهم ذلك، ونسوا شكرك والتوجه إليك وحدك، وبذلك كانوا قوماً خاسرين.

فيقال للمشرّكين الذين عبدوا غير الله: إن الذين عبدتموهم قد كذبوكم، فاليوم لا تستطيعون دفع العذاب عن أنفسكم، ولا تجدون من ينصركم ويخلصكم منه، وليعلم الناس جميعاً أن من يظلم بالكفر والطغيان - نعهذه عذاباً شديداً.

ثم يرد الله تعالى على الذين اعترضوا على رسالة محمد ﷺ بكونه بشراً، وانهم يريدون ملائكة تأتي بالرسالة، فيقول:

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} .
إذا كان المشركون لا يعجبهم أن تكون رسولاً لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، فإن تلك سنة الله في المرسلين من قبلك .
. . . كلهم كانوا رجالاً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩] .
{وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}

وامتحنا بعضكم ببعض. وهذا صراع طويل طويل منذ بدء العالم ولا يزال مسمراً. اصبروا إن الله مطلع على كل شيء، ويجازي كلا بما عمل. وهو البصير بحال الصابرين وحال الجازعين.
قراءات

قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص: ويوم يحشرهم بالياء، والباقون: يوم نحشرهم بالنون. وقرأ ابن عامر: فنقول بالنون، والباقون: فيقول بالياء. وقرأ حفص: فما تستطيعون بالتاء، والباقون: فما يستطيعون بالياء.
اللهم اجعلنا من الصابرين على أذى السفهاء، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، واعف عنا وارحمنا واثبتنا على الإيمان.

٢٥٠٤ 21

لا يرجون: لا يخافون ولا يتوقعون. واستكبروا في أنفسهم: تكبروا، تمكن الكبر من نفوسهم. وعتوا عتواً كبيراً: تمردوا، وتجاوزوا حد كبيراً في الظلم. لا بشرى لهم: سوف يكون ذلك اليوم مصدر ازعاج لهم لا بشارة فيه. حجراً محجوراً: تعبير تقوله العرب عندما ينزل بهم مكروه، ومعناه نسال الله ان يمنع ذلك منعا، ويحجره حجرا. وقدمنا الى ما عملوا: ونأتي الى ما عملوه. هباء منثورا: غبارا متفرقا لا قيمة له. خير مستقرا: افضل مكان يستقر فيه. وأحسن مقيلا: وأحسن مكان للراحة والقيولة.

وقال الذين ينكرون البعث، ولا يتوقعون لقاءنا: لماذا لا تنزل علينا الملائكة فيخبرونا بأن محمداً صادق فيما يدعي؟ ولماذا لا نرى الله فيخبرنا بأنه أرسلك؟ لقد استكبروا ووضعوا أنفسهم في مكان لا يستحقونه، وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان.

ثم بين الله انهم سيلقون الملائكة يوم القيامة، ولكن ذلك اليوم لن يسرهم ولن يكون لهم فيه بشارة، وسوف يقولون لهم: لا بشرى لكم اليوم. ويومئذ يقولون: {حِجْرًا مَحْجُورًا} حراماً محرماً، وهي جملة تقال لشيء للأعداء، وذلك لا يعصمهم من العذاب.
{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ جَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}

ويوم القيامة تأتي الى ما عملوه من الخير فنحرمهم ثوابه ونجعل له كالغبار المتطاير في الهواء، لا قيمة له ولا وزن.

{أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا}

وفي المقابل ستكون منازل أهل الجنة في ذلك اليوم خيراً من منازل المشركين، فهي أحسن الأماكن للاستقرار الدائم، وأعظمها راحة وسعادة.

{وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا. . .}

في ذلك اليوم يختلف كل نظام هذا العالم الذي نراه، فتتفرج السماء ويحشر الناس جميعا. وعند ذلك تنزل الملائكة، ويكون الملك لله وحده، ويكون اليوم شديدا عسيرا على الجاحدين. يومئذ يتحقق الظالمون انهم كانوا على الباطل، فيعض الظالم منهم على يديه من الندم ويقول متمنيا: يا ليتني اتبعت الرسل وآمنت بهم.

ثم ان ذلك الظالم يتحسر ويأسف ويقول: يا ليتني لم أصادق ذلك الصاحب الذي أضلّني وأبعدني عن الخير، وعن ذكر الله بعد ان يسره الله لي. لقد خذلني الشيطان. ولكن هذا كله لن ينجيه من العذاب.

٢٥٠٥ 30

جملة واحدة: دفعة واحدة. لنبت به فؤادك: لنقوي به قلبك. ورتلناه ترتيلا: نزلناه على مهل، بعضه إثر بعض. بمثل: بنوع من الكلام. تفسيراً: ايضاحاً. يحشرون على وجوههم: يسحبون عليها. وزيرا: معينا له برأيه. فدمرناهم تدميرا: أهلكناهم ومحققناهم محققا. الرس: الفساد، والبئر المطوية بالحجارة. أصحاب الرس: طائفة من ثمود. وقرونا: جماعات. تبرنا تنبرا: أهلكناهم. القرية التي أمطرت مطر السوء: هي سدوم، قرية قوم لوط. لا يرجون: لا يتوقعون. نشورا: بعثنا للحساب والجزاء.

هنا يقول الرسول شاكيا الى الله ان قومه هجروا القرآن ولم يلتفتوا الى ما فيه من هداية.

فأجابه الله تعالى يسليّه بأن هذا ليس دأب قومك فحسب، بل إن كثيراً من الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل، فلا تجزع يا محمد واصبر كما صبروا، وسينصرك الله عليهم، وكفى بالله هادياً لك وناصراً لدينك.

وقال الكافرون: لو كان القرآن من عند الله حقاً لأنزله جملة واحدة. فردّ الله عليهم مقالته، وبين لهم فوائد إنزاله منجماً، ومنها تثبيت قلب النبي ﷺ بتيسير الحفظ، وفهم المعنى، وضبط الألفاظ. ثم وعده بأنهم كلما جاؤوا شبيبةً أبطلها بالجواب الحق، والقول الفصل الذي يكشف وجه الصواب، {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} وفرّقناه آية آية: على مهل وتؤدة.

ثم بين الله حال المشركين الذين يحشرون يوم القيامة وهم في غاية الذل ويسحبون على وجوههم الى جهنم في أسوأ حال، واضيق مكان. ثم اردف بعد ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم الذين كذبوا فخلّ بهم النكال والوبال ليكون في ذلك عبرة للمكذبين. فذكر خمس قصص: قصة موسى مع فرعون وقومه، وقصة نوح وقومه، وقصة هود مع قومه عاد، وقصة صالح مع قومه ثمود، وصاحب الرس. وأورد كيف اهلكهم جميعاً كما أهلك بين ذلك أمماً كثيرة.

{وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَبِيرًا} .

لقد أذرنا هؤلاء كلهم وذكرنا لهم العظات والأمثال، لكنهم لم يتعظوا، فأخذناهم بالعذاب ودمرناهم تدميرا. وهؤلاء قريش، يمرّون في أسفارهم الى الشام على قرية قوم لوط التي أمطرتنا عليها شرّ مطر وأسوأه، أفلم يروها فيتعظون بما حل بأهلها؟ {بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}

إنهم لم يتعظوا بها لأنهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء ولا يتوقعون أنهم سينشرون من قبورهم يوم القيامة.

٢٥٠٦ 41

اتخذ إلهه هواه: اتبع هواه وشهواته. وكلا: مؤكلاً به.

واذا رآك المشركون يقولون مستهزئين: أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً تتبعه ونسير وراءه؟! ها هو بحسن بيانه وفصاحته يكاد يزحزحنا عن آلهتنا لولا صبرنا وتمسكنا بها.

سيعلم هؤلاء حين ينزل بهم العذاب من هو الضالّ ومن هو المهتدي.

انظريا محمد في حال الذي اتّبع شهواته حتى جعلها إلها له، انك لا تستطيع ان تدعوه الى الهدى، ولا أن تكون عليه حفيظاً ووكيلاً. وهل تظنّ أن اكثرهم يسمعون حقّ السماع ما نثلو عليهم أو يعقلون ما تتضمنه المواعظ التي تلقوها عليهم! إنهم كالبهائم، لا همّ لهم إلا الأكل والشرب ومتاع الحياة الدنيا، بل هم شرُّ من البهائم وأضلُّ سبيلاً.

٢٥٠٧ 45

ألم تر: ألم تنظر. الى ربك: الى صنع ربك. مد: بسط. الظل: الخيال. ساكناً: ثابتاً على حاله لا يزول. دليلاً: علامة. قبضناه قبضاً يسيراً: قليلاً قليلاً. لباساً: ساتراً. سبائاً: سكونا. نشورا: بعثاً وحركة. بُشراً: مبشرة. بين يدي رحمته: الرحمة هنا المطر، يعني ان الرياح تأتي مبشرة بالمطر. بلدة ميتة: ارضا لا نبات فيها. أناس: الناس. كُفُوراً: كفراناً للنعمة وحقوداً لها. مَرَضَجَ البحرين: خلطهما ببعض. عَذْب فَرَات: حلو سائغ للشرب. وِملح أجاج: مالح شديد الملوحة. برزخا: حاجزاً. حجراً محجوراً: لا ينبغي احدهما على الآخر، ولا يفسد المالح العذب. نسباً: ذكورا ينسب اليهم. وصهراً: إناثاً يصاهر بهن.

انظر الى صنع ربك كيف بسط الظلّ، وجعل الشمس سبباً لوجوده، كما جعله مرافقاً لنور الشمس، فإن مالت طال، وان ارتفعت في السماء قصر، ثم يقبضه تدريجاً. وهو الذي جعل الليل ساتراً ومظلياً، والنوم راحة وهدوءاً، كما جعل النهار مجالاً للسعي والعمل. إنه الله. . هو الذي جعل الرياح تسوق الغيوم مبشرة برحمته من المطر، وبهذا الماء الطهور يحيي الأراضي التي لا نبات فيها، ومنه تشرب الأنعام والناس.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}

لقد كررنا هذا القول (وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر) على الناس ليعتبروا، ولكن اكثر الناس أبوا إلا الكفر والعناد. وهناك رأي ثان في تفسير هذه الآية ومعناه: وهذا القرآن قد بينا آياته وصرّفناها ليتذكر الناس ربهم، وليتّعظو ويعملوا بموجبه.

{وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا}

إنا عظّمناك ايها الرسول بهذا الأمر، وجعلناك مستقلاً بأعبائه، فاجتهد في دعوتك. ولا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه، وجاهدْهم بتبليغ رسالتك جهاداً كبيراً.

{وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً} .

ومن آثار نعمة الله على خلقه ان خلّق البحار نوعين، منها عذب سائغ للشاربي، ومنها مالح شديد الملوحة، وجعل البحرين متجاورين، لكنّ بينهما حاجزاً بحيث لا يطغى المالح على العذب فيفسده.

وهو الذي جعل الماء جزءاً من مادة الانسان، وخلقه من النطفة ثم جعل الناس ذكورا واناثاً، ذوي قرابات بالنسب أو المصاهرة، والله قديرٌ فعال لما يريد.

٢٥٠٨ 55

ظهيراً: مظاهراً، يعاون الشيطان على ربه. البروج: منازل الشمس الاثنا عشر: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ . . . } {تقدم في الآية ١٨ من سورة يونس.

{وَكَانَ الْكَافِرَ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} يُعِينُ أَهْلَ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} . تقدمت نفس الآية في سورة الاسراء ١٠٥ .

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا}

قل لهم أيها الرسول: لا مطمع لي في أموالكم، ولا أريد منكم أجراً، إلا من شاء منكم ان يتقرب إلى الله ويهتدي ويسلك سبيل الحق . . . فأجره على الله.

وتوكل في كل أمورك على الله الحي الباقي الذي لا يموت، وسبح بحمده، والله يعلم كلا ما يعلمه العباد وهو خبير بها، ومجازيهم عليها يوم القيامة.

{الذي خَلَقَ السماوات والأرض . . . الرحمن}

تقدمت الآية في سورة الاعراف ٥٤ وسورة يونس ٣ .

{فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا}

في هذه الآية الكريمة توجيه علمي من الله الى ضرورة البحث والتنقيب فيما يمكن بحثه من مظاهر الكون ونظمه المختلفة للوقوف على أسرار قدرة الله في إبداع الكون.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}

إذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون غير الله: اعبدوا الرحمن، قالوا: لا نعرف من هو الرحمن حتى نسجد له. أتريدنا ان نطيعك ونعصي آباءنا فيما كانوا يعبدون؟ وازادوا عن الإيمان بعدا.

{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَرَأَ مُنِيرًا}

تعالى الله وتزايد فضله، إذ جعل في السماء نظاماً من النجوم تترامها الشمس، وهي كأنها منازل لها في دورانها اثناء السنة. وكل ثلاثة منها تؤلف فصلاً من فصول السنة، فبرج الحمل والثور والجوزاء لفصل الربيع، والسرطان والأسد والسنبلة للصيف، والميزان والعقرب والقوس لفصل الخريف، والجدي والدلو والحوت لفصل الشتاء.

والشمس هي النجم الوحيد في عالمنا الذي نعيش فيه، أما بقية الكواكب التي تدور حولها مثل الارض وعطارد والزهرة والمريخ وزحل والمشتري واورانوس ونبتون وبلوتو - فكلّاه كواكب غير مضيئة تستمد نورها من الشمس. وكذلك القمر فالمشس سراج، والقمر منير يتلأأ بالنور من ضياء ذلك السراج.

ونحن نوجد في النظام الشمسي: الشمس وما يدور حولها من الكواكب المذكورة، من اتباع المجرة التي يسميها العوام «درب التبانة» . وهي سديم لولبي عدسي الشكل قطره اكثر من مئتي الف سنة ضوئية، وسماكته نحو عشرين الف سنة ضوئية. وهذا كلام كالخيال. وتشتمل هذه المجرة على ملايين النجوم المختلفة الحجم والحرارة والسرعة والضوء.

والواقع ان شمسنا بحجمها وعظمتها - هي متوسطة الحجم والسرعة والنور بالنسبة الى النجوم التي في هذه المجرة، فهناك نجوم اكبر بكثير من شمسنا، ولكنها تظهر صغيرة لبعدها.

والنجم تستصغر الأبصار صورته ... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

واقرب نجم الينا نجم اسمه: «حُضَارٍ» بفتح الحاء والضاد وكسر الراء، يبعد عن شمسنا اربع سنوات وربع سنة ضوئية. ولا اريد الاطالة فالموضوع واسع كُتبت فيه مجلدات وتجري فيه ابحاث يومية.

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}

الله وحده هو الذي جعل الليل والنهار متعاقبين يَخْلُفُ أحدهما الآخر، وفي ذلك عظة وذكرى لمن أراد ان يتعظ باختلافهما ويتذكر نعم الله، ثم يتفكر في بدیع صنععه، ويشكره على هذه النعم الجليلة.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: سُرجاً بالجمع. والباقون سراجاً. وقرأ حمزة: ان يذُكِّرْ، باسكان الذال وضم الكاف. والباقون: ان يذُكِّرْ بفتح الذال المشددة والكاف المفتوحة المشددة.

٢٥٠٩ 63

هونا: يرفق ولين: يمشون بسكينة ووقار. الجاهلون: السفهاء. سلاما: مسالمة ومسالحة. غراما: هلاكاً. لم يسرفوا: لم يجاوزوا الحدود في النفقة. ولم يقتروا: لم يضيّقوا على عيالهم بالبخل والشح. قواما: وسطاً متابعاً: مرجعاً حسناً. مَرّوا كراماً: لم يخوضوا باللغو مع الخائضين. لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً: انهم يتفهمون ما يلقي عليهم، ولا يأخذونها بدون فهم. قرّة أعين: ما يسر الأعين ويفرحها. واجعلنا للمتقين إماماً: المام يُستعمل للمفرد والجمع. الغرفة: كل بناء مرتفع، والمراد بها هنا الدرجات الرفيعة. ما يعبأ بكم: لا يعتد بكم. دعاؤكم: عبادتكم. لزما: لازما.

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا. . . .}

ختم الله تعالى هذه السورة الكريمة بصفات عباده المؤمنين، وبين فيها ما لهم من فاضل الصفات وكامل الاخلاق التي تميزوا بها، وكانوا قدوة للعالم حين أعطوا المثل الأعلى في العدل والمساواة والتسامح. وقد عدد في هذه الآيات إحدى عشرة صفة مما تُشرب اليها اعتناق العاملين، وتنطلع اليها نفوس الصالحين، الذين يبتغون المثوبة. وهي:

١ - فعباد الرحمن هم المتواضعون لله، يمشون في سَكينة ووقار غير متكبرين. وليس معنى هذا أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح، كلا فقد كان رسول الله ﷺ أسرع الناس مشيئة وأحسنها وأسكنها.

٢ - وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً: اذا اعترضهم السفهاء وسبّوهم وآذوهم بالقول السيئ لم يقابلوهم بمثل، بل يعفون ويصفحون، فهم حلماء لا يجهلون، وإذا جُهل عليهم حلموا ولم يسفهوا.

٣ - والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً. والذين يصلون في الليل، لان العبادة في الليل أبعد عن الرياء. قال ابن عباس: من صلى ركعتين او اكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً. وليست العبادة بالكثرة، ولكنها بالاخلاص والخشوع والنية الصافية.

٤ - والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم. . . . وهم يغلبون الخوف على الرجاء فيسألون الله تعالى ان يبعد عنهم عذاب جهنم وشديد الآلها. فانها بئس المنزل مستقراً ومقاماً.

٥ - والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا. . . . ومن صفاتهم العالية الاعتدال في انفاقهم المال، فهم ليسوا بالمبذرين في انفاقهم، ولا بخلاء على انفسهم وأهليهم، وهم اجواد في مصالح الناس والوطن وعمل الخير.

٦ - والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر. . . . والذين لا يعبدون غير الله ولا يشركون به احداً، بل يخلصون له العبادة والطاعة.

٧ - ولا يقتلون النفس التي حرم الله لا بالحق. لا يُقدّمون على هذه الجريمة الكبرى بغير حق، {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}

[المائدة: ٣٢].

٨ - ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً. ولا يقدمون على هذه الجريمة القبيحة التي كانت متفشية في الجاهلية. فقد كرمهم الله تعالى بنفي هذه الصفات السيئة عنهم وبذلك كانوا عباد الرحمن حقاً.

٩ - والذين لا يشهدون الزور، وإذا مَرّوا باللغو مَرّوا كراماً. وهذه الصفات من اخلاق عباد الرحمن، فانهم لا يشهدون الشهادة الكاذبة، ويكرمون انفسهم عن سماع اللغو من القول الباطل، ولا يخوضون مع الخائضين.

١٠ - والذين اذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً. والذين اذا ذُكِّروا بآيات الله واحكامه تلقّوها بالفهم والوعي الصحيح، ثم نفذوها وعملوا بها.

١١ - والذين يقولون: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما. ويسألون الله تعالى ان يرزقهم الزوجات الصالحات والذرية الطاهرة التي تسر نفوسهم وتقر بها أعينهم، وان يجعلهم أئمة في الخير يقتدي بهم الصالحون، وقد كانوا كذلك. {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا}

فعباد الرحمن الذين اتصفوا بهذه الصفات الكريمة الفاضلة لهم الجنات وأرفع الدرجات لقاء صبرهم وجهادهم. وستلقاهم الملائكة في الجنة بالتحيات الزايات والتسليم. خالدين فيها ابدا في احسن مكان، وأنعم بال، وأطيب عيش. {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٣، ٢٤].
{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}

ان الله تعالى غني عن العالمين، ولولا هذه الصفوة من الناس الذين يعبدونه حق عبادته، وهم أهل هذه الصفات السامية - لما كان الله يعبا بالبشرية جميعها. ان الله لا يبالي بكم إذا لم تؤمنوا، فقد كذبت بدينه، فسوف يعذبكم عذابا لازما لا ينفك عنكم ولا يزول.

٢٦ الشعراء

٢٦.١ 1

باخع نفسك: مهلكها من شدة الحزن. اعناقهم: رقابهم، والمراد بها هنا الجماعات، من ذكر: من موعظة. من كل زوج: من كل صنف.

طسم: تقرأ هكذا طا. سين. ميم. وتقدم الكلام على هذه الحروف، وهي لبيان ان القرآن المعجز للبشر رُكبت كلماته منها ومن أخواتها، فمن ارتاب في ان هذا القرآن من عند الله فليأت بمثله، ولن يستطيع.

{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}

ان هذا الكلام الذي أوحيت به اليك يا محمد هو آيات القرآن البين الواضح الذي يفصل بين الحق والباطل.

{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}

لعلك أيها الرسول ستعتل نفسك ان لم يؤمن قومك برسالتك، هوّن عليك فإن الله سينصرك. ومثله قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦].

{إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ}

ان في قدرتنا أن نأتيهم بمعجزة تلجئهم إلى الإيمان وتجبرهم عليه، فيخضعون. ويتم ما نرجوه.

{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ}

وما يجدد الله لقومك من موعظة وتذكير إلا جددوا إعراضا وتكذيبا واستهزاء.

{فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}

لقد كذبوا بما جئتهم به من الحق فاصبر عليهم، فسيرون عاقبة استهزائهم، وسيحل بهم عاجل العذاب وآجله في الدنيا والآخرة.

وبعد ان بين إعراضهم عن الآيات المنزلة من عند ربهم - ذكر أنهم أعرضوا عما يشاهدونه من آيات باهرة فقال:

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} ؟

كيف اجترأوا على مخالفة الرسول وتكذيب كتابه!! أولم ينظروا ويتأملوا في عجائب قدرته تعالى وخلق هذه الأصناف التي تسترعي الأنظار، وتبهّر الناظرين! .

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}

ان في هذا وأمثاله لمعجزة عظيمة وعبرة جلية ودليلاً على وجود الخالق القدير، ولكنهم لم يعملوا عقولهم في النظر في هذا الكون البديع، فما آمن أكثرهم، وظلّوا جاحدين.

ثم بشر الله رسوله بالنصر والتأييد وغلبته لأعدائه وإظهاره عليهم فقال:

{وَأَنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}

ان ربك أيها الرسول لقوي قادر على كل ما يريد، وهو ذو الرحمة الواسعة، فلا يعجل بعقاب من عصاه، وهو المتفضل بالرحمة على المؤمنين.

٢٦٠٢ 10

مرت حلقات من قصة موسى في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، عدا اشارات اليها في سورة أخرى. وفي كل سورة تأتي القصة مناسبة لها، وهنا تبدأ القصة من الآية العاشرة الى الآية ٦٨.

اذكريا محمد لقومك اذ نادى الله موسى وأمره ان يذهب إلى قوم فرعون الظالمين ليدعوهم الى دين الله، فقال موسى إني أخاف أن يكذبوا برسالتي، ولا ينطق لساني لما فيه من الثقل، فأرسل معي أخي هارون رسولاً يعني. ولهم عليّ ذنب حين قتل منهم رجلاً فأخاف ان يقتلوني به. فقال له الله: لن يقتلوك، فاذهب أنت وأخوك هارون بآياتي وأنا معكم أستمع لما تقولون وأرى ما يجري بينكم. اذهبا وقولا لفرعون إننا رسولا رب العالمين، أرسلنا اليك لترسل معنا بني اسرائيل وتدعهم أحرار يعبدون الله.

فلما ذهبا الى فرعون وقالاه ما أمرهما الله به، قال فرعون لموسى: يا موسى، ألم نربك في قصرنا وأنت وليد صغير، ومكثت في رعايتنا سنين من عمرك حتى كبرت وأصبحت شاباً، وجنيت جناتك فقتلت رجلاً دون ذنب!! وأنت الآن تكفر بديني، وتنكر نعمتي! فقال موسى: لقد ارتكبتُ جرمي وأنا ضال لا أعرف حدود الله، وفررت منكم لما خفت أن تقتلوني، فوهب الله لي حكماً وعلماً وجعلني من المرسلين. انك يا فرعون تمنّ عليّ بترييتك لي، والواقع أن جميع ما أنعمت به علي لا يعادل ما ارتكبته أنت مع بني اسرائيل من استعباد وقتل وإذلال.

قراءات:

قرأ يعقوب: ويضيق صدري ولا ينطق لساني، بنصب يضيق وينطق، والباقون بالرفع.

٢٦٠٣ 23

ثعبان مبین: ظاهر بلا تمويه. الملائ: أشراف القوم. فماذا تأمرون: بماذا تشيرون. أرجه وأخاه: أخره وأخاه ولا تقتلهما. حاشرين: اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة من جميع البلاد.

قال فرعون يسأل موسى في تجاهل وهزاء: أي شيء يكون رب العالمين الذي تدعو اليه؟ فأجابه موسى بالصفة المستملة على الربوبية: إنه رب السماوات والأرض ورب هذا الكون الهائل، {إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}. فالتفت فرعون الى من حوله ليصرفهم عن التأثير بقول موسى وقال لهم: ألا تستمعون الى ما يقوله موسى، إنه يدعوكم الى عبادة إله لا عهد لنا به، ولا قاله احد نعرفه.

فقال موسى: هو ربكم ورب آبائكم الاولين: فلما لم يستطع فرعون ان يرد على ما جاء به موسى {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}. ولكن موسى لم يسكت ومضى يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة فقال: {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}. اني ادعوكم إلى عبادة إله هذا الكون العظيم ان كان لكم عقول تفكر وتندبر في الأمور.

فقاطعه فرعون قائلاً: إن اتخذت إلهاً غيري أسجنك وتكون من المعذبين. فقال موسى: أتفعل ذلك ولو جئت بك ببرهانٍ عظيم يدل على صدقي فيما أقول؟ فقال فرعون: فأنت بالذي يشهد بنبوتك إن كنت صادقاً في دعواك.

وهنا كشف موسى عن معجزتيه: ألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ ظاهر حي يخيف، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء مع أن موسى أسمر البشرة. عندئذ أحس فرعون بضخامة المعجزة فأسرع يقاومها، وأخذ يتملق الذي حوله ويخوفهم من موسى فقال لمن حوله: إن هذا ساحرٌ كبير، يريد أن يستميل إليه قلوبكم لتؤمنوا به، فيكثر بذلك أتباعه ويأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليّ ماذا اصنع به؟ فأجابوه بقولهم: أخره مع أخيه، واضرب لهما موعداً، واجمع له كل سحرة دولتك، لينازلوه في يوم معين، تجمع فيه الناس ليشاهدوا هذه المباراة.

٢٦٠٤ 38

الميقات: الوقت المحدد. يوم معلوم: يوم العيد كما جاء في سورة طه يوم الزينة. وعزة فرعون: قسمٌ بقوته وعظمته. تلقف: تبتلع. يأفكون: يكذبون بقلب الحقائق، بكيدهم وسحرهم. من خلاف: قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس بالعكس. لا ضير: لا ضرر. منقلبون: راجعون.

ذكرت هذه المباراة في سورة الأعراف وسورة طه وفي هذه، السورة وخلاصتها: أن فرعون وقومه أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فلما جاء السحرة في اليوم المعين من مختلف اقاليم مصر العليا - وكانوا اربع الناس في فنّ السحر وأشدّهم خداعاً وتمويهاً - طلبوا من فرعون الأجر أن هم غلبوا، فأجابهم إلى ما طلبوا، وزادهم بأنه سيجعلهم من بطانته المقربين إليه.

وابتدأت المباراة. . . . فقال موسى للسحرة: ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر. فألقوا جبالهم وعصيهم. وخيل للناس المجتمعين أنها تسعى. وأقسموا بعزة فرعون أنهم الغالبون. فألقى موسى عصاه فإذا بها تبتلع كل ما ألقوه، وما خدعوا بن أعين الناس. وانتهت المباراة بغلبة موسى لهم، وعرف السحرة أن هذا الذي جاء به موسى ليس سحراً وإنما هو معجزة نبي، فسجدوا وقالوا: آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون. فقال فرعون وقد اخذه الغضب: وأخذ يهدد السحرة ويتوعدهم ويقول: إنه لكبيركم الذي علمكم السحر. أن موسى هذا هو الذي علمكم هذا لا سحر، وقد تواطأتم معه، فلسوف تعلمون ما سأفعله بكم وبه، لأقطعن أيديكم وأرجلكم بشكل متخالف، ولأصلبنكم على جذوع الشجر.

فقالوا جميعاً: لا ضرر، افعل ما تريد، فإن المرجع إلى الله، وهو لا يضع أجر من أحسن عملاً، وإنا لنرجو أن يغفر لنا خطايانا، لأننا أول من آمن بدين موسى.

قراءات: قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح: أأمنتهم بهمزتين، والباقون: آمنتم. قرأ حفص: تلقف بسكون اللام وفتح القاف دون تشديد. والباقون: تلقف بفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة.

٢٦٠٥ 52

سرى وأسرى: سار ليلاً. متبعون: يتبعكم فرعون وجنوده. الشرذمة: الجماعة القليلة من الناس، والشرذمة: القطعة من الشيء جمعها شراذم. غائظون: جمع غائظ، وهو الذي يفعل ما يغضب.

حاذرون: جمع حاذر وهو الذي يكون يقظاً محتزماً. مقام كريم: القصور العالية، والمنازل المريحة والنعمة الوافرة. اورشاهها: ملكها لهم. مشرقين: وقت شروق الشمس، تراءى الجمعان: تقابلا ورأى كل منهما الآخر. لمدركون: سيدركوننا. انفلق: انشق. الفرق: بكسر الفاء الجزء. الطود: الجبل. أزلقنا: قربنا. ثم: هناك. لآية: لعظة وعبرة.

وأوحى الله الى موسى ان يسريّ بني إسرائيل ليلاً ويخرج من مصر، وان يمضي بهم حيث ما يؤمر. ففعل. كذلك أعلمه الله ان فرعون سيتبعهم. وبالفعل، فقد أرسل فرعون الى جميع المدائن بمصريقول لهم: ان موسى ومن معه شِرْذمة قليلة قد أغاظونا بإيمانهم بموسى وربّه، فعليكم جميعاً ان تحذروهم. وخرج فرعون بجيوشه ليلحقوا بموسى ومن معه، وتركوا تلك البلاد وما فيها من نعيم، ومنازل وقصور وجنات.

{ كَذَلِكَ وَأَوْرَثَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ }

يعني أنه أخرج بني إسرائيل من ذلك النعيم، واورث بني اسرائيل جنات وعيوناً مماثلة لها في ارضٍ غيرها، ولا يمكن ان يكون بنو اسرائيل عادوا الى مصر وورثوها واقاموا بها.

{ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ }

ولحق فرعون وجنوده موسى ومن معه عند شروق الشمس. فلما رآهم قوم موسى خافوا وقالوا: أردنّا فرعون!! فقال موسى: لا تخافوا إن معي ربي وهو سيهديني الى الصواب، ويرشدني الى طريق النجاة.

فأوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فانفلق البحر قسمين عظيمين كل قسم كالجبل. وسار موسى وقومه ونجسوا، وتبعهم فرعون وجيشه فانطبق عليهم الماء فغرقوا جميعاً. وفرعون كما تقدم هو امنفتاح بن رعمسيس، وجسده موجود الآن في المتحف المصري يشاهده الناس.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ }

ان في هذا الذي حدث في البحر لمعجزة وعبرة لمن اراد ان ينتفع. لكنّ أكثرهم لم يؤمنوا ولم يعتبروا مع ما رأوا من الآيات العظام والمعجزات الباهرات. { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }

يتكرر هذا التعقيب في هذه السورة ثماني مرات في ختام كل قصة قراءات:

قرأ أهل الكوفة وابن عامر: «حاذرون» بالف بعد الحاء. والباقون: حذرون. وقرأ حفص: معي ربي بفتح الياء، والباقون: معي ربي بسكونها.

٢٦٠٦ 69

اتل عليهم: أخبرهم، وقرأ عليهم. عاكفين: ملازمين على عبادتها ومواظبين. يوم الدين: يوم القيامة. حُكّا: علماً بالخبر والعمل به. لسان صدق: ذكراً جميلاً بين الناس. يوم يُبعثون: يوم القيامة.

في هذه الآيات الكريمة عرض لقصة إبراهيم والحجر ومريم والأنبياء والحج، وكانت القصة في كل سورة مناسبة لسياقها العام، وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة.

وخلاصتها: أخبر يا محمد الناس قصة ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه: أي شيء هذا الذي تعبدونه؟ قالوا: نعبد أصناماً ونلتزم طاعته ونواظب على ملازمتها. فقال ابراهيم: هل تسمعكم هذه الأصنام حين تدعونها، وهل تضركم او تنفعكم؟ قالوا: لا يفعلون لنا شيئاً من ذلك، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها فقلدناهم فيما كانوا يفعلون. قال ابراهيم: هل فكّرتم فيما تفعلون وما تعبدون، انتم وآباؤكم، بأن هذه الأصنام أهل للعبادة؟ انني عدو لهذه الأصنام، فأنا اعبد رب العالمين الذي خلقتني وتكفل برعايتي، وهداني الى الدين الذي يدلني على أسلوب الحياة الصحيح. انه هو الذي يسّر لي الرزق وأنعم عليّ بالطعام والشراب، وهو الذي ينعم عليّ بالشفاء إذا مرضت. . (الم يقل والذي يُمرضني، بل قال واذا مرضت، وهذا من الأدب مع ربه) وهو الذي يميتني اذا حلّ أجلي، والذي يحييني مرة أخرى للحساب والجزاء، وأما أطمع ان يغفر لي ذنوبي يوم القيامة.

ثم توجه ابراهيم الى ربه بالدعاء فقال: يا رب، امنحني علماً أسير على هدايه، ووقفني لأنتظم في عداد الصالحين، واجعل لي ثناءً حيناً، وذكرًا جميلاً يبقى أثره بين الناس الى يوم القيامة. واجعلني يا رب من عبادك الذين يدخلون جنة النعيم، واغفر لأبي إنه كان من الكافرين، ولا تذلني يوم القيامة، يوم لا ينفع أحداً ماله ولا أولاده لا من جاء الله بقلب سليم من كل كفر ورياء ونفاق.

٢٦٠٧ 90

أزلفت: قربت. وبرزت: بضم الباء وتشديد الراء المكسورة: جعلت ظاهرة. الغاوين: الضالين عن طريق الحق. كبكبوا: ألقوا على وجوههم مرة بعد أخرى. نسويكم: نجعلكم مساوين له في استحقاق العباداة. ولا صديق حميم: ولا صديق خالص الود. فلوان لنا كربة: لو ان لنا رجعة ثانية الى الدنيا.

وقربت الجنة وهيئت للسعداء الذين أطاعوا الله وآمنوا برسوله واتبعوا دينه، كما أظهرت جهنم للضالين الجاحدين، وقيل لهم: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل يستطيعون إنقاذكم اينتصرون لأنفسهم؟ انكم وإياهم جميعاً في النار.

ثم ألقوا في الجحيم على وجوههم. فلما احتشدوا جميعاً في جهنم أخذوا يتخاصمون مع أربابهم، فقالوا لهم: والله إننا كنا في الدنيا ضالين باتباعكم حين أطعناكم وسويناكم رب العالمين. وما أضلنا الا المجرمون من أعوانكم. . . . ونحن ليس لنا اليوم منيشفع فينا ويخرجنا من هذه النار، ولا صديق يحمينا منها! يا ليتنا نعود الى الدنيا فنؤمن بالله ونكفر بكم.

ان فيما ذكر من نبأ ابراهيم لعظة وعبرة لمن أراد ان يتعظ ويعتبر، وما كان أكثر قومك يا محمد من المؤمنين، {وإن ربك هو العزيز الرحيم}

٢٦٠٨ 105

نذير: مخبر مع تخويف من العاقبة، ضد البشير. من المرجومين: بالحجارة، رحمه يرحمه رجماً: قتله بالحجارة. فاحكم بيني وبينهم: فاحكم بيني وبينهم. الفلك: السفينة، للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث. المشحون: المملوء، شحن السفينة: ملاءها.

{كذبت قوم نوح المرسلين}

جاء التعبير بأنهم كذبوا جميع المرسلين لأنهم كذبوا نوحاً. اذ قال لهم أخوهم نوح: ألا تحذرون بطش الله بكم؟ اني لكم يا قومي رسول أمين، فاتقوا الله واطيعوا ديني. أنا لست أطلب منكم أجراً، وما أجري الا على رب العالمين. قالوا: انؤمن لك يا نوح ولم يؤمن الا البسطاء وأراذل القوم؟! قال نوح: إن لي ظاهراً حوالهم، ولا أعلم ما في باطنهم. إني أقبل كل من يؤمن بديني، وحسابهم على الله، وما انا بطاردهم ما داموا مؤمنين، فلست الا نذيراً أبلغ عن ربي. فهدده قومه وقالوا له: لئن لم ترجع عن دعواك هذه لنرجمنك كالمجرمين. قال نوح: يا رب غن قومي كذبوني ولم يبق لي أمل في اصلاحهم، فاحكم بيني وبينهم ونجني ومن معي من المؤمنين.

فأجاه الله ومن معه في سفينته المشحونة بالخلق والدواب، وأغرق قومه الآخرين الذين لم يؤمن منهم الا القليل.

ان فيما ذكره القرآن من نبأ نوح لحجة على صدق الرسل وقدرة الله، وما كان أكثر الذين تلو عليهم يا محمد هذا القصص مؤمنين. {وإن ربك هو العزيز الرحيم} .

قراءات:

قرأ يعقوب: واتباعك الارذلون. وقرأ الباقون: واتبعتك الارذلون.

عاد: قبيلة. ريع: بكسر الراء وفتحها: المكان المرتفع. آية: قصراً عالياً. تعبثون: تفعلون ما لا فائدة فيه. مصانع: قصوراً وحسونا منيعة. لعلمكم تخلدون: كأنكم خالدون في هذه الدنيا. بطشتم: أخذتهم بالعنف. جبارين: متسلطين بلا رأفة ولا شفقة. أمدكم: سخر لكم. الوعظ: الكلام اللين بذكر الوعد والوعيد. خلق الأولين: عاداتهم التي كانوا تقدمت قصة عاد في سورة الأعراف مفصلة، وفي سورة هود، وفي سورة المؤمنون بدون ذكر اسم هود وعاد. وتعرض هنا مختصرةً، وتبدأ كما بدأت قصة نوح وقومه. {كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ} .

اذ قال هود لقومه: أَلْ تَخَافُونَ اللَّهَ وَتَحْسِبُونَ حَسَاباً لِبَطْشِهِ؟ إني لكم رسولٌ أمين. وأكرر لكم القول أن اتقوا الله وأطيعوني فيما أبلغكم من عند الله، وما أريد منكم أجراً، أن أجري على الله رب العالمين. أتشيدون بكل مكانٍ مرتفع من الأرض بناءً شامخاً تتفخرون به وتعبثون فيه بالفسق والفجور! وتتخذون القصور المشيدة والحصون المنيعة كأنكم خالدون في هذه الدنيا! وإذا أخذتم قوماً في حربٍ أخذتموهم بعنف الجبابة دون شفقة أو رحمة! اتقوا الله الذي أمدكم بالأنعام والاولاد وجناتٍ تحيط بها العيون، فأنا اخاف عليكم عذاب يوم القيامة. قالوا: إننا لدعوتك مكذبون، سواء علينا أوعظتنا أم لم تعظنا. نحن لن نطيع امرك، لأننا نتبع أخلاق آبائنا وما كانوا يعملون، وما نحن بمعذبين عليهم كما تنذرنا به.

فكذبوه، فأهلكناهم. ان في ذلك لآيةً يتناقلها الناس، وما أكثر الذين نتلو عليهم يا محمد نبأ عاد بمؤمنين. {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ان هذا الا خلق الأولين بضمّ الخاء وسكون اللام وقرأ الباقون: خالق بفتح الخاء واللام.

ضيم: الطلع: اول ما يطلع من الثمر في اول تكوينه. هضم: ناضج لين. تختون: تحفرون البيوت في الصخر، وهو موجود الى الآن في مدين صالح. فارهين: نشطين فرحين. من المسحرين: الذين سُحروا حتى ذهبت عقولهم. شرب: نصيب. عقروها: ذبحوها. وقبل ان يذبحوا الناقة كانوا يقطعون قوائمها، وهذا هو العقر. تقدمت قصة صالح مع قومه في سورة الأعراف وفي سورة هود. وكانوا يسكنون بالحجر وهي المحلة التي تسمى الآن «مدين صالح» في شمال الحجاز.

وكذب قوم ثمود نبيهم صالحاً، اذ قال صالح لقومه يا قومي: الا تخشون ربكم؟ إني رسول منه اليكم، فاحذروا الله وأطيعوني، ولا أيد منكم أجراً، فأجري على الله رب العالمين. اتظنون انكم تتركون في دياركم آمنين، وانتم على ما أنتم عليه من الكفر والظلم؟ وترتعون في جنات وعيون وزرع ونخلٍ ثمرها يانع لطيف، وتختون من الجبال بيوتا مترفين نشطين؟ خافوا الله وأطيعوني أنا، ولا تطيعوا الذين اسرفوا على أنفسهم بالشرك واتباع الهوى، فهم يفسدون في الارض ولا يصلحون. قالوا: ما انتض إلا من المسحورين، وما انت الا رجل مثلنا فأنت بمعجزة ان كنت من الصادقين. قال: ان معجزتي هذه الناقة، لها نصيبٌ من الماء في يومٍ لها ولكم نصيبٌ مثله في يوم آخر. اتركوها ولا تمسوها بسوء فيعذبكم الله عذاباً شديداً.

فعقروها ثم ندموا على ما فعلوا خوفاً من العذاب. فأخذهم العذاب، وجاءتهم صيحة عظيمة فأصبحوا في ديارهم جائئين. إن في ذكر قصتهم لدلالة على قدرة الله على اهلاك الكافرين، وما كان اكثر قومك ايها الرسول بمؤمنين. {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} .

قراءات:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: فرهين بدون الف، وقرأ الباقون: فارهين: بالف بعد الفاء.

أخوهم: في البلد والسكنى، وكان لوط غريباً من ارض العراق وهو ابن أخ ابراهيم. الذكران: جمع ذكر. عادون: متعدّدون. المخرّجين: الذين نطردهم. القالين: المبغضين. الغابرين: الباقيون.

تقدمت قصة لوط في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الحجر.

أرسل الله لوطاً إلى قوم يسكنون في منطقة البحر الميت، أخفض بقعة في العالم، وهي واقعة في وادي الاردن. وكانت مدينة سدوم وما حولها من القرى عامرة بالخيرات. فدعاهم لوط الى عبادة الله، وترك أقبح عادة كانوا يعملونها وقال لهم! ألا تتقون الله وتخافون عذابه: ان الله قد أرسلني إليكم وأنا أمين على رسالته، فاتقوا الله واطيعوني، لا اريد منكم أجراً انما أجري من عند الله. انكم يا قوم دون الناس جميعاً تفعلون الفاحشة بالذكور وتتركون ما خلق الله لكم من النساء! فأجابوه: يا لوط، إما ان تتركنا مع شهواتنا وتترك دينك او نخرجك من بلادنا. فقال لهم: إني لعملكم هذا من المبغضين.

فلما يئس منهم توجه الى ربه وقال: يا رب، نجني وأهلي مما يعملون. فجاه الله مع أهله، إلا زوجته العجوز التي كفرت بدينه. ودمر الله الآخرين كما جاء في قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ} [هود: ٨٢] . {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} .

الأيكة: الشجر الكثيف، وهي غيضة قرب مدين في شمال الحجاز. المخسرين: هم الذين يأخذون من الناس اكثر ما لهم. القسطاس: الميزان. لا تعثوا: لا تفسدوا. لا تبخسوا الناس أشياءهم: لا تنقصوا حقوق الناس. الجبلّة: الطبيعة والخلقة، يقال جبل فلان على كذا: خلق. كسفاً: قطعاً، جمع كسفة. الظلة: السحابة التي جاءت بالعذاب.

تقدمت قصة شعيب في سورة الأعراف، وفي سورة هود. وكان اصحاب الأيكة يسكنون في غايّة قرب «مدين» أرسل الله اليهم شعبياً فكذبوه. ونصحهم وقال لهم: أوفوا الكيل وزنوا للناس دون زيادة او نقصان، ولا تنقصوا حقوق الناس، ولا تفسدوا في الارض بقتل الناس وقطع الطرقات، اتقوا الله الذي خلقكم والذين من قبلكم. فقالوا له: أنت رجل مسحور مختلّ العقل، ولست الا بشراً مثلنا، ونحن نعتقد أنك كاذب، لم يرسلك الله إلينا. اسقط علينا قطعاً من السماء ان كنت من الصادقين! فقال لهم: ان رب علم بما تعملون من سيئات، وبما تستحقونه من العذاب. فكذبوهن فأهلكهم الله بتسليط الحر الشديد، وأظلمتهم سخابة فاجتمعوا تحتها فأسقطها الله عليهم ناراً فاهلكتهم جميعاً، في يوم شديد الهول. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} .

انتهى قصص الانبياء. . . . ويلاحظ انه لم يأت القصص حسب التواريخ والاقدمية، وقد جاء اكثرها مختصراً حسب سياق السورة. والمقصود بذلك كله هو الانذار والتذكير، وتسليط الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: اصحاب ليكة بدون الف. والباقيون: الأيكة.

الروح الأمين: جبريل عليه السلام. جبريل عليه السلام. على قلبك: عليك وعلى روحك. زُر الاولين: كتب الاقدمين. الآية: الدليل والبرهان. الأعجمين: كل من لا يتكلم العربية. سلكاه: ادخلناه. بغتة: فجأة. منظرّون: مؤخرون. ذكرى: تذكرة وعبرة. ما ينبغي لهم: لا يقدرّون عليه، ولا يتيسرّ لهم. لمعزولون: لمنوعون.

بعد ان اختتم سبحانه هذا القصص، وبين ما دار بين الأنبياء واقوامهم من الجدل، وذكر انه قد أهلك المكذّبين، فدالت دولة الباطل

وانتصر الحق (وفي ذلك كله تسلية لرسوله الكريم) - وعد الله رسوله بأنه منتصر على قومه مهما آذوه ولقي منهم من الشدائد: {سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} [الأحزاب: ٦٢] .

بعد ذلك بين الله تعالى ان هذا القرآن الذي جاء بذلك القصص وحي من عنده أنزله على عبده ورسوله بلسان عربي مبين، لينذر به ويبشر عباده، وان ذكره في الكتب المتقدمة الماثورة عن الانبياء الذين بشروا به كما جاء على لسان عيسى بن مريم {واذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: ٦] .
وان العلماء من بني اسرائيل يجدون ذكره في كتبهم كما قال تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل} [الاعراف: ١٥٧] .

وان قومك ايها الرسول سمعوا القرآن وعرفوا فصاحته، وأدركوا انه معجز لا يعارض بكلام مثله، ومع هذا لم يؤمنوا به فلو أننا انزلناه على بعض الاعجميين فقرأه عليهم لكفروا به.

{كَذَلِكَ سَلَكَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}

بينما لهم القرآن ودخل قلوبهم ولم يؤمنوا به. وهم لا يؤمنون به كفرا وعنادا منهم، حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون، فيتمنون عند ذلك ان يؤخروا حتى يؤمنوا. ولكن هيات. . . فات الاوان. فقد جرت سنة الله ان لا يهلك قوماً الا بعد ان يبعث فيهم مبشرين ومنذرين.

ثم رد على مشركي قريش الذين قالوا: ان لمحمد تابعا من الجن يخبره كما يخبر الكهف فقال: {وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ} يذكرونهم وينذرونهم، وما كان شأننا الظلم فنعدب أمه قبل ان نبعث اليها رسولا. وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن، وما يجوز لهم، وما يستطيعون.

قراءات:

قرأ ابن عامر وابو بكر وحمة والكسائي: نزل به الروح الأمين بتشديد الزاي المفتوحة ونصب الروح الامين، والباقون: نزل به الروح الامين: بفتح الزاي دون تشديد، ورفع الروح الامين. وقرأ ابن عامر: اولم تكن لهم آية، بالتاء ورفع آية، اسم تكن. والباقون: اولم يكن لهم آية بالياء ونصب آية، خبر يكن.

٢٦٠١٤ 213

فلا تدع مع الله الها آخر: لا تعبد غير الله. واخفض جناحك: ترفق بمن اتبعك من المؤمنين، وكن لينا معهم. وتقبلك في الساجدين: يراك مع المصلين حين تصلي.

أخلص العبادة لله وحده، ولا تشرك به سواه، كما يدعوك قومك، فإن فعلت ذلك كنت من المعدبين وانذر أقرب الناس اليك من عشريتك.

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ قريشا، وأتى الصفا «فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس اليه، فقال: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، ارايتم لو أخبرتكم ان خيلاً بسفح هذا الجبل تريد ان تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال ابو لهب: تباً لك سائر اليوم، اما دعوتنا الا لهذا؟
؟ فأنزل الله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} .

{واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} ألن جانبك، وترفق مع المؤمنين.

{فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}

فإن عصاك من انذرتهم من العشيرة وغيرهم فلا ضير عليك، وقد أدت ما أمرت به، وقل لهم اني بريء منكم ومن شرككم بالله.

وتوكل على الله وفوض جميع امورك اليه، وهو الذي يراك حين تقوم للعبادة، ويراك وانت تصلي بين المصلين، انه هو السميع لدعائك وذكرك، العليم بنيتك وعملك انت وجميع العباد واقوالهم وأفعالهم.

٢٦٠١٥ 221

انبثكم: أخبركم. كل أفاك: كل كذاب، أثيم: مجرم كثير الذنوب. يلقون السمع: يصغون اشد الاصغاء الى الشياطين، فيتلقون منهم. الغاؤون: الضالون. في كل واد يهيمون: في كل مكان يسرون وراء خيالاتهم. أي منقلب: اي مرجع ومآب. لقد اتهمت قريش النبي ﷺ ان الشياطين هي التي توحى اليه القرآن، فرد عليهم ان الشياطين لا تنزل على الانبياء، بل على الكذابين الآثمين المنحرفين الذين تلقي اليهم الإفاك والكذب، وهم كاذبون يختلقون من عندهم ما يقولونه لأتباعهم. وأن الشعراء يتبعهم الضالون الحائدون عن الطريق القويم، ألم تر أنهم يجرون وراء خيالهم في ضروب من القول، ويقولون ما لا يفعلون! ولما وصف الشعراء بهذه الاوصاف الذميمة استثنى منهم المؤمنين المتصفين بالصفات الحميدة من الايمان، والعمل الصالح، والقول الصادق، وعدم هجاء الناس واختلاق الاقوال السيئة مثل حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك وغيرهم رضوان الله عليهم. والى هذا اشار بقوله تعالى:

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا} .

روى ابن جرير: «انه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب ابن مالك الى رسول الله ﷺ وهم محزونون وقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} وقال: انتم. ثم تلا {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} وقال: انتم. ثم {وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا} وقال: انتم. . . . يعني بردهم على المشركين، ثم قال لهم رسول الله: «انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً، ولا تذكروا الآباء والامهات» ثم ختم الله السورة بالتهديد العظيم، والوعيد الشديد للكافرين فقال: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} سيعلم الظالمون أي مصير ينتظرهم من الهلاك والشر والعذاب.

النمل ٢٧

٢٧٠١ 1

يعمهمون: يتحIRON، ويترددون في الضلال. الأخسرون: أشد الناس خسرانا. طاسين: هكذا يقرأ هذان الحرفان، وتقدم الكلام في المراد من فواتح السور، وان الأصح انها جاءت تنبيهاً الى سر الاعجاز في القرآن مع الاشارة الى انه من جنس ما يتكلمون ولتنبيه الاذهان للاستماع اليه.

{تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ}

هذه الآيات التي انزلتها اليك ايها الرسول هي آيات القرآن، وهو كتاب واضح بين لما تدبره وفكر فيه انه من عند الله. {هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}

هذا الكتاب هو الدليل الذي يهدي الناس الى سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهو يشير المؤمنين بأن اله سيدخلهم جنات لهم فيها نعيم مقيم. {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}

هذا وصفٌ للمؤمنين بأنهم آمنوا بالله، وعملوا الأعمالِ الصالحة، فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وآمنوا إيماناً صادقاً بيوم القيامة والبعث والجزاء، فالإيمان وحده لا يكفي.

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتُهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} .

أما الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء فقد زيناً لهم أعمالهم السيئة، ومددنا في غيهم فهم يترددون في ضلالهم، فلهم في الدنيا سوء العذاب بقتلهم وأسْرهم، وهم في الآخرة أعظمُ خسراناً مما هم فيه في الدنيا، لئله عذابٌ مستمر لا ينقطع.

٢٧٠٢ 6

لتَلْقَى: لتعطى، لتلقن. آنست: أبصرت. بشهاب: بشعلة نار. قبس: قطعة من نار. تصطلون: تستدفئون. جان: حية سريعة الحركة. ولّى مدبراً: هرب راجعاً. ولم يعقب: لم يرجع، ولم يلتفت. من غير سوء: يعني ان يده صارت بيضاء من غير مرض كالبرص ونحوه. آيات: معجزات دالة على صدقك. مبصرة: واضحة، يينة. جددوا بها: كذبوا بها. استيقنتها انفسهم: علمتُ علماً يقيناً انها من عند الله. علوا: ترفعا واستكباراً.

{وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}

وانك أيها الرسول لتلقى القرآن وتعلمه من عند الله، الحكيم بتدبير خلقه، العليم بأخبارهم وما فيه خير لهم. وما هو من عندك كما يزعم الجاحدون.

واذكر ايها الرسول لقومك خبراً عن موسى وهو عائد من «مدين» الى مصر ومعه زوجته، وكانا يسيران ليلاً فاشتبه عليهما الطريق، والبرد شديد. فرأى موسى ناراً فقال لأهله: سأتيكم منها بخبرٍ عن الطريق، أو آتيكم بشعلةٍ لعلكم تستدفئون بها من البرد. فلما وصل المكان الذي رأى فيه النار ناداه الله: إن الله بارك من في مكان النار ومن حولها. (والله منزّه عن مشابهة المخلوقين) يا موسى: إني انا الله المستحق للعبادة وحده، العزيز الذي لا يقهر، الحكيم في أقواله وأفعاله. . . . ألقى عصاك. فلما ألّاها رآها تهتز وتنقلب الى حية عظيمة. فهرب موسى منها ولم يلتفت وراءه من شدة الخوف. فطمأنه الله بقوله: لا تخف، ان المرسلين لا يخافون وأنا معهم. لكن من ظلم وعمل شيئاً غير مأذون فيه، ثم بدّل حسناً وتاب بعد هفوة {فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

وأخل يدك في جيبيك تخرج بيضاء من غير برصٍ او مرض. وكان موسى أسمر البشرة. اذهب إلى فرعون وقومه في تسع آيات انهم كانوا قوماً خارجين عن امر الله. والآيات التسع هي: فلق البحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والجذب، والعصا، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء.

فلما جاءت هذه الآيات واضحة ظاهرة الى فرعون وقومه قالوا: هذا سحر، وكذبوا بها ظلمات واستكباراً، فانظر ايها النبي كيف كانت عاقبة المفسدين.

هذا عرض سريع لقصة سيدنا موسى التي تكررت في الأعراف وطه والإسراء والشعراء يعرضها سبحانه وتعالى ليسلي رسوله ﷺ قراءات:

قرأ أهل الكوفة: بشهابٍ قبسٍ، بالتونين. والباقون: بشهابٍ قبسٍ.

٢٧٠٣ 15

منطق الطير: لغته. حشر: جمع. يوزعون: يمنعون من الفوضى ويسيرون بانتظام. لا يحطمنكم: لا يهلككم. أوزعني: يسّر لي شكر نعمتك.

ذكرت قصة داود في تسع سورة هي: سورة البقرة والنساء والمائدة والأنعام والإسراء والأنبياء وسورة النمل، وسبأ، وص، وورد ذكر سليمان في سبع سور هي: البقرة والنساء والأنعام والأنبياء والنمل وسبأ، وص.

وجاء ذكر داود هنا فقط، وبُسِطت قصة سليمان بتوسع في هذه السورة أكثر منه في آية سورة أخرى، وركزت على قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ، ثم مشهد موكبه العظيم، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب، وبذلك سُميت السورة «سورة النمل» وذلك من الآية ١٥ إلى الآية ٤٤.

ولقد اعطينا داود وسليمان علماً، فَحَمِدَا اللَّهَ عَلَى مَا أَوْلاَهُمَا، وَفَضَّلَهُمَا بِذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. ويتبين لنا من الآية الكريمة فضل العلم وشرفه وشرف أهله، وأن الإسلام قام على العلم كما ورد في أول ما نزل منه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. . .} وفي آيات كثيرة، كقوله تعالى: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} سورة المجادلة.

وقد آل الحكم والنبوة من داود إلى سليمان ابنه، الذي أخبر الناس تحدثاً بنعم الله عليه بأنه أثوتي فَهَمَّ لغة الطير، وأنه مُنَح من جميع النعم قسطاً وافراً، وإن هذا الذي آتاه الله هو الفضل الكبير. وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن لكل جماعة من الطير طريقة خاصة تتفاهم بها الأفراد.

وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يتلاحقون، حتى إذا مروا بوادٍ فيه نمل كثير قالت نملة لجماعتها: يا معشر النمل، ادخلوا مساكنكم لا يحلكنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فسمعها سليمان فتبسم ضاحكاً متعجباً من قولها، وسأل الله تعالى أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه وعلى والديه من علم وملك، وأن يوفقه للعمل الصالح الذي يرضاه، وأن يدخله في رحمته وكرمه وفضله ويجعله من جملة عباده الصالحين. وقد كتب كثير من الكُتَّاب والباحثين عن معيشة النمل ونظامها، وما لها من عجائب في معيشتها وتبدير شؤونها، ومثابرتها على العمل. وانها تتخذ القرى في باطن الأرض، وتخزن قوتها لأيام الشتاء.

٢٧٠٤ 20

تفقد الشيء: سأل عنه وطلب معرفة احواله. بسلطان مبين: بحجة واضحة. أحطت بما لم تحط به: علمت أشياء لا تعرفها. سبأ: ابو قبيلة من اليمن، ومملكة ظهرت في شرق المنطقة المعروفة الآن باسم صِرواح ومأرب فسميت البلاد باسمها، واليه تنسب اللغة السبئية والديانة السبئية. نبأ: بخبر عظيم. العرش: سرير الملك. فصدّهم عن السبيل: منعهم عن طريق الحق والصواب. يُخرج الخبء: يخرج الخبوء من كل شيء.

وتفقد سليمان جماعة الطير التي تجتمع عنده فلم يجد الهدهد، فقال: أين الهدهد، فقال: أين الهدهد، أين غاب عني؟ ثم توعده بالعذاب اذا لم يجد سبباً يبرر به غيبته، او يأتيه بحجة واضحة تظهر له عذره. وجاء الهدهد بعد غياب قليل وقال لسليمان: علمت ما لم تعلم، وجئتك من دولة سبأ بخبر ذي شأن عظيم. إني وجدت في سبأ امرأةً تحكمهم، أوتيت من كل شيء يحتاج اليه الملوك في ترفهم، ولها عرش عظيم. وهي وقومها يعبدون الشمس ولا يعبدون الله، لقد زين الشيطان لهم عبادتهم وأبعدهم عن دين الله فهم لا يهتدون، وأمرهم أن لا يسجدوا لله الذي يُخرج كل شيء مخبوء في السماوات والأرض، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}. وهنا موضع سجدة.

قراءات:

قرأ ابن كثير: «اوليأتينني» بنونين، والباقون: «اوليأتينني» بنون واحدة. قرأ عاصم: «ومكث» بفتح الكاف. والباقون: «ومكث» بضم الكاف وهما لغتان. وقرأ ابن كثير: وابو عمرو «من سبأ» بفتح الهمزة على انه ممنوع من الصرف، والباقون: «من سبأ» بالتثنية والجر.

تولّ عنهم: تتجّ، ابعد عنهم. ماذا يرجعون: ماذا يدور بينهم. الملائ: اشراف القوم. ألاّ تعلو عليّ: الا تتكبروا. مسّلين: منقادين. افتوني: أشيروا علي. ما كنت قاطعةً أمراً: ما كنت لأعمل أي شيء. حتى تشهدون: حتى تحضرون. أراد سليمان ان يختبر الهدهد: أصادق هو ام كاذب؟ فأعطاه كتاباً ليوصله الى ملكة سبأ، واسمها بلقيس. ذهب الهدهد بالكتاب وألقاه على سريرها، فاخذته فإذا به: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} . لم ترد الملكة ان تستبدّ بالجواب، شأن بعض الملوكن فجمعت رجال دولتها وأشراف القوم وأطلعتهن على الكتاب. فأخذتهن العزة وثارن فيهم الحماسة وقالوا:

{قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} .

وكانت الملكة عاقلةً فنظرت في الأمر بعين الفطنة، ولم تغترّ بما أبداه رجالها من الحماسة وقالت لهم: ان دخول املوك المدن والقرى فاتحين ليس من الأمور الهينة، وليس أثره بالسّهل على أهلها. (وكان من عادات الفاتحين قبل الاسلام ان يستعبدوا المغلوبين، ويذبحوا رجالهم ويستحيوا نساءهم ويفسدوا الحرث والنسل) . وعرضت عليهم رأياً آخر وجدته أقرب الى حلّ هذه الأزمة التي أتتها من حيث لم تحتسب، ذلك ان ترسل إلى سليمان بهدية تصانعه بها، وتطلب مودته، ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها الى سليمان.

لا قيل لهم بها: لا طاقة لهم بمقاومتها. صاغرون: مهانون محتقرون. العرش: سرير الملك. العفريت من البشر: الخبيث الماكر، ومن الشياطين: المارد. قال الذي عنده علم من الكتاب: رجل أعطاه الله علماً خاصاً، وقوة روحية. قبل ان يردد اليك طرفك: قبل ان تطرف عينك، والمراد هو السرعة الفائقة. ليلوني ربي: ليختبرني ربي. فلما جاء رسلها الى سليمان بالهدية لم يقبلها وقال إنه ليس في حاجة إلى اموالهم لما عنده من الثروة والملك، كما توعدهم بأنه سيرسل الى بلادهم جنوداً لا طاقة لهم بهم، وان اقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلةً صاغرين.

فلما جاء الخبر من الرسل الى الملكة وعلمت عظمت سليمان وقوة ملكه - أشفقت على قومها. فأجمعت أمرها على الذهاب إليه في بعض أشراف قومها وتوجهت الى القدس بهدية عظيمة. ولما علم سليمان باعترام ملكه سبأ زيارته، شيد لها صرحاً عظيماً، ومردّ أرضه بالزجاج: وهذا شيء لا عهد لأهل اليمن بمثله.

ولما قربت من ديار سليمان أراد ان يفاجئها بشيء يبهّرها، كأن ترى بعينها ما لم تر من قبل في الاحلام، وهو أن يأتيها بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه في ذلك الصرح. فسأل جنوده عن قوّي يأتيه بذلك العرش: فانتدب له عفريت من الجن وقال: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ}

إني لقادر على ذلك وأمين على كل ما في العرش من جواهر وحلي. وقال رجل {عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} وكان الأمر كما قال. فجاء به ووضع في الصرح الذي هبّء لاستقبالها. فلما رأى سليمان عرش بلقيس أمامه قال: الحمد لله. . . هذا من فضل ربي ليختبرني أأشكر ام اكفر. . ومن شكر الله ففائدة الشكر تعود اليه، ومن بحد ولم يشكر فان الله غني عن العباد وعبادتهم، كريم بالإنعام عليهم وان لم يعبدوه.

اما الطريقة التي جيء بها بالعرض فشيء لم يأت تفصيل له بخبر صحيح، وهو معجزة خارقة للعادة، كبقية المعجزات نسلّم بها تسليماً. وأهل القصص وبعض المفسرين يذكرون ان سليمان تزوج منها وجاءه منها ولد، ويزعم ملوك الحبشة أنهم أبناء سليمان من الولد الذي ولدته من سليمان، لكن هذا زعم منهم.

قراءات:

قرأ حمزة ويعقوب: اتمدوني بنون واحدة مشددة. الباقون: اتمدوني بنونين.

٢٧٠٧ 41

نكروا لها عرشها: غيروا فيه. صدّها: منعها. الصرح: كل بناء مرتفع. حسبته لجة: ظننته ماء. ممرّد: ذو سطح املس. من قوارير: من زجاج وتحتته الماء.

وقال سليمان لجنده: نكروا لها عرشها ببعض التغيير في مظاهره. وسرى هل تعرفه ام لا. فلما جاءت ورأت العرش قيل لها: أهكذا عرشك؟ فقالت: كأنه هو. وقال سليمان وقومه: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} منقادين لله ولحكمه. وهذا قول أكثر المفسرين، وبعضهم يجعل عبارة: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} من قول بلقيس ويكون معنى الكلام: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصدق نبوتك من قبل هذه المعجزة بما شاهدناه وبما سمعناه، وكنا منقادين لك من ذلك الحين.

ثم ذكر سبحانه ما منعها من إظهار ما ادّعت من الاسلام الى ذلك الحين فقال:

{وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ}

ولقد صرفها عن عبادة الله ما كانت تعبد من آلهة غير الله تعالى، فانها كانت تعبد الشمس، وكانت من قوم كافرين.

{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ}

ولما أرادت دخول الصرح والوصول الى العرش رأت ماءً يتّوجّج، فيه انواع من حيوان البحر ودوابه. فكشفت عن ساقها لثلاث تبثّل أذيالها بالماء، كما هي عادة من يخوض الماء. فقال لها سليمان: إن ما تظنّينه ماءً ليس بالماء، بل هو صرح أملس مكوّن من زجاج: فراعها ذلك المنظر، وعلمت ان ملكها لا يساوي شيئاً بجوار ملك سليمان، فقالت: {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

٢٧٠٨ 45

فريقان: طائفتان. طائفة مؤمنة، واخرى كافرة. يختصمون: يتنازعون. السيئة: العقوبة. الرحمة: أطيرنا: نشاء منا. طائرکم: ما يصيبکم من الخير والشر. تفتنون: تحتبرون. المدينة: الحجر، مداين صالح. الرهط: النفر من الثلاثة الى التسعة. تقاسموا: حلفوا. لنبيّته: نهجم عليه بغتة ليلاً. وليّه: أقرب الناس اليه. مهلك اهله. أهلاك أهله. دمرناهم: أهلكناهم. خاوية: خالية.

ولقد بعثنا الى قوم ثمود أخاهم صالحاً، فقال لهم اعبدوا الله، فإذا هم طائفتان يختصمون: جماعة تؤمن بالله، واخرى كافرة، هي الأكثر والأقوى. فقال صالح لقومه: لم يستعجلون طلب العذاب قبل الرحمة؟ هلاّ تستغفرون ربكم لعله يرحمكم! قالوا: إنا نشاء منا بك وبمن اتبعك. (وأصل التطير: ان العرب كانوا اذا خرجوا مسافرين فرّوا بطائر وزجروه فان طار الى جهة اليمين تيمّنوا به، وان مرّ الى جهة اليسار نشاء وموا به).

قال لهم صالح: ان سبب تشاؤمكم هو كفرکم بالله، فقد اراد الله ان يختبرکم ليعرف من منكم سيؤمن، ومن يكفر.

وكان في مدينة صالح تسعة رجال من المفسدين، طواغيت لا يسلم من شرهم احد، تحالفوا على مباغتته ليلاً وقتله هو واهله، وان يقولوا لوليّ دمه: لا علم لنا بمن قتلهم. ومكر هؤلاء مكرهم، ودبر الله ردّ كيدهم في نحرهم وهم لا يشعرون، فكان عاقبة مكرهم ان دمرهم الله أجمعين. وتلك بيوتهم خالية. والمشركون من مكة يمرّون بهذه البيوت المدمرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: لتبيّنه واهله ثم لتقولن، بالتاء، وقرأ مجاهد: «لتبيّنه» بالياء، والباقون: لتبيّنه. . . . بالنون. وقرأ عاصم:

مهلك اهله، بكسر اللام، وقرأ ابو بكر: مهلك بفتح الميم واللام. والباقون: مهلك بضم الميم وفتح اللام.

ذُكرت قصة لوط في عدد من السور: في سورة الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل هنا، والتحريم، وذلك باختلافٍ يسير وبعضها يكمل بعضها. وخلاصة ما جاء هنا ان لوطاً قال لقومه: ويلكم، أتأتون الفاحشة بالذكور وبعضكم ينظر الى بعض، وتأتون الذكور وتتركون النساء!! إنكم قوم جاهلون بنتائج ما سيحدث لكم من هلاكٍ ودمار وعذاب في الآخرة. فما كان جواب قومه الا ان قال بعضهم لبعض: اطرّدوا لوطاً ومن آمن معه من بلادكم، إنهم اناس يتطهرون. فأنجاه الله وأهله والمؤمنين به الا امرأته التي كانت من الكافرين، ثم دمر بلادهم، وامطر على أولئك المفسدين مطر عذابٍ ونقمة.

عباده الذين اصطفى: الأنبياء عليهم السلام: حداث: بساتين. ذات بهجة: ذات منظر حسن يبتهج به من يراه: يعدلون: يميلون عن الحق ويخرفون حيث يجعلون لله عديلاً. قرارا: مستقرا. خلاها: بينها. الرواسي: الجبال. حاجزا: فاصلاً بينهما. الرياح بُشرا: مبشرة بالرحمة، أي المطر.

قل يا محمد: الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اختارهم لرسالته، وجمع المتقين المصلحين واسأل معارضيك: أي الآلهة أفضل، الله ام الاصنام التي يعبدونها وهي لا تضر ولا تنفع؟ . أسألم أيها الرسول: من خلق السموات والأرض على ما يهما من ابداع وحكمة، وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبث به بساتين جميلة تسر الناظرين، ما كنتم تستطيعون ان تنبتوا شجرها؟ ولكن الكفار يعدلون عن الحق والإيمان، ويميلون الى الباطل والشرك.

أسألم ايها الرسول: من الذي جعل الأرض للاستقرار عليها، وخلق وسطها انهارا، وخلق عليها جبالا تمنعها من الميل، وجعل بين الماء العذب والماء المالح فيها فاصلاً يمنع امتزاج احدهما بالآخر، هل هناك إله مع الله؟ بل اكثرهم لا يعلمون.

واسألم ايها الرسول: من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف عنه سوء، ويجعلكم خلفاء في الأرض تتصرفون فيها، هل هناك إله مع الله؟ {قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} .

أسألم أيها الرسول: من يهديكم في ظلمات البر والبحر وأنتم لا تدرون اين تذهبون، ومن يرسل الرياح مبشرة بمطر هو رحمة من الله؟ أهناك إله مع الله تعالى يصنع ذلك {وتعالى عما يُشْرِكُونَ} .

واسألم ايها الرسول: من ينشئ الخلق ابتداءً ثم يوجده بعد فناءه كما كان، ومن يرزقكم من السماء والارض، هل هناك إله مع الله يفعل ذلك؟ قل ايها الرسول: {هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

قراءات:

قرأ الجمهور: قليلاً ما تذكرون بالتاء. وقرأ ابن عمرو وهشام وروح: قليلاً ما يذكرون. بالياء.

أيان يُبعثون: متى يبعثون للحساب والجزاء. ادراك: تدراك تلاحق. في شكل: في حيرة. عمون: عميان. أساطير: خرافات. ردف لكم: لحق بكم. تكن: تخفي.

قل ايها الرسول للناس: لا يعلم جميع من في السموات والارض الغيب غير الله وحده، ولا يعرفون متى يبعثون من قبورهم يوم القيامة. ثم اكّد الله جهلهم بهذا اليوم فقال:

{بَلِ ادْرَاكُ عَلَهِمْ فِي الْآخِرَةِ}

بل تلاحق عليهم في الآخرة من جهل الى شك وحيرة، بل هم في ضلالة وجهل عظيم من أمرها.
وقال الذين كفروا: إذا استحالنا اجسادنا الى تراب نحن وآبائنا، هل نخرج من قبورنا حياة اخرى؟ لقد وعدنا الرسل هذا ووعدا آباءنا قبلنا، لكن هذا خرافات القدماء يتناقضونها.
ثم أمر رسوله الكريم ان يرشدهم الى وجه الصواب مع التهديد والتوعيد فقال:
{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}
تقدم مثل هذه الآية في آل عمران ١٣٧.
ثم سأل رسوله عليه الصلاة والسلام على ما يناله من عماهم عن السبيل القويم الذي يدعو اليه فقال:
{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} . وتقدمت هذه الآية في النحل ١٢٧.
ويقول الكافرون: متى يتم الوعد المنذر بحلول العذاب ان كنتم صادقين؟ .
{قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ}
قل ايها الرسول: عسى ان يكون قد لحق بكم وقرب منكم بعض ما تستعجلونه من العذاب.
ثم بين الله السبب في ترك تعجيل العذاب فقال:
{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ}
ان ربك هو المنعم المتفضل على الناس جميعاً بتأخير عقوبتهم ليتوبوا، ولكن اكثر الناس لا يشكرونه على ذلك.
{وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}
ان الله يعلم كل ما يفكر فيه الانسان ويكتمه في صدره، وكل ما يعلنه من الأقوال والأفعال.
ثم بين ان كل ما يحصل في هذا الوجود محفوظ في كتاب واضح دقيق لا يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها.
قراءات:
قرأ الجمهور: بل أدراك بتشديد الدال المفتوحة بعدها الف. وقرأ ابن كثير وابو عمرو ابو جعفرن: بل أدرك باسكان الدال وبدون الف بعدها.

٢٧.١٢ 76

وقع: حدث وحصل. القول: مجيء الساعة. فوجا: جماعة. يوزعون: يمنعون ويجمعون ويزجرون.
ان هذا الكتاب الذي أنزل على محمد بين لبني إسرائيل حقيقة ما جاء في التوراة من عقائد وأحكام وقصص، ويردّهم الى الصواب فيما اختلفوا فيه.
وهو مصدر هداية للمؤمنين، ورحمة لمن صدّق به وعمل بما فيه، يرحمهم به الله من الشك والقلق والحيرة.
وبعد ان ذكر فضله وشرفه أتبعه دليل عدله فقال:
{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}
فهو يفصل بين الناس جميعاً يوم القيامة بعدله، وهو العزيز الذي لا يُردّ قضاؤه، العليم بأفعال العباد واقوالهم.
ثم امر رسوله الكريم ان يتوكل عليه وحده في جميع اموره، فانه كفيه كل ما يهيمه، ونصره على اعدائه، لأنه على الحق الواضح: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} .
ثم يمضي في تسليّة الرسول ﷺ وتأسيسه على جموح القوم ولجاجهم في العناد واصرارهم على الكفر فيقول:
{إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} .

انك ايها الرسول لا تستطيع هدايتهم، لأنهم كالموتى في عدم الوعي، وكالصم في فقدان السمع فليسوا مستعدين لسماع دعوتك، فلا أمل في استجابتهم للدعوة، ولا في قبولهم للحق.
ثم اكّد ما سلف وقطع اطماعه في ايمانهم فقال:

{وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}

ولا تستطيع ان تهدي الى الحق من عميت ابصارهم وبصائرهم، ولا يمكنك ان تُسمع الا من يقبل الايمان بآياتنا فانهم هم الذين يسمعون منك ويؤمنون برسالتك.

وبعد ان ذكر الله ما يدل على كمال علمه وقدرته، وأبان إنكان البعث والحشر والنشر، ثم فصل القول في إعجاز القرآن الكريم، ونبه بذلك الى إثبات نبوة محمد لله - ذكر بعض أشرار الساعة، وبعض مشاهدها، ومقدمات القيامة وما يحدث من الاحوال حين قيامها، فذكر خروج دابة تكلم الناس وتبين للذين لا يؤمنون بآيات ربهم أنهم على الباطل.

وانه حينئذ ينفخ في الصور فيفزع من في السموات والأرض الا من شاء الله فيثبتهم ويطمئنهم، وكل المخلوقات يأتون الى ربهم صاغرين.

قراءات:

قرأ ابن كثير: ولا يسمع الصم بفتح الياء ورفع الصم. والباقون: ولا تُسمع الصم، بضم تاء تسمع ونصب الصم. وقرأ حمزة وحده: وما انت تهدي العمي.

٢٧.١٣ 86

الم يروا: الم يعلموا. ليسكنوا فيه: ليستريحوا فيه. مبصرا: ليبصروا فيه ويسعوا وراء معاشهم. الصور: البوق. داخرين: أذلاء صاغرين. جامدة: ثابتة في اماكنها. الحسنة: كل عمل صالح نافع. السيئة: كل عمل مخالف للدين والنظام. فكُتِبَتْ وجوههم: القيت منكوسة. البلدة: مكة.

الم يعلموا ويشاهدوا بأنهم انا جعلنا الليل للراحة والهدوء، والنهار واضحاً للسعي وراء معاشهم وتدير امورهم، ان في ذلك لآيات دالة على وجود الله ورحمته للمؤمنين.

ويوم ينفخ اسرافيل في البوق ويدعى الناس للحساب يَفْزَعُ الناس ويخافون من هول ذلك اليوم الا من يشاء الله من المؤمنين فيطمئنهم ويجعلهم في امان.

في ذلك اليوم ترى الجبال فتحسبها ثابتة، مع انها تسير بسرعة هائلة كما قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [الكهف: ٤٧] ، ذلك من صنع الله الذي اتقن كل شيء وابدعه، انه سبحانه كامل العلم بما يتصل الناس.

ثم بين حال السعداء والاشقياء يومئذ فقال:

{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

الذي يعملون في الدنيا الأعمال الصالحة آمنون في ذلك اليوم، ولهم خير مما قدموا، أما الذين كفروا وحسدوا واساؤوا التصرف فانهم يكبون على وجوههم في النار، ويقال لهم هذا جزاء ما كنتم تعملون.

ثم تأتي خاتمة السورة بتوجيهات قدسية من الله لرسوله الكريم والمؤمنين، وتبتيه المشركين الى ما هم فيه من الغفلة وسوء الحال، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة «مكة» الذي حرمها الله (حتى ينبه المشركين بأنهم على خطأ في عبادة الاصنام، وترك عبادة رب البيت الذي له ملك كل شيء) وأمرت ان اكون من المسلمين له المخلصين في عبادتي وديني، وان اتلو هذا القرآن على الناس، فمن اهتدى فإنما يهتدي لخير نفسه، ومن ضلّ فليس عليه حسيباً وانما أنا منذر للناس.

وقل يا محمد: الحمد لله على ما افاض عليّ من نعم، وسيركم ربكم آياته فيكشف لكم في الدنيا عن آثار قدرته، وفي الآخرة عن صدق ما أخبركم به فتعرفونها حق المعرفة، وما هو بغافل عما يعمل المشركون. والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٨ القصص

٢٨٠١ 1

تتلو عليك: نزل عليك، نقص عليك. من نبأ: من خبر عجيّب. شيعا: فرقا مختلفة. نحن: نتفضل. نمكّن لهم: نقويهم ونجعلهم الحاكمين. هامان: وزير فرعون. طاسين ميم، هكذا تقرأ. وهي حروف صوتيه سبقت لبيان ان القرآن المعجز يتألف من هذه الحروف التي يتألف منها حديثكم، ولتنبيه السامعين. والمعنى: ان هذه الآيات التي نوحيا إليك أيها الرسول آيات القرآن الواضح، وفيها نقص عليك بعض أخبار موسى وفرعون بالحق ليعتبر المؤمنون بما فيه. ان فرعون تعاظم في نفسه، وجاوز الحد في ظلمه، واستكبر في مصر، وفرّق أهلها فجعلهم فرقا وطوائف، يصطفي بعضهم ويسخر البعض الآخر. لقد كان يستضعف بني إسرائيل، فيذبذج الذكور من أولادهم ويستبقي الاناث، {إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْذِينَ}.

وأراد الله ان يتفضل على الذين استضعفهم فرعون في الأرض، وان يمكّن لهم سلطانهم، ويثبت لفرعون ووزيره هامان وجنودهما ما كانوا يخشونه من ذهاب ملكهم على يد مولود من بني اسرائيل.

قراءات

قرأ حمزة والكسائي: ويرى فرعون وهامان: بالياء وفرعون مرفوع وهامان كذلك. وقرأ الباقون: ويرى فرعون وهامان بضم النون، ونصب فرعون وهامان.

٢٨٠٢ 7

وأوحينا الى أم موسى: ألهمناها. اليم: البحر والمراد هنا نهر النيل. حزننا: الحزن بفتح الحاء والزاي، والحزن بضم الحاء وسكون الزاي. . . الغم ولمكروه من الشدة. قرة عين: فرح وسرور لنا. فراغا: خاليا من القعل. وان كادت لتبدي به: كادت تذهب الى آل فرعون وتعرف نفسها بأنها أمه. ولولا ان ربطنا على قلبها: لولا ان ثبتناها وجعلناها تصبر. قصيه: اقتني أثره وتبعي خبره. فبصرت به عن جنب: فأبصرته عن بعد وكأنها لا تريد ان تتبع أثره. وهم لا يشعرون: لا يدرون أنها اخته. حرّما عليه المراضع: جعلناه لا يقبل ان يرضع من غير امه. يكفلونه: يضمّنون رضاعته وتربيته.

ولما ولد موسى في أثناء تلك المحنة ألهمنا أمه أن ترضعه وتخفيه ما استطاعت الى ذلك سبيلا، وقلنا لها: إن خفيت عليه فألقيه في النيل، في صندوق، ولا تخافي عليه ولا تحزني، فتحن سنده اليك، وسيكون من الانبياء المرسلين.

فالتقطه آل فرعون وجاءوا به الى سيدتهم، امرأة فرعون، فأحبته تلك المرأة وقالت لزوجها: لا تدبجه، بل اتركه ليكون لنا مصدر سرور وفرح. كانوا لا يدرون أنه سيكون لهم عدواً وسبب حزن كبير، بإبطال دينهم وزوال ملكهم على يديه. . ان فرعون ووزيره هامان وجنودهما كانوا مجرمين.

{وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِّيْ وَلَكَ لَا تَقْتُلُوْهُ عَسَىٰ اَنْ يَنْفَعَنَا اَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ} بما قدر الله في شأنه.

وصالح فؤاد أم موسى فارغاً من العقل خوفاً على ابنها لوقوعه في يد فرعون، حتى إنها كادت تذهب الى آل فرعون وتعرف نفسها بانها امه، لولا ان ثبتها الله بالصبر.

وقالت لأخته: اقتني أثر أخيك، وتبعي خبره عن بعد وهم لا يشعرون بك. ولم يقبل موسى ان يرضع من أي امرأة، فقال اخته لآل

فرعون: هل أدلكم على امرأة ترضعه وتقوم بأمره وتنصح في خدمته؟ ووافقوا. وهكذا أرجعناه الى امه لتطمئن الى وعدنا ويذهب عنها الحزن، ولتعلم ان وعد الله حق، وانه سيكون من المرسلين.
قراءات:
قرأ حمزة والكسائي: حُزنا بضم الحاء وسكون الزاي. والباقون: وحزنا: بفتح الحاء والزاي وهما لغتان.

٢٨٠٣ 14

بلغ أشده: استكمل قوته وكفاية نموه. استوى: اعتدل وكل عقله. حُكماً: حكمة. المدينة: مصر. على حين غفلة: في وقت لا يتوقعون دخوله، من شيعته: من بني قومه. من عدوه: من الاقباط. فاستغاثه: طلب العون منه. فوكزه: ضربه بجمع يده. فقى عليه: فقتله. بما أنعمت عليّ: اقسم بنعمك علي. ظهيرا: معينا. يترقب: ينتظر ما يناله من اذى. استنصره: طلب نصره. يستصرخه: يطلب الاغاثة بصوت مرتفع. لغوي مبين: ضال كبير. ان يبطش: ان يسطو عليه بعنف.

فلما بلغ موسى رشده واكمل نموه، واستوى جمسا وعقلاً آتيناها حكمة ومعرفة وعلمها، وكذلك نكافىء كل محسن. ودخل موسى المدينة على حين غفلة في وقت ليس من المعتاد الدخول فيه، فوجد رجلين يقتتلان: أحدهما من بني دينه، والآخر من الاقباط. وحين استغاث به الذي من جماعته، ضرب موسى القبطي بجمع يده فقى عليه من غير قصد، فقال: هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل ظاهر العداوة.

ثم قال موسى متضرعا الى الله نادما على ما فعل: ربّ اني ظلمت نفسي بعلمي هذا فاغفر لي. فغفر الله له، إنه غفور رحيم. قال موسى: يا رب، بحق إنعامك عليّ بالحكمة والعلم وفقني للخير والصواب، ولن أكون بعد هذا معينا للمجرمين. وأصبح في مصر خائفاً يترصد وقوع القصاص به. فإذا صاحبه الذي استنجد به بالأمس يستغيث به ثانية، فقال له موسى: إنك شرير ضال. ودفعته الغيرة عليه حتى هم ان يبطش به فقال له الرجل: يا موسى، اتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ أتريد ان تكون طاغية في الأرض من الجبابرة السفاكين لا الخيرين!!

٢٨٠٤ 20

أقصى المدينة: من ابعد مكان فيها. يسعى: يسرع. الملاء: أشراف القوم ووجوههم. يأتَمرون بك: يتشاورون في امرك. يترقب: يلتفت بمنة ويسرة. توجه تلقاء مدين: ذهب الى جهة مدينة مدين، وهي بأرض الحجاز محاذية للبحر الاحمر. سواء السبيل: أوسط الطرق وأسهلها. ولما ورد ماء مدين: لما وصل مكان الماء في مدين. تذودان: تمنعان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء. أمة: جماعة. ما خطبك: ما شأنك. حتى يصدر الرعاء: حتى يسقي الرعيان وينصرفون. الرعاء والرعاة والرعيان بمعنى واحد. تولى الى الظل: ذهب الى الظل. الاستحياء: شدة الحياء. ليجزيك: ليعطيك أجر ما سقيت لنا. وقصّ عليه القصص: أخبره بخبره وقصته. أنكحك: أزوجك. على ان تأجرني ثماني حجج: على ان تكون عندي أجيراً مدة ثمان سنين. فان أتممت عشرا فمن عندك. فان زدت وبقيت عندي مدة عشر سنين فهذا من فضلك. وما اريد ان اشقّ عليك: لا اريد ان ادخل عليك مشقة. ايما الأجلين قضيت: اي أجل قضيته ثماني سنين او عشراً. فلا عدوان عليّ: لا حرج علي. والله على ما نقول وكيل: شهيد.

وجاء رجل من شيعته من أقصى المدينة مسرعاً، فقال: يا موسى، ان زعماء القوم يتشاورون في أمرك ليقتلوك. اخرج من مصر، إني لك من الناصحين. فخرج منها موسى وهو خائف يترقب أن يلحقه أحد منهم، ضارعا الى الله ان ينجيهِ من الظالمين. ولما توجه الى «مدين» لعله يجد فيها مأمناً سأل ربه ان يهديه طريق الخير والنجاة. وهناك في مدين وجد ماءً، وكان عليه جماعة كبيرة يسقون مواشيهم. ووجد امرأتين في ناحية تمنعان اغنامهما ان ترد الماء، فسألهما عن شأنهما، ولماذا لا تردان الماء؟ قالتا: لا نستطيع ان نسقي حتى ينصرف

الرعاة، وأبونا شيخ كبير فتولى موسى سقي غنمهما ثم انصرف الى الظل، وسأل ربه ان يسوق اليه رزقاً من خيره لأنه لا يملك شيئاً. وبعد برهة جاءت إحدى الفتاتين تسير في حياء، وقال له: إن أبي يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا. فلما ذهب معها الى أبيها وقص عليه قصة خروجه من مصر، قال له الشيخ: لا تخف، نجوت الآن من القوم الظالمين.

قالت إحدى الفتاتين، يا أبت، استأجره ليكون راعياً لغنمنا، إنه خير من تستأجر، فهو قوي وأمين. فعرض عليه أبوهما ان يزوجه واحدة من ابنتيه على ان يؤجره نفسه مدة ثماني سنين، فان أتمها عشرأ كان ذلك من فضله. فقبل موسى الشرط، وعاهده على الوفاء به، وقال: أي مدة من المديتين أقضيها في العمل أكون وفيتك عهدك فلا اطالب بزيادة عليها، والله شاهد على ما نقول. لم يذكر اسم الشيخ الكبير هذا في القرآن، ويقال إنه ابن أخ شُعيب النبي، اذ ان موسى لم يدرك النبي شعيباً على الصحيح. قراءات:

قرأ أبو عمرو وابن عامر: حتى يصدرُ ارعاء بفتح الياء وضم الدال. والباقون: حتى يصدر بضم الياء وكسر الدال.

٢٨٠٥ 29

قضى الأجل: اتم المدة المتفق عليها. آنس: أبصر. جذوة: جمرة ملتهبة. تصطلون: تستدفئون. البقعة المباركة: المكان الذي بارك الله فيه. جان: حية سريعة الحركة. ولم يعقب: لم يرجع. اسلك يدك: أدخلها. الرهب: المخافة، الخوف.

فلما أتم موسى المدة التي اتفق عليها مع عمه حنَّ الى وطنه، فاستأذن بالرحيل وسار بزوجه وما معه من الغنم التي حصل عليها من صهره عائدا الى مصر. وكان الجو بارداً، وقد أظلم الليل، فضلَّ موسى الطريق. وبينما هو كذلك رأى ناراً من ناحية جبل الطور، فقال لزوجه: امكثي، اني رأيت ناراً، لعل آتيك منها بخبر عن الطريق، او آتيك بشيء من النار تستدفئين بها.

فلما وصل الى المكان الذي رأى فيه النار، سمع منادياً من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة يقول له: يا موسى، إني انا الله رب العالمين. . ألق عصاك. فألقاها موسى. فلما رآها تهتز كأنها حية هرب منها ولم يرجع اليها. فناداه ربه: أقدم يا موسى ولا تخف، إنك من الآمنين. أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير مرض ولا عيب، (وكان موسى اسمر اللون) ، هاتان معجزتان من الله، تواجه بهما فرعون وقومه.

ولما اعترى موسى الخوف من العصا وأخذته الدهشة من شعاع يده - أمره ربه ان يضع يده على صدره ليزول ما به من الخوف فقال: {واضمم إليك جناحك من الرهب} . قال ابن عباس: كل خائف اذا وضع يده على صدره زال خوفه. قراءات:

جذوة: مثلثة الجيم وقرىء بها جميعاً. وقرأ حفص: من الرهب بفتح الراء وسكون الهاء. وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو: من الرهب بفتح الراء والهاء. وقرأ حفص: من الرهب بفتح الراء وسكون الهاء. والباقون: من الرهب بضم الراء وسكون الهاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: فذانك بتشديد النون، والباقون: فذانك: بكسر النون دون تشديد.

٢٨٠٦ 33

رداء: معينا. يصدقني: يوضح ما أقوله، ويجادل عني المشركين. سنشد عضدك: سنقويك ونعينك بأخيك. ونجعل لك سلطاناً: قوة وغلبة. مفترى: مختلق. ومن تكون له عاقبة الدار: ومن الذي يفوز.

قال موسى: يا رب لقد قتل من قوم فرعون نفساً، فأخاف ان يقتصوا مني. . . . إن أخي هارون أصبح مني لساناً فأرسله معي معينا يُصدقني بحجتي ويجادل عني، لأنني أخاف ان يكذبوني. هذا كما أن لساني لا يطاوعني عند المجادلة. قال الله: سنُعِينك ونقويك بأخيك هارون، ونجعل لك قوةً وحجة دافعة فلا يصلون إليك. . . . اذهبا بآياتنا إليهم، فأتنا ومن اتبعكما الغالبون. قراءات:

قرأ نافع: رداء بكسر الراء وفتح الدال بغير همزة. والباقون: رداءا بكسر الراء وسكون الدال بعدها همزة. وقرأ عاصم وحمزة: يصدقني: بضم القاف. والباقون: يصدقني بسكون القاف.

٢٨٠٧ 38

هامان: وزير فرعون. صرحا: قصرا عاليا. اطلع: أصدع واتطلع من فوقه. فبذناهم: طرحناهم. يدعون الى النار: يدعون الى الكفر الموجب الى النار. لعنة: طرداً من الرحمة. من المقبوحين: المخزيين المهلكين. القرون الأولى: قوم نوح وهود وصالح. بصائر: أنوارا تهدي قلوبهم.

وقال فرعون عندما عجز عن محاجة موسى: يا أيها القوم، ما علمت لكم إلهاً غيري كما يدعي موسى، فاعمل يا هامان لي بناءً عالياً أصدع وأرى الله موسى {وَأِنِّي لِأُظْهِرَنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ} .

واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر. . . بغير الحق، وحسبوا أنهم لا يرجعون إلينا حتى يلاقوا جزاءهم. فأخذنا فرعون وجنوده فألقيناهم في البحر حين تعقبوا موسى ومن معه حتى يمنعوهم من الخروج من مصر. . . فانظريا محمد كيف كانت عاقبة الظالمين. وجعلناهم دعاة يدعون إلى الكفر الذي يؤدي إلى النار {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ} وجعلنا اللعنة تتبعهم في هذه الدنيا، وهم يوم القيامة من المهلكين.

ولقد أنزلنا التوراة على موسى بعد ما أهلكنا الأمم التي سبقتهم من الكافرين نوراً للناس ينصرون به الحق، وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون. قراءات:

قرأ ابن كثير: قال موسى، والباقون: وقال موسى بالواو. وقرأ حمزة والكسائي: ومن يكون له عاقبة الدار بالياء، والباقون: ومن تكون بالتاء. وقرأ نافع وحمزة والكسائي: لا يرجعون بفتح الياء وكسر الجيم، والباقون: لا يرجعون بضم الياء وفتح الجيم.

٢٨٠٨ 44

بجانب الغربي: هو جبل الطور في سيناء. قضينا: عهدنا اليه وكلفناه أمرنا ونهينا. فتناول عليهم العمر: طال عليهم الأمد الذي بينهم وبين القرون الماضية. ثاويًا: مقيما. وصلنا لهم القول: انزلنا متواصلا بعضه اثر بعض.

وما كنت يا محمد حاضراً بجانب الوادي الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة إلى موسى حين عهد إليه امر النبوة، فكيف يكذب قومك برسالتك وانت تتلو عليهم انباء السابقين؟! .

لقد كان ذلك منذ قرون طويلة انقطعت فيها الرسالات وطال الزمن فأتينا بك لقومك لتنذرهم برسالتك، وما كنت مقيماً في «مدين» حتى تخبر أهل مكة بأنبائهم، ولكنا أرسلناك وأخبرناك بقصصهم وأخبارهم.

ولم تكن ايها الرسول حاضراً في جانب الطور حين نادى اله موسى واصطفاه لرسالته، ولكن الله أعلمك بهذا القرآن رحمةً منه بك وبأمتك، لتبلغه قوماً لم يأتهم رسول من قبلك، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} . وحتى لا يقول قومك حين تصيبهم كارثة بسبب كفرهم: يا رب، إنك لم ترسل إلينا رسولاً يبلغنا فنتبعه {وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} فأزحنا العذر وبعثناك ايها الرسول اليهم.

فلما جاء محمد بالحق قالوا تمرداً وعنادا: هلا أوتي مثل ما أوتي موسى من المعجزات الحسية حتى نؤمن به! ويلهم، ألم يكفروا بموسى كما كفروا بك! وقالوا إنما انتما ساحران ينصر أحداًكم الآخر ويعاونه.

ثم امر رسوله ان يتحدى قومه أن يأتوا بكتاب أهدى من القرآن والتوراة للبشر وأصلح لخالهم فقال:

{قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} .

ثم توعدهم لأنهم لم يستطيعوا ان يأتوا بالكتاب فقال:

{فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}

ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله! ان الله لا يهدي الذين يظلمون أنفسهم بالتماذي في اتباع الهوى.

قراءات
قرأ أهل الكوفة: سحران بغير الف يعني القرآن والتوراة. الباقون: ساحران: يعني موسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام.

٢٨٠٩ 52

مسلمين: منقادين لله. يدرأون: يدفعون: اللغو: ما لا فائدة فيه. لا نبتغي الجاهلين: لا نطلب صحبتهم.

قال ابن اسحاق: قدم جماعة من النصارى على رسول الله ﷺ بمكة من الحبشة فوجدوه في المسجد، فجلسوا اليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش حول الكعبة. فلما فرغوا من استئلتهم عما أرادوا دعاهم الرسول إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوا الرسول، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فاعترضهم أبو جهل ونفر من قريش وحاولوا ان يصدّوهم عن إيمانهم. وأغلظوا لهم القول. فقالوا لهم: سلامٌ عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه.

وقال بعض المفسرين: إنهم نصارى من أهل نجران.

والحق، أن بعض أهل الكتاب من النصارى يؤمنون بهذا القرآن، ويقولون: إنه الحق من ربنا، بشرنا الله به من قبل ان ينزل القرآن. . . . هؤلاء يعطيهم الله أجرهم مرتين نتيجة صبرهم على اذى الناس، وإيمانهم، وإيثارهم العمل الصالح، وأنهم يقابلون السيئة بالعفو والاحسان، وينفقون في سبيل الله مما أعطاهم من اموال وخيرات، وإذا سمعوا الباطل من الجاهلين انصرفوا عنهم، وقالوا: لنا أعمالنا ولكم اعمالكم، سلام عليكم لا نريد مصاحبة الجاهلين.

٢٨٠١٠ 56

تختطف: نسلب بلدنا ونقتل. يُجْبَى اليه: يجلب اليه. بطرت معيشتها: بغت وتجرّبت وكفرت بالنعمة. أمها: اكبرها، عاصمتها. من المحضرين: الذين يحشرون للحساب والجزاء. وقد تكرر هذا التعبير في القرآن: {لَكُنْتُ مِنَ الْمَحْضَرِّينَ} [الصافات: ٥٧] . {فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات: ١٢٧] {فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} [الروم: ١٦] [سبأ: ٣٨] . {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}

يقرر جمهور المفسرين ان هذه الآية نزلت في ابي طالب، فقد ورد في الصحيحين أنها نزلت فيه. وروي عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة أنها نزلت في أبي طالب. ففي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيّب: «لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة، فقال رسول الله: جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة، فقال رسول الله: يا عم، قل لا اله الا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال ابو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ . فكان آخر ما قال: انه على ملة عبد المطلب» وعند الشيعة الامامية الاجماع على ان ابا طالب مات مسلماً، والله أعلم.

ومعنى الآية: انك لا تستطيع هداية من أحببت من قومك او غيرهم، وانما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك. {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} .

ثم اخبر سبحانه عن اعتذار كفار قريش في عدم اتباع الهدى فقال: {وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا}

وقال مشركو مكة: إنا نخشى إن اتبعناك على دينك وخالفنا من حولنا من العرب ان يقصدونا بالأذى، ويحلونا عن ديارنا، ويغلبونا على سلطاننا.

وقد رد الله عليهم مقاتلهم فقال:

{أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}

إن ما اعتذرت به غير صحيح، فقد كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، افتخافون اذا عبدتموني وآمنتم بي؟ وقد تفضل عليكم ربك وأطعمكم من كل الثمرات التي تجلب من فجاج الارض. ولكن اكثرهم جهلة لا يعلمون ما فيه خيرهم وسعادتهم.

قراءات

قرأ الجمهور: يُجْبَى بالياء وقرأ نافع: تُجْبَى بالتاء.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِّنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَكُنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}

وكثير من القرى أثرى أهلها فبطروا وأفسدوا في الأرض فخرّب الله ديارهم واصبحت خاوية لم يسكنها أحد بعدهم الا قترات عابرة للهارين بها، وورثها الله جل جلاله. ومثله قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٧].

ثم اخبر سبحانه عن عدله وانه لا يهلك أحدا الا بعد الإنذار وقيام الحجة بارسال الرسل فقال:

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرْيَ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرْيَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}

ليست سنة الله وعدله ان يهلك القرى حتى يبعث في كبرها رسولا يتلو عليهم الآيات ويدعوهم الى الله، ولا يمكن ان نهلك القرى والمدن الا اذا استمر أهلها على الظلم والفساد والاعتداء.

{وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَتَتَّاعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ؟

وما أعطيتم أيها الناس من أعراض الدنيا وزينتها من الأموال والاولاد إلا مجرد متاع محدود تتمتعون به في هذه الحياة، أما الذي عند الله فهو خير من ذلك وأبقى لأهل طاعته من ذلك كله. {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} أيها الناس وتندبرون اموركم فتعرفون الخير من الشر؟

قراءات

قرأ ابو عمرو: يعقلون بالياء. والباقون: تعقلون بالتاء.

{أَفَنِّ وَعِدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} ؟

هل يستوي المؤمن الذي وعده الله السعادة والنصر ثم يوم القيامة يدخله الجنة، مع الكافر الذي أعطاه الله الرزق الكثير وتمتع في حياته، ثم هو يوم القيامة من المحضرين للحساب والجزاء، الهالكين في النار!! انهما لا يستويان.

٢٨٠١١ 62

حقّ عليهم: وجب عليهم. القول: العذاب. أغويانهم: أضللناهم، الغواية: الضلال والفعل غوى يغوى غياً وغواية فهو غاؤه. وفي سورة النجم {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} . فعميت: خفيت. الأنباء: الحجج والاعذار، الخيرة: الاختيار. تكن: تخفي. يعلنون: يظهرون. وله الحكم: له القضاء النافذ في كل شيء.

اذكر ايها الرسول لقومك يوم ينادي رب العزة المشركين ويقول لهم: أين الذين زعمتم انهم شركائي وعبدتموهم من دوني.

فيجيبه قادة الكفر ودعاة الضلال الذين ثبت عليهم العذاب قائلين: يا ربنا، هؤلاء الذين أضللناهم، إنما أغويانهم باختيارهم كما غوينا نحن. لقد دعوناهم إلى ما نحن فضلوا مثلنا باختيارهم، واننا نبرأ اليك منهم فما كانوا يعبدوننا في الحقيقة، وانما كانوا يعبدون أهواءهم. ويقال للأتباع ادعوا شركاءكم واستغيثوا بهم، ففعلوا فلم يجيبوهم، ورأوا العذاب حاضرا، وتمنّوا أنهم كانوا في دنياهم مؤمنين.

ويوم ينادي الله المشركين ويقول لهم: بماذا أجبتكم الرسلين؟ هل آمنتم بهم. فلا يستطيعون ان يقولوا شيئاً، وغابت عنهم الحجج، ولم يجدوا معذرة، ولا يسأل بعضهم بعضاً من الدهش والخوف.

وبعد ان بين حال الكفار المعذنين وما يجري عليهم من التوبيخ والاهانة - أتبعه بذكر من يتوب في الدنيا وما ينتظره من نعم فقال: {فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَحَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} .

وأما من تاب من الشرك، وآمن إيماناً قادقاً وعمل الأعمال الصالحة فانهم يكونون عند الله من الفائزين برضوان الله وبالنعيم الدائم. وربك يخلق ما يشاء ويختار ما يريد، ليس لأحد الخيار في شيء، تنزه وتعالى عما يشركون، وربك يعلم ما تخفي صدورهم وما به يجهرون.

وهو الله لا إله يُعبد ويرجى الا هو، له الحمد في الدنيا من عباده على إنعامه وهدايته، وفي الآخرة على عدله ومثوبته. وهو وحده صاحب الحكم والفضل، واليه المرجع والمصير.

٢٨٠١٢ 71

أرأيتم: أخبروني. سرمدًا: دائماً. تسكنون فيه: تستقرون فيه من متاعب الأعمال. ونزعنا: أخرجنا. شهيدًا: شاهداً. وضلّ: غاب. في هذه الآيات الكريمة تنبيه للناس الى حقيقة يجب ان يعوها، وهي ان الله تعالى لو خلق الأرض بحيث يكون ليلاً دائماً او نهاراً دائماً لكان في ذلك حرج على الخلق ولتعدّرت الحياة عليها. وليس غير الله تعالى من يستطيع ان ينعم علينا بالنهار والليل، لنسكن ونستريح بالليل من عناء العمل، وننشط في النهار لنبتغي فيه الرزق. وما أقسى الحياة لو كانت عملاً بلا راحة. . . . لذلك يجب ان نشكره تعالى على هذه النعم الجزيلة.

فاذكر ايها الرسول يوم ينادي الله المشركين ويقول لهم: أين الشركاء الذين عبدتموهم من دوني؟ فلا يجيبون. ويوم القيامة يحضر الله من كل أمة شاهداً هو نبيها يشهد عليهم بالحق، ثم يطلب الله منهم بعد ذلك حجتهم {فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلُوا أَنَّهُ الْحَقُّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} فيعجزن عن الجواب {فَعَلُوا أَنَّهُ الْحَقُّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} ويكذبون على ربهم في الدنيا.

٢٨٠١٣ 76

فبغى عليهم: تكبر وتجبر. الكنوز: جمع كنز: وهو المال المدفون في باطن الأرض والمراد به هنا المال المدخر. مفاتيحه: جمع مفتاح: ومفاتيح جمع مفتاح والمعنى واحد، وهو المفتاح المعروف لفتح الابواب. لتئو بالعصبة أولي القوة: يعني ان مفاتيح خزائنه من الكثرة بحيث يثقل حملها على الجماعة الاقوياء. لا تفرح: لا تبطر، وتمسك بالدنيا. على علم عندي: على حسن تصرف في التجارة واكتساب المال. ويلكم: كلمة تستعمل للزجر. وي: كلمة يراد بها التندم والتعجب. ويقدر: يضيق، يقلل.

كان قارون من قوم موسى، ويقول بعض المفسرين انه تكبر على قومه غروراً بنفسه وماله، حيث أعطاه الله من الأموال قدراً كبيراً، بلغت مفاتيح خزائنها من الكثرة بحيث يثقل حملها على الجماعة الأقوياء من الرجال. وحين اغتر وكفر بنعمة الله عليه نصحه قومه قائلين: لا تغتر بمالك ولا يفتنك الفرح به عن شكر الله، ان الله لا يرضى عن المغرورين المفتونين.

وقد أورد القرآن هذه القصة حتى يعتبر قوم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إذ أنهم اغتروا بأموالهم، فبين لهم ان أموالهم بجانب مال قارون ليست شيئاً مذكوراً.

ثم نصحوه بعدة نصائح فقالوا:

١ - {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ} اجعل نصيباً منه في سبيل الله والعمل للدار الآخرة.

٢ - {وَلَا تَنَسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} لا تمنع نفسك نصيبها من التمتع بالحلال في الدنيا. كما في الحديث الشريف: «ان لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً»

٣ - {وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} أحسن الى عباد الله كام احسن الله اليك بنعمته، فأمن خلقه بمالك وجهك، وطلاقة وجهك، وحسن لقاءهم.

٤ - {وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِدِينَ} لا تفسد في الأرض متجاوزاً حدود الله، ان الله سبحانه لا يرضى عن ذلك.

قال قارون وقد نسي فضل الله عليه: انما أوتيت هذا المال بعلم خصصت به.

ألم يعلم هذا المغرور ان الله قد أهلك من أهل القرون الأولى من هم أشد منه قوة واكثر جمعا؟ إنه عليم بالمجرمين، في غير حاجة لأن يسألهم ماذا يعملون.

وتجاهل قارون كل هذه النصائح وخرج على قومه في زنيته، فتمنى الذين يطلبون الحياة الدنيا مثل ما عند قارون، وقال الذين رزقهم الله العلم النفع: ويلكم، ثواب الله خير من هذا لمن آمن وعمل الاعمال الصالحة.

ثم ذكر الله ما آل اليه بطره من وبال ونكال فقال:

{نَخْسِفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ...}

نخسفنا به الأرض فابتلعتة هو وداره بما فيها من أموال وزينة، فلم يكن له أنصار يمنعونه من عذاب الله، وما أغنى عنه ماله ولا خدمه، ولا استطاع ان ينصر نفسه.

ولما شاهد قوم قارون ما نزل به من العذاب، صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا وداعيا الى الرضا بقضاء الله وبما قسمه لهم. وصاروا يرددون عبارات التحسر والندم، ويقولون: ان الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده المؤمنين وغير المؤمنين، ويقتري ويضيّق على من يشاء منهم.

{لَوْلَا أَنَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا} .

لولا لطف الله بنا لخسف بنا الأرض. ثم زادوا ما سبق توكيدا بقولهم: «وي، كأنه لا يفلح الكافرون» ان الكافرين بنعمة الله لا يفلحون.

قراءات:

قرأ يعقوب وحفص: نخسف بنا بفتح الخاء والسين، والباقون: نخسف بنا، بضم الخاء وكسر السين.

٢٨٠١٤ 83

فرض عليك: أوجب عليك. لرادك الى معاد: لمعيدك الى بلدك. ظهيرا: معينا. هالك: ذاهب، معدوم. وجهه: ذاته. له الحكم: له القضاء.

تلك الدار الآخرة (وهي الجنة) نجعلها للذين لا يريدون تكبرا في الأرض ولا فسادا، والعاقبة الحميدة للمؤمنين المتقين. وفي الحديث الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قبله مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا وفعله حسنا فقال عليه الصلاة والسلام: ان الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس» رواه مسلم وابو داود.

من جاء بالحسنة له يوم القيامة أفضل منها والله يضاعف لمن يشاء، ومن جاء بالعمل السيء فان الله لا يجزيه الا بمثل عمله، وهذا منه سبحانه رحمة وتفضل.

{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}

ان الله الذي أنزل عليك القرآن وفرض عليك تلاوته والعمل بما فيه - لمعيدك الى الأرض اتي اعتدتها، وهي مكة؛ او: إن المعاد يوم القيامة، فقل ربي أعلم بمن جاء بالهدى وما يستحقه من الثواب والنصر والتكفين في الأرض، وبمن هو في ضلال مبين، وما يستحقه

من القهر والاذلال والعذاب المهين.
 {وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. . . }
 ما كنت ايها الرسول تأمل ان ينزل عليك القرآن، لكن الله أنزله عليك من عنده رحمةً بك وبأمتك، فاذكر هذه النعمة، وثابر على تبليغ الرسالة، ولا تكن أنت ومن اتبعك عوناً للكافرين.
 ولا يمنحك الكافرون يا محمد من تلاوة آياتنا والعمل بها بعد إذ أنزلت إليك، وادعُ الناس الى عبادة ربك وتوحيده، ولا تكونن من المشركين.
 ولا تعبد مع الله آلهاً غيره، فانه لا اله الا هون، كل شيء فان الا ذاته فإنها أزلية ابدية، له الحكم المطلق النافذ وإليه تردون يوم القيامة. وهكذا تختتم هذه السورة الكريمة بتقرير قاعدة الدعوة الى وحدانية الله سبحانه، تفرد بالالوهية والبقاء والحكم والقضاء، ليمض أصحاب الدعوات في طريقهم على هدى، وعلى ثقة وعلى طمأنينة وفي يقين.

٢٩ العنكبوت

٢٩٠١ 1

لا يفتنون: لا يمتحنون. الفتنة: الامتحان والاختبار. ساء ما يحكمون: قبَّح حكمهم. يرجو لقاء الله: يطمع بنيل ثوابه. أجل الله: الوقت المضروب للقاءه. جاهد: بذل جهده في حرب نفسه. جاهداك: حملاك على الشرك.
 {الم} حروف صوتيه تقرأ هكذا ألف، لام، ميم، افتتحت بها السورة لبيان ان القرآن المعجز مؤلف من هذه الحروف، ولتنبيه السامعين وتوجيه أنظارهم الى الحق، وكل سورة صدرت بهذه الأحرف تتضمن حديثاً عن القرآن إما مباشرة، وإما في ثنايا السورة، كقوله تعالى في الآية ٤٥ من هذه السورة {اتل ما أُوحي إليك من الكتاب. . . } والآية: ٤٧ {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ. . . } والآية ٥١ {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ. . . }
 {أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}
 ايظن الناس أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا بالله دون ان يُختبروا بما تثبت به حقيقة إيمانهم. لا بد من امتحانهم بذلك.
 {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}
 لقد اختبرنا الناس من الأمم السابقة بضروبٍ من البأساء والضراء فصبروا وتمسكوا بدينهم، والله يعلم الذين صدقوا في إيمانهم، ويعلم الكاذبين.
 روى البخاري وابو داود والنسائي «عن خباب بن الأرت قال: شكونا الى رسول الله ﷺ ما لقينا من الشمركين من شدة فقلنا: الا تستنصر لنا؟ ألا تدعونا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه، فما يصدّه ذلك عن دينه. والله ليتمنّى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»
 {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}
 ام يظن المشركون والذين يرتكبون الأمور السيئة أننا لا نقدر عليهم!! بئس هذا الحكم الذي يحكمونه بجهلهم وغرورهم.
 {مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}
 من كان يؤمن بالبعث، فوي لقاء الله - فان إيمانه حق، واليوم الموعود الذي عينه الله آت لا محالة، وهو سميع لاقوال العباد، عليم بأفعالهم.

ثم بين الله تعالى أن التكليف بجهد النفس وغيرها ليس لتعجز يعود اليه بل لفائدة الناس. {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} .

ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعة، فإن ثواب جهاد لنفسه، والله سبحانه لا يحتاج الى شيء من اعمالنا، كما قال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} [فصلت: ٤٦] وقال: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ} [الإسراء: ٧] .

لقد ظن بعض المفسرين ان هذه الآية مدينة لأن فيها {وَمَنْ جَاهَدَ} والصواب ان الآية مكّية والمراد هنا بالجهاد جهاد النفس والصبر على الأذى.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}

والذين آمنوا إيماناً صادقاً وعملوا الاعمال الصالحة سنمحو عنهم خطاياهم، ونجزّيهم بأحسن مما عملوا، وأضعاف أضعافه.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} تقدم في سورة الاسراء {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. ٠٠٠} الآية ٢٣.

{وَأِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا. ٠٠٠}

على المرء أن يعامل والديه بالرفق واللين ولو كانا مشركين، فأما إذا اراد منه ان يشرك بالله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}

والذين آمنوا إيماناً صادقاً مع العمل الطيب الخالص لله - يدخلهم ربهم في زمرة من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين {وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] .

٢٩٠٢ 10

فتنة الناس: أذاهم. ونحل خطاياكم: لتكون ذنوبكم علينا. الأثقال: واحداها ثقل بكسر التاء وسكون القاف: الحمل الثقيل، والمراد هنا الذنب والاثم.

النأي في الدين ثلاثة أقسام: مؤمن حسن الاعتقاد والعمل، وكافر مجاهر بالكفر والعناد، ومذبذب بينهما، يظهر الايمان للسانه، ويبطن الكفر في قلبه، وقد بين الله تعالى القسمين الاولين بقوله: {فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} وهنا يبين القسم الثالث بقوله تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ}

ومن الناس من يقول بلسانه آمنت بالله ويدعي الإيمان ظاهراً، فإذا أُصيب بأذى بسبب ايمانه جزعَ وسوّى بين الناس وعذاب الله في الآخرة، واعتقد ان هذا من نعمة الله تعالى، فيرتد عن الاسلام. وهذا كقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ

خَيْرٌ اطمأن به وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وجهه} [الحج: ١١] .

{وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}

لئن فتح الله على المؤمنين وجاءهم بعض الخيرات يقول المنافقون إنا كنا معكم فأشركونا فيها معكم.

وقد توعدهم الله وذكر انه عليم بما في صدورهم، لا يخفى عليه شيء من أمرهم فقال: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} .

ثم بين ان هذه الفتنة إنما هي اختبار من الله ليظهر المؤمن الصادق من المنافق: {وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} فيجازي الفريقين كلا بما يستحقه.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} .

كان زعماء قريش من المشركين يقولون للذين دخلوا في الاسلام: ارجعوا إلى ديننا واتبعوا ما نحن عليه، واذا كان هناك بعث وحساب

تخشونه فنحن نحمل عنكم ذنوبكم. فردّ الله عليهم قولهم بأنهم لا يحملون ذنوبهم يوم القيامة، ولن تحمل نفسٌ وزرَ نفسٍ أخرى، وان الكافرين لكاذبون في وعدهم.

وبعد ان بين عدم منفعة كلامهم لمخاطبيهم، بيّن ما يستتبعه ذلك القول من المضرة لأنفسهم فقال: {وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} .

سوف يحمل أولئك الكفار أوزارَ أنفسهم الثقيلة، ويحملون معها مثل اوزارٍ من أضلّوهم وصرفوهم: عن الحق، وسيحاسبون يوم القيامة على ما كانوا يختلقون في الدنيا من الأكاذيب.

وفي الصحيح: ما دعا الى هدى كان له من الأجرِ مثلُ أجرٍ من اتبعه الى يوم القيامة، من غير ان ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا الى ضلال كان عليه من الإثم مثلُ آثام من اتبعه الى يوم القيامة من غير ان ينقص من آثامهم شيئاً.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}

لا يحزنك أيها الرسول ما تلقى من أذى المشركين أنت واصحابك، فإن مصيرهم الى البوار، ومصيرك واصحابك الى العلوّ والنصر. ان نوحاً مكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم وهم لا يستجيبون له، فأغرقهم الله بالطوفان وهم ظالمون لأنفسهم، وأنجاه ومن معه من المؤمنين في السفينة، وجعل قضيتهم عبرة للعالمين.

وقد تقدّم ذكر نوح في آل عمران والنساء والأنعام والأعراف والتوبة ويونس وهود وإبراهيم والإسراء ومريم والانبياء والحج والمؤمنون والفرقان والشعراء والعنكبوت. هذا وسيأتي في عدد من السور.

وقوله تعالى: {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} لم يقل الف سنة الا خمسين سنة، حتى لا يكرر كلمة سنة فلا يكون الكلام بليغاً، والعرب تعبر عن الحِصْبِ بالعام، وعن الجُدْبِ بالسنة، ونوح لما استراح بقي في زمن حسن.

٢٩٠٣ 16

تخلقون افكا: تختلقون كذبا. فابتغوا: فاطلبوا.

مرت قصة إبراهيم في عدد من السورة وستأتي ايضا، وفي إيراد هذا القصص ثبتت للنبي عليه الصلاة والسلام وان النتيجة هي النصر له باذن الله.

أذكرُ أيها الرسول قصة ابراهيم حين دعا قومه الى توحيد الله، ثم أرشدهم الى فضلي ما يدعوهم اليه وفساد ما هم عليه، بعبادتهم الأصنام التي يصنعونها بأيديهم، وقال لهم إن هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تنفع ولا تضر، ولا تعطىكم رزقاً، فاطلبوا الرزق من الله وحده، واعبدوه واشكروه، فإليه مصيركم أجمعين.

وان تستمروا على الكذب، فقد كذّبت الأمم السابقة رسلها، وما ضر ذلك الرسل شيئاً، وليس على الرسول الا تبليغ الرسالة بأمانة ووضوح.

٢٩٠٤ 19

يبدىء الخلق: يخلقه اول مرة. ويعيده: في الآخرة يوم القيامة: ينشئ: يخلق. النشأة: الخلق. تلبون: تردون بعد موتكم. من ولي: قريب. ولا نصير: ولا معين.

في هذه الآية تكملة لقصة إبراهيم فانه لهم: ألم تروا كيف بدأ الله الخلق؟ انه سيعيد الخلق يوم القيامة كما خلقه اول مرة. وذلك على الله يسير. ثم ارشدهم الى الاعتبار بما في هذه الأرض من دلائل وما في الآفاق من شواهد، وقال لهم: سيروا في هذه الأرض،

ابحثوا فيها كيف بدأ الله الخلق، فانكم ستجدون الدلائل الكافية على كيفية تكوين الخلق كما بدأه الله، وهو سيعيد غنشاءه يوم القيامة. وهو حسب حكمته يعذب من يشاء ويرحم من يشاء بعدله في حكمه، إليه مرجعكم جميعاً يوم الحساب والجزاء. لستم أيها المكذبون بمعجزين إنما كنتم، ولا يستطيع أحدُ نصركم. إن الذين كفروا بالدلائل التي بينها الله في هذا الكون، وكذبوا برسله وكتبه - إنما يئسوا من رحمة الله، ولهم عذابٌ شديد مؤلم.

فما كان جواب قوم إبراهيم على هذا الحوار العظيم إلا الامعان في الكفر، وقالوا: اقتلوا إبراهيم أو احرقوه في النار، فأنجاه الله من النار وجعلها برداً وسلاماً، وإن في ذلك لدلائل واضحة لمن يصدق بالله.

وقال إبراهيم لقومه: إنما اتخذتم هذه الأصنام تعبدونها من دون الله، لا اعتقاداً واقتناعاً بعبادتها، وإنما يجاملُ فيها بعضكم بعضاً. إن مودةً بعضكم بعضاً هي التي دعتكم إلى عبادتها، لكن هذه المودة ستقلب إلى عداوةٍ يوم القيامة، حيث يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً، ومصيركم جميعاً إلى النار.

وآمن لوط وأجاب دعوته وكان ابن أخيه، وقال: إني مهاجر إلى بلاد الشام. ووهب الله لإبراهيم اسحاق ويعقوب وجعل من نسله النبوة، وأحسن إليه جزاء عمله، في الدنيا وفي الآخرة.
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ألم تروا بالتاء. والباقون: الم يروا بالياء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: النشأة بفتح الشين ومدها. الباقيون: النشأة: بسكون الشين.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: مودةً بينكم برفع مودة وجر بينكم بالاضافة، وقرأ نافع وأبو بكر وابن عامر: مودةً بينكم بنصب مودة منونا ونصب بينكم. وقرأ حفص عن عاصم وحمزة: مودةً بينكم بنصب مودة وخفض بينكم بالاضافة وهي قراءة المصحف.

٢٩٠٥ 28

الفاحشة: العمل القبيح الذي تنفر منه النفوس. السبيل: الطريق. القرية: سدوم في منطقة البحر الميت بالأردن. الغابرين: الباقيين. سيء بهم: حصل له سوء وغم بسببهم. ضاق بهم ذرعاً: عجز عن تدبير شئونهم. الرجز: العذاب.

ذُكرت قصة لوط في عدد من السور باختلاف يسير، وبعضها يكمل بعضها، وقد مرت في كل من سورة الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل.

وخلاصتها أن قوم لوط كانوا أشراً قطعوا الطريق على السابلة، قد ذهب الحياء من وجوههم فلا يستقبحون قبيحاً، ولا يرغبون في حسن. وكانوا يأتون الذكور من الناس، ويعلنون ذلك ولا يرون فيه سوءاً. فكانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجمعون عليه ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئاً حتى لا يبقى معه شيء. كما قال تعالى: {وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ}.

ولقد أنجى الله لوطاً وابنتيه من القرية وبقيت امرأته فيها، لأنها كانت كافرة مع قومها، فحل بهم العذاب، وامطر الله عليهم حجارةً من سجيل، فلبت ديارهم عاليها سافلها، وبقيت إلى أيامنا آية بينة لقوم يعقلون.

قراءات:

قرأ أهل الحجاز وابن عامر ويعقوب وحفص: إنكم لتأتون الفاحشة بهمزة واحدة. وقرأ أهل الكوفة أنكم بهمزتين على الاستفهام. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب: لنُنَجِّنَه بفتح النون الثانية وتشديد الجيم المكسورة. وأنا مُنْجوك: بفتح النون وتشديد الجيم المضمومة.

وقرأ ابن عامر والكسائي: منزلون بفتح النون وتشديد الزاي المكسورة. والباقيون: منزلون، باسكان النون وكسر الزاي دون تشديد.

مدین: اسم قرية شعيب في شمال الحجاز، وشُعيب عربي. وارجو اليوم الآخر: توقعوا يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال. لا تعثوا: لا تفسدوا. الرجفة: الزلزلة. جاثمين: باركين على ركبكم، هالكين. ما كانوا سابقين: وما كانوا هرايين. حاصبا: ريحا فيها رمل وحجارة صغيرة.

تقدم ذكر قصة شعيب في سورة الأعراف وهود والشعراء بأطول مما هنا، وكذلك مرت قصة صالح مع قومه عاد في سورة الأعراف وهود وغيرها، وهم عربٌ مساكنهم في الأحقاف في شمال حضرموت. وموضع بلادهم اليوم رمال خالية على اطراف الربع الخالي. وصالح وقومه ثمود عربٌ ايضا، ومساكنهم الحجر في شمال الحجاز وتُعرف اليوم بمدائن صالح، واسماؤهم عربية. وهذا نصق وجده المنقبون على حجرٍ بالحرف النبطي وتاريخه قبل الميلاذ.

«هذا القبرُ الذي بنته لكم بنتُ وائلة بنت حرم وكلية انتها لأنفسهن وذريتهن، في أشهرٍ طيبةٍ من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه. . . . الخ».

لقد أهلك الله قوم شعيب في «مدین»، وقوم هود في «الأحقاف»، وقوم ثمود في «الحجر» ويخاطب قريشاً بقوله تعالى: {وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ} لانهم يَمرون عليها في ذهابهم الى اليمن والشام.

وأهلك الله فرعون وقارون وهامان الذي جاءهم موسى بالمعجزات الواضحة فاستكبروا وكفروا، فما استطاعوا ان ينجوا من عذاب الله الأليم، بل أخذهم الله بذنوبهم. فعاد أخذهم حاصبٌ، وهو الريحُ الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض فتضربهم وتقتلهم. وثمود اخذتهم الرجفة والصيحة. وقارون خَسف به وبداره الأض. وفرعون وهامان غرقا في اليمّ وذهبوا جميعا مأخوذین بظلمهم {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

وذا نظرنا الى احوال الأمم الآن في معظم أقطار الأرض نجد الفتنة والحروب والمشاكل التي لا تنتهي، وغلاءض الاسعار المتزايد في جميع أقطار الأرض، أليس هذا كله من انواع العذاب والبلاء! لكن فرعون اليوم هو أمريكا وأوروبا من دول الاستعمار، وهامان هو بعض الحكام الذين لا يخلصون لشعوبهم.

اما نحن، المسلمین، فقد حُددنا عن جادة الصواب، وانحرفنا عن ديننا واتبعنا اهواءنا فضعفنا وتخاذلنا وتأخرنا، وصرنا نبهاً للأمم تنهب شركاتها خيراتها حتى التي في باطن الارض، وتغتصب اراضيها بتواطؤ بعضنا في ذلك. أليس هذا من العذاب!!

بعد هذه الجولة في سورة العنكبوت، والحديث عن الفتنة والابتلاء والاغراء وقصص بعض الانبياء وأممهم، والذين بهرتهم قوى المال والجاه، فظنوا انها تحميهم من الله - يضرب الله المثلَ لحقيقة القوى المتصارعة في هذه الميادين وانهم خاطئون بكل تقديراتهم، وان هنالك قوة واحدة هي قوة الله، وما عداها فهو هزيل ضعيف، لن يحميهم الا كالعنكبوت الضعيفة التي اتخذت أوهم البيوت لحمايتها. ثم زاد الله الانكار توكيدا بقوله:

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}
فكيف يتسنى للعاقل ان يترك القادر الحكيمويعبد سواه!! ،

بعد ذلك بين الله فائدة ضرب الامثال للناس، وانه لا يدرك مغزاها الا ذوو الألباب الذين يعلمون ويعقلون. إن الإله الذي يستحق العبادة هو الذي {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} ، لا عبثاً ولا لعباً بل لحكمة يعلمها المؤمنون، وفي نظام دقيق لا يتخلف ولا يبطيء ولا يصدم بعضه بعضا. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} الذين تفتتح قلوبهم لآيات الله الكونية وعجائب هذا الكون الكبير. وبعد نهاية هذه الجولة العظيمة سلّى رسوله الكريم بتلاوة ما أوحى اليه من الكتاب، وامره بإقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، هي اكبر مطهر للانسان حين يقيمها حق الاقامة.

{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} .

فذكر الله اكبر من كل شيء، واكبر من كل تعبد وخشوع. والله يعلم ماتفعلون من خيرٍ وشر فيجازيكم عليه.
قراءات:

قرأ أبو عمرو ويعقوب عاصم: ان الله يعلم ما يدعون من دونه، بالياء، والباقون: ان الله يعلم ما تدعون من دونه، بالتاء.

٢٩٠٨ 46

الجدل: الحجاج والمناظرة، مأخوذ من جدل الحبل وفتله، والمناظر يفتل خصمه عن رأيه. مسلمون: مطيعون، خاضعون. وما يجحدون بآياتنا: وما ينكر. اذا لارتاب المبطلون: اذا لشك أهل الباطل.

يؤكد القرآن الكريم على الدعوة بالرفق واللين، ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ومقابلة الغضب ولاعصية بالهدوء وكظم الغيظ، فيقول {وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} . ويقول: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥] . ويقول: {ادفع بالتي هي أحسن} [المؤمنون: ٩٦] .

هذه أوامر الله تعالى في القرآن الكريم، يأمرنا ان نتحلّى بالرفق واللين، وندعو ونجادل بالتي هي أحسن. لكننا مع الأسف نجد معظم الذين يرتدون في الظاهر زي الدين، ويدعون الى الله - لا يتحلّون بهذه الاخلاق، فتجدهم على المنابر متشنّجين متشدّدين، وقد لا نعلمهم إذا قلنا ان بعضهم يتشنّج في خدمة جيبه، لا خدمة ربه.

{إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}

اما الذين ظلمونا وحاربونا وناصبونا العداء فإن الله تعالى أمرنا ان نقابلهم بالمثل، حيث لا ينفع معهم الرفق ولا اللين. وفي مذابح لبنان وأفغانستان شاهد على ذلك.

{وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّا وَإِهْلُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}

قولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أنزل الينا، والتوراة والإنجيل، معبودنا ومعبودكم واحد ونحن خاضعون له، ومنقادون لأمره.

ثم بين الله انه لا عجب في إنزال القرآن على الرسول الكريم، فهو على مثال ما أنزل من الكتب من قبل فقال:

{وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} .

كما أنزلنا الكتب على من قبلك من الرسل أنزلنا إليك القرآن، فالذين آتيناهم الكتاب قبل القرآن من اليهود والنصارى - يؤمنون به، اذ كانوا مصدّقين بنزوله حسب ما ورد في كتبهم. ومن هؤلاء العرب من يؤمن به، وما يكذب بآياتنا بعد ظهورها الا المصرون على الكفر.

ثم اكد الله إنزاله من عنده، وأزال الشبهة في افتراءه فقال:

{وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} .

ما كنت يا محمد تقرأ ولا تكتب من قبل ان ينزل إليك القرآن، وهذا أمر يعلمه جميع أهل مكة، ولو كنت تقرأ وتكتب لشك أهل الباطل في أن هذا القرآن من عند الله.

ثم اكد ما سلف وبين ان هذا القرآن منزل من عند الله حقا فقال:

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} .

ان هذا القرآن لا يمكن ان يكون موضع ارتياب، بل هو آيات واضحة محفوظة في صدور الذين آتاهم الله العلم. ولا ينكر آياتن الا الظالمون للحق ولأنفسهم، الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور.

فاجابهم الله بقوله:

{قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ}

قل يا محمد: إن المعجزات عند الله ينزلها حين يشاء، وإنما أنا مكلف بالإندار الواضح، وتبليغ الرسالة، وليس عليّ هداكم.

ثم قال تعالى: كيف يطلبون الآيات مع نزول القرآن! أليس فيه ما يكفي ويقنع!

{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

انهم يطلبون المعجزات الحسية، أما كفاهم دليلاً على صدق هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يقرأ عليهم، وهو الآية الخالدة على الزمن! . ان في إنزال هذا الكتاب عليك لرحمة من الله بهم وبالناس اجمعين، وتذكراً دائماً نافعة لمن يؤمن به.

{قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} .

بعد ان أقام الله الادلة على صدق رسالة النبي الكريم، ويبيّن أن المعاندين من أهل الكتاب والمشرّكين لم يؤمنوا به - أمر رسوله ان يكلّم علم ذلك الى الله، فهو العليم بصدقه. أما الذين عبدوا غيره فقد خسروا الدنيا والآخرة.

قراءات:

قرأ نافع وابو عمرو وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم: لولا انزل عليه آيات من ربه، بالجمع، وقرأ الباقون: لولا انزل عليه آية من ربه، بالإفراد.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ. . .} {الآيات.

بعد ان أذّر المشركين بالعذاب وهدّدهم، قالوا تهكماً واستهزاء: ان كان هذا حقاً فأنتنا بالعذاب. فأجابهم الرسول بانه لا يأتيكم بسؤالكم، ولا يعجل باستعجالكم، لأن الله أجّله لحكمة، ولولا ذلك الأجل المسمّى الذي اقتضته حكمته لعجله لكم، وليأتينكم فجأة وانتم لا تشعرون.

ثم تعجب منهم في طلبهم استعجال العذاب، وهو سيحيط بهم في جميع نواحيهم، ويكون من الأحوال ما لا يوصف، ويقال لهم على سبيل التوبيخ {ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} .

قراءات:

قرأ أهل الكوفة ونافع: ويقول ذوقوا. . . بالياء. والباقون: ونقول: بالنون.

فإياي فاعبدون: فاعبدوني. لنبؤئهم: لنزلهم، بؤأهم: أنزلهم منزلاً حسناً. يؤفكون: يصرفون عن الحق. ويقدر: ويضيق.

بعد ان بيّن حال الجاحدين المكذّبين، وما يغشاهم من عذاب محيط بهم، لأنهم قد اشتدّ عنادهم وكثّر أذاهم للمؤمنين، ومنعواهم من أداء عبادتهم - أمره الله بالهجرة الى دار اخرى حتى ينجوا بعقيدتهم.

ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس، بيّن لهم ان المكروه واقع لا محالة، ان لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت، وأنتم ايها المؤمنون، لا تستصعبوا مفارقة الأوطان في مرضاة الله، فان أرض الله واسعة، ومدى الدنيا قريب، والموت لا بد منه، ثم مرجعكم الى ربكم، وحينئذ تتالون من النعيم المقيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهناك الجنة {خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} .

وقد بين الله هؤلاء العاملين الذي استحقوا تلك الجنات بقوله:

{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} .

ولا تَقْلِقُوا عَلَى تَوْفَرِ الرِّزْقِ وَلَا تَخَافُوا بَعْدَ مَغْدَرَةِ الْأَوْطَانِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَافِي أَمْرَ الرِّزْقِ فِي الْوَطَنِ وَالْقَرْيَةِ.
{وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا..}

ان الله يرزق الجميع حيث كانوا، هو يسمع لهم، ويعلم حالهم، ولا يدعهم وحدهم {وهو السميع العليم} .
قراءات:

قرأ أبو بكر: ثم الينا يرجعون بالياء. والباقون: ترجعون بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي لتتوهم بالياء، يعني لنقيمهم، من: ثوى بالمكان.
أقام. والباقون: لنبوئهم: بالياء.

{وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَنَحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟} .

انهم يعترفون بأن الله هو خالق السموات والأرض والمسخر للشمس والقمر، وهم مع ذلك يعبدون سواه، فلماذا هذا التناقض؟!
وكيف إذن يصرفون عن توحيد الله وعن عبادته، مع اقرارهم بهذا كله؟

{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ..}

ما دام الخالق هو الله، فانه يوسع الرزق على من يشاء، ويضيق على من يشاء، حسبما يقتضيه عليه بالمصالح، {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .
وان اقوال هؤلاء المشركين تخالف أفعالهم، فهم يقرّون بالوحدانية ثم هم يعبدون مع الله سواه، ولذلك يقول:

{وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ}

إنهم مقرّون بان الله هو الخالق، وهو الرازق، وهو مدبر الكون، لكنهم انحرفوا وعبدوا غيره ولذلك يتعجب من أقوالهم ويقول:
{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} .

قل يا محمد، الحمد لله على اعترافهم بالحق، ولكن اكثرهم لا يستعملون عقولهم، ولا يفهمون ما يقعون فيه من تناقض.

٢٩٠١١ 64

لما بين الله فيما تقدم ان المشركين يعترفون بان الله هو الخالق والمدبر لهذا الكون، ومع ذلك فانهم يتركون عبادته اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها - بين هنا ان الدنيا وما فيها باطلٌ وعبث زائل، وانما الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة التي لا فناء بعدها، ولكنهم لا يعلمون.
ثم ارشد الى انهم مع اشراكهم بربهم سواه في الدعاء والعبادة، اذا هم ابتلوا بالشدائد كما اذا ركبوا البحر وعلتهم الامواج من كل جانب، وخافوا الغرق - دعوا الله معترفين بوحدانيته ولكنهم سرعان ما يرجعون بعد نجاتهم ويعودون سيرتهم الأولى.

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}

لينكروا ما أعطيناهم من النعم، ويتمتعوا بلذاتهم وشهواتهم، فسوف يعلمون عاقبة الكفر حين يشاهدون العذاب الأليم. وفي هذا تهديد كبير لو كانوا يعلمون.

ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم باعطائهم هذا الحرم الآمن يعيشون فيه بأمن وسلام، فلا يذكرون نعمة الله ولا يشكرونها.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ؟}

لقد جعلهم الله تعالى في بلد آمن يعيشون فيه، يعظمهم الناس من أجل بيت الله، ومن حولهم القبائل تقتتل وتتناحر، فلا يجدون الأمان الا في ظل البيت العظيم. وقد من الله عليهم بقوله: {لَا يَلَافُ قُرَيْشٌ إِيْلَاهِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} .

ثم بين ان العقل كان يقضي بأن يشكروا هذه النعم، لكنهم كفروا بها فقال:

{أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ؟} .

ولما وضحت الحجة، وظهر الدليل، ولم يكن لهم فيه مقنع - بين انهم قوم ظلمة مفترون مكذبون فقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} .

ليس هناك أحدٌ أشدَّ ظلماً ممن نسب إلى الله ما لم يشرعه، أو كذب بالدين الحق. ان مثنوى هؤلاء واشباههم جهنم وبئس المصير. ثم يختم السورة بصورة المؤمنين الذين جاهدوا في الله، واحتملوا الأذى، وصبروا ولم ييأسوا، الذين اهتدوا بهدى الله وساروا على الصراط المستقيم فقال:

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} .

أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم، ولن ينسى جهادهم، وان الله لمعهم يعينهم ويؤيدهم بالنصر والتوفيق. قراءات:

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي: ليكفروا وليتمتعوا، بسكون اللام. والباقون: ليكفروا وليتمتعوا، بكسر اللام.

٣٠ الروم

٣٠٠.١ 1

أدنى الأرض: بلاد الشام والعراق، لأنها أقرب البلاد إلى مكة. من بعد غلبهم: من بعد ما غلبوا. في بضع سنين: البضع ما بين الثلاثة إلى العشرة. ظاهر الحياة الدنيا: هو كل ما يشاهد ويدرك بالحواس.

كانت الدولة الرومانية والدولة الفارسية أعظم دول العالم في عصر النبي ﷺ، وكانت الحروب بينهما دائمة. وفي عصر كسرى أبرويز نشطت الدولة الفارسية وانتصرت على الروم واستولت على جميع ممتلكاتهم في العراق وبلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى. يومذاك تقلصت الامبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسُدت عليها جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس، وعم القحط، وفشت الامراض الوبائية. وأخذ الفرس يستعدون الرعايا الروم ويستبدون بهم للقضاء على المسيحية، فدمروا الكنائس وأخذوا خشبة الصليب المقدس وأرسلوها إلى المدائن. وأراقوا دماء ما يقرب من مائة الف من السكان المسيحيين. وأوشكت الامبراطورية الرومانية على الانهيار.

في هذه الفترة كان المسلمون في مكة في أصعبش أيامهم وأشد محنتهم، وفي حالة من الضعف والضعف لا يمكن تصورهما. وقد فرح المشركون بنصر الفرس لأنهم وثنون مثلهم، وحزن المسلمون باندحار الروم لأنهم أهل كتاب. وقال المشركون شامتين: لقد غلب إخواننا إخوانكم، وكذلك سوف نقضي عليكم إذا لم تتركوا دينكم الجديد هذا.

{الْمُغْلِبِ الرُّومِ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ} . يقول المؤرخ البريطاني «جيبون» في كتابه «تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها» تعليقاً على نبوءة القرآن هذه: «في ذلك الوقت حين تنبأ القرآن بهذا لم تكن آية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية»، المجلد الخامس صفحة ٧٤.

«فلما سمع ابو بكر رضي الله عنه هذه الآيات خرج إلى المشركين فقال لهم: أفرحتم بظهور إخوانكم الفرس، فوالله لتظهرن الروم على فارس كما أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أبي بن خلف فقال له: كذبت. فقال أبو بكر: أنت كذبت يا عدو الله. اجعل بيننا أجلاً أراهنك على عشر قلائص مني وعشر منك، فان ظهرت الروم على فارس ربحت انا الرهان، وان ظهرت فارس ربحت أنت الرهان. ثم جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبره، فقال الرسول الكريم: زايده في الرهان وماده في الأجل.

ففرج أبو بكر، فلقى أبي بن خلف فقال له: لعلك ندمت؟ فقال: لا. فقال أبو بكر: تعالى أزايدك في الرهان، وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوصل إلى تسع سنين قال: قد فعلت. وقد قتل أبي في معركة أحد. ولما ظهرت الروم على الفرس واستعادوا بلادهم

وصدقت نبوءة القرآن، أخذ ابو بكر مائة ناقة من ورثة أبيّ وتصدّق بهاز وهذا كان قبل تحريم الميسر»
وهكذا صدقت نبوءة القرآن الكريم عن غلبة الروم في أقلّ من عشر سنين، وفي هذا اكبر دليل على ان القرآن كتاب الله، وان هذه النبوءة جاءت من لدن مهيمن على كل الوسائل والأحوال، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم.
{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ}

فقد فرح المؤمنون بنصرهم في معركة بدر، وجاءتهم الأخبار في نفس التاريخ بنصر الروم على الفرس، فكان ذلك فرحاً عظيماً بنصرهم على قريش، بوصدق نبوءة القرآن الكريم.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}
{وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}
ذلك النصر وعدّ من الله للمؤمنين فلا بدّ من تحقيقه في واقع الحياة، فالله تعالى لا يُخْلِفُ وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولو بدا في الظاهر انهم يعرفون الكثير من امور الدنيا.
{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه. وظاهر الحياة الدنيا محدودٌ صغير، مهام بدا للناس واسعاً شاملاً. فما هذه الأرض بل هذا النظام الشمسي بأجمعه - الا ذرةً في هذا الكون الكبير الذي لا نعرف عنه شيئاً. . . .
{وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}

فالآخرة حياةٌ ثانية تختلف عن كل ما نرى وما نعلم، وهي صفحة من صفحات الوجود الكثيرة، وصاحبُ الحظ من تزوّد لها، وعمل لها الأعمال الصالحة، {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} .

٣٠٠٢ 8

أثاروا الأرض: حرثوها وأصلحوها. عمروها: بالبناء والعمران. السّوأى: الحالة السيئة، وهي مؤنث الاسوأ. يُبْلِسُ المجرمون. يبأس المجرمون. في روضة: الروضة هي الأرض ذات النبات والماء المعني في رضوان الله. يحبرون: يسرون. محضرون: مدخلون فيه.
لما أنكر المشركون الإله، والبعث كما قال {وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} ، أردف هذا بأن الأدلة متظاهرة ومحسوسة في الأنفس والآفاق على وجوده وتفرد به بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سوا. وأن الأنفس لم تُخلق سدى ولا باطلا، بل بالحق، وأنها مؤجلة الى اجل محدود هو يوم القيامة. ثم امرهم بالسير في اقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة، وزرعوا الأرض وعمروا البلاد أكثر من قريش - لكنهم كذبوا رسلهم فأهلكهم الله، ثم كانت نهايتهم. فلتأخذ قريش عبرة من ذلك.
قراءات:

قرأ ابن عامر والكوفيون: ثم كان عاقبة بالنصب، والباقون: عاقبة بالضم.

{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. . . . الآيات} .

يبين الله ان هناك حياة ثانية فيها الحساب والجزاء، وان الله قادر على اعادة هذا الخلق يوم القيامة كما بدأ إنشائه. ثم يبين ما يكون حين الرجوع إليه من إبلاس المجرمين ويأسهم من الدفاع عن انفسهم، وان شركاءهم لا ينفعونهم ولا يستطيعون الدفاع عنهم، بل يكفرون بهم. يومئذ ينقسم الناس الى فريقين: فريق في الجنة عند ربهم في عيشة راضية، وفريق في السعير وبئس المصير.

تمسون: تدخلون في وقت المساء. تُصبحون: تدخلون في وقت الصباح. عشياً: من صلاة المغرب الى العتمة. وحين تُظهرون: تدخلون في وقت الظهيرة. من أنفسكم: من جنسكم. لتسكنوا اليها: لتأنسوا بها وتطمئنوا اليها. سَبَّحُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ، وَفِي الصَّبَاحِ، لِتَجْلِيَ عَظَمَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ وَقْتٍ، وَاحْمَدُوهُ أَثْنُوا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ فِي وَقْتِ الظُّهْرِ وَفِي اللَّيْلِ. وتدل هذه الاوقات على اوقات الصلوات الخمس كما روي عن ابن عباس: (حين تُمسون) صلاة المغرب والعشاء، و (تصبحون) صلاة الفجر، (وعشياً) صلاة العصر. (وحين تظهرون) صلاة الظهر. انه هو الذي يخلق الحي من الجسم الميت، ويخلق الميت من الحي، ويحيي الأرض بالمطر بعد موتها، {وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} ومثل ما تقدّم من إخراج الحي من الميت وإحياء الأرض بعد موتها كذلك يُخرجكم الله من قبوركم الى الحاسب والجزاء.

ومن آياته انه خلقكم من تراب ميت لا حراك به، ثم إذا انتم بشر أحياء تنتشرون في الأرض وتعملون. ومن آياته أنه خلق لكم من جنسكم أزواجاً لتأنسوا بها، وجعل بينكم مودةً ورحمة. ومن آياته الكبرى خلقت السموات والأرض من العدم، على ما فيها من إبداع وجمال، وعظمة وجلال، واختلاف ألْسِنَتِكُمْ واللّوَانِكُمْ وما يتبع ذلك من تخالفكم في طبائعكم وعاداتكم. ومن آياته أنه هَيَّأَ لَكُمْ أسباب الراحة بمنامكم، وسرّر لكم طلب الرزق ليلاً ونهاراً من فضله الواسع. ومن آياته انه يريكم البرق من خلال السحاب، تخويفاً من صواعقه، وطمعاً في المطر، وينزل لكم من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد يبسها.

كل هذه الآيات لقوم يتفكرون، ويسمعون ويعقلون ويعلمون، فالله تعالى ينير العقل والعلم والفكر للوصول الى الحق. أما الجاهلون الغافلون الجاحدون فإنهم من كل ذلك مبعدون.

ومن الدلائل على كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ان تقوم السماء بأمره على ما ترون بأعينكم من صنعة محكمة، وتدير دقيق منتظم. ثم إذا دعاكم للبعث تخرجون من القبور مسرعين مستجييين لدعائه.

قرءات: قرأ حفص: للعالمين بكسر اللام. والباقون: للعالمين بفتح اللام.

قاتنون: طائفون منقادون. المثل الأعلى: الوصف الارفع، الصفة العليا لا يشاركه فيها احد. مما ملكت أيما نكم: من العبيد. والله كل من في السموات والارض من الأحياء والجمادات كل له خاضع منقاد. وهو الذي يبدأ الخلق على غير مثال، ثم يعيده بعد الموت، والاعادة أهون عليه من البدء. وله الوصف الأرفع لا يشاركه احد فيه.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} لا يغالب ولا يغلب، حكيم في تديره وتصريف شؤنه فيما اراد.

لقد بين لكم الله مثلاً منتزعا من أنفسكم: هل لكم من عبيدكم شركاء في أموالكم فأنتم وهم سواء في التصرف فيها، تخافون منهم الاستبداد في التصرف فيها كما يخاف بعضكم بعضاً؟ إذا كان أحدكم يأنف ان يساويه عبيده في التصرف بأمواله، فكيف تجعلون لله أنداداً من خلقه؟ {كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

ثم بين الله ان المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهًا من أنفسهم وجهلاً بغير علم فقال:

{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَنَنْهَدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ} ؟ لا أحد. . . .

{وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ} ليس لهم من يشفع لهم ويدفع عنهم عذابه يوم القيامة.

أَقْمُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ: أَقْبَلْ عَلَيْهِ وَأَخْلَصْ لَهُ. حَنِيفًا: مَائِلًا مِنَ الشَّرِّ إِلَى الْخَيْرِ، بَعِيدًا عَنِ الضَّلَالِ. فِطْرَةَ اللَّهِ: خَلْقَةَ اللَّهِ. الْقِيَمُ: الْمُسْتَقِيمُ. مُنِيبِينَ: رَاجِعِينَ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ، وَأَخْلَصَ الْعَمَلَ. فَرَّقُوا دِينَهُمْ: اخْتَلَفُوا فِيمَا يَعْبُدُونَهُ. شِيعًا: فِرْقًا مُخْتَلِفَةً. وَتَوَجَّهَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى هَذَا الدِّينِ الْمُسْتَقِيمِ، بَعِيدًا عَنِ الْعَقَائِدِ الزَّائِفَةِ، فَهُوَ دِينُ الْفِطْرَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَهِيَ الْإِسْلَامُ. {وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} لَذَا يَحْسِبُونَ أَنَّ الدِّينَ أَمْرٌ مُعَقَّدٌ يَحْتَاجُ إِلَى وَسْطَاءِ بَيْنِ اللَّهِ وَعِبَادِهِ لِيُفَسِّرُوهُ لَهُمْ وَيَهْدُوهُمْ إِلَيْهِ. أَمَّا هَذَا الدِّينُ فَهُوَ يَصِلُ الْإِنْسَانَ بِاللَّهِ دُونَ وَاسِطَةٍ. وَلَمَّا كَانَ الْخُطَابُ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَأَصْحَابِهِ رَجَعَ إِلَى صِیْغَةِ الْجَمْعِ فَقَالَ: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} أَيُّ: أَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ لِلدِّينِ تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ، وَاتَّقُوهُ، وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِي دِينِهِمْ وَكَانُوا فِرْقًا وَاحِزِبًا {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}. قِرَاءَات: قَرَأَ حِمْرَةَ وَالْكَسَائِيُّ وَابْنُ عَامِرٍ: مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا، بِالْأَلْفِ. وَالباقون: فَرَّقُوا بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ: رَاجِعِينَ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ. سُلْطَانًا: حُجَّةً وَبِرْهَانًا. يَقْدِرُ: يَضِيقُ. ابْنُ السَّبِيلِ: الْمَسَافِرُ الَّذِي انْقَطَعَ عَنْ مَالِهِ وَأَهْلِهِ. الرِّبَا: الزِّيَادَةُ. الْمَضْعُفُونَ: الَّذِينَ يَضَاعِفُ اللَّهُ لَهُمُ الْأَجْرَ. فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ صُورَةُ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَقَلُّبُ الْأَهْوَاءِ فِي السَّرِّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَعِنْدَ قَبْضِ الرِّزْقِ وَبَسْطِهِ. فَبَعْدَ أَنْ أُرْشِدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَأَقَامَ الْإِدْلَةَ عَلَيْهِ، وَضَرَبَ الْمَثَلَ لَهُ - أَعَقَبَهُ هُنَا بِذِكْرِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ يُعْرِفُونَ بِهَا، وَهِيَ أَنَّهُمْ حِينَ الشَّدَّةِ يَتَضَرَّعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ وَيُنِيبُونَ إِلَيْهِ، فَإِذَا خَلَّصُوا مِنْهَا رَجَعُوا إِلَى كُفْرِهِمْ وَأَوْتَانِهِمْ. لِذَلِكَ خَاطَبَهُمُ اللَّهُ بِصُورَةِ الْأَمْرِ مَعَ التَّهْدِيدِ بِقَوْلِهِ: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}. فَلْيُضِلُّوا مَا شَاءُوا، فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى رَبِّهِمْ. . . . تَمَتَّعُوا كَمَا تَشَاءُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عَاقِبَتَكُمْ. ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا اخْتَلَقُوهُ مِنْ عِبَادَةٍ غَيْرِهِ بِلا دَلِيلٍ فَقَالَ: {أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} هَلْ أَنْزَلْنَا عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِنَا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ كِتَابًا فِيهِ تَصْدِيقٌ لِمَا يَقُولُونَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ شَبَهُ الْعُذْرِ فِيمَا يَفْعَلُونَ!! ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ دُونَ سَابِقِهِمْ، وَهُمْ مِنْ تَكُونِ عِبَادَتِهِمْ اللَّهُ رَهْنًا إِيصَابَتِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا. . . فَإِنَّ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهَا رِضًا وَفَرَحًا، وَإِذَا مَنَعُوا سَخَطُوا وَقَنَطُوا فَقَالَ: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} فَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِإِيمَانٍ صَادِقًا لَسَلَّمُوا أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَرَاخُوا. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: عَجِبَا لِلْمُؤْمَنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وَهَذَا انْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى هَؤُلَاءِ النَّاسِ لِمَا يُلْحَقُهُمْ مِنَ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ. . . أَلَمْ يَشَاهِدُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِ اللَّهِ؛ يُوسِفُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِيقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حُكْمَتُهُ!! {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

بعد ان بين الله تعالى انه هو الذي يرزق ويمنع - بين هنا الطريق الذي به تزداد أموالهم فيه وتربح، فاذا كان المال مال الله أعطاكم إياه، فأعطوا الأقرباء من الفقراء، والمساكين الذين لا يعملون، والغريب المسافر الذي نفذ ماله ولا يستطيع ان يرجع الى بلده. . . . أعطوهم مما آتاكم الله، ذلك هو الخير للذين يريدون رضا الله ويطلبون ثوابه، والفاعلون له هم الفائزون بالنعيم المقيم.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» رواه البخاري ومسلم.

{وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبٍّ لَّيِّبٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} .

وما أعطيتم من مال ليزيد وينمو في أموال الناس على طريق التسليف بفائدة فانه ربا حرمه الله ولا يمكن ان يزيد لكم عند الله. أما ما أعطيتم من صدقات تبغون بها وجه الله فهو الذي يضاعف الله به حسناتكم أضعافا مضاعفة.

ولما بين الله انه لا زيادة الا فيما يزيده، ولا خير الا في الطريق المستقيم والبدل في سبيله - أكد ذلك بقوله:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ مَا تَعْبُدُونَ} ؟

انه الله، هو الذي خلقكم ثم أعطاكم الرزق الذي تعيشون به، ثم يقبض أرواحكم في هذه الدنيا، ثم يحييكم يوم القيامة، فهو الذي يستحق العبادة. . . . هل يستطيع احد من الذين تعبدونهم ان يعمل لكم شيئا مما ذكر؟ الجواب: لا. {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ؟

قراءات:

قرأ الكسائي وابو عمرو: يَقْنُطُونَ بكسر النون، والباقون: بضمها. وقرأ ابن كثير: وما آتيت بالهمزة دون مد، والباقون: وما آتيت بالمد. وقرأ نافع ويعقوب: لتربوا بالتاء. والباقون: ليربوا بالياء. وقرأ حمزة والكسائي: تُشْرِكُونَ بالتاء. والباقون: يُشْرِكُونَ.

٣٠٠٧ 41

الفساد: الخلل والاضطراب والحاق الضرر بالغير، والجذب والقحط والظلم والبغي. لعلمهم يرجعون: لعلمهم يتوبون. لا مرد له: لا يقدر احد ان يرده. يصدعون: يتصدعون، يتفرقون. يمهّدون: مهد الفراش: وطأه، ومهد لنفسه خيرا: هياه.

يبين الله تعالى هنا ان الفساد يظهر في الأرض متمثلاً بالظلم والبغي والبؤس والفقر والقلق والحيرة، وذلك بسبب ما كسبت أيدي الناس من الذنوب، وتركهم لأوامر الله، والبعد عن دينهم.

إذن فإن الفساد في العباد إنما كان نتيجة أفعالهم. من ثم أرشدهم الله الى ان من كان قبلهم ممن كانت أفعالهم كأفعالهم - قد أصابهم الله بعذاب من عنده، وصاروا مثلاً لمن بعدهم وعبرة لمن خلفهم فقال:

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ}

قل يا ايها النبي للمشركين: سيروا في نواحي الأرض، فانظروا كيف كانت نهاية الذين مضوا قبلكم؟ لقد أهلكهم الله وخرّب ديارهم لأن أكثرهم كانوا مشركين مثلكم.

{فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ}

اسلك ايها الرسول الطريق المستقيم الذي رسمه لك ربك وهو الدين الكامل، منقبل ان يأتي يوم لا يستطيع احد ان يرده، هو يوم الحساب. يومئذ يتفرق الناس بحسب اعمالهم {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: ٧] .

ثم بين أن ما ناله كل منهم من الجزاء كان نتيجة حتمية لعمله فقال:

{مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ}

إنهم يهيئون لأنفسهم الخير وهم في الجنة خالدون.

{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}

وهذا سيكون يوم القيامة، حيث يباقي كل إنسان ما عمله حاضراً.
قراءات:
قرأ ابن كثير ويعقوب: لنذيقهم بالنون. والباقون: لنذيقهم بالياء

٣٠٠٨ 46

فتثير: تحرك. فيبسطه: فينشره. كسفا: قطعاً. الودق: المطر. من خلاله: من بينه من بين السحاب. لمبلسين: لآيسين، مفردُها: مبلس، وهو المتحسر الآيس.
{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ... (الآية)}

من الدلائل على قدرة الله ورحمته انه يبعث الرياح مبشرات بالمطر الذي يسقيكم ويروي زروعكم، ولتجري فيه السفن في البحار. كذلك تطلبوا الرزق من فضل الله بالتجارة وغيرها، واستغلال ما في البر والبحر، ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى. {وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} سورة ابراهيم ٣٤.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ... (الآيات) .

ان الله تعالى يجمع في هذه الآيات بين ارسال الرياح مبشرات بالغيث والخير، وارسال الرسل الكرام بالحجج والبيانات مبشرين ومنذرين، ونصر المؤمنين بالرسل، وانزال المطر الذي يحيي الارض، واحياء الموتى بعثهم، (وهذا كله من رحمة الله بالعباد. وكلها تتبع سنة الله) . وبين نظام هذا الكون البديع، ورسالات الرسل بالهدى، ونصر المؤمنين - صلة وثيقة، وكلها من آيات الله، ومن نعمته ورحمته، وبها تتعلق حياتهم، وهي مرتبطة كلها بنظام الكون البديع.

فالله سبحانه يحيي عباده المؤمنين، وينتقم من المجرمين، ويتعهد بنصر المؤمنين، ولكن اين المؤمنون؟

لو أن المؤمنين حضروا فكرة وجهاداً، وتعاونوا تعاونا وثيقا كالجسد الواحد على هدف واحد لنصرهم الله كما وعد هنا، ووعد الحق.
{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا... (الآيات) .

ان الله تعالى يرسل الريح فتتحرك السحاب فينشره الله في السماء، حتى اذا تكاثف وبرد الجو انزل الله المطر في المكان الذي يريده من الأرض، فيبشر الناس بالخصب بعد ان يكونوا يأسين قبل نزول المطر. وبالمطر يحيي الله الأرض بعد موتها، وكذلك سيحيي الموتى يوم القيامة {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

{وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} .

ولئن ارسلنا ريحا عاصفة مضرّة بالنبات فرأوا زرعهم مصفرا جافا، لظلوا من بعده يكفرون بالله وبرحمته، وكان الأجدر بهم ان يصبروا ويسألوا الله من فضله فانه رحيم بعباده.

قراءات:

قرأ ابن كثير وحمة والكسائي: ومن آياته يرسل الريح: بالافراد، والباقون: الرياح بالجمع. وقرأ ابن عامر: ويجعله كسلاً بسكون السين. والباقون: كسفا بفتحها. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: فانظر الى آثار، بالجمع. والباقون: الى أثر، بالافراد.

٣٠٠٩ 52

{فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى...} مر في سورة النمل في الآية ٨٠ و ٨١ بالنص.

فإنه تعالى هنا بعد تصوير تقلبات البشر وفق أهوائهم، وعدم انتفاعهم بآيات الله وحججه، يتوجه بالخطاب الى رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يسأله عن إعراض المشركين من قومه وانهم كالموتى والصم لا يسمعون، ولا يهتدون، ولا يرجعون عن ضلالهم، وإنما الذي يسمع ويستجيب من يؤمن بآيات الله. أولئك هم المسلمون الصادقون، المطيعون لأوامر الله ورسوله {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} والله تعالى خلق الأنفس في أطوارها المختلفة من ضعف الى قوة ثم يتغير حالها من قوة في حال الشباب الى ضعف، ثم الى الشيخوخة وهرم وشيبه، انه يخلق ما يشاء وهو العلم بتدبير خلقه، القدير على إيجاد ما يشاء، وفي هذا اكبر الأدلة على قدرته تعالى. {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} ويوم تقوم القيامة ويبعث الله من في القبور، يحلف المجرمون انهم ما لبثوا في قبورهم أو في الدنيا غير ساعة من الزمن، والواقع انهم لبثوا عمراً مديداً. كذلك كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا فلا يرون الشيء على حقيقته. ثم بين ما يقوله المؤمنون لهم ويتهمون عليه فقال:

{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُنْكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} . وقال الذين أتاهم الله العلم والايمان. لقد لبثتم في حكم الله وقضائه في قبوركم من يوم مماتكم الى يوم القيامة، فإن كنتم تنكرونه فهذا هو يوم البعث الذي انكرتموه، ولكنكم كنتم في الدنيا لا تعلمون انه حق. {فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} ان يوم القيامة لا ينفع فيه عذر ولا تقبل شكوى، ولا يسترضون ولا يعاتبون بل يذهبون الى جهنم وبئس المصير. {وَأِنْ يَسْتَعْجِلُوْا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت: ٢٤] ، فلا عذر ولا إقالة. {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} .

ولقد بينا لهداية الناس في هذا القرآن كل مثل يرشدهم الى طريق الهدى، ولكنهم أعرضوا وكذبوا. ولئن جئتهم يا محمد بالآيات المعجزة الواضحة - ليقولنَّ الذين كفروا ما أنت واتباعك الا مبطلون في دعواكم. كذلك يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم من العبر والعظات، والآيات البينات.

ثم ختم السورة بأمر الرسول الكريم بالصبر على أذاهم، وعدم الالتفات الى عنادهم حتى يأتي وعد الله فقال:

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}

اصبر ايها النبي على أذاهم، ان وعد الله بنصرك واطهار الاسلام على كل دين وعد حق لا يتخلق ابداً. (والصبر وسيلة المؤمنين في جهادهم ودعوتهم الى الله) ، ولا يهملنك الذين لا يؤمنون على القلق والخفة وعدم الصبر. وفي هذا ارشاد للنبي عليه الصلاة والسلام ولنا وتعليم بان تتلقى المكارة بصدر رحب وسعة حلم. . والله ولي الصابرين والحمد لله رب العالمين.

٣١ لقمان

٣١٠١ 1

لهو الحديث: كل ما يصد عن ذكر الله والحق. سبيل الله: دينه. هزواً: سخريه. وقراً: صمما يمنعهم عن السماع. الرواسي: الجبال. تميد: تضطرب. بث: فرق زوج كريم: صنف حسن.

{الم}

تقدم اكثر من مرة ان هذه الحروف قد ابتداء الله بها بعض السور، ليشير الى إعجاز القرآن.

{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. . .}

هذه آيات القرآن الكريم، أنزلناها هدى ورحمة للذين يحسنون فيما يقولون ويفعلون. والذين يقيمون الصلاة على أحسن وجه، وفي وقتها، ويتقنونها، ويعطون الزكاة الى مستحقيها، ويؤمنون إيماناً جازماً بالآخرة والبعث والجزاء. . . هؤلاء هم المحسنون الذين يكون الكتاب لهم هدى ورحمة، وأولئك هم الفائزون.

قراءات:

قرأ حمزة وحفص: هدى ورحمة بالنصب، والباقون: بالرفع.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ. . .}

ومن الناس من يشتري بماله الأحاديث الملهية، وكتب الاساطير والخرافات ليصد بها الناس عن سبيل الله بغير علم، {أولئك لهم عذاب مهين} .

روي ان النضر بن الحارث من بني عبد الدار (صاحب لواء المشركين بدر وأحد شياطين قريش) - كان يجلس لقريش ويحدثهم بأخبار ملوك الفرس وخرافاتهم، ويقولك انا احسن من محمد حديثاً، انما يأتيكم بأساطير الأولين. وقد أسريوم بدر وقتل بمكان يقال له «الأثيل» . فكان النضر وامثاله كما يقول تعالى:

{وَإِذَا نَبَلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} .

قراءات: قرأ ابن كثير وابو عمرو: ليضل عن سبيله بفتح الياء. والباقون: بالرفع. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص: ويتخذها بنصب الذال. الباقر: بالرفع.

وبعد ان ذكر الكتاب حاض الكافرين المعرضين عن آيات الله، تحدث هنا عن حال المؤمنين العالمين وما ينتظرهم من جزاء فقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .

ونلاحظ ان الرآن عندما يذكر المؤمنين يصفهم (بالعاملين، الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهذا يفهمنا أن الإيمان وحده لا يكفي. وقد جزم الله بوعده وأوجهه على نفسه وهو الغني عن الجميع، تفضلاً منه وكرمه.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا. . .}

يتحدث الله هنا عن القدرة العظيمة وحكمته، ودليل ذلك هذا الكون الهائل بجميع ما نرى من سمات بغير عمد، وبجبال تحفظ توازن الأرض، وهذه الانواع التي لا تُحصى من المخلوقات المبتوثة في هذه الأرض، وإنزال الماء الذي يُحيي الأرض فتنبت من كل زوج كريم، بنظام دقيق متكامل، متناسق التكوين، ثم يقول بعد ذلك كله:

{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ} .

هذا الكون الكبير الهائل وما فيه من نظام هو من خلق الله، أروني ماذا خلق الذين تعبدونهم من دونه {بل الظالمون في ضلالٍ مبين}

٣١٠٢ 12

لقمان: عرف العرب بهذا الاسم شخصين احدهما لقمان بن عاد وكانوا يعظمون قدره في النباهة والرياسة والدهاء.

واما الآخر فهو لقمان الحكيم الذي اشتهر بحكمه وامثاله. وهو المقصود هنا، وسميت السورة باسمه، وقد كانت حكمه شائعة بين العرب. ويقول بعض المفسرين إنه نبي، وآخرون يقولون انه حكيم آتاه الله الحكمة والعقل والفطنة. وأورد الامام مالك كثير من حكمه في

تكمّاه «الموطأ» ، ويقال انه كان اسود من سوداء مصر او من الحبشة او النوبة.

الحكمة: العلم مع العمل، وكل كلام وافق الحق فهو حكمة. وقيل الحكمة: هي الكلام المعقول المصون عن الحشو، وقال ابن عباس الحكمة: تعلم الحلال والحرام. وقال الراغب: الحكمة: معرفة الموجودات وفعل الخيرات. وقال الرسول الكريم: «ان من الشعر لحكمة» يعني كلاما صادقا. وقال تعالى {واذكّرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} الخ. . . .

يعظه: يذكّره بالخير وعمله. الوهن: الضعف. الفصال: الفطام. جاهداك: بذلا جهدهما لتكفر معهما. أناب: رجع. مثقال: وزن. مثقال حبة من خردل: شيء صغير جدا. لطيف: يصل علمه الى كل شيء خفي. خبير: عليم بكنه الاشياء وحقائقها. من عزم الأمور، العزم: عقد القلب على إمضاء الأمر، من عزم الأمور: من الأمور المؤكدة. لا تصعّر خدك: لا تتكبر، وغالبا ما يمشي المتكبر وهو مائل الوجه مبديا صفحة وجهه عنهم. ولا تمش في الأرض مرحا: مختلا بطرا. مختال نفور: يمشي الخيلاء ويفخر على الناس ويتباهى بماله وجاهه. والقصد في مشيك: توسط واقصد في مشيك. واغضض من صوتك: اخفض منه ولا ترفعه. أنكر الاصوات: اقبحها.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} .

لقد منحنا لقمان الحكم والعلم والاصابة في القول، وقلنا له اشكر الله، ومن يشكر فان فائدة ذلك الشكر عائدة اليه، ومن بحد نعمة الله فإنه غني عن شكره غير محتاد اليه، محمود في ذاته.

واذكر ايها الرسول الكريم لما قال لقمان لابنه وهو يعظه ويذكره: يا بني لا تشرك بالله أحدا، إن الشرك ظلم عظيم لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه.

ثم بعد ان ذكر الشرك وما فيه من شفاعاة أتبعه بوصية الولد بوالديه، لكونهما السبب في ايجاده فقال:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ . . .}

أمرناه ببرهما وطاعتهما، والقيام بحقوقهما لأنها تعبا في تربيته. . . . لقد حملته أمه في بطنها، وما زالت تضعف كلما مرت الأيام ضعفا على ضعف حتى وضعته، ثم أرضعته عامين وفطمته، وكل ذلك ببذل جهود عظيمة، فاشكر لي ايها الانسان ولوالديك وأحسن إليهما فإلي الرجوع لا الى غيري.

{وَأِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}

ما أحلى هذا الكلام! فإن كانا كافرين، وحاولا ان تكفر أنت بالله فلا تطعهما، ومع ذلك يجب عليك ان تبقى باراً بهما، تصاحبهما بالمعروف والاحسان والعطف. اما من جهة الدين:

{وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

إن عليك ان تتبع طريق الهدى، وطريق من تاب الى الله، ومصيركم جميعاً اليّ بعد مماتكم فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير او شر.

ثم عاد الى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه فقال:

{يَا بَنِيَّ إِنِّي أَنَا تَكَ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} .

يا بني، ان الله لا يفلت من حسابه شيء، إن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تكن وزن حبة خردل تأتية في وسط صخرة او في السموات او في الأرض - يأت بها الله ويحضرها يوم القيامة حين يضع الموازين بالقسط. ان الله لطيف يصل علمه الى كل خفي، خبير يعلم ظواهر الأمور وبواطنها.

{يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ . . .}

يا بني حافظ على الصلاة، وأمر بكل حسن، وأنه عن كل قبيح، واحتمل ما أصابك من الشدائد، فان المحافظة على الصلاة والصبر على الشدائد من عزم الأمور. . . . بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بملازمة الصبر لأنهما من أعظم ما يستعان بهما كما قال تعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة} البقرة: ٤٥ و ١٥٣.

وبعد ان أمره بعمل اشياء خيرة، حذره من أمور غير مستحسنة وأدبه خير تأديب فقال: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير} .

إنها حكم تكتب بماء الذهب. . . . لا تتكبر وتعرض بوجهك عن الناس، ان الله لا يحب المتكبرين. وامش بهدوء، وتوسط في مشيك بين السرعة والبطء، ولا ترفع صوتك لأن اقبح ما يستنكر من الأصوات هو صوت الحمير.

٣١٠٣ 20

أسبغ: أتم، وسع. السعير: النار المتأججة. يسلم وجهه: يفوض أمره ويخلص. محسن: مطيع لله. العروة الوثقى: اوثق الاسباب وامتنها. والعروة في اللغة مقبض الكوز، والدلو. الوثقى: المتينة الشديدة. بذات الصدور: القلوب وما يهجس فيها. نضطرهم: نلزمهم. غليظ: شديد ثقل.

ألم تروا ان الله سخر لكم جميع ما في السموات والأرض، ووسع عليكم نعمه وأتمها على أحسن ما يكون، ومع ذلك ففي الناس من يجادل في توحيد الله ووجوده بغير علم يستند إليه ولا هدى، ولا كتاب يستأنس به. قراءات:

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: ولا تصغر بتشديد العين. والباقون: ولا تصاعر بألف من: صاعر يصاعر. وقرأ نافع: مثقال حبة برفع مثقال. والباقون: بالفتح. وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص «نعمه» بالجمع والباقون نعمةً بالافراد. واذا قيل لهؤلاء المجادلين الجاحدين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع، لم يجدوا ردًا لذلك الا قولهم {بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} .

ثم وبَّحهم الله على تلك المقالة فقال:

{أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ!} .

اما كان لهم عقل يفكرون به ويتدبرون حتى يعلموا الحق من الباطل!! يفضلون اتباع الشيطان الذي يقودهم الى النار! ومن أخلص لله وهو محسن في جميع ما يقول ويعمل فقد تسمك من حبل الله بأوثق عراه {والى الله عاقبة الأمور} اليه المصير والمراجع.

ثم سلى رسول الله على ما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم فقال:

{وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}

ومن كفر يا محمد فلا تحزن عليه، إلينا مصيرهم فنخبرهم بما عملوا، إن الله يعلم ما يدور في صدورهم فضلاً عن علمه بظواهرهم.

{ثُمَّ نَمُنُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ}

نحن نمتع الكافرين في هذه الدنيا مدة قصيرة ثم نوردتهم جهنم ليدوقوا العذاب الشديد.

ومن أعجب الأمور أنك ايها الرسول ان سألتهم من خلق السموات والأرض - ليقولن خلقها الله، فقل الحمد لله على إلزامهم الحجة، بل اكثر المشركين لا يعلمون، وهم في جهلهم يعمهون.

{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} .

لله ما في السموات والأرض، فلا يصحّ ان يُعبد فيهما غيره، وهو الغني عن الناس المستحق للحمد.
{وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ. . .}

يبين الله تعالى ان نعم الله وهذه المخلوقات لا حصر لها، ولا يعلمها الا خالقها، وان حكم الله وآياته وكلماته لا تنفذ ولا تُحصر ولا تعدّ كما قال: {وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا} [ابراهيم: ٣٤].

لو تحولت كل اشجار الأرض اقلاما، وصارت مياه البحار الكثيرة مداداً تُكتب به كلماتُ الله - لَفَنَيْتِ الاقلامُ ونفذ المداد قبل ان تنفذ كلمات الله.
قراءات:

قرأ ابو عمرو ويعقوب: والبحر يمدّه بنصب البحر، والباقون: والبحر بالرفع.

ثم بين ان كل هذه الأمور هينة عليه سهلة لا تكلفه شيئا فقال:

{مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}

ما خلقكم ايها الناس من العدم، ولا بعثكم من قبوركم، في قدرة الله، الا تخلق نفس واحدة وبعثها، انه سميع لأقوال عباده بصير بأفعالهم فيجازيهم عليها.

٣١٠٤ 29

يولج: يُدخل، والمعنى: يضيف الليل الى النهار والعكس بالعكس. تجري: تسير سيرا سريعا. بنعمة الله: بما تحمله من خيرات للناس. غشيم: غطاهم. كالظلل: ما يظل الناس من سحاب، يعني ان الموج يرتفع حتى يغطي السفينة. فمنهم مقتصد: سالك للطريق المستقيم. ختار: غدار.

نحن نرى دائما تقلّب الليل وتناقصهما وزيادتهما عند اختلاف الفصول، لذلك أَلَفْنَا هذه الآيات، مع أنها حقاً من المعجزات، فهذا الكون وما فيه من آيات عجيبة واسعة تحير الألباب، والله وحده القادر على انشاء هذا النظام الدقيق العجيب وحفظه. وكل ما نرى في هذا الكون متحرك {يجري إلى أجلٍ مُّسمى} ووقتٍ معلوم.

ثم يعقب الله على ما تقدم بأنه الحق، وان كل ما يدعونه من دونه الباطل {هو العلي الكبير} سبحانه وتعالى عما يصفون. وبعد ان ذكر الآيات العلوية الدالة على واحدانيته أشار الى آية أرضية فقال:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نِعْمَةً اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} .

ألم تشاهد ايها الرسول تلك السفن تخر عباب البحر بنعم الله المحملة عليها للناس ليرىكم من آياته ولدلائله، ان في ذلك لآيات لكل من راض نفسه على الصبر على المشاق، طلباً للنظر في نفسه وفي الآفاق، وعودها الشكر لما منح النعم ومسدّيها لنا سبحانه وتعالى. ولكن الناس لا يصبرون، ولا يشكرون، فان اصابهم الضر جأروا وصاحوا واستجاروا، وعندما ينجيهم الله من الضر لا يشكر منهم الا القليل.

{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} .

وهذه طبيعة البشر عندما يحيط بهم الخطر يخلصون لله ويؤمنون، واذا نجوا فمنهم من يشكر وهم القليل، والكثير جاحد غدار كفور. وهذا المعنى جاء في سورة يونس الآيتان ٢٢ و ٢٣.

اتقوا ربكم: خافوا عقابه. لا يجزي: لا يغني ولا ينفع. الغرور: بفتح الغين، ما غرَّ الانسان من مال وجاه وشهوة وشيطان. الساعة: يوم القيامة. الغيث: المطر. ما في الارحام: ما في بطون الحبالى من مواليد.

يختتم الله هذه السورة الكريمة بآيتين عظيمتين، الأولى فيها يذكر الناس بالتقوى والعمل الصالح، وان هناك هولاً أكبر من هول البحر، وذلك هو يوم القيامة بحيث لا ينفع والد ولده، ولا ولد ولاده.

والثانية قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} فقرر أن ثلاثة من هذه الخمسة لا يعلمها الا هو، وهي وقت قيام الساعة وعدم علم أي انسان ماذا يكسب غداً، ولا في أي ارض يموت.

وقال: {وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} فلم يحصر هذين الأمرين بعلمه. وذلك لسابق علمه أن الانسان بإعمال عقله يمكنه ان يكتشف اموراً كثيرة. وقد استطاع الانسان باستعمال عقله والعلم وتوفيق الله ان ينزل المطر في بعض المناطق وان كل على نطاق ضيق، ونفقات عالية.

وساتطاع بوساطة الآلات الحديثة ان يعلم نوع الجنين في الأرحام ولا يزال يجهل كثيراً من الأمور. {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}. . [الاسراء: ٨٥]

وهكذا تختتم هذه السورة بهذا الستار المسدول والعلم العجيب. فتبارك الله خالق القلوب ومنزل هذا القرآن شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للعالمين.

٣٢ السجدة

٣٢٠١ 1

افتراه: اختلقه. استوى على العرش: استولى عليه. يعرج اليه: يصعد اليه والعروج هو الصعود، ومنه المعراج. ماء مهين: ماء ضعيف، لا يرى الا بالمكبرات.

الم: تقرأ هكذا الف، لام، ميم. وقد مر الكلام عليها ومثيلاتها. {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}. .

ان هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك انه من عند الله. ويقولون: اختلقه محمد ونسبه الى الله. كلا، انه هو الحق ولا صدق من عند ربك أنزله اليك أيها الرسول لتندرك قومك، حيث لم يأتهم نذير من قبلك، ولعلهم بهذا الانذار يهتدون الى الحق.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}

الله هو الخالق لهذا الكون الواسع في ستة أيام، لكنها لا تشابه أيامنا ولا تقاس بها، لانه يجوز ان يكون اليوم بليون سنة او اكثر، فأيامنا محدودة، وإيام الله غير محدودة. ثم انه استوى على العرش استواء يليق به.

{مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} ليس لكم ايها الناس ما يلي امرؤكم ويديرها غيره، وليس لكم شفيع غيره. ثم أمرنا بالتذكر والتدبير فقال: {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} ؟

{يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}

ان الله يدير شئون الخلق وأمر الأرض من سماء جلاله من يوم وجودها الى ساعة تلاشيها، ثم يصعد اليه الأمر كله ليحكم فيه في يوم مقداره ألف سنة مما تعدون، ذلك هو يوم القيامة. والمراد بالالف هو الزمن المتطاوّل، وليس المقصود وحقيقة العدد، كما قدّمت. فيجوز ان يكون ذلك اليوم اطول بكثير مما ذكر.

{ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . . .}

ذلك الموصوف بالخلق والاستواء والتدبير هو الله عالم ما غاب عنا من الأمور، وما نشاهده، القويُّ اِقادِر على ما يريد، الرحيم في إرادته وتديبره للخلق، الذي أجاد كل شيء خلقه، وأحكمه، وبدأ تكوين الانسان من الطين، ثم جعل ذريته تخرج من نطفة ضعيفة فيها مخلوقات لا ترى بالعين المجردة، فيسويه بقدرته وينفخ فيه من روح. ثم تنمو الحيوانات بعد ذلك وتحرك. ثم التفت بالخطاب الى الناس فقال:

{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}

انها نعم عظيمة. . لقد اعطاكم السمع، وجهاز السمع كما يقول الاطباء جهاز دقيق أهم من اي جهاز في الجسم. . ثم اعطاكم البصر لتبصروا. . والأفئدة تميزوا وتفهموا وتعقلوا، ولكنكم مقابل هذا كله لا تشكرونه الا قليلا على هذا الفيض من الفضل الجزيل. اللهم الجعلنا من لاشاكرين لفضلك وكرمك يا رب العالمين.

تقدم في سورة المؤمنون آية ٧٨ {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} وهنا: وجعل لكم قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر: احسن كل شيء خلقه باسكان اللام، والباقون: بفتحها كما هو في المصحف.

٣٢.٢ 10

ضللنا في الأرض: معناه هنا غبنا فيها. ناكسوا رؤوسهم: مطأطئو رؤوسهم، خافضوها من الذل. إنا نسيناكم: أهملناكم. بعد ان بين الله فائدة رسالة النبي الكريم، والخلق، ووحدانيته تعالى، وتديبره لهذا الكون - ذكر هنا اعتراض المشركين وعدم إيمانهم بالبعث، وقولهم إذا متنا وتحللت اجسادنا فصارت ترابا وغبنا في هذه الأرض أسنخلق من جديد؟! ان هؤلاء المشركين ينكرون كل شيء فهم بقاء ربهم يجحدون. وبعد ذلك يرد الله عليه ويوبخهم.

قل لهم ايها الرسول: يتوفاكم ملك الموت الموكل بقبض أرواحكم ثم الى الله وحده ترجعون. ولو أُتيح لك يا محمد ان ترى المجرمين في موقف الحساب يوم القيامة لرأيت عجبا، فان هؤلاء المكذبين يكونون بحال سيئة، رؤوسهم منكسة الى الأرض خزيا من ربهم، يقولون في ذلة: ربنا أبصرنا الآن ما كنا نتعamy عنه، وسمعنا ما كنا نصم آذاننا عنه، فارجعنا الى الدنيا لنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل. لقد آمنّا الآن. . لكنه يكون فات الأوان.

{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا. . .}

ولو شئتُ لهديتُ كل نفس، ولكن ثبت مني القول، لحكمة أعلمها؛ بأن أملا جهنم من الجنّ والانس معا، ونقول لهم: ذوقوا العذاب بسبب غفلتكم عن لقاء يومك هذا، وقد أهملناكم وتركناكم في العذاب كالمنيسيين، فذوقوا العذاب الخالد بما كنتم تعملون. فيا ايها العاقلون اعتبروا بمصير أولئك المجرمين، واعملوا صالحا قبل لان تندموا يوم ذلك الموقف الرهيب.

٣٢.٣ 15

ذُكِّروا بها: وعظوا بها. خروا: سقطوا ساجدين. تتجافى: تتبعد. جنوبهم: جوانب اجسامهم. المضاجع: فرش النوم. أخفي لهم: خبيء لهم. من قرة أعين: من الأشياء النفيسة التي تفرح بها الأنفس والاعين. المأوى: المسكن الذي نأوي اليه. نزلا بما كانوا يعملون: ضيافة منا لهم على اعمالهم الصالحة. الأدنى: عذاب الدنيا. الأكبر: عذاب الآخرة.

بعد ان صور حال المجرمين يوم القيامة، وذكر ما يلاقونه من العذاب المهين - أتى بالصورة المقابلة، صورة المؤمنين الذين يسبحون بحمد ربهم ويسجدون له عند ذكر آياته، فهؤلاء لهم عنده الجزاء العظيم. وعند قوله تعالى {وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} موضع سجدة. ان الذين يؤمنون بآيات الله يقيمون ساجدين حين يُوعظون بها، ويسبحون الله ويمجدونه في سجودهم. وهم يقومون لله في الليل متجدين مبتعدين عن مكان نومهم يدعون الله خوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه. كما ينفق مما رزقهم الله من الأموال في وجوه البر، ويؤدون حقوقه التي أوجبها عليهم.

قالنس بن مالك رضي الله عنه: نزلت فينا معاشر الأنصار، كما نصلي المغرب، فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ. والمعنى عام يعم جميع المؤمنين في كل زمان ومكان.

ولذلك يقول الله تعالى:

{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

فلا تعلم نفس مقدار ما أعدّه الله وأخفاه لهؤلاء المؤمنين من النعيم المقيم الذي تفره أعينهم، جزاء بما كانوا يعملون. وانه لجزاء عظيم، واكرام آلهي، وحفاوة ربانية بهذه النفوس المؤمنة.

{أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ. . . .}

يبين الله تعالى في هذه الآيات مبدأ الجزاء العادل، الذي يفرق بين المسيئين والمحسنين في الدنيا والآخرة على أساس العدل. كيف يستوي الناس في مجازاتهم وقد اختلفوا في أعمالهم!! لا يستوي المؤمن المصدق بالله مع الكافر الجاحد العاصي. كما قال تعالى:

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} سورة ص ٢٨.

ام الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى التي فيها مساكنهم، ضيافة منا لهم جزاء أعمالهم الصالحة. واما الذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله فقامهم في النار، كلما حاولوا الخروج منها أعيدوا فيها، ثم يقال لهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم تكذبون به في الدنيا.

{وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}

ان الله تعالى لا يحب ان يعذب عباده اذا لم يستحقوا العذاب، وهو يقسم هنا بأنه سوف يعذبهم في الدنيا لعلمهم يتوبون وتستيقظ فطرتهم، أما اذا أصرّوا على الكفر والعناد فإن العذاب الاكبر ينتظرهم يوم القيامة.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}

ليس هناك من هو أظلم ممن ذكروا بآيات ربهم وحججه البينات ثم انصرفوا عنها ولم يؤمنوا بها، وهؤلاء ينالون اشد العذاب ويستحقون الانتقام من العزيز الجبار.

قراءات:

قرأ حمزة ويعقوب: ما اخفي لهم باسكان الياء والباقون: اخفي بفتحها.

٣٢٠٤ 23

في مريّة: في شك. يهدون بأمرنا: يقومون بهداية الناس كما امرنا. اولم يهد لهم: او لم يتبين لهم. الارض الجرّ: الارض اليابسة لا نبات فيها. متى هذا الفتح: متى هذا الفصل في الحكم وهو يوم القيامة.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}

ولقد أنزلنا التوراة على موسى كما أنزلنا عليك القرآن، فلا تكن في شك من لقاءك الكتاب، وجعلنا الكتاب الذي أنزلناه على موسى مرشداً لبني اسرائيل.

{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}

وجعلنا من بني اسرائيل أمة في الدين من انبيائهم يقومون بهداية الناس كما امرناهم لأنهم صبروا على طاعتنا، وكانوا من أهل الايمان واليقين. ولكن عهد هؤلاء الأنبياء قد ولى، وعاد اليهود الى عبادة العجل من الذهب.

قراءات:

قرأ حمزة واكسائي ورويس: لَمَّا صَبَرُوا بكسر اللام وتخفيف الميم. والباقون: بفتح اللام وتشديد الميم لَمَّا صَبَرُوا.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}

ان الله تعالى يقضي بين خلقه يوم القيامة فيما اختلفوا فيه.

{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ}

أولم تبين لهم طريق الحق كثرة ما اهلكنا من الأمم الماضية، وهم يمشون في ارضهم ويشاهدون آثارهم كعاد وثمود وقوم لوط، ان في ذلك لعظات تبصرهم بالحق، أفلا يسمعون؟

وبعد ان بين قدرته على الاهلاك، بين الله تعالى قدرته على الاحياء فيقول: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} .

الم يشاهد هؤلاء الجاحدون أننا نزل الماء على الأرض اليابسة التي لا نبات فيها فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم، وتتغذى به أجسامهم؟! أفلا يبصرون دلائل قدرة الله على إحياء الارض بعد موتها!!

ثم يذكر الله تعالى استعجال أولئك الجاحدين بالعذاب الذي يوعدون وأنهم في شك منه، ويرد عليهم مخوفاً ومحدراً من تحقيق ما يستعجلون به فيقول:

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} .

ويقول المشركون: متى ستنصرون علينا في الدنيا، ويفصل بيننا وبينكم في الآخرة؟ قل لهم ايها الرسول: إن يوم الفصل ان كان في الدنيا وفي الآخرة سيأتي، فلا تستعجلوه، واذا حل بكم ذلك اليوم فإنه لن ينفعكم الإيمان، ولا تمهلون لحظة عن العذاب الذي تستحقونه. وقد صدق الله رسوله ففتح عليه في الدنيا ونصره. وسيلقون يوم القيامة جزاءهم.

ثم يختم السورة بامر رسوله بالاعراض عنهم، بآية قصيرة في طياتها تهديد خفي بعاقبة الامور ويدعهم لمصيرهم المحتوم فيقول: {فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ} وسترى عاقبة صبرك عليهم.

٣٣ الأحزاب

٣٣٠١ 1

اتق الله: اعمل صالحاً وأطع الله. وتوكل على الله: اعمل وفوض أمورك اليه. وكَيْلًا: حافظاً.

في هذه الآيات الكريمة توجيه للنبي الكريم ان يستمر على تقواه حتى يكون قدوة للمؤمنين، وان لا يُخدع بالكافرين والمنافقين بل يظل حذراً منهم ومن مكائدهم، وأن يعمل بما يوحيه الله إليه ومن ثم يتوكل على الله ويفوض جميع أموره اليه، {وكفى بالله كَيْلًا} يحفظه ويحرسه ويمنع عنه كل شر، وقد فعل.

قراءات:

قرأ ابو عمرو: بما يعملون خبيراً، والباقون: بما تعملون بالتاء.

تظاهرون: تقولون للمرأة: أنتِ عليّ كظهر أمي، وكانت عادةً في الجاهلية، اذا قال الرجل لزوجته هذا القول حُرمت عليه ابدًا. فجاء الاسلام وأبطل هذه العادة وجعل الحرمة مؤقتة وعليها غرامة. الادعاء مفردا دعي: هو الذي يتبناه الانسان. وكان ذلك معمولاً به في الجاهلية وصدر الاسلام ثم حُرّم بهذه الآيات. السبيل: طريق الحق. أسط: اعدل. مواليكم: أولياؤكم. المولى له عدة معان: المولى الرب، والمالك، والولي المحب، والصاحب، والجار، والقريب من العصابة كالعم وابن العم ونحو ذلك، والمعنى والعبد. . . . {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} حتى يطع بأحدهما ويعصي بالآخر، وكان العرب في الجاهلية يقولون: للرجل الذكي قلبان، وهذه خرافة.

وما جعل زوجة أحدكم حين يقول لها: أنتِ عليّ كظهر أمي، أمّا له حقيقة، فأبطلوا، وعلى من تفوّه بها كفارة. {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ. . .} حرم الإسلام ان يتخذ الانسان ولداً او بنتا ويقول هذا ابني، أرثه ويرثني، وأمرنا ان ندعوهم لأبائهم، فاذا لم نعلم آباءهم فانهم إخواننا في الدين وموالينا واحبابنا. ويرفع الله عنا الحرج بما أخطأنا به: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ} ويحذّرنا من ان نتعمد الأعمال الممنوعة، ومع هذا فانه غفور رحيم.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع: اللاء بهمزة مكسورة بدون ياء. والباقون: اللائي بهمزة بعدها ياء. وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو: تظهّرون، بفتح التاء وتشديد الظاء والهاء المفتوحتين. وقرأ ابن عامر: تظاهرون، بفتح التاء وتشديد الظاء بعدها الف. وقرأ عاصم: تظاهرون، بضم التاء وفتح الظاء بدون تشديد كما هو في المصحف.

اعلموا ايها المؤمنون أن النبيّ احرص على استقامة امركم وأحقّ بولايتكم من أنفسكم، فعليكم ان تطيعوه وتبعوا شرعه. وازواجه منّلات منازل أمهاتكم فعليكم ان توقروهن ولا تزوجوهن من بعده. وذوو القربات أولى ببعض في امر الوراثة من المؤمنين والمهاجرين، (وكان المؤمنون يتوارثون كأنهم أسرة واحدة) لكن يجوز ان تعطوا بعض من اليتيم في الدين من المتصلين بكم، او توصوا لهم بجزء من مالكم. كان هذا ثابتاً في اللوح المحفوظ والقرآن.

واذكروا يا محمد حين أخذنا على النبيين عهداً، وأخذنا مثله عليك وعلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم بتبليغ الرسالة والدعوة الى الدين {وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا} عظيم الشأن. وسوف يسأل الله يوم القيامة جميع الانبياء عما قالوه لقومهم، ولما لاقوه منهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً.

جاءكم جنود: الاحزاب، وهم قريش وبنو اسد وغطفان وبنو عامر وبنو سليم ومن اليهود بنو النضير وبنو قريظة. جنود لم تروها: الملائكة. زاغت الابصار: تحيرت من الدهشة والخوف. بلغت القلوب الحناجر: فرغت فرغاً شديداً كأنها قفزت الى الخلق من الخوف. ابتلي المؤمنون: اختبروا وامتحنوا. وزلزلوا زلزلاً شديداً: اضطربوا من الفزع بشكل رهيب من كثرة العدو. والذين في قلوبهم مرض: ضعفاء الايمان من المسلمين قريبي العهد بالاسلام. الا غرورا: وعداً باطلا قصد به التغرير بنا. يثرب: من اسماء المدينة، ولها مائة اسم. لا مقام لكم: لا ينبغي لكم الاقامة هنا. ان بيوتنا عورة: يعني مكشوفة للعدو خالية من الرجال المدافعين عنها. من اقطارها: من جوانبها. الفتنة: الردة ومقاتلة المؤمنين. آتوها: اعطوها. وما تلبّثوا بها: ما اقاموا بالمدينة. لا يولّون الادبار: لا يفرون منهزمين. نزلت هذه الآيات الى آخر الآية السابعة والعشرين في تفصيل غزوة الأحزاب، أو غزوة الخندق.

كانت غزوة الأحزاب في شوال سنة خمسٍ من الهجرة، وكانت ثم أخطر الحوادث التي واجهها رسول الله والمسلمون، في تقرير مصير الدعوة الإسلامية. وكانت معركة حاسمة ومحنة أبتلي المسلمون فيها ابتلاءً لم يبتلوا بمثله.

أما سببها فهو أنه خرج نفرٌ من بني النضير، ونفر من بني وائل من اليهود، فقدموا على قريش في مكة. وهناك دعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: أنا سنكون معكم حتى نستأصله هو ومن معه. فسر ذلك قريشاً، ونشطوا لما دعوهم إليه. ثم خرج وفد اليهود فجأؤوا غطفان ودعوهم إلى حرب المسلمين. وطافوا في القبائل، حتى تمت لهم اتفاقية عسكرية، كانت قريش وغطفان من أهم أعضائها. فحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل، وغطفان ستة آلاف. وأسندت قيادة الجيش إلى أبي سفيان، وتعهد اليهود أن يدفعوا إلى غطفان كل ثمر نخلٍ خيبر لسنة واحدة.

ولما سمع رسول الله وأصحابه عن تجمع القبائل مع قريش لقتال المسلمين وزحفهم إلى المدينة - تهيأ المسلمون للحرب، وقرروا التحصن في المدينة والدفاع عنها. وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.

وفي هذه الاثناء أشار سلمان الفارسي، رضي الله عنه، بحفر الخندق حول المدينة، وكانت هذه خطة حربية متبعة عند الفرس، فأمر الرسول الكريم بحفر الخندق في السهل الواقع شمالي غرب المدينة، وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو. وقد قسم رسول الله الخندق بين أصحابه لكل عشرة أربعين ذراعاً. وبلغ طول الخندق خمسة آلاف ذراع (نحو أربعة كيلو مترات)، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، وعرضه من تسعة أذرع إلى ما فوقها.

وكان حده الشرقي طرف حرة واقم، وحده الغربي وادي بطنحان حيث طرف الحرة الغربية، حرة الوبرة. وعمل المسلمون في حفر الخندق بجدٍ ونشاط. وكان كلما عرّض لهم مكان صعب فيه صخرة لجأوا إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فيأخذ المعول بيده ويضربها حتى تنفتت، حتى أكلوه وتحصنوا وراءه.

وكان بين المسلمين وبني قريظة من اليهود معاهدة، فحملهم حيي بن أخطب، سيد بني النضير، على نقض تلك المعاهدة. فنقضوها، وتأهبوا لقتال المسلمين مع المشركين من قريش والعرب. وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر.

وجاء أبو سفيان يقود ذلك الجيش الجرار وأحاطوا بالمدينة. وفوجئوا بالخندق، فوقفوا من ورائه، وقفز أحد أبطالهم وهو عمرو بن عبد ود العامري بحاصنه فاجتاز الخندق وطلب المبارزة. فبرز له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقتله. ثم حصل بعض التراشق بالسهم، ودام الحصار نحو شهر، اشتد فيه البلاء. واستأذن بعض المنافقين في الذهاب إلى المدينة وقالوا: {إِنَّ بَيْتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}. وكان الوقت شتاءً واشتد البرد وهبت ريح عاتية فقلبت القدور وقوضت الخيام. فقام أبو سفيان وقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما صبحتم بدار مقام، وقد أخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل.

فانطلقوا، وأصبح الصباح فإذا القوم قد ارتحلوا. وانصرف المسلمون ووضعوا السلام وصدق الله العظيم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}. {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}.

ووضعت الحرب أوزارها، فلم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين. وقال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» والقصة بطولها في سيرة ابن هشام وفي صحيح مسلم، وابن كثير.

واستشهدوا من المسلمين يوم الخندق سبعة، وقتل من المشركين أربعة.

{إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا. . . } .

إنها صورة هائلة مرعبة، فقد جاء أبو سفيان بذلك الجيش الكبير وحاصروا المسلمين من كل مكان، وبنو قريظة من ورائهم، فبلغ الخوف أقصاه، وبلغت القلوب الحناجر خفقاناً واضطراباً، وظن بعضهم بالله ظنونا سيئة.

وكان ذلك اختباراً كبيراً وامتحاناً شديداً للمؤمنين، وأخذ المنافقين والذين في قلوبهم مرض من ضعاف المسلمين يقولون: ما وعدنا الله ورسوله من النصر وعلو الكلمة الا وعداً باطلا!

وقالت طائفة من المنافقين كعبد الله بن أبي وأصحابه: يا أهل المدينة، ليس هذا المقام بمقام لكم فارجعوا الى منازلكم، {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} وهم من بني حارثة.

وما كان استئذانهم إلا جبناً و فراراً من القتال. ثم بين الله وهن الدين وضعفه في قلوبهم فقال: {وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّوْا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا} .

ولو دخل عليهم الأحزاب من جوانب بيوتهم، ثم طلبوا إليه الارتداد عن دينهم وأن يقاتلوا المؤمنين - لفعلوا ذلك مسرعين من شدة الخوف.

ولقد كانوا عاهدوا الله لا يهزمون امام عدو قط، {وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} .

قراءات:

قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة: الظنون بدون ألف. والباقون: الظنونا بالف بعد النون وقرأ حفص: لا مقام لكم بضم الميم بمعنى الإقامة. والباقون: لا مقام لكم بفتح الميم بمعنى الموضع. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: لأتوها من غير مد، والباقون: لأتوها بالمد. يقول الطبري: قرأ بعض المكيين وعامة قراء الكوفة والبصرة لأتوها بمد الألف. وحفص كوفي، فتكون قراءة المصحف الصحيحة لأتوها بالمد.

٣٣.٥ 16

يعصمكم: يمنعكم. المعوقين: المانعين المثبتين عن القتال. هلم إلينا: اقبلوا إلينا. البأس: الشدة والمراد بها هنا الحرب والقتال. أشعة: جمع شحج وهو شديد البخل. تدور أعينهم: تدور مقلأعينهم من شدة الخوف مثل الذي يغشى عليه من الموت. سلقوكم: آذوكم بالسنتهم السليطة. أشعة على الخيل: بخلاء حريصين على مال الغنائم. فأبخط الله أعمالهم: أبطلها. بادون في الأعراب: لو انهم من اهل البادية مع الاعراب.

لا يزال القول فيغزوة الخندق وما لا بسها. قل لهم ايها الرسول: لا ينجيكم الفرار من الموت او اقتل، وان نفعكم ظاهراً فلا تتمتعون بتأخير يومكم إلا تمتعاً قليلاً.

وقل لهم: من ذا الذي يحميكم من الله إن أراد بكم رحمة؟ {وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} .

والله يعلم المعوقين الذي يتبطون الناس عن القتال ويمنعونهم، والذين يقولون لإخوانهم هلموا إلينا {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا} فلا يقربون القتال إلا زمناً قصيراً ثم يتسللون ويهربون الى مساكنهم.

ثم ذكر الله بعض معايهم من البخل والخوف والفخر الكاذب فقال:

{أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ {

إنهم بخلاء عليكم بالمعونة والانفاق، فإذا طرأ الخوف من الحرب رأيتهم ينظرون إليك بحالة عجيبة، تدور أعينهم في محاجرها كالذي يقع مغشياً عليه في حالة الموت. فإذا ذهب الخوف وأمنتم، {سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ { طالبين أن يشاركوكم في الغنيمة.

{أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَلِيرِ أُولَئِكَ لَمْ يُولُوا} .

وهم بخلاء في كل خير، حريصون على الغنائم إذا ظفر بها المؤمنون. انهم حين البأس جبنا، وحين الغنيمة أشعأ، {فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} .

٣٣.٦ 21

أسوة، وإسوة: قدوة. قضى نحبه: مات أو استشهد في سبيل الله. بغیظهم: بأشد ما يكون من الغضب. ظاهرهم: عاونهم. من اهل الكتاب: اليهود من بني قريظة. من صياصيمهم: من حصونهم، واحدا صيصية وهي كل ما يمتنع به. قذف في قلوبهم الرعب: القى في قلوبهم الخوف الشديد.

لا يزال الحديث عن غزوة الاحزاب.

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...}

في هذه الآية عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله ﷺ. لقد كان لكم في رسول الله قدوة حسنة أن تتأسوا به، ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على الحرب ومعاناة الشدائد، لمن كان يرجو ثواب الله والفوز بالنجاة في اليوم الآخر. وقد قرن الله الرجاء بكثرة ذكر الله. قراءات:

قرأ عاصم: أسوة بضم الهمزة، والباقون: إسوة بكسرها وهما لغتان.

ولما رأى المؤمنون الأحزاب مقبلين للقتال، يتوافدون حماساً وحجاً للانتقام {قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ} من نزول الشدائد ووقوع الفتن، امتحاناً لإيمان عباده. وقد صدق الله ورسوله وما زادهم هولاً ما رأوا الا إيماناً بالله، وتسليماً لأوامره وقضائه. هذا هو الإيمان الحق، الصبر والثبات، والتسليم الى الله ورسوله، والثقة بنصر الله.

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} .

من المؤمنين بالله ورسوله رجال وفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر على الشدائد، فمنهم من فرغ من العمل الذي كان نذره الله وأوجهه على نفسه، فاستشهد بعضهم يوم بدر، وبعضهم يوم أحد، وبعضهم في غير ذلك من المواطن المشرفة، {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ} الشهادة، وما غيروا العهد الذي عاهدوا ربهم، كما غيره المعوقون القائلون لإخوانهم: هلمّ الينا، والقائلون: إن بيوتنا عورة.

{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}

ان الله سبحانه يختبر عباده بالخوف والشدائد ليظهر الصادق بإيمانه من المنافق الكذاب كما قال: {وَلْيَبْلُوكُمْ} حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبؤ أخباركم {سورة محمد ٣١}. ويعذب المنافقين إذا استمروا على نفاقهم. فإن تابوا، فإن الله غفور رحيم. وباب التوبة عنده مفتوح دائماً وابدأ، وهو يغفر الذنوب جميعاً.

{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} .

انتهت المعركة وانفجرت الغمة، ورد الله الكفار ممتلئة قلوبهم بالغیظ خائبين، لم ينالوا خيراً من نصر أو غنيمة. وكفى الله المؤمنين مشقة القتال، وكان الله عزيزاً بحوله وقوته.

روى الشيخان من حديث أبي هريرة «ان رسول الله ﷺ كان يقول: لا اله الا الله وحده، صدق عبده، وأعز جنده، وهزم الاحزاب وحده، فلا شيء بعده»

وروى محمد بن اسحاق انه لما انصرف الاحزاب قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» وقد تحقق هذا ونصر الله رسوله والمؤمنين الى ان فتح عليهم مكة.

{وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيمِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّيبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا} .

انتهت المعركة مع الأحزاب من قريش وحلفائها وردّهم الله خائبين، لكنّها لم تنته مع اليهود من بني قريظة، الذين نقضوا العهد مع رسول الله والمؤمنين. وكان الرسول لما قدّم المدينة، كتب كتاباً بين المهاجرين والانصار وادّع فيه اليهود وعاهدّهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرّط لهم واشترط عليهم، وجاء فيه: «انه من تبعنا من يهود فان له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، ان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وان قبائل يهود أئمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم». . . وان بينهم النصر على ما حارب أهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الاثم، وان بينهم النصر على من دهم يثرب» .

والعهد طويل موجود في سيرة ابن هشام وعدد من المراجع.

ولكن اليهود، هم اليهود في كل زمان ومكان، فقد نقضوا العهد واتفقوا مع قريش والأحزاب على أن يهجموا على المدينة من خلف المسلمين. ولما علم رسول الله بذلك بعث سعد بن معاذ، وسعد بن عباد - في رجال من الانصار ليتحققوا الخبر. فوجدوهم على شر ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

وهكذا حاولوا طعن المسلمين من الخلق، ولكن الله خيّبهم، إذ أنهم اختلفوا مع قريش وتحصنوا في حصونهم ولم يحاربوا. فلما انصرف الرسول الكريم والمسلمون من الخندق راجعين الى المدينة - أمر الرسول مؤذنا فأذن في الناس: إن من كان سمعاً مطيعاً فلا يصلين العصر الا في بني قريظة.

ونزل رسول الله ببني قريظة فحاصرهم نحساً وعشرين ليلة حتى تعبوا وجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم سعد بن معاذ حلّيفهم. فحكم فيهم ان تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسبي الذراري والنساء لأنهم لو نفذوا عهدهم مع قريش لقصّوا على المسلمين واستأصلوهم، ولكن الله سلّم ونصر المسلمين {وكان الله قوياً عزيزاً} . وقد توفي سعد بن عاذ شهيد من سهم أصابه في ذراعه رضي الله عنه.

{وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً}

وأورثكم الله ايها المؤمنون ارض اليهود وحصونهم وديارهم واموالهم التي ادخروها، وموارعهم. وقد قسمها الرسول الكريم بين المسلمين، واخر الخمس لرسول الله يصرفه في سبيل الله وأرضاً لم تطئها: خير ومكة، وكل ما لم يفتح بعد. .

٣٣.٧ 28

زينة الدنيا: كل ما فيها من متاع ونعيم. أمتعكن: اعطيكن المتعة من مال ولباس بحسب ما أستطيع. وأسرحكن: اطلقكن. سراحاً جميلاً: طلاقاً من غير ضرر ولا مخاصمة ولا مشاجرة. الفاحشة: المعصية. مبينة: ظاهرة واضحة. ضعفين: ضعفي عذاب غيرهن من النساء. يسيراً: هيناً.

بعد ان نصر الله رسوله والمؤمنين وفتح عليهم بني قريظة واموالهم، طلب نساء النبي ان يوسع لهن بالنفقة، وقلن له: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، والاماء والخدم والحشم، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق! فأنزل الله تعالى في شأنهن قوله: {ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا. . .} الآيات.

فبدأ بعائشة، فقال لها: إني أذكر لك أمراً ما أحب ان تعجلي حتى تستأمري أبويك. قالت: وما هو؟ فتلا عليها: {ياأيها النبي قل لأزواجك. . .} الآية {قالت عائشة: أفيك أستأمر ابوي! بل اختار الله تعالى ورسوله. ثم تابعها بقية نساءه. وكن تسعاً: ستاً من قريش، وهن عائشة وحفصة وام حبيبة وسودة وام سلمة وزينب بنت جحش الاسدية، وثلاثاً من غير قريش وهن: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب يهودية الأصل، وجويرية بنت الحارث المصطلقية.

وبعد ان خيرهن واخترن الله ورسوله وعظهن بقوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} .

وفي هذا تهديد شديد، لأنهن لسن كغيرهن من النساء والذنب من العظيم عظيم، فمن تفعل منهن ذنباً يضاعف لها العذاب من الله .
قراءات:

قرأ ابن كثير وابن عامر نُضَعِفَ العذاب: بضم النون وتشديد العين المكسورة ونصب العذاب. وقرأ أبو عمرو: يُضَعَّفُ بضم الياء وتشديد العين المفتوحة على البناء للمفعول، العذاب مرفوع. وقرأ الباقر: يُضَاعَفُ لها العذاب بألف بعد الضاد، للمجهول.
هكذا كانت آيتا التخيير تحدّدان الطريق الواضح: فإما الحياة الدنيا وزينتها، وأما الله ورسوله والدار الآخرة. وقال نساء الرسول الكريم بعد ذلك: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وفرح الرسول بذلك ﷺ.

٣٣٠٨ 31

يقنت: يطع الله ويخضع له. س يقال قنّ الله وقت الله، متعد ولازم. أعتدنا: هيّأنا وأعدنا. كريماً: سالماً من الآفات والعيوب. لستن كأحد من النساء: لا يساويكن أحد من النساء في الفضل والمنزلة. فلا تخضعن بالقول: فلا تجبن احداً بقول لين مريب. في قلبه مرض: في قلبه ريبة وفجور. وقلن قولاً معروفاً: قولاً حسناً لطيفاً بعيداً عن الريبة. وقرن في بيوتكن: إلزمن بيوتكن. التبرج: اظهار الزينة. الجاهلية الاولى: الجاهلية القديمة التي لا تعرف ديناً ولا نظاماً. ليذهب عنكم الرجس: الاثم والذنب. آيات الله: القرآن الكريم. والحكمة: ما ينطق به الرسول من السنة والحديث.

ومن تطع منكن يا نساء النبي الله ورسوله وتخضع لأوامرهما، وتعمل صالح الأعمال، يعطيها الله أجرها مرتين (كما هدد بمضاعفة العذاب) ، وزيادة على مضاعفة الأجر أعد الله لكن الكرامة في الدنيا والآخرة.

ثم بين لهن أنهن لسن كغيرهن من النساء بقوله تعالى:

{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا} .

ليس هناك جماعة من النساء تساويكن في الفضل والكرامة، لأنكن أزواج خاتم النبيين، وأمّهات المؤمنين، وهذه منزلة عظيمة لم يتشرف بها أحد من النساء غيركن.

ولذلك نهأهن الله عن الهزل في الكلام إذا خاطبهن الناس، حتى لا يطمع فيهن من في قلبه نفاق، ثم أمرهن ان يقلن قولاً معروفاً بعيداً عن الريبة.

{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى} .

وهذا أمر من الله أن يلزمن بيوتهن، وان لا يظهرن زينتهن ومحاسنهن كما يفعل اهل الجاهلية الاولى. ثم أمرهن بأهم اركان الدين وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، واطاعة الله ورسوله.

{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} .

ليذهب عنكم كل دنس وإثم يا أهل بيت النبي الكريم ويجعلكم طاهرين مطهرين. ثم أمرهن بتعلم القرآن وتعليمه لغيرهن، وان يستوعبن ما يقول الرسول الكريم من الحكمة الماثورة في سنته، لأن الناس سيهرعون إليهن ليأخذوا منهن ما سمعنه منه.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: ومن يقنت منكن. ويعمل صالحاً، بالياء في الفعلين. وقرأ الباقر: ومن يقنت. وتعمل بالتاء في الأخير.

وقرأ عاصم ونافع: وقرن بفتح القاف. والباقر: وقرن بكسر القاف.

الاسلام: الانقياد والخضوع لأمر الله، والايمان: التصديق بما جاء عن الله من أمرٍ ونهى. القنوت: الطاعة في سكون. الصبر: تحمل المشاق والمكاره والعبادات والبعد عن المعاصي. الخشوع: السكون والطمأنينة. اعد الله لهم مغفرة: هيا لهم الرحمة والغفران واحسن الجزاء.

ذكر الله تعالى في هذه الآية عشر صفات من صفات المؤمن المخلص الصادق الايمان، وهي الاسلام، والايمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفرج، وذكر الله كثيرا.

فهذه الصفات تجعل من يتحلّى بها من المؤمنين رجلا مثاليا او امرأة مثالية. ويلاحظ ان الله تعالى لم يفرّق بين المرأة والرجل، فالكل سواء في العمل والايمان والأجر والكرامة. وأي منزلة أرفع من هذه المنزلة للمرأة، فهي تُذكر في الآية بجانب الرجل، مع رفع قيمتها، وترقية النظرة اليها في المجتمع واعطائها مكانها اللائق في التطهر والعبادة والسلوك القويم في الحياة.

ما كان لمؤمن. . . لا ينبغي لمؤمن ان يختار غير ما يختار الله. الخيرة: الاختيار. مينا: ظاهرا. الذي انعم الله عليه. هو زيد بن حارثة انعم الله عليه بالاسلام. وأنعمت عليه: بالعتق والحرية. الوطر: الحاجة. الخرج: المشقة. فرض الله له: قدر الله له. خلوا: مضوا. قدرا مقدورا: قضاء مقضيا.

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا. . .}

ليس الاختيار بيد الانسان في كل شيء، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا لمؤمنة فيها، وهي ما حكم الله فيه، فما أمر به فهو المتبع، وما أراد النبي ﷺ فهو الحق، ومن يخالف ما حكم به الله ورسوله {فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا}.

نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش، ابنة عمّة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد خطبها الرسول الكريم ليزوجها من زيد بن حارثة مولاه، فلم يقبل أخوها عبد الله ان تكون أخته، وهي قرشية هاشمية، تحت عبد اشترته خديجة ثم أعتقه الرسول الكريم.

وقد اصر الرسول عليه الصلاة والسلام على تزويجها من زيد لإزالة تلك الاعتبارات القائمة في النفوس على العصبية، ولهدم تقاليد العرب القديمة.

فلما نزلت هذه الآية أذعن عبد الله وأخته زينب وقبلت ان تزوج زيدا. ولم ينح هذا الزواج. فقد تناولت زينب على زوجها وجعلت تتكبر عليه، وتعيّره بأنه عبد رقيق، وهي قرشية. وآذته بفخرها عليه، واشتكى الى النبي ذلك مرارا، وطلب اليه ان يأذن له بتطليقها فكان النبي يقول له: «أمسك عليك زوجك» لكن زيدا لم يطق معاشرّة زينب فطلّقها.

وبعد ذلك تزوّجها الرسول الكريم، وهي ابنة عمته، ولأنه يريد ان يبطل عادة التبني الذي كان معمولاً به في الجاهلية. وكل ذلك بأمر من الله كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}.

فالذي أنعم الله عليه هو زيد، أنعم عليه بالاسلام، والذي أنعمت يا محمد عليه هو زيد أيضا، أنعمت عليه بالعتق من الرق وجعلته حراً. وتخفي يا محمد في نفسك ما سيظهره الله من ان زيدا سوف يطلق زينب وانك ستزوّجها بأمر الله. هل تخاف ان يعيرك الناس أنك تزوّجت امرأة ابنك (وكان يقال له زيد بن محمد) ؟ ان الله وحده هو الذي يجب ان تخشاه، فانك انت القدوة في كل ما امر الله به، وما ألقى عليك ان تبلغه للناس، فلتكن أيضا القدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادعاء. وفي ذلك نزل قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

مَفْعُولًا .

وقد قامت قيامة المبشرين والمستشرقين لهذا الحادث وكتبوا فيه وأولوا وأطلقوا نحيالهم العنان، وهم يعلمون حق العلم أن الرسول الكريم كان مبشراً ونذيراً ومعلماً وداعياً إلى الله بإذنه ومشجعاً يريد أن يهدم عادات الجاهلية، ولذلك يقول تعالى: {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} .

ما كان على النبي من إثم في عمل أمره الله به، فلا حرج في هذا الأمر، وليس النبي فيه بدعاً بين الرسل، فهو أمرٌ يمضي وفق سنة الله التي لا تبدل في الانبياء الذي مضوا.

ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى وإخلاص العبادة له وتبليغ رسالته فقال: {الَّذِينَ يَبْلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} .

كفى ان يكون الله الرقيب المحاسب، فهو وحده يحاسبهم.

{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}

وفي هذه الآية قطعاً لألسنة المنافقين وشياطينهم من اليهود الذين قالوا إن محمداً تزوج حليمة ابنة زيد. ان محمداً ليس أباً لأحد من رجالكم حتى يحرم عليه التزوج من مطلقة ولكنه أبٌ للمؤمنين جميعاً، ولذلك فهو يشرع الشرائع الباقية، لتسير عليها البشرية، وفق آخر رسالة السماء الى الأرض، {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} يعلم ما يصلح لهذه البشرية، ففرض الله هذا وفق علمه بكل شيء.

قراءات:

قرأ أهل الكوفة: ان يكون لهم الخيرة بالياء. والباقون: ان تكون بالتاء. وقرأ عاصم وحده: خاتم بفتح التاء. والباقون: خاتم بكسر التاء.

٣٣.١١ 41

أصيلاً: الأصيل هن الوقت حين تصفر الشمس عند الغروب. الصلاة من الله: المغفرة والرحمة. النكاح: عقد الزواج. من قبل ان تمسوهن: من قبل ان تدخلوا بهن. فتعوهن: اعطوهن ما يخرج من نفوسكم من المال لتطيب به نفوسهن.

يا أيها الذين آمنوا، أكثروا من ذكر الله وسبحوه كل وقت، ولا سيما أول النهار وآخره، هو الذي يرحمكم ويغفر لكم بصلاته عليكم، وتستغفر لكم الملائكة، ليخرجكم من ظلمات الجهل الى نور الاسلام {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} . وهذا أمرهم في الدنيا دار العمل. أما أمرهم في الآخرة وعندما يلقونه فلهم الكرامة والحفاوة والأجر الكريم: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} .

يا أيها النبي إنا أرسلنا شاهداً على أمتك ترفع أمرهم الى الله يوم القيامة، ونذيراً لهم حتى لا يتهاونوا، وداعياً الى الله بإذنه لنشر الدين، ومصباحاً مضيئاً يهدي بنوره الحائرين ويقتبس من نوره المهتدون.

وبعد هذا يأتي الفضل كله {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا} على سائر الأمم بحملهم أعباء هذا الدين الكريم وابلاغه الى الناس.

ثم بعد ذلك ينهي الخطاب للنبي ﷺ بأن يهمل الكافرين والمنافقين ولا يحمل بأذاهم، وأن يتوكل على الله وحده ويفوض أمره إليه كما أمره في مطلع السورة. {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} .

ثم يبين تشريعاً مهماً لحفظ الأسرة، وكرامة المرأة وحفظ حقوقها بقوله:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فُتِعُوهُنَّ وَسِرَّوَهُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا} .

في هذه الآية الكريمة أمران:

الأول: اذا عقدتم عقدكم على امرأة ثم لم يحصل وفاق وطلقتموها قبل الدخول فليس عليها عدة.
الثاني: على المطلق ان يتمتع المطلقة بشيء من المال حسب قدرته حتى يطيب خاطرها وليكون في ذلك بعض السلوة لها عما لحق بها من أذى الطلاق.
{وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً} .

سبق في سورة البقرة نفس الموضوع في قوله تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ . . .} [الآية: ٢٣٦ و ٢٣٧].
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: من قبل ان تمسوهن بضم التاء والفتحة. الباقيون: تمسوهن، بفتح التاء من غير الف بعدها.

٣٣.١٢ 50

آتيت أجورهن: اعطيت مهرهن. وما ملكت يمينك: من الإماء التي جاءتك من المغانم. خالصة لك: خاصة بك. حرج: ضيق، مشقة. ترجي: تؤخر، تبعد. تؤوي اليك: تسكن معك. ومن ابتغيت ممن عزلت: ومن طلبت ممن ابعدت من نساءك. ذلك أدنى ان تقر اعينهن: ذلك أقرب ان تسر نفوسهن.

في هذه الآيات الكريمة يبين الله لرسوله الكريم ما يحل له من النساء، وما في ذلك من خصوصية لشخصه الكريم ولأهل بيته.
يا أيها النبي: إنا أحبنا لك أزواجك اللاتي اعطينهن مهرهن، وأحللنا لكم ما ملكت يدك من الجواري، ويجوز لك ان تتزوج من بنات عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك.

ويجوز لك ان تتزوج امرأة مؤمنة ان وهبت نفسها لك بلا مهر.

{قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} من شروط العقد الشرعي.

وهذه الإباحة خالصة لك من دون المؤمنين، أما غيرك من المؤمنين إن وهبت امرأة شرعي.

لقد أحللنا لك ذلك لكيلا يكون عليك حرج في نكاح من تريد من الأصناف التي ذكرت {وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} .
{تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} . . . الآية.

يخير الله الرسول الكريم في هذه الآية بأن يديني إليه من يشاء من نسائه ويؤخر منهن من يشاء. وإذا اراد ان يطلب واحدة كان أبعدا
فله الخيار في ذلك دون حرج او تضيق عليه. وكل ذلك حتى يكن مسرورات قريبات الأعين، ولا يحزن بل يرضين بما قسم بينهن،
ويعلمن أن هذا كله بأمر الله وترخيصه لرسوله الكريم.

روى ابن جرير عن ابي رزين قال: لما نزلت آية التخيير السابقة خاف نساء النبي ان يطلقهن فقلن: يا رسول الله، لنا من مالك ومن نفسك ما شئت، ودعنا كما نحن، فنزلت هذه الآية، فأرجأ رسول الله خمسا من نسائه وهن: ام حبيبة، وميمونة، وصفية، وجويرية، وسودة، فكان لا يقسم بينهن ما شاء، يعني لم يجعل دورا في المبيت عندهن منتظما.

وأوى اليه أربع نساء هن: عائشة، وحفصة، وزينب، وأم سلمة، وكان يقسم بينهن على السواء، لكل واحدة ليلة.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} من الميل الى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً} .

ثم ختم هذا الموضع بآية كريمة فيها حكمة: ان لا يتزوج عليه الصلاة والسلام غير نساءه التسع الموجودات في عصمته، وان لا يستبدل
بهن غيرهن فقال:

{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً} .

لا يحل لك النساء بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك، ولا أن تستبدل بهن أزواجاً غيرهن، مهما كانت الواحدة بارعةً في الحسب والجمال، إلا ما ملكت يمينك من الجواري، وكان الله على كل شيء مطلعاً.
قراءات:

قرأ ابن كثير وابوعمر ووابو بكر عن عاصم: ترجىء بالهمزة، والباقون: ترجى بدون همزة. وقرأ ابو عمرو وحده: لا تحل لك النساء بالناء. والباقون: لا يحل لك النساء بالياء.

٣٣.١٣ 53

غير ناظرين أنه: غير منتظرين نضجه، أنى الطعام يأتي: نضج واستوى. طعمتم: أكلتم. فانتشروا: اذهبوا وتفرقوا. ولا مستأنسين لحديث: لا تمكثوا بعد الطعام تتحدثون. متاعا: أي شيء. من وراء حجاب: من وراء حاجز.
في هذه الآيات إرشاد وتعليم للناس كيف يدخلون بيوت النبي، وفي أي وقت. وقد كان بعض المنافقين يؤذون الرسول عليه الصلاة والسلام بالتردد على بيوته. وكان بعض أصحابه يطلبون الجلوس، فأرشد الله أصحابه إلى تعظيم الرسول، وعي الحالات والأوقات التي يُسمح لهم بدخول بيوته، وأدبهم خير تأديب.

روى الامام احمد والبخاري ومسلم وغيرهن عن أنس رضي الله عنه قال: «لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم إلى طعام، فأكلوا ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فلما قام ذهب جماعة وبقي ثلاثة نفر، فجاء النبي ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا، فانطلقت فأخبرته بذهابهم...» .
{يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي... الآية} .

يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا إذا أذن لكم، أو دعاكم إلى طعام، فإذا دعيتم إلى طعام فلا تأتوا مبكرين لتنتظروا نضجه، بل ادخلوا عندما يكون قد تم إعداده فقبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم.
فإذا دعيتم فلبوا الدعوة، وإذا أكلتم الطعام فتفرقوا وأخرجوا ولا تطيلوا الجلوس وتمكثوا تتحدثون. فان ذلك كان يؤذي النبي ويستحي منكم، والله لا يستحي من الحق. وقد سمي بعض المفسرين هذه الآية آية لاثقلاء، وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «حسبك في الثقلاء ان الله جلَّ لم يحتملهم» .

ثم علمهم كيف يسألون نساء النبي ويتأدبون معهن فقال: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} .
وذلك اعظم طهارة لقلوبكم وقولوبهن من وساوس الشيطان.

ولما ذكر الله تعالى بعض الآداب التي يجب ان يراعوها في بيت رسول الله اكده بما يحلهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ} ، ولا ان تزوجوا نساءه من بعده ابدا، احتراماً لمن لأنهن أمهات المؤمنين.
{إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا} ولا يخفى ما ي هذا من الوعيد الشديد، وعظيم التهديد على هذا العمل.
والله يعلم ما تظهرونه وما تخفونه في صدوركم، لا تخفى عليه خافية.

ثم بين بعد ذلك الاقارب الذين يمكن ان يدخلوا على نساء النبي ولا يحتجبن منه وهم: الآباء والابناء واخوانهن، وابناء اخوانهن، وابناء اخواتهن، والنساء المسلمات، وما ملكت إيمانهن من العبيد، وعليهن ان يتقين الله، ان الله كان على كل شيء شهيداً.

٣٣.١٤ 56

الصلاة من الله: الرحمة وذكره بالثناء على الملائكة الاعلى، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الناس الدعاء له بالرحمة. والمعنى ان الله يرحم النبي، والملائكة يدعون له ويطلبون له المغفرة. يا أيها المؤمنون: ادعوا له بالرحمة، وأظهروا شرفه بكل ما تصل إليه قدرتكم.

ان الذين يؤذون الله ورسوله من المنافقين وشیاطينهم اليهود، بتدبير المؤامرات والذس للتفرقة بين المؤمنين - لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وطردهم من رحمته وأعد لهم عذاباً كبيراً يهينهم يوم القيامة ويذل كبرياءهم.

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بقرول أو فعل من غير ذنب فعلوه، فقد تحملوا وزر كذبهم عليهم، {فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا} فلا يجوز ايداء الناس بالغيبة، أو الاقتراء عليهم أو الكيد لهم وما الى ذلك.

وفي الحديث: «سئل رسول الله عن الغيبة فقال: ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قيل: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ؟ قال: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَابْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»

٣٣.١٥ 59

الجلباب: ثوب واسع واسع من الخمار دون الرداء تغطي به المرأة رأسها وصدرها. وقيل هو الملحفة. يُدِين: يُسَدِّل. أدنى ان يُعرفن: اقرب ان يميزن من الإماء والفتيات. المرجفون: اليهود، كانوا يلقون أخبار السوء وينشرونها. لنغرينك بهمك لنسلطنك عليهم. اينما ثقفوا: اينما وجدوا. خلوا: مضوا.

لم يكن في منازل المدينة مراحض، فكان النساء يخرجن ليلاً لقضاء الحاجة في البساتين وبين النخيل، وكان الاماء والحرائر يخرجن في زِيٍّ واحد، وكان فساق المدينة من المنافقين وغيرهم يتعرضون للاماء، وربما تعرضوا للحرائر، فأمر الله نبيه ﷺ أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين عامة اذا خرجن لحاجتهن ان يتسترن بلبس الجلابيب ويسترن اجسامهما ما عدا الوجه والكفين. {ذلِكَ أدنى أَن يُعْرَفَنَّ فَلَا يُوْذَنَ} .

فعلى المسلمة اذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها ولا تبدي شيئاً من مواضع الفتنة. {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} لما سلف في أيام الجاهلية.

ولما كان الذي يحصل من المنافقين وشیاطينهم ومن على شاكلتهم حذرهم الله بقوله:

{لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} .

توعد الله في هذه الآية ثلاثة اصناف من الناس وهم: المنافقون الذين يؤذون الله ورسوله، ومن في قلوبهم مرض من فساق المدينة الذين يؤذون المؤمنين باتباع نساءهم، والمرجفون وهم اليهود الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بترويح الاشاعات الكاذبة والتشويش على المؤمنين. وانهم اذا لم ينتهوا سلط عليهم الرسول واصحابه فيقاتلونهم ويخرجونهم من المدينة.

ثم بين ما آل إليه امرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة فقال:

{مَلْعُونَيْنِ إِنَّمَا ثَقَفُوا أَخِذُوا وَقَتُّلُوا تَقْتِيلًا}

مستحقين اللعنة والطرده اينما وجدوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً، عقوبة لهم.

وهذه سنة الله في امثال هذه الفئات في كل زمان، لا تتغير ولا تبدل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

٣٣.١٦ 63

الساعة: يوم القيامة. وما يدريك: وما يعرفك بوقتها. سعيراً: نارا شديدة، مستعرة. سادتنا: ملوكنا. كبراءنا: علماءنا وزعماءنا. ضعفين: مثلين. وجيباً: له جاه ومنزلة عظيمة.

يسألك الناس عن وقت قيام الساعة، قل لهم: ان علمها عند الله وحده، ولعل وقتها يكون قريباً. وقد كثر في القرآن الحديث عن اقتراب الساعة: {اقتربت الساعة وانشق القمر} سورة القمر (١) {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [النحل: ٧٧] . {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} [النحل: ١] {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} [الشورى: ١٧] . وفي هذه كله تهديد للمستعجلين المستهزئين،

والمعتنين الغافلين عنها. وقد ابقى الله علمها عنده حتى يبقى الناس على حذر من امرها، وفي استعداد دائم لمفاجأتها، ذلك لمن اراد الله الخير.
{إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا. . . .}

ان الله طرد الكافرين من رحمته وهياً لهم نارا شديدة متوقدة {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} باقين فيها امدا طويلا لا يعلم مداه الا الله. ولا يجدون لهم من ينصرهم، لو تراهم يتقلبون في تلك النار الموقدة، ويتحسرون على كفرهم {يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ} . ولكن فاتهم ذلك ولا ينفعهم قولهم، ولا تستجاب دعواتهم، ثم يتذكرون سادتهم ورؤساءهم، فتنتقل من نفوسهم النعمة عليهم وينادون ربهم بقولهم: ربنا، لقد اطعنا رؤساءنا وكبراءنا فأضلونا السبيل وابعدوننا عن الصراط المستقيم {رَبَّنَا آتِنَا مِنَّا مِثْلَ صَفْحَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمِ لَعْنَا كَبِيرًا} .

هذه هي الساعة وتلك هي القيامة، وهذا مشهد من مشاهدها.
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً}
يا ايها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تؤذوا الرسول بقول يكرهه، ولا فعل لا يحبه، كالذين آذوا موسى فرموه بالغيب كذباً وباطلاً، فبرأه الله مما قالوه عنه من الزور، وكان موسى عند الله ذا وجاهة وكرامة.
روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال: «قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ذات يوم قَسَمًا فقال رجل من الانصار: ان هذه القسمة ما اريد بها وجه الله، فاحمر وجه النبي ثم قال:» رحمة الله على موسى، رُمي باكثر من هذا فصبر»
قراءات:

قرأ ابن عامر ويعقوب: ساداتنا بالف بعد الدال، والباقون: ساداتنا. وقرأ عاصم وابن عامر لعنا كبيرا بالباء. والباقون: كثيرا بالثاء.

٣٣.١٧ 70

قولاً سديداً: قول الحق والصدق. عرضنا الأمانة: عرضنا التكاليف. أشفقن منها: خفن منها. حملها الانسان: كان مستعداً لها. ظلوماً: جهولاً، كثير الجهل.
لقد امر الله المؤمنين في ختام هذه السورة ان يصدقوا في قولهم ويتقوا الله في عملهم وبذلك تصلح اعمالهم، ويغفر الله لهم ذنوبهم، ويبين لهم ان من يطع الله ورسوله فسوف يفوز فوزاً عظيماً.
ثم ختم السورة بتعظيم امر الأمانة، وضخامة تبعثها، وما فيها من تكاليف شاقة وان السماوات والأرض والجبال اشفقن منها، وان هذا الانسان الضعيف حملها وكان مستعداً لها وقام بأعبائها، انه كان شديد الظلم لنفسه، جهولاً بما يطيق حمله، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات وقلة العلم، وقصر العمر.
ثم بين عاقبة تلك الامانة وما فيها من تكاليف فقال:

{لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ}

وكان عاقبة حمل الانسان لهذه الامانة ان يعذب الله من خانها وأبى الطاعة والانقياد لها، ويقبل توبة المؤمنين والمؤمنات، والله كثير المغفرة واسع الرحمة.

سبأ ٣٤

٣٤.١ 1

ما يلج في الارض: ما يدخل فيها. وما يعرج فيها: ما يصعد الى السماء. لا يعزب عنه: لا يغيب عنه. مثقال ذرة: ثقل اصغر غلّة. معاجزين: سابقين لإظهار عجزه. من رجز: الرجز أشد العذاب، وله معان اخرى. صراط العزيز الحميد: طريق الهدى.

الحمد لله وحده مالك الكون ومدبره، وله الحمد في الآخرة على جميل إحسانه ورحمته وهو الحكيم الخبير ببواطن الأمور وجميع ما يدور في هذا الكون. إنه يعلم ما يدخل في جوف الأرض وما فيها من ماء وكنوز ومعادن وغير ذلك، وما يخرج منها كالحیوان والنبات ومياه الآبار والعيون، وما ينزل من السماء وما يصعد فيها ويرق إليها، كالملائكة وأعمال العباد والأرواح والأبخره والدخان وكل ما يطير ويخلق في الأجواء. . . . لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة مما يحصل في هذا الكون الواسع العجيب. وهو مع كثرة نعمه وفضله، واسع الرحمة عظيم الغفران، بأبه مفتوح لكل تائب أواب.

ومع كل هذا فقد أنكر الذين كفروا مجيء يوم القيامة، فقل لهم أيها الرسول: ستأتكم الساعة وحقّ ربي، عالم الغيب الذي لا يغيب عن علمه مقدار ذرة في السموات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. . . . وكل ذلك مسطور في كتاب مبين. والحكمة من البعث وإعادة الناس يوم القيامة أن يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويثيبهم خيراً ومغفرة ورزقاً كريماً، ويثبت للذين كفروا وسعوا في الأرض فساداً انهم كانوا خاطئين، وانهم في العذاب الأليم مخلدون.

وهذا هو العدل من الله تعالى. . . . ينعم السعداء المؤمنون ويعذب الأشقياء الكافرون. إن الذين من الله عليهم بالعلم من أهل الكتاب وغيرهم يعلمون أن القرآن الذي أنزل على محمد هو الحق الذي لا مرية فيه، وأنه يهدي إلى صراط العزيز الحميد وهو الاسلام، الدين القويم. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: علام الغيب، وقرأ أهل المدينة وابن عامر ورويس: عالم الغيب برفع الميم. والباقون: عالم الغيب بكسر الميم. وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص: من رجز أليم برفع الميم صفة لعذاب، والباقون: بكسرها. وقرأ الكسائي وحده: لا يعزب بكسر الزاي والباقون: يعزب بضم الزاي.

٣٤.٢ 7

إذا مرقم كل ممزق: متم وتفرقت اجسامكم في التراب. لفي خلق جديد: يوم البعث في القيامة. افترى على الله؟: هل اختلق هذا الكلام من عنده. ام به جنة: جنون. كسفا من السماء: قطعاً من السماء نعذبكم بها. لعبد منيب: تائب راجع إلى ربه. قال بعض الذين كفروا تعجباً واستهزاءً: هل ندلكم على رجل يخبركم أنكم إذا متم وتمزقت اجسامكم وتفرقت في ذرات التراب ستبعثون من جديد!

أكذب على الله ام به جنون جعله يتوهم ذلك ويتكلم بما لا يدري؟! ليس الأمر كما زعموا، بل الحقيقة أن الذين لا يؤمنون بالآخرة في ضلال كبير سيؤدي بهم إلى جهنم.

أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد إلى ما حولهم من السماء والأرض ليعلموا قدرتنا على فعل ما نشاء؟ فنحن إن نشأ نخسف بهم الأرض، أو نسقط عليهم قطعاً من السماء تسحقهم. وفي ذلك دليل كاف لكل عبد تواب راجع إلى ربه. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: ان يشأ يخسف بهم بالياء، والباقون: ان نشأ نخسف بهم بالنون.

٣٤.٣ 10

فضلاً: نعمة واحساناً. أوبي معه: سبّحي معه. ألنا له الحديد: سهلنا له العمل به. سابغات: جمع سابغ، الدروع الكاملات. قدر في السرد: احكم نسجها وصنعها. غدوها شهر: سيرها في الغداة اول النهار مدة شهر. ورواحها: رجوعها عشياً مدة شهر. القطر: بكسر القاف، النحاس الذائب. عين القطر: معدن القطر. يزغ: يخرف. محاريب: مفردا محراب: المعبد، وكل بناء مرتفع. وتمثيل: مفردا تمثال، الصور المجسمة. وجفان: جمع جفنة، وهي القصعة التي يوضع فيها الطعام. كالجوابي: كالأحواض الكبيرة، مفردا جابية. وقدرُوا راسيات: قدور كبيرة ثابتة في مكانها لعظمها. اعملوا آل داود شكراً: اعملوا يا آل داود عملاً تشكرون به الله. قضينا عليه الموت:

حكمنا عليه بالموت. دابة الارض: الأرضة وهي حشرة تأكل الخشب. منسأته: عصاه. خر: سقط. ما لبثوا في العذاب المهين: ما مكثوا في العذاب الشاق المذل.

ولقد آتينا داود منّا فضلاً على سائر الناس في وقته، وهو النبوة والزبور والملك والصوت الحسن، وقلنا للجال رَجِي معه التسبيح، كما مرنا الطير بالتسبيح معه، وجعلنا الحديد لِنَّا بين يديه. وفي عصر داود اكتشف الحديد.

وأوحينا اليه ان يعمل دروعاً سابغات طويلة تامة، ثم امرناه ان يعمل هو وآله وكل من يلوذ به أعمالاً صالحة، {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} . وسخرنا لسليمان الريح، ذهباً صباحاً مدة شهر ورجوعها شهر، يرسلها الى حيث يشاء، وسهلنا له إذابة معدن النحاس، وسخرنا له الجن يعملون له ما يريد من شتى المصنوعات والقصور الشائخة، والمحاريب، والتمثيل، والجفان الكبيرة التي تشبه الأحواض، والقصور الضخمة الثابتة لا تتحرك لعظمها. {اعملوا آل دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} .

روى الترمذي قال: «صعد رسول الله ﷺ المنبر فتلّا هذه الآية ثم قال ثلاث من أوتيهن فقد أوتيَ مثل ما أوتي آل داود: العدل في الرضا والغضب، والقصد والغنى، وخشية الله في السر والعلانية»

فلما حكمنا على سليمان بالموت لم يدلّ الجن على موته الا دابة الأرض، إذا اكلت عصاه التي كان متكئاً عليها فسقط، فلما سقط علمت الجن انه مات، وانهم لا يعلمون الغيب.

قراءات:

قرأ نافع: منسأته بغير همزة. والباقون: منسأته بالهمزة.

٣٤.٤ 15

سبأ: منطقة واسعة شرقي اليمن كان بها مملكة مدينتها مأرب. آية: علامة. جنتان: بستانان. سيل العرم: سيل المطر الشديد، والعرم: السد الذي يمسك الماء. الأكل: الثمر، والرزق الواسع. انخبط: المر من كل شيء، ونوع من شجر الأراك. الأثل: الطفراء لا ثمر له. السدر: شجر بري يحمل ثمرًا يقال له النبق، يؤكل. القرى التي باركنا فيها: هي قرى بلاد الشام. مرقناهم كل ممزق: فرقناهم في البلاد. سلطان: تسلط.

لقد كان لأهل سبأ في مسكنهم بالمين علامة دالة على قدرتنا. . . . كان لهم حديقتان واسعتان تحفان ببلدهم عن اليمن والشمال، وقد أرسل الله اليهم الرسل تأمرهم ان يأكلوا من رزق ربهم ويشكروه على هذه النعم الجليلة، ففعلوا الى حين. ثم إنهم اعرضوا، فعاقبهم الله بإرسال سيل العرم عليهم، فهدم السد وخرّبه وذهب بالجننتين والبساتين، واهلك الحرث والنسل، وبدلهم بجنتيه المشرتين بساتين فيها من الشجر البري الذي لا ثمر له، وشيئاً قليلاً من السدر يثمر النبق لا غناء فيه.

ذلك هو الجزاء الذي جازاهم إياه الله بكفرهم النعمة وعدم شكرها {وَهَلْ نَجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ} .

كان سد مأرب من أعظم السدود التي تجمع المياه في المين، وكان يسقي مساحة كبيرة قرها المؤرخون والخبراء بنحو ثلاثمائة ميل مربع. وكانت مدينة مأرب أغنى المدن القديمة في جنوب شبه الجزيرة العربية ومن أهم المراكز لحضارة وثقافة قديمتين، يرجع تاريخهما الى ما قبل ثلاثة آلاف عام مضت. وكانت محطة استراحة لرحلات طويلة لقوافل التصدير التي كانت تنقل المنتجات الزراعية والصناعية كالبخور واللبان والدارصيني والمر والقرنفل والبلسم وسائر العطور، وكذا الصمغ والقرفة ثم الاحجار الكريمة، والمعادن. . . . وعلى مسافة كيلومترين الى الجنوب من مدينة مأرب يقول احد روائع الفن اليمني القديم وهو معبد «المقه» ، ومعناه في لغة سبأ «الإله القمر» ، ويطلق عليه المؤرخون: عرش بلقيس. وهو بناء ضخيم على شكل مثلث لا يزال محتفظاً برونقه الزاهي ومظهره المصقول، ويبلغ قطره نحو الف قدم، ولا تزال بعض أعمدته قائمة حتى اليوم.

ولا تزال آثار السد باقية الى الآن، ويرجع تاريخ بنائه الى ما قبل ٢٧٠٠ عام، وقد بناه سبأ الأكبر حفيد جد العرب: يعرب بن

قَطَان. «ملخص عن اليمن عبر التاريخ» .

{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا . . .}

{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا . . .}

وجعلنا بين مسكنهم بالمين والقرى التي باركنا فيها قرىً متقاربة متراصة، وكانوا في نعمة وغبطة عيش هنيء في بلاد مرضية مع كثرة أشجارها وزروعها وخيراتها، حتى إن المسافر لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، حيث نزل وجد ماء وثمرًا، وقلنا لهم:

{سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} متمتعين بهذه النعم.

فبطروا وملؤا تلك النعم،

{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}

اذ عرّضوها للسخط والعذاب، بنكران النعمة وعدم الوفاء بشكرها، فجعلناهم احاديث للناس، وفرقناهم مشتتين في البلاد حتى صار يضرب بهم المثل فيقال: «تفرّقوا أيدي سبأ» أي: متفرقين كأهل سبأ، وأيدي: تعني طرقًا، ومن معاني اليد: الطريق.

ونزلت قبيلة غسان في حوران وأنشأت دولة الغساسنة، وكانت عاصمتهم بصرى، وعدد ملوكهم ٣٢ ملكًا أولهم جفنة بن عمرو وآخرهم جبلة بن الأيهم. «اولاد جفنة بالزمان الأول». ونزلت قبيلة نخم في الحيرة من ارض العراق واقامت دولة المناذرة. ونزلت قبيلة كندة في نجد، وبعضهم ذهب إلى حضرموت، واسسوا دويلات اليمن عبر التاريخ.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}

ان فيما حلّ بهؤلاء من النعمة والعذاب عظات لكل صبار على البلاء، شكور على النعم والعطاء.

{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}

ولقد حقق ابليس ظنه عليهم فأطاعه من كفر، وعصاه قليل من المؤمنين. فبقوا في بلادهم آمنين.

{وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ}

ما كان لإبليس عليهم من سلطة وقوة يخضعهم بها، ولكن الله امتحنهم ليظهر من يصدق بالآخرة ممن هو في شك منها، وربك أيها الرسول حفيظ على كل شيء، لا يعزب عن علمه صغير ولا كبير.

قراءات:

قرأ أبو عمر: ذواتي أكلٍ نخط بالاضافة. الباقون: ذواتي أكلٍ نخط بالتونين. قرأ حمزة ويعقوب والكسائي وحنص: هل نجازي الا الكفور، نجازي بالنون، وبنصب الكفور. والباقون: هل يجازي الا الكفور، يجازى بالياء مبني للمجهور والكفور مرفوع. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وهشام: ربنا بعد بين اسفارنا، وقرأ يعقوب: باعد فعل ماضي، والباقون: باعد بين اسفارنا. وقرأ اهل الكوفة: ولقد صدق ابليس: بتشديد الدال المفتوحة، والباقون صدق بفتح الدال من غير تشديد.

٣٤٠٥ 22

ادعوا: نادوا. من شرك: من شركة. من ظهير: معين. فزع عن قلوبهم: ذهب الخوف من قلوبهم. اجرنا: اذنبنا. يفتح بيننا: يحكم بيننا. الفتاح: الحاكم.

قل أيها الرسول هؤلاء المشركين: ادعوا هؤلاء الأصنام فليجلبوا إليكم نفعاً أو يدفعوا عنكم ضراً، إنهم لا يملكون وزن ذرة من الهباء في السموات ولا الارض، وما لهم فيهما من شركة، وليس لله من هؤلاء الآلهة المزعومة من يعينه على تدبير شئون خلقه.

ولا تنفع الشفاعة عند الله الا لمن يأذن له ان يشفع عنده، فالشفاعة مرهونة بإذن الله، والله لا يأذن في الشفاعة في غير المؤمنين. اما الذين جحدوا وأشركوا بالله فليسوا أهلاً لأن يأذن بالشفاعة فيهم.

ثم بعد ذلك بين المشهد الذي تقع فيه الشهادة فقال:

{حتى إذا فُزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} .

وهذا يوم القيامة، اذ يقف الناس وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم ان يأذن الله بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام، حتى اذا ذهب الفزع عن قلوبهم قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في الشفاعة؟ قالوا: قالوا الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وهم المؤمنون.

{وهو العلي الكبير} صاحب العلو والكبرياء، يأذن ويمنع من يشاء كما يشاء.

قل ايها النبي: من يأتيكم برزقكم من السماء والأرض، فان قالوا: لا ندري، قل لهم: الله وحده هو الذي يرزق الجميع، وأنا معشر المؤمنين او أنتم معشر المشركين - لعل أحد الأمرين من الهدى او الضلال الواضح المبين.

ثم قل لهم ايها الرسول: إنكم لا تسألون عما ارتكبناه من ذنوب، ونحن لا نسأل عما تعملون. وقل لهم: الله يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة ويقضي بيننا بالحق، وهو الحاكم في كل أمر، العليم بحقيقة ما كان منا ومنكم، وهو خير الحاكمين.

وقل لهم ايها الرسول: أروني هؤلاء الذي عبدتموهم وجعلتموهم شركاء مع الله وهم لا يستحقون!

{كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

ليس الأمر كما وصفتم، فلا نظير له تعالى والذين عبدتموهم لا يستحقون العبادة فهو ذو العزة المنفر بها، والحكيم في تدبيره للأمر وتصريفه. قراءات:

قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي: لمن أذن له بضم الهمزة. والباقون: أذن بفتح الهمزة. وقرأ ابن عامر ويعقوب: اذا فزع بفتح الفاء والزاي، والباقون: اذا فزع بضم الفاء وكسر الزاي.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}

في هذه الآيات الكريمة بين الله ان رسالة سيدنا محمد عامة للناس أجمعين، جاء مبشراً من أطاع بالثواب العظيم، ومنذراً من عصا بالعذاب الأليم.

{ولكن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ، وهذا الجهل يحملهم على الإصرار على ما هم فيه من الضلال.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}

تقدمت هذه الآية بالنص في سورة يونس ٤٨.

قل لهم ايها الرسول: لا تستعجلوا، ان لكم ميعة يوم عظيم، لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون. وان هذا اليوم كائن لا محالة.

٣٤٠٦ 31

يرجع بعضهم الى بعض القول: يتحاورون ويرد بعضهم على بعض. أندادا: نظراء، جمع ند. يقال هو نده ونديده: مماثل له. وأسروا: أخفوا. الاغلال: قيود الاعناق.

وقال المشركون: لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التي سبقته. ولو ترى ايها الرسول موقف هؤلاء الظالمين يوم القيامة، ففيه يتحاور المشركون ويكذب بعضهم بعضاً، ويتلومون على ما كان بينهم.

يقول الأتباع لساداتهم وكبرائهم: لولا أنكم صددتمونا عن الهدى لكنا مؤمنين بما جاء به الرسول. فيرد عليهم الذين استكبروا في الدنيا وكانوا رؤوس الكفر والضلال: أنحن منعناكم من اتباع الحق! بل انتم أجرتم وآثرتم الكفر على الايمان.

ثم يقول المستضعفون: ما صدنا عن الإيمان الا مكرهم ايها الرؤساء بالليل والنهار، اذ تأمرونا بالكفر بالله وان نجعل له شركاء وامثالاً. وعند ذلك يندمون على ما عملوا ولا ينفعهم الندم {وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا} ، وهذا جزاء الظالمين الجاحدين.

متفرها: المتنعون الذين أبطرتهم النعمة. يبسط الرزق: يوسع. ويقدر: يضيق. زُلْفَى: قربي، زلف يزلف زلفاً: تقرب. فأولئك لهم جزاء الضعف: الجزاء المضاعف. الغرفات: جمع غرفة في أعالي الجنان. معاجزين: جمع معاجز وهو الذي يحاول تعجيز الانبياء. يسلي الله تعالى رسوله الكريم على ما ابتلي به من مخالفة مترفي قومه له، وعداوتهم إياه، بالتأسي بمن قبله من الرسل، فهو ليس بدعاً من بينهم، فما من نبي بُعث في مكان الا كذبه المتنعون واتبه ضعفاؤهم. وهو هنا يبين حجتهم وتبجحهم بقولهم إنهم لا حاجة لهم الى الايمان بالله، فما هم فيه من مال وما عندهم من اولاد برهان على محبة الله لهم. فيرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره ليس دليلاً على رضا الله او غضبه، وان ذلك مرتبط سنن قدرها الله في هذه الحياة، فمن احسن استعمالها استفاد منها. . . . وأن كثرة الأموال والاولاد لا تقربهم الى الله اذا لم يؤمنوا، وان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يضاعف لهم الجزاء ويتمتعون بغرف الجنان، {وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ} . أما الذين يصدون عن سبيل الله فإنهم {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} .

ثم يحث المؤمنين على الانفاق وبذل المال والله يخلقه عليهم ويعوضهم بأكثر منه {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} . روى البخاري ومسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه «ان رسول الله ﷺ قال» ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان، فيقول احدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » ثم بين بعد ذلك كيف يسأل الله الملائكة يوم القيامة ويقول لهم:

{ {أَهْؤَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجَن أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}

فيتصل الملائكة من ذلك ويقولون: إنا برآء من عبادتهم والرضا بهم، بل كانوا يعبدون الجن وكانوا لتأثيرهم خاضعين.

ثم بين بعد ذلك أنهم لا ناصر لهم ولا ينفع بعضهم بعضاً، إذ يقال للظالمين {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} في الدنيا. قراءات:

قرأ حمزة وحده: في الغرفة بالافراد، والباقون: في الغرفات بالجمع.

ثبلى: تقرأ. بينات: واضحات. يصدكم: يمنعكم. افك: كذب، واختلاق. معشار: عشر. نكيري: انكاي. مثنى: اثنين اثنين. فرادى: واحداً واحداً. ما بصاحبكم من جنة: ليس صاحبكم مجنوناً. بين يدي عذاب: امام عذاب. يقذف بالحق: يلقي بالحق. ما يبتدىء الباطل: ما يبتدىء الباطل. وما يعيد: وما يكرره.

بعد ان ذكر الله ان المشركين هم أهل النار يوم القيامة حيث قال لهم: ذوقوا عذابها الذي كنتم به تكذبون - أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا العذاب، وهو صددهم الناس عن دعوة الرسول الكريم، وأنهم إذا قرأ الرسول عليهم آياتنا وواضحات، قالوا: هذا رجل يريد ان يمنعكم عبادة ما كان يعبد آباؤكم من الاصنام، فقولوه كذب مفترى، وسحر مبين، وخداع ظاهر، واننا لم نؤتهم كتباً قبل القرآن يدرسونها، وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير.

{وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} .

لقد كذب الرسل قبلكم كثير من الأمم، وكانوا اكثر منكم قوة ومالا، ولم تبلغوا أيها المشركون معشار ما منحنا أولئك من القوة والمنعة، ومع ذلك أخذهم الله بظلمهم وتمردهم، وأهلكهم أجمعين.

{قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنى وفردى ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}

قل لهم ايها الرسل: إنما أعظكم بوحدة واحدة هي: ان تقوموا مخلصين لله بعيدين عن التقاليد والأهواء، وفكروا بجِدِّ مجتمعين ومتفرقين بأن صاحبكم ليس مجنوناً، وما هو الا نذير لكم أما عذاب شديد قادم عليكم.

وقل ايها الرسول: ما سألتكم أجراً على هذه الرسالة التي أحملها اليكم لإصلاح أمركم، خذوا انتم الأجر، وما أجري الا على الله وهو كل شيء رقيب مطلع.

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ}

قل ايها الرسول: ان - الله يلقي بالحق على من يصطفيه، وهو يرمي بهذا الحق في وجه الباطل فيمحقه. إنه هو علام الغيوب، لا يخفى عليه هدف، ولا تغيب عنه غاية.

{قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ}

قل ايها لارسول: لقد جاء هذا الحق في الرسالة والقرآن وفي منهجهما المستقيم، وقد انتهى أمر الباطل، وهلك الشرك وما عادت له حياة ولم تبق منه بقية تبدي شيئاً او تعيده.

{قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}

قل ايها الرسول: ان ضللت وانحرفت عن الهدى فإنما ضرر ذلك يعود على نفسي، وان اهتديت فإرشاد ربي، وبوحيه وتوفيقه، غنه سميع لقولي وقولكم، قريب مني ومنكم، والخير كله منه.

٣٤.٩ 51

اذ فزعوا: اذ خافوا. فلا فوت: فلا مهرب. ويقذفون بالغيب: ويرجحون بالظنون. أنى لهم التناوش: من اين لهم التناول، يقال ناشه: تناوله. بأشياءهم: بأشباههم وأمثالهم من كفرة الأمم. مريب: موقع في الريبة.

في ختام السورة بين الله حالة الجاحدين وكيف يتولاهاهم الفزع والخوف الرهيب في ذلك اليوم العصيب. ولو ترى ايها الرسول هؤلاء المكذبين اذ تملكهم الفزع يوم القيامة عندما يرون العذاب الشديد - لرأيت ما يعجز القول عن وصفه، فلا مهرب لهم من العذاب، وأخذوا الى النار من مكان قريب.

وقالوا عندما شاهدوا العذاب: آمنا بالحق، لكن أنى لهم تناول الايمان بسهولة من مكان بعيد هو الدنيا، وقد خرجوا منها وانقضى وقتها! لقد كفروا بالله ورسوله وملائكته من قبل.

{وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ}

ذلك حين أنكروا هذا اليوم، وكذبوا بالبعث والنشور والحساب والجزاء، واليوم يحاولون تناول الايمان، وذلك بعيد عنهم.

{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}

فلا رجوع الى الدنيا، ولا ينفع يمانهم، كما قال تعالى ايضا: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} [غافر: ٨٤، ٨٥].

{كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ}

لقد كان لهم أباه ونظائر من الأمم السابقة، أعرضوا عن ربهم في الحياة الدنيا فتمنوا الرجوع الى الدنيا حين رأوا بأس الله: لأنهم كانوا في حياتهم السابقة شاكين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء.

وهكذا ختمت هذه السورة الكريمة بهذا العنف، وبتصوير حي لمشهد من مشاهد القيامة، وعندها يظهر اليقين بعد الشك المريب.

فاطر السموات والأرض: خالقهما، فَطَرَ الشَّيْءَ أَوْجَدَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ: رسلاً: وسائط بينه وبين أنبيائه يبلِّغون عنه رسالاته. مثني وثلاث ورباع: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، ما يفتح الله: ما يعطي الله. اني توفكون: كيف تُصرفون عن توحيد الخالق، وعن الحق الى الضلال.

الثناء الجميل والشكر لله تعالى، منشئ هذا الكون وما فيه من خلائق على غير مثال سابق، جاعل الملائكة رسلاً الى خلقه، ذوي اجنحة متعددة مختلفة. فهو {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} ان يزيد من الأعضاء، لا يعجزه شيء {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. ولأول مرة يأتي وصف للملائكة بأنهم أشكال، لهم اجنحة متعددة. وليس هذا بغريب، فان بعض المخلوقات لها عدد من الأرجل والأشكال. وفيما نشهده ونراه اشكال لا تحصى من الخلق، وما لا نعلم أكثر بكثير مما نعلم، ولا نعرف إلا القليل القليل عما هو موجود في هذا الكون: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الاسراء: ٨٥].

وبعد ان يقرر الله تعالى انه على كل شيء قدير - يوضح هنا ان كل شيء في هذا الكون بيده، يتصرف فيه كيف يشاء، فحين يفتح الله أبواب رحمته للناس لا يستطيع أحد إغلاقها، ومتى أمسكها فلا احد يستطيع فتحها، ففاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه وتعالى، وهو العزيز الحكيم صاحب العزة والسلطان والحكمة.

روى ابن المنذر عن عامر بن عبد القيس قال: اربع يات من كتاب الله اذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي:

١ - ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل لها من بعده.

٢ - وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو، وان يردك بخير فلا راد لفضله. . . . يونس: ١٠٧

٣ - سيجعل الله بعد عسر يسراً. . . . الطلاق ٧.

٤ - وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها. . . . هود ٦

وهذا يعني ان عامر بن عبد القيس كان يقرأ هذه الآيات ويستأنس بها ويعمل بها.

ثم يؤكد الله تعالى في الآية الثالثة أنه الخالق الوحيد الذي يرزق عباده من السماء والارض، وانه لا اله الا هو، لذلك يجب على الناس جميعاً ان يذكروا نعمة الله عليهم ويمجدوه ويشكروه، ليحفظوا هذه النعم ويؤدوا حقها.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: هل من خالق غير الله بجر غير، والباقون: غير بالرفع.

الغور: بفتح الغين: الشيطان، وقد فسر في الآية التي بعدها. السعير: نار جهنم.

بعد ان قرر الله التوحيد وهو أصل الأصول في الايمان - ذكر هنا الأصل الثاني وهو الرسالة، وسلي رسوله الكريم عن تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل، فقد كذب كثير منهم قبله، فعليه ان يتأسى بهم ويصبر على أذى قومه، والى الله مرجع الجميع.

ثم ذكر الأصل الثالث وهو البعث والنشور، وانه حق لا شك فيه. . . فلا تغرنكم الحياة الدنيا، فيذهلكم التمتع بها وبزخرفها عن طلب

الآخرة، ولا يخدعنكم الشيطان عن اتباع الرسول، ان الشيطان لكم عدو قديم فلا تخدعوا بوعوده، واحذروا منه واتخذوه عدوا حقيقيا.

{الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}

الذين كفروا من أتباع الشيطان واغترروا به هم أصحاب النار، يقابلهم الذين آمنوا فلم يخدعوا بأقوال الشيطان، بل آمنوا بالله وعزّروا إيمانهم بالعمل الصالح. . . وهؤلاء اصحاب الجنة {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} من الله.

ثم بين البعد بين الفريقين: الضالين والمهتدين، واختلاف حالهم فقال:

{أَفَنَ زَيْنَ لَهُ سِوَا عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا}

أفمن زين له الشيطان عمله السيء فرآه حسناً هو في الواقع كمن هداه الله فرأى الحسن حسناً والسيء سيئاً؟ انهما لا يستويان أبداً.

{فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}

يضل من يشاء من الجاحدين الذين ارتضوا سبيل الضلال، ويهدي من يشاء ممن اختاروا سبيل الهداية.

ثم يخاطب الرسول الكريم حتى يسليه فيقول:

{فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}

فلا تهلك نفسك حزناً على الضالين الذين لم يؤمنوا وحسرة عليهم، ان الله محيط علمه بما يصنعون من شر فيجزئهم به.

٣٥.٣ 9

ارسل الرياح: أطلقها. نثير: تحرك. بلد ميت: لا نبات فيه. النشور: إحياء الاموات يوم القيامة. العزة: الشرف والمنعة. بيور: يفسد ويهلك من البوار وهو الهلاك. ازواج: اصنافا، ذكورا واناثا. يعمر: يمد في عمره: طال عمره.

الله الذي يرسل الرياح فتحرك سحاباً كان ساكناً، فيسوقه الى بلد ميت لا نبات فيه، فيحيي به أرضها بعد جفافها ويسبها، كذلك يحيي الاموات ويبعثهم للنشور يوم القيامة.

من كان يريد الشرف والمنعة فإنهما لله جميعاً يهبهما لمن يطيعه، إليه يرتفع الكلام الطيب والعمل الصالح فيقبلهما ويثيب عليهما، وللذين يمكرون ويدبرون المكائد للمؤمنين عذاب شديد، أما تدبيرهم ومكرهم فهو فاسد لا قيمة له ولا يحقق غرضاً.

والله تعالى خلقكم ايها البشر من تراب، ثم خلقكم من نطفة هي الماء الذي يصب في الأرحام، ثم جعلكم ذكوراً واناثاً. وما تحمل انثى ولا تضع حملها الا بعلمه تعالى، وما يمد في عمر أحد ولا ينقص من عمره الا مسجلاً في كتاب، ومقرر في علم الله القديم.

{إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}

قراءات:

قرأ ابن كثير والكسائي: الريح بالافراد. والباقون: الرياح بالجمع. وقرأ نافع وحزمة اولكسائي وحفص: الى بلد ميت بتشديد الياء. والباقون ميت بسكون الياء. وقرأ يعقوب وحده: ولا ينقص بفتح الياء. وضم القاف. والباقون: ولا ينقص بضم الياء وفتح القاف.

٣٥.٤ 12

العذب: الطيب السائغ من الماء والشرب والطعام والكلام. الفرات: الوافر والشديد العذوبة. سائغ: سهل المرور في الحلق. أجاج: شديد الملوحة. حلية: كل ما يتحلى به الانسان من لؤلؤ ومرجان وغير ذلك. مواخر: جمع ماخرة تشق الماء حين جريانها. يولج: يدخل. القطمير: القشرة الرقيقة التي على نواة التمرة. يكفرون بشرككم: يبعدون باشرائكم وعبادتكم لهم. ولا ينبئك مثل خبير: ولا يخبرك بالأمر مثل الخبير به. ولا تزر وزر اخرى: لا تحمل نفس آثمة اثم نفس اخرى، يعني لا يحمل احد ذنب الآخر، الوزر: الذنب. المثقلة: النفس التي أثقلتها الذنوب. تزكى: تطهر من دنس الأوزار.

وما يستوي البحرين: أحدهما ماؤه عذب شرابه سائغ يجري في الانهار المفيدة للناس فيحيي الاقاليم والامصار، والثاني مالح ساكن تسير فيه السفن. ومن كل منها تأكلون السمك الطري فضلاً من الله، كما تستخرجون حلياً، كالدرّ والأصداف والمرجان وغيرها، وتجري

السفن في كل منهما تشقه شقا لتطلبوا من فضل الله ما تحصلونه بالتجارة. ولعلكم تشكرون لربكم هذه النعم. إنه يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري الى موعدٍ مقرر. والذي يصنع هذا كله هو الله ربكم، له الملك التام والسلطان المطلق، أما لاذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان فإنهم لا يملكون شيئاً مهما كان صغيراً تافهاً. وهذه الآلهة لا يسمعون ولا ينفعون ولا يضرون، وان تدعوهم لا يسمعون دعاءكم، ولو سمعوا دعاءكم ما أجابوكم بشيء مما تطلبون. وهم ينكرون اشراككم لهم مع الله يوم القيامة.

{وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}

ولا يخبرك الحقيقة الا الخبير العليم، الله تعالى:

يا ايها الناس: اتم الفقراء المحتاجون الى الله في كل شيء والله هو الغني عن خلقه المستحق للحمد على كل حال. والله إن شاء يهلككم ويأتي بخلقٍ جديد يطيعونه ويؤمنون به، وليس هذا على الله بمستحيل.

ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة فقال:

{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}

في ذلك اليوم العصيب يكون كل انسان مسئولاً عن اعماله وعن نفسه، فلا تحمل نفسٌ مذنبَةً ذنبَ نفسٍ اخرى. وان تسأل نفسٌ ذات حملٍ ثقيلٍ أحداً أن يحمل عنها بعض ذنوبها لن تجد من يجيئها أو يحمل عنها شيئاً، وذلك لانشغال كل انسان بنفسه. {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧] ثم سلى رسول الله ﷺ على عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم فقال:

{إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}

لا تحزن ايها النبي لعناد قومك، انما ينفع تحذيرك الذين يخافون ربهم وقيمون الصلاة، ومن تطهر فائماً يتطهر لنفسه، والى الله المرجع في النهاية.

٣٥٠٥ 19

استوى هذا وذاك: تساويا. الظل: القيء جمعه ظلال. الحرور: الريح الحارة، السموم. خلا: سلف ومضى. الزبر: مفردا زبور: الكتب. نكيري: انكاري لعملهم. جدد: واحداً جدة، وهي الطرق المختلفة الألوان في الجبل ونحوه. غرايب: واحداً غريب وهو شديد السواد.

ليس يتساوى الأعمى الذي لا يهتدي والبصير الذي آمن واهتدى، ولا ظلمات الكفر مع نور الايمان، وما يستوي أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله مع أموات القلوب بالكفر والعناد. {أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا؟} [الأنعام: ١٢٦].

{إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ} ان الهداية والتوفيق بيده سبحانه. {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} جعل الله المشركين كالأموات الذين في القبور لا يسمعون. وما انت ايها لرسول الا نذير تبليغ وتندر.

إنا أرسلناك ايها الرسول بالإيمان بي وحدي مبشراً بالجنة من صدقك، ومنذراً بالعقاب من كذبك، وما من أمة من الأمم الماضية الا جاءها من عند الله من ينذرهما. وإن يكذبك قومك فقد كذب الذين من قبلهم رسلهم حين {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزَّبْرِ وَبِالْكَتَابِ الْمُنِيرِ}.

ثم أخذت الذين كفروا أخذاً شديداً، فانظر كيف كان إنكاري لعملهم وغضبي عليهم!!

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا}

الم تشاهد أيها الرائي أنا خلقنا الاشياء المختلفة من الشيء الواحد، فأنزلنا من السماء ماءً وأخرجنا به ثمراتٍ مختلفةً ألوانها وطعمها ورائحتها.

{وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبٌ سَوْدٌ}

وخلق في الجبال طرقاً بيضاً وحمراً وذات ألوان أخرى، وجعل منها جبلاً سوداً حالكة.

هذا كما خلق من الناس والدواب والإبل والبقر والغنم ألواناً مختلفة كذلك في الشكل والحجم واللون.

ولم عدد الله آياته وأعلام قدرته وآثار صنعه بين أنه لا يعرف ذلك حق المعرفة إلا العلماء بأسرار الكون، العالمون بدقائق صنعه، فهم الذين يخشون ربهم حق الخشية:

{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} .

٣٥٠٦ 29

يتلون كتاب الله: يقرأونه ويتبعونه. يرجون تجارةً لن تبور: مغفرة من الله لن تكسد. الكتاب: القرآن. مقتصد: عامل به تارةً ومخالف له أخرى. سابق: متقدم إلى ثواب الله. جنات عدن: جنات الإقامة. أذهب عنا الحزن: الخوف. دار المقام: دار الإقامة، دار الخلود، وهي الجنة. النصب: التعب. اللغوب: الفتور والكلال.

ان الذين يقرأون كتاب الله، فيعملون به، قد أقاموا الصلاة على وجهها، وانفقوا مما رزقناهم على المحتاجين والمصالح العامة وفي سبيل الله، سرا وجهراً يتاجرون تجارة رابحة عند الله لا تكسد، وسيوفهم الله أجورهم ويزيدهم من فضله {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} .

ثم اشار الى طبيعة الكتاب، وما فيه من الحق، تمهيداً للحديث عن ورثة هذا الكتاب:

{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي لما سبقه في العصور من الكتب المنزلة على الرسل قبلك، أنها من نبع واحد، {إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} .

ثم جعلنا هذا الكتاب ميراثاً للذين اخترناهم من عبادنا، فكانوا فئات ثلاثاً: فمنهم ظالم لنفسه بغلبة سيئاته على حسناته، ومنه مقتصد لم يسرف في السيئات ولم يكثر من الحسنات، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله.

{ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم من الله لا يقدر قدره.

ثم بين جزاءهم ومآلهم بقوله: {جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} .

ويقولون عند دخولهم الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا الخوف من كل ما نخذر. {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} أنزلنا دار النعيم الدائم من فضله لا يصيبنا فيه تعب ولا يمسنا فيها إعياء ولا فتور.

قراءات:

قرأ أبو عمرو: يَدْخُلُونَهَا بضم الياء وفتح الخاء، والباقون يَدْخُلُونَهَا بفتح الياء وضم الخاء.

٣٥٠٧ 36

لا يقضي عليهم: لا يحكم عليهم بموت ثان. يصطرخون: يصيحون أشد الصياح للاستغاثة.

نعمركم: نمهلكم. خلائف: جمع خليف وهو الذي يخلق من قبله.

ثم بين حال الجاحدين الكافرين وما ينتظرهم من عذاب فقال:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}

هؤلاء الذين لم يؤمنوا واستمروا على عنادهم ووجودهم سيكون مقامهم في نار جهنم يعذبون فيها لا يموتون، ولا يخفف عنهم العذاب.
{كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ} هذا جزاء كل من يكفر.

وهم من شدة العذاب يستغيثون فيها قائلون: ربنا، أخرجنا من النار حتى نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمله في الدنيا، فيقول لهم:
{أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ}

ألم نمنحكم من العمل ونطّل أعماركم زمناً يمكن فيه التدبر لمن يريد ذلك؟ لقد جاءكم الرسول يحذركم من هذا العذاب. . . . فذوقوا في جهنم جزاء ظلمكم ومخالفتكم للأنبياء في حياتكم الدنيا. {فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} .

ان الله مطلع على كل غائب في السموات والأرض، لا يغيب عن علمه شيء، ولو أجابكم وأعادكم الى الدنيا لعدتم الى ما نهاكم عنه
{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} .

والله هو الذي جعل بعضكم يخلف بعضاً في تعمير الأرض وتثريها، فمن كفر بالله فعليه وزر كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتاً وبغضاً.

قراءات:

قرأ أبو عمرو وحده: كذلك يجزي كل كفور بضم الياء وفتح الزاي. والباقون: نجزي بفتح النون وكسر الزاي.

٣٥٠٨ 40

أرايتم: أخبروني. ام لهم شرك: ام لهم شركة. يمسك: يحفظ. جهد ايمانهم: بالغوا في ايمانهم. نفورا: تباعد.
أخبروني ايها المشركون عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله، ماذا خلقوا؟ ألهم شركة مع الله في خلق السموات؟ أم أعطيناهم
كتاباً ينطق بأنا اتخذناهم شركاء، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب
{بَلْ إِن يَدُعُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا}

ان وعد بعضهم لبعض أن الآلهة التي يعبدونها من دون الله ستشفع لهم - هو كذب وغرور.
ان الله يحفظ السموات من الخلل او من الزوال، بنظام دقيق. ولو انها زالت لما كان هناك احد في الكون يمنعها الا الله.
{إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} يحلم وينظر، ويؤجل ولا يعجل، ويستتر ويغفر.
{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}

أقسم المشركون بالله باغلظ الايمان، وبالغوا فيها اشد المبالغة، لئن جاءهم رسول ينذرهم ليكونن اكثر هداية من كل امة من الأمم التي خلت من قبلهم.

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا}
فلما جاءهم رسول منهم ينذرهم ما زادهم مجيئه وانذاره ونصحه الا نفورا عن الحق. {استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق
المكر السيئ إلا بأهله}

لقد نفروا استكباراً في الأرض وأنفة من الخضوع للرسول الكريم وللدين الذي جاء به، ومكروا مكراً سيئاً، ولا يحيط شر المكر السيئ
الا بأهله الذين دبروه.

{فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}
هل ينتظر هؤلاء المشركون الا ما جرت به سنة الله في الذين سبقوهم، وسنة الله في معاملة الأمم لن تبدل، ولن تتحول.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص: على بينة بالافراد والباقون: على بينات بالجمع.

الدابة: كل حيوان يدب على الأرض بما فيه الانسان.
 أَوَلَمْ يَسِرْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ أَثْنَاءَ رَضَخَاتِهِمْ إِلَى الشَّامِ وَيُرَوِّا الْأَرْضَ الَّتِي أَهْلَكْنَا فِيهَا أَهْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَجَعَلْنَاهُمْ مَثَلًا لِمَنْ بَعْدَهُمْ. لَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ أَقْوَى مِنْهُمْ وَاغْنَى فُلْمَ تَمْنَعُهُمْ قُوَّتَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.
 {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}
 وهذا تهديد لهم أنهم إذا ساروا على تمردهم وعنادهم فصيرهم مصير من سبقهم، وإن هذا سهل عليه، ولا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يريدُه في هذا الكون الكبير كله.
 ولو يؤاخذ الله الناس بما يكسبونه من آثام وما يجرّونه على أنفسهم من الفتن، ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ دَابَّةً تَدْبُ عَلَيْهَا، وَلَكِنَّهُ يُؤْخِرُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، فَإِذَا جَاءَ مُوْعَدُهُمْ هَذَا فَسَيَجْزِيهِمْ بِكُلِّ مَا عَمَلُوا وَلَا يَفْلِتُ مِنْ حِسَابِهِ أَحَدٌ، إِنَّهُ بِأَعْمَالِهِمْ بَصِيرٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

يس ٣٦

٣٦٠١ 1

صراط مستقيم: طريق قويم من عقائد صحيحة وشرائع حقة. حق القول: ثبت القول. الأغلال: واحدها غُلٌّ بضم الغين، وهو ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب. قح الغل الأسير: ضاق على عنقه فاضطره إلى رفع رأسه. فعنى فقمحون: رفعوا رؤوسهم وغضوا ابصارهم من الذل. من بين أيديهم: من امامهم. فأغشيناهم: غطينا ابصارهم وجعلنا على أعينهم غشاوة. الذكر: القرآن. ما قدموا: ما عملوا من الأعمال. وآثارهم: ما أبقوه من الحسنات أو السيئات. في امام مبين: في أصل يؤتم به. . . .
 يس: تُلَفِّظُ يَاسِينَ. من الحروف التي ابتدئت بها بعض السور، وتقدّم الكلام عليها، وقال بعضهم: معناها: يا إنسان، أو الحكيم. وشاع عند الناس أنها اسم للرسول الكريم، وسمّوا بها. أقسم الله تعالى بالقرآن الكريم أنك أيها الرسول الكريم من المرسلين الذين أرسلهم لهداية الناس إلى دين قويم، وشرع مستقيم من التوحيد ومكارم الأخلاق. وذلك لتندّر قومًا لم يأتهم نذير قبلك، فهم غافلون عما يجب عليهم وفي غفلة ساهون.

{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

لقد وجب العقاب على أكثرهم لعدم إيمانهم.

{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا. . . } مرتفعة إلى أذقانهم، ولذلك ترى رؤوسهم مرتفعة مشدودة إلى الوراء، لا يستطيعون أن يطأطئوها. وجعلنا أمامهم سدًا ومن خلفهم سدًا فهم محبوسون في سجن الجهالة، وغطينا على أعينهم فهم لا يُبْصِرُونَ. وإن إنذارك لهم وعدمه سوء، فهم لا يؤمنون.

إنما تندّر من اتبع القرآن، وخشي الله في سريره، فبشّره بمغفرة من الله وأجر كريم.

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنُسْجِلُ عَلَيْهِمْ مَا قَدَّمُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ.

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} في اللوح المحفوظ.

قراءات

قرأ حمزة والكسائي وروح وابو بكر: يس بإمالة الياء. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص: تنزِيلَ بفتح اللام، والباقون: تنزِيلُ بالضم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: سَدًا بفتح السين. والباقون: بضمها، وهما لغتان.

ضربُ المثل: تشبيه حالٍ غريبةٍ بأخرى مثلها. القرية: يقول كثير من المفسرين انها انطاكية، والرسل غير معروفين ولم يرد خبر صحيح عنهم. فعززنا بثالث: فقويناهم بثالث. البلاغ المبين: التبليغ الواضح. تطيرنا: تشاء منا بكم. لنرجمنكم: لنرمينكم بالحجارة. طائركم معكم: شؤمكم معكم. ائن ذكركم: ائن وعظمت بما فيه سعادتكم تشاءمون بنا! مسرفون: مجازون الحد في العصيان. لا تغني: لا تنفع. ولا ينقذون: ولا يخلصونني. . . .

يذكرهم الله تعالى بقومٍ مثلهم في الكفر والعناد والإصرار على التكذيب، فيقول: اذكر لقومك أيها النبي قصة أهل قرية انطاكية لما أرسلنا إليهم الرسل لهدايتهم. . . . أرسلنا إليهم رسولين اثنين، فكذبوهما، فويناها بثالث وقالوا لهم: لقد أرسلنا الله إليكم، فقال اهل القرية لهم: ما أنتم الا بشرٌ مثلنا وليس لكم علينا مزية، وما أنزل الرحمن إليكم شيئاً، ولا أمركم بشيء، وما أنتم الا كاذبون. قال الرسل مؤكدين رسالتهم: الله يعلم أنا رسله إليكم، وما علينا الا ان نبليكم رسالته. . . . وقد فعلنا. فقال اهل القرية مهدين: إنا تشاء منا بكم، لئن لم تتركوا ما تقولون قتلناكم رجماً بالحجارة ولحقكم منا عذابٌ شديد. فقال الرسل لهم: {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} شؤمكم معكم {إِنَّ ذِكْرُكُمْ؟} بمعنى: ائن وعظمت بما فيه سعادتكم تشاءمون بنا؟ نخبر «ائن ذكركم» محذوف. . . .

{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} بالبغي والعناد والكفر.

وفي هذه الأثناء يأتي رجلٌ مؤمن من أقصى أطراف المدينة مسرعاً لينصح قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل. {قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ}

بعد ذلك بين لهم ذلك الساعي انه ما اختار لهم الا ما اختار لنفسه فقالك وأي شيء يمنعني ان أعبد الذي خلقتني {وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ} . وكيف أعبد آلهة لا تفيدني شفاعتهم شيئاً إن أرادني الله بسوء، {وَلَا يُنْقِذُونَ} ولا يخلصونني من أي سوء! اذا فعلت ذلك فأنا في ضلال مبين.

ثم التفت الى الرسل وخاطبهم بما يثبت ايمانه بالله فقال:

{إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ} اشهدوا لي بذلك عنده.

{قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ} بغفران ربي لي وإكرامه إياي، فيؤمنون كما آمنت. إنه يتنى لو يرى قومه ما اعطاه الله من الرضى والكرامة لعلهم يؤمنون.

قراءات

قرأ أبو بكر: فعززنا بفتح الزاي الأولى من غير تشديد. والباقيون بالتشديد.

الجنود: الملائكة. خامدون: ميتون. الحسرة: شدة التلهف والحزن. ويقال: واحسرتا، ويا حسرتا. محضرون: للحساب والجزاء. من القرون: من اهل القرون القديمة. الازواج: الأصناف.

وما أنزلنا على قوم ذلك المؤمن جندا من السماء نهلكهم على أيديهم. إن أمرهم كان أهون من ذلك، وما تتحملوا إلا صيحة واحدة فإذا هم أمواتٌ لا حراك بهم.

{ياحسرة على العباد} تُتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، وما نبعث إليهم برسولٍ إلا كانوا به يستهزئون.

ألم يروا مصارع الهالكين قبلهم من أهل القرون الغابرة ويدركون أنهم لا يرجعون على مدار السنين وتطاول القرون!! لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر.

ولكن الله تعالى لا يتركه يفتلون من الحساب.
{وَأِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}

ذلك يوم القيامة. والدليل على قدرتنا على البعث والنشور تلك الأرض المجدبة، نحيتها بانزال الماء عليها ونخرج منها حَباً يأكلون منه، كما نُنشئ فيها حدائق وبساتين من نخيل وأعناب، ونجعل فيها أنهاراً وعيوناً من الماء العذب الصافي {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} خالق هذا النعم؟ سبحانه الذي خلق هذا الخلق العظيم، من أزواج على سُنَّة الذكورة والأنوثة، وخلق أنواع الكائنات مما تنبت الأرض ومن الأنفس، وخلق ما نعلم، وفيه الدليل الكبير على عظيم قدرته تعالى.

قراءات

قرأ عاصم وابن عامر وحمة: وان كل لما بتشديد الميم. والباقون: لما بفتح الميم دون تشديد. وقرأ نافع: الأرض الميَّنة بتشديد الياء. والباقون: الميَّنة باسكان الياء. وقرأ الكوفيون: ما عملت أيديهم، الا عاصما: ما عملته أيديهم.

٣٦٠٤ 37

نسلخ منه النهار: نزيل النهار منه ونضع الليل مكانه. مظلون: داخلون في الظلام. قدرناه منازل: جمعها منزلة، وعددها اثنتا عشرة منزلة. العرجون: العنقود من النخلة الذي يحمل الرطب. لا ينبغي لها: لا يتيسر لها. أن تدرك القمر: ان تجتمع معه في وقت واحد. وكل في فلك يسبحون: كل هذه الاجرام يسبح في فلك عظيم واسع. الفلك: السفينة. المشحون: المملوء. فلا صريح لهم: فلا مغيب لهم.

من آيات الله وبيد صنعته تعاقب الليل والنهار، فالليل يسلم من النهار والنهار يسلم من الليل، نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب الى الشرق، فتشرق الشمس على بعض الآفاق فيكون عندهم نهار، وتغيب عن البعض الآخر بانتظام فيكون عندهم ليل. وإنها لظاهرة فلكية عظيمة الأهمية في حياة لاجنس البشري وكافة الأحياء على هذه الارض.

والشمس تسير الى مستقر لها بقدره الله العزيز العليم. وقد ثبت للعلماء أخيراً ان للشمس دورتين: احدهما حول محورها مرة في كل ستة وعشرين يوماً تقريباً، والثانية دورانها مع كل توابعها من الكواكب السيارة واقمارها حول مركز النظام النجمي بسرعة تقدر بنحو مائتي ميل في الثانية. والشمس واحدة من ملايين النجوم التي تكون النظام النجمي.

واذا علمنا ان هاتين الحركتين الحقيقيتين للشمس لم تثبتا بالبرهان العلمي والأرصاء الفلكية إلا حديثاً - أدركنا ما في هذه الآية الكريمة من إعجاز عظيم.

{والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم}

وجعلنا سير القمر منازل، وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل في كل واحد منها كل ليلة، إذ يبدو في اول الشهر هلالاً ضئيلاً، ثم يزداد ليلة بعد ليلة الى ان يكتمل بدرأ، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود ضئيلاً مثل عرجون النخلة. ثم يستتر ليلتين، او ليلة اذا نقص الشهر. والمنازل هي: السرطان، البطين، الثريا، الدبران، الحقعة، الهنعة، الذراع المقبوضة، النثرة، الطرف، جبهة الأسد، الزبرة، الصرفة، العواء، السماك الأعزل، الغفر، الزباني الاكليل، قلب العقرب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الاخبية، الفرغ المقدم، الفرغ المؤخر، بطن الحوت.

لا الشمس يمكنها أن تخرج عن هذا النظام البديع فتلحق بالقمر وبينهما مسافة هائلة، ولا الليل يتأتى له ان يغلب النهار ويحول دون مجيئه، بل هما متعاقبان، وكل من الشمس والقمر والكواكب والنجوم يسبحون في هذا الكون الفسيح بنظام دقيق عجيب.

ومن آيات الله وقدرته ان هياً للناس البحر يركبونه في السفن المشحونة بالبضائع تجري فيه لمصلحتهم، و {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} من الابل والخيول وغيرها من الحيوانات المسخرة لأمر الانسان، وكذلك في عصرنا الحاضر جميع انواع المواصلات في البحر والبر والجو.

ثم بين لطفه بعباده حين ركبهم تلك السفن وغيرها فقال:
 {وَأِنْ نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ}

كل هذه الوسائل تسير بتقديرنا وبأمرنا، ولو أردنا إغراقهم فليس لهم مغيث، ولا هم ينجون من الهلاك، ولكن تشملهم رحمتنا فيتمتعون بلذات الحياة الدنيا الى اجل مقدر.
 قراءات

قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وروح: والقمر قدرناه برفع القمر، والباقون بالنصب. قرأ نافع وابن عامر ويعقوب: ذرياتهم بالجمع، والباقون ذريتهم بالافراد.

٣٦٠٥ 45

ما بين ايديكم: ما جرى للأمم السابقة. وما خلفكم: عذاب الآخرة. يخصمون: بكسر الصاد المشددة، يتخاصمون. الاجداث: جمع جدث، القبر. ينسلون: يخرجون من قبورهم. من مرقدنا: من مكان نومنا، كأنهم كانوا نائمين في قبورهم. واذا قيل لهؤلاء المكذبين: خافوا ان يصيبكم مثل ما جرى للأمم الماضية بتكذيبهم الرسل، وخافوا عذاب الآخرة لعل الله يرحمكم - أعرضوا وولوا مستكبرين.

ولا تجيبهم حجة من حجج الله الدالة على وحدانيته الا كانوا عنها منصرفين. أما اذا قيل لهم أنفقوا على الفقراء والمحتاجين مما رزقكم الله، قالوا للمؤمنين: أطلبون منا ان نطعم من لو أراد الله إطعامه لفعل؟! انكم حقا في ضلال مبين. ويقول الكافرون مستهزئين: متى يحصل هذا البعث الذي تعدوننا به!

{مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ}

ستأتيهم الساعة بغتة، وما ينتظرون الا صوتاً واحداً يقضي عليهم بغتة، وهم يتنازعون في شئون الدنيا غافلين عن الآخرة.

ثم بين الله سرعة حدوثها وأنها كلمح البصر او هي اقرب فقال:

{فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} يومذاك لن يوصوا في اموالهم بشيء، ولن يرجعوا الى أهلهم. وقد رويت في ذلك احاديث كثيرة تبين هول ذلك الموقف.

ثم بين الله أنهم بعد موتهم يُنفخ في الصور النفخة الثانية، نفخة البعث من القبور فقال:

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ}

وبعد النفخة الثانية يخرجون من قبورهم مسرعين الى الله. . . . وكل هذه المواقف من الحياة الاخرى لا نعلم عن حقيقتها شيئاً الا ما ورد في القرآن الكريم.

ثم بين الله تعالى انهم يعجبون حين يرون انفسهم قد خرجوا من قبورهم للبعث فيقولون:

{قَالُوا يَا أَوَّلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟}

فيقال لهم:

{هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ. . . .} لقد صدق الرسول فيما أخبروا عنه.

ثم تأتي الصيحة الأخيرة:

{فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}

ويقف الجميع صفافاً صفا منتظمين منتظرين حسابهم وجزاءهم، وعند ذلك يعلن القرار:

{فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

فيذهب اهل الجنة الى الجنة، واهل النار الى النار، ويلقى كل جزاءه بالعدل.

قراءات
قرأ ابن عامر وعاصم والكسائي: يَخْصَمُونَ بفتح الياء وكسر الخاء والصاد المشددة. وقرأ ابن كثير وابو عمرو: يَخْصَمُونَ: بفتح الياء والحاء وتشديد الصاد المكسورة. وقرأ نافع: يَخْصَمُونَ: باسكان الخاء وتشديد الصاد وبهذا يكون جمع بين ساكنين. وفي المصحف الذي طبعه الملك الحسن في المغرب يَخْصَمُونَ بفتح الياء والحاء وتشديد الصاد المكسورة. وقرأ حمزة: يَخْصَمُونَ: باسكان الخاء وكسر الصاد بدون تشديد.

٣٦.٦ 55

في شغل: في شأن كبير من المسرة والنعيم. فاكهون: مرحون في عيش ناعم. ظلال: جمع ظل وهو الفيء. الأرائك: جمع أريكة، وهي كل ما استراح عليه الانسان من مقعد وسرير او فراش او منصة. ما يدعون: ما يطلبون. امتازوا: انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين. الم أعهد: ألم أوصي، الم اعرض ما فيه الخير. جبلاً كثيراً: خلقاً كثيراً. اصلوها: ادخلوها، ذوقوا حرها. لطمسنا على أعينهم: لأعميناهم. فاستبقوا لاصراط: تسابقوا الى الطريق المألوف. لمسخناهم: لغيرنا صورهم الى أقبح صورة. على مكانتهم: في اماكنهم. نعمره: نطل عمره. ننكسه في الخلق: نرده من القوة الى الضعف حتى يرد الى أرذل بعد انتها الحساب يذهب كل الى مقرة الأخير، أهل الجنة الى الجنة وغيرهم الى النار.

ويحدثنا القرآن عما هم فيه نم نعيم ملتذون فيه متفكهون، هم وازواجهم في ظلال مستطابة على الفرش والأرائك متكئون، لهم في جنتهم فاكهة ولهم كل ما يطلبون ويشتون، ولهم فوق كل هذه اللذائذ والمتع تكريم من الله ويقال لهم: {سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ} أما اصحاب الجحيم فعلى العكس من ذلك فانهم يلقون التحقير والاهانة، ويقال لهم:

{وامتازوا اليوم أيها المجرمون}

أبعدوا عن المؤمنين، وادخلوا جهنم، ألم أوصيكم يا بني آدم ان لا تطيعوا الشيطان؟ إنه لكم عدو ظاهر العداوة يوردكم موارد الهلاك. {وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}.

اطيعوني، فإن طاعتي هي التي توصلكم الى الطريق المستقيمة. لقد بينت لكم ذلك فلم تحذروا عدوكم الذي اضل منكم أجيالا كثيرة {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} حين أطعتموه! اذهبوا الى مصيركم المحتوم. {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}

ادخلوها وقاسوا حرها واحترقوا بها بسبب كفرهم وخودكم.

ثم بين الله تعالى ان جوارحهم تشهد عليهم، وذلك بمشهد عجيب.

{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}

اليوم تلجم أفواههم فلا ينطقون، وتكلم جوارحهم بما اقترفته. . . . ويا له من موقف رهيب مخيف.

{وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}

ولو نشاء لعاقبناهم على كفرهم فطمسنا على أعينهم فصرناهم عمياً لا يبصرون طريقاً ولا يهتدون. ولو اردنا لغيرنا صورهم وحولناهم الى تماثيل جامدة {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} بل يبقون في اماكنهم جامدين.

{وَمَنْ نَعْمَرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ!}

ومن يطل الله عمره يخرف وينتكس بعد شبابه وعقله الى ضعفٍ وخرفٍ وهزال. افلا يعلمون ان الدنيا دار فناء وان الآخرة دار البقاء! .
قراءات:

قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير: في شغل باسكان الغين، والباقون: في شغل بضم الشين والغين وهما لغتان. وقرأ أبو جعفر: فكهون بكسر الكاف بدون الف بعد الفاء. والباقون: فاكهون. قرأ حمزة والكسائي: في ظل جمع ظلة، والباقون: في ظلال. قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر: جبلاً بكسر الجيم والباء وتشديد اللام. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ورويس: جبلاً بضم الجيم والباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو عمرو وابن عامر: جبلاً بضم الجيم وسكون الباء، وهذه كلها لغات معناها واحد. وقرأ أبو بكر: على مكاناتهم بالجمع، والباقون: على مكانتهم بالافراد. وقرأ عاصم وحمزة: نكسه بضم النون الاولى وفتح الثانية وكسر الكاف المشددة. والباقون: نكسه بضم النون الاولى واسكان الثانية وكسر الكاف من غير تشديد. وقرأ نافع وابن ذكوان ويعقوب: افلا تعقلون بالتاء، والباقون: افلا يعقلون بالياء.

٣٦٠٧ 69

ما ينبغي: لا يليق به ولا يصح له. ذكر: عظة من الله. حياً: حي القلب مستنير البصيرة. يحق القول: يجب العذاب. {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِّيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} . وما علمنا رسولنا الشعر ولا يليق به لمكانته ومنزلته ان يكون شاعراً، وما هذا القرآن الا كتاب عظة وآداب وأخلاق وتشريع، فيه سعادة البشر في دنياهم وأخراهم فلا مناسبة بينه وبين الشعر، لينذر من كان حي القلب مستنير العقل، وتجب كلمة العذاب على الكافرين الجاحدين. قراءات: قرأ أهل المدينة وابن عامر: لتندر بالتاء. والباقون: لينذر بالياء.

٣٦٠٨ 71

ركوبهم: بفتح الراء، هو ما يركب. ذللناها لهم: سخرناها لهم. الم يشاهد هؤلاء المشركون بالله أننا خلقنا لهم بقدرتنا أنعاماً من الإبل والغنم والبقر فهم لها مالكون يتصرفون فيها كما يشاؤون! وسخرناها لهم فنما ما يركبون، ومنها ما يأكلون، ولهم فيها ما ينتفعون به من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك، ولهم شمارب من ألبانها ايضاً! أيجحدون هذه النعم الكثيرة فلا يشكرون الله عليها!! . ومع كل هذه النعم اتخذ المشركون آلهة يعبدونها من دون الله، رجاء ان تنصرهم! غن هذه الالهة لا تستطيع نصر احد، ولا تقدر ان ترد عن أحد أذى إن أراد الله بهم سوءاً. {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ} وهم لسخفهم جنود هذه الالهة يحمونها ويدبونها عنها المهتدين. ثم بعد ذلك يسلي الله رسوله الكريم بقوله: {فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} لا يحزنك قولهم فيك بالكذب والافتراء عليك، انا نعلم ما يخفون وما يعلنون، وسيلقون جزاءهم.

٣٦٠٩ 77

أولم ير: أولم يعلم. الخصم: الشديد الخصومة والجدل. رميم: البالي من كل شيء. ملكوت: الملك التام، كالجبروت والرحموت. في آخر هذه السورة الكريمة يرد ختامها بالأدلة على قدرة الله تعالى على إعادة الخلق، فانه تعالى خلق للانسان النعم التي لا تحصى ليشكر، فكفر وحمد. . . ألا يستدل من أنكر البعث بسهولة المبدأ! وأنا خلقناه من العدم من شيء لا يرى بالعين المجردة لصغرها فاذا هو يخاصم ويجادل!

ثم ضرب مثلاً ينكر به قدرتنا على إحياء العظام بعد ان تلى، ونسي أننا خلقناه من العدم! . . .
 {قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}

قال مجاهد وعكرمة وعمرو بن الزبير وقتادة: «جاء أبي بن خلق (وهو من كبار مشركي مكة) الى رسول الله ﷺ، وفي يده عظم يفتنه بيده ويذروه في الهواء ويقول: أترعّم يا محمد ان الله يبعث هذا؟ فقال الرسول الكريم:» نعم، يُميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك الى النار «ونزلت هذه الآية.

ثم أمر الله تعالى رسوله الكريم ان يقول لهم:

{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}

فالذي خلق هذا الخلق من البدء قادرٌ على إحيائه بعد موته.

ثم ذكر دليلاً ثانياً يبطل إنكارهم فقال:

{الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ}

ان من جعل لنا النار من الشجر الأخضر قادرٌ على ما يريد، لا يمنعه شيء.

ثم جاء بدليل ثالث على قدرته أعجب من سابقه فقال:

{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}

فإن خلق هذا الكون الكبير العجيب لهو أعظم وأكبر من خلق الانسان واعادته، كما قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ

مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧] .

ثم بين ما هو كالنتيجة لما سلف من تقرير واسع قدرته، واثبات عظيم سلطانه فقال:

{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} .

فالله سبحانه وتعالى يخلق كل ما يريد بلا كلفة ولا جهد، وليس هناك صعوبة، وليس هناك قريب ولا بعيد، فعندما يأمر بالشيء يكون بلا توقف ولا تردد.

وعندما اثبت لنفسه القدرة التامة والسلطة العامة نزه نفسه عما وصفوه به، فقال:

{فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}

فتنزيهاً للذي بيده مقاليد كل شيء، وبقدرته ملك كل شيء، واليه المرجع والمصير.

٣٧ الصفات

٣٧.١ 1

الصفات: جماعة الملائكة. فالزاجرات: من صفات أعمال الملائكة. فالتاليات: من صفات أعمالهم ايضاً المشارق: مشارق الشمس وجميع الكواكب والنجوم، لن الشمس تشرق كل يوم من جهة، وكذلك المغرب لم يذكرها اكتفاء بتعدد المشارق. السماء الدنيا: اقرب سماء لنا. مارد: متمرد. الملائكة: الجماعة يجتمعون على رأي، والمراد هنا الملائكة: يقذفون: يرحمون. دحورا: طرداً وابعادا. واصب: دائم. خطف الخطفة: أخذ بسرعة على غرة. الشهاب: الشعلة من النار، والنجم المضيء المنقّص من السماء. ثاقب: مضىء. أقسم الله سبحانه وتعالى بالملائكة المصطفين في مقام العبودية، الذين يردعون الناس عن الشر، ويتلون آياته على الأنبياء أن الله المعبود واحد، لا شريك له، هو رب السموات والأرض وما بينهما، ورب المشارق والمغارب.

وانه زين السماء الدنيا التي نراها بالكواكب وجعل هذه الكواكب حفاظاً للسماء من كل شيطان متمرد، فلا يمكن للشياطين

المتمردين التسمُّع الى ما يجري في عالم الملائكة، واذا أرادوا ذلك رُجموا من كل جانب، وطُردوا طرداً عنيفاً، ولهم عذاب شديد دائم، الا من اختلس الكلمة من أخبار السماء فإننا نُبعه بشهابٍ ثاقب يلحقه فيصيبه ويحرقه حرقاً. اما كيف يتم هذا كله فإننا لا نعرفه. • فهو من الغيبات التي تعجز طبيعتنا البشرية عن تصوّر كفياتها، ونصدّق بها وبما جاء من عند الله. قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر: بزيئة الكواكب بجر زينة والكواكب مضاف اليه. وقرأ ابو بكر: بزيئة الكواكب بنصب الكواكب وجر زينة منونا. والباقون: بزيئة الكواكب بتوین زينة مجردا وخفض الكواكب على البدل. وقرأ الكسائي وحمة وخلف وحفص: لا يسمعون بفتح السين والميم وتشديدهما. وقرأ الباقر: لا يسمعون باسكان السين وفتح الميم بدون تشديد.

٣٧٠٢ 11

فاستفهم: اسألهم. أشد خلقاً: أصعب خلقاً. لازب: لازم ثابت، لاصق. اذا ذُكروا لا يذكرون: اذا وُعطوا لا يتعظون. آية: معجزة. يستسخرون: يسخرون، يستهزئون. داخرون: صاغرون. زجرة واحدة: صيحة واحدة. يا ويلنا: يا هلاكنا. يوم الفصل: يوم الحساب بين الناس. فاهدوهم: دلّوهم. الى صراط الحليم: الى طريق الحليم. قفوهم: احبسوهم في الموقف. لا تتناصرون: لا تتناصرون، لا ينصر بعضهم بعضاً.

اسأل أيها الرسول هؤلاء المنكرين للبعث: أهُم اعصبُ خلقاً أم السموات والأرض وما في هذا الكون الكبير! لقد خلقنا كل ذلك من لا شيء، وخلقناهم من طين لاصقٍ بعضه ببعض، فأين هم من خلق هذا الكون العجيب! {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}

بل عجبَ أيها النبي من إنكارهم للبعث وهم يسخرون من تعجبك ويستهزئون. واذا وُعطوا ودعوا الى عبادة الله لا يتعظون. واذا رأوا برهاناً على قدرة الله بالغوا في السخيرة والاستهزاء وقالوا: ما هذا الذي نراه إلا سحر ظاهر، وخدعة من الخدع. أثذات متنا وصرنا تراباً وعظماً سنُبعث مرة أخرى من قبورنا، وكذلك يُبعث آباؤنا الأولون الذين ماتوا من قرون قديمة!؟ {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ}

قل لهم ايها النبي: نعم ستبعثون جميعاً وأنتم أذلاء صاغرون. فانما البعثة صيحة واحدة فاذا هم أحياء ينظرون الى ما كانوا يوعدون، وعند ذلك يقولون: يا ويلنا هذا هو يوم القيامة الذي يفصل فيه بين الناس، والذي كنتم به تكذبون. ويقول الله للملائكة: اجمعوا الذين ظلموا انفسهم بالكفر، وأزواجهم وجميع من على شاكلتهم وما كانوا يعبدون من الاصنام وغيرها من دون الله - فقودوهم الى طريق جهنم، مقرهم الأخير.

{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} عما كانوا يعملون في الدنيا من كفر والحاد وفساد. ويقال لهم {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ؟} لا ينصر بعضهم بعضاً كما كنتم في الدنيا تفعلون! ولكنهم لا يستطيعون عمل شيء وينقادون مستسلمين أمر الله. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: بل عجبْتُ بضم التاء. والباقون: بل عجبْتُ بفتح التاء. وقرأ ابن عامر: إذا متنا بهمة واحدة، والباقون: إذا متنا بهمتي نعلی الاستفهام. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب: إنا لمبعوثون بهمة واحدة والباقون: إنا لمبعوثون. وقرأ ابن عامر أو آباؤنا الأولون: بسكون الواو.

عن اليمين: عن جهة الخير، واليمين لها عدة معانٍ منها: اليد والجهة المقابلة لليسر، والخير وغير ذلك. من سلطان: من قهر وتسلط. طاغين: متجاوزين الحد في العصيان. فحق علينا: فوجب علينا. فأغويناكم: اضللناكم. وبعد ان بين الله تعالى أنهم يوم القيامة يندمون عندما يرون العذاب - ذكر هنا أنهم يقبلون على بعضهم البعض، ويتلاومون ويتخاصمون، ويسأل بعضهم بعضاً عن مصيرهم السيء ويقول التابعون للمتبعين.

{قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ}

قالوا لهم: إنكم كنتم تغشونا وتأتوننا من الناحية التي نطُن فيها الخير واليمن، لتصرفونا عن الحق الى الضلال. فيرد عليهم الرؤساء بقولهم:

{بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ}

إنا ما اضللناكم بل كنتم أنتم بطبيعتكم مستعدّين للكفر.

{حَقَّقَ عَلَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ}

وجبض علينا ما قاله الله في أننا لذائقون العذاب في هذا اليوم، وكل ما فعلناه بكم أننا دعوناكم لتكونوا مثلنا فاستجبتم لدعوتنا، فلا لوم علينا. ويومئذ يكون التابعون والمتبعون في العذاب مشتركين.

{إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ}

هذه سنة الله في خلقه، يعطي كل عامل جزاء ما قدّم يداه.

ان هؤلاء المجرمين كانوا اذا قيل لهم لا إله الا الله يستكبرون ويقولون: أترك عبادة آلهتنا لقول شاعر مجنون!

ومن ثم يكذبهم الله تعالى ويرد عليهم بقوله:

{بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}

بل جاءهم رسولهم بالحق الذي هو التوحيد الذي دعا اليه جميع الرسل، وصدق بذلك دعوة المرسلين الذين جاؤوا قبله.

بكأس: فيه شراب صاف: من معين: من ماءٍ غزير. لذة: فيها لذة. غُول: ما ينشأ عن الخمر من صداع، وهو الكحول. ينزفون: لا تذهب عقولهم بالسُّكر. قاصرات الطرف: عفيفات. عين: عينا، واسعات العيون جميلات. مكنون: مصون لا تمسه الأيدي، والمراد: اللؤلؤ.

بين الله تعالى هنا أنه لا فائدة من هذا الخوصام والجدال فالعذاب واقع بكم جميعاً.

{وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

وهذا هو العدل. . . كل غنسان يلاقي عمله ويجزى به.

بعد ذلك بين الله حال عباده المؤمنين العاملين، وهم في جنات يتمتعون فيها بكل ما لذ وطاب من انواع الفواكه، وفوق ذلك اكرام الله لهم في ضيافته. ويأتيهم ذلك الرزق الكريم وهم جالسون على سُرر متقابلين، يتمتعون بطيب الحديث، يطوف عليهم الولدان بكأس من أجود الشراب في الجنة بألوان مشرقة، لا تورث صداعاً ولا تُذهب وعي شاربها، ويظلون في هذا النعيم المقيم. ثم بين محاسن زوجاتهم، لبيان تمام السرور فقال:

{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ عِينٌ}

ولديهم زوجاتٌ عفيفات لا ينظرن الى غير أزواجهن، وهن في غاية الجمال، بيضٌ كأنهن البيض النقي المصون. والعرب يشبهون النساء البيض الخود باللؤلؤ. قال الشاعر:

وبيضةٍ خودٍ لا يرام خباؤها. وقال الشاعر:

وهي بيضاء مثل لؤلؤة الغوا . . . ص ميزت من جوهر مكنون ويقول تعالى:

{وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [الواقعة: ٢٢ - ٢٣] .
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: ينزفون بكسر الزاي، والباقون: ينزفون بفتح الزاي على البناء للمجهول.

٣٧٠٥ 50

قرين: صاحب. لمدنيون: لمحاسبون، لمجزئون. مطلعون: مشرفون. سواء الجحيم: وسط النار. لتُردين: لتهلكني. لمحضرين: لمسوقين للعذاب. نزلا: كل ما يهياً للضيف. شجرة الزقوم: شجرة كريهة في جهنم. فتنة: محنة. أصل الجحيم: قعر جهنم. طلُعها: ثمرها. رؤوس الشياطين: في قبح الشياطين، والعرب تشبه كل قبيح بالشيطان. الشوب: الخلط. الجحيم: الحار. مرجعهم: مصيرهم.

لا يزال الحديث عن أهل الجنة، فإنهم وهم في متعتهم وسرورهم، يسألون عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا. قال قائل منهم: كان لي صاحب من المشركين يجادلني في الدين ويقول: أنك لمن الذين يصدّقون بالبعث بعد الموت وبالحساب والجزاء!! وهل بعد ان تموت ونصير تراباً وعظاماً بالية نحيا مرةً لنحاسب على ما قدّمنا من عمل!! . فيتطّلع ذلك المؤمن ويدعو اخوانه ان يتطلعوا معه.

{فاطلع فراه في سِوَاءِ الْجَحِيمِ}

حينما رآه قال: تالله لقد كدت تهلكني لو أطعته على الكفر معك، ولولا نعمة ربي بأن هداني للايمان بالله والبعث لكنت مثلك من المحضرين في العذاب.

ثم يقول لجلسائه تحداً بنعمة ربه عليه وعلى مسمع من قرينه:

{أَفَمَنْ نَحْنُ بِمَبِيتَيْنِ إِلَّا مُوتِنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنِ}

لقد اجتزنا الامتحان بنجاح والحمد لله، فلا موت بعد الموتة الأولى ولا تعب بعد اليوم.

{إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ}

وفي معنى هذه الآية يتوضح اكثر قوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الدخان: ٥٦] .

اما كيفية رؤية أهل الجنة لأهل النار وبينهم مسافات شاسعة فإنها من الغيبيات اليت تخالف وضعنا وحياتنا، ونحن لا نعرف كيف تجري احوال الدار الآخرة جميعها ولا نستطيع فهمها.

ثم بين أحوال أهل جهنم وما يلاقون فيها من العذاب الدائم ليظهر الفرق بين أهل النعيم وأهل الجحيم، فقال:

{أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ؟}

اهذا الرزق الذي ناله أهل الجنة خير أم حال أهل النار الذين يأكلون من شجرة الزقوم التي جعلناها فتنةً وبلاءً للكافرين؟! والزقوم شجرة تنبت ف وسط الجحيم، ثمرها قبيح المنظر كرية الصورة كأنه رؤوس الشياطين. ومن ثمرها يأكل الكفار. وهم يملأون بطونهم منه، فاذا عطشوا وأرادوا شرب الماء، يغاثون بماء حار مشوب باخلاق من جهنم يشوي وجوههم، وتقطع منه أمعاؤهم، كما قال في سورة الكهف ٢٩ {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً}

يهرعون: يسرعون. وتركنا عليه: ابقينا لنوح ذكراً جميلاً.
ان هؤلاء الجاحدين وجدوا آباءهم ضالين، فاقتفوا آثارهم من غير ان يستعملوا عقولهم، بل مقلدين غير مستبصرين. فهم وآباؤهم صورة من صور الضلال التي يمثلها اكثر الأولين. ولقد أرسلنا في هذه الامم الخالية رسلاً ينذرونهم، فكذبوهم، فانظر كيف كان مآل الذين أنذرتهم رسلاً. . لقد هلكوا فصاروا عبرةً للأولين والآخرين.
ولكن هناك مؤمنون استخلصهم الله، ففازوا بثوابه. ثم يذكر بعد ذلك بعض قصص الأنبياء باختصار للعبارة والذكرى.
ولقد نادانا نوح حين يئس من قومه، فكأن له نعم المجيبين، ونجيناه ومن آمن معه من الغرق والطوفان، وجعلنا ذريته هم الباقين في الأرض، وتركنا له ذكراً جميلاً في العالم الى يوم القيامة.

من شيعته: من جماعته الذين ساروا على منهاجه. سليم: سالم من جميع العلل والآفات النفسية. أثفكاً: اكذباً. سقيم: مريض. راغ الى: مال اليهم سرا. وراغ عليهم: مال عيهم ضرباً، وراغ لها معان اخرى. باليمين: بقوة وشدة. يزفون: يسرعون.
وان من شيعة نوح الذي ساروا على نهجه ابراهيم عليه السلام، اذ أقبل على ربه بقلب طاهر خالٍ من كل سوء، وانكر على قومه وأبيه ما يعبدون من الاصنام، وقال لهم: اتعبدون آلهة غير الله كذباً وزوراً! .

{فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} حى تعبدوا غيره من هذه الاصنام.
{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} ليستدل بها على خالق الكون، فوجدها متغيرة متحولة.
{فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} من هذ الاحوال ومن عبادة غير الله.

فأعرض عنه قومه وتركوه. فذهب مستخفياً الى اصنامهم وسألهم مستهزئاً فقال لهم: {أَلَا تَأْكُلُونَ؟ مَا لَكُمْ لَا تَنْتَفِقُونَ؟} لماذا لا تتكلمون؟ . قال عليهم بضرب شديد فكسّرهم حتى حطمهم جميعاً. فأقبل قومه اليه مسرعين يعاتبونه على ما ارتكب في شأن آلهتهم. فقال لهم ابراهيم، موبخاً لهم: أتعبدون ما تختونه بأيديكم من حجارة، والله خلقكم وخلق ما تصنعون بأيديكم، أين عقولكم!!
فلما أعجزتهم الحيلة ولزمتهم الحجة قالوا: ابنوا له بنيانا، واملاؤوه ناراً وألقوه فيها. لقد أرادوا ان يحرقوه وينتقموا منه، فأنجاه الله من النار بعد أن ألقوه فيها، {فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ} . وقال ابراهيم لما يئس من ايمانهم: إني مهاجرٌ الى ربي، وهو سيهديني الى الخير والمقر الأمين.
قراءات:

قرأ حمزة: يزفون بضم الياء. والباقون: يزفون. وهما لغتان.

فلما بلغ معه السعي: فلما أدرك وكبر. أسلمها: استسلمها لأمر الله. تله: كبّه على وجهه. صدّقت الرؤيا: حققت ما طلب منك. البلاء المبين: الاختبار الواضح. بذبح: حيوان يُذبح. باركنا عليه: أفضنا عليه البركات.
لا يزال الكلام عن سيدنا ابراهيم بعد أن نجّاه الله وهاجر الى ربه، وكان وحيداً لم يرزق ذرية، فاتجه الى ربه يسأله الذرية الصالحة، فاستجاب الله دعاءه بقوله: {فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} هو اسماعيل. وكان كما قال تعالى: من الصالحين. وشبّ وكبر، ولما بلغ مبلغ الرجال قال له أبوه ابراهيم: يا بني، إني رأيت في المنام وحياً يطلب مني أن أذبحك تقرباً الى الله، فانظر ماذا ترى؟ . فقال اسماعيل: يا أبت، افعل ما تؤمر به، {ستجدني إن شاء الله من الصابرين} . فلما استسلمها وانقادا لأوامر الله وقضائه، ووضع ابراهيم ابنه على الأرض

ليذبحه (وبذلك نجح ابراهيم وابنه في الامتحان) ، ناداه الله تعالى {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} وحققتها فعلاً. وعلم الله بذلك صدق ابراهيم واطاعة ابنه له ولربه.

{كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}

نجزيمهم أحسن الجزاء لقاء إطاعة أوامرنا، ونجزيمهم بتوجيه قلوبهم ورفعها الى مستوى الوفاء.

ثم بين الله عظيم صبر إبراهيم على امثال امر ربه مع ما فيه من عظم المشقة فقال:

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَنْحٍ عَظِيمٍ}

ما دمت يا ابراهيم قد جدت بأعتر شيء عندك، وهو ابنك الوحيد، (وما أعظم هذا الابتلاء الذي ابتليناك به أنت وولدك) فقد امرنا

افتدائه بكبش عظيم. واصبحت تلك سنة له ولمن جاء بعده، وهي سنة النحر في عيد الأضحي، ذكرى لهذا الحادث العظيم.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ}

وابقيناه له الثناء والذكر الحسن على الألسنة الى يوم القيامة، فهو مذكور على توالي الاجيال والقرون. {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} .

سلام عليه من ربه يسجل في كتابه الباقي الى يوم الدين.

وكرر الله قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} على الوفاء والطاعة والاستقامة بالذكر الحسن والسلام والتكريم. فانه من عباد الله المؤمنين حقاً.

ثم يتجلى عيله ربه بفضله مرة أخرى فيهب له (إسحاق) في شيخوخته، ويباركه ويبارك ذريته: {وَبَارَكَّا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} .

وفي ذلك تنبيه الى ان النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وان الظلم في الأعقاب لا يعود الى الأصول بنقيصة، {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤] [الإسراء: ١٥] [وفاطر: ١٨] .

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: ماذا تُري بضم التاء وكسر الراء. والباقون: ماذا ترى: بفتح التاء والراء.

٣٧٠٩ 114

الكرب: الشدة. المستبين: الواضح. بعلاً: اسم الصنم الذي كانوا يعبدونه.

في هذه الآيات الكريمة يتحدث القرآن الكريم عن سيدنا موسى وهارون وإلياس. وقد تقدّم الكلام عن موسى أكثر من مرة، وهنا ذكر باختصار. اما الياس فقد ذكر مرة في سورة الانعام بقوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ} وهنا في عشر آيات.

والمعنى: ولقد تفضلنا على موسى وهارون، ونجيناها وقومهما من فرعون وقومه بعد ان كانوا في كرب عظيم من الظلم والاضطهاد، ثم نصرناهم على الكافرين. وآتيناهم موسى وهارون التوراة ذات البينات العظمى {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} وأيقنا لهما لا ذكر الحسن والثناء الجميل.

{سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}

اننا على هذا النحو نكافئ المحسنين، انهما من عبادنا المؤمنين.

قال ابن جرير: ان الياس من انبياء بني اسرائيل، ويقول بعضهم: إنه إدريس الذي جاء ذكره في سورة مريم والأنبياء، فنصح قومه ان يتركوا عبادة صنمهم بعل، ويعبدوا الله، فكذبوه، فجزأؤهم جهنم يوم القيامة الا قوما منهم أخلصوا العمل لله وأنابوا اليه.

إل ياسين: لغة في الياس.
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص: الله ربكم ورب بالنصب، والباقون بالرفع. وقرأ نافع ويعقوب وابن عامر: سلام على آل ياسين بمد همزة آل والاضافة. والباقون: إل ياسين. فمن قرأ آل ياسين: يكون معناه آل محمد، وقال بعضهم آل القرآن.

٣٧.١٠ 133

في الغابرين: الباقيين مع الكافرين. مصبحين: في وقت الصباح. إذ أبق: هرب من سيده. المشحون: المملوء. فساهم: ضرب اهل السفينة القرعة. المدحضين: المغلوبين. ملّم: فعل ما يستحق عليه اللوم. العراء: المكان الخالي. يقطين: اليقطين: كل ما لا ساق له من النبات، وغلب على القرع.

وقد نجينا لوطاً وأهله إلا امرأته العجوز التي بقيت مع الهالكين، ثم دمرنا قومهم. وإنكم يا مشركي قمرون على أطلال بيوتهم بسدوم في البحر الميت في طريقكم إلى الشام. وقد تقدم ذكر لوط في سور الاعراف وهود والعنكبوت.

{وَأَنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}

إذ يؤس من هداية قومهم فهرب منهم قبل ان يأذن له الله، وركب في سفينة مملوءة بالمسافرين والامتعة، فوقفت السفينة ولم تتحرك، فقال ركابها: ان هنا رجلاً هارباً من سيده. فعملوا قرعة بينهم، فخرجت القرعة على يونس، ورمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت.

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ}

لولا ذلك لبقى في بطن الحوت الى يوم القيامة. فَلَفَّظَهُ بِأَرْضٍ خَالِيَةٍ مِنَ النَّبَاتِ، وهو سقيم من شدة ما لقي في بطن الحوت.

{وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ}.

وبعد ان شفي أرسلناه الى اهل نينوى، وهم اكثر من مائة الف، فأمنوا به ففتعناهم الى وقت معلوم.

٣٧.١١ 149

إفكهم: كذبهم. اصطفى النبات: اختار لنفسه النبات. سلطان: حجة. لمحضرون: لمجلوبين للعذاب.

اسأل قومك ايها النبي، مؤنباً لهم، كيف جعلوا له النبات، ولهم البنين؟ ومن الذي قال ان البنين افضل من النبات؟ واذا كانت النبات اقل رتبة من البنين كما يزعمون فكيف جعلوا لله النبات واستأثروا لأنفسهم بالبنين؟ وكل هذا غير وارد، لأن الله تعالى لم يلد ولم يولد. . . ثم هناك اسطورة اخرى ينفيها الله تعالى وهي قولهم إن الملائكة إناث، فهل شهدوا ولادتهم؟ ان اكبر فرية لهم قولهم ان الله تعالى له ولد، وهذا من كذبهم الواضح وإفكهم. وكيف يختار النبات على البنين؟ ومثل هذا قوله تعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} [الاسراء: ٤٠].

{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}

ماذا أصابكم حين حكمتم بلا دليل، ومن اين تستمدون الدليل على الحكم المزعوم؟ {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟} افلا تتذكرون. .

ثم زاد في توبيخهم وطالبهم ببرهان يؤيد صحة ما يدعون بقوله:

{أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}

هل عندكم حجة واضحة تبرهن على أقوالكم؟ إذا كان عندكم حجة فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين فيما تقولون وتفترون.

واكنوا يزعمون ان الملائكة بنات الله، ولدتهم له الجن، ولذلك يرد الله عليهم كذبهم واقتراءهم وينزه نفسه عن هذا الافك بقوله: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}

ان الجانّ يعلمون أنهم محضرون يوم القيامة للحساب والجزاء.
{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} تنزه الله عما يذكره المفترون.

ثم يستثنى من الجن الذين يحضرون للعذاب أولئك المخلصين المؤمنين بقوله: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ} فانهم براء مما يصفه الكافرون، فهؤلاء المخلصون ناجون يوم القيامة، مكرمون عند الله، يثيبهم على إيمانهم واخلاصهم بأحسن ما كانوا يعملون.

٣٧.١٢ 161

بفاتنين: بمضللين، بفسدين. الفتنة: الضلال، والعذاب، والفساد. صالٍ الحميم: داخل في النار. وما منّا: من كلام الملائكة. الصافون: المصطفون للعبادة، وفي أداء الطاعة. ذكرا من الأولين: كتابا من كتب الاقدمين. المخلصين بفتح اللام: الذين اخلصهم الله لنفسه. فانكم ايها المشركون، وما تعبدون من الأصنام لا يمكنكم ان تضلوا أحداً بإغوائكم، الا الضالين مثلكم الذي يدخلون النار ويصلونها من أصحاب الحميم.

ثم حكى الله اعتراف الملائكة بالعبودية لربهم بقوله:
{وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ}

وقالت الملائكة: ما أحد منا الا له مقام يقف عنده، وإنا لنحن المصطفون في أداء طاعته وتنفيذ اوامره، وإنا لنحن المسيحون المنزهون لربنا عن النقائص.

وكان المشركون يقولون: لو أن عندنا كتاباً من كتب الأولين، لكنا من عباد الله المخلصين. ثم بين الله تعالى أنهم كانوا كاذبين في قولهم فقال:

{فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وجاءهم الكتاب، وهو القرآن الكريم، فكفروا به فسوف يعلمون عاقبة كفرهم، وعنادهم وما سيحل بهم من العذاب يوم القيامة.

٣٧.١٣ 171

سبقت كلمتنا: وعدنا بالنصر. وأبصرهم: انظرهم وارقب. بساحتهم: بفناء دارهم، بديارهم. تولّ عنهم: أعرض عنهم. يقسم الله تعالى ان وعده قد سبق ان العاقبة بالنصر لرسله وأتباعهم، فهم المنصورون، وان جنود الله المخلصين المؤمنين هم الغالبون، فأعرض عنهم ايها الرسول وانتظر الى وقت مؤجل، فاننا سنجعل لك النصر والظفر، وانتظر ماذا يحل بهم من العذاب {فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ} ذلك بأنفسهم ويندمون.

{أَفِعِدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ} فإذا نزل العذاب بديارهم فبئس صباحهم ذلك الصباح، إنه يوم دمارهم وهلاكهم. ثم أكد ما سبق من وقوع الميعاد فقال مكرراً وعيده لهم:

{وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصُرَ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ}

أعرض ايها الرسول عنهم، وانظر اليهم فسوف يرون ما يحل بهم من العذاب العظيم. ثم يأتي بحسن الختام بكلمات غاية في البلاغة والسهولة والروعة فيقول تعالى:

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} .

ما أجمل هذا الكلام، وما احلاه وما أبلغه، فانه تعليم لنا لنقوله دائماً ونتمثل به.

روي عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ غير مرة يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف هذه الآيات الكريمة»، والله نسأل حسن الختام.

الذكر: الشرف. في عزة وشقاق: في استكبار ومخالفة للرسول. فنادوا: فاستغاثوا: لات حين مناص: ليس الوقت وقت مفرو وهروب. عَجَاب: امر مفطر في العجب. الملة الآخرة: دين آبائنا الذين ادركناهم. الملاء: اشراف القوم. اختلاق: كذب. فيلتقوا: فليصعدوا. الأسباب: الطرق والوسائل التي يتوصل بها الى الغاية. جندٌ ما هنالك: جند كثير. مهزوم: مغلوب. الاحزاب: المجتمعين لا يذاء النبي عليه الصلاة والسلام.

ص: من الحروف التي بدئت بها بعض السور، وتقدم الكلام عليها اكثر من مرة، وهناك رواية عن ابن عباس انها قسم. اقسام الله تعالى بالقرآن الكريم ذي الشرف والشأن العظيم، إنه لحق لا ريب فيه، وإنك يا محمد لصادق فيما تقول، وإن الكافرين لم يعرضوا عن هذا القرآن لخلل وجدوه فيه، بل هم في استكبار عن اتباع الحق ومعاندة لأهله. وكما اهلكنا من قبلهم من جيل، فلما رأوا العذاب نادوا ربهم مستغيثين، ولكن الوقت ليس وقت خلاص من العذاب. وقد عجب الجاحدون أن جاءهم رسول بشر منهم، وقالوا: هذا ساحر كذاب، كيف جعل الآلهة كلها الهاً واحداً! ان هذا لأمر عجيب. وانطلق اشراف القوم منهم قائلين: سيروا على طريقكم واثبتوا على عبادة آلهتكم، ان هذا إلا أمرٌ عظيم يراد بكم، ما سمعنا بهذا التوحيد في دين آبائنا الذين أدركنا، وما هذا الا كذب لا حقيقة له. أنزل القرآن على محمد من بيننا، وفيما من هو أعظم منه في السيادة! بل هم في شك من القرآن لميلهم الى الشرك والتقليد الأعمى، كما انهم لم يذوقوا عذابي بعد، وسيدوقونه.

وهل عندهم خزائن رحمة الله يتصرفون فيها فيصيبوا بها من شاؤوا ويصرفوها عن أرادوا؟ ، {الله أعلم حيث يجعل رسالته} [الانعام: ١٢٤].

ام لهم ملك هذا الوجود؟ إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم الى مرتقى يشرفون منه على العالم ويدبرونه. . . . لا تكترث أيها الرسول بما يقولون، فهناك جند كثيرون من الاحزاب مهزومون ومغلوبون. وقد هزموا بإذن الله.

أصحاب الأيكة: قوم شعيب. الأيكة: الشجرة الملتف. الفواق: الوقت اليسير، الراحة والتمهل. قطننا: نصيبنا وحظنا. عجل لنا: عجل لنا نصيبنا من العذاب. ذا الأيد: ذا القوة. اواب: تواب. الاشراق: الصباح. محشورة: مجموعة ومحبوسة. شددنا ملكة: قويناه. الحكمة: اصابة الصواب في القول والعمل. فصل الخطاب: الكلام الفاصل بين الحق والباطل.

يبين الله تعالى في هذه الآيات أنباء أقوام الأنبياء الماضين كيف كذبوا رسلهم فحاق بهم ما كانوا به يكذبون. كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد، وقوم فرعون صاحب الملك الكبير والأبنية العظيمة الراسخة كالجبال. وقوم عاد وقوم لوط واصحاب الأيكة (وهم قوم شعيب) {أولئك الأحزاب} كلهم حق عليهم العذاب وأهلكهم الله بفجورهم.

ثم بين بعد ذلك عقاب قريش فقال:

{وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً}

ما ينتظر كفار مكة الا صيحة واحدة لا تحتاج الى تكرار في وقت قصير جدا.

وقالوا استهزاء وسخرية: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدتنا به، ولا تؤخره الى يوم القيامة.

اصبر يا محمد على ما يقولون: واذكر كيف صبر عبدنا داود ذو القوة، إنه تواب. لقد سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإصباح، وسخرنا الطير مجموعة له {كُلُّ لَهْ أَوَّابٌ} . وقويناه ملكة وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب بالفصل في الخصومات على اساس العدل.

بهذه الاوصاف الكاملة نعت القرآن الكريم داود، اما التوراة فقد وصفته بأقبح النعوت كالظلم والفسق والغدر واغتصاب النساء من أزواجهن!! وجاء في قاموس الكتاب المقدس صفحة ٣٦٥ طبعة ١٥ ما نصه: ارتكب داود في بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين نجلا. قراءات:
قرأ حمزة والكسائي: فُواق بضم الفاء، والباقون: فُواق بالفتح، وهما لغتان.

٣٨٠٣ 21

الخصم: المخاصم، يطلق على المفرد المثني والجمع، ويُجمع على خصوم. تسوروا: تسلقوا السور. المحراب: مكان العبادة، والغرفة، واكرم مكان في المنزل، ومقام الإمام في المسجد. ففزع: خاف. بغى بعضنا على بعض: جار ولطم. ولا تشطط: ولا تبعد عن الحق، ولا تتجبر في الحكم. سواء الصراط: طريق الحق. النعجة: انثى الضأن. اكفلنيها: أعطني إياها، واجعلن كافلها. وعزني في الخطاب: وغلبي في الكلام. الخلطاء: الشركاء: فتناء: ابتليناه. خر: سقط على وجهه. راکعاً: ساجداً لربه. وأتاب: رجع الى ربه. زلفى: قربى: مآب: مرجع.

لا يزال الحديث في قصة داود. هل أذاك يا محمد خبر الخصمين اللذين تسلقا السور ودخلا عليه في مكان عبادته، لا من الباب. وعندما دخلوا عليه بهذه الطريقة الغريبة خاف منهم واضطرب، قالوا: لا تخف، نحن خصمان ظلم بعضنا بعضاً، وجئناك لتحكم بيننا بالعدل، لا تجر في حكمك وأرشدنا الى الحق. ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أعطني إياها لتكون في كفالتني وغلبي بكلامه وحججه.

قال داود قبل ان يسمع كلام الخصم الآخر: لقد ظلمك يا هذا حين طلب ضمّ نعجتك إلى نعاجه، ان كثيراً من الشركاء والمتخالفين ليجوز بعضهم على بعض، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} ولكنهم قلة نادرة.
{وَوَظَنَ دَاوُودُ أَنَّهَا فَتْنَاهُ}

وعرف داود ان الأمر ما هو الا امتحان من الله، فطلب المغفرة، وخرّ ساجداً لله، وأنا اليه بالتوبة. فغفرنا له تعجلاً في الحكم، وان له عندن امكاناً عالية وحسن مآب. وهنا عند قوله نخرّ راکعاً وأتاب موضع سجدة.

نقل كثير من المفسرين ما جاء في التوراة، من ان داود كان يحب امرأة أوريا الحثّين وانه أرسله الى الحرب حتى قُتل ثم تزوجها، ولم يثبت عندنا في الأثر شيء من هذا، ولذلك يجب ان نكون على حذر من هذه الأمور، فان التوراة قد حرّفت من الدقة الى الدقة كما يقول «لوثر» وغيره، وكما نص القرآن الكريم.

٣٨٠٤ 26

باطلا: عبثاً. ويل: هلاك. مبارك: كثير الخيرات. ليدبروا: ليتفكروا. وليتذكر: وليتعض. اولو الالباب: أصحاب العقول المدركة. يا داود إنا استخلفناك في الأرض، فاحكم بين الناس بام شرعت لك، {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ} في الحكم وغيره من امور الدين والدنيا، فيحيد بك عن سبيل الله. ان الذين يضلّون ويحيدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} . أيليق بحكمتنا وعدلنا ان نسوي بين المؤمنين الصالحين، وبين المفسدين في الأرض؟ ام يليق ان نسوي بين المتقين وبين الفجار المتمردين على أحكامنا!!

ان هذا الذي أنزلناه اليك كتاب مبارك كثير الخيرات، ليتدبروا آياته ويفهموها، وليتعض به أصحاب العقول السليمة، والبصائر المدركة.

٣٨٠٥ 30

الصفافنات: جمع صافن من الخيل الأصائل، وغالباً ما يقف على ثلاث قوائم، ويرفع احدى يديه. الجياد: جمع جواد، وهو السريع العدو، كما ان الجواد من الناس هو السريع البذل والعطاء. حب الخير: حب الخيل. توارت: غابت عن الانظار. طفق: شرع. مسحاً

بالسوق والاعناق: جعل يمسح أعناقها وسوقها ترفقاً بها وحباً لها. فتناء: ابتليناه. لا ينبغي لأحد بعدى: لا يليق بأحد بعدى. رخاء: لينة. حيث اصاب: حيث قصد وأراد. مقرنين بالأصفاد: مربوطين بالسلاسل، والاغلال. فامن، أعط، وامسك: امنع. وورقنا داود ابنه سليمان، وكان عبداً مطيعاً لربه يستحق كل ثناء ومدح. ومن أخباره انه عرضت له الخيل الأصيلة بالعشي لينظر اليها، ويسر برؤيتها، فأطال الوقوف عندها حتى اضاع وقت الصلاة، فلام نفسه:

{فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي}

والخير هنا هو الخيل، وهي من اجود المال عند العرب، و {عَنْ ذِكْرِ رَبِّي} عن الصلاة، حتى توارت الشمس بالحجاب. ثم امر بردها اليه فأخذ يمسح أعناقها وسوقها ترفقاً بها وحباً لها.

وقال بعض المفسرين انه أخذ يضرب سوقها واعناقها بالسيف. ومن الصعب ترجيح رواية على الأخرى، ولكن ابن حزم لم يقبل رواية قتل الخيل. وكذلك الرازي والطبري، بل رأوا انه أخذ يمسح اعناقها وسوقها ترفقاً بها وحباً لها.

لقد امتحن سليمان فابتليناه بمرض شديد فألقيناه جسداً على كرسيه لا يستطيع تدبير الأمور، فتنبه الى هذا الامتحان، فرجع الى الله تعالى، وتاب ثم اناب، ودعا ربه بقوله {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} انك انت الكثير العطاء.

وهنا عند قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً} تكلم المفسرون كلاماً كثيراً وكله من الاسرائيليات لا صحة له، فأعرضنا عنه.

ثم اخبر الله بانه أجاب دعاءه ووفقه لما اراد وعدد نعمه عليه فقال:

{فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}

فذلنا له الريح تجري حسب مشيئته، رطبة هينة، الى اي جهة قصد. وتقدم في سورة سبأ: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوهاً شَهْرًا وَرَوَّاحهاً شَهْرًا} . وفي سورة الانبياء: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ} . . . { [الانبياء: ٨١] } .

وذلنا له كل بناء في الارض، وغواص في أعماق البحار من الشياطين الأقوياء، حتى انه قرنَ قسماً من الشياطين المتمردين في السلاسل والقيود، ليكف شرهم عن الناس. واوحى الله تعالى اليه بأن يتصرف في ملكه الواسع كما يشاء دون رقيب ولا حسيب فقال:

{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنِ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}

هذا عطاؤنا الخاص بك، فأعط من شئت وامنع من شئت، غير محاسب على شيء من ذلك.

ثم بين ان له في الآخرة عند ربه مقاماً كريماً في جنات النعيم بقوله:

{وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَظْفَى وَحُسْنَ مَّآبٍ} ومرجع الينا.

٣٨٠٦ 41

تقدم ذكر أيوب باختصار في سورة النساء والانعام، وفي سورة الانبياء بآيتين، وهنا في سورة ص في أربع آيات. وقد مر ذكره بالتفصيل في سورة الانبياء عند قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} ٨٣. وهنا جاءت آيتان زيادة على ما مر، وهما قوله تعالى:

{ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}

اضرب برجليك الارض، فثمت ماء بارد تغتسل منه وتشرب، فيزول ما بك من بلاء وعذاب. والآية الثانية:

{وَاخْذُ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}

كان أيوب قد حلف ان يضرب أحداً من اهله، يقال انها امرأته، عدداً من العصي، حلل الله يمينه بان يأخذ حزمة فيها العدد الذي

حلف ان يضرب به، فيضرب بالحزمة مَنْ حَلَفَ على ضربه، فيبر بيمينه بأقل ألم. وقد مَنْ الله عليه بذلك، لأنَّ الله وجده صابراً على بلائه، فاستحق بذلك الثناء، {نعم العبد إنه أواب} منيب الى الله.

وكذلك اذكر يا محمد عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب، اصحاب القوة في طاعة الله، والبصائر المنيرة، إنا خصصناهم فجعلناهم خالصين لطاعتنا، يعملون للآخرة ويؤثرونها على كل شيء، انهم عندنا لمن المختارين الاخيار. وكذلك اسماعيل واليسع وذو الكفل وكلهم من الاخيار. وقد ذكر اليسع في سورة الأنعام، ومر ذكر ذي الكفل في سورة الانبياء ايضا.

قراءات:
قرأ يعقوب: بَنَصَب بفتح النون والصاد. والباقون: بنصب بضم النون واسكان الصاد. وقرأ ابن كثير: واذكر عبادنا ابراهيم. . . .
بالافراد. والباقون: واذكر عبادنا بالجمع. وقرأ نافع: بخالصة ذكرى الدار بالاضافة. والباقون: بخالصة ذكرى الدار، بالتثنية. وقرأ حمزة والكسائي: واليسع بلامين. والباقون واليسع بلام واحدة.

٣٨٠٧ 49

مآب: مرجع. جنات عدن: جنات الاقامة والاستقرار. قاصرات الطرف: عفيفات. أتراب: متساويات في الأعمار. فبئس المهادر: فسأ الفراش. الحميم: شدة الحرارة، غساق: ما يسيل من صديد اهل النار. من شكله: من مثله. ازواج: الون. فوج: جمع كثير. لا مرحبا بهم: غير مرغوب فيهم، ولذلك لا يرحب بهم. زاغت عنهم: مالت عنهم.

هذا الذي قصصنا عليك أيها النبي، نبأ بعض المرسلين - تذكير لك ولقومك، وان الله اعطى المتقين حسن المرجع إليه، حيث أعد لهم جنات عدن أبوابها مفتحة اكراما لهم، يجلسون فيها متكئين على الأرائك مسرورين، يتمتعون فيها بأطيب انواع الفواكه، وخير الشراب، وعندهم ازواجهم من الحور العين القاصرات الطرف القيفات، متساويات في العمر، على خير ما يرام من الوفاق والسعادة والسرور. {هذا ما توعدون ليوم الحساب} أيها المؤمنون المخلصون، وهو بعض عطائنا الذي لا ينفد ولا ينتهي.

ثم بعد ان وصف ثواب المتقين وما أعد لهم، أردفه بوصف عقاب الطاغين، فقال: ان هذا النعم هو جزاء المتقين، وان للطاغين المتمردين لشر عاقبة، وسوء منقلب.

{هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج}

هذا حميم بالغ الحرارة وصديد من نار جهنم، فليذوقوه. ولهم عذاب آخر في أشكال متعددة وانواع متشابهة في شدتها وقسوتها. ويقال للطاغين وهم رؤساء المشركين: هذا جمع كثير داخلون النار معكم يقتحمونها فوجا اثر فوج، وهم اتباعكم، فيقول هؤلاء الرؤساء: {لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار} ودخلون فيها غير مرحب بهم.

ثم يرد عليهم الداخلون من الاتباع ويقولون لهم: {بل أنتم لا مرحبا بكم} لأنكم الذين قدّمتم لنا هذا العذاب بإغرائكم لنا ودعوتنا الى الكفر، {فبئس القرار} لكم في جهنم.

ثم يزيد الأتباع بدعائهم على رؤساء الضلال قائلين: يا ربنا، من تسبب لنا في هذا العذاب فزده عذابا مضاعفا في النار. وفي سورة الاعراف ٣٨ {ربنا هؤلاء أضلونا فآتيتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون} وكذلك قوله تعالى: {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتيتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً} [الاحزاب: ٦٧، ٦٨].

ثم يتساءل اهل الكفر في النار عن الذين آمنوا من الضعفاء وفقراء المسلمين فيقولون: ما لنا لا نرى رجلاً كنّ نعدّهم في الدنيا من الاشرار الذي لا خير فيهم، وقد كنّا نسخر منهم في الدنيا ونهزأ بهم فأين هم؟ ام ان اعيننا زاغت عنهم فلا نراهم! .

ثم يبين الله تعالى ان هذا التساؤل وهذا الكلام والتخاصم مع بعضهم البعض حق يوم القيامة لا مرية فيه فيقول: {إن ذلك لحق تخاصم

أهل النار} .

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابو عمرو: اتخذناهم على الاخبار، وقرأ الباقون: اتخذناهم بفتح الهمزة على الاستفهام. وقرأ نافع وحمزة والكسائي: سُخْرِيَا بضم السين، والباقون بكسرهما، وهما لغتان.

وقرأ ابن كثير وابو عمرو: هذا ما يوعدون بالياء. والباقون: بالتاء.

٣٨٠٨ 65

الملائكة الاعلى: الملائكة. فقعوا له: اسجدوا له. خلقت بيدي: بقدرتي من غير أب ولا أم. العالين: المتكبرين. فانخرج منها: من الجنة. فأنظرتني: فأملهني. الى يوم يبعثون: الى يوم القيامة. المخالصين: بفتح اللام: الذين استخلصتهم للعبادة. في ختام السورة تعود الى تقرير القضايا التي عرضت لها في اولها وهي قضية التوحيد، والوحي والجزاء في الآخرة، ثم تستعرض قصة آدم، دليلاً على الوحي بما دار في الملائكة الاعلى، وتتضمن حسد إبليس لأدم وطرده من رحمة الله، ثم دوام المعركة بين الشيطان وابناء آدم التي ستدوم ما دامت الأرض والسماء. ثم تختم السورة بتوكيد قصة الوحي، وان الرسول الكريم لا يسأل على أدائه الرسالة اجراً، وما هذا القرآن الا ذكر للعالمين.

قل يا محمد للمشركين: ما انا الا نذير مرسل من قبل رب الاله الواحد القهار، مالك هذا الكون بما فيه، وهو مع ذلك كله عزيز لا يغلب، غفار يتجاوز عن الذنوب، ويقبل التوبة. . إذا سبقت رحمته غضبه.

وقل لهم: إن ما أقوله لكم من الوحي امرٌ عظيم، اكبر مما تظنون وما تفكرون. أنتم تعلمون حالي، كنت لا أعلم شيئاً قبل ان يأتيني الوحي، وما كان لي اي علم باختلاف الملائكة الاعلى في قضية آدم، فأنا لم اجلس الى معلم، ولا دخلت مدرسة، وطريق علمي هو الوحي من عند رب العالمين. وما يوحى إلي إلا أن أنذركم وأبلغكم رسالة ربي بأوضح تعبير.

ثم تأتي قصة آدم وقد تقدمت في سورة البقرة والاعراف والحجر والإسراء والكهف، وفي كل مرة تأتي بأسلوب جديد. ومعنى {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي} جعلت في هذا الطين سر الحياة. وقد طلب الله من الملائكة ان يسجدوا لآدم سجود تعظيم فأطاعوا الا ابليس استكبر، وحسد آدم وقال إنه خير منه، فطرده الله من رحمته. وطلب ابليس ان يُنظره الله الى يوم القيامة. {قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} المُمهلين الى ذلك اليوم المعين.

خلف ابليس بعزة الله الخالق انه ليُغوين بني آدم الا الذين آمنوا باخلاص وصدق، فانه لا سلطان له عليهم، وهان يقول تعالى: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}

الحق يميني وقسمي، ولا اقول الا الحق، لملأ جهم من جنسك واتباعك من الشياطين، ومن تبعك من بني آدم. ثم تختم السورة بهذه الآيات الكريمة:

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}

قل يا محمد لأمتك: ما أسألكم على تبليغ ما يوحى إليّ اجراً، وما انا من الذين يتصنعون ويتكلفون حتى ادعي النبوة، وما هذا القرآن الا تذكير وعظة للعالمين جميعاً، ولتعلمن أيها المكذبون به صدق ما اشتمل عليه من الخير للبشرية جمعاء بعد حين. صدق الله العظيم.

الزمر ٣٩

٣٩٠١ 1

زلفى: قربى. اصطفى: اختار.

ان هذا الكتاب العظيم مُنزل من عند الله العزيز الحكيم، أنزلناه اليك ايها النبي أمراً بالحق لإظهاره وتفصيله للناس، فاعبد الله {مُخْلِصاً} له الدين { لا شِرْك فيه ولا باطل.

{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}

فالعبادة يجب ان تكون لله وحده، خالصة له، وكذلك جميع الأعمال.

في الحديث الصحيح: «جاء رجلٌ الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس، فقال الرسول الكريم: والذي نفسُ محمد بيده، لا يقبل الله شيئاً شُورَك فيه، ثم تلا قوله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}» وبعد ان بين تعالى ان رأس العبادة الاخلاص، أعقب ذلك بذكر طريق المشركين، الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، ويقولون: ما نعبدهم الا ليقربونا عند الله منزلةً ويشفعوا لنا.

{إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فيه من أمرِ الشِرْك والتوحيد، وهو لا يوفق للهداية من هو كثير الكذب والكفر. ولو اراد الله ان يتخذ ولداً، لا اختار من خلقه كما يشاء، ولكنه لم يلد ولم يولد، وهو منزّه عن هذا كله {هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} وكل ما سواه مفتقرٌ إليه.

٣٩٠٢ 5

يكوّر الليل على النهار: يلفّ الليل على النهار، والنهار على الليل، ويدخلهما في بعض وذلك بفعل دوران الأرض حول نفسها فيحدث الليل والنهار. لأجل مسمى: يوم القيامة. أنزل لكم من الأنعام: خلق لكم من الانعام. في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم داخله، وظلمة المشيمة. فأني تصرفون: فإلى أين يعدل بكم عن عبادة الله الى الشِرْك. الوزر: الذنب. ولا تزر وازرة وزر اخرى: لا تحمل نفس أئمة حمل أخرى. بذات الصدور: بما يدور في نفس الانسان. منيباً إليه: راجعاً اليه بالطاعة، تائباً. خوّه: ملكه. اندادا: جمع ند وهو المثل.

خلق الله هذا الكون بما فيه بأبداع نظام وأروع هيئة فهو:

{يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ}

وهذا تعبير عجيب ينطق بالحق والواقع، فإن تعاقب الليل والنهار لا يحصلان الا لكروية الأرض ودورانها حول نفسها، فالتكوير معناه لف الشيء على الشيء على سبيل التتابع، وهذا لم يُعلم الا منذ سنين معدودة. وهذا اكبر دليل على ان القرآن ليس من صنع البشر بل {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} .

{وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}

وجعل الشمس والقمر كل منهما يجري لوقت معلوم، وكذلك دوران الشمس وجريانها لم يكتشف الا بعد الرسول، وفي بدء دراستنا نحن وأبناء جيلنا مثلاً كان معلوم الجغرافيا يقولون لنا إن الشمس لا تجري، وكل هذه الكواكب تدور حولها. . . . ثم بعد أن بين تعالى أن هذا النظام من خلقه وإبداعه، وانه مسخر للإنسان - ذيل هذه الآية بقوله {أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} حتى يبين للناس بأنه غفور رحيم، فلا يقنطون من رحمته بل يسارعون الى طلب المغفرة والرجوع اليه.

لقد خلقكم الله ايها الناس من نفس واحدة، وخلق من هذه النفس زوجاً لها، وخلق لكم من الانعام ثمانية أزواج هي: الإبل والبقر والضأن والماعز، فهذه اربعة انواع ثمانية أزواج، يخلقكم في بطون أمهاتكم طورا بعد طور في ظلمات ثلاث، هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. ان خالق هذه الأمور العجيبة هو الله المنعم المتفضل، ربكم ومالك أمركم، له الملك على الاطلاق في الدنيا والآخرة، لا معبود بحقٍ سواه، فكيف تعدلون عن عبادته الى عبادة يفره؟ اين ذهبت عقولكم؟! .

وبعد ان اقام الدليل على وحدانيته، وبين أن المشركين ذهبت عقولهم حين عبدوا الأصنام - بين هنا ان الله هو الغني عما سواه من المخلوقات، فهو لا يريد بعبادته جرّ منفعة، ولا دفع مضرة، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر، {وَأَن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} فكل نفس مطالبة بما عملت، وبعدئذ تردّ الى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت.

وهذا مبدأ جاء به الاسلام، وأصله القرآن الكريم، ولم يستقرّ في فقه القانون الا في العصور الحديثة.

ثم بين تناقض المشركين فيما يفعلون، فاذا أصابهم الضرر رجعوا في طلب دفعه الى الله.

{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَبِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ} وعاد الى عبادة الأوثان.

ثم أمر الله رسوله ان يقول لهم متبهكاً بهم:

{قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} مغلّد فيها.

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو والكسائي: وان تشكروا يرضه لكم باشباع ضمة الهاء. وقرأ يعقوب يرضه باسكان الهاء. والباقون: يرضه بضم الهاء بدون مد ولا اشباع. وقرأ ابن كثير وابو عمرو ورويس: لِيُضِلَّ عن سبيله بفتح الياء من يضل. والباقون: لِيُضِلَّ بضم الياء.

٣٩٠.٩

قانت: قائم بما يجب عليه من الطاعة. آناء الليل: ساعاته، واحداً آن. يحذر الآخرة: يخشى عذابها. ظلل: جمع ظلة، ما يستظل به من حراو برد.

بعد ان ذكر الله من يؤمن عندما يمسه ضرر، ويكفر عند السراء - بين انه ليس سواء عند اله مع من هو قانت يعبد الله في جميع حالاته، ولا تزيده النعمة الا إيماناً وشكراً، رجاء رحمة ربه. قل لهم ايها الرسول: هل يستوي الذين يعلمون حقوق الله، والذين لا يعلمون! انما يعتبر ويتعظ اولو الألباب، اصحاب العقول الواعية المدركة.

وقدر كرر الله تعالى هذا التعبير {أُولُو الْأَلْبَابِ} ثلاث مرات في هذه السورة الكريمة دلالة على قيمة من يستعمل عقله ويفكر تفكيراً سليماً.

وبعد انفى المساواة بين من يعبد الله في جميع حالاته ومن يلجأ اليه عند الاضطرار وينساه عند النعمة، ثم من يعلم ومن لا يعلم - امر رسوله الكريم ﷺ ان ينصح المؤمنين بجملة نصائح.

١ - قل ايها النبي: يا عبادي الذين آمنوا بي، اتقوا ربكم بالأعمال الصالحة، فان الله قرر ان يُجْزِلَ الحسنات للذين آمنوا. واذا تعذرت طاعته في بلد فتحولوا عنه الى بلد غيره {وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ}. ثم بين فضيلة الصبر، وأن جزاءها للصابرين بغير حساب. وهل هناك وعد أعظم من هذا الجزاء!

٢ - وقل لهم: إني أمرت بعبادة الله مخلصاً له الدين، ولا تنظر لي ما يقوله كفار قريش بأن تعود الى ملة أبيك وجدك وتعبد الأصنام. فاعتبروا ايها المسلمون واتبعوا رسولكم الكريم وأخلصوا العبادة والطاعة لله.

٣ - وقل لهم: إني أخاف عذاب يوم القيامة ان عصيت ربي، ولذلك فإني أعبد الله مخلصاً له ديني، فأخلصوا بعبادتكم لله.

٤ - اما انتم ايها الجاحدون فاعبدوا ما شئتم من الأصنام والأرباب من دون الله. وذكّرهم ايها الرسول ان الخاسرين هم الذين أضاعوا أنفسهم بضلالهم، وخسروا أهلهم بإضلالهم، وان ذلك هو الخسران الكبير.

ثم فصل ذلك الخسران وبينه بقوله تعالى:

{لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ}

طقات متراكمة من النار حتى تحيط بهم النار من كل جانب. هذا ما خوّف الله به عباده وحذّرهم منه، فاتقون يا عبادي واحذروا ذلك الشر العظيم. وتلك منّة من الله تعالى تنطوي على غاية اللطف والرحمة منه وهو الغفور الرحيم دائماً. قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وحزمة: أمّن هو قانت: بفتح الميم بدون تشديد. والباقون: أمّن بفتح الميم المشددة.

٣٩٠٤ 17

الطاغوت: الطاغى المعتدي وكل رأس في الضلال، وكل ما عبد من دون الله. فسلكه: فأدخله. مختلفاً ألوانه: مختلفاً أنواعه. يهيج: يجفّ ويبلغ نهايته. حطاماً: فتاتاً مثل التبن.

بعد ان ذكر وعيده لعبدة الأصنام، بين هنا ما أعدّه للذين آمنوا واجتنبوا ذلك وأنابوا الى الله ورجعوا اليه. هؤلاء لهم البشارة العظيمة من الله، فبشّر أيها الرسول عبادي الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه وأهداه - بأنهم هم الذين وفقهم الله للرشاد، وهم أحاب العقول المدركة النيرة.

ثم بيّ الذين انحرفوا فحقت عليهم كلمة العذاب. ويخاطب بذلك رسوله الكريم فيقول: {أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ؟} ليس يمكنك ان تنقذ هؤلاء الذين كفروا ووجبت عليهم النار.

ثم كرر القول في الذين آمنوا واتقوا، عنايةً بأمرهم، فقال:

{لكن الذين اتقوا ربهم...}

سيكون لهم في أعالي الجنان غرف مبنية بأحسن طراز، بعضها فوق بعض، تجري من تحتها الأنهار. هذا وعد من الله، والله لا يخلف وعده.

وبعد ذلك اعقب بذكر صفات الدنيا وأنهار زائلة مهما طال عمر الانسان فيها، تحذيراً من الاغترار بما فيها من متعة، فثّل حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والانواع والالوان. بعد ذلك يجفّ الزرع ويصير حطاماً يابساً، فما اسرع زواله!

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ}

ان في هذا الذي بيناه لذكرى لأصحاب العقول المدركة فلا تغتروا بها وبهجتها.

٣٩٠٥ 22

شرح الله صدره: اناره بالاسلام وجعله مطمئناً. فهو على نور: على هدى وبصيرة. للقاسية قلوبهم: الجامدة المظلمة التي لا تلين. احسن الحديث: القرآن. متشابهاً: متناسقاً، يشبه بعضه بعضاً في نسقه واسلوبه. مثاني: جمع مثني: يتكرر المعنى بعدة اساليب تقشعراً: تخشع وترتعد من الرهبة. تلين جلودهم: تطمئن.

هل كان الناس سواه؟ أفن دخل نور الاسلام قلبه وهداه الله فهو على بصيرة من ربه كمن أعرض عن ذكر الله، وطُبع على قلبه! ويل لمن قست قلوبهم عن ذكر الله، {أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} وشتان بين الفتتين.

الله نزل احسن الحديث كتاباً متناسقاً لا اختلاف في معانيه والفاظه، وهو في الذروة في الإعجاز والمواعظ والأحكام، تكرر مقاطعه وققصه وتوجيهاته ومشاهدته، ولكنها لا تختلف ولا تتعارض، بل تُعاد في تناسق على أصول ثابتة متشابهة لا ولا تصادم فيها. فاذا تليت آياته اقشعرت جلود الذين يخشون ربهم، ووجلّت قلوبهم، ثم تلين جلودهم، وتطمئن قلوبهم الى ذكر الله، ذلك الكتاب هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلله الله فليس له من يهديه.

{أَفَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سِوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...} لأن يده مغلولاً الى عنقه، كمن هو آمن لا يعتريه سوء، ويأتي آمناً يوم القيامة!

{وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} القوا جزاء أعمالكم الشريفة من الكفر والعصيان والجحود.

٣٩٠٦ 25

غير ذي عوج: مستقيم على الحق، لا اختلاف فيه. متشاكسون: مختلفون يتنازعون. سلما: خالصا لسيد واحد لا ينازعه فيه احد. ميت: سقوت. وميت باسكان الياء: الذي مات. تختصمون: تتجادلون. ثم يعرض الكتاب حال المكذبين لرسول الله ويذكر ما جرى للمكذبين من الأمم الماضية قبلهم لعلمهم يتعظون ويرجعون عن كفرهم وجحودهم. ان بعض الأمم الماضية كذبت رسلها في الدنيا فأتاها العذاب ثم حيث لا تحتسب ولا يخطر لها على بال. فأذاقهم الله الذل والصغار في الدنيا، وفي الآخرة ينتظرهم العذاب الاكبر {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} ولكنهم عن ذلك كله غافلون. ولقد بينا للناس في هذا القرآن من كل مثل يذكرهم بالحق {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ، وأنزلناه قرآنا عربيا بلسانه ليفهموه، ولكنه إنساني للناس كافة لا يحده ومان ولا مكان. وهو {عِوَجٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} بل مستقيم في مبناه ومحتواه.

وبعد ان ذكر الحكمة في ضرب الامثال للناس، جاء بمثل هنا فيه عبرة فقال:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} .

ان المشرك الذي يعبد اكثر من إله هو أشبه بعبد مملوك لجماعة مختلفين متشاكسين فيه فلا يتفوقون على شيء، ولا يستطيع هو تلبية طلبات الجميع.

اما المؤمن الموحد الذي يعبد إلهاً واحداً فهو أشبه ما يكون بعبد يمتلكه رجل واحد، فالاثان لا يستويان ابدا. الحمد لله على إقامة الحجة على الناس، ولكن أكثرهم لا يعلمون الحق.

ثم بين الله تعالى ان مصير الجميع اليه، وان النبي الكريم ميت وهم ميتون، وانهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل، يجازي كل على ما قدم.

قراءات:

قرا ابن كثير وابو عمر: ورجلا سالما: بمعنى خالصا. والباقون: سلما.

٣٩٠٧ 32

مئوى: مقاما والفعل ثوى بالمكان أقام. والذي جاء بالصدق: محمد رسول الله ﷺ. وصدق به: أصحابه الكرام واتباعه.

ليس هناك اظلم ممن كذب على الله فنسب اليه ما ليس فيه، وأنكر الحق حين جاءه على لسان الرسل، فمثل هؤلاء الناس ستكون إقامتهم في جهنم كما قال تعالى: {فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} .

ثم بين حال الصادقين المصدقين، وما ينتظرهم من حسن جزاء وكرم ضيافة، هم ومن جاءهم بالصدق، وهو الرسول الكريم، والذين ساروا على نهجه، {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} لهم من الكرامة عند ربهم ما يشاؤون ويحبون. وذلك جزاء كل من احسن عملا، وأخلص في دينه.

والله سبحانه وتعالى سيكفر عنهم أسوأ ما عملوا من السيئات في الدنيا ويغفر لهم كل ذنوبهم {وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} وهذا يدل على سعة رحمة الله، وعظيمة غفرانه والحمد لله.

ثم بين الله تعالى انه مع رسوله الكريم، فلا يستطيع احد ان يؤذي ذلك الرسول والله وحده يكفيه كل ما يهمله. انهم يخوفونك يا محمد بالهتيم واصنامهم، وذلك من ضلالهم وتعاستهم. يقولون لك: أنسب آلهتنا؟ لأن لم تكف عنها لنصيبك بسوء. لا تحف منهم فانهم لن يضرّوك أبدا، {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} والله هو العزيز الذي بيده كل شيء، لا يغالب، وهو ذو انتقام من أعدائه لأوليائه، يحفظهم ويمنعهم من كل شيء.

قراءت:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: اليس الله بكافٍ عباده بالجمع. والباقون: عبده بالافراد.

٣٩٠٨ 38

حسبي: كافيي. من دونه: الاصنام. مكاتكم: الحال التي انتم عليها. اشمأزت: ضاقت ونفرت، انقبضت. بعد ان بين الله تعالى حال المؤمنين في الجنة، حيث يتمتعون بنعيمها ويؤتيهم الله ما يشاؤون - يؤكد هنا انه يكفيهم في الدنيا ما أهمهم، ولا يضيرهم ما يخوفهم به المشركون من غضب الأوثان وما يعبدون من آلهة مزيفة. فالأمور كلها بيد الله. كذلك بين ان قول المشركين يخالف فعلهم، فحين تسألهم: من خلق السموات والارض؟ يقولون: الله. وهم مع ذلك يعبدون غيره. ثم يسألهم سؤال تعجيز:

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ؟} كلا، طبعاً. وما دامت هذه الاصنام لا تنفع ولا تضر، فقل يا محمد {قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}.

ثم أمر رسوله الكريم ان يقول لهم:

{قُلْ يَأْقُومِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ. . .}

اعملوا ما تشاؤون وعلى الحال التي تحبوا، اني عاملٌ حسب ما أمرني الله، ويوم الحساب ترون الحق من المبطل، ومن سيحل عليه عذاب مقيم يخزيه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وبعد ان حاجهم الرسول الكريم ﷺ بالأدلة القاطعة على وحدانية الله تعالى - بين الله تعالى أنه انما انزل عليه القرآن بالحق وليس عليه الا إبلاغه للناس، فن اهدى فقد فاز، ومن ضل فعليه وزره يتحملة، {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} لتجبرهم على الإيمان والهدى.

ثم بين الله تعالى انه يأمر بقبض الأرواح حين موتها بانتهاء أجلها، ويقبض الأرواح التي لم يحن أجلها حين نومها، فيمسك التي قضى عليها الموت لا يردّها الى بدنّها، ويرسل الاخرى التي لم يحن أجلها عند اليقظة الى أجل محدد عنده. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} من اهل العقول المفكرة المدبرة.

ثم بين ان الاصنام التي اتخذت شفعاء لا تملك لنفسها شيئاً ولا تعقل شيئاً، فكيف تشفع لهم؟

قل لهم يا محمد: الشفاعة لله وحده، وله وحده ملك السموات والارض. {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

ثم بين الله معائب المشركين وسخفهم بانه اذا قيل لا اله الا الله وحده نفرت قلوبهم وانقبضت وظهر الاشتمزاز على وجوههم، واذا ذكرت آلهتهم التي يعبدونها من دون الله {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} ويفرحون.

قراءات: قرأ ابو عمرو والكسائي عن ابي بكر: كاشفاتٍ ضره. . . . ممسكاتٍ رحمته. بتنوين كاشفات وممسكات، ونصب ضره ورحمته، والباقون بالاضافة كاشفات ضره. . . . وقرأ حمزة والكسائي: فيمسك التي قضى عليها. . . . بالبناء للمفعول. والباقون: قضى بفتح القاف والضاد.

٣٩٠٩ 46

اللهم: كلمة تستعمل للدعاء، يا الله. حاق بهم: أصابهم، وأحاط بهم. خولناه: أعطيناه. فتنه: بليّة، مصيبة، لأن النعمة قد تكون فتنه احياناً.

قل يا محمد متوجهاً الى مولاك: يا الله، أنت خالق السموات والأرض، وعالم السر والعلن، انت تحكم بين عبادك وتفصل بينهم فيما كانوا يختلفون بشأنه في الدنيا.

وبعد ان علم الله تعالى رسوله الكريم هذا الدعاء يعرض حال الظالمين المخيفة يوم القيامة، يوم يرجعون للحكم والفصل. ولو ان للذين ظلموا أنفسهم بالشرك جميع ما في الارض وضعفه معه لدموه فداء لأنفسهم من سوء العذاب يوم القيامة، يوم يرون بأعينهم ما لم يخطر لهم على بال من العذاب الأليم، وتظهر لهم سيئاتهم التي عملوها في الدنيا، ويحيط بهم ما كانوا به يستهزئون. ثم بين الله تعالى أن الانسان إذا اصابه ضر نادى الله متضرعاً، لكنه اذا اعطاه نعمة قال: ما أوتيت هذه النعم الا لعلمي عندي، وجميل تديري، وقد غاب عنه ان الأمر ليس كما قال، بل ان هذه النعمة التي تفضل الله بها عليه هي اختبار له وفتنة ليظهر الطائع من العاصي، {ولكن أكثرهم لا يعلمون} .

ثم بين الله ان هذه مقالة قديمة قد سبقهم بها كثير من الأمم قبلهم فقال: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} فما دفع عنهم العذاب كل ما اكتسبوه من مال ومتاع، فحل بالكفار السابقين جزاء سيئات أعمالهم، والذين كفروا من قومك وظلموا أنفسهم ايها النبي، سيصيبهم ايضاً وبال السيئات التي اكتسبوها. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} .

انما خص المؤمنين بذلك، لأنهم هم الذين يفكرون وينتفعون بإيمانهم. وقد تقدم مثل هذا المعنى في سورة الرعد ٢٦، والاسراء ٣٠، وغيرها من السور.

٣٩.١٠ 53

اسرفوا على انفسهم: تجاوزوا الحد فيما فعلوه من المعاصي. لا تقنطوا: لا تيأسوا. أنيبوا: ارجعوا إلى ربكم. وأسلموا: أخلصوا له. احسن ما انزل اليكم: القرآن. قرطت: اهملت وقصرت. في جنب الله: في حقه وطاعته. لو ان لي كربة: لو ان لي رجعة. {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. . .}

ان هذه الآية الكريمة اعظم بشرى لنا نحن المؤمنين، فهي دعوة صريحة من الله لنا الى التوبة، ووعد باعفو ولاصفح عن كل ذنب مهما كبر وعظم. وقد ترك الله تعالى بابه مفتوحاً للرجوع اليه امام من يريد ان يكفر عن سيئاته، ويصلح ما أفسد من نفسه. روى الامام احمد عن ثوبان مولى رسول الله قال قال رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. . .} فقال رجل: يا رسول الله فن أشرك؟ فسكت الرسول الكريم، ثم قال: ألا ومن الشرك - ثلاث مرات - الى احاديث كثيرة كلها تبشر بسعة رحمة الله، والبشرى بالمغفرة مهما جل الذنب وكبر، ويا لها من بشرى. {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً} صدق الله العظيم. {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} فن أبى هذا التفضل العظيم، والعطاء الجسين، وجعل يقنط الناس، وتزمت مثل كثير من وعاظ زماننا، وبعض فئات المتدينين على جهل - فقد ركب أعظم الشطط، فبشروا ايها الناس ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا، يرحمكم الله.

ثم امر سبحانه بشيئين: فقال:

١ - {وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ. . .} اغتنموا هذه الفرصة ولا تضيعوها ايها الناس، وتبوا الى بارئكم.

٢ - {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ. . .} .

ثم بين بعد ذلك ان عاقبة من أهل التوبة هو ما يحل به من الندامة يوم القيامة فقال:

{أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} .

بادروا الى العمل الصالح والتوبة واحذروا ان تفوتكم الفصرة، فتوقل بعض الانفس يوم القيامة: يا حسرتا على تقصيري وتفريطي في

طاعة الله، وكثرة سخريتي واستهزائي بدين الله وكتابه ورسوله. او تقول: لو ان الله هداني الى دينه وطاعته لكنت من الفائزين. او تقول حين ترى العذاب: ليس لي رجعة الى الدنيا فأكون من المهتدين. فيقال له: {بلى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا} ليس الأمر كما زعمت، ولا فائدة من ذلك، فقد جاءتك آياتي في الدنيا على لسان رسولي فكذبت به وكذبت بآتي، واستكبرت عن قبولها {وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} .

٣٩٠١١ 60

وجوههم مسودة: كناية عن الذل والحسرة. مثوى: مقام. بمفازتهم: بفوزهم ونجاتهم. وكيل: قيم بالحفظ ولا حراسة. مقاليد السموات والارض: مفردة مقلاد ومقلد: وتطلق على الخزانة والمفتاح. ليحبطن عملك: ليذهب هباء. ما قدروا الله حق قدره: ما عظموه كما يليق به. والارض جميعا قبضته: في ملكه وتحت امره. يمينه: بقدرته. ويوم القيامة أيها الرسول يدل على الذين كذبوا على الله ذل وحسرة ظاهرة على وجوههم. ان في جمعهم مقاما كبيرا للمتكبرين. وينجي الله من عذابه الذين اتقوا ربهم فلا يصيبهم سوء ولا هم يحزنون. . لقد آمنوا من كل خوف وشر، والله وحده خالق هذا الكون {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} قائم بالحفظ، يتولى التصرف بحسب حكمته. {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} لأنهم حرّموا من الرحمة يوم القيامة بخلودهم في النار.

قل لهم يا محمد: أبعد وضوح الآيات على وحدانية الله تأمروني ان أعبد غيره أيها الجاهلون!! ثم بين الله تعالى أنه قد أوحى الى الرسول الكريم والأنبياء من قبله ان يكونوا موحدين ولا يشركون بالله شيئا، ومن يشرك يذهب عمله هباءً ويكون من الخاسرين. ثم بين لرسوله الكريم أن لا يجب المشركين الى ما طلبوه من عبادة الأوثان، وان يعبد هو ومن اتبعه من المؤمنين الله وحده، وان يكون من الشاكرين لنعم الله التي لا تحصى. ثم بين الله تعالى جهل اولئك الجاحدين بقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} اذ أشركوا معه غيره ودعوا الرسول الى الشرك به، والله سبحانه هو مالك هذا الكون، وتكون السموات مطوية بيمينه يوم القيامة {سُبْحَانَهُ} وتعالى عما يشركون} .

والغرض من هذا الكلام تصوير عظمة الله وجلاله، وكل ما يرد في القرآن الكريم من هذه الصورة والمشاهد انما هو من باب تقريب الحقائق الى أفهام الناس الذين لا يدركونها بغير ان توضع لهم في تعبير يدركونه. قراءات: قرأ الكوفيون غير حفص: بمفازاتهم بالجمع، والباقون: بمفازتهم. وقرأ ابن عامر: تأمروني وقرأ ابن كثير: تأمروني بتشديد النون وفتح الياء. وقرأ ناف: تأمرني بتخفيف النون وفتح الياء.

٣٩٠١٢ 68

الصور: بوق ينفخ فيه. صُعق: غشي عليه. ينظرون: ينتظرون ماذا يفعل بهم. واشرقت الارض: اضاءت بنور الله وعدله. ووضع الكتاب: وهو صحائف الأعمال. بالحق: بالعدل. وسيق الذين كفروا: حثوهم على السير. زُمرًا: افواجا. حقت: وجبت.

في هذه الآيات والتي بعدها تصوير حيّ لمشهد يوم القيامة وما فيه من حساب جزاءه، وهو يبدأ بالنفخ في الصور (وهو بوق لا ندري كيف شكله) فيصعق جميع من في السموات والارض إلا من اراد الله ان يؤخرهم الى وقت آخر، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فاذا الجميع قائمون من قبورهم ينتظرون ما يفعل بهم.

واشرقت ارض المحشر بنور الله، ووضع الكتاب الذي سُجِّلَتْ فيه أعمالهم، وجيء بالانبياء والعدول ليشهدوا على الخلق.

{وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ}

وفصل الله بين الخلق بالعدل، فهم لا يظلمون بنقص ثواب او زيادة عقاب. وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت جزاء كاملاً {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} دون حاجة الى كتاب او حاسب. اما حشر الناس ومحاسبتهم ووضع الكتاب فهو لتكميل الحجة عليهم وقطع المذرة.

ثم بعد ان يحاسب كل انسان يأخذ كتابه بيمينه او شماله ينقسم الناس فريقين: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} فيساق الذين كفروا الى جهنم جماعات جماعات، حتى اذا وصلوا الى جهنم تفتح لهم ابوابها، ويدخلونها مهانين، ويوبخهم خزنة جهنم بقولهم: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا} فيجيبونهم معترفين ولا يقدرُوا على الجدل بقولهم: {بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} . ثم يقال لهم ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها أبداً {فَإِنَّ سَاءَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} على الحق، والخارجين على العدل.

قراءات:

قرأ الكوفيون: فتحت بتخفيف التاء. والباقون: فتحت بالتشديد.

٣٩.١٣ 73

حافين من حول العرش: محيطين به.

بعد ان بين الله تعالى حال أهل النار وكيف يساقون الى جهنم جماعات باذلالاً وتوبيخ، وان ابواب جهنم لا تفتح لهم الا عند وصولهم اليها لتبقى امية تنتظرهم - يذكر هنا حال أهل الجنة وما ينتظرهم من استقبال طيب، وثناء ومدح وترحيب. فهم يساقون الى الجنة جماعات، واذا وصلوها وجدوا ابوابها مفتوحة ليستنشقوا روائحها عن بعد. وهناك يرحب بهم الملائكة بقولهم {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} فيها ابدًا في ضيافة رب العالمين، ونعم الضيافة في ذلك النعيم الخاليد.

وعندما يستقرون فيه مكرمين معززين يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} وحقق لنا ما وعدنا به على لسان رسله، وملأ الجنة نزل منها حيث ما نشاء {فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} .

ويومها يكون الملائكة محيطين بالعرش، ينزهون الله عن كل نقص، ويكون قد قضى بين العباد، وذهب كلُّ الى مأواه، ونطق الكون كله بمجد ربه. {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} .

قراءات:

قرأ أهل الكوفة: وَفُتِحَتْ بتخفيف التاء. والباقون: وَفُتِّحَتْ بتشديد التاء.

وهكذا تختم هذه السورة الجليلة بهذا المشهد الذي يغمر النفس بالروعة والرهبنة والجلال، وقد بدأ الله سبحانه هذه الآية الأخيرة بالحمد وختمها بالحمد، وبهذا يختم المجلد الثالث ونسأ الله حسن الختام.

التوب والتوبة: معناهما واحد. ذي الطول: ذي الفضل. يجادل: يخاصم. تَقْلِبُهُمْ في البلاد: تصرفهم فيها للتجارة ونحوها. الأحزاب: جميع الذين تحزبوا ضد رسلكم. هَمَّتْ: عزمت على قتلهم. لِيَأْخُذُوهُ: ليقتلوه أو يعذبوه. لِيَبْطَلُوا: ليحبطوا. حَقَّتْ: وجبت. كلمة ربك: حكمه بالهلاك.

حاميم هكذا تقرأ. حرفان من حروف الهجاء، بدئت بهما السورة للإشارة إلى أن القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف، ومع ذلك عجز المشركون عن الإتيان بأصغر سورة من مثله.

إن هذا القرآن منزل من عند الله الغالب القاهر، وهو الذي يغفر الذنبَ مهما جَلَّ، ويقبل التوبة من عباده في كل آن، فبابه مفتوح دائماً وابدأ، فلا يقنط أحدٌ من ذلك. وهو شديد العقاب، ومع هذا فهو صاحبُ الإنعام والفضل، لا معبودَ بحقٍ إلا هو، إليه وحده المرجع والمآل.

وقد كثر في القرآن الكريم الجمع بين الوصفين كقوله تعالى: {نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩-٥٠] ليبقى الناس بين الرجاء والخوف، ولكن الرحمة دائماً مقدّمة على العذاب.

وبعد أن بين الله أن القرآن كتاب أنزل لهداية الناس وسعادتهم في الدارين، بين هنا أنه لا يخاصم في هذا القرآن - بالطعن فيه وتكذيبه - إلا الذين كفروا، فلا يخذلك أيها الرسول تقلبهم في البلاد وما يفعلونه من تجارة وكسب، ولا تغترّ بسلامتهم، فإن عاقبتهم الهلاك. ثم قال مسلياً رسوله عن تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة في الأنبياء مع اقوامهم من قبله بقوله:

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ}

الأحزاب كل من تحزّب ضد الحق واهله في كل زمان ومكان، وقصة الرسالة والتكذيب والطغيان طويلة طويلة على مدى القرون. {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ}

ليقتلوه أو يعذبوه، وخصموا رسولهم بالباطل ليطلوا به الحق الذي جاء به من عند الله.

{وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ}

ليقتلوه أو يعذبوه، وخصموا رسولهم بالباطل ليطلوا به الحق الذي جاء به من عند الله.

{فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}

فاستأصلتهم فلم أبق منهم احداً وكان عقابي لهم شديداً مدمراً.

وكما حقت كلمة العذاب على الأمم التي كذّبت أنبياءها - حقت كلمة ربك على الكافرين، لأنهم أصحاب النار. وهذا تحذير شديد لجميع المنحرفين من أهل الضلال.

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر: حقت كلمات بالجمع، والباقون: كلمة بالافراد.

العرش: الملك، وسرير الملك. وهنا معناه مركز تدبير العالم، ولا نعرف صفاته وكيف هو. قِهِم: احفظهم، من الفعل: وقى يقي. مَقْتُ الله: شد غضبه.

ثم بين الله تعالى ان حملة العرش من الملائكة، ومن حول العرش منهم {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} وهم من بين القوى المؤمنة في هذا الوجود، يذكرون المؤمنين عند ربهم ويستغفرون لهم ضارعين الى الله تعالى بقولهم: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا} اغفر لهم ذنوبهم بعد ان تابوا واستقاموا على هداك، وجنبهم عذاب النار. ويقول الملائكة: ربنا ادخل المؤمنين جنات الاقامة التي وعدتهم بها على لسان رسلك، وادخل معهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} . ويقولون في دعائهم ايضاً: واحفظهم يا رب من سوء عاقبة سيئاتهم التي وقعوا فيها، ومن جنبتة سيئاته يوم القيامة فقد رحمتك بفضلك، {وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} بل هو أكبر فوز يحصل عليه المؤمن مكافأة له على ما قدم من صالحات الأعمال. وتنادي الملائكة الكافرين يوم القيامة وهم في أشد العذاب فيقولون لهم: إن مقت الله لكم وغضبه عليكم في الدنيا على كفركم أشد من مقتكم الآن لأنفسكم، فقد دعاكم سبحانه بواسطة رسله الى الإيمان فأبىتم إلا الكفر. وما أوجع هذا التأنيب في هذا الموقف العصيب!!

٤٠٣ 11

أمتنا اثنتين، وأوحيتنا اثنتين: خلقتنا من العدم، ثم أمتنا بعد انقضاء آجالنا. وأحييتنا اثنتين: عند ميلادنا، ويوم البعث يوم القيامة. يوم التلاق: يوم القيامة؟ بارزون: ظاهرون. ويقول الكافرون يوم القيامة: يا ربنا أمتنا موتين: الأولى حين خلقتنا من العدم، والثانية يوم توفيتنا عند انقضاء أجلنا. وأحييتنا مرتين: مرة هي حياتنا الدنيا، والثانية يوم بعثنا هذا فاعترفنا أننا أنكرنا البعث وكفرنا وأذنبنا. ونحن الآن قادمون، فهل من سبيل الى الخروج من النار، ولك منا عهد الطاعة والامثال؟ فيجيبهم الله: لا. {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا} إنكم ان عدتم الى الدنيا فلن تؤمنوا، فقد كفرتم بالله، وآمنتم بالشركاء، وهذا العذاب الذي انتم فيه من حكم الله عليكم نتيجة لأعمالكم {فالحكم لله العلي الكبير} .

هو الذي يريكم دلائل قدرته، وينزل لكم من السماء ماءً يكون سبب رزقكم، لكنه لا يعتبر بتلك الآيات ويستدل بها على عظمة الخالق الأوحد الا من يُنِيب إلى الله ويرجع اليه.

ثم لما ذكر ما وجههم اليه من الأدلة على وحدانيته - أمر عباده بالدعاء والتوجه اليه:

{فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}

فادعوا الله مخلصين له العبادة ولو كره الكافرون عبادتكم. • ولن يرضوا عنكم ابداً. والدعاء عبادة، وفي الحديث الصحيح: «ادعوا الله تبارك وتعالى وانتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء قلب غافل لاه» .

ثم ذكر الله تعالى بعض صفاته بقوله:

{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} .

فهو وحده صاحب المقام العالي، وصاحب الملك والسلطة المطلقة، وهو الذي يلقي الوحي على من يشاء من رسله. وسمى الوحي روحاً لأنه روحٌ وحياة للبشر. وذلك لينذر هؤلاء الرسل الناس أنهم سيبعثون يوم التلاقي (وهو يوم القيامة) حيث يتلاقون - في ذلك اليوم يبرزون مكشوفين ظاهرين لا يخفى على الله من أمرهم شيء، ويسمعون نداءً رهيباً: {لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟} ويأتي الجواب الحاسم {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} . وفي ذلك اليوم يتضاءل المتكبرون، ويقف الوجود كله خاشعاً، والعباد كلهم خاضعين.

في ذلك اليوم الرهيب يُثاب كلُّ عامل بعمله، ويقال بوضوح: {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} فإنه يوم الجزاء الحق، ويوم العدل، والقضاء الفصل، هذا كله يسير بسرعة {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} .

٤٠٠٤ 18

يوم الآزفة: يوم القيامة، ومعنى الآزفة: القرية. الحناجر: جمع حنجرة، الخلقوم. كاظمين: ممسكين، محزونين. حميم: صديق. خائنة الأعين: الأعين التي تزوغ وتنظر بحبث. وما تخفي الصدور: ما تكتمه الضمائر. من واق: من حافظ. أنذر أيها الرسول مشركي قومك عذاب يوم القيامة وهوله، حين تصير القلوب عند الحناجر من شدة الخوف. يومئذ ليس لهم صديق ينفعهم، ولا شفيع تُقبل شفاعته لهم، والله تعالى لا يخفى عليه شيء، يعلم النظرة الخائنة، والسر المستور الذي تخفيه الصدور. وهو تعالى يقضي بالعدل والحق، فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً، والآلهة المزعومة لا يستطيعون عمل شيء، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} . ألم يسافر المشركون في الأرض، فيروا كيف كان مآل الأمم الماضية!! كانوا أشد منهم قوة وتركوا أثراً عظيمة في الأرض، فاستأصلهم الله بذنوبهم.

{وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ}

لم يكن لهم من ينصرهم ويحفظهم من عذاب الله.

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية، ولكن بأسلوب مختلف.

ولقد نزل بهم ذلك العذاب لأنهم كذبوا رسلهم وحذوا آيات الله {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} قراءات:

قرأ نافع وهشام: والذين تدعون: بالتاء. والباقون: يدعون: بالياء.

٤٠٠٥ 23

سلطان مبین: حجة واضحة. هامان: وزير فرعون. قارون: من أغنى الأغنياء في ذلك الزمان. اني عدت بري: اني التجأت اليه. رجل مؤمن من آل فرعون: يقال إنه ابن عم فرعون. المسرف: الذي تجاوز الحد في المعاصي. ظاهرين: غالبين. ما أريكم الا ما أرى: ما أعلمكم الا ما أعلم من الصواب.

لقد تقدمت قصة موسى أكثر من مرة، ذكر هامان وقارون كل منهما ست مرات، وهذه آخر سورة يُذكران فيها. والجديد في قصة موسى هنا هو ذكر الرجل المؤمن من آل فرعون. فإن الله تعالى لما أرسل موسى الى فرعون وهامان وقارون كذّبوه وقالوا ساحر مبالغ في الكذب. ولما أعيت فرعون الحيلة ولم يستطع ان يأتي بحجة ضد موسى - صال لقومه: دعوني أقتل موسى، وليدع ربه لينقذه، فاني أخاف عليكم ان يغير دينكم {أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} فقال موسى لفرعون وملئه: إني تحصنت والتجأت الى ربي ولا اخاف منكم احداً.

وهنا يتدخل الرجل المؤمن من آل فرعون فيما لا يعرف أحد أنه آمن، فيقول: اتقتلون رجلاً لأنه يقول إن الهى الله!! ولقد جاءكم بالأدلة الواضحة من رب العباد، وأخفكم بالحجة القاطعة وعجزتم عن اقناعه!

{وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ} وما عليكم من تبعته شيء.

{وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} .

ثم أضاف يقول: يا قومي، ان الملك لكم اليوم وانتم ظاهرون في ارض مصر، فمن ينقذنا من عذاب الله ان جاءنا؟!

فلم يلتفت فرعون اليه، وقال لقومه: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} واستمر على عناده وكفره.

ثم يتابع الرجل المؤمن من آل فرعون كلامه ويقول: يا قوم، اني أخشى عليكم يوماً مثل يوم الأحزاب الذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية مثل قوم نوح وعاد وثمود، وكل من جاء بعدهم من المعاندين الجاحدين، ولا اقول لكم هذا غلا خوفاً عليكم من ان يصيبكم ما اصاب هؤلاء الأولين من الهلاك، يوم تولّون مدبرين من عذاب النار فلا يكون لكم من الله مانع يمنعكم {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} يهديه او يرشده.

ولقد جاء يوسف من قبل بالأدلة الواضحة، فما زلتم في شك مما أتاكم به، حتى اذا مات قلم لن يرسل الله من بعد يوسف رسولا {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} .

ثم بين الله هؤلاء المسرفين المرتابين فقال:

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} فهم يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان.

{كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} ان يجادلوا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} .

كما يطبع الله على قلوب المسرفين المرتابين فهو يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين. قراءات:

قرأ عاصم وحمة والكسائي ويعقوب: او ان يظهر، والباقون: وان يظهر. وقرأ حفص ونافع ويعقوب وابو عمرو: يُظهر الفساد بضم الياء ونصب الدال. والباقون: يُظهر الفساد بفتح الياء، وبضم الدال.

الصرح: البناء العالي. الأسباب: واحدها سبب، وهو ما يتوصّل به الى الغرض المطلوب. التباب: الخسران والهلاك. متاع: ما يستمتع به من كل شيء في هذه الدنيا. دار القرار: الجنة، دار البقاء. لا يزال الكلام في قصة فرعون وموسى.

ظن فرعون ان الأمر بهذه البساطة فقال لوزيره هامان: ابن لي صرحاً عالياً لأصعد به الى السماء لعلّي أطلع الى اله موسى هذا. ثم قال مستهزئاً:

{وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}

وهو يعني موسى في دعواه انه رسول رب العالمين.

وهكذا زين الشيطان لفرعون هذا العمل السيء حتى رآه حسناً، ولم يرعو بحال، وحاد عن سبيل الرشاد.

{وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}

ان مكر فرعون وعاقبة امره وكذبه تذهب سدى وفي خيبة ودمار.

ويأتي دور الرجل المؤمن من آل فرعون، ويستمر في نصيحته لقومه، مبيناً لهم أن هذه الحياة الدنيا زائلة، وان الحياة الباقية هي حياة الخلد في الجنة، فيقول: يا قوم اتبعوني أرشدكم الى طريق الصلاح. يا قوم، ما هذه الحياة الدنيا الا متاع زائل لا دوام له، {وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} .

ثم بين الله تعالى كيف يكون الجزاء في الآخرة، وأشار الى ان جانب الرحمة فيها غالب على جانب العقاب. . . . فن أتى في الدنيا معصية من المعاصي مهما كانت لن يعذب الا بقدرها، ومن عمل صالحاً، ذكراً كان او انثى، وهو مؤمن بربه مصدّق بأنبيائه ورسله،

{فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} .

وهذه اكبر بشرى للمؤمنين، ورحمة الله وسعت كل شيء.
قراءات:

قرأ حفص وعاصم: فأطلع بنصب العين. والباقون: فأطلع برفع. وقرأ اهل الكوفة: وصد بضم الصاد. والباقون: وصد بفتح الصاد.
وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابو بكر: يَدْخُلُونَ: بضم الياء وفتح الخاء. والباقون: يَدْخُلُونَ بفتح الياء وضم الخاء.

٤٠٨ 41

لا جرم: لا ريب في. أفوض: أسلم. حاق: نزل.

لا يزال الكلام في قصة فرعون وقومه، وحديث المؤمن من آل فرعون. ويظهر ان هذا الرجل كان من ذوي المكانة والنفوذ حتى جرؤ على هذا الحديث الطويل، فهو يهيب بقومه ويحثهم على الايمان، ويتعجب من عنادهم فيقول لهم: يا قوم إن أمركم لعجيب، فإني أدعوكم الى الايمان الذي ينجيكم من النار، وتدعونني الى الكفر الله وإشراك غيره في العبادة. وهذا يوجب دخول النار. إنني أدعوكم إلى رشدكم، الى عبادة رب عزيز كثير المغفرة واسع الرحمة.

ثم أكد ان أولئك الشركاء الذي يعبدونهم لا مقدرة لهم على شيء، ولا شأن لهم في الدنيا ولا في الآخرة، وان مرد الجميع الى الله.

{وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} سيدخلون فيها.

ثم ختم نصيحته بكلمة فيها تحذير ووعيد لهم فقال:

{فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ}

وذلك يوم القيامة، يوم يقفون بين يدي الله، ويأخذ كل واحد منكم كتابه.

ثم لما يتس منهم قال:

{وَأَفُوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} .

من ثم نجاه الله من مكرمهم، وأحاط بآل فرعون العذاب السيئ، النار يدخلونها صباحا ومساء. هذا في الدنيا وهم في عالم البرزخ.

ويوم تقوم القيامة يقول الله تعالى: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} .

قراءات:

قرأ اهل الكوفة الا أبا بكر: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ، بقطع الهمزة. والباقون: ادخلوا آل فرعون، على ان آل فرعون منادى.

٤٠٩ 47

يتحاجون: يتجادلون ويتخاصمون. الضعفاء: الأتباع. المستكبرون: الرؤساء، السادة اولو الرأي فيهم. تبعاً: تابعين لهم. مغنون عنا: دافعون الشر عنا. نصيباً: قسطاً، وجزءاً. حكم: قضى. خزنة جهنم: القائمون عليها. يوم يقوم الأشهاد: يوم القيامة، والأشهاد: الشهود الذين يشهدون على الناس. العشي: من نصف النهار الى آخره الإيكار: اول النهار.

اذكر لهم أيها النبي حين يتخاصم أهل النار فيها، فيقول الأتباع من الضعفاء للذين اضلوهم من الرؤساء: إنا كنا لكم في الدنيا تبعاً، فهل انتم حاملون عنا بعض العذاب؟ فيرد المستكبرون قائلين: إنا جميعاً في النار، هذا هو حكم الله في عباده، ولا نستطيع ان نساعدكم بشيء.

وفي سورة ابراهيم {قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ} [الآية: ٢١] .

ثم خاطب الضعفاء خزنة جهنم وتوسلوا إليهم أن يخفف الله عنهم يوماً من العذاب فأجابوهم موبخين لهم: ان الله تعالى أرسل إليكم رسلاً مكرمين فلم تستجيبوا لهم. فاعترفوا بأنهم كذبوا رسلهم. فقال لهم خزنة جهنم: فاذا كان الأمر كذلك فادعوا مهما شئتم، {وَمَا

دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .

ان طلبكم مرفوض، فلو موات أنفسكم على ما أسلفتم.

ثم بين الله تعالى انه ينصر رسله، والذين آمنوا معهم في الحياة الدنيا، {وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} وهو يوم القيامة. وقد يكون الشهود من الإنسان نفسه كما قال تعالى {حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون} [فصلت: ٢٠]. وفي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم عما فرط منهم في الدنيا.

{وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سِوَاءُ الدَّارِ}

جزاءهم الطرد من رحمة الله وإنزالهم من جهنم في اسوأ مكان.

ثم بين الله تعالى انه نصر موسى ومن معه، وآتاه هدى منه، واعطى بني اسرائيل التوراة الصحيحة غير المحرفة، {هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} هادية ومذكرة لأصحاب العقول المدركة المفكرة.

وبعد ان بين أنه ينصر رسله والمؤمنين خاطب الرسول الكريم أن يصبر، وطمأنه إلى ان النصر له فقال: {فاصبر إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} واستغفر لذنبك وسبِّح بحمد ربك بالعشي والإبكار}

اصبر ايها الرسول على ما ينالك من الأذى من الناس، ان وعد الله بنصرك ونصر المؤمنين حق لن يتخلف. ثم أكد عليه بان لا يترك الاستغفار والدعاء والتسبيح بحمده دائماً صباحاً ومساءً، شكراً له على نعمه التي لا تحصى.

قراءات:

قرأ اهل الكوفة ونافع: يوم لا ينفع الظالمين: بالياء والباقون: لا تنفع بالتاء.

٤٠١٠ 56

بغير سلطان: بغير دليل ولا حجة. ادعوني: اسألوني. داخرين: صاغرين، أذلاء. لتسكنوا فيه: لتستريحوا فيه. تصرفون عن الحق.

اعلم يا محمد ان الذين يجادلونك في دين الله بغير حجة أو برهان يعلمونه إنما يدفعهم الى ذلك ما يجدونه في صدورهم من الكيد والحسد، وعنادهم وطمعهم في ان يغلبوك.

{مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ}

وما هم ببالغي إرادتهم، ولن يصلوا الى ذلك ابداً.

ثم امر رسوله ان يستعذ من هؤلاء المجادلين المستكبرين بقوله:

{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

الجارى الى الله واستعن به فهو السميع لاقوالهم، البصير بأفعالهم.

ثم بين الله تعالى للناس وضعهم في هذا الكون الكبير، وضآلتهم بالقياس الى بعض خلق الله حتى يعلموا حقيقتهم، فيقول:

{تَخْلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}

هذا ما يفهمه أصحاب العقول المدركة، فان إعادة خلق الإنسان أهون بكثير من ابتداء خلقه، ومن خلق هذا الكون العجيب. ان قدرة اله لا تُحد، فاين الانسان من هذا الكون الهائل؟ .

ليس يستوي الأعمى عن الحق والبصير العارف به، ولا يستوي المؤمن العامل بإيمانه والمسيء في عقيدته وعمله، ذلك أن المؤمنين ابصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير، اما الأعمى بجهله فهو يسيء كل شيء. {قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} وما أقل ما تتذكرون.

وبعد أن قرر الدليل على إمكان وجود يوم القيامة والبعث، أخبر بأنه واقع لا محالة:

{إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}
فَأَمَنُوا بِهَا أَيُّهَا النَّاسُ تَفُوزُوا، وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ إِذْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَسْأَلُوهُ، فَانْهَ قَرِيبَ يَجِيبُ دَعَائِكُمْ وَيُعْطِيكُمْ. أَمَّا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ عِبَادَةِ الْخَالِقِ
فَجَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ يَدْخُلُونَهَا صَاغِرِينَ.

ثم شرع الله يبين بعض نعمه على الناس، وهي تظهر عظمته تعالى، لكنهم لا يشكرون عليها فقال:
{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ}
من أكبر النعم على الناس ان الله جعل لهم الليل ليسترىحوا فيه من العمل، والنهار مضيقاً ليعملوا فيه ويكسبوا رزقهم، والله هو المتفضل
عليهم بالنعم التي لا تحصى.

{وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} هذه النعم، ولا يعترفون بها. {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} الآية [إبراهيم: ٣٤].
ثم بين الله كمال قدرته وانه الاله الواحد فقال:

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}
ذلكم الذي انعم عليكم بهذه النعم الجليلة هو الله خالق هذا الكون وما فيه، الاله الواحد المنفرد في الألوهية.
{فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}

فإلى أي جهة تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره!

ثم ذكر ان هؤلاء الجاحدين ليسوا ببدع في الأمم قبلهم، فقد سبقهم الى هذا جحود خلق كثير فقال:
{كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}

فكما ضل هؤلاء بعبادة غير الله ضل الذين قبلهم بلا دليل ولا برهان.
قراءات:

قرأ أهل الكوفة: تذكرون بتأين، والباقون: يتذكرون بالياء. وقرأ ابن كثير ورويس سيدخلون: بضم الياء وفتح الخاء. والباقون:
سيدخلون بفتح الياء وضم الخاء.

٤٠١١ 64

قرارا: مستقرا تستقرون عليها. بناء: مبنية بنظام لا يختل. فبإذنك: فتقدس وتنزه. طفلاً: يعني اطفالاً، لأنه يطلق على المفرد والجمع.
في هذه الآيات يؤكد الله تعالى حقيقة الوحداية، كما يؤكد على حقيقة ألوهيته وربوبيته. فالله وحده هو الذي جعل لنا هذه الأرض
لنستقر عليها، وجعل السماء بناءً محفوظاً زينه بهذه النجوم والكواكب التي نراها. ولقد خلق الإنسان فأبدع تصويره، وجعله في احسن
تقويم {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} المباحة ما يلذ لكم، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، الذي يخلق ويقدّر ويدبر. وهو الذي لا تنبغي الألوهية
إلا له، ولا تصلح الربوبية لغيره، بما انه المنفرد بالحياة: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} فادعوه باخلاص الدين له،
واحدوه في الدعاء والثناء لأنه مالك هذا الكون بما فيه.

وبعد ان اثبت سبحانه لنفسه صفات الجلال والكمال، أمر رسوله الكريم أنه منهي عن عبادة غيره مما يدعون. قل لهم ايها الرسول:
إني نهيت عن عبادة الآلهة التي تعبدونها من دون الله {لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي} وأمرت ان أنقاد في كل اموري لله رب هذا
الكون كله.

ثم يستعرض آية من بيات الله في انفسهم بعدما استعرض آياته في هذا الكون العجيب، وهذه الآية هي الحياة الانسانية واطوارها
العجيبة فيقول:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ . . .}

رتب الله سبحانه تطور حياة الانسان في ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد في الشباب والكهولة، والشيخوخة. ومن الناس من يتوفى قبل سن الشباب، او الشيخوخة. والله يفعل ذلك لتبلغوا الأجل المسمى وهو يوم القيامة، ولتعقلوا ما في التنقل في هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم.

ثم بعد هذه الأدلة على وجود الاله القادر، يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة، وحقيقة الخلق والانشاء جميعا: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}

وتكثر الاشارة في القرآن الكريم الى آيتي الحياة والموت، لأنهما تلمسان قلب الانسان بشدة وعمق، فالحياة ألوان، والموت ألوان، منها رؤية الأرض الميتة ثم رؤيتها مخضرة بألوان النبات والزهور، وكذلك رؤية الاشجار وهي جافة ثم رؤيتها والحياة تنبثق منها في كل موضع، وتخضر وتورق وتزهو، وغيرها وغيرها. وعكس هذه الرحلة من الحياة الى الموت، كالرحلة من الموت الى الحياة، الى حقيقة الانشاء وأداة الابداع، وهو في ذلك كله كما يقول:

{فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} بلا معاناة، ولا توقف {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤] .

٤٠١٢ 69

بالكتاب: بالقرآن. يُسحبون: يجرون. في الحميم: في الماء الحار. يُسجرون: يحرقون. ضلوا عنا: غابوا عنا. تفرحون: تبطرون وتسرون. تمرحون: تختالون من شدة الفرح. المشوى: مكان الإقامة.

الم تنظر أيها الرسول الى هؤلاء الجاحدين كيف يجادلون في آيات الله الواضحة، ويحاولون أن يبطلوها، وكيف يُصرفون عن النظر فيها، ويصرفون على ضلالهم. لقد كذبوا بالقرآن، وبما ارسلنا به رسلنا دميعة، فسوف يرون جزاء تكذيبهم حين تكون الأغلال في رقابهم يُجرون بها في الماء الحار، ثم يُحرقون في نار جهنم، ثم يقال لهم: اين ما كنتم تعبدون من دون الله؟ فيقولون: لقد غابوا عنا {بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا} بل تبين لنا أننا لم نكن نعبد في الدنيا شيئاً يُعتد به. وكما أضل الله تعالى هؤلاء، كذلك يضل الكافرين. وهذا الذي فعلنا بكم اليوم من شديد العذاب انما هو جزاء بسبب ما كنتم تفرحون وتبطرون وتتكبرون في الارض بغير الحق، وما كنتم تتمتعون به وتمرحون. ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس منزل المتكبرين.

ثم امر رسوله بالصبر على أذاهم وتكذيبهم، وأكد ان وعد الله له بهلاك الكافرين حق، وسيأتيهم هذا العذاب إما في حياتك يا محمد او حين يرجعون الينا، او تنوفيك قبل ان تراه، {فَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ} جميعا فنجازيهم بما كانوا يعملون.

ثم يسلي الرسول الكريم ومن معه بقوله تعالى:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ}

وتقدم مثل هذا النص في سورة النساء: ١٦٤.

{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}

يبين الله تعالى ان الرسل بشر مكلفون بالتبشير والانذار وتعليم الناس، أما لمعجزات فهي بأمر الله وحسب مقتضى حكمته. ولا يمكن لرسول ان يأتي بمعجزة الا بأمر الله ومشيئته. فاذا جاء أمر الله بالعذاب في الدنيا او الآخرة قضى بين الناس بالعدل. {وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} ولم يعد هنا كمجال للتوبة ولا للرجعة إلى الدنيا.

٤٠١٣ 79

الأنعام: الابل والبقر والغنم. الفلك: السفن. بالبينات: الآيات الواضحة. وحاق بهم: احاط بهم. بأسنا: شدة عذابنا. سنة الله: طريقته.

يبين الله تعالى في هذه الآيات بعض هذه المعجزات التي يطلبها الجاحدون، ولكنهم لا يحسّون بها لأنهم أَلْفَوْها، ثم يذكرهم بما في هذه الآيات من نعم كبار.

ان الله تعالى خلق هذه الأنعام من الإبل والغنم والبقر، وذللّها للانسان، منها ما يركبه ويستعمله في قضاء حاجاته، ومنها ما يأكله. فقد كانت وسائط السفر من هذه الانعام ولا يزال هناك حاجة لها في التنقل بين الاماكن الوعرة في الجبال رغم وجود الوسائط الحديثة. ومنها ما يأكلونه ويشربون لبنه، كما يستعملون جلودها.

{وَعَلِيَّاهُ وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ}

وقد تقدم في سورة النحل في الآيات ٥ و ٦ و ٧ و ٨ بأوسع من ذلك.

ثم بين انه يريدكم آياته الباهرة التي لا مجال لانكارها بقوله:

{وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ!} .

والله تعالى يريدكم دلائل قدرته، لا تقدرون على إنكار شيء منها لأنها واضحة لا ينكرها من له ادنى عقل.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. . .}

تقدم هذا المعنى في اكثر من آية في سورة يوسف والحج والروم. فلو انهم اعتبروا بما رأوا من آثار الأمم السابقة واتّعظوا بها لأغناهم ذلك عن جحودهم وكفرهم.

وتلك المم السابقة حين جاءتهم رسلهم بالشرائع والمعجزات الواضحة، فرحوا بما عندهم من علوم الدنيا، واستهزأوا بالمرسلين، فنزل بهم العذاب وأحاط بهم. فلما رأوا العذاب آمنوا بالله وحده وكفروا بآلهتهم التي عبدوها، ولكن ذلك لم يُفدّهم شيئاً. لقد فات الأوان، فلا يفيد الندم. {فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} وتلك سنة الله قد سبقت في عبادته ان لا يقبل الايمان حين نزول العذاب، {وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} وسنة الله ثابتة لا تختلف ولا تحيد عن الطريق.

اللهم اقبل توبتنا، وأحسن ختامنا، واسترنا واغفر لنا يا رب العالمين ويا أرحم الراحمين.

٤١ فصلت

٤١.١ 1

فصلت: بينت. لا يسمعون: لاطيعون. أكنّة: أغطية، جمع كان. وقر: صمم. غير ممنون: غير مقطوع، فهو دائم بلا من.

حاميم: حرفان من حروف المعجم افتتحت بهما السورة، لإثارة الانتباه والتدليل على إعجاز القرآن.

ان هذا القرآن منزل من عند الله الرحمن الرحيم. وتكرر هاتان الصفتان من الرحمة دائماً لأن الله تعالى رحيم بعباده سبقت رحمته غضبه، وحتى يعلم الناس ان الله تعالى رحمن رحيم بخلقه، بابه مفتوح لهم دائماً حتى لا يقنطوا من رحمته، فالقرآن رحمة من الله تعالى، والرسول الكريم رحمة من الله {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] .

وهذا القرآن كتاب بينت آياته وفصل فيه الحرام والحلال والنصائح والمواعظ والاخلاق، بلغة عربية فصيحة، ميسراً فهمه لقوم يعلمون معانيه ومقاصده، ومرامييه الانسانية الخالدة.

ولقد أنزل هذا الكتاب العظيم بشيراً لمن أطاع ونذيراً لمن عصى.

{فَاعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} فلم يطيعوه ولم يقبلوه كأنهم لا يسمعون.

ثم صرحوا بإعراضهم عنه فقالوا: إن قلوبنا مغلقة دونه عليها الأغطية، فلا تقبله، وفي آذاننا صمم فلا نسمع ما تدعونا اليه، وبيننا وبينك يا محمد حجاب ساتر يمنعنا من قبول ما جئت به.

{فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ}

فاعمل ما شئت، فاننا لا نَحِيدُ عن موقفنا منك ومن دعوتك.
 قل لهم ايها الرسول: ما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إليّ من الله بأن الحكم الذي يجب ان تبعدوه هو الله الواحد الأحد.
 {فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه. . . }
 فاستقيموا في افعالكم متوجهين اليه، واطلبوا اليه المغفرة فانه رحيم يحب التوابين، والويلُّ والهلاك لمن أشرك به، وبخل بماله فلم يعط
 الفقراء والمحتاجين قليلاً منه.
 {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}
 وينكرون البعثَ والجزاء. ونرى ان منع الزكاة مقرون بالكفر لأن أحبَّ شيء الى الانسان هو المال، وهو شقيق الروح، ولذلك شدد
 الله تعالى في هذا الموضوع وأمرَ بالبذل والعطاء.
 والزكاة كانت معروفة قبل الهجرة، وهذه الآية مكية، ولم تكن محدّدة، وانما فرضت وحُدّدت في المدينة في السنة الثانية من الهجرة.
 ثم بين الله ما للؤمنين عنده تعالى حتى يظهر الفرق بين المحسن والمسيء فقال:
 {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}
 جزاؤهم دائم غير مقطوع بلا من ولا أذى عند رب غفور رحيم.

٩ ٤١.٢

أندادا: امثالا. الرواسي: الجبال الثابتة الرواسخ. أقواتها: أهولها. سواء: كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة. استوى الى السماء:
 قصد نحوها. دخان: مادة غازية أشبه بالدخان. فقضاهن: خالفهن. امرها: شأنها. بمصاييح: بكواكب ونجوم كما نراها. وحفظا:
 حفظناها حفظا من الآفات.
 قل ايها الرسول لهؤلاء المشركين: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين، وانتم مع هذا تجعلون له شركاء أمثالا له! {ذَلِكَ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ} . وجعل في الأرض جبلاً ثابتة من فوقها لثلا تميد بكم، وجعلها مباركة كثيرة الخيرات، وقدر فيها أرزاق أهلها حسبما
 تقتضيه حكمته، كل ذلك في اربعة ايام متكاملة.
 وقد جاء في القرآن الكريم ذكر اليوم والايام، ففي سورة الحج {وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧] . وفي سورة
 السجدة الآية ٥ {يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} وفي سورة المعارج الآية
 ٤ {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} . ان هذا اليوم الذي نعيش فيه ونعرفه مرتبطٌ بالأرض ودورانها
 حول نفسها، فاذا خرجنا من منطقة الأرض الى الفضاء الواسع الفسيح اختلفت المقاييس، ولم يعد للزمن حدود، وان سنّتنا ٣٦٥
 يوماً، بينما سنة عطارد وهو اقرب الكواكب الى الشمس ٨٨ يوماً فقط حسب دورته حول الشمس، وان ابعد الكواكب وهو بلوتو
 تقدّر سنته بنحو ٢٥٠ سنة، لأنه يتم دورة واحدة بهذا الزمن، وهكذا فان الزمن نسبي. ان ايام الله هو يعلم مداها، ولا شك بانها أطول
 بكثير من ايام الأرض المعروفة.

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}
 ثم توجهت إرادته تعالى الى السماء وهي غاز هو معروف بالسديم الآن، وخلق السموات والأرض على وفق ارادته، فقال للسماء
 والأرض، ائتيا طائعين او مكرهتين بما وضعتُ فيكما من التأثير، وأبرز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات، وائتيا في الوجود
 على ما أردته لكما، قالتا: أتينَا طائعين لك أيها الخالق العظيم.

والمراد هنا من هذا التعبير تصويرُ قدرته تعالى فيهما وامتثالهما بالطاعة لأمره. فخلقهن سبع سموات في يومين من أيامه، واوحى في كل
 سماءٍ أمرها وما أعدّت له واقتضته حكمته، وزين السماء الدنيا التي نراها بالنجوم المنيرة كالمصاييح في أقرب المجرات اليها التي نعيش

على اطرافها، وهي المعروفة بدرب التبانة، والتي يقدّر قطرها بنحو مئة الف مليون سنة ضوئية. وجعل لهذه الارض غلافاً جويّاً يحفظها من كل سوء.

{ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} الذي يمسك هذا الكون، ويدبر الوجود كله بقدرته وحكمته. قراءات:

قرأ يعقوب: سواءً بالجر. والباقون سواءً بالنصب.

٤١٠٣ 13

صاعقة: عذاب شديد ينزل بهم. من بين أيديهم ومن خلفهم: من كل مكان. ريحاً صرصراً: باردة تهلك بشدة بردها. نحسات: نكدات مشثومات. أخزى: اذل. الهون: الهوان، الذل.

فإن أعرض المشركون عن الإيمان، فقل لهم ايها الرسول: انني أنذركم بعذابٍ شديد مثل ما حلّ بعادٍ وثمود، اذ جاءتهم الرسل من جميع النواحي ونصحوهم أن لا يعبدوا الا الله، فردّوا عليهم بقولهم: لو أراد الله إرسال رسولٍ لأنزل الينا ملائكة. {فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} فاستكبروا في الارض بغير حق وقالوا مغترين بأنفسهم: من أشدّ منا قوة؟ قالوا ذلك ولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشدّ منهم قوة، {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}.

وبعد ذلك يبين الله مصيرهم المشثوم فيقول: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً...}

ريحاً باردة تهلك بشدة بردها، ولها صوتٌ مخيف، ارسلناها في ايام مشثومة لنذيقهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدّ خزيًا، يوم لا يستطيع احد ان ينصرهم منه.

واما ثمود فإننا بينّا لهم طريق الخير وطريق الشر، فاختاروا الضلالة على الهدى، فأصابتهم صاعقة أحرقتهم وتركهم في ذلٍ وهوانٍ {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} من الذنوب والجحود.

وأما الذين آمنوا وكانوا يعملون الصالحات ويتقون ربهم فقد نجّيناهم.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع: نحسات باسكان الحاء. والباقون: نحسات بكسر الحاء.

٤١٠٤ 19

يوزعون: يساقون ويدفعون الى جهنم. أرداكم: اهلككم. مثوى: مقام. وإن يستعتبوا: يطلبوا العتبي والرضا. فما هم من المعتبين: من المجابين الى ما يطلبون.

اذكر لهم أيها الرسول يومٌ يُحْشَرُ أعداءُ الله الى النار، وهم يساقون توجرهم الملائكة، حتى اذا وصلوا وسئلوا عن أعمالهم السيئة في الدنيا، فانكروا - شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

فيقولون لجلودهم: لم شهدتم علينا؟ فتقول الجلود: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو الذي خلقكم من العدم، وإليه ترجعون. وما كان باستطاعتكم ان تخفوا أعمالكم عن جوارحكم مخافة ان تشهد عليكم، ولكن كنتم تظنون ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وهذا الظنّ الفاءد الذي كان منكم في الدنيا أوقعكم الآن فأهلككم {فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

فان يصبروا على ما هم عليه فالنار مأواهم، وان يطلبوا رضا الله عليهم فما هم بمجابين الى طلبهم، وهذا مثل قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ} [إبراهيم: ٢١].

قراءات: قرأ نافع ويعقوب: ويوم نحش بالنون، والباقون: يحش بالياء.

قيضنا: هيّأنا. قرناء: جمع قرين وهم الأصحاب والإخوان من غواة الجن والإنس. والغوا فيه: عارضوه باللغو الباطل حين يُقرأ لتشوشوا عليه. دار الخلد: دار الإقامة الخالدة.

لا يزال الحديث عن المشركين الجاحدين، وبين هنا ان السبب في غوايتهم هم قرناء السوء الذين زينوا لهم الكفر والضلال، وأغروهم بأنه لا بعث ولا حساب، وحق عليهم العذاب مع أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ممن كانوا على شاكلتهم، وان هؤلاء جميعاً، {كانوا خاسرين}.

ثم بين الله كيف كان مشركو قريش يكذبون بالقرآن وكيف يستقبلونه باللغو والتشويش.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ}

كانوا يوصون بعضهم بأن لا يصغوا الى القرآن، وان يشوشوا بأصواتهم رجاء ان يكونوا هم الغالبين.

ثم اوعد الله الكفار بالعذاب الشديد وأقسم أن يذيق الذين كفروا عذاباً شديداً جزاء فعلهم السيئ وإعراضهم وشغبهم.

ثم بين الله تعالى انهم حين وقوعهم في العذاب الشديد يطلبون الانتقام من أضلوهم من شياطين الإنس والجن، ليطأوهم بأقدامهم وينتقموا منهم شر انتقام، ولكن كل ذلك لا يجديهم ولا يخفف عنهم العذاب. وهكذا يصدق عليهم قوله تعالى: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} [الزخرف: ٦٧].

استقاموا: ثبتوا على الايمان والعمل الصالح. أولياؤكم: نصراؤكم. ما تدعون: ما تطلبون. نزلاً: ضيافة حسنة. ادفع بالتي هي أحسن: ردّ الاساءة باللين والحسن. وليّ حميم: صديق عزيز. وما يلقاها: وما يعمل هذا العمل ويتحملة. الا ذو حظ عظيم: الا ذو نصيب وافر من الخير. ينزغنك: يوسوسن لك ويغرينك بالشر. فاستعد بالله: التجئ اليه.

هذه الآيات الكريمة دستور عظيم في الأخلاق، وحسن المعاشرة، وكيفية الدعوة الى الله والتحلي بالصبر والأناة، ولو أننا اتبعناها حقاً، ولو أن وعظنا وأئمة مساجدنا تحلوا بها وساروا على هديها - لنفع الله بهم الناس، وهدى الكثير الكثير منهم على أيديهم، ولاستقامت الأمور، وارتقت أحوالنا، هدايا الله الى التحلي بكل مكرمة.

ان الذين قالوا ربنا الله اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته، ثم استقاموا في أعمالهم - أولئك تحفهم الملائكة، وتبشّرهم بالفلاح والفوز بالجنة التي وعدهم بها الله، وهو يقول لهم: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا بالتأييد، وفي الآخرة بالشفاعة والتكريم، ولكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم وكلّ {ما تدعون} أي ما تطلبون من الطيبات ضيافة لكم من الله الغفور الرحيم.

ثم بين الله تعالى صفة الداعي الى الله بالأقوال الحسنة والعمل الصالح ليكون قدوة ويقرّ بأنه من المسلمين المخلصين. وبعد ذلك أعقب بالدعوة الى حسن المعاملة بين الناس فقال: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ}

ولا تستوي الخصلة الحسنة مع الخصلة القبيحة، ادفع ايها المؤمن الاساءة ان حاءتك بالقول الحسن واللين، فاذا فعلت ذلك انقلب العدو صديقاً حميماً، وناصرًا مخلصاً.

{وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}

وما يتحلى بهذه الأخلاق العالية الا الصابرون {وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} وما يُرزقها إلا ذو نصيب عظيم من خصال الخير والكمال. وان يصبك من الشيطان وسوسة فاستعد بالله، إن علمه محيطٌ بكل شيء.

لا يسأمون: لا يملّون. خاشعة: هامة لا حياة فيها. اهتزت: تحركت. وربّت: زادت. الذين يلحدون في آياتنا: يخرفون عن القرآن الكريم. من بين يديه ومن خلفه: من جميع جهاته. حميد: محمود. في آذانهم وقرّ: فيها صمم.

يبين الله في هذه الآيات الكريمة الدلائل على وجوده تعالى وقدرته وحكمته، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر، ثم ينبّه الناس أن لا يسجدوا للشمس ولا القمر، بل ان يعبدوا الله وحده الذي خلق هذا الكون العجيب. (وهنا مكان سجود، اذا قرأ القارئ القرآن وبلغ هاتين الآيتين عليه ان يسجد) . فان استكبر هؤلاء المشركون الذي يعبدون غير الله عن السجود، فان الله لا يعبأ بهم، فعنده الملائكة يسبحون له بالليل والنهار، لا يملّون من ذلك ولا يسأمون.

ثم بين بعد ذلك بآية أرضية تراها العين في كل حين، وهي حال الأرض: هامة يابسة لا نبات فيها، تنتعش وتهتز بعد ان ينزل المطر. والذي أحيها هذه الحياة قادر على أن يحيي الموتى، {إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

ان الذين يميلون عن الحق ويلحدون في آياتنا نحن نعلمهم ولا يخفون عنا، ولهم جزاء كبير عند الله عبّرت عنه آية: {أَفَنَسَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟} انهم لا يستون. وبعد ذلك هدّهم الله وبين عاقبتهم بقوله {اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

لقد كفر هؤلاء الملحدون بالقرآن لما جاءهم، وإنه لكأب عزيز يغلب كل من حاول ان يعارضه، لا يأتيه الباطل أبداً من اي ناحية من نواحيه، فهو {تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ، حكيم بتدبير شئون عباده، محمود على ما أسدى اليهم من النعم التي لا تحصى.

ثم بعد ذلك سلّى الله رسوله الكريم عما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم فيه وفي الكتاب العزيزن وحثّه على الصبر، وان لا يضيق صدره بما يقولون، فقد قيل مثله للرسل الذين جاؤا قبله، ومع كل ذلك {إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} .

ثم أجاب عن شبهة قالوها، وهي: هلا نزل القرآن بلغة العجم؟ هذا مع أنه لو نزل بلغة العجمية لأنكروا ذلك ايضا، وقالوا ما لنا ولهذا؟ ثم قال لرسوله الكريم قل لهم: ان هذا القرآن هدى وشفاء للمؤمنين، اما الذين كفروا ولم يؤمنوا به، فكأنهم صمّ، وهو عليهم عمى فلا يبصرون حججه ومحاسنه.

ثم مثل حالهم، باعتبار عدم فهمهم له، بحال من ينادى من مكان بعيد فهو لا يسمع من يناديه: {أَوَلَيْكَ يَنَادُونَ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ} . قال اهل اللغة: تقول العرب للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادى من مكان بعيد، وللفهم ثاقب الرأي: انك لتأخذ الأمور من مكان قريب.

ولقد آتينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه، ولولا قضاء سبق من ربك ايها النبي ان يؤخر عذاب المكذبين بك الى أجلٍ محدّد عنده - لقضى بينهم باستئصالهم، وان كفّار قومك لفي شكٍ من القرآن.

ثم ختم هذا الجزء من القرآن بان الجزاء من جنس العمل، وان الله لا يظلم احدا فقال:

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} .

قراءات:

قرأ قالون وابو عمرو: أعجمي بمد الهمزة الاولى وتسجيل الثانية. وقرأ حفص وابن كثير وابن ذكوان: أعجمي بهمزتين بغير مد. وقرأ هشام: أعجمي على الإخبار.

وهذا بيان واضح للناس، والله قد أعذر {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} [النجم: ٣٩] .

اللهم وفقنا للعمل الصالح واختم لنا بخير، واسترنا يا رب العالمين.

الساعة: يوم القيامة. اكمامها: جمع كَم بكسر الكاف، برعوم الثرة ووعاؤها، وكذلك الكَم بضم الكاف: وعاء الثمر والزهر. آذَنَّاكَ: أعلمناك. ما منا من شهيد: ليس منا من يشهد لك شركاء. وظنوا ما لهم من محيص: وايقنوا ما لهم من مهرب. لا يسأم: لا يمل. من دعاء الخير: من طلب المال، ويطلق الخير على المال والصحة والجاء والسلطة وغيرها. الشر: الفقر والمرض وكل سوء. والقنوط: بضم القاف، ظهور اثر اليأس على الانسان من المذلة والانكسار. الرحمة: الصحة وسعة العيش وكل ما يسر الانسان. والضراء: ضد الرحمة مثل المرض وضيق العيش ونحوهما. هذا لي: هذا ما أستحقه لما لي من الفضل والعمل. الحسنی: الكرامة. عذاب غليظ: كثير وكبير. بعد تلك الجولة مع المشركين، وما ينتظرهم يوم القيامة حسب أعمالهم وسوء عقائدهم - يبين الله تعالى هنا أن لا سبيل الى معرفة يوم القيامة وتحديد موعده، فذاك لا يعلمه الا هو، وأن علم الحوادث المقبلة في أوقاتها عند الله، فلا يعلم احد متى تخرج الثمر من اكمامها، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع. ثم ذكر سبحانه انه يوم القيامة ينادي المشركين تقرعاً لهم فيقول لهم: {إِنَّ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي؟ فَيَكُونُ جَوَابُهُمْ: {أَذْنًاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} إِنَّا نَعْلَمُكَ يَا اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَّا الْآنَ مِنْ يَشْهَدُ أَنَّ لَكَ شُرَكَاءَ. وَغَابَ الشُّرَكَاءُ السَّابِقُونَ عَنْهُمْ فَلَا يَرْجُونَ مِنْهُمْ نَفْعًا، وَايْقَنُوا أَنَّهُ لَا مَهْرَبَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

ثم بين الله تعالى ان الانسان متبدل الأحوال، لا يمل من طل بالمال والمنفعة، فان أحس بخير وقدره واقبلت عليه الدنيا - تكبر وصغر خده، وان اصابته محنة وبلاء تطامن ويئس من الفرج. واذا انعم الله عليه بالخير والرحمة بعد الضراء واليأس يقول: {هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى} .

كل هذا من الغرور والضلال. ولكن الله تعالى يبين لهم ان تمردهم هذا وبطهم لا ينفعهم اذ يقول: {فَلَنَنْبِتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} وهو عذاب جهنم خالدين فيها ابدًا. قراءات:

قرأ نافع وحفص وابن عامر من ثمرات بالجمع. والباقيون: من ثمة بالافراد.

نأى بجانبه: تكبر واختال. عريض: كثير. أرايتم: أخبروني. في شقاق بعيد: في خلاف كبير. الآفاق: جمع أفق بضم الفاء واسكانها. والأفق: الناحية ومنتهى ما تراه العين من الأرض.

واذا أنعمنا على الإنسان ورزقناه سعة العيش والصحة - أعرض عما دعوناه إليه وتكبر واخال، واذا مسه الشر وأصابته شدة من فقر او مرض اطال الدعاء والتضرع الى الله لعله يكشف عنه تلك النعمة. وتقدم مثله في سورة يونس ١٢، وسورة هود ٩ و ١٠ وسورة الاسراء ٨٣.

قل لهم يا محمد: أخبروني ان كان هذا القرآن الذي تكذبون به من عند الله ثم كفرتم به، افلا تكونون بعيدين عن الحق والصواب؟ . {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}

ينري هؤلاء المشركين دلائلنا على صدقك، وأنه وعد الله لعباده جميعا، وذلك بأن نطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء. فقد كشف العلم عن امور كثيرة عن الأرض وما عليها، وعن النظام الشمسي وما فيه، وان هذه الارض وما حولها ما هي الا ذرة صغيرة تابعة للشمس، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، وعرف الناس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير، وان كل هذه المعلومات والاكتشافات ما هي الا ذرة من علم الله. {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الاسراء: ٨٥] .

وكذلك سنري هؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد والفتوحات التي تمت على يدي الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وعلى يدي

خلفائه وأصحابه الكرام {حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ الْخَلْقُ} وان كل ما جاء به الرسول الكريم هو الحق.
{أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

كفى بالله شهيدا على افعال عباده واقوالهم، وعلى صدق محمد فيما أخبر به عنه. ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها سبحانه في هذه السورة وفي كل القرآن، وفيها البيان الكافي لاثبات وحدانيته، وتنزيهه عن كل نقص!!
ثم بين الله سبب عنادهم واستكبارهم بعد كل ما تقدم من حجج وبيّنات فقال في الختام:
{أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ}

انهم في شك عظيم من البعث والجزاء ولقاء ربهم، ولذلك كفروا، والله تعالى محيط بكل صغير وكبير، لا يفوته شيء في هذا الكون الكبير، واليه مرد الجميع.

٤٢ الشورى

٤٢٠١ 1

يَنْفُطَرْنَ: يتشققن من خشية الله وعظمته. من فوقهن: من جهتهن الفوقانية. حفيظ عليهم: رقيب عليهم. لتندرن: لتخوف. وما أنت عليهم بوكيل: لست موكلًا بهم. أم القرى: مكة. يوم الجمع: يوم القيامة، سمي بذلك لاجتماع الخلائق. الفريقك الجماعة. السعير: النار الموقدة المتأججة.

حم عسق: تقرأ هكذا: حاميم عين سين قاف، وقد تقدم الكلام على مثلها اكثر من مرة.

يبين الله تعالى أن ما جاء في هذه السورة موافق لما في الكتب المنزلة على سائر الرسل، من الدعوة الى توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر، وأمر النبوة، والتخلي بالأخلاق الفاضلة، والترهيد في جمع حطام الدنيا، والعمل على سعادة الإنسان والمجتمع. وهذا كله إنما يوحي اليك ايها الرسول الكريم من الله العزيز الحكيم.

ثم بين الله تعالى ان ما في السموات والأرض تحت قبضته وفي ملكه، له التصرف فيه وحده ايجاداً وعدماً، وان السموات والأرض على عظمها تكاد تتشقق فرقاً من هيئته وجلاله، وان الملائكة يسبحون بحمد ربهم وينزهونه عما لا يليق به، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين. وبين بوضوح {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} ثم أتبع ذلك بتسليية الرسول الكريم بأنه ليس رقيباً ولا وكيلاً على المشركين حتى يستطيع ردهم الى سواء السبيل، وما هو الا نذيرٌ يبلّغهم، وحسابهم على الله.

ثم بين بوضوح انه تعالى أنزل على رسوله قرآناً عربياً بلغة قومه ليفهموه، لينذر أهل مكة ومن حولهم من العرب ابتداءً ثم ينشرونه في العالم. وهذه سنة الله كما قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم} [إبراهيم: ٤].

وكذلك لتنذرهم يا محمد أن يوم القيامة آت لا شك فيه، وان الناس في ذلك اليوم فريقان: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} الأول يدخل الجنة بايمانه وما قدّم من صالح الاعمال، والثاني يدخل النار بكفره وما قدّم من سيء الاعمال.

ثم ذكر الله تعالى ان حكمته اقتضت ان يكون الإيمان اختياراً، ولم يشأ أن يكون قسراً وجبراً {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} فمن آمن وأناب الى الله وعمل صالحاً فالحق وفاز بالسعادة الأبدية {وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}.

قراءات:

قرأ ابن كثير وحده: كذلك يوحي اليك بفتح الحاء. والباقون: يوحي بكسر الحاء.

أولياء: ناصرين. أنيب: ارجع اليه. فاطر السموات والأرض: خالقهما ومبدعهما. من أنفسكم أزواجا: من جنسكم، وعبر بانفسكم لأن اقرب شيء الى الانسان زوجته. ومن الانعام أزواجا: ذكراً وأنثى. يذروكم فيه: يكثركم بهذا التدبير المحكم، ذراً الله الخلق: بهم وكثرهم. مقاليد، واحدها مقلاد ومقليد: مفاتيح. يبسط الرزق: يوسع. ويقدر: يضيقه. أقيموا الدين: حافظوا عليه وثبتوا دعائمه. ولا تفرقوا فيه: لا تختلفوا فيه. كبر على المشركين: عظم وشق عليهم. يجتبي: يصطفي. بغياً بينهم: ظلماً وتجاوزاً لحدود الله. ان هؤلاء المشركين اتخذوا أولياء من دونا الله، وذلك لجهلهم وعنادهم، وقد ضلوا ضلالاً بعيداً، فالله وحده هو الولي بحق، وهو يحيي الموتى للحساب والجزاء، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

ثم بين الله تعالى ان مرد الحكم والفصل اليه، وكل شيء اختلفتم فيه فحكمه إلى الله، وقد بينه لكم. ولذلك أمر الرسول الكريم ان يقول لهم:

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

وهذا خطاب لجميع الناس ليعلموا أن كل شيء يختلف الناس في انه حق أو باطل فالمرجع فيه الى القرآن، فقوله الفصل وحكمه العدل. كما قال تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النساء: ٥٩] .

{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}

الله ربي وربكم خالق السموات والارض على احسن مثال.

{جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ}

خلق لكم من جنسكم زوجات لتسكنوا اليها. وعبر بقوله «من انفسكم» لأن أقرب انسان للمرء هي زوجته، فكأنها منه ومن نفسه. وخلق لكم من الانعام أزواجا ذكورا وإناثا.

{يَذُرُوكُمْ فِيهِ}

لتتناسلوا وتكثروا بهذا التدبير المحكم.

ثم بين بعد ذلك انه مخالف لكل الحوادث لا يشبهه شيء {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، السميع لما يجري وينطق به الخلق، والبصير بأعمالهم، ويده مفاتيح خزائن السموات والارض.

{يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}

يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء.

{إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

لا يخفى عليه شيء، فيفعل كل ذلك على مقتضى حكمته الكاملة، وقدرته الواسعة، وعلمه المحيط.

ثم بين الله تعالى بعد ذلك انه شرع لكم ما شرع للأنبياء قبلكم، ديناً واحداً في الأصول هو التوحيد، والتقرب بصالح الاعمال، والكف عن المحارم وإيذاء الخلق. . لكن المشركين كبر عليهم دعوتهم الى التوحيد وترك الأنداد والأوثان، ولذلك أوصى الله المؤمنين أن يقيموا الدين بإعطائه حقه، وان لا يختلفوا ولا يفرقوا فيه، وقد هداهم الى ذلك لأنه اصطفاهم من بين خلقه، فالله سبحانه يصطفي من يشاء، ويوفق للايمان وإقامة الدين من يرجع اليه.

والمشركون ما خالفوا الحق الا من بعد ما بلغهم، وقامت الحجة عليهم، وما فعلوا ذلك إلا بغياً منهم وعدواناً وحسداً.

{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ}

لولا الكلمة السابقة من الله حول إمهال المشركين الى يوم القيامة لعجلَّ الله لهم العقوبة في الدنيا. وان اهل الكتاب ليسوا على يقينٍ من أمرهم وإيمانهم، وانما هم مقلِّدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان ولذلك إنهم {لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٍ} فهم في حيرة من امرهم، وشك جعلهم في ريب واضطراب وقلق.

٤٢.٣ 15

استقم: اثبت وثابر على دعوتك. لا حجة بيننا: لا خصومة ولا جدال. يحاجون في الله: يخاصمون في دينه. من بعد ما استجيب له: من بعد ما آمن الناس واستجابوا له. داحضة: باطلة، زائفة. الميزان: العدل. الساعة: القيامة. مشفقون: خائفون. يعلمون أنها الحق: يعلمون ان قيامة الساعة حق. يمارون: يجادلون.

بع ان امر الله تعالى بالوحدة في الدين وعدم التفرق، أمر رسوله الكريم هنا بالدعوة الى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها. . فلأجل وحدة الدين وعدم التفرق فيه ادعهم يا محمد الى الاتفاق والائتلاف، وثابر على تلك الدعوة كما أمرك الله، ولا تتبع أهواء المشركين. وقل: آمنتُ بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، وقد أمرني الله بإقامة العدل بين الناس، فهو ربّ هذا الكون، وكلّ امرئ مسئولٌ عن عمله، لا جدال بيننا وبينكم، فقد وضَّح الحقّ، والله يجمع بيننا للفصل والعدل، واليه المرجع والمآل.

ثم بين ان الذين يخاصمون في دين الله من بعد ما استجاب الناس له، حُجَّتْهم باطلة، لا ينبغي النظر اليها، وعليهم غضبٌ من ربهم بسبب كفرهم، ولهم عذابٌ شديد يوم القيامة. إن الله هو الذي أنزل القرآن على نبيه محمد، كما انزل ما قبله من الكتب مشتملةً على الحق والعدل. . وما يدريك أيها النبي لعل وقت قيام الساعة قريب.

الذين لا يصدّقون بحجيء الساعة يستعجلونها، وما استعجلهم هذا الا من قبيل الاستهزاء، اما الذين آمنوا بالله ورسوله وقيام الساعة فإنهم خائفون من قيامها فلا يستعجلون، ويعلمون ان ذلك حقٌّ ثابت لا ريب فيه. وما الذين يجادلون في قيام الساعة من المشركين إلا في ضلالٍ بعيدٍ عن الحق.

٤٢.٤ 19

حرث الآخرة: العمل الصالح الباقي. حرث الدنيا: متاعها من مال وبنين وغيرهما. يقال حرث المال: جمعه، وكسبه، واحترته مثله. أم لهم شركاء: شركاء في الكفر. شرعوا لهم: زينوا لهم. ما لم يأذن به الله: كالشرك وانكار البعث والعمل للدنيا فقط. كلمة الفصل: هي الحكم والقضاء منه تعالى بتأخيرهم الى يوم القيامة. روضات الجنات: اطيب بقاعها وأجملها.

يبين الله تعالى أنه لطيف بعباده، ومن لطفه انه يرزق من يشاء كما يشاء، وانه القوي الذي لا يُقهر ولا يغلب، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم بين ان من كان يريد بعمله ثواب الآخرة - يضاعف له اجره اضعافا كثيرة، ومن كان يريد بأعماله متاع الدنيا وجلب لذاتها يعطيه الله ما يريد، وليس نلخ في الآخرة نصيب من نعيمها. ومثل ذلك في سورة آل عمران {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٥].

ثم أعقب ذلك بذكر ما وسوست به الشياطين لشركائهم، وزينت لهم من الشرك بالله وانكار البعث والجزاء، وأنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك، لكن الله تعالى أجله لما سبق في علمه من تأخيرهم الى يوم معلوم. {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

وترى يوم القيامة الظالمين خائفين أشد الخوف مما كسبوا من السيئات، فالعذاب واقعٌ بهم. وفي المقابل ترى الذين آمنوا وعملوا الصالحات متمتعين في أطيب بقاع الجنّات، لهم ما يتمنون من النعيم عند ربهم.

{ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}

ذلك هو الجزاء العظيم الذي اعطاهم إياه ربهم، وهو الذي يفوق كل كرامة في الدنيا.

٤٢٠٥ 23

في القربى: في القرابة التي بيني وبينكم، او في قرابتي من اهل بيتي. يقترب: يفعل، يكتسب. يختم على قلبك: يغلقه عن الفهم. يحو: يزيل. يُحَقِّقُ الحق: يثبت الحق. بِكَلِمَاتِهِ: بوحيه وأدلتة وحججه. بذات الصدور: ما يختلج في الضمائر.

بعد ان ذكر الله في الآيات السالفة ما أعدَّ للمؤمنين في أطيب أماكن الجنّات - بين هنا ان ذلك الفضل الكبير هو الذي يبشّر به عباده المؤمنين. فقل لهم أيها الرسول: انا لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، وكل ما اطلبه منكم ان توادوني مراعاةً للقرابة التي بيني وبينكم. ويدخل في ذلك مودة النبي ﷺ ومودة قرابته من أهل بيته. ومن يعمل عملاً صالحاً يضاعف الله له جزاءه، ان الله واسع المغفرة للمذنبين.

ثم أنكر الله تعالى على من يقول بأن النبي الكريم اختلق القرآن: لقد قالوا ان ما يتلوه محمد علينا من القرآن ما هو الا اختلاق من عند نفسه لا بوحى من عند ربه، فإن يشأ الله يربط على قلبك لو حاولت الاقتراء عليه، والله تعالى يحو باطلهم بما بهتوك به، ويثبت الحق الذي أنت عليه بوحيه وارادته، فأنت على حق وهم على باطل.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}

فيعلم ما يختلج في ضمائرهم وتنطوي عليه السرائر.

ثم يمتن الله على عباده فيكرّر أنه يقبل التوبة عن عباده ويتجاوز عما فرط منهم تفضلاً منه ورحمة بعباده.

{وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} من خير أو شر، ورحمته تسبق غضبه، وباب التوبة مفتوح والحمد لله.

ثم وعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا دعوه، ويزيدهم خيراً على مطلوبهم من فضله

{وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}

قراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو وابن عامر: ويعلم ما يفعلون بالياء، والباقون: تفعلون بالتاء.

٤٢٠٦ 27

بسط الله الرزق: وسّعه. لبغوا: لظلموا وتجاوزوا حدود الله. بقدر: بتقدير. الغيث: المطر. قنطوا: يئسوا. وينشر رحمته: تعم منافع الغيث وآثاره جميع المخلوقات. الحميد: المستحق للحمد. بث: نشر. الدابة: كل ما فيه حياة على هذه الارض. على جمعهم: يوم القيامة. بمعجزين: لا تستطيعون ان تجعلوا الله عاجزاً بالهروب منه. الجواري: السفن. كالأعلام: كالجبال. رواحد: ثابتة لا تتحرك. صبار: كثير الصبر وضبط الأعصاب. شكور: كثير الشكر على النعم. يُؤَبِّقُهُنَّ: يُهْلِكُهُنَّ. ما لهم من محيص: لا مهرب لهم.

إن الله تعالى خبير بما يصلح عباده من توسيع الرزق وتضييقه، فهو لا يعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق بل يقدر لكلّ منهم ما يصلحه، فإن كثرة الرزق على الناس تجعلهم يتكبرون ويتكبرون، فالله تعالى يبسط لمن يشاء، ويمنع عمن يشاء. ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا. ومن أسباب الرزق المطر وغيره، فالله وحده هو الذي يغيث الخلق بالمطر، وينشر بركات الغيث ومنافعه في النبات والثمار والحيوان ويغذي ينابيع المياه، وهو الذي يتولّى عباده بإحسانه {وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} .

ثم اقام الأدلة على ألوهيته بخلق السموات والأرض وما فيهما من الحيوان، ومن ثبتت قدرته بإبداع هذا الكون هو قدير على جمع الناس في الوقت الذي يشاء بعثهم فيه للجزاء.

ثم بين الله تعالى للناس ان هذه الحياة فيها دستور ثابت لا يتغير وهو انه: كل ما يحلّ بكم ايها الناس من المصائب في الدنيا يكون بسبب معاصيكم، وما اجترتم من آثام.

ولو نظرنا الآن الى احوالنا نحن العرب والمسلمين وما نحن عليه من ضعف وتأخر وتفكك - لرأينا ان هذه الآية تنطبق على حالنا ومجتمعاتنا. فنحن لا ينقصنا مال ولا رجال، ولا أرض، وانما ينقصنا صدق الايمان، واجتماع الكلمة، والعمل الصحيح لبناء مجتمع سليم، يجمع الكلمة ويوحد الصفوف، ويوفر هذه الأموال الضائعة على شهوات بعض أفراد معدودين من متنفذي الأمة يبدّرونها على السيارات والقصور والأثاث الفاخر وإشباع الغرائز، ويكدّسون أموال المسلمين في بنوك الأعداء.

ولو ان زكاة هذه الأموال صرفت على الدفاع عن الوطن، والاستعداد لمواجهة العدو المتربص بنا لكان فيه الكفاية. ان العمل الصالح والتنظيم والحكم الأمين يدوم ويرفع مستوى الناس حتى يعيشوا في رغد من العيش، اما الظلم والفساد والطغيان في الحكم واتباع الشهوات فانه لا يدوم، ويجعل الناس في قلق وبلبله وشكّ وضياح كما هو واقع في مجتمعاتنا. . . . وهذا معنى {فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} . والله سبحانه وتعالى يرحم من تاب ويعفو عن كثير من الذنوب والأخطاء، ورحمته واسعة والحمد لله.

انكم ايها الناس لا تُعجزون الله حيثما كنتم، وما لكم من دونه وليّ يدافع عنكم، ولا نصير ينصركم اذا هو عاقبكم. ومن دلائل قدرة الله هذه السفن الجارية في البحر كالجبال الشاهقة في عظمتها، فالله قادر ان يوقف الرياح فلا تجري. {أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ}

أو يهلك اصحاب السفن بذنوبهم، لكنه يعفو عن كثير فلا يعاجلهم بالكثير من ذنوبهم. ان الله تعالى فعل ذلك ليعتبر المؤمنون، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا بالباطل أنهم في قبضته، ما لهم من مهرب من عذابه. قراءات:

قرأ نافع وابن عامر: بما كسبت ايديكم. والباقون: فيما كسبت ايديكم. وقرأ نافع وابن عامر: ويعلم الذين يجادلون، برفع يعلم. والباقون: ويعلم بالنصب.

٤٢٠٧ 36

فما أوتيتم: فما اعطيتم. كجاء الإثم: كل ما يوجب حداً. الفواحش: كل ما عظم قبحه من السيئات. استجابوا: اجابوا داعي الله. الشورى: المشاورة في الأمور. البغي: الظلم. ينتصرون: ينتقمون لانفسهم. ما عليهم من سبيل: ما عليهم عقاب. لمن عزم الأمور: لمن الأمور الحسنة المشكورة.

يذكر الله تعالى الناس بأن لا يغترّوا بهذه الحياة الدنيا، فكل ما فيها من متاع ولذة ومال وبنين هو قليل جداً بالنسبة لما أعدّه الله للمؤمنين عنده من نعيم الجنة الدائم للذين يتوكلون على ربهم، ويتعدون عن ارتكاب الكبائر. {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}

والذين يتحكمون في أعصابهم عند الغضب، ويملكون أنفسهم، ويغفرون لمن أساء اليهم. ومن صفات هؤلاء المؤمنين ايضاً انهم يحبون ربهم الى ما دعاهم اليه، ويقىمون الصلاة في اوقاتها على اكل وجوها. {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}

وهذا دستور عظيم في الاسلام، فهو يوجب ان يكون الحكم مبنياً على التشاور. وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يشاور أصحابه الكرام في كثير من الأمور، وكان الصحابة الكرام يتشاورون فيما بينهم. ومثل ذلك قوله تعالى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩] . قال الحسن البصري: «ما تشاور قوم الا هُدوا لأرشد أمرهم» . وقال ابن العربي: «الشورى ألفة للجماعة، وصقال للعقول،

وسببُ الى الصواب، وما تشاور قوم قط الا هدوا». ومن صفات هؤلاء المؤمنين البذلُ والعطاء بسخاء {وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} .
ومن صفات المؤمنين الصادقين أيضاً:
{والذين إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}
الذين اذا بغى عليهم أحد ينتصرون لأنفسهم ممن ظلمهم.
ثم بين الله تعالى ان ذلك الانتصار للأنفس مقيدٌ بالمثل:
{وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}
فالزيادة ظلم، والتساوي هو العدل الذي قامت به السموات والأرض.

ثم بين الله ان من الافضل العفو والتسامح فقال:
{فَنَنْعَفَا وَأُصْلَحَ فَاَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} . ومثل هذا قوله تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة: ٢٣٧] ، ومثله
ايضاً {وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: ١٢٦] ، الى آيات كثيرة وأحاديث تحث على الصبر
والعفو. وهذا سبيل الاسلام.
ثم بين الله تعالى أن الانسان اذا انتصر لنفسه ممن ظلمه فلا سبيلَ عليه، لكن اللوم والمؤاخذه على المعتدين الذين يظلمون الناس ويتكبرون
في الأرض ويفسدون فيها بغير الحق {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} .
ثم كرر الحث والترغيب في الصبر والعفو فقال:
{وَلَكِنْ صَبْرٌ وَغَفْرٌ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} .
هنا أكد الترغيب في الصبر وضبط النفس. وأفضل أنواع الصبر تحمّل الأذى في سبيل إحقاق الحق وإعلائه، وأفضل أنواع العفو ما
كان سبباً للقضاء على الفتن والفساد.
قراءات:
قرأ حمزة والكسائي: والذين يجتنبون كبير الإثم. والباقون: كبائر الإثم.

٤٢٠٨ 44

استجيبوا لربكم: أجيئوه. لا مردّ له: لا يرده احد بعد ما قضى الله به. ملجأ: مكان تلجأون اليه. وما لكم من نكير: ما لكم من إنكار
لما فعلتموه، لا تستطيعون ان تنكروه. حفيظاً: رقيباً، محاسباً لأعمالكم. رحمة: نعمة من صحة وغنى. سيئة: بلاء. عقيماً: لا يولد له.
ومن ضلّ طريق الهدى، وخذله الله لسوء استعداده فليس له ناصرٌ من الله، وترى الظالمين يوم القيامة حين يشاهدون العذاب، يسألون
ربهم ان يرجعهم الى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون، ولكن هيهات، لا سبيل الى العودة.
ثم بين الله حالهم السيئة حين يُعرضون على النار أذلاءً يسارقون النظر الى النار خوفاً منها.
عندئذ يقول المؤمنون: حقاً إن الخاسرين هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وخسروا أزواجهم وأولادهم وأقاربهم، وفرّق بينهم وبين
أحبابهم وحرموا النعيم الى الأبد، وصدق الله العظيم حين يقول: {أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} .
وما كان لهم من ينصرهم من الذين عبدوهم من دون الله، {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ} ، أي ليس له أي طريقٍ ينجيه من سوء
المصير المحتوم، جزاء ضلاله.

ثم يحذّر الله الناس طالباً إليهم ان يسارعوا الى إجابة ما دعاهم اليه الرسول الكريم، من قبل ان تنتهي الحياة وتنتهي فرصة العمل، ويأتي
يوم الحساب الذي {لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ} ويومئذ لا ملجأ ولا ملاذ لهم من العذاب، ولا يستطيعون انكار ما اجترموه من السيئات.

فإن أعرَضَ المشركون عن إجابتك أيها الرسول فلا تحزن، فليست عليهم رقبيا فيما يفعلون.
{إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ}

إن وظيفتك ان تبليغ، فاذا انت بلغت فقد أديت الأمانة. {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢] .
ثم بين الله تعالى طبيعة الانسان وخصيسته في هذه الحياة وضعفه فقال:

{وَأَنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ}

هذه هي طبيعة الانسان: إذا أغنيناه وأعطيناه سعة من الرزق فرح وبطر، وإن أصابته فاقة أو مرض {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} من معاصٍ ومخالفات - يئس وقنط، إن الانسان يكفر النعمة ويحدها.

ثم بين الله انه خالق هذا الكون، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويهب لمن يشاء الإناث من الذرية، ويمنع من يشاء الذكور دون الاناث. ويتفضل سبحانه على من يشاء بالجمع بين الذكور والاناث، {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} لا ولد له، {إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} عليم بكل شيء، قدير على فعل كل ما يريد.

٤٢.٩ 51

وحيا: كلاماً خفياً. من وراء حجاب: يُسمع ولا يُرى. روحاً من أمرنا: ان هذا القرآن روحٌ تحيا به القلوب، وتغذى به الأنفس. نوراً نهدي به: الناس الى الصراط المستقيم.

بعد ان بين تعالى النعم الحسية التي يعيش بها الناس، بين هنا النعم الروحية التي تحيا بها القلوب، وتعمُرُ الأنفس، وبين أن الناس محبوبون عن ربهم، لأنهم في عالم المادة وهو منزّه عنها، ولكن من رَقَّ حجابُه، وخلصت نفسه من شوائب المادة، فانه يستطيع ان يتصل بالملأ الأعلى، وان يسمع كلام ربّه بأحد الأوجه الآتية:

١- ان يحسّ بمعان تلقى في قلبه، او يرى رؤيا صادقة كرويا لخليل إبراهيم بانه يذبح ولده. . . ورؤيا الأنبياء وحي.

٢- ان يسمع كلاماً من وراء حجاب كما سمع موسى عليه السلام من غير ان يبصر من يكلمه، فقد سمع كلاماً ولم ير المتكلم.

٣- ان يرسل الله ملكاً فيوحي الى النبي ما كلف به.

ثم ذكر الله تعالى انه كما أوحى الى الانبياء قبل محمد فقد أوحى اليه القرآن الكريم، وما كان محمد قبل ذلك يعلم ما هو القرآن وما الشرائع التي بها هداية البشر وصلاحهم في الدارين. ثم خاطبه بهذه العبارة اللطيفة، {وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .

ثم فسّر ذلك الصراط بقوله تعالى: {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} خلقاً وتديراً وتصرفاً. وفي الختام كل شيء ينتهي اليه، ويلتقي عنده، وهو يقضي فيها بأمره {أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} .

وهكذا تنتهي هذه السورة الكريمة بالحديث الذي بدأت به عن الوحي، والذي كان محورها الرئيسي، وقد عالجت قصة الوحي منذ النبوات الأولى، لتقرر وحدة الدين ووحدة الطريق، وتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة برسالة سيد الوجود سيدنا محمد ﷺ ومن يتبعه من المؤمنين الصادقين، ليقودوا الناس الى صراط الله المستقيم.

الكتاب: القرآن الكريم. المبين: لطريق الهدى. لعلكم تعقلون: لعلكم تفهمونه لأنه بلسانكم. أم الكتاب: اللوح المحفوظ. افضرب عنكم الذكر: أنعرض عنكم وترككم. صفحا: إعراضا. مسرفين: متجاوزين الحد في الكفر. أشد منهم بطشا: أقوى منهم وأجلد. مثل الأولين: وصفهم وحالهم. مهذا: فراشا. سبلا: طرقا. بقدر: بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة. فأنشرنا: فأحيينا. ميتا: يابسة خالية من النبات. الأزواج: أصناف المخلوقات. لتستوا على ظهوره: لتستقروا عليها. سخر: ذل. مقرنين: مطيقين. يقول الشاعر: ولستم للصعاب بمقرنين. لمنقلبون: لراجعون.

حم: تقرأ هكذا حاميم. افتتحت هذه السورة بهذين الحرفين من حروف الهجاء وقد تقدم ذكر أمثالهما. وقد أقسم الله تعالى بكتابه المبين لطريق الهدى، وأنه جعله بلغة العرب، لغة قومك أيها الرسول ليفهموا معناه، وأنه محفوظ في علمه تعالى، فليس هو من عند محمد كما تدعون يا مشركي قريش. اننا لن نترك تذكيركم به بسبب من إعراضكم عنه، وانهماكم في الكفر به، وإنما نفعل ذلك رحمة منا ولطفاً بكم.

ثم حذرهم وأذهرهم بأن كثيراً من الأمم قبلهم كانوا أشد منهم قوة، وكذبوا رسلهم فكانت عاقبتهم الدمار والهلاك. {ومضى مثل الأولين}

وقد رأيتم ما حل بهم، فاحذروا ان يحل بكم مثله.

وبعد أن ذكر ان المشركين سادرون في كفرهم وإعراضهم عما جاء به القرآن بين هنا أن أفعالهم تخالف أقوالهم: {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} ومع اعترافهم هذا بالله يعبدون الاوثان من دونه!! .

ثم ذكر تعالى أنه هو الذي جعل لكم الأرض فراشاً ممهّداً، وجعل فيها طرقاً لتتهدوا بها في سيركم، ونزل من السماء ماءً بقدر الحاجة يكفي الزرع ويسقي الحيوان، وأحيا به الأرض الميتة. ومثل إحياء الأرض بعد موتها، يخرجكم يوم القيامة للحساب والجزاء. ولقد خلق اصناف المخلوقات جميعاً من حيوان ونبات، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها، وتذكروا نعمة ربكم وتقولوا: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}

لولا لطف الله بنا ما كنا لذلك مطيقين. إننا يوم القيامة إلى ربنا لراجعون، فيجازي كل نفس بما كسبت، فاستعدوا لذلك اليوم، ولا تغفلوا عن ذكره. قراءات:

قرأ نافع وحزمة والكسائي: إن كنتم قوما مسرفين بكسر همزة ان. والباقون: أن كنتم بفتح الهمزة.

جزء: ولداً، إذ قالوا الملائكة بنات الله. مبين: ظاهر واضح. بما ضرب للرحمن مثلاً: يعني بالنبات. أصفاكم: خصمكم. كظيم: ممتلئ غيظاً. ينشأ: يربى.

بعد ان بين الله أنهم يعترفون بالألوهية وأن الله هو خالق هذا الكون - ذكر هنا أنهم متناقضون مكابرون، فهم مع اعترافهم لله بخلق السموات والأرض قد جعلوا بعض خلقه ولداً ظنوه جزءاً منه. وهذا كفر عظيم.

ومن عجيب أمرهم أنهم خصّوه بالبنات، وجعلوا لهم البنين، مع أنهم إذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى صار وجهه مسوداً من الغيظ، وامتلأ
كآبة وحزناً لسوء ما بُشِّرَ به.

{أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}

وقد جعلوا لله الأنثى التي تتربى في الزينة، وإذا خوصمت لا تُقدّر على الجدل والمخاصمة، واختاروا لأنفسهم الذكور!!

ثم نعى عليهم في جعلهم الملائكة إناثاً، وزاد في الإنكار عليهم بأن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة، فهل شهدوا ولادتهم؟
{سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُونَ} يوم القيامة حيث يُسألون عنها ويجازون بها.

ثم حكى عنهم شبهة أخرى، وهي أنهم قالوا: لو شاء الله ما عبدنا الملائكة، وردّ عليهم بقوله: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ} ويعني: هل
اعطيناهم كتاباً قبل القرآن يؤيد اقتراءهم هذا فهم متعلقون به!

وعندما فقدوا كل حجة ودليل قالوا:

{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}

لقد وجدنا آبائنا على دينٍ فقلدناهم، وبذلك ينقطع الجدل بعد عنادهم وعجزهم.

ان حال هؤلاء مثل الأمم السابقة، فقد قالت {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}

وفي هذا تسليّة للرسول الكريم ودلالة على ان التقليد في نحو ذلك ضلالٌ قديم.

ثم حكى الكتابُ الكريم ما قاله كل رسول لأُمته:

{قُلْ أُولُو جِثَّتِكُمْ بَأْهَدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}

اتبعون آباءكم وتلقّدونهم ولو جثتكم بدينٍ هو خيرٌ من دين آباءكم بما فيه من الهداية والرشاد! .

فقالوا مجيبين ومصرّين على كفرهم: {قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} . ولم يبق لهم عذرٌ بعد هذا كله ولذلك قال تعالى: {فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِبِينَ}

وفي هذا تسليّة كبرى للرسول الكريم، وإرشادٌ له إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه له، ووعيدٌ وتهديد لهم.
قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: أَوْ مَنْ يَنْشَأُ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين المفتوحة والباقون: أَوْ مَنْ يَنْشَأُ بفتح الياء وسكون النون
وفتح الشين من غير تشديد.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن. والباقون: الذي هم عباد الرحمن. وقرأ نافع: أَشْهَدُوا خلقهم
بفتح الهمزة وبضم الألف واسكان الشين. وقرأ الباقون: أَشْهَدُوا بهمزة واحدة وكسر الشين. وقرأ ابن عامر وحفص: قال أولو جثتكم.
وقرأ الباقون: قل أولو جثتكم، بفعل الأمر.

٤٣.٣ 26

براء: بريء، ولفظ (براء) يطلق على المفرد والمثنى والجمع تقول: أنا براء مما تعملون، وانتم براء وانتما براء. فطرني: خلقني. وجعلها كلمة
باقية: وجعل كلمة التوحيد باقية. في عقبه: في ذريته. من القريتين: من إحدى القريتين وهما مكة والطائف. رحمة ربك: النبوة.
سخريا: بمعنى التسخير. معارج: مفردة معرج ومعراج وهو المصعد والسلام. وعليها يظهرون: يصعدون. السرر والأسرة: جمع سرير.
الزخرف: الزينة والنقوش. ان كل ذلك لما متاع الحياة: إن كل ذلك الا متاع الحياة.

يبين الله تعالى للمعاندين لرسول الله ﷺ أن أشرف آبائهم وهو ابراهيم عليه السلام ترك دين آباءه، وقال لأبيه وقومه: إني بريء من

عبادة آلهتكم الباطلة. وانه لا يعبد الا الله الذي خلقه على فطرة التوحيد، فهو سيّديه إلى طريق الحق، ويجعل كلمة التوحيد باقية في ذريته {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} فيؤمنون بها.

لقد متّع الله قريشاً بالنعمة والأمن في بلدهم، فاغترّوا بذلك ولم يتّبعوا ملّة أبيهم ابراهيم. . .

{حتى جاءهم الحق ورسول مبين}

جاءهم الرسول الأمين بالقرآن الكريم يهديهم الى الصراط المستقيم. فلما جاءهم الرسول بالحق كذبوه وقالوا ساحر. {وإنا به كافرون}

وقالوا مستخفّين بهذا النبيّ الكريم لأنه فقير: هلاًّ نزل القرآن على أحد رجلين من عظماء مكة او الطائف وهما: الوليد بن المغيرة من سادات مكة، او عروة بن مسعود الثقفي من سادات الطائف.

وهنا يردّ الله تعالى عليهم ويبين لهم جهلهم بأن العظمة ليست بكثرة المال ولا بالجاه، وأن النبوة منصب إلهي وشرف من الله يعطيها من يستحقها، وليست بأيديهم ولا تحت رغبتهم ولذلك قال:

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}

كيف جهلوا قدر أنفسهم حتى يتحكموا في النبوة ويعطوها من يشاؤون! الله تعالى قسم المعيشة بين الناس وفضل بعضهم على بعض في الرزق والجاه، ليتخذ بعضهم من بعض أعواناً يسخّرونهم في قضاء حوائجهم، وليتعاونوا على هذه الحياة.

{وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}

والنبوة وما يتبعها من سعادة الدارين خير من كل ما لديهم في هذه الحياة الدنيا. فهذا التفاوت في شئون الدنيا هو الذي يتم به نظام المجتمع، فلولا له لما صرف بعضهم بعضاً في حوائجه، ولا تعاونوا في تسهيل وسائل العيش.

ثم بين الله تعالى انه: لولا ان يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة من الرزق لمتّعهم الله بكل وسائل النعيم، فجعل لبيوتهم أبواباً من فضة وسقفاً وسرا ومصاعد من فضة، وزينة في كل شيء. . . وما هذا كلّه إلا متاع قليل زائل مقصور على الحياة الدنيا الفانية.

{وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}

أعدّها الله للذين أحسنوا واتّقوا وأخلصوا في إيمانهم.

روى الترمذي وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ك انت الدنيا تجل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» .

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو: سقفاً بالافراد، والباقون: سقفاً بالجمع. وقرأ عاصم وحزمة وهشام: لما متاع الحياة بتشديد ميم. لما. والباقون: لما بالتخفيف.

٤٣٠٤ 36

ومن يعيش عن ذكر الرحمن: ومن يعرض عنه، يقال عشا يعيشو عشوا: ساء بصره، وعشا الى النار: رآها ليلاً فقصدها. وعشى وعشاوة: اصاب بصره بضعف. نقيض له: نهى له. القرين: الرفيق الذي لا يفارق. ذكر الرحمن: القرآن. بعد المشرقين: يعني المشرق والمغرب، بين المشرق والمغرب. والعرب تسمي احيانا الشيئين المتقابلين باسم احدهما. كما نقول العُمران: ابو بكر وعمر، القمران: الشمس والقمر. فإما نذهبن بك: فإن قبضناك وأمتناك. وإنه لذكر لك ولقومك: ان القرآن شرف لك ولقومك تُذكرون به الى الأبد.

بعد ان بين الله ان المال متاع الدنيا عَرَضُ زائل، وان نعيم الآخرة هو النعيم الدائم - ذكر هنا أن الذي يهتم بالدنيا ومتاعها ويُعرض عن

القرآن وما جاء به يهني له شيطاناً لا يفارقه، وأن شياطين هؤلاء الفئة من البشر يصدونهم عن السبيل القويم، ويظنون أنهم مهتدون. حتى اذا جاء ذلك الرجل يوم القيامة الى الله ورأى عاقبة إعراضه وكفره قال لقرينه نادماً: يا ليت بيني وبينك بعد المشرق والمغرب، فبئس صاحب كنت لي، حتى أوقعني في الهاوية.

ثم يقال لهم جميعاً: لن يخفف العذاب عنكم اليوم، وكلكم في العذاب مشتركون، لا يستطيع أحد منكم ان يساعد الآخر. ثم بين الله تعالى لرسوله الكريم أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم، فأنت يا محمد لا تسمع الصم عن الحق ولا تهدي العمي عن الاعتبار. ثم سلى رسوله الكريم وبين له انه لا بد أن ينتقم منهم، إما في حياة الرسول او بعد مماته، فان قبضناك يا محمد قبل ان نريك عذابهم، ونسفي بذلك صدرك وصدور قوم مؤمنين فإننا سننتقم منهم في الدنيا والآخرة. {أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ} مسيطرون.

فاعتصم يا محمد بالقرآن لأنه الحق والنور المبين، وأيئت على العمل به، والله معك لأنك على صراطه المستقيم. ان القرآن الذي أوحيناه إليك شرف لك وللعرب، فلقد رفع من شأنهم ونشر سلطانهم ولغتهم في شرق الأرض وغربها، وكما قال تعالى: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء: ١٠] . وأي ذكر اعظم ابها الرسول في شرائع من أرسلنا قبلك من رسلنا، هل جاءت دعوة الناس الى عبادة غير الله؟ ان جميع الرسل جاؤا بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابو عمرو وحفص: حتى اذا جاءنا بالافراد. والباقون: جاءنا على التثنية.

٤٣٠٥ 46

بآياتنا: بمعجزاتنا التي أظهرها على يد موسى. ملئه: اشراف قومه. مبا عهد عندك: بما اخبرتنا من عهده إليك أنا اذا آمنا كشف عنا العذاب. ينقضون العهد. وهذه الأنهار تجري من تحتي: من تحت قصري وبين يدي في جناتي. مهين: حقير، ضعيف. ولا يكاد يبين: لا يكاد يفصح عما في نفسه، لأنه كان ألغ يجعل الرء غينا. أسورة: جمع سوار وكانوا يلبسون الرئيس او العظيم اسورة من ذهب. مقتربين: ملازمين، ليعينوه ويساعدوه. فاستخف قومه: استخف عقولهم. آسفونا: أغضبونا، والأسف هو الحزن او الغضب. سلفاً: قدوة لمن بعدهم من الكفار. ومثلاً: عبرة وموعظة.

بعد ان ذكر الله ان كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ لكونه فقيراً - بين هنا ان سيدنا موسى جاء الى فرعون واشراف قومه وقال لهم {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وأظهر لهم المعجزات، لكنهم سخروا منه وضحكوا من المعجزات. وكانت كل معجزة من المعجزات التي تواتت عليهم أكبر من أختها. وحيث أصروا على الكفر والطغيان أصبناهم بأنواع البلايا، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} عن غيهم. ولكن بالرغم من معاينتهم تلك المعجزات فقد اعتبروها من قبيل السحر فقالوا: يا ايها الساحر، ادع لنا ربك متوسلاً بما عهد عندك ان يكشف عنا العذاب، فإذا كشفه عنا اهتدينا وآمنا بما تريد.

فلما كشف الله عنهم العذاب بدعاء موسى نقضوا العهد ولم يؤمنوا. وقد جاءت هذه القصة مفصلة في سورة الأعراف.

ثم اخبر الله عن تمرد فرعون وطغيانه وعنده فقال: {وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ. . .} أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار التي تشاهدونها تجري من تحت قصري، {أَفَلَا تَبْصُرُونَ} أيها القوم!؟

{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ}

فأنا خير من هذا الفقير الحقير الذي لا يكاد يفصح عما يريد.

ثم ذكر شبهة مانعة لموسى من الرياسة، وهي انه لا يلبس لباس الملوك، فهلاًّ التقى ربه عليه أساور من ذهب ان كان صادقاً!! او جاء

معه الملائكة ملازمين له ليساعدوه! {فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قومًا فاسقين} .
وبعد ذلك بين الله ان هذه الخلد قد انطلت عليهم، وسخرت ألبابهم، فأطاعوه واعترفوا بربوبيته وكذبوا موسى .
ثم بين الله مآلهم: فلما أغضبونا بعنادهم انتقمنا منهم بعاجل عذابنا، فأغرقناهم أجمعين، وجعلناهم قُدوةً لمن يعمل عملهم من اهل الضلال، وعبرةً وموعظة لمن يأتي بعدهم من الكافرين .
وفي قصة موسى هنا تسليةٌ للرسول الكريم بها لأن قومه عيروه بالفقر، وقد سبق لموسى ان عيره فرعونٌ بالفقر والضعف .
قراءات:
قرأ حفص: اسورة. وقرأ الباقون: أساور، اسورة جمع اسوار، وجمع الجمع اساور وأساوره. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: فجعلناهم سُلُفاً بضم السين واللام. والباقون: سلفاء، بالإفراد.

٤٣٠٦ 57

يصدون: يصيحون ويضجون. جدلاً: خصومة بالباطل. خصمون: شديدون في الخصومة، ومحبولون على اللجاج وسوء الخلق. وجعلناهم مثلاً لبني اسرائيل: آية وأمرًا عجيباً. لعلمٌ للساعة: علامة من اشراطها. فلا تترن: فلا تشكن. البيئات: المعجزات. الحكمة: الشرائع المحكمة.
لقد جادل مشركو قريش رسول الله ﷺ جدلاً كثيراً، من ذلك ان الرسول الكريم لما تلا عليهم: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨] قال له عبدُ الله بن الزبير - وهو من شعراء قريش وقد أسلم وحسن إسلامه فيما بعد-: أليس النصراري يعبدون المسيح وأنت تقول كان عيسى نبياً صالحاً، فان كان في النار فقد رضيينا. فأنزل الله تعالى بعد ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١] .
وجادلوه بعد ذلك كثيراً، ولذلك يقول الله تعالى:
{وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}
لما بين الله وُصفَ عيسى الحق من أنه عبدٌ مهلوق، وعبادته كفرٌ، إذا قومك أيها النبي يعرضون عن كل هذا.
فقال الكافرون: أألھتنا خير أم عيسى؟ فإذا كان عيسى في النار فلنكن نحن وأهلنا معه. . وما ضرب الكفار لك هذا المثل الا للجدل والغلبة في القول لا لإظهار الحق.
{بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}

إنهم قوم شديدون في الخصومة، محبولون على العنت والعناد.
ثم بين الله تعالى ان عيسى عبدٌ من عبيده الذين أنعم عليهم فقال:
{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَٰئِيلَ}
وما عيسى ابن مريم غلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوة، وقد جعلناه آيةً بأن خلقناه من غير أبٍ كمثلي آدم خلقه الله من تراب. ولو نشاء لجعلنا في الأرض عجائب كأمر عيسى كأن نجعل لبعضكم أولاداً ملائكة يخلفونهم، كما خلقنا عيسى من غير أب.
والحق أن عيسى بحدوثه من غير أبٍ لدليل على قيام الساعة، {فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا} واتبعوا هداي وهدي رسولي، فما أدعوكم اليه هو الصراط المستقيم. ويقول بعض المفسرين، وان القرآن الكريم ليعلّمكم بقيام الساعة فاتبعوا تعاليمه، ولا تتبعوا زيف الشيطان انه لكم عدوٌ ظاهر.
ولما جاء عيسى رسولاً الى بني اسرائيل ومعه الآيات الدالة على رسالته، قال لقومه: قد جئتكم بشريعةٍ حكيمة تدعوكم الى التوحيد،

وجئتكم لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمر الدين، فاتقوا الله في مخالفتي، وأطيعوني فيما أَدْعُوكُم إليه. ان الله هو خالقي وخالقكم فاعبدوه وحده، وحافظوا على شريعته، ففي الطريق الموصل الى النجاة. ولكنهم خالفوا ما دعاهم اليه، واختلفوا، وصاروا شيعة وفرقاً لا حصر لها. {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ} هو يوم القيامة، حين يحاسبون على كل صغيرة وكبيرة.

هل ينتظر هؤلاء الاحزاب المختلفون في شأن عيسى الا ان تقوم الساعة بغتة وهم غافلون عنها؟!
قراءات:

قرأ الكسائي ونافع وابن عامر: يصدون بضم الصاد. والباقون: بكسرهما.

٤٣٠٧ 67

الأخلاء: جمع خليل الاصدقاء. مسلمين: مخلصين منقادين لربهم. تحبرون: تسرون. بصحاف: جمع صحفة وهي آتية الطعام، يؤكل بها. أكواب: جمع كوب، وهو خازن النار. أم أبرموا أمرا: احكموا تدبيره. نجواهم: ما يتناجون به بينهم.

في هذه الآيات مشهد من مشاهد يوم القيامة بين حال فريقين متقابلين، وهو يبدأ في رسم صورة عن الأصدقاء في ذلك اليوم فيقول: ان الأصدقاء بعضهم لبعض عدو الا الذين كانت صداقتهم خالصة لوجه الله واجتمعوا على التقوى، فإنهم في كنف الله وضيافته لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ويومئذ يقال للذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله الكريم: ادخلوا الجنة أنتم وازواجكم تُسرون فيها سروراً عظيماً. وهناك يلقون من النعيم ما لا مثيل له في الدنيا، ويطاف عليهم بأوان من ذهب ويشربون بأكواب من ذهب، ويجدون كل ما تشتهي انفسهم وما تلذ به أعينهم، ويقال لهم إكمالاً للسرور: {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} . وفي هذه الجنة أيضاً فاكهة كثيرة الانواع {مِنْهَا تَأْكُلُونَ} .

ثم بين حال الفريق المقابل من أهل النار، وما يكون فيه الكفار من العذاب الدائم الذي لا يخفف عنهم ابداً، وهم في حزن لا ينقطع. والله تعالى لم يظلمهم بهذا العذاب {ولكن كانوا هم الظالمين} باختيارهم الضلالة على الهدى.

ثم بين كيف يقول أهل النار لخزنتها ويطلبون منهم ان يموتوا حتى يستريحوا من العذاب، ويرد عليهم مالك، خازن النار قائلاً: {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ}

لقد جاءكم رسولنا بالدين الحق فآمن به قليل، وأعرض عنه أكثركم وهم كارهون، وستبقون في جهنم هذه جزاء كفركم.

ثم بين الله ما أحكموا تدبيره من رد الحق، وإعلاء شأن الباطل، وقال لهم: {فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}

إنا محكمون أمراً في مجازاتكم واطهار الرسول عليكم.

لقد هموا فيما ظنوا أننا لا نسمع سرهم وما يتناجون به بينهم، {بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} كل ما صدر عنهم من قول او فعل.
قراءات: قرأ حفص ونافع وابن عامر: ما تشتهي الانفس. والباقون: ما تشتهي الأنفس.

٤٣٠٨ 81

سبحان رب السموات: تنزيهاً له عن كل نقص. يصفون: يقولون كذباً بأن له ولداً. فذرهم: فاتركهم. يخوضوا: يتكلموا بالباطل. حتى يلاقوا يومهم: يوم القيامة. يدعون: يعبدون. يؤفكون: يصرفون. وقيله: وقوله، يقال قلت قولاً، وقالاً، وقيلاً، فاصفح عنهم: فاعف عنهم.

قل ايها الرسول للمشركين: إن صحّ الدليل القاطع ان للرحمن ولداً فأنا أول من يعبد هذا الولد، لكنه لم يصحّ ذلك ولن يصحّ.

ثم نزه الله نفسه بقوله:

{سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}

تنزه خالق هذا الكون العجيب ورب العرش المحيط بذلك كله، عما يصفه المشركون.

ثم امر الرسول الكريم أن يتركهم في خوضهم بباطلهم وشركهم حتى يلاقوا يومهم، يوم القيامة، وهناك يدركون خطأهم ويندمون.

ثم أكد هذا التنزيه ببيان أن الله هو الذي يُعبد في السماء بحق، ويُعبد في الأرض بحق.

{وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم.

ان عنده وحده علم يوم القيامة، واليه وحده ترجعون في الآخرة للحساب، أما هذه الأوثان التي تعبدونها فلن تستطيع الشفاعة لكم. أما

من نطق بالحق وكان على بصيرة من عند ربه فان شفاعته تنفع عند الله بإذنه، ولمن يستحقها.

ثم بين ان هؤلاء المشركين يتناقضون في اقوالهم وافعالهم فقال:

{وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}

ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من الذي خلقهم ليقولن: خلقنا الله، فكيف إذن يُصرفون عن عبادته تعالى الى عبادة غيره؟!.

{وَقِيلَ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ}

والله عنده علم الساعة وعلم قول الرسول يا رب ان هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ. وقيل بالجر نعطف على قوله وعنده

علم الساعة وعلم قيله.

ولذلك قال له تعالى:

{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}

فأعرض عنهم أيها الرسول، وقل لهم سلام، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم، وأنك ستنتصر عليهم.

قراءات:

قرأ عاصم وحمزة: وقيله بالجر، والباقون: وقيله بالنصب.

٤٤ الدخان

٤٤٠١ 1

ليلة مباركة: هي ليلة القدر. منذرين: مُعلِّين ومخوفين. يفرق: يفصل ويبين. حكيم: محكم لا يمكن الطعن فيه. ان كنتم موقنين: ان كنتم مؤمنين ومصدقين حقاً.

حم: تقرأ هكذا حاميم: من الحروف الصوتية، وقد تكلمنا عن هذا الاسلوب والغرض منه.

أقسم الله تعالى بالقرآن الكاشف عن الدين الحق، المبين لما فيه صلاح البشرية في دنياهم وأخراهم، وأنه انزل القرآن في ليلة مباركة

هي ليلة القدر، لإنذار العباد وتخويفهم بإرسال الرسل وانزال الكتب. وفي هذه الليلة المباركة يفصل الله كل أمر محكم، والقرآن رأس

الحكمة والفصل بين الحق والباطل، يبين لهم ايضاً وما ينفعهم. {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} إن الله لا تخفى عليه خافية من أمرهم،

فهو الذي بيده إحيائهم وإماتهم، وهو ربهم ورب آبائهم الأولين، المالك لهم والمتصرف فيهم حسب ما يريد.

{بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ}

انهم ليسوا بموقنين بعد أن بينا لهم الرشد من الغي وأصروا على كفرهم وشكهم وعنادهم لاهين لاعبين.

قراءات:

قرأ الكوفيون: رَبِّ السَّمَاوَاتِ. بالجر. والباقون: رَبُّ السَّمَاوَاتِ بالرفع.

٤٤.٢ 10

فارتقب: فانتظر. الدخان: الدخان المعروف الناشئ عن النار. يغشى الناس: يحيط بهم. اكشف عنا: ارفع عنا. أتى لهم الذكرى: كيف يتذكرون ويتعظون. وقالوا معلّم: يعلمه بعض الناس. البطش: الأخذ الشديد. فتنّا: بلونا، وامتحاننا. أدوا إلى عباد الله: اعطوني عباد الله وأطلقوهم. لا تعلوا على الله: لا تستكبروا. بسلطان مبين: بحجة واضحة. عذت بربي وربكم: التجأت إليه وتوكلت عليه. انتظر أيها الرسول يوم القيامة حين تأتي السماء بدخان واضح يعم الناس ويغطيهم، فيقولون: ربنا اكشف عنا العذاب قد آمنا بدينك. إن إيمانهم لن ينفعهم في ذلك اليوم، وقد جاءهم رسول الله بالرسالة الواضحة الصادقة، فكفروا به، وقالوا إنه مجنون يعلّبه بعض الناس القرآن الذي يتلوه علينا.

وهنا يرد الله تعالى عليهم: إنا سنرفع عنكم العذاب، وإنكم تعيشون الآن فرصة قبل يوم القيامة فأمنوا، إنكم ستعودون إلى كفركم وما كنتم عليه بعد سماعكم الآيات.

فاذكر أيها الرسول يوم تأخذهم الأخذة الكبرى بعنف وقوة، {إِنَّا مُنْتَقِمُونَ} منهم في ذلك اليوم الرهيب. ولقد امتحنا قبل كفار مكة قوم فرعون بالنعمة والسلطان واسباب الرخاء {وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ} مأمون على ما أبلغكم غير متهم فيه، فلا تتكبروا على الله بتكذيب رسوله، لأنّي آتيكم بحجة واضحة على حقيقة ما ادعوكم إليه. {وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونَ}

إني ألتجئ إلى الله ربي وربكم أن لا تصلوا إليّ بسوء من قول أو عمل.

وإن لم تصدّقوني فيما جئتكم به من عند الله {فاعتزلون} وخلّوا سبيلي ولا ترجموني، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا.

٤٤.٣ 22

اسرّ بعبادي: سر بهم ليلاً. متبعون: يتبعكم فرعون وجنوجه. رهواً: ساكناً هادئاً. مقام كريم: منازل حسنة. نعمة: (بفتح النون) الرفاهة وطيب العيش، والنعمة: (بكسر النون) ما أنعم الله به من رزق ومال وغيره. فاكهين: ناعمين في عيش رغيد. فما بكت عليهم السماء: لم تكثرث هلاكهم. منظرين: مهملين ومؤخرين. العذاب المهين: الشديد الالهانة والإذلال. عالياً: جباراً متكبراً. من المسرفين: في الشر والفساد. على علم: عالين باستحقاقهم ذلك. على العالمين: في زمانهم. الآيات: المعجزات. بلاءً مبين: اختبار ظاهر. فلما طال مقام موسى بين أظهر قوم فرعون ولم يؤمنوا به، ولم يزد هم ذلك إلا كفرًا وعناداً دعا ربه شاكيًا قومه حين يئس من غيماهم، بأن هؤلاء القوم مجرمون، لا أمل فيهم.

وحينئذ أمره الله أن يخرج بني إسرائيل ليلاً وأن يحذروا، لأن فرعون وقومه سيتبعونهم. وطلب إليه: إنك إذا قطعت البحر يا موسى فاتركه ساكناً على حاله حتى يدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه. {إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ}.

ثم بين الله تعالى بعد غرق آل فرعون كم تركوا بعد إغراقهم ومهلكهم من بساتين وقصور، وحدائق غناء وزروع ناضرة، وعيشة ناعمة {كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} ناعمين مترفين.

{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}

هكذا فعلنا بهؤلاء الذين كذبوا رُسُلَنَا، وهكذا نفعل بكل من عصانا. ثم إننا أورثنا تلك البلاد وما فيها من خير عميم قوماً آخرين، لا يمتّون إليهم بقرابة ولا دين. فما حزنّت عليهم السماء ولا الأرض عندما أخذهم العذاب ولا أهلوا لتوبة أو تداركٍ تقصير. ثم بين الله كيف نجّا موسى ومن معه ودكّر إحسانه إليهم بأنه خلّصهم من العذاب المهين، بإهلاك عدوهم فرعون، الذي كان متكبراً مسرفاً في الشر والفساد، وبين أنّه اصطفاهم على عالم زمانهم، وأعطاهم من المعجزات ما فيه اختباراً ظاهر لهم وبلاء. كما قال تعالى: {وَنَبِّؤُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥] .

٤٤.٤ 34

بمنشئين: بمبعوثين، نشر الله الموتى وأنشروهم: أحياهم. تبع: لقب ملوك اليمن القدماء مثل فرعون لدى قدماء المصريين. لاعبين: عابثين. يوم الفصل: هو يوم القيامة، سُمي بذلك لأنه يفصل فيه بين الناس. ميقاتهم: موعدهم. لا يغني مولى: لا ينفع احد احدا. المولى كلمة لها عدة معانٍ: الرب، والمالك، والحب، والصاحب، والخليف، والنزيل، والجار، والشريك، والصهر، والقريب من العصبة كالعم وابن العم ونحو ذلك، والمتعق، والمتعق بفتح التاء، العبد، والتابع.

يعود الحديث عن المنكرين للبعث، وقولهم لا حياة بعد هذه الحياة. فإن هؤلاء المكذّبين بالبعث ليقولون: إننا لا نموت الا مرة واحدة، ولنا بمبعوثين. فان كنتم صادقين فاسألوا ربكم أن يعجل لنا إحياء من مات من آبائنا حتى يكون ذلك دليلاً على صدق دعواكم. ثم بين الله لهم على طريق السؤال: هل كفّار مكة خير في القوة والمنعة والسلطان ام قوم تبع ومن سبقهم من الجبابرة! إن قومك يا محمد ليسوا بقوتهم ومنعتهم وسلطانهم، وقد أهلكاهم في الدنيا بكفرهم وإجرامهم، فليعتبر قومك من مصير غيرهم. ليقولوا أنه تعالى لم يخلق هذه السموات والأرض عبثاً دون حكمة، كما قال تعالى: {أَحْسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥] . نحن ما خلقنا هذا الكون العجيب وما فيه الا بحكمة بالغة، على نظام ثابت يدل على وجود الله ووحدايته وقدرته {ولكن أكثرهم لا يعلمون} هذه الدلالة لغفلتهم.

ان يوم القيامة موعدهم جميعاً وفيه يُفصل بين الحق والباطل. يومئذ لا يستطيع أحد ان يساعد أحداً ولا ينفع مال ولا بنون ولا أنساب ولا صديق حميم. {وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ} الا بصالح الاعمال. {إنه هو العزيز الرحيم}

٤٤.٥ 43

الزقوم: طعام أهل النار. وشجرة الزقوم {تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات: ٦٤-٦٥] ، وهي الشجرة الملعونة. الأثيم: المجرم المذنب. المهل: خثارة الزيت. الحميم: الماء الحار. فاعتلوه: فجرّوه بعنف. عتله يعتله بكسر التاء وضما عتلاً: جره جرّاً عنيفاً. سواء الجحيم: وسطها. في مقام امين: في منزل آمن. سندس: نوع من الحرير الرقيق. استبقر: حرير فيه لمعان وبريق وهو اغلظ من السندس. بحور عين: نساء جميلات واسعات العيون. يدعون: يطلبون. وقاهم: جنبهم وأبعدهم عن العذاب. فارتقب: فانتظر.

الحديث الآن عن أهل النار وطعامهم وما يلاقونه من عذاب أليم. . ان شجرة الزقوم المعروفة بقبح منظرها وخُبث طعمها وريحها هي طعام الفاجر الكافر الأثيم. ومذاقها كسائل المعدن المصهور، يغلي في البطون كالماء الشديد الحرارة.

ثم يقال لزبانية جهنم: خذوا هذا الفاجر الأثيم فجرّوه بعنف الى وسط الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه الماء الحار. ثم يقال له استهزاء وتهكاً: ذُق العذاب، ايها العزيز الكريم المعتزّ بنسبك وقومك.

ان هذا العذاب الذي تلاقونه الآن هو ما كنتم تكذبون به في الدنيا.

وبعد ان بين الله أحوال المجرمين وما يلاقونه من احوال وعذاب وتقرع، بين هنا أحوال المتقين وما يلاقونه في جنات النعيم من ضروب التكريم في منازل حسنة آمنة، في جنات النعيم، ملابسهم فيها من أنواع الحرير الفاخر، متقابلين على السرر، يستأنس بعضهم ببعض، تحف بهم زوجاتهم من الحور العين، ويطلبون ما يشتهون من انواع الفاكهة. ثم بين ان حياتهم في هذا النعيم دائمة، وقد نجاهم الله من العذاب الاليم.

{فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} وأي فضل وفوز أعظم من النجاة من عذاب أليم!

ثم بين الله تعالى أنه انزل هذا القرآن الكريم باللغة العربية وبسره بها لعل العرب ينتفعون به وبتعاليمه، وينشرونه في العالم. وبهذا يجيء ختام السورة كما بدئت، بذكر القرآن. ثم يقول الله تعالى مسلياً رسوله الكريم وواعداً إياه بالنصر، ومتوعداً المكذبين بالهلاك: {فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ}

انتظر أيها الرسول انهم منتظرون، وسيعلمون لمن يكن النصر. وقد نصر الله تعالى رسوله واصحابه ونشروا دينه العظيم. قراءات:

قرأ ابن كثير وحفص ورويس وابن عامر: يغلي بالياء. والباقون: تغلي بالتاء. وقرأ حفص وحزمة والكسائي وابو عمرو: فاعتلوه بكسر التاء، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ويعقوب: فاعتلوه بضم التاء، وهما لغتان. وقرأ ابن عامر ونافع: في مقام بضم الميم. والباقون: في مقام بفتح الميم.

٤٥ الجاثية

٤٥.١ 1

لآياتٍ لعبراً ودلائل. يثبت: ينشر. اختلاف الليل والنهار: تعاقبهما. تصريف الرياح: تغييرها من جهةٍ الى اخرى. حم: حرفان من الحروف الصوتية ابتدأت بهما هذه السورة وقد سبق الكلام عن مثله.

إن هذا الكتاب الكريم أنزله الله، الحكيم في تدبيره لهذا الكون العجيب ولكل ما خلق، وان في خلق السموات والأرض من بديع صنع الله لآيات دالة على ألوهيته ووحدانيته يؤمن بها المصدقون بالله العظيم. وكذلك في خلق الناس على أحسن تقويم، وما ينشر في الأرض من الدواب - دلالات قوية واضحة {لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} .

ومثل هذا في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما على نظام ثابت، وفيما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها ويبسها، وتصريف الرياح إلى جهات متعددة علامات واضحة {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} .

تلك آيات الله الكونية التي أقامها للناس، نتلوها عليك أيها الرسول مشتملة على الحق، فاذا لم يؤمنوا بها {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} ؟

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: لآياتٍ بكسر التاء في المواضع الثلاثة، والباقون: لآياتٍ بكسر التاء الأولى، وفي الموضعين بعد ذلك يات لقوم، بالرفع. وقرأ حمزة والكسائي: وتصوبف الريح بالافراد. والباقون: وتصريف الرياح بالجمع. وقرأ الحجازيان وحفص وابو عمرو وروح: يؤمنون ب الياء. والباقون: تؤمنون بالتاء.

أفأك: كذاب. أثيم: مذنب، مجرم كثير المعاصي. فبشره بعذاب: جاء التعبير بالتبشير للاستهزاء به، لأن العذاب لا يبشر به. من ورائهم جهنم: تنتظرهم. يغني: يدفع عنهم. الرجز: عذاب من نوع شديد. سخر: هبأ. لتبتغوا من فضله: لتطلبوا من فضل الله. لا يرجون: لا يتوقعون حصولها. أيام الله: تطلق على أيام الخير، وأيام الشر. الهلاك والعذاب لكل كذاب في قوله وأثيم في فعله. . يسمع هذا المفتري آيات الله تُقرأ عليه ثم يبقى مصراً على كفره مستكبراً ص كأن لم يسمعها، فبشره أيها الرسول بأشد العذاب.

وفي قوله تعالى {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} تهكم واحتقار لهؤلاء المكذبين.

واذا وصل مثل هذا الى علمه شيء من آياتنا واستهزأ بها وسخر منها. {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}

من ورائهم جهنم تنتظرهم، ولا يدفع عنهم العذاب ما كسبوا في الدنيا من الأموال والأولاد. ولا تُغني عنهم أصنامهم التي عبدوها من دون الله شيئاً، {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} .

إن هذا القرآن هدى من عند الله، والذين كفروا بآيات ربهم لهم العذاب المؤلم يوم القيامة! أما يعلمون انه وحده الذي ذل البحر تجري السفن فيه بأمره، تحمل الناس وجميع ما يحتاجون!! بفضل يسعكم أن تطلبوا من خيرات البحر بالتجارة والصيد واستخراج ما فيه من لآئ وتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم.

كذلك سخر لكم جميع ما في السموات وما في الأرض ليوثر لكم منافع الحياة، وكل هذه النعم آيات تدل على قدرته تعالى لقوم يتفكرون في صنائع الله القدير.

ناظر طبيب نصراني من أطباء الرشيد علي بن الحسين الواقدي المروزي، في مجلس الرشيد فقال له: ان في كتابكم ما يدل على ان عيسى بن مريم جزء من الله تعالى، وتلا قوله: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء: ١٧١] . فقرأ الواقدي قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ} ثم قال: اذن يلزم ان تكون جميع تلك الأشياء جزءاً من الله! فانقطع الطبيب واسلم. وفرح الرشيد بذلك فرحاً شديداً، ووصل الواقدي بصلية فاخرة.

ثم بعد ذلك أمر الله المؤمنين ان يتحلوا بأحسن الأخلاق، فطلب اليهم ان يصفحوا عن الكافرين ويحتملوا أذاهم، وعند الله جزاؤهم بقوله تعالى:

{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}

يا أيها الذين آمنوا: تسألوا بالصبر، واغفروا واصفحوا ترحموا، ف {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} ثم إنكم جميعاً إلى خالقكم ترجعون للجزاء. قراءات:

قرأ حفص وابن كثير: من رجز أليم برفع ميم اليم. والباقون: من رجز أليم بجر أليم على انه صفة لرجز. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي: لنجزي بالنون. والباقون: ليجزي بالياء.

الكتاب: التوراة. الحكم: الفصل بين الناس وفهم ما في الكتاب. الطيبات: كل رزق حسن. بينات من الأمر: دلائل واضحات من امر الدين. بغياً: حسداً وعناداً. على شريعة من الأمر: على طريقة ومنهج في امر الدين، وأصل الشريعة: الماء في الانهار ونحوها مما

يُرِدُّ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَشَرِيعَةَ الدِّينِ يَتَبَصَّرُ فِيهَا النَّاسُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ. بَصَائِرُ لِلنَّاسِ: مُعَالِمٌ لِلدِّينِ يَتَبَصَّرُ بِهَا النَّاسُ. لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ: يَطْلُبُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ.

يَأْتِي الْحَدِيثُ هُنَا عَنْ الْقِيَادَةِ الْمُؤَمَّنَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْقِيَادَةَ تَرَكَّزَتْ أَخِيرًا فِي الْأَسْمِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُقَسِّمُ بِأَنَّهُ اعْطَى بَنِي إِسْرَائِيلَ التَّوْرَةَ وَالْحُكْمَ بِمَا فِيهَا النُّبُوَّةُ، وَرَزَقَهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَفَضَّلَهُمْ بِكَثِيرٍ مِنَ النِّعَمِ عَلَى الْخَلْقِ فِي عَصَرِهِمْ. وَأَعْطَاهُمْ دَلَائِلَ وَاضِحَةً فِي أَمْرِ دِينِهِمْ، فَمَا حَدَثَ فِيهِمْ هَذَا الْخِلَافُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِحَقِيقَةِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ بِطَلَبِ الرِّيَاسَةِ وَالتَّكَالُفِ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْجَشَعِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ.

{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} .

وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لَنَا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ سَلَكَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ سَبِيلَ الدُّنْيَا، وَغَرِقُوا فِي مَتَاعِهَا وَلَذَائِهَا، فَلْتَحْذَرُوا الْإِنْخِدَارَ إِلَى الْهَلَاكِ. وَلَمَّا بَيَّنَّ مَا آَلَ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ بَغْيًا وَحَسَدًا، أَمَرَ رَسُولَهُ الْكَرِيمُ أَنْ يَبْعِدَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَأَنْ يَسْتَمْسِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِهِ.

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ (بَعْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ تَقَدَّمَتْ صِفَاتُهُمْ) عَلَى نَهْجٍ خَاصٍّ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ الَّذِي شَرَعْنَاهُ لَكَ، فَاتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ. {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِينَ، ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ لَا يَدْفَعُونَ عَنْكَ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ اتَّبَعْتَهُمْ، وَإِنَّ الْكَافِرِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.

{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}

هُوَ نَاصِرُهُمْ، فَلَا يَنَالُهُمْ ظُلْمُ الظَّالِمِينَ.

وَهَذِهِ كَانَتْ بَشْرَى مِنَ اللَّهِ لِلرُّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي مَكَّةَ.

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ يَبَيِّنُ اللَّهُ فَضْلَ الْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْهُدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَيَقُولُ: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} . إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ وَمَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ وَاخْلَاقٍ وَتَهْذِيبٍ دَلَائِلُ لِلنَّاسِ تَبَصَّرَهُمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَهُدًى يَرْشُدُهُمْ إِلَى مَسَالِكِ الْخَيْرِ، وَرَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ بِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

٤٥.٤ 21

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ: اكْتَسَبُوا الْخَطَايَا وَالْكَفْرَ. مَحْيَاهُمْ: حَيَاتِهِمْ. مَمَاتِهِمْ: مَوْتُهُمْ. اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ: مِنْ اتَّخَذَ هَوَاهُ مَعْبُودًا لَهُ يَجْرِي وَرَاءَهُ مَتَعَتُهُ وَلَذَائِهُ وَلَا يَتَّقِيهِ بَشَرٌ وَلَا دِينَ. وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ: هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ يَقُولُونَ: لَا وَجُودَ لِلَّهِ وَانَّمَا نُولَدُ وَنَمُوتُ طَبِيعِيًّا.

لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْحَسَنُ وَالْمُسِيءُ فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نُسَوِّيَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي دَارِ الْآخِرَةِ. كَلَّا لَا يَسْتَوُونَ فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠] .

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَقَامَ هَذَا الْكُونَ بِمَا فِيهِ عَلَى نِظَامٍ ثَابِتٍ، وَعَلَى أَسَاسِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، فَإِذَا اسْتَوَى الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ يَنْتَفِي الْعَدْلُ. وَهَذَا مَحَلٌّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَكَذَلِكَ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ} [السجدة: ١٨] . يَتَكَرَّرُ ذِكْرُ أَقَامَةِ هَذَا الْكُونَ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لِأَنَّهُ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ. مِنْ ثَمَّ عَلَيْنَا أَلَّا نَأْسَفَ عِنْدَمَا نَرَى أَنْسَاءً يَتَقَلَّبُونَ فِي النِّعَمِ، وَهُمْ مِنَ الْفَجْرَةِ الْفَسَقَةِ، فَإِنَّ وَرَاءَهُمْ حَسَابًا عَسِيرًا، فَلَا نَعِيمَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا دَلِيلٌ عَلَى رِضَا اللَّهِ، وَلَا بؤْسُهَا دَلِيلٌ عَلَى غَضَبِهِ.

وَلِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى:

{وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}

وفي هذه الآية تعليل قوي لنفي المساواة بين المحسن والمسيء، وهو أن تجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} . ثم يتبع الله ذلك بصورة عجيبة لأولئك الناس الذين لا يتقيدون بدين، ولا يتمسكون بخلق: أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الرَّسُولُ مَن رَكِبَ رَأْسَهُ، وترك الهدى، وأطاع هواه فدعله معبوداً له، وضل عن سبيل الحق وهو يعلم بهذا السبيل {عَلَى عِلْمٍ} منه ثم مضى سادراً في ملذاته غير آبه بدين ولا خلق؟! لقد أغلق سمعه فلا يقبل وعظماً، وقلبه فلا يعتد حقاً {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} ، يا مشركي قرئش هذا؟

انها صورة عجيبة من الواقع الذي نراه دائماً، وما اكثر هذا الصنف من الناس. واتباع الهوى هذا قد ذمّه الله في عدة آيات من القرآن الكريم. {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَفُتِلَهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ} [الأعراف: ١٧٦] {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهف: ٢٨] . {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [ص: ٢٦] . نسأل الله السلامة.

ثم بعد ذلك يذكر الله مقالة المنكرين للبعث، والذين يقال لهم الدهريون. هؤلاء الناس أنكروا البعث وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا هذه، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}

إنهم لا يقولون ذلك عن علم ويقين، ولا كن عن ظن وتخمين، واهام لا مستند لها من نقل أو عقل. ولما لم يجدوا حجة يقولونها تعللوا بقولهم: ان كان ما تقوله يا محمد حقاً فلترجع آباءنا الموتى الى الحياة {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

وهنا أمر الله تعالى رسوله الكريم ان يقول لهم: الله يحييكم في الدنيا من العدم ثم يميتكم فيها عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم يوم القيامة الذي لا شك فيه، {وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} قدرة الله على البعث، لإعراضهم عن التأمل في آيات الله وملكوته.

قراءات
قرأ حمزة والكسائي وحفص: سواءً محياهم، بنصب سواء. والباقون: سواءً بالرفع. وقرأ حمزة والكسائي: غشوة، والباقون: غشاوة. قال في لسان العرب الغشاء: الغطاء، وعلى بصره وقلبه غشوة وغشوة مثلثة العين، وعشاوة وغشاوة بفتح الغين وكسرها، وكلها معناها الغطاء.

٤٥٥ 27

جاثية: باركة على الركب. الى كتابها: الى صحيفة اعمالها المسجلة عليها. ينطق عليكم بالحق: يشهد عليكم بالحق. نستنسخ: نجعل الملائكة تكتب وتنسخ.

في هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى أنه مالك الكون كله، وهو وحده القادر على التصرف فيه ملكاً وتديراً، ويوم القيامة يحشر الناس فيظهر خسران أولئك المبطلين.

ثم بين حال الأمم في ذلك اليوم الرهيب، وان كل أمة تجثو على ركبها وتجلس جلسة المخاض بين يدي الحاكم، وكل أمة تدعى الى سجل أعمالها، ويقال لهم: اليوم تستوفون جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا، هذا كتابنا الذي سجلنا فيه أعمالكم، وهو صادق عليكم، إذ كتبه الملائكة في دنياكم.

وبعد ان ينتهي الحساب يدخل الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنته {ذلك هو الفوز العظيم} .

وأما الذين كفروا بالله ورسله فيقال لهم: ألم تأتكم رُسلي، يتلون عليكم آيات كتي، فكنتم تتعالمون وتستكبرون عن قبول الحق والايان بها، وبذلك كنتم قوماً كافرين، فالنار مثواكم وبئس المصير.

بمستيقنين: بمحققين. وبدا لهم سيئات ما عملوا: ظهر لهم عيوب أعمالهم السيئة. وحق بهم: احاط وحل بهم. ننساكم «تركم» ونهملكم، كما نسيتم: كما تركتم واعرضتم عن آيات الله وانكرتم لقاء ربكم في هذا اليوم. لا يستعقبون: لا تطلب منهم العتي والاعتذار. الكبرياء: العظمة والسلطان.

وإذا قال لكم رسول الله: ان وعد الله ثابت، وان يوم القيامة لا شك فيه، قلتم: ما نعلم ما هي الساعة وما حقيقة القيامة، وما علمنا بذلك الا ظن، وما نحن بموقنين أنها آتية.

وظهرت لهم قبائح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ونزل بهم جزاء استهزائهم بآيات الله، ويقال لهؤلاء المشركين: اليوم ترككم في العذاب وننساكم فيه، كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا، {وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ} ينصرونكم اليوم.

فالله تعالى جمع لهم ثلاثة ألوان من العذاب: قطع الرحمة عنهم، وجعل مأواهم النار، وعدم وجود من ينصرهم، وذلك لأنهم أصرّوا على إنكار الدين الحق، واستهزؤا بالله ودينه ورسله، واستغرقوا في حب الدنيا. وهذا معنى قوله تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}

لا يخرجون من النار بل يخلّدون فيها، ولا هم يردّون الى الدنيا، ولا يُطلب منهم ان يسترضوا الله ويتوبوا. وبعد هذا الاستعراض فيما حوته السورة من آلائه واحسانه، وما اشتملت عليه من الدلائل على قدرته بدء الخلق واعادته - أثنى الله على نفسه بما هو أهل له فقال:

{فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} .

فله وحده الحمد والثناء، خالق هذا الكون بما فيه، وله وحده العظمة والسلطان في السموات والأرض، وهو العزيز الذي لا يُغلب، ذو الحكمة رب العرش العظيم.

٤٦ الأحقاف

٤٦٠١ 1

أجل مسمى: يوم القيامة. أنذروا: اعلّموا وخوفوا. تدعون: تعبدون. أم لهم شرك: ام لهم نصيب. او أثارة من علم: بقية من علم. وإذا حشر الناس: اذا جمعوا يوم القيامة.

افتتحت سورة الاحقاف بحرفين من حروف الهجاء مثل كثير من السور غيرها وقد تقدم الكلام على ذلك، وكذلك نص الآية {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} مثل افتتاح سورة الجاثية.

ما خلقنا هذا الكون العديب الا على نواميس ثابتة، وحكمة بالغة، والى أمد معين هو يوم القيامة. أما الذين كفروا بالله ورسله فهم معرضون عما أنذروا به من انهم يبعثون بعد الموت للحساب والجزاء.

ثم يردّ الله تعالى على من يعبد غيره من المشركين فيأمر الرسول الكريم أن يقول لهم: أخبروني عن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله؟ هل خلقوا شيئاً في هذه الدنيا، ام أنهم شاركوا في خلق السموات؟ ان كان ما تدعون حقاً فأتوني بكتاب من قبل هذا القرآن، او أي أثر من علم الأولين تستندون اليه في دعواكم {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

وأي ضلال أكبر ممن يعبد معبودات لا تسمع ولا تنطق ولا تستجيب أبداً! والمشركون مع ذلك غافلون عن هذه الحقيقة. حين يُجمع الناس للحساب يوم القيامة تبتراً هؤلاء المعبودات من المشركين وتغدو أعداء لمن عبدوهم {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} ومثله قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مريم: ٨١-٨٢] .

للتحق: للقرآن. اقتراه: كذب به. فلا تملكون لي من الله شيئاً: لا تغنون عني شيئاً ان اراد الله عقابي. تفيضون فيه: تخوضون في من تكذيب لقرآن. ما كنتُ بدعا من الرسل: هناك قبلي رسل كثير، فما أنا أول رسول لا مثيل لي.

بعد أن قرر الله تعالى وحدانيته وثبته، ونفى الأضداد وكل ما يُعبد غيره - يقرر هنا أن رسالة سيدنا محمد حق، وأن الرسول كلاً تلا على مشركي قومه شيئاً من القرآن قالوا إنه سحر، بل زادوا في تكذيبه فقالوا انه اقتراه. ويرد الله عليهم بأنه لو اقتراه على الله فن يمنع الله من عقابه!! والله هو العليم بما يخوضون فيه من أحاديث وتكذيب!

{ كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم } .

كفى بالله شهيداً لي بالصدق، وشهيداً عليكم بالكذب. ثم يجيء التعقيب اللطيف: { كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم } . كفى بالله شهيداً لي بالصدق، وشهيداً عليكم بالكذب. ثم يجيء التعقيب اللطيف: { وهو الغفور الرحيم } فان الله مع كل هذا الكفر والعناد من المشركين يُبقي باب التوبة والمغفرة والرحمة مفتوحاً دائماً، فلا يقنط من رحمته أحد.

ثم يأمر رسوله الكريم أن يقول لهم: إني لستُ أول رسول من عند الله فتذكروا رسالتي، ولست أعلم ما يفعل الله بي ولا بكم، وما أتبع فيما أقول أو أفعل إلا ما يوحيه إلي الله { وما أنا إلا نذير مبين } .

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } . يقول معظم المفسرين: إن هذه الآية بالذات مدنية، قد نزلت في عبد الله بن سلام، وكان من أكبر علماء بني إسرائيل، أسلم بالمدينة، وأحدث إسلامه ضجةً عند اليهود، وقصته طويلة يُرجع إليها في كتب الحديث والسيرة.

ويكون المعنى: قل لهم أيها الرسول: أخبروني إن ثبت أن القرآن حق من عند الله، وآمن به عالم من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام الذي يدرك أسرار الوحي ويشهد أن القرآن من عند الله كالتوراة التي أنزلها على موسى. . . ماذا يكون حالكم إذا بقيتم على ضلالكم وكفركم؟ افلا تكونون من الظالمين؟ .

وقال جماعة من المفسرين: إن الشاهد موسى بن عمران، وإن التوراة مثل القرآن كلاهما من عند الله، وإن موسى شهد على التوراة، ومحمد شهد على القرآن صلى الله عليهما وسلم. وهذا ما يُرجحه الطبري، لأن السورة مكية، فيما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة بعد الهجرة.

ثم حكى عن المشركين شبهةً أخرى بشأن إيمان من آمن من المسلمين من الفقراء كعمار وصهيب وابن مسعود وغيرهم فقالوا: لو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء من الناس، وإنما قرآن محمد أفك قديم من أساطير الأولين.

وقد رد الله عليهم طعنهم هذا في القرآن وأثبت صحته فقال:

{ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبَشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ } .

القرآن كالتوراة التي نزلت على موسى، كل منهما إمام ورحمة لمن آمن به وعمل بموجبه، وقد بشرت التوراة بسيدنا محمد: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر} [الأعراف: ١٥٧] . وهذا القرآن مصدق بالتوراة وما قبله من الكتب، وينطق بلسانكم أيها العرب، وينذر من أساء بالعذاب، ويبشر من أحسن بالثواب، فكيف يكون إفكاً قديماً، وسحراً وأساطير؟

قراءات:

قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وابن كثير: لتنذر بالتاء. والباقون: بالياء.

وصينا الانسان: أمرناه أن يفعل كذا. . ومثله أوصاه. كرها: بضم الكاف وفتحها: مشقة. حمله وفصاله: مدة حمله وفطامه. أشده: صار بالغاً مستحكماً القوة والعقل. أوزعني: ألهمني، رغّبني، وفقني. أصلح لي في ذريتي: اجعل لي خلفاً صالحاً. في أصحاب الجنة: يدخلون الجنة مع الذين انعم الله عليهم

ان الذين قالوا ربنا الله الذي لا إله غيره، ثم أحسنوا العمل واستقاموا عليه بإيمان كامل، لا خوف عليهم من فرع يوم القيامة وأهواله، وهم لا يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم، أولئك هم أهل الجنة خالدين فيها، ثواباً لهم من الله على أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا. وهذه أحسن بشرى يرفقها القرآن الكريم للمحسنين، فهنئنا لهم.

ثم تأتي الوصية بالوالدين، وقد وردت التوصية بهما في غير آية لما للوالدين من منزلة كبيرة وكرامة في وجود الانسان. ووصينا الانسان بأن يحسن إلى والديه ويبرهما في حياتهما وبعد مماتهما، وخص الأم بالكلام لأنها تقاسي في حمله مشقةً وتعباً، وفي وضعه آلاماً كثيرة، ثم في إرضاعه وتربيته. فالطفل يقضي معظم وقته مع أمه، وفي رعايتها وحنانها وعطفها. . لهذا كله تستحق الكرامة وجميل الصحبة والبر العظيم. وقد وردت احاديث كثيرة تحت على بر الأمهات.

روى الترمذي ان النبي ﷺ قال: «أَمَّكَ ثُمَّ أَمَّكَ ثُمَّ أَمَّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ» ورواه أحمد وابو داود والحاكم عن معاوية بن حيدة. وهناك حديث مشهور: «الجنة تحت أقدام الأمهات» رواه الخطيب والقضاعي عن أنس رضي الله عنه، وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه.

وعن ابي أمامة رضي الله عنه أن النبي قال لرجل يسأله عن حقوق الوالدين: «هما جنتك ونارك» وفي البخاري ومسلم والترمذي: «أحق الناس بالصحبة الأم» والأحاديث كثيرة يمكن الرجوع إليها في كتب الحديث. {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}

يعني إن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهراً، تكابد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية، فتسهر الليالي العديدة على طفلها، وتغذيه وتقوم بجميع شؤنه بلا خَجَر ولا ملل.

ويؤخذ من هذه الآية {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} ومن الآية: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِصَ الرضاعة} [البقرة: ٢٣٣] أن أقل مدة الحمل ستة أشهر فإذا ولدت امرأة ولداً بعد ستة أشهر من دخولها في عصمة الزوج يُعترف به.

حتى اذا بلغ كمال قوته وعقله ببلوغه أربعين سنة، ويكون في كامل قواه الجسمية والعقلية، يقول عندها: ربِّ ألهمني شكر نعمتك التي تفضلت بها علي وعلى والدي، ووفقني الى العمل الصالح الذي ترضاه، وارزقني ذريةً صالحة تسير على درب الهدى والايمان، إني تبت اليك من كل ذنب {وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} المستسلمين لأمرِكَ ونهيكَ.

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة تتقبل منهم أعمالهم الحسنة، ونجازيهم عليها أحسن الجزاء. وهم منتظمون في سلك أصحاب الجنة {وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} والله تعالى لا يخلف وعده. قراءات:

قرأ أهل الكوفة: احساناً وقرأ الباقون: حيناً. وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وابو عمرو: كرها بفتح الكاف. والباقون: كرها بضمها وهما لغتان. وقرأ يعقوب: وفصله، والباقون: وفصاله. وهما لغتان.

أف: كلمة معناها التضجر، وهي مستعملة كثيراً. أن أخرج: ان ابعث من القبر. خلت القرون من قبلي: مضت الأمم من قبلي ولم يبعث أحد من قبره. ويلك: دعاء عليه بالهلاك. الهلاك لك. اساطير الاولين: أباطيلهم وخرافاتهم. حق عليهم القول: حق عليهم العذاب: الخاسرين: الذين ضيعوا انفسهم باتباع شهواتهم وعدم الايمان بالله ورسوله. الدرجات: المنازل. أذهبتم طيباتكم: أذهبتم حياتكم وشبابكم وقوتكم باتباع شهواتكم في الدنيا. الهون: الهوان والذل.

بعد ان مضى الحديث عن حال البررة من الأولاد، بين هنا حال الاشقياء العاقين للوالدين، الجاحدين المنكرين للبعث والحساب. والفريق الثاني من الناس هو الذي ينهر والديه ويقول لهما أف لكما ولما تؤمنان به، اتقولان لي إني سأبعث من قبري حياً بعد موتي، وقد مات قبلي كثير من الناس لم يعد منهم أحد، أنا لا اصدق هذا ولا أومن به! ووالداه يستصرخان الله مستغيثين أن يوفق ولدهما إلى الايمان، ويقولان له: ويلك، آمن قبل ان تهلك وتموت ثم تحشر الى النار، وإن وعد الله حقاً { فيرد عليهم بأن كل ما يقولانه خرافات من أساطير الاقدمين.

هذا الصنف من البشر هم الذين حق عليهم وقوع العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والانس، {إنهم كانوا خاسرين}. روى البخاري والترمذي وابو داود ان النبي ﷺ قال: «إن من أكبر الكبائر ان يلعن الرجل والديه او يعقهما». ولكل من المؤمنين والكافرين منازل تلائمهم بحسب أعمالهم، ليظهر عدل الله فيهم، وليوفيهم جزاء أعمالهم {وهم لا يظلمون}. واذكر أيها الرسول يوم يعرض الكافرون على النار يقال لهم: لقد استوفيتم ملذاتكم وشهواتكم في الدنيا، واستمتعتم بها، فاليوم لكم أشد العذاب بالذل والهوان بما كنتم في الدنيا تفسقون وتستكبرون.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وحفص: نتقبل، وتجاوز بالنون. والباقون: يتقبل ويتجاوز بالياء. وقرأ هشام: اعتدائي بن واحدة مشددة. والباقون: اتعداني بنونين بدون تشديد. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وابن ذكوان: لنوفيم بالنون. والباقون: ليوفيهم بالياء. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: أذهبتم طيباتكم بالاستفهام، والباقون: بهمة واحدة، وابن كثير يقرأ بهمة ممدودة.

أخا عاد: هو هود عليه السلام. الأحقاف: جمع حقف بكسر الحاء، رمال معوجة مستطيلة، وهي بلاد بين عُمان وحضرموت كما تقدم في الكلام على مقدمة السورة. النذر: جمع نذير، وهو المنذر. من بين يديه: من قبله. ومن خلفه: من بعده. لتأفكاً: لتصرفنا. بما تعدنا: من تعجيل العذاب. العارض: السحاب الذي يعرض في افق السماء. مستقبل أوديتهم: متجها اليها. وحاك بهم: نزل بهم. صرّفنا الآيات: بيناها. قرباناً: متقرباً بها الى الله. ضلّوا عنهم: غابوا عنهم. وذلك إفكهم: وذلك الذي حل بهم عاقبة كذبهم واقترائهم. اذكر ايها الرسول لقومك المكذبين هوداً، أخا قوم عاد، الذي حذر قومه الذين كانوا يسكنون الأحقاف. وقد مضت الرسل قبله وبعده بمثل ما أنذر به قومه، اذ قال لهم: لا تعبدوا الا الله وحده، {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم}. فما كان جواب قومه الا أن قالوا: أجبنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا، فأتينا بما تعدنا من العذاب ان كنت من الصادقين.

فقال هود: إنما العلم بوقت عذابكم عند الله وحده، وأنا ابليكم رسالة ربي اليكم، {ولكني أراكم قوماً تجهلون} ما تبعث به الرسل وما في مصلحتكم.

فأتاهم العذاب في صورة سحاب. فلما رأوه ممتداً في الأفق مقبلاً على أوديتهم ظنوه غيثاً فقالوا فرحين: هذا سحاب جاءنا بالمطر والخير. فقيل لهم: بل هو العذاب الذي طلبتموه واستعجلتم به. إنها ريح فيها عذاب شديد الألم، تهلك كل شيء بأمر ربها. ولقد دمرتهم

واستأصلت جميع الأحياء في تلك البلاد.
 {فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ}
 أصبحوا أثراً بعد عين. بمثل هذا نجزي كل من أجرم واستكبر ولم يؤمن بالله ورسوله.
 ولقد مكّا عاداً وقومه بالقوة والسّعة ما لم نمكّن لكم يا أهل مكة، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة لم ينتفعوا بها لأنهم كانوا مصرّين على إنكار آيات الله ومجدها.
 {وَحَاقَ بِهِ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}
 وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به.
 ولقد أهلكنا القرى التي كانت حولكم يا أهل مكة، وبينّا لهم الآيات المتنوعة والمجج لعلهم يرجعون عن الكفر. فلم يرعوا ولم يرجعوا. فخذوا عبرة من كل ما تلوانه عليكم وارجعوا عن كفركم وعبادة الأوثان لعلكم تفلحون.
 والمقصود بالقرى التي حولهم هي أقوام هود وصالح ولوط وشعيب لأنهم كانوا حول ديارهم.
 {فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ}.
 هنا يقول الله تعالى: لم تنصرهم آلهتهم وأوثانهم الذين عبدوهم من دون الله، واتخذوا عبادتهم قرباناً يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا، بل غابوا عنهم وتركوهم في أخرج الأوقات.
 {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}
 وذلك الذي حلّ بهم من خذلان آلهتهم لهم وضلالهم عنهم هو عاقبة كذبهم.
 قراءات:
 قرأ عاصم وحمة وخلف: لا يرى الا مساكنهم بضم الياء من يرى، ورفع النون. والباقون: لا ترى الا مساكنهم بفتح التاء ونصب النون.

٤٦٠٦ 29

صرفنا اليك: وجهنا اليك. نفر: ما بين الثلاثة والعشرة. قضي: فرغ من تلاوته. ولّوا: رجعوا. من يجركم: من ينقذكم. داعي الله: رسول الله ﷺ.
 بعد ان ذكر الله ان في الانس من آمن ومنهم من كفر، بين هنا ان الجن كذلك، وأنهم عالمٌ مستقلّ بذاته. ويجب ان نعلم ان عالم الملائكة وعالم الجن يختلفان عنا تمام الاختلاف ولا نعلم عنهما شيئاً الا من الاخبار التي جاءت بها الرسل الكرام. ونحن نؤمن بوجودهما، وان النبي عليه الصلاة والسلام بلغ الجن رسالته كما ورد هنا وفي عدد من السور.
 أخرج مسلم وأحمد والترمذي عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود، هل صحب رسول الله منكم احد ليلة الجن؟ قال ما صحبه منا أحد، ولكنا افتقدناه ذات ليلة، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فلما كان وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فقال: اتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن. فانطلق فأرانا آثارهم. . . الحديث.
 وخلاصة معنى هذه الآيات:
 لقد وجهنا إليك أيها الرسول مجموعة من الجن ليستمعوا القرآن، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. فلما فرغ من قراءته رجعوا الى قومهم فأنذروهم، وقالوا لهم: يا قومنا، لقد سمعنا آيات من كتاب انزله الله من بعد موسى مصداقاً لما تقدّمه من الكتب الالهية، يهيى الى الحق، والى شريعة قديمة، وحياة كريمة، فآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم. يا قومنا أجبوا داعي الله الذي يهدي الى الحق، ومن لم يجب الداعي فإن الله سيهلكه، ولن يستطيع أحد أن يحميه، ان الذين لا يطيعون الله ورسوله في ضلال مبين.

لم يعي: لم يعجز. اولو العزم: اصحاب الجد والصبر والثبات. بلاغ: كفاية في الموعظة.
يبين الله تعالى هنا ان الذي خلق هذا الكون العجيب بمفرده ولم يُعِدْزِه خَلْقُه وما فيه، يقدر على إعادة الموتى وإحيائهم من جديد،
{بلى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

ويوم يوقف الذين كفروا ويُعرضون على النار، يقول الله لهم: أليست النار حقيقةً واقعة؟ .
فيقولون: بلى والله انها الحق. فيقال لهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

فاصبر ايها الرسول على ما أصابك من اذى وتكذيب، كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك، ولا تستعجل لهم العذاب فهو واقعٌ بهم
لا محالة، كأنهم يومَ يشاهدون هولَه يظنون أنهم ما أقاموا في هذه الدنيا الا ساعةً من نهار. إن هذا القرآن بلاغٌ لهم، فيه الكفاية لمن
طلب الرشد والهداية.

ثم بعد ذلك أوعد وأذر فقال: {فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ} .
قراءات:

قرأ يعقوب: يقدر. والباقون: بقادر.
وهكذا تنتهي هذه السورة الكريمة بالوعيد للفساقين، وما الله يريد ظلماً للعباد.

٤٧ محمد

٤٧٠١ 1

صدوا عن سبيل الله: صرفوا الناس عن الاسلام. أضلّ اعمالهم: أبطلها. اصلح بالهم: اصلح حالهم، والبال معناه القلب والخطر.
والبال: الامل، ويقال: فلان رضي البال وتاعم البال: موفور العيش هادئ النفس. فضرِب الرقاب: فاضربوا رقابهم ضرباً واقتلوهم.
أثخنتموهم: اكثرتهم فيهم القتل. فشدوا الوثاق: فأسروهم واربطوهم. الوثاق بفتح الواو وكسرهما ما يوثق به. فإما منّا بعدُ واما فداء:
فاما ان تطلقوا سراحهم بدون فداء، واما ان يقدوا أنفسهم بشيء من المال. حتى تضع الحرب أوزارها: حتى تنتهي الحرب، الأوزار:
اثقال الحرب من سلاح وغيره.

قسم الله الناس فريقين: أهل الكفر الذين صدّوا الناس عن دين الله، وبين ان هؤلاء قد أبطلَ اعمالهم، وأهل الايمان الذين آمنوا بالله
ورسوله وعملوا الصالحات، وقد محا عنهم سيئاتهم، وأصلح حالهم في الدين والدنيا.

ثم علل ذلك بان اعمال الفريقين جرت على ما سنّه الله في الخليقة، بأن الحق منصور، والباطل مخذول، {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ
أَمْثَالَهُمْ} ، وهكذا شأن القرآن يوضح الأمور التي فيها عظة وذكرى بضرِب الامثال للناس ليعتبروا.

ثم بعد ذلك ذكر الله تعالى هنا وجوب القتال وأذن به بعد ان استقر المؤمنون في المدينة، وبدأوا في تأسيس الدولة الاسلامية. وتبين
هذه الآيات مشروعية القتال للدفاع عن العقيدة والوطن. فإذا لقيتم الذين كفروا في الحرب فاضربوا رقابهم، حتى إذا أضعفتموهم
بكثرة القتل فيهم فأحكموا قيد الأسرى، وبعد ذلك لكم الخيار: إما ان تطلقوا الأسرى او بعضهم بغير فداء وتمنّوا عليهم بذلك، وإما ان
تأخذوا منهم الفدية، او تبادلوا بهم بالمسلمين ممن يقع في الأسر. وليكن هذا شأنكم مع الكافرين حتى تنتهي الحرب وتضع أوزارها.
ثم بين الله تعالى ان هذه هي السنّة التي أرادها من حرب المشركين، ولو شاء لاتقم منهم بلا حرب ولا قتال، ولكنه ليختبر المؤمنين
بالكافرين شرع الجهاد.

واما الشهداء الذين يُقتلون في سبيل الله فلن يُبطل أعمالهم، بل {سَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا هُمْ} وفيها كل ما لذ
وطاب، وهم يعرفون منازلهم فيها كما يعرفون منازلهم في الدنيا.

قرأ أهل البصرة وحفص: والذين قُتلوا. بضم القاف وكسر التاء. والباقون والذين قاتلوا.

٤٧٠٢ 7

ان تنصروا الله تنصروا دينه. يثبّت أقدامكم: ينصركم ويوفقكم. تعساً لهم: هلاكاً لهم. أحبط أعمالهم: أبطلها. دمر عليهم: أهلكهم، يقال دمر القوم ودمر عليهم: أهلكهم. وللكافرين أمثالها: للكافرين أمثال الذين دمرهم الله. نولى الذين آمنوا: ناصرهم. وأن الكافرين لا مولى لهم: لا ناصر لهم. والنار مثوى لهم: مقرّ لهم. من قرينك: من مكة.

يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله (وذلك بنصر شريعته، والقيام بحقوق الاسلام، والسير على منهاجه القويم) ينصركم الله على عدوكم. وهذا وعد صادق من الله تعالى، وقد انجزه للمؤمنين الصادقين من اسلافنا. فنحن مطالبون الآن بنصر دين الله والسير على منهاجه حتى ينصرنا الله ويثبت أقدامنا، والله لا يخلف الميعاد.

اما الذين كفروا بالله فتعساً لهم وهلاكاً، والله تعالى قد أبطل أعمالهم، وجعلها على غير هدى لأنها عملت للشيطان. فلقد كرهوا ما انزل الله من القرآن وكذبوا به وقالوا عنه انه سحر مبين، {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} ، وهكذا بات عملهم كله هباءً وذهبوا الى النار. بعد ذلك يوجه الله الناس الى النظر في احوال الأمم السابقة ورؤية آثارهم، لأن المشاهدة للأمر المحسوسة تؤثر في النفوس، فيقول لهم: افلم تسيروا في الأرض فتنظروا ديار الأمم السابقة التي كذبت الرسل! اتعظوا بذلك، واحذروا ان تفعل بكم كما فعلنا بمن قبلكم، ممن اوقعنا بهم الهلاك ودمرنا ديارهم. {وَلِلْكَافِرِينَ أَمَثَالُهَا} ان كل من يكفر بالله ينتظره مثل ذلك العذاب. والله ولي من آمن به واطاع رسوله، وليس للكافرين من ناصر على الاطلاق.

وبعد ان بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا بين هنا نصيب المؤمنين، ونصيب الكافرين في الآخرة، وشتان بين الحالين وبين النصيبين. فالمؤمنون يدخلون جنات عظيمة تجري من تحتها الأنهار إكراماً لهم على إيمانهم بالله ونصرهم لدينه وشريعته. والكافرون يتمتعون في الدنيا قليلاً، ويأكلون كما تأكل الحيوانات، غافلين عما ينتظرهم من عذاب أليم، {وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} فهي مأواهم الذي يستقرون فيه. {وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكَاهُمْ. . .}

وهنا يسلي الله تعالى رسوله الكريم فيخبره ان كثيراً من أهل القرى السابقين كانوا اشدّ بأساً وقوة من مكة التي أخرجك أهلها، ومع ذلك فقد أهلكهم الله بأنواع العذاب فلم ينصرهم احد، ولم يمنعهم احد.

ثم يبين الله الفرق بين المؤمنين المصدقين، والكافرين الجاحدين، والسبب في كون المؤمنين في اعلى الجنان، والكافرين في اسفل الجحيم: {أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زِين لَّهُ سَوَاءٌ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}

هل يستوي الفريقان في الجزاء؟ لا يمكن، فالذين آمنوا {على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} رأوا الحق وعرفوه واتبعوه. والذين كفروا زين لهم الشيطان سوء اعمالهم فأروهم حسناً فضلّوا {واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ} فهل يستوي الفريقان؟ لا يستويان ابداً.

٤٧٠٣ 15

مثل الجنة: صفتها. آسن: متغير الطعم والريح، والفعل: آسن يأسن مثل ضرب يضرب وأسن يأسن مثل نصر ينصر، وأسن يأسن مثل علم يعلم. لذة للشاربين: لذيق للشاربين. مصفى: قد اخذ منه الشمع. حميماً: شديد الحرارة. آفنا: قريبا. وآتاهم تقواهم: اهتمهم تقواهم، وفقهم اليها. أشراتها: علاماتها. فأنى لهم: فكيف لهم. ذكرهم: تذكروهم. متقلبكم: تصرفكم في اعمالكم. مثواكم. مأواكم ومصيركم في الآخرة.

صفة الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين انها: فيها انهار من ماء عذب لم يتغير طعمه، فالماء الراكد المتغير ضار لما فيه من الجراثيم، وأنهار من لبن لم يفسد طعمه، وانهار من خمر لذيدة للشاربين، وانهار من عسل صافٍ من كل كدر. وفيها من جميع انواع الثمرات. وفوق كل هذه النعم يأتي رضى الله عنهم {وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} .

فهل صفة هذه الجنة وما فيها من خيرات ونعم مثل صفة الذين خلدوا في النار، {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} ؟؟ . وبعد بيان حال المشركين وسوء مصيرهم، وصف حال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ لكنهم ساعة يخرجون من عنده يقولون للواعين من الصحابة: ماذا قال محمد ونحن في مجلسه؟ فإننا لم نفهم منه شيئاً. وهذا كله سخريه واستهزاء.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}

فهم مشغولون بالخبث وحطام الدنيا. اما الذين اهتدوا الى طريق الحق فقد زادهم الله هدى، وألهمهم تقواهم وصلاحهم. ثم عَنَّفَ الله أولئك المكذبين، وأكد انهم لم يتعظوا بأحوال السابقين، وعليهم ان يتوبوا قبل ان تأتيهم الساعة بغتة وقد بدت علاماتها بمبعث محمد ﷺ. ففي البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «بُعِثْتُ اَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ، وأشار بإصبعيه السَّابَّةِ والتي تليها. ولا ينفعهم شيء اذا جاءتهم الساعة كما قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣] . وبعد أن بين أن الذِّكْرَى لا تنفع يوم القيامة أمر رسولهُ الكريم بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله واصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ}

هو العليم بتصرفكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة.

قراءات:

قرأ ابن كثير: أسن بفتح الهمزة بغي رمد وكسر السين. والباقون: آسن: بمد الهمزة. وقرأ ابن كثير: أنفا بهمزة بغير مد على وزن حذر. والباقون: أنفا بمد الهمزة على وزن فاعل.

٤٧٠٤ 20

لولا نزلت سورة: هلا أنزلت سورة. محكمة: بينة، واضحة. في قلوبهم مرض: شك ونفاق. نظ المغيشي عليه من الموت: كالجبان الذي يخاف من كل شيء. أولى لهم: ويل لهم. عزم الأمر: جد ولزم. إن توليتم: صرتم حكاما وتوليتم امور الناء.

ان المؤمنين المخلصين يقولون: هلا أنزلت سورة تدعونا الى القتال، فإذا انزلت سورة محكمة تأمر به، رايث يا محمد الذين في قلوبهم نفاق ينظرون إليك بهلع وخوف كأن الموت يغشاهم، خوفا من القتال وكرها له.

{فَأُولَى لَهُمْ}

فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين، أهلكهم الله.

{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} ان طاعة الله وكلمة طيبة هي أمثل لهم وأحسن مما هم فيه من الهلع والجبن من لقاء العدو، فاذا جد الأمر ولزمهم القتال - كرهوه وتخلفوا عنه خوفا وجبنا، ولو صدقوا في ايمانهم لكان خيرا لهم من نفاقهم هذا.

ثم زاد في تأنيبهم وتوبيخهم بقوله:

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ} أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم {أُولَئِكَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، فَأَصَمَّهُمْ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ عَنْ رُؤْيَا طَرِيقِ الْهُدَى.

يتدبرون القرآن: يتفهّمون معانيه ويتفكرون فيه. ارتدّوا على أدبارهم: رجعوا الى الكفر. سؤل لهم: زين لهم. وأملّى لهم: مدّ لهم الأماني والآمال. أضغانهم: جمع ضغن وهو الحقد الشديد. بسّماهم: بعلا متهم. ولتعرّفهم في لحن القول: في أسلوبه الذي يتكلمون به ومغزاه. ولنبلونكم: لنختبرنكم.

افلا يتفهّمون معاني القرآن ويتفكرون فيه، ام ان قلوبهم مغلقة كأن عليها الاقفال! ان الذين رجعوا الى الكفر بعد أن ظهر لهم طريق الحق والهداية، انما زين لهم الشيطان الكفر واغراهم بالنفاق، ومد لهم في الآمال الباطلة. ولقد جاءهم ذلك الضلال من جيرانهم اليهود من بني قريظة والنضير الذين كرهوا الاسلام والقرآن ورسالة الرسول الكريم. فهؤلاء المنافقون مالأوا اليهود فأطعمهم أولئك ببعض الامر، والله يعلم اسرار المنافقين.

هذه الحيل وذلك النفاق وان نفعت في حياتهم فلن تنفع آخر الأمر. {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} انها خاتمة سيئة، ومشهد مخيف مفرع.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْنَفَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}

ان هذا الهول الذي سوف يروونه عند الوفاة انما سببه أنهم اتبعوا الباطل الذي لا يرضى الله عنه، وكرهوا الحق الذي يرضاه، فأبطل أعمالهم جميعها.

ثم بين الله انه يعلم خباياهم ومكرهم وخبثهم فقال:

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}

فهل يظن هؤلاء المنافقون ان الله لن يظه ر أحقادهم ويفضحهم للرسول والمؤمنين! ولو نشاء لعرفناك يا محمد أشخاصهم، فعرفته بعلامات خاصة بهم.

{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}

وأقسم أيها الرسول لتعرفنهم في أسلوب كلامهم المعوج، {والله يعلم أعمالكم}.

وقد ثبت في الحديث الصحيح ان الرسول الكريم كان يعرفهم جميعا، وقد عرفهم الى حذيفة بن اليمان الصحابي الجليل رضي الله عنه. ولنختبرنكم أيها المؤمنون بالجهاد وتكاليف الشريعة، حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين في البأساء والضراء، ونعرف الصادق منكم في إيمانهم من الكاذب.

قال ابراهيم بن الاشعث: كان الفضيل بن عياض، شيخ الحرم واستاذ زمانه، اذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلينا، فإنك اذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

قراءات:

قرأ ابو عمرو: وأملّى لهم، بالبناء للمجهول. وقرأ يعقوب: واملي لهم، بضم الهمزة وكسر اللام على الإخبار. والباقون: وأملّى لهم بفتح الهمزة واللام على انه فعل ماضٍ.

قرأ حمزة والكسائي وحفص: إسرارهم بكسر الهمزة. وقرأ الباقر: أسرارهم بفتح الهمزة جمع سر. وقرأ ابو بكر: وليبلونكم حتى يعلم المجاهدين. . . . ويبلوا اخباركم. هذه الافعال الثلاثة بالياء. والباقون: بالنون كما هو في المصحف.

شاقوا الرسول: عادوه وخالفوه. فلا تنهوا: فلا تضعفوا عن القتال. وتدعوا الى السلم: تدعوا الكفار الى الصلح خوفا منهم. الأعلون: الغالبون. لن يترك أعمالكم: لن يُنقص أعمالكم يعني ان الله لا يظلمكم. فيُحَفِّكم: فيلج عليكم ويجهدكم بطلبها، يقال احفاه بالمسألة: اذا لم

يترك شيئاً من الاحاح. أضغانكم: أحقادكم.

بعد ان بين الله تعالى حال المنافقين ذكر هنا حال أساتذتهم اليهود الذين كفروا بالله وصدّوا الناس عن الاسلام بهبثهم ومكرهم، وعادوا رسول الله ﷺ. وقد تبين لهم صدقته وأنه رسول من عند الله، وعندهم وصفه في التوراة. فهو لاء لن يضرّوا الله شيئاً، وإنما يضرّون أنفسهم، وسيحبط الله مكايدهم التي نصبوها للاسلام والمسلمين.

ثم أمر الله عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله الكريم في كل ما يأمران به، وان لا يبطلوا أعمالهم برفض طاعتها فيرتدّوا، ولا يقبل الله مع الشرك اي عمل.

وعن قتادة قال في الآية: من استطاع منكم ان لا يُبطل عملاً صالحاً بعمل سوءٍ فليفعل. ثم بين الله مصير الذين كفروا وصدّوا الناس عن الدخول في الاسلام، ثم ماتوا وهم كفار، فلن يغفر الله لهم. وحرّض المسلمين بأن يقاتلوا الكفار بقوله: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ}

إياكم ان تضعفوا وتدعوا اعدائكم الى السلم فأنتم المنتصرون. والله معكم بنصره، ولن ينقصكم ثواب اعمالكم.

ثم أكد على المؤمنين بأنه لا ينبغي الحرص على الدنيا فإنها ظل زائل، وما هذه الحياة الا لعب وهو.

{وَأِنْ تَوَمَّنُوا وَيَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ} الا القليل النزر الذي فيه اصلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة. وهو علم بأنكم أشخّة على أموالكم، فلو طلبها لبخلتم بها وظهرت أحقادكم على طالبها. والله قد طلب إليكم الانفاق في سبيله، فان بخلتم فضرر ذلك عائد اليكم. وهذا حاصل اليوم، فان معظم أموال البترول مكدّصة في بلاد الغرب، والمسيطرون على هذه الاموال ينفقون على ملذّاتهم الملايين، وبخلون بالانفاق في سبيل الله وتسليح المخلصين من العرب ليصدّوا عدونا اليهود وغيرهم من الاعداء.

{هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}

كأن الآية نزلت في وقتنا الحاضر، وهي صريحة في شرح احوالنا.

وهنا يأتي التهديد الخيف اذ يقول تعالى:

{وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}

فان تعرضوا وبخلوا باموالكم ولا تنفقوا في سبيل الله، فان الله غني عنكم يستبدل مكانكم قوماً غيركم، فيكونوا خيراً منكم، يقيمون دينه، ويبدلون أموالهم في سبيل الله بسخاء، وينصرون هذا الدين العظيم. اللهم ألهمنا الصواب في القول والعمل.

٤٨ الفتح

٤٨٠١ 1

فتحنا لك فتحاً مبيناً: نصرناك نصراً بيناً ظاهراً. وكان صلح الحديبية نصراً كبيراً للنبي الكريم، إذ كان سبباً في فتح مكة. قال الامام الزهري: لم يكن فتح اعظم من صلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الاسلام من قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الاسلام، فما مضت تلك السنن الا والمسلمون قد جاؤا الى مكة في عشرة آلاف ففتحوها. السكينة: الطمأنينة والثبات.

إنا فتحنا لك يا محمد فتحاً ظاهراً عظيماً بذلك الصلح الذي تم على يدك في الحديبية، وكان نتيجته الكبرى استيلاءك على مكة وازالة الكفر منها.

ليغفر الله لك، بسبب جهادك وصبرك، ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك بإعلاء شأن دينك، وانتشاره في البلاد، ورفع ذكرك في الدنيا والآخرة، ويهديك صراطاً مستقيماً في تبليغ الرسالة وإقامة الدين، وينصرك على أعدائك نصراً فيه عز ومنعة. ان الله هو الذي انزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين في المواقف الحرجة ووسط المخاوف والشدائد ليزدادوا بها يقيناً، والله جنود السموات والأرض يدبر أمرها كما يشاء، ويسلطها على من يشاء لتأديبه، وكان علم الله محيطاً بكل شيء. .
ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات بالله ورسوله جنات تجري من تحتها الأنهار، ما كثين فيها أبداً، ويحور عنهم سيئاتهم، وكان ذلك الجزاء عند الله فوزاً عظيماً.

٤٨٠٢ 6

عليهم دائرة السوء: تدور عليهم وتحيط بهم. السوء: الشر. تعزروه: تنصروه. توقروه: تعظموه. بكرة: صباحا اول النهار. اصيلا: مساء آخر النهار. وليلعذب المنافقين والمنافقات والمشركين بالله والمشركات الذين يظنون بالله اسوأ الظنون، كأن لا ينصر رسوله. وقد نصره. فعليهم تدور دوائر الشر لا يفلتون منها، ونالهم غضب من الله، الذي طردهم من رحمته، {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ} [الفتح: ٦] وما أسوأها من مصير! {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} من الملائكة والإنس والجن، والصيحة والرجعة والزلازل والخسوف وغير ذلك. . يهلك بها اعداءه {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ولا يزال. انا ارسلناك يا محمد شاهداً على أمتك وعلى من قبلها من الأمم، ومبشراً للذين آمنوا بحسن الثواب، ونذيراً للذين عصوا بسوء العذاب. وذلك لتؤمنوا ايها الناس، وتنصروا الله بنصر دينه، وتعظموه مع الاجلال والاكبار، {وَتَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} صباحا ومساء. وقرأ ابن كثير وابو عمرو: دائرة السوء بضم السين. وقرأ الباقر: بفتح السين. وقرأ ابن كثير وابو عمرو: ليؤمنوا بالله ورسوله، ويعزروه ويوقروه ويسبحوه بالياء، والباقر بالتاء.

٤٨٠٣ 10

يباعونك: يوم الحديبية، اذ بايع الصحابة الرسول على الموت في نصرته. انما يبايعون الله: لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة الله. يد الله فوق ايديهم: نصره لهم اقوى من كل شيء. نكت: نقض. المخلفون: واحد منهم مخلف، وهو المتروك في المكان خلف الذين خرجوا منه. الأعراب: أهل البادية. بورا: هالكين. ان الذين يبايعونك يا محمد على الثبات معك في نصر الاسلام وجهاد أعدائه، انما يبايعون الله، ويد الله فوق ايديهم، فن نقض عهده منهم بعد ميثاقه، عاد ضرر نقضه على نفسه، ومن وفي بالعهد فسيؤتيه الله أجراً عظيماً في الدنيا والآخرة. وسبب هذه البيعة ان الرسول الكريم لما أشيع قتل عثمان في مكة قال: لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعا الناس الى البيعة. فبايعوه تحت الشجرة، وكانت بيعة الرضوان. ولما رأت قريش عزم الرسول الكريم واصحابه على الحرب بدأت تتراجع وأرسلوا بعض الاشخاص يفاوضون النبي ﷺ بأن يعود من هذا العام، ويأتي في العام المقبل لأداء العمرة. ووقع صلح الحديبية كما تذكر كتب التاريخ والسيرة. ولما وقع النبي الصلح مع قريش تحلل من احرامه ونحر. ثم مكث مع اصحابه أياماً في الحديبية عادوا بعدها الى المدينة. وفي السنة التالية قصدوا مكة معتمرين، ودخلوها وهم يهللون ويكبرون قائلين: لا اله الا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. واقاموا بمكة ثلاثة ايام يطوفون ويسعون ويخرون الهدى. وقد سميت هذه العمرة عمرة القضاء لأنها تمت قضاءً عن العمرة السابقة التي منعهم فيها المشركون، ونزل فيها قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [الفتح: ٢٧] .

{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}

عندما اراد النبي ﷺ الخروج الى مكة معتمراً دعا جميع المسلمين للخروج معه فتخلف البدو من جهينة ومزينة وغفار وأشجع وأسلم وغيرهم وتعللوا بأن اموالهم وأهلهم قد شغلهم. والحقيقة أنهم كانوا ضعاف الايمان، يخشون ان تقع الحرب. وقالوا: لن يرجع محمد ولا اصحابه من هذا السفر. ففضحهم الله في هذه الآية لأنهم كاذبون يقولون خلاف ما يبتنون، وامر رسوله الكريم أن يرد عليهم بقوله: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا؟} والله عليم بكل ما تعملون.

لم يكن تخلفكم لما أبدتكم من الاسباب، بل لأنكم قد رتم ان الرسول والمؤمنين لن يعودوا أبداً.

{وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّكُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ}

زين الشيطان لكم ان الله لن ينصر النبي واصحابه، وقد خيب الله ظنكم، وصرت قوما هالكين. ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فإننا أعدنا له سعيراً من النار خالداً فيها.

ثم بين الله تعالى قدرته على ذلك وانه يفعل ما يشاء، لا راد لحكمه، فله السلطان المطلق والتصرف الكامل. ومع ذلك كله فهو الغفور الرحيم {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}

قراءات:

قرأ حفص: بما عاهد عليه الله بضم الهاء في عليه. والباقون بكسرها. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وروح: فسنتيه بالنون، والباقون فسيؤتيه بالياء.

قرأ حمزة والكسائي: ان اراد بكم ضراً بضم الضاد. وقرأ الباقون: ضراً بفتح الضاد.

٤٨٠٤ 15

مغانم: جمع مغنم، وهو ما كسبه الإنسان في الحرب. أولي بأس: اصحاب قوة وشدة في القتال. الحرج: الضيق والاثم. يعني هؤلاء ليس عليهم اثم اذا لم يقاتلوا.

{سَيَقُولُ الْمُخَلْفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا. . .}

سيقول هؤلاء الاعراب الذين تخلفوا عنكم ايها الرسول يوم خروجكم الى مكة، وتعللوا بشغلهم بأموالهم وأهلهم بأموالهم واهليهم: دعونا نتبعكم ونخرج معكم الى غزو خيبر، وذلك لأنهم توقعوا ما سيكون من مغانم.

{يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}

يريدون بذلك تغيير وعد الله بتلك المغانم لمن خرج مع الرسول الى الحديبية.

قل لهم يا محمد: لن تتبعونا، فلقد حكم الله من قبل بأن الغنائم لمن خرج مع رسول الله وأطاعه. ولكنهم يتجأون على الله ويقولون: ان الله لم يأمركم بذلك، بل انكم تخشون ان تشارككم الغنيمة.

{بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا}

ليس الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون بل انهم لا يفقهون من امر الدين وتشريع الله الا قليلاً.

ثم بين الله تعالى لهم ان باب القتال والجهاد لا يزال مفتوحاً امامهم، ولذلك قال للرسول الكريم: قل لهؤلاء المتخلفين عن الخروج من اهل البادية: ستدعون الى قتال قوم ذوي شدة وبأس في الحرب، فعليكم ان تحيروهم بين امرين، إما القتل أو الاسلام، فان تستجيبوا لهذه الدعوة يُعْظِمَ الله لكم الغنيمة في الدنيا والثواب في الآخرة، وان تعرضوا عنها كما اعرضتم من قبل {يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} .

ثم بين الله تعالى الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد في سبيل الله: فالأعمى والأعرج والمريض معذورون ليس عليهم حرج في عدم الخروج.

ثم رغب في الاجهاد واطاعة الله ورسوله، وأوعد المتخلفين عنه بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

{وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: يريدون ان يبدلوا كَلِمَ الله بالجمع. والباقون: كلام الله.

٤٨٠٥ 18

تحت الشجرة: وهي شجرة طلح كانت هناك، وهي المعروفة بالسمر، بايع المؤمنون تحت ظلها رسول الله ﷺ. السكينة: الطمأنينة، والأمن وسكون النفس. فتحاً قريباً: فتح خبير، وقد حصل بعد انصرافهم من الحديبية. مغنم كثيرة: مغنم خبير. لتكون آية للمؤمنين: وذلك علامة صدق الرسول الكريم، وحيطة من الله لرسوله وللمؤمنين، وليوقن المؤمنون الذين سيأتون ان رعايته تعالى ستعمهم أيضاً ما داموا على التقوى والصلاح. وأخرى لم تقدروا عليها: هي ما فتح الله على المسلمين فيما بعد من دولتي فارس والروم. احاط الله بها: حفظها الله لكم.

بعد ان بين الله حال المتخلفين فيما تقدم، عاد الى بيان حال المبايعين الذي ذكرهم بقوله تعالى في اول السورة: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح: ١٠] فبين هنا رضاه عنهم من اجل تلك البيعة التي سميت «بيعة الرضوان» لما علم من صدق ايمانهم واخلاصهم في بيعتهم، وأنزل الله عليهم السكينة والأمن ورباطة الجأش، وجازاهم بالغنائم الكثيرة التي أخذوها من خبير، وكانت ارضا ذات حقول ولساتين وعقار واموال قسمها رسول الله ﷺ بين المقاتلة فاعطى الفارس سهمين والراجل سهماً. روى ابن جرير عن سلمة بن الأكوع قال: بينا نحن قائلون، اذ نادى منادي رسول الله، ايها الناس: البيعة البيعة، نزل روح القدس. فثرنا الى رسول الله وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه. فذلك قوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ . . .} فبايع النبي لعثمان باحدى يديه على الأخرى، وكانت قد انتشرت شائعة أن عثمان قد قُتل، فبايعوا رسول الله على الموت في سبيل الله.

ثم بين الله ان ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو الثواب وحده، بل سيأتيهم جزاء اكبر. . وانما عجل لكم هذه لتكون آية على صدق رسوله الكريم وحياطته له، وحراسته للمؤمنين وليثبتكم على الاسلام، وليزيدكم بصيرة، وسيؤتيكم مغنم كثيرة فيما بعد من فارس والروم وغيرهما ما كنتم تقدرون عليها لولا الاسلام، وهذا معنى قوله تعالى: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} .

ثم بين الله تعالى انه لو قاتلكم اهل مكة ولم يصالحوكم في الحديبية لانهم لم يجدوا من ينصرهم او يدافع عنهم. {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} تلك هي سنة الله من غلبة المؤمنين، وخذلان الكافرين. ثم ذكر منة الله على عباده المؤمنين بقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} فصان كلا الفريقين عن الآخر، وأوجد صلحا فيه خيرة للمؤمنين، وعافية لهم في الدنيا والآخرة.

قراءات:

قرأ ابو عمرو: يعملون بصيرا، بالياء، والباقون: بما تعملون بالتاء.

٤٨٠٦ 25

الهدى: ما يقدم قربانا لله في مناسك الحج والعمرة من الانعام. معكوبا: محبوسا لهذا الغرض. محله: المكان الذي يسوغ فيه نحره وهو منى. أن تطؤوهم: ان تقتلوهم. المعرة: المكروه والمشقة. لو تزيّلوا: لو تفرقوا وتميزوا. الحمية: الأنفة، والعصبية. وحمة الجاهلية: حمية

في غير موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان. كلمة التقوى: هي لا اله الا الله، والسير على هدى الاسلام. بعد ان بين الله أنه كف أيدي المؤمنين عن الكافرين، وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين، ذكر هنا ان المكان هو البيت الحرام الذي صدّوا المؤمنين عنه، فيقول: ان اهل مكة هم الذين كفروا ومنعوكم من دخول المسجد الحرام ومنعوا الهدى الذي سقتموه معكم تقرباً الى الله من بلوغ مكانه الذي يُخْرِجُ فيه.

ثم وضح أكثر أن في مكة مؤمنين ومؤمنات لا تعلمونهم، ولولا كراهة أن تصيبوهم فتقتلوهم بغير علم بهم، فتكونوا قتلتم إخوانكم فيلحقكم من اجل قتلهم {مَعْرَةٌ بغير علم} أي عار وخزي - لسلطانكم عليهم.

ثم أكد ميزة هذا الصلح العظيم بقوله تعالى: {لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} أي ليفتح الباب أمام الذين يرغبون في دخول دين الله. وبين بوضوح بأنه لو امكن تمييز المسلمين من الكفار في مكة لسلط المؤمنين على الكافرين ولعاقبهم عقاباً أليماً. فهؤلاء قد جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية، لذا أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى (يعني العمل بالتقوى) وضبط النفس، فقبلوا الصلح في الحديبية على الرغم من كبرياء المشركين وحميتهم وعتوهم.

٤٨٠٧ 27

الرؤيا: ما يراه النائم. صدق الله رسوله الرؤيا: صدقه فيما رآه في نومه ولم يكذبه. محلّقين رؤوسكم ومقصرين: بعضكم يحلق شعره كله، وبعضكم يقصر منه. ليظهره على الدين كله: ليعليه على سائر الأديان. فضلاً: ثواباً. سيماهم: علامتهم. مثلهم: وصفهم. شطأه: شطأ الزرع ما يتفرع عليه من أغصان وورق وثمر. آزره: أعانه وقواه. وهو من الزواجرة وهي المعاونة. استوى: استقام. على سوقه: على قصبه وأصوله، والسوق جمع ساق.

رأى النبي عليه الصلاة والسلام في منامه وهو في المدينة قبل ان يخرج الى الحديبية رؤيا أنه يدخل المسجد الحرام هو واصحابه آمنين، منهم من يحلق شعره كله، ومنهم من يقصر منه. فأخبر بذلك أصحابه آمنين، منهم من يحلق شعره كله، ومنهم من يقصر منه. فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا انهم داخلون مكة في ذلك العام الذي خرجوا فيه الى الحديبية. فلما انصرفوا لم يدخلوا مكة شق ذلك عليهم، وقال المنافقون: أين رؤيا النبي التي رآها؟ فانزل الله تعالى هذه الآية. ودخلوا في العام المقبل. وهذا معنى {لَقَدْ صدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام. . .} الآية {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً} هو صلح الحديبية وفتح خيبر. ثم أكد صدق الرسول الكريم في الرؤيا بقوله:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً}

وهذا وعد من الله حققه للرسول الكريم في حياته ثم انتشر الاسلام في جميع أرجاء الأرض في اقصر مدة.

وبعد ان بين الله تعالى انه ارسل رسوله بالهدى ودين الحق الذي هو الاسلام، ليظهره على جميع الاديان - أردف ذلك ببيان أوصاف الرسول الكريم واصحابه. فوصفهم بأوصاف كلها مدائح لهم، وذكرى لمن بعدهم. بتلك الاوصاف سادوا الأمم، وامتلكوا الدول، ونشروا الاسلام، وقبضوا على ناصية العالم. وهذه الصفات هي:

١- انهم أشداء على من خالف دينهم وبادأهم العدا، وهم متراحمون متعاطفون فيما بينهم.

٢- انهم جعلوا الصلاة والاخلاص لله طريقتهما في أكثر أوقاتهم، لذلك تبصرهم راعين خاشعين كثيراً.

٣- وانهم بذلك يطلبون ثواباً عظيماً من الله تعالى ورضواناً منه.

٤- ذلك وصفهم البارز في التوراة.

٥- وفي الانجيل ضرب بصفته المثل فقال: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر.

ذلك انهم في بدء الاسلام كانوا قليلي العدد ثم كثروا وارتقى أمرهم يوماً بعد يوم حتى أعجب الناس بهم، كصفة زرع اخرج اول ما ينشق عنه، فأزره فتحوّل من الدقة الى الغلظ، فاستقام على أصوله، يعجب الزراع بقوته واكتماله. وكذلك كان حال المؤمنين ليغيط الله بهم وبقوتهم الكفار.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}

وقد وفي سبحانه وتعالى بوعده ونصر رسوله وجنده، وهزم الأحزاب وحده.

بهذه الأوصاف الجليلة يختم هذه السورة العظيمة، وهذه اوصاف الأمة الاسلامية أيام عزها، يوم كان المسلمون مستمسكين بالعروة الوثقى، سائرين على هدى دينهم بحق واخلاص. فانظر الآن وتأمل في حال المسلمين: يحيط بهم الذل والخوف من شرذمة من اليهود تجعت في فلسطين، اغتصبت ديار الاسلام، وهي تضرب العرب في لبنان صباح مساء وتبئد الناس اباداً، وتهدم ما يصنع العرب من ادوات للتقدم حتى وصلت الى ضرب المفاعل الذري في بغداد، ويصرخ زعماءها بتبجح اليهود المعروف انها لن تسمح للعرب أن يقيموا اية آلة تجعلهم يتقدمون صناعياً وعلمياً. كل هذا وحكام العرب خائفون ساكتون كأن شيئاً لم يحدث، وزعماءهم يتباكون ويطلبون من أمريكا عدو العرب الأول أن تحلّ لهم قضيتهم! يا للذل والعار! كيف نستطيع ان نواجه ربنا غداً يوم نلقاه! ما هي العلة التي تتعلل بها لرسولنا الكريم! لعل الله ان يبذل الحال غير الحال، ويخضر الزرع بعد ذبوله، وتعود الأمة الى سيرتها الأولى، متمسكة بدينها الخفيف، مجتمعة الكلمة، موحدة الهدف. والله أسأل ان يلهمنا الصواب والرشد والرجوع الى ديننا الخفيف. وعند ذلك ينطبق علينا قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} والحمد لله رب العالمين.

٤٩ الحجرات

٤٩٠١ 1

لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله: لا تعجلوا بالأمر قبل ان يأمر به الله ورسوله. لا ترفعوا اصواتكم: غضّوها وتكلموا بهدوء ولين. امتحن الله قلوبهم: طهرها ونقاها واخلصها للتقوى. الحجرات: مكان سكن النبي الكريم، كان لكل زوجة حجرة، بيت. من وراء الحجرات: من خارجها.

يا أيها الذين آمنوا لا تعجلوا بأي أمر قبل ان يقضي الله ورسوله لكم فيه، فلا تقترحوا على الله ورسوله أي شيء قبل ان يقول الله ورسوله فيه، واتقوا الله وراقبوه خشية ان تقولوا ما لم يأذن لكم الله ورسوله به. ان الله سميع لما تقولون، عليم بما تريدون.

في هذه الآية الكريمة وما يليها تأديب للصحابة وتعليم وتهذيب، فقد طلب الله اليهم ان ينقادوا لأوامر الله ونواهيه، ولا يعجلوا بقول أو فعل قبل الرسول الكريم.

ثم أدبهم في الآية الثانية في الحديث والخطاب مع رسول الله، وأ، يوقروه، فلا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي إذا تكلم، بل يخفضوها ولا يتكلموا معه كما يتكلم بعضهم مع بعض. وأن يتأدبوا في مجابته فلا تقولوا: يا محمد، بل قولوا: يا نبي الله، او يا رسول الله، وبكل إجلال وتعظيم، حتى لا تبطل أعمالكم وانتم لا تشعرون.

ثم نوه الله تعالى بتقواهم، وغضّهم أصواتهم عند رسول الله ﷺ في تعبير لطيف فقال:

{إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}.

هنا يرغبهم الله ويتلطف بهم بعد ذلك التحذير الخفيف، ويقول: ان الذين يخفضون اصواتهم ف يجلس رسول الله، إجلالاً له، اولئك قد طهر الله قلوبهم ونقاها وأخلصها للتقوى، فلهم مغفرة لذنوبهم، واجر عظيم لتأديبهم وغض أصواتهم وتقواهم.

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

كان الأعراب (وهم قريبو عهد بالجاهلية) أكثرهم جفاة يأتون الى المدينة فيجتمعون عند حجرات ازواج رسول الله، وينادونه بأصواتهم المزججة: يا محمد، اخرج الينا. وكان هذا في العام التاسع من الهجرة وهو عام «الوفود» لدخول الناس في دين الله افواجا. فكان ذلك يؤذي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

فأدبهم الله بهذا القرآن الكريم، ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون، ثم بين لهم ان النداء بهذا الجفاء مناف للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي الكريم، وعلمهم أن الأفضل لهم ان يصبروا وينتظروا حتى يخرج إليهم، ثم أتبع ذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} . هذه السورة كما مر في المقدمة من أواخر السور نزولا، وفيها على قصرها قواعد وتعاليم للمؤمنين، وترسيخ لايمانهم، وتأديب لهم ليتيأوا لقيادة العالم.

والحجرات التي ورد ذكرها في الآية الكريمة هي تسع حجرات كانت لكل زوجة حجرة من جريد النخل، وعلى أبوابها المسوح من شعر أسود. وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد، وفي غاية البساطة. قال سعيد بن المسيب وهو اكبر التابعين في المدينة: وددت أنهم تركوها على حالها حتى يراها الناس بما فيها من البساطة، فيروا ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهّد الناس في التفاخر والتكاثر.

وقد أدخلت هذه الحجرات في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجد رسول الله ﷺ فبكى الناس لذلك.

قرأ يعقوب: لا تقدموا بفتح التاء والبدال، والباقون: لا تقجموا بضم التاء وكسر الدال المشددة.

٤٩٠٢ 6

الفاسق: الخارج عن حدود الدين. نبأ: بخبر. قال الراغب في مفرداته: لا يقال للخبر نبأ الا اذا كان ذا فائدة عظيمة. فتنبؤوا: وفي قراءة فتنبؤوا. بجهالة: بغير علم.

تقرر هذه الآية الكريمة مبدأ عظيماً للمؤمنين: كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها، وأن عليهم ان يتنبؤوا من مصدرها. وقد خصّ الفاسق لأنه مظنة الكذب، اما اذا كان مصدر الخبر من المأمون في دينه وخلقه فإنه يؤخذ بأخباره، ولا يجوز ان يشك فيه، والا تعطلت المصالح، وتزعزعت الثقة بين المؤمنين، وتعطل سير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والاسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها. وقد روي في سبب نزول هذه الآيات روايات قبلها كثير من المفسرين وضعفها بعضهم، ومنهم الرازي. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: فتنبؤوا، من التثبت والتريث في الأمور، وقرأ الباقيون: فتبينوا، من التبين والتريث، والفعالان قريبان من بعض.

٤٩٠٣ 7

لَعْنَمُ: وقعتم في تعب ومشقة. الفسوق: الخروج عن الحد كالكذب والغيبة وغيرها. العصيان: عدم الانقياد الى الحق. الرشاد: اصابة الحق واتباع الطريق السوي.

بعد ان حذرهم الله تعالى من التعجل في الأمور، ووضح كيف يتلقون الأخبار ويتصرفون بها، بين لهم هنا أمراً عظيماً جداً، ونعمة كبيرة ورحمة لهم، تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينعموا بوجودها فقال: {واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ} فاقدروه حق قدره، واصلدقوه، فإنه لو يطيعكم في كثير من الامور، لوقعتم في المشقة والهلاك.

{ولكن الله حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} .

وفي هذا توجيه من الله تعالى إلى نعمة الايمان الذي هداهم اليه، وكشف لهم عن جماله، وجعلهم يكرهون الكفرَ والفسوق والعصيان. وكلّ هذا من رحمته الواسعة. ثم بين ان من يتصف بهذه الصفات الحسنة ويتجنب الصفات السيئة هو من اهل الرشاد السالكين الطريق السوي.

{فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

وكل هذا العطاء الذي منحه لكم ربكم انما لكم تفضل منه عليكم وإنعام كبير من لدنه.

٩ ٤٩٠٤

الطائفة: الجماعة اقل من الفرقة. فأصلحوا بينهما: بأية طريقة: بالنصيحة، بالتفاوض، بالتهديد، بكل وسيلة. فإن بغت: فان تعدت وجارت. تفنيء: ترجع. أمر الله: الصلح فأصلحوا بينهما بالعدل: بآزالة آثار القتال والخلاف، وبضمان ما تلف بحيث يكون الحكم عادلا. وأقسطوا: واعدلوا. الاخوة: في النسب، وقد جعلت الاخوة في الدين كالاخوة في النسب. والاخوان: في الصداقة. في هاتين الآيتين تشريع عملي عظيم لصيانة المجتمع الاسلامي، وحمايته من الخصاص والتفكك والتمزق. فبعد ان حذر الله تعالى من النبأ الصادر عن الفاسق، وحث على التوثق من مصادر الأخبار، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة الطائشة قال: إن حصل أن اقتتل طائفتان من المؤمنين فإن على المؤمنين ان يقوموا بالاصلاح بينهما. فان تعدت احدى الطائفتين على الاخرى ولم تقبل الصلح، فعليهم ان يقاتلوا تلك التي تتعدى حتى ترجع الى حكم الله. فان قبلت الصلح ورجعت الى حكم الله، فأصلحوا ايها المؤمنون بينهما بالعدل والانصاف حتى لا يتجدد القتال مرة اخرى.

ثم امرنا الله تعالى بالعدل في كل الأمور فقال:

{وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}

واعدلوا ايها المؤمنون بين الناس جميعا في كل الأمور، ان الله يحب العادلين في جميع اعمالهم.

انما المؤمنون بالله ورسوله إخوةٌ جمع الايمان بين قلوبهم ووحدتهم. وفي الحديث الصحيح: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يُسلمه، ولا يعيبه، ولا يخذله» فأصلحوا بين اخويكم رعاية لأخوة الايمان، {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} واجعلوا لأنفسكم وقاية من عذاب الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه حتى يرحمكم، لتكونوا إخوة على الحب والسلام والتعاون والوحدة في مجتمعكم، وبذلك تكونون أقوياء أعزاء تحت راية الاسلام.

قراءات:

قرأ يعقوب: فاصلحوا بين اخوتكم، بالجمع. والباقون: بين أخويكم بالثنائية.

فان قاتل جماعة المؤمنين الفئة التي لم تقبل الصلح، فإنه لا يجوز ان يُجهز على جريح، ولا يقتل اسير، ولا يجوز ان يُتعقب من هرب وترك المعركة، ولا تؤخذ اموال البغاة غنيمة، لأن الغرض من قتالهم ردُّهم الى صف المؤمنين، وضمُّهم إلى لواء الأخوة الاسلامية.

11 ٤٩٠٥

لا يسخر قوم من قوم: لا يحتقر احد منكم أخاه بذكر عيوبه واطهار نقائصه. يقال سخر به ومنه، هوئ به ومنه. القوم: شاع اطلاقه على الرجال دون النساء. ولا تلهزوا انفسكم: لا يعيب احد منكم اخاه، وعبر بأنفسكم كأنهم جميعا نفس واحدة فاذا عاب المؤمن أخاه المؤمن كأنه عاب نفسه.

يريد الله تعالى ان يكون المجتمع الاسلامي مجتمعاً فاضلاً، فأدبنا بهذا الأدب الرفيع، فلكل انسان كرامته، وهي من كرامة الجميع، فإذا حصل ضرر لأي فرد فانه ضرر للناس كلهم. لذلك ينهى الله تعالى ان يسخر رجالاً من رجال آخرين لعلمهم خير منهم عند الله، او

نساء من نساءٍ لعلَّهنَّ خيرٌ منهن عند الله.
{وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}

لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية، فانكم أيها المؤمنون كالجسد الواحد ان اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وهذا حديث صحيح رواه مسلم.

{وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}

ولا يدعوا بعضكم بعضاً بالألقاب المستكرهة، ولا تدعوا احدا بما لا يحب من الألقاب القبيحة.

اما الألقاب اللطيفة التي تدل على معانٍ حسنة فلا مانع من استعمالها كما قيل لأبي بكر عتيق، ولعمر بن الخطاب: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين الخ. .

{يُبْسِ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ}

بئس الاسم ان تُسموا فاسقين بعد ان تكونوا مؤمنين. ومن لم يتب ويرجع عما نهى الله عنه فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بعضيائهم أوامر الله.

٤٩٠٦ 12

اجتنبوا: ابتعدوا. الاثم: الذنب. ولا تجسسوا: اصلها تجسسوا بتائين: لا تبحثوا عن عورات الناس ومعايهم. الغيبة: ذكر الانسان بما يكره في غيابه.

في هذه الآية الكريمة أدبٌ رفيع للمؤمنين حتى يعيشوا في مجتمع فاضل، تكون فيه حرياتهم مكفولة، وحقوقهم محفوظة، فلا يؤخذون بالظن، ولا يحاكمون بريئة، فالانسان بريء حتى يثبت عليه الجرم.

روى الطبراني عن حارثة بن النعمان ان النبي ﷺ قال: «اذا ظننت فلا تحقق» وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك إلا خيراً، وانت تجد لها في الخير محملاً» .

يا ايها الذين آمنوا: ابتعدوا عن كثير من ظنّ سوء بالناس، إن بعض الظن إثمٌ يستوجب العقوبة. وهذا تهذيبٌ رفيع لنا يرفع من مستوى مجتمعنا، ويديم الوثام والمودة بيننا، ويزيد توثيق رباط المجتمع الاسلامي الفاضل قوةً ومنعةً.

{وَلَا تَجَسَّسُوا}

وهذا أمر ثانٍ من أوامر الله العليا يُبعدنا فيه عن الاعمال الدنيئة، لتطهير قلوبنا ونظافة اخلاقنا، حتى يكفل حريات الناس وحرمتهم وكرامتهم، التي لا يجوز ان تُنتهك ولا تُمسّ بحال من الاحوال. فما دام الانسان في بيته قد ستر نفسه عن الناس فلا يجوز لنا ان نتتبع عوراتهم، ولا البحث عن سرائره، لأن الاسلام يريد ان يعيش الناس آمنين على أنفسهم مطمئنين في بيوتهم، ولنا الظواهر، ولا يجوز لنا أن ن تعقب بواطن الناس وما أخفوه.

قال عبد الرحمن بن عوف: حرسْتُ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بالمدينة، إذ تبين لنا سراجٌ في بيتٍ بابه مغلقٌ على قوم لهم اصوات مرتفعة ولَغَط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن يشربون، فما ترى؟ قلت: أرى أننا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال تعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا} وقد تجسسنا. فانصرف عمر وتركهم.

وفي الحديث الصحيح: «من ستر عورةً فكأنما استحيا مؤودةً من قبرها» رواه ابو داود والنسائي.

وفي الحديث ايضا عن سفيان الثوري عن معاوية بن ابي سفيان: قال سمعت النبي ﷺ يقول: «انك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم» رواه ابو داود.

{وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}

ولا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته ولو بإشارة أو نحو ذلك، لما في ذلك من اذى للناس. والمراد بما يكره: ما يكرهه في دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجته وفي كل ما يؤذيه.

قال الحسن البصري: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله: الغيبة، والافك والبهتان.

فأما الغيبة: فهي ان تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الافك: فان تقول فيه ما بلغك عنه وقد يكون ذلك غير صحيح. وأما البهتان: فان تقول فيه ما ليس فيه. والغيبة من الجرائم الكبيرة، والذي يريد التوبة منها عليه ان يستغفر لمن اغتابه، او يذهب اليه ويطلب العفو منه. ولبشاعة الغيبة، وكرهاتها يعبر عنها الله تعالى بهذا التعبير العجيب للتغيب منها والبعد عن إيذاء الناس فيقول:

{يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}

تصوروا هذا التمثيل الفظيع الذي تتأذى منه النفوس. وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تنفر المسلمين من الغيبة، ليرفع الله من نفوسهم ويطهرها، ويبني مجتمعاً طاهراً مثالياً.

واستثنى العلماء من تحريم الغيبة، الملحد في الدين، والحاكم الجائر، والفاسق المجاهر بالفسق، وتجرىح الشاهد عند القاضي، والمتظلم في أمر هام، وراوي حديث الرسول الكريم، {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسَّوَاءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ} [النساء: ١٤٨] .

ثم بعد ذلك يأتي تعبير لطيف {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} بأنه دائماً مفتوح للتوبة، وهو مع كل ما يأتيه الناس من مخالفات ومعاصي رحيم يقبل التوبة فلا تقنطوا من رحمة الله.

قراءات:

قرأ يعقوب: ميتاً بتشديد الياء. والباقون: ميتاً باسكان الياء.

٤٩٠٧ 13

الشعوب: جمع شعب وهو الحي العظيم المنتسب الى أصل واحد كربيعة ومُضَر، والقبيلة دونه، وسُمي الشعب شعباً لتشعب القبائل منه كتشعب الاغصان من الشجرة. الأعراب: سكان البادية. آمنا: صدقنا بما جئت به من الشرائع، فالإيمان هو التصديق بالقلب. أسلمنا: انقذنا لك ونطقنا بالشهادتين وعملنا بما تأمرنا به. لا يلتكم: لا ينقصكم. يمتنون عليك أن أسلموا: يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنعة، واسدى اليك معروفاً.

بعد ان أدب الله تعالى المؤمنين بالآداب الرفيعة بين هنا ان الناس جميعاً من أب واحد وأم واحدة، فكيف يسخر الأخ من أخيه او يغتابه او يظلمه؟! وبين للناس ان القرآن يدعو الى أمة انسانية واحدة، وعالم واحد يسوده العدل والمحبة، واعلن هنا حقوق الانسان بصرف النظر عن لونه وجنسه، فالناس إخوة في النسب، كرامتهم محفوظة، والانسان مخلوق الله المختار، وهو خليفته في الارض.

يا أيها الناس: إننا خلقناكم متساوين من اصل واحد هو آدم وحواء، وجعلناكم جموعاً عظيمة، شعوباً وقبائل متعددة، لتتعارفوا وتتعاونوا على ما فيه خيركم وصلاحكم، إن أكرمكم عند الله وأرفعكم منزلة في الدنيا والآخرة هو اتقاكم له وأنفعكم لخلقهم، {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} بكم وباعمالكم وبباطن احوالكم، فاجعلوا التقوى زادكم لمعادكم.

ثم بعد ان بين الله لنا أن الناس جميعاً إخوة لأُم وأب وحثنا على التقوى والعمل الصالح، بين هنا ان الإيمان وحده لا يكفي، والإيمان هو التصديق بالقلب، وان الاسلام هو التصديق والطاعة الظاهرة بأداء الواجبات واجتناب النواهي. وكان في زمن الرسول الكريم أناس من الاعراب في إيمانهم ضعف، وقلوبهم مشغولة تريد المغانم وعرض الدنيا. فقال الله تعالى:

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا. . . .}

قالت الاعراب بألسنتهم: آمنا، فقل لهم يا محمد: إنكم لم تؤمنوا، لأن قلوبكم لم تصدق ما نطقتم به، ولكن قولوا أسلمنا وانقذنا ظاهراً لرسالتك، لأن الإيمان لم يدخل في قلوبكم بعد. وإن تطيعوا الله ورسوله صادقين لا ينقصكم الله من ثواب اعمالكم شيئاً.

ثم يؤكد الله رحمته ولطفه بعباده فيقول: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} سَتَارٌ لِلْهَفَوَاتِ غَفَارٌ لِلزَّلَاتِ، فسارعوا الى التوبة.
ثم بين الله تعالى حقيقة الايمان بقوله:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} .
المؤمنون حقاً هم الذين صدّقوا ولا تشوبهم الريبة في عقائدهم، ويبدلون النفس والنفس لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، أولئك هم الصادقون.

قل لهم يا محمد: اتخبرون الله بأن يصدقكم، والله وحده يعلم ما في قلوبكم، ويعلم كل ما في السموات والأرض، {والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} .
يعدون إسلامهم ومتابعتهم لك منة يطلبون منك أجرها.

فقد قال بعضهم: جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان. {قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ} بل الله تعالى هو الذي يمن عليكم إذ هداكم الى الايمان، ان كنتم صادقين في دعواكم.

ثم اكد الله تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، وختم بذلك هذه السورة الكريمة فقال:
{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

فهو يعلم الايمان الصادق، والكاذب، ويميز بين الاعمال التي يطلبون بها الدنيا، والأعمال التي يقصدون بها وجه الله.
قراءات:

قرأ أهل البصرة: لا يَأْتِكُمْ بِالْهَمْزَةِ، والباقيون: لا يَلْتَكُمُ بِلَا هَمْزَةٍ، وهما لغتان: أَلَتْ يَأَلَتْ، وَلَاتْ يَلِيتْ. واللغتان في القرآن الكريم. ففي سورة الطور {وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١] .

٥٠ ق

٥٠٠١ 1

مجيد: وافر المجد، واسم من اسماء الله الحسنى، يقال: مجد بضم الجيم مجادة فهو مجيد. ويقال: مجد بفتح الجيم يمجّد بضمها فهو ماجد.
والمجد: المروءة والسخاء والكرم والشرف. رجع بعيد: البعث بعد الموت بعيداً كما يقولون. ما تنقص الأرض: ما تبليه الأرض من الاجسام بعد الموت. حفيظ: حافظ لتفاصيل الأشياء كلها. كذبوا بالحق: كذبوا بالنبوة الثابتة. مريج: مختلط، مضطرب. ما لها من فروج: ليس فيها شقوق. مددناها: بسطانها. رواسي: جبالاً ثوابت تمنع الأرض من ان تميد. من كل زوج: من كل صنف. بهيج: ذو بهجة وحسن. منيب: راجع. حب الحصيد: حب الزرع المحصود. باسقات: طويلات، يقال بسقت النخلة بسوقاً طال. الطلع: أول ما يخرج من ثمرها. نصيد: منضود بعضه فوق بعض. كذلك الخروج: مثل ما نبت النبات، كذلك نخرجكم من قبوركم.
{ق}: حرف من حروف الهجاء افتتحت السورة به على طريقة القرآن الكريم في افتتاح بعض السور ببعض هذه الحروف للتحدي وتنبيه الأذهان.

أقسم بالقرآن ذي المجد والشرف: إنا أرسلناك يا محمد لتنذر الناس به فلم يؤمن به أهل مكة، بل عجبوا أن جاءهم رسول منهم ينذرهم بالبعث بعد الموت، وزادوا في هذا الانكار فقالوا: هذا شيء عجيب.

ثم زادوا في الانكار والتعجب بقولهم:

{إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}

أبعد ان نموت ونصير تراباً نرجع أحياء مرة اخرى! ذلك البعث بعد الموت رجوع بعد الوقوع.

ثم اشار الله تعالى الى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه فقال:
 {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ} .

قد علمنا ما تأكل الأرض من أجشامهم بعد الموت وتبليهم، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وإلى أين صارت، فلا يصعب علينا بعثهم من جديد، وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها.

ثم بين الله تكذيبهم بالنبوة الثابتة فقال:

{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ}

إنهم لم يتدبروا ما جاءهم به الرسول، وهو الحق الثابت، بل كذبوا به دون تدبر وتفكر، فهم في قلق من أمرهم واضطراب لا يستقرون منه على حال.

ثم وجه انظارهم الى دليل يدحض كلامهم لو فكروا فيه: ألم ينظروا إلى السماء والأرض وإلى الجبال الرواسي عليها، وكيف زين السماء بالكواكب وليس فيها شقوق، وإلى الماء النازل من السماء الذي أنبت به الجنات من مختلف الأصناف والألوان، والنخل الباسقات وطلعها المنضد الجميل. كل هذه الأشياء من أجل العباد ليعيشوا آمنين في هذه الحياة الدنيا متمتعين. وكما أنزلنا الماء من السماء وأحيينا به الأرض - كذلك نُخرجكم أيها الناس من قبوركم ونبعثكم حياة أخرى. {كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} .

٥٠٠٢ 12

الرس: البئر التي لم تبَن بالحجارة. واصحاب الرس: قوم شعيب. الأيكة: الشجر الكثير الملتف، وهم من قوم شعيب ايضا. تبع: احد ملوك حمير في اليمن. أفعيننا: أفعجنا. في لبس: في شك. الوسوسة: حديث النفس، وما يخطر بالبال. جبل الوريد: عرق كبير في العنق. قعيد: مقاعد له كالجليل بمعنى المجالس. رقيب: مراقب. عتيد: مهياً، حاضر. سكرة الموت: شدته. تحيد: تميل. يوم الوعيد: يوم وقوع العذاب الذي وعدوا به. سائق وشهيد: سائق يسوقها إلى المحشر، وشاهد يشهد عليها. الغطاء: الحجاب. وهو الغفلة والانهماك في اللذات، وقصر النظر. حديد: قوي نافذ.

بعد ان ذكر الله تعالى تكذيب المشركين للنبي - ذكر المكذبين للرسول من الأقبام السابقة مثل قوم نوح وأصحاب الرس وثمود، وعاد وفرعون وقوم لوط وقوم تبع وغيرهم، وما آل اليه أمرهم من الدمار والعذاب. وكل ذلك تسلية لرسوله ﷺ وتهديد لكفار قريش بأنهم سيصيبهم ما أصاب الذين قبلهم إن أصرّوا على الكفر والعناد. ثم بعد هذا العرض يقول الله تعالى:

{أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}

هل عجزنا عن ابتداء الخلق الأول، حتى نعجز عن إعادتهم مرة أخرى! بل هم في ريب من ان نخلقهم من جديد. {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤] .

ثم ذكر الله تعالى دليلاً آخر على إمكانه وقدرته، وهو علمه بما في صدور الناس جميعاً:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}

فلا يخفى علينا شيء من أمر البشر.

ثم بين أكثر من ذلك بقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}

ونحن لعلنا بأحواله كلها أقرب إليه من عرق الوريد، الذي هو في جسده ذاته.

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «نزل الله في ابن آدم أربع منازل: هو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو يحول بين المرء وقلبه، وهو آخذ بناصية كل دابة، وهو معهم أينما كانوا» .

ثم ذكر الله تعالى ان الانسان موكلٌ به ملكان يكتبان ويحفظان عليه عمله وأقواله، فهو تحت رقابة دائمة شديدة دقيقة، وكل شيء مسجلٌ عليه تسجيلاً دقيقاً.

ثم بعد ذلك يبين الله تعالى أن الانسان عند الموت ينكشف له كل شيء فقال:

{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} .

ومعنى ذلك أن النفس وهي في سكرات الموت ترى الحق كاملاً واضحاً، تراه بلا حجاب في تلك الساعة، وتدرك ما كانت تجهل، وهو الحق الذي كنت تفرّ منه ايها الكافر، ها قد جاءك فلا حيدَ عنه ولا مناص.

ثم بعد ذلك ينعطف الحديث الى يوم القيامة:

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} . . .

ونفخ في الصور نفخة البعث، وذلك اليوم {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦] ، هو يومُ الوعيد الذي اوعده الله الكفار أن يعذبهم فيه بعد الحساب. يومذاك تأتي كل نفسٍ إلى ربّها ومعها سائقٌ يسوقها اليه، وشاهدٌ يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير او شر.

ثم يقال للمكذّب: لقد كنت في الدنيا في غفلة تامة عن هذا الذي تراه من الأهوال والشدائد، فأزلنا عنك الحجاب الذي كان يغطي عنك أمور الآخرة، {فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} قويّ نافذ لا يحجبه شيء، فلا مهرب عن عذاب الحريق.

٥٠.٣ 23

القرين: المصاحب، الملك الموكل بالمرء. معتدّ: متجاوز للحق ظالم. مريب: شاك في الله وفي دينه، يقال: أراب الرجل صار ذا ريبة، وأراب الرجل اقلقه وازعجه. قال قرينه: الشيطان الذي أطغاه. كان في ضلال بعيد: بعيد عن الحق. وأزلت الجنة: قربت وأدّيت. غير بعيد: في مكان قريب. لكل أبواب: لكل تائب راجع عن المعصية الى الطاعة. حفيظ: حافظ لحدود الله وشرائعه. منيب: مخلص. ولدنا مزيد: مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

لا يزال الحديث عن يوم القيام وما يجري فيه.

{وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}

وقال الملك الموكل به الذي كان يسوقه الى الموقف: هذا الذي وكلتني به يا رب من بني آدم قد أحضرته وما هو مسجل عليه من قول وعمل.

فيقال للملكين (السائق والشهيد): ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، مناع للخير، ظالم متجاوز للحق، قد عبد غير الله. ألقياه في العذاب الشديد.

فيقول ذلك الكافر عندما يرى العذاب: رب إن قريني من الشياطين أطعاني. فيردّ عليه قرينه بقوله: {رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} كان طبعه الكفر والضلال والبعد عن الحق.

قال تعالى للكافرين وقرنائهم: لا تختصموا لدي في هذا الموقف، وقد قدّمت اليكم في الدنيا وعيداً على الكفر مع رُسلي إليكم فلم تؤمنوا.

{مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}

لا يغيّر قضائي الذي قضيته، ولا أظلم أحداً، فلا أعذبه بغير جرم اجترمه، ولا أعذب أحداً مكان احد.

وبعد ذلك يذكر مكان حلول الوعيد بقوله:

{مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ؟}

وهذا يقال تقريباً للكافرين إذ تطلب جهنم المزيد منهم.

وبعد هذا الحوار يأتي ذكرُ حال المتقين. وهو مشهد يختلف كل الاختلاف، ودِعْ أليف تقرب فيه الجنة من المتقين حتى تترأى لهم ويشهد المؤمنون فيه الترحيب والتكريم من رب العالمين.

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}

وقربت الجنة للذين آمنوا واتقوا ربهم بحيث تكون بمرأى العين منهم، إكراماً لهم، فيرون ما أعد الله لهم من نعيم وجبور، ولذة وسرور، ويقال لهم: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ} من كل خير. ثم يصفهم الله تعالى بأوصاف كريمة بقوله تعالى: {لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام خالدين فيها أبداً، {ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} .

وبعد ذلك يعلن المولى تعالى ببشارة عظيمة:

{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} .

إنهم يجدون فيها كل ما يشتهون. ثم يمنُّ الله تعالى بكرمه أن يزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدٍهم، وتلك الضيافة الكبرى من الرحمن الرحيم.

قراءات:

قرأ نافع وابو بكر: يوم يقول لجهنم. . . . بالياء. والباقون: نقول بالنون.

٥٠٠٤ 36

القرن: الجيل من الناس. أشد منهم بطشاً: أشد منهم قوة. فنقبوا في البلاد: طافوا في البلاد طلباً للرزق. محيص: مهرب. لذكرى: لعبرة. أو ألقى السمع وهو شهيد: أصغى الى ما يتلى عليه وهو حاضر، ويفطن لما يقال. لغوب: تعب. أدبار السجود اعقاب الصلوات، والأدبار جمع دبر ومعناه الأصلي الظهر ومؤخرة كل شيء. الصيحة: النفخة الثانية يوم القيامة. بالحق: بالبعث. يوم الخروج: من القبور. بجبار: بمسيطر ومسلط، انما انت داعٍ ومنذر.

يبين الله تعالى لرسوله الكريم أنه مهما بلغت قوة قومه وغناهم فإنهم لم يبلغوا قوة الذين كانوا قبلهم من الأمم، فقد كان السابقون أشد قوة وبطشاً، وطوفوا في البلاد وامعنوا في البحث والطلب ولم يغن عنهم كل ذلك من الله شيئاً.

وفي هذا الذي نتلوه عليك من أخبار الماضين ذكرى وعبرة لمن كان له قلب يدرك الحقائق ويفهم ما يقال له، ويصغي وهو حاضر شاهداً.

ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث، فبين ان الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أطيوار مختلفة وما أصابه تعب. . وما دام الله قادراً على خلق هذا الكون العجيب فإنه قادرٌ على إعادة الحياة مرة أخرى.

{فاصبر على مَا يَقُولُونَ}

اصبر على ما يقوله المشركون في شأن البعث من الأباطيل التي لا مستند لها ولا دليل. وسبح بحمد ربك وقت الفجر ووقت العصر وبعض الليل وفي أعقاب جميع الصلوات.

وقد وردت احاديث صحيحة في تحديد التسبيح بأن يقول: سبحان الله ثلاثاً وثلاثين مرة، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين مرة، والله اكبر ثلاثاً وثلاثين مرة، ويختمها بقول لا إله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، بعد كل صلاة.

{واستمع يَوْمَ ينادِ المنادُ}

أصغ ايها الرسول لما أخبرك به من احوال يوم القيامة، يوم ينادي الملكُ من مكان قريب من الناس، يوم يسمعون النفخة الثانية بالحق الذي هو البعث.

{ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} من القبور.
ثم نلخص ما تقدم بقوله تعالى:
{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ}

إلينا رجوع الناس جميعهم يوم البعث والجزاء. وفي ذلك اليوم يخرجون من الأرض بعد ان تشقق عنهم مسرعين الى المحشر.
{ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}. هو عظيم بما فيه من الاهوال ولكنه علينا سهل يسير.
ثم يخاطب الرسول الكريم مسلماً له بقوله: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} فاتركهم إلينا، {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} ولا مسيطر حتى تجربهم على الإيمان. ما عليك الا البلاغ، ولذلك {فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}.

٥١ الذاريات

٥١.١ 1

الذاريات: الرياح تذر التراب وغيره، وهي تحمل معها الحياة لأنها تسوق السحاب، كما تحمل الدمار احيانا. فالحاملات وقرا: الوقر هو السحاب، تحمله الرياح موقرة بالغيث يسوقها الله الى حيث يشاء. فالجاريات يسرا: السفن تجري في يسر على سطح الماء. فالمقسّمات أمرا: الملائكة التي تحمل أوامر الله لتبليغها الى رسله. انما توعّدون: هو البعث وهو صدق، والدين: هنا الحساب والجزاء. والسماء ذات الحجب: السماء ذات الطرق المحكمة النظام. إنكم لفي قول مختلف: مضطرب متناقض. يؤفك عنه من أفك: يُصرف عنه من صرف عن الايمان. الخراصون: الكاذبون. في غمرة: في جهل يغمرهم. ساهون: غافلون عما أمروا به. أيان يوم الدين: متى يوم الجزاء. يفتنون: يحرقون. فتنتكم: عذابكم العذ لكم. أقسم الله تعالى بهذه الأشياء: بالرياح المثيرات للتراب وغيره، وبحملها للسحب فالحاملات منها ثقلاً عظيماً من الماء، وبالسفن الجارية تخزُّ البحار، وبالملائكة تقسم أوامر الله وتبلغها إلى رسله الكرام - أن البعث لحق صادق، وان الدين (وهو الجزاء على اعمالكم) لحاصل. واقسم الله تعالى بالسماء ذات الجمال والبهاء، المحكمة البنيان والنظام، أنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول متناقض مضطرب {يُؤفك عنه من أفك} أي يُصرف عن الدين والحق، من صرفه عنه جهله وهواه.
{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ}

هلك الكاذبون القائلون في شأن القيامة بالظن، الذين هم مغمورون في الجهل، غافلون عما أمروا به.
وهم يسألون استهزاء فيقولون: متى يوم الجزاء؟ قل لهم يا محمد إن يوم الدين {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} أي في جهنم يحرقون، ويقال لهم: {ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ} هذا الذي كنتم به تستعجلون {ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي كُنْتُمْ تظنون انه غير كائن وتستعجلون وقوعه مستهزئين.

٥١.٢ 15

ما يهجعون: ما ينامون. الأسحار: أواخر الليل. وفي أموالهم حق: نصيب. للسائل: اللطال. المحروم: المتعفف الذي لا يسأل. يُطلق على الواحد والجمع. قوم منكرون: مجهولون غير معروفين. فراغ الى أهله: فذهب الى اهله خفية وسرا. فقرّبه اليهم: وضعه بين أيديهم. فأوجس منهم خيفة: أضمر في نفسه الخوف منهم. امرأته: سارة. في صرة: في ضجة. فصكت وجهها: ضربت بيدها على جبهتها. وقالت: عجوز عقيم: أنا كبيرة السن لا ألد.

بعد ان ذكر الكفار المنكرين للبعث والزاء وما ينتظرهم يوم القيامة - ذكر هنا حال المؤمنين المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم في جنة الخلد، لأنهم آمنوا وكانوا محسنين في الدنيا، وكانوا يقيمون صلاة الليل ويتجّدون في معظمه، ويستغفرون الله تعالى في وقت الأسحار

كما جعلوا في أموالهم جزءاً للفقراء والمساكين، والذين لا يجدون ولا يسألون.

ثم ذكر بعد ذلك بعض الآيات الكونية في الأرض والنفوس. وفي الأرض دلائل على وجود الخالق العظيم، وفي أنفسكم أيها الناس كذلك آيات واضحة أفلا تبصرون دلائلها؟ . وفي السماء أسباب رزقكم، وكذلك ما توعدون من كل شيء، فاعملوا وتوكلوا على الله الرزاق الكريم ولا تخافوا.

ثم أقصم الله تعالى بعزته وجلاله ان البعث حق {مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ} فلا تشكوا فيه، يعني أن بعث الناس يوم القيامة حق كأنكم تسمعون وترون.

ثم تطرق إلى قصة إبراهيم مع ضيوفه، تسلياً لرسوله الكريم. وقد تكرر ذكر إبراهيم كثيراً لأن النبي على دينه، ولأن قريش كانت تقول إنهم على دين إبراهيم.

هل علمت يا محمد قصة الملائكة، ضيوف إبراهيم، الذي وفدوا عليه فأكرمهم وهو لا يعرفهم، ولذلك قال لهم: {سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ} مجهولون لنا لا نعرفهم.

ثم أسرع إبراهيم إلى أهله خفية وقدم لضيوفه عجلاً سمينا مشوياً، فقرّبه إليهم، فلم يأكلوا منه، فقال منكراً لحاهم: ألا تأكلون؟ {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} خاف منهم في نفسه، ظناً منه ان امتناعهم عن الأكل إنما كان لشرا يريدونه.

{قَالُوا لَا تَخَفْ} وطمأنوه بقولهم: لا تخف منا، إنا رسل ربك إلى قوم لوط، كما جاء في قوله تعالى: {لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ} [هود: ٧٠].

ثم زادوا طمأننتهم له: فقالوا: أبشّر يا إبراهيم بغلام عليم. هذا هو ابنه اسحاق من زوجته سارة. فلما أقبلت سارة وفوجئت بالشارة صاحت وضربت بيدها على جبينها، وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ كما جاء واضحاً في سورة هود ٧٢ {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} {قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}

كذلك قضى ربك بحكمته، إنه هو الحكيم في كل ما يقضي، العليم الذي لا يخفى عليه شيء.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر: انه لحق مثل ما انكم تنطقون برفع مثل، والباقون: مثل بالنصب.

٥١٠٣ 31

ما خطبكم: ما شأنكم الذي أرسلتم من أجله، والخطب: الشأن الخطير. إلى قوم مجرمين: هم قوم لوط. مسومة: معلّمة، عليها علامة خاصة. للمسرفين: الذين جاوزوا الحد في الفجور. آية: علامة. بسلطان مبين: بحجة واضحة. فتولى بركنه: فتولى بقوته معتزاً بها وبجنوده. نبذناهم: طرحناهم، ألقيناهم في البحر. ملّم: فعل ما يلام عليه من الكفر والعناد. الريح العقيم: التي لا خير فيها، لا تلقح شجراً، ولا تحمل مطراً. كالريم: كالبالي من كل شيء. فعتوا: فاستكبروا عن امتثال الأوامر. الصاعقة: نار تنزل من السحاب بالاحتكاكات الكهربائية.

قال إبراهيم يخاطب الضيوف بعد ان سلم عليهم وهو لا يعرفهم: ما شأنكم، وفيهم أرسلتم؟ فقالوا له: إنا أرسلنا إلى قوم لوط المجرمين، ومعنا أوامر من الله تعالى بإهلاكهم. ولم يجدوا فيها غير أهل بيت من المسلمين.

{وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}

وجعلنا بآية عبرة بما أنزلنا بها من العذاب والدمار، وذكرى للذين يخافون الله.

وكذلك أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه بحجة واضحة ومعجزات باهرة، فأعرض فرعون عن الإيمان برسالة موسى معتدّاً بقوته وما

عنده من جنودٍ ومُلكٍ، وقال عن موسى: إنه ساحر أو مجنون. فأغرقه الله هو وجنوده في البحر {وَهُوَ مُلِيمٌ} أي مقتترفٌ من الأعمال ما يلام عليه.

وكذلك في قصة عادٍ عبرةً وعظةً، حيث أهلكهم الله بالريح العقيم العاتية. ومثلهم قومُ ثمود، أهلكهم الله بالصاعقة، وقبلهم قومُ نوحٍ أغرقهم الله بذنوبهم. وقد تقدمت قصة الجميع أكثر من مرة في سورة الأعراف وهود بأوسع من ذلك. قراءات: قرأ الكسائي: فاخذتهم الصعقة: والباقون: الصاعقة.

٥١٠٤ 47

والسماءُ بنيناها بأيدٍ: بنيناها بقوة. وإنا لموسعون: يعني ان هذا الكون فيه أمور تذهل لما يتسع فيه من المجرات والاجرام السماوية التي تتمدد وتوسع دائماً. والأرض قرشناها: مهدناها كالفرش ليعيش الناس عليها. فنعم الماهدون: فنعم المهيئون لها نحن. ومن كل شيء خلقنا زوجين: ذكراً وأنثى. ففروا الى الله: التَّجِثُوا اليه، واعتصموا به. أتواصوا به: هل أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول؟ فما أنت بملموم: ما أنت بمسئول عن عدم استجابتهم. فان للذين ظلموا ذنوباً: نصيباً. مثل ذنوب أصحابهم: مثل نصيب أصحابهم من الكفار من الأمم الماضية.

بعد إشارات سريعة الى قصص بعض الأنبياء الكرام، وذكر شيء من أفعال أقوامهم - يأتي ذكر قدرة الله تعالى على خلق هذا الكون وبناء السماء بهذا الإحكام المنفرد، وبأن التوسعة مستمرة على الزمن، وأن في الكون أجراماً من السُدم والمجرات تتمدد وتوسع دائماً الى ما شاء الله. . وهذه ابحاثٌ في علم الفلك مذهلة لمن شاء ان يطلع عليها، فانه سيجد العَجَبَ العُجَابَ. . وان الله تعالى فرس لنا هذه الأرض ومدّها لنا لنعيش عليها بأمان وسلام، وخلق من كل شيء ذكراً وأنثى لاستمرار الحياة وبقائها الى أن يشاء خالقها. ولذلك ينصحننا الله تعالى أن نلجأ اليه، ونسارع إلى طاعته، كما نصح من أرسل رسله اليهم من المشركين. كذلك شأن الأمم مع رسلهم، ما جاء رسولٌ إلى قومه إلا قالوا عنه ساحر أو مجنون.

{أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}

أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول؟ بل هم قوم طاغون تجاوزوا كلَّ حدٍّ في طعنهم على الرسل والأنبياء.

ثم خاطب الرسول الكريم مسلماً له بقوله:

{قَتَلْنَا عَنْهُمْ قَتْلًا أَنْتَ بِمَلُومٍ} أعرض عن هؤلاء المعاندين المنكرين يا محمد، فما أنت بملموم على عدم استجابتهم ولا بمسئول، وداوم على

التذكير فإن الذكرى تنفع من في قلوبهم استعدادٌ للهداية من المؤمنين.

ثم بين بعد ذلك كله ما هو المراد من خلق الجن والإنس فقال:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} لا أريد منهم رزقاً لأنني غني عن العالمين، ولا أريد ان يطعموني لاني أطعم. ان الله وحده هو المتكفل برزق هذا الخلق {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرزاق ذو القوة المتين} .

ثم بين ان للذين ظلموا أنفسهم بالكفر نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الأمم الماضية، فلا يستعجلني قومك أيها الرسول بإنزال العذاب قبل أوانه. {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} ختم السورة الكريمة بهذا الانذار الشديد الذي سينالهم يوم القيامة.

الطور: هو طور سيناء، والطور في اللغة: الجبل، وفناء الدار، وجبل قرب العقبة يضاف الى سيناء وسينين، وجبل بالقدس عن يمين المسجد، وجبل مظل على طبرية. «القاموس». ويقال لجميع بلاد الشام الطور. «معجم البلدان». كتاب مسطور: كل كتاب نزل من عند الله، مسطور: مكتوب بسطور منتظمة. ورق منشور: الرق بفتح الراء: جلد رقيق يكتب فيه. منشور: مفتوح للناس. البيت المعمور: الكعبة المعمورة بالحجاج والطائفين. والسقف المرفوع: السماء وما فيها من عجائب. والبحر المسجور: المملوء، يقال: سجر النهر ملأه، والمسجور: البحر الذي ماؤه اكثر منه «القاموس». تمر: تضطرب وترتج. في خوض يلعبون: الذي يلعبون بالباطل، وأصل الخوض: السير في الماء، ثم غلب على الخوض في الباطل. يدعون: يدفعون دفعا عنيفا. اصلوها: ذوقوا حرها. اقسم الله تعالى بخمسة مقدسات في الأرض والسماء، بعضها مكشوف معلوم وبعضها مغيب مجهول، بطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى، وبالكتب المنزلة من عنده (وعبر عنها بكتاب، بالإفراد، لأنها وحدة واحدة تدعو الى نهج واحد) في صحف ميسرة للقراءة، وبالبيت المعمور بالعبادة ليل نهار، وبالسماء وما فيها من عجائب الكون، وبالبحر المملوء بال مخلوقات.

اقسم الله تعالى بهذه المقدسات أن عذابه لا بد أن يقع بالكافرين لا يستطيع أحد دفعه عنهم، وذلك يوم القيامة، يوم تضطرب السماء اضطراباً شديداً بما فيها، وتسير الجبال سيراً شديداً وتمرر السحاب. {فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ} اعداء الله الذين يخوضون في الباطل ويتخذون الدين لهواً ولعباً. ففي ذلك اليوم يدفعون الى النار دفعا شديداً ويقال لهم: {هذه النار التي كنتم بها تكذبون} فادخلوها وقاسوا حرها وعذابها. وسواء عليكم أصبرتم ام لم تصبروا، فليس لكم منها مهرب، وأنتم تلاقون اليوم ذلك الجزاء الذي كنتم توعدون به على أعمالكم السيئة في الدنيا.

فاكهين: نفوسهم طيبة متمتعين بما أعطاهم الله من نعيم الجنة. وقاهم: حفظهم. وزوجناهم بحور عين: الحور: نساء الجنة. وما ألتناهم من عملهم: ما أنقصناهم. رهين: مرعون بعمله عند الله. يتنازعون: يتعطون ويتجادبون. لا لغو فيها ولا تأثيم: ان نحر الجنة لا تذهب بعقل الشارب، فيلغو ويأثم في كلامه. غلمان: ممالك مختصون بهم. مكنون: مصون. مشفقين: خائفين. السموم: النار. البر: الواسع الاحسان.

بعد ان بين ما يصيب الكافرين الكذابين من العذاب، ذكر هنا بالمقابل ما أعد الله للمؤمنين وما يتمتعون به في جنات النعيم من مختلف أنواع الملهيات في المسكن والمأكل والأزواج هم وذرياتهم الطيبة، لا ينقصهم شيئا من ثواب أعمالهم، وكل انسان يعطى على قدر ما قدم من عمل صالح. وينعم الله عليهم بأنواع الفاكهة واللحم ومما يشتهون، ويجلسون على الأسرة يتجادبون أطراف الاحاديث، ويشربون من شراب الجنة {كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم} فيها شراب لا يعث بالعقل، ولا يدع شاربها يتكلم باللغو او الباطل. ويقوم على خدمتهم غلمان غاية في الحسن والجمال {كانهم لؤلؤ مكنون} من حيث الصفاء والبياض وحسن الروق.

ثم يقبل بعضهم على بعض يتساءلون ويتحدثون في أخبار الدنيا وما مر عليهم، ويقولون: كما في دار الدنيا خائفين من عذاب الآخرة، {فَنَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ} ، اذ تفضل برحمته لنا، ووقانا عذاب النار.

{إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}

انا كنا نعبد في الدنيا، ونسأله ان يمن علينا بالمغفرة والرحمة، فاستجاب لنا وأعطانا ما لنا، انه هو المحسن الواسع الرحمة والفضل

قراءات:

قرأ أبو عمرو: واتبعناهم ذرياتهم بدمع ذريات. وقرأ ابن عامر ويعقوب: واتبعتهم ذرياتهم بالجمع. والباقون: واتبعتهم ذريتهم بالإفراد وكلمة ذرية تقع على الواحد والجمع.

٥٢٠٣ 29

الكاهن: الذي يوهم الناس أنه يعلم الغيب عن طريق اتصاله بالجنّ. تتربص: ننتظر. المنون: المنية، والدهر. ريب المنون: حوادث الدهر وصروفه. أحلامهم: عقولهم. قوم طاغون: ظالمون تجاوزوا حد المكابرة والعناد. تقوله: اختلقه من عند نفسه. من غير شيء: من غير خالق. خزائن ربك: خزائن رزقه. المصيطرون: بالصاد وبالسین: القاهرون، المسلّطون، سيطر عليه: تسلط عليه. بسلطان مبين: بحجة واضحة. من مغرم مثقلون: من غرامة ثقيلة عليهم. كيداً: شراً. مكيدون: يحقق بهم الشر ويعود عليهم وباله. كسفاً: جمع كسفة وهي القطعة من الشيء. مركوم: متراكم بعضه فوق بعض.

يأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يداوم على التذكير والموعظة، وعدم المبالاة بما يكيّد المشركون، فما أنت أيها الرسول، بفضل ما أنعم الله به عليك من النبوة ورجاحة العقل بكاهن، ولا بمنجون كما يزعمون، ولا أنت شاعر كما يقولون حتى يتربصوا بك حوادث الدهر ونكباته. {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ} قل لهم أيها الرسول: انتظروا، فإني معكم من المنتظرين.

ثم سقاه أحلامهم بقوله تعالى: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ؟} هل تأمرهم عقولهم بهذا القول المتناقض، فالكاهن والشاعر من أهل الفطنة والعقل والذكاء، والمنجون لا عقل له، فكيف يكون شاعراً أو مجنوناً؟! بل الحق أنهم قوم طاغون، يفترون الأقاويل دون دليل عليها. ثم زادوا في الإنكار ونسبوا إلى النبي الكريم أنه اختلق القرآن من عنده، بل هم بمكابرتهم لا يؤمنون. فإن صح ما يقولون فليأتوا بحديث مثل القرآن، ان كانوا صادقين في قولهم ان محمداً اختلقه.

ثم انتقل الكتاب إلى الرد عليهم في إنكارهم وجود الخالق كما هو شأن الدهريين فقال: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ؟} هل خلقوا من غير إله، ام هم الذين خلقوا أنفسهم، فلا يعترفون بخالق يعبدونه. وهل هم الذين خلقوا السموات والأرض على هذا الصنع البديع؟ بل حقيقة أمرهم أنهم لا يوقنون بما يقولون. وهل عندهم خزائن ربك يتصرفون بها، {أَمْ هُمُ الْمَسْيطِرُونَ} القادرون المدبرون للأمور كما يشاءون. الحقيقة ان الأمر ليس كذلك، بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

قراءات: قرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي المسيطرون بالسین. والباقون بالصاد. يقال: سيطر وصيطر. روى البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بالطور، فلما بلغ قوله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟} أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسْيطِرُونَ} قال: كاد قلبي يطير، وأثرت فيه هذه الآيات وكان ذلك من أسباب دخوله الاسلام.

وكان جبير من الذين وفدوا على النبي الكريم بعد وقعة بدر في فداء أسرى قريش. فاذا كانت أقوالهم هذه غير صحيحة فهل يدعون انهم ارتقوا بمصعد إلى السماء وسمعوا شيئاً من الله؟ {فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}

فليأت الذي استمع شيئاً بحجة واضحة تصدق دعواه.

ثم رد على الذين قالوا ان الملائكة بناتُ الله، وسفه احلامهم، اذ اختاروا له البناتِ ولأنفسهم البنين فقال: {أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ} كما تشاءون وتحبون؟ ولماذا يكذبون رسول الله؟ هل طلب منهم أجرة باهظة تُثقل كواهلهم {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ}؟ أم عندهم علم الغيب، فهم يكتبون منه ما يشاؤون؟ بل يريد هؤلاء المشركون بقولهم هذا واقترائهم كيداً في رسول الله وفي الناس. فإن كان هذا ما يريدون فكيدهم راجع إليهم ووباله على أنفسهم. ام لهم اله يعبدونه غير الله يمنعهم من عذاب الله؟ {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} .
{وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ} .

ان هؤلاء القوم معاندون مكابرون، حتى لو رأوا بعض ما سأله من الآيات، فعينوا بعض السماء ساقطاً لكذبوا وقالوا: هذا سحاب بعضه فوق بعض. وذلك لن الله ختم على قلوبهم، وأعمى أبصارهم.

٥٢٠٤ 45

يُصْعَقُونَ: يهلكون. دون ذلك: غيره. بأعيننا: في حفظنا ورعايتنا. إدبار النجوم، بكسر الهمزة: وقت مغيبها. يَجْه الخطاب هنا الى الرسول الكريم تسلياً له بأن يدع هؤلاء الكفار وشأنهم حتى يلاقوا يومهم الذي يهلكون فيه. لا تكثرُ تكذيبهم وعنادهم، فإن لهم يوماً لا يجدون فيه من يدافع عنهم أو ينصرهم. بل ان للذين ظلموا انفسهم بالكفر، مثل هؤلاء، عذاباً آخر قبل يوم القيامة، {ولكن أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} . فاصبر يا محمد لحكم ربك بامهالهم، وعلى ما يلحقك من أذاهم، فإنك في حفظنا ورعايتنا فلا يضرّك كيدهم، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} في الليل، وسبحه حين تغيب النجوم، واذكر الله في جميع الحالات والأوقات، آناء الليل وأطراف النهار.

٥٣ النجم

٥٣٠١ 1

النجم: جنس النجوم. هوى: سقط وغرب. ما ضلّ: ما حاد عن الطريق المستقيم. صاحبكم: هو محمد ﷺ. وما غوى: ما اعتقد باطلا، ولا حاد عن الهدى. وما ينطق عن الهوى: وما يقول عن هوى نفسه. شديد القوى: الملك جبريل. ذو مرة: ذو حصفة عقل وقوة عارضة. فاستوى: فاستقام، واستوى لها عدة معان اخرى. وهو بالأفق الأعلى: وهو بالجهة العليا من السماء. ثم دنا: ثم قرب. فندى: فنزل. فكان قاب قوسين أو أدنى: فكان قربه قدر قوسين أو أقرب، والقاب: المقدار. أفتمارونه: افتجادلونه على ما يراه. نزلة اخرى: مرة أخرى. سِدرة المنتهى: شجرة عظيمة مباركة. جنة المأوى: جنة الخلد التي تؤوي المؤمنين. يغشى: يستر ويغطي. ما زاع البصر: ما مال بصر محمد عما رآه. وما طغى: وما تجاوز ما أمر به. آيات ربه الكبرى: عجائب ملكوته. لقد أقسم الله تعالى بخلق من مخلوقاته العظيمة التي لا يعلم حقيقتها الا هو، وهي نجوم السماء، بأن محمداً، صاحبكم يا معشر قريش وتعرفونه حق المعرفة، وهو محمد الأمين كما سمّيته - ما عدل عن طريق الحق، وما اعتقد باطلا، ولا يتكلم إلا بوحى من الله تعالى. وقد نقل إليه هذا الوحي من ربه الأعلى وعلمه إياه جبريل الأمين، شديد القوى، ذو حصفة عقل ورأي شديد، فاستقام على صورته الحقيقية. ولقد رآه النبي عليه الصلاة والسلام مرتين: مرة على الأرض في غار حراء، ومرة أخرى ليلة المعراج. ورأى من عجائب صنع الله ما رأى، مما استطاع أن يخبركم به. وقد أوحى الله الى عبده ما أوحى، {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} ، بل لقد رأى جبريل ببصره حقيقةً، فلا العين اخطأت فيما رأت، ولا القلب شك فيما رأت العين بل أيقن وجزم بصدقها. {أَفْتَمَارُوهُ عَلَى مَا يَرَى} وبعد

هذا كله تجادلونه على ما يراه وتكذبونه!! كذلك رآه مرة أخرى عند سِدرة المنتهى بقرب الجنة، {إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى} من فضل الله ما لا يحيط به وصف. . لقد رأى من عجائب آياتِ ربه الكبرى ما يَبْهَرُ الفؤاد ويَجِلُّ عن الوصف.

قراءات:

قرأ هشام: ما كَذَّبَ بتشديد الدال. والباقون: ما كَذَّبَ بدون تشديد. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب: افتَمَرُونَهُ بفتح التاء، اي تغلبونه. والباقون: افتَمَارُونَهُ.

٥٣.٢ 19

اللات والعزى ومناة: اصنام كانت تعبدها العرب في الجاهلية وأبطلها الاسلام. اللات: كانت صخرة مربعة بالطائف، وبها سمي العرب في الجاهلية زيد اللات، وتيم اللات. وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم. وبعد فتح الطائف بعث الرسول الكريم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار. العزى: شجرة من السمر كانت بوادٍ حراضٍ عن يمين الذهاب الى العراق، وأول من اتخذها ظالم بن اسعد، وكانت أعظم الاصنام عند قريش. وبها سمى العرب: عبد العزى. فلما كان عام الفتح دعا النبي خالد ابن الوليد فقال له: انطلق الى شجرة بطن نخلة فاعصرها، فقتل سادنها وقطع الشجرة. مناة: وهي أقدم هذه الاصنام، وكان صنم منصوباً على ساحل البحر بناحية المشلل بقديد، بين المدينة ومكة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله. وكانت الأوس والخزرج تعظمه أكثر من جميع العرب، وكانوا يحلقون رؤوسهم عند مناة. وبعد فتح مكة أرسل الرسول الكريم ﷺ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فهدمها وأخذ ما كان لها. وكان من جملة ما وجد عندها سيفان، فوهبهما الرسول الى علي رضي الله عنه. والعرب تسمى: عبد مناة وزيد مناة، وكانت أقدم الاصنام الثلاثة. ضيزى: جائرة، يقال: ضازيضيض ضيزا: اعوجَّ وجار، وضازره حقَّ ظلمه. من سلطان: من حجة. يخاطب الله تعالى قريشاً فيقول:

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ . . .}

أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله وهي اللات والعزى ومناة. . . هل لها قدرة توصف بها؟

وبعد ان أنبهم على سُخف عقولهم بعبادة الاصنام، التي كانوا يزعمون انها هياكل للملائكة وان الملائكة بنات الله، قال:

{الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} ان هذه القسمة جائرة، وغير عادلة.

ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والافتراء في عبادة الأصنام وتسميتها آلهة بقوله: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ أَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}

هي أسماء لفقتموها، وما تتبعون الا الظن الذي تهواه أنفسكم في هذا الشأن. أما الآن وعلى لسان محمد، فقد جاءكم من ربكم الهدى لو تتبعونه.

ومع هذا فإن هذه الأصنام لا تنفعكم، ولا تشفع لكم عند الله، وما هي الا أباطيل من صنع الكهنة والسدنة ليأكلوا أموال الناس بالباطل. . اما كل ما في هذا الكون دنيا واخرى، فهو ملك له تعالى، لا شريك له ولم يلد ولم يولد.

وان كثيراً من الملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئاً، {إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} ، فاذا كان هذا حال الملائكة المقربين عند الله، فكيف حال الأصنام الجامدة الميتة!!

قراءات:

قرأ رويس ويعقوب: اللات بتشديد التاء، والباقون: اللات من غير تشديد. وقرأ ابن كثير: مناة بمدّ الالف والهمزة المفتوحة، والباقون: مناة.

مبلغهم من العلم: منتهى علمهم. كجائر الإثم: الجرائم الكبرى كالقتل والسرقة وما يترتب عليه حد. والفواحش: أيضا من الكبائر وهي ما عظم قبحها. اللهم: مقارنة الذنب والدنو منه، أو ما صغر من الذنوب. أنشأكم: خلقكم. أجنة: جمع جنين، وهو الولد ما دام في بطن أمه.

بعد ان عاب الله عبادة الأصنام التي لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا شفاعا، وكرر هنا تسفيه أحلامهم بأنهم سموا الملائكة بنات الله، فمن أين أتاهم ان الله له اولاد هي الملائكة؟! إنه تعالى غني عن المساعدة وعن صاحبة الولد، وكلامهم هذا كله دعوى من غير دليل، {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} . فأعرض أيها الرسول عن هؤلاء الذين لا هم لهم الا جمع حطام الدنيا، لأن ذلك الذي يتبعونه هو منتهى ما وصلوا اليه من العلم، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} فهؤلاء قوم لا تجدي فيهم الذكرى ولا تؤثر فيهم الموعظة، فلا تبتئس بإنكارهم وكفرهم، الله أعلم بهم.

ثم بين بعد ذلك ان الله تعالى هو مالك هذا الكون المتصرف فيه، ولذلك فهو القادر على الجزاء. وهو عادل يحب العدل، ولذلك يبين جزاء الذين أساءوا والذين أحسنوا. وقد بين أوصاف المحسنين بقوله تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ} يعني ان المحسنين هم الذين يبتعدون عن كبائر المعاصي والفواحش، فإذا وقعوا في معصية وتابوا ف {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} يغفر كل ذنب كما قال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣] . وعلى هذا يكون اللهم هو الإتيان بالمعصية (من أي نوع) ثم يتوب عنها.

ولذلك ختم الآية بان هذا الجزاء، بالسوءى والحسنى، مستند الى علم الله بحقيقة دخائل الناس فقال: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} فهو أعلم بأحوالكم، وعنده الميزان الدقيق، وجزاؤه العدل، واليه المرجع والمآل.

ويرى كثير من المفسرين ان الآية تعني أن الذي يجتنب الكبائر يكفر الله عنه الصغائر، كما قال تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١] ، وهذه الآية مدنية. وعلى كل حال فالله تعالى واسع المغفرة، رؤوف بعباده حلیم كريم. قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وخلف: الذين يجتنبون كبير الإثم بالافراد، والباقون: كبائر الإثم بالجمع.

تولى: أعرض عن اتباع الحق. أكدى: قطع العطاء وأمسك وبخل. ينبأ: يخبر. صحف موسى: التوراة. ووفى: أتم ما أمر به وأكمل. ان لا تزر وازرة وزر اخرى: لا تحمل نفس ذنب نفس اخرى، كل انسان يؤخذ بذنبه. ثم يُجزاه: يجازيه الله على عمله، يقال: جزاه على عمله، وجزاه عمله. الأوفى: الأكمل.

أعلمت يا محمد بأمر ذلك الجاحد الذي أعرض عن اتباع الحق، وقد أعطى قليلا من المال ثم قطع عطاءه، أأ، زل عليه وحي فصار عنده علم الغيب فرأى ان ما صنعه حق؟ .

ان الشرائع التي يعرفها ذلك الرجل على غير هذا. ألم يُخبر بما في صحف موسى، وابراهيم الذي بلغ الغاية في الوفاء بما عاهد الله عليه!! وكانت قريش تدعي أنها على دين ابراهيم، بينما أن دين ابراهيم يخالف ما يقولون وما يعملون.

لقد اتفقت الأديان على أنه لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى، وانه ليس للانسان الا جزاء، وأن عمله سوف يعلن يوم القيامة فيراه الناس، ثم يجزيه الله على عمله أوفى جزاء فيضاعف له الحسنة اضعافا كثيرة، ويجازيه بالسيئة مثلهما فقط او يعفو عنها، {نَبِّئْ عِبَادِيَ

المنتهى: المعاد يوم القيامة. تَمْنَى: تصبَّ في الرحم وتدفع فيه. النشأة الاخرى: البعث يوم القيامة. أغنى: كفى عبده وأغناه عن سؤال الناس. أفتى: أعطاه فوق الغنى من مال ما يُقْتَنَى ويُدَّخَر. الشعري: نجم مضيء وهي معروفة بالشعري اليمانية، أشدَّ نجم لمعاناً في السماء، يبلغ قطرها ضعف قطر الشمس، وأكثر لمعاناً من الشمس بـ ٢٧ مرة. وكان بعض العرب يعبدونها في الجاهلية. عاداً الأولى: قوم هود. المؤتفكة: قري قوم لوط، ائتفكت الأرض: انقلبت بمن عليها. أهوى: أسقطها في الأرض، خسف بها الأرض. غشاها: غطاها العذاب. آلاء رَبِّكَ: نعمه. مفرداها إلي بفتح الهمزة وكسرهما. تمارى: تشك. أزفت: دنت واقتربت. الآزفة: الساعة يوم القيامة. كاشفة: من الكشف والإظهار. أفن هذا الحديث: يعني القرآن. سامدون: لاهون.

في ختام هذه السورة الكريمة يعجب الله تعالى من أمر الانسان، وانه كيف يتشكك في أمر الله وقدرته، ويجادل ويماري في أمر الرسالات!! فهما طال وجود الانسان في هذه الحياة فان مصيره الموت والرجوع إليه. ان الله تعالى وحده خلق ما يسر وما يحزن، فأضحك وأبكى، وذلك بأن أنشأ للانسان دواعي الضحك ودواعي البكاء. وقد يضحك غداً مما أبكاه اليوم، ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس في غير جنون ولا ذهول، إنما هي الحالات النفسية المتقلبة بيد مقلب القلوب. وأنه هو يهب الحياة ويأخذها، وانه خلق الزوجين: الذكر والانثى، من نطفة فيها آلاف الحيوانات الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة. وهو الذي يحينا مرة أخرى يوم البعث، وانه سبحانه {هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى} فأعطى ما يكفي، وزادنا رضى بما يُقْتَنَى ويُدَّخَر. {وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى} وقد نصّ بشكل خاص بانه رب الشعري اليمانية (ألع نجم في كوكبة الكلب الأكبر، وألع ما يرى من نجوم السماء) - لان بعض العرب كانوا يعبدونها. وكان قدماء المصريين يعبدونها ايضاً، لأن ظهورها في جهة الشرق نحو منتصف شهر تموز قبل شروق الشمس - يتفق مع زمن الفيضان في مصر الوسطى، وهو اهم حادث في العام، وابتداء عام جديد.

لقد أهلك الله عاداً الأولى قوم هود، وأهلم ثمود قوم صالح، فما أبقى عليهم. كذلك أهلك قوم نوح من قبلهم، وقد كانوا أكثر ظُلماً وأشدَّ طغياناً من عاد وثمود. أما المؤتفكة قم لوط، فقد قلب بهم الارض وخسفها لطغيانهم وكفرهم.

{فَغَشَّاهَا مَا غَشَى} فأحاط بها من العذاب الشديد المرعب ما لا يوصف. {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى} فبأي نعم ربك عليك أيها الانسان تشك وترتاب!! وكما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟} . . . {[الإنفطار: ٦] . إن هذه كلها أدلة على وحدانية ربك وربوبيته.

{هذا نذير من النذر الأولى}

هذا هو محمد بن عبد الله ﷺ جاءكم نذيراً بالقرآن الكريم، وهو من النذر الأولى التي أُنذرت بها الأمم السابقة.

{أَزِفَتِ الْآزِفَةُ}

قربت القيامة، ولا ينشف عن وقتها الا الله، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} [الأعراف: ١٨٧] .

فما لكم ساهون لاهون!! وهل بعد هذا كله ينبغي أن تعجبوا من هذا القرآن، وهو حديث عظيم فيه كل ما يقودكم الى الهدى والصلاح والسعادة!! وتضحكون استهزاء وسخرية ولا تبكون، كما يفعل الموقنون! .

{فاسجدوا لله واعبدوا}

بهذا يختم الله تعالى هذه السورة الكريمة، فاسجدوا لله الذي انزل القرآن هدى للناس، واعبدوه وحده لا اله الا هو. وهنا موضع سجدة واجبة.

قراءات:

قرأ نافع وابن كثير: عاداً اللَّوْلَى بإدغام التنوين باللام. والباقون: عاداً الأولى. وقرأ حفص: وثمودَ بغير تنوين. والباقون: وثموداً بالتنوين. وقرأ الجمهور: تمارى بتاءين. وقرأ يعقوب: تمارى بتاء واحدة.

٥٤ القمر

٥٤.١ 1

وإن يروا آية: وإن يروا دليلاً على نبوة محمد. مستمر: دائم. أهواءهم: ما زينه لهم الشيطان من الوسوس والأوهام. مستقر: منته إلى غاية ينتهي إليها. مزدجر: ما فيه الكفاية لجزعهم. حكمة بالغة: واصلة غاية الأحكام والابداع. فما تُغني النذر: فما يفيد المندرون لمن انصرف عنهم. نُكِّرَ: بضم النون والكاف، كل ما تنكره النفوس وتعافه. خشعاً: جمع خاشع وهو الدليل. الأجداث: القبور. مهطعين إلى الداع: مسرعين منقادين لمن يدعوهم إلى الحشر. عُسْر: صعب شديد الهول.

يخبرنا الله تعالى باقتراب يوم القيامة، ونهاية الدنيا وانقضائها، وأنَّ الكونَ يختلُّ كثيرٌ من نظامه عند ذاك، كما جاء في قوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [التكوير: ١-٢] ، والتكدر هو الانتثار، فعبّر بالماضي، وهنا التعبير جاء بالماضي، وكما قال في آخر سورة النجم {أَزِفَتِ الْأَافَاقُ} [النجم: ٥٧] .

وقد روى الامام أحمد عن سهل بن سعد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا، وَأُشَارُ بِاصْبِعِي السَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى» .

وهنا يقول: اقتربت القيامة، وسينشق القمر لا محالة. وتشير الابحاث الفلكية الى ان القمر يدنو من الأرض ويستمر بالدنو منها حتى يبلغ درجةً يمزق عندها ويصير قطعاً كل واحدة تدور في فلكها الخاص. وهذا طبعاً سيحدث عند انتهاء هذه الحياة الدنيا، ولا يعلم وقت ذلك الا الله.

ويقول المفسرون الأقدمون: ان انشقاق القمر قد حدث فعلاً، ويرون عدة أحاديث أسندوها الى أنس بن مالك وعبد الله بن عباس، وجبير بن مطعم، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم. ويقول ابن كثير: قد كان هذا في زمان رسول الله كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة.

والرواية عن خمسة من الصحابة فقط فكيف تكون متواترة؟ والله اعلم.

لقد كذب هؤلاء الكفار النبي الكريم، وأعرضوا عن الإيمان به، وقالوا: إنه كاهن وساحر يرهب الناس بسحره. بذلك كذبوا بالحق إذ جاءهم {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ} فهو منتهى الى غاية يستقر عليها. ان هذا الكون يا محمد يسير وفق قوانين منتظمة محددة مستقرة. وان امرك ايها الرسول سينتهي الى الاستقرار بالنصر في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة.

ولقد جاء هؤلاء المكذبين من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل، فهلكوا، ما يردعهم ويزجرهم عما هم فيه من الغي والشرك والفساد. وهو {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ} . إنه حكمة عظيمة بالغة غايتها في الهداية والارشاد الى طريق الحق لو انهم فكروا واستعملوا عقولهم، ولكن أي نفع تفيد النذر لمن اتبع هواه وانصرف عنها؟! . أعرض أيها الرسول عن هؤلاء الكفار، وانتظر يوم يدعو الداعي الى أمرٍ شديد تنكره النفوس، ولم يروا مثله لما فيه من هول وعذاب.

انه يوم الفرع الاكبر، يوم تراههم:

{خُشِعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} .

يخرجون من قبورهم في حالة هلع عظيم، خاشعة أبصارهم من شدة الهول، كأنهم من كثرتهم وسرعة انتشارهم جرادٌ منتشر. كما

قال تعالى ايضاً: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} [القارعة: ٤] ، فهم في أول أمرهم يكونون كالفرّاش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، ثم يكونون كالجراد المنتشر عندما يتوجهون للحشر. في ذلك اليوم يخرجون مسرعين الى الداعي، ينظرون إليه في ذلّ وخضوع، لما يرون من الهول حتى {يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} هذا يوم صعب شديد.

قراءات:
قرأ ابن كثير: نُكِّرَ بضم النون واسكان الكاف، والباقون: نُكِّرَ بضم النون والكاف. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم: خُشِعاً بضم الخاء وتشديد الشين جمع خاشع. والباقون: خاشعاً ابصارهم على الافراد.

٥٤.٢ 9

ازدجر: زجروه عن التبليغ. فانتصر: فانتقم لي منهم. منهم: منسكب بقوة. فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدر: فالتقى ماء السماء بماء الأرض، على حال قدره الله. ذات ألواح ودُسُر: الواح من الخشب ومسامير، ودُسُر جمع دسار. بأعيننا: بحفظنا وحراستنا. تركناها آية: تركنا السفينة آية وحيّة. مدكر: معتبر، متذكر، متعظ. ونذر: جمع نذير بمعنى إنذار.

يبين الله تعالى هنا ان شأن الرسول الكريم مع قومه كشأن نوح مع قومه. فبعد ان أخبر أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لو تذكروا - ذكر هنا قصة قوم نوح الذين كذبوا نبيهم قديماً قبل قريش، ورموه بالجنون ومنعوه من تبليغ رسالته بأنواع الأذى والتخويف. فدعا نوح ربه: لقد غلبت على أمري، فانتقم منهم بعذابك. فاخبره الله تعالى أنه أجاب دعاءه فقال:

{فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ} أي بماء متدفق من السماء، وجُرَّ من الأرض عيوناً فالتقى ماء السماء بماء الأرض وأهلك الكذابين من قوم نوح بالطوفان {على أمرٍ قد قُدر} وفق أمرٍ قدره الله تعالى. {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}

وحملنا نوحاً ومن معه على سفينة مصنوعة من الخشب والمسامير، تجري على الماء بحفظ الله ورعايته، وذلك جزاءً منا لنوح الذي كذبه قومه ولم يؤمنوا به.

ثم بين الله تعالى انه أبقى أخبار السفينة وإغراقهم عبرة لمن بعدهم فقال:

{وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ} فهل يوجد من يبينهم من يتعظ ويعتبر!!
{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ}

انظروا كيف كان العذاب الذي حلّ بهم ما أشده، وما أظفّع إنذاري لهم بما أحلته بهم. وقد تقدمت قصة نوح في أكثر من سورة وذكر في القرن في ثلاثة وأربعين موضعاً.

ثم بين ان هذا القصص وامثاله إنما يروى في القرآن للعبرة، وانه يسر معناه، وسهله للتذكر والانتعاض، فهل من متعظ؟

قراءات:
قرأ ابن عامر ويعقوب: ففتحننا بتشديد التاء، والباقون: ففتحننا بغير تشديد.

٥٤.٣ 18

الريح الصرصر: الباردة اشد البرد. نحس: شؤم. مستمر: دائم. تنزع الناس: تنقلهم. أعجاز نخل: أصول النخل. منقعر: منقلع، يقال قعرت النخلة، قلعتها من أصلها فانقعرت. بالنذر: بالرسول. وسعر: جنون. يقال: سَعِرَ فلان فهو مسعور: جنّ فهو مجنون. كذاب أشير: شديد البطر، متعاطم. فارتقبهم واصطبر: فانتظرهم واصبر على أذاهم. كل شرب محتضر: الشرب بكسر الشين: النصيب، ومحتضر: بفتح الضاد: يحضره صاحبه في نوبته. صاحبهم: هو الذي قتل الناقة. فتعاطى: فاجترأ على هذه الجريمة. فعقر: فحضر قوائم الناقة

بالسيف. كهشيم المحتظر: الهشيم: كل زرع ونبات وشجر يابس، والمحتظر: الذي يعمل حظيرة لغنمه ويتساقط منه بعض اجزائه وتفتت حال العمل.

في هذه الآيات الكريمة يذكر الكتاب قصة عاد، قوم هود، وقصة ثمود قوم صالح، وقد ذكر هود سبع مرات في القرآن وصالح تسعاً. ولقد كذبت عاد نبيهم هوداً ولم يؤمنوا به، فانظروا يا معشر قريش كيف أنزلت بهم عذاباً شديداً، ريحاً باردة مدوية في يوم شؤم دائم، تقتلع الناس من أماكنهم وترميهم كأنهم أعجاز نخلٍ قد انقلع من الأرض {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي}. وقد كرر هذه الآية لبيان هول ما نزل بهم من عذاب.

ثم اردف ذلك بقوله تعالى:

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}

لقد أنزلناه سهلاً ميسراً لبيّن للناس العبر والعظات فهل يتعظون؟ .

ثم اردف بقصة ثمود، وكيف كذبت نبيهم صالحاً، وكيف تعجبوا من ان يأتيه الوحي والنبوة من بينهم، وفيهم من هو أحق منه، ثم شتموه بأنه كذاب أشير. وقالوا:

{إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}

لو اتبعنا صالحاً هذا فيما يدعوننا إليه لكنا ضللنا، وصرنا مجانين.

ثم بين الله تعالى بأنهم:

{سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْر}

سيعلمون قريباً يوم ينزل بهم العذاب من هو الكذاب المنكر للنعمة، هم أم رسولنا إليهم صالح.

ثم بين الله لصالح انه مرسل لهم الناقة آيةً، وامتحاناً، فانظروهم يا صالح واصبر على أذاهم وخبرهم أن ورود الماء مقسوم بينهم وبين الناقة، {كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ} كل نصيب يحضره صاحبه في يومه.

فلم تعجبهم القسمة، فدعوا صاحبهم (وهو الذي عبر الله عنه في سورة الشمس بقوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} [الشمس: ١١-١٢] ليفعل فعلته.

{فَتَعَالَى فَعَقَرٌ}

فتباً لعقر الناقة وضرب قوائمها بالسيف فعقرها، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي} ؟

ثم أخذتهم صيحة العذاب فكانوا مثل الهشيم اليابس الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة لماشيته.

ثم يكرر قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} ليوجههم الى القرآن ليتذكروا ويتدبروا.

قراءات:

قرأ ابن عامر وحزمة ورويس: ستعلمون بالتاء. والباقون: سيعلمون بالياء.

٥٤.٤ 33

حاصبا: ريحا تحمل الحصباء. السحر: آخر الليل. بطشتنا: عذابنا الشديد. فتماروا بالنذر: فشكوا وجادلوا في الانذارات. راودوه عن ضيفه: نازعوه في ضيوفه ليفجروا بهم، وهم يظنون انهم من البشر. الضيف يطلق على الواحد والجمع. فطمسنا أعينهم: جبنناها عن الإبصار فلم تر شيئا. بكرة: أول النهار. مستقر: دائم وثابت مستمر.

ثم يذكر قصص قوم لوط وفرعون باختصار، فقد كذبت قوم لوط بما جاءهم من انذار، فأرسل الله عليهم ريحاً شديدة ترميهم بالحصى، ونجى آل لوط المؤمنين من هذا العذاب في آخر الليل، وذلك كله نعمة من الله {كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ} {إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنْ

{ الغابرين } [النمل: ٥٧] .

{ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بالنذر }

لقد أُنذِرهم رسولهم لوط من عذابِ الله فشكّوا في ذلك وسخّروا منه، بل توعّدوه كما جاء في سورة الشعراء: { قَالُوا لئن لَّمْ تَنْتَهِ يالوط لتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين } [الشعراء: ١٦٧] .

ثم طلبوا منه ضيوفه ليأخذوهم ويفجّروا بهم لما رأوهم على صورة شبابٍ مُردِّ حسان، فَطَمَسَ الله أعينهم وحجّبا عن الإبصار. وذهب الملائكةُ بعد أن أفهموا لوطاً بأن يخرج ليلاً من تلك القرية الظالمة. وصَبَّحهم عذابٌ مستقر أهلَهم ودمّر بلادهم وقال الله لهم: { فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي } ثم كرر الآية الكريمة { وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } يسرناه على الأفهام للاتعاظ والتذكّر من قبل أصحابها.

ثم ذكر قصة فرعون وآله بآيتين، وأنهم كذبوا رسولهم موسى، ولم يؤمنوا بآيات الله.

{ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ }

لقد أهلَهم الله إهلاك قوياً لا يُغلب، عظيم القدرة على ما يشاء. وقد ذُكرت قصة فرعون وموسى بعدد من السور بين مطول ومختصر.

٥٤.٥ 43

أم لكم براءة: أم عندكم كتابٌ فيه نجاتكم من العذاب. الزُّبر: جمع زبور، وهي الكتب السماوية. ويولّون الدُّبر: يعطونكم ظهورهم عندما ينهزمون. أدهى: أعظم. وأمر: اشد مرارة. سعر: نيران مستعرة. سقر: اسم من أسماء جهنم، ومسّ سقر: حرها، بقدر: بتقدير حسب حكمة بالغة. وما أمرنا الا واحدة: كن فيكون. كلح بالبصر: كلح البصر لشدة سرعته. أشباهكم: أتباعكم وانصاركم. مستطر: مكتوب. ونهر: أنهار. في مقعد صدق: في مكان مرضي. عند مليكٍ مقتدر: عظيم القدرة. يوجّه الخطاب هنا الى قريشٍ ومن والاهم. أكفاركم يا معشر قريشٍ أقوى من تلك الأقوام التي ذُكرت، فأنتم لستم بأكثر منهم قوة، ولا أوفر عدداً. وهل عندكم صلٌّ مكتوب فيه براءتكم من العذاب! .

ام ان المشركين يقولون: نحن واثقون بقوتنا ونحن منتصرون. وقد ردّ الله عليهم مقالهم بأنهم سيُهزمون ويولّون الدُّبر. وقد صدق الله وعده فهزمهم جميعاً ونصرَ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

ثم بين الله أن الهزيمة هي عذاب الدنيا، وان موعدهم يومُ القيامة، فيه العذاب الشديد الذي ليس له مثيل، وكل عذابٍ دونض جهنم بسيط وقليل. ففي ذلك اليوم يكون المجرمون من المشركين في هلاكٍ وحيم مستعر، { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } ويقال لهم: { ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } قاسوا عذاب جهنم.

ثم بين الله تعالى أن كل ما يوجد في هذا الكون يحدث بقضائه وأمره وتقديره على ما تقتضيه حكمته، وان أمره ينفذ بكلمة { كُنْ فَيَكُونُ } [البقرة: ١١٧] بأسرع من لمح البصر.

ثم بين لهم انه أهلك اقواماً كثيراً أشباههم فهل يعتبرون؟ وان كل شيء فعلوه في الدنيا سيُجدونه مكتوباً مسجلاً لا يغيبُ منه شيء. { وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ } كل صغير وكبير من الأعمال مسجلٌ مسطور.

وبعد ان بين مقام الكافرين وما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة، ذكر ما يناله المتقون من الكرامة عند ربهم في جنّاتٍ وأنهارٍ متعددة. { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ } في مجلسٍ كريم في ضيافة الرحمن الرحيم، القوي العزيز، عظيم القدرة جلّ جلاله.

الرحمن: اسمٌ من أسماء الله الحسنى لا يجوز أن يسمّى به غيره. البيان: تعبير الانسان عما في نفسه. بحسبان: بحساب دقيق منتظم. النَّجم: النبات الذي لا ساق له. الشجر: كل ما له ساق كالنخل وغيره. يسجدان: يخضعان لله تعالى. والسماء رفعها: خلقها مرفوعة. ووضع الميزان: شرع العدل. وأقيموا الوزن بالقسط: قوموا وزنكم بالعدل. ولا تخسروا الميزان: ولا تنقصوا الميزان. الأنام: الخلق. ذات الأكم: واحدها كم بكسر الكاف، وهي وعاء طلع النخل، وبرعوم الثمرة. العصف: ورق النبات الذي على السنبلة. الرّيحان: كل مشموم طيب الرائحة من النبات. الآلاء: النعم واحدها إلى بفتح الهمزة وكسرها، وألّ، وألّو.

يبين الله تعالى في هذه الآيات أنه علم القرآن وأحكام الشرائع لهداية الخلق، وإتمام سعادتهم في معاشهم ومعادهم. وخلق الانسان على أحسن تقويم، وكلّه بالعقل وجمّله بالنطق {علمه البيان} كي يبين عما في نفسه. وتلك ميزة له عن سائر الحيوان. وسخر الشمس والقمر يجريان بحسابٍ دقيق وتقديرٍ منتظم وقوانين ثابتة. والنبات الذي لا ساق له، والشجر بجميع أنواعه - مسخرة خاضعة لارادة الله في كل ما يريد. كما خلق السماء مرفوعة، ووضع العدل حتى لا يظلم بعضكم بعضا. وأقيموا الوزن بالعدل في كل معاملتكم، ولا تنقصوا الميزان.

ولقد أوجد الله في الأرض لكم أنواعاً كثيرة من الفواكه، فيها النخل ذات الأكم، وفيها الحب ذو القشر، جعله رزقاً لكم ولأنعامكم. وفيها كل نبت طيب الرائحة. وقد خص النخل بالذكر لأن ثمره فاكهة وغذاء.

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}

الخطاب للانس والجن وقد جاء بعد ذكر كثير من النعم، فبعد كل هذه النعم فبأي نعمة من ربكما تجحدان وتكذبان؟؟ .
قراءات: قرأ ابن عامر: والحب ذا العصف والريحان بفتح الحب والريحان. وقرأ حمزة والكسائي والريحان بالجر. والباقون: والحب ذو العصف والريحان بالرفع.

الصلصال: الطين اليابس الذي له صوت اذا نُقر. والفَخَّار: الطين المطبوخ المصنّع. المارج: الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد التي لا دخان فيها. رب المشرقين ورب المغربين: الشمس تشرق كل يوم من مكان، وتغرب في مكان، ولذلك ورد ايضا {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} [الصافات: ٥] في سورة الصافات. مرج البحرين: أرسلهما واجراهما. يلتقيان: يتجاوران. برزخ: حاجز. لا يبغيان: لا يطغى احدهما على الآخر فيمتزجان. اللؤلؤ: هو الدر المعروف المخلوق في الأصداف. المرجان: نوع احمر من حيوان البحر ايضا يُتخذ حلياً. الجواري: السفن الكبيرة. المنشآت: المصنوعات. كالإعلام: كالجبال، والعلم هو الجبل العالي.

بعد ان من الله على الخلق بما هيأ لهم من نعم لا تحصى في هذا الكون، ينتقل هنا الى الامتنان عليهم بنعمه في ذوات أنفسهم، وفي خاصة وجودهم وإنشائهم.

خلق جنس الانسان من طين يابس غير مطبوخ، وخلق الجن من لهيب مشتعل من نار، وهو ربُّ مشرق الشمس في الصيف والشتاء، ورب مغربها الذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة وتقلب الهواء وتنوعه، وما يلي ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجارية.

ثم ذكر نعمه تعالى على عباده في البحر وما فيه من فوائد وخيرات فقال:

{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ}

أرسل البحر المالح والبحر العذب متجاورين متلاقين لا ينبغي أحدهما على الآخر، فقد حَجَزَ بينهما ربُّهما بحاجزٍ من قدرته. . فبأيّ هذه المنافع تكذِّبان ايها الثقلان!! .

ومن البحر المالح والعذب يخرج اللؤلؤ والمرجان، يتخذ الناس منهما حليةً يلبسونها. وفيهما تجري السفن الكبار المصنوعات بأيديكم كالجبال الشاهقة، حاملةً ما ينفع الناس ويقضي مصالحهم.

وبعد ذكر هذه النعم التي أوجدها في البر والبحر - بين ان هذا كله فان لا يدوم، وانه لا يبقى الا الله تعالى، وكل من في الوجود مفتقر إليه، وهو الحي الباقي في شؤنه يُحيي ويميت، ويرزق ويعزّ ويذلّ، ويعطي ويمنع.

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}

جميع أهل الأرض يذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات، ولا يبقى سوى الله، فهو ذو الجلال وحده. ولا يقال ذو الجلال الا في النسبة الى الله. ثم قال والاكرام لأن الله تعالى كريمٌ يكرم الانسان وينظر اليه بعين العطف والعناية، والكريم لا يخاف بل يحب ويطاع.

وكل من في السموات والارض مفتقر إليه تعالى، محتاجٌ الى رحمته ونواله ولذلك يقول:

{يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} .

فهو يحيي ويميت، ويعزّ ويذلّ، ويعطي ويمنع، ويغفر ويعاقب. قال عبد الله بن حنيف: تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا: يا رسول الله، وما ذلك الشأن؟ قال: ان يغفر ذنبا، ويفرّج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين.

قراءات

قرأ الجمهور: يخرج بفتح الياء وضم الراء. وقرأ نافع وابو عمرو ويعقوب: يُخْرِج بضم الياء وفتح الراء على البناء للمجهول. وقرأ الجمهور: المنشآت بفتح الشين. وقرأ حمزة وابو بكر: المنشآت بكسر الشين.

٥٥.٣ 31

سنفرغ لكم: هو مجرد تهديد لأن الله تعالى لا يشغله شيء، والمعنى سنحاسبكم. ايها الثقلان: الانس والجن. أن تنفذوا: تخرجوا. أقطار السموات والأرض: جوانبهما. بسلطان: بقوة وقهر. الشواط: لهب خالص بلا دخان. النحاس: الدخان لا لهب فيه. وهذا من بعض معانيه. وردة: لونها كحمره الورد. كالدهان: وهو ما يدهن به. السيمة: العلامة. النواصي: واحداها ناصية وهي مقدم الرأس، والأقدام معروفة، يعني يُجروُن من نواصيهم واقدامهم. الحميم: الماء الحار. آن: متناه في الحرارة.

سنحاسبكم ايها الانس والجن يوم القيامة، وهذا وعيدٌ شديد من الله لعباده، فان الله تعالى لا يشغله شيء. ثم بين الله انه لا مهرب في ذلك اليوم من الحساب والجزاء، كل واحد يحاسب على عمله فقال:

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفذوا}

ان استطعتم ان تخرجوا من جوانب السموات والارض هاربين فافعلوا. . والحقيقة أنكم لا تستطيعون ذلك، إلا ان تفرّوا الى الله بالتوبة الخالصة. {لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} وأعظم سلطان يتحصن به الانسان هو التوبة، فإنها أكبر حصن يقي التائب المخلص من عذاب الله. فبأيّ نعمة من نعم ربكم تجحدان؟! .

ثم بين بعض احوال الساعة بقوله تعالى:

{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}

يُصبّ عليكما لهبٌ من نارٍ ونحاسٌ مذاب، فلا تقدران على دفع هذا العذاب، بل يُساق المجرمون الى الحشر سوقاً نعوذ بالله منه.

ثم بين الله تعالى أنه إذا جاء ذلك اليوم الشديد اختل نظام العالم، فتصدع السموات ويصير لونها أحمر كالدهان، وتصير مذابة غير متماسكة.

ويكون للمجرمين حينئذ علاماتٌ يمتازون بها عن سواهم كما قال تعالى:

{يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ}

فيُجْرُونَ إلى جهنم من مقدم رؤوسهم وأرجلهم ويقال لهم تويحاً وتقريعاً: {هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون} فهم يترددون بين نارها وبين ماءٍ متهال في الحرارة. فإذا استغاثوا من النار يغاثوا بالماء الحار الذي يشوي الوجوه كما قال تعالى في سورة الكهف: {وَأَن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: ٢٩] .

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: سيفرغ لكم بالياء. والباقون: سنفرغ لكم بالنون. وقرأ ابن كثير: شواظ بكسر الشين، والباقون: شواظ بضم الشين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ونحاس بالجر، والباقون: ونحاس بالرفع.

٤٥٠٤ 46

ذواتا: ثنية ذات. أفنان: جمع فَن وهو الغصن. زوجان: صنفان من جميع الأنواع. بطائنها: بطاناتها يعني أنها مبطنة بالحرير وهو الاستبرق. وجنى الجنتين: ثمر الجنتين. دان: قريب في تناول اليد. قاصرات الطرف: نساء عفيفات لا ينظرن إلا إلى أزواجهن. لم يطمنهن: لم يمسسن أحد. كأنهن الياقوت في الصفاء والمرجان في الجمال والبهاء. مدهامتان: خضراوان، الدهمة السواد، والعرب تقول لكل أخضر هو اسود. ومنه سواد العراق لكثرة نخيله. نضاختان: فوارتان بالماء. حور: واحدته حوراء. بيضاء. خيرات: يسكون الياء يعني خيرات بتشديد هاء. مقصورات في الخيام: مخدرات، ملازمات بيوتهن. رفر: واحدته رفرقة: وهي الوسادة، المخدة. عبقرى حسان: معناه النادر الموشى من البسط والفرش، والعرب تُسند كل عمل عجيب إلى عبقر.

بعد أن بين مقام المجرمين، وما يشاهدونه من أهوال، وما ينالهم من عذاب، وذكر أن مقامهم النار وبئس القرار - ذكر هنا مقام المؤمنين الذين يخافون ربهم، ويطيعونه فيما أمرهم، وفصل تفصيلاً جميلاً في ذلك النعيم الرباني، جزاءً من العلي الكريم. ولن خاف مقام ربه، وأطاعه وأخلص في إيمانه وعبادته جنتان. ومعنى هذا أن في الجنة مقاماتٍ ومنازلَ للمؤمنين حسب ما قدموه من أعمال صالحة، لأنه سيأتي أيضاً قوله تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} فهناك أيضاً جنتان أخريان.

وهاتان الجنتان ذواتا أفنان، أي أن فيهما أغصاناً نضرة حسنة من جميع الشجر وألوان الثمار المتنوعة. وفي هاتين الجنتين داخل الجنة عَيْنَان تجريان بالماء الصافي العذب. أما الجنة الكبرى فإن فيها أنهاراً متعددة كما ورد في عدة آيات. فكيف تكذبون بهذه النعم الجليلة التي لا تحصى أيها الجاحدون؟! .

هذا ويجلس أهل الجنتين متكئين على أنواع من فرش الحرير، وفي تناول أيديهم ثمار الجنتين يقطفون منها متى شاؤوا ما يلد لهم وما يطيب.

وعندهم ما يشاءون من الحور العفيفات اللاتي لا ينظرن إلى أحدٍ سوى أزواجهن، كأنهن في الحسن والجمال الياقوت والمرجان، عذارى لم يمسسن أحد قبل أزواجهن.

ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه، وعبداه وأخلص في عبادته، وسعى في إعمار الدنيا وأعطى من ماله وجاهه وبذل ما يستطيع. {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} .

ثم هناك داخل الجنة جنتان أخريان. وهما كما يقول تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} فهناك أيضاً جنتان أخريان.

وهاتان الجنتان ذواتا أفنان، أي أن فيهما أغصاناً نضرة حسنة من جميع الشجر وألوان الثمار المتنوعة. وفي هاتين الجنتين داخل الجنة

عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ بِالماءِ الصَّافِي العَذْبِ. أما الجنة الكبرى فإن فيها أنهاراً متعددة كما ورد في عدة آيات. فكيف تكذبون بهذه النعم الجليلة التي لا تُحصى أيها الجاحدون؟! .

هذا ويجلس أهل الجنة متكئين على أنواع من فُرش الحرير، وفي متناول أيديهم ثمار الجنة يقطفون منها متى شاؤوا ما يلد لهم وما يطيب.

وعندهم ما يشاؤون من الحور العفيفات اللاتي لا ينظرن الى أحدٍ سوى أزواجهن، كأنهن في الحسن والجمال الياقوت والمرجان، عذارى لم يمسن أحد قبل أزواجهن.

ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه، وعبدَه وأخلص في عبادته، وسعى في إعمار الدنيا وأعطى من ماله وجهه وبذل ما يستطيع. {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} .

ثم هناك داخل الجنة جنتان أخريان. وهما كما يقول تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} لفريق آخر من المؤمنين العاملين المخلصين. وهما {مُدَاهَمَّتَانِ} خضراوان لونهما يميل الى السواد من شدة الخضرة.

وفي هاتين الجنتين عينان من الماء العذب تفوران بالماء لا تنقطعان، كما أن {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} وأنواع متنوعة من انخر الفاكهة. وقد خص النخل والرمان لأن الله تعالى اودع فيهما كثيراً من المزايا الهامة. فثمر النخل غذاء كامل، فيه نسبة عالية من الكالسيوم والحديد والفوسفور التي يحتاج اليها الجسم. وفيه عدد من الفيتامينات المفيدة، وهو يحتوي ايضاً على نسبة من البروتينات والدهنيات. كذلك في الرمان نسبة مرتفعة من حمض الليمونيك الذي يساعد عند احتراقه على تقليل أثر الحموضة في البول والدم، مما يكون سبباً في تجنب التقرس وتكوين بعض حصى الكلى، مع احتوائه على نسبة لا بأس بها من السكريات السهلة الاحتراق، والمولدة للطاقة. وهناك فوائد هامة في قشر ثمر الرمان، وقشور سوق اشجاره.

وفي هاتين الجنتين زوجات طيبات الأخلاق وفيات جميلات، من الحور العين الملازمات لمجالسهن في الخيام، لم يقربهن أحد من الأنس ولا الجان.

وهؤلاء المؤمنون مع أزواجهم في غاية السعادة والسرور، متكئين على فُرشٍ عليها وسائل وأغطية خضر وطنافس حسان عجيبة الصنع من صنع وادي عبقر. والعرب تنسب كل شيء عجيب الى وادي الجن، ويكنون عنه بعبقر. فبأي نعمة من نعم ربكما تكذبان ايها الثقلان؟! .
قراءات:

قرأ الكسائي: لم يظمئن: بضم الميم، والباقون: لم يظمئن بكسر الميم. وقرأ ابن عامر: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} .

٥٦ الواقعة

٥٦.١ 1

إذا وقعت: اذا حدثت. الواقعة: القيامة. لوقعتها: لوقوعها وحدوثها. كاذبة: كذب. رُجَّت: زلزلت وحركت تحريكاً شديداً. بُسَّت: فتت. هباء: غباراً متفرقاً. أزواجاً: أصنافاً. أصحاب الميمنة: هم الناجون الذين كتبهم بيمينهم. أصحاب المشأمة: الكافرون الذي يأخذون كتبهم بشمالهم. السابقون: هم الذين سبقوا الى عمل الخير في الدنيا. والمقربون: هم ارباب الخطوة والكرامة عند ربهم. ثلثة: جماعة قد يكون عددها كثيراً، وقد يكون قليلاً من غير تحديد. موضونة: وضن الشيء جعل بعضه على بعض، ويقال وضن السرير بالجوهر نسجه فهو موضون. ولدان مخلدون: أولاد صغار للخدمة يبقون على هذه الصفة داءماً. أكواب: واحداها كوب. . معدة للشراب. أباريق: واحداها إبريق، معروف. وكأس من معين: إناء من شراب الجنة. لا يصدعون عنها: لا يصيبهم صداد بشرابهم يصرفهم عنها. ولا ينزفون: لا تذهب عقولهم. حور عين: نساء بيض. عيونهن جميلة واسعة. المكنون: المصون الذي لم تمسه الأيدي. لغواً: سقط القول. تأثيماً: ما يستوجب الإثام.

إذا قامت القيامة فلا يستطيع أحد أن يكذب بها، لأن قيامها حق لا شبهة فيه. وهي خافضةٌ للاشقياء، رافعةٌ للمؤمنين السعداء. ويومئذ تُزلزل الأرض، ويضطرب الكون، وتحلّ بالعالم أهوالٌ وكوارث، وتنفث الجبال، وتصير كالهباء المتطاير في غير أماكنها. والناس في ذلك اليوم ثلاثة اصناف، اصحاب الميمنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ويكونون في أسعد حال؛ واصحاب المشأمة وهم الذين كفروا ويأخذون كتبهم بشمالهم.

والطبقة الثالثة، وهم السابقون الى الخيرات في الدنيا، يرتقون الى الدرجات العليا في الآخرة. وأولئك هم المقربون عند الله، وهم في جنّات النعيم يتمتعون فيها عند أكرم الأكرمين في أحسن مقام.

وهؤلاء المقربون جماعة كثيرة من الأمم السابقة وأنبيائهم، وقليلٌ من أمة محمد ﷺ بالنسبة اليهم، يجلسون على سُرر منسوجة بالجواهر النفيسة، متكئين عليها متقابلين، يتحدثون بذكرياتهم وبكل ما يسرهم.

ويدور عليهم للخدمة ولدانٌ مخدّون بأكوابٍ وأباريق مملوءة مما لذ وطاب من شراب الجنة، وبكأس مملوءة نحرًا من عيونٍ جارية، لا يصيبهم من شربها صداعٌ يصرفهم عنها، ولا تذهب بعقولهم.

ثم لهم طعامٌ فاخر يشتمل على ما يشتهون من لحم طيرٍ وفاكهة متنوعة، يختارون منها ما يحبون، وعندهم نساءٌ حورٌ عِين في منتهى الجمال كأمثال اللؤلؤ المصون في صدفه. كل هذا يعطونه جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من أعمال الخيرات.

وهم يعيشون في الجنة في أحسن حالٍ لا يسمعون فيها كلاماً لا ينفع، ولا حديثاً يأثم سامعه، إلا سلاماً، لأنهم في دار السلام.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: وحورٍ عِين بالجر. والباقون: بالرفع.

٥٦٠٢ 27

السدر: شجر يحمل ثمرًا يقال له النبق. مخضود: لا شوك فيه. الطلح: الموز. منضود: منسق. ممدود: ممتد بشكل لطيف. مسكوب: مصبوب يسكب لهم كما يشاؤون. مرفوعة: عالية. عُرْبًا: جمع عروب، وهي المرأة الصالحة المتوددة الى زوجها. اترايا: متساويات في السن.

يبين الله تعالى هنا حال أصحاب اليمين بعد أن بين مراتب المقرّبين السابقين، ويذكر أنهم في جنات الخلد حيث يوجد شجر السدر الذي يحمل النبق وهو بلا شوك، وفيها شجر الموز المنسق {وَطَلَحٌ مَّنْضُودٌ}. وفيها ظلٌ ممدود لا يغيب، وماءٌ مسكوبٌ في آينتهم حيث شاءوه، وفاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، دائماً لا تنقطع، وغير ممنوعة على من يريدّها في اي وقت، وفرشٌ منضدة مرتفعة ناعمة مريحة.

وقد أعد الله لأصحاب اليمين مع كلّ هذه النعم الحور العِين، فجعلن أبكاراً، محبّات الى أزواجهن، لطيفاتٍ مطيعات، متقاربات في السن.

واصحاب اليمين جماعاتٌ كثيرة من الأمم السابقة، ومن أمة محمد ﷺ.

قراءات:

قرأ حمزة وابوبكر: عربا بضم العين واسكان الراء. والباقون: عربا: بضم العين والراء وهما لغتان.

٥٦٠٣ 41

السموم: ريح حارة تنفذ في مسام البدن. الحميم: الماء الحار. وظلٌّ من يحوم: في ظلٍ من دخانٍ حارٍ شديد السواد. مترفين: منعمين. الحنث العظيم: الذنب العظيم وهو الشرك بالله. ميقات: وقت معلوم، والمراد به يوم القيامة. شجر الزقوم: شجر ينبت في أصل الحميم. الإبل يصيبها داءٌ تشرب معه ولا تروى. النزل: مكان مهيأ للضيف. يوم الدين: يوم الجزاء.

بعد ان بين الله مقام الصنفين: السابقين واصحاب اليمين، وما يلقاه كل منهم من عز ونعيم مقيم وشرف عظيم - بين هنا الصنف الثالث المقابل وهم الجاحدون المعاندون، اصحاب الشمال. ولا يدري أحد ما ينال أصحاب الشمال من العذاب، فهم في ربح حارة تشوي الوجه، وماءٍ متناهٍ في الحرارة، وفي ظلٍ من دخانٍ حارٍ شديد السواد، لا بارد يخفف حرارة الجو، ولا كريم يعود عليهم بالنفع إذا استنشقوه.

والسبب في ذلك: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} مسرفين في الاستمتاع بنعيم الدنيا. وكانوا يصرون على الشرك بالله، ويحلفون بأنه لن يُبعث من يموت. كما جاء في سورة النحل الآية ٣٨ {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} وكانوا يزيدون في الإنكار فيقولون: أنبعث إذا متنا، وصارت أجسامنا تراباً وعظاما بالية؟ هل نعود الى حياة ثانية، ونبعث نحن وآباؤنا الأقدمون الذين ماتوا من زمن قديم؟! .

قل لهم أيها الرسول الكريم: سوف يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد في ذلك اليوم العلوم، ثم إنكم أيها الجاحدون المكذبون بالبعث، ستأكلون في جهنم من شجرة الرقوم التي وصفها الله تعالى في سورة الصافات بقوله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات: ٦٤، ٦٥] ، فالثون من هذا الشجر الخبيث بطونكم، فشاربون ماءً شديد الحرارة لا يروي ظمأكم، كما تشرب الابل المصابة بمرض العطش فلا تروى أبداً.

وكل ما ذكر فهو ضيافتهم يوم الدين على سبيل التهكم بهم، لأن قوله تعالى {هَذَا نُزْلُهُمْ} ، معناه: هذا ما يهيأ لضيافتهم. وفي هذا توبيخ لهم وتهكم بهم.

قراءات:

قرأ عاصم ونافع وابن عامر وحمة: شرب الهيم بضم الشين. والباقون: شرب الهيم بفتح الشين. وهما لغتان.

٥٦٠٤ 57

ثمّنون: تقدّفون المني في الارحام. قدّرنا: وقتنا موت كل احد بوقت. نبذل أمثالكم: نثمتكم، ونأتي بقوم آخرين أشباهكم. النشأة الأولى: الخلقة الأولى. فلولا تذكرون: فهلا تذكرون. حطاما: هشيماً متكسرا. تفكّهون: نتعجبون. مغرمون: معذبون مهلكون. المزن: السحاب واحده مزنه. أجاجاً: مالحاً لا يصلح للشرب. فلولا تشكرون: فهلا تشكرون. تورون: توقدون. تذكرة: تذكيرا موعظة. متاعا: منفعة. للمقوين: للفقراء الذين ينزلون بالفقر، أقوى الرجل: افتقر، ونزل بالفقر، ونفذ طعامه. ويقال للمسافرين والمستمتعين: المقوون أيضا.

بعد ان بين الله تعالى لنا الأزواج الثلاثة، ومآل كل منهم ذكرنا هنا الأدلة على الألوهية من خلقٍ وزرق للخلق، وأقام الدليل على البعث والجزاء، وأثبت النبوة، فقال:

نحن خلقناكم من عدم، فهلا تصدّقون وتقرّون بقدرتنا على إعادتكم ثانية يوم القيامة؟! .

أفرايتم هذا المني الذي تقدّفونه في الأرحام، أنتم تخلّقونه وتجعلونه بشراً بهذه الصورة {أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}؟! .

نحن قضينا بينكم بالموت، وجعلنا لموتكم وقتاً معيناً، وما نحن بمسبوقين ولا عاجزين عن ان نذهبكم ونأتي بأشباهكم من الخلق، {وَنُنَشِّئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} في الأطوار والأحوال.

ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال:

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ}

لقد علمتم أن الله أنشأكم النشأة الأولى من العدم، فهلا تذكرون أن من قدر على خلقكم من البداية هو أقدر على ان يأتي النشأة الأخرى لكم!

أفرايتم ما تبذررونه من الحبّ في الأرض، أنتم تُنبئونه أم نحن نفعل ذلك! ان في قُدرتنا لو نشاء لصيرنا هذا النبات هشيماً يابساً متكسراً. {فَظَلْتُمْ تَفْكَهُونَ}

لظلمتم تتعجبون من سوء ما أصابه وما نزل بكم، وتقولون إنا لمعذبون، لا بل نحن محرومون من الخير والرزق لنحس طالعنا وسوء حظنا. أفرايتم الماء العذب الذي تشربونه والذي هو أصل الحياة، أنتم أنزلتموه من السحاب ام نحن المنزلون له رحمة بكم؟ وهذا من اكبر الادلة على قدرة الاله وعظمته، فقد حاول الانسان استمطار السحب صناعياً إلا ان هذه المحاولات لا تزال مجرد تجارب، وعلى نطاق ضيق جداً، مع وجوب توافر بعض الظروف الملائكة طبيعياً.

إننا لو نشاء لجعلنا هذا الماء العذب مالحاً لا يمكن شربه، فهلاً تشكرون الله على هذه النعمة وعلى ان جعله عذباً سائغاً؟! . أفرايتم النار التي توقدونها، أنتم أنبتم شجرتها وأودعتم فيها النار، أم نحن المنشئون لها؟ والنار نعمة كالماء، وعندما عرف الانسان كيف يستعمل النار كان ذلك في حياته خطوة كبيرة الى التقدم، وبدء الحضارة الانسانية.

نحن جعلنا هذه النار تذكرةً وتبصرة لكم تذكركم بالبعث لتعلموا أن من أخرج من الشجر الأخضر ناراً قادراً على إعادة الحياة مرة أخرى. ولقد جعلنا في النار منفعة لمن ينزلون في المفاوز والصحارى من المسافرين، ولمن يحتاج إليها في كل مكان. . فاذكروا ذلك واعتبروا منه. فسبح باسم ربك العظيم أيها الرسول على هذه النعم الجليلة التي لا تعد ولا تحصى.

قراءات: قرأ ابن كثير: نحن قدرنا بينكم الموت، بفتح الدال من غير تشديد. والباقون: قدرنا بالتشديد. وقرأ ابو بكر: إنا لمغرمون على الاستفهام. والباقون: إنا لمغرمون على الخبر.

٥٦٠٥ 75

فلا أقسم: هذا قسم تستعمله العرب في كلامها، ولا للتأكيد. مواقع النجوم: مداراتها ومراكزها. مكنون: مصون. المطهرون: المنزهون عن الأدناس. مدهنون: متهاونون، مخادعون. الخلقوم: مجرى الطعام. غير مدينين: غير محاسبين. فروح: راحة الجسم. ريحان: راحة الروح. تصلية بحيم: ادخال النار. حق اليقين: هو بمعنى اليقين الحق، وهو اليقين المطابق للواقع.

بعد ذكر الأدلة على الألوهية والخلق والبعث والجزاء جاء بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم. وقد أقسم الله تعالى على هذا بما يشاهدونه من مواقع النجوم، وإن هذا القسم لعظيم حقاً، لأن هذا الكون وما فيه شيء كبير لا نعلم عنه الا القليل القليل. ويقول الفلكيون: ان من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، ومنها ما لا يرى الا بالمكبرات، وقد يكون اكبر من شمسنا بألاف المرات ولكننا لبعده الشاسع لا نراه. وهي تسبح في هذا الفلك الواسع الذي لا نعلم عنه شيئاً. والبحث في هذا واسع جداً، ولذلك فان هذا القسم عظيم حقاً.

{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}

هو قرآن جامع لكل المحامد، وفيه الخير والسعادة لبني الانسان اجمعين.

{فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ}

وهو مصون في اللوح المحفوظ، لا يمس هذا اللوح ولا يطلع عليه غير المقربين من الملائكة.

لقد فسر بعضهم هذه الآية بأنه لا يمس القرآن من كان مُحَدِّثاً، واختلف العلماء في ذلك، فقال جمهور العلماء لا يجوز ان يمس احد القرآن الا اذا كان متطهراً، وقال عدد من العلماء بالجواز.

{تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}

ان هذا القرآن نزله الله على سيدنا محمد خات مالا نبياء والمرسلين.

وبعد ان ذكر مزاياه، وانه من لدن عليم خبير ذكر انه لا ينبغي التهاون في أوامره ونواهيه، ويجب التمسك به فقال: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون} .

اتهاونون بالقرآن وتعرضون عنه، وتماثلون من بتكلم فيه بما لا يليق به، وتكذبون ما يقصه عليكم من شأن الآخرة، وما يقرره لكم من أمور العقيدة! أتجعلون بدل الشكر على رزقكم انكم تكذبونه، فتضعون الكذب مكان الشكر! {فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون} .

فإذا انتم فاعلون إذا بلغت روح أحدكم الحلقوم في حال النزاع عند الموت، وانتم حوله تنظرون اليه، ونحن بالواقع أقرب اليه وأعلم بحاله منكم، ولكن لا تدركون ذلك ولا تبصرون.

{فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين}

فلو كان الأمر كما تقولون: إنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، وأنكم غير مدينين لا تحاسبون ولا تجزون - هلا ترجعون النفس التي بلغت الحلقوم الى مكانها، وتردون الموت عنم يحضر امامكم! .

ثم بين الله تعالى ان حال بعد الوفاة ثلاثة اصناف فقال:

١- {فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنات نعيم.

}

فأما ان كان المتوفى من الذين عملوا صالحاً وكان من المقربين السابقين فأله راحة واطمئنان لنفسه، ورحمة من الله ورزق طيب في جنات النعيم.

١- وأما إن كان من أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، فيقال له تحية وتكريماً: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين.

٣- وأما ان كان من المكذبين الذين كذبوا الرسول والقرآن الكريم، الضالين سواء السبيل - فله مكان في جهنم يسقى من ماء شديد الحرارة، وماله دخول الجحيم.

{إن هذا هو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم} .

ان هذا الذي ذكر في هذه السورة الكريمة هو الحق الصادق الثابت الذي لا شك فيه فسبح ايها الرسول بذكر اسم ربك العظيم تنزيهاً له وشكراً على آلائه.

٥٧ الحديد

٥٧.١ 1

سبح لله: نزهة عن كل ما لا يليق به. العزيز: الذي لا ينازعه في ملكه شيء. الحكيم: الذي يفعل افعاله وفق الحكمة والصواب. الظاهر والباطن: هو الذي ظهرت دلائل وجوده وتكاثر، وخفيت عنا ذاته فلم ترها العيون، فهو ظاهر بآثاره وافعاله، باطن بذاته. في ستة أيام: في ستة اطوار. استوى على العرش: استولى عليه. العرش: الملك والسلطان. ذات الصدور: مكونات النفوس وخفيات السرائر.

بدأت هذه السورة الكريمة بالتسبيح، وكذلك بدأت بعدها أربع سور مدنية، هي: الحشر والصف والجمعة والتغابن. وأي تسبيح! إن كل ما في الوجود يسبح لله. وما هو هذا التسبيح؟ . يقول علماء المادة اليوم: «ان التسبيح ها هنا لا يقتصر على كون الذرات والأجسام الفضائية تخضع للنواميس التي وضعها الله فيها، فهي بهذا تسبح بحمد الله سبحانه، فهناك ما هو أبعد من هذا وأقرب الى مفهوم التسبيح الحي والتقديس الواعي. ان هذه الموجودات المادية تملك أرواحاً، وهي تمارس تسبيحها وتقديسها بالروح، وربما بالوعي

الذي لا نستطيع استيعاب ماهيته، كما يقول تعالى في سورة الاسراء ٤٤: {وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} حقا إن ادراك الطرائق التي تعمل بها الذرات والأجسام لمّا يصعب تحقيقه، ومهما تقدّم العلم وخطا خطواته العملاقة، فسيظلّ جانب من أكثر جوانب التركيب الماديّ أهمية بعيداً عن الكشف النهائي، مستعصياً على البوح بالسّر المكنون». .
إن عصر الانكار الكليّ لحقائق علمية معينة قد انتهى، وحلّ محله اعتقادٌ سائد أخذ يتسع شيئاً فشيئاً، في أن ميدان العلم لا يشهد تغيرات فحسب، بل طفرات وثورات.

ان نتائج فلسفية هامة ستمخصّ حقا عن هذا التغير، والفرق بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة سوف يتناقص. . الفرق بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، والحضور والغيب، والمادة والروح، والقدر والحرية، وستلتي معطيات العلم مع حقائق الدين في عناق حار، لقاءً كثيراً ما حدّثنا عنه القرآن الكريم، كتابُ الله المعجزة.

لله ملكُ السموات والأرض، يحيي ويميت كما يشاء {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} . هو الاول بلا ابتداء قبل كل شيء، والآخر بلا انتهاء بعد كل شيء: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨] . وهو الظاهر بالآثار والأفعال، والباطن فلا تدركه الأبصار {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فلا يخفى عليه شيء في السموات والأرض.

وهو الذي خلق هذا الكون في ستة أطوار، فدبره جميعه ثم استولى على العرش. وقد تقدّم مثل هذه الآية في عدة سور: الأعراف ويونس وهود والفرقان والسجدة.

ثعلم كل ما يغيب في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد اليها، {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} عليمٌ بكم، محيطٌ بشؤونكم في أيّ مكان كنتم. {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} لله وحده ملك السموات والأرض، وإليه ترجع الأمور.
إنه يقلّب الليل والنهار ويقدرها بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يقصر الليل ويطول النهار، وتارة يجعلهما معتدلين. {وَهُوَ عَالِمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} وخفيّ مكنوناتها، وما تضره القلوب.

٥٧.٢ ٧

مستخلفين فيه: خلفاء عنه ووكلاء بالتصرف. ميثاقكم: عهدكم. الفتح: فتح مكة. من ذا الذي يُقرض الله: من ذا الذي ينفق في سبيل الله.

هذه السورة من السور المدنية كما قدّمنا، وهي تعالج بناء دولة وأمة. وهنا تعالج حالة واقعة في ذلك المجتمع الاسلامي الجديد، فيظهر من سياق الحثّ على البذل والإيمان أنه كان في المدينة، إلى جانب السابقين من المهاجرين والانصار، فئة من المؤمنين حديثة عهد بالاسلام، لم يتمكن الايمان في قلوبهم، ولهم صلات قرابة ونسب مع طائفة المنافقين التي نبتت بعد الهجرة وكانت تكيد للاسلام والمسلمين. وكانت هذه المكائد تؤثر في بعض المسلمين الذين لم يدركوا حقيقة الايمان فأنزل الله تعالى هذه الآيات يثبت بها قلوب المؤمنين ويحثهم على البذل والعطاء. فهي تقول:

آمِنُوا بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ، وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ الْمَالِ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خُلَفَاءَ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ.

ثم تبين السورة ما أعدّ الله للذين آمنوا وأنفقوا من أجر كبير: {فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} .

ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم الى ذلك ويحثكم عليه! انه يبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، وقد أخذ الله عليكم الميثاق بالايان من قبل {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} . ثم بين الله تعالى انه ينزل على رسوله الكريم آيات من القرآن ليخرجكم بها من الضلال الى الهدى، {وَأَنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} يطف بكم من حيث لا تعلمون، ويمهد لكم سبيل الخير من حيث لا تحتسبون.

ثم زاد في التأكيد على الانفاق أن الجميع صائر اليه، وإن الإنسان لا يأخذ معه شيئاً مما يجمعه إلا العمل الصالح والانفاق في سبيل الله فقال: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} .

مالكم أيها الناس لا تنفقون مما رزقكم الله في سبيله؟ أنفقوا أموالكم في سبيل الله قبل أن تموتوا، ليكون ذلك ذخراً لكم عند ربكم. فأنتم بعد الموت لا تقدرون على ذلك، إذ تصير الأموال ميراثاً لمن له السموات والأرض فهو الذي يرث كل ما فيهما. ثم بين تفاوت درجات المنفقين فقال:

{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى} . لا يستوي في الدرجة والأجر ذلك المؤمن الذي أنفق قبل فتح مكة وقاتل (لأن المسلمين كانوا في ضيق وجهد وحاجة إلى من يسانداهم، ويقويهم) فهؤلاء المنفقون والمقاتلون قبل فتح مكة أعظم درجة عند الله من الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا. وقد وعد الله الجميع المثوبة الحسنَى، {والله بما تعملون خبير} فيجازي كلًّا بما يستحق.

ثم ندب إلى الانفاق بأسلوب رقيق جميل حيث جعل المنفق في سبيل الله كالذي يقرض الله، والله غني عن العالمين. فقال: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} هل هناك أجمل من هذا التعبير! من هذا الذي ينفق أمواله في سبيل الله محتسباً أجره عند ربه، فيضاعف الله له ذلك القرض، إذ يجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة، وفوق ذلك له جزاء كريم عند ربه، وضيافة كريمة في جنة المأوى. قراءات:

قرأ أبو عمرو: وقد أخذ ميثاقكم بضم همزة اخذ ورفع ميثاقكم. والباقون: وقد أخذ ميثاقكم بفتح الهمزة ونصب ميثاقكم. وقرأ ابن عامر: وكلُّ وعد الله الحسنَى برفع كل. والباقون: وكلًّا بالنصب. وقرأ ابن كثير: فيضعفه بتشديد العين وضم الفاء. وقرأ ابن عامر مثله: فيضعفه بالتشديد ولكن ينصب الفاء. والباقون: فيضاعفه بالالف ونصب الفاء.

٥٧.٣ 12

يسعى نورهم بين أيديهم: وهو ما قدموه من عمل صالح في الدنيا. بشراكم: أبشروا. انظرونا: انتظرونا. نقتبس من نوركم: نستضيء بنوركم. بسور: بحاجز. باطنه فيه الرحمة: الجنة. وظاهره من قبله العذاب: من جهته جهنم. فتنم أنفسكم: اهلكتموها. تربصتم: انتظرتهم بالمؤمنين الشرِّ والمصائب. ارتبتم: شككتهم في امر البعث. الأمانى: الباطل. الغرور (بفتح الغين): الشيطان. فدية: مال أو غيره لحفظ النفس من الهلاك. مأواكم: منزلكم. مولاكم: أولى بكم، من ينصركم.

الكلام في هذه الآيات الكريمة عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، فالله سبحانه وتعالى يبين هنا حال المؤمنين المنفقين في سبيل الله يوم القيامة، فذكر أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشداهم إلى الجنة، وتقول لهم الملائكة: أبشروا اليوم بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار وأنتم فيها خالدون أبداً.

{ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} وأيّ فوز أعظم من دخول الجنة!!

ثم بين حال المنافقين في ذلك اليوم العظيم، وكيف يطلبون من المؤمنين أن يساعدهم بشيء من ذلك النور الذي منحهم الله إياه ليستضيئوا به ويلحقوا بهم. فيسخر المؤمنون منهم ويتهمون عليهم ويقولون: ارجعوا إلى الدنيا واعملوا حتى تحصّلوا على هذا النور. وهذا مستحيل. فيضرب بينهم بحاجز عظيم يكون المؤمنون داخله في رحاب الجنة، والمنافقون والكافرون خارجة يذهبون إلى النار. ثم ينادي المنافقون المؤمنين فيقولون لهم: ألم نكن معكم في الدنيا؟! فيقول لهم المؤمنون:

{بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغررتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرثكم بالله الغرور} .
لقد كنتم معنا ولكنكم لم تؤمنوا، وأهلكتم أنفسكم بالنفاق، وتربصتم بالمؤمنين الشر والحوادث المهلكة، وشككتم في أمور الدين. لقد خدعكم الآمال الكاذبة حتى جاءكم الموت، وخدعكم الشيطان. فلا أمل لكم بالنجاة، ولا تقبل منكم فدية، ولا من الذين كفروا، إن مرجعكم جميعاً هو النار، هي منزلكم {وبئس المصير} .

قراءات:

قرأ حمزة: أنظرونا نقتبس من نوركم بفتح الهمزة وكسر الظاء من الفعل انظر. والباقون: انظرونا بضم الظاء. وقرأ ابن عامر ويعقوب: فالיום لا تؤخذ بالتاء. والباقون: لا يؤخذ بالياء.

٥٧٠٤ 16

الم يأن: الم يحن، والفعل الماضي أنى يأتي أنياً وأناةً وأنى: حان وقرب. وما نزل من الحق: من القرآن. فطال عليهم الأمد: طال عليهم الزمان وبعد العهد بينهم وبين أنبيائهم. قست قلوبهم: اشتدت فكفروا. المصدقين والمصدقات: بالتشديد هم المنفقون في سبيل الله. الصديق: المداوم على الصدق. الشهداء: من قتلوا في سبيل الله.

في هذه الآيات عتاب لقوم من المؤمنين قُتِلَتْ قلوبهم قليلاً عن القيام بما نُدبوا إليه. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا في جهد، فكأنهم قتلوا عن بعض ما كانوا عليه فعوقبوا بهذا الآية. . .»

الم يحن الوقت للذين آمنوا أن ترق قلوبهم لذكر الله والقرآن الكريم، ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبلهم، فعملوا به مدة ثم طال عليهم الزمن فجمدت قلوبهم وغيروا وبدلوا {وكثير منهم فاسقون} خارجون عن حدود دينهم.

اعلموا أيها المؤمنون إن الله يحيي الأرض ويهيئها للإنبات بنزل المطر بعد يبسها وجفافها {قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون} وضررنا لكم الأمثال لعلكم تعقلون ما فيها، فتخشع قلوبكم لذكر الله.

والله سبحانه يجازي كل إنسان بعمله، فالمتصدقون والمتصدقات الذي ينفقون في سبيل الله بنفوس سخية طيبة، يضاعف الله لهم ثواب ذلك، وفوق المضاعفة لهم أجر كريم عنده يوم القيامة.

والعاملون أقسام عند الله، فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون. فالذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم - أولئك هم الصديقون والشهداء، لهم أجرهم العظيم، ونور يهديهم يوم القيامة، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وبالمقابل يقف الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها.

قراءات:

قرأ نافع وحفص: وما نزل من الحق بفتح النون والزاي من غير تشديد. والباقون: وما نزل بتشديد الزاي. وقرأ ابن كثير وابوبكر: ان المصدقين والمصدقات بفتح الصاد من غير تشديد. والباقون: بالتشديد.

٥٧٠٥ 20

الكفار: هنا الزراع، يقال: كفر الزارع البذر بالتراب، غطاه. يهيج: يبيس ويصفر، وفعل هاج له معنى آخر، يقال: هاج القوم هيجاً وهيجاناً: ثاروا لمشقة أو ضرر. وللعل هاج معانٍ أخرى. حطاما: هشياً متكسراً. متاع الغرور: الخديعة. في كتاب: في اللوح المحفوظ. نبرأها: نخلقها. لا تأسوا: لا تحزنوا. كل مختال: متكبر. نفور: المتباهي بنفسه.

يبين الله تعالى هنا حقارة الدنيا وسرعة زوالها. اعلوها أيها الناس أنما الحياة الدنيا لعب لا ثمرة له، وهو يشغل الإنسان عما ينفعه، وزينة لا بقاء لها، وتفاخر بينكم بأنساب زائلة وعظام بالية، وتكاثر بالعدد في الأموال والأولاد. مثلها في ذلك مثل مطر نزل في أرض قوم وأنبت زرعاً طيباً أعجب الزراع، ثم يكل ويهيج ويبلغ تمامه، فتراه بعد ذلك مصفراً ثم يصير حطاماً منكسراً لا يبقى منه ما ينفع. فمن آمن وعمل في الدنيا عملاً صالحاً واتخذ الدنيا مزرعةً للآخرة نجا، ودخل الجنة. وفي الآخرة عذاب شديد لمن آثر الدنيا وأخذها بغير حقها، وفيها مغفرة لمن عمل صالحاً وآثر آخرته على دنياه. {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} متاع زائل وخديعة باطلة لا تدوم. ثم بعد ان بين الله أن الآخرة قريبة، فيها العذاب والنعيم - حث إلى المبادرة إلى فعل الخيرات فقال: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ. . .}

تسابقوا أيها المؤمنون في عمل الخير، حتى تنالوا مغفرة من ربكم، وتدخلوا الجنة سعة كسعة السماء والأرض، هيئت للذين آمنوا واتقوا ربهم، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} فهو واسع العطاء عظيم الفضل، يعطي من يشاء بغير حساب. ما أصابكم أيها الناس من مصائب في الأرض من قحط أو جدب وفساد زرع أو كوارث عامة كالزلازل وغيرها، أو في أنفسكم من مرض أو موت أو فقر أو غير ذلك - إنما هو مكتوب عندنا في اللوح المحفوظ، مثبت في علم الله من قبل ان يبرأ هذه الخليفة. وما اثبات هذه الأمور والعلم بها إلا أمر يسير على الله.

{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}

وحيث علمتم ان كل ما يجري هو بعلم الله وقضائه وقدره - عليكم ألا تحزنوا على ما لم تحصلوا عليه حزناً مفرطاً يجركم إلى السخط، ولا تفرحوا فرحاً مبطراً بما أعطاكم، فالله لا يحب كل متكبر نفور على الناس بما عنده.

قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. وما من إنسان إلا يحزن ويفرح، ولكن الحزن المذموم هو ما يخرج بصاحبه إلى ما يذهب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب، والفرح المنهي عنه هو الذي يطغى على صاحبه ويلهي عن الشكر.

ثم بين الله أوصاف المختالين الذين يفخرون على الناس فقال: {الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ هَؤُلَاءِ لَا يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.}

{وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}

ومن يعرض عن طاعة الله، فإن الله غني عنه، وهو المحمود من خلقه لما أنعم عليهم من نعمه، لا تضره معصية من عصى، ولا تنفعه طاعة من أطاع. قراءات:

قرأ أبو عمرو: بما آتاكم بغير مد. والباقون: بما آتاكم بمد الهمزة. وقرأ الجمهور: بالبخل بضم الباء واسكان الخاء. وقرأ مجاهد وابن محيصن وحزمة والكسائي: بالبخل بفتحتين وهما لغتان. والبخل بفتحتين لغة الانصار. وقرأ نافع وابن عامر: ان الله الغني الحميد، بحذف هو، والباقون: ان الله هو الغني الحميد.

٥٧٠٦ 25

البيئات: المعجزات والحجج. الكتاب: جميع الكتب المنزلة. الميزان: العدل. القسط: الحق. أنزلنا الحديد: خلقناه. فيه بأس شديد: فيه قوة عظيمة. ثم قفينا على آثارهم: ثم أرسلنا بعدهم الواحد تلو الآخر. الرهبانية: الطريقة التي يتبعها قسوس النصارى ورهبانهم. ابتدعوها: استحدثوها من عند أنفسهم. فما رعوها: فما حافظوا عليها. الكفل: النصيب.

لقد ارسلنا رُسُلنا الذين اصطفيناهم بالمعجزات القاطعة، وانزلنا معهم الكتب فيها الشرائع والاحكام، والميزان الذي يحقق الإنصاف في التعامل، ليتعامل الناس فيما بينهم بالعدل. كما خلقنا الحديد فيه قوة ومنافع للناس في شتى مجالات الحياة، في الحرب والسلم، والمواصلات برا وبحرا وجوا، ومنافعه لا تحصى - لينتفعوا به في مصالحهم ومعائشهم، وليعلم الله من ينصر دينه، وينصر رسله بالغيب، {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} لا يفتقر الى عون احد.

ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتب الهادية. والقرآن يعبر دائما بالكتاب حتى يعلم الناس ان جميع الاديان اصلها واحد.

ثم ان هذه الذرية افترقت فرقتين: منهم من هو مهتد الى الحق مستبصر، وكثير منهم ضالون خارجون عن طاعة الله. {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا}

بعثنا بعدهم رسولا بعد رسول على توالي العصور والأيام، حتى انتهى الأمر الى عيسى عليه السلام وأعطيناه الانجيل الذي أوحيناها اليه، وأودعنا في قلوب المتبعين له رافة ورحمة. وبعد ذلك كله ابتدعوا رهبانية وغلوا في العبادة ما فرضناها عليهم، ولكن التزموها ابتغاء رضوان الله تعالى، فما حافظوا عليهما حق المحافظة. فآتيناهم الذين آمنوا منهم إيمانا صحيحا أجورهم التي استحقوها. اما كثير منهم فقد خرجوا عن امر الله، واجترأوا الشرور والآثام، فلهم عذاب عظيم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} واثبتوا على إيمانكم برسوله بعطكم نصيبين من رحمته ويجعل لكم نورا تهتدون به، ويغفر لكم ذنوبكم {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

{ثَلَاثًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} .

لقد فعلنا ذلك ليعلم اهل الكتاب انهم لا ينالون شيئا من فضل الله ما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، والله صاحب الفضل العظيم.

وقوله تعالى: {أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ} معناه أنهم لا يقدرُونَ على شيء، فأُنْ هنا مخففة من أن المشددة.

وهكذا ختمت السورة بختام يتناسق مع سياقها كله، وهي نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية، وبها يتم الجزء السابع والعشرون.

٥٨ المجادلة

٥٨٠١ 1

تُجادلك: تراجعك في أمرها، وهي خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية الانصارية، وزوجها: أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت الصحابي الجليل المدفون بالقدس. والله يسمع تحاوركما: يسمع ما يدور بينكما من الكلام. والظهار هنا: ان يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، يريد انها حرمت عليه كما تحرم امه عليه. منكر: ينكره الدين ويأباه. وزورا: كذبا لا حقيقة له. يعودون لما قالوا: ينقضون ما قالوه ويريدون الرجوع الى زوجاتهم. تحرير رقبة: عتق عبد. حدود الله: شريعته واحكامه.

قد سمع الله قول التي تراجعك في موضوع طلاقها من زوجها، وتشكي الى الله ما أصابها، والله يسمع ما يدور بينكما من المحاورة والكلام {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} .

وقد أبطل الإسلام هذه العادة، فالذي يقول لزوجته انت علي كظهر أمي كلامه باطل، ولا تحرم زوجته عليه ولا تكون كأمه. فان أمه هي التي ولدته، وان الذين يستعملون هذه الالفاظ من الظهار {لَيَقُولَنَّ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} يأباه الله ورسوله.

فإن الله تعالى أبطل هذا الطلاق {وَأَنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} لما سلف من الذنوب، وهذا من فضل الله ولطفه بعباده.

ثم فصل الله تعالى حكم الظهار فقال:

{والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقية من قبل أن يتماسا} .

١- كل من استعمل هذا اللفظ ثم أراد الرجوع الى زوجته فعليه ان يعتق عبداً من قبل ان يمس زوجته.
{ذلكم توعظون به} .

هذا الذي أوجبه الله عليكم من عتق الرقية عظة لكم وجزاء توعظون به حتى لا تعودوا لمثله، {والله بما تعملون خبير} .
٢- {فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا} .

فالذي لا يستطيع ان يعتق عبداً عليه ان يصوم شهرين متتابعين من قبل ان يمس زوجته.
٣- {فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً} .

فمن لم يستطع ان يصوم شهرين متتابعين لعذر شرعي، فعليه ان يطعم ستين مسكيناً من الطعام المتعارف عليه.
ذلك الذي بيناه وشرعناه لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعملوا بما شرعنا لكم. وهذا تسهيل من الله على عباده ولطفه بهم، وتلك حدود الله فلا تتجاوزوها {ولللكافرين عذاب أليم} ، وفي هذا تهديد كبير.

قراءات:

قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي بإدغام الدال في السين في قوله: قد سمع. والباقون: بالظهار: قد سمع، بإسكان الدال وفتح السين. وقرأ عاصم: يظاهرون من ظاهر، يظاهر، بكسر الهاء بغير تشديد. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو يظهرون، بفتح الظاء والهاء المشددين من ظهر يظهرون. وقرأ ابن عامر وحمة والكسائي: يظاهرون بفتح الظاء المشددة بعدها الف، من اظاهر يظاهر.

٥٨٠٢ 5

يحادون: يعصونه ويعادونه. كُتبتوا: خذلوا وقهروا وأذلوا. عذاب مهين: مذل. أحصاه الله: أحاط به وحفظه عنده. شهيد: مشاهد.
ألم تر: ألم تعلم. النجوى: المناجاة سرّاً بين اثنين فأكثر. الذين نهوا عن النجوى: اليهود والمنافقون. لولا يعذبنا الله: هلا يعذبنا الله بسبب ذلك. حسبهم جهنم: كافيم جهنم يدخلونها.

بعد ان بين الكتاب شرع الله وحدوده أردف مشيراً إلى من يتجاوزها، ووصفهم بالمخالفة والعداء وانه سيلحقهم الخزي والنكال في الدنيا كما لحق الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية، ولهم في الآخرة العذاب المهين في نار جهنم. وذلك يوم تُجمع الخلائق جميعاً للحساب والجزاء ويخبرهم الله بما عملوه بالتفصيل.

{أحصاه الله ونسوه} .

هو مسجل عند الله يجدونه مفصلاً مع انهم نسوه، {والله على كل شيء شهيد} لا تخفى عليه خافية.

ألم تعلم أيها الرسول أن الله تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، يعلم ما يقولون وما يدبرون، ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم، يعلم ما يتناجون به ايما كانوا، ثم يخبرهم يوم القيامة بكل ما عملوا {إن الله بكل شيء عليم} .

ألم تر أيها الرسول الى الذين نهوا عن النجوى فيما بينهم بما يثير الشك في نفوس المؤمنين ثم يعودون الى ما نهوا عنه، وهم يتحدثون فيما بينهم بما هو إثم، وبما هو مؤذ للمؤمنين وما يضمرّون من العداوة للرسول.

{وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله} .

كان أناس من اليهود اذا دخلوا على الرسول الكريم يقولون: السام عليك يا أبا القاسم. فيقول لهم الرسول: وعليكم. ويقولون في أنفسهم: هلا يعذبنا الله بما نقول لو كان نبيا حقاً! فرد الله عليهم بقوله: {حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} .

وسبب التناجي المذكور أنه كان بين المسلمين واليهود معاهدة، فكانوا إذا مر الرجل من المسلمين بجماعة منهم - يتحدثون سراً ويتناجون بينهم حتى يظن أنهم يتآمرون على قتله، فيعدل عن المرور بهم. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلم ينتهوا، وعادوا الى ما نهوا عنه. وكانوا إذا جاؤا النبي حيَّوه بالدعاء عليه في صورة التحية كما تقدم، فنزلت هذه الآية.

ثم أمر الله عباده المؤمنين ان لا يكونوا مثل اليهود المنافقين في التناجي بالإثم والعدوان، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ} .

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كاليهود والمنافقين في تناجيكم بينهم، فاذا حدث تناجٍ او مسارة في اجتماعاتكم فلا تفعلوا مثل ما يفعلون. {وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} .

تناجوا أنتم بما هو خير ينفع المؤمنين، واتقوا الله فيما تأتون وتذرون، فإليه تحشرون فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم.

ثم بين الباعث على هذه النجوى بالشر والمزير لها فقال: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ. . .} .

إنما الحديث بالسر والتناجي المثير للشك - من وسوسة الشيطان وتزيينه، ليدخل الحزن على قلوب المؤمنين، لكن المؤمنين في حصن من إيمانهم فلا يستطيع الشيطان ان يضرهم، ولا تنالهم اية مضرّة إلا بمشيئة الله.

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} .

في جميع أمورهم، ولا يخافوا أحداً ما داموا محصنين بالإيمان والاتكال على الله.

وقد ورد في الاحاديث الصحيحة النهي عن التناجي إذا كان في ذلك أذى لمؤمن.

عن ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يُحزنه» رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

قراءات:

قرأ حمزة وخلف وورش عن يعقوب: وينتجون بفتح الياء وسكون النون بلا الف، والباقون: ويتناجون بالألف.

٥٨٠٣ 11

تفسّحوا في المجالس: توسّعوا. وليفسّح بعضهم لبعض. فسح له في المجلس: وسّع له ليجلس. يفسح الله لكم: في رحمته ويوسع لكم في أرزاقكم. انشؤا: انهضوا لتوسعوا للقادمين. يرفع الله الذين آمنوا: يعلي مكانتهم. ويرفع اهل العلم كذلك. ناجيتم الرسول: إذا أردتم الحديث معه. فقدموا بين يدي نجواكم صدقة: فتصدقوا قبل المناجاة. أشفقتم: أخفتم. وتاب الله عليكم: رفع عنكم هذه الصدقة، ورخص لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة.

بعد ان أدب الكاتب المؤمنين بأدب الحديث والبعد عما يكون سبباً للتباغض من التناجي بالإثم والعدوان - علّمهم كيف يعاملون بعضهم في المجالس، من التوسّع فيها للقادمين، والنهوض اذا طُلب اليهم ذلك. وأشار إلى أن الله يعلي مكانة المؤمنين المخلصين، والذين أوتوا العلم بدرجات من عنده {والله بما تعملون خبير} .

فالأية فيها أدب جم وتشمل التوسع في إيصال جميع انواع الخير الى المسلم وادخال السرور عليه، كما قال الرسول الكريم عليه الصلاة

و السلام: لا يزال الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

ولما أكثر المسلمون من التنافس في القرب من مجلس الرسول الكريم لسماع أحاديثه، ولمناجاته في أمور الدين، وشقوا في ذلك عليه - أراد الله أن يخفف عنه فأُنزل قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ. . . } .

إذا أردتم مناجاة الرسول فتصدقوا قبل مناجاتكم له، ذلك خير لم وأظهر لقلوبكم. فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله تعالى قد رخص لكم في المناجاة بلا تقديم صدقة، {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

{أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ} .

ولما علم الله أنهم تخرجوا من تقديم الصدقات وإن كثيرا منهم لا يجد ما يأكل، عفا عنهم ورفع الصدقة وقال:

{فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} .

لأن الصلاة تطهر النفوس، والزكاة فيها نفع عام للمؤمنين، واطاعة الله ورسوله خير ما يأتيه المؤمن ويتحلى به، {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

فهو محيط بنواياكم وأعمالكم.

قراءات:

قرأ عاصم: بالمجالس بالجمع. وقرأ الباقر: بالمجلس على الافراد. وقرأ عاصم ونافع وابن عامر انشزوا بضم الشين. والباقر: إنشزوا بكسر الشين، وهما لغتان.

٥٨٠٤ 14

ألم تر: أخبرني، وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة للمخاطب. الذين تولوا قوما الخ. . .: هم المنافقون واليهود. قوما غضب الله عليهم: هم اليهود. ما هم منكم ولا منهم: لأنهم مذبذبون. ويحلفون على الكذب: يعني يحلفون بأنهم معكم وهم كاذبون. جنة: بضم الجيم، وقاية وسترا. استحوذ عليهم الشيطان: استولى عليهم.

هذه الآيات الخمس في المنافقين وأخبارهم، وكذبهم على الله ورسوله ﷺ. وسيأتي بعد أربع سور سورة خاصة بالمنافقين.

ألم تر أيها الرسول إلى هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين! إنهم ليسوا من المؤمنين إلا في الظاهر، كما أنهم ليسوا من اليهود، {مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ} [النساء: ١٤٣] .

ثم بين الله تعالى أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة ليظهروا أنهم مسلمون، ويشهدوا أن محمدا رسول الله، والله يشهد إنهم كاذبون. لقد أعد الله لهؤلاء المنافقين عذابا شديدا في الدنيا، وأشد منه في الآخرة، وذلك على أعمالهم السيئة وأقوالهم الزائفة وعدم ثباتهم على شيء.

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} .

لقد أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وتسترأوا بالإيمان الكاذبة فجعلوها وقاية لأنفسهم من القتل. وبها انخدع كثير من المؤمنين ممن لا يعرف حقيقة أمرهم، وبهذه الوسيلة صلوا كثيرا من الناس عن سبيل الله، فلهم عذاب شديد الإهانة يوم القيامة.

ثم بين الله تعالى أن كل ما عندهم من أموال واولاد لا يغنيهم شيئا، ولا يدفع عنهم العذاب الذي أعد لهم.

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .

أذكر لقومكم أيها الرسول حالهم يوم يبعثهم الله جميعا من قبورهم فيحلفون له أنهم ما كانوا مشركين كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا، ويظنون أنهم بقسمهم هذا يخرجون من عذاب الله.

{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} فيما يحلفون عليه، كما جاء في قوله تعالى:

{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣] .

ثم بين الله السبب الذي أوقعهم في الضلال، وهو أن الشيطان استولى عليهم فغلبت أهواؤهم وتبعوا شهواتهم.
{فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} الشيطان الذي أغواهم. وأولئك هم جنود الشيطان وحزبه. {إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ} ؟

٥٨٠.٥ 20

يحادون: يعادون، يخالفونه فيما أمر ونهى. في الأذلين: في أذل من خلق الله. كتب الله: قضى وحكم. أيدهم: قواهم ودعمهم. بروح منه: بنور وعزم من عنده. يوادون: يتقربون إليهم بالمودة والمحبة.

ان الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه، ولا يطيعون الرسول فيما شرع وبين - هم في عداد الذين بلغوا الغاية في الذلة والهوان. . بالقتل والأسر والهزيمة في الدنيا، وبالخزي والنكال والعذاب في الآخرة.

وقد قضى الله وحكم في أم الكتاب بأن الغلبة والنصر له ولرسوله، وقد صدق في ذلك.

{إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} . متى أراد شيئاً كان، ولم يجد معارضاً ولا ممانعاً على شرط ان يكون المؤمنون صادقين في إيمانهم يعملون بحجده وإخلاص، ويتخذون لكل شيء عدته.

ثم بين تعالى ان الإيمان الحق لا يجتمع مع موالات أعداء الله، مهما قرب بهم النسب ولو كانوا آباء أو أبناء أو إخواناً أو من العشيرة القريبة. وهذا معنى قوله تعالى:

{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ . . .}

لا تجد قوماً يجمعون بين الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ومودة أعدائه مهما كانت قرابتهم.

{أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} .

فهؤلاء الذين يخلصون لله ولا يوالون الجاحدين الذين يحادون الله ثبت الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بقوة منه، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا ينقطع نعيمها، قد أحبهم الله وأحبوه ورضي عنهم ورضوا عنه.

{أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} .

لأنهم أهل السعادة والفلاح والنصر في الدنيا والآخرة ونعمت الخاتمة.

٥٩ الحشر

٥٩٠.١ 1

الذين كفروا: هم بنو النضير من اليهود، وذلك بنقضهم العهد بينهم وبين رسول الله. لأول الحشر: وهو جمعهم وإخراجهم من المدينة.

حصونهم: واحداً حصن، كان اليهود يسكنون منفردين عن العرب في قلاع مسورة محصنة. فأتاهم الله: جاءهم عذابه. من حيث لم يحتسبوا: من حيث لم يخطر لهم ببال. يخربون بيوتهم بأيديهم: كانوا يهدمون بيوتهم من قبل ان يغادروها. الجلاء: الخروج عن الوطن.

اللينة: النخلة. شاقوا الله ورسوله: خالفوهما وحاربوهما.

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . .}

هو الذي أجلى الذين كفروا من أهل الكتاب «وهم بنو النضير، اكبر قبائل اليهود» أجلاهم من ديارهم، وكان هذا اول مرة حُشروا فيها واخرجوا من المدينة فذهب بعضهم الى الشام، وبعضهم الى خيبر. وما ظننتم أيها المسلمون ان يخرجوا من ديارهم، لتوتهم، وظنوا هم ان حصونهم تمنعهم من بأس الله. . فأخذهم الله من حيث لم يظنوا ان يؤخذوا، والقي في قلوبهم الرعب الشديد.

{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} .

وكانوا يخربون بيوتهم ليتركوها غير صالحة للسكنى بعدهم، وتخربها أيدي المؤمنين من خارج الحصون ليقضوا على تحصنهم ويخرجوهم أذلاء.

{فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ} .

اتعظوا يا ذوي البصائر السليمة، والعقول الراجحة، بما جرى لهؤلاء القوم المتكبرين المتجبرين من حيث لم تنفعهم أموالهم، ولا أسلحتهم. وعلمنا نحن اليوم ان نعتبر ولا نخاف من شدة تسلح اليهود وما عندهم من قوة وأموال، فلو اتفقنا واتحدنا، وجمعنا شملنا على قلب واحد صمم على الجهاد، واعددنا لهم ما نستطيع من العدة - لكان النصر لنا بإذن الله، سيكون مآل اليهود كآل اسلافهم المتبجحين. ولا يمكن ان يأتينا النصر من الشرق ولا من الغرب فما النصر الا من عند الله، ومن عند انفسنا وإيماننا وعزمنا على استرداد اراضينا بأيدينا. عندها يكون الله معنا والنصر لنا بإذنه.

ثم بين الله تعالى أن الجلاء الذي كتب عليهم، كان اخف من القتل والأسر فقال: {وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} .

ولولا ان الله قدر جلاءهم عن المدينة، وخروجهم أذلاء، لعذبهم في الدنيا بما هو أفظع منه من قتل أو أسر، ولهم في الآخرة عذاب النار في جهنم وبئس القرار.

كل ذلك الذي اصابهم في الدنيا، وما ينتظرهم في الآخرة - إنما كان لأنهم عادوا لله ورسوله أشد العدا، ومن يخالف الله ويعاديه فإن الله سيعاقبه أشد العقاب

{مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ} .

عندما حاصر الرسول الكريم واصحابه يهود بني النضير قطعوا بعض نخيلهم حتى يذلّوهم ويجبروهم على الاستسلام، فقال الله تعالى: أي شيء قطعتموه من النخل او أبقيتموه كما كان، فهو بأمر الله، فلا حرج عليكم فيه، ليعز المؤمنين، وليخزي الفاسقين المنحرفين.

٥٩.٢ 6

ما أفاء الله على رسوله: ما رده الله من اموال بني النضير، والفيء: معناه في اللغة الرجوع. ومعناه في الشرع: ما أخذ من أموال الاعداء من غير قتال. فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب: فما اسرعت في السير اليه بخيل ولا إبل. من أهل القرى: من أهل البلاد التي تفتح بلا قتال. كي لا يكون دولة بين الاغنياء: كي لا يتداوله الاغنياء بينهم دون الفقراء.

يبين الله تعالى هنا حكم ما أخذ من اموال بني النضير بعد ما حل بهم من الإجماع ويقول: إن الموال التي تركها بنو النضير في بيوتهم هي فيء لله وللرسول يضعها حيث يشاء. . لأن ما افاءه الله وردّه على رسوله من أموالهم قد تم مع أنكم ايها المسلمون لم تسرعوا اليهم بانخيل ولا بالإبل ولم تقاتلوهم، بل نزلوا على حكم الرسول الكريم، فالله يسلط رسله على من يشاء من عباده بلا قتال. {والله على كل شيء قدير} .

روى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت اموال بني النضير مما افاء الله تعالى على رسوله خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى» .

ثم بين الكلام في حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الأعداء عامة فقال:

{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ . . .} .

ما رده الله على رسوله من أموال أهل القرى بغير قتال فهو لله، وللرسول، ولذي القربى من بني هاشم وبني المطلب، ولليتامى الفقراء،

وللمساكين ذوي الحاجة والبؤس، ولابن السبيل المسافر الذي انقطع في بلد وليس لديه مال، يُعطى ما يوصله الى بلده.

{كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} .

انما حكمنا بهذه الأحكام وجعلنا المال مقسماً بين من ذكرنا لثلاث أسباب: يأخذها الأغنياء منكم، ويتداولوه فيما بينهم، ويحرم الفقراء منه.

وما جاءكم به الرسول من الأحكام والتشريع فتمسكوا به، وما نهاكم عنه فانتهوا. ثم حذر الله الجميع من مخالفة أوامره ونواهيه فقال:

{وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} .

{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ} .

كذلك يعطى من الفتيء الذي افاءه الله على رسوله للفقراء المهاجرين الذي أُخرجوا من ديارهم وتركوا أموالهم طلباً لمرضاة ربهم، ونيلاً لثوابه، ونصرة الإسلام وعلاء شأنه، {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} في إيمانهم وهجرتهم، فحق لهم من ربهم النعيم المقيم وجزيل الثواب.

٩ ٥٩.٣

الذين تبوءوا الدار: هم الانصار الذين سكنوا المدينة. ولا يجدون في صدورهم حاجة: الحاجة هنا: الحسد والغيظ. مما أوتوا: مما أعطي المهاجرون من الفتيء. ويؤثرون: ويقدمون غيرهم على انفسهم، ولو كان بهم خصاصة: ولو كانوا فقراء. ومن يوق شح نفسه: ومن يحفظ نفسه من البخل والحرص على المال. المفلحون: الفائزون. لا تجعل في قلوبنا غلا: بغضا وحسدا. الذين نافقوا: اظهروا الإسلام واضمروا الكفر. ليؤنن الادبار: ليهربن. بأسهم بينهم شديد: خلافتهم بينهم كثيرة. وقلوبهم شتى: متفرقة ومملوءة بالبغضاء على بعضهم. ثم مدح الله تعالى الانصار وأثنى عليهم ثناء عاطراً حين طابت انفسهم عن الفتيء، ورضوا أن يكون للمهاجرين من اخوانهم، وقال: إنهم مخلصون في إيمانهم، ذوو صفات كريمة، وشيم جليلة، تدل على كرم النفوس، ونبيل الطباع.

(١) فهم يحبون المهاجرين، وقد أسكنوهم معهم في دورهم، وآخوهم، وبعضهم نزل لأخيه من المهاجرين عن بعض ماله.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال المهاجرون: «يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قد منا عليهم: حسن مواساة في قليل، وحسن بذل في كثير! لقد كفونا المئونة، وأشركونا في المهية، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا، ما أثبتتم عليهم ودعوتهم لهم» .

والمهية: كل ما يريح الانسان من مكان او طعام. فعلهم الرسول الكريم ان يثبوا على اخوانهم الانصار ويدعوا لهم مقابل ما اكرمهم به.

(٢) وهم لا يحسبون في انفسهم شيئاً مما أوتي المهاجرون من الفتيء وغيره.

(٣) ويؤثرون اخوانهم المهاجرين على انفسهم ويقدمونهم، ولو كان بهم حاجة، وهذا منتهى الكرم والايثار، وغاية التضحية. ولذلك ورد في بعض الروايات ان رسول الله ﷺ قال: اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار.

ثم بين الله تعالى ان الذي يخجو من البخل يفوز برضا الله ويكون من المفلحين فقال: {وَمَنْ يَوْقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ} .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الشح، فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» رواه الإمام أحمد والبخاري في: الأدب المفرد، والبيهقي.

وقال الرسول الكريم: «لا يجتمع الإيمان والشح في قلب عبد أبداً» رواه الترمذي وابو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وليس المراد من تقوى الشح الجود بكل ما يملك، وانما ان يؤدي الزكاة، ويقري الضيف ويعطي ما يستطيع كما روي عن الرسول الكريم انه قال: «برئى من الشح من أدى الزكاة وقرأ الضيف، وأعطى في النائة» .

ثم جاء المدح لمن تبع الانصار والمهاجرين، وساروا على طريقتهم في كل زمان ومكان الى يوم القيامة فقال تعالى:

{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} .

وهذا يشمل المسلمين الذين اتبعوا الهدى وطبقوا الشريعة، في كل مكان وزمان.

كما جاء في سورة براءة الآية ١٠٠ {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

هؤلاء هم المؤمنون حقاً، فهم يستغفرون لأنفسهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان. (ويشمل هذا جميع الصحابة الكرام وتابعيهم وكل من سار على هدايتهم)، ثم يزدون فيدعون إلى الله أن لا يجعل في قلوبهم حسداً وحقدًا للمؤمنين جميعاً، فكيف ببعض من يسب كرام الصحابة، ويُبغضهم! عافانا الله من ذلك وطهر قلوبنا من الغل والحسد والبغضاء.

فالقرآن تتجلى عظمته في هذا الربط المتين: ربط أول هذه الملة بآخرها، وجعلها حلقة واحدة مترابطة في تضامن وتكافل وتعاطف وتواد، ويمضي الخلف على آثار السلف، صفواً واحداً على هدف واحد، في مدار الزمان واختلاف الأوطان.

نسأل الله تعالى ان يجمع كلمة العرب والمسلمين، ويوحد صفوفهم تحت راية القرآن وسنة رسوله الكريم، انه سميع مجيب.

ثم يأتي الحديث عن المنافقين، وكذبهم وخداعهم، وعدم وفائهم بما قالوا لإخوانهم اليهود الذين اتفقوا على بغض الرسول الكريم والمؤمنين، فيقول تعالى تعجباً من كفرهم وكذبهم ونفاقهم:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا} .
الم تعجب من حال هؤلاء المنافقين الذين خدعوا إخوانهم في الكفر، اليهود من بني النضير، حيث قالوا لهم اصمدوا في دياركم ولا تخرجوا، فإننا سننصركم، وإن أُخْرِجْتُمْ من المدينة لنخرجنَّ معكم، ولا نطيعُ في شأنكم أحداً ابداً.
{وَأِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} .

إن قاتلكم المسلمون قاتلنا نحن معكم. والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما وعدوا به.

ثم بين كذبهم بالتفصيل فقال:

{لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ} .

وقد خرج بنو النضير من ديارهم أذلاء فلم يخرج المنافقون معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم، ولو نصروهم وقاتلوا معهم لانهمزوا جميعاً.

ثم بين الله السبب في عدم نصرتهم لليهود، والدخول مع المؤمنين في قتال فقال:

{لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} .

انكم ايها المسلمون اشد مهابة في صدور المنافقين واليهود من الله، وذلك لأنهم قوم لا يعلمون حقيقة الإيمان.

ثم أكد جبن اليهود والمنافقين وشدة خوفهم من المؤمنين فقال:

{لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ} .

ان هؤلاء اليهود والمنافقين معهم قد ألقى الله في قلوبهم الرعب، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين، ولا يقاتلونكم إلا في قري محصنة او من وراء جدران يستترون بها.

ذلك لأنهم متخاذلون، وهم في الظاهر أقوياء متحدون، لكنهم في حقيقة الأمر قلوبهم متفرقة، وبينهم العداوة والبغضاء والحسد.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} .

ثم بين الله ان هؤلاء قد سبقهم غيرهم قبلهم من يهود بني قينقاع الذين كانوا حول المدينة وغزاهم النبي ﷺ وأجلاهم عنها {ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم} .

وحالنا اليوم مع اليهود مثل حالهم في السابق، فهم في الظاهر أقوياء، عندهم أسلحة كثيرة وطائرات حديثة وصواريخ ودبابات، وهذا

كله ليس سرّ قوتهم، وانما سرّ قوتهم خذلاننا نحن وتفرُّق كلمتنا، ومحاربة بعضنا بعضا. فلو عدنا الى ديننا وجمعنا شملنا واتحدنا وأعدنا العدة بقدر ما نستطيع - لهزمنا اليهود، فإنّ بأسهم بينهم شديد وقلوبهم شتى، ومجتمعهم متفكك مملوء بالجريمة والفسق والقذارة التي ليس لها مثيل. ففتى يفتي العرب من سباتهم ويوحدون صفوفهم! لو اجتمعت العراق وسوريا والأردن وفلسطين اجتماعا حقيقيا لكفى هذا، وبإمكانهم وحدهم ان يهزموا اليهود ويستعيدوا أرضهم وكرامتهم.

٥٩٠٤ 16

لغد: يوم القيامة، كأنه من قربه يوم غد، وكل آت قريب. نسوا الله: لم يطيعوه وجروا وراء أهوائهم وملذاتهم. فأنساهم أنفسهم: بما ابتلاهم من الغفلة وحب الدنيا، فصاروا لا يعرفون ما ينفعها مما يضرها. في هذه الآيات الكريمة نصيحة للمؤمنين وتعليم وتهذيب لهم أن يلزموا التقوى، ويعملوا الصالحات ويقدموا الخيرات والمال والجاه للمحتاجين، حتى يجدوه امامهم يوم القيامة. وقد كرر الله تعالى الحديث على التقوى لما لها من فوائد وعليها يبنى المجتمع الصالح. {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} . لا يخفى عليه صغيرة ولا كبيرة في هذا الكون الواسع. ثم ضرب الأمثال لنا تحذيراً وإنذاراً من ان تقع في حب الدنيا، فنسى واجباتنا، ونغفل عما ينقصنا فقال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ} . لا تكونوا كالذين نسوا حقوق الله وما عليهم من الواجبات، فأنساهم الله أنفسهم حتى أصبحوا كالحيوانات لا هم لهم الا شهواتهم وملذاتهم والجري وراء الدنيا. {أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} .

الخارجون عن طاعة الله، فاستحقوا عقابه يوم القيامة. فالإنسان له حقوق وعليه واجبات، والدنيا أخذ وعطاء، فلا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حله، ولا خير في قول لا يراى به وجه الله. ثم بين الله تعالى أن من يعمل الحسنات يذهب الى الجنة، وان من يعمل السيئات يذهب الى النار، وانهم لا يستوون. فلا يستوي من يذهب الى النار يعذب فيها، ومن يذهب الى الجنة ينعم فيها، {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} بكل ما يحبون.

٥٩٠٥ 21

خاشعا: منقادا متذللا. متصدعا: متشققا. عالم الغيب: كل ما غاب عن حواسنا من العوالم التي لا نراها. الشهادة: ما حضر من الاجرام المادية التي نشاهدها. القدوس: المنزه عن النقص. السلام: الذي ينشر السلام في هذا الكون والامان والنظام. المؤمن: واهب الأمن للخلق أجمعين. المهيمن: الرقيب الحافظ. العزيز: الغالب على امره. الجبار: الذي جبر خلقه على ما اراد، والعالى الذي لا يُنال. المتكبر: صاحب الكبرياء والعظمة المنفرد بها. الخالق: الموجد للأشياء على مقتضى الحكمة. البارئ: المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التي وضعها، والغرض الذي وجدت له. المصور: موجد الاشياء على صورها ومختلف اشكالها كما اراد. الأسماء الحسنى: الأسماء الدالة على المعاني التي تظهر في مظاهر هذا الوجود، فنظم الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته. في ختام هذه السورة الكريمة يُشيدُ الله تعالى بالقرآن الكريم، وأنه هو الإمام المرشع الهادي للمؤمنين، وان من عظمة هذا القرآن ان له قوة فائقة لو أنزل مثلها على جبل لخشع ولان من خشية الله وكلامه، وان البشر أولى ان يخشعوا لكلام الله وتلين قلوبهم فيتدبروا ما فيه ويسيروا على هديه.

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} . في حكم القرآن، وعظمة منزلته، ويهتدون بنوره الى سواء السبيل، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧] .

ثم وصف الله تعالى نفسه بجليل الأسماء والصفات التي هي سرُّ العظمة والجلال، وذكر ان عظمة القرآن جاءت من عظمة الخالق، فأورد سبحانه أحد عشر اسماً من أسمائه الحسنى فسرناها باختصار في اول هذه الآيات، فهو الإله الذي لا ربَّ غيره {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} يسبح له ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم.

وثد شرحنا التسبيح فيما مضى، وتجيء هذه التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى بحسن الختام.

٦٠ الممتحنة

٦٠١ 1

تلقون اليهم بالمودة: تودونهم وتخبرونهم بأخبارنا. يُخرجون الرسول وإياكم: من مكة. أن تؤمنوا بالله: من اجل ايمانكم بالله. سواء السبيل: الطريق القويم المستقيم. إن يثقفوكم: ان يظفروا بكم. أرحامكم: قراباتكم.

تقدم الكلام عن سبب نزول هذه الآيات، في الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، وهو صحابي من المهاجرين الذين جاهدوا في بدر (وهؤلاء لهم ميزة خاصة) وانه كتب الى قريش يحذّرهم من غزو الرسول ﷺ لمكة مع امرأة، وان الرسول الكريم كشف امره، وأرسل سيدنا علي بن ابي طالب مع عددٍ من الصحابة الكرام وأخذوا الكتاب من المرأة. وقد اعترف حاطب بذنبه، وقال للرسول عليه الصلاة والسلام: والله ما كفرتُ منذ أسلمت، ولا غششتُ منذ آمنت، لكنّي كتبت الى قريش حمايةً لأهلي من شرهم، لأنّي لست قرشياً ولا يوجد لي عشيرةٌ تحميهم. فعفا عنه وقبل عذره. والآية عامة في كل من يصانع العدو أو يُطلعه على أسرار المسلمين، او يتعاون معه. ومعناها:

يا أيها الذين آمنوا، لا تصادقوا الأعداء، فلا تتخذوا اعداء الله واعداءكم انصارا.

{تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ} .

تعطونهم المحبة الخالصة، مع أنهم كفروا بما جاءكم من الإيمان بالله ورسوله، وقد اخرجوا رسول الله واهل بيته من دياركم {أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} لأنكم آمنتم بالله ربكم. فإن كنتم خرجتم من دياركم للجهاد في سبيلي وطلب رضاي فلا تُسِرُّوا اليهم بالمحبة، أو تسربوا اليهم الاخبار، وأنا أعلم بما أسرتم وما اعلنتم.

{وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} .

ومن يتخذ أعداء الله أولياء وانصاراً فقد انحرف وضل عن الطريق المستقيم. ذلك أن هؤلاء الذين تحبونهم سرّاً، إن يظفروا بكم تظهر لكم عداوتهم، ويمدوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالأذى والقتل وبكل ما يسوؤكم. وكما متنا ان تكفروا بالله بعد إيمانكم، إنهم يودون لكم كل ضرر وأذى في دينكم ودنياكم، فكيف بعد هذا تحبونهم سرّاً، وتمدونهم بالأخبار!

ثم بين ان ما جعله بعض الصحابة من مودتهم (للمحافظة على الأهل والولد) لا ينبغي ان يقدم على المصلحة العامة، وامور الدين فقال:

{لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} .

لا ينفعكم شيء يوم القيامة، لا قراباتكم ولا أولادكم، لا ينفع المرء في ذلك اليوم الا العمل الصالح والاخلاص في دينه وإيمانه، والله تعالى يفصل بينكم يوم القيامة، فيذهب اهل النار الى النار، واهل الجنة الى الجنة، {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

قراءات:

قرأ عاصم: يفصل بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد. وقرأ حمزة والكسائي: يفصل بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد المشددة. وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو: يفصل بضم الياء وسكون الفاء وفتح الصاج مبني للمجهول. وقرأ ابن عامر: يفصل بضم الياء وفتح الفاء والصاد المشددة. فهذه اربع قراءات والمعنى واحد لان الفعل فَصَلَ يَفْصِلُ، وَفَصَلَ يَفْصِلُ بمعنى واحد.

الأسوة: بضم الهمزة وكسرها: القدوة. برأء: جمع بريء يعني متبرئين منهم. لا تجعلنا فتنة للذين كفروا: لا تسلطهم علينا فتزل البلاء علينا بأيديهم. ومن يتول: ومن يعرض.

بعد ان بين للمؤمنين خطر موالاة الكفار ولو كانوا من أقربائهم وأولادهم - جاء هنا يذكرهم بما فعل جدُّهم إبراهيم (فإن قرئش والعرب عامة يعتقدون ان نسبهم متصلٌ بإبراهيم) وكيف تبرأ هو والذين هاجروا معه من أهلهم وقومهم، وعادوهم، وتركوا لهم الديار، فهلاً تأسستم ايها المؤمنون بهذا النبي العظيم!

قد كانت لكم قدوة حسنة تقتدون بها في أبيكم إبراهيم والذين معه، حين قالوا لقومهم: تبرأنا منكم، ومن الآلهة التي تعبدونها من دوالله، لا يجعلنا بكم شيء، كفرنا بكم، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء التي لا تزول أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده. . . فلا تجاملوهم أيها المسلمون ولا تبدوا لهم الرأفة وتستغفروا لهم.

وأما قول إبراهيم لآبيه: {الْأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} فإنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه، كما جاء في سورة التوبة الآية ١١٤: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} ثم بين الله كيف ترك إبراهيم والذين معه قومهم وأوطانهم والتجأوا الى الله: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} .

ربنا قد اعتمدنا عليك في جميع أمورنا، ورجعنا اليك بالتوبة، ومصيرنا اليك. فاقصدوا بهم أيها المؤمنون. {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا} .

ربنا لا تجعلنا بحال نكون فيها فتنة للكافرين، بأن تظهرهم عينا فيفتنونا بذلك، واغفر لنا ذنوبنا، {رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} . ثم كرر ما تقدم للاقتداء بإبراهيم عليه السلام ومن معه فقال:

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} .

لقد كان لكم أيها المؤمنون في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة في معاداتكم لأعداء الله، وهذه القدوة لمن كان يرجو لقاء الله في اليوم الآخر. {وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} .

ومن يعرض عن هذا الاقتداء فقد ظلم نفسه، والله غني عن إيمانه، بل عن جميع خلقه، محمود بأياديه وآلائه. {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ . . . من الكافرين مودةً بتوفيقهم للايمان، {والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ} . وقد صدقت نبوءة القرآن ففتحت مكة، وأسلم كثير من المشركين الذين نهاهم الله عن مودتهم، ودخل الناس في دين الله أفواجا. قراءات:

قرأ الجمهور: إسوة بكسر الهمزة. وقرأ عاصم: أسوة بضم الهمزة وهما لغتان.

أن تبروهم: ان تحسنوا اليهم بكل خير. البر: كلمة تجمع معاني الخير والاحسان. تقسطوا اليهم: تعدلوا فيهم. المقسطين: العادلين. ظاهرًا: ساعدوا. ان تولوهم: ان تكونوا لهم اصدقاء واحياء وانصارا.

في هاتين الآيتين الكريمتين يضع الله لنا قاعدة عظيمة، ويبين أن دين الاسلام دين سلام ومحبة وإخاء، فيقول: من عاداكم فعادوه وقتلوه، أما الذين سالموكم ولم يقاتلوكم، ولم يخرجوكم من دياركم - فعليكم ان تسالموهم وتكرمهم، وتحسنوا اليهم، وتعديلوهم كل العدل في

معاملتكم معهم، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} العادلين.
 أما الذين حاربوكم في دينكم ليصدّوكم عنه، وأجبروكم على الخروج من دياركم، وعاونوا على إخراجكم - فهؤلاء ينهاكم الله عن أن تتخذوهم
 أنصاراً، بل قاتلوهم وشدّدوا عليهم {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .
 ولننظر الآن من هو عدونا الذي اغتصب أرضنا، وشرّد منها أهلنا وأقرباءنا، ومن من الدول التي ظاهرتُه وعاونته على إخراج أهلنا من
 أرضهم، وأمدّته بالسلاح والمال، فان هذه الدولة الكبرى هي عدونا الأول. . فاستيقظوا أيها العرب وتنبّوها واعرفوا عدوكم. والأمر
 واضح لا يحتاج الى دليل.

٦٠٠٤ 10

امتحانهم: اختبروهم. علمتموهن مؤمنات: تيقنتم من إيمانهنّ. فلا تجعوهن الى الكفار: لا ترجعهن الى أزواجهن الكفار. وآتوهن
 ما انفقوا: أعطوا الأزواج الكفار ما دفعوا من مهر لزوجاتهم. ولا جناح عليكم: لا اثم عليكم. ولا تمسكوا بعصم الكوافر: لا تبقوا
 النساء الكافرات على عصمتكم وأبطلوا عقد الزواج بهن. واسألوا ما انفقتم: اطلبوا كل ما دفعتم لهن من مهر وغيره. وليسألوا ما انفقوا:
 وليطلبوا هم (يعني الكفار) ما انفقوا على زوجاتهم اللاتي أسلمن وهاجرن اليكم. وان فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار: ان ذهب
 احدى زوجاتكم الى الكفار. فعاقبتهم: فظفرتهم وكانت العقبي لكم يعني النصر.
 في اتفاق صلح الحديبية جاء نص يقول: ان من جاء محمداً من قريش بغير إذنٍ وليّه ردّه اليه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم تردّه
 اليهم. . ومضى العهد بين الطرفين على أتمّه.

ثم جاءت نساء مؤمنات مهاجرات، وكانت أولاهن أم كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط الأموية. فقدم أخوها عمار والوليد، فكلمها رسول
 الله ﷺ في أمرها ليردها الى قريش، فنزلت هذه الآية. فلم يردها الرسول الكريم وزوجها زيد بن حارثة، ثم تزوجها الزبير بن العوام
 بعد استشهاد زيد، فولدت له زينب، ثم فارقتها فتزوجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له إبراهيم وحميда، ثم توفي عنها فتزوجها عمرو
 بن العاص فكنيت عنده شهرا وتوفيت رحم الله الجميع.

فتبين من عمل النبي عليه الصلاة والسلام ان العهد كان يشمل الرجال دون النساء. والله تعالى يقول:
 {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ} .

فاذا تبين لكم أنهنّ صادقات في إيمانهم فلا يجوز ان تردوهن الى الكفار، لأنهن: {لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} .
 {وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا} .

أعطوا الأزواج الكافرين ما انفقوا من مهر وغيره على زوجاتهم المهاجرات اليكم. ولا حرج عليكم ان تتزوجوا هؤلاء المهاجرات اذا دفعتم
 اليهن مهرهن.
 {وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ} .

اذا بقيت زوجة من الزوجات في دار الكفر ولم تسلم فلا تمسكوا بعقد زواجها وأبطلوه. كذلك اذا لحقت زوجة بدار الكفر فأبطلوا
 عقدّها، فانها تعتبر طالقة.
 {وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا} .

اذا كان لكم مهر عند زوجة في دار الكفر فلكم ان تطلبوه، واذا جاءت زوجة أحد الكفار وأسلمت وهاجرت فعلى من تزوّجها ان
 يدفع ما عليها لزوجها السابق.
 {ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} .

هذا التشريع هو حكم الله، يحكم به بينكم، فاتبعوه ولا تخالفوه، والله عليم بمصالح عباده، حكيم في كل ما يفعل.
 {وَأَن فَاتَكُمُ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا} .

إن ذهبت زوجة من زوجاتكم الى الكفار مرتدة عن دينها، ولم يردوا الى زوجها المهر الذي دفعه، ثم حارتموهم، فأعطوا الذين ذهبت زوجاتهم مثل ما انفقوا، وذلك من الغنائم التي تكسبونها من الكفار.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} امتثلوا اوامره، وتقيّدوا بأحكامه ان كنتم صادقين في ايمانكم.
 قراءات:

قرأ ابو عمرو واهل البصرة: ولا تمسكوا بفتح التاء وبتشديد السين المفتوحة. والباقون: ولا تمسكوا بضم التاء واسكان الميم وكسر السين.
 وأمسك وأمسك لغتان.

٦٠٠٥ 12

يبايعنك: يعاهدنك على الطاعة والالتزام بالاوامر واجتناب النواهي. بيّهتان: بياطل وكذب. غضب الله عليهم: طردهم من رحمته.
 يئسوا من الآخرة: يئسوا من ثوابها لأنهم لم يؤمنوا بها. كما يئس الكفار من اصحاب القبور: لانهم يعتقدون انهم لا يرجعون.
 يا ايها النبي إذا جاءك المؤمنات يعاهدنك ويقدن لك الطاعة، ويعبدن الله ولا يشركن به شيئاً، ولا يسرقن من مال احد، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن كما كان يفعل اهل الجاهلية، ولا يلحقن بأزواجهن من ليس من اولادهن بهتانا وكذباً يختلقنه بين ايديهن وارجلهن، ولا يخالفنك في معروف تدعوهن اليه - فعاهدن على ذلك، واطلب لهن المغفرة من الله، {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} يغفر الذنوب جميعاً، ويشمل عباده برحمته.

ثم كرر الله النبي هنا عن موالاته المشركين. فقد بدأ أول السورة ببناء المؤمنين ونهيمهم عن موالاته المشركين، ثم ختمت بتكرار النهي عن موالاتهم، وأن الله غضب عليهم وطردهم من رحمته. والغرض هو تحذير المؤمنين من اعداء الله، وان لا يأمنوهم على شيء، ولا يركنوا الى اكاذيبهم ودسائسهم.

ثم بين أوصافهم ومعتقداتهم بقوله: {قَدْ يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور} .
 انهم لا يرجون لقاء الله ولم يؤمنوا بالبعث، كما يئس الكفار من بعث موتاهم مرة اخرى.
 نسأل الله حسن الختام، والحمد لله رب العالمين.

٦١ الصف

٦١٠١ 1

كبر مقتاً: ما أعظمه من بغض. المقت أشد البغض، ويقال رجل مقيت وممقوت اذا كان مبغضاً للناس. بنيان مرصوص: بنيان محكم كأنه قطعة واحدة. زاغوا: انحرفوا عن الحق. أزاع الله قلوبهم: صرفها عن قبول الحق.

{سَبِّحَ لِلَّهِ} .

قدس الله ونزهه كل شيء في هذا الكون: بعضها بلسان الحال، وبعضها بلسان المقال. وقد تقدم ان كل شيء في هذا الوجود يسبح لله، ويشهد له بالربوبية والوحدانية والقدرة وغيرها من صفات الكمال، وهو الغالب على كل شيء، الحكيم في تدبير خلقه.
 وبعد ان وصف نفسه بصفات الكمال، وجه المؤمنين الى الاخلاق الفاضلة، والصدق في القول والعمل، نفاطهم بقوله:
 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} .

قال ابن عباس: كان اناس من المؤمنين يقولون: لَوَدِدْنَا ان الله دَلَّنَا على أَحَبِّ الاعمال اليه فنعمل به، فأخبر الله نبيّه ان احب الاعمال اليه ايمان بالله لا شك فيه، وجهاد في سبيله. فلها فُرِضَ الجهادُ كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقّ عليهم أمره، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ثم بين الله شدة قبح مخالفة القول للعمل وأنه بلغ الغاية في بغض الله له فقال:

{كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}

إن أبغض شيء عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون. فتحلّوا بالصدق، والوفاء بالوعد، وجميل الخصال تنتصروا. ثم مدح الذين صدقوا وقاتلوا في سبيله بعزم واخلاص فقال:

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرصُوصًا} .

ان الله تعالى يحب النظام في كل شيء، وهو يحب الذين يقاتلون في سبيله منتظمين في أماكنهم كأنهم بنيانٌ متلاحمٌ الأجزاء، كأنه قطعة واحدة، فالنظام أساس بنيان الأمة، وان وعد الله حقّ، وقد وعد المجاهدين بالنصر إذا أخلصوا وصدقوا وحافظوا على النظام. وقد سبقتنا الأمم المتحضرة بالنظام ودقة المحافظة عليه، في جميع أعمالها.

والجهاد يبدأ في البيت بالتربية الاسلامية الصحيحة البعيدة عن التزمّت والتعصب،

وفي المدرسة وفي المزارع والحقول، والتجارة، وفي المصانع، وباكتساب العلوم وإجادتها واتقان استعمالها كما اتقنها أسلافنا الأولون. فالصناعة والعلم والزراعة من الامور الضرورية في حياتنا، فاذا أتقناها بات يمكننا ان نجاهد جهادا حقيقيا، فلا جهاد إلا بعلم وعمل وتصنيع.

وبعد ان هذب المؤمنين وعلمهم ان يكونوا صادقين في أقوالهم وفعالهم، وحضّمهم على اتباع النظام في الجهاد - ذكر أن حالهم يشبه حال موسى مع قومه حين نذّبهم للقتال فلم يطيعوه، بل آذوه أشدّ الايذاء، فوبّخهم الله على ذلك بقوله تعالى:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي . . . } .

اذكر يا محمد لقومك حين قال موسى لقومه: يا قومي، لم تؤذوني وتخالفون أمري، وانتم تعلمون أنّي رسول الله اليكم؟ فأصرّوا على المخالفة والعصيان.

فلما أصرّوا على الانحراف، صرف الله قلوبهم عن الهدى {والله لا يهدي القوم الفاسقين} الذين خرجوا عن طاعته. وأتى بمثل آخر يشبه حالهم، وهو بنو اسرائيل حين قال لهم عيسى: إني رسول الله وإني مصدّق بالتوراة، وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه، واني مبشّر برسول سيأتي من بعدي اسمه أحمد، وقد جاء هذا التبشير صريحا في التوراة والانجيل.

{فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} .

فلما جاء الرسول الكريم احمد، عليه صلوات الله وسلامه، بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة، كذبوه وقالوا: هذا الذي جئتنا به سحرٌ مبين.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} [الأعراف: ١٥٧] وفي هذا تسلية لرسوله الكريم على ما أصابه من قومه ومن غيرهم من الجاحدين، وأن الانبياء من قبله نالهم الأذى وكذبهم أقوامهم. وفيه ايضا تهذيب وتربية للمؤمنين بان لا يؤذوا النبي بل يُخلصوا في إيمانهم.

الاسلام: معناه هنا الاستسلام والانقياد لأمر الله. نور الله: دينه الذي يدعو اليه الرسول الكريم. بأفواههم: يعني بأكاذيبهم وباطيلهم. والله متم نوره: والله مظهر دينه، وقد صدق. بالهدى: بالقرآن. ودين الحق: الدين الصحيح. نصر من الله وفتح قريب: فتح مكة. الحواريون: الأصفياء والخلاّان. انصار الله: الناصرون لدينه. ظاهرين: غالبين.

من أشدّ ظلماً وعدواناً ممن اختلقَ على الله الكذب، وهو يدعو الى الاسلام! لقد دعاهم الرسول الكريم الى نبذ الشرك، ودعاهم الى الايمان بالله وحده فلم يؤمنوا، وأثاروا حوله الشكوك والافتراءات، {والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} الذين يفترون على الله الكذب. ثم بين الله تعالى أنهم حاولوا إبطال الدين وردّ المؤمنين عنه، لكنهم لم يستطيعوا وخابوا في سعيهم فقال: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}.

ان هؤلاء الجاحدين من قريش، وبني اسرائيل في المدينة، والمنافقين معهم - حاولوا القضاء على الإسلام بالدسائس والأكاذيب فخذهم الله تعالى، وأظهر دينه فهو الدين القيم الذي انار الكون، وخاب سعيهم. {والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.

ثم بين الله تعالى أنه ارسل رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الذي هدى الناس وأنار الون، وبدين الاسلام الحق {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}. وقد وردت هاتان الآيتان في سورة التوبة، مع تعي ربيط في الالفاظ في الآية الأولى.

وبعد ان حث على الجهاد في سبيله، ونهى المسلمين ان يكونوا مثل قوم موسى او قوم عيسى - بين هنا ان الايمان بالله والجهاد في سبيله بالمال والنفس تجارة رابحة، لأن المجاهدين ينالون الفوز بالدنيا، فيظفر واحداهم بالنصر والغنائم وكرائم الاموال والثواب العظيم في الآخرة اذ يحظى بالغفران، ورضوان الله، والخلود في جنات عدن.

فهذه هي التجارة الربحية، الثبات على الايمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيل الله بأموالكم وانفسكم، وذلك هو الخير العظيم، ثم يتبعه الغفران، والخلود في {جَنّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} وأي فوز اعظم من هذا!! ثم أتبع ذلك كله ببشرى عظيمة يحبها المؤمنون وينتظرونها وهي:

{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}

نعمة كبرى تحبونها: النصر من الله، وفتح مكة. وهو آت قريب. وقد أنجز الله وعده.

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} يا محمد بهذه النعم، وان الله تعالى نصرهم لأنهم آمنوا حقيقة، وجاهدوا جهاداً كبيراً ولم ينتظروا من أحد ان يساعدهم وهم قاعدون. كما يفعل العرب والمسلمون اليوم.

ثم امر الله تعالى المؤمنين ان يعملوا ويجدوا ويكونوا انصار الله في كل حين، فلا يتخاذلوا ولا يتناحروا ويتحاربوا، وان لا يتوكلوا فيقعدوا ويطلبوا النصر، بل عليهم ان يعملوا ويجاهدوا حتى يكتب الله لهم النصر. فقالك

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ} فاستعدوا وأعدوا من قوتكم ما استطعتم، ولا تنتظروا من أعدائكم ان يحلوا لكم قضيتكم وينصروكم. وكيف ينصرونكم والبلاء منهم، وهم الذين يدعمون عدوكم ويمدونه بالمال والسلاح!!

وخلاصة القول: كونوا أنصار الله في جميع أعمالكم وأقوالكم واستعدوا دائماً، كما استجاب الحواريون لعيسى.

{فَأَمْنَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}.

وانتم أيها المسلمون في هذا العصر اذا كنتم تريدون ان تبقوا في بلادكم وان تستردوا الاراضي المقدسة وما اغتصب من وطنكم، على يد اليهود والدولة الكبرى حليفهم والمؤيدة لهم - فجاهدوا جهاداً حقيقياً في سبيل الله ينصركم الله، وتصبحوا ظاهرين غالبين. قراءات:

قرأ ابن كثير وحمره والكسائي وحفص وخلف: مَمَّ نوره بضم الميم والاضافة بجر نوره. والباقون: مَمَّ نوره بتنوين مَمَّ، ونصب نوره. وقرأ ابن عامر: نَجَّيْكُمْ من عذاب أليم بفتح النون الثانية وبتشديد الجيم. والباقون: نَجَّيْكُمْ بضم النون الأولى واسكان الثانية وكسر الجيم دون تشديد. وقرأ ابن كثير ونافع وابو عمرو: كونوا انصارا لله بالتنوين. وقرأ الباقر: كونوا انصار الله بالاضافة. وقرأ نافع وحده: من انصاري الى الله بفتح الياء. والباقر: انصاري الى الله.

٦٢ الجمعة

٦٢٠١ 1

القدّوس: صفة من صفات الله ومعناها: المنزه عن النقائص. الأميون: هم العرب، لأنهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة إلا نسبة قليلة منهم. يزكّهم: يطهرهم من الشرك وآخرين لما يلحقوا بهم: وغيرهم من الناس سيأتون بعدهم. يسبّح لله وينزهه عما لا يليق به كل ما في هذا الوجود من بشر وحيوان وشجر وجماد، هو الملك القدّوس المنزه عن النقائص، المتصف بالكمال، {العزیز الحكيم}.

والله تعالى هو الذي ارسل رسوله محمداً ﷺ من العرب الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون، كي يتلو عليهم القرآن، ويزكّهم بالاخلاق الفاضلة ويطهرهم من الشرك وعبادة الاوثان، ويعلمهم الشرائع والعلم النافع ليقودوا العالم وينشروا القيم الفاضلة في الشرق والغرب. وقد كان ذلك من أولئك الأميين بفضل الاسلام وتحت راية القرآن.

{وَأَن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}

وأي ضلال اكبر من عبادة الاصنام وإتيان الفواحش، كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يخاطب النجاشي ملك الحبشة لما هاجروا اليه:

«أيها الملك كما قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا الى الله لنوحده ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الامانة وصلة الرحم، وحسن الوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا ان نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.»

{وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

وبعثه الله تعالى الى جماعات آخرين من العرب وغيرهم من جميع العالم لم يحيثوا بعد، سيأتون ويحملون مشعل الهداية وينشرون نور الاسلام في مشارق الارض ومغاربها. وهذا يعني أن هذه الأمة المباركة موصولة الحلقات ممتدة في جميع اطراف الأرض على مدى الزمان، تحمل هذه الأمانة وتخرج الناس من الظلمات الى النور. والتاريخ شاهد على ذلك، وهذه الآية من دلائل النبوة، ومن الأدلة على ان القرآن من عند الله.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} والله ذو العزة والسلطان.

{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}

إن ذلك الاختيار من الله، اختيار رسوله الكريم في هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس - فضل كبير من الله لا يعدله فضل، وتكريم كبير لأمة الاسلام السابقين واللاحقين منهم.

نسأل الله تعالى ان يرد زعماء هذه الأمة الى دينهم، ويبصرهم شئون أمتهم ويهديهم سواء السبيل.

حُمِلُوا التَّوْرَةَ: عَلِمُوا وَأَمَرُوا أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا. ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا: لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا. الْأَسْفَارُ: جَمْعُ سِفَرٍ وَهِيَ الْكُتُبُ، السِّفَرُ الْكِتَابُ. هَادُوا: تَهَوَّدُوا يَعْنِي: الْيَهُودَ. أَوْلِيَاءُ اللَّهِ: أَحِبَّاءُ اللَّهِ. بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ: بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ وَكَفَرِهِمْ. الْغَيْبُ: مَا غَابَ عَنْهُ عَنِ الْخَلْقِ. وَالشَّهَادَةُ: مَا شَهِدُوهُ وَعَلِمُوهُ.

الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ عَنِ الْيَهُودِ وَكَذِبِهِمْ، وَتَعْثُّتِهِمْ، وَتَبَجُّحِهِمْ، فَبَعْدَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِرْسَالِ رَسُولٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. قَالَ الْيَهُودُ: إِنَّ هَذَا الرَّسُولَ لَمْ يُبْعَثْ إِلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ يَرِدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَقَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَوْ عَمِلُوا بِالتَّوْرَةِ وَفَهَمُوا حَقَّ الْفَهْمِ، لَرَأَوْا فِيهَا وَصْفَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَالْبَشَارَةَ بِهِ، وَانَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ، لِأَنَّهُ رَسُولٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ.

وَمَا مِثْلُهُمْ فِي حَمْلِهِمُ لِلتَّوْرَةِ وَتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ بِهَا إِلَّا كَمِثْلِ الْخِمَارِ الَّذِي يَحْمِلُ الْكُتُبَ وَلَا يَفْهَمُ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَجِدِيهِ حَمْلُهَا نَعْفًا. ثُمَّ زَادَ فِي تَوْيِيحِهِمْ بِقَوْلِهِ:

{يَسْئَلُ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} .

وَكَيْفَ يَهْتَدُونَ وَهُمْ مُتَكَبِّرُونَ وَقَدْ رَانَ الضَّلَالُ عَلَى قُلُوبِهِمْ؟ .

ثُمَّ زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَوْيِيحِهِمْ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي الْغِيِّ وَالضَّلَالِ بِأَنْ تَحْدَاهُمْ أَنْ يَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِذَا كَانُوا صَادِقِينَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ وَحْدَهُمْ أَحِبَّاءُ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ. فَقَالَ:

{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيََاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: أَيُّهَا الْيَهُودُ، إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّكُمْ، وَأَنَّكُمْ أَحِبَّاءُ اللَّهِ وَحَدِّكُمْ، فَتَمَنَّوْا مِنْ اللَّهِ الْمَوْتَ حَتَّى تَذْهَبُوا إِلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَتَلَاَقَوْا رَبَّكُمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَنْ يَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ أَبَدًا، لَمَّا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى النَّاسِ، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَوْتَ عَاقِبَةُ كُلِّ حَيٍّ، لَا مَهْرَبَ مِنْهُ فَقَالَ:

{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: إِنَّكُمْ مَيِّتُونَ، وَلَا مَهْرَبَ لَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ، ثُمَّ تُرْجَعُونَ إِلَىٰ خَالِقِكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ، فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وَتَحَاسِبُونَ عَلَىٰ كُلِّ مَا قُلْتُمُوهُ وَعَمَلْتُمُوهُ. وَأَيُّ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ أَشَدَّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ!!

إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلَاةِ: إِذَا أُذِّنَ لَهَا. فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ: فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ. وَذَرُوا الْبَيْعَ: أَتْرَكُوهُ. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ: أُدِّيَتْ وَانْتَهَتْ. فَانْتَشَرُوا: فَتَفَرَّقُوا فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَالْعَمَلِ. اللَّهُ: كُلُّ مَا يُلْهِى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. انْفَضُّوا: انْصَرَفُوا.

الْحَدِيثُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَهِيَ رَكْعَتَانِ بَعْدَ خُطْبَتَيْنِ يُلْقِيهِمَا الْإِمَامُ، وَهِيَ فَرَضٌ عَيْنٌ، وَقَدْ ثَبَتَتْ فَرَضِيَّتُهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ.

وَتَجِبُ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمُسْلِمِ الْحُرِّ الْعَاقِلِ الْبَالِغِ الْمُقِيمِ الْقَادِرِ عَلَى السَّعْيِ إِلَيْهَا، وَلَا تَجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَالصَّبِيِّ، وَالْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ، وَكُلِّ مُعْذَرٍ مَرَّخَصٍ لَهُ فِي تَرْكِ الْجُمُعَةِ، كَعُذْرِ الْمَطَرِ وَالْوَحْلِ وَالْبَرْدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا تَصَحُّ إِلَّا جَمَاعَةً.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي فَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَفَضْلِ الصَّلَاةِ فِيهَا، وَالْحَثِّ عَلَيْهَا وَالِاسْتِعْدَادِ لَهَا بِالْغَسْلِ وَالثَّيَابِ النَّظِيفَةِ وَالطَّيِّبِ. وَيَجُوزُ لِلنِّسَاءِ وَالصَّبِيَةِ أَنْ يَحْضُرُوا الْجُمُعَةَ، فَقَدْ كَانَتْ النِّسَاءُ تَحْضُرُ الْمَسْجِدَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ وَتُصَلِّيُ مَعَهُ. وَمَنْ صَلَّى الْجُمُعَةَ سَقَطَتْ عَنْهُ فَرِيضَةُ الظُّهْرِ، وَمَنْ أَرَادَ زِيَادَةً فَلْيَرْجِعْ إِلَى كُتُبِ الْفَقْهِ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ}

يا أيها الذين آمنوا: إذا أُذِّن للصلاة يوم الجمعة فاذهبوا إلى المسجد لحضور الصلاة وذكر الله، واركعوا البيع وكل عمل من الأعمال، وامشوا إلى الصلاة بسكينة ووقار، ولا تسرعوا في مشيكم. والأفضل أن يترك الإنسان بالذهاب إلى المسجد، فإذا لم يستطع فليمشي الهويناء. فقد روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: فلا تفعلوا، إذا اتيم فامشوا وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا.»

{ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

ذلك الذي أمرتم به أنفع لكم إن كنتم من ذوي العلم الصحيح، فصلاة الجمعة عبادة من العبادات الممتازة لأنها تنظم المسلمين وتعودهم على النظام، وفيها الخطبة فيها موعظة حسنة وتعليم للمسلمين بما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

روى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة، ومس من طيب أهله إن كان عنده، وليس أحسن ثيابه، ثم خرج يأتي المسجد، فركع إن بدا له، ولم يؤذ أحدا، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى.»

{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} .

فإذا أديتم الصلاة فتفرقوا في الأرض لمتابعة أعمالكم ومصالحكم الدنيوية التي فيها معاشكم، واطلبوا من فضل الله ما تشاءون من خيري الدنيا والآخرة، واذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم كثيرا، لعلكم تفوزون بالفلاح في الدنيا والآخرة.

هذا هو روح الاسلام: الجمع بين المحافظة على الجسم والروح معا، وهذا هو التوازن الذي يتسم به الدين الاسلامي، كما جاء في قوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٧٧] . هل هناك أجمل وأحلى من هذا الكلام؟ .

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} .

روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قدمت عير (ابل محملة طعاما وغني رذلك من الشام) فابتدرها الناس حتى لم يبق في المسجد الا اثنا عشر رجلا أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا} . . .

والذي قدم بهذه التجارة دحية الكلبي من الشام، وكانت العادة إذا قدمت هذه العير يضرب بالبطل ليؤذن الناس بقدمها، فيخرجوا لابتاعها منها، فيخرج الناس. فصادف مجيء هذه العير وقت صلاة الجمعة، فترك عدد من المصلين الصلاة وذهبوا إليها. فعاتبهم الله على ذلك وافهمهم ان اصلاة لها وقت محترم ولا يجوز تركها. ثم رغبهم في سماع العظات من الأئمة وان الله عنده ما هو خير من اللهو ومن التجارة، فقال:

{قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}

فاطلبوا رزقه وتوكلوا عليه، ولا يأخذ كل انسان الا ما كتب له. والله كفيل بالأرزاق للجميع.

وكان عراك بن مالك، رضي الله عنه، اذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين. عراك هذا من التابعين من الفقهاء العلماء.

المنافق: هو من يُظهر الايمان ويبطن الكفر. جنة: بضم الجيم، وقاية. طبع: ختم عليها. لا يفقهون: لا يعلمون. تعجبك اجسامهم: لصباحتها وتناسب اعضائها. تسمع لقولهم: لفصاحتهم وحسن حديثهم. خشب مسندة: جمع خشبة، يعني انهم اجسام فارغة لا حياة ليها. يحسبون كل صيحة عليهم: فهم لشعورهم بالذنب وبحقيقة حالهم، يظنون أن كل صوت او حركة عليهم. قاتلهم الله: لعنهم الله وطردهم من رحمته.

يؤفكون: يصرفون عن الحق. لووا رؤوسهم: أمالوها استهزاء. يصدّون: يعرضون.

لقد وصف الله تعالى المنافقين هنا بأوصاف قبيحة في منتهى الشناعة، فهم كذّابون يقولون غير ما يعتقدون، قد تَسَوَّروا بأيمانهم، يحلفون كذبا بالله سَتَرًا لنفاقهم وحقناً لدمائهم، وهم يصدّون الناس عن الاسلام، ويأمرونهم أن لا ينفقوا على المسلمين. وانهم جُبْناء، فرغم ضخامة أجسامهم، وفصاحة ألسنتهم يظلون في خوف دائم، يظنون كل صيحة عليهم.

ولذلك كشف أمرهم هنا بوضوح فقال تعالى:

{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} .

فالله تعالى يخبر الرسول الكريم أن المنافقين عندما يأتون اليه ويحلفون عنده بانهم مؤمنون به - يكونون غير صادقين، والله يعلم ان سيدنا محمداً رسول الله، ولذلك أكد بيان كذبهم بقوله:

{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}

كذبوا فيما أخبروا به، لأنهم لا يعتقدون ما يقولون، {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٦٧] .

ثم بين انهم يحلفون كذباً بأنهم مؤمنون حتى يصدّقهم الرسول الكريم، ومن يغترّ بهم من المؤمنين.

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

جعلوا أيمانهم الكاذبة وقايةً وستراً لهم من افتضاح امرهم، فصدوا الناس عن سبيل الله. فما أقبح ما هم عليه من الكفر والكذب!!

ثم بين الله تعالى انهم آمنوا بالاسلام قولاً ظاهراً، ولكنهم كفروا به عملاً، فطبع الله على قلوبهم {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} .

ثم وصف هيئاتهم الظاهرة والباطنة، فأجسامهم في الظاهر حسنة تُعْجِبُ الناس، ومنطقهم حسن، ولكلامهم حلاوة، أما في الباطن فهم خُشْبٌ لا فائدة فيها، اشباح بلا ارواح، فسدت بواطنهم، وحسنت ظواهرهم.

ثم وصفهم بالجن والذلة اذا سمعوا اي صوت او حركة ظنوا انهم المقصودون، وان أمرهم قد افْتُضِحَ: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} وأنهم هالكون لا محالة. {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ} ايها الرسول ولا تأمنهم ابداً.

ثم زاد في ذمهم وتوبيخهم فقال:

{قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} لعنهم الله وطردهم من رحمته كيف يُصْرَفُونَ عن الحق الى ما هم عليه من النفاق.

ولما افْتُضِحَ امرهم ونزل القرآن بصفتهم - جاءهم اقرباؤهم، وقالوا لهم: افترضتم بالنفاق، فتوبوا الى الله واذهبوا الى الرسول واطلبوا ان يستغفر لكم، فأمالوا رؤوسهم استهزاء واستكباراً، ولم يقبلوا ذلك.

ثم بين الله ان هؤلاء المنافقين لا فائدة منهم، ولن ينفع معهم أي شيء بقوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} .

فلاستغفار وعدمه سيان، لا يُجديهم نفعاً، لأن الله كَتَبَ عليهم الشقاء، بما كسبت أيديهم.

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي: خشب باسكان الشين. والباقون: خشب بضم الخاء والشين. وقرأ نافع: لولا رؤوسهم بفتح الواو الأولى بلا تشديد، والباقون: لولا رؤوسهم بتشديد الواو الأولى المفتوحة.

٦٣.٢ 7

حتى ينفضوا: حتى يتفرقوا. ليخرجن الأعز منها الأذل: يعني ان المنافقين هم اصحاب العزة، والمسلمين هم الاذلاء كما يزعمون. لولا أخرتني: هلا أخرتني.

عندما غزا رسول الله ﷺ بني المصطلق (وهم قوم من خزاعة من القحطانيين) وهاجمهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد قرب الساحل - هزمهم وساق إبلهم واموالهم ونساءهم سبايا. وكان في تلك الغزوة رأس المنافقين عبد الله بن أبي. وقد وقع شجار بين غلام لعمر بن الخطاب وغلام لعبد الله بن أبي، وكاد يقع شر كبير بين المهاجرين والانصار لولا ان تدخل الرسول الكريم وحسم الخلاف وسار بالناس باتجاه المدينة.

في هذه الاثناء قال عبد الله بن أبي: لقد كثرنا المهاجرون في ديارنا، والله ما نحن وهم الا كما قال المثل: «سَمِّنْ كَبْكَ يَا كَلْكُ» أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم قال لأتباعه: لو أمسكتكم عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تتفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال له: فكيف اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟

ثم قال رسول الله لعبد الله بن أبي: أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني، قال: والله الذي انزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك، وان الذي بلغك لكاذب. فنزلت هذه الآيات.

{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا} .

هؤلاء المنافقون - عبد الله بن أبي وأتباعه - يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله من المؤمنين حتى يتفرقوا عنه، {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ولكنهم نسوا ان الله هو الرزاق، وله جميع هذا الكون وما فيه من ارزاق يعطيها من يشاء، {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} لجهلهم بسنن الله في خلقه، وانه كفل الارزاق لعباده في اي مكان كانوا متى عملوا وجدوا في الحصول عليها.

وهم الذين {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} يعني بذلك عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} فالله له العزة والغلبة، ولن اعزه الله من الرسول الكريم والمؤمنين، {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} .

روي ان عبد الله بن عبد الله بن أبي، وكان من خيار الصحابة المؤمنين عندما اشرف على المدينة وقف وسل سيفه وقال لابي: الله علي ان لا أغمده حتى تقول: محمد الأعز وأنا الأذل. فلم يبرح حتى قال عبد الله بن أبي ذلك.

وبعد ان بين حال المنافقين وفضحهم وكشف دسائسهم ومؤامراتهم اتجه الى المؤمنين يؤدبهم بأدب القرآن، ويذكرهم بان الاموال والاولاد والدنيا بأسرها لا قيمة لها من غير إيمان خالص، وانفاق في سبيل الله، وان كل انسان له اجل لا بد منته اليه، والله خير بما يعملون.

فعلى المؤمنين ان لا يكونوا مثل المنافقين، فلا تلهيهم اموالهم ولا اولادهم عن ذكر الله آناء الليل واطراف النهار، وعليهم ان يؤدوا ما فرض عليهم من العبادات. ثم أمرهم ان ينفقوا اموالهم في سبيل الله، ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا حيث لا ينفع الندم، فيقول احدهم: {رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} . ولكل نفس اجل لا تعدوه، وعمر لا يزيد ولا ينقص {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} فعليكم ان تستعدوا للرحيل قبل حلول الأجل، وهيثو الزاد ليوم المعاد. {فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ

التقوى} [البقرة: ١٩٧] .

ثم حذرنا جميعا وانذرنا بانه رقيب على الجميع في كل ما يأتون ويذرون فقال: {والله خبيرٌ بما تعملون} . وهكذا يرينا الله تعالى بهذا القرآن الكريم.
قراءات:

قرأ الجمهور: فاصدق وأكن بجزم أكن على محل اصدق. كان الكلام هكذا: ان اخرتني اصدق واكن. وقرأ ابو عمرو وابن محيصن ومجاهد: واكون بالنصب عطفا على اصدق، والله أعلم، والحمد لله وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

٦٤ التغابن

٦٤.١ 1

ذات الصدور: الضمائر والسرائر. النبأ: الخبر الهام. وبال أمرهم: عاقبة اعمالهم السيئة، وأصل الوبال: الثقل والشدة، والوابل: المطر الشديد، والطعام الوبيل: الطعام الثقيل على المعدة. البينات: المعجزات.

تقدم الكلام على معنى التسبيح، وإن كل شيء في الوجود يسبح لله، وله الحمد على جميع ما يخلق ويقدر لأنه مصدر الخيرات، ومفيض البركات.

{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .

له قدرة مطلقة لا تتقيد بقيد.

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ . . .}

هو الذي خلقكم أيها الناس، فنكم من كفر وحمد الألوهية، ومنكم المؤمن المصدق، وفي الحديث الصحيح: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه» .

{والله بما تعملون بصير}

فهو رقيب على المخلوقات فيما تعمل، فيجازيهم على اعمالهم.

ثم ذكر النعمة الشاملة بخلق العالم كله على أتم ما يكون من الحكمة والعدل فقال:

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} .

خلق هذا الكون بالحكمة البالغة، وصوّر بني الانسان في أحسن تقويم، واليه المرجع يوم القيامة فينبئكم بأعمالكم، ويذهب كل إنسان الى مصيره المحتوم.

ان عليه محيط بهذا الكون العجيب لا تخفى عليه خافية، وإن علمه ليخترق الأنفس فيعلم ما في نفوسكم مما تُسرون وتعلنون، {والله عليم بذات الصدور} فلا تخفى عليه خافية.

الم تبلغكم أيها الجاحدون اخبار الأمم السابقة من قبلكم كقوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم من الأمم التي أصرت على الكفر والعناد، كيف حلّ بهم أشد العقاب والدمار، ولهم في الآخرة عذاب أشد وأعظم!؟

لقد اصابهم ما اصابهم من العذاب لأنهم كانت تأتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة فأنكروا ذلك أشد الانكار وقالوا {أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا؟} يرشدوننا وهم مثلنا!! فانكروا بعثهم {وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ عَنْهُمْ}، {والله غنيٌ حميدٌ} فهو غني عن الخلق أجمعين، وهو الحقيق بالحمد على ما انعم به على عباده من النعم التي لا تُعد ولا تحصى.

زعم فلان كذا: ادّعى علمه بحصوله، واكثر ما يُستعمل الزعم للادّعاء الباطل. النور: هو القرآن الكريم. يوم الجمع: يوم القيامة. يوم التغابن: هو يوم القيامة، وسُمي بذلك لأن أهل الجنة تغيب فيه أهل النار بما يصير إليه أهل الجنة من النعيم وما يلقي أهل النار من العذاب في الحميم. وأصل الغَبْن: النقص، غبن فلان فلاناً في البيع: نقصه حقه. والخلاصة أنه في ذلك اليوم يظهر الريح والخسران، فيربح المؤمنون، ويخسر الجاحدون الكافرون.

{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا. . .}

في الآيات السابقة ذكر الله إنكار المشركين للألوهية، ثم إنكارهم للنبوة، وبين ما لقيه المنكرون وما سيلقون. وهنا يبين إنكارهم للبعث والجزاء، فقل لهم يا محمد: ليس الأمر كما زعمتم، إني أقسم بربي لتبعثن بعد الموت، ولتجزون بما عملتم في الدنيا وتحاسبون عليه، {وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، فهو كما خلقكم سيُعِيدكم.

ثم بعد ان بين لهم الحقائق طالِبهم بالإيمان، وذلك لمصلحتهم ولخيرهم فقال:

{فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا} ما دام البعث حقاً، فصدقوا ايها الناس بهذا الإله العظيم وبرسوله الكريم، وبهذا القرآن الذي هو نور أضاء الكون بهديه، واخرج العالم من الظلمات الى النور، {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} فلا تخفى عليه اعمالكم. ثم أُنذر بأنه تعالى يجمعهم يوم القيامة، يوم يظهر ربح الراجحين وخسران المبطلين فقال:

{يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}

في ذلك اليوم يغيب الكافرون ويربح المؤمنون، وما أعظمه من ربح!! انه لا غبن أعظم من ان قوما ينعمون، وقوما يعذبون، ذلك هو الخسران المبين. ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يذهب عنه سيئاته {وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده، {فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥].

ثم بين الله تعالى الجانب المقابل وهم أهل النار فقال:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} .

فهؤلاء جزاؤهم النار لكفرهم وتكذيبهم الرسل وإنكارهم المعجزات، وبئس النار مصيراً لهم.

وبعد ان بين مصير الناس وأنهم قسمان: كافر بالله مكذب لرسله ومصيرهم النار، ومؤمن بالله ومصدق لرسله ويعمل الصالحات فهو من أهل الجنة - بين هنا أمراً عظيماً بقوله:

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. . .}

ان ما يصيب الانسان من خير او شر إنما يكون بقضاء الله وقدره بحسب النظم التي وضعها للكون. فعلى الانسان ان يجدد ويعمل، ثم لا يبالي بعد ذلك بما يأتي به القضاء. على المرء ان يبذل جهده ويسعى في جلب الخير ودفع الضر ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وان يتوكل على الله ويؤمن به خالص الايمان.

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فالإيمان يضيء القلب ويشرح الصدر لخير العمل، وأي نعمة أعظم من هذه النعمة!! . ثم يا ايها المؤمنون أطيعوا الله فيما كلفكم به، وأطيعوا الرسول فيما بلغ عن ربه، فإن أعرضتم فلن يضره إعراضكم {فَأَتِمَّا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغَ الْمُبِينِ} . وقد تقدم مثل هذه الآية اكثر من مرة.

ثم بين الله تعالى تفرده بالملك والخلق والقدرة، وأن علينا ان نتوكل عليه

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون} .

توكلنا على الله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قراءات:

قرأ يعقوب: يوم نجمكم بالنون، والباقون: يجمعكم بالياء.

٦٤.٣ 14

فتنة: بلاء ومحنة توقع في المهالك. ومن يوق شح نفسه: ومن يحفظ نفسه من البخل. الشح: البخل مع الحرص. ان تُقرضوا الله: ان تصدقوا على المحتاجين من الناس. شكور: يثيب الشاكرين.

بعد ان أمر الله تعالى المؤمنين بطاعة الله والرسول الكريم، وان يتوكلوا عليه، ولا يعتمدوا غير ذلك - جاء هنا في هذه الآيات الكريمة يهذبهم ويعلمهم بالطف توجيهه، أنّ الأولاد والزوجات فتنة للانسان اذا ما شغل بهم وانصرف يجمع المال لهم ويكدّسه، لا هم له الا النفقة عليهم - بات مثل الحيوان في الغاب، فان الأسد يفترس حتى يطعم عياله، وكذلك بقية الحيوانات.

فالله تعالى يهذبنا ويعلمنا بأن علينا ان نعين المحتاجين، ونعمل الخير ونساعد في أعمال البر وبناء مجتمعنا، فلا نعيش لأنفسنا فقط. {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}

فارعوهم حق الرعاية، وأدبوهم أحسن تأديب، واحذروا ان يخرج بعضهم عن الطاعة، وتلطفوا معهم. ولذلك قال: {وَأَنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

ما أرحمه وما اعظمه! كيف يعلمنا ويهذبنا، بان نكون هينين لينين مع أولادنا وأزواجنا وبذلك تتم السعادة.

وان كثيراً من الناس يكونون في البيت مصدر شر وإزعاج لزوجاتهم وأولادهم، وفي خارج البيت من أطف الناس وأرحبهم صدراً، هؤلاء شر من الحيوانات.

ثم كرر الله تعالى التحذير فقال:

{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}

فاحذروهم ولا تلهيكم أموالكم وأولادكم عن عمل الخير، والسعي في سبيل الله. إن كثيراً من أصحاب الأموال ساهون لاهون عن عمل الخير، كل همهم أنفسهم وأولادهم وزوجاتهم.

وفي الحديث الصحيح: «ان لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال» رواه احمد والترمذي وغيرهما عن كعب بن عياض. وهذا ما يجري اليوم، وقد فتح الله على الأمة العربية ابواب الخيرات وجاءهم المال بدون حساب، وراهم يبدرونه على أنفسهم ومُتَعِهِمْ ولا ينفقون منه في سبيل الله والدفاع عن أوطانهم والاستعداد لعدوهم الذي يهدد كيانهم، بل يكدسون المال عند الاعداء، ولا ينتفع منه الا العدو، هدام الله.

{وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}

لمن آثر محبته على محبة المال والأولاد، ونفع به المحتاجين، وأنفق منه في سبيل الله والوطن.

ثم يعلمنا وينبها الى ان نستيقظ ونعمل بقدر ما نستطيع فيقول:

{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا}

فالتقوى تكون بالعمل الصالح المفيد، والانقياد لأمر الله والرسول. اهتدوا بهدي الاسلام ايها المؤمنون، وجودوا بالمال قبل ان تذهبوا ولا تأخذوا منه شيئاً، ويبقى للورثة يختصمون فيه.

{وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ}

هنا يكرر الأمر بالانفاق من الاموال، لأنكم ايها المؤمنون ستندمون اذا ذهبتم وتركتم وراءكم الأموال مكدسة، لم تنفقوا بها الفقراء والمحتاجين، ولم تبدلوا منها للمصلحة العامة والجهاد في سبيل الله.

ثم زاد الحث على الانفاق بأسلوب لطيف فقالك
 {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} .

والسعيد منكم أيها الناس هو الذي يتغلب على نفسه ويتقي بخلفها الشديد، فينفق في سبيل الله، وفي سبيل وطنه وأمته، فيكون من المفلحين في الدنيا والآخرة.

ايها الناس، ان الاغنياء في الغرب ينفقون معظم ثرواتهم على عمل الخير، على البحث العلمي الذي هو مفقود عندنا، وعلى المستشفيات والجامعات والمصالح الخيرية. والاغنياء عندنا ينفقون على أنفسهم ويبدرون اموالهم في الأعراس والحفلات التي تغضب الله، وعلى ملذاتهم وشهواتهم ومقامراتهم ومغامراتهم مما لا يجدي نفعاً. {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء: ٢٧] .

ثم تطف جلاً جلاله وبالع في الحث على الانفاق بقوله تعالى:

{إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} .

هل يوجد أجمل من هذا الاسلوب! والله تعالى هو الغني، له كل ما في السموات والارض، ولكنه يطلب ان نجود بالمال على الفقراء والمحتاجين، في بناء مجتمعتنا وفي سبيل الله حتى سمي ذلك قرضاً. وهو الغني عن العالمين. والله يضاعف للمنفق الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف، ويغفر لكم ما فرط من ذنوبكم، والله عظيم الشكر والمكافأة للمحسنين، حلیمٌ فلا يعجل بالعقوبة على المذنبين.

{عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

ختم هذه السورة الكريمة بأحسن ختام وألطف تعبير، وهو ذو العزة والقدرة يضع كل شيء في موضعه، ويصرف كل شيء بأمره وحكمته وتديره.

٦٥ الطلاق

٦٥.١ 1

اذا طلقتم النساء: اذا اردتم ان تطلقوا النساء، وهذا التعبير جاء في القرآن مثل قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: ٩٨] يعني اذا اردت ان تقرأ القرآن. فطلقوهن لعدتهن: يعني طلقوهن بعد طهر من الحيض دون ان تمسوهن حتى لا تطول عليهن العدة، والعدة هي الزمان الذي يجب على المرأة ان تبقى فيه دون ان تتزوج. وأحصوا العدة: اضبطوها، حتى يتبين ان المرأة ليست حاملاً. فاحشة مبينة: معصية ظاهرة، مثل الزنا او السرقة او ان تطيل لسانها على أقارب زوجها وغير ذلك. حدود الله: شرائعه. فاذا بلغن أجلهن: اذا اتمن العدة.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ . . .}

وجه الله تعالى الخطاب الى النبي الكريم ليفهم المؤمنون جميعاً، أن يتقيدوا بأحكام الشريعة، فاذا اراد احد ان يطلق زوجته فإن عليه ان يراعي وقت طهرها من الحيض فيطلقها وهي طاهرة حتى لا تطول عليها مدة العدة. ثم أكد ذلك بقوله تعالى: {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} اعرفوا ابتداءها وانتهاءها. {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ} بحافظتكم على أوامره، لأنها لمصلحتكم.

ثم بين لنا أشياء يجب ان نتبعها محافظةً على تماسك الأسرة ودوام حياتها فقال: {لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ} يعني ان المطلقة تبقى في بيتها حتى تنقضي العدة. وهناك حكمة بالغة في إبقاء المطلقة في بيتها، وهي: عسى ان يراجع الزوج رأيه، ويعاود أمره، فيراجع زوجته وتعود الحياة الى مجراها الطبيعي. وفي ذلك مصلحة كبرى للطرفين.

{وَلَا يَخْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ}

ولا يجوز ان يخرج المطلقة من بيتها إلا اذا انتهت العدة، فلا تأذنوا لمن بالخروج اذا طلبن ذلك، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن، ولكنه استثنى من لزوم البقاء في بيوت الزوجية اذا دعت الضرورة لذلك كأن فعلت ما يوجب حداً كالزنا او السرقة او أطالت اللسان على الأحماء ومن في البيت من سوء خلقها، فيحل عند ذلك إخراجها من البيت.

ثم بين الله تعالى عاقبة تجاوز حدود الله فقال:

{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ}

هذه التي بينها لكم من الطلاق للعدة واحصائها وما يترتب على ذلك.

{وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} بعدم تمسكه بأوامر الله وشرعه.

ثم لمح الى حكمة بقاءها في البيت فقال:

{لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} .

أنت لا تعلم ايها المرء ماذا يحصل، ولا تعلم ان الله يقلب القلوب، فيجعل في قلبك محبةً لها، فتندم على طلاقها وفراقها، ولعلك تراجعها وتعود المياها الى مجاريها.

روى البخاري ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهم «انه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله، فتغيظ منه ثم قال: ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فإن بدا له ان يطلقها فليطلقها قبل ان يمسه، فتلك العدة التي أمر الله ان تطلق لها النساء.

والشريعة الإسلامية، وان اباحت الطلاق - قد بغضت فيه وقبحته وبينت انه ضرورة لا يلجأ إليها الا بعد استنفاد جميع الوسائل لبقاء رباط الزوجية الذي هو أوثق رباط، والذي حبب فيه وجعلته من أجل النعم، وسماه الله تعالى: {مِيثَاقًا غَلِيظًا} [النساء: ٢١] والأحاديث كثيرة على التحذير من الطلاق والبعد عنه ما امكن للضرورة.

{فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} .

بعد أن أمر الله تعالى بأن يكون الطلاق حسب ما أمر به وان يكون طليقة واحدة رجعية، ومنع خروج المطلقة من المنزل او اخراجها الا اذا أتت بفاحشة، ونهى عن تعدي تلك الحدود حتى لا يحصل الضرر والندم - خير هنا الرجل بين أمرين إذا شارفت عدة امرأته على الانتهاء: إما ان يراجعها ويعاشرها بالمعروف والإحسان، وإما أن يفارقها مع أداء حقوقها التي لها ويكرمها بقدر ما يستطيع.

ثم أمر بالإشهاد على ذلك فقال:

{وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} .

يعني اذا راجع المرء زوجته عليه ان يشهد اثنين من العدول، واذا فارقها كذلك. وخاطب الشهود بأن يشهدوا على الحق ويؤدوا أمانتهم، وهي الشهادة، على وجهها خالصة لله.

{ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} .

هذا الذي امرتكم به من امر الطلاق يتعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فيعمل به ولا يخرج عن طاعة الله.

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}

ومن ثم يأتي الله تعالى بهذا الكلام اللطيف المطمئن، يخبر فيه جلّ جلاله ان من يخشى الله ويتقيه ويتقيد بأوامر الشريعة يجعل له مخلصاً من كل ضيق في الدنيا والآخرة، ويهيئ له من اسباب الرزق من حيث لا يخطر له على بال.

فالتقوى ملاك الأمر عند الله، وبها نيطت السعادة في الدارين.

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال: أجمع آية في القرآن: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} وان اكبر آية في القرآن فرجاً: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} .
{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} .

ومن أخذ بالاسباب واخلص في عمله وتوكل على الله فان الله تعالى يكفله ويكفيه ما أهمه في دنياه واهواه . وهكذا يجب ان تفهم هذه الآية الكريمة، فليس معنى التوكل ان يقعد المرء ولا يعمل ويقول توكلت على الله . ولذلك قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «اعقلها وتوكل» إن الله تعالى بالغ مراده، منفذ لمشيئته.

وقد جعل لكل شيء وقتاً مقدراً بزمانه وبمكانه، وبملاساته وبناتجه واسبابه، وليس في هذا الكون شيء تم مصادفة، ولا جزافاً، {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩] . {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨] .
{وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} .

والنساء اللاتي بلغن سن اليأس وانقطع عنهن الحيض فعدتهن ثلاثة اشهر . وكذلك الصغار اللاتي لم يحضن فإن عدتهن ثلاثة اشهر . وأما الحامل فإن عدتها تنتهي عند وضع الحمل، سواء أكانت مطلقة او متوفى عنها.

{وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} هذا هو حكم الله تعالى في العدة وانواعها.

ثم أكد الله تعالى على التقوى وأنها رأس كل شيء، من تحلى بها فقد فاز فوزاً عظيماً ويسر الله له أمره فقال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} .

فالتقوى هي المخرج من كل ضيق، واي فضل أعظم من هذا؟

ثم كرر الله تعالى الأمر بالتقوى لأنها ملاك الأمر وعماده في الدنيا والآخرة فقال: {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} .

هذا الذي شرع لكم من الأحكام هو أمر الله الذي انزله اليكم لتسيروا على منهجه، وتعملوا به، ومن يتق الله بالمحافظة على أحكامه يكفر عنه جميع خطاياهم، ويجزل له الثواب العظيم {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤] .
قراءات:

قرأ حفص: بالغ أمره بضم الغين وكسر الراء من امره على الاضافة. والباقون: بالغ أمره بضم الغين والتنوين، ونصب أمره.

٦٥.٢ 6

من وجدكم: من قدرتم، مما هو موجود عندهم، على قدر طاقتكم. ولا تضاروهن: لا تلحقوا بهن ضرراً. لتضيّقوا عليهن: بالنفقة والسكن حتى تلجئوهن الى الخروج من المسكن. وأتمروا بينكم بمعروف: وتشاوروا وتعاملوا بينكم بما تعارف الناس عليه من سماحة وعدم تعنت. وان تعاسرتم: وان لم تنفقوا وضيق بعضكم على بعض كطلاق زيادة الأجر وغير ذلك. فسترضع له أخرى: فيمكن ان ترضع المولود امرأة أخرى بأجر مقبول. ومن قدر عليه رزقه: ومن كان رزقه قليلاً، يعني فقير الحال. فلينفق مما آتاه الله: ينفق بقدر ما عنده. فالنفقة والسكن واجبة للمعتدة مدة العدة.

{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ}

أسكنوا المطلقات مدة العدة في بيوتكم التي تسكنونها وأنفقوا عليهن مما هو موجود عندهم، كل حسب قدرته.

{وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِتَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ}

لَا تَلْحَقُوا بِهِنَ ضُرّاً بِأَن تَسْكُنُوا مَعَهُنَّ أَحَدًا لِتَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ، تَعْجِلاً بِخُرُوجِهِنَّ مِنَ الْمَسْكَنِ.
{وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} .

وإذا كانت المطلقة حاملاً فيجب على الذي طلقها ان ينفق عليها ويسكنها في داره نفقةً حسب قدرته حتى تضع حملها.
ثم بين الله تعالى حكم ارضاع الطفل بعد ولادته فقال: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتَوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ}
عندما تضع المطلقة مولودها تكون قد انتهت عدتها، وهي غير ملزمة بأن ترضع ولدها، فان أرضعته فعلى والده ان يدفع لها أجرها، لأن حق النفقة والرضاع للأولاد على آبائهم.

ثم حث الله تعالى على المعاملة بالمعروف بين الطرفين فقال:
{وَأْتَمِرُوا بِإِنَّكُمْ بِمَعْرُوفٍ}

تعاملوا أيها الآباء والمهات فيما بينكم بالسماحة والأخلاق العالية، لأن في ذلك مصلحة كبرى للطفل ورحمة به. فلا تجعلوا المال عقبةً في سبيل إصلاحهم. . على الآباء ان يجودوا بالأجر والنفقة، وعلى الأمهات ان يتساهلن ولا يخرجن الآباء. . وذلك كله في مصلحة انبائهم.

ثم ارشد الى ما يجب عمله اذا لم يحصل والوافق بين الأبوين على الأجر والانفاق فقال:
{وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى} .

وان لم تنفقوا ووقع بينكم خلاف كأن لم يقبل الأب أن يدفع الجرم المطلوب، او اشتطت الأم في طلب زيادة الأجر، فعلى الأب ان يبحث عن امرأة اخرى ترضع له مولوده. فاذا لم يقبل المولود غير ثدي أمه وجب على الأم ان ترضعه بأي أجر كان.

ثم بين الله تعالى مقدار الانفاق وكيفية بحسب طاقة كل أب فقال:
{لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} .

هذا هو مبدأ الاسلام العظيم: اليسر والتعاون والعدل. . على كل انسان ان ينفق بقدر طاقته وحسب مقدرته، فمن وسع الله عليه الرزق فلينفق عن سعة في السكن والنفقة واجر الرضاع، ومن كان رزقه ضيقاً فلا حرج عليه، فلينفق بقدر ما يستطيع.
هذه هي القاعدة الذهبية في المجتمع الاسلامي العظيم. وكما جاء في قوله تعالى: {لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦] آخر سورة البقرة.

ثم جاء في تعبير لطيف بين فيه ان الارزاق تتحول من عسر الى يسر، وأن اليسر دائماً مأمول فلا تخافوا ولا تضيقوا على انفسكم فقال:
{سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} .

ان الله تعالى سيجعل من بعد الشدة رخاء، ومن بعد الضيق فرجا، فكونوا دائماً مؤملين للخير، فالدنيا لا تدوم على حال. {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥-٦] ولن يغلب عسر يسرين. وإنها لبشارة للناس، ولمسة فرج، وافساح رجاء للمطلق والمطلقة وللناس جميعاً.

٦٥.٣ 8

وكأين من قرية: كثير من القرى كفر أهلها. عنت: تجبرت، واستكبرت. نكرا: منكرا. وبال أمرها: عاقبة امرها. خسرا: خسارة.
ذكرا: قرآنا. رسولا: هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

لقد تقدم كثير من الآيات الكريمة التي تشبه هذه الآيات التي ختمت بها هذه السورة العظيمة بعد ان بين فيها شرع الله في الطلاق والعدة والنفقة والسكن ونفقة المولود وإرضاعه.

ان كثيراً من أهل القرى خالفوا أمر ربهم، فكذبوا الرسل وأعرضوا عن أمر ربهم، فحاسبناهم حساباً شديداً، وعذبناهم أشد العذاب، فذاقوا عاقبة أمرهم، وتجرعوا سوء مآلهم، وخسروا خسراناً كبيراً. وفي الآخرة أعد الله لهم عذاباً بالغ الشدة.

ولذلك يحذر الله المؤمنين بقوله تعالى: {فاتقوا الله يا أولي الألباب}

أيها المؤمنون العاقلون، اعتبروا بهم واتقوا الله الذي أنزل اليكم قرآناً عظيماً، وارسل اليكم رسولا كريماً هو محمد بن عبد الله عليه صلوات الله، {يتلو عليكم آيات الله مبينات} فيها هدى لكم، وبذلك أخرجكم من الظلمات وعبادة الاوثان الى التور، دين الله القويم الذي بين لكم الحق من الباطل.

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً} .

فالإيمان مشروط بالعمل، وأي جزاء أحسن من الجنة وأي رزق أحسن من رزقها!

ثم ذكر بعد ذلك عظيم قدرته وسلطانه، وبديع خلقه لهذا الكون العجيب الفسيح يجري أمره فيه، {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} . صدق الله العظيم.

٦٦ التحريم

٦٦.١ 1

تحرم: تمتنع عن. تبتغي: تطلب. فرض: شرع، وبين لكم. تحلة أيمانكم: تحليلها بالكفارة. بعض أزواجه: حفصة. نبأت به: اخبرت عائشة به. عرف بعضه: اعلمها ببعض الحديث الذي أفشته. وأعرض عن بعض: لم يخبرها به. ان ثوبا: يعني حفصة وعائشة. صغت قلوبكما: مالت الى ما يجب للرسول الكريم من تعظيم واجلال. وان تظاهرا عليه: تتظاهرا وتعاونوا على اداء الرسول. ظهير: معين. مسلمات: خاضعات لله بالطاعة. مؤمنات: مصدقات بتوحيد الله. قاتنات: مواظبات على الطاعة. ثاببات: مقلعات عن الذنوب. سائحات: صائمات وذهابات في طاعة الله كل مذهب.

الحديث في هذه الآيات الكريمة عما كان يجري في بيت رسول الله ﷺ، فالرسول الكريم بشر يجري في بيته ما يكون في بيوت الناس، من شجار بين أزواجه وغيره وما شابه ذلك.

وقد وردت روايات متعددة في سبب نزول الآيات، من أصحها أنه شرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فغارت عائشة وحفصة من ذلك. واتفقتا أن أي واحدة منهما دخل عليها النبي الكريم تقول له: إني أجد منك ريح مغاير. (والمغاير صمغ حلوه رائحة كريهة) . وأول ما دخل على حفصة قالت له ذلك، فقال لها: بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له. وأقسم على ذلك، فلا تخبري بذلك أحداً.

فأخبرت حفصة بذلك عائشة وكانت، كما تقدم، متصافيتين متفقتين. . . . فعاتب الله تعالى نبيه على تحريمه ما أحله الله له كي يرضي بعض زوجاته.

وبعد عتابه الرقيق وندائه: يا أيها النبي. . . . قال تعالى {والله غفور رحيم} . ثم بين له أنه يمكن ان يكفر عن يمينه بقوله: {قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم} بالكفارة عنها. وقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كفر عن يمينه فأعتق رقبة. {والله مولاكم وهو العليم الحكيم}

والله متولي أموركم وناصرهم، وهو العليم ما يصلحكم فيشرعه لكم، والحكيم في تدبير أموركم.

{وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض} .

وقد تمّ شرح هذا فيما سبق. اما «عرّف بعضه وأعرض عن بعض» فهو أن الله أطلع رسوله على ما دار بين حفصة وعائشة، وأخبر الرسول حفصة ببعض الحديث الذي أفشته، وأعرض عن بعد الحديث وهو قوله: وقد حلفت. {فَلَمَّا نَبَّاهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} .

فلما أخبر حفصة أنه يعرف ما دار بينهما استغربت وسألت: من الذي أخبرك بهذا؟ قال: أخبرني به الله العليم بكل شيء، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم وجه تعالى الخطاب إلى حفصة وعائشة مبالغة في العتاب والتحذير فقال: {إِنْ تُتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}

إن ترجعا إلى الله بالتوبة عن مثل هذه الأعمال التي تؤذي النبي فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير.

ثم بين الله أنه حافظ لرسوله الأمين وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال:

{وَأِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} .

ان نتعاون يا عائشة وحفصة في العمل على ما يؤذي النبي ويسوؤه من الإفراط في الغيرة وإفشاء السر - فلن يضره ذلك شيئاً، فالله ناصره وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة كلهم مظاهرون له ومعينون.

ثم حذرهما ألا تعودا لمثل ذلك بقوله:

{عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِلَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} .

احذرن أيها الزوجات من إيذاء رسول الله والتألب عليه، والعمل على ما يسوؤه فإنه إذا أخرج يمكن ان يطلقكن ويبدله الله خيراً منكن في الدين والصلاح والتقوى. ولا شيء أشد على المرأة من الطلاق. وفي هذا تنويه كبير بشأن رسول الله ﷺ. قراءات:

قأ اهل الكوفة: تظاهرا بفتح التاء والظاء من غير تشديد. وقرأ الباقون: تظاهرا بفتح التاء والظاء المشددة. وقرأ الكسائي وحده: عرف بعضه بفتح العين والراء بلا تشديد، والباقون عرّف بتشديد الراء المفتوحة. وقرأ حفص ونافع وابو عمرو وابن عامر: جبريل بكسر الجيم والراء من غير همزة. وقرأ ابو بكر: جبرئيل بفتح الجيم والراء وقزة قبل الياء.

٦٦.٢ 6

قُوا أَنْفُسَكُمْ: احفظوها، واجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصي. الوقود: حطب النار وكل ما توقد به. الحجارة: الاصنام التي تعبد من دون الله. غلاظ: شديدون لا يرحمون. توبة نصوحا: توبة خالصة. واغلظ عليهم: شدد عليهم. مأواهم جهنم: مكانهم يوم القيامة جهنم.

بعد ان عاجلت الآيات السابقة ما يجري في بيوت النبي ﷺ، وعاتب الله تعالى الرسول الكريم على تحريمه بعض ما أحل الله له، كما شدد على نسائه أن يلتزم الطاعة والتوبة والإخلاص للرسول الكريم - بين هنا للمؤمنين عامة أن يحفظوا أنفسهم وأهلهم من النار بالتزام طاعة الله ورسوله، تلك النار التي سيكون وقودها يوم القيامة العصاة من الناس والحجارة التي كانت تُعبد من دون الله كما قال تعالى: {إِنْ كُفِرْتُمْ وَمَا تُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨] ، ويقوم على أمر هذه النار ملائكة شديدون، يفعلون ما يؤمرون.

وفي ذلك اليوم العصيب يُقال للذين كفروا برّبهم وبرسالة رسوله الكريم: لا يعتذروا اليوم فقد فات الأوان، وانما تلقون جزاء ما عملتم في الدنيا.

ثم أمر المؤمنين أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه بإخلاص، عسى الله أن يحو عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحت قصورها

وأشجارها الأنهار. وفي ذلك اليوم يرفعُ الله شأنَ النبيِّ والذين آمنوا معه، نورُهم يسعى بين أيديهم حينَ يمشون، وبأيمانهم حينَ الحساب. . . حيث يتناولون كُتُبهم بأيمانهم وفيه نورٌ وخير لهم.

ويسألون ربهم بقولهم:

{يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} . اللهم أجِبْ دعاءنا ولا تخيب رجاءنا.

ثم بعد الأمرِ النَّصُوح والرجوع إليه - أمر رسوله بالجهاد في سبيل الدعوة فقال:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} .

يا أيها النبي: جاهد الكفار الذين أعلنوا كفرهم والمنافقين الذين أبطنوه، بكل وسيلة من قوة وحنّة، واشتدّ على الفريقين في جهادك، ان منازلهم يوم القيامة في جهنم وبئس المسكن والمأوى.

٦٦.٣ 10

ضربُ المثل: ذكر حال غريبة للعظة والاعتبار. تحت عبدین: يعني زوجتين للنبيين. كريمین: هما نوح ولوط. خفائهما: بالكفر والنفاق. أحصنت فرجها: عفت عن الفجور فكانت عفيفة. فنحننا فيه: نخلقنا فيه الحياة. بكلمات ربها: بشرائه وكتبه. يبينُ الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أمثلةً واضحة من أحوال النساء تظهر فيها حقائق مهمة، فمن النساء صنف لا يردعهن عن كفرهن حتى وج ودهن في بيوت الأنبياء، كأمراة نوح التي كانت تقول عن زوجها إنه مجنون، وخاتته بالتأمر عليه وعدم تصديقه برسالته. وكذلك امرأة لوط، كانت كافرة وخانت زوجها بالتأمر عليه مع قومه حين دلت قومه على ضيوفه لما رب خبيثة. فوجودهما في بيت النبوة مع كفرهما - لم يغير منهما شيئاً وذهبنا الى النار. وهناك حالة اخرى عكس ما تقدم، وهي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، كانت زوجة لرجل من شرار الناس، وهي مؤمنة مخلصه في ايمانها: {إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} . وهذا كله يتفق مع قاعدة الاسلام {الآن تَزُرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى} [النجم: ٣٨] وقوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة: ٢٨٦] .

وكذلك ضرب الله مثلا حال مريم ابنة عمران التي عفت وآمنت بكلمات ربها، فرزقها الله عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه. وفي هذه الأمثال عظة للمؤمنين، ولزوجات الرسول الكريم، وتخويف لكل من تحدّث نفسه بأنه سينجو لأنه ابن فلان، او انه قريب لفلان من الصالحين. ولا ينجي الانسان الا عمله وتقواه وإيمانه الخالص، والله ولي الصالحين.

٦٧ الملك

٦٧.١ 1

تبارك: تعالى ربنا عما لا يليق به. بيده الملك: له التصرف المطلق في هذا الكون. ليلوكم: ليختبركم. طباقا: يشبه بعضها بعضا في الاتقان. ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت: لا ترى فيما خلق الله من اختلاف وعدم تناسب واتقان صنعة. فارجع البصر: أعد النظر. هل ترى من فطور: هل ترى من نقص او شقوق. ثم ارجع البصر كرتين: ثم أعد النظر مرة بعد مرة، وليس المراد مرتين فقط. ينقلب اليك: يرجع اليك. خاسئا: صاغراً ذليلاً. وهو حسير: وهو كليل، ضعيف. بمصاييح: بنجوم كأنها مصاييح تضيء. رجوما: مفردا رجم وهو كل ما يرمى به. اذا ألقوا فيها: اذا طرخوا في جهنم كما يطرح الخطب في النار. شهيقا: تنفسا قويا. تفور: تغلي بشدة. تكاد تميز من الغيظ: تكاد تنقطع من شدة الغضب. فوج: جماعة. خزنتها: واحداها خازن، وهم الملائكة. نذير: رسول ينذركم ويحذركم. فسحقا: فبعداً وهلاكاً لأصحاب السعير.

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بتمجيد نفسه، وأخبر أن بيده الملك والتصرف في جميع المخلوقات {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} . ثم أخبر بأنه خلق الموت والحياة لغاية أرادها، هي أن يختبركم أيكم أصح عملاً، وأخلص نيةً، وهو ذو العزة الغالب الذي لا يُعجزه شيء، الغفور لمن أذنب ثم تاب، فباب التوبة عنده مفتوح دائماً.

ثم بين الله تعالى أنه أبدع سبع سموات طباقاً، يطابق بعضها بعضاً في دقة الصنعة والإتقان. والعدد سبعة لا يفيد الحصر، بل يجوز أن يكون هنا أكثر بكثير، ولكن القرآن يجري على مفهوم لغة العرب . فإن هذا الكون العجيب فيه مجرات لا حصر لها وكل مجرة فيها ملايين النجوم.

والسماء كل ما علانا فأظننا والصورة التي يراها سكان الأرض في الليالي الصافية هي القبة الزرقاء تزيّن النجوم والكواكب كأنها مصابيح، كما ترى الشهب تهوي محترقة في أعالي جو الأرض.

ما ترى أيها الإنسان في صنع الله أي تفاوت.

{فارجع البصر هل ترى من فطور} .

أعد النظر في هذا الكون العجيب الصنع، وفي هذه السماء . هل تجد أي خلل؟

{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}

ثم أعد البصر مرات ومرات، وفكر في هذا الصنع البديع، يرجع إليك البصر وهو صاغراً وكليلاً ولا يمكن أن ترى فيها أي خللٍ أو عيب.

ثم بعد أن بين أن هذه السموات وهذا الكون كله وُجد على نظام دقيق متقن، وهو مع ذلك الغاية في الحسن والجمال والبهاء قال:

{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} .

إن هذه السماء القريبة منا والتي نراها - مزينة بهذه النجوم المضيئة، والكواكب بهجة للناظرين، وهدى للسافرين والمسافرين في البر والبحر، والشهب التي نراها متناثرة في الليل رجوم للشياطين، وقد أعدنا لهم في الآخرة عذاب النار.

وكذلك أعدنا للذين كفروا برّبهم عذاب جهنم وبئس مألهم ومنقلبهم. ثم وصف هذه النار، بأنه يُسمع لها شهيق حين يُلقي فيها الكافرون، وأنها تغور بهم كما يغور ما في المرجل حين يغلي، وأنها تكون شديدة الغيظ على من فيها، وإن خزنتها من الملائكة يسألون من يدخل فيها: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟} من ربكم؟ فيعرفون بأن الله ما عذبهم ظلماً، بل جاءهم الرسل فكذبوهم. ثم يعترفون أيضاً بقولهم {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} فاعترفوا بتكذيبهم وكفرهم. ولن ينفعهم اعترافهم، فبعداً لأصحاب السعير عن رحمة الله.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي: ما ترى في خلق الرحمن من تفوت بتشديد الواو بلا الف. والباقون: من تفاوت. وقرأ الكسائي: فسحقاً بضم السين والحاء. والباقون: فسحقاً بضم السين واسكان الحاء، وهما لغتان.

٦٧٠٢ 12

الغيب: كل ما غاب عنا. بذات الصدور: بما في النفوس والضمائر. اللطيف الرفيق بعباده. الخبير: العالم بظواهر الأشياء وبواطنها. ذلولاً: سهلة منقادة يسهل عليكم السير فيها والانتفاع بها وبما فيها. مناكبها: طرقها ونواحيها. النشور: البعث بعد الموت. الأمن: الاطمئنان وعدم الخوف، وهو اعظم شيء في الوجود. من في السماء: يعني ربنا الاعلى. تمور: تهتز وتضطرب. حاصبا: ريحا شديدة فيها حصباء تهلكهم. نذير: هكذا من غير ياء والاصل نذيري، والمعنى إنذاري وتحويري. نكير: كذلك هي نكيري بياء، عذابي. صافات: باسقاط أجنحتهن في الجو أثناء الطيران. ويقبضن: يضممنها تارة أخرى.

بعد ان أوعَدَ الكفارَ بالعذاب في نارِ جهنم، ووصفَها ذلك الوصفَ المذهل - وعدَ هنا المؤمنَ الذين يخشون ربهم بالغفرة والأجرِ الكريم. وهذه طريقة القرآن الكريم: الترغيبُ والترهيبُ، حتى لا يقنطَ الانسانُ من رحمة ربه. ثم عادَ الى تهديدِ الكافرين، وانه تعالى يعلم السرَّ والجهرَ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ويعلم ما توسوسُ نفسُ الانسان. ثم بعد ذلك كله قال {وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ} كي يذكّرنا دائماً بأنه رؤوفٌ بعباده رحيمٌ. ثم عدّدَ بعضَ ما أنعم علينا، فذكر أنه عبدٌ لنا هذه الأرضَ وذلّلتها، وهبّاها لنا، فيها منافعٌ عديدةٌ من زروعٍ وثمارٍ ومعادن، وما اعظمها من نعم. ثم قال: {فامشوا في مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} تمتعوا بهذه النعم، ثم إلى ربكم مرجعكم يومَ القيامة.

ففي الآية الكريمة حثٌّ على العمل والكسب في التجارة والزراعة والصناعة، وجميع أنواع العمل، وفي الحديث: ان عمر بن الخطاب مرّ على قوم فقال لهم: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، قال: بل أنتم المتواكلون، انما المتوكلُ رجلٌ ألقى حَبَّهُ في بطن الأرضِ وتوكلَ على الله جَلَّالاً.

وجاء في الأثر: «إن الله يحبُّ العبدَ المؤمنَ المحترِفَ». ثم بينَ الله أن الإنسانَ يجب ان يكون دائماً في خوفٍ ورجاءٍ، فذكر انه: هل يأمنون ان يحلَّ بهم في الدنيا مثلُ ما حلَّ بالمكذّبين من قبلهم؟ من خسِفَ عاجلُ تمورُ به الأرض، او ريحٌ حاصِبٌ تُهلك الحَرْثَ والنسل؟! ثم ضرب لهم المثلَ بما حلَّ بالأمم قبلهم من ضروب الحزن والبلاء. {وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}

فأهلكهم وخسِفَ بهم الأرض، وبعضهم أغرقهم، وبعضهم أرسلَ عليهم الريحَ الصرصر. . . . ثم بعد ذلك وجّهَ انظارهم الى باهر قدرته، وعظيم منته على عباده، فطلب اليهم ان ينظروا الى بعض مخلوقاته كالطير كيف تطير باسطةً أجنحتها في الجو تارةً وتضمّمها اخرى، وذلك كلّه بقدرة الله وتعليمه لها ما هي بحاجة اليه. فبعد هذا كله اعتبروا يا أيها الجاحدون مما قصّصنا عليكم، فهل أنتم آمنون ان ندبر بحكمتنا عذاباً نصبه ونقضي عليكم فلا يبقى منكم احد؟!

٦٧.٣ 20

جند: عون، معين. في غرور: في خداع يخدعون انفسهم. ان أمسك رزقه: حبس عنكم المطر وغيره من الأسباب التي ينشأ منها الرزق. لجوا: تعدّوا الحد. في عتو: في تمرد وعناد. نفور: اعراض وتباعد. مكباً على وجهه: اصل المعنى ان يمشي المرء مطرقاً بوجهه الى الارض. والمقصود: الذي يسير على غير هدى. سويّاً: معتدلاً، مستقيماً. الافئدة: العقول. انشأكم: خلقكم. ذرأكم: خلقكم. زلفة: قريباً. سيئت وجوه الذين كفروا: قبحت وعلتها الكآبة. تدعون: تطلبون، وتستعجلون. أرايتم: اخبروني. غورا: غائراً في الأرض. معين: جارٍ غزير.

بعد ان بين الله للناس عجائب قدرته فيما يشاهدونه من احوال الطير وخلقته، وخوفهم من خسف الأرض بهم، وارسال الحاصب عليهم بالعذاب - سأل الجاحدين المعاندين بقصد التوبيخ والتقريع: من الذي يعينكم وينصركم ويدفع عنكم العذاب اذا نزل بكم؟ هل هناك غير الرحمن؟ والتعبيرُ بالرحمن يدل على ان الله رؤوفٌ بعباده رحيمٌ.

{إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ} وظنّ كاذبٍ يخدعون به انفسهم.

ثم سؤال ثان منه تعالى: إذا منع الله عنكم أسبابَ الرزق، من يرزقكم غيرُ الله: بل تتمادى الكافرون في استكبارهم وبُعدهم عن الحق. ثم ضرب الله مثلاً بين الفرق بين المشركين والموحدين فقال:

{أَفَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .

هل الذي يعيش في الضلال ويخطئ في الجهالة والكفر اهدي سبيلاً، أم الذي آمن ويمشي على الطريق المستقيم سالماً من التخطئ والجهل؟ {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ؟} [هود: ٢٤] .

فهذا المكب على وجهه هو المشرك، والذي يمشي سويًا هو الموحد، فهل يستويان؟ قل لهم ايها الرسول ان ربكم هو الذي خلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، لتسمعوا وتبصروا وتهتدوا، ولكن {قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} ولكنكم مع كل هذه النعم فالشاكرون منكم قليل. قل لهم منبهاً الى خطأهم وجودهم: ان ربكم هو الذي خلقكم وبشكم في الارض، ومن ثم اليه ترجعون يوم القيامة. ومع هذا كله، يسألون الرسول استهزاء وتهكاً فيقولون: متى يأتينا العذاب الذي تعدنا به؟

{قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}

قل يا محمد: هذا علم اختص الله به، وانما انا رسول منه جئت لأنذركم وأبين لكم شرائع الله.

{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ} .

الحديث في هذه الآية يكون يوم القيامة، يعني: فلما قامت القيامة وحشر الناس ورأى الكفار العذاب قريباً منهم ساء لهم ذلك وعلت وجوههم الكآبة والحزن. ويقال لهم {هذا الذي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [الذاريات: ١٤] وهذا التعبير جاء ليدلنا على ان يوم القيامة قريب جداً.

وكما جاء في قوله تعالى:

{وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَّا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَعْزِثُونَ} [الزمر: ٤٧، ٤٨] .

قل لهم: أخبروني ماذا تستفيدون إن أمتني الله ومن معي من المؤمنين، او رحماً فأخر آجالنا وعافانا من عذابه؟ فهل هذا كله يمنع الكافرين من عذاب أليم استحقوه بكفرهم وغرورهم!

{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} .

قل لهم ايها الرسول: آمنا بالرحمن رب العالمين، وتوكلنا عليه في جميع أمورنا، وستعملون اذا نزل العذاب من هو الضال من المهتدي. وقد تكرر لفظ الرحمن اربع مرات في هذه السورة ليدل على انه رحيم بعباده، بابه مفتوح لهم دائماً.

ثم يختم الله تعالى هذه السورة العظيمة بتهديد كبير، ويلجح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة وذلك بحرمانهم من الماء الذي هو سبب الحياة الأول فيقول:

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ}

قل لهم: أخبروني ان ذهب ماؤكم غائراً في الارض ولم تستطيعوا الوصول اليه، فمن يأتيكم بماء عذب جارٍ تشربونه؟ ولا جواب لكم الا ان تقولوا: الله.

قراءات:

قرأ يعقوب: تدعون بفتح الدال من غير تشديد. والباقون: تدعون بتشديد الدال. وقرأ الكسائي: فسيعلون بالياء. والباقون: فستعلون بالتاء.

فله الحمد والمنة، وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وما يسطرون: وما يكتبون. غير ممنون: غير مقطوع. فستبصر: فستعلم. ويبصرون: ويعلمون. بأيكم المفتون: بأيكم المجنون الذي ابتلي بآراء فاسدة. ودُّوا لو تدهن: احبوا ان تداري وتلين لهم بالمصانعة والمقاربة بالكلام. فيدهنون: فيقاربون ويدارون. والمداهنة: ان يظهر الرجل في امره خلاف ما يضمّر. ولا تطع كل حلاف مهين: حلاف كثير الحلف، مهين: محتقر، حقير. هَمَّاز: عياب طعان. مَشَاء بنميم: كثير الوشاية والنميمة بين الناس. مناع للخير: بخيل، ويمنع الناس من عمل الخير. معتد: ظالم. أثيم: كثير الذنوب. عَتَلَّ: فظ، غليظ القلب. زنيم: دعي، يُعرف بالشر واللؤم. سنسمه على الخراطوم: نجعل له علامة على أنفه.

ن: حرف من حروف المعجم التي بدئت بها بعض السور، وقد تقدّم الكلام عليها.
أقسم الله تعالى بالقلم وما يُسطّر من الكتب، وفي هذا تعظيمٌ للقلم والكتابة والعلم الذي جاء به الإسلام وحثّ عليه من أول آية نزلت {اقرأ باسم ربك الذي خلق...} [العلق: ١].

يقسم الله تعالى بنون والقلم وما يسطرون، منوهاً بقيمة الكتابة معظماً لشأنها، لينفي عن رسول الله ما كان يقوله المشركون عنه بأنه مجنون، فيردّ الله عليهم بقوله:

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} .

لست يا محمد مجنوناً كما يزعمون، فقد أنعم الله عليك بالنبوة والرسالة، والعقل الراجح.

{وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ}

إن لك على ما تلقاه في تبليغ الرسالة الأجر العظيم الدائم الذي لا ينقطع أبداً.

{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}

وهذه أكبر شهادة من عند رب العالمين. وهل هناك أعظم من هذه الشهادة للرسول الأمين الذي طبع على الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق كريم! .

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قطّ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته؟» .

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قطّ ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قطّ الا ان يُجاهد في سبيل الله، ولا خُير بين شيئين قطّ الا كان أحبهما اليه أيسرهما. وكان أبعد الناس عن الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه الا أن تنتهك حرمت الله» .

ثم بعد ان نفى عنه ما يقوله المشركون، ومدحه بشهادة عظمى، جاء يطمئنه بأنه هو الفائز وأنهم هم الخاسرون فيقول:

{فَسَتَبَصِّرُ وَبَيِّصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ}

ستعلم أيها الرسول، وسيعلم الكافرون الجاحدون من هو الضالّ المفتون.

ثم أكد ذلك بقوله تعالى:

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}

وهذا وعد من الله يشير الى أن المستقبل سيكشف عن الحقيقة ويثبت أن هذا الرسول جاء برسالة من عند الله، وهو على هدى وحق،

والمشركون على ضلالٍ مبين.

وقد صدق وعدُ الله وظهرت الحقيقة، ونصره الله وأظهر هذا الدينَ القيمَ.

{فَلَا تَطِيعُ الْمَكْذِبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} .

إِيَّاكَ أَنْ تَلِينَ لَهُوْلَاءِ الْجَاهِلِينَ الْمَكْذِبِينَ، فُدُّمُ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَقَدْ تَمَنَّوْا لَوْ تَرَكْتُ بَعْضَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَتَلِينَ لَهُمْ وَتَصَانِعُهُمْ فَيَلِينُونَ لَكَ طَمَعاً فِي تَجَاوُبِكَ مَعَهُمْ.

وقد حاول زعماءُ قريشٍ أن يساووموه، وأن يجمعوا له الأموال، وأن يملكوه عليهم، وهم لا يعلمون أن هذا الرسول الكريم فوقَ هذا كله، لا يريدُ منهم جزاءً ولا شكوراً، ولا يريدُ إلا هدايتهم إلى هذا الدينِ القيمِ.

ثم بينَ بعضَ صفات أولئك المكذِبِينَ الذي هانت عليهم نفوسُهم فقال: {وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَجْمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ} .

وفي هذه الآيات عددُ تسع صفات من صفات السوء أثبتنا تفسيرها في أول الكلام على السورة. ويقول المفسرون ان هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان من زعماء قريش الأثرياء. وهناك أقوال كثيرة لا حاجة إلى إيرادها، فالآيات عامة في كل من يكذب ويخلف كذبا، وينم ويمشي بالسوء بين الناس، ويثير الفتن والشر بينهم. وهذه الأصناف من البشر موجودة في كل زمانٍ فلنحذرُها ونتقي شرَّها.

وقد كان رسولُ الله ﷺ ينهى أصحابه أن ينقلَ إليه أحدٌ منهم ما يُغيِّرُ قلبه على صاحبٍ من أصحابه. وكان يقول: «لا يبلغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئا، فإني أحبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدر» ، رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يدخلُ الجنةَ فتان» والفتان هو النام.

وهناك أحاديث كثيرة تحذر من هذه الأخلاق الفاسدة، فالإسلام جاء لينقي الأخلاق، ويعلم الناس الخير، ويرفع الأخلاق، والمعاملة الطيبة، وحسن المعاشرة، وهو يشدد في النهي عن الخلق الذميمة الوضع.

وكان صاحبُ هذا الخلق الذميمة في أيامه ذا مالٍ كثيرٍ وعدد من البنين، وهذا سبٌ كبير في كذبه وسوء خلقه، فلا تطعه أيها الرسول، فإنه جاحد.

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}

إنه يكذب بالقرآن الكريم ويقول عن آياته إنها خرافات من قصص الأولين لا آياتٍ من عند الله.

وبعد ان ذكر قبائح أفعاله توعده بشرٍ عظيم فقال:

{سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ}

سنجعلُ له وسماً وعلامةً على أنفه يوم القيامة، أي أننا سنفضح أمره حتى لا يخفى على أحدٍ في الدنيا، ثم يأتي يوم القيامة وعلى أنفه وسمٌ ظاهر.

قراءات:

قرأ حمزة ويعقوب وابو بكر: أَنَّ كَانَ ذَا مَالٍ، على الاستفهام. وقرأ ابن عامر أَن كَانَ بحد الحمزة. والباقون: أ، كَانَ ذَا مَالٍ كَمَا هُوَ فِي الْمَصْحَفِ.

بلوناهم: اخترناهم، امتحناهم. الجنة: البستان. ليصرمتها: ليقطفن ثمارها. مصبحين: وقت الصباح. ولا يستثنون: ولا يقولون: ان شاء الله. طائف من ربك: عذاب من الله، فقد أرسل عليها صاعقة من السماء فأحرقها. كالصريم: كالليل المظلم. فتنادوا: فنادى بعضهم بعضا. ان اغدوا: اخرجوا غدوة مبكرين. حرثكم: زرعكم. صارمين: قاطعين الثمار. يتخافتون: يتحدثون بصوت ضعيف، همساً حتى يسمعونهم أحد. على حرد: على المنع، اي يمنعون كل احد. محرومون: حرمانا خير جنتنا بجنايتنا على انفسنا. قال اوسطهم: أفضلهم رأيا. لولا تسبحون: ليتكم تذكرون الله وتشكرونه على ما انعم عليكم. يتلاومون: يلوم بعضهم بعضا على اصرارهم على منع المساكين. يا ويلنا: دعاء على انفسهم بالهلاك. طاغين: متجاوزين حدود الله.

إنا امتحنا كفار قريش بأن أغدقنا عليهم النعم والأمن لنعلم: أيشكرون هذه النعم ام يكفرونها، كما اخترنا اصحاب الجنة التي يعرفون قصتها.

فقد كان لرجل بستان كبير فيه من شتى أنواع الفاكهة، وكان هذا الرجل يتصدق منه ويعطي الفقراء والمساكين والمحتاجين. فلما توفي قال أولاده: لو أعطينا الفقراء والمساكين من بستاننا هذا لما بقي لنا شيء. فاتفقوا ان يذهبوا الى جنتهم صباحاً مبكرين، وأقسموا بان لا يدخلنها عليهم مسكين.

فأرسل الله عليها آفة أحرقتها وهم نائمون لا يدرون ماذا جرى لها. فأصبحت جنتهم سوداء خاوية. فلما أصبحوا نادى بعضهم بعضا ليذهبوا إليها ويقطفوا ثمارها. وانطلقوا خلسة وهم يتهايمسون حتى لا يسمع بهم أحد من المحتاجين فيلحقهم. وغدوا إليها في حماسة وهم يظنون أنهم قادرون على تنفيذ ما خططوا له {وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ}.

ولكنهم فوجئوا عندما رأوها سوداء محترقة خاوية من الثمار فقالوا: {إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ لَحْنُ مَحْرُومُونَ} . . . لقد سلبنا الله ما رزقنا. فقال لهم {أَوْسَطُهُمْ} أي أعدلهم وأرحمهم عقلا: ألم أقل لكم هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أولاكم من النعم، فتؤدوا حق المساكين والمحتاجين!

وبعد ان سمعوا ما قال أخوهم وثابوا الى رُشدِهِم اعترفوا بذنوبهم و {قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} ، وندموا على ما عملوا. ثم بعد ذلك ألقى كل واحد منهم تبعاً ما وقع على الآخر كما قال تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامِؤْنَ} ثم نادوا على أنفسهم بالويل والثبور، واعترفوا بذنوبهم، ورجعوا الى الله، وتابوا، وسألوه ان يعوضهم خيراً من جنتهم {عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها} إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ {لعله يعطينا خيراً من جنتنا بتوبتنا، ويكفر عنا سيئاتنا.

{كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

هكذا كان عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه وأنعم عليه، وذلك في الدنيا، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأعظم، لو كان قومك أيها الرسول يعلمون ذلك.

تدرسون: تقرأون. تخيرون: أصلها تتخيرون بتأين ومعناها تختارون. بالغة: مؤكدة مغلظة. إن لكم لما تحكون: انه سيحصل لكم كل ما تريدون يوم القيامة. أيهم بذلك زعيم: من منهم الذي يكفل لهم هذا. يوم يكشف عن ساق: يوم الشدة. والعرب تكني بكشف الساق عن الشدة:

قد شمرت عن ساقها فشدوا . . . وجدت الحرب بكم فجذوا ترهقهم ذلة: تلحقهم ذلة.

بعد ان ذكر سبحانه حال الذين دُمرت جنتهم في الدنيا، وما أصابهم من النعمة حين عصوه - بين هنا حال المتقين وما ينتظرهم من

جَنَاتِ النِّعَمِ الْخَالِدَةِ فِي الْآخِرَةِ.

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاتٍ النِّعَمِ} الْخَالِصِ الدَّائِمِ.

وعندما سمع كفار قريش هذه الآية قالوا: إن الله فضّلنا عليكم في الدنيا، فلا بدّ ان يفضّلنا عليكم في الآخرة، فردّ الله تعالى عليهم ما قالوا وأكد فوز المتقين فقال:

{أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ!}

لا يجوز ان نظلم في حكمنا فنجعل المسلمين كالكافرين ونسوي بينهم. ماذا أصابكم؟ كيف تحكمون مثل هذا الحكم الجائر؟ وهل عندكم كتاب نزل من السماء تقرؤون فيه أن لكم فيه ما تختارون؟ أم أقسمنا لكم أيمانا مؤكدة باقية الى يوم القيامة؟ {إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ} وسيحصل لكم كل ما تشتهون.

{سَلَامٌ أَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ}

اسأل المشركين أيها الرسول: من الذي يكون كفيلاً بتنفيذ هذا؟

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ؟} في دعواهم الكاذبة.

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ. . . .}

يوم يشتد الأمر ويصعب، ويدعى الكفار إلى السجود فلا يستطيعون، كما أنه لن يُجديهم التلاوم ولا السجود في ذلك اليوم نفعاً، فتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه.

ويأتون في ذلك اليوم خاشعةً أبصارهم منكسرةً تغشاهم ذلةٌ مرهقة، وقد كانوا يدعون إلى السجود في الدنيا وهم قادرون. . . . فلا يسجدون! .

٦٨٠٤ 44

ذرني ومن يكذب. . . . كَلِّهِ الْيَّ وَاتْرَكْهُ لِي، فإني أكفيك أمره. بهذا الحديث: بهذا القرآن. سنستدرجهم: سننتقل بهم من حال إلى حال. وأملهم لهم: أهلهم، وأطيل لهم المدة. كيدي متين: تديري قوي. مغرم: غرامة. مثقلون: ثقيلة عليهم. صاحب الحوت: النبي يونس. مكظوم: مملوء غيظاً. العراء: الفضاء، الارض الخالية. فاجتباها: فاصطفاه. يُزلقونك: ينظرون اليك بغیظ وحنق حتى تزل وتزلزل. لما سمعوا الذكر: القرآن الكريم. ذكر للعالمين: تذكير للعالمين.

اترك يا محمد من يكذب بالقرآن لي، فإني عالم بما ينبغي ان أفعل بهم. . . . سندنيهم من العذاب درجةً بعد درجة فتزداد معاصيهم من حيث لا يشعرون، وأملهم بتأخير العذاب، إن تديري حين آخذهم قوي لا يفلت منه أحد. وفي الحديث الصحيح: إن الله تعالى يُبلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

وإن أمرهم لعجيب، فأنت تدعوهم إلى الله بلا أجر تأخذهم منهم، {فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} فهل كلّفوا ان يدفعوا أجراً لك فهم من هذه الغرامة مثقلون؟ وهل عندهم علم بالغيب فهم يكتبون ما يريدون وما يحكمون؟ .

ثم بعد ذلك أمر رسوله الكريم ان يصبر على أذاهم فقال:

{وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ. . . .}

اصبر أيها الرسول على قضاء ربك. . لا تكن كيونس صاحب الحوت حين ذهب مغاضباً لقومه فكان من أمره ما كان، فنادى ربه في الظلمات وهو مملوء غيظاً {سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك نُجّي المؤمنين {الأنبياء: ٨٧، ٨٨}

ولولا أن تداركته نعمة ربه بقبول توبته لَطُرِحَ في الأرض الفضاء وهو مذموم.

{فاجتباه رَبُّهُ جَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} وردّه الى قومه نبياً فانتفعوا به.

ثم بين الله تعالى كيف ظهرت عداوتهم للنبي الكريم، وكيف كانوا ينظرون إليه بحقدٍ وضيق فقال:

{وَأَنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}

إنهم لشدة عداوتهم لك ينظرون إليك بهذه الكراهية حتى ليكادون يُزِلُّونَ قدمك حسداً وبغضا حين سمعوا القرآن، ثم يزيدون في كرههم ويقولون إنك لمجنون.

وما هذا القرآن الا عِظَةٌ وَحِكْمَةٌ وتذكيرٌ للعالمين، والذكر لا يقوله مجنون، فصدق الله وكذب المفترون.

قرأ نافع وحده: ليزلقونك بفتح الياء والباقون: بضمها، وهما لغتان زلق وأزلق.

٦٩ الحاقة

٦٩٠١ 1

الحاقة: القيامة، قال في لسان العرب: سُميت حاقة لأنها تحق (بضم الحاء) كل انسان من خير او شر: ومثلها القارعة: فهي من أسماء يوم القيامة، سميت قارعة لشدة هولها. وما أدرك: اي شيء أعلمك ما هي؟ . الطاغية: هي صيحة العذاب والصاعقة التي تأخذ الظالمين. برح صرصر: ريح باردة مهلكة لها صوت شديد. عاتية: بالغة العنف. سخرها عليهم: سلطها عليهم. حسوما: نتابت تلك الايام والليالي واستمرت حتى استأصلتهم. الحسم: القطع. أعجاز نخل خاوية: اصول النخل المقطوعة منذ زمن، فهي جوفاء فارغة. فهل ترى لهم من باقية: فهل ترى لهم أثرا باقيا؟ والمؤتفكات: المنقلبات، وهي قرى قوم لوط. بالخاطئة: بالأعمال الخاطئة الفاحشة. فأخذهم أخذة رابية: فأخذهم الله بذنوبهم أخذة زائدة في الشدة. طغى الماء: زاد وتجاوز حده وارتفع. حملناكم: حملنا آباءكم. في الجارية: في السفينة التي تجري على الماء. تذكرة: موعظة. تعيها: تفهمها وتحفظها. واعية: فاهمة حافظة. حُمِلَت الأرض والجبال: رفعت من أماكنها وازيلت. فدكا دكة واحدة: دُقت كل منهما وهُدمت. وقعت الواقعة: قامت القيامة. واهية: متداعية. والمَلَك على أرجائها: والملائكة واقفة على نواحيها.

{الحاقة مَا الْحَاقَّةُ؟} .

أي شيء أعلمك بها أيها الانسان؟! إنها فوق ما تسمعه وتراه، وتصوره العقول، فهي خارجة عن دائرة علوم المخلوقات، لعظم شأنها، ومدى هولها وشدها.

ثم ذكر الله تعالى بعض الأمم التي كذبت، فنزل بها ما نزل من العذاب، مثل ثمود وعاد الذين كذبوا بالقيامة، فأهلك الله ثمود بالصاعقة كما جاء في سورة فصلت {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت: ١٧] ، وهذا معنى الطاغية، والرجفة كما جاء في سورة الأعراف. . . .

واما عاد فأهلكهم الله برح باردة عنيفة، سلطها عليهم سبع ليالي وثمانية أيام متتابة بلا انقطاع حتى أفناهم، {فَقَرَّى الْقَوْمُ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَجْجَارُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ} كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف فارغة، وأيدوا ولم يبق منهم أحد.

كذلك فرعون وقومه أخذهم الله بكفرهم. والمؤتفكات أيضاً، قرى قوم لوط، لأن الله قلب تلك القرى فجعل عاليها سافلها بسبب خطيئتهم ومعصيتهم. وقد ذكر فرعون وقوم لوط وعادا و ثمود اكثر من مرة.

ثم ذكر حادثة الطوفان زمن نوح باختصار.

لما حصل الطوفان وارتفع الماء وجاوز حدّه حتى علا فوق الجبال - حَمَلْنَا آبَاءَكُمْ مِنْ مُؤْمِنِي قَوْمِ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَأُنَجِّينَاهُمْ مِنَ الْغُرُقِ. وذلك لنجعل نَجَاةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِغْرَاقًا لِلْكَافِرِينَ عِبْرَةً لَكُمْ وَعِظَةً، وَتَفْهَمُهَا كُلُّ أُذُنٍ حَافِظَةٌ سَامِعَةٌ عَنِ اللَّهِ فَتَنْتَفِعُ بِمَا سَمِعَتْ. وبعد ان قصّ الله علينا أخبارَ السابقين - شَرَعَ يَفْصَلُ لَنَا أَحْوَالَ يَوْمِ الْحَاقَّةِ وَالْقِيَامَةِ وَالْقَارِعَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ أَهْوَالٍ: فإذا نَفَخَ الْمَلَكُ النَفْخَةَ الْأُولَى يَكُونُ عِنْدَهَا خَرَابُ الْعَالَمِ، فَتُزَالُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا. {فَدَكَّا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} .

في ذلك اليوم تقوم القيامة، وتتصدع السماء وتنشقق، لأنها تكون ضعيفة واهية. وترى الملائكة واقفة على جوانبها. {وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً} . من الملائكة الشداد الأقوياء. {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} .

في ذلك اليوم تُعرضون أمام الله وتحاسبون على كل صغيرة وكبيرة لا يخفى على الله من أموركم شيء. وهذا كله يجري بأمر الله، لا ندري كيف ومت سيكون، وكل أمور الآخرة مخالفة لأوضاعنا وعقولنا لا ندرکها، فندعُ تفصيل ذلك. قراءات:

قرأ الجمهور قبله بفتح القاف وسكون الباء: أي من تقدمه من القرون الماضية. وقرأ أبو عمرو والكسائي: ومن قبله بكسر القاف وفتح الباء أي ومن عنده من أتباعه. وقرأ الجمهور: لا تخفى منكم خافية بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي: لا يخفى بالياء.

٦٩٠٢ 19

هاؤم: خذوا. ظننت: علمت، أيقنت. راضية: يرضى بها صاحبها. عالية: في القدر والمكان. قطوفها: جمع قطف بكسر القاف، ما يقطف من الثمر. دائية: قرية سهلة التناول. هنيئاً: يعني كلوا واشربوا سائغاً بلا تنغيص ولا كدر. أسلفتم: قدمتم. الأيام الخالية: الأيام الماضية في الدنيا يا ليتها كانت القاضية: على حياته فيرتاح ولم يبعث. ما أغنى عني ماليه: لم يغن عني مالي الذي جمعته في الدنيا شيئاً. هلك عني سلطانِيَّة: ذهب عني كل ما املك من قوة ومال وصحة. غلّوه: شدوه بالقيود، والغلّ هو القيد الذي يجمع بين اليدين والعنق. صلّوه: ألقوه في النار حتى يصلوها. ذرعها: طولها. فاسلكوه: فاجعلوه في هذه السلسلة الطويلة. حميم: قريب أو صديق. غسيلين: صديد أهل النار.

بعد ان قدّم وصفاً رهيباً ليوم القيامة، وكيف تزول الأرض والجبال عن مواقعها وتُدك وتنشق السماء، وتقف الملائكة على جوانبها، ويوضع العرش، ويفتح حساب البشر وفي ذلك اليوم لا يخفى على الله شيء - بعد هذا كله أتى بذكر صورتين متقابلتين من أحوال البشر، وهم: السعداء أصحاب اليمين، والأشقياء أصحاب الشمال. فأما السعداء فإنهم يتلقون كتابهم بأيمانهم، ويغدّون مسرورين فرحين، يعرضون كتبهم على الناس ليقرواها. وكل واحدٍ منهم يقول: إني علمت أن ربي سيحاسبني حساباً يسيراً، {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} مرضية خالية مما يكدر، {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} وهي جنة الخلد ذات المكان الرفيع والثمار المختلفة التي يسهل تناولها. وكلهم في نعيم وحبور ويقول لهم ربهم: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} . . . كلوا من ثمار جنة الخلد هنيئاً، واشربوا من شرابها مريئاً، وذلك كلّ جزء ما قدمتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية.

وأما الأشقياء، وهم الذين كذبوا الرسل، ولم يؤمنوا بالله ولا البعث والحساب - فإن الواحد منهم حين ينظر في صحيفة أعماله بعد أن تلقاها بشماله - ينفر منها ويقول:

{يَالَيْتَنِي لَمْ أَتُكَلِّمْكُمْ وَلَا آذِرَ مَا حِسَابِي يَالَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةُ} .

يا ليتني لم ألتق ككّابي، ولم أعلم أي شيء عن حسابي، ويا ليت الموتة التي مِتُّها كانت نهاية الحياة، لم أبعث بعدها ولم ألقَ ما أنا فيه من

عذابٍ وسوءٍ منقلبٍ.

{ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ } .

لم ينفعني مالي وما جمعتُ في الدنيا، وذهب عني كلُّ عِرٍّ وجاهٍ وصحةٍ وقوةٍ . ذهبَ ذلك كُلُّه وبقِيَ العذابُ والوبالُ .
وعندها يقالُ لزبانيةِ جهنم:

{ خُذُوهُ فَعْلُوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ } .

خذوه وأدخلوه في النارِ مقيداً، في سلسلةٍ طولها سبعون ذراعاً لُقِّوها على جسمه حتى لا يستطيعَ حراكاً . وليس المرادُ أن طولها كذلك، ولكن القصدُ إهانتُه وبيانُ هولِ العذابِ . فقد كان لا يؤمن باللهِ العظيمِ، وكان بخيلاً ممسكاً لا يُطعمُ الفقراءَ والمساكينَ ولا يحثُّ الناسَ على إطعامهم . لذلك:

{ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ }

ليس له صديقٌ ولا قريبٌ يدفع عنه في هذا اليومِ . وطعامُه من صديدِ اهل النارِ، الذي لا يأكله الا الخاطئون المذنبون أمثاله ممن أصرُّوا على الكفرِ والجحودِ وماتوا عليه .

٦٩٠٣ 38

فلا أقسم: معناها، فأقسم . بما تبصرون: بما تشاهدون من المخلوقات وما في هذا الكون العجيب . وما لا تبصرون: كل ما غاب عنكم وما أكثره . ولا بقول كاهن: الكاهنُ مَنْ يَتَّبِعُ بالغيبِ كذباً وزوراً، وكان هذا النوع من الناس شائعاً عند العرب في الجاهلية . ولو تقول: لو اقتصرت علينا . الأفاويل: الأكاذيب، الأقوال المفتراة . لأخذنا منه: لأمسكاه . باليمين: بيمينه . الوتين: الشريان الرئيسي الذي يغذي الجسمَ بالدم النقي الخارج من القلب، فاذا قطع هذا العِرْقُ مات الانسان حالاً . حاجزين: مانعين . وإنَّه لحقُّ اليقين: وإن القرآن الكريم لحقُّ ثابت من عند الله .

بعد هذه الجولة مع الجاحدين وما ينتظرهم من عذاب في ذلك اليوم الشديد الهول - يعود الكاتب ليؤكد أن ما يتلوه الرسول الكريم هو القرآن الكريم من عند ربِّ العالمين، وأن الأمراض لا يحتاج إلى قسم أنه حق، صادر عن الحق، وأنه ليس شعرَ شاعرٍ، ولا كهانةَ كاهنٍ، ولا افتراءً مفترٍ، فما هو بحاجة الى تأكيد يمين .

{ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ } .

تكرر هذا التعبير { لَا أُقْسِمُ } في القرآن الكريم، وهو يمين عظيم . وهو كما يقول المتأكد من أمرٍ من المور: لا حاجة الى اليمين عليه . . .
لقد حارت قريش في أمرِ الرسولِ الكريم، وتبليت آراء زعمائها في ما يتلوه عليهم، فقال بعضهم إنه كاهن، وقال بعضهم إنه مجنون، وقال بعضهم إنه شاعر، وقال بعضهم إنه ساحر . ولم يستقرَّ رشأيهم على شيء، حتى إن أكبر أعدائه - وهو النضر بن الحارث من بني عبد الدار، صاحبُ لواء قريش يوم بدر - قال مسفهاً هذه الآراء كلها بقوله: «يا معشر قريش، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيت به بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحرٌ لا والله، ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم كاهن! لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم . وقلتم شاعر! لا والله ما هو بشاعر . قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه . وقلتم مجنون! لقد رأينا الجنون فما هو كذلك . يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم امر عظيم . . . » .

أُقْسِمُ بما تشاهدون من هذا الكون العجيب وما فيه حولكم من مخلوقات، وبما غاب عنكم مما لا تشاهدونه، وما أكثره. . . أن هذا القرآن هو قولُ رسولٍ كريمٍ أنزلَهُ اللهُ عليه، {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ} حيث كان بعض زعماء قريش يقول عنه إنه شاعر {وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ} وليس هو بقول كاهن من كهنة العرب كما تزعمون، بل هو: {تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} أنزلهُ على عبده محمد بن عبد الله ﷺ.

وبعد ان أثبت اللهُ تعالى أن القرآن الكريم تنزيلٌ من رب العالمين، ليس بشعرٍ ولا كهانة - أكد هنا أن الرسول الأمين لا يمكن ان يتقوله، اذ لو فعل ذلك لأخذنا منه بيمينه، وقطعنا منه نياط قلبه فيموتُ حالا، فلا يستطيع أحدٌ منكم مهما بلغت قوته ان يحجز عقابنا عنه. وهذا معنى: {فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} .

ثم بين اللهُ تعالى أن هذا القرآن تذكرةٌ وعِظةٌ لمن يتقي الله ويخشاه، وأنه حَسْرَةٌ على الكافرين حينما يروْنَ ثوابَ المؤمنين، {وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ} فهو حقٌّ ثابت لا ريبَ فيه. ولو ان منكم مكذِّبين.

ثم امر رسوله الكريم أن يسبح ربه العظيم وينزهه، ويشكره على ما آتاه من النعم، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم.

٧٠ المعارج

٧٠٠١ 1

سأل: طلب. ليس له دافع: لا يستطيع أحد رده. المعارج: الدرجات، والمصاعد. واحدا معرج بكسر الميم ومعرج بفتحها، ومعراج: الروح: جبريل. المهل: المعدن المذاب كالفضة والحديد وغير ذلك، وعكر الزيت. العهن: الصوف. حميم: قريب، صديق. الفصيصة: العشيبة. لظى: جهنم. الشوى: واحدا شواة، جلدة الرأس. جمع فأوعى: جمع المال وخبأه في وعاء، وبخل به ولم يصرف منه في وجوه الخير.

كان زعماء قريش كثيراً ما يسألون الرسول الكريم عن موضوع القيامة، ويقولون إنَّ محمداً يخوِّفنا بالعذاب، فما هذا العذاب؟ ومتى يكون؟ وكان النضر بن الحارث ومعه كثيرون يقولون، منكرين ومستهزئين: متى هذا الوعد؟ وينكرون البعث والجزاء أشدَّ الإنكار. فردَّ اللهُ عليهم بهذه السورة الكريمة.

إنَّ العذابَ الذي طلبه السائلون واقعٌ بهم لا محالة، لن يستطيع أحد رده، وسيأتهم من الله تعالى خالق السموات وما فيها من مسالك، والذي يعصّدُ جبريل والملائكة إليه في يومٍ طويلٍ شاقٍّ على الكافرين مقدارُه خمسون ألف سنة من إيماننا هذه. ويجوز ان يكون أطول، فليس المراد من ذكر الخمسين تحديد العدد، بل بيان شدة ذلك اليوم وعظم هوله. فاصبر يا محمد على استهزائهم واستعجالهم العذاب {صَبْرًا جَمِيلًا} .

ثم بين اللهُ تعالى ان هذا اليوم آتٍ لا شك فيه فقال:

{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا} .

إن الكفار الجاحدين يرون يوم القيامة مستحيلاً لا يقع، ونراه واقعاً قريباً غير متعذّر على قدرتنا، فليحذروه.

ثم ذكر وقت حدوث ذلك اليوم وشيئاً من أهواله فقال:

{يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ}

إنه يوم شديد الهول تذيب فيه السماء كالمعادن المنصهرة ويصير لونُها مثل عكر الزيت أما الجبال فتغدو مثل الصوف المنفوش تتطاير في أرجاء الكون. وفي ذلك الهول الشديد يصير كل انسان مشغولاً بنفسه، لا يسأل عن أقاربه ولا أصدقائه. . . . وإنهم لَيرون بعضهم

البعض لكنه لا يسأل أحد عن أحد، ويتمنى الكافر لو يفدي نفسه من عذاب يوم القيامة ببنيه، وزوجته، وأخيه وعشيرته التي ينتمي إليها، بل وبجميع من في الأرض، عله ينجو من العذاب. . {كَلَّا} لا يمكن ان ينجيه شيء، ولا يُقبل منه فداءً ولو جاء بأهل الأرض جميعاً. بل إن مصيرهم الى لظى جهنم الشديدة الحرارة حتى تنزع جلدة الرأس عنه.
{تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى}

انها تنادي أولئك المجرمين الذين تولوا عن الدعوة في الدنيا، وأعرضوا عن الحق، وجمعوا المال وكدسوه في خزائهم، ولم يؤدوا حق الله فيه.

فهل هناك اكبر من هذا التهديد والوعيد لمن بَخَلَ بماله، وأعرض عن الله ورسوله. . . فاعتبروا يا أولي الأبواب.
قراءات:

قرأ الجمهور: سأل سائل بالهمزة. وقرأ نافع وابن عامر: سال بغير همزة. وقرأ الجمهور: تعرج بالتاء. وقرأ الكسائي: يعرج بالياء. وقرأ الجمهور: ولا يسأل بفتح الياء. وقرأ ابن كثير: ولا يسأل بضم الياء مبنياً للمجهول. وقرأ حفص وحده: نزاعة بالنصب. والباقون: نزاعة بالرفع.

٧٠٠٢ 19

خلق هلوفاً: ضجورا سريع الحزن اذا اصابه مكروه، واذا اصابه الخير فهو متاع له. حق معلوم: نصيب معين للسائل من الفقراء، والمحرور الذي لا يسأل الناس. مشفقون: خائفون. حافظون: يحفظون انفسهم عن الحرام. راعون: لا يخلون بشيء من حقوقها.
في هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى حقيقة النفس البشرية عندما يمسها شر أو خير، ويبين حقيقة الجاحدين المانعين للخير، الذين يضجرون بسرعة اذا مسهم الشر، ويمنعون أداء حق المال اذا اصابهم خير. ثم قال:

{إِلَّا الْمُصْلِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ. . .}

ان هؤلاء المتصفين بهذه الصفات الطيبة، وهي إقامة الصلاة والمداومة عليها، والذين يجعلون في أموالهم نصيباً معيناً للفقراء والمساكين، ويصدقون بيوم القيامة، ويخافون عذاب ربهم، ويحتلون بالعفة فلا يقربون إلا نساءهم او جواريتهم - فإنهم غير ملومين.

{فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}

فالذين لا يتعففون، ويجرون وراء شهواتهم في الحرام أولئك هم المعتدون الذين تجاوزوا أوامر الله ورسوله.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}

والذين يؤدّون الأمانات ويحافظون على العهود ويؤدّون شهاداتهم بصدق، ويحافظون على صلاتهم {أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ} ، هؤلاء الذين يحتلون بهذه الصفات الرفيعة - لهم الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.
قراءات:

قرأ حفص: شهاداتهم بالجمع. وقرأ الباقر: شهادتهم بالافراد. وقرأ ابن كثير: لأمانتهم بالافراد. والباقر: لأماناتهم بالجمع.

٧٠٠٣ 36

قبلك: بكسر القاف وفتح الباء، نحوك جهتك، في الجهة التي تليك. مهطعين: مسرعين، والفعل أهطع: يأتي بمعنى نظر في ذلّ وخشوع، وبمعنى أسرع. عزين: جماعات مفردة عزّة بكسر العين وفتح الزاي. بمسبوقين: بمغلوبين. الأجداث: القبور، واحداً جَدَث بفتح الجيم والذال. النصب: كل ما نصب للعبادة من دون الله، كالأصنام وما شابهها. يوفضون: يسرعون. خاشعة أبصارهم: أبصارهم ذليلة. ترهقهم: تغشاهم.

ما بال هؤلاء الذين كذبوا برسالتك مسرعين إليك، يجلسون حواليك جماعات جماعات، ليسمعوا ما تلووهم عليهم من آيات الله، ثم يرددونها فيما بينهم ساخرين!! ولا يعون ما تلقوه عليهم من رحمة الله وهدية! ومثله قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ} [المدثر: ٤٩] .
ثم بين ما لهم وأنهم لا يدخلون الجنة أبداً فقال:

{أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} .

أيطمع هؤلاء في ان يدخلوا الجنة، وقد كذبوك أيها الرسول ولم يؤمنوا برسالتك، وهم معرضون عن سماع الحق!! كلا: لا مطمع لهم في ذلك ولا نصيب. وكيف يطمعون في دخول الجنة، وهم يكذبون بالبعث والجزاء؟ وقد خلقناهم من ماء مهين.

ثم أوعدهم بأنهم إن لم يؤمنوا ويرجعوا عن كفرهم - أهلكهم واستبدل بهم قوماً غيرهم خيراً منهم فقال:

{فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} .

لقد أقسم الله تعالى برّب المشارق والمغرب (وهي مشارق الشمس ومغربها) وبقية النجوم والكواكب، فهي تشرق كل يوم من مكان، وتغرب كذلك (فمشارق الشمس متعددة وكذلك مغربها) إنه لقادر على ان يهلكهم ويأتي بخيرٍ منهم، وما هو بعاجز عن هذا التبديل.

ثم سلّى جلّ جلاله رسوله الكريم عما يقولون ويسخرون بأنهم سيلاقون يومهم الذي وعدهم الله، وهناك سيلقون جزاءهم. في ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعي كأنهم يهرولون إلى النصب التي كانوا يعبدونها في الدنيا، ولكنّ حالهم مختلف، فإنهم يأتون وأبصارهم خاشعة أذلاء تعلق وجوههم الكآبة والحزن.

{ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}

ذلك اليوم هو يوم القيامة وما فيه من أهوال عظام هو موعدهم، وفيه ينالون جزاءهم، وبئس المصير.
قراءات:

قرأ حفص وابن عامر: نُصِبَ بضم النون والصاد. وقرأ الباقون: نَصَبَ بفتح النون والصاد، وهما لغتان. او ان النصب بضم النون والصاد جمع نصب بفتح النون وسكون الصاد. والله اعلم.

٧١ نوح

٧١.١ 1

ليلاً ونهاراً: دائماً. جعلوا أصابعهم في آذانهم: سدوا آذانهم حتى لا يسمعوا. استغشوا ثيابهم: تغطوا بها لئلا يروا. يرسل السماء عليكم: يرسل المطر. مدراراً: غزيراً.

لقد اخبر الله تعالى في أول هذه السورة الكريمة أنه أرسل نوحاً إلى قومه لينذرهم بأسه قبل أن يأتيهم عذابٌ شديد. فقال نوح: يا قوم إنّي نذيرٌ لكم، فعليكم أن تعبدوا الله وحده وتطيعوه، فإن أطعتم وأمتتم يغفر لكم ذنوبكم ويمدّ في أعماركم {إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} ووقتٍ محدد، إن أمر الله اذا جاء لا يُردّ ولا يؤجل {لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} .

فعصاه قومه ولم يستجيبوا له فقال: يا رب، لقد دعوت قومي لعبادتك ليلاً ونهاراً فلم تزدهم دعوتي لهم إلا فراراً من دينك، وإني كلّما دعوتهم لتغفر لهم، سدوا مسامعهم بأصابعهم وغطوا رؤوسهم بثيابهم حتى لا يسمعوا الحق وأصروا على كفرهم {واستكبروا استكباراً} . ثم إنني دعوتهم بأعلى صوتي جهاراً، كما دعوتهم سرا، وقلت لهم: {استغفروا ربكم إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً} يُغِيثُكم ويرسل الأمطار عليكم غزيرةً تُخْصِبُ أرضكم وتُحيي زروعكم، ويمدّكم بالأموال والبنين، {وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَاراً} تجري من تحتها، لتعيشوا

بأحسن حال.

قراءات:

قرأ عاصم وحمة وابو عمرو: ان اعبدوا الله بكسر النون لالتقاء الساكنين. والباقون: أن اعبدوا الله بضم النون. وقرأ الجمهور: دعائي بفتح الياء. وقرأ الكوفيون ويعقوب: دعائي باسكان الياء كما هو في المصحف.

٧١.٢ 13

ترجون: معناه هنا تخافون، وقد يستعمل للأمل. وقارا: عظمة واجلالا. اطوارا: في حالات متعددة. طباقا: بعضها فوق بعض، او يشبه بعضها بعضا في الإتقان. بساطا: مبسوطه واسعة. فجاجا: واسعة.

قعد أن دعاهم نوح الى الله في السر والعلن، وطلب إليهم ان يستغفروه حتى يرزقهم الغيث كي يحسن وضعهم، ويمددهم بالأموالش والبنين. . وحاول ان يهذب نفوسهم بأن يتبعوا مكارم الأخلاق - استنكر نوح على قومه وتعجب من إعراضهم كيف لا يهابون الله ولا يخافون من قدرته وعظمته. {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} مختلفة فكانتم نطفة في الأرحام، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم انشأكم خلقا آخر {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤] .

ثم ينبههم إلى هذا الكون العجيب وهذه السماوات وإتقان صنعها، إذ جعل القمر فيها يشع بالنور، وجعل الشمس كالسراج تولد الضوء. ولقد خلقكم الله من هذه الأرض مثل ما أنبت النبات منها، {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} بعد الموت، فيخرجكم يوم القيامة. والله جعل لكم الأرض مبسوطة لتسلكوا فيها الطرق المريحة الواسعة أين شئتم من نواحيها وأرجائها وتسعوا في مناكبها.

٧١.٣ 21

كبارا: بضم الكاف وفتح الباء المشددة: كبيرا عظيما. لا تذرن: لا تتركن. ودا وسوعا ويغوث ويعوق ونسرا: أسماء اصنام كانوا يعبدونها. مما خطيئاتهم أغرقوا: من اجل ذنوبهم اغرقوا بالطوفان. ديّارا: احدا يعمر الديار. تبارا: هلاكا.

بعد ان يؤس نوح من قومه في هذه المدّة الطويلة التي قضاها بينهم توجه الى ربه وقال: ربّ إنهم عصوني واتبعوا طواغيتهم من الأغنياء الأقوياء الذين لن تزيدهم أموالهم وأولادهم الا خسرانا. وقد مكروا بي وبدينك مكرا كبيرا جدّا، وقالوا لا تبايعهم: لا تتركوا آلهتكم التي تعبدونها ولا تتركوا ودا ولا سوعا ولا يغوث ويعوق ونسرا. وقد أطاعهم الناس فأضلّوهم {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} . {مَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا} .

وسبب ذنوبهم أغرقهم الله بالطوفان، وأدخلوا بعد ذلك نارا عظيمة. وذلك يوم القيامة، ولم يجدوا لهم أنصارا ينجونهم من عذاب الله.

ثم قال نوح بعد يأسه الشديد: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} . .

يا رب، لا تترك على الأرض أحدا من الكافرين، إنك يا رب إن تتركهم دون هلاك {يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} .

ثم طلب نوح الغفران ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات، وأعاد الدعاء على الكافرين مرّة اخرى فقال: {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} . أي خسرانا وبعدا من رحمتك. أما سيدنا محمد الرسول العربي الكريم فإنه لم يدع على قومه بل دعا لهم أكثر من مرّة وكان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» وقد استجاب له. ونسأل الله تعالى ان يهدي العرب الى سواء الطريق ويجمع كلمتهم، ويوحّد صفوفهم ليوажها عدوهم المشترك، وان يقووا صلّتهم بجميع المسلمين {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [الشورى: ٢٩] .

قراءات:

قرأ نافع: ودا بضم الواو. والباقون: ودا بفتح الواو. وقرأ ابو عمرو: مما خطاياهم، والباقون: مما خطيئاتهم.

النفر: ما بين الثلاثة والعشرة. عجا: عجيبا بعديعا لا يشبهه شيء من كلام الناس. الجد: بفتح الجيم العظمة والوقار والقدرة. يقال جد يجد جدا: عظم، وفي الحديث «تبارك اسمك وتعالى جدك» السفيه: الجاهل، الطائش. سفه يسفه سفها وسفاها وسفاهة: خفّ وجهل وطاش. شططا: غلوا، وافراطا. يعوذون: يستجرون ويلتجئون. كان الرجل في الجاهلية اذا امسى في مكان خال يقول: أعوذُ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ولا يعوذ بالله. رهقا: إثما، وحمل المرء على ما لا يطيق.

قل يا محمد لأمتك: أوحى الله إليّ أنه استمع إلى تلاوة القرآن جماعة من الجن فدهشوا من عظمتِهِ وبلاغته فقالوا لقومهم: إنا سمعنا قرآناً بديعاً لم نسمع مثله من قبل، فدهشوا من عظمت ه وبلاغته فقالوا لقومهم: إنا سمعنا قرآناً بديعاً لم نسمع مثله من قبل، يدعو الى الهدى {فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} . وقل لهم: إنه جلّ وعلا ما اتخذ زوجةً ولا ولداً. وعلى لسان الجن أخبرهم يا محمد انه كان يقول سفهاؤنا على الله قولاً بعيداً عن الحق والصواب، وأنا كنا نظنّ أن لن يكذب احد على الله تعالى فينسب اليه الزوجة والولد، ويصفه بما لا يليق به. وكذلك أخبر قومك يا محمد أن بعض الجن يقولون إن رجالاً من الانس كانوا يستعيذون برجال من الجن ولا يستعيذون بالله فزادهم الجن ضلالاً وطغياناً. وأن الجن ظنوا كما ظننتم معشر الانس، ان الله لن يبعث أحداً بعد الموت ولن يبعث رسولاً من البشر إليهم.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وحفص: وأنه تعالى بفتح الهمزة وكل ما هو معطوف عليها، وذلك في احد عشر موضعاً الى قوله تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ. . .} . وقرأ الباقون بكسر الهمزة في هذه المواضع كلها الا في قوله تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} [الجن: ١٨] فانهم اتفقوا على الفتح.

اما من قرأ بالفتح في هذه المواضع فعلى العطف على قوله «فَأَمَّا بِهِ» كأنه قيل فصدقناه وصدّقنا انه تعالى جد ربنا الخ. . . واما من قرأ بالكسر في هذه المواضع فعلى العطف على: {إِنَّا سَمِعْنَا. . .} .

لقد أراد الجن ان يستمعوا خبر السماء فوجدوها {مُلْتِ حَرَساً شَدِيداً وَشُهْباً} تنقّض عليهم، وقالوا: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً} يهلكه ويحرقه.

وان الجن قالوا: نحن لا نعلم، أعذاب أريد بمن في الأرض من هذه الحراسة الشديدة على السماء لمنع الاستماع، أم أراد بهم ربهم خيراً وهدى.

وان الجن منهم الأبرار الصالحون، ومنهم دون ذلك {كُنَّا طَرَّائِقَ قِدَدًا} وفرقاً شتى وأهواء مختلفة.

وأنا أيقننا أنا لن نعجز الله أينما كنا في الأرض، ولن نعجزه هرباً من قضائه، فإن الله قادر علينا حيث كنا.

وأما لما سمعنا القرآن آمناً به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف نقصاً من حسناته، ولا ظلماً يلحقه أبداً.

وأنا فريقان: مسلمون مقرّون بالحق، وقاسطون جائرون عادلون عن الحق، فمن أسلم {فَأُولَئِكَ نَحْرَوْنَ رَشَدًا} وقصدوا سبيل الحق، {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} يوم القيامة.

الى هنا انتهى كلام الجن. ثم عاد الحديث الى ذكر ما أوحى الى الرسول الكريم فقال تعالى: {وَالْوِاسْتِقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا} .

أوحى الله إلى الرسول الكريم ﷺ أنه لو استقام الانسُ والجنُّ على الحقِّ والعملِ بشريعة العدل، ولم يَحِيدُوا عنها - لأسقيناهم ماءً غزيراً، ولرزقناهم سعة في الرزق ورخاء في العيش. يقال سقاه وأسقاه. والفعالان وردا في القرآن الكريم. ولنختبرهم، كيف يشكرون الله نعمه عليهم.

{وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا}. أي عذاباً شديداً. ومن يغيّر أو يبدّل، ولا يتّبع أوامر الله ونواهيه يُدْخِلْهُ اللهُ عَذَاباً شاقاً لا يطيقُ له حملاً. قراءات: قرأ هل الكوفة ويعقوب: يسلكه بالياء. والباقون نسلكه بالنون.

٧٢.٣ 18

المساجد: جمع مسجد، موضع السجود للصلاة والعبادة، وتشمل جميع المعابد. فلا تدعوا: فلا تعبدوا. عبد الله: محمد ﷺ. لبدا: بكسر اللام وفتح الياء، جماعات والمراد: متراكمين متزاحمين. وسيأتي انه قرئ: لبدا بضم اللام وفتح الباء، وهما لغتان. ولا رشدًا: ولا نفعاً. ملتحداً: ملجأً وملاذاً. امدًا: غاية. رصدًا: راصداً يرصده.

قل أوحى إليّ أن المساجدَ لله فلا تعبدوا فيها مع الله أحداً. وانه لما قام محمد ﷺ يعبدُ اللهَ ويقرأ القرآنَ كاد الجنُّ يكونون مزدحمين عليه جماعاتٍ، نعبّاص مما رأوه وسمِعوه.

وقال بعض المفسرين: لما قام عبدُ الله بالرسالة يدعو الله وحده مخالفاً المشركين في عبادتهم الأوثان، كاد الكفار لتظاهروا بهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون متراكمين جماعاتٍ جماعات.

قل يا محمد لأولئك الذين خالفوك: إنما أعبدُ اللهَ ربِّي ولا أشركُ به في العبادة أحداً. ثم بين انه لا يملك من الأمر شيئاً وأن كل شيء بيد الله: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}.

لست أملك لكم دفعَ ضررٍ ولا تحصيلَ هدايةٍ ونفع، وإنما الذي يملك ذلك كله هو الله تعالى. ثم بين الكتاب عجز الرسول عن شئون نفسه بعد عجزه عن شئون غيره فقال: {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}.

إنه لا يجيرني من الله ولا يدفع عني عذابَ الله إن عصيته أحد، ولن أجِدَ من دونه ملجأً ولا ملاذاً، ولن ينصرني منه ناصر. {إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} {إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا تَبْلِيغًا عَنِ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا. ثم بين جزاء الذين يعصون الله ورسوله فقال:

{وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا}.

ومن يعص الله فيما أمر به، ويكذب برسوله - فإن جزاءه نارُ جهنم يصلّاها خالداً فيها ابداً. {حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَبُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا}.

وعندما يرون جهنم والعذاب الذي أُعدَّ لهم سيعلمون من هم المستضعفون؟ المؤمنون الموحدون لله تعالى أم المشركون الذين لا ناصر لهم ولا معين!

ثم أمر الله رسوله الكريم أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد، فهو لا يعلم شيئاً من الغيب إلا إذا أعلمه الله به. وهذا معنى قوله:

{إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} .

الا رسولا ارتضاه لعلم بعض الغيب، فإنه يدخل من بين يدي الرسول ومن خلفه حفظة من الملائكة تحول بينه وبين الوسوس، فالله يَصُونُ رُسُلَهُ ويحفظهم من كل شيء.

{لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ} وقد علم تفصيلاً بما عندهم، {وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} فعلم عدد الموجودات كلها، لا يغيب عنه شيء منها.

قراءات:

قرأ ابن عامر: لبدا بضم اللام. والباقون لبدا بكسر اللام وفتح الباء. وقرأ عاصم وحمة: قل انما ادعو ربي بفعل الأمر، والباقون: ق لانما ادعو ربي بالفعل الماضي.

وهكذا انتهت هذه السورة الكريمة برد كل شيء اليه تعالى، وانه يراقب كل شيء حتى رسله الكرام.

٧٣ المزمّل

٧٣.١ 1

المزمّل: المتلفف بثيابه ومثله المتزمل، يقال أزمّل وتزمل بثوبه التّف به وتغطى، وزمّل غيره اذا غطاه. . رتل القرآن ترتيلاً: اقرأه على مهل وبين حروفه بوضوح. قولاً ثقيلاً: الوحي وما فيه من كلام عظيم وتكاليف شاقة. ناشئة الليل: الاستيقاظ من النوم والقيام للصلاة. أشدّ وطأ: اكثر مشقة. وأقوم قيلاً: أثبت قراءة وأصوب، لحضور القلب وهدوس الاصوات. سبّحاً: تقبلاً وتصرفاً في مهام امورك، واشتغالا في امور الرسالة. وتبتّل اليه تبتيلاً: انقطع الى الله وأخلص اليه. واتخذ وكلاً: فوض كل امورك اليه.

هذه الآيات من أول ما نزل من الوحي على الرسول الكريم ﷺ، وقد روي في الاحاديث الصحيحة أنه لما جاءه جبريل وهو في غار حراء في أول الوحي خافه الرسول، وظن ان به هو مساً من الجن، فرجع من غار حراء مرتعداً يرجف فؤاده، فقال لأهله: زمّلوني وملوني، لقد خشيت على نفسي. واخبر خديجة الخبر. فنزلت هذه الآيات:

{يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ لَيْلٍ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} .

يا أيها المتلفف بثيابه، قم في الليل وانشط للصلاة، لتستعدّ للأمر الجليل، وهو تبليغ دعوة ربك للناس. ثم بين له المقدار الذي يصلّيه: نصف الليل، أو أقل من النصف، أو زد عليه بقدر ما تستطيع، وقرأ القرآن بياناً ووضوحاً وترتيباً. . . . وهذا قبل ان تُفرض الصلوات الخمس.

ثم أخبره تعالى بأنه سيلقي عليه قرآناً عظيماً فيه تكاليف شاقة على المكلفين، فاستعدّ لهذا الأمر يا محمد. ثم بين له بوضوح أن الصلاة بالليل والنهوض للعبادة شديد الوطأة، ولكنه أقوم وأثبت لقراءة القرآن، لحضور القلب، ولأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع الحركة، فيكون الذهن أجمع، والنفس أصفى للتدبر والتأمل في أسرار القرآن الكريم.

{إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}

ان لك في النهار وقتاً طويلاً تصرفه في العمل والاشتغال بأمور الرسالة، ففرغ نفسك في الليل لعبادة ربك. ثم انتقل بعد ذلك إلى أمر الرسول الكريم بتبليغ الدعوة والانقطاع لذلك وتفويض أموره كلها إليه:

{وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}

استعن على تبليغ دعوتك بذكر الله، وانقطع إليه في عبادتك وأمورك جميعها.

ثم بين له أنه ليس هناك إلا الله وحده، فاتجه إليه بالعبادة، هو مالك هذا الكون العجيب الكبير، {فاتخذهُ وَكِيلًا} وفوض أمورك إليه، واستمدّ القوة والعون منه لتحمل العبء الثقيل الذي القي عليك.

قراءات:

قرأ ابن عامر وابو عمرو: وطاء بكسر الواو وفتح الطاء وبعدها الف. والفعل واطأ يواطئ مواطأة ووطاء. وقرأ الباقون: وطئا بفتح الواو وسكون الطاء. والفعل وطئ وطئا. وقرأ أهل الكوفة غير حفص ويعقوب: رب المشرق، بكسر الباء. والباقيون: رب المشرق برفع الباء.

٧٣.٢ 10

هجراً جميلاً: تبعّد عن خصمك بلا عتاب ولا اذى. أولي النعمة: بفتح النون، اصحاب النعم المتنعمين بأموالهم واولادهم. النعمة بفتح النون: الرفاهية وطيب العيش. والنعمة بكسر النون: ما أنعم الله به على الانسان من رزق ومال وغيره. مهّ لهم وأمهّ لهم: اتركهم برفق وتأنّ ولا تهتم بشأنهم. أنكالا: جمع نكل (بكسر النون) وهو القيد الشديد. ويقال: فلان نكل شر. وطعاماً ذا غصة: هو الطعام الذي لا يستساغ، يقف في الحلق فلا يدخل ولا يخرج. الكثيب: الرمل المجتمع كالتل، جمعه كثبان وكثب وأكثبة. مهّلاً: ينهال ويتحرك من الرياح ولا يثبت. أخذاً وبيلاً: اخذاً ثقيلاً. منفطر: متصدع، متشقّق.

بعد ان بين الله لعباده كيف تكون العبادة وكان ذلك في أوائل الدعوة - أدب الرسول الكريم بآداب رفيعة يعامل بها المكذّبين. اصبر أيها الرسول على أذى سفهاء قومك، ولا تكثرث بما يتقولون عليك مثل قولهم: «ساحر أو شاعر أو مجنون» او غير ذلك من الأباطيل. ابتعد عنهم، ولا تتعرض لهم بأذى وخالفهم في الأفعال، مع المداراة والحلم والصبر.

ثم أمر رسوله ان يترك أمر المشركين إليه، أولئك الذين أبطرتهم النعمة، فالله هو الكفيل بمجازاتهم وسوف لا يكون ذلك طويلاً. ثم ذكر أنه سيعذبهم بالأنكال والقيود الشديدة والنار المستعرة، وبالطعام الذي لا يستساغ بل ينشب في الحلق، وبالعذاب الأليم.

متي يكون هذا؟ سيكون:

{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا} .

ذلك يوم القيامة، يوم تزلزل الأرض وتصير الجبال مفتتة كالرمال التي تنهال ولا تثبت على حال ثم تنسف نسفاً، فلا يبقى منها شيء. وبعد ان خوف المكذّبين بأحوال القيامة بين لهم ما لقي من قبلهم من المم السالفة وما حلّ بهم من العذاب والدمار فقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} .

إنا أرسلنا اليكم يا أهل مكة والعرب والعالم اجمع محمداً يشهد عليكم يوم القيامة، كما أرسلنا الى فرعون موسى يدعوه إلى الحق، فعصى فرعون الرسول الذي أرسلناه اليه، فأخذناه أخذاً شديداً، حيث أهلكناه ومن معه بالغرق. فاحذروا ان تكذبوا رسولكم، فيصيبكم مثل ما أصابه. ثم أعاد تهديدهم وتخويفهم بعذاب الآخرة فقال: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مَنفُطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا}

إن كفرتم وأصررتم على جحودكم فكيف تتقون عذاب ذلك اليوم الذي يشيب لهولهُ الأطفال، وتنشق السماء! ووعده الله واقع لا محالة، والله لا يخلف وعده.

ثم بعد ما بين ما يقع في ذلك اليوم من أهوال مخيفة أخذ يذكرهم بأن هذه الأشياء التي قدّمها ما هي الا موعظة، فمن شاء الانتفاع بها {اتخذ إلى ربه سبيلاً} فاختر طريق السلامة بالإيمان والتقوى. . . . وهذا من الترغيب في الأعمال الصالحة بعد ذلك الترهيب والتخويف.

أدنى: أقل. يقدر الليل والنهار: يقدر طول الليل والنهار وقصرهما ويعلم مقاديرهما واجزاءهما وساعاتهما. فتاب عليكم: تخفف عنكم بأن تصلوا ما تستطيعون وما تطيقون. فاقروا ما تيسر من القرآن: فصلوا ما يمكنكم وما ييسر لكم من صلاة الليل. ثم تُختم السورة بهذه الآية الطويلة وفيها تخفيف ورحمة للمؤمنين. ويقول معظم المفسرين إن هذه الآية نزلت بعد عام من نزول سورة المزمل.

إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم أقل من ثلث الليل أحياناً، وتقوم نصفه وثلثه في بعض الأحيان، وإن طائفة من أصحابك كذلك تقوم من الليل كما تقوم أنت، والله يقدر طول الليل والنهار، وهو يعلم أنكم لا تستطيعون احصاء اجزاء الليل والنهار (لأنه لم يكن عندهم ساعات يضبطون فيها الاوقات). تخفف الله عليكم للاعذار التي تحيط بكم من مرض او سفر او جهاد للعدو، ولذلك صلوا ما تستطيعون من صلاة الليل، وواظبوا على الصلاة وأداء الزكاة. وتصدقوا في سبيل الخير، على الفقراء والمساكين والاعمال العامة. {وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ} .

أي شيء تفعلوه من وجوه البر والخير والإحسان تلقوا ثوابه عند الله بأضعاف ما قدّمتموه. . . . فاستغفروا الله من فعل السيئات والتقصير في الحسنات، إن الله غفور رحيم دائماً وأبداً. وقوله تعالى: {وآخِرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} دليل من دلائل النبوة، لأن الآية مكية، والجهاد لم يفرض إلا بعد الهجرة. قراءات:

قرأ نافع وابن عامر وابو عمرو: ونصفه وثلثه بالجر، والباقيون: ونصفه وثلثه بالنصب. والحمد لله أولاً وآخراً.

٧٤ المدثر

٧٤.١ 1

المدثر: أصله المتدثر وهو الذي يتغطى بثيابه ويلتف بها. أنذر: حذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا. كبر: عظم. وثيابك فطهر: اعتن بالنظافة في ثيابك وفي نفسك. تقول العرب عن الرجل إذا نكث العهد ولم يف به: انه لدنس الثياب. وإذا وفي ولم يغدر: انه طاهر الثوب. فالمطلوب: تطهير النفس والثياب والجسم. الرجز: الذنب، وكل محرم، وعبادة الاوثان. ولا تمنن تستكثر: لا تمن بعملك على غيرك، ومعنى تستكثر: لا تستكثر ما أعطيت وبذلت. الناقور: الصور الذي ينفخ فيه يوم القيامة. يا أيها الذي تدثر بثيابه رعباً وخوفاً من رؤية الملك، قم وشمر عن ساعد الجد، وأنذر الناس عذاب يوم عظيم، وادعهم الى الدين القويم، وليتركوا عبادة الأوثان وما عندهم من الخرافات. . ادعهم إلى معرفة الحق لينجوا من هول شذلك اليوم العظيم. {وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ}

عظم ربك، وخُصّه وحده بالتعظيم. وطهر ثيابك وجسمك ونفسك، والطهارة أساس عظيم في دين الاسلام. يقول الاستاذ بثنام في كتابه أصول الشرائع: ان كثرة الطهارة في دين الإسلام تدعو معتقية إلى رقي الأخلاق والفضيلة إذا قاموا باتباع أوامره خير قيام. {والرجز فاهجر. . .}

اهجر المعاصي والآثام وابتعد عن الغرور والمن فيما تعلم وتعطي، ولا تمنن على أصحابك فيما تعلمهم وتبلغهم عن الوحي مستكثراً ذلك عليهم، ولا تستكثر أي شيء بذلته للناس، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً، وأعط عطاءً من لا يخاف الفقر. وفي هذا تعليم لنا أ، نعطي ما استطعنا من غير من ولا أذى.

{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}

اصبر في أداء رسالتك على أذى قومك، ابتغاء وجه ربك، ولا تجزع من أذى من خالفك. وبعد ان وجه الله الرسول الكريم الى التحلي بمكارم الاخلاق، والبعد عن الجفاء والسفه وكل ما لا يليق بأصحاب المقامات العالية - أتى بوعيد الاشقياء وما سيلقونه من عذاب فقال:

{فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاظِرِ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} .

فاذا جاء وعد ربك ونفخ في الصور فذلك اليوم يوم شديد الهول على الكافرين، غير هين ولا يسير، وليس له مثيل {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج: ٢] . هل يوجد اعظم من هذه الصورة لذلك اليوم؟ حسبنا الله ونعم الوكيل!!

٧٤.٢ 11

ذرني ومن خلقت وحيدا: اتركني واياه ولا تشغل قلبك به. وهذا الفعل لا يستعمل منه الا فعل الأمر والمضارع، فلم تستعمل العرب منه الفعل الماضي. ذرني وفلان: كله إلي. . . . وحيدا: خلقت في بطن امه وحيدا لا مال له ولا ولد. وكان يقال للولد بن المغيرة: الوحيد، لانه وحيد في قومه، فماله كثير، من ابل وخيل وغنم وتجارة وزرع وعبيد وله عشرة ابناء الخ. . . . ممدودا: كثيرا. شهودا: حضورا معه يتمتع بمشاهدتهم. ومهدت له تمهيدا: بسطت له الرياسة والجاه العريض. سأرهقه صعودا: ساكفه عقبة شاقة لا تطاق، وهذا كناية عن العذاب الشديد. وقدر: هيا ما يريد. فقتل كيف قدر: لعنه الله كيف قدر ما قاله من الطعن في القرآن. عبس: قطب ما بين عينيه. وبسر: كلح وجهه وظهرت الكراهية عليه. سحر يؤثر: ينقل ويروى. سأصليه سقر: سأدخله في جهنم. لا تبقي ولا تذر: لا تبقي لحما، ولا تترك عظما الا أحرقت. لواحة للبشر: تسود بشرتهم. عدتهم: عددهم. فتنة: اختبار وامتحان. ذكرى: تذكرة وموعظة للناس.

في هذه الآيات عرض لذكر أحد زعماء قريش الكبار، هو الوليد بن المغيرة. وكان من اكبر أثرياء قريش ورؤيائها، يقال له «العدل» لأنه كان عدل قريش كلها، إذ كانت قريش تكسو البيت، والوليد يكسوه وحده. وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، ولكنه أدرك الإسلام وهو شيخ كبير وعادى النبي عليه الصلاة والسلام وقاوم دعوته بشدة. وقد سمع القرآن وتأثر به وقال عنه: لقد سمع من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن. . والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وأنه يعلو ولا يُعلو عليه.

ومع ذلك فقد بقي على عناده وكفره وجمع قريشا وقال لهم: «إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد، فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحدا مما يقولون. ولكن أصلح ما قيل فيه أنه ساحر، لأنه يفرق بين المرء وأخيه والزوج وزوجته». وقد مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر، وأسلم من اولاده خالد بن الوليد وهشام وعمارة، والوليد بن الوليد.

دعني ومن خلقت وحيدا فإني سأكفيك أمره، هذا الذي أنعمت عليه بمال كثير، وعشرة بنين يحضرون معه المحافل ويتمتع بمنظرهم و {ومهدت له تمهيدا} وبسطت له الرياسة والجاه العريض والسيادة في قومه، فكان سيذا مطاعا عزيزا، ثم يطمع ان أزيد في ماله وبنيه وجاهه بدون شكر، {كلا} لا أفعل ولا أزيد. وقال المفسرون: وقد تبدلت حال الوليد بعد نزول هذه الآية ومات على أسوأ حال.

{إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِيَا عَنِيدًا}

انه كان للقرآن معاندا مكذبا.

{سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا}

سأكلفه عذاباً شاقاً لا راحة فيه.

{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ}

انه فكر وزور في نفسه كلاما في الطعن في القرآن بعدما سمعته وأعجبه، قاتله الله ولعنه، كيف قدر وقال لقريش إن محمداً ساحر، وان هذا القرآن سحر يؤثر ويروى.

{ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}

ثم نظر في وجوه الناس، ثم قطب وجهه وزاد في كُلوحه، ثم أعرَضَ عن الحق الذي عرفه، وتعاضل ان يعترف به {فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} ينقله الرواة عن الأولين، ونقله محمد عن غيره ممن كان قبله من السحرة.

{إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}

ما هذا الا قول الخلق تعلبه محمد وادعى أنه من عند الله.

ثم بين الله تعالى ما هو جزاؤه يوم القيامة فقال:

{سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}

سأدخله جهنم ليحترق بها ويدوق أشد العذاب، وما أدراك ما جهنم؟ إنها لا تبقي لحماً ولا تترك عظماً الا أحرقت، تأكل الأخضر واليابس كما يقولون، وانها تلوح الوجوه والبشرة وتسودها، عليها تسعة عشر من الملائكة موكلون بها، كما جاء في قوله تعالى ايضاً: {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحریم: ٦] .

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً. . . .}

وما جعلنا خزنة النار الا ملائكة تقدم وصفهم بالشدة والغلظة، وما جعلنا عدتهم تسعة عشر الا فتنه واختباراً للذين كفروا، وذلك.

{لَيْسَتِيقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} .

ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبو محمد لموافقة ما جاء في القرآن لكتبهم، فقد شهد عدد من علماء اليهود والنصارى آنذاك ان عدة الخزنة تسعة عشر.

{وَيَزِدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} .

ولكي تطمئن قلوبهم بذلك، ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون بالله في حقيقة ذلك العدد.

{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} .

وليقول المنافقون والمشركون الكافرون: ما الذي أراده الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل؟

{كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ} .

والله تعالى كما أضل المنافقين والمشركين يضل من خلقه من يشاء فيخذله عن إصابة الحق، ويهدي من يشاء منهم فيوفقه إلى الخير والهدى. وما يعلم جنود ربك ومقدارهم إلا هو سبحانه وتعالى. {وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ} وما سقر إلا تذكرة للبشر وتخويف لهم.

٧٤.٣ 32

كلاً: تأتي لمعان أربعة:

الأول: ان تكون للردع والزجر، وهو الغالب في استعمالها، مثل قوله تعالى {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦١، ٦٢] والمعنى انتهوا عن القول.

الثاني: ان تكون للرد والنفي قترّد شيئاً وثبت آخر مثل ان يقول المريض الذي لم يعمل ينصح طبيبه: شربت ماء، فيقول الطبيب: كلا، بل شربت لبناً. معناه ما شربت ماء، ولكن شربت لبناً.

الثالث: تكون بمعنى ألا، يُستفتح بها الكلام للتنبيه، مثل قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا} [العلق: ٦، ٧].

الرابع: ان تجيء جواباً بمعنى حقاً وتكون مع القسم، مثل قوله تعالى هنا: {كَلَّا وَالْقَمَرِ} ومعناه حقاً، وأقسم بالقمر الخ. . . . أدبر: ولى. أسفر: اضاء. انها لإحدى الكبر: غن جهنم لإحدى الدواهي الكبيرة. رهينة: مرتهنة بعملها. ما سلككم: ما ادخلكم. نخوض مع الخائضين: نخاط اهل الباطل في باطلهم وكثر من الكلام الذي لا خير فيه. حتى أتاها اليقين: حتى اتانا الموت. مستنفرة: نافرة، هاربة. القسورة: الأسد. منشرة: منشورة.

كلا: لا سبيل لكم إلى إنكار سقر وصفتها الخيفة. وأقسم بالقمر، وبالليل إذا ولى وذهب، وبالصبح إذا تبّج وأضاء - إن جهنم لإحدى البلايا الكبار والدواهي العظام لإندار البشر لمن شاء ان يقبل الإنذار او يتولّى عنه.

وهذا تهديد وإعلام بأن من تقدم الى الطاعة والايان بحمد ﷺ جازاه الله بثواب لا ينقطع ابداً، ومن تأخر عن الطاعة ولم يؤمن بحمد عوقب عقاباً لا ينقطع ابداً.

{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}

فهي محبوسة بعملها، مرهونة عند الله بكسبها. {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} لأنهم فكّوا رقابهم بحسن أعمالهم، وبطاعتهم وإيمانهم. . . ولذلك فانهم {فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمَجْرِمِينَ} ؟ .

فقد جزاهم الله أحسن الجزاء فهم في غرفات الجنات يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين. ويقولون لهم: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟} ما الذي ادخلكم جهنم؟ فاجابوهم أن هذا العذاب الذي هم فيه سببه اربعة أمور:

الاول: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ} لم نصل مطلقاً لاننا لم نكن نعتقد بوجوب الصلاة علينا.

الثاني: {وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ} ولم نكن من المحسنين، ولم نتصدق بفضل اموالنا على الفقراء والمساكين.

الثالث: {وَكُنَّا نَخْضُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} وكنا لا نبالي بالخوض في الباطل مع من يخوض فيه، ونكثر من الكلام الذي لا خير فيه: في حق محمد واصحابه، وفي امر القرآن فنقول انه سحر وشعر وكهانة.

الرابع: {وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ} وكنا نكذب بيوم القيامة، ولم يؤمن بالبعث والنشور والجزاء والحساب، {حتى أتاها اليقين} حتى جاءنا الموت فعرفنا اننا كنا في ضلال تأهين.

ولذلك قال الله تعالى معقبا على اعترافهم بجرمهم {فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} فهم بعد اتصافهم بهذه الصفات واعترافهم بجريمتهم لا يمكن ان يشفع لهم احد، لأن لهم النار خالدين فيها ابداً.

ثم اكد توبيخهم والتقريع عليهم بقوله:

{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ؟}

فما لهم عن التذكير بالقرآن والعظة به منصرفين، كأنهم حمير فرّت من اسدٍ يطاردُها ليفترسها.

ثم بين انهم بلغوا في العناد حداً لا يتقبله عقل، فقال:

{بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}

فكل واحد منهم يريد ان ينزل عليه كتاب مفتوح من السماء. وكانوا يقولون: إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءة من النار (كلا): زجر وتوبيخ على اقتراحهم لتلك الصحف، {بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ} لانهم لم يؤمنوا بها. {كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ} حقا ان القرآن تذكرة بليغة كافية، فمن شاء ان يذكره ولا ينساه فعل.

وما يذكرون الا بمشيئة الله، هو أهل لأن يتقى، وأهل لأن يغفر لمن اتقاه. . بابه مفتوح دائماً. والحمد لله رب العالمين.
قراءات:

قرأ الجمهور: اذا دبر اذا بالف بعد الذال، ودبر بوزن ضرب. وقرأ نافع وحمة وحفص: اذا ادبر، اذا بسكون الذال، وأدبر بوزن أكرم. ودبر وأدبر لغتان.

٧٥ القيامة

٧٥.١ 1

لا أقسم بيوم القيامة: ان الامر لا يحتاج الى قسم لأنه في غاية الوضوح. ولا أقسم بالنفس اللوامة: لأن البعث حق لا شكل فيه. اللوامة: هي النفس التوافة الى المعالي التي تندم على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم تستكثر منه. البنان: مفردا بنانة ونهي اطراف الاصابع. ليفجر أمامه: ليدوم على فعل المعاصي ولا يتوب الى الله. أيان يوم القيامة: متى يوم القيامة. برق البصر: تحير من الخوف والفرع. خسف القمر: ذهب ضوءه. لا وزر: لا ملجأ. ينبأ: بخبر. معاذيره: اعذاره. لتعجل به: لتأخذه على عجل مخافة ان ينفلت منك. قرآنه: قراءته.

اقسم الله تعالى تعظمة يوم القيامة، وبالنفس الكثيرة اللوم لصاحبها على الذنب والتقصير في الخير - لتبعث أيها الناس ولتحاسبن على ما فعلتم. أيحسب الانسان بعد ان خلقناه من عدم ان لن نجعل ما يلي من عظامه بعد ان تفرقت في الأرض! بلى نحن قادرون على ذلك وعلى أعظم منه، فنحن قادرون على ان نسوي بنانه على صغرها ولطافتها، وضم بعضها الى بعض، فكيف بكبار العظام! ان من يقدر على جمع العظام الصغار فهو على غيرها من الجبار أقدر.

واعلم ان عظام اليدين ثلاثون، وعظام اصابع الرجلين ثمانية وعشرون، فيكون مجموعهما ثمانية وخمسين، وهذه عظام دقيقة وضعت لمنافع لولاها ما تمت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع وغير ذلك مما لا يحصى. فلولا دقة هذه العظام وحسن تركيبها ما انتظمت الاعمال المترتبة على اليدين. وكذلك الفقرات، تعددت ولم تجعل عظمة واحدة، لانها لو جعلت واحدة لعاقبت حركة الانسان. وقد جعلت فقرات متتالية ليكنه الحركة والسكون، ويكون ذلك سهلا عليه ايما كان، فلولا الفقرات وتفصيلها لم يقدر الانسان على الانحاء للاعمال والحركات المختلفة، بل يكون منتصبا كالخشب. ومجموع العظام في جسم الانسان مئتان وثمانية واربعون قطعة، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤] .

{بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ} .

بل يريد الانسان ان يتحدى في عصيانه وفجوره الى آخر لحظة من عمره ولا يتوب الى الله. ويسأل مستهزئاً: متى يوم القيامة؟ ونحو الآية قوله تعالى وقد تكرر كثيرا: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥] .

وقد أجاب الله تعالى على هذا السؤال بان لها علامات بين ثلاثاً منها بقوله الكريم:

{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ؟} .

فاذا تحير البصر وزاغ من شدة الهول ومن عظيم ما يشاهد، وذهب نور القمر، وجمع الشمس والقمر إيذاناً بخراب هذا الكون - عند ذلك تقوم القيامة، ويتحقق الانسان من صحة قيامها ويقول من دهشته وتحيره: اين المفر من هذه الكارثة التي حلت فيه؟ فيأتي الجواب: {كَلاَّ لَا وَزَرَ} .

كلا ايها الانسان، لا شيء يعصمك من أمر الله، ولا ملجأ ولا جبل ولا شيء يقيك من العذاب. كما قال تعالى ايضا: {مَا لَكُمْ مِّنْ مَّجَاءٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ} [الشورى: ٤٧] . ثم بين حقيقة الحال فيقول:

{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} .

المرجع الى الله في ذلك اليوم الرهيب .

{يُنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} .

وفي ذلك اليوم تنشر الصحف ويخبر الانسان بجميع اعماله: أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] .

ثم بين الله تعالى ان اعظم شاهد على المرء هو نفسه فقال:

{بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} .

الانسان يعلم ما فعل وما ترك وهو حجة بينة على نفسه، فلا يحتاج الى ان ينبئه غيره، فسمعه وبصره وجوارحه تشهد عليه، وسيحاسب على فعله مهما أتى بالاعذار {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: ٢٤] .

{لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} .

في هذه الآيات الأربع توجيه وطمأنينة للرسول الكريم بان امر الوحي، وحفظ القرآن وجمعه وبيان مقاصده - كل أولئك موكول الى الله، فالخطاب للرسول ﷺ اذا تلا عليك جبريل القرآن فلا تعجل وتتابعه في القراءة مخافة ان يفوتك شيء منه، فنحن نجعله بكامله في قلبك، ان علينا جمعه في قلبك . واثبات قراءته في لسانك، فاذا قرأه رسولنا عليك فاتبع يا محمد قراءته منصتاً لها، ثم علينا بعد ذلك بيانه، وعصمتك من الخطأ والنسيان وبيان احكامه . وفي سورة طه ١١٤: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} . وفي هذا تعليم لنا حتى نتأدب بأدب القرآن ونتدبر آياته.

قراءات:

قرأ الجهمون: برق البصر بكسر الراء، وقرأ نافع: برق بفتح الباء والراء.

٧٥.٢ 20

ناضرة: حسنة مشرقة، متهللة بما ترى من النعيم. ناظرة: تنظر الى ربها. باسرة: عابسة كالحة. فاقرة: داهية عظيمة تكسر عظام الظهر. التراقي: جمع ترقوة، عظم في اعلى الصدر. من راق: من يرقه ويخيه مما هو فيه. الفراق: فراق الدنيا والاحباب والاصحاب. التفت الساق بالساق: التوت احدى الساقين على الأخرى عند نزع الروح. المساق: المرجع والمآب الى الله. يتخطى: يتبخر في مشيته تكبرا وخيلاء. أولى لك فأولى: هذه العبارة دعاء على العاصي المتكبر بمعنى ويل لك ثم ويل لك وهلاك لك ايها المكذب. سدى: مهملا لا يسأل. نطفة: ماء قليلا، والجمع نطاف ونطف. يمخى: يراق ويصب في الارحام. علقمة: قطعة دم جامد. {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} .

الخطاب هنا يعود لكل من انكر البعث والجزاء وآثر الدنيا ومتاعها، ولم يعمل للآخرة ليس الأمر كما تقولون من أنكم لا تبعثون بعد مماتكم، بل أنتم تحبون الدنيا وملذاتها، وتركون الآخرة ونعيمها.

ثم وصف ما يكون يوم القيامة بأن الناس ينقسمون الى فريقين: أبرار وجوهم مشرقة حسنة مضيئة تشاهد عليها نضرة النعيم، تنظر الى ربها عياناً بلا حجاب. ووجوه يومئذ كالحة شديدة العبوس، يتوقع ان تنزل بها داهية تقصم الظهر.

وبعد ذكر احوال القيامة، ووصف سعادة السعداء وشقاوة الاشقياء - بين ان الدنيا نهاية، وأن الموت مصير كل الناس. وان الكافر أضاع الفرصة في الدنيا، فلا هو صدق بأوامر الدين ولا أدى فرائضه، وبين انه لا بد من الجزاء على صالح الأعمال وسيئها، وإلا تساوى المطيع والعاصي، وهذا خلاف العدل، ولا يليق بخالق الكون العادل الحكيم. وانه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الانسان من مني

يُمْنِي، فَأَهْوَنَ عَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَهُ خَلْقًا كَمَا قَدَّرَ عَلَى الْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَأَوْجَدَ الْإِنْسَانَ مِنْ مَنِيِّ يُمْنِي، فَأَهْوَنَ عَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَهُ خَلْقًا آخَرَ.
{كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ لَهَا مِنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ}

ازدجروا وتنبهوا الى مصيركم وارتدعوا عن حب الدنيا التي تفارقونها، اذا بلغت الروح عظام النحر، وقال أهل الميت والحاضرون: هل هناك أحد يرقيه ويشفيه مما به؟ وأيقن المحتضر أنه مفارق الدنيا والأهل والمال والأصحاب وبلغت به الشدة اقصاها {والتفت الساق بالساق} فالتوت احدهما على الأخرى وخرجت الروح. {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} الى خالقك المرجع والمآب، فإما الى جنة واما الى النار {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمْتَطِي} .

فما صدق هذا الجاحد بوحداية الله، ولا أدى ما عليه من الصلوات، ولكن كذب القرآن، فاعرض عن الايمان، وتولت عن طاعة الله، ثم راح يمشي مشية تكبر وخيلاء افتخارا بما صنع.

{أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى}

ويل لك مرة بعد أخرى، وهذا تهديد ووعيد معناه أولاك الله ما تكرهه، والنار أولى بك وأجدر.

ثم اقام الله الدليل على البعث بقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} وهذا ليس عدلا، اذ لا بد من حياة اخرى يجازى فيها كل انسان بما فعل، ولا بد من الجزاء على صالح الاعمال وسيئها، والا تساوى المطيع والعاصي، وذلك ليس عدلا، وهذا لا يليق بالحكيم العادل، الذي خلق هذا الكون المنتظم.

ثم بين انه خلق الانسان من شيء صغير لا يرى، وجعله بهذه المنزلة وهذا التركيب واعادته اهون عليه فقال:

{أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً نَحْلَقُ فَسَوَى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} .

الم يكن الانسان نطفة في صلب ابيه، وأودعها الرحم، وخلق من شيء لا يرى بالعين المجردة، فصار علقة، ثم سواه الله بشرا باحسن تقويم، وجعل منه ذكرا او انثى عمروا هذا الكون فاذا كان الله قادرا على خلقه من لا شيء، ألا يمكنه ان يعيده مرة اخرى؟ بلى انه على كل شيء قدير. وليس خلق الانسان بشيء إذا قيس بخلق هذا الكون العجيب الفسيح الكبير كما قال الله تعالى: {نَخْلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧] .

قراءات:

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر: كلا بل يحبون العاجلة ويذرّون الآخرة، بالياء، والباقون: بالتاء. وقرأ حفص وابن عامر ورويس: من مني يمني بالياء كما هو في المصحف. والباقون: من مني تمنى بالتاء. والحمد لله رب العالمين.

٧٦ الإنسان

٧٦.١ 1

هل أتى: قد أتى، استفهام معناه التقرير والتأكيد. حين: وقت من الزمن غير محدود. أمشاج: أخلاط واحدها مشج ومشيج. نبتليه: نختبره. هديناه السبيل: يينا له طريق الخير والشر. أعتدنا: هيأنا، أعددنا. الأغلال: القيود، واحدها غل بضم الغين. سعيرا: نارا. الأبرار: الصادقون، أهل الطاعة والاخلاص. مزاجها: ما يمزج به. الكافور: شجر من الفصيلة الغارية، يتخذ منه مادة شفاقة بلورية الشكل رائحتها عطرية.

يخبر الله تعالى عباده في هذه الآيات انه قد مضى على الانسان وقت من الزمن غير معلوم لديه لم يكن شيئا يذكر، ولا يعرف. ثم أتبعه بذكر العناصر الداخلة في تكوين الانسان فقال:

{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} .

خلقنا هذا الانسان من نطفة فيها أعداد لا تحصى من الحويّات التي لا تُرى بالعين المجردة، وهذه النطفة تختلط ببيضة المرأة، وباتحادهما يتكون الجنين، وهاتان النطفتان مخلوقتان من عناصر مختلفة، وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان الداخلين في طعام الآباء والأمهات، ومن الماء الذي يشربونه. ففي أخلاط، كُوت ومزجت وصارت دمًا، فنطفة، فعلة الخ.

وقد خلقنا هذا الانسان لبنتليّه بالتكاليف فيما بعد، ثم أعطيناه السمع والبصر ليتمكن من استماع الآيات ومشاهدة الدلائل، ويعقل ويفكر.

ثم ذكر أنه بعد ان ركبّه من هذه الأخلاط وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة - بين له سبيل الهدى وسبيل الضلال فقال:

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}

وبعد أن أعيناه السمع والبصر والعقل، نصبنا له الدلائل في الأنفس والآفاق، ليميز شكره من كفره، وطاعته من معصيته. ثم بين الله تعالى ان الناس انقسموا في ذلك فريقين: فريقاً جحدوا ولم يؤمنوا فأعدّ الله لهم عذاباً أليماً منه قيود في أعناقهم وأيديهم، وناراً تشوي الوجوه والاجسام. وفريق الأبرار الصادقين في إيمانهم يشربون شراباً لذيذاً ممزوجاً بماء الكافور ومن ماء عذب زلال من عين صافية يجرونها حيث شاؤوا ويتمتعون بهذا النعيم المقيم.

قراءات

قرأ نافع والكسائي وابو بكر: سلاسل بالتثنية. والباقون: سلاسل بفتح اللام بغير تنوين.

٧٦٠٢ 7

مستطيراً: منتشراً، فاشياً. عبوساً: تعبس فيه الوجوه. قطرياً: شديد الشر مظلماً. والفعل اقطرّ الشر: اشتد وتجمع. لقاهم: اعطاهم. نضرة: حسناً وبهاء. الأرائك: واحدتها أريكة: السرير، والمقعد الوثير المنجد. الزمهرير: أشدُّ البرد. دانية: قريبة منهم مظلة لهم. وذلت قطوفها تذليلاً: سخرت لهم ثمارها بحيث تكون في تناول أيديهم. القطوف: واحداً قطف بكسر القاف وهو ما قطف من الثمر، والعنقود. بآنية من فضة: واحداً إناء بكسر الهمزة وهو كل ما يوضع فيه الشراب. والأكواب: واحداً كوب وهو الكوز الذي لا عروة له. والقوارير: واحداً قارورة: اناء رقيق من الزجاج. قدروها تقديراً: قدرها الساقون بأحجام تناسب الذوق والحاجة مما يحقق المتعة والجمال. مزاجها زنجيلاً: الزنجيل نوع من النبات طيب الرائحة. السلسبيل: الشراب السائغ اللذيذ، واسم عين في الجنة. ولدان مخلدون: دائمون في بهائم وحسنهم. السندس: نوع من الحرير الرقيق. الاستبرق: نوع من الحرير الغليظ.

في هذه الآيات الكريمة عرض وتفصيل لصور النعيم الذي أفاضه الله تعالى على عباده الأبرار في جنة الخلد، وهذا العرض من أطول ما ورد في القرآن الكريم لصور النعيم ومشاهده. وقد بدأ ببيان أعمالهم وما قدّموا من خير للناس فقال:

{يُوفُونَ بالنذر وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} .

هؤلاء الأبرار يوفون بما أوجبوه على انفسهم من نذر في طاعة الله، ويخافون من هول يوم القيامة، ذلك اليوم الخيف الذي يعمّ شره ويستطير بين الناس إلا من رحم الله. وهم يطعمون الطعام رغم حاجتهم إليه الى المسكين واليتيم والفقير. . والمراد من اطعام الطعام الاحسان الى المحتاجين ومواساتهم بأي وجه.

وبعد ان ذكر ان الأبرار يحسنون الى المحتاجين بين ان لهم في ذلك غرضين: طلب رضا الله عنهم، وخوف يوم القيامة:

{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}

لا نريد عن عملنا هذا عوضاً ولا نريد منكم ثناء.

{إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا} .

إنا نفعل ذلك ليرحمنا ربنا يوم القيامة، ويتلقانا بلطفه في ذلك اليوم الشديد الهول والشر.

ثم بين الله تعالى انه آمن لهم مطلبهم فقال:

{فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}

فحماهم الله من شر ذلك اليوم وشدائده، وأعطاهم نضرة وحسناً في وجوههم وسروراً في قلوبهم.

ثم زاد من كرمه وإحسانه فقال:

{وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} ،

أعطاهم على صبرهم، وإيمانهم للناس، وإيمانهم الصادق - هذا النعيم في الجنة والخلود فيها، ولباس الحرير الذي كان ممنوعاً في الدنيا.

ثم وصف شرابهم وأوانيهم والسقاة الذين يطوفون عليهم به، وما هم فيه من سعادة أبدية فقال:

{مُتَكِّثِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} .

يجلسون على أنقى الأسرة والمقاعد متكئين عليها يتحدثون ويتسامرون، لا يجدون في الجنة حرّاً ولا برداً.

وهم في جنة وارفة الظلال، ثمارها قريبة من متناول أيديهم، تغمرهم السعادة.

{وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}

ويطوف عليهم الولدان من خدمهم بأوعية شراب مفضضة، وبأكواب من زجاج شفاف عليها غشاء من فضة، قدّرها لهم السقاة الذين

يطوفون عليهم على قدر كفايتهم وحاجاتهم وحسب ما يشتهون.

ثم وصف مشروبهم بأنه شراب لذيق منعش ممزوج بالزنجبيل، ويسقون من عين في الجنة اسمها السلسيل، لسلاستها وسهولة مساغها.

. وهذا كله ما هو الا أسماء لما هو شبيه بما في الدنيا. وهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكل ما في الآخرة مغاير لما في حياتنا

الدنيا.

ثم بين أوصاف السقاة الذين يطوفون عليهم بذلك الشراب فقال:

{وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا} .

ويطوف على هؤلاء الأبرار من أهل الجنة ولدان يظلون على ما هم عليه/ من الشباب والنضارة والحسن، منظرهم مبهج مفرح، وإذا

رأيت جماعة منهم حسبتهم لحسن ألوانهم ونضارة وجوههم ورشاقهم في الخدمة كأنهم لؤلؤ منثور.

وبعد ان ذكر الله تعالى نعيم أهل الجنة بما تقدم - بين أن هناك امورا أعلى وأعظم من كل ما ذكر فقال:

{وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}

وإذا رأيت ما في الجنة من النعيم وما تفضل الله به على عباده الأبرار من مظاهر الأنس والسرور، رأيت نعيماً لا يكاد يوصف، ومُلْكاً

كبيراً واسعاً لا غاية له، يختلف كل الاختلاف عما نراه في هذه الدنيا الفانية.

وفي الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» .

{عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}

في هذه الآية الكريمة يصف الله تعالى ملبسهم أنه من حرير ناعم رقيق هو السندس، وحرير غليظ هو الديباج، ويلبسون الحلية من فضة

وذهب كما جاء في آية أخرى في سورة فاطر: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِّنْ ذَهَبٍ} [الكهف: ٣١] .

ثم ذكر شراباً آخر يسقونه يفوق النوعين السابقين اللذين مر أنهما يمزجان بالكافور والزنجبيل. فقال هنا: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}

يطهر شربه، ويتلذذ به فيصبح في منتهى السعادة والسرور.

ثم بين الله تعالى ان هذا كله جزاء لهم على ما قدموا من صالح الأعمال، وما زكّوا به أنفسهم من صفات الكمال فقال:

{إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} .

ان هذا الذي أعطيناكم من الكرامة جاء ثواباً لكم على ما كنتم تعملون، وكان عملكم مشكوراً، رضي ربكم وحمدكم عليه، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة. {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}

[الحاقة: ٢٤] . كل هذا يتلقونه من الله العليّ القدير، وهذا يعدل كل ما تقدّم من أصناف النعم، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها، ويزيد في سرورهم وحبورهم.

قراءات

قرأ حفص وابو عمرو وابن ذكوان {قَوَارِيرًا، قَوَارِيرًا} بالألف من غير تنوين وقرأ ابن كثير: قواريراً بتنوين الاول وقوارير الثانية من غير تنوين. وقرأ نافع والكسائي وابو بكر: {قَوَارِيرًا، قَوَارِيرًا} بالتنوين لهما. وقرأ حمزة: قوارير قوارير بعدم التنوين فيهما. وقرأ نافع وحمزة وابن محيصن: عليهم بإسكان الياء وكسر الهاء. وقرأ الباقون عليهم بنصب الياء وضم الهاء. وقرأ ابن كثير وابو بكر وابن محيصن ثياب سندس خضر بجر خضر نعتاً لسندس، ورفع استبرق عطفاً على ثياب. وقرأ نافع وحفص برفع خضر واستبرق. وقرأ حمزة والكسائي بجر خضر واستبرق.

٧٦٠٣ 23

آثماً: فاجراً مجاهراً بالمعاصي. كفوراً: مشركاً. بكرة وأصيلاً: صباحاً ومساءً. فاستجد له: صلّ له. وسبّحه: تهجد له. ويذرون وراءهم: لا يهتمون به. يوماً ثقيلاً: يوم القيامة. شددنا أسرهم: أحكمنا خلقهم.

إنا نحن انزلنا عليك يا محمد القرآن من عندنا، وهو حق لا ريب فيه لتذكّر الناس بما فيه من الوعد والوعيد، وتعلّمهم وتهذّبهم، {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} من مقاساة الشدائد في تبليغ الرسالة، فان العاقبة والنصر لك.

{وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}

أي من المشركين، مهما أغروك به من متاع الدنيا، ودُم على ذكر ربك، فصلّ الصلوات في الصباح والمساء، وأكثر السجود في الليل وتهجد به وسبّحه ليلاً طويلاً مستغرقاً في صلواتك ومناجاة ربك.

ثم أنكر الله تعالى على الكفار حبّ الدنيا والإقبال عليها، وإهمالهم الآخرة ونسيانها فقال:

{إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} .

إن هؤلاء المشركين يحبون الدنيا وتُعبّهم زينتها فهم يؤثرونها على الآخرة، وينسون ان أمامهم يوماً شديداً فيه الحساب والجزاء.

ثم نعى عليهم شركهم، وغفلتهم عن طاعة الله فقال:

{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا} .

نحن خلقناهم وأحكمنا خلقهم في أحسن تقويم، وإذا شئنا اهلكناهم وأتينا بخير منهم بدلاً منهم.

ثم ارشد الله تعالى الى ان هذا الذكر تذكّرة وموعظة للناس، لمن أراد ان يتعظ ويقبل على الله فقال:

{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا} .

ان هذه الآيات بما فيها من ترتيب بديع، ومعنى لطيف -لهي تذكّرة للعقلاء المتبصرين، فمن شاء اتخذ بالإيمان والتقوى الى ربه طريقاً

يوصله الى مغفرته وجنته، فبابه مفتوح دائماً، ومغفرته وسعت كل شيء.

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} .

وما تشاءون ان تتخذوا الى الله سبيلاً الا ان يشاء الله، فالأمر اليه سبحانه، والخير والشر بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع .

ان الله عليم بأحوالكم، حكيم فيما يشاء ويختار، يُدخل من يشاء في جنته، فدخلوها بفضلِهِ ورحمته.
 {وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} في الآخرة هو عذاب دهنم وبئس المصير.
 قراءات

قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر: وما تشاؤون بالياء، والباقون وما تشاؤون بالتاء.
 انتهى سورة الانسان نسأل الله تعالى ان يجعلنا من الأبرار، والمقربين الأخيار ويجعل سعيينا لديه مشكورا.

٧٧ المرسلات

٧٧٠١ 1

المرسلات: الملائكة. عرفا: للعرف والخير. العاصفات: الرياح الشديدة، عصفت الريح عصفا وعصوفا اشتد هبوبها. الناشرات: تنشر الرياح السحب في الفضاء. الفارقات: بين الحق والباطل. فالملقيات ذكرا: الملقيات العلم والحكمة الى الأنبياء. عذرا أو نذرا: للإعذار والانذار. طمست: محيت وذهب نورها. فرجت: شقت. نسفت: اقتلعت من اماكنها. أقتت: عين لها وقت. أجلت: انخرت. ليوم الفصل: يوم القيامة الذي يفصل فيه بين العباد. ماء مهين: نطفة صغيرة. في قرار مكين: في الرحم. الى قدر معلوم: مدة الحمل. فقدرننا: على كل شيء. كفاتا: جامعة للأحياء والأموات. كفت الشيء: ضمه وجمعه. رواسي: جبالا ثوابت. شامخات: مرتفعات. فراتا: عذابا.

أقسم الله تعالى بطوائف من الملائكة، منهم المرسلون الى الأنبياء بالإحسان والمعروف والخير ليلبغوها للناس، ومنهم الذين يعصفون ما سوى الحق ويعدونه كما تبعد العواصف التراب وغيره، ومنهم الذين ينشرون آثار رحمة الله في النفوس الحية، ومنهم الذين يفرقون بين الحق والباطل، ومنهم الملقون العلم والحكمة لينذروا الناس. اقسم بكل ما تقدم بأن يوم القيامة الذي توعدون به لواقع آت لا ريب فيه. وذلك حين تُمحَق النجوم ويذهب نورها، وتشتق السماء، وتُنسف الجبال، ويُعين للرسل الوقت الذي يشهدون فيه على أممهم.

{وَإِذَا الرُّسُلُ أَقَتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ}

ليوم القيامة، اليوم الذي يكون فيه الفصل بين الخلائق.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ} .

ما أعلمك يا محمد بيوم الفصل وشدته وهوله، ما الذي تعرفه عن ذلك اليوم العظيم؟

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} .

الهلاك والويل في ذلك اليوم للذين كفروا وكذبوا رسلهم.

وبعد ان حذر الكافرين وخوفهم وأنذرهم بأن يوم الفصل آت لا ريب فيه، اردف ذلك بإعلامهم بانه أهلك الكفار من الأمم الأولين

{الْمُكَذِّبِينَ. {أَلَمْ نُهِكُمُ الْأُولِينَ}

{ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ} .

ثم نحن نفعل ذلك بأمثالهم من الآخرين. فاذا سلكتم سبيلهم فستكون عاقبتكم كعاقبتهم، وستعذبون في الدنيا والآخرة.

{كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ} .

الذين كذبوا محمدا ﷺ، وبكل مجرم كذب وكفر بالله واليوم الآخر.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} .

هلاك لكل مكذب وجاحد في ذلك اليوم الشديد.

ثم ذكّرهم بجزيل نعمه عليهم في خلقهم وإيجادهم بهذه الصورة الحسنة في أحسن تقويم.
 {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} .
 ألم نخلقكم أيها الناس من ماءٍ حقير من تلك النطفة، فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز في الرحم، الى زمنٍ معلوم محدد، فقد! رنا على خلقه وتصويره في احسن تقويم، فنعمة القادرون والخالقون.
 {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} بنعمة الله تعالى وبقدرته على كل شيء..
 وبعد ان ذكّرهم بالنعم التي أنعم بها عليهم في الأنفس ذكّرهم بما أنعم عليهم في الآفاق فقال:
 {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ شَاخِحَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا} .
 ألم نجعل الأرض ضامةً على ظهرها أحياءً لا يُعدّون، وفي بطنها امواتا لا يحصرون، وجعلنا فيها جبالا ثوابت شاخِحَاتٍ عاليات، وأسقيناكم ماء عذاباً سائغاً تشربون منه، وتسقون دوابكم وزروعكم؟! {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} .
 قراءات:
 قرأ الجمهور: عُدّاً ونُذراً بإسكان الذال فيهما. وقرأ الحرميان وابن عامر وابو بكر: عذراً بإسكان الذال، ونُذراً بضمهما.

٧٧.٢ 29

لا ظليل: لا يقي من الحر. ولا يغني من اللهب: لا يقي الانسان من لهب النار. بشرٍ كالقصر: ان جهنم ترمي بشر من النار كل واحدة كالقصر الكبير. جمالة: جمال. صفر: لونها أصفر. ظلال: واحدا ظل، وهي ظلال الاشجار، والبيوت وغير ذلك، ويعبر بالظلال عن الرفاهية والنعم. وعيون: مياه جارية عذبة تسر الناظرين. اركعوا: صلوا.
 يبين الله تعالى في الآيات من رقم ٢٩ {انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون} الى رقم ٤٠، نوع ذلك العذاب الشديد الهائل، فأخبر تعالى بأنهم يقال لهم: انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون في الدنيا، الى ظلٍ من دخان جهنم، المتشعب لكثرتة وتفرقه الى ثلاث شعب عظيمة. وهو مع ذلك لا يُظلمهم، ولا يمنع عنهم حرّ اللهب الذي تقذف به جهنم، حيث ترمي بشرٍ عظيم كل واحدة كالقصر الكبير، وكأنه جمالٌ صفر تنطلق وتنفرق في أعداد غير محصورة. ثم أتبع ذلك بأن الويل للمكذبين بذلك اليوم الذي اقسم الله تعالى بأنه وقاع لا محالة. وهم في ذلك اليوم لا ينطقون من شدة الدهشة والخوف والحيرة، ولا يُسمح لهم بالاعتذار فيعتذرون. وكرر أن لهم الويل والهلاك يومئذٍ، حيث يتم الفصل بين المحق والمبطل ويجازى كل واحد بما يستحق.
 ثم بين كيف يكون الفصل في ذلك اليوم فقال:

{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَيْنِ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ}
 لقد جمعنا بينكم وبين من تقدّمكم من الأمم، فان كان لكم حيلة في دفع العذاب عنكم فاحتالوا لتخلّصوا أنفسكم منه، ولكن هيات {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} بوعيد الله.

ثم بين ما يكون للمؤمنين من السعادة والنعم والكرامة في ذلك اليوم، فانهم يكونون في ترفٍ ونعيم، ويأكلون فواكه مما يشتهون، فيقال لهم: {كُلُوا واشربوا هنياً بما كنتم تعملون} في الدنيا من الصالحات {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} وكما جزينا هؤلاء المتقين، نجزي أهل الاحسان لطاعتهم وعبادتهم لنا، فلا نضيع لهم اجرا. {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} .

وفي كل هذا تهديد ووعيد. . كلوا من لذائد الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية فان البقاء فيها قليل، وأنتم مجرمون لا تستحقون التكريم. وهلاكٌ يومئذٍ للمكذبين، فهم اذا قيل لهم صلّوا لله واخشعوا، لا يصلّون ولا يخشعون، بل يصرون على كفرهم واستكبارهم فالهلاك لهم في ذلك اليوم.

ثم ختم السورة بالتعجب من هؤلاء الجاحدين الذين لم يؤمنوا ولم يستجيبوا لنصح الداعي ولم يتبعوا المرسلين، فقال:

{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}

إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل والمعجزات، ولم يستمعوا لهذا القرآن العظيم، فبأي كلام بعده يصدقون.

قراءات

قرأ الجمهور: فقدّرنا بفتح الدال من غير تشديد. وقرأ نافع والكسائي: فقدّرنا بتشديد الدال المفتوحة. وقرأ الجمهور: جمالات بكسر الجيم والجمع، وقرأ حفص وحمة والكسائي: جمالة. وقرأ الديموري: فبأي حديث بعده يؤمنون بالياء. وقرأ ابن عامر ويعقوب: تؤمنون بالتاء.

٧٨ النبأ

٧٨٠١ 1

عم، أصلها عن ما: عن أي شيء يتساءلون. النبأ: الخبر، نبأ الشيء نبأً ونبوءاً ارتفع، وظهر. وعلى القوم، طلع عليهم. ونبأ الرجل نبأً: أخبر. والنبوءة: النبوة، والنبوء، النبيّ الخبر عن الله جلّالة. كلا: للردع ونفي الزعم الباطل. مهادا: فراشا ممهدا للناس، وقد جعل الله الأرض موطئاً للناس وجميع المخلوقات يقيمون عليها، فهي فراش لهم. أوتادا: جمع وتد، والجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض تحفظ توازنها، وتمنعها من الاضطراب والميلان. ازواجاً: ذكراً وأنثى ليتم الاثناس والتعاون على هذه الحياة وحفظ النسل وتكميله بالتربية. سباتاً: راحة، سَبَتَ سَبْتًا: نام واستراح وسكن. لباساً: ستر، لباس الجسم ما يستره. والليل شبيه باللباس لأنه يستر الأشخاص بظلمته. معاشاً: وقتاً لتحصيل اسباب المعاش. سبعا شداداً: سموات قوية محكمة. سراجاً وهاجاً: وهذا السراج العظيم هو الشمس. المعصرات: السحب التي تجيء بالمطر الذي يحيي الأرض ويغيث الناس. ثجاجاً: منصّباً بكثرة، وهو المطر الغزير. حَباً: وهو ما يقتات به الناس من جميع أنواع الحبوب. ونباتاً: جميع أنواع الخضار. جنات: واحدها جنة، وهي الحدائق والبساتين، الفافا: ملتفة الاغصان، كثيرة الشجر.

كان الناس في مكة وغيرها في أول بعثة النبي ﷺ يسأل بعضهم بعضاً عن رسالة النبي، ويسألون غيرهم ممن عنده علم فيقولون: هل هو رسول من عند الله؟ وما هذا الخبر الذي جاء به ويدعي أنه مرسل من قبل الله، ويدعو الى توحيده والى الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر؟ وكان هذا شيئاً جديداً عليهم، فردّ الله عليهم بقوله تعالى:

{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}

عن أي شيء يتساءلون؟ عن هذا الخبر العظيم الذي اختلفوا فيه، بعضهم ينكره، وبعضهم يتردد في صحته. إنهم لم يسمعوا به من قبل، لذلك استغربوا خبر البعث والحياة بعد الموت. وقالوا: هذا مستحيل، {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجمانية: ٢٤]؟

ثم ردّ الله عليهم الإنكار والتردد بقوله:

{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}

ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المنكرون للبعث بعد الموت، سنكشف لهم الحقيقة وسيعلمون حقيقة الأمر حين يُبعثون ويرون صحة الخبر، يوم تقوم الساعة ويفصل الله بينهم في كل ما اختلفوا فيه.

ثم شرع يبين لهم عظيم قدرته، وآيات رحمته التي غفل عنها أولئك المنكرون مع أنها أمامهم وبين أعينهم في كل حين. فذكر من مظاهر قدرته تسعة أمور يشاهدونها فقال:

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا}

١- الم نبسط لهم هذه الأرض التي يعيشون عليها، ونمهدّها لهم ليسيروا الناس عليها والحيوان، ويستقروا بها.

٢- {والجبال أوتاداً} فالجبال جعلها الله مثل الأوتاد، تحفظ توازن الأرض، اذ يبلغ سمك الجزء الصلب من القشرة الأرضية نحو ستين كيلومتراً، وتكثر فيه التجاعيد فيرتفع حيث تتكون الجبال، وينخفض لتكون بطون البحار وقيعان المحيطات والأودية. وهو في حالة التوازن بسبب الضغوط الناتجة من الجبال. . فقشرة الأرض اليابسة تُرسبها الجبال، فهي كالأوتاد التي تحفظ الخيمة من السقوط. ولولا الجبال لكانت الأرض دائماً الاضطراب بما في جوفها من المواد الشديدة الغليان، الدائمة الجيوشان، والتي نشاهد بعضاً منها عندما تنفجر البراكين.

٣- {وخلقناكم أزواجاً} جعلناكم ذكراً وأنثى لحفظ النسل، ولتتم التعاون على سعادة هذه الحياة، وتربية النسل.

٤- {وجعلنا نومكم سباتاً} وجعلنا النوم راحة لكم من عناء الأعمال التي تزاوونها في النهار، وانقطاعاً عن السعي. وفيه نعمة كبيرة على الإنسان، ففيه يتوقف نشاط الجزء المدرك الواعي من المخ، ويحصل هبوط كبير في نشاط كافة أعضاء الجسم وأنسجته مما يترتب عليه انخفاض في توليد طاقة الجسم وحرارته. وهكذا يأخذ الجسم أثناء النوم نصيباً من الهدوء والراحة بعد عناء المجهودات العضلية والعصبية، فتبسط جميع وظائف الجسم الحيوية، ما عدا عمليات الهضم وإفراز البول من الكليتين، والعرق من الجلد. . أما التنفس فيبطئ ويصير أكثر عمقا، كما ينخفض ضغط الدم، وتبطئ سرعة النبض، ويقل مقدار الدم الذي يدفعه من القلب. وكل هذا يسبب الراحة للإنسان في مدة نومه، ويحدد نشاطه حين يفيق.

٥- {وجعلنا الليل لباساً} وجعلنا الليل بظلامه ساتراً لكم، كاللباس الذي يغطي الجسم ويستتره، الليل شبيه باللباس لأنه يستر الأشخاص بظلمته. وللناس في هذا السر فوائد اللباس.

٦- {وجعلنا النهار معاشاً} وجعلنا النهار وقت سعي لكم، تسعون فيه لتحقيق ما به يعيشون وتصرفون. فكما كان النوم انقطاعاً عن الحياة، كانت اليقظة حياة. والنهار زمن هذه الحياة، فيه يستيقظ الناس ويتقبلون في حوائجهم ومكاسبهم.

٧- {وبيننا فوقكم سبعاً شداداً} وأقنا فوقكم سبع طرائق للكواكب السيارة التي تشاهدونها. . وقد خصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها، ولم يفصل ما في هذا الكون العجيب الواسع من عوالم ومجرات لا حصر لها لأنهم لا خبرة لهم فيها، ولا علم. فاكتمى بما يرون ويشاهدون من إحكام الصنعة ودقة نظام دورانها وسبحها في هذا الفضاء.

٨- {وجعلنا سراجاً وهّاجاً} وخلقنا لكم في نظامكم هذا شمساً منيرة ساطعة الوهج، دائمة الحرارة. والشمس كما ثبت علمياً تبلغ درجة حرارتها على سطحها الوهج، دائمة الحرارة. والشمس كما ثبت علمياً تبلغ درجة حرارتها على سطحها المشع ستة آلاف درجة مطلقاً، أما المركز فتزيد فيه درجة الحرارة على ثلاثين مليون درجة، بسبب الضغوط العالية في المواد التي فيه، فهي سراج وهّاج حقيقة لما فيها من الحرارة.

٩- {وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً} وأنزلنا من السحب والغيوم ماءً دافقاً منهدماً بشدة.

ثم بين عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال:

{لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً} لنخرج لكم بهذا الماء العظيم حباً ونباتاً، غذاء لكم وللحيوان، وحدائق وبساتين ذات أشجار ملتفة، وأغصان متشابكة.

والمطر هو المصدر الوحيد للماء العذب على الأرض. والأصل فيه تكاثف أبخرة الماء المتصاعدة من المحيطات والبحار وتشكله في صورة سحب، تتحول إلى نقط من الماء أو قطع من الثلج، وتتساقط على الأرض بقدرة الله تعالى على هيئة مطر أو ثلج أو برد. قراءات

قرأ الجمهور: كلا سيعلمون بالياء، وقرأ ابن عامر: ستعلمون بالتاء.

يوم الفصل: يوم القيامة لأن الله تعالى يفصل فيه بين الناس. ميقاتا: وقتاً للحساب والجزاء. أفواجا: جماعات، واحده فوج. وسُيرت الجبال: زالت عن أماكنها. سرابا: السراب ما يرى في نصف النهار كأنه ماء وهو خيال ليس بشيء، وكذلك تسير الجبال. مرصادا: مكان الارتقاب والانتظار. للطاغين: للمعتدين الظالمين. مآبا: مرجعاً. لاثنين: مقيمين. أحقابا: واحدا: حُقب وحُقب، وهو المدة الطويلة من الدهر. حميما: ماء حاراً. غساقا: صديدا وعرقا دائم السيلان من اجسادهم. وفاقا: وفق أعمالهم السيئة. كذابا: تكذبا. كُتابا: كُتابة.

بعد ان نبه الله عباده الى هذه الظواهر الباهرة، ووجه انظارهم الى آياته في هذا الكون العجيب - أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا في إمكان حصوله وهو يومُ الفصل، ويذكر لهم بعض ما يكون فيه، تخويفاً لهم من الاستمرار على التكذيب بعد ما وضحت الأدلة واستبان الحق.

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} إن يوم القيامة هو يومُ الفصل بين الخلائق، وهو ميعاد مقدّر للبعث.

ثم بين هذا اليوم وزاد في تهويله فقال:

{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا}

في ذلك اليوم يُنفخ في البوق فتبعثون من قبوركم وتأتون الى المحشر جماعات جماعات. {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} وانشقت السماء من كل جانب وتصدعت فصارت أبوابا، وذلك هو خراب العالم ونهايته. وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور وليس علينا ان نعلم ما في حقيقة ذلك الصور، لأن الحياة الآخرة وجميع ما فيها تختلف عن حياتنا الدنيا.

{وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}

وزالت الجبال عن أماكنها وتفتتت صخورها وذهبت هباءً كالسراب. فالآخرة عالم آخر غير عالم الدنيا التي نحن فيها، فنؤمن بما ورد به الخبر عنها ولا نبحث. فالنشأة الأخرى قد تكون غير هذه الحياة فتكون السماء بالنسبة إلينا أبوابا ندخل من أيها شئنا بإذن الله. وقد يكون معنى تفتح السماء ما عني بقوله: إذا السماء انشقت. . اذا السماء انفطرت. . يوم تَشَقُّقُ السماءُ بالغمام. . يعني يوم يقع الاضطراب في نظام الكواكب، فيذهب التماسك بينها ولا يكون فيها ما يسمى سماء الا مسالك وأبواب لا يلتقي فيها شيء بشيء، وذلك هو خراب الكون.

وقد ذكر زوال الجبال في القرآن في عدة آيات منها قوله تعالى {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [الحاقة: ١٤] .

وقوله: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [القارعة: ٥] ، وقوله {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} [الواقعة: ٥، ٦] .

وبعد ان عدّد الله تعالى وجوه إحسانه، ودلائل قدرته على إرسال رسوله الكريم، وذكر يوم الفصل وما فيه من أهوال وشدائد - ذكر هنا وعيد المكذبين وبيان ما يلاقونه فقال:

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا. . .}

ان جهنم ترصد وتنتظر الجاحدين، وهي منزلهم، ومرجعهم إليها، حيث يستقرون دهوراً متلاحقة كلّما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر.

أما أحوالهم فيها وما يذوقونه من عذاب فقد بينه بقوله:

{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا. . . .}

إنهم لا يذوقون في جهنم نسيماً يَنْفُسُ عنهم حرّها، ولا شراباً يسكّن عطشهم فيها، بل يجدون ماء بالغاً الغاية من الحرارة، وصديداً مُنْتِناً يزيد في عذابهم، وهو جزاء موافق لأعمالهم السيئة. والسبب في ذلك كله: إنهم لم يؤمنوا بالله ولا بالبعث والحساب والجزاء. كما أنهم: {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا}

أي بالغوا في التكذيب بآياتنا وما فيها من براهين وبيّنات.
ثم بين الله تعالى أن كل شيء من أعمالهم مكتوبٌ يُنشر يوم القيامة.
{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا}

أي أحصيناه مكتوباً في كتاب {لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩].
{فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا}

فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم، فلن يكون لكم منا إلا عذابٌ أشدّ وأقوى. وكما جاء في قوله تعالى: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ
وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٧، ٥٨].

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لم ينزل على أهل النار آيةٌ أشدّ من هذه الآية {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا}.
قراءات

قرأ أهل الكوفة: وفتحت السماء: بالتخفيف، وقرأ الباقون: وفتحت بتشديد التاء. وقرأ حمزة وروح: لَبِثِينَ بكسر الباء من غير الف
بعد اللام، وقرأ الباقون: لاثنين بالف بعد اللام. وقرأ حفص وحمزة والكسائي: غَسَّاقًا بالتشديد، والباقون غَسَّاقًا بفتح الغين والسين
من غير تشديد.

٧٨.٣ 31

مفازا: فوزا عظيما بالجنة. كواعب: جوازي صغيرات السن، واحدها كاعب. أترابا: متقاربات في السن واحدها ترب. دهاقا:
ممتلئة، مترعة. لغوا: اللغو هو الباطل وكل ما لا فائدة فيه. كذّابا: تكذّيبا. عطاءً: تفضلا منه وإحسانا. حسابا: كافيا وافيا. خطابا:
مخاطبة. الروح: جبريل. مآبا: مرجعا. ما قدّمت يده: ما عمل من خير أو شر.

بعد أن بين حال المكذّبين الجاحدين وما يلاقونه من عذاب أليم، ذكر هنا ما يفوز به التّقاة من الجنات، ووصفها ووصف ما فيها. ثم
ذكر أن ذلك عطاء لهم من مالك السموات والأرض، عظيم الرحمة والإنعام، الذي لا يملك أحد من أهل السموات والأرض أن
يخاطبه في شأن الثواب والعقاب، بل هو المتصرّف فيه وحده يوم يقوم الروح والخلق المقدّس من عالم الغيب والملائكة صفاء، ولا
يمكن لأحد أن يتكلّم الا من أذن له الرحمن ونطق بالصواب، فقال:

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}

ان للمؤمنين الذين اتقوا وعملوا الصالحات فوزاً كبيراً ونجاةً من العذاب، وظفراً بالجنة، التي تشتمل على الحدائق والأعناب وجميع ما لذّ
وطاب من الثمرات، {وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} من جوازي الجنة، عذاري متقاربات في السن. وهناك يشربون بكنؤوس مملوءة من الدّ شراب
الجنة، ولا يسمعون شيئاً من الباطل واللغو، ولا كذبا من القول.
وكل هذا الفضل والاحسان والنعيم:

{جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا}

ينالونه تفضلاً منه وإحساناً جزاء أعمالهم الخيرة. فالله الذي رضي عنهم هو ربّ السموات والأرض الذي وسّعت رحمته كل شيء ولا
يملك أحد مخاطبته تعالى بالشفاعة إلا بإذنه، يوم يقوم جبريل والملائكة مصطفين خاشعين لا يتكلّم أحد منهم الا من أذن له الرحمن
بالكلام، ونطق بالصواب.

ثم بين الله تعالى أن ذلك اليوم حق لا ريب فيه، {ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ}، حيث الناس فريقان: فريق بعيد من الله ومآله الى النار، وفريق
مآبه القرب من الله.

{فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا}.

بن يعمل عملاً صالحاً يقربه منه ويحلّه دار النعيم.

ثم عاد الى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم. . بأنهم سيعلمون غداً ما قدّمت أيديهم ويندمون حيث لا ينفع الندم. فقال في خاتمة هذه السورة الكريمة:

{إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً} .

قراءات

قرأ الجمهور: كذاباً بتشديد الذال، وقرأ الكسائي: كذاباً بتخفيفها. وقرأ ابو عمرو: ربّ السموات والأرض الرحمن، برفع رب والرحمن، والباقون بالكسر. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب: الرحمن بالجر. وقرأ حمزة والكسائي بجر رب السموات، ورفع الرحمن.

نسأل الله تعالى ان يثبتنا بالقول الثابت، ويجعلنا من الذين ينطقون بالصواب، ويهدينا إلى العمل بكتابه وسنة نبيه، وان يجمع كلمتنا ويوحد صفوفنا لنحمي أنفسنا ونصون أوطاننا مما يهددنا من الأعداء. . .

٧٩ النزاعات

٧٩٠١ 1

النزاعات: الملائكة، أو الكواكب. غرقاً: بشدة. الناشطات: التي تنشط في اجابة أمر ربه. السابحات: الطائرات في هذا الكون الفسيح كأنها تسبح سبحاً. السابقات: المسرعات في أداء ما وكل إليها. المدبرات: التي تدبر الأمور بإذن الله. ترجف: تضطرب. الراجفة: الأرض. الرادفة: السماء. واجفة: خائفة. خاشعة: ذليلة. الحافرة: الحياة الاولى، يقال رجع الى حافرتة: رجع الى طريقته الاولى. النخرة: البالية. كرة خاسرة: رجعة يخسر أصحابها. زجرة واحدة: صيحة واحدة. الساهرة: أرض المحشر.

لقد جاء في القرآن الكريم ضروب من القسم بالأزمنة والأمكنة وبعض الاشياء، ولو استعرضنا جميع ما أقسم الله به لوجدناه إما شيئاً أنكره بعض الناس، أو احتقره لغفلته عن فائدته، أو ذهل من موضع العبرة فيه، ولم ينتبه الى حكمة الله في خلقه أو اعتقد فيه غير الحق. فالله سبحانه يقسم به إما لتقرير وجوده في عقل من ينكره، أو تعظيم شأنه في نفس من يحتقره.

فالقسم بالنجوم، جاء لأن قوماً يحقرونها لأنها من جملة عالم المادة ويغفلون عن حكمة الله فيها وما ناط بها من المصالح، وآخرين يعتقدونها آلهة تنصرف في هذه الأكوان، فأقسم الله بها على أنها من المخلوقات التي تعرفها القدرة الإلهية، وليس فيها شيء من صفات الألوهية. ولقد بدأ الله سبحانه هذه السورة بالحلف بأصناف من مخلوقاته، إظهاراً لإتقان صنعها وغرارة فوائدها بأن البعث حق، وأن من قدر على صنع هذا الكون وما فيه هو قادر على إحياء الموتى.

فأقسم بالنزاعات، وهي الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين بشدة؛ والناشطات، وهي الملائكة التي تأخذ أرواح المؤمنين بسهولة ويسر؛ وبالسابحات التي تسبح في أجواء هذا الكون الفسيح، والسابقات وهي التي تسبق في أداء ما وكل إليها وتؤدي على أحسن وجه، والمدبرات أي التي تدبر الأمور بإذن الله وتصرفها بما أودع فيها من خصائص. ويقول بعض المفسرين إن النزاعات والناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات هي الكواكب. ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء من هذه الأقوال لأنها لا تستند الى دليل.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. . .} يوم تقوم القيامة تضطرب الأرض بمن فيها وترجف الأرض والجبال. . وتتبعها الرادفة، وهي النفخة الثانية، فتنشق السماء وتنتثر الكواكب ويقوم الناس لرب العالمين. كما قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨] . ويكون الناس في ذلك اليوم في ذهول عظيم، وخوف وهلع، كما صورهم الله بقوله: {يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى

وَمَا هُمْ بِسَكَرَى وَلَكِنْ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ { [الحج: ٢] .

يومئذ يرى المرء قلوباً مضطربة قلقاً خائفة {أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} ذليلة من الملح والخوف.

ثم يتساءل المجرمون وهم يظنون أنهم رُدُّوا الى حياتهم الأولى:

{يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخْرَةً؟}

أنحنُ مردودون الى الحياة، عائدون في طريقنا الأولى؟! وهذا من شدة ذهولهم ودهشتهم كيف يرجعون بعد ان كانوا عظاماً بالية! ثم يعودون إلى رُشدِهم فيقولون (بعد أن يعلموا أنها حياة أخرى ويشعروا بالخسارة) {قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} لم يحسبوا حسابها، ولم يقدّموا لها.

ثم يأتي الرد الشديد من الله تعالى:

{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}

لا تستبعدوا ذلك وتظنّوه عسيراً علينا، فإنما هي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية التي يبعثُ الله بها الموتى، فإذا الناسُ كلُّهم حضورٌ بأرض المحشر.

قراءات:

قرأ الجمهور: عظاماً نخرة بفتح النون وكسر الخاء، وقرأ حمزة والكسائي وابو بكر: نخرة بألف بعد النون.

٧٩٠٢ 15

الواد المقدس: الوادي المبارك، طوى: اسم ذلك الوادي، وهو بين العقبة ومصر. طغى: تجاوز الحد فتكبر وكفر. تزكى: اصلها تزكى بتأين: نتطهر من الشرك. أهديك: أدلك. الآية الكبرى: العلامة الدالة على صدق موسى، وهي انقلاب العصا حية. أدبر يسعى: ذهب يدبر المكائد لموسى. فحشر: فجمع السحرة. النكال: العذاب. رفع سمكها فسواها: خلقها بأحسن نظام. أغطش ليلها: جعله مظلماً. أخرج ضحاها: اظهر نورها وضياء شمسها. دحاها: مهدها وجعلها قابلة للسكنى. مرعاها: نباتها. ارساها: أثبتها. متاعاً: متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم.

يذكر الله تعالى قصة موسى وفرعون تسلياً للرسول الكريم على ما يلاقيه من قومه، بحكم تكذيبهم له وإنكارهم للبعث، وتماديهم في العتو والطغيان. وذلك أن فرعون مع أنه كان أقوى من كفار قريش وأشد منهم شوكة وأعظم سلطاناً فإن الله أخذه حين تمرد على ربه ولم يؤمن بموسى، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابه. وقصة موسى وفرعون من أكثر القصص التي ترد في القرآن في اساليب متنوعة. وهنا جاءت مختصرة سريعة في اسلوب استفهام رشيق مشوق لتناسب طبيعة السورة.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى... (الآيات)}

هل أتاك - يا محمد - حديث موسى مع فرعون، حين ناداه ربه في وادي طوى المقدس في سيناء، حيث أمره أن يذهب الى فرعون وقومه ليهديهم الى الطريق المستقيم، بعد أن طغى واستكبر واستعبد الناس!

ثم طلب الله تعالى الى موسى ان يلين له القول فذلك أنجح للرسالة.

{فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}

هذا كلام جميل في غاية الرقة واللفظ. قل له يا موسى: هل ترغب أن تطهر نفسك من الآثام التي انغمست فيها، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير، فترجع الى ربك وتؤمن به، وتخشى عاقبة مخالفته.

ثم أراه الدليل الحسي على صدق نبوته {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} وتلك هي قلبُ العصا التي معه حية تسعى. فلم يقنع فرعون بما رأى وقال

إِنَّ هَذَا سِحْرٌ { ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى } في تدبير سحر مثله، { فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } حيث جمع السحرة وخطب فيهم قائلاً إنه هو الرب الأعلى، لا سلطان يعلو سلطانه.

{ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى } . فعذبه الله تعالى بالغرق في الدنيا، وبعذاب جهنم في الآخرة. . وفي هذا عبرة وموعظة لمن يخاف الله وله عقل يتدبر وينظر في عواقب الأمور.

إن الله سينصرك يا محمد على قومك كما نصر موسى على فرعون، وكان أشدَّ بأساً وأكثر جنداً من قومك هؤلاء. فاتبع يا محمد نهج موسى، ولن لهم في الحديث، واصبر فإن الفوز لك.

وبعد أن أورد قصص موسى وفرعون هذه عاد الى مخاطبة الجاحدين المنكرين من قريش بأن من خلق هذا الكون العجيب الكبير وما فيه - لا يعجزه بعثهم من جديد بعد موتهم.

فإن كانوا قد غفلوا عن أنه خالقهم، فلينظروا الى السماء والى الأرض ليعلموا من خلقهما وانسأهما.

{ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا } .

أيهما أعظم: إعادة الناس كما بدأهم أول مرة أم إنشاء السماء في هذا النظام البديع الذي لا يختلف ولا يختل بل يسير فيه كل جرم في مداره! لقد رفع صانعها أجرامها فوق رؤوسنا ووضع كل جرم في وضعه.

{ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا } .

لقد جعل ليلها مظلماً عندما تغيب الشمس، وأضاءها بشروق الشمس وارتفاعها وقت الضحى، وهو أشرف أوقاتها وأطيبها. { وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا } .

ثم بسط الأرض ومهدا للسكنى وسير الناس والأنعام عليها. فلفظة دحاهها تعني التكوين والبسط في ذات الوقت، فتكون أدلّ الالفاظ على الأرض المبسوطة في الظاهر المكورة في الحقيقة. . وهذا منتهى الإحكام في اختيار اللفظ المناسب.

ثم بين ما لا بد منه في تأتي سكناها من أمر المأكل والمشارب وإمكان القرار عليها فقال:

{ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا }

فجر منها العيون والينابيع والانهار لأن الماء أساس الحياة، { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } [الأنبياء: ٣٠] . وأنبت فيها النبات الذي

يأكله الناس والحيوان. ثم بعد ذلك ثبتت الجبال في أماكنها وجعلها كالأوتاد، حتى تحفظ توازن الأرض. وهذا كله جعله الله { مَتَاعاً

لَكُمْ وَلَآئِعَامُكُمْ } أي لخير الإنسان يتمتع به. فهل الذي أوجده وأنشأه أول مرة يعجز عن إعادته وإنشائه مرة أخرى؟ { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ

الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم: ٢٧] .

قراءات:

قرأ الجمهور: تزكى بفتح الزاي من غير تشديد، وقرأ نافع وابن كثير: تزكى بتشديد الزاي، وقرأ أهل الحجاز والبصرة: طوى بغير تنوين. والباقون بالتنوين.

٧٩٠٣ 34

الطامة الكبرى: يوم القيامة لشدة اهوالها ولأنها تطم على كل أمر هائل. وبرزت الجحيم: ظهرت للعيان. أثر: فضل. المأوى: المستقر.

مقام ربه: جلاله وعظمته. نهى النفس عن الهوى: استقام وكفها عن هواها. الساعة: يوم القيامة. أيان مرساها: متى تقوم وتحصل.

إلى ربك منتهاها: علم حصولها عند الله. لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها: عندما يرون يوم القيامة يظنون انهم لم يقيموا إلا عشية من النهار

أو وقت ضحاها.

بعد ان ذكر الله تعالى خلق السموات والأرض وما في هذا الكون من إبداع عجائب الخلق والتكوين، وبين انه قادر على نشر الأموات

كما قَدَّرَ على خَلْقِ هذا الكون العجيب - بَيْنَ هنا صدق ما أوحى به الى نبيِّه الكريم من أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه. فاذا جاءت الطَّامَّةُ الكبرى في هولها العظيم، تُعَرَّضُ الأعمالُ على الناس، فيتذكر كل امرئ ما عمل. ويُظْهِرُ اللهُ الجحيمَ لِعِيَانٍ فيراها كل إنسان. ومن ثم يوزع الجزاء على العاملين {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} وفضل متاعها ولذائذها على ثواب الآخرة، {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} حيث يجد مستقره ومأواه، {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} ، فآمن واستقام ونهى نفسه عن هواها {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} ، حيث يجد النعيم الدائم.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا} .

يسألك قومك يا محمد متى وقت الساعة، ومتى وقوعها؟ إن هذا ليس من اختصاصك، لا احد يعلم عنها شيئاً الا الله، فلا تشغل نفسك بهذا الأمر ولا تكلفها عناء البحث عنه.

{إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا}

إنما أنت رسول مبعوث للانذار والتعليم فدع علم ما لم تكلف به، واعمل ما أمرت به. {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [لقمان: ٣٤] ، {إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} [الأعراف: ١٨٧] .

{كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}

ان يوم القيامة آت لا ريب فيه، ويوم يراه هؤلاء المكذبون يحسبون أنهم لم يلبثوا في الدنيا الا مقدار عشية يوم أو ضحاها، فما أقصر هذه الحياة التي يتقاتل عليها الناس ويلهثون وراءها!

٨٠ عبس

٨٠٠١ 1

عبس: قَطَّبَ وجهه من ضيق الصدر. تَوَلَّى: أعرض: أن جاءه الأعمى: لأن الأعمى جاء عنده، يزكى: يتطهر بما يتعلم من الدين. تصدى: أصله تتصدى بتاءين ومعناه تقبل عليه، وتعرض له. تلهى: تتغافل عنه. تذكرة: موعظة. فن شاء ذكره: فن شاء اتعظ به. في صحف مكرمة: كتب شريفة في موضع التكريم والتعظيم. مرفوعة: عالية القدر والشأن. مطهرة: منزهة عن العبث والنقص. سفرة: الملائكة لأنهم السفراء بين الله تعالى ورسله الكرام. بررة: جمع بارّ وهم الأطهار.

نزلت هذه السورة الكريمة في عبد الله بن أم مكتوم ابن خال خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وكان رجلاً أعمى، ومن أول الناس إسلاما. وكان من المهاجرين الأولين والمؤذن الثاني لرسول الله، وقد استخلفه الرسول الكريم على المدينة، وكان يصلي بالناس مرارا. وقد جاء هذا الرجل الى النبي ﷺ، وعنده جماعة من زعماء قريش منهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمّية بن خلف، والوليد بن المغيرة. وكان النبي الكريم محتفياً بهم يدعوهم الى الإسلام ويرغبهم فيه رجاء أن يسلموا، لأنه يعلم أنهم إذا أسلموا تبعهم خلق كثير.

فجاء ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، أرشدني، وعلّمني مما علمك الله. وكرر ذلك وهو لا يعلم من عنده. فكره الرسول قطعاه لكلامه، وظهر ذلك على وجهه، إذ عبس وأعرض عنه.

وقد عاتب الله نبيّه الكريم بأنَّ ضَعْفَ ذلك الأعمى وفقره لا ينبغي ان يكون باعثاً على كراهة كلامه والإعراض عنه، فإنه حيُّ القلب ذكيُّ الفؤاد، اذا سمع الحكمة وعאהا، فيتطهر بها من أوضار الشرك. {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِي أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} .

ما يدريك يا محمد لعل هذا الأعمى يتطهر بما يسمعه منك، وما يتلقاه من العلم والمعرفة، او يتذكر بها ويتعظ فتتفعه الذكرى. وبعد نزول هذه الآيات جعل الرسول يكرم عبد الله هذا ويقبل عليه ويقول له إذا رآه: أهلاً بمن عاتبني فيه ربّي، ويساله هل لك حاجة.

ثم ذكر الله بعد ذلك أمر النبي الكريم مع زعماء قريش فقال:
{أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِيكَ} .

أما من استغنى عن الله بماله وقوته، فأنت تقبل عليه حرصاً على إسلامه، وتهتم بتبليغه دعوتك، ولا حرج عليك أن لا يتطهر من الشرك والوثنية، ولست بمطالب بهدايته. هذا بخلاف من جاءك مسرعاً في طلب الهداية والعلم، فأنت تلهي عنه وتشاغل بهؤلاء الزعماء الذين لا يؤمنون ولا فائدة منهم، لأن أكثرهم بحدة منصرفون الى المادة. لقد ألهمهم هذه الحياة الدنيا، فلا ينبغي الانصراف إليهم، والتصدّي لهم لمجرد الطمع في إسلامهم حتى يتبعهم غيرهم.

إن قوة الانسان في حياة قلبه وذكائه، والإذعان للحق إذا ظهر، أما المال والعصبة والنسب والأعوان والمراكز والتهيجان - فهي كلها عوار تغدو وترتحل، ولا يدوز ويبقى الا العمل الصالح.

وفي هذا تأذيب من الله تعالى لأمة محمد ﷺ. ولو تأدّبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم.
{كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ} .

إن الله لا ينصر دينه بأمثال هؤلاء المتكبرين الجاحدين، فلا تهتم يا محمد بهم. انما ينصر الحق بالمؤمنين الصادقين أمثال ذلك الأعمى. وما هذه الآيات إلا موعظة، وهذا القرآن كاف في الهداية لمن طلبها، وما عليك الا البلاغ والتذكير، فمن شاء اتعظ بالقرآن الذي هو {فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ} عالية القدر والمكانة بتعاليمها وحكمها البالغة {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} كرام بررة من الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله. وهم {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦] .

قراءات:

قرأ الجمهور: فتتفعه بضم العين، وقرأ عاصم: فتتفعه بنصب العين، وقرأ الجمهور: تصدى بفتح الصاد من غير تشديد، وقرأ نافع وابن محيصن: تصدى بفتح الصاد المشددة.

٨٠٠٢ 17

قُتِلَ الانسان: كلمة تقال للدعاء عليه بالعذاب. فقدّره: أنشأه في اطوار مختلفة. ثم السبيل يسره: ثم سهل له طريقه. فأقبره: فأماته وذهب به الى القبر. وأنشره: بعثه بعد الموت. وقضبا: كل ما يؤكل من النبات والخضار والبقول غصاً طرياً. غلبا: ضخمة، عظيمة. وأباً: ما ترعاه الدواب. الصاخة: القيامة، لأنها تصرع الآذان. شأن يغنيه: شغل يصرفه عن مساعدة غيره. مسفرة: مشرقة، مضيئة. مستبشرة: فرحة بما نالت من البشرى. عليها غبرة: ما يصيب الانسان من الغبار والارهاق. ترهقها: تغشاها. قتره: سواد كالدخان. بعد أن ذكر القرآن الكريم على أنه كتاب موعظة وذكرى وهدى للناس، يبين الله تعالى هنا بجود الإنسان وكفره الفاحش ولا سيما أولئك الذين أوتوا سعة من الرزق. ثم يذكره بمصدر حياته ووجوده، وأصل نشأته، وكيف يسر له السبيل في حياته ثم تولى موته وبعثه. ثم بعد ذلك ينعي على الانسان تقصيره في أمره، وأنه لا يؤدي ما عليه لخالقه، فيقول:
{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} . . .

هذه جملة دعاء على كل جاحد، والمراد بيان قبح حاله وتمرده وتكبره، فما أشد كفره مع إحسان الله اليه! والحق أن الانسان قد بلغ في كفره بالنعمة الإلهية مبلغاً يقضي بالعجب، فانه بعد ما رأى في نفسه من آيات الله، وبعد ان مضى عليه تلك السنون الطوال في

الأرض، والتي شاهد فيها ما في هذا الكون الواسع العجيب من شواهدٍ وادلةٍ ونظامٍ بديع - لا يزال يحمدُ أنعم الله عليه ولا يشكرها. ان الله تعالى لم يدع الانسان سُدى، فقد أرسل إليه الهداة إثر الهداة، غير ان الانسان ظلّ سادراً في ضلاله، مغوراً بهذه الحياة الدنيا وما فيها من نعيم زائل.

لذا شرع الله يفصل ما أجمله ويبين ما افاض عليه من النعم فقال:

{مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ}

إنه من أصل متواضع جداً.

{مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ}

لقد خلقه الله من نطفة من ماء حقير، وقدره أطواراً وأحوالاً، وأتم خلقه، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال أعضائه، وصوره بأجمل صورة وأحسن تقويم.

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}

ثم مهد له سبيل الهداية، وسبيل الحياة، وأودع فيه أعظم خصائص الاستعداد ليعيش في هذه الحياة. حتى اذا انتهت الرحلة، صار الى النهاية التي يصير إليها كل حي بلا اختيار.

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}

ثم قبض روحه وأماته وكرمه بأن يقبر.

{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ}

حتى اذا حان الموعد الذي قدره الله ليوم البعث اعاده الى الحياة للحساب والجزاء. وهذا موعد لا يعرفه إلا الله. إذن فإن الانسان ليس متروكاً سُدى، ولا ذاهباً بغير حساب ولا جزاء. فهل قام بواجبه تجاه خالقه؟

{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}

كلا، إنه مقصر لم يؤد واجبه ولم يشكر خالقه، ولم يقض هذه الرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب والجزاء.

ثم أردف سبحانه بذكر الآيات المنبئة في الآفاق، الناطقة ببديع صنعه والتي يراها الانسان أمامه ماثلة للعيان فقال:

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}

عليه أن يتدبر شأن نفسه، وينظر الى طعامه وطعام أنعامه في هذه الحياة: كيف يسدّ رزقه له ودبرناه! إنا أنزلنا الماء من السماء وجعلنا منه كل شيء حي، وشققنا الأرض بالنبات كما تشاهدونه أمامكم، فأنبثنا فيها حباً يقات به الناس، وعنباً ونباتاً يؤكل رطباً، وزيتوناً طيباً ونخلاً مثمرًا غذاء جيداً، وحدائق ملتفة الأغصان جميلة. {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلَآئِنَّمْ كُنْتُمْ} .

وبعد ان عدّد الله تعالى نعمه على عباده، وذكرهم بإحسانه اليهم في هذه الحياة، بحيث لا ينبغي للعاقل ان يتردّد - أردف هنا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها فقال:

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّآخَةُ. . .}

إذا قامت القيامة التي بصيحتها تصك الأذان وتصمها، فإن المرء يهرب من أخيه ومن أمه وأبيه، وزوجته وبنيه. . وهؤلاء هم أعز الناس عنده. إن كل انسان في ذلك اليوم له شأن يشغله عن غيره.

والناس في ذلك اليوم فريقان: فريق ضاحك مستبشر بما سيلقاه من حسن الاستقبال والنعيم المقيم، وفريق تلعو وجوههم قتره من سواد الحزن وكآبته. وهؤلاء هم الذين تمرّدوا على الله ورسوله {أولئك هم الكفرة الفجرة} فصيرهم الى جهنم.

إن من طلب الحق لوجه الحق وعمل به بإيمان وإخلاص فهو الذي يضحك ويستبشر يوم القيامة، ومن اتبع هواه وشغل نفسه بتبرير الأهواء، واحتقر عقله، ورضي جهله، وشغل نفسه بالجدل والمرء والتماس الحيل لتقرير الباطل وترويح الفاسد (كما كان يفعل أعداء الأنبياء، ولا يزال يأتيه السفهاء لينصروا به إصرار الاغبياء) ثم يتبع ذلك بأعمال تطابق ما يهوى وتحالف ما يقول. فهو الى جهنم. وإن المرء ليجد الواحد من هذه الفئة يزعم الغيرة على الدين ولا تجد عملاً من أعماله ينطبق على ما قرره الدين.

فالدين ينهى عن المعاصي وهو يقتربها، والدين يأمر بصيانة مصالح العامة وهو يفتك بها ويبدرها لمصلحته الخاصة. والدين يطالب أهله ببذل المال في سبيل الخير، وهو يسلب المال ليكنزه، فإن أنفق منه شيئاً صرفه في سبيل الشر. والدين يأمر بالعدل وهو أظلم الظالمين، والدين يأمر بالصدق وهو يكذب ويحب الكاذبين.

فمن كان هذا شأنه فإذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار، ويرتفع الستار! إنه سوف يجد كل شيء على خلاف ما كان يعرفه، يجد الحق غير ما كان يعتقد، والباطل هو ما كان يعمل. عندئذ يتحقق أن ما كان يظنه من العمل خيراً لنفسه صار وبالاً عليها.

فهذا النوع من الناس سوف تخيب آمالهم يوم القيامة، ويحاسبون حساباً عسيراً، ويصدق فيهم قوله تعالى: {وَوَجَّهَ يَوْمَئِذٍ عَظِيمًا غَبْرَةً تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ} ، أعاذنا الله من هول ذلك اليوم، وهدانا برحمته الى العمل الصالح.

قراءات:

قرأ أهل الكوفة أنا، والباقيون بكسر الهمزة.

٨١ التكوير

٨١٠١ 1

كُورَتْ: لَقَتْ ومحي ضوؤها. انكدرت: تناثرت وتساقطت وانطمس ضوؤها. واذا الجبال سُيرت: زالت عن أماكنها. العشار: النوق الحوامل واحداً عشراً بضم العين وفتح الشين. عَطَلَتْ: أَهْمَلَتْ بدون راع يرعاها ولا طالب. سُبِرَتْ: تَأَبَّجَتْ ناراً، واختلط بعضها ببعض. زُوجَتْ: قرنت الأرواح بأجسادها. الموءودة: البنت التي دفنت وهي حية. الصحف: هي التي فيها أعمال البشر، تنشر للحساب والجزاء. كَشَطَتْ: أَزِيلَتْ. سَعَرَتْ: أَوْقَدَتْ وأضرمت، أزلقت: ادنيت وقربت. ما أحضرت: ما قدمته من خير أو شر. في هذه الآيات الكريمة تصوير رائع لما يحدث يوم القيامة من أهوال تُشِيبُ الأطفال. فإذا طُوِيَتِ الشمسُ واختفت، وتناثرت النجوم - وزالت الجبال عن أماكنها، وأهملت النوق الحوامل (وقد خصها الله بالذكر لأنها أكرم الأموال عند العرب) ، وجمعت الوحوش من أوكارها ذاهلة من شدة الفزع. وإذا تأبجت البحار وغدت نيراناً ملتهبة (وتسجير البحار يكون بتشقق الأرض وتفجر النيران من باطنها فيظهر ما فيه من نيران متأججة كما نشاهد من ثورات البراكين) - يذهب الماء عند ذلك بخاراً، ولا يبقى في البحار إلا النار. وهذا معنى قوله تعالى {وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ} .

وإذا قرنت الأنفس بأجسادها وعادت كل نفس الى الجسم الذي فارقه عند الموت، فزودت النفوس بأبدانها، وهي النشأة الآخرة، (وفي الآية ما يشعر بان النفوس باقية لم تمت، وإنما تزوج بالبدن بعد انفصالها عنه) .

وإذا أُتِيَ بالموءودة وسُئِلَتْ عن السبب الذي لأجله قُتِلَتْ. (وكانت هذه العادة عند العرب من أسوأ العادات، وكانت فاشية عندهم في الجاهلية، فكان بعضهم يدفنون البنات وهن أحياء، وبعضهم يقتلونهن بشتى الوسائل: إما للغيرة والحمية، وإما من الخوف من الفقر والإملاق) . فجاء الاسلام وأبطل هذه العادة السيئة، وأكرم الأنثى، وأعطاه حقوقها واحترمها غاية الاحترام، وحلت الرحمة محلّ القسوة، والرأفة محل الغلظة بفضل هذا الدين القويم. فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها!

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} .
بعد أن تزول السماء، وتُنشَرُ الصحف، ويحاسب كل إنسان على عمله، وتُبرز الجحيمُ بنيرانها المتأججة، وتقرَّب الجنةُ للمؤمنين - عند ذلك تعلم كلُّ نفسٍ ما قدَّمت من أعمال، فيذهب أهلُ النار إلى جهنم والمؤمنون إلى الجنة عند ربهم، {فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٥] .

والذي يجب علينا أن نعتقده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتةً مبيَّنة لا يرتابون فيها يوم القيامة. وبعد أن اخترع الإنسان الكمبيوتر والآلات الحاسبة لم يعد هناك شيء مستغرب في نشر الصحف يوم القيامة، وفيها حساب كل إنسان على أدق وجه {وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] .

قراءات:
قرأ الجمهور: سجَّرت بتشديد الجيم المكسورة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: سجرت بتخفيف الجيم، وقرأ نافع وحفص عن عاصم وابن عامر وأبو عمرو: نشرت بكسر الشين من غير تشديد، والباقون: نشرت بتشديد الشين. وقرأ الجمهور: سمرت بكسر العين المخففة، وقرأ نافع وحفص وابن ذكوان: سمرت بتشديد العين.

٨١٠٢ 15

الخنس: جمع خانس وخانسة، وهي التي تختفي. الجوار الكنس: جمع جارية، والكنس جمع كنس وكناسة، وهي التي تستتر، والمراد بالخنس والكنس النجوم. إذا عسعس: إذا أقبل بظلامه. إذا تنفس: إذا أسفر وظهر ضياؤه. رسول كريم: جبريل. عند ذي العرش: عند الله. مكين: صاحب مكانة وجاه عند ربه. ثم: بفتح الثاء، هناك. صاحبكم: محمد بن عبد الله ﷺ. بالأفق المبين: الأفق الأعلى الواضح، الجهة العليا. ضنين: بخيل. رجيم: مرجوم مطرود من رحمة الله.

بعد أن ذكر الله تعالى بعض أهوال يوم القيامة، وكلَّ ما سبق - أقسم هنا بأيمان مؤكدة بالنجوم الخنس، والكنس، وبالليل إذا أقبل ظلامه، وبالصبح إذا أسفرَ وظهر نوره. وما أجملَ قوله تعالى {وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ} ! ولا يعرف هذه الحقيقة إلا الذي يقوم مبكراً، ويرى جمالَ إسفارِ الصباح ويشمُّ النسيم العليل الذي يُنعش النفوس.

لقد أقسم الله تعالى بهذه الأشياء العظيمة، أن القرآن الكريم ليس من كلام محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما هو كلامُ الله جاء به جبريل، وهو رسولٌ كريم وصاحبُ قوةٍ في أداء مهمته، {عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} وذو جَاهٍ ومنزلة عند ربه العليِّ العظيم، كما أنه مطاع بين الملائكة المقربين.

ثم وصف الرسول الكريم مخاطباً قومه فقال {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} فهو محمد الذي عرفتموه وخبرتموه وكنتم تتعونه «بالأمين» ! لماذا بعد أن جاءته الرسالة قلتم عنه انه مجنون؟

{وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ}

كيف تقولون هذه الأقوال الكاذبة عنه، وهو الذي رأى جبريلَ بالأفق المبين الواضح، كما جاء في سورة النجم: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى} [النجم: ١١-١٤] .

{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}

ليس محمد بالمتهم على القرآن وما فيه، ولا بخيلٍ يقصر في تبليغه وتعليمه، بل هو ثقةٌ أمين.

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}

ما هذا القرآن الذي يتكلم به النبي قولَ شيطانٍ مرجومٍ مطرودٍ من رحمة الله.

ثم بين لهم انهم قومٌ قد ضلّوا طريقَ الهدى، وجهلوا سبيل الحكمة فقال:
 {فَإِنَّ تَذْهَبُونَ؟ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} .
 أي طريقٍ أهدى من هذا الطريق تسلكون!!

ليس هذا القرآن العظيم الا تذكرةٌ للناس جميعاً، يأمرهم بالخير، ويذجرهم عن الشر، وهو هدايةٌ وتذكرةٌ {لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} .
 أما من يصرّ على الضلال فلا ينتفع بذكره، ولا تؤثر فيه موعظةٌ {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} وكلُّ اليه راجعون.
 قراءات:
 قرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي: بظنين بالطاء، وقرأ الباقون بظنين، بالضاد.

٨٢ الإنفطار

٨٢٠١ 1

انفطرت: انشقت. انتثرت: تبعثرت، وتفرقت. فجرت: فتحت على بعضها وزالت الحواجز التي بينها. بُعثرت: فُرقت وأزيل التراب عن الموتى، واخرجوا منها. ما قَدّمت: من اعمال الخير، وما أخرته ولم تعمله. فسوّك: جعل اعضاءك سويةً متناسبة. فعدّلك: جعلك معتدلاً متناسب الخلق. في أي صورةٍ ما شاء ربّك: في صورة حسنة هي من أعجب الصور وأحكمها. الدين: الجزاء يوم القيامة. حافظين: يحصون أعمالكم. يصلونها: يدخلونها.

تبدأ السورة بعرض اربعة مشاهد من أهوال يوم القيامة: إذا السماء انشقت وتساقطت كواكبها متبعثرة، وإذا جُرت البحارُ وزال ما بينها من حواجز، وإذا القبورُ فُتحت وبُعثت وخرج من فيها من الناس أشتاتاً ليرَوا أعمالهم - عند ذلك تعلم كلُّ نفسٍ ما عملت وما لم تعمل.

ثم ينتقل الخطاب الى الانسان في صورة عتاب: يا أيها الانسان، أي شيءٍ خدعَكَ بربك الكريم حتى تجرأت على عصيانه؟ هو الذي أوجدَكَ من العدم، وخلقَكَ في هذه الصورةِ المتناسبة الأعضاء مع اعتدال القامة في أحسن تقويم! وبعد كل هذا نجدكم يا بني آدم مكذّبين بيوم الدين:

{كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدينِ} ! ارتدّعوا عن الاغترار بكرمي لكم، فإنكم محاسبون ومسئولون.

ثم بين لهم ان أعمالهم مكتوبةٌ يُحصى عليهم ملائكةٌ كرام كاتبون {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} من خيرٍ أو شرٍّ. كما جاء في سورة الزخرف ٨٠ {أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} اما كيفية حفظهم وكتابتهم، وهل عندهم أوراق وأقلام، او هناك ألواح تُرسم فيها الأعمال - فلا نعلم عن ذلك شيئاً، وإنما نقول: إن قدرة الله كفيلة بأن يخلق من الطرق ما لا يظلم به عباده.

ثم ذكر نتيجة الحساب، والثواب والعقاب، وبين ان العاملين في ذلك اليوم فريقان: وبين مآل كل منهما فقال:

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدينِ}

ان المؤمنين الأبرار، الصادقين في إيمانهم - سينالون جنات النعيم؛ أما الذين جحدوا وانشقوا عن أمر الله وهم الفجار - ففي النار، يدخلونها بعد الحساب.

{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ}

ذلك أن وعد الله حقٌّ، فهم في جهنم لا محالة.

ثم بين الله أهوال ذلك اليوم وشدائده فقال:

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدينِ} .

إنك أيها الانسان تجهل ذلك اليومَ العظيم، فهو فوق ما تتصور بشدائده وأهواله.
{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} .

لا أحد يملك نفعا ولا ضرا لنفسه ولا لغيره في ذلك اليوم. . وكل إنسان مشغول بنفسه. . والأمر في ذلك اليوم لله وحده، فهو المتفرد بالأمر والنهي، فلا شفيع ولا نصير، واليه المرجع والمآب.
قراءات:

قرأ الجمهور: فعَدَلَك بتشديد الدال، وقرأ عاصم وحمة والكسائي: فعَدَلَك بفتح الدال من غير تشديد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يومُ لا تملكُ برفع يوم، والباقون يومَ لا تملكُ بالنصب.

٨٣ المطففين

٨٣.١ 1

ويل للمطففين: هلاك عظيم للذين يخسئون المكيال وينقصونه، طَفَفَ المكيال: نَقَصَهُ. اذا اكثالوا على الناس يستوفون. . . .: عندما يكتالون لأنفسهم من الناس - يأخذون حقهم وافيا، اما اذا كالوهم أو وزنوهم فإنهم يُنْقِصُونَ حقوق الغير. سَجَّين: اسمُ الكتاب الذي تُكتب فيه أعمالهم. مرقوم: له رقم وعلامة. أساطير الأولين: أخبار الماضين. ران على قلبه: غطى عليه. لمحجوبون: مطرودون عن أبواب الكرامة. لصالو الحميم: داخلون فيها.

تبدأ السورة بحربٍ يعلنها الله على أناسٍ يمتنون سرقة الناس، سماهم الله «المطففين»، لأن الشيء الذي يأخذونه من حقوق الناس شيءٌ طفيف، ولكنه سرقةٌ وغش. أما من هم، فهم أولئك الذين يتقاضون بضاعتهم وافية عند الشراء ويعطونها للناس ناقصةً عند البيع.

ثم جار بصيغة التعجب من عمل هؤلاء المجرمين فقال تعالى:

{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟}

ألا يخطر ببال هؤلاء المطففين أنهم سيبعثون ليوم عظيم الهول، حيث يقف فيه الناس للعرض والحساب!

ولا يخفى ما في الوصف «لرب العالمين» من الدلالة على عظم الذنب في أكل أموال الناس بالباطل. فالميزان هو قانون العدل الذي قامت به السموات والأرض.

وبعد ان ذكر الله تعالى أنه لا يزاول التطفيف ونقص الميزان الا من ينكر يوم القيامة والبعث والجزاء - أمر هنا بالكف عما هم فيه، وذكر ان الفجار، كما سماهم، قد أعد لهم كتابٌ أحصيت فيه جميع أعمالهم ليحاسبوا عليها

{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِّينٍ، كِتَابٌ مَّرْقُومٌ}

كفوا عما أنتم عليه، فهناك سجلٌ لأعمال الفجار فيه جميع أعمالهم اسمه سَجِّين، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ؟} إنه شيء عظيم ليس مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك. ان الأمر اكبر وأضخم من أن يُحِيط به علم، فهو {كِتَابٌ مَّرْقُومٌ} ، مسطور له علامة واضحة، لا يُزاد فيه ولا يُنقص منه، {لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٢١] .

ثم يأتي بالتهديد والوعيد لمن يكذب باليوم الآخر فيقول:

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}

الهلاك للجاحدين الذين لا يؤمنون بالآخرة {وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} يظن يعتدي على الحق ويصر على الكفر، لأنه من المجرمين

الآثمين، حتى إنه: {إِذَا نَبَلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} منكرًا أن القرآن قد نزل من عند الله وزاعمًا أنه مجرد خرافات وأباطيل عند الأمم السابقة، جاء بها محمد، كما جاء في قوله تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان: ٥]. ثم بين الله تعالى أن الذي جرّاهم على الجحود والتماهي في الإصرار على الإنكار والكفر هي أفعالهم القبيحة التي مَرَنُوا عليها حتى صاروا لا يميزون بين الخرافة والحجة الدامغة فقال: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. ليس القرآن والبعث والجزاء من الأساطير والخرافات، بل غَمِيتْ قُلُوبُهُمْ وغطت عليها أفعالهم وتماديهم في الباطل، فطمس على بصائرهم، والتبست عليهم الأمور ولم يدركوا الفرق بين الصحيح والباطل. بعد ذلك ردت عليهم السورة ناقضةً ما كانوا يقولون من أن لهم المنزلة والكرامة يوم القيامة. {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}.

أما ما تدعون من أنكم تكونون مقربين إلى الله يوم القيامة، فهو وهمٌ باطل، فأنتم مطرودون من رحمة الله، ومحجوبون عنه بسبب معاصيكم وجحودكم. وكما قال تعالى: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٧]. ثم بين الله مآلهم ومصيرهم فقال: {ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٍ تُكَذِّبُونَ}. لقد حُجِبُوا عن القرب من الله، وخاب ظَنُّهم الأثيم، بل إنهم لَذَاهِبُونَ إلى النار حيث يقال لهم تَبَكُّيتًا: إن هذا العذاب الذي حلَّ بكم هو جزاؤكم بما كنتم تكذبون في الدنيا أخبار الرسول الصادق الأمين. قراءات:

قرأ حفص: بل ران باظهار لام بل، وقرأ الباقون: بل ران بادغام اللام بالراء، وقرأ اهل الكوفة: رين باللامالة.

٨٣٠٢ 18

عليين: المكان العالي الرفيع القدر، وهو مقابل: سجين. الأرائك: جمع أريكة، وهي المقعد الوثير المنجد. نضرة النعيم: بهجته ورونقه. رحيق: شراب خاص. مختوم: ختمت أوانيه. ختامه مسك: مختوم بأطيب انواع الطيب. فليتنافس المتنافسون: فليتسابق المتسابقون في عمل الخير ليلحقوا بهم. مزاجه: ما يخلط به. من تسنيم: من عين يقال لها تسنيم. بعد أن بين الله تعالى حال الفجار وأعمالهم ومآلهم يوم القيامة - يعرض هنا حال الأبرار الذين آمنوا برَّبِّهم وصدقوا رسولهم. وهذه طريقة القرآن الكريم في عرض المتقابلين، وفي ذلك ترغيبٌ في الطاعة، وتنفيرٌ من المعصية. {كَلَّا} ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث، ومن أن كتَّابَ الله أساطيرُ الأولين {إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} فهو مودع في أشرف الأمكنة بحيث يشهده المقربون من الملائكة، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ}؟ إنه أمرٌ فوق العلم والادراك لبني البشر، وكل ما في الآخرة مختلفٌ عن حياتنا ومفهومنا. فهو: {كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ} فهو مسطور علامته واضحة يشهده ويحفظه المقربون من الملائكة تكريماً للأبرار، وتقديراً لجهودهم وأعمالهم الصالحة.

بعد هذا بين منزلة الأبرار الرفيعة، وأخذت السورة تفصل حالهم وما ينالون من الجزاء والنعيم.

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ}

وهذا في مقابلة الفجار الذين هم في الجحيم. فالله تعالى يكرم المؤمنين الأبرار ويدخلهم جنات النعيم، حيث يجلسون على الأرائك وينظرون إلى ما أولاهم ربهم من النعمة والكرامة، حتى إذا نظرت إليهم تعرف في وجوههم بهجة النعيم ونضارته.

وهم يُسْقَوْنَ من شراب أهل الجنة الذي هو الرحيق الخالص، الذي خُتِمَتْ أوانيهِ بِخَتَمٍ من مِسْكٍ، تَكْرِيمًا لَهَا وَصَوْنًا عَنِ الْإِبْتِدَالِ، {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} ويتسابقوا.

والشراب السابق ممزوج من عين في الجنة اسمها «تَسْنِيم» .

{وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} الأبرار عند الله تعالى. وكل ذلك تَكْرِيمٌ لَهُمْ وَفَضْلٌ ضِيَاةٌ. ولقد فَصَّلَ اللهُ تعالى ما أَعَدَّ لِلْأَبْرَارِ ووصفَ النعيم الذي سيلاقونه في دارِ كرامتهِ حُضًّا لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ عَلَى الْإِسْتِزَادَةِ مِنْهَا، وَحَثًّا لِلْمُقَصِّرِينَ وَاسْتِنْهَاضًا لِعِزَائِهِمْ أَنْ لَا يَقْصُرُوا فِي ذَلِكَ.

بعد ذلك انتقل الحديث في السورة الى ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين في الحياة الدنيا وكيف كانوا يستهزئون منهم ويسخرون، وان هذا ما سيقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة ويضحكون منهم.

فقد روي أن صناديد قريش مثل أبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل السهمي، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأميرة بن خلف، وغيرهم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه ويستهزئون بهم ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم. وفي ذلك كله يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} .

ان المجرمين الجاحدين، كانوا في الحياة الدنيا يضحكون من المؤمنين، {وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} عليهم بأعينهم وأيديهم، ويذكرونهم بالسوء، ويشيرون إليهم مستهزئين، {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} نفوسهم راضية بعد ما اشبعوا تلك النفوس الصغيرة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم.

{وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} .

واذا رأى المجرمون المؤمنين قالوا عنهم: ان هؤلاء لَضَالُّونَ، فقد آمنوا بحمد وتركوا ما كان عليه الآباء والأجداد من عبادة.

ثم يرد الله عليهم بكل أدب ووقار بقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ}

ان الله لم يرسل الكفار رقباء على المؤمنين، ولم يؤتهم سلطة محاسبتهم على أفعالهم.

ثم طمأن المؤمنين بذكر معاملتهم للمجرمين يوم القيامة، تسلياً لهم عما نالهم من أذى، وشدّاً لعزائمهم على التدرّع بالصبر فقال: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}

الآن يومُ القيامة، يوم الجزاء والحساب، يجلس المؤمنون على الأسرة في نعيم مقيم، ويتناولون الرحيق المختوم بالمسك وهم يضحكون من الكفار وما يعانونه من العذاب والطرد من رحمة رب العالمين.

قراءات:

قرأ الجمهور: ختامه مسك، وقرأ الكسائي وحده: خاتمه مسك، وقرأ الجمهور: تعرف بكسر الراء، وقرأ يعقوب: تعرف بضم التاء وفتح الراء، وقرأ الجمهور: فاكهين، وقرأ حفص: فكهين.

٨٤ الإنشاق

٨٤٠١ 1

انشقت السماء: تصدعت. أذنت لربها: استمعت إليه، أذن للشيء: استمع إليه، وأذن بالشيء: علمه. حقت: أطاعت، وقع عليها الحق واعترفت بأنها محقوقة لربها. واذا الأرض مدت: تغيرت جميع ملامحها وأصبحت قاعاً صفصفاً، بإزالة جبالها وتغيير معالمها. وألقت

ما فيها وتخلت: أخرجت جميع ما فيها من الخلائق والكنوز التي طوتها في أجيالها العديدة. كادح: عامل بجِدٍّ ومشقة، كدح في العمل كدحا: سعى، وأجهد نفسه، وعمل خيراً أو شراً، وكدح لعياله: كسب لهم بمشقة. فلاقية: فسوف تجد عملك امامك مسجلاً في سجلٍ دقيق، لا ينسى شيئاً. ينقلب الى أهله: يرجع الى عشيرته فرحاً مسروراً. من أوتي كتابه وراء ظهره: صورةٌ عجيبه من الاحتقار والازدراء. الثبور: الهلاك، يدعو ثبوراً: يدعو على نفسه بالهلاك. يصلّى سعيّاً: يدخل جهنم. إنه ظن أنه لن يحور: أنه كان لا يؤمن بالبعث، والرجوع الى الله، حار يحون حورا وحوراً: رجّع. بلى: سيرجع الى الله ويحاسب.

بين الله تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة أهوال يوم القيامة، في آيات موجزة هي من عجائب إيجاز القرآن وبلاغته، وذكر أن ما يقع بين يدي الساعة من كوارث وأهوال تُشيب الولدان، ويفزع لها الانسان. فنها:
إذا تشققت السماء وتصدعت، واختل نظام العالم، واستمعت السماء لأمر ربها وانقادت لحكمه، {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} أي انبسطت بنسف ما فيها من جبال، وأصبحت لا بناء فيها ولا وهاد، كما قذفت ما في جوفها من الخلائق والكنوز. {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} واستمعت لأمر ربها وأطاعت. . . إذا حصل كل هذا - لقي الانسان من الأهوال ما لا يحيط به الخيال في ذلك اليوم العصيب.

بعد هذه المقدمة الهائلة أخبر الله تعالى عن كد الإنسان، وتعبه في هذه الحياة.
{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُلاقيهِ} .

يا أيها الإنسان الغافل عن مصيره، لا تظن أنك خالد، كلاًّ أنك مجّد في السير إلى ربك، وراجع إليه يوم القيامة، وان كل عمل عملته، خيراً أو شراً، سوف تلاقيه أمامك في سجلٍ دقيق، وسيجازيك ربك على كدحك من ثوابٍ وعقاب.

في ذلك اليوم ينقسم الناس فريقين: فريق الصالحين البررة، وهؤلاء يحاسبون حساباً يسيراً، وينقلون الى أهلهم فرحين مسرورين كما قال تعالى، {فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا} إذ يتجاوز الله عن سيئاته. وقد روى البخاري ومسلم عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب. فقالت عائشة: أليس الله يقول {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب عذب» .

وفي الحديث: ان رسول الله ﷺ قال:

«ان الله يذني العبد يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه، فيقول له: فعلت كذا، ويعدّد عليه ذنوبه ثم يقول له: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» ، فهذا هو المراد من الحساب اليسير. الكنف: الرحمة والستر.

والفريق الثاني فريق العصاة الجاحدين، وهؤلاء يحاسبون حساباً عسيراً ويلقون من العذاب ما لا يتصوره الانسان. . .
{وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا} إنه كان في أهله مسروراً إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربّه كان به بصيراً} .

هذه صورةٌ عجيبه جديدة، تأتي لأول مرة في القرآن الكريم، وهي إعطاء الكتاب للمجرم من وراء ظهره، وما هي الا نوعٌ من الاحتقار وازدراء به. وهو حين يتناوله على هذه الصورة يدعو على نفسه بالهلاك والموت، ولكن لا يجاب، ويكون مصيره النار وبئس القرار ويقول:

{يَالَيْتَنِي لَمْ أَوتَ كِتَابِيَهٗ وَلَمْ أُدْرَ مَا حِسَابِيَهٗ يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ} [الحاقة: ٢٥-٢٩] .

لماذا؟ انه كان في الدنيا ساهياً لاهياً، سادراً وراء شهواته ينكر البعث والحساب والجزاء، وقد ظن أن لن يرجع إلى الله، ولن يبعثه بعد الموت.

{بلى إن ربّه كان به بصيراً}

بلى إن الله سيعيده بعد موته ويحاسبه على عمله، وهو لا تخفى عليه خافية.
قراءات

قرأ نافع وابن عامر وابن كثير والكسائي: يُصلى بضم الياء وفتح الصاد واللام المشددة، والباقون: يصلى بفتح الياء واسكان الصاد وفتح اللام من غير تشديد.

٨٤٠٢ 16

الشفق: الحمرة التي تشاهد في الأفق الغربي بعد الغروب، ويستمر الى قبيل العشاء، والشفق: الشفقة. وسق الليل الأشياء: جلّ لها وجمعها، وسقت النخلة: حملت. اتسق: اكتمل وتم نوؤه وصار بدرًا. لتركبن طبقاً عن طبق: لتلاقن حالاً بعد حال، بعضها أشد من بعض وهي الحياة، والموت، والبعث، وأهوال القيامة. بما يُضمرون في نفوسهم من الإعراض والمجود والحسد والبغي. غير ممنون: غير مقطوع.

بعد هذه الجولة العميقة الأثر بمشاهدتها، لتأكيد أن الانسان راجع الى ربه يوم القيامة، حيث يحاسب حساباً يسيراً أو عسيراً حسب أعماله - يُقسم الله تعالى بآيات له في الكائنات أن بعث الناس يوم القيامة كائن لا محالة.

{فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ}

تكرر هذه العبارة في القرآن، وهو أسلوب يأتي عندما يكون الشيء الذي أقسم الله عليه جليل القدر، فيقول سبحانه: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات ما أريد لأن أمره ظاهر، وإثباته أعظم وأجل من أن يقسم عليه. وأول هذه الأمور الشفق . ثم يأتي:

فبالليل وما وسق، أي ما جمعه من الكائنات التي تسكن فيه عن الحركة، والقمر عندما يتم نوره ويصير بدرًا كاملاً . بحق هذه الأمور الثلاثة، والتي لا يخفى على الناس ما فيها من المنافع، وما فيها من الآيات الناطقة بحكمة واضع نظامها - {لَتَرْكَبَنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} وهنا جواب القسم: لتلاقن ايها الناس حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وسقماً بعد صحة، وغنى بعد فقر، منذ خلقكم الى طفولتكم، وشبابكم وشيخوختكم، ثم موتكم، ثم بعثكم يوم تُحشرون إلى ربكم للحساب.

ثم بعد ان ذكر الأدلة القاطعة على صحة البعث والحساب والجزاء أتى بأسلوب فيه استفهام يقصد به التوبيخ.
{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟} .

ما لهؤلاء الجاحدين لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون بالبعث بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه! {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} . . خضوعاً لرّب هذا الكون البديع!

وهنا موضع سجدة. لقد منعهم العناد والاستكبار من الإيمان، فهن يفعلون ذلك تعالياً عن الحق، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته.
{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}

والله أعلم بما يكنون في نفوسهم، ويضمرون في جوارحهم من شر وإصرار على الشرك.

ثم يتجه الخطاب الى الرسول الكريم فيقول تعالى: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي أخبرهم يا محمد عما ينتظرهم من عذاب. والتعبير بقوله: {فَبَشِّرْهُمْ} فيه تهكم لاذع حيث استعمل البشارة مكان الإنذار.

ثم يختم السورة الكريمة بما أعد للمؤمنين من أجر دائم غير منقطع، فقال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} بل هو دائم غير مقطوع عنهم في دار البقاء، ولنعم دار المتقين.

قراءات

قرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي، لتركبن بفتح الباء والخطاب الى النبي ﷺ، وقرأ الباكون، لتركبن بضم الباء والخطاب للجميع.

البروج: واحدها بُرْج بضم الباء، ومن معانيه: القصر العالي، والحصن، وبروجُ السماء الاثنا عشر، وهي تضم منازل القمر الثمانية والعشرين، وسيأتي تفصيلها. اليوم الموعود: يوم القيامة. شاهد ومشهود: جميع ما خلق الله في هذا العالم. الأخدود: الشق المستطيل في الرض، جمعه أخاديد. وأصحاب الأخدود: قومٌ من الكافرين، كان لهم قوة وسلطان. ما نَقَمُوا منهم: ما أنكروا عليهم، وعابوهم. فتنوا المؤمنين: ابتلوهم، وحرَقوهم بالنار، يقال: فتن المعدن: صهره في النار. عذاب الحريق: عذاب النار في جهنم. البطش: الأخذ بالعنف والشدة. يُبدئ ويعيد: يبدأ الخلق ثم يفنيهم، ثم يعيدهم أحياء. الودود: الذي يحب أوليائه وعباده الصالحين، ودّه يودّه ودّا بكسر الواو وفتحها وضمّها ووداداً، وودادة، ومودةٌ: أحبه. الودود: كثير الحب، وهو ايضاً اسم من أسماء الله الحسنى. ذو العرش: صاحب الملك والسلطان، والقدرة النافذة. المجيد: السامي القدر، المتناهي في الجود والكرم، يقال: مجتد مجادة، فهو مجيد. محيطٌ: بهم، فهم في قبضته. محفوظ: مصون من التحريف والتغيير والتبديل.

{والسَّمَاءُ ذَاتِ البروج}

أَقْسَمَ اللهُ تعالى بالسَّمَاءِ البديعة وما فيها من نجوم لِيُنَبِّهَنَا الى ما فيها من دقة الصنع، وبالغ الحكمة، لِنَعْلَمَ ان الذي خلقها أجلُّ وأعظم. والبروج اثنا عشر وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، السرطان، الأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والدلو، والجدي، والحوت، والقوس. وتحلُّ الشمس كل شهرٍ في واحد من هذه البروج، وكلُّ منها يضمُّ منزلين وثلاثاً من منازل القمر، وعددها ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل يوم في واحد منها ويستتر ليلتين يغيب فيهما.

ومنازل القمر هي: السرطان، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك الأعزل، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد سعاد، وسعد الأخبية، والفرغ الأول، والفرغ الثاني، وبطن الحوت.

ونرى في السماء ستة بروج، والستة الاخرى تكون في سماء نصف الأرض المغيبة عنّا.

ونرى في المنازل اربعة عشر منزلاً، والبقية في النصف المغيب عنّا. والبروج الاثنا عشر، منها ستة في شمال خط الاستواء، وستة اخرى في جنوبه.

فأما التي في شماله فهي: الحمل، والثور، والجوزاء.

وهذه الثلاثة تقطعها الشمس في ثلاثة اشهر هي فصل الربيع، ثم السرطان، والاسد، والسنبلة، وهذه هي فصل الصيف.

والستة التي في جنوب خط الاستواء هس: الميزان، والعقرب، والقوس، وفيها يكون فصل الخريف.

ثم الجدي، والدلو، والحوت، وفيها يكون فصل الشتاء. هكذا قسم القدماء البروج والمنازل.

ولقد اقسم الله تعالى بالسماء لما فيها من نجوم لا تُعدُّ ولا تحصى، ومن جملة هذه البروج، لأننا نراها ونشاهدها دائماً، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس في هذه الحياة.

وقد اهتم العرب اهتماماً كبيراً بمعرفة هذه النجوم، ومن قبلهم اهتمت الأمم التي سبقتهم. وكانوا احوج الناس الى معرفتها، ومواقع طلوعها وغروبها، لأنهم يحتاجون اليها في السفر براً وبحراً، إذ يهتدون ليلاً بهذه الداراري اللامعة، فلولاها لضلَّت قوافلهم وهلكت تجارتهم ومواشيهم، وهذا ما أشار الله تعالى اليه بقوله:

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: ٩٧] .

وقال: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} [الحجر: ١٦] .

وقال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس: ٥] .
ولذلك اهتم العرب بهذه السماء العجيبة، وعرفوا عدة من الكواكب الثابتة وسموها بأسماء مخصوصة، وذكروا في أشعارهم بعضها، مثل
الفرقدين والدبران، والعيوق، والثريا، والسماكين، والشعرين، وغيرهما مما ذكر في كتب الفلك والأدب والتفسير والتاريخ. . . .
وقد صور العلامة ابو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي جميع أسماء الكواكب المستعملة عند العرب في كتابه البديع: صور الكواكب
الثمانية والاربعين، والذي حوى نحو مئتين وخمسين كوكبا. . . .
فالقسم بهذه السماء البديعة الصنع، العجيبة التركيب، وما فيها من نجوم ومجرات، ومجموعات لا نعلم منها الا القليل القليل - قسم عظيم،
والذي أقسم أجل أعظم.
{واليوم الموعود}

هو يوم القيامة الذي وعد الله أنه لا بدَّ آتٍ للحساب والجزاء.

{وشاهد ومشهود}

وبجميع ما خلق الله في هذا الكون العجيب، مما يشهده الناس ويرونه رأي العين. وبهذا يوجه الله تعالى انظارنا الى ما في هذا الكون
الواسع الكبير من العظمة والفخامة والحكمة، لنعتبر ونتعظ، ونعلم أن الله الذي خلق هذا الكون هو الذي يستحق أن يعبد.
{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}

قاتل الله أصحاب الأخدود ولعنهم، فهم الذين شقوا في الأرض شقاً مستطيلاً كالخندق، وملأوه بالنيران، وحرقوا بها المؤمنين بالله.
ثم بين من هم أصحاب الأخدود فقال:

{النار ذات الوقود}

إنهم أصحاب النار المتأججة التي أوقدوا فيها الحطب الكثير، فارتفع لهبها.

ثم بين إجرامهم وقسوة قلوبهم بقوله:

{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}

قُتِلَ هؤلاء المجرمون ولعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار، وهم جلوس حولها، يشهدون العذاب، ويتشققون بإحراقهم.

{وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم، ولا انتقموا منهم، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز، الغالب الذي لا يضام من لاذ به، الحميد في جميع
أقواله وأفعاله.

ثم بين الله تعالى انه مطلع على ما فعلوا بالمؤمنين، وأوعدهم بانهم سيلاقون جزاء ما فعلوا فقال:

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

إنه تعالى مطلع على اعمال عباده، لا تخفى عليه خافية من شئونهم، فهو عليم بما يكون من خلقه ومجازيهم عليه.

وبعد أن ذكر قصة أصحاب الأخدود، وما فعلوه من العذاب الكبير بالمؤمنين - شدد النكير على أولئك المجرمين الذي عذبوهم، بأنه أعدَّ
لهم عذاباً أليماً في نار جهنم، وانه إن أمهلهم فإنه لا يمهلهم، فقال:

{إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} .

ان الذين امتحنوا المؤمنين والمؤمنات في دينهم بالأذى والتعذيب بالنار ولم يتوبوا الى الله من ذلك الجرم الكبير، بل ظلوا مصرين على
كفرهم وعنادهم - لهم في الآخرة عذاب جهنم وحريقها كما أحرقوا المؤمنين.

وقد اختلف المفسرون في حقيقة أصحاب الأخدود، وأين كان موضعهم ومن هم، وأوردوا أقوالا كثيرة لا فائدة منها فأضربنا عنها وتركاها.

وبعد ان ذكر الله تعالى ما أعد لأولئك المجرمين من العذاب، بين هنا ما يكون لأوليائه المؤمنين من النعيم المقيم، فقال:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} .

بهذا القول الكريم يتنثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حيث تكون خاتمتهم في جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها الأنهار، وهذا هو الفوز الكبير، جزاء صبرهم وإيمانهم وعملهم الصالح.

ثم اخبر تالى عن انتقامه الشديد من أعدائه وأعداء رسله والمؤمنين فقال:

{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُدْىِءُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} .

ان انتقام الله من الجبارة والظلمة، وأخذة إياهم بالعقوبة، بالغ الغاية في الشدة، والنهاية في الأذى، فهو الخالق القادر الذي يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت. فإذا كان قادراً على البدء والإعادة، فهو قادر على البطش بهم. لأنهم في قبضته وخاضعون لسلطانه.

ثم ذكر سبحانه أنه يغفر دائماً، وانه رحيم لعباده، كثير المحبة لمن اطاعه، فبين في ذلك خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال فقال:

١- {وَهُوَ الْغَفُورُ} وهو كثير المغفرة لمن يتوب ويرجع اليه، في أيها الناس لا تقنطوا من رحمة الله، فإن رحمته وسعت كل شيء.

٢- {الودود} المحب لأوليائه المخلصين، اللطيف المحسن اليهم. وأي صفة أعظم من هذه الصفة؟

٣- {ذو العرش} صاحب الملك والعظمة، والسلطان والقدرة النافذة، والأمر الذي لا يرد.

٤- {المجيد} العظيم الكرم والفضل، العالي على جميع الخلائق، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال.

٥- {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

روي ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه، قيل له وهو في مرض الموت: هل نظرت الى طيب؟ فقال: نعم، قالوا: فإذا قال لك؟ قال: قال لي إني فعّال لما أريد.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قَرَانٌ مُجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} .

بعد ان ذكر قصة اصحاب الأخدود وبين حالهم، وما فعلوا بالمؤمنين - ذكر هنا ان حال الكفار في كل عصر، ومع كل نبي وشيعته، جارٍ على هذا المنهج، فهم دائماً يؤذون المؤمنين ويعادونهم، ولم يرسل الله نبياً إلا واجه من قومه مثل ما لقي هؤلاء من اقوامهم.

والغرض من هذا كله تسلية النبي الكريم وصحبه، وشد عزائمهم على التدرع بالصبر.

هل بلغك يا محمد ما صدر من تلك الجموع الطاغية من التمادي في الكفر والضلال وما حلّ بهم؟ إنهم فرعون وقومه، وثمود. والكفار في كل عصر متشابهون، فقومك أيها الرسول ليسوا ببذع في الأمم، فقد سبقهم أمم قبلهم وحلّ بهم النكال، وكذلك سيكون مآل الجاحدين من قومك، {فاصبر إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: ٤٩] . إِنَّ الْكُفَّارَ فِي كُلِّ عَصْرِ غَارِقُونَ فِي شَهْوَةِ التَّكْذِيبِ، فَلَا تَجْزَعُ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ.

{وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} لا يفلتون من قبضته، ولا يعجزونه.

ثم رد على تماديهم في تكذيب القرآن، وادعائهم أنه أساطير الأولين فقال:

{بَلْ هُوَ قَرَانٌ مُجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}

إن ما جئتهم به يا محمد من قرآن عظيم، وكذبوا به - هو من عند الله واضح الدلالة على صدقك، وهو محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل.

قرأ حمزة والكسائي: ذو العرش المجيد بكسر الدال، وقرأ الباقون: المجيد بالرفع، وقرأ نافع: في لوح محفوظ بالرفع، والباقون: محفوظ بالجر.

٨٦ الطارق

٨٦٠١ 1

طَرَقَ طَرَقًا وطروقًا: أتاها ليلًا، وطَرَقَ النجم طروقًا: طلع ليلًا. النجم الثاقب: النجم المضيء، ثقب الكوكب: أضاء فهو ثاقب. حافظ: رقيب. ماء دافق: ماء مندفع بسرعة. الصلب: فقار الظهر، منطقة العمود الفقري، يقال: من صُلب فلان يعني من ذريته. الترائب: عظام الصدر. تُبلى: تختبر وتمتحن. السرائر: الضمائر، وما يُسرّه الإنسان في نفسه. الرجوع: إعادة الشيء إلى ما كان عليه، والمراد هنا المطر. الصدع: الشق، الأرض التي تنشق عن النبات. فصل: فاصل بين الحق والباطل. يكيدون: يمحرون، ويدبرون المضرة خفية. وأكد كيدا: الكيد من الله التدبير بالحق لمجازاة أعمالهم. رويدا: قريبًا. لقد أقسم الله تعالى في مطلع هذه السورة بالسماء ونجومها الالامعة المضيئة، أنّ النفوس لم تُترك سُدى، ولن تبقى مهملة، بل تكفل بها مَنْ يحفظها ويحصى أعمالها، وهو الله تعالى.

وفي هذه تسليّة للرسول الكريم وأصحابه، ووعيد للكافرين الجاحدين.

{والسماء والطارق}

أُقسم بالسماء وبالنجم الطالع ليلًا. ولقد أقسم الله تعالى بالسماء والشمس والقمر والليل، لأن في أحوالها وأشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجائب وأيّ عجائب.

ثم فسر الطارق بقوله: {النجم الثاقب} هذه النجوم المضيئة التي لا تحصى ولا نعلم من أكثرها شيئًا، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق؟} استفهام للتفخيم والتعظيم. ما الذي أعلمك يا محمد ما حقيقة هذه النجوم.

ثم بين الذي حلف عليه فقال: {إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} أي إن كل نفس عليها رقيب يحفظها ويدير شئونها في جميع أطوارها، ويحصى عليها أعمالها.

لَمَّا، هنا بمعنى إلّا، يعني أن كل نفس عليها حافظ. وفي قراءة من قرأها بالتخفيف أنّ كل نفس لما عليها حافظ، يعني: ان كل نفس لعلها حافظ، وهما قراءتان سبعتان.

وهذا المعنى كما قال تعالى: {وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الإنفطار: ١٠-١٢].

ثم أمر الله تعالى الإنسان الآن ينظر ويتفكر في بدء خلقه ومنشئه، وأنه خلق من ماء دافق فيه ملايين الحويئات التي لا تُرى بالعين المجردة، فالذي خلقه على هذه الأوضاع قادر على أن يعيده إلى الحياة الأخرى.

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}

فلينظر الإنسان ويفكر في مبدأ خلقه. لقد خلقه الله من ماء متدفق، من مَنِيٍّ فيه ملايين المخلوقات التي لا تُرى بالعين المجردة، {يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} أي من الصلب وعظم الصدر من الرجل والمرأة، فاذا دخل المنيُّ رحمَ المرأة وكانت مهيأةً للحمل التقى بالبيضة التي في الرحم، وكونت معه جرثومة الجنين.

وقد بينت الدراسات الحديثة أن نواة الجهاز التناسلي والجهاز البولي في الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقري وبين الخلايا المكونة لعظام الصدر.

وتبقى الكلى في مكانها وتنزل الخصية إلى مكانها الطبيعي في الصَفْنِ عند الولادة. كما ان العصب الذي ينقل الإحساس إليها ويساعدها على إنتاج الحيوانات المنوية وما يصاحب ذلك من سائل - متفرع من العصب الصدري العاشر الذي يغادر النخاع الشوكي بين الضلعين العاشر والحادي عشر.

وواضح من ذلك ان الاعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية تنشأ من موضع في الجسم بين الصلب والترائب، «العمود الفقري والقفص الصدري» .

وهذه الأمور الدقيقة لم يكتشفها العلم الا حديثاً بعد هذه القرون الطويلة. ومن هذه يتبين بوضوح أن الانسان يُخْلَق وينشأ من ماء الرجل الدافق، وأهم ما فيه الحيوان المنوي، وماء المرأة وأهم ما فيه البويضة. ونشوؤهما وغذاؤهما وأعصابهما كلها من بين الصلب والترائب.

{إنه على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}

ان الله تعالى الذي قَدَّرَ خَلْقَ الإنسان ابتداءً من هذه المواد التي لا ترى بالعين المجردة، بتلك العملية الدقيقة - قادرٌ بكل سهولة على إعادة حياته مرةً أخرى بعد أن يموت. {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧] . ثم بين وقت الرجوع، ذلك اليوم العظيم فقال:

{يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ}

إنه يوم القيامة، يوم يعيدُ الله الخلق فتتكشف السرائر، وتُتضح الضمائر، وتُمتحن القلوب وتختبر.

{فَأَلَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ}

فليس للإنسان في ذلك اليوم قُوَّةٌ تُدفع عنه العذاب ولا ناصراً ينصره ويجيره، فلا قُوَّةَ له في نفسه، ولا أحد ينصره، الا ما قدمه أمامه من عمل صالح.

وبعد أن بين الله تعالى امر المبدأ والمعاد، وانه قادر على إعادة الحياة، ووجه الانظار الى التدبر في برهان هذه القدرة - شرع يثبت صحة رسالة النبي الكريم الى الناس كافة، وصحة ما يأتيهم به من عند الله، وهو القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، فأقسم على صدق هذا الكتاب فقال:

{وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ}

أقسم بالسماء ذات المطر (وهو أنفع شيء ينتظره الخلق، الذي يرجع حيناً بعد حين، ولولاه لهلك الناس، وهلك الخلق، هذا الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي. ٠) كما أقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق، فيخرج منها النبات والأشجار والزهر وكل ما يفيد الناس وقيتهم - إن ما جاء به محمد {إنه لقول فصل وما هو بالهزل} أي إن هذا القرآن هو قول فاصل بين الحق والباطل، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعهِ وإعجازه، وهو جدُّ ليس فيه شيء من الهزل والعبث، لأنه كلامُ أحكم الحاكمين.

ثم بين ما يديره الكافرون للمؤمنين، وما تحويه صدورهم من غلٍّ ومكرٍ فقال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا} ويمكرون بالمؤمنين، ويحاولون صرف الناس عن الدين القويم، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠] .

ثم ذكّر ما قابلهم ربهم به، وما جازاهم عليه، وطلب من رسوله الكريم ان يتأني عليهم ليرى أخذه لهم فقال: {وَأَكِيدُ كَيْدًا فَهْلِلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوَيْدًا} .

ان هؤلاء المشركين يعملون المكاييد لإطفاء نور الله، وصدد الناس عن شريعته، وأنا أجازيهم على كيدهم بالإمهال ثم النكال، حيث أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر. . لكن بعد أن أمهلهم قليلاً. وقد صدق وعده، ووعد الحق.

قراءات
قرأ عاصم وحزمة وابن عامر: ان كل نفسٍ لما عليها حافظ، بتشديد لاء، وهي بمعنى إلّا. وقرأ الباقون: لما بغير تشديد وهي بمعنى اللام: لعلها حافظ.

٨٧ الأعلى

٨٧٠١ 1

التسبيح: التنزيه. فسوى: فعدل هذا الكون وقومه. وقدر فهدى: قدر لكل كائن ما يصلحه فهداه اليه. المرعى: كل ما تنبت الارض لصالح الحيوان. غثاء: يابساً مسوداً. والغثاء: ما يحمله السيل من الحشائش والاوراق التي لا قيمة لها. يقال غثا الوادي يغثو غثواً كثيراً فيه الغثاء. أحوى: ما يُحيل لونه الى السواد.

نيسرك لليسرى: نوفقك الى طريق الخير. الذكرى: الموعظة. الأشقى: المصّر على العناد. يصلّى النار: يدخلها. قد أفلح: قد فاز. من تركي: من طهر نفسه بالايان. تؤثرن: تفضّلون. وأبقى: أدوم.

نزه يا محمد ربك الأعظم عن كل ما لا يليق بجلاله. وقد وجه الله الأمر بتسبيح اسمه الأعلى دون تسبيح ذاته ليرشدنا الى أن مبلغ جهدنا هو معرفة صفاته. اما ذاته العلية فهي أعلى وابتعد من أن ندركها في هذه الحياة الدنيا. ثم ذكر أوصافه الجليلة ومظاهر قدرته البالغة وكجّاله فقال:

{الذي خلق فسوى}

هذا الكون العجيب وأتقن خلقه، وأبدع صنعه.

{والذي قدر فهدى}

قدر لكل مخلوق ما يصلحه فهداه اليه، وعرفه وجه الانتفاع به.

{والذي أخرج المرعى}

وأنبت النبات مختلف الأشكال لترعاه الدواب.

{فجعل غثاً أحوى}

أي صيره يابساً جافاً بعد الخضرة والنضارة. وفي هذا عبرة لذوي العقول، فكما ان النبات يبدأ أخضر زاهياً ثم يميل الى الجفاف والسواد - فكذلك الحياة الدنيا زائلة فانية، والآخرة هي الباقية.

وبعد ان ذكر الله دلائل قدرته، ذكر فضله على رسوله الكريم مع البشرى العظيمة له ولأمته بقوله:

{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}

بشرى عظيمة من الله تعالى لك يا محمد أنه سيشرح صدرك، ويقوي ذاكرتك فتتلقى القرآن وتحفظه فلا تنساه. {إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} أن تنساه. فانه تعالى يعلم ما يبهر به عباده وما يخفونه.

ثم يزيد البشارة فيقول: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} ونوفقك للطريقة السهلة. فقد كان رسول الله ﷺ يحب اليسر في كل الأمور.

روت عائشة رضي الله عنها أنه ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما. رواه البخاري ومسلم. وكل سيرته مبنية على اليسر، وأحاديثه تحض على اليسر والسماحة والرفق في تناول الأمور.

لقد من الله عليه بهذه البشرى: أقرأه فلا ينسى الا ما شاء الله، ويسره لليسرى حتى ينهض بالأمانة الكبرى. فلهذا أعد ولهذا يسر.

{فَدَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}

ذَكَرَ النَّاسَ بِمَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ، وَيَنْتَفِعَ بِتَذَكِيرِكَ مِنْ يَخَافُ اللَّهَ. أَمَّا الْمَعَانِدُونَ الْجَاكِدُونَ فَلَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الذِّكْرَى وَلَا تَجْدِي.

{وَيُجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا} .
فَلْأَشْقَى الْمَصْرَّ عَلَى الْعِنَادِ لَا يَسْمَعُ لَهَا وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا.

ومصيره إلى النار الكبرى لا يموت فيها فيستريح بالموت، ولا يحيا حياةً يهنأ بها. . بل يبقى في العذاب خالداً.
أما الذي ينتفع بالذكر فإنه من أهل الفوز والفلاح.

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصْلَى}

لقد فاز من تطهر من الشرك والآثام، وذكر اسم خالقه بقلبه ولسانه فصلى خاشعاً يرجو رحمة ربه.

ثم رد سبحانه على من قست قلوبهم، وتعلقوا بهذه الحياة الفانية ونسوا الآخرة فقال:

{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} .

إن جميع ما أوحى به إلى النبي الكريم هو بعينه ما جاء في صحف إبراهيم وموسى، فدين الله واحد، وإنما تختلف صوره وتعدد مظاهره.
قراءات:

قرأ الكسائي: قدر بالتخفيف. والباقون: قدر بالتشديد. وقرأ أبو عمرو وروح: يؤثرون بالياء. والباقون تؤثرون بالتاء.

٨٨ الغاشية

٨٨٠١ 1

الغاشية: القيامة. خاضعة: ذليلة. عاملة، تعمل في الدنيا لنفسها وأولادها واطماعها. ناصبة: تعب. والفعل نصب ينصب نصباً: تعب. من عين آنية: من نبع ماءه شديد الحرارة. أنى يأنى سخن وبلغ الشدة في الحرارة. الضريع: نوع من النبات له شوك تأكله الإبل عندما يكون رطباً، فإذا يبس لا يستساغ. ناعمة: مرفهة نضرة. لسعيها راضية: جزاء لعملها الذي عملته في الدنيا راضية مطمئنة. عالية: مرتفعة مكاناً وقدرًا. لا تسمع فيها لاغية: لا تسمع فيها كلاماً فاحشاً يؤذي السامع. فيها عين جارية: ماء متدفق يسر الناظرين. سرر مرفوعة: جمع سرير وإذا كان مرفوعاً فإنه يكون نظيفاً مريحاً. واكواب موضوعة: معدة ومهيئة للشراب. وثمار مصفوفة: وسائد صف بعضها إلى جانب بعض، المفرد غمرقة. وزرابي مبثوثة: بسط وفرش مفروشة هنا وهناك للزينة والراحة. الإبل: جمع لا واحد له من لفظه مفرداً: بعير. سطحت: مدت ومهدت للحياة والسير والعمل للناس. لست عليهم بمسيطر: إنما أنت واعظ ومنذر لا متسلط تجبرهم على ما تريد. إياهم: رجوعهم.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}

هل جاءك يا محمد خبر نبأ يوم القيامة التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها؟ والخطاب وإن كان لرسول الله فهو عام لكل من يسمع. .
بعد هذا الاستفهام فصل شأن أهل الموقف في ذلك اليوم. وبين أنهم فريقان: فريق الكفرة الفجرة، وفريق المؤمنين البررة فقال:

{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}

في ذلك اليوم تظهر وجوه ذليلة خاضعة مهينة، عمل أصحابها في الدنيا كثيراً وتعبوا كثيراً، ولكن لغير الله، فما نفعهم أعمالهم ولا أموالهم.
{تَصِلَى نَارًا حَامِيَةً تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}

مع هذا الذل والهوان يدخل أصحاب هذه الوجوه النار الحامية في جهنم. وإذا عطشوا يسقونهم ماءً حاراً من عين حرارتها بالغة الشدة، وإذا طلبوا الطعام يقدم لهم طعام خبيث رديء، اسمه الضريع، ليس فيه فائدة الطعام المعروف، لأنه {لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} .

فهذه الصورة البشعة من العذاب تصوّر في اذهاننا هول ذلك اليوم حتى نرعوي ونبتعد عن كل ما يغضب الله من أعمال واقوال، ونسلّك الطريق المستقيم.

وبعد ان بين حال المجرمين وما يلاقون من ذلّ وهوان وعذاب، وصف المؤمنين الصادقين بأحسن الأوصاف فقال: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. ٠٠٠}

أما وجوه المؤمنين الصادقين يومئذ فتكون نضرة مبتهجة كما جاء في قوله تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤] {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} [القيامة: ٢٢].

وقد فرحت هذه الوجوه بما لاقت من جزاء عملها في الدنيا، فهي لسعيها راضية، في جنة مرتفعة مكاناً وقدرًا. وهي بعيدة عن اللغو، فهي في منازل أهل الشرف في سعادة وكرامة في ضيافة رب العالمين.

في هذه الجنة ماء جارٍ من نبع صافٍ يسر الناظرين، وفيها السرر المهيّأة لهم مرفوعة نظيفة، واكوابٌ مجهزة مهيّأة لهم كلما أرادوا الشرب وجدوها في متناول أيديهم.

{وَزَرَّائِي مُبْثُوَّةٌ}

وأَنواع البُسُط والطنافس والسجاجيد مبسوبة في كل مكان. كل هذا النعيم أُعدّ لمن عمل صالحاً من المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبواب. فهل آن لهؤلاء الذين يزعمون انهم يؤمنون بالله أن يعتبروا بهذا الترتيب الإلهي، وان يقدموا الاحسان في العمل حتى يبلغوا فيه غاية مرضية، وان يتبعدوا عن اللهو والترف ويتحلّوا بالفضائل، ويتدبروا كتابهم ويرجعوا الى سيرة الرسول الكريم وصحبه الطاهرين فينفضوا الى طلب ما أعدّ الله لهم، ويشاركوا في بناء هذا المجتمع ويستردّوا ما اغتصب من أراضيتهم!!

وبعد أن بين الله تعالى احوال الآخرة وما فيها من نعيم للمؤمنين وشقاء للجاحدين يذكر الناس هنا لينظروا في هذا الوجود الظاهر، ويعتبروا بقدرة القادر وتدير المدبر فقال:

{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} .

ان هذه المشاهد معروفة لنظر الانسان حيثما كان: الحيوان والسماء والأرض والجبال. وأياً ما كان حظ الانسان من العلم والحضارة فهذه مشاهد داخلية في عالمه وإدراكه. ويذكرنا الله تعالى بأن ننظر ونعتبر بهذه القدرة الخارقة والتدير المحكم.

فالجمال حيوانٌ عجيب ونفعه كبير جداً، عليه يسافر الانسان ويحمل أثقاله. ومن لبن الناقة يشرب، ويأكل من لحومها، ومن أوبار الإبل وجلودها يلبس ويتخذ المأوى. فقد كانت الجمال ولا تزال في كثيرٍ من بقاع الأرض موردَ الحياة الأول للانسان ومن احسن المواصلات، حتى سُميت سفن الصحراء. وهي قليلة التكاليف وعلى قوتها وضامتها يقودها الصغير فتتقاد. وهيئتها مزينة وفي تكوينها عجب. فعينا الجمال ترتفعان فوق رأسه، وترتدان الى الخلف. ولهما طبقتان من الأهداب تقيانهما الرمال والقذى. وكذلك المنخران والأذنان يكتنفها الشعر للغرض نفسه. فاذا ما هبت العواصف الرملية، انقل المنخران واثنت الأذنان نحو الجسم. والإبل أصبر الحيوان على الجوع والعطش والكدر، ومزاياها كثيرة لا يتسع المقام لبسطها. وما زال العلماء يجدون في الجمال كلها بحوثاً مصداقاً لحُصّ الله تعالى لهم على النظر في خلقه المعجز.

{وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ}

وتوجيه القلب الى السماء يتكرر في القرآن لما فيها من بهجة وجمال بهذه الملايين من النجوم المنثورة فيها، وما في خلقها من عظمة تدل على عظمة الخالق وجلاله.

{وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}

ألا يشاهدون هذه الجبال الشاخنة كيف نُصبت على الأرض لحفظ توازنها فلا تميل ولا تميد، فهي علمٌ للسائر، وملجأٌ من الجائر، ونزهةٌ للناظر.
{وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}

ألا ينظرون الى الأرض التي يتقبلون عليها كيف مهّدها الله لهم، فأين ما سافر الانسان يجدها مبسطة سهلة مع أنها كروية الشكل. والله تعالى يوجه انظارنا الى ما حولنا من مخلوقات وما نرى في هذه الطبيعة الجميلة حتى نتعظ ونؤمن بقدرة من خلق هذا الكون العجيب، وما فيه من الكائنات، وقدرته على حفظها واحكام صنعها، كي ندرك انه قادر على ان يرجع الخلق الى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله.

بعد أن بين الله للناس أمر الآخرة وما فيها من نعيم وشقاء، ونبه الى مشاهد الكون المعروضة أمام الأنظار - وجه الخطاب الى الرسول عليه الصلاة والسلام ليقوم بواجبه وطبيعة رسالته، بقوله الكريم:
{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ} .

ذكر الناس أيها الرسول بالآخرة وما فيها، وبالكون المعروض أمامهم وما فيه من عجائب، فإن مهمتك التبليغ ودعوة الناس الى ما فيه خيرهم ولست عليهم بمتسلط. وحسابهم على الله، لكن من أعرض منهم وكفر فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئاً، وأمرهم الى الله يعذبهم العذاب الذي لا عذاب فوقه.

ثم ختم هذه السورة الكريمة بآيتين قصيرتين جليلتين أكد فيهما رجوع الناس إليه وحسابهم الدقيق في ذلك اليوم فقال:
{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}

إنهم راجعون إلينا، وسنحاسبهم على ما كسبت أيديهم في سجل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها.
قراءات:

قرأ أهل البصرة غير سهل: تُصلى بضم التاء. والباقون تصلى بفتحها. وقرأ أهل البصرة غير سهل: لا يُسمع فيها لاغية بضم الياء ورفع لاغية. والباقون: لا تسمع بفتح التاء ونصب لاغية. وقرأ نافع: لا تسمع فيها لاغية بالتاء المضمومة ورفع لاغية.

٨٩ الفجر

٨٩٠١ 1

الفجر: ضوء الصباح بعد ذهاب الليل. وليالٍ عشر: العشر الأول من ذي الحجة. والشَّفع والوتر: العدد الزوجي والفردى. والليل اذا يسر: الليل اذا يمضي ويذهب. لذي حجر: لذي عقل. عاد: من قبائل العرب البائدة. إرم ذات العماد: ارم ذات البناء الرفيع، كانت في الأحقاف بين عُمان وحضرموت. ثمود: قبيلة من العرب البائدة. جابوا الصخر: قطعوه ونحتوه. وفرعون ذي الأوتاد: فرعون مصر صاحب الاهرام التي تشبه الاوتاد. طغوا في البلاد: تجاوزوا القدر في الظلم. سوط عذاب: فأنزل الله عليهم ألوانا من العذاب. المرصاد: مكان المراقبة، رصد الأمر يرصده: راقبه. ابتلاه. اختبره بكثرة الرزق. فقدّر عليه رزقه: ضيقه عليه.
{وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ. . .}

يقسم الله تعالى بالفجر والليالي العشر المباركة، وبالزوج والفرد من كل شيء، وبالليل اذا يمضي بحركة الكون العجيبة ليلك كل معاندٍ جبار. {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ؟} ان في ذكر هذه الأشياء جميعاً قسماً عظيماً مقنعاً لذوي العقول، وحجة كافية على وجوده وقدرته. وبعد ان أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين - شرع يذكر بعض قصص الجبابرة من الأمم الغابرة: كيف أفسدوا وطغوا، فأوقع بهم أشد العذاب فقال:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . . .}

ألم تعلم يا محمد كيف أنزل ربك عقابه بعباد قوم هود، أهل إرم ذات البناء الرفيع، والتي لم يخلق مثلها في البلاد ضخمةً وارتفاعاً؟! يوضح ذلك قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [الشعراء: ١٢٨-١٢٩] . وقد تقدم الكلام على عاد وبنوهم هود في أكثر من سورة.

{وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . . .}

وتمود، قوم صالح، الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة. وكانت مساكنهم في الحجر شماليّ الحجاز، ولا تزال بقايا من آثارهم موجودة. كما قال تعالى: {وَتَخْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء: ١٤٩] . كذلك ورد ذكر ثمود وبنوهم صالح في عدد من السور.

{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . . .}

اذكر كيف أنزل ربك عقابه بفرعون صاحب الأهرام والمباني العظيمة، ووصف الأهرام بالأوتاد في غاية الدقة.

{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ}

إن جميع هؤلاء: قوم عاد وتمرود وفرعون، قد طغوا وبغوا، وأفسدوا أشد الفساد.

{فَصَبَّ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}

فأنزل الله تعالى عليهم الوانا من البلاء والعذاب الشديد، وأهلكهم وأبادهم.

{إِنَّ رَبَّكَ لِلْمُرْصَادِ}

إنه ليرقب عمل الناس، ويحصى عليهم ويجازيهم به.

وبعد أن بين سبحانه أنه لا يفوته شيء من شأن عباده، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم - ذكر هنا طبيعة الإنسان الذي يطر عند الرخاء ويقنط من رحمة ربه عند الضراء فقال:

{فَإِذَا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَإِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} .

فأما الإنسان إذا ما اختبره ربه فأنعم عليه ووسّع له في الرزق والجاه، فيقول مغترّاً بذلك: ربّي فضّلني لأنّي أستحقّ هذا كله.

وأما إذا ما اختبره بضيق الرزق فيقول غافلاً عن الحكمة في ذلك: لقد أهانني ربّي.

قراءات:

قرأ عاصم: والوتر بفتح الواو، والباقون بكسرهما. وقرأ ابن عامر فقدّر بفتح الدال بالتشديد. والباقون بدون تشديد.

٨٩٠٢ 17

لا تحاضون: لا يأمر بعضكم بعضاً بالمعروف. التراث: الميراث. أكلاً: شديداً جمّاً: كثيراً. دُكت الأرض دكّاً دكّاً: مهّدها وسوى العالي والنازل سواء. صفاً صفاً: صفاً بعد صف بحسب رتبهم. وجيء يومئذ بجهنم: كشفت للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم. وأنّى له الذكرى. لا فائدة له من التذكر فقد فات الأوان. الوثائق: الرباط الشديد. المطمئنة: المؤمنة الطاهرة المستقرة. فادخلي في عبادي: في زمرة عبادي المكرمين.

بعد أن بين الله خطأ الإنسان فيما يعتقد إذا بسط له الرزق أو ضيق عليه - أردف ذلك بأن زجر الناس عما يرتكبون من المنكرات، وأنهم لو اتبعوا ما يقول الرسل الكرام وكانوا متعاطفين مع الفقير واليتيم والمسكين - لما كانوا من أهل النار فقال:

{كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}

ارتدعوا أيها الغافلون، في الأمر كما تظنون وتقولون. بل أنتم لا تكرمون اليتيم، ولا يحثُّ بعضكم بعضاً على إطعام المسكين. إنكم بعيدون عن عمل الخير، ومن جشعكم تأكلون المال الموروث أكلاً شديداً، لا تميزون فيه بين الحلال والحرام. كما تحبون المال حباً حثيثاً يدفعكم إلى الحرص على جمعه والبخل بإنفاقه.

{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. . . }

ارتدعوا عن تلك الأفعال، فأمامكم أهوال عظيمة يوم القيامة حين تُزلزل الأرض ولا يبقى على وجهها بناء قائم، وتحطم معالمها. (وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع يوم القيامة) ويأتي الملك العلام جلّ جلاله، والملائكة يضطفون صفّاً وراء صف. ثم يؤتى بجهنم دار العذاب. في ذلك اليوم يتذكر الإنسان ما فرط فيه، لكن من أين له الذكرى النافعة وقد فات الأوان!

{يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}

يقول نادماً: يا ليتني قدّمت في الدنيا أعمالاً صالحةً تنفعني لحياي في الآخرة، ولكن أنى له ذلك!

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ}

في ذلك اليوم العصيب يحلُّ بالجاحدين العذاب الأكبر، ولا يمكن أن يعذب أحدٌ كعذاب الله ولا يقيد أحدٌ بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله تعالى للكافرين.

وفي وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق الذي يتجاوز كلّ تصوّر - يأتي النداء من الملائكة الأعلى للنفس المؤمنة:

{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ}

يا أيها النفس المؤمنة المخلصة الطاهرة، لا يلحقك اليوم خوف ولا فرع. ارجعي الى رضوان ربك راضيةً بما أوتيت من النعم، مرضيةً بما قدّمت من عمل، فادخلي في زمرة عبادي وادخلي جنّتي، دار الخلد وموطن الأبرار الصالحين.

قراءات:

قرأ أهل البصرة: لا يكرمون. ولا يحضون. ويأكلون التراث. ويحبون - كلّها بالياء. وقرأ الباقون بالتاء، ولا تحاضون بألف وحاء كما هو في المصحف.

وقرأ الكسائي: لا يعذب ولا يوثق بفتح الذال والتاء، وقرأ الباقون بالكسر.

٩٠ البلد

٩٠.١ 1

البلد: مكة المكرمة. حل: مقيم فيه. ووالد وما ولد: كل والد ومولود من الانسان والحيوان والنبات. في كبد: في مشقة وتعب. أهلكت ما لا لبدا: انفقت ما لا كثيراً. النجدين: طريقي الخير والشر، والنجد: المرتفع من الأرض. اقتحم العقبة: دخل بشدة في الطريق الصعب. فك رقبة: عتق العبيد. في يوم ذي مسغبة: في يوم فيه جوع، سغب الرجل يسغب: جاع. يتيماً ذا مقربة: من أهل قرابته. أو مسكيناً ذا مقربة: فقيراً جداً. تواصوا بالصبر: نصح الناس بعضهم بعضاً بالصبر. الميمنة: طريق النجاة والسعادة. المشأمة: طريق الشقاء. مؤصدة: مغلقة مطبقة عليهم. أصد الباب أصد: أغلقه. وأصده إيصاداً. وأوصده.

{لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}

أقسم قسماً مؤكداً بمكة، التي شرفها الله فجعلها حراماً آمناً، وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيمٌ بمكة تزيدها شرفاً وقُدراً.

{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}

وأقسم بكل والدٍ ومولودٍ من الانسان وغيره، لأن بهما حفظ النوع وبقاء العمران. وقد اقسم الله تعالى بوالدٍ وما ولد ليوجه أنظارنا الى رفعة هذا الطور من أطوار الوجود. وهو طور التوالد، والى ما فيه من بالغ الحكمة واتقان الصنع، والى ما يعاينه الوالد والمولود في ابتداء النشء، وتكميل الناشئ وإبلاغه حد النمو المقدر له.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}

لقد خلقنا الانسان في مشقةٍ وتعِبٍ منذ نشأته الى منتهى أمره. فهو في مكابدةٍ وجهْدٍ وكَدْحٍ، يقاسي من ضروب هذا التعب منذ نشأته في بطن أمه إلى أن يصير رجلاً. وكلما كَبُرَ ازدادت متاعبه ومطالبه، فهو في كَبَدٍ دائمٍ، ولا تنتهي حاجاته الا بانتهاء أجله ووفاته. وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية شرعَ يبين لهذا الانسان المغرور المبذر أن الله تعالى يراه في جميع أحواله، وأنه أنعم عليه بنعم لا تقدر فقال:

{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}

أيظن هذا الانسان المخلوق في مشقةٍ وتعِبٍ ان لن يقدر على إخضاعه أحد! يقول هذا المغرور بكثرة ماله: لقد أنفقتُ أموالاً كثيرة في سبيل الشهوات والشيطان. أيظنُّ هذا المفتون بالشهرة والظهور أن الله غافلٌ عنه! وأن امره قد خفي فلم يطلع عليه أحد؟! كلا ان الله تعالى مطلعٌ على أعماله وسيسأله عنها يوم القيامة ويحاسبه حساباً عسيراً.

ثم ذكره الله تعالى بما أنعم عليه من نعم لا تُحصى في خاصة نفسه وفي صميم تكوينه واستعداداته، ولكنه لم يشكر هذه النعم ولم يُقِم بحققها.

{أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ}

ألم نخلق له عينين ينظر بهما دلائل قدرة الله في هذا الكون، ولساناً وشفتين ليتكلمن من النطق والإفصاح عما في نفسه؟! فالكلمة أحياناً تقوم مقام السيف والمدفع وأكثر.

وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ألا أخبرك برأس هذا الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: رأس الأمر الاسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد. ثم قال: الا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: كفّ عليك هذا، وأشار الى لسانه. قلت: يا نبي الله الا حصائدُ أسنتهم؟ رواه الامام احمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}

بيننا له طريقَ الخير والشر ليختار أيهما شاء، ففي طبيعته هذا الاستعدادُ المزدوج لسلوك أيّ النجدين. .

{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} .

هلاً أنفق ماله في سبيل الله حتى يجتاز العقبة الصعبة، وما أدراك ما هو اقتحامُ العقبة؟ هو انفاقُ المال في تحرير الأرقاء، وإطعامُ الطعام في أيام المجاعة - وأولى الناس بالمواساة هم الايتام من الاقارب - وإطعامُ المساكين الذي عجزوا عن الكسب حتى كأنهم لصقوا بالتراب من العجز والفقر.

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّحْمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِمْنَةِ} .

ثم ان هؤلاء الذين يقتحمون العقبة بأنفاق أموالهم في وجوه البر والإحسان يكونون من المؤمنين الذين يعملون الخير، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر والرحمة. . يرحمون عباد الله ويواسونهم ويساعدونهم.

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِمْنَةِ}

فهؤلاء هم أصحاب الميمن، مآلهم الجنة في مقعدٍ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

أما الذين جحدوا واغترّوا باموالهم وأنفسهم وكفروا بالرسالة فآلهم كما يقول:
{والذين كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ}

أما الكافرون الجاحدون فهم أصحاب الشمال، وهم في نار جهنم في سَمومٍ وحيم، عليهم نار جهنم مغلقة مطبقة خالدين فيها أبداً.
قراءات:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: فَكَّ رَقَبَةً، أو أَطْعَمَ والباقون: فَكَّ رَقَبَةً أو أَطْعَمَ بالتثنية. وقرأ أبو عمرو وحفص: مؤصدة بالهمزة، والباقون مؤصدة بدون همزة.

٩١ الشمس

٩١.١ 1

الضحي: ضوء الشمس، وارتفاع النهار. تلاها: تبعها. جلاها: كشفها. يغشاها: يغطي ضوءها ويحجبها. طحاها: بسطها ومهداها. سواها: أنشأها وعدلها. فآلمها فجورها وتقواها: عرّفها الحسن والقبیح. قد افلح: قد فاز. زكاها: طهرها. وخاب: خسر. دساها: اخفاها، ونفسه: أغواها وافسدها. الطغوى: الطغيان، مجاوزة الحد المعتاد. انبعث: انطلق. أشقاها: أشقى القوم. رسول الله: صالح عليه السلام. سقياها: شربها. فعقروها: قطعوا قوائمها ثم نحروها. فدمدم: غضب عليهم ربهم وأهلكهم ودمر ديارهم. فسواها: فأهلك القبيلة كلها. عاقبتها: عاقبتها.

لقد أقسم الله تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة بأشياء عدة من مخلوقاته المنبئة عن كمال قدرته تعالى ووحدانيته - على فوز من طهر نفسه بالإيمان والطاعة، وخسران من ضيعها بالكفر والعصيان. فأقسم بالشمس وبضوئها وإشراقها عند ارتفاع النهار، وبالقمر إذا تبعها وخلفها بالإضاءة عند غروبها، وبالنهار إذا أظهر الشمس واضحة غير محجوبة، وبالليل إذا يغشى الشمس فيغطي ضوءها، وبالسماء وخالقها العظيم الذي رفعها وأحكم بناءها، وبالأرض، وبخالق القادر الذي بسطها من كل جانب ومهداها للاستقرار وجعلها فراشا، وبالنفس ومن أنشأها وعدلها بما أودع فيها من القوى.

{فآلَهِمَّهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا}

أي عرّفها الحسن والقبیح، ومنحها القدرة على فعل ما تريد منها.

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}

هذا هو جواب هذه الأيمان المتقدمة. فلقد فاز من زكى نفسه بطاعة الله وطهرها من المعاصي.

{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}

وقد خسر نفسه وأوقعها في الهلاك وأغواها وافسدها من جانب ذلك.

بعد هذه الأيمان وذكر من يفوز بالإيمان ومن خاب وخسر بالإعراض عن ذكر الله واتباع الهوى والشيطان - يعرض علينا نموذجاً من نماذج الخيبة والخسران ممثلاً في ثمود، قوم صالح، وما أصابهم من غضب وهلاك. فيقول:

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا. . .}

لقد كذبت ثمود بنبيها بطغيانها وبغيها، حين انبعث أشقاها ليعقر الناقة. فقال لهم صالح رسول الله: اتركوا ناقة الله تأكل في أرض الله واحذروا منعها من الشرب في يومها المعلوم. كما جاء في سورة الشعراء:

{قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [الشعراء: ١٥٥].

{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}

فَكَذَّبُوا رَسُولَهُمْ فِي وَعِيدِهِ، فَعَقَرُوا النَّاقَةَ، فَدَمَّرَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ دِيَارَهُمْ جَزَاءَ ذُنُوبِهِمْ إِذْ سَوَّىٰ بِلَدِهِم بِالْأَرْضِ وَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعاً لَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

والله تعالى لا يخافُ تَبَعَةَ هذه العقوبة، لأنها الجزاء العادل. {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج: ١٢] . وتلك سُنَّةُ الله في أخذِ الطغاة والمكذِّبين.

قراءات:

قرأ أهل المدينة وابن عامر: فلا يخاف عقباها، بالفاء. والباقون ولا يخاف عقباها بالواو.

٩٢ الليل

٩٢.١ 1

يغشى: يغطي، يعم ظلامه. تجلَّى: ظهر وسطع ضوءه. الذكر والانثى: ان هذين الصنفين هما أصل حفظ النوع. أعطى: بذل ماله. اتقى: ابتعد عن الشر وعمل بما يرضي الله. الحسنى: كل عمل خير، والجنة. اليسرى: ما يؤدي الى الراحة والنعيم. استغنى: عن عبادة الله وبخل بماله. للعسرى: كل ما يؤدي الى العذاب. تردى: هلك. تلظى: أصلها تلتظى، تلهب ومنه لظى، اسم من أسماء جهنم. يصلها: يحترق بها. وسيجنبها الأتقى: يبعد عنها. يتزكى: يتطهر. من نعمة تجزى: من نعمة يكافأ بها. ابتغاء وجه ربه: طلب رضا وثوابه.

{والليل إِذَا يَغْشَى والنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}

يقسم الله تعالى بهذه الظواهر المتقابلة في الكون، وفي الناس، أَنَّ سَعْيَ النَّاسِ مُخْتَلِفٌ، وطُرُقُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ. وهو يقسم بالليل حين يغشى البسيطة ويغمرها بظلامه، وبالنهار حين يتجلَّى ويظهر في تجلّيه كلُّ شيء، وبالله القادر الذي خلق الزوجين: الذكر والانثى - أن أعمالكم أيها الناس لمختلفة، بعضها ضلالٌ يستحقّ العذاب، وبعضها هدىٌ ونورٌ يستحقّ النعيم.

{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى}

بعد أن أشار الى اختلاف أعمال الناس في أنواعها وصفاتها - أخذ يفصل هذا الاختلاف ويبين عاقبة كل منها: فأما من أنفق في سبيل الله وخاف ربه واتقاه، وصدق بإخلاص بالفضيلة الحسنى، (وهي الايمان بالله عن علم) فسنيئته الى اليسر والراحة بتوجيهه الى الخير. ومن يسره الله لليسر فقد وصل وسلم.

وأما من بخل بماله، واستغنى عن ربه وهواه، وكذب بدعوتِهِ ودينه - فإن الله تعالى يُعسر عليه كلَّ شيء، ويَحرمه التيسير، ويكون من أهل الشقاء الأبدى.

{وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}

لن ينفعه ماله إذا هلك وهوى في نار جهنم.

ثم تحدث عن مصير كل فريق، وان ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدلٌ وحق.

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} .

إن علينا بمقتضى حكمتنا ان نبين للخلق طريق الهدى، وإن لنا وحدنا أمر التصرف في الدارين: الدنيا والآخرة، فبعد هذا البيان أحذرکم من نار جهنم التي تلهب لا يدخلها على صفة الدوام إلا الكافر الذي كذب بالحق وأعرض عن آيات ربه.

{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}

وسيبعد عن نار جهنم التقي النقي المخلص في إيمانه، الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليظهر نفسه من رجس البخل.

{وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى}

وهذا المؤمن الصادق الإيمان لا ينفق شيئاً من ماله رثاء الناس، وإنما ينفق من ماله وليس لأحد عنده يد سابقة يحب أن يجازيه بها. فهو ينفق لوجه الله وابتغاء مرضاته. وسوف ينال من ربه ما يبتغيه على أكمل الوجوه حتى يتحقق له الرضا. وهو وعد كريم من رب رحيم.

٩٣ الضحى

٩٣.١ 1

الضحى: صدر النهار حين ترتفع الشمس. سجي: سكن. ما ودّعك ربك: ما تركك. وما قلّ: ما أبغضك. ضالا فهدى: لم تكن تعلم شيئاً عن الشرائع فهداك الى خير منهج. عائلاً: فقيراً. لا تقهر: لا تذلل بل أرأف به. فلا تنهر: لا تزجره، بل ترفق به. نزلت هذه السورة الكريمة حاملةً أجمل بشرى للرسول الكريم، ملقبةً في نفسه الطمأنينة، معددة ما أنعم الله به عليه. وقد اقسم سبحانه بآيتين عظيمتين من آياته في هذا الكون العجيب: ضحى النهار وصدوره، والليل وسكونه - انه ما تركك أيها الرسول، وما أبغضك. {وَلَا آخِرُ خَيْرٍ لَكَ مِنَ الْأُولَى}

ولدار الآخرة وما فيها من نعم خير لك من هذه الحياة الدنيا، ولعاقبة أمرك ونهايته خير من بدايته. وقد حقق الله له نصره. {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}

وهذه بشرى أخرى بأن الله تعالى سيعطيه من خيرَي الدنيا والآخرة. وقد أعطاه حتى رضي، إن وعده الحق. ثم بعد أن وعده بهذا الوعد الجميل ذكره بنعمه عليه فقال تعالى:

{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}

ألم تكن يتيمًا يا محمد فأواك، إذ كفلك جدك عبد المطلب. ثم عمك أبو طالب الذي ظل يراكم ويدافع عنك طوال حياته. ووجدك حائراً لا تقنعك هذه المعتقدات التي حولك فهداك الى خير دين وأحسن منهاج. وكنت فقيراً لا مال لك فأغناك الله بما رحمت من التجارة، وما وهبته لك خديجة من مالها، حتى سكنت نفسك ورضيت.

وبعد أن عدّد هذه النعم عليه، وصّاه بوصايا كلها خير ورحمة فقال تعالى:

{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}

وهذه الوصايا توجيه كريم من الله تعالى لرسوله وللمسلمين من بعده الى رعاية اليتيم وكفالته، والى كفاية كل سائل، والى التحديث بنعمة الله الكبرى عليه. ومن أعظمها الهداية لهذا الدين القويم. وهذا توجيه من الله بأن نتحلّى بالأخلاق العالية، وأن نكون لطفاء لئين مع الناس، ونبتعد عن الغلظة والفظاظة التي يتصف بها كثير ممن يدعون التدين. اللهم اهدنا سواء السبيل، واجعلنا ممن يقتفون آثار الرسول الكريم ويتبعون سننه وأخلاقه.

٩٤ الشرح

٩٤.١ 1

العسر: الفقر، والضعف، والشدة. فانصب: فاتعب.

لقد شرحنا لك صدرك يا محمد بما أودعنا فيه من الهدى والحكمة والإيمان، وخففنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الدعوة، حتى تبلغها ونفسك مطمئنة راضية، ونوهنا باسمك وأعلينا مقامك، وجعلنا اسمك مقروناً باسمي أنا الله، لا أذكر إلا ذكرت معي على لسان كل مؤمن «لا اله إلا الله، محمد رسول الله». وليس بعد هذا رفع، وليس وراء هذه منزلة، فالرسول يذكر في الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب وغير ذلك.

وبعد أن عدد الله بعض نعمه على رسوله الكريم، تلطف به وأنسه وطمأنه بأن اليسر لا يفارقه أبداً. فقال: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}

تلك بعض نعمنا عليك، فكن على ثقة من لطفه تعالى، بأن الفرج سيأتي بعد الضيق، فلا تحزن ولا تصجر. وفي الحديث: «لن يغلب عسر يسرين» أخرجه الحاكم والبيهقي.

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب}

فاذا فرغت من أمر الدعوة، وانتهيت من أمور الدنيا - فاجتهد في العبادة وأتعب نفسك فيها، وإلى ربك وحده فاتجه. . فإنك ستجد يسراً مع كل عسر.

٩٥ التين

٩٥.١ 1

التين: ثمر معروف. الزيتون: ثمر معروف. طور سينين: جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى، وهو معروف في سيناء. البلد الأمين: مكة المكرمة. في أحسن تقويم: في أجمل صورة وأعدل قامة. أسفل سافلين: جهنم. غير ممنون: غير مقطوع. أقسم الله بالتين والزيتون لبركتيهما وعظيم منفعتيهما (فان التين من الثمار المباركة، وهو غذاء كامل. وكذلك الزيتون، فإنه غذاء ودواء. وكان في الزمن الماضي يستعمل للإنارة أيضاً فهو مثل البترول في هذه الايام، ولا يزال محتفظاً بمكانته).

وقال بعض المفسرين: إن التين هو عصر الإنسان الأول، والزيتون: عصر نوح. . . وهو كلام ليس عليه دليل. وأقسم بطور سينين، الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وبهذا البلد الأمين، مكة المكرمة، التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله - أننا خلقنا الإنسان في أحسن صورة، وجعلناه مديد القامة، وزيناه بالعقل والحكمة والمعرفة. {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}

حين يخرف بهذه الفطرة عن الدين الذي بيناه له. وقد تركاه يختار أحد النجدين، فالذين يخرفون مصيرهم جهنم، حيث يكونون في أسفل سافلين.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}

وهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح. . وبذلك يرتقون بها الى الكمال المقدر لها، فيكون لهم عندنا أجر دائم غير مقطوع.

وفي ظل هذه الحقائق ينادي جلّ وعلا الانسان بقوله:

{فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالدين؟}

فأي شيء يملك أيها الإنسان على التكذيب بالبعث والجزاء بعد هذا البيان، وبعد وضوح البراهين؟

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ؟}

أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم في أمر الخلق بهذا الصنع العظيم والتدبير الحكيم؟ وكان علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما إذا قرأا {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ} قالوا: بلى، وإنا على ذلك من الشاهدين.

٩٦ العلق

٩٦.١ 1

العلق: الدم الجامد. الرجعى: الرجوع، المرجع، المصير. رأيت: أخبرني. لنسفعاً بالناصية: لناخذن بشعر جبهته، والناصية مقدّم الرأس، وشعر مقدّم الرأس. النادي: المكان الذي يجتمع فيه القوم. الزبانية: أصل الكلمة الشرط، وسُمي بها بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها مفرداً زبني. والزبن: الدفع والضرب.

{اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق. . . .}

الخطاب موجه الى سيدنا محمد ﷺ، وفيه دعوة الى القراءة والكتابة والعلم. وهذا هو شعار الاسلام. اقرأ يا محمد ما يوحى إليك مستعينا باسم ربك الذي خلق هذا الكون العجيب وما فيه. خلق الانسان الكامل الجسم والعلم على أحسن مثال، ومن علقه ليست أكثر من دم جامد، ثم كرمه بأن رفع قدر هذا العلق فجعل منه الانسان الذي يعلم فيتعلم.

ثم كرر الأمر بالقراءة لخطورتها وأنها لا تعلم الا بالتكرار فقال:

{اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم}

وربك اكرم لكل من يرتجي منه العون والعطاء. فهو الذي علم الخط والكتابة بالقلم، وعلم البشر ما لم يكونوا يعرفونه من العلم والمعرفة، وبذلك نقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم والإيمان.

ان هذه الآيات الباهرة التي ابتداء الله تعالى بها كتابه العظيم لهي أكبر دليل على احتفال الإسلام بالعلم بجميع أنواعه. وقد أخذ بها سلفنا الصالح، وأمتنا المهتدون، ونشروا العلم في أرجاء العالم. ونحن الآن مدعوون للأخذ بالعلم الصحيح، وتمزيق تلك الحجب التي حجت عن ابصارنا نور العلم، والسير على هدى كتاب الله وسنة رسوله، والجِد في تحصيل العلم حتى نلحق بالركب ونشارك في بناء هذه الحضارة مشاركة فعالة. فلا نبقي، كما نحن الآن، تابعين خاملين.

بعد أن بين لنا الله تعالى طريق الهدى والخير أخبر عن سبب بطر الانسان وطغيانه فقال:

{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ إِنَّهُ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ .}

حقاً إن الانسان ليتجاوز الحد في الطغيان، ويستكبر ويتجبر، عندما يرى نفسه غنياً ذا ثروة طائلة ومال كثير.

وليست الثروة مذمومة في كل حال، فإن كان الانسان مؤمناً تقياً وآتاه الله مالا كثيراً وقام بحقه - فإن ذلك خير وأبقى، يعم نفعه ويرضى الله عنه ورسوله.

ثم حذر من الطغيان. وتوعد أولئك الأشرار أصحاب الاموال الذين يتكبرون ويتجبرون فقال:

{إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ}

ان المرجع والمصير الى الله وحده، فهو مالك الأمور، والمتصرف في هذا الكون. وبعد ذلك ضرب الله لنا مثلاً من أمثلة الطغيان، وذكره على طريقة الاستغراب والتعجب. ثم أعقب ذكره بالوعيد والتهديد فقال:

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ}

أبصرت يا محمد هذا الطاغى الذي ينهى الناس عن الصلاة، ويحول دون عبادة الله!

{أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ}
 أَخْبَرْنِي عَنْ حَالِهِ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الطَّاعِي عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ فَكَانَ نَهْيُهُ عَنِ الصَّلَاةِ! أَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ وَأَفْضَلَ؟
 {أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ}
 أَخْبَرْنِي عَنْ حَالِ هَذَا الطَّاعِي إِنْ كَذَّبَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ.
 أَفَلَا يَخْشَىٰ إِنْ تَحَلَّىٰ بِهِ قَارِعَةً، وَيَصِيبُهُ عَذَابٌ شَدِيدٌ؟! أَجْهَلَ أَنَّ اللَّهَ يَطَّلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِ فَيَجَازِيهِ بِهَا؟
 وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ كَبِيرٌ لِلْعَصَاةِ وَالْجَاهِلِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ. .
 {كَأَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَه لِنَسْفَعْهُ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}
 لِيَرْتَدَّ هَذَا الطَّاعِي الْمُتَجَبِّرُ عَنْ غِيَّهِ وَضَلَالِهِ، فَإِنِّي أَقْسِمُ لَئِنْ لَمْ يَكْفَ عَنْ هَذَا الطُّغْيَانِ وَعَنْ نَهْيِ الْمُصَلِّينَ عَنْ صَلَاتِهِمْ، لَنَأْخُذَنَّهُ بِنَاصِيَتِهِ وَنَجْرَهُ إِلَى النَّارِ. {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}
 فَلْيَجْمَعْ أَمْثَالَهُ مِنْ أَهْلِ نَادِيهِ لِيَمْنَعَ الْمُصَلِّينَ وَيُؤْذِيَهُمْ. سَنَدْعُو جُنُودَنَا زَبَانِيَةَ جَهَنَّمَ لِيَنْصُرُوا مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.
 {كَأَلَّا لَا تُطَعَّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}
 لِيَرْتَدَّ هَذَا الْفَاجِرُ، فَلَا تُطَعَّهُ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ، بَلْ دَاوِمْ عَلَى صَلَاتِكَ وَوَاطِبْ عَلَى سَجُودِكَ، وَتَقَرَّبْ بِذَلِكَ إِلَى رَبِّكَ.
 وَهَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} مَوْضِعُ سَجْدَةٍ عِنْدَ غَيْرِ الْإِمَامِ مَالِكٍ.

٩٧ القدر

٩٧٠١ 1

الْقَدْرُ: الْعِظَمَةُ وَالشَّرَفُ. الرُّوحُ: جَبْرِيلُ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ: أَمِنْ مِنْ كُلِّ أَذًى وَشَرٍّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ حَتَّى وَقْتُ طُلُوعِ الْفَجْرِ.
 لَقَدْ بَدَأْنَا نُزْلَ الْقُرْآنِ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَالشَّرَفِ. وَلَقَدْ تَمَّ إِزَالُهُ جَمِيعًا فِي ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا.
 ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ فَضْلَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَا يَحِيطُ بِهِ إِلَّا هُوَ فَقَالَ:
 {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟}
 وَمَا أَعْلَمُكَ يَا مُحَمَّدُ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ وَالشَّرَفِ! هِيَ أَعْظَمُ لَيْلِي الدُّنْيَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، لَقَدْ فَرَّقَ اللَّهُ فِيهَا كُلَّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، وَفِيهَا وُضِعَتْ أَعْظَمُ قِيمٍ وَتَعَالِيمٍ، وَقُرِّرَتْ أَقْدَارُ أُمَمٍ وَدُورٍ وَشُعُوبٍ. بَلْ إِنَّهَا أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ، فَفِيهَا نُزِّلَ أَعْظَمُ مَنَهِجٍ إِلَى الْأَرْضِ دَلِيلًا لِلنَّاسِ إِلَى الْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ الْفَاضِلَةِ.
 ثُمَّ بَيَّنَّ مَقْدَارَ فَضْلِهَا فَقَالَ:
 {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}
 إِنَّهَا لَيْلَةٌ عَظِيمَةٌ مَبَارَكَةٌ، الْعِبَادَةُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ شَهْرٍ. وَمِنْ فَضْلِهَا الْعَظِيمِ أَنَّهَا:
 {تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}
 تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَجَبْرِيلُ إِلَى الْأَرْضِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مَعَ بَرَكَاتِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ. فَهِيَ بِمِثَابَةِ عِيدٍ لِلْمُسْلِمِينَ لِنُزُولِ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَلَيْلَةُ شُكْرِ عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ بِذَلِكَ. وَتُشَارِكُهُمْ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ مِمَّا يُشْعِرُ بِعَظَمَتِهَا وَبِقُدْرِ الْإِنْسَانِ تَكْلِيفَةَ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ. وَمِنْ فَضْلِهَا أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} فَهِيَ سَلَامٌ مِنْ أَوَّلِ لَيْلِهَا إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَأَمَانٌ مِنَ الْأَذَى وَالشَّرِّ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينِ.

والحق، أن ليلة القدر من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشري، فهي ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هذا القرآن العظيم، وإفاضة هذا النور على الوجود كله، لما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وشريعة وآداب.

وفي الحديث الصحيح أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ان وافقت ليلة القدر فما أقول؟ قال: قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني.

قراءات:

قرأ الكسائي وخلف: مطلع بكسر اللام. والباقون: مطلع بفتح اللام.

٩٨ البيئة

٩٨٠١ 1

أهل الكتاب: اليهود والنصارى. المشركون: عبدة الأصنام من العرب وغيرهم. منفيين: منتهين عما هم عليه، منصرفين عن غفلتهم. البيئة: الحجة الواضحة، والمراد بها هنا رسول الله ﷺ. صحفا مطهرة: القرآن الكريم. قيمة: مستقيمة. من بعد ما جاءتهم البيئة: الدليل الثابت. حنفاء: مفردة حنيف، وهو المائل عن الشرك المؤمن الخالص الايمان. البرية: الخليفة.

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ} كان العالم قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام مضطرباً وفي حالة سيئة من الفساد الذي عم أرجاءه، والظلم والاستبداد الطاغيين. وكان أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشركون الوثنيون يقولون قبل مبعث الرسول الكريم: لا تنفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل. وهو محمد ﷺ. وهذا معنى هذه الآيات الكريمة. لم يكن الذين كفروا بالله ورسوله من اليهود والنصارى ومن المشركين منتهين عما هم عليه من الكفر والجحود حتى تأتيتهم البيئة، والتي هي رسول مبعوث من عند الله يقرأ عليهم القرآن الكريم في صحف مطهرة منزّهة عن الباطل، وتحتوي كتباً تشتمل على أحكام مستقيمة ناطقة بالحق والصواب.

{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ}

لم يختلف اليهود والنصارى في شأن محمد عليه الصلاة والسلام إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، والدالة على أنه الرسول الموعود به في كتبهم. وقد خص أهل الكتاب هنا بالذكر لأنهم يعلمون صحة نبوته بما يجدون في كتبهم.

{وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} لماذا لم يؤمنوا بهذا النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة، مع أنه ما أمرهم إلا بعبادة الله وحده مخلصين له الدين حنفاء مستقيمين على الحق، وأن يحافظوا على الصلاة، ويؤدوا الزكاة. وهذه الأوامر السامية هي دين الاسلام، دين الملة المستقيمة!؟

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} إن كل من كفر من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان مصيره جهنم خالداً فيها. وأمثاله هم شر الخليقة على الإطلاق. {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} .

وأما المؤمنون الذين آمنوا وعملوا صالحاً فإنهم خير الخليقة، وثوابهم في الآخرة جنات إقامة دائمة تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً. فلقد قبل الله أعمالهم فرضي عنهم، كما شكروا إحسانه عليهم. هذا هو الجزاء الطيب لمن خاف عقاب ربه.

قراءات
قرأ نافع وابن ذكوان: البريئة بالهمزة. والباقون: البرية بدون همز.

٩٩ الزلزلة

٩٩٠.١ 1

الزلزلة: الحركة الشديدة. أثقالها: ما في جوف الأرض من الموتى، جمع ثقل، وهو الشيء الثقيل. . كأن الأرض امرأة حامل أثقلت بما في بطنها فأخرجت ما فيه. كما جاء في سورة الاعراف {حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهُ رَبَّهُمَا} [الاعراف: ١٨٩].

أوحى لها: ألهما. يصدر الناس: يخرجون من قبورهم. أشتاتا: متفرقين كل واحد مشغول بنفسه. الذرة: شيء صغير جدا لا يرى بالعين المجردة، ولا بأحدث الآلات.

إذا اهتزت الأرض واضطربت اضطراباً عظيماً حتى لم يبق فوقها أثر بارز، كما أخرجت ما في جوفها من أثقال الموتى والكنوز والدفائن، وخرج الناس مشدوهين حيارى لا يدرون أين يتوجهون. . {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى} لا يسأل أحد إلا عن نفسه. عند ذلك يتساءل الإنسان بخوف وهلع: ماذا حصل للأرض، ما لها؟

{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}

في ذلك اليوم العصيب تحكي الأرض ما جرى لها بأمر الله، فهو الذي أرادها أن تهتز وتضطرب وتدم {كل شيء، وهي منقادة لأمره. {يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرَوا أَعْمَالَهُمْ}

في ذلك اليوم الرهيب يخرج الناس من قبورهم سراعاً متفرقين لتعرض عليهم أعمالهم في صحف دقيقة، وليحاسبوا حساباً شديداً. {فَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} .

وتنشر الصحف التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة. . {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧].

وهنا يجزى أو يجازى من يعمل مثقال ذرة واحدة، خيراً أو شراً. والذرة شيء صغير جداً لا يرى بالعين المجردة ولا بأحدث الآلات. نسأل الله السلامة.

١٠٠ العاديات

١٠٠.١ 1

العاديات: الخيل التي تجري والفعل عدا يعدو عدواً جرى. . ضبحا: الضبح صوت انفاس الخيل. فالموريات قدحا: أورى النار أوقدها، فالموريات هي الخيل حين تسرع فتضرب الحجارة بحوافرها فتقدح النار منها. وقدح النار من الزند: أخرجها. المغيرات: واحدة مغيرة، والفعل أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة. فأثرن به نقعا: فهيجن الغبار، والنقع: الغبار. فوسطن به جمعا: توسطت الخيل في جمع العدو. . اخترقته. لکنود: كفور، كند النعمة كفرها. بثر ما في القبور: فتحت القبور وقلبت حتى يخرج من فيها، يقال بعثرت المتاع: إذا جعلت أسفله أعلاه.

{والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً} .

أقسم الله تعالى بالخليل المسرعة التي يُسمع لأنفاسها صوتٌ شديد، والتي توري النار من الحجارة بحوافرها، وتُغير صباحاً على العدو لتبغته وتفاجئه. وهذه عادةٌ معروفة في الغارات. وعندما تُغير الخليل مسرعةً تُثير الغبار الكثيف حتى لا تكادُ ترى. وبعد ذلك تتوسطُ جموع الأعداء فتثيرُ فيهم الفرع والرعب.

لقد أقسم الله تعالى بالخليل التي عدّد صفاتها أنفاً أن الإنسان لنعم ربه بخود.

{وأنه على ذلك لشهيد وأنه لحب الخير لشديد}

إنه لشاهد على بخوده وكفره للنعم التي لا تُحصى، كما أنه شديد الحب للمال حريص على جمعه من أي طريق. وبعد أن عدّد هذه الخصال بين ذلك الإنسان الغافل عن واقعه أنه سترك كل ما جمعه، وسيقف يوم القيامة للحساب، حيث تبرز جميع حسناته وسيئاته ولا يستطيع أن ينكر منها شيئاً.

{أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير}

أجمل كل هذا فلا يعلم إذا نُشر كلُّ من في القبور، وجمعت أعمالهم - بأن الله يعلم ما يُسرون وما يُعلنون، لا تخفى عليه منهم خافية؟ إن المرجع إلى الله. وهو خير بالأعمال والأسرار.

١٠١ القارعة

١٠١.١ 1

القارعة: القيامة. المبعوث: المنتشر، المتفرق. العهن: الصوف. المنفوش: المتطاير المنتشر. ثقلت موازينه: رحمت حسناته وكثرت. خفت موازينه: قلت حسناته وساءت أعماله. هاوية: من أسماء جهنم.

{القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة؟}

يهول الله تعالى في هذه الآيات من وصف يوم القيامة التي تفرع قلوب الناس بما فيها من أحداث وشدائد، {وما أدراك ما القارعة؟} وأي شيء أعلمك يا محمد ما شأن القارعة في هولها على النفوس! إنها أكبر من أن يُحيط بها الإدراك، أو يُلم بها التصور.

{يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش}

في ذلك اليوم العصيب ينتشر الناس كالفراش المتفرق في الفضاء، لا يلوي أحدٌ على أحد، حيارى هائمين على وجوههم لا يدرون ما يفعلون، ولا ماذا يراد بهم. وتكون الجبال كالصوف الملون المتطاير في الهواء.

ثم بعد أن ذكّر بعض أهوال ذلك اليوم بين حال الناس فيه وانقسامهم إلى سعيدٍ وشقيّ، فقال:

{فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية}

فأما الذي كثرت حسناته بسبب أعماله الصالحة فلا خوف عليه، لقد نجا، فهو في عيشة يرضاها وتطيب نفسه بها.

{وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية}

وأما من قلت حسناته وكثرت سيئاته بسبب سوء أعماله فصيروه جهنم يهوي فيها إلى أسفل الدركات.

ومعنى أمه هاوية: إن مرجعه الذي يأوي إليه مهواةٌ تحيقة في جهنم، والتعبير في غاية القسوة.

ثم جاء بعد ذلك استفهام كبير {وما أدراك ما هي}

ما أعلمك يا محمد ما هي الهاوية! يا له من استفهام! إنها {نار حامية} هي جهنم التي لا تبلغ حرارتها نارٌ مهما سُعرت وألقي فيها من

وقود. . أعاذنا الله منها. . .

١٠٢ التكاثر

١٠٢.١ 1

أَلْهَاكُمْ: شَغَلَكُمْ، واللَّهُو ما يشغل الإنسان ويضيع وقته. التكاثر: جمع الموال والتفاخر والتباهي بحطام الدنيا. تكاثر المَال: كثر، وتكاثر القوم: تفاخروا بكثرة العدد والمال. زُرْتُمُ المقابر: مِتُّمُ ودخلتم القبور لوقتٍ محدَّد كأنه زيارة. علمَ اليقين: العلم الحقيقي. عَيْنَ اليقين: اليقين هو المؤكد الذي لا شك فيه.

{أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}

أيها الناس، لقد شَغَلَكُمُ الانهماكُ في جَمْعِ الأموالِ، والتفاخرُ والتباهي بحطامِ الدنيا ومتاعها، وكثرةُ الأشياء والأولاد. . حتى نَسِيتُمْ أَنْكُمْ سَمْتُونَ وَتُدْفَنُونَ فِي الْقُبُورِ، وغفلتُمْ عن أَنْكُمْ إِنَّمَا تَمُوتُونَ فِيهَا وَقْتًا مُحَدَّدًا ثُمَّ تُخْرَجُونَ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ. ولذلك جاء التعبيرُ بقوله {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} يعني أَنْ دُخِلَكُمُ فِي الْقَبْرِ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِالزِّيَارَةِ، ثُمَّ مِنْهُ تُخْرَجُونَ.

ويفهم كثيرٌ من الناس من قوله {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} انه حَضُّ على زيارة القبور، وليس هذا هو المقصود.

وفي صحيح مسلم: قرأ النبي ﷺ: أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ، ثم قال: يقولُ ابنُ آدمَ مالي ومَالُكَ. يا ابنَ آدمَ، ليس لك من مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لبستَ فأَبْلَيْتَ، أو تصدَّقتَ فأَمْضَيْتَ، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركٌ للناس.

وبعد تنبيه الناس لأنَّ يستيقظوا ويعملوا صالحاً - جاء التوكيدُ على ان الناس سيُبعثون يوم القيامة، ويرون بأعينهم جهنم. وسوف يُسألون عن كل ما تنعموا به في الدنيا فيقول:

{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} .

لقد كرَّرَ كلمة كَلَّا ثلاثَ مرَّاتٍ، وفي هذا زجرٌ وتهديدٌ حتى يتنبه الناسُ ويستيقظوا، فتنبهوا أيها الناسُ وسارعوا إلى الخيرات، اعملوا لربكم ودينكم وأمتكم ومجتمعكم. . فسوف تَعْلَمُونَ العِلْمَ الذي لا شكَّ فيه يومَ تَرَوْنَ الْحَجِيمَ. وأكد بأنهم سيرونها عياناً ويقيناً.

أما كيف تتمَّ هذه الرؤية، وكيف يكون ذلك اليوم. . فكلُّ هذا من الغيبِ الَّذِي يَخْتَلِفُ عن واقعنا وحياتنا الدنيا.

ثم أكدَّ تعالى أنَّ الناسَ سيُسألون ويحاسبون.

{ثُمَّ لِنُسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} ثُمَّ لِنُسْأَلَنَّ يَا بَنِي آدَمَ عَنْ كُلِّ مَا أُوتِيتُمْ وما تتمتعتم به: من أين نلتُموه؟ وفيْمَ أنفقْتُموه؟ وهل أدَّيْتُمْ ما وَجَبَ عليكم؟ واللَّهُ أَعْلَمُ بِكُلِّ ذَلِكَ، لكنَّه يسألهم ليحاسبَ الناسَ، فيجزِي من شَكَرَ ويُعَذِّبُ من كَفَرَ.

قراءات:

قرأ ابن عامر والكسائي: لُتْرُونَ بضم التاء. والباقون: بفتح التاء.

١٠٣ العصر

١٠٣.١ 1

العصر: الدهر، والزمان يُنسَبُ إلى دولة أو ملك. . يقال العصر العباسي وعصر الملك فلان، والعصر الجيولوجي الخ، والوقت في آخر النهار إلى احمرار الشمس.

الخسر والخسران: الضلال، والهلاك، وذهاب ما يملكه الانسان. الحق: خلاف الباطل، والعدل، وما يجب للفرد والجماعة، وحقوق الله: ما يجب علينا نحوه.

الصبر: تحمل المكروه دون جزع، واحتمال المشقة في سبيل الله، والغير، والعمل الطيب.

{والعصر}

لقد اقسم الله تعالى بالعصر لما فيه من عجائب وعبر تدل على قدرة الله وحكمته وما فيه من سرّاء وضرّاء، وصحة وسقم، وراحة وتعب، وحزن وفزع. . الى غير ذلك. وقال بعض المفسرين: أقسم بآخر النهار، كما أقسم بالضحى. . .

{إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ} إن الانسان في ضلال وهلاك ما دام يفضل العاجلة على الاجلة، وتغلب عليه الأهواء والشهوات.

ثم بين الله تعالى بوضوح أن الانسان المعتدل الذي يقوم بما عليه من الواجبات ليس من الخاسرين، فاستثناه بقوله تعالى:

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بالصَّبْرِ}

إن الناس في ضلال وهلاك إلا الذين آمنوا بالله، وعملوا الأعمال الصالحة في سبيل الله ومجتمعهم، وصدقوا في إيمانهم، وأوصى بعضهم بعضاً بالتمسك بالحق والصبر على المشاق.

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الفضائل الأربع:

الايان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر - يعملون الخير ويدعون الى العمل به. والصبر فضيلة ليس لها مثيل. وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم أكثر من ستين مرة. {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: ٤٣].

{إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠] ، الى آيات لا حصر لها. . اللهم اجعلنا في زمرة الصابرين العاملين الذين تَوَّصُوا بالحق وتَوَّصُوا بالصبر.

الهمزة ١٠٤

١٠٤.١ 1

الويل: العذاب، وحلول الشر، لفظ يستعمل في الذم. الهمزة: الذي يغتاب الناس ويظعن في أعراضهم. الهمزة: الذي يعيب الناس وينال منهم بالإشارة والحركات. جمع مالا وعدده: الذي همه جمع المال وكنزه. لينبذ: النبذ الطرح مع الاهانة والتحقير. الحطمة: نار جهنم لأنها تحطم كل ما يلتقي فيها. مؤصدة: مطبقة عليهم، مغلقة.

{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ}

الهلاك والعذاب لمن اعتاد ان يعيب الناس بالكلام أو بالإشارة، ويحاول أن يسخر منهم ويحط من اقدارهم. فهذه الآية الكريمة ترسم صورة لثيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتغرى من الإيمان.

ولذلك نهى الإسلام عن الهمز والغمز واللمز والعيب في مواضع شتى، لأن من قواعد الإسلام تهذيب الأخلاق ورفع المستوى الخلقي في المجتمع الاسلامي.

وقد روي أن عدداً من زعماء قريش كانوا يلزون النبي الكريم وأصحابه، منهم الأخنس ابن شريق، والوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف وغيرهم، فنزلت هذه السورة الكريمة لتؤدّبهم وتهذب الأخلاق.

{الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}

ثم بين الله تعالى أن هذا اللئيم الذي جمع المال الكثير وأحصاه وعدده مرّات ومرّات شغفاً به وحباً له، ولم ينفق منه في سبيل الخير - يظن أن ما جمع قد حفظ له حياته التي هو فيها. . فهو لا يفارقها إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من الأعمال السيئة.

{ كَلَّا لِيُنَبِّذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ }

هنا يأتي التهديد الكبير لهؤلاء المجرمين بأن الله تعالى سوف يُلقيهم في جهنم. وهل تعلم يا محمد ما هي الحُطمة؟ إنها:

{ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ }

هي نار جهنم المُستعرة الملتبئة، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ الَّتِي كَانَ يَنْبَعُثُ مِنْهَا الْهَمَزُ وَاللَّهْزُ، وَتَكْمُنُ فِيهَا السُّخْرِيَّةُ وَالْكِبْرِيَاءُ وَالْغُرُورُ. .
فَتَحْرِقُهَا وَتَحْرِقُ صَاحِبَهَا.

ثم بين الله تعالى ان هذه النار مُغلقة عليهم في عَمَدٍ ممددة، مطوّلة مُحْكَمَةٌ عَلَى أَبْوَابِهَا. وهو تصويرٌ لشدة الإطباق وإحكامه، وتأكيده لليأس من الخلاص.

قراءات:

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وخلف: جَمَعَ بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ. والباقون جمع بغير تشديد. وقرأ حفص وابو عمرو وحزرة: مؤصدة بالهمزة. والباقون مؤصدة بغير همزة وقرأ حفص: فِي عَمَدٍ بَفَتْحِ الْعَيْنِ وَالْمِيمِ. والباقون فِي عَمَدٍ بضم العين والميم.

١٠٥ الفيل

١٠٥.١ 1

أصحاب الفيل: أبرهة الحبشي وجيشه الذين جاءوا لهدم الكعبة. الكيد: المكر، والخدعة. تضليل: ضلّله تضليلاً: أبطل مكره، وجعل كيده ضائعاً. وضلّ يضلّ ضلالاً وضلالة: خفي وغاب، وهلك. ومنه {وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧] في سورة الفاتحة.

أبائيل: جماعات، وهو جمع لا واحد له من لفظه. سجيل: طين متحجر.

العصف: حطام التبن، وورق الزرع. مأكول: أكلت الدواب بعضه، وتناثر بعضه الآخر.

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ }

حدث الفيل معروفٌ متواتر لدى العرب. وقد جعلوه مبدأً تاريخيٍّ يؤرخون به فيقولون: وُلِدَ عامُ الفيل. وحدث كذا عامُ الفيل. .
وكان سنةَ خمس مائة وسبعين ميلادية. وفي ذلك العام وُلِدَ النبيُّ محمد بن عبد الله ﷺ.

ألم تعلم يا محمد ماذا صنع الله العظيم بأصحاب الفيل، جيش أبرهة، الذين جاءوا لهدم الكعبة.

{ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ }

ألم يهلكهم الله ويجعل مكرهم باطلاً وسعيهم خاسراً، حيث دمرهم وأفناهم!

ثم فصل كيفية إبطال كيدهم وكيف أهلكهم فقال:

{ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ لِّجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } .

لقد سلط عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعاتٌ متتابعة، وأحاطت بهم من كل ناحية، وجعلت تقذفهم بحجارةٍ من طينٍ متحجرٍ كانت تحترقهم كالرصاص وتقتل من تصيبه حالا. وهكذا جعلهم كورق الشجر الذي عصف به الريح.

وهذه معجزةٌ عظيمة تدلّ على حرمة البيت الحرام. وقد فسّر بعض العلماء أن الطيرَ الأبائيلَ هو وباءُ الجدري والحصبة، وما اشبه ذلك. وهذا غير وارد. فلقد نزلت هذه السورة في مكة، وكان كثيرٌ من رجالات قريش ممن شهدوا الحادث لا يزالون أحياء عند نزول هذه السورة ولم يعترضوا عليها، فهي من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين يدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا حفظ الله البيت الحرام، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: ٦٧] .

١٠٦ قریش

١٠٦.١ 1

لإيلاف: إيلاف مصدر ألفه إيلافا. وألف الشيء ألفاً وإلأفاً لزمه واعتاد عليه. قریش: القبيلة التي ينتسب إليها الرسول الكريم ﷺ. رحلة الشتاء والصيف: رحلة التجارة التي كانوا يقومون بها إلى اليمن والشام. أطعمهم من جوع: وسع عليهم الرزق. آمنهم من خوف: جعلهم في أمنٍ من التعدي عليهم.

{لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}

من أجل إيلاف قریش الرحلة إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف، وبكل أمان واطمئنان سمح به فضل الله عليهم تكريماً لبيته الحرام، وكونهم جيرانه. {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} من أجل هذه النعم التي أسداها الله إليهم فأطعمهم وآمنهم - عليهم أن يعبدوه ويخلصوا له الدين. والواقع أن من أكبر النعم على الإنسان وجوده في بلده آمناً، رزقه مكفولاً ميسراً. وهكذا، والواقع أن من أكبر النعم على الإنسان وجوده في بلده آمناً، رزقه مكفولاً ميسراً. وهكذا، فإن السورة الكريمة تجمع أهم ما يطلبه الإنسان وهو الأمن والشبع والاستقرار.

وفي الحديث الشريف: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، وعنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا» رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن محصن الأنصاري أبي عمرو.

ومعنى آمناً في سربه: أamina على نفسه، مطمئن البال في حرمه وأهله. وقد كانت قریش أول أمرها متفرقة حول مكة، فوحدها قصي قبل ظهور الاسلام بنحو مائة سنة، وأسكنها مكة، ونظم شؤونها، ووضع أساس سيادتها الدينية والسياسية، وأسس دار الندوة حيث كان يجتمع أعيان قریش للتشاور في أمور السلم والحرب، وإنجاز معاملاتهم.

وتنقسم قریش على: قریش البطاح، وهي التي تسكن مكة وتضم بطون: هاشم، وأمّية، ونوفل، وزهرة، ومخزوم، وأسد، وجُمح، وسهم، وتيم، وعدي.

وقریش الظواهر: وكانوا خليطاً من العوام والأحباش والموالي، يسكنون ضواحي مكة وفي شعاب التلال المجاورة لها. وكانت قریش البطاح تؤلف ارسقراطية مكة، وتهيمن على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أواسط بلاد العرب وغربها. وكانت لهم تجارة واسعة كما تقدم. وبفضل تعظيم العرب للكعبة وحجهم إليها اكتسبت قریش فوائد اقتصادية ونفوذاً روحياً وسياسياً بين القبائل، كما اشتهر القرشيون بفصاحتهم. ولهجة قریش هي الفصحى التي سادت أكثر أنحاء شبه الجزيرة العربية في الجاهلية، وبها نزل القرآن الكريم.

قراءات:

قرأ ابن عامر لئلاف قریش بدون ياء. والباقيون: لإيلاف بالياء بعد الهمزة.

١٠٧ الماعون

١٠٧.١ 1

أرأيت: هل علمت. بالدين: الخضوع إلى الله والتصديق بالبعث والجزاء. يدعُ اليتيم: يدفعه بعنف. يحض: يبحث ويرغب. ساهون: غافلون. يرءون: يُظهرون خلاف ما يضمرون. الماعون: اسم جامع لكل ما ينتفع به من أدوات البيت، والإناء المعروف. {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ}

هل عرفتَ يا محمد ذلك الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة، ولا يؤمن بما جاء به الرسول؟
{فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ}

إن هذا الذي يكذب بالدين من أوصافه السيئة أنه بخيل شرس الأخلاق. لذلك فإنه يؤذي اليتيم، ويدفعه بجفوة وغلظة، ولا يعطيه حقه. ومن بخله الشديد أنه لا يحث على مساعدة المساكين، ولا يعطيهم من ماله شيئاً. وذلك كله لأنه لا يؤمن بأنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب حساباً عسيراً. ثم ذكر الفريق الآخر المرائي الذي يعمل من أجل أن يظهر أمام الناس وهو كاذب مخادع فقال:
{قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} .

فالهلاك هؤلاء الذين يغفلون عن الصلاة، وإذا فعلوها فإنما يؤدونها نفاقاً ورثاءً إنهم يظهرن للناس أنهم أتقياء وهم كاذبون. كذلك فإنهم:

{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}

ويمنعون عن الناس معروفهم ومعونتهم. وهؤلاء - موجودون في كل زمان وكل مكان. وتنطبق هذه الآية الكريمة على معظم العرب والمسلمين. ولا يمكن أن نهض ونصير أمة ذات كرامة وسيادة إلا إذا أصلحنا أنفسنا وأعدنا النظر في تربية النشء تربيةً صالحة، وسرنا على تعاليم ديننا الحنيف مقتدين بسيرة سيدنا محمد ﷺ وأصحابه وسلفنا الصالح، وأخذنا بالعلم الصحيح.

١٠٨ الكوثر

١٠٨.١ 1

الكوثر: الخير الكثير، ونهر في الجنة. شاتك: مبعضك. يقال: شئاً يشئاً. شئناً، وشئناً: أبغض. واسم الفاعل شائي. والمؤنث شائنة. الأبت: المنقطع عن كل خير.

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}

الخطاب للرسول الكريم جاء تسليّة عما يلاقيه من أذى وأن العاقبة له. لقد أعطيناك يا محمد الخير الكثير من النبوة والدين والحق والعدل وكل ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}

أقدم على الصلاة لربك شكراً له على ما أعطاك، وانحر الإبل لياكل منها الفقير والمسكين.

ثم بعد أن بشره بهذا الخير الكثير، وطالبه بالشكر عليه - زاد في البشري بأن كل من يبغضه ويكيد له منقطعون مبتورون. وقد كان ذلك.

{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}

إن مبعضك يا محمد هو المنقطع عن كل خير. وقد حقق الله له ذلك فانقطع ذكر كل المشركين من العرب وغيرهم، فيما بقي ذكره خالداً في العالمين.

١٠٩ الكافرون

١٠٩.١ 1

الخطاب للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام. وكان المشركون من زعماء قومه عرَضوا عليه أن يعبدوا الله سنة على أن يعبد النبي الكريم آلهتهم سنة مثلها. فنزلت هذه السورة جواباً لهم: {قُلْ} يا محمد هؤلاء المشركين الذين سألوكم أن تعبد آلهتهم على أن يعبدوا إلهك {يا أيها

الكافرون {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} من غير الله من الأوثان والأصنام. {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} وهو الله وحده. ولا أنا عبدٌ مثل عبادتكم، لأنكم مشركون.

أكد هذا كله بالتكرار حتى يقطع أطماعهم، ويبين أنه يعبدُ إلهاً واحداً، وأن دينه هو دين الحق. {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} فلکم دینکم الذي اعتقدتموه، ولي ديني الذي ارتضاه لي ربي.

قراءات: قرأ نافع وابن كثير وحفص عن عاصم: لي دين بفتح الياء. والباقون: لي دين بكسر اللام وسكون الياء.

١١٠ النصر

١١٠.١ 1

النصر: الإعانة والتأييد، نصره: أعانه وآيده. الفتح: غلبة الأعداء وفتح البلاد، والمراد به هنا فتح مكة. أفواجا: جماعات جماعات، واحده فوج. واستغفره: أسأل المغفرة لك ولأمتك. توابا: كثير القبول لتوبة عباده.

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}

إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك، وتحقق وعد الله بالنصر للمؤمنين وهزيمة المشركين، وفتح الله لكم دياركم ودخلتم مكة.

{وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}

جماعات جماعات. وقد تحقق ذلك بعد فتح مكة، فدخل الناس في الإسلام أفواجا، وعم الإسلام جزيرة العرب.

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}

فاشكر ربك، وسبح بحمده، ونزهه عن كل شريك - لما حقق لك وللمؤمنين من النصر العظيم - واطلب المغفرة لك ولأمتك من الله تعالى، فإنه يقبل التوبة، وبابه مفتوح دائما للتوابين.

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قال: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله:

سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. قال: إن ربي أخبرني أنني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيته أن أسبح وأستغفره إنه كان توابا. فقد رأيته. . . {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. . .} رواه مسلم أيضا.

وهكذا تم النصر والفتح، وأشرقت الأرض بنور ربها، وعم الإسلام جوانب الأرض.

نسأل الله تعالى أن يُلهم زعماءنا وكبراءنا التوفيق وسداد الرأي، فتجتمع كلمتهم على نصر دين الله وتوحد صفوفهم، ويجمع شملهم ليعملوا على انقاذ هذه الأمة ورد كرامتها واسترداد الأرض المقدسة بإذن الله.

١١١ المسد

١١١.١ 1

تَبَّ: خسر وهلك. تَبَّ يَتَبَّ تَبًّا وَتَبَابًا. يقال في الدعاء على الانسان: تَبَّ يَدُهُ. وَتَبَّالَهُ: هلاكاً له. يصلّي نارا: يدخلها ويحْد حرها. أبو

لهب: عبد العزى بن عبد المطلب، عم النبي الكريم. امرأته: أروى بنت حرب، أم جميل أخت أبي سفيان. حمالة الحطب: التي تسعى بالنخلة والفتنة بين الناس. الجيد: العنق. المسد: كل جبل مفتول.

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}

تَبَّ: الأولى دعاءٌ عليه بالهلاك، وتَبَّت الثانية إخباراً بأنه قد هلك. لقد خسر أبو لهب وهلك، وضلَّ عمله لعدائه للرسول الكريم، وكثرة ما سبَّ من الأذى له والمسلمين. فقد كان من أشدَّ الناس عداوةً للنبي ﷺ.

والتعبير باليد لأنها أداة العمل ومطرُ القوة. {ذلك بما قَدَمْتَ يَدَاكَ} [الحج: ١٠]. وهذا تعبيرٌ مألوفٌ عند العرب، تقول: أصابته يدُ الدهر، ويدُ الرزايا والمنايا.

{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}

إن كل ما جمع من مال، وما عنده من أولادٍ لن ينفعه بشيء، ولن يغني عنه يومَ القيامة، ولا يدفع عنه العذاب.

وكان لأبي لهب ثلاثة أولاد: عتبة، ومعتب، وعُتَيْبَة. وقد أسلم عُتَيْبَة ومعتبُ يوم الفتح، وشهدوا حيناً والطائف.

وأما عتبة فلم يُسلم. وكانت أم كلثوم بنتُ رسول الله زوجةً له، وأختها رقيةٌ عند عتية. فلما نزلت هذه السورة قال أبو لهب: رأسي ورأسا كما حرامٌ إن لم تطلقا ابنتي محمد. فطلقاهما.

وأراد عتبة أن يذهب إلى الشام مع أبيه فقال: لَا تَبْنَ مُحَمَّدًا وَأَوْذِيَنَّهُ. فقال: يا محمد، إني كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى. ثم

تفل امام الرسول الكريم وطلق ابنته أم كلثوم. فقال الرسول الكريم «اللهم سلِّطْ عليه كلباً من كلابك» فافترسه الأسدُ بالزرقاء في الأردن. ومات أبو لهب بعد وقعة بدرٍ بسبعة أيام.

{سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ}

سيعذب بنار جهنم الحامية ذات الشر واللهب، التي أعدها الله لمثلُه من الأشرار المعاندين.

{وامراته حَمَّالَةَ الْخَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}

وستعذب امرأته، أم جميل العوراء، بهذه النار أيضاً، لشدة عداوتها للرسول الكريم، ولما كانت تسعى بالنيمة والفتنة لإطفاء دعوة الرسول الكريم ﷺ.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدي: كانت تمشي بالنيمة بين الناس. والعربُ تقول: فلان يحطِبُ على فلانٍ إذا حرَّضَ عليه.

وفي الحديث الصحيح «لا يدخل الجنة نمام» وقال: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً» والنيمةُ من الكبائر.

وقيل أيضاً إن أم جميل هذه كانت تحمل حُزْمَ الشوكِ والحطب وتثرها بالليل في طريق رسول الله لإيذائه. لذلك فإن في عنقها يوم القيامة حَبلاً تُشَدُّ به إلى النار، وبئس القرار.

قراءات:

قرأ ابن كثير: أبي لهب باسكان الهاء. والباقون بفتح الهاء وقرأ عاصم: حَمَّالَة بنصب التاء. على الظم. وقرأ الباقيون: حَمَّالَة بالرفع صفة لامراته.

١١٢ الإخلاص

١١٢.١ 1

أحد: واحد. الصمد: المقصود في الحاجات. الكفء: النظير.

قل يا محمد لمن سألوكم عن صفة ربك: الله هو الواحد، لا شريك له ولا شبيهه.

{الله الصمد}

الله هو المقصود، يتوجه إليه العباد في جميع مطالبهم وحوائجهم، لا واسطةَ بينه وبين عبادِه.

{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}

لم يتَّخذ ولداً ولا زوجة، ولم يولد من أبٍ ولا أم. . فهو قديمٌ ليس بحادثٍ، ولو كان مولوداً لكان حادثاً. إنه ليس له بدايةٌ ولا نهاية. {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}

وليس له ندٌّ ولا مِثْلٌ، ولا شبيه. {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١] . فهذه السورةُ الكريمةُ إثباتٌ وتقريرٌ لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» نفْيٌ لأيِّ تشابهٍ أو التقاءٍ بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك.

وقد سئل أعرابي ماذا يحفظ من القرآن فقال: أحفظ هجاء أبي لهبٍ {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ . . .} [المسد: ١] وصِفَةُ الرَّبِّ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} .

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

١١٣ الفلق

١١٣.١ 1

أعوذ: أَلْجَأُ، وَأَعْتَصِمُ. الفَلَقُ: ضوءُ الصبحِ والخلقُ. الغاسقُ: الليل إذا اشتدَّت ظلمته. النَّفَّاثَاتُ: الساحرات، واحدها نفَّاثَةٌ، وهي التي تنفُثُ بريقها على عَقْدِ الشَّيْطَانِ لتسحره. الحاسدُ: الذي يمتنّي زوالَ النعمة عن الغير.

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}

قل يا محمد: إني أَعْتَصِمُ بِرَبِّ الصُّبْحِ الذي ينجي عن الظلام.

{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}

من شرِّ كل مؤذٍ من جميع المخلوقات، فلا يدفعُ شرَّها الا مالكُ أمرها.

{وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}

ومن شرِّ الليل إذا أظلم واشتدَّ ظلامه. وقد أمرنا الله ان نتعوذ من شرِّ الليل لأنَّه فيه تحدث معظم الجرائم، ففي ظلامه ستر لكل مجرم، وفيه تخرج السباع من آجامها، والهوام من أمكنتها.

{وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}

ومن شرِّ كل من يسعى بين الناس بالإفساد، ومنهم تلك السواحر اللاتي ينفُثن في العُقَدِ لضرر عبادِ الله، ويفرقن بين المرء وزوجه. وهناك روايات في سبب نزول هذه السورة والتي تليها تذكر ان النبي ﷺ سحره يهودي اسمه لبيد بن الأعصم. فنزلت المعوذتان وزال السحر عندما قرأهما الرسول الكريم. ومع أن بعض هذه الروايات في الصحيح ولكنها مخالفة للعقيدة، وتناقض العصمة التي أعطيت للرسول بقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧] . والواقع أنَّ هاتين السورتين مكيتان، وفي ذلك ما يؤهن صحة الروايات.

{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}

ونعوذ بالله تعالى من شرِّ الحاسد الذي يمتنّي زوالَ النعمة عن غيره، والحسدُ خلق مذموم. قال رسول الله ﷺ: الحسدُ يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

والحسد أول معصية عصي الله بها في السماء وفي الأرض، لحسد ابليس آدم، وحسد قابيل أخاه هابيل فقتله.

والحسد يضر نفسه ثلاث مضرّات:

أحداها اكتسابُ الذنوب، لأن الحسد حرام.

الثانية: سوءُ الأدب مع الله تعالى، فإن حقيقة الحسد كراهيةُ إنعام الله على عبده، واعتراضُ على الله.

الثالثة: تألم قلب الحاسد من كثرة همّه وغمّه.
كلّ العداوة قد تُرجى إزالتها... إلا عداوة من عاداك من حسد
وخلاصة معنى السورة الكريمة: إن الله تعالى طلب من الرسول الكريم أن يلجأ الى ربّه، ويعتصم به من شرّ كل مؤذٍ من مخلوقاته،
ومن شرّ الليل إذا أظلم لما يصيب النفوس فيه من الوحشة، ولما يتعذّر من دفع ضرره. ومن شرّ المفسدات الساعات في حلّ ما بين
الناس من روابط وصلات، ومن شرّ الحاسدين الذين يتمنون زوال ما أسبغ الله على عباده من النعم.
اللهم اجعلنا من المحسودين لا من الحاسدين.

١١٤ الناس

١١٤.١ 1

ربّ الناس: الله جلّ جلاله، مربّي الناس، وراعي شؤونهم. الوسواس: الوسوس الذي يلقي حديث السوء في الأنفس. الخناس: الذي
يتوارى ويختفي عندما يكون الانسان يقظاً مسلحاً بالإيمان، ويذكر الله. من الجنة: من الجنّ.
{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}
قل يا محمد، إنني أعتصم بالله، الخالق، مربّي الناس وألتجئ إليه.
{مَلِكِ النَّاسِ}
مالك الناس ومدبر أمورهم، حاكين ومحكومين، هو يحكمهم جميعاً، ويربّيهم بإفاضة ما يُصلحهم وما يدفع الضرر عنهم.
{إِلَهِ النَّاسِ}
هو معبودهم الذي لا ربّ لهم سواه، القادر على التصرف الكامل بهم.
وهذه ثلاث صفات من صفات الرب جلّ جلاله: «الربوبية» و«الملك» و«الألوهية» .
فهو ربّ كل شيء، ومليكه والهه. . لذلك فقد أمرنا أن نعوذ به هو، المتصف بهذه الصفات السامية. ثم بين صفات الوسواس بقوله:
{الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ}
الوسواس الخناس الذي يلقي في صدور الناس صنوف الوسواس والأوهام ليصرفهم عن سبيل الهدى والرشاد.
وهذا الوسواس الخناس قد يكون من الجنّ، وقد يكون من البشر. كما جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى {شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢] .
وشياطين الإنس أشدّ فتكاً وخطراً من شياطين الجن. فكثيراً ما يأتيك إنسانٌ لئيم يُسدي إليك نصائح وهو كاذب يقصد من وراءها لك
الشرّ فيدس السم في الدسم.
اللهم جنّبنا كلّ شر، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجنّ.